مجمع القرآن الكريم بالشارقة

موسوعة التفسير البلاغي

المُجَلَّدُ التَّاسِعُ والثَّلاثونَ

سورة الشُّعَراء من الآية 96 إلى سورة النَّمْلِ الآية 25

مَوْسُوعَةُ التَّفْسِيرِ البَلَاغِيِّ

حكومة الشارقة Government of Sharjah
مجمع القرآن الكريم بالشارقة
HOLY QURAN ACADEMY IN SHARJAH

مَوْسُوعَةُ التَّفْسِيرِ البَلاغِيِّ

المُجَلَّدُ التَّاسِعُ والثَّلاثونَ

سورة الشُّعَراء من الآية 96 إلى سورة النَّمْلِ الآية 25

نُخْبَةٌ مِنْ عُلَمَاءِ مَجْمَعِ القُرْآنِ الكَرِيمِ بِالشَّارِقَةِ

منشورات القاسمي
AL QASIMI PUBLICATIONS
2024

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد التاسع والثلاثون،
سورة الشُّعَراء من الآية 96 إلى سورة النَّمْلِ الآية 25
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م

الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد التاسع والثلاثون، سورة الشُّعَراء من الآية 96 إلى سورة النَّمْلِ الآية 25
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 39 ، 800 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-84-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 39 : المجلد التاسع والثلاثون، سورة الشُّعَراء من الآية 96 إلى سورة النَّمْلِ الآية 25.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-84-6
*
إذن طباعة رقم:MC-03-01-8468153 بتاريخ 2024/12/16م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الجُزْءُ التَّاسِعَ عشَرَ

سُورَةُ الشُّعَرَاءِ

﴿قَالُواْ وَهُمۡ فِيهَا يَخۡتَصِمُونَ ٩٦ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٩٧ إِذۡ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٩٨﴾ [الشعراء: 96 - 98]

خِتامُ موعظةِ إبراهيمَ عليه السلام بكلامٍ يُصوِّر هَوْلَ يوم القيامة

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ وَهُمۡ فِيهَا يَخۡتَصِمُونَ﴾ من تتمَّة حِكايةِ كلامِ إبراهيمَ عليه السلام؛ أَطنَبَ به للمَوعظة، أي: إنَّ إبراهيم عليه السلام - بعد أنْ دعا بدعواتٍ، منها: ألّا يُخزيَهُ اللّهُ يومَ يُبعثون - وصفَ يوم القيامة بثلاثة أوصاف ومنها: ﴿قَالُواْ وَهُمۡ فِيهَا يَخۡتَصِمُونَ﴾[1]؛ لتَصوير هَوْلِ ذلك اليَوم، ويجوزُ أنْ تكونَ حِكايةُ كلامِ إبراهيمَ عليه السلام انتهَتْ عِندَ قَولِه تعالى: ﴿وَجُنُودُ إِبۡلِيسَ أَجۡمَعُونَ﴾، أو عِندَ قَولِه تعالى: ﴿يَوۡمَ يُبۡعَثُونَ﴾، ويكونَ هذا الكلامُ مَوعظةً مِنَ اللّه للسّامِعينَ مِنَ المُشركينَ، وتَعليمًا منه لِلمُؤْمنينَ[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَخۡتَصِمُونَ﴾: أصلُ (خصم) يدلُّ على المُنازَعَةِ[3]، والخَصِمُ: المختصُّ بالخُصومة[4]، والذَّكَرُ والأُنثَى فيه سَواءٌ، والخِصامُ: مصدرُ خاصَمتُهُ مُخاصمةً وخِصامًا، وقد يُجمَعُ الجَمعُ على خُصوم[5]، والمُخاصَمَة: أن يتعلَّق كلُّ واحدٍ بخصم الآخر، أي: جانبه، وأنْ يجذبَ كلُّ واحدٍ خصمَ الجوالق من جانب[6]، والمرادُ بالمخاصمة في الآية: المُنازعةُ والمجادلةُ بالكلام.

2) ﴿نُسَوِّيكُم﴾: أَصلُ (سوي) يَدُلُّ على اسْتِقامَةٍ واعْتِدالٍ

(1) الزّحيلي، التّفسير المنير: 19/ 179.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 152.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خصم).
(4) الرّاغب، المفردات: (خصم).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خصم).
(6) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (خصم).

بَيْنَ شَيْئَيْنِ، يُقالُ: هذا لا يُساوي كذا، أَي: لا يُعادِلُه، وفُلانٌ وفُلانٌ على سَوِيَّةٍ مِنْ هذا الأَمرِ، أَيْ: سَواء[1]، والتَّسْويَةُ: ضِدُّ المُفاضَلَة، وتأْتي بمعنى العَدْلِ والإِنْصافِ، فيُقال: سَوَّيْتُ بين الشَّيْئَيْن؛ إذا عَدَلت بَيْنَهُما[2]، وسَواءُ الشَّيءِ: وسَطُه؛ لاسْتِواءِ المسافةِ إِلَيْه مِنَ الأَطْرافِ[3]، والمراد بالتَّسوية في الآيةِ: المُعادَلةُ والمُماثَلة، أَيْ: نَعْدِلُكُم، فنجعلُكم مِثْل ربِّ العالمينَ في العِبادة[4].

۞ المَعْنى الإِجْماليُّ:

يقول سبحانه وتعالى؛ حكايةً عن إبراهيم عليه السلام واصفًا يوم القيامة بوصفٍ ثالثٍ تصويرًا لهوله: قال أهلُ النّارِ لِمَعبوداتِهم، وهم في النّارِ يتخاصَمونَ، ويجادِلُ بعضُهم بعضًا، أي: وهم في حالِ الغيظِ الشَّديد - من المخاصمة والمحاجَّة بينهم وبين الآلهة المعبودة والشَّياطين الدّاعية لتلك العبادة - قالوا: واللّهِ إِنَّنا كُنّا في الدُّنيا في ذَهابٍ واضحٍ عن الحَقِّ، حينَ سوَّيْناكم بِرَبِّ العالَمينَ، فعَبَدْناكم، وأَطَعْناكم، كما يُعبَدُ اللّهُ، ويُطاعُ[5].

وصفٌ إبراهيميٌّ ثالثٌ ليوم القيامة يصوِّر هولَهُ وشدَّتَهُ

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

سرُّ فصل الآيةِ عَمَّا قبلَها:

فُصِل قولُ اللّه تعالى: ﴿قَالُواْ وَهُمۡ فِيهَا يَخۡتَصِمُونَ﴾ عمّا قبلُ؛ لوقوعه استئنافًا بيانيًّا؛ لما بين الجملتين من شبهِ كمالِ الاتِّصال، وقع جوابًا عن سؤالٍ نشأ من حكايةِ حالهم، كأنَّه قيل: ماذا قالوا حينَ فُعِل بهم ما فُعِلَ؟ فقيل: قال العَبَدةُ: ﴿وَهُمۡ فِيهَا يَخۡتَصِمُونَ﴾[6]،

استئنافٌ يبيِّن حالَ الغاوين ومعبوداتهم بعد كبكبتهم في النّار

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سوي).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللغة: (سوا).
(3) الجوهريّ، الصحاح: (عدل).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 154.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 599، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 116، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 150، والزّحيلي، التّفسير المنير: 19/ 179.
(6) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 58، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 252.

أو قيل: ما فائدةُ إيقاعِ الأصنامِ في النّارِ، مع أنَّها لا تَفْقَهُ، ولا تُحِسُّ؟ فبُيِّنَ له ذلك[1].

دلالةُ الإسنادِ في قوله: ﴿قَالُواْ﴾:

حـالُ أهـلِ الـغـوايـةِ يـومَ القيامةِ التَّحسُّرُ مـن كـلِّ فـردٍ منهم لِما يلاقونه من عذابٍ شديدٍ

في إسنادِ القول للجميع في قوله: ﴿قَالُواْ وَهُمۡ فِيهَا يَخۡتَصِمُونَ﴾ دلالةٌ على حصولِ القول مِن كلِّ فردٍ مِن المُحدَّثِ عنهم، بما يدلُّ على سوءِ حال الجميع بلا استثناء؛ لِما يلاقونه من عذابٍ شديدٍ لا يستثني منهم أحدًا، يدفعُ كلَّ واحدٍ منهم إلى هذا الخصام والجدال، وبذلك يكون فيه مزيدٌ من تحذيرِ المخاطَبين وتحفيزهم على المسارعة لعبادة اللّه، ونبذِ أصنامهم، عندما يعلمون بأنَّ حالهم يوم القيامة هو التَّحسُّرُ من كلِّ فردٍ منهم، بالإضافة إلى توافق ذلك مع السّياق الذي جاء بأسلوب الجماعة: ﴿تَعۡبُدُونَ﴾ و﴿يَنصُرُونَكُمۡ أَوۡ يَنتَصِرُونَ﴾ و﴿فَكُبۡكِبُواْ﴾ و﴿أَجۡمَعُونَ﴾.

معنى الواو في قوله: ﴿وَهُمۡ﴾:

حالُ غيظٍ شديدٍ مـن المخاصمة والمــحــاجَّــة بـيـن الـغـاويـن والآلهةِ المعبودةِ والشَّياطين

الواو في قوله تعالى: ﴿وَهُمۡ فِيهَا يَخۡتَصِمُونَ﴾ حاليَّةٌ[2]، والجملةُ حاليَّةٌ معترضةٌ بين القَوْل وبين مقولِه[3]، والمعنى: "قالوا معترفين بخطئهم في انهماكِهم في الضَّلالةِ متحسِّرين معيِّرين لأنفسِهم، والحال أنَّهم في الجحيم بصددِ الاختصام مع من معهم من المذكورينَ"[4]، وهي "حالُ الغيظِ الشَّديدِ من المخاصمة والمحاجَّة بينهم وبين الآلهةِ المعبودة والشَّياطين الداعية لتلك العبادة"[5].

نكتةُ التَّقديم في ﴿فِيهَا يَخۡتَصِمُونَ﴾:

اختصاصُ النّارِ مكانًا لتخاصمِ أهلها

قدَّم البيانُ القرآنيُّ الجار والمجرور ﴿فِيهَا﴾ على عامله، وهو

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 152 - 153.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 152، 153، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5374.
(3) القونوي وابن التمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 14/ 268.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 252.
(5) الزّحيلي، التّفسير المنير: 19/ 179.

﴿يَخْتَصِمُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ﴾، والتَّقديرُ: (وهم يختصمون فيها)؛ لإفادة الاختصاصِ والتَّوكيد، أي: إنَّ الخصوصيَّةَ هنا تكونُ في المكان الذي يحدثُ فيه الخصام، وفي ذلك إشارةٌ إلى سببِ الاختصام بين العبدة - المعاندين في الدُّنيا - ومعبوداتهم أو من أضلوهم، وهو دخولُهم النّار وعذابهم فيها، كما أنَّ في التَّقديم مراعاةً للفاصلة القرآنيَّةِ في الآيات، مثل: ﴿وَٱلْغَاوُۥنَ﴾ ﴿أَجْمَعُونَ﴾.

دلالةُ صيغةِ الافتعال في قوله: ﴿يَخْتَصِمُونَ﴾:

مبالغةٌ في التَّخاصم والتَّنازُعِ بين العَبَدَةِ ومَعبوداتهم وجنودِ إبليس

كلمة ﴿يَخْتَصِمُونَ﴾ مأخوذةٌ من الجذر (خصم)، وهي في صيغة الافتعال (اختصم)، وصيغةُ الافتعالِ في اللُّغة العربيَّة للدَّلالة على المبالغة، أو التَّوكيد في الحركة أو الفعل، ولذا فالتَّعبيرُ بكلمةِ ﴿يَخْتَصِمُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ﴾ يشيرُ إلى أنَّ هؤلاءِ المكبكَبين في النّار من العَبَدَةِ والمعبوداتِ والشَّياطين، لا يتنازعون، أو يتجادلون في سبب ضلالهم ودخولهم النّار فحسب، بل يتخاصمون بشدَّة أو بمراوغة.

دلالةُ صيغةِ المضارع ﴿يَخْتَصِمُونَ﴾:

تخاصمٌ وتنازعٌ مستمرٌّ يدلُّ على شدَّةِ العذابِ والنَّدم

صيغةُ المضارع ﴿يَخْتَصِمُونَ﴾ في الآية الكريمة: ﴿قَالُواْ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ﴾ تُصوِّرُ الحالةَ التي سيكون فيها العَبَدَةُ ومعبوداتهم وجنود إبليس في النّار؛ وهي حالةُ التَّنازع والتَّخاصم، وتدلُّ على أنَّها حالةٌ مستمرَّة منهم ومتكرِّرة، بما يشيرُ إلى شدَّةِ العذاب التي تدفعهم إلى الاستمرار في هذه المخاصمة.

سرُّ حذف متعلِّقِ قوله: ﴿يَخْتَصِمُونَ﴾:

حَذَفَ النَّظمُ الحكيمُ متعلِّقَ الفعل في قوله: ﴿يَخْتَصِمُونَ﴾؛ إذ ذكر أنَّهم يختصمون في النّار، ولم يذكر فيمَ تكون خصومتهم؟ إيجازًا؛

إيجازٌ يفيدُ العمومَ لكلِّ ما يمكن أنْ يكونَ من المتنازعين من الأتباع والمتبوعين

لأنَّه ذُكِرَ في آية أخرى: ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ۝٣١﴾ [سبأ: 31]، إلى آخرِ ما ذكر، وقوله: ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ۝٦١﴾ [ص: 61]، وقوله: ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا﴾ [الأعراف: 38]، وأمثاله من المجادلات التي تجري فيما بين الأتباع والمتبوعين[1]، وهذا الإيجازُ يفيدُ العمومَ لكلِّ ما يمكن أنْ يكون من المتنازعين من الأتباع والمتبوعين في جهنَّم، كما أنَّه يحفِّزُ للرُّجوع إلى الآيات الأخرى، أو أنْ تكون مخاصمتُهم ما ذُكر بعده مباشرةً من قوله: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٩٧ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[2].

الموقعُ الإعرابيُّ لقوله: ﴿تَٱللَّهِ﴾:

جملةُ ﴿تَٱللَّهِ﴾ مقولُ القول، وجملة: ﴿إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ جوابُ القسَم[3]، وهذا القسَمُ يعبِّر عن تأكيد الكفّار بأنَّهم كانوا في ضلالٍ مبينٍ عندما عبدوا غيرَ اللّهِ، وأطاعوا أمرَ الطُّغاة، ويُعبّر عن ضلالهم المبين الذي يدلُّ على حسرتهم وتوبيخهم لمعبوداتهم.

نكتةُ مجيءِ القسم بصيغة ﴿تَٱللَّهِ﴾:

تعجُّبُ الغاوين مِن عبادتهم حجارةً لا تُغني عنهم شيئًا، واستسلامُهم وذلُّهم أمام جلالِ الله

جيءَ في القَسم بالتّاءِ دونَ الواوِ والباءِ في قوله: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾؛ لأنَّ التّاءَ تَختَصُّ بالقسَم في شيءٍ مُتعجَّبٍ منه، فهم يَعجَبونَ مِن ضلالِهم؛ إذ ناطوا آمالَهم المعونةَ والنَّصرَ بحجارةٍ لا تُغني عنهم شيئًا[4]، ممّا يدلُّ على نَدَمِ أهلِ النّارِ ندمًا عظيمًا، كما أنَّ التَّعبيرَ باسم الجلالة في المقسم به يدلُّ على غايةِ استسلامهم وذلِّهم أمامَ جلالِ اللّه سبحانه وعظمتِهِ - الذي يجمعُ كلَّ صفات الكمال - وتحسُّرِهم يوم لا ينفعهم ذلك، وفي ذلك زرعٌ

(1) الشّنقيطي، أضواء البيان: 6/ 93.
(2) الماتريدي، تأويلات أهل السّنّة: 8/ 68.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 153.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 19/ 153.

للمهابةِ في قلوبِ المخاطَبين من المشركين، وحثٌّ لهم أنْ يتَّعظوا قبل فوات الأوان.

نوعُ ﴿إِن﴾ في قوله: ﴿إِن كُنَّا﴾:

خبرٌ سيقَ مساقَ التَّحسُّرِ والنَّدم وزيادةِ الألم

﴿إِن﴾ مخفَّفةٌ من (إنَّ) الثَّقيلة، قد حُذِفَ اسمُها الذي هو ضميرُ الشَّأن، وقد أُهمِلَتْ عن العمل، بسبب التَّخفيف، فإنَّه مجوزٌ للإهمال، والجملةُ بعدها، وهي ﴿كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ سادَّةٌ مسدَّ اسمها وخبرها، واقتران خبر (كان) باللام في الجملة التي بعدها؛ للفرق بين ﴿إِن﴾ المخفَّفة المؤكِّدة وبين (إنْ) النَّافية[1]، والتَّقدير: (إنَّ الشَّأنَ كُنّا في ضلالٍ واضحٍ لا خفاءَ فيه)[2]، والغرضُ من هذا الخبر المؤكَّد - بإنْ واللام المزحلقة والجملة الاسميَّة ﴿كُنَّا﴾ التي تدلُّ على الاستمرار والثُّبوت - تأكيدُ ضلالهم المبين، وزيادةُ تحسُّرهم، أي: إنَّ الخبرَ سيقَ مساقَ التَّحسُّرِ والنَّدمِ وزيادةِ الألم.

دلالةُ فعلِ الكون الماضي في قوله: ﴿كُنَّا﴾:

تأكيدُ المشركين بعظيمِ قُبْحِ ضلالهم وتمَكُّنِه منهم واستمرارهم عليه دليلُ تحسُّرٍ ونَدَمٍ

كان مِن الممكن أنْ يقالَ: (تالله إنَّنا لفي ضلالٍ مبين)، ولكنَّ القرآنَ أتى بفعل الكون الماضي ﴿كُنَّا﴾ مضافًا إلى الجمع، فقال: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾؛ للتَّأكيد على تحققُّ الضَّلال فيهم، وتمَكُّنِهم منهم وانْغِماسِهم فيه واستمرارهم عليه، وعِظم هذا الضَّلال الذي وقع من مجموعهم لا آحادهم، بما يدلُّ على اعترافهم بعظيم قبيحِ فِعلهم وشدَّةِ تحسُّرِهم وندمهم، بالإضافة إلى أنَّ "الغالِب ألّا تَخلوَ الجُملَةُ الَّتي بَعدَ ﴿إِن﴾ المُخَفَّفَةِ عَنْ فِعلٍ من بابِ (كانَ)"[3].

دلالةُ التَّعبير بـ(في) في قوله: ﴿لَفِي ضَلَٰلٍ﴾:

الظَّرفيَّةُ مبالغةٌ في بيانِ تمكُّنِ الضَّلالِ منهم وانهماكهم فيه

ظرفيَّةُ (في) هنا ﴿إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ مجازيَّةٌ، ومعناها:

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 153.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 252.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 153.

يدلُّ على الاشتمال، ويفيدُ التَّمكُّنَ وشدَّة الالتصاق، والملابسة، والإغراق، أي: أفادوا تَمكُّنَ الضَّلالِ منهم، وأنَّهم متوغِّلون منهمكون فيه، بحيث لم يكن يُرجى خلاصُهم منه؛ لأنَّ المَظروفَ شديدُ المُلابَسةِ لظَرفِه[1]، وقد أحاطَ بهم الضَّلالُ إحاطَةَ الظَّرْفِ بالمَظْروفِ، واستغرقهم، أي: احتواهم، وصاروا يسارعون في أرجائه من ضلالٍ إلى ضلال[2]، وهذا المعنى أبلغُ ممّا لو عُبِّر بقوله: (إنْ كنّا لضالّين، أو لمن الضّالّين)[3].

إيثارُ التَّعبيرِ بلفظِ: ﴿ضَلَٰلٍ﴾:

التَّعبيرُ بلفظِ الضَّلالِ في قوله تعالى: ﴿إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ دون غيره - كلفظِ (الخطأ) و(العوج) و(الزيغ) و(الميل) و(الغفلة) مثلًا - أنسبُ مع السّياق والمقام، أمّا السّياقُ؛ فقد ذُكِرَ فيه وصفُ عابدي غيرِ اللّه بالغواية، وهي من معاني الضَّلال؛ فهي ضلالٌ في غير رشدٍ، قال تعالى: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ و﴿فَكُبْكِبُواْ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ﴾، وأمّا المقامُ؛ فقد كان حالهم بعبادتهم لهذهِ الأصنامِ منحرفين عن الطَّريقِ المستقيم طريقِ الهدى والرَّشاد، طريقِ عبادةِ الواحدِ الأحد، والضَّلال من معانية العدولُ عن الطريقِ المستقيم[4]، وهو ضدُّ الهدايةِ والرَّشاد[5]، كما كان حالهم يومَ القيامة ضياعَ جهدهم في عبادة أصنام لا تضرُّ، ولا تنفع، وأصلُ الضَّلال في اللُّغة ضياعُ الشَّيء وذهابه في غير حقِّه[6].

وصفُ أنفسِهم بالضَّلالِ بيانٌ لحقيقةِ حالِهم من الانحرافِ عن الحقِّ

نكتةُ التنكير في قوله: ﴿ضَلَٰلٍ﴾:

نكَّرَ النَّظم الحكيم لفظَ ﴿ضَلَٰلٍ﴾ هنا، فلم يقل: لفي الضَّلال

في اعترافهم بِعظَمِ ضلالهم تشنيعٌ منهم على أنفسهم وتحسُّرٌ عليها

(1) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 19/ 153.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5374.
(3) القونوي وابن التمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 14/ 269.
(4) الرّاغب، المفردات: (ضلّ)، والزَّبيدي، تاج العروس: (ضلل).
(5) الخليل، العين: (رشد).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ضل).

المبين؛ للدَّلالة على تهويل الضَّلال الذي كانوا عليه، أي: اعترَفوا أنَّهم كانوا في أعظم الضَّلالِ وأبْيَنِه، فهو ضلالٌ عجيبٌ عظيمٌ لا يُقادَرُ قدرُهُ؛ إذْ جعلوا للهِ شبهًا وعِدلًا من خَلْقِه، سوَّوْهم به في العبادةِ والتَّعظيم، وفي هذا مزيدٌ من تشنيعهم على أنفسِهم وتحسُّرٌ عليها.

نكتةُ التَّعبيرِ بـ ﴿مُّبِينٍ﴾:

وصفُ الضّالّين ضلالَهم بالوضوحِ إشباعٌ في إظهارِ ندَمِهم وتَحسُّرِهم وعِظَمِ خَطَئِهم

أكَّد الضّالون عن سبيلِ الرَّشاد تَمكُّنَ الضَّلالِ منهم، بوَصفِهمُ الضَّلالَ بالـ ﴿مُّبِينٍ﴾، في قوله تعالى: ﴿إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾، وفي هذا تَسفيهٌ منهم لأنفُسِهم، واعترافهم بانطماسِ بصيرتهم، وضياعِ ألبابهم في وسطِ ذلك التّيه من الضَّلال[1]؛ إذْ تَمشَّى عليها هذا الضَّلالُ الَّذي ما كان له أنْ يَروجَ على ذي مُسْكةٍ من عقل[2]؛ لكونِه ضلالًا ظاهِرًا بَيِّنًا بواحًا لا شُبهةَ فيه، كما أنَّ وصفهم لضلالهم بالوضوحِ إشباعٌ في إظهارِ ندَمِهم وتَحسُّرِهم، وبيانِ عِظَمِ خَطَئِهم في رأيهم، مع وُضوحِ الحقِّ، كما يُنْبِئُ عنه تَصديرُ قَسَمِهم بحرفِ التّاءِ المُشعِرةِ بالتَّعجُّب[3].

وقد جاءت صيغةُ اسم الفاعل في هذا الوصف؛ للدَّلالةِ على المبالغةِ في بيانِ ثباتِ وضوحِ هذا الضَّلالِ واستمرارِ هذا الوضوح؛ لأنَّ اسمَ الفاعل يدلُّ على الثُّبوتِ والدَّوام، وخاصَّةً أنَّه جاء في سياقِ جملةٍ اسميَّةٍ تدلُّ كذلك على الثُّبوتِ والاستقرار.

سرُّ توالي المؤكِّدات في نظم الآية:

مبالغةُ المشركين في اعترافِهم بعظمِ ضلالهم وحسرتهم

توالتِ المؤكِّدات في نظم قوله تعالى: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ على لسانِ المشركين، وهم في النّارِ يتخاصَمونَ مع معبوداتِهم؛ لتفصحَ عن اعترافهم بِعظَمِ ضلالهم - الذي استغرقهم - وحسرتهم وندمهم ندمًا عظيمًا، وقد تمثَّلتْ هذه المؤكِّدات: بالقسم

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5374.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 153.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 252.

﴿تَٱللَّهِ﴾ و﴿إِن﴾ المخفَّفة مِن الثَّقيلةِ، و(اللام) في ﴿لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾، و(كان) الدّالَّة على الدَّوام والاستمرارِ، واسم الفاعل الذي وُصِفَ به ضلالهم، والذي يدلُّ على الثُّبوتِ والدَّوام.

معنى ﴿إِذۡ﴾، وموقِعُها الإعرابيُّ:

تصويرُ الكافرين لحالهم الضّالَّة الماضية يدلُّ على شـدَّة ندمهم علـى التَّسويةِ القبيحة

﴿إِذۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِذۡ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ ظرفٌ لكونهم في ضلالٍ مبين، أي: ظرفٌ متعلِّق بـ ﴿كُنَّا﴾، والمعنى: (إِنْ كُنّا في ضَلالٍ في وقْتِ إنّا نُسَوّيكم برَبِّ العالَمينَ)، ولَيْسَتْ ﴿إِذۡ﴾ بِمَوْضوعَةٍ لِلتَّعْليلِ[1]، أو ﴿إِذۡ﴾ ظرفٌ لِما دلَّ عليه الكلامُ، أي: ضللنا حين نسوّيكم بربِّ العالمين، أو هي ظرفٌ لمبين، والمعنى: (إنْ كُنّا في ضَلالٍ مبين في وقْتِ إنّا نُسَوّيكم بِرَبِّ العالَمينَ)[2]، وهذا الظَّرفُ على اختلاف ما تعلَّق به يدلُّ على الماضي، وذُكِرَ مع المضارع ﴿نُسَوِّيكُم﴾؛ لتصويرِ حالهم في الماضي[3]، بما يدلُّ على شدَّة النَّدم.

علَّةُ التَّعبيرِ في قوله: ﴿نُسَوِّيكُم﴾:

تعـبيرُهـم بلفظِ التَّسوية مبالغةٌ منهم في الاستنكارِ على أنفسهم

التَّسويةُ في قوله تعالى: ﴿إِذۡ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ المُعادلةُ والمُماثلةُ، أي: إذ نَجْعَلُكم مثل ربِّ العالمينَ، وقد عبَّر بها البيانُ القرآنيُّ؛ إمّا لأنَّ المشركين جَعَلوا الأصنام مِثْلَهُ مَعَ الاعْترافِ بالإلَهيَّةِ وفق ظاهر الكلام، وهو ظاهِرُ حالِ إشراكِهم، كما تَقَدَّمَ في قوله: ﴿فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٧٧﴾ [الشعراء: 77]، أو أنَّهم جَعَلوها مِثْلَهُ فيما تَبَيَّنَ لَهم مِن إلَهيَّتِه يَوْمَئِذٍ؛ إذْ كانوا لا يُؤْمِنونَ بالله أصْلًا في الدُّنْيا، فهي تَسْويَةٌ بالمَآلِ، وقَدْ آبوا إلى الاعْترافِ، بما تَضَمَّنَتْهُ كَلِمَةُ إبْراهيمَ لَهم في الدُّنْيا، وهي قوله: ﴿فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٧٧﴾ [الشعراء: 77][4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 153.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 252.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5374.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 154.

وعلى كلا الأمرين فإنَّ تعبيرَهُم بلفظِ التَّسوية مبالغةٌ منهم في الاستنكار على أنفسهم؛ لأنَّهم أدركوا أنَّ هذه حجارةٌ لا تُعبد، بل يُرْمَى بها، وهذا ربُّ العالمين الذي خلقَ العقلاء جميعًا، وقام على ربوبيَّتهم، فهو الحيُّ القيّومُ اللطيفُ الخبير[1].

غرضُ العدولِ في قولِهِ: ﴿نُسَوِّيكُم﴾:

استِحضارُ الصّورةِ الماضيةِ العجيبةِ من التَّسويةِ مبالغةٌ في توبيخِ أنفسِهم وأصنامهم

التَّعبيرُ بصيغة المضارع في قوله: ﴿إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ دون الماضي (سويناكم)؛ لاستحضارِ الصّورةِ الماضيةِ العجيبةِ حينَ يَتوجَّهون إلى الأصنامِ بالدُّعاءِ والنُّعوتِ الإلهيَّة[2]؛ لأنَّ من شأنِ الفعل المضارع أنْ يرسمَ المشهد دائمًا، والتَّقديرُ: (تاللّه لقد كُنّا في غايةِ الضَّلالِ الفاحش وقتَ تسويتنا إيّاكُم - أيُّها الأصنامُ - في استحقاقِ العبادة بربِّ العالمين، الذي أنتم أدنى مخلوقاته وأذلُّهم وأعجزُهم)[3]، وفي هذا مبالغةٌ في توبيخِ أنفسهم وأصنامهم.

دلالةُ تنزيلِ غير العاقل منزلةَ العاقل:

توجيهُ الغاوين الخِطابَ للأصنامِ التي لا تعقلُ مُبالَغةٌ في التَّحسُّرِ والنَّدامةِ وتوبيخِ أنفسهم

تَوجيهُ الغاوين الخِطابَ في ﴿نُسَوِّيكُم﴾ - على جهةِ الإقرارِ والاعترافِ بالحَقِّ - إلى الشَّيءِ الَّذي لا يَعقِلُ، وكان سببًا في الأمرِ الَّذي جَرَّ إليه النَّدامةَ - وهو الأصنام - بتَنزيلِه مَنزلةَ مَن يَعقِلُ، ويَسمَعُ؛ للمُبالَغةِ في تَوبيخِ أنفسهم، وهو أسلوبٌ متَّبعٌ في الكلام نثرًا ونظمًا، وعن ابن مسعود ﷺ: أنَّهُ وقَفَ عَلى الصَّفا يُلَبّي، ويخاطبُ لسانه ينزِّله منزلةَ العاقل، ويقول: "يا لِسانُ قُلْ خَيْرًا؛ تَغْنَم، واسْكُتْ عَنْ شَرٍّ؛ تَسْلَم"[4].

معنى الباء ودلالتها في ﴿بِرَبِّ﴾:

دلالةُ الإلصاق بيانٌ لبالغِ حُمقِهِم؛ إذ يسوّون الكمالَ المطلقَ بالنَّقصِ الكامل

الباءُ في قوله تعالى: ﴿بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ للإلصاقِ، أي: قاموا بمماثلةٍ في العبادة والطّاعة والحُبِّ والصَّدقات والدُّعاء ملتصقةً

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5374.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 252، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 19/ 154.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 252.

(4) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 143، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 19/ 154.

بربِّ العالمين، أي: يجعلون أصنامَهم مماثلةً للّه في كلِّ شيء، فيعبدونها، كما يعبدون ربَّ العالمين، وفي هذا مبالغةٌ في الاعتراف بحمقِهم؛ إذ يسوّون بينَ اللّه الذي له الكمالُ المطلق - وهو ربُّ العالمين - وبين مخلوقٍ تلحظُهُ عنايةُ اللّه ورعايته في كلِّ شؤونه، أي: إنْ كنّا في ضلالٍ ظاهرٍ جدًّا، حين نسوّيكم في الرُّتبةِ بربِّ العالمين الذين فطرهم، ودبَّرهم[1].

علَّةُ اصطفاءِ التَّعبير في ﴿بِرَبِّ﴾:

من ربّى العالمين تحتَ ظلالِ عطفه، وأنعمَ عليهم بجزيل بِرِّه ولطفِه؛ يستحقُّ العبادةَ وحدَهُ

آثر النَّظمُ الحكيمُ لفظَ الرُّبوبيَّة في قوله تعالى: ﴿بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ دون لفظِ الألوهيَّة؛ لأنَّ لفظَ الربوبيَّة يدلُّ على الملك والتربية والرعاية والعناية والتَّدبير والقوامة والإصلاح والعطاء والإنعام، وهذا أنسبُ في نفي التَّسوية بين القادر والعاجز، وأنسبُ للسّياق الذي تحدَّث عن النَّفع على لسانِ إبراهيمَ ﷺ في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾، وأنسبُ للمقام، وهو مقامُ التَّحسُّر منهم على كونهم عبدوا أصنامًا لا تملك لنفسِها نفعًا ولا ضرًّا فضلًا عن أنْ تملك لهم ذلك، وتركوا عبادة ربِّهم الخالقِ لكلِّ شيءٍ، ومن جملة ذلك ما يعبدون، والمدبِّرِ لأمورِهم، وهو من ربّاهم تحت ظلالِ عطفهِ، وأنعمَ عليهم بجزيلِ برِّه ولطفِه، فهو جديرٌ باختصاصِهِ بالعبادةِ، وكذلك فإنَّ لفظ (ربّ) في أصله مصدرٌ بمعنى التربية، ثم استُعمِلَ وصفًا لقصد المبالغة، والمبالغةُ منهم تدلُّ على زيادةِ حسرتهم.

دلالةُ التَّعريفِ في: ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾:

اللهُ ربُّ كلِّ شيءٍ ومليكُهُ وهذا من كمالِ غناه سبحانه وتمامِ فقرِ مخلوقاته

(أل) التَّعريف في قوله تعالى: ﴿بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ جنسيَّةٌ استغراقيَّةٌ، تفيدُ العمومَ، أي: هو ربُّ جميعِ العوالم، المنفرد بخلقها كلِّها وتدبيرها والإنعامِ عليها، كما دلَّ العمومُ على كمالِ غناه سبحانه، وتمامِ فقرِ جميع أنواعِ المخلوقات في هذه العوالم إليه.

---

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 14/ 59.

سرُّ العدولِ في ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾:

﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ جمع (عالَم)، وهو جمعٌ مُلحقٌ بجمع المذكر السّالم؛ إذ الأصل في جمع (عالَم) (عوالم)، ولكنَّ البيانَ القرآنيَّ جمعها على لفظ ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾؛ لأنَّ في جمعِ العالمين معنى الوصفيَّةِ الدّالة على العلم، ولأنَّ فيه تغليبًا للعقلاء على غيرهم[1]، وعدولًا عن جمعِ الكثرة إلى القلَّة تنبيهًا على أنَّ أصنافَ الخلائقِ، وإنْ كثُروا فهم قليلون في جانب عظمةِ اللّه وكبريائه[2].

جمعٌ يدلُّ على علمِهِ وعظمته وأحقيّته بالعبادة دون أصنامٍ عاجزة لا تعقل

نوعُ الإضافةِ وبلاغتُها في قوله: ﴿بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾:

لا يُقصد بإضافةِ ﴿بِرَبِّ﴾ إلى ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ تعريفُ المضافِ، وهو اللّه سبحانه؛ لعدم توقُّف معناه على المُضاف إليه؛ إذ لا يُطلَقُ على غيره إلّا مُقيَّدًا[3]، وإنَّما يُقصدُ به تعظيمُ اللّه سبحانه؛ لأنَّ إضافةَ الأشياءِ إلى اللّه تعالى نحو الكليّات يخرج مخرجَ تعظيم اللّه تعالى[4]، فهو ربُّ جميعِ العوالم، المنفردُ بخلقها كلِّها وتدبيرها والإنعام عليها، ويُقصد بها الدَّلالةُ على كمالِ عظمةِ اللّه سبحانه، وأنَّه جَعل ما خلقه، ودبَّر أمره، طريقًا للإيمان به.

إضافةُ تعظيمٍ للهِ سبحانه إذ جَعل ما خلَقَهُ، ودبَّرَ أمرَه طريقًا للإيمانِ به

جهةُ التَّسويةِ المحذوفةِ، وسرُّ حذفِها:

جهةُ التَّسويةِ في قوله تعالى: ﴿إِذۡ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ هي استحقاقُ العبادَة، أي: جعلوها مستحقَّةً للعبادة مثل اللّه سبحانه، وقد حذفها البيان الإلهيُّ؛ اختصارًا لكونِها مفهومةً من السّياق والمقام، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا تَعۡبُدُونَ ٧٠ قَالُواْ نَعۡبُدُ أَصۡنَامٗا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ٧١ قَالَ هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ إِذۡ تَدۡعُونَ ٧٢﴾ [الشعراء: 70 - 72].

استحقاقُ اللهِ للعبادة أمرٌ لا يخفى حتّى يُذكر

(1) البيضاوي، أنوار التَّنزيل: 1/ 28.

(2) الهرري، حدائق الرّوح والريحان: 1/ 57.

(3) القونوي وابن التمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 1/ 183 - 184.

(4) الماتريدي، تأويلات أهل السّنّة: 10/ 299.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

المخاصمة والمجادلة والمحاورة والمنازعة والاختلاف:

المُخاصَمَةُ مجادلةٌ يتعلَّق فيها كلُّ واحدٍ بخصمِ الآخر، وتتناسب مع حالِ أهل النّار

المُخاصَمَةُ في أصلها: المنازعةُ[1]، وخَصَمتُه، أي: نازعتُهُ خَصْمًا، والمُخاصَمَة: أنْ يتعلَّقَ كلُّ واحدٍ بخَصمِ الآخر، أي: جانبه، وأنْ يجذبَ كلُّ واحد خُصْمَ الجوالِق من جانب[2]، وأصلها من خَصْمِ الآخر وغيره، وهو ناحيته وجانبه، وذلك أنَّ كلًّا من المتخاصمين يأخذُ في ناحيةٍ وجانبٍ غير الذي أخذَ به صاحبُه[3]، خاصَمَهُ فخَصَمَهُ: غَلَبَهُ بالحُجَّة، والخَصْمُ يَصْلُحُ لِلْواحِدِ والجَمعِ والذَّكَرِ والأُنْثى؛ لأَنَّهُ مَصْدَرُ خَصَمتُهُ خَصْمًا[4]، وأمّا المجادلةُ؛ فأصلُها هوَ مِنْ بابِ اسْتِحْكام الشَّيْءِ في اسْتِرْسالٍ يَكونُ فيه، وامتِدادِ الخُصومَةِ ومُراجَعَةِ الكَلام[5]، والجَدَلُ: اللَّدَدُ في الخُصومةِ والقُدْرةُ عليْها، والغَرَضُ منه إلزامُ الخَصْمِ وإفهامُ مَن هوَ قاصِرٌ عَن إدْراك مُقَدِّمات البُرهان[6]، والجِدالُ: مِراءٌ يَتعلَّقُ بإظهارِ المَذاهبِ وتَقريرِها، وهوَ التَّخاصُمُ بما يَشْغَلُ عَن ظُهورِ الحَقِّ ووُضوح الصَّواب، وهوَ محمودٌ إن كانَ للوُقوفِ على الحَقِّ، وإلّا فمذمومٌ[7]، وقيل: أصلُ الجَدَل من جَدَلْتُ الحبلَ، أي: فتلته فتلًا مُحكمًا وهو الجديل، فكأنَّ كُلًّا من المتجادلين يفتلُ صاحبَه عن قولِه إلى قوله، وقيل: أصلُه من القوَّة، فكأنَّ كلًّا من المتجادلين يقوّي قوله، ويضعِّفُ قولَ صاحبِه، وقيل: أصلُهُ من المصارعة والإلقاء على الجَدالَة، وهي الأرضُ الصُّلبة، فكأنَّ كلًّا منهما يريدُ أنْ يصرعَ صاحبَه، ويجعله بمنزلة من يلقيه

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خصم).
(2) الرّاغب، المفردات: (خصم).
(3) السّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (خصم).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (خصم).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جدل).
(6) الزّبيدي، تاج العروس: (جدل).
(7) الزّبيدي، تاج العروس: (جدل).

بالجدالة[1]، وأمّا المُحاوَرَةُ؛ فأصلها من الرُّجوع، والمحاورةُ: المُجاوَبَةُ والمرادَّةُ في الكلام، يُقال: كَلَّمتُه، فما رَجَعَ إِلَيَّ حَوارًا، أَي: جَوابًا، وقد تَحاوَروا: تَراجَعوا الكلامَ بَيْنَهُم[2]، وحاوره: جاوَبَهُ، وبادله الكلامَ، وجادَله[3]، وأمّا المنازعةُ؛ فتدلُّ في أصلها على قَلْعِ شَيْءٍ، والمِنْزَعُ: الشَّديدُ النَّزْعِ[4]، والأَصْلُ في المُنازَعَةِ المُجاذَبَةُ، ثمَّ عُبِّرَ به عَن المُخاصَمَةِ[5]، فالتَّنازُعُ: التَّداولُ والجذبُ عمومًا[6]، والمنازعةُ: المجادلةُ؛ لأنَّ كُلًّا من المتجادلين ينزعُ صاحبه عن غرضه[7]، والمنازعةُ لا تكون إِلّا في ما يُنكر المَطْلوب، ولا يَقع ما يعْتَرف بِهِ الخصمان مُنازعَة[8]، وأمّا الاختلافُ؛ فهو عدمُ الاتِّفاقِ والاجتماعِ على رأيٍ أو موقفٍ أو حُكمٍ أو نحوه، كأنَّ كلًّا يذهبُ إلى ما جعله الآخر خَلْفه[9]، وكأنَّ كلَّ واحدٍ يأخذُ طريقًا غيرَ طريقِ الآخر في حاله أو قوله، والخِلافُ أعمُّ من الضِّدِّ، فكلُّ ضدَّين مختلفان، وليس كلُّ مختلفين ضدَّين، ولمّا كان الاختلافُ بين النّاس في القول قد يقتضي التَّنازُعَ؛ استعيرَ ذلك للمنازعة والمجادلة[10].

إذًا: المخاصمةُ هي مجادلةٌ يأخذُ فيها كلٌّ من المتخاصمين بخصمِ الآخر، أي: جانبه، ويأخذُ ناحيةً وجانبًا غيرَ الَّذي أخذَ به صاحبه، وهذا يتناسبُ مع أهلِ النّار حيث يتبرَّأ الذين اتُّبِعوا من الذين اتَّبعوا، ويحاول كلُّ طرفٍ منهم أنْ يضعَ اللَّومَ على الآخر.

الضَّلال والخَطأ:

الضَّلالُ: يدلُّ في أصله على ضياعِ الشَّيءِ وذهابه في غيرِ حقِّهِ وهلاكه[11]، وهو: ضدُّ الهدى؛ إذ يُقال لِكُلِّ عُدُلٍ عَن الحَقِّ، عَمدًا كانَ أَو سَهْوًا، يَسيرًا كانَ أَو كثيرًا[12]،

(1) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (جدل).
(2) السّمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيدي، تاج العروس: (حور).
(3) عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (حور).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نزع).
(5) الزّبيدي، تاج العروس: (نزع).
(6) الفراهي، مفردات القرآن، ص: 160.
(7) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (نزع).
(8) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 64.
(9) المعجم الوسيط، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (خلف).
(10) الرّاغب، المفردات: (ضلّ).
(11) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ضل).
(12) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 394، والزّبيدي، تاج العروس: (ضلل).

الضَّلالُ عدولٌ عن الحقِّ والهدى، فناسبَ استحقاقَ أهلِ النّار للعذاب

ويُستعمل بمعنى الخطأ[1]، وأمّا الخَطأُ؛ فهو ضدُّ الصّواب، وهو مالم يُتعمَّد، وأخطأ الطَّريق: عدلَ عنه، وأخطأَ: سلكَ سبيلَ الخطأ عمدًا وسهوًا، ويُقال لمَنْ أرادَ شيئًا فعلَ غيرَهُ، أو فعلَ غيرَ الصواب: أخطأ[2]، والخطأُ: وقوعُ الفعل على خلافِ مقصود الفاعل، وقد ورد في القرآن على ثلاثة أوجه: الشِّرك، والذّنب، وما لم يتعمَّد[3]، إذًا: يتميَّز الخطأ بأنَّه ضدُّ الصَّواب، وأكثره يُستعمل في ما لم يُتعمَّد[4]، بينما يتميَّز الضَّلال بأنَّه ضدُّ الهدى والرَّشاد، وهو أعمُّ من الخطأ؛ إذ أحد معاني الضَّلال هو الخطأ، كما أنَّ استعمالَ الضَّلال أكثرُه جاء في الذَّمِّ.

ومن هنا كان استعمالُ لفظِ الضَّلال أنسبَ لحالِ أهل النّار واعترافهم؛ إذ هلاكُهم واستحقاقهم النّارَ كان بسببِ عدولِهم عن الحقِّ والهدى، وليس خطأً.

التَّسوية والتَّشبيه:

التَّسويةُ تعادلٌ بين شيئين، والتَّشبيهُ اشتراكٌ أو مماثلةٌ بين شيئين ولو من وجه

أصلُ التَّسوية من (سَوي)، ويدلُّ على اسْتِقامَةٍ واعْتِدالٍ بَيْنَ شَيْئَيْنِ، يُقالُ: هَذا لا يُساوي كَذا، أَيْ: لا يُعادِلُهُ، والسّيُّ: المِثْلُ، وقَوْلُهُم: سِيّانِ، أَيْ: مِثْلانِ[5]، وساوى بينهما: سوّى، جعلهما متعادِلَيْن ومتماثلين، وساواه: عادلَهُ، وماثله قَدْرًا أو قيمةً، ويُستعملُ في مطلق التَّسوية في القَدْرِ أو الحال[6]، بينما أصلُ التَّشبيه من (شبه) يَدُلُّ على تَشابُهِ الشَّيْءِ، وتَشاكُلِهِ لَوْنًا ووَصْفًا[7]، والشِّبْهُ والشَّبَهُ والشَّبيهُ: المِثْلُ، وأَشْبَهَ الشيءُ الشَّيءَ: ماثَلَهُ[8]، والمشابهةُ حقيقتها في المماثلة

(1) الرّاغب، المفردات: (ضلّ).
(2) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيدي، تاج العروس: (خطأ).
(3) ابن الجوزي، نزهة الأعين النّواظر، ص: 271.
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (خطأ).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سوي).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقي، وعمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (سوى).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شبه).
(8) ابن منظور، لسان العرب: (شبه).

من جهةِ الكيفيَّةِ، كاللَّون والطَّعم، وكالعدالة والظُّلم[1]، والتَّشابهُ: اشتراكٌ في ظاهر الصّورة، أو الشَّبه في ظاهر أمرين لشبه كلٍّ منهما بالآخر بحيث يخفى خصوصُ كلٍّ منهما، والتَّشبيه: إقامةُ شيءٍ مقامَ شيء لصفةٍ جامعةٍ بينهما ذاتيَّة أو معنوية، فالذاتيَّةُ نحو: هذا الدِّرهم كهذا الدِّرهم، وهذا السَّواد كهذا السَّواد، والمعنويَّةُ نحو: (زيدٌ كالأسد)، أي: في شدَّته[2].

إذًا: التَّسويةُ جعْلُ الشَّيئين متعادلَيْن ومتماثلَين، وهذا يتناسبُ مع ما فعله الكافرون من جعْلِ أصنامهم ومعبوداتهم مساويةً ومعادلةً لربِّ العالمين في عبادتهم لها.

(1) الرّاغب، المفردات: (شبه).

(2) المناوي، التّوقيف على مهمات التّعريف، ص: 97.

﴿وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٩٩﴾ [الشعراء: 99]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بَيانُ العَبَدَةِ المشركين لسببِ ضَلالِهم بعْدَ اعترافِهم بصُدورِه عنهم

بعد اعترافِ العَبَدَةِ الغاوين بصدورِ الضَّلال عنهم، بل بانهماكهم في الضَّلال المبين، أعقبوا ذلك ببيانِ سببِ ضلالهم، والتَّقديرُ: (ما صدرَ عنّا ذلك الضَّلالُ الفاحش إلّا بسببِ إضلالِ المجرمين من ساداتنا وكُبرائنا لنا)(1).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَضَلَّنَآ﴾: أصلُ (ضلّ) يدلُّ على ضَياعِ الشَّيْءِ وذَهابِهِ في غَيْرِ حَقِّه(2)، يُقال: ضَّل في الأَمر ضلالًا؛ إذا لم يهتدِ لَهُ، وضلَّ في الأَرْض ضلالًا؛ إذا لم يهتدِ للسَّبيل(3)، وأَضَلَّهُ إِضلالًا: ضيَّعه وأهلكه، وأَضَلَّهُ: وجَدَهُ ضالًّا(4)، وضلَّ الكافِرُ: غابَ عَنِ الحُجَّة، وضلَّ النّاسي؛ إذا غابَ عَنهُ حِفْظُه(5)، والضَّلال ضدُّ الهُدى، والمعنى في الآيةِ: إنْ كنّا لفي خَسارٍ وتَبارٍ وحَيْرَةٍ عَنِ الحقِّ(6).

2) ﴿ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾: أَصْلُ الكَلِمَةِ مِن الجَرْم، وهو: القَطْعُ(7)، وقيل: أَصْلُه: الكَسْبُ، وفُلانٌ جَريمَةُ أَهْلِه، أي: كاسِبُهُم، ومنه سُمّيَ الذَّنْبُ جُرْمًا؛ لأَنَّه كَسْبٌ لِصاحِبِه(8)، والإِجْرامُ: ارْتِكابُ الجُرْم، وهوَ الإِثْمُ العَظيمُ(9)، يُقال: أَجْرَمَ الرَّجُلُ؛ إذا ارْتَكَبَ ذَنْبًا، أو جَنَى جِنايَةً(10)،

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 252.
(2) الأزهريّ، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (ضلّ).
(3) ابن دريد، جمهرة اللغة: (ضلل).
(4) الزّبيدي، تاج العروس: (ضلل).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللغة، وابن عباد، المحيط في اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (ضلَّ).
(6) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 116.
(7) الأزهريّ، تهذيب اللغة: (جرم).
(8) ابن عباد، المحيط في اللغة، والجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة: (جرم).
(9) ابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 30/ 210.
(10) ابن عباد، المحيط في اللغة: (جرم).

والمُجرمُ في اصطلاحِ القُرآنِ هو الكافرُ، وقد عَنَوا بالمُجرمينَ في الآية: الشَّياطينَ الَّذينَ زَيَّنوا لَهم عِبادَةَ الأَصْنام، وأَسْلافَهم الأوَّلينَ الَّذينَ قلَّدوهم، واقتدوا بهم[1]، أي: كلُّ من دعاهم إلى عبادةِ الأصنام من الجنِّ والإنس[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

إلقاءُ الغاوينَ التَّبِعَةَ على المجرمينَ الَّذين أضلّوهُم، وصدُّوهم عن الهدى

يتابعُ اللّهُ سبحانه حكايةَ قولِ الغاوين المتندِّمين، فيقول: يقولون: وما صرَفَنا وأغْوانا عن الحَقِّ إلّا الضالّونَ من شياطين الجنِّ والإنس الَّذين زيَّنوا لنا عبادةَ الأصنام، فأنتَ تراهم في هذا الاعتراف ينفون عن الأصنام إضلالهم، ويحيلونه على المجرمين من الشَّياطين، وذلك بعد أنِ اتَّضح لهم الحال، فإنَّ الأصنام لا تباشرُ إضلال عابديها[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواو في قوله: ﴿وَمَآ أَضَلَّنَآ﴾:

جمعُ المشركين الغاوين بين اعترافهم بالضَّلالِ المبين وبيانِ سببه

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ عاطفةٌ، والمعطوفُ عليه جملة القَسَم ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[4]، عطفوا يَرُدّون الملامةَ على غيرهم، أي: ما أضلَّنا إلّا كُبَراؤُنا وأهلُ الجرمِ والجراءة[5]، أي: جمعَ العطف بين اعترافهم بالضَّلال المبين وبين بيانِ سببه، وهو إغواءُ أئمَّة الكفر الذين ابتدعوا لهم الشِّرك، واختلقوا لهم دينًا باطلًا[6]، أو بينَ اعترافهم بالضَّلال وإقرارهم بمن كانوا خاضعين لهم، وهم أئمَّة الكفر[7]، أو حاليَّة[8]، والمعنى: (تاللّهِ إنْ كنا لفي ضلالٍ مبين، والحالُ أنَّه ما أضلَّنا إلّا المجرمون).

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 116، وأبو حيان، البحر المحيط: 8/ 170.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 519.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 599، ومجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 7/ 1596.
(4) الهرري، حدائق الرّوح والريحان: 20/ 270.
(5) الثّعالبي، الجواهر الحسان في تفسير القرآن: 4/ 231.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 154.
(7) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5374.
(8) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 96.

بلاغةُ القصرِ ونوعُه في الآية:

القصْرُ في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ هو قصرٌ بالنَّفي والاستثناء، وليس المقصودُ منه قصرُ الإضلالِ على المجرمين دون عداهم، بل على مَعنى قصرِ ضلالِهم على كونِه بسببِ إضلالهم من غير أنْ يستقلّوا في تحقُّقه، أو يكون بسبب إضلالِ الآخر، كأنَّه قيل: وما صدرَ عنّا ذلك الضَّلالُ الفاحش إلّا بسببِ إضلالِهم[1].

بيانُ الغاوين بأنَّ ضلالَهم الفاحشَ ليس إلّا بسببِ إضلالِ المجرمين لهم

نكتةُ تكرارِ معنى الضَّلالِ في الآية:

في تكرار لفظِ الضَّلال في قول الغاوين، في قوله تعالى: ﴿إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾، و﴿وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ تأكيدُ اعترافِهم بنسبةِ الضَّلال لأنفسِهم وانهماكهم فيه، بما يدلُّ على زيادةِ توبيخِهم لأنفسِهم وحسرتهم وتأسُّفهم وتوجُّعهم بعد فواتِ الأوان.

في تأكيدِ الغاوين انهماكَهم في الضَّلال زيادةُ توبيخِهم لأنفسِهم وحسرتهم عليها

دلالةُ التَّعبيرِ بقوله: ﴿ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾:

التَّعبيرُ بالإجرام في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾، في وصفِ رؤسائهم وكبرائهم وآبائهم من أئمَّةِ الكُفر دون غيره من الأوصاف؛ لكونه الأنسبَ مع الأصلِ اللُّغوي للفظ الإجرام، فهو من الجَرْم، وهو: القَطْعُ[2]، فهؤلاء قد قطعوهم عن عبادةِ اللّهِ الأحد، وابتَدَعوا لهم الشِّركَ، واختلقوا لهم دينًا، ولكون لفظ المُجرم في اصطلاحِ القُرآنِ هو الكافرُ، وفيه أَوْفَرُ نَصيبٍ مِنَ التَّعريضِ بالَّذينَ: ﴿قَالُواْ بَلۡ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ٧٤﴾ [الشعراء: 74][3]، كما أنَّ فيه كذلك إشارةً إلى أنَّ الدَّعوةَ إلى عبادةِ غيرِ اللّهِ من أعظمِ الآثام؛ إذ الجرمُ لا يُطلق إلّا على الذَّنبِ الغليظ، والإثْمِ العَظيم[4].

الدَّعوةُ إلى عبادةِ غيرِ اللهِ من أعظمِ الآثام

وقد آثر النَّصُّ القرآنيُّ التَّعبيرَ بصيغةِ اسم الفاعل دون الفعل،

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 252.
(2) الأزهريّ، تهذيب اللغة: (جرم).
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 252.
(4) الكفوي، الكليّات، ص: 41، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 210.

فلم يقلْ: الذين أجرموا؛ زيادةً في إيضاحِ المعنى، وهو ثباتُهم ودوامُهم على وصفِ الإجرام، فهم العريقون في صفةِ الإجرام، الثّابتة فيهم، وقد قُضي عليهم بسبب إجرامِهم دخولُ النّار، قال تعالى: ﴿وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٥٩﴾ [يس: 59]؛ وذلك لأنَّ اسم الفاعل من المشتقّات التي توضِّحُ المعنى، وتحدِّدُ الدَّلالةَ عليه بشكلٍ أدقَّ، وتدلُّ على ثباتٍ في الإجرام غيرِ محددٍ بزمن، وهي في قوَّة الفعل المضارع الذي يفيدُ التجدُّدَ والاستمرار.

العريقون في صفةِ الإجرامِ الثّابتون والمداومون عليها سببُ كلِّ إضلال

دلالةُ التَّعريفِ في: ﴿ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾:

التَّعريفُ في ﴿ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾، في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ مستعملًا في كمالِ الإجرام، فإنَّ من معاني اللام أنْ تدلَّ على معنى الكمال[1]، أي: "العريقون في صفةِ الإجرام، المقتضي لقطعِ كلِّ ما ينبغي أنْ يوصل"[2].

تعريفُ الغاوين المضلّين لهم بكمالِ الإجرام مبالغةٌ في سببِ غوايتهم

نكتةُ صيغةِ الجمع: ﴿ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾:

في التَّعبير بصيغة الجمعِ في ﴿ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ دلالةٌ على كثرةِ هؤلاء المجرمين الذي أضلّوا الغاوين، فهم أئمَّةُ الكفر الذين ابتدعوا لهم الشِّرك، واختلقوا لهم دينًا، أو الشَّياطين الذين زيَّنوا لهم عبادةَ الأصنام، وإبليس وابن آدم القاتل هما أوَّلُ مَن سنَّ الكفرَ والقتل وأنواع المعاصي[3]، كما أنَّ في التَّعبير بالجمع مراعاةً للفاصلةِ القرآنيَّة في الآيات، مثل: ﴿وَٱلۡغَاوُۥنَ﴾، ﴿أَجۡمَعُونَ﴾، ﴿يَخۡتَصِمُونَ﴾.

محاولةُ الغاوين تسويغَ إضلالهِم بكثرة المجرمين المضلّين لهم في الأرض وتنوُّعهم

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّة:

الجُرم والذَّنْب والإثم:

الجُرْمُ في أصل مادَّته هو القَطْعُ، جَرَمَ النَّخْلَ جَرْمًا: خَرَصَه،

الجرمُ هو الذَّنْبُ العظيمُ الذي يتناسبُ مع جنايةِ الكافرين العظيمة وهي الشِّرك

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 154.
(2) البقاعيُّ، نظم الدّرر: 14/ 59.
(3) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 116.

وجَزَّهُ، وجَرَمَ عليْهِم، وإلَيْهِم جَريمَةً: جَنَى جِنايَةً، ومِمّا يُرَدُّ إلَيْهِ قَوْلُهُم: جَرَمَ، أَيْ: كَسَبَ؛ لِأَنَّ الَّذي يَحوزُهُ، فكَأَنَّهُ اقْتَطَعَهُ، والجُرْمُ: الذَّنْبُ؛ لِأَنَّهُ كَسْبٌ، والكَسْبُ اقتِطاعٌ[1]، فالجُرمُ هو ما ينقطعُ بهِ عن الواجب[2]، ولا يُطلقُ إلّا على الذَّنْبِ الغليظِ، والإثْمِ العَظيم، فالمجرمون: هم الكافِرونَ[3]، وأمّا الذَّنْبُ؛ فهو اسْمٌ لفعلٍ محرَّم يَقعُ المَرْءُ عليْهِ عَن قصدِ فعل الحَرام[4]، وهو كلُّ معصيةٍ، صغيرةً كانت أو كبيرةً، وأصله: الأخذُ بذَنَبِ الشَّيء، وذَنَبُ الدّابة وغيرها معروف، ويُعبَّر به عن المتأخِّرِ والرَّذل، ثم استُعمل في كلِّ فعلٍ تستوخمُ عقباه، ولهذا يسمّى الذَّنْبُ تبعةً؛ اعتبارًا بما يحصلُ من عاقبته[5]، وأمّا الإثمُ؛ فأصله هو البُطْءُ والتَّأَخُّرُ، يُقالُ: ناقَةٌ آثِمَةٌ، أَيْ: مُتَأَخِّرَةٌ، والإِثْمُ مُشْتَقٌّ مِنْ ذَلِكَ؛ لِأَنَّ ذا الإِثْمِ بَطيءٌ عَنِ الخَيْرِ مُتَأَخِّرٌ عَنْهُ[6]، والإثمُ: التَّقصيرُ، وسُمّيَتِ الخمرُ إثْمًا؛ لِأَنَّها تقصرُ بشاربها لذهابها بعقله، والإثمُ لا يكون إلّا تعمُّدًا[7]، فالإثمُ معصيةٌ وخطيئةٌ تستحقُّ على صاحبها الذمَّ، والإثمُ ما يحملُ على قلقِ النَّفس[8]، والإِثْمُ: الذَّنبُ الَّذي يسْتَحقُّ العقوبَةَ عليْهِ، ولا يَصحُّ أَن يوصف بِهِ إِلّا المحرَّم، سَواء أُريد بِهِ العقاب أم ما يسْتَحق بِهِ من الذُّنوب[9].

إذًا: فالجرمُ هو الجنايةُ والذَّنبُ العظيم، ولهذا ناسب أنْ يوصف به الكافرون من الشَّياطين أو الأوَّلون الذين عبدوا الأصنام؛ لعظيمِ ذنبهم، وهو الشِّركُ بالله.

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والزَّبيدي، تاج العروس: (جرم).
(2) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 244.
(3) الكفويّ، الكليّات، ص: 41، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 210.
(4) الكفويّ، الكليّات، ص: 40.
(5) الرّاغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (ذنب).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أثم).
(7) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 233.
(8) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيدي، تاج العروس، وعمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (إثم).
(9) الكفويّ، الكليّات، ص: 40.

﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ١٠٠ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٖ ١٠١﴾ [الشعراء: 100 - 101]

۞ مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

بعد اعتراف العَبَدِة بالضَّلالِ وبيانِهم سببَهُ أعقبوا بالتَّحسُّر على انتفاءِ الشَّفيع والصَّديق

بعد أنْ ذكرَ العَبدةُ الغاوون قولَهم الذي اعترفوا فيه بانهماكهم في الضَّلال المبين، وذكروا إضلالَ المجرمين لهم؛ أتبعوا القولَ بتحسُّرهم وتأسُّفهم وتوجُّعهم على انتفاءِ الشُّفعاءِ والأصدقاء لهم من الملائكةِ والأنبياء عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ، كما للمؤمنين، أو بتحسُّرهم على وقوعهم في المهلكةِ التي لا يخلِّصهم منها شافعٌ ولا صديقٌ، أو على عداوةِ من كانوا يعدّونَهم شفعاءَ وأصدقاءَ.

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿شَٰفِعِينَ﴾: (شفع) أَصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ على مُقارَنَةِ الشَّيْئَيْنِ، وهو من الشَّفْعِ[1]، وهو: ضَمُّ الشَّيءِ إلى مِثْلِه[2]، ومنه الشّافعُ: الطّالبُ لغيره، وتقول: استشفعتُ بفلانٍ، فتشفَّع لي إليه، فشَفَّعَهُ فيَّ، والاسم: الشَّفاعةُ، والشّافع أيضًا: المُعين، يُقالُ: فلانٌ يشفع لي بالعداوة، أي: يُعينُ عليَّ، ويضادُّني[3]، وتأتي الشَّفاعة بمعنى الزِّيادَةِ، يُقال: شَفَعَ شَفاعةً حَسَنَةً، أي: زادَ إلى عَمَلِه عَمَلًا[4]، والمقْصود بالشافعِ في الآية: الَّذي يَكونُ واسِطةَ جَلْبِ نَفْعٍ لغَيرِه أو دَفْعِ ضُرٍّ عنه[5].

2) ﴿صَدِيقٍ﴾: (صدق) أَصْلُ الكَلِمَةِ يَدُلُّ على قوَّةٍ في الشَّيْءِ قَوْلًا وغَيْرَهُ، ومنه: الصِّدْقُ، سُمّيَ به؛ لِقوَّته في نَفْسِه، وضِدُّه: التَّكْذيبُ[6]، والصَّدقُ: الكاملُ من كلِّ شيءٍ، والصِّدّيق من يُصَدِّقُ بكلِّ أمرِ اللّهِ

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شفع).
(2) الرّاغب، المفردات: (شفع).
(3) الخليل، العين: (شفع).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللغة: (شفع).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 155.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صدق).

تعالى والنبيِّ ﷺ، لا يتخالجه شكٌّ في شيءٍ[1]، والصَّديْقُ: الخَليلُ، ومَصْدَرُهُ الصَّداقَةُ، وسُمّيَ بذلك؛ لأنَّهُ يَصْدُقُهُ النَّصيحةَ والوُدَّ، ويوضَعُ الصَّديقُ مَوْضِعَ الأصدقاء[2]، والمرادُ بالصَّديقِ في الآيةِ: فعيلٌ بِمَعْنَى فاعِلٍ، وهو الصّادِقُ في المَوَدَّة[3].

3) ﴿حَمِيمٍ﴾: أصلُ (حمم) يدلُّ على الدُّنوِّ والحُضورِ[4]، والحَميمُ: القَرابةُ، يُقالُ: مُحِمٌّ مُقْرِبٌ، والحامَّةُ خاصَّةُ الرَّجل من أَهلهِ ووَلَدِهِ وذي قَرابَتِه، يُقالُ: هَؤُلاءِ حامَّتُهُ، أَي: أَقرِباؤُهُ[5]، وحَميمُك: قَريبُك الَّذي تهتَمُّ لأَمرِه، وهو الَّذي يَوَدُّكَ، وتَوَدُّه، وهوَ القَريبُ المُشْفِقُ الَّذي يحتَدُّ حِمايةً لِذَويه[6]، والحَميمُ في الآية: هو القريبُ الذي تَوَدُّه، ويودُّك، والمعنى: (ما لنا من ذي قرابة يُهِمُّهُ أمرنا)[7].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

إظهارُ الكافرين اللَّهفةَ والحسرةَ على فقْدِ الشَّفيعِ والصَّديقِ النّافعِ

أكَّدَ الكافرون من قومِ إبراهيمَ عليه السلام ندمَهم على ما فرَّطوا، وحسرتهم على ما صنعوا، فقالوا: فليسَ لنا اليومَ شفيعٌ يشفعُ لنا ممّا نحن فيه من ضيقٍ، أو ينقذُنا من هَلَكَةٍ، ولا صديقٌ مُشفِقٌ صادِقٌ في وُدِّه[8].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الفاءِ ودلالتُها في: ﴿فَمَا لَنَا﴾:

إضلالُ المجرمينَ لـلـعَـبَـدةِ حرمهم حرمانًا مؤكَّدًا شفاعة الشّافعين والصَّديق الحميم

جاءتِ الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ﴾ عاطفةً، تفيدُ التَّرتيبَ، فقد رتَّبوا بالفاءِ انتفاءَ الشّافعين على جملة: ﴿وَمَآ أَضَلَّنَآ

(1) الخليل، العين: (صدق).
(2) ابن عباد، المحيط في اللغة: (صدق).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 302.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حم).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (حمم).
(6) الخليل، العين، والجوهريّ، الصحاح، والزَّبيدي، تاج العروس: (حمم).
(7) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 3/ 343.
(8) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 116، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 150، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 19/ 79.

﴿إِلَّا ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ حيث أطمعوهم بشفاعةِ الأصنام لهم عند اللهِ، مثل المشركين من العرب الذي دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [يونس: 18]، فتبيَّن لهم أنَّه لا شفاعة لها، وهذا الخبرُ مستعملٌ في التَّحسُّر والتَّوجُّع، كما أنَّها تفيدُ السَّببيَّة، أي: إنَّ إضلالَ المجرمين العريقين في صفةِ الإجرام لهم تسبَّبَ عنه أنَّه ما لهم اليوم من شافعين يكونون سببًا لإدخالهم الجنَّة؛ لأنَّهم صرفوا ما كان يجب عليهم لذي الأمرِ إلى مَن لا أمرَ له[1].

ويحتملُ أنْ تكون الفاءُ للتَّوكيد[2]، أي: لتوكيدِ نفي وجودِ شافعين وأصدقاء ينفعونهم، ويرى أبو زهرة أنَّها فصيحةٌ؛ لأنَّها تفصحُ عن شرطٍ مقدَّرٍ، وتقدير القول: إذا كان الذين صاحبونا، وشجَّعونا مجرمين؛ فما لنا من شفيعٍ يشفع لنا، ويضمُّ صوته إلى صوتنا، ولا صديقٍ حميمٍ يتألَّم معنا، ويرفعُ عنا مقتَ ربِّنا، أو يشاركنا، فينقصُ منا ما يصيبنا من مقتٍ وسوءِ عاقبةٍ[3].

معنى (ما)، وعلَّة التعبير بها:

نَفيهم المؤكَّدُ للشّافعين دليلٌ على بلوغهم الغايةَ في اليأس والتَّحسُّر والتَّندُّم

(ما) في قوله تعالى: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ﴾ نافيةٌ، نفتْ وجودَ شافعين للمشركين، كما للمؤمنينَ شافعين من الملائكةِ والأنبياء، أي: إنَّ الآيةَ تُثبتُ بمفهوم المخالفة أنَّ المؤمنينَ لهم شفاعةٌ، كأنَّهم لمّا رأَوا أنَّ المؤمنينَ يَشفعونَ بعضهم لبعضٍ، قالوا: نحنُ ما لنا مِن شافِعين، ولا صديقٍ حَميم[4]، أو نفتْ شفاعةَ الأصنامِ الذين كانوا يعدّونهم شفعاءَ، بكون عدمِ شفاعةِ هذه الأصنام كنايةً عن عداوتِها، أو نفتْ شفاعةَ أيِّ شافعٍ يخلِّصهم من المهلكةِ التي وقعوا

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 59.
(2) الهلال، تفسير القرآن الثري: 19/ 157.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5374.
(4) ابن عثيمين، تفسير سورة الشّعراء، ص: 173.

فيها، بكون المراد من عدمها عدمُ أثرها[1]، وقد آثرَ البيانُ القرآنيُّ استعمال (ما) دون غيرها من أدوات النَّفي، مثل (ليس) أو (لم) أو (لا)؛ لقوَّةِ النَّفي بها؛ إذ إنَّها آكدُ في النَّفي، فهي تقعُ جوابًا للقسم، وكثيرًا منفيُّها ما يقترن بـ (من) الاستغراقيَّة المؤكِّدة كما هو في هذه الآية، بخلاف (لم) و(ليس) و(لا)، ومن ثَمَّ استعمالُهم لهذه الأداة يدلُّ على بلوغهم الغايةَ في اليأس من شفاعةِ أيِّ شفيعٍ، وبلوغِ الغايةِ في التَّحسُّر والنَّدم.

نكتةُ التَّقديمِ في قوله: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ﴾:

انتفاءُ الشّافعين والصديقِ الحميمِ مختصٌّ ومنحصرٌ بالمشركين يوم القيامة

قدَّم البيانُ القرآنيُّ الخبر ﴿لَنَا﴾، في قوله تعالى: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ١٠٠ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾؛ لإفادةِ الحصر والاختصاص، أي: انتفاءُ الشّافعين والصديقِ الحميم مختصٌّ ومنحصرٌ يومَ القيامة بالمشركين، وفي هذا دليلٌ على أنَّ اللّهَ ﷻ يُشَفِّعُ غيرَ رسولِ اللّه ﷺ، قَومًا مِن المؤمنين بعضَهم في بعضٍ، وأنَّ الصَّديقَ يَشفَعُ لصديقِه[2].

معنى ﴿مِن﴾، وسرُّ ذكرها:

زيادةُ المشركين في تعميمِ انتفاءِ الشُّفعاء وتأكيده دلالةٌ على شدَّةِ تحسُّرِهم وتأسُّفهم

تحتمل ﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ﴾ أنْ تكون بيانيَّةً؛ لبيانِ جنسِ مَن ينفي المشركون إمكانيَّةَ الاستفادة منهم في دفعِ العذاب عنهم يوم القيامة، وهم الشُّفعاء، والمعنى: (فما لنا مِن شُفَعاءَ يَشفَعونَ لنا عندَ اللّهِ؛ ليَعفوَ عنّا، ويُخرِجَنا مِنَ النّار)، ويحتمل أنْ تكون ﴿مِن﴾ للتَّوكيد، أي: لتأكيدهم نفي وجودِ أيِّ شافعين يشفعون لهم[3]، قال البقاعيُّ: "وزادوا في تعميم النَّفي بزيادة الجارّ"[4]، أي: "فليس لنا شافعٌ، فيشفع لنا عند اللّه"[5]،

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 253.

(2) القونوي وابن التمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 14/ 270، والقصاب، النّكت الدالة على البيان: 3/ 530.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 155.

(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 59.

(5) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 368.

والزيادةُ في تعميم النَّفي وتأكيده تدلُّ على شدَّة التَّحسُّر والتَّأسُّف الذي هم فيه.

علَّةُ التَّعبيرِ في قولِه: ﴿شَٰفِعِينَ﴾:

انتفاعُ المؤمنين بالشَّفاعة لإيمانِهم جَعل المشركين آيسين من الشَّفاعة لإشراكهم

عبَّرَ البيانُ القرآنيُّ بوصف الشَّفاعة في قوله تعالى حكاية عن حالِ المشركين: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ﴾؛ مناسبةً للمقام؛ إذ إنَّ المشركين لَمّا رأوا المؤمنين، ينتفعونَ بالشَّفاعة المتوقِّفة على إذنِ اللّه من الأنبياء والملائكة والأصدقاء، وأيقنوا بحرمانهم من الشَّفاعة والخلَّة؛ لإشراكهم باللّهِ سبحانه، قالوا: "فما لنا من شافعين كما للمؤمنين من الملائكةِ والأنبياءِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ"[1]؛ زيادةً في تأسُّفهم وحسرتهم وتوجُّعهم من حرمانهم، ممّا كان عندهم مِنْ أملٍ بعد أنْ كُبكبوا في النّار، ولم ينفعهم مالٌ أو جاهٌ أو أتباعٌ أو غيرُ ذلك.

سرُّ اصطفاءِ صيغةِ الجمعِ ﴿شَٰفِعِينَ﴾:

لا أحدَ يشفعُ للكافرين رغمَ كثرةِ الشّافعين

آثرَ النَّظمُ الحكيمُ صيغةَ الجَمع في قوله: ﴿شَٰفِعِينَ﴾، ولم يقل: (فما لنا من شافع)؛ للإشارة إلى زيادةِ تحسُّرهم، بانتفاء العدد الكبيرِ من الذين كانوا يظنّونهم شفعاءَ من الأصنام، التي كانوا يعبدونها؛ لتقرِّبهم إلى اللّه زلفًى، ولتشفعَ لهم، وغير ذلك من الشُّفعاء ممَّن كانوا يُضلّونهم، أو أيُّ شافعٍ من شأنه أنْ يشفعَ، أي: الجمعُ يدلُّ على كثرة الشّافعين، ولكن لا يوجد من يشفع لهم برغم كثرةِ الشُّفعاء.

دلالةُ تنكيرِ قولِه: ﴿شَٰفِعِينَ﴾:

لا شفاعة للكافرين من أيِّ أحدٍ في اليوم المهول

تنكيرُ لفْظِ ﴿شَٰفِعِينَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ﴾؛ يفيدُ عمومَ نَفْي جِنْسِ الشّافع؛ لوقوعهِ نَكِرةً في سياقِ النَّفيِ[2]، فلا أحدَ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 253.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 155.

يشفعُ للكافرين والمشركين في ذلك اليوم، كما يدلُّ التَّنكيرُ على كثرةِ الشّافعين، ولكن رغمَ كثرتهم، فإنَّ نفعهم منفيٌّ، وهذا يشيرُ إلى أنَّ "الأمرَ قد بلغَ من الهولِ ما لا يستطيعُ أحدٌ أنْ ينفعَ فيه أدنى نفعٍ"(1).

معنى الواوِ في قوله: ﴿وَلَا صَدِيقٍ﴾:

في العطفِ تَتْميمٌ أفادَ المبالغةَ في نفي أيِّ شفاعةٍ للمشركين يومَ القيامة

الواو في قوله تعالى: ﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ عاطفةٌ، عطفتْ هذه الآيةَ على قوله تعالى: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ﴾، وقد جاء هذا العطفُ تَتْميمًا(2) أثاره ما يلقونه من سوءِ المعاملة من كلِّ مَن يَمُرّونَ به، أوْ يتّصلونَ، ومن الحرمان الذي يعاملهم كُلُّ من يسألونه الرِّفقَ بِهِم، حتّى علموا أنَّ جميعَ الخلقِ يتبَرَّأ منهم، كما قال تعالى: ﴿وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ١٦٦﴾ [البقرة: 166]، فإنَّ الصَّديقَ هو الَّذي يواسيكَ، أوْ يُسَلّيكَ، أو يَتَوَجَّعُ من أجلك، ويَوْمَئِذٍ حَقَّتْ كَلِمَةُ اللّه ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذِۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ٦٧﴾ [الزخرف: 67](3)، وقد أفادَ هذا التَّتميمُ المبالغةَ في نفي أيِّ نفعٍ يرجونه يوم القيامة، بما يزيدُ تحسُّرهم.

نكتةُ تكرارِ معنى النَّفي في (لا):

تأكيدُ المشركين لانتفاءِ وجودِ الصَّديقِ الحميمِ الذي ينفعُهم، زيادةٌ في التَّحسُّر

كرَّرَ البيانُ القرآنيُّ معنى النَّفي بـ (لا) مع العطف، في قوله تعالى: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ١٠٠ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾؛ ولم يقلْ: (فما لنا من شافعين وصديقٍ حميم)؛ لإفادةِ توكيدِ نفي وجودِ الصَّديق الحميم الذي ينفعهم، أي: هو حُكْمٌ قاطعٌ لا استئنافَ له فيما بَعْد، وفي هذا التَّأكيد مزيدٌ من التَّحسُّر.

علَّةُ ذكرِ قولِه: ﴿صَدِيقٍ﴾:

لا نفعَ يومَ القيامةِ لصحبةٍ لا تقومُ على صدقِ الإيمان

عبَّرَ البيانُ القرآنيُّ بلفظ صديق، في قوله تعالى: ﴿وَلَا صَدِيقٍ

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 19/ 79.

(2) التتميم: "أن يؤتى في كلام لا يوهم خلاف المقصود بفضلة تفيدُ نكتةً، كالمبالغة"، القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة: 3/ 212.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 155.

﴿حَمِيمٖ﴾ دون غيره من الألفاظ المتقاربة كالصّاحب؛ لكون لفظِ الصَّديق في معناه اللُّغوي أنسبَ لحالهم في الدُّنيا؛ إذ الصَّديقُ من الصداقة، وهي مُشْتَقَّةٌ مِنَ الصِّدْقِ في المَوَدَّةِ[1]، فالصداقةُ: المُخَالَّةُ من تماسُكِ القُلوب مَعَ المؤازرة بصلابة، كما في أصل الصِّدق في معناه اللغوي؛ إذ هو صلابةٌ أو قوَّةٌ في باطنِ الشيء مع شدَّةِ تماسكِ جرمه[2]، بخلاف المصاحبة التي قد لا يكون فيها صدقٌ؛ إذ هي تدلُّ على المقارنة والمقاربة والمعاشرة[3]، ولا يُشترط فيها صدقُ المودَّة والمحبَّة، وهكذا كانت علاقاتهم في الدُّنيا قائمةً على المصالح الدنيويَّة الزائلة لا على رباط الإيمان والتَّقوى، فهم وإنِ ادَّعوا الحُبَّ والخلَّة، إلّا أنَّهم في أقربِ امتحانٍ يتخلّون عن بعضهم، كما وصفهم القرآن بقوله: ﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ ٦٧﴾ [الزخرف: 67].

نكتةُ تقديم ﴿شَٰفِعِينَ﴾ على ﴿صَدِيقٍ﴾:

تـرقٍّ لمزيدِ انحطاطِ حالِ المشركين في التأسُّف

في تقديم نفي المشركين للشّافعين على نفي الصَّديق الحميم ترقٍّ لمزيدِ انحطاطِ حالهم في التأسُّف، حيث نفَوا - أوّلًا - أنْ يكون لهم من ينفعهم في تخليصِهم من العذاب بشفاعته، ونفوا - ثانيًا - أنْ يكون لهم من يهمُّه أمرهم، ويشفقُ عليهم، ويتوجَّعُ لهم، أو يخلِّصهم[4].

سرُّ اصطفاءِ الإفرادِ في قوله: ﴿صَدِيقٍ﴾:

مـن يـصـدقُ في إخلاصِ الـودادِ والمحبَّة قليلٌ

لفظُ الصَّديق مصدرٌ يقعُ على الواحدِ والجمعِ، والمرادُ به في قوله تعالى: ﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٖ﴾ الجمع، أي: نفي جنسِ الصديق؛ لوقوعه في سياقِ النَّفي المؤكَّد بـ ﴿مِن﴾، وقد أتى النَّظم الحكيم به مفردًا بخلاف لفظ ﴿شَٰفِعِينَ﴾ الذي أتى به جمعًا؛ لأنَّهم أرادوا بالشّافعين: الآلهةَ الباطلة، وكانوا يعهدونهم عديدين، فجرى على كلامهم بما

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (صدق).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (صدق).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (صحب).
(4) طنطاوي، التّفسير الوسيط: 10/ 260.

هو مرتسمٌ في تصوُّرِهم، أمّا الصَّديقُ؛ فإنَّه مفروضٌ جنسِه دون عددِ أفراده؛ إذ لم يعنوا عددًا معيَّنًا، فبقي على أصلِ نفي الجنس[1]، وكذلك فإنَّ العدولَ عن صيغة الجمعِ إلى صيغة الإفرادِ - رغم أنَّ السّياقَ هو سياق جمع - للإشارةِ إلى كثرةِ الشُّفعاء في العادة، وقلَّة الصَّديق، وهو الصّادقُ في ودادك الذي يهمُّه ما أهمَّكَ[2]، وخاصَّة في ذلك المقام الذي قال عنه اللّه سبحانه: ﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ ٦٧﴾ [الزخرف: 67]، وليُحقِّق التفاتًا من صيغة الجمع ﴿شَٰفِعِينَ﴾ إلى الإفراد ﴿صَدِيقٍ﴾، يزيدُ به الكلامَ وضوحًا ودفعًا للسّامع إلى التأمُّل والتدبُّر لاكتشاف أثر هذا الالتفات في المعنى، ولأنَّه سبحانه أراد بإفراد ﴿صَدِيقٍ﴾، أنْ يُجرى عليه وصْفُ ﴿حَمِيمٖ﴾، فلو جيءَ بالمَوْصوفِ جَمعًا؛ لاقْتَضى جَمعُ وصْفِه، وجَمعُ ﴿حَمِيمٖ﴾ - وهو أحماء - فيه ثِقَلٌ لا يناسبُ مُنتهى الفصاحة، ولا يَليقُ بصورة الفاصلة مع ما حصل في ذلك من التَّفَنُّنِ الَّذي هو من مَقاصِدِ البُلَغاءِ[3].

دلالةُ تنكيرِ قوله: ﴿صَدِيقٍ﴾:

نكَّرَ القرآنُ لفظَ ﴿صَدِيقٍ﴾ في قولِه تعالى: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ١٠٠ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٖ﴾؛ لإفادةِ العُموم، أي: نَفْيِ جِنْسِ الصَّديق؛ لوقوعه نَكِرةً في سياقِ النَّفي[4]، أي: نفيُ نفعِ أيِّ صديقٍ له في ذلك اليوم، ويشيرُ التَّنكيرُ كذلك إلى تفخيم شأنِ الصَّداقةِ ورفعةِ قدْرِها.

الصَّداقةُ شأنُها عظيمٌ، وقد حُرِمها الكافرون يومَ القيامة

علَّةُ وصفِ الصَّديق بـ﴿حَمِيمٖ﴾:

في وصف الصَّديق بالحميم في قول اللّه تعالى: ﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٖ﴾ إيضاحٌ لِما في ظاهر لفظ ﴿صَدِيقٍ﴾ من لَبْسٍ؛ إذ تردُ عليه

إذا كان الصَّديقُ القريبُ لا ينفعهم؛ فالبعيدُ من بابٍ أولى

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 164.
(2) الزّمخشري، الكشّاف: 3/ 322.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 155.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 155.

أسئلة، منها: لماذا خصَّ الصَّديقَ؟ فيوضِّحه في بقيَّة كلامه، بأنَّه الصَّديقُ الموصوفُ بصفةِ حميم، وهو الصَّديقُ الذي يهمُّه أمرنا، ويهمُّنا أمره[1]، وهو القَريبُ المُشْفِقُ الَّذي يحتَدُّ حِمايةً لِذَويه[2]، وهو الَّذي يَوَدُّك وتَوَدُّه[3]، إذًا هو أَخَصُّ مِنَ الصَّديقِ[4]، وفي هذا الوصف مبالغةٌ في التَّحسُّر؛ لأنَّه إذا كان الصَّديقُ الحميمُ - أي: القريبُ - لا ينفعهم، فكيف بالصَّديق غيرِ الحميم؟ فهو من بابٍ أولى ألّا ينفعهم.

كما أنَّ الإشكالَ الذي يحلُّه الإيضاحُ من معاني البَديعِ؛ فالنَّفسُ تتشوَّفُ إلى الإيضاح بعد الغموض، بما يدلُّ على أهميَّةِ ما سيأتي من كلامٍ وتنبيهٍ للمخاطَبين على ذلك.

بلاغةُ صيغةِ قوله: ﴿حَمِيمٍ﴾:

لم ينفعِ الكافرين من ظنّوه قد بلغ الغايةَ في القربِ والإشفاقِ عليهم

﴿حَمِيمٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ صيغةُ مبالغةٍ على وزنِ فعيل؛ من حَمَّ (بفَتْحِ الحاءِ)؛ إذا دنا وقَرُبَ وحضَرَ[5]، وقد عبَّر بها البيانُ القرآنيُّ؛ لإفادة بلوغِ الغايةِ في القربِ والإشفاقِ عليه والاهتمام بأمره، وبالتّالي إفادة الغاية في نفيِ النَّفعِ من هذا الصَّديق الحميم، ممّا يجلبُ لأهل النّار اليأسَ والقنوط من أيِّ نفعٍ، وقد زاد التَّعبيرُ بهذه الصّيغةِ الكلامَ بلاغةً، والمعنى قوَّةً وجزالةً ووضوحًا.

بلاغةُ الكنايةِ في الآية:

نفيُ الكافرين للشافعين وللصَّديق يوم القيامة نفيٌ لأيِّ نفعٍ أو نجاةٍ من النّار

قولُ اللّهِ تعالى حكايةً عن المشركين مِنْ قوم إبراهيمَ، الذين كُبكبوا في الجحيم: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ١٠٠ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٖ﴾ هو على سبيلِ الكنايةِ عن الإيقاعِ في المهلكة[6]، أي: أرادوا بقولهم أنَّهم وقعوا في مهلكةٍ لا يخلِّصهم منها شافعٌ ولا صديق؛ إذ علموا أنَّ الشُّفعاء

(1) الهرري، حدائق الرّوح والريحان: 20/ 284.
(2) الجوهريّ، الصّحاح، والزَّبيدي، تاج العروس: (حمم).
(3) الخليل، العين: (حم).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 155.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حمّ).
(6) الطّيبي، فتوح الغيب: 11/ 385.

والأصدقاء لا ينفعونهم، ولا يدفعون عنهم، فقصدوا بنفيهم نفيَ ما يتعلَّق بهم من النَّفع؛ لأنَّ ما لا ينفع: حكمُه حكمُ المعدوم[1]، فالمنفيُّ هنا ليس نفسَ الشّافع والصَّديق، بل المنفيُّ نفْعُهم[2]، أو الكنايةُ عن عداوة ما كانوا يعدّونهم شفعاءَ وأصدقاءَ، على أنَّ عدمَهما كنايةٌ عن عداوتِهما، كما أنَّ عدمَ المحبَّةِ في مثلِ قولِ الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ۝٢٠٥﴾ [البقرة: 205] كنايةٌ عن البُغضِ[3].

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الصَّديق والصّاحب:

الصَّديقُ من الصَّداقة، وهي مُشْتَقَّةٌ مِنَ الصِّدْقِ في المَوَدَّةِ، فالصَّديقُ؛ لأنَّه صَدَقَهُ النَّصيحةَ والمودَّة[4]، والصَّديْقُ: الخَليلُ، وهو الحَبيبُ المُصادِقُ لكَ[5]، وهو الذي ساوى باطنه ظاهره في إخلاصِ المودَّة[6]، وأمّا الصّاحبُ؛ فمِن صَحَبَ، وتدلُّ على المقارنة والمقاربة، والصّاحِبُ: المُعاشِر[7]، والصّاحبُ: الملازمُ مكانًا أو زمانًا، وقيل: لا فرقَ بين أنْ تكونَ المصاحبةُ بالبدن - وهو الأصلُ والأكثر - وبالعناية والهمَّة[8]، إذًا: الصّديقُ ينبئُ عن صدقِ المودَّة والمحبَّة، وإنْ لم يكن ملازمًا لك، بينما الصّاحبُ ينبئُ عن الملازمةِ والمقاربة، فهو المعاشِرُ لك، وإنْ لم يكنْ صادقًا في مودَّته، والسّياقُ في الآية يناسبه لفظُ الصَّديق؛ إذ الكفّارُ أحوجُ ما يكونون إلى مَن يصدقُهم المودَّة في تلك الحالِ التي هم عليها، ولكنَّهم لا يجدونه.

الصَّديقُ الصّادق في مودَّتِهِ أحوجُ ما يكونُ أهلُ النّار بحاجةٍ إليه ولا يجدونه

---

(1) الزّمخشري، الكشّاف: 3/ 322.
(2) القونوي وابن التمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 14/ 271.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 253.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (صدق).
(5) ابن عباد، المحيط في اللغة، والزّبيدي، تاج العروس: (صدق).
(6) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 656.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (صحب).
(8) السّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (صحب).

﴿فَلَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةٗ فَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٠٢﴾ [الشعراء: 102]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بعدَ أنْ وقعَ أصحابُ النّارِ في الهلاك وتعذَّرت نَجاتُهم، تمنّوا المُحال

لَمّا فرَغَ من ذِكْرِ حكايةِ وقوعِ أهلِ النّار في الهلاك، وما يقولونه في النّار من الخصومةِ النّاشئةِ بينهم، وانتفاءِ النَّجاة عنهم، وإظهارِهم للحسرةِ والنَّدامة؛ خرجَ إلى ذكرِ تمنّيهم المُحالَ، وهو الرَّجعةُ إلى الدُّنيا بقوله: ﴿فَلَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةٗ﴾، أي: فننزعُ عمّا كنّا عليه من عبادةِ غيرِ اللّهِ وسلوك طريقِ التَّقوى، ونكون من جملةِ المؤمنينَ في ذلك، وهذا من حُسن الانتقال[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿كَرَّةٗ﴾: أصلُ (كرّ) يدلُّ على جَمعٍ وتَرديدٍ، مِنْ ذَلِكَ كَرَرْتُ: وذَلِكَ رُجوعُكَ إليه بَعْدَ المَرَّةِ الأولى[2]، والكَرُّ: الرُّجوعُ، وكَرَّ عَنْهُ: رَجَعَ[3]، وكرَّر الشَّيءَ وكركره: أعاده مَرَّةً بعد أُخرى، والكَرَّةُ: المَرَّةُ، والجَمعُ الكرّات[4]، والمُرادُ بالكَرَّةِ في الآية: مَرَّةٌ مِنَ الكَرِّ، وهي الرَّجعةُ إلى محلٍّ كانَ فيهِ الرّاجِعُ، ومعنى كرَّة في الآية: الرجعةُ إلى الدُّنيا؛ لأنَّه رجوعٌ لمكانٍ سابقٍ[5].

❁ المَعْنى الإِجْماليُّ:

الرُّجوعُ إلى الدُّنيا أُمنيةٌ لأصحابِ الجحيمِ لنْ تتحقّق

يحكي اللّه تمنّي الغاوين المُحالَ بعد الهلاكِ، فيقولون: فلو أنَّ لنا رَجعةً إلى الدُّنيا، فنعملَ صالحًا غيرَ الَّذي كنّا نعمل، ويصير

(1) المؤيّد بالله، الطّراز لأسرار البلاغة: 2/ 177، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 60.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كَرَّ).
(3) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللغة، وابن عباد، المحيط في اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (كر - كرر).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (كرر).
(5) الزّمخشري، الكشّاف، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/ 99، و19/ 156.

الإيمانُ لنا وصفًا لازمًا، حتَّى إذا متنا، وبُعِثْنا مَرَّةً أخرى؛ فنَسلَمُ مِن عقابِ الآخرةِ، ونَستحِقُّ ثوابَها[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الفاء، ودلالتُها في: ﴿فَلَوۡ﴾:

تمنّي الغاوين المُحالَ تفرَّعَ عن جزْمِهم بهلاكهم

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَلَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةٗ﴾ للتَّفريع، فقد فرَّع المشركون على التَّحسُّرِ والنَّدامةِ - التي حكاها الله عنهم، بقوله: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ۝٩٧ إِذۡ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٩٨ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ۝٩٩ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ۝١٠٠ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٖ﴾ - تَمنّي أنْ يُعادوا إلى الدُّنيا؛ ليَتَدارَكوا أمرَهم في الإيمانِ باللهِ وحْدَه[2]، أي: إنَّ هذهِ الفاءَ التَّفريعيَّة فيها معنى السببيَّة، فإنَّ المشركين لَمّا وقعوا في الهلاك بأنْ كُبكبوا في النّار؛ تسبَّب عنه تمنّيهم المحالَ، فقالوا: ﴿فَلَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةٗ﴾، أي: رجعةً إلى الدُّنيا[3]، ممّا يدلُّ على شدَّة ما أصابهم من سوء الحال.

معنى (لو) وغرضُ التَّعبير بها:

تمنّي أهلِ النار المُحالَ يدلُّ على شدَّةِ ما أصابهم من كمالِ التَّحسُّر وسوءِ الحال

(لو) في قوله تعالى: ﴿فَلَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةٗ فَنَكُونَ﴾ للتَّمنّي كـ (ليتَ)؛ لأنَّ بينَ معنييهما تلاقيًا في معنى الفرضِ والتَّقدير، أي: إنَّ (لو) خرجَتْ عن الشَّرط، وأصبحتْ تفيدُ التَّمني، ولذلك أُجيب بالفاء الذي يُجاب به التَّمنّي[4]، وذلك لأنَّ أصلَ تقديرِها: لو أُرْجِعْنا إلى الدُّنيا؛ لآمنّا، لكنَّه إذا لم يُقْصَدُ تَعليقُ الامتناعِ على امتناعٍ تمحَّضتْ (لو) للتَّمنّي؛ لِما بين الشَّيءِ المُمتَنِع وبين كونه مُتَمَنًّى من المناسبة[5]، والتَّقديرُ: (نتمنّى أنْ تكونَ لنا رجعةٌ إلى الدُّنيا، فنَكونَ

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 150، والبقاعيّ، نظم الدرر: 14/ 60، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 19/ 79، والسّعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 594.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 155.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 60.

(4) المؤيّد بالله، الطّراز لأسرار البلاغة: 2/ 177، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 155.

(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 156.

من المؤمنين)[1]، والتَّعبيرُ بأسلوبِ التَّمنّي يدلُّ على النَّدَمِ البالغِ والحسرةِ المفرطةِ التي تُصيبُ هؤلاءِ في ذلك اليوم[2]، وهذا التَّمنّي ليس بصحيح؛ فإنَّهم لو رجعوا؛ لَمَا كانوا مُؤمِنينَ، والدَّليلُ قولُه تعالى: ﴿وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ٢٨﴾ [الأنعام: 28][3].

وقيل: هي باقيةٌ على أصلِها من الشَّرطِ، وجوابُه محذوفٌ، كأنَّه قيل: فلو أنَّ لنا كرَّةً؛ لفعلنا من الخيراتِ كيتَ وكيتَ من الأفعال الصّالحة[4]، أو لخلصنا من العذاب، أو لكان لنا شفعاءُ وأصدقاء، أو ما أضلَّنا المجرمون[5]، ويأباهُ قوله تعالى: ﴿فَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾؛ لتحتُّم كونِه جوابًا للتَّمنّي مفيدًا لترتيبِ إيمانهم على وقوعِ الكَرَّةِ البتَّة بلا تخلُّف، كما هو مقتضى حالِهم[6].

إيثارُ التَّعبير بـ (لو) دون (ليت):

تمنٍّ ضعيفٌ مشوبٌ بذلٍّ ويأسٍ فلا رجعةَ ولا شفاعةَ في يوم الدّين

آثرَ البيانُ القرآنيُّ التَّعبيرَ بـ (لو) دون (لَيتَ)؛ لأنَّ (لو) أقلُّ مِن (ليت) في التّمنّي؛ فـ (ليت) صريحةُ الطَّلَب، و(لو) فيها نوعٌ مِن اللّينِ والعَرْضِ، والمقامُ هنا يقتَضيه؛ لأنَّهم في مَقامِ ذُلٍّ وخُضوعٍ ويأس؛ إذ إنَّهم تمنّوا العودةَ بعدما كُبكِبوا في النّار، وأيقنوا بانتفاءِ الشّافعين وجنْسِ الصَّديق الحميم، وأيقنوا بالهلاك وعدم النَّجاة، بخلاف قولهم الوارد في سورةِ (الأنعام)، في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢٧﴾ [الأنعام: 27]، فإنَّهم قالوا ذلك عَقِب وقوفهم على النّار وقبل دخولها - كما تصرِّح الآية - والتَّمنّي منهم كان أقوى، أي: إنَّ استعمالَ (ليت) منهم كان الأوَّل، تمنّوا بعَزمٍ، ثمَّ لمّا لم يحصُلْ لهم

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 253.
(2) طنطاوي، التّفسير الوسيط: 10/ 260.
(3) ابن عثيمين، تفسير سورة الشّعراء، ص: 178.
(4) المؤيّد بالله، الطّراز لأسرار البلاغة: 2/ 177.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 104.
(6) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 253.

ما تمنَّوه، وكُبكبوا في النّار، وأيقنوا بالهلاك، ويأسوا من النَّجاة؛ رجَعوا إلى التَّمنّي بـ (لو)، وهم في حالة خضوعٍ وخنوعٍ[1].

الموقعُ الإعرابيُّ لقوله: ﴿أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾:

في المصدريَّةِ توكيدٌ على وجودِ التَّمنّي من أصحابِ النّار رغمَ استحالتِهِ

المصدرُ المُؤَوَّلُ من ﴿أَنَّ﴾ وما بعدها في محلِّ رَفْعِ مُبْتَدَأ، خَبَرُهُ مَحْذوفٌ، أي: (لَوْ كرَّتُنا حاصلةٌ)، وقد عَدَلَ البيانُ القرآنيُّ عن التَّعبير بالمصدر المؤوَّل (كرّتنا)؛ زيادةً في تأكيد تمنيّهم الرُّجوع إلى الدُّنيا بـ﴿أَنَّ﴾؛ ليَتَداركوا أمرَهم في الإيمان، رغمَ استحالته، فلا رجعةَ ولا شفاعةَ، فهذا يومُ الدين.

نكتةُ تقديم: ﴿لَنَا﴾ على: ﴿كَرَّةً﴾:

تحسُّرُ المشركين النَّفسي بتمنّي الرُّجوع إلى الدُّنيا مع علمهم باستحالتها

تقديمُ شبه الجملة ﴿لَنَا﴾ - التي هي في محلِّ رفع خَبَرِ ﴿أَنَّ﴾ - مُقَدَّمٌ على الاسم ﴿كَرَّةً﴾ في قوله تعالى: ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾ لإفادةِ اختصاصهم بالكرَّة، وطلبُ اختصاصِهم بالكرَّة - مع علمهم باستحالة أنْ يكونَ هناك كرَّةٌ إلى الدُّنيا بعد فراقها؛ لاستخدامهم أسلوبَ التَّمنّي - دليلٌ على بليغِ تحسُّرهم النَّفسي.

نكتةُ التَّعبير بلفظ ﴿كَرَّةً﴾:

التَّمنّي من أصحابِ النّار لا لمجرَّد الرُّجوع وإنَّما للرُّجوع والعودة بعد إعادة الاختبار

آثرَ البيانُ القرآنيُّ استعمالَ مفردة ﴿كَرَّةً﴾ في قوله تعالى: ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾ دون غيرها مثل رجعة؛ لكون ذلك أنسبَ للمقام، فالرُّجوعُ يدلُّ على العودةِ إلى مكان البدء[2]، وهم لا يتمنّون مجرَّد الرُّجوعِ إلى الدُّنيا، وإنَّما يتمنّون مع تكرارِ الرُّجوع تكرارَ فعلهم، ولكنْ إيمانًا باللّه لا كفرًا وعملًا بطاعته؛ ليسلموا من عقاب الآخرة، ويستحقّوا ثوابها، أي: تمنّوا الرُّجوعَ وإعادة اختبارهم بشرعِ اللّهِ مرَّةً أخرى وحسابهم بعدها، وهذا أنسبُ مع الأصل اللُّغوي لمفردة الكرَّة الذي يدلُّ على جمعٍ وترديدٍ[3].

(1) ابن عثيمين، تفسير سورة الشّعراء، ص: 176.
(2) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 249.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كرر).

الإيجازُ بالحذفِ في قوله: ﴿فَلَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةٗ﴾:

حـذْفُ المتعلِّقِ (إلى الدُّنيا) إيماءٌ إلى استحالةِ وقوعه

حَذَفَ النَّظمُ الحكيمُ متعلِّقَ الكرَّةِ، في قوله تعالى: ﴿فَلَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةٗ﴾؛ إذ التَّقديرُ: (فلو أنَّ لنا كرَّةً إلى الدُّنيا)؛ لظهورِهِ لأنَّ الكرَّة في القرآن تُطلق على الرُّجوع إلى الدنيا، فهو رجوعٌ لمكانٍ سابقٍ[1]، وفي حذفِ المتعلِّق - وهو لفظ (إلى الدُّنيا) - إيماءٌ باستحالته، فحذْفُهُ في اللَّفظ؛ لعدم وقوعِهِ في الحقيقة.

دلالةُ تنكيرِ قولِهِ: ﴿كَرَّةٗ﴾:

تنكيرُ لفظِ ﴿كَرَّةٗ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَلَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةٗ﴾ - في سياقِ التَّمنّي والتَّندُّم والتَّحسُّر وإيقان الهلاكِ - يفيدُ معنى التَّقليل، أي: كرَّةً واحدةً، ولو كانت قليلةَ الزَّمنِ.

معنى الفاءِ ودلالتُها في ﴿فَنَكُونَ﴾:

تمنّي أصحابِ النّارِ الرُّجوعَ إلى الدُّنيا لكونه سببًا ليكونوا من المؤمنين المذعنين للحقِّ

(الفاء) في قوله تعالى: ﴿فَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ فاءُ السَّببيَّة، و(أنْ) مضمرة بعدها، أي: فنكون بسببِ كرَّتنا إلى الدُّنيا من المؤمنين المذعنين للحقِّ الذين لا يمارون فيه[2]، ويكون الموقعُ الإعرابيُّ للفعل ﴿فَنَكُونَ﴾ فعلًا مضارعًا منصوبًا بأن المضمرةِ بالنَّصب بعد الفاء السَّببيَّة الواقعة في جواب التَّمنّي[3].

دلالةُ استعمالِ الكون والمضارعةِ فيه:

تأكيدُ أصحابِ النّارِ على إيمانهم وثباته إنْ تحقَّقت لهم الرَّجعة إلى الدُّنيا

كان من الممكنِ أنْ يُقال: (فنؤمن)، ولكنَّ البيانَ القرآنيَّ أتى باللَّفظ في قالبِ الجملة الاسميَّة الَّتي تفيدُ الثَّباتَ والرُّسوخَ مستخدمًا لفظَ الكون ﴿فَنَكُونَ﴾؛ للدَّلالة على تأكيدِ إيمانهم وثباته؛ إذا ما أرجعهم اللهُ إلى الدُّنيا، أي: إنَّه كونٌ في غايةِ التمكُّن، ومجيءُ ﴿فَنَكُونَ﴾ بصيغةِ المضارع - التي تفيدُ الدَّوام والاستمرارَ - أفادَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/ 99، و19/ 156.

(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5375.

(3) الهرري، حدائق الرّوح والريحان: 20/ 254.

كذلك تأكيدهم على ملازمةِ الإيمان، وعدم الانفكاك عنه في كلِّ وقتٍ وعلى كلِّ حال.

الإعرابُ والعدولُ في قوله: ﴿مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾:

إقرارُ الكافرين بمدحِ المؤمنين والتَّمنّي بأنْ يكونوا بعضًا منهم يوم لا ينفعهم ذلك

الجار والمجرور في قوله تعالى: ﴿فَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ في محلِّ نَصبٍ خَبَرُ ﴿فَنَكُونَ﴾، أي: فنكون مؤمنين، ولكنَّ البيانَ القرآنيَّ عدلَ عن ذلك، وأتى بشبه الجملة ﴿مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾؛ لإفادةِ معنى التَّبعيض، والمقصودُ أنَّ المؤمنين كثيرون، فنكون بعضًا منهم، أي: إنَّ ﴿مِنَ﴾ في الآية للتَّبعيض، وفي هذا توبيخٌ لأنفسهم أنَّهم لم يكونوا مع الجماعة المؤمنة، بل كانوا ممَّن شذَّ عنها، ومدحٌ لزمرةِ المؤمنين بإبراهيم عليه السلام.

دلالةُ التَّعريفِ في قوله: ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾:

في العهديَّةِ امتداحُ المشركين للمؤمنين من قومِ إبراهيم عليه السلام

(أل) في ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ عهديَّةٌ تعودُ على المؤمنين من قوم إبراهيم عليه السلام، وتشيرُ العهديَّة هنا إلى امتداحِ المشركين لهم، حتى أنَّهم تمنَّوا أنْ يرجعوا إلى الدُّنيا، فيكونوا من زمرتهم، وذلك لِمَا رأَوا من تكريمِ اللّهِ لهم يوم الحساب.

نكتةُ التَّعبيرِ باسم الفاعل: ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾:

الثَّباتُ على الإيمانِ هو السَّبيلُ للفوزِ بدخولِ الجنَّة

آثَرَ النَّظمُ الحكيم التَّعبيرَ بصيغةِ اسم الفاعل ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، ولم يقلْ: فنكونَ من الذين آمنوا؛ ليُعطيَ للمعنى مزيدًا من المبالغةِ لثبوتِ إيمانهم ودوامه، بخلافِ التَّعبير بالفعل الماضي (آمنوا)، فإنَّه لا يدلُّ على ذلك، وإنَّما يدلُّ على وقوع الحدث وتحقُّقه قبل زمان المتكلِّم، أو حدوثه مطلقًا، والمعنى: "فنكون من المؤمنين، أي: الَّذين صارَ الإيمان لهم وصفًا لازمًا، فأُزلفتْ لهم الجنَّة"[1]، والإيمانُ المرادُ هنا في الدُّنيا، أي: من المهتدين العابدين للّه؛ لأنَّهم يومَ القيامة يؤمنون إيمانَ إيقانٍ، لكنَّه لا ينفعهم يومئذٍ.

(1) البقاعيُّ، نظم الدّرر: 14/ 60.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الكرّ والرُّجوع والعودة:

الكرُّ يدلُّ في أصلهِ على جَمعٍ وتَرْديد، مِنْ ذَلِكَ كَرَرْتُ، وذَلِكَ رُجوعُكَ إِلَيْهِ بَعْدَ المَرَّةِ الأولَى[1]، وكَرَّرَ الشَّيْءَ: أَعاده مَرَّةً بَعْدَ أُخرى، والكَرَّةُ: المَرَّةُ، والكرُّ: الرُّجوعُ على الشَّيْءِ، ومنه التَّكْرارُ[2]، والكرُّ: العطفُ على الشَّيء والعودُ إليه بالذّاتِ أو بالفعل[3]، والمعنى المحوريُّ للكرِّ هو: معاودةُ الشَّيء إتيانًا أو انتقالًا إليه مرَّةً بعد أخرى لتحصيله، وكلُّ معاودة للشَّيء؛ فهي كَرَّة[4]، وأمّا الرُّجوعُ؛ فهو العَوْدُ إلى ما كان منه البدءُ، وتقديرُ البدء مكانًا كان أو فعلًا، أو قولًا، وبذاته كان رجوعُه، أو بجزء من أجزائه، أو بفعل من أفعاله[5]، والرُّجوعُ: نقيضُ الذَّهاب، ورَجَعَ الشَّيءُ عن الشَّيءِ ورجع إليه: صَرَفَهُ ورَدَّهُ[6]، والرُّجوعُ أيضًا: تحوُّلٌ عن الاتِّجاه، أو الحال إلى عكسه[7]، وأمّا العَوْدَةُ؛ فأصلُها يدلُّ على تثنيةٍ في الأمر، تثنيةُ الأمر عَودًا بعد بِدءٍ، تقول: بَدَأَ ثمَّ عاد[8]، والعودة: الرُّجوعُ إلى الشَّيء بعد الانصراف عنه، إمّا انصرافًا بالذّات، أو بالقول والعزيمة[9]، ورجع عَودُهُ على بدئِه، أي: لم يقطعْ ذَهابَهُ حَتَّى وصله بِرُجوعِه، والمعاودةُ: الرُّجوعُ إلى الأمرِ الأوَّل، والمُعاوِدُ: المواظِبُ على أمرٍ[10]، وقد ناسبَ اختيارُ لفظ الكرِّ مع تمنّي الكافرين الرُّجوعَ إلى الدُّنيا لتحصيل الإيمان، وقولهم: كرَّة، أي: تمنّوا رجوعَهم مرَّةً واحدة إلى الدُّنيا؛ ليؤمنوا.

الكَرُّ رجوعٌ إلى الشَّيء بعد المرَّة الأولى لتحصيلِه، وهذا يتناسبُ مع تمنّي الكافرين الرُّجوعَ إلى الدُّنيا

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كرّ).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (كرّ).
(3) السّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (كرر).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي: (كرر).
(5) الرّاغب، المفردات: (رجع).
(6) الفيومي، المصباح المنير، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيدي، تاج العروس: (رجع).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (رجع).
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عود).
(9) الرّاغب، المفردات: (عود).
(10) ابن منظور، لسان العرب، والمعجم الوسيط، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (عود).

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [الشعراء: 103]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

قصَّةُ إبراهيم ﷺ أعظمُ زاجرٍ عن الشِّرك وآمرٍ بالتَّوحيد

لَمّا كان فيما قصَّه اللّه - من قولِ إبراهيم ﷺ في إقامةِ البرهان على إبطالِ الأوثان، ومن أهوالِ يوم القيامة - أعظمَ زاجرٍ عن الشِّرك، وآمرٍ بالإيمان؛ نبَّه على ذلك بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾، أي: هذا الأمر العظيم الذي قصصته ﴿لَآيَةً﴾ عظيمة[1]، وهذه لازمةٌ ختمَ اللّهُ ما ورد في السّورة من قصص، وقد تكرَّرت في السّورة ثماني مراتٍ، بحيث يمكن عدُّها من خصائصِ السّورة اللفظية.

المَعْنى الإجْماليُّ:

كثرةُ الكافرين مع وضوحِ المُعجِزاتِ ونُزولِ الآياتِ

إنَّ في ذلك المذكورِ من قِصَّةِ إبراهيمَ وقَومِه لَعِظةً وعبرةً ودَلالةً واضحةً على أنَّه تعالى لا ربَّ غيره، ولا معبودَ سواه، وأنَّه سبحانه يعَذِّبُ يومَ القيامةِ مَن أشرَكَ به، ولم يكُنْ أكثَرُهم مؤمنِينَ بتوحيد اللّهِ، مع وضوحِ المُعجِزاتِ، ونُزولِ الآياتِ[2].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

سرُّ فصلِ هذه الآية عمَّا قبلها:

الحكمةُ من إيرادِ قصَّةِ إبراهيم ﷺ، والفائدةُ من تذكيرِ الرَّسول وقومه بها

فَصَلَ البيانُ القرآنيُّ جملة ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ عمّا قبلها من آيات قصَّةِ إبراهيمَ ﷺ، وما يؤولُ إليه أمرُ عبدَةِ الأصنام يوم القيامة، ولم يربطهما بعاطف؛ لِما بينهما من كمالِ اتِّصالٍ؛ إذ جاءتْ هذه الآيةُ بيانًا للحكمةِ من قصَّة إبراهيم التي هي أعظمُ زاجرٍ للمخاطَبين من قومِ النَّبيِّ ﷺ.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 60.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 601، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 107، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 19/ 79.

بلاغةُ توالي المؤكِّدات في الآية:

المبالغةُ تُظهرُ عظمةَ قصَّة إبراهيمَ عليه السلام وأثرها البالغ في العبرة والعظة

أُكِّد قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ بعدَّةِ مؤكِّداتٍ، وهي: ﴿إِنَّ﴾، مع لام المزحلقة التي تفيدُ توكيدَ مضمونِ الجملة، وكذلك اسميَّةُ الجملة التي تدلُّ على الثُّبوت والدَّوام، فهذه المؤكِّدات مجتمعةً دلَّت على المبالغة في بيان عظمةِ قصَّة إبراهيم عليه السلام مع قومه وصدقِ رسالته، وأنَّها تكفي في العبرة والعِظة لمن يتطلَّب الحقَّ، وقد اقتضى هذا التَّأكيدُ كونَ هذا الخطاب موجَّهًا للمشركين وهم قومٌ منكرون.

وفي هذا تسليةٌ للنَّبي محمد ﷺ على ما يجدهُ من تكذيب قومهِ له، مع ظهورِ الآياتِ وعظيمِ المعجزات[1]؛ لأنَّهم كانوا يعدّون إبراهيمَ أبًا لهم، وأنَّهم على ملَّته.

مرجعُ اسمِ الإشارة ودلالتُهُ: ﴿ذَٰلِكَ﴾:

قصَّةُ إبراهيم عليه السلام آيةٌ عظيمةٌ في ذاتها وفي الاستدلال بها

الإشارةُ بـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ إمّا أنْ ترجعَ إلى قصَّةِ إبراهيمَ عليه السلام مع قومه والحكمةِ من إيرادها، وما اشتملَتْ عليه من عِبَرٍ ومواعظَ، وأدلَّةٍ بيِّنةٍ واضحةٍ على الوحدانيَّة، وبطلانِ إلهيَّة الأصنام[2]، وما يؤولُ إليه أمرُ عَبَدَتها يومَ القيامةِ من اعترافِهم بخطئِهم الفاحشِ وندمِهم وتحسُّرهم[3]، أو أنْ ترجعَ إلى ما تلاه النَّبيُّ ﷺ من نبأِ إبراهيمَ على المشركين، كما هو عليه، من غير أنْ يسمعَهُ من أحد، فهذا يدلُّ على أنَّ ما تلاه عليهم وحْيٌ صادق موجبٌ للإيمان[4].

والتَّعبيرُ عن ذلك بالبعيدِ المفرد ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ لبُعْدِ منزلةِ دعوة إبراهيم، وعظمةِ رسالته، وعلوِّ رتبةِ قصَّتهِ مع قومه، وما فيها من عظاتٍ وعِبَرٍ وبراهين على إبطال الأوثان، ونصبِ الأدلَّة على أنَّه لا

---

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 19/ 79.

(2) البيضاوي، أنوار التّنزيل: 4/ 143، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 156.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 253، والجزائري، أيسر التّفاسير: 3/ 661.

(4) ابن عجيبة، البحر المديد: 4/ 148، ومجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 7/ 1598.

حقَّ إلّا الملك الجليل الدَّيان(1)، وعظمةِ ما تلاه النَّبيُّ ﷺ من قصَّةِ إبراهيمَ في إقامةِ الحجَّة على المخاطَبين من قومه، وأمّا إفرادُ اسم الإشارة؛ فلاعتبارِ أنَّ قصَّة إبراهيمَ هي قصَّةٌ واحدة ورسالةٌ واحدة متَّحدة المقصود.

في قصَّةِ إبراهيمَ مع قومه دلالةٌ واضحةٌ وبرهانٌ ساطعٌ على أنَّها الحقُّ

علَّةُ التَّعبيرِ بلفظ ﴿لَأٓيَةٗۖ﴾:

عبَّر البيانُ الإلهي بلفظ ﴿لَأٓيَةٗۖ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ﴾، ولم يقل مثلًا: (إنَّ في ذلك لدلالة أو علامة أو عبرة أو برهان) - لكونها أنسبَ للسّياق، ولاتّساع دلالة لفظِ الآية؛ إذ تشملُ كلَّ المعاني السّابقة وزيادة، فمن معاني الآية: الدَّلالة والعلامة والمعجزة والعبرة والعظة والجُزْء المَحْدود من القُرْآن المُسَمّى آيَة(2)، كما أنَّ الآيةَ هي العلامةُ الظّاهرة(3)، وهذا يتناسبُ مع السياق في أنَّ ما ورد من قصَّة إبراهيم مع قومه عبرةٌ وعظةٌ وحجَّة لمن أراد أنْ يستبصرَ بها، ويعتبر، وفيها علامةٌ ظاهرةٌ ودلالةٌ واضحةٌ وبرهانٌ ساطعٌ على الحقِّ، وعلى صدقِ رسالة إبراهيم عليه السلام، وأنَّه وحده سبحانه الجديرُ بأنْ يؤمنَ به النّاس كافَّةً.

وفيه كذلك تسليةٌ للرَّسول ﷺ على ما يجده من تكذيبِ قومه له، مع ما جاء به من آياتٍ ظاهرةٍ ومعجزاتٍ عظيمة(4).

قصَّةُ إبراهيمَ عليه السلام آيةٌ عظيمةٌ في شأنها واضحةٌ في دلالتها

دلالةُ التَّنكيرِ في قوله: ﴿لَأٓيَةٗۖ﴾:

نكَّرَ القرآنُ الكريم لفظَ آية في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ﴾؛ تعظيمًا وتفخيمًا لها(5)، وأنَّها بلغَتْ في رفعةِ شأنها ودلالتها حدًّا عظيمًا؛ فلا يُقادَرُ قدرُها، ولا يُعاظَمُ أمرُها، ومِن ثَمَّ كانت قصَّة

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 60.
(2) ابن الجوزي، نزهة الأعين النّواظر: 154 - 155.
(3) السّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (أيي).
(4) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 19/ 79.
(5) الشّوكاني، فتح القدير: 4/ 125.

إبراهيم أعظمَ زاجرٍ عن الشِّرك، وآمرٍ بالإيمان، وأوضحَ دلالة على الحقِّ والهدى[1].

سرُّ الإفرادِ في قوله: ﴿لَآيَةً﴾:

قصَّةُ إبراهيمَ عليه السلام آيةٌ عظيمةٌ في جنسها وفي جميع فصولها

أفردَ البيانُ القرآنيُّ الآيةَ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾، ولم يقل: (آيات)؛ إمّا لإرادة الجنس، وهو صالحٌ للقليل والكثير، أو لأنَّ في المذكور عدَّةَ أشياءَ، في كلِّ واحدٍ منها آيةٌ، فيكون على التَّوزيع[2]، أو باعتبار قصَّة إبراهيم عليه السلام، وهي واحدة، وإن كانت فصولُها متعدِّدةً، وكذلك للتناسب مع اسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي أتى بالمفرد.

معنى الواوِ في قوله: ﴿وَمَا كَانَ﴾:

إخبارٌ بأنَّ حالَ المشركين الإصرارُ على الكفرِ مع وضوحِ الآيات

الواوُ في قولهِ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ حاليَّةٌ[3]، والمعنى: إنَّ في الأمرِ العظيم - الذي قصصته من قولِ إبراهيم عليه السلام في إقامةِ البرهانِ على إبطالِ الأوثان - لآيةً عظيمةً على بطلانِ الباطل وحقوق الحقِّ، والحالُ أنَّه ما كان أكثرُ الذين شهدوا منه هذا الأمر العظيمَ، والذين سمعوه عنه مؤمنين[4]، وتحتمل أنْ تكون عاطفةً، والمعطوفُ عليه جملة ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ بجامع أنَّ الآيتين إخبارٌ عنهم بأنَّهم مصرّون على الكفر بعد هذا الدَّليل الواضح[5].

معنى (ما)، وعلَّةُ التَّعبير بها:

نفيُ إيمانِ أكثرِ المشركين نفيٌ مؤكَّدٌ في الماضي والحاضر

(ما) في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ نافيةٌ[6]، نفتْ تحقُّقَ الإيمانِ من أكثر الذين شهدوا قصَّة إبراهيم والذين سمعوها، وقد آثرَ البيانُ الإلهيُّ النَّفيَ بها دون غيرها من أدوات

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 253.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 19/ 102.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 96.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 60.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 102، والهرري، حدائق الرّوح والريحان: 20/ 271.
(6) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 97، والهرري، حدائق الرّوح والريحان: 20/ 271.

النَّفي لقوَّة النَّفي بها؛ إذ إنَّها آكدُ من (ليس) و(لم) و(لا)، كما أنَّ النَّفيَ بها نفيٌ مؤكَّدٌ قاطعٌ؛ لأنَّه نفيٌ في الماضي والمستقبل؛ إذ إنَّ (ما) تُستخدم لنفي كلٍّ من الفعل الماضي والمضارع على حدٍّ سواء.

سرُّ ذكرِ مادَّة الكون في: ﴿وَمَا كَانَ﴾:

حصولُ كفرِ أكثرِ المشركين أو استمرارُهُ بعد معاينة الآيات أو سماعها دليلٌ على شدَّةِ عنادهم

آثَرَ البيانُ القرآنيُّ ذكرَ لفظ ﴿كَانَ﴾، في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ﴾؛ إمّا لإفادة توكيد نفي إيمانِ أكثرهم؛ إذ يُمكنُ الاستغناءُ عنها، والمعنى: (وما أكثرُهم مؤمنين) كما هو رأيُ سيبويهِ، كقولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ١٠٣﴾ [يوسف: 103]، ويكون فيها كذلك إخبارٌ منه تعالى بما سيكون من المشركين بعد ما سمعوا الآياتِ النّاطقةَ بالقصَّةِ؛ تقريرًا لِما مرَّ من قوله تعالى: ﴿وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ مُحۡدَثٍ إِلَّا كَانُواْ عَنۡهُ مُعۡرِضِينَ ٥ فَقَدۡ كَذَّبُواْ﴾ [الشعراء: 5 - 6]، ويجوز أنْ تجعل (كان) بمعنى صار، كما في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٣٤﴾ [البقرة: 34]، فالمعنى: وما صارَ أكثرهم مؤمنين، مع ما سمعوا من الآية العظيمةِ الموجبة له بما ذكر من الطَّرفين، فيكون الإخبارُ بعدم الصيرورةِ قبل الحدوث؛ للدَّلالة على كمالِ تحقُّقه وتقرُّرِه، كقوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ [النحل: 1][1].

ويجوزُ أنْ تكونَ (كان) على أصلها، وهي في الآية للدَّلالة على الاستمرار، أي: وقد استمرَّ أكثرهم غير مؤمنين؛ لأنَّهم لم تدرك عقولهم، ولم يتدبَّروا، ولم يتفكَّروا[2]، وفي هذه المعاني لـ(كان) دلالةٌ على شدَّة تصامِّهم وإعراضهم عن الحقِّ، وهذا فيه من التَّوبيخِ ما فيه.

مرجعُ الضَّميرِ في قوله: ﴿أَكۡثَرُهُم﴾:

أكثرُ الذين شهدوا آياتِ إبراهيمَ عليه السلام، أو سمعوها من العدنان، لم يُؤمنوا عِنادًا وكِبْرًا

ضمير ﴿أَكۡثَرُهُم﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ﴾، يحتملُ أنْ يرجعَ إلى الذين وُعظوا بسماعِ الآيات من المشركين، الذين

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 246.

(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 53339.

تلا عليهم رسولُ اللّه ﷺ نبأَ إبراهيم، وهم قريش، ومن دان بدينهم[1]، ويحتملُ أنْ يرجعَ إلى الذين شاهدوا الآياتِ من قوم إبراهيمَ ﷺ، فكما لم يهتدِ بها قومُ إبراهيمَ مع كلِّ هذه الدَّلائل الواضحة، فكذلك ما كان أكثر المشركين بمكَّة بمؤمنين بها بعد سماعها[2]، فيكون هذا تسليةً للرَّسول ﷺ فيما يجده من تكذيبِ قومه[3].

علَّةُ التَّعبيرِ بالإيمان في قوله: ﴿مُّؤۡمِنِينَ﴾:

نفيُ الإيمانِ عن أكثرِ قومِ إبراهيمَ إثباتٌ لكفرِهِم

عبَّر البيانُ القرآنيُّ بلفظ الإيمان، في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ﴾، دون التَّصديق مثلًا، فلم يقل: وما كان أكثرهم مصدِّقين؛ لكون لفظ الإيمانِ أوسعَ دلالةً من التَّصديق؛ إذ الإيمانُ يشملُ الاعتقادَ بالقلب والإقرارَ باللِّسان والعملَ بالجوارح[4]، ولكون الإيمان يُقابلهُ الكفرُ، والصِّدق يقابلُهُ الكذب[5]، ومن ثَمَّ فإنَّ لفظ الإيمان أنسبُ للسّياق والمقام، وهما في دعوة إبراهيم لقومه بالإيمان باللّه تعالى، ونبذ الأصنام، فلمّا نفى عن أكثرهم الإيمان؛ أثبتَ لهم الكفر.

وأتى بالخبر ﴿مُّؤۡمِنِينَ﴾ بصيغة اسم الفاعل، الذي يدلُّ على الثَّبات والدَّوام، لإفادة نفي ثبوتِ الإيمان عنهم، أي: وما كان أكثرُهم متَّصفين بالإيمان الثابت[6].

نكتةُ التَّكرارِ في الآية:

بيانُ شدَّةِ عنادِ المشركين بعد المبالغةِ في تأكيدِ عظمةِ الآياتِ وعِبَرِها

كرَّرَ البيانُ القرآنيُّ قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ في هذه السّورة ثماني مرات، أوَّلُها بعد بيان قدرتهِ سبحانه على إنباتِ النَّبات، والسَّبعِ الباقيات عقِبَ قصصِ الأنبياء،

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 253، والهرري، حدائق الرّوح والريحان: 20/ 254.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 156.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 519.
(4) ابن الجوزي، نزهة الأعين النّواظر، ص: 418.
(5) ابن منظور، لسان العرب: (أمن) و(صدق).
(6) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 60.

والحكمةُ في تكرارها تأكيدُ عِظَمِ هذه الآيات، وتنبيهُ الكفّار إلى أنَّ في كلِّ قصَّة من هذه القصص عبرةً وعظةً وبرهانًا ساطعًا يوجبُ الإيمانَ، ويزجرُ عن التَّكذيب والعصيان(1)، وتعدادًا على المشركين، وتسجيلًا لتصامِّهم وإعراضهم عن الحق(2)، ولكنَّهم مع ذلك استمرّوا على الكفر والتَّكذيب مع عظمِ الآية، وسطوعِ البرهان فيها، وانبلاجِ الحجَّة التي توجبُ أنْ يكونوا مؤمنين منقادين مذعنين.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الآية والعلامة:

الآيةُ هي العلامة الظّاهرة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ﴾ [البقرة: 248]، أي: علامته الظّاهرة لكم، وفي قوله: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً﴾ [الشعراء: 128]، فالآيةُ هنا البناءُ المرتفع؛ لأنَّه أظهرُ العلامات الحسيَّة(3)، فالآيةُ أعمُّ من العلامة؛ إذ وردت الآية في القرآن على أوجه، منها: العَلامَة، ومنه قَوْلُه تَعالَى في الرّوم: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [الروم: 20]، والمعجزة كقَوْله تَعالَى في القَصَص: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ [القصص: 36]، والعبرة كقَوْله تعالَى في النَّحل: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ٧٩﴾ [النحل: 79]، والجُزْء المَحْدود من القرآن المُسمّى آية، ومنه قَوْله تعالى في البَقَرَة: ﴿۞مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ [البقرة: 106](4)، وأمّا العلامةُ؛ فتدلُّ في أصلِ مادَّتها على أَثَرٍ بالشَّيْءِ يَتَمَيَّزُ بِهِ عَنْ غَيْرِهِ(5)، والعلامةُ: هي شيءٌ يُنصَبُ في الفلوات تهتدي به الضّالَّة، فهي دلائلُ يُستدلُّ بها، كالجبل، والراية، والعُمد البالغة الغلظ وغيرها(6)، وبهذا المعنى وردت في موضع واحد، في

> الآيــــةُ هي العلامةُ الظّاهرة الواضحةُ، فهي تتناسبُ مع وضوح قصَّة إبراهيم وما فيها من عِبَرٍ بيِّنة

(1) مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 7/ 1557.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 156.
(3) السّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (أيي).
(4) ابن الجوزي، نزهة الأعين النّواظر: 154 - 155.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (علم).
(6) الصّحاح، والجوهريّ، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (علم).

قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝١٥ وَعَلَٰمَٰتٍۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ۝١٦﴾ [النحل: 15 - 16]، "وعلامات: هي معالمُ الطرق، وكلُّ ما يَستدلُّ به السّابلةُ من جبلٍ وغير ذلك"[1]، ومن هنا ناسبَ التَّعبير بلفظ آية؛ لأنَّ قصَّة إبراهيم عليه السلام مع قومه هي علامةٌ ظاهرةٌ ودلالة واضحةٌ، وبرهانٌ ساطع على الحقِّ وعلى صدقِ رسالة إبراهيم ومحمد عليهما الصَّلاة والسَّلام.

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 6/ 514.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ١٠٤﴾ [الشعراء: 104]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بعدَ بيانِ أكثريّةِ المكذّبين مِن قومِ النّبيِّ أو إبراهيمَ أتبعَهُ بتسليةٍ لخاتمِ النّبيين

بعْدَ أنْ خَتَمَ البيانُ القرآنيُّ الآيةَ السّابقةَ ببيانِ أنَّ أكثرَ الذين شهدوا من إبراهيمَ الدّلائلَ والبراهينَ، أو الذين سمعوه من قوم النبيِّ ﷺ لم يُؤمنوا؛ أتبَعَ ذلك بما فيه تسليةٌ للنَّبيِّ ﷺ بألّا يبتئسَ من ذلك، فإنَّه تحت عنايةِ ربِّهِ ورعايتهِ سبحانه، العزيزِ على من لا يؤمنُ منهم، الرَّحيمِ لمن آمنَ.

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾: (عزّ) أَصْلٌ صَحيحٌ واحِدٌ يَدُلُّ على شِدَّةٍ وقوَّةٍ وما ضاهاهُما، مِن غَلَبَةٍ وقَهرٍ[1]، والعِزُّ في الأَصل: القوَّةُ والشِّدَّةُ والغَلَبَة، خِلافُ الذُّلِّ[2]، يُقال: عَزَّ يَعَزُّ - بالفتح للمُضارع - إذا اشتَدَّ وقَوِيَ، وبالكسر للمُضارع؛ إذا قَوِيَ، وامتَنَع، وبالضَّم؛ إذا غَلَب وقَهَر[3]، والعَزيزُ: الَّذي يَقهر ولا يُقهر، وسُمّي بِهِ؛ لِغَلَبَتِه على أهلِ مَملَكَتِه، والعَزيز أيضًا: من صِفات اللّهُ تعالى وأسمائِه الحُسنى، قالَ الزَّجّاج: هوَ المُمتَنِعُ، فلا يغلبُهُ شيءٌ، وقالَ غيره: هوَ القويُّ الغالِبُ كلَّ شَيْءٍ، وقيل: هو الَّذي لَيْسَ كمِثلهِ شيءٌ[4].

المَعْنى الإجْماليُّ:

تسليةُ النبيِّ ﷺ ببيانِ قدرةِ اللهِ الظّاهرةِ وحكمتِه الباهرةِ

استأنفَ البيانُ القرآنيُّ القولَ ببيانِ قدرةِ اللّهِ سبحانه الظّاهرة، وحكمتِهِ الباهرة، فقال سبحانه تسليةً لرسولِهِ ﷺ وتطمينًا له: وإنَّ ربَّك - أيُّها الرَّسولُ الكريمُ - لهو الغالبُ على أمرِه، والقادرُ على

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عز).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (عزز).
(3) النّحاس، معاني القرآن: 1/ 379.
(4) الرّاغب، المفردات، والزّبيدي، تاج العروس: (عزز).

كلِّ ما يريد، وسينتقمُ لك من هؤلاء المكذِّبين على تكذيبهم بكَ، وإشراكهم بي، وعبادتهم للأوثان والأصنام، وهو ذو الرَّحمة بعبادِه فلا يُعاجِلُهم بعذابِه، ومِن رحمتِه أنَّه يُرسِلُ رُسُلًا، ويُنزِلُ معهم ما يُبيِّنُ به ما يُرضيه، وما يُسخِطُه، فلا يُهلِكُ قومًا إلّا بعْدَ إعذارِهم، ومِن رحمتِه أنَّه يُنجي أتْباعَ رُسُلِه[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواوِ ودلالتُها في: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾:

بينَ استئنافٍ يبيِّنُ قدرةَ اللهِ الظاهرةَ وحكمتِه الباهرةَ وعطْفٍ يجمعُ بينهما

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ استئنافيَّةٌ، استأنفَ اللّه تعالى القولَ ببيانِ قدرتِه الظّاهرةِ، وحكمتِه الباهرةِ، فقال: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾[2]، أو عاطفةٌ، والمعطوفُ عليه جملةُ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ﴾[3]، بجامعِ التّناسبِ اللفظيِّ بينَ الجملتَين اللَّتَين ابتدأتا بالتَّوكيد، أمّا الأولى: فتوكيدُ اللّهِ لعظمةِ العِبَرِ في قصَّة إبراهيمَ، وأمّا الثّانيةُ: فتوكيدُ عزَّةِ اللّهِ ورحمتِه.

فائدةُ تتابعِ المؤكِّدات في الآية:

المبالغةُ في تأكيدِ اتِّصافِه سبحانَه بالعزَّةِ والرحمةِ اطمئنانٌ لأوليائِه وتهديدٌ لأعدائِه

أكَّدَ البيانُ الإلهيُّ عزَّةَ اللّهِ ورحمتَه في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ بعدَّةِ مؤكِّدات[4]، وهي: اسميَّةُ الجملةِ التي تدلُّ على الثُّبوت والدَّوام، و(إنَّ) مع اللام المزحلقة ﴿لَهُوَ﴾ التي تفيدُ توكيدَ مضمونِ الجملةِ، وتعريفُ جُزْأي الجملةِ الذي يفيدُ القصْرَ، والإتيانُ بضميرِ الفصْل، فإنَّه يقوّي هذا القصْرَ في الجملة، وتعدُّدُ الخبرِ ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾، والتَّعبيرُ عنهما بصيغةِ المبالغةِ (فعيل)، فهذه المؤكِّداتُ مجتمعةً دلَّتْ على المبالغةِ في تأكيدِ كمالِ هذين

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 136، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 60 - 61، والمراغيّ، تفسير المراغي: 19/ 49، والسّعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 592.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5362.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 97، والهرري، حدائق الرّوح والريحان: 20/ 271.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5362.

الوصفين للّه تعالى، أي: كمالِ عزَّتِهِ وكمالِ رحمتِه سبحانه، ومَن كانتْ هذه صفاته؛ فهو قادرٌ على نصرةِ أنبيائِه ورسلِه، ومعاقبةِ الكافرين الجاحدين بهم، ورحيمٌ بمنْ آمن به، وصدَّق رسلَهُ، وفي هذا التَّأكيد منه سبحانه مزيدُ اطمئنانٍ لأوليائه، وتهديدٍ ووعيدٍ لأعدائِه المنكرين الجاحدين.

علَّةُ التَّعبيرِ بالربِّ في قوله: ﴿رَبَّكَ﴾:

عنايةُ اللهِ بنبيِّهِ تقتضي تسليةَ قلبِهِ وحثَّ المخاطَبين ألّا يُقابلوا النِّعمةَ بالكفرِ

عبَّرَ البيانُ القرآنيُّ بلفظِ الرُّبوبيةِ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾، دونَ الألوهيَّة؛ لكونِ الرُّبوبيَّةِ أعمَّ وأشملَ من الألوهيَّة، وأنسَبَ لمقصودِ الآية، وهو تسليةُ النبيِّ ﷺ؛ إذ الربوبيَّةُ تعني: الملك والتَّربية والرِّعاية والعناية والإحسان والعطاء، أي: أنتَ - يا حبيبَ اللّهِ - في رعايتِه وعنايتِه، فلا تبتئس بكفرِ أكثرِهم، كما أنَّ الرُّبوبيَّةَ تستلزمُ من المخاطَبين شكرَ اللّهِ بتوحيدِهِ وطاعته، لا الكفرَ به، كما أنَّ في استعمالها مناسبةً للسّياقِ الذي وردَ فيه ذكرُ عطاءاتِ اللّه على لسانِ إبراهيمَ عليه السلام: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ٧٧ ٱلَّذِى خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ٧٨ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ٧٩ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ٨٠﴾ [الشُّعراء: 77 - 80].

نوعُ الإضافةِ ودلالتُها في قوله: ﴿رَبَّكَ﴾:

من إكرامِ اللهِ وتشريفِه للنَّبي محمدٍ ﷺ حمايتُه من كيدِ المشركين

إضافةُ الرُّبوبيَّةِ إلى كافِ الخطابِ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾، والمخاطَبُ فيه رسولُ اللّه ﷺ - إضافةُ تشريفٍ للنبيِّ ﷺ وتكريمٍ، وفيها إشارةٌ إلى تسليةِ النبيِّ ﷺ؛ لِما يلاقيه من قومِه، والوعدِ بحفظِه والعنايةِ بشأنِه، فاللّهُ ربُّه القريبُ منه، الذي خلقَهُ، وقام بربوبيَّته، يرعاهُ، ويدبِّرُ له أمورَه لحمايتِه من كيدِ المشْركين(1)، وذلك في سياقِ الحديثِ عن كُفْرِ أكثر المخاطَبين مِنْ قريش بقوله: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5362.

نكتةُ التَّذييلِ بـ ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾:

في تذييلِ قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ۝١٠٣ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ بالاسمين الجليلين ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ مناسَبةٌ لمضمونِ الآية؛ لأنَّه لَما كان المفهومُ من قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ أنَّ الأقلَّ من قومِهِ آمنوا، وأنَّ أكثرهم كفروا؛ ناسبَ أنْ يأتيَ بوصفي العزيز الرَّحيم؛ للإشارةِ إلى أنَّ العزَّةَ والقهرَ والغلبةَ على مَنْ لا يؤمنُ منهم، والرَّحمةَ لَمَنْ آمن، فهو سبحانه المنتقمُ بإهانةِ من جَحَدَ، وأصَرَّ، الرَّحيمُ المنعمُ بإعانةِ مَنْ وحَّدَ، وأقَرَّ[1]، القادرُ على تعجيلِ الانتقام، الرَّحيمُ بالإمهال؛ إذ لم يُهلكهم، بلْ أخَّرَ ذلك، وأرسلَ إليهمُ الرُّسلَ، ونَصَبَ لهمُ الشَّرائعَ؛ ليؤمنوا بها هم أو ذريَّتُهم[2]، "أي: مع كونهم لم يؤمن أكثرهم، فاللهُ تعالى هو العزيزُ الذي لا يُغلَب، وإنَّما يَغْلِبُ، ومع عِزَّته تعالى فهو رحيمٌ بعباده يفتحُ بابَ التَّوبةِ لمن تاب"[3].

منتقمٌ بإهانةِ مَنْ جحَدَ وأصرَّ، رحيمٌ بإعانةِ مَنْ وحَّدَ وأقَرَّ

دلالةُ التَّعريفِ في قوله: ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾:

اللامُ في الاسمينِ الجليلينِ ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ للاستغراقِ، أي: تفيدُ استغراقَ الوصفِ في كلٍّ منهما، فهو الجامعُ لكلِّ عزَّةٍ ورحمةٍ، فالعزَّةُ والرَّحمةُ - في الحقيقة - كلها لَهُ.

اللهُ الجامعُ لكلِّ عزَّةٍ ورحمةٍ

سرُّ غيابِ العاطفِ بين ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ و﴿ٱلرَّحِيمُ﴾:

لم يأتِ البيانُ القرآنيُّ بين الاسمين الجليلين ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ بعاطفٍ؛ لأنَّ الرَّحيمَ خبرٌ ثانٍ[4]، بما يفيدُ المبالغةَ في تأكيدِ كمالِ رحمتِه سبحانه، وأنَّها لا تقلُّ عن كمالِ عزَّته.

كمالُ رحمته لا تقلُّ عن كمالِ عزَّتِه

---

(1) النّسفي، مدارك التّنزيل: 2/ 574.
(2) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 19/ 79.
(3) الشّعراوي، خواطر الشّعراوي: 17/ 10616.
(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 102.

دلالةُ صيغةِ فعيلٍ في: ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾:

عبَّرَ البيانُ القرآنيُّ عن الاسمَيْن الجليلَيْن في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ بصيغةٍ على وزنِ (فعيل)، وهي من أبنيةِ المبالغة؛ للدَّلالة على كمالِ عزَّتِه سبحانه، وكمالِ رحمته، فهو سبحانه شديدُ الانتقام من أعدائه الكافرين به الجاحدين المكذِّبين بالرِّسالات، وشديدُ الرَّحمةِ بأوليائه المؤمنينَ به المصدِّقين لرسلِه، وفي ذلك تطمينٌ للمؤمنين، وتهديدٌ ووعيدٌ للمشركين.

المبالغةُ في تأكيدِ كمالِ عزَّتِه سبحانه وكمالِ رحمتِه تطمينٌ للمؤمنين وتهديدٌ للمشركين

سرُّ اقترانِ الاسمين: ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾:

يدلُّ كلٌّ مِنَ الاسمين الجليلين ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ على الكمالِ الخاصِّ الذي يقتضيه كلٌّ منهما، وهو كمالُ العزَّةِ في اسم اللّه ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ وكمالُ الرَّحمةِ في اسم اللّه ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾، واقترانُهما دالٌّ على كمالٍ آخر، وهو: أنَّ عزَّةَ اللّه سبحانه مقرونةٌ بالرَّحمةِ، فهو مع عزَّته يَفْتَحُ بابَ توبته، لا يُعاجلُ بالعقوبةِ بل يُمهل.

مع عزَّتِه سبحانه يَفْتَحُ بابَ توبتِه ورحمته

قد قدَّم القرآنُ اسمَ العزيزِ على اسم الرَّحيم؛ لكونِه أنسبَ للسّياقِ قبلَهُ، وهو قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ﴾، فقلَّةُ المؤمنين يُناسبُها اسمُ العزيز، والمقامُ مقامُ تهديدٍ للكافرين، فناسَبَ أنْ يُقدَّمَ اسمُ العزيز الذي يدلُّ على انتقامِه من الكافرين، وأنْ يُؤَخَّرَ اسمُ الرَّحيم الذي يدلُّ على رحمتِه بأوليائه؛ مواساةً للنبيِّ ﷺ وتطميناً له، ولِمَنْ آمن معه.

في التَّقديمِ مناسبةٌ للسّياقِ والمقامِ

بلاغةُ الكنايةِ في الآية:

تتجلّى الكنايةُ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ باستخدامِ صفتي ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ اللَّتين تعبِّران عن قوَّةِ اللّه ورحمتِه، ولكنَّهما في الوقتِ ذاته تعطيانِ معنًى أعمقَ، فـ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ يشيرُ إلى أنَّ اللّهَ هو المنتقمُ من أعدائه، و﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ يشيرُ إلى أنَّه

القادرُ على الانتقامِ، الرَّحيمُ بالإمهالِ سبحانه وتعالى

رحيمٌ بأوليائه(1)، أو أنَّ أحدَهُما يشيرُ إلى أنَّه القادرُ على تعجيلِ الانتقام، والآخرُ يشيُر إلى أنَّه الفاعلُ فِعْلَ البليغِ الرَّحمة، فهو يمهلُ، ويدرُّ النِّعم، ويحوطُ من النِّقم(2)، رحيمٌ بالإمهال؛ إذ لم يُهلكهم، بلْ أخَّرَ ذلك، وفتحَ لهم بابَ التَّوبة؛ ليتوبوا(3)، وهذا يعكسُ الجانبين مِنَ اللّه القوَّةَ والعدالةَ والرَّحمةَ والرَّأفةَ، وفي هذين الوصفين إنذارٌ وتبشيرٌ؛ لأنَّ العالَم يقومُ على المساواة بين الخير والشَّرِّ، ولكلٍّ موضِعُهُ(4).

نكتةُ التَّكرارِ في الآية:

خطابٌ كريمٌ من ربٍّ رحيمٍ إلى خاتمِ المرسلينَ يثبِّتُ به قلبَهُ الرحيمَ

تكرَّرت هذه الآية: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ في سورة الشُّعراء ثماني مرّاتٍ، وفي كلِّ مرَّةٍ تأتي بعد قصَّةٍ من قصص الأنبياء، بما يعزِّزُ الرِّسالةَ التي تحملها الآيةُ من عِبرةٍ واحدةٍ تُستخلصُ من كلِّ قصصِ الأنبياء، ويعطيها أكثرَ قوَّةً وتأثيرًا، وهذه الرِّسالةُ هي: خطابٌ كريمٌ، من ربٍّ رحيم، يوجِّهه الحقُّ سبحانه وتعالى إلى خاتمِ أنبيائِه ورسلِه، مُذكِّرًا إيَّاهُ أنَّ اللّهَ لأعدائه بالمرصاد، ولأوليائه بالرَّحمةِ والإمدادِ، كما أنَّ خَتْمَ الآيةِ بوصفِه تعالى بالعزَّةِ والرَّحمة بعد كلِّ قصَّة فيه كلُّ المناسبةِ للحديثِ عن مصيرِ الكافر والمؤمن في كلِّ زمان، فهو عزيزٌ يعاقب الكافر، ورحيمٌ بمن آمن(5)، وفي هذا تثبيتٌ لقلبِ النَّبي ﷺ وقلبِ أصحابه والمؤمنين في كلِّ زمانٍ، قال تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝١٢٠﴾ [هود: 120].

(1) النّسفي، مدارك التّنزيل: 2/ 574.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 46.
(3) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 19/ 79.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5375.
(5) النّاصري، التّيسير في أحاديث التّفسير: 4/ 362.

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٠٥ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا
تَتَّقُونَ ۝١٠٦ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝١٠٧ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١٠٨
وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٠٩
فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١١٠﴾ [الشعراء: 105 - 110]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

بعد قصَّة الأبِ الأعظمِ الأقرَبِ جـاءتْ قصَّة الأبِ الثّاني تدلّلان على عزَّة الله ورحمته

لَمّا أَتَمَّ سُبحانَه قصَّةَ الأبِ الأعظمِ الأقرَبِ، وهو إبراهيم؛ أَتْبَعَها - دَلالةً على وصْفَي العِزَّةِ والرَّحمة - قصَّةَ الأبِ الثّاني، مُقَدِّمًا لها على غيرِها؛ لِما له مِن القِدَمِ في الزَّمانِ؛ إعلامًا بأنَّ البلاءَ قديمٌ، ولأنَّها أدَلُّ على صِفتَيِ الرَّحمةِ والنِّقمةِ التي هي أثَرُ العِزَّةِ، بطولِ الإملاءِ لهم على طولِ مدَّتِهم، ثمَّ تعميمِ النِّقمةِ مع كونِهم جميعَ أهلِ الأرضِ، فقال: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَمِينٌ﴾: (أمن) له أَصلانِ مُتقاربانِ: أحدهما الأمانةُ الَّتي هي ضدُّ الخيانَة، ومعناها سُكونُ القَلْبِ، والآخَرُ التَّصديقُ[2]، يُقالُ: أَمِنْتُ الرَّجُلَ أمنًا وأَمَنَةً وأَمانًا، وآمَنَني يُؤْمِنُني إيمانًا، والعَرَبُ تَقولُ: رَجُلٌ أُمّانٌ؛ إذا كانَ أَمينًا، والأَمينُ: القويُّ؛ لأنَّهُ يوثَقُ بقوَّتِه[3]، والأمينُ أيضًا: الَّذي يحفظُ ما عُهِدَ له به حتَّى يُؤَدّيَهُ دونَ نَقْصٍ ولا تَغييرٍ، والرَّسولُ لا يُبعَثُ إلّا وقد كانَ معروفًا بالأَمانةِ وحُسْنِ الخُلقِ قَبْلَ الرِّسالةِ[4].

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 61.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أمن).
(3) ابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (أمن).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 164.

2) ﴿أَجۡرٍ﴾: أصلُ (أجر) هو الجَزاءُ على العَمَلِ[1]، ومنه سُمّيَ الثَّوابُ أَجْرًا؛ لأنَّ اللّهَ يَجْزي العَبْدَ عليه، والأَجْرُ: العِوَضُ، والأجير: فعيل بمعنى فاعل أو مفاعل، والاستئجارُ: طلبُ الشَّيءِ بالأجرة[2]، والمقصودُ بالأجر في الآية: العِوَضُ والجَزاءُ على العَمَلِ.

المَعْنى الإِجْماليُّ:

تكذيبُ قومِ نوح نبيَّهم رغمَ أخوَّتِهِ لهم وأمانته عندهم وتعفُّفه عن أموالهم

يُخبرُ اللّهُ سبحانه عن جانبٍ مِن قِصَّةِ نبيِّه نوحٍ عليه السلام مع قَومِه، فيقولُ: كذَّبتْ قومُ نوحٍ دعوةَ الرُّسل الواحدة بتكذيبهم رسالةَ نبيِّهم نوح عليه السلام، حينَ قال لهم نوحٌ، وهو أخوهم في النَّسَبِ: ألا تتَّقونَ اللّهَ، وتَحذَرون عِقابَهُ، فتُخلِصوا له العِبادَة، وتَترُكوا عبادةَ غَيرِه؟ إنّي لكم رَسولٌ مِن اللّهِ، أمينٌ على وحيِه الذي بعَثَني به إليكم، فأُبلِّغُكم رسالةَ اللّهِ بلا زيادةٍ أو نُقصانٍ؛ إذ إنَّكم تعرفون أمانتي، فاتَّقوا سَخَطَهُ تعالى وعِقابَهُ، وأطيعوني فيما آمُرُكم به، وأنهاكم عنه، وما أطلُبُ منكم على نُصحي لكم أيَّ جَزاءٍ وعوض، وما أرجو ثَوابي إلّا مِنَ اللّهِ الخالقِ الرّازِقِ، المالِكِ المدَبِّرِ لجميعِ العالَمينَ، فاتَّقوا سَخَطَ اللّهِ وعِقابَهُ، وأطيعوني فيما آمُرُكم به، وأنهاكم عنه، فقد بانَ لكم صِدقي[3].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

سرُّ فصلِ جملة ﴿كَذَّبَتۡ﴾ عمّا قبلها:

تسليةُ اللهِ للنَّبيِّ صلى الله عليه وسلم وبيانُ سنَّتِهِ في عقاب المكذِّبين

فَصَلَ البيانُ القرآنيُّ جملة ﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ نُوحٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ عن التي قبلَها؛ لأنَّها جاءتِ استِئنافًا لِتَسليةِ الرَّسولِ صلى الله عليه وسلم، وبيانِ سنَّةِ اللّهِ في عقابِ المكذِّبين، ناشئٌ عن قوله: ﴿وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ﴾، أي: لا تأسَ عليهم، ولا تجزعْ، ولا تحزنْ، ولا تغتمَّ، ولا

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أجر).

(2) الرّاغب، المفردات: (أجر).

(3) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 602، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 119، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 151، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 19/ 81.

يعظم عليك أنَّهم كذَّبوك؛ فقد كذَّبتْ قومُ نوح المرسلين، وقد علمَ العربُ رسالةَ نوحٍ، وكذلك شأنُ أهلِ العقولِ الضّالَّة أنَّهم يعرفون الأحوالَ، وينسون أسبابها[1].

علّةُ التَّعبيرِ بقولِهِ: ﴿كَذَّبَتۡ﴾:

جـرأةُ الكافرين بنسبتِهم الكذبَ إلى نوحٍ عليه السلام

عَبَّرَ البيانُ القرآنيُّ بِالتَّكْذيبِ في قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ نُوحٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾؛ لكون التَّكذيب يتناسبُ مع عنادِ الكافرين وتجرُّئِهم ومجاهرتهم بالتَّكذيب؛ إذ أصلُ الكذبِ يدلُّ على خلافِ الصِّدق، والتَّكذيبُ هو نسبةُ الآخرِ إلى الكذبِ[2] تهمةً أو افتراءً أو إنكارًا، وكأنَّهم قالوا له في جرأةٍ: كَذَبْتَ؛ لأنَّ مَعْنَى كَذَّبْتَهُ، قلتَ لَهُ: كَذَبْتَ، وأَخْبَرْتَ أَنَّهُ كاذِبٌ[3]، ولمناسبتِهِ للسّياق؛ إذ الكذبُ لا يقعُ إلّا في الخبر[4]، والسّياقُ يتحدَّث عن قومِ نوحٍ وتكذيبهم له في إخبارِهِ لهم بأنَّه رسولٌ أمين، وكذلك للتَّناسب مع ذكرِ لفظ التَّكذيب الوارد في قصص الأنبياءِ في هذه السّورة.

علّةُ التَّعبيرِ بـ﴿قَوۡمُ﴾ وسرُّ التَّأنيث:

إنـكـارُ الأقـربين أشـدُّ جـرمًـا، ولـذا هم أهـونُ شيءٍ على اللهِ وأضعفُه

التَّعبيرُ بلفظ القوم في الآية، دون لفظِ الجماعة أنسبُ للمقام وللسّياق؛ لأنَّ القومَ في اللُّغة يشملُ جميعَ شيعة الرَّجل وعشيرته برجالِهم ونسائهم وأطفالهم، ويدلُّ على العدد الكثير[5]، بخلافِ الجماعة التي قد تُطلق على القليل والكثير ممَّن يجمعهم غرضٌ واحدٌ[6]، ومعلومٌ أنَّ قومَ نوحٍ هم أهلُ الأرض كلُّهم من الآدميين، قبل اختلافِ الأمم بتفرُّق اللغات، وهم أهلُ نوح عليه السلام وعشيرته[7]، وأمّا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 156.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كذب).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (كذب).
(4) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 43.
(5) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (قوم).
(6) مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط: (جمع).
(7) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 61.

السّياق؛ فقد ناسب لفظ ﴿أَخُوهُمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ﴾، وفي إنكارِ العددِ الكبير وتكذيبهم من الأقربين دليلٌ على شدَّة جرمهم وقبحِ نفوسِهم؛ إذ هم أولى النّاس بتصديقِ رسولهم.

وقد أنَّثَ النَّظمُ الحكيمُ لفظَ القوم بتأنيثِ فعل التَّكذيب المسند إليه - وإنْ كان تذكير القوم أشهر - لأنَّ القومَ في معنَى الجماعةِ والأمَّةِ[1]، وللتَّنبيهِ على أنَّهم - مع عتوِّهم وكثرتهم - كانوا عليه سبحانه أهونَ شيءٍ وأضعفَهُ[2]؛ لأنَّ التَّأنيث يدلُّ على الضَّعف، ولكونه أنسبَ مع ترفُّعهم بذكوريَّتهم، أو لأنَّ القومَ في اللُّغة يذكَّرُ ويؤنَّث، وكذلك كلُّ اسم جمعٍ لا واحدَ له من لفظه نحو: رهط، ونفر[3]، ويكون السّياق بذلك قد جمع بين الأمرين: تأنيثِ لفظ القوم بتأنيث فعل التَّكذيب المسندِ إليه، وتذكيرِه بالضَّمائر الرّاجعة إليه ﴿لَهُمْ﴾، ﴿أَخُوهُمْ﴾، ﴿تَتَّقُونَ﴾، وفي هذا تفنُّنٌ في اللَّفظ مُبدعٌ.

نكتةُ ذِكرِ ﴿نُوحٍ﴾ مجرَّدًا:

وصفُ نوحٍ عليه السلام بالرَّسول معلومٌ من السّياق

ذكرَ البيانُ القرآنيُّ نوحًا في قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ مجرَّدًا من وصفِ النُّبوَّة أو الرِّسالة، فلم يقل: قومُ نبيِّ اللّٰه أو رسول اللّٰه نوح؛ اختصارًا عن زيادة في اللَّفظ؛ لكون وصفِ الرِّسالة معلومًا من لفظ ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، وصرَّح به في قوله: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾.

غرضُ الإضافةِ في قوله: ﴿قَوْمُ نُوحٍ﴾:

عظيمُ جُرمِ قومِ نوحٍ إذ كذَّبوه رغمَ فضلِهِ عليهم

الغرضُ الأساس من الإضافة في قوله: ﴿قَوْمُ نُوحٍ﴾ التَّعريفُ بقومِ نوحٍ عليه السلام؛ وأنَّه أُرسل إليهم، فلهم مزيدُ اختصاص به؛ ولأنَّه واحدٌ منهم، وهم بين أبناءٍ له وأنسباء، فإضافتهم إلى ضميره تعريفٌ

---

(1) ابن جزي، التّسهيل لعلوم التّنزيل: 2/ 93.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 61.

(3) الفيومي، المصباح المنير: (قوم)، والآلوسي، روح المعاني: 10/ 262.

لهم؛ إذ لم يكنْ لهم اسمٌ خاصٌّ من أسماءِ الأمم الواقعة من بعدُ(1)، وفي هذا إشارةٌ إلى عظيم جرمِهم؛ إذ كفروا به رغمَ فضلهِ عليهم.

علَّةُ التَّعبير بـ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾:

التَّكذيبُ بالرُّسلِ وما جاؤوا به من رسالاتٍ أفظعُ من التَّكذيب بالنَّبيّين

التَّعبيرُ بـ ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ دون (النبيّين)، في قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾؛ لكون لفظِ المرسلين أبلغَ في الدَّلالة على أنَّ قومَ نوحٍ عليه السلام قد كذَّبوا بالمرسلين، وما جاؤوا به من رسالاتٍ سماويَّة من عند اللّه؛ إذ لفظُ النَّبيّين لا يدلُّ على حملِ الرِّسالة، فالتَّعبيرُ بتكذيب المرسلين يشتمل على تكذيب الرُّسل وتكذيب الرِّسالات، وكذلك للتَّناسب مع السّياق الَّذي ذُكِرَ فيه لفظُ ﴿رَسُولٌ﴾ في قوله: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾.

دلالةُ التَّعريفِ في: ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾:

في أوَّليَّة رسالةِ نوحٍ شرفٌ له عليه السلام وذمٌّ لقومه؛ إذ كانوا أوَّل المكذِّبين

(أل) التَّعريفِ في قوله: ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ عهديَّةٌ، ومعهودها ذهنيٌّ، وهو نوحٌ عليه السلام؛ إذ إنَّه أوَّلُ رسولٍ أُرسلَ إلى البشرية، وقومه في الحقيقة كذَّبوا رسولًا واحدًا هو نوحٌ، وهم أوَّلُ المُكَذِّبين، وقد قال سبحانه: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ٢١﴾ [نوح: 21]، وفي أوَّليَّة رسالةِ نوحٍ شرفٌ له عليه السلام، وذمٌّ لقومهِ؛ إذ كانوا أوَّلَ المكذِّبين.

سرُّ وضعِ الجمع ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ موضع المفرد:

من كذَّب رسولًا فقد كذَّب جميعَ الرُّسل

مع أنَّ قومَ نوحٍ كَذَّبوا رسولًا واحدًا - وهو نوحٌ عليه السلام - بدليلِ قولِه تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾، إلى قولِه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ١١٧﴾ [الشعراء: 117]، إلّا أنَّ البيانَ القرآنيَّ عبَّر بصيغة الجمع ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، في قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾؛ تعظيمًا له، أو لأنَّه لطولِ لَبْثِهِ فيهم كأنَّه رُسُلٌ(2)، أو للدَّلالة على أنَّهم كذَّبوا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 187.

(2) الزّحيلي، التّفسير المنير: 19/ 183.

بجميع الرُّسل؛ لأنَّهم قد جاؤوا جميعًا برسالةٍ واحدة في أصولها التي لا تختلفُ باختلافِ الزمان والمكان، وهي توحيدُ اللّهِ وإخلاصُ العبوديَّة له[1]؛ ولذا صار مُكَذِّبُ واحدٍ منهم مُكذِّبًا لجَميعِهم، ولجميع ما جاؤوا به من الحقِّ؛ لأنَّ كلَّ رسولٍ يأمرُ بتصديقِ جميع الرُّسل[2]، أو لأنَّهم كذَّبوا نوحًا في النُّبوَّة، وفيما أخبرهم به من مجيء المرسلين بعده[3]، أو لأنَّ تكذيبَهم لم يكُنْ لأجْلِ ذاتِه، ولكنَّه كان لإحالتِهم أنْ يُرسِلَ اللّهُ بشَرًا، وأنْ تكونَ عِبادةُ أصنامِهم ضَلالًا، فكان تكذيبُهم إيّاه مُقتضيًا تَكذيبَ كُلِّ رسولٍ؛ لأنَّ كلَّ رسولٍ يقولُ مِثلَ ما قاله نوحٌ عليه السلام، ولذلك تكرَّر في قولِه: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ١٢٣﴾ [الشُّعراء: 123] وما بعْدَه[4]، أو أنَّه أرادَ الجِنسَ، كقولِكَ: فلانٌ يركبُ الخيلَ، وإنَّما لم يركَبْ إلّا فرَسًا واحدًا[5].

الموقعُ الإعرابيُّ لقوله: ﴿إِذْ قَالَ﴾:

عدمُ تأنّي قومِ نوحٍ في طلبِ الدَّليل وسرعةِ مجابهتهِ بالتَّكذيب في زمنٍ مديدٍ

﴿إِذْ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ ظرفٌ للماضي متعلِّقٌ بقوله: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، والمعنى: (كذَّبوا نبيَّهم نوحًا وقت أن قال لهم ناصحًا ومنذرًا: ألَا تتَّقونَ اللّهَ)[6]، كأنَّهم جابهوا نوحًا عليه السلام، وهو يقول لهم: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ بإنكارِ أصلِ الرِّسالة[7]، ولَم يَتَأنَّوا بِطَلَبِ دَليلٍ، ولا ابْتِغاءِ وجْهٍ جَميلٍ[8]، كما أنَّ هذا الظَّرْفَ يشيرُ إلى أنَّ تكْذيبَهم عِبارَةٌ عَنْ زَمانٍ مَديدٍ وقَعَ فيهِ ما وقَعَ مِنَ الجانِبَيْنِ إلى تَمامِ الأمرِ، وعِبارَةٌ عَمّا صَدَرَ عَنْهم مِنِ ابْتِداءِ

---

(1) طنطاوي، التّفسير الوسيط: 10/ 262.

(2) السّعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 594.

(3) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 119، والشّنقيطي، دفع إيهام الاضطراب، ص: 174.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 157.

(5) ابن جزي، التّسهيل لعلوم التّنزيل: 2/ 93، والزّمخشري، الكشّاف: 3/ 323، والطّيبي، فتوح الغيب: 11/ 387، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 254.

(6) طنطاوي، التّفسير الوسيط: 10/ 262، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 158.

(7) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5377.

(8) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 61.

دَعْوَتِهِ ﷺ إلى انْتِهائِها[1]، وهذه المعاني كلُّها التي أشارَ إليها الظَّرفُ تؤكِّدُ شدَّةَ عنادِهم وتصامِّهم عن سماعِ الحقِّ.

وجهُ تذكيرِ الضَّمائر في الآية:

الذُّكورةُ تكليفٌ لا تشريفٌ ومسؤوليَّتُها مضاعفةٌ إيمانًا وكفرًا

ذكَّر البيانُ الإلهيُّ الضَّمائرَ في ﴿لَهُمۡ﴾، ﴿أَخُوهُمۡ﴾، ﴿تَتَّقُونَ﴾، ﴿أَسۡـَٔلُكُمۡ﴾، ﴿۞قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ﴾ العائدةَ على لفظ ﴿قَوۡمُ﴾، في قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ نُوحٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ - مع أنَّه أنَّث فعلَ التَّكذيب ﴿كَذَّبَتۡ﴾، ومع أنَّ لفظَ القوم يشملُ آحادَ قومه العقلاء من الذُّكور والإناث؛ بِاعْتِبارِ لَفْظ ﴿قَوۡمُ﴾ وهو لفظٌ مذكَّر جوازًا[2]، ويصحُّ هذا في كلِّ اسم جمع[3]، أو باعتبار تغليبِ الذُّكور[4]؛ لأنَّ القوامةَ لهم، وهم مسؤولون عن رعيَّتهم من النِّساء، والنِّساءُ في واقعِ الحياة لهم تبع، ولهذا فالذَّنْبُ عليهم مضاعفٌ؛ إنْ كفروا، والأجرُ لهم مضاعفٌ؛ إنْ أسلموا، وخضعوا للّه سبحانه.

معنى اللامِ في قوله: ﴿لَهُمۡ﴾:

دعوةُ نوحٍ خاصَّةٌ بقومِهِ بلَّغهم إيّاها برفقٍ ولينٍ

اللامُ في قوله: ﴿قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ لامُ التَّبليغ، "وهي الجارَّةُ لاسم السّامع لقولٍ أو ما في معناه"[5]، ويتمُّ بها تعديةُ فعلِ القولِ إلى المخاطَبِ بالقول، أي: بلَّغ نوحٌ قومَهُ برفقٍ ولينٍ أنْ يتَّقوا اللّه، وفيها ملمَحُ الاختصاص، وأنَّ هذا القول خاصٌّ بهم؛ اهتمامًا بهم وحبًّا لهم وحرصًا على مصالحهم.

نكتةُ تقديمِ: ﴿لَهُمۡ﴾ على: ﴿أَخُوهُمۡ﴾:

اهتمامُ نوحٍ بقومِهِ وحرصُهُ على هدايتهم إقامةٌ للحجَّةِ عليهم

قدَّمَ البيانُ القرآنيُّ الجار والمجرور على الفاعل، في قوله تعالى: ﴿إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ﴾؛ للاهتمامِ بهم، وأنَّهم المعنيّون بالقول، وهذا

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 254.
(2) السيوطي، تفسير الجلالين، ص: 487.
(3) الصاوي، حاشيته على تفسير الجلالين، ص: 1350.
(4) ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 15/ 55.
(5) السّيوطي، الإتقان: 2/ 266.

من إقامةِ الحُجَّة عليهم، وفيه إشارةٌ إلى حبِّ نوحٍ عليه السلام ورحمتِهِ بقومِهِ، وحرصِه على إيمانهم وهدايتهم، وهم رغم هذا الاهتمام سُمّاعُ رسالته سماعَ تدبُّرٍ واتِّعاظ.

علَّةُ ذِكرِ الأخوَّةِ في قولِه: ﴿أَخُوهُمْ﴾:

الأليقُ بالأخوَّة أنْ تقودَ إلى المسالمِةِ والاطـمـئـنـانِ والإيـــمـــانِ والتَّصديق

وصفَ البيانُ القرآنيُّ نوحًا عليه السلام بالأخوَّة لقومه، في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ﴾، والمرادُ أخوَّةُ النَّسَبِ؛ لأنَّه كان واحدًا منهم، يعرفون حَسَبَهُ ونسبه ونشأته بينهم[1]، وقد ابتعثَ اللّهُ الرُّسُلَ من نَسَبِ مَن أُرسِلَ إليهم؛ لئلّا يشمَئِزّوا من الانقيادِ له، ولأنَّهم يَعرِفونَ حقيقَتَهُ، فلا يحتاجونَ أنْ يبحَثوا عنه[2]، فتكون الأخوَّة أدعى لتصديقه؛ إذ الأليقُ بها أنْ تقودَ إلى المسالمة والاطمئنان والإيمان والتَّصديق، ولكنَّهم سارعوا للتَّكذيب، ولم يأبهوا لصلةِ الأخوَّة، ولم يقيموا لها حقَّها، وفي هذا زيادةٌ في تسليةِ النَّبيِّ الكريم محمَّد صلى الله عليه وسلم؛ فقد كذَّبه قومه وأهله، وهم أعلمُ النّاس برحمته بهم وبصدقه وأمانته.

نوعُ الإضافةِ ودلالتُها في قولِه: ﴿أَخُوهُمْ﴾:

أخوَّةُ نوحٍ لقومه ومـعـرفـتـهـم له تستدعي منهم المـسـارعـةَ إلى تصديقه

إضافةُ نوحٍ عليه السلام إلى قومِهِ في قوله تعالى: ﴿أَخُوهُمْ﴾ إضافةُ تعريفٍ للمضافِ، بأنَّهُ أخٌ لقومِهِ في النَّسَبِ؛ تلطُّفًا في خطابهم، وبيانًا لحرصه على ما ينفعهم.

الموقعُ الإعرابيُّ ودلالتُه في ﴿نُوحٌ﴾:

﴿نُوحٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَخُوهُمْ نُوحٌ﴾ بدلٌ من ﴿أَخُوهُمْ﴾، أو عطفُ بيانٍ منه[3]، وفيه توكيدُ نسبتهم لنوحٍ وأخوَّتهم له، واهتمامُ بهذه الأخوَّة؛ زيادةً في استجلابهم نحو التَّصديق به.

---

(1) طنطاوي، التّفسير الوسيط: 10/ 262.

(2) السّعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 594.

(3) الهرري، حدائق الرّوح والريحان: 20/ 271.

معنى ﴿أَلَا﴾ ودلالة التَّعبيرِ بها:

إنكارٌ يشوبهُ الحضُّ أو العرضُ دفعًا للمقلّدين؛ ليشتغلوا بالاستدلال والنظر

يجوزُ أنْ يكونَ لفظُ ﴿أَلَا﴾ في قولِه: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ مُرَكَّبًا مِن حرفَين: همزةِ استِفهامٍ دخلَتْ على (لا) النّافيةِ، فهو استِفهامٌ عنِ انتفاءِ تَقْواهم، مُستعمَلٌ في الإنكارِ، وهو يقْتضي امتناعَهم مِنَ الامتثالِ لدَعوتِه، ويجوزُ أنْ يكونَ ﴿أَلَا﴾ حرْفًا واحدًا، هو حَرفُ التَّحضيضِ، وهو يَقتَضي تباطُؤَهم عن تَصديقِه[1]، والأجدرُ أنْ يُحضَّ، ويُحثَّ على التَّقوى كلُّ مُنكِرٍ جبّارٍ[2]، أو تكون حرف عرض، أي: ألا تتَّقون، فتحذروا عقابَهُ على كفركم به وتكذيبكم رسله، وقد قُصِدَ بهذا العرض تخويفهم؛ لأنَّ القومَ إنَّما قبلوا تلك الأديان تقليدًا، والمقلِّد إذا خوِّف؛ خاف، وما لم يستشعر بالخوف؛ لا يشتغلُ بالاستدلال والنَّظر، ولهذا السبب قُدِّم قوله: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ على جميع كلماته[3].

دلالةُ المضارعِ في قوله: ﴿تَتَّقُونَ﴾:

وجوبُ تجدُّدِ التَّقوى دائمًا حتى تتحقّق النَّجاة

عبَّر النَّظمُ الحكيم عن فعل التَّقوى الذي حثَّهم عليه، وحضَّهم على الاتِّصاف به بصيغةِ المضارع، في قوله تعالى: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾؛ للدَّلالة على وجوبِ استمرار التَّقوى وتجدُّدِها دائمًا بحسب متعلّقاتها، أي: حضُّهم على استمرارِ التَّقوى منهم في كلِّ شؤونِ حياتِهم عن كلِّ ما يُغضبُ اللّهَ من الأقوال والأفعال؛ حتى تتحقَّقَ لهم النَّجاة.

سرُّ حذفِ مفعولِ ﴿تَتَّقُونَ﴾:

العمومُ يُفصِحُ عن كُنْهِ المطلوبِ تجنُّبُهُ منهم

في قوله تعالى: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ إيجازٌ بالحَذفِ، فمُتعلِّقُ التَّقوى مَحذوفٌ؛ لشهرته وظهوره، فذِكْرُه وحذفه سواء، فيُحترز عن ذكره اختصارًا، أي: قال لهم نوح عليه السلام: ألا تتَّقونَ عذابَ اللّه وعقابَه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 158.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5377.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 520.

على شركِكم؟ أو: ألا تتَّقونَ مخالفةَ أمرِ اللّه، فتتركوا عبادتَكم للأصنامِ[1]، ويفيدُ الحذفُ كذلك العمومَ، أي: ليعمَّ كلَّ ما يجب أنْ يتَّقوه من غضبِ اللهِ وعذابه في الدُّنيا والآخرة، ومن كلِّ أنواعِ السَّيِّئات من الكفر والمعاصي، ولو ذُكِرَ المفعولُ به؛ لأدّى ذلك إلى تخصيصِ فعل التَّقوى ببعض ممّا يجب تجنُّبُه، كما أنَّ الحذفَ أنسبُ مراعاةً لفاصلة الآيات، التي خُتِمت بالواو والنّون أو الياء والنّون، مثل: ﴿أَمِينٌ﴾، ﴿وَأَطِيعُونِ﴾، ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، ﴿ٱلۡأَرۡذَلُونَ﴾، بما يحقِّق إحكامَ اللفظ.

سرُّ فصلِ جملة ﴿إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾:

تعليلٌ لإنكارِ نوحٍ على قومه أو لحضِّهم على التَّقوى ونصحهم بها

فَصَلَ البيانُ القرآنيُّ جملة: ﴿إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ عن الَّتي قبلها: ﴿إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾، ولم يربطهما بعاطف؛ لِما بين الجملتين من كمالِ اتِّصالٍ؛ إذ إنَّ الجملةَ الثّانية جاءتْ تَعليلًا لإنكارِ نوحٍ على قومه، أو للتحضيض، أي: كيف تستمرّون على الشِّرك، وقد نهيتكم عنه، وأنا رسولٌ لكم أمينٌ عندكم[2]، أو تعليلًا لنصحِهِ لهم بالتَّقوى، أي: لأنّي رسولٌ معروفٌ بينكم بالأمانةِ وعدم الخيانة، أو الغشِّ أو المخادعة[3].

فائدةُ توالي المؤكِّداتِ في الآية:

دخولُ المؤكِّداتِ على الخبرِ يُفيدُ المبالغةَ في تحقيقِ مضمونه والاستقصاء في تبليغه

توالتِ المؤكِّدات فيما أخبرَ بِهِ نوحٌ ﷺ قومه، في قوله تعالى: ﴿إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾، فأكَّد بـ (إنَّ) الَّتي تُفيدُ توكيدَ النِّسبةِ بين المسندِ والمسندِ إليه، وأكَّد بتقديم الجار والمجرور ﴿لَكُمۡ﴾، أي: لكم خاصَّة، وبالجملة الاسميَّة التي تدلُّ على الثَّباتِ وقوَّةِ الحُكْمِ وبَقائِهِ، وبوصفِ نفسه بالأمانة ﴿أَمِينٌ﴾ بصيغة المبالغة فعيل، وبصيغة اسم

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 175.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 158.
(3) طنطاوي، التّفسير الوسيط: 10/ 262.

الفاعلِ الذي يدلُّ على الثَّبات، والأمانةُ تقتضي ألّا يكذبَ على اللّه[1]، والتَّوكيدُ بالاستئناف الموجود في الجملة الذي يقتضي تأكيدَ الحكم؛ إذ جاءت الجملةُ تعليلًا لإنكارِ نوحٍ على قومه، أو لحضِّهم ونصحهم لهم بالتَّقوى، وفي توالي هذه المؤكِّدات مبالغةٌ في الدَّلالة على تحقيق كونه رسولًا أمينًا، والاستقصاءُ في إبلاغ الدَّعوة إلى قومه.

وتأكيدُ نوحٍ عليه السلام بهذه المؤكِّدات مع عدَم سَبْقِ إنكارِهم أمانتَهُ؛ لأنَّه توقَّعَ حُدوثَ الإنكار؛ فاستَدلَّ عليهم بتَجرِبةِ أمانتِه قبْلَ تبليغ الرِّسالة، فإنَّ الأمانةَ دَليلٌ على صِدقِه فيما بلَّغَهم مِن رِسالةِ اللّه، ويحتملُ أنْ يرادَ به أمينٌ من جانبِ اللّه على الأمَّةِ التي أُرسل إليها، والتَّأكيدُ أيضًا لتوقُّع الإنكار منهم[2].

سرُّ حذفِ إحدى النونين في قوله: ﴿إِنِّي﴾:

في التَّخفيف إيماءٌ إلى حرص نوحٍ أنْ يُتَّبع لا الافتخار بنفسه

حذفَ البيانُ القرآني إحدى النونين في قوله: ﴿إِنِّي﴾ تخفيفًا، وفي هذا التخفيفِ إشارةٌ إلى حرصِ نوحٍ عليه السلام على سرعةِ تبليغ قومه، وبيانِ ما يدفعهم به إلى تصديقه، وإيماءٌ إلى تواضعه عليه السلام، بأنَّه قصدَ بإخباره عن نفسه بأنَّه رسولٌ أمين أنْ يُتَّبع، وليس قصدُهُ الافتخارَ[3].

معنى اللامِ في قوله: ﴿لَكُمْ﴾:

اختصاصُ قومِ نوحٍ برسولٍ منهم نعمةٌ لم يعرفوا حقَّها

اللامُ في قوله تعالى: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ﴾؛ للاستحقاق والاختصاص، وهو أصلُ معانيها[4]، أي: قد أرسلني اللّهُ لكم وحدكم خاصَّةً، وهذا الاختصاصُ يدلُّ على نعمةٍ اختصَّهم اللّهُ بها تستحقُّ الشُّكرَ لا الكفر، أي: كان حريًّا بقوم نوحٍ عليه السلام أنْ يُعظِّموا هذه النِّعمة، وهي أنَّه خصَّهم بأنْ يُرسل لهم وحدهم رسولًا منهم، ولكنَّهم سارعوا إلى الكفرِ، فاستحقوا أشدَّ العذاب، وفي هذا تحذيرٌ

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5377.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 158 - 159.
(3) الصاوي، حاشيته على تفسير الجلالين، ص: 1350.
(4) المرادي، الجنى الدّاني، ص: 96.

للكافرين المخاطَبين من أمَّة النَّبيِّ ﷺ الذين خصَّهم اللّهُ برسولٍ منهم هو رسول اللّه، فسارعوا إلى الكفر به.

نكتةُ تقديم ﴿لَكُمۡ﴾ على: ﴿رَسُولٌ أَمِينٌ﴾:

اهتمامُ نوحٍ بما ينفعُ قومَهُ واختصاصهم بدعوته ترغيبٌ لهم بطريقِ الرَّشاد

أكَّد نوحٌ عليه السلام رسالته لقومه، في قوله تعالى: ﴿إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ بتقديم الجار والمجرور ﴿لَكُمۡ﴾ على عامله، وهو ﴿رَسُولٌ﴾، أي: لكم خاصَّة[1]، أي: التَّقديم لإفادةِ الاختصاص، ويفيدُ كذلك الاهتمامَ بتقديم ما دلَّت عليه اللام، من كون الرِّسالة لفائدتهم؛ ترغيبًا لهم على اتِّباع دعوته.

سرُّ التَّعبيرِ بـ﴿رَسُولٌ﴾:

لا مندوحةَ للرَّسول عن إبلاغِ ما أُمِرَ به من الشَّرعِ الجديد

في التَّعبير بلفظِ ﴿رَسُولٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ إعلانٌ بأهليَّة دعوتِه ومصدرها بأنَّها من عند اللّه[2] خالقِهم، وأنَّ نوحًا عليه السلام مجرَّدُ رسولٍ يبلِّغ عن اللّه ما أمره به لا من عند نفسه[3]، فلا مندوحةَ له عن إبلاغِ ما أُمِرَ به[4]، وهذه هي ماهيَّةُ الرَّسولِ اللازمة في الاعتقاد - وهي كونه رسولًا - وهي تغني عن بقيَّة الأوصاف في مقام الاعتقادِ، كوصف (النَّبيِّ)، دون قيام عن غيرها عنها، فالتَّعبيرُ بالرَّسول دون (النَّبي)؛ للدَّلالة على أنَّ نوحًا عليه السلام يحملُ رسالةً وشريعةً جديدةً من اللّه، وقد أُمِرَ بتبليغها؛ لأنَّ الإنباءَ عن الشَّيء قد يكون من غير تحميلِ النَّبأ، وأمّا الإرسالُ؛ فلا يكون إلّا بتحميلِ رسالة، فالرَّسولُ لا يُسمّى رسولًا إلّا بوجود جهةٍ أرسلته، ولأنَّ النَّبيَّ هو من بُعِثَ لتقرير شريعةٍ سابقة، كأنبياء بني إسرائيل بين موسى وعيسى عليهما السلام، بخلاف الرَّسول[5]، كما أنَّه

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5377.
(2) البقاعيُّ، نظم الدّرر: 14/ 61.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 254.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 62.
(5) العسكريّ، الفروق اللغوية: 530 - 532.

لم يعبِّر كذلك بلفظ (مُرسَل)؛ لكون لفظ الرَّسول أنسبَ للمقام والسّياق اللَّذَين يُركِّزان على قيامِ نوحٍ بدعوةِ قومِه إلى الإسلام؛ إذ لفظُ المُرسَل يقتضي إطلاقَ غيرِه له، وأمّا الرَّسول؛ فيقتضي إطلاقَ لسانه بالرِّسالة[1]، وقد سبقَ في السّياق إطلاقُ نوحٍ لسانَهُ بالدَّعوة إلى رسالتِه ﴿إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ﴾.

وفي هذا كلِّه تظهرُ المبالغةُ - من قِبَل نوحٍ عليه السلام - في إيجابِ اتِّباع الرَّسول في كلِّ تشريعاته التي أنزلها اللّه عليه.

دلالةُ تنكيرِ ﴿رَسُولٌ﴾:

الرِّسالةُ شأنُها عظيمٌ وأمرها فخيمٌ

نكَّر البيانُ القرآنيُّ ﴿رَسُولٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ لإفادةِ معنى التَّفخيم والتَّشريف، فالرِّسالةُ شأنها عظيمٌ، وأمرها فخيمٌ؛ لكونها من ربِّ العالمين، وتحمل الهداية للبشريَّة.

علَّةُ وصفِ الرَّسولِ بـ﴿أَمِينٌ﴾:

تكذيبُ الرَّسولِ مع الاعترافِ بأمانته دليلٌ على سفاهةِ العقول

وصفُ نوحٍ لنفسِه بالأمانة في قوله تعالى: ﴿إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ تأليفٌ لقلوبِ قومِه وترغيب لهم، وحثٌّ على تصديقه، أي: لا غشَّ عندي، كما تعلمون ذلك مني، "فكأنَّه قال: كنت أمينًا من قبلُ، فكيف تتَّهمونني اليوم؟"[2]، ولأنَّ الأمانةَ تقتضي ألّا يكذبَ على اللّه، فيدَّعي عليه الرِّسالة، وهو لم يرسله، وتقتضي عدمَ الخيانةِ في شيء من الأمانةِ فيما يخبرهم، فلذلك لا بدَّ مِن إبلاغِ جميعِ الرِّسالة[3]، ومع الأمانة الرِّعايةُ والمحبَّة، والإخلاص لهم، والبِرُّ بهم[4]، كما أنَّ في حكايةِ استدلالِ نوحٍ بأمانتِه بينَ قومِه - في هذه القِصَّةِ المَسوقَةِ مَثَلًا للمشركينَ في تَكذيبِهم محمَّدًا ﷺ - تعريضًا بهم؛ إذْ كذَّبوه بعْدَ أنْ كانوا يدْعونَهُ الأمينَ[5].

(1) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 289.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 520.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 62.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5377.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 158 - 159.

دلالةُ صيغةِ فعيل في ﴿أَمِينٌ﴾:

﴿أَمِينٌ﴾ على وزنِ فعيل، وهي من صيغِ المبالغةِ التي تفيدُ تأكيدَ الاتِّصاف بالصِّفة، بما يدلُّ على مبالغةِ نوحٍ في تأكيدِ أمانةِ تبليغِ الرِّسالة التي كلَّفه اللّه بها، كما هي دون افتراءٍ أو زيادةٍ أو نقص، فقد "كان نوحٌ موسومًا بالأمانة لا يُتَّهمُ في قومه، كما كان محمَّدٌ ﷺ يُلقَّب بالأمين في قريش"[1]، وهذه المبالغةُ في تأكيدِ الاتِّصاف بالأمانة تطمينٌ للمخاطَبين بصدق رسالتِه وترغيبٌ باتِّباعها.

مبالغةُ نوحٍ في تأكيد أمانةِ تبليغِ الرِّسالة تطمينٌ بصدقها وترغيبٌ باتِّباعها

معنى الفاءِ ودلالتُها في: ﴿فَٱتَّقُواْ﴾:

(الفاءُ) في قوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾؛ لتَرتيبِ ما بعْدَها على ما قبْلَها، وهي قوله تعالى: ﴿إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ١٠٦ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ﴾، أي: لترتيبِ الأمرِ بالتَّقوى على أمانتِه[2]، أي: حضُّهم على تقوى اللّه بعد أنْ بيَّن لهم أخوَّتَهُ لهم، وأمانته عندهم، وهذا من أحكمِ الطُّرق التي سلكها نوحٌ عليه السلام في دعوةِ قومِه إلى اللّه[3].

علَّةُ أمرِ نوحٍ لقومه بالتَّقوى كونه أمينًا فيما بينهم

علَّةُ التَّعبيرِ في قولِه: ﴿فَٱتَّقُواْ﴾:

طالبَ نوحٌ قومَهُ بتقوى اللّهِ في قولِه تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾؛ لأهميَّةِ التَّقوى وحُسن عاقبتها، ولأنَّ قلوبَهم جامدةٌ جافيةٌ عن ربِّها؛ إذ ليس فيها إيمانٌ بشيءٍ، ولا خوفٌ من حاضرٍ ولا غائب، ولا علاجَ للنَّفس اللاهيةِ الجافيةِ إلّا بالتَّقوى، أو الدَّعوة إليه[4].

لا علاجَ للنَّفس اللاهيةِ الجافيةِ إلّا بالتَّقوى

دلالةُ الأمرِ في قوله: ﴿فَٱتَّقُواْ﴾:

حقيقةُ الأمرِ ﴿فَٱتَّقُواْ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ أنَّه مجازيٌّ غرضُه الحضُّ؛ إذ سلكَ نوحٌ مع قومِه أحكمَ الطُّرقِ في دعوتهم إلى اللّه، فهو يحضُّهم ثلاثَ مرّاتٍ على تقوى اللّه بعد أنْ يبيِّن أخوَّتَهُ

حضٌّ على التَّقوى لكونها ملاكَ الأمرِ كلِّه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 158.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 254.
(3) طنطاوي، التَّفسير الوسيط: 10/ 262.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5377.

لهم، وأمانته عندهم، وتعفُّفَهُ عن أخذِ أجرٍ منهم في مقابل ما يدعوهم إليه من حقٍّ وخيرٍ، ومصارحته إيّاهم بأنَّ أجره إنَّما هو من اللّه ربِّ العالمين، وليس من أحدٍ سواه[1].

سرُّ التَّعبيرِ باسم الجلالة ﴿ٱللَّهَ﴾:

ذكرُ الاسم الجليل يحقّقُ المهابةَ والحُبَّ والتَّعظيم

عبَّرَ البيانُ القرآنيُّ بالاسم الجليل ﴿ٱللَّهَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾؛ لتربيةِ المهابة والتَّعظيم والحُبِّ في قلوبِ المخاطَبين من قومه، أي: "أَوجِدوا الخوفَ والحذرَ والتَّحرُّز من الذي اختصَّ بالجلال والجمال"[2]، ومراعاة لمقام التَّعظيم، ولمقام الرِّسالة من اللّه الذي دلَّت عليه المؤكِّدات في قوله تعالى: ﴿إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ﴾.

معنى الواو في قوله: ﴿وَأَطِيعُونِ﴾:

جمعٌ بين إحرازِ أصلِ السّعادة بالتَّقوى ورتبةِ كمالِ السَّعادةِ بالطّاعة

الواو في قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ عاطفةٌ، والمعطوفُ عليه جملة: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾[3]، والجامعُ هو أنَّ التَّقوى والطّاعة أساسُ الدّين[4]، وأنَّ كِلا الفعلين أمرٌ من نوحٍ عليه السلام لقومه، أكَّد بهما إنكارَهُ أو حضَّهُ أو عرضَهُ في قوله لهم: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾[5]، إلّا أنَّ أحدَهما بالتَّقوى، أي: الخوف والحذر والتَّحرُّز من اللّه بتوحيده؛ لتُحرزوا أصلَ السَّعادة، فتكونوا من أهلِ الجنَّة، والآخرَ بالطّاعة في كلِّ ما آمركم؛ لتُحرزوا رتبةَ الكمال في ذلك، فلا يمسُّكم عذابٌ[6].

نكتةُ تقديمِ الأمر بالتَّقوى على الإطاعة:

التَّقوى أساسُ الطّاعة ومبعثُها وبها تُثارُ القلوب إلى الطّاعة والتَّسليم

في قوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ تَقديمُ الأمرِ بتَقوى اللّهِ على الأمرِ بطاعتِهِ؛ لأنَّ تقوَى اللّهِ سببٌ لطاعةِ نوحٍ عليه السلام[7]، ولا سبيلَ لطاعتِهِ إلّا

(1) طنطاوي، التّفسير الوسيط: 10/ 262.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 62.
(3) البقاعيُّ، نظم الدّرر: 14/ 62.
(4) الزّحيلي، التفسير المنير: 19/ 185.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 159.
(6) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 62.
(7) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 175، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 102.

أنْ تمتلئَ نفوسُهم بالتَّقوى، ومهابةِ اللّه والخضوعِ له[1]، ولولا الخوفُ من اللّه تعالى؛ لما أطاعه النّاس[2]، أي: تقوَى اللّهِ علّةٌ لطاعتِه، فقدَّمَ العلَّةَ على المعلولِ[3]، ولأنَّ التَّقوى هي ملاكُ الأمرِ كلِّهِ في هذه الحياة[4]، ملاكُ استقامةِ الأفرادِ والأمم.

علّةُ التَّعبيرِ بـ ﴿وَأَطِيعُونِ﴾:

انقيادٌ وتسليمٌ عن إرادةٍ ورضًا وحبٍّ لا مجرّدَ اقتفاءِ أثرٍ

عبَّرَ النَّظمُ الحكيمُ بوصفِ الطّاعة في قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُونِ﴾، ولم يقلْ: واتَّبعوني؛ لكون لفظِ الطاعة يتميَّزُ بمعنى الانقياد طوعًا بإرادته ودون إكراه، ولكونهِ أكثرَ ما يُقال في الائتمارِ لما أُمِرَ، والارتسام فيما رُسِمَ[5]، وهذا يتناسبُ مع السّياق، الذي صرَّح به، من أنَّه رسولٌ يحملُ رسالةً، فيها أوامرُ ونواهٍ، لا بدَّ من الالتزام الكامل بمضمونها، ومع المقام الذي يقتضي أنْ يكون الاتِّباعُ انقيادًا وخضوعًا وتسليمًا عن إرادةٍ ورضًا وحبٍّ، لا مجرَّدَ التُّلوِّ واقتفاءِ الأثر، كما هو المعنى اللُّغويُّ للاتِّباع[6].

دلالةُ الأمرِ في قوله: ﴿وَأَطِيعُونِ﴾:

حضٌّ على الانقياد والتَّسليم والخضوعِ عن حبٍّ ورضًا

الأمرُ ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ مجازيٌّ، غرضُهُ الحضُّ، أي: حضَّ نوحٌ عليه السلام قومَهُ على الانقيادِ والتَّسليم والخضوعِ لما جاءهم به.

التَّوجيهُ البلاغيُّ للقراءات في قوله: ﴿وَأَطِيعُونِ﴾:

في الإثباتِ إيماءٌ بلزومِ الطّاعة وفي الحذفِ تخفيفٌ وجمالُ لفظٍ

قرأ ابن كثير ويعقوبُ قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ في الموضعين، وهما: الآية [الشُّعراء: 108، 110] بإثبات الياء في الوصل والوقف، وقرأ نافعٌ وأبو

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5377.
(2) الزّحيلي، التّفسير المنير: 19/ 185.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 521، وابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 15/ 56.
(4) الهرري، حدائق الرّوح والريحان: 20/ 256.
(5) الرّاغب، المفردات: (طوع).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (تبع).

عمرو وحمزةُ والكسائيُّ وأبو جعفر بإثباتِ الياء وصلًا لا وقفًا، وقرأ ابنُ عامرٍ وعاصمٌ وخلف بالحذف في الحالين[1]، واكتفَوا بالكسرات الدّالة على الياءات[2]، وفي إثباتِ الياء - أي: ياء المتكلِّم، وهو نوحٌ ﵇ - إيماءٌ باتّباع الرَّسول، وأنَّ طاعته من طاعةِ اللّه، وفي الحذفِ تخفيفٌ يومئُ بكون طاعةِ الأنبياء، والتزام طريقهم هو سبيلُ اليسرِ والسُّهولة وعدمِ ضنكِ الحياة، وأنَّ مخالفةَ الأنبياءِ سببٌ للمشقَّة والعسرِ، كما أنَّ في حذفِ الياء في الموضعين مُراعاةً للفاصلةِ القرآنية في الآيات، التي خُتِمت بالواو والنّون أو بالياء والنّون، مثل: ﴿تَتَّقُونَ﴾، ﴿أَمِينٌ﴾ ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، ﴿ٱلْأَرْذَلُونَ﴾[3]، بما يحقِّق إحكامًا وجمالًا في اللَّفظ.

معنى الواوِ في قوله: ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ﴾:

لمّا أثبت نوحٌ ﵇ أمانَتَهُ؛ نفى تهمَته

جملة: ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ عطْفٌ على جملة: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾، والمعنى: (علمتم أنّي أمين لكم، وتعلمون أنّي لا أطلب من دعوتكم إلى الإيمان نفعًا لنفسي)[4]، أي: "لمّا أثبت أمانتَهُ؛ نفى تهمته"[5].

معنى (ما)، ودلالةُ التَّعبيرِ بها:

مبالغةُ نوحٍ ﵇ في نفيِ أيِّ نفعٍ دنيويٍّ ينالُهُ لقاء دعوته

(ما) في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ﴾ لمطلق النَّفي[6]، أي: ما أسألكم أجرًا أو منفعةً في أيِّ زمانٍ أو مكانٍ، واستعمالها دون غيرها؛ لقوَّةِ النَّفي بها، بما يدلُّ على مبالغةِ نوحٍ ﵇ في نفيِ أيِّ نفعٍ دنيويٍّ، أو عرضٍ مادّيٍّ يناله لقاءَ دعوته.

علَّةُ التَّعبيرِ بلفظ ﴿أَسْـَٔلُكُمْ﴾:

استمرارُ حرصِ نوحٍ ﵇ على نفيِ طلبه للنَّفع الدُّنيويِّ

عبَّرَ البيانُ القرآنيُّ بالسؤال في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ

(1) ابن الجزري، النَّشر في القراءات العشر: 2/ 182.
(2) الأزهريّ، معاني القراءات: 2/ 231.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتَّنوير: 19/ 159.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتَّنوير: 19/ 159.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 62.
(6) القونوي وابن التمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 14/ 276.

﴿عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ﴾ دون الطَّلَب؛ للإشارةِ إلى مبالغةِ نوحٍ عليه السلام في نفي حرصِه على طلبِ الأجر على ما يدعوهم إليه من التَّوحيد والعبوديَّة للّه؛ لأنَّ السُّؤال في اللُّغة هو الحاجةُ التي تحرصُ النَّفسُ عليها[1]، بينما الطَّلبُ هو الفحصُ عن وجودِ الشَّيء[2]، وأمّا التَّعبيرُ بصيغة المضارع؛ فللدَّلالةِ على استمرارِ انتفاءِ سؤالِ نوحٍ أجرًا ومنفعةً لنفسِه على دعوتِه قومَهُ، ممّا يدلُّ على عظيمِ عفَّتِهِ عليه السلام، وللدَّلالةِ على تجدُّد مقولتِه لهم، وتكرُّرها لإشعارهم بعدمِ طَمعهِ في مالهم؛ دفعًا لهم للنَّظرِ في نزاهةِ ما جاءهم به طمعًا في إيمانهم.

معنى حرفِ الجرِّ (على) ودلالتِهِ:

علوُّ قَدرِ ما دعا إليه نوحٌ عليه السلام

يفيدُ حرفُ الجرِّ (على) في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ﴾ معنى الاستعلاء، بما يشيرُ إلى علوِّ نفاسةِ ما يدعو إليه نوحٌ عليه السلام، من إفرادِ اللّه بالوحدانيَّة والعبوديَّة الخالصة؛ إذ إنَّ إبلاغَهم هذه الدعوةَ العاليةَ القدرِ العظيمةَ الجاه، بما يتضمنه هذا الإبلاغُ من بيانِ إخلاصِ نوحٍ في دعوته للّه، وتعفُّفِه عن أخذِ أيِّ أجرٍ منهم، صارَ من أعلى ما يُلتفتُ إليه؛ إشعارًا بعلوِّ هذه الدَّعوة، وعظيمِ قدرها.

مرجعُ الضَّميرِ في قوله: ﴿عَلَيۡهِ﴾:

علوُّ شأنِ دعوةِ الرُّسلِ وحالُ الأنبياء معها

ضميرُ ﴿عَلَيۡهِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ﴾ عائدٌ إلى معلومٍ من مقامِ الدَّعوة[3]، أي: على هذا الأمرِ من الدَّعوة؛ إلى إفرادِ اللّه بالتَّوحيد، والعبوديَّةِ الخالصةِ المطلقة له دون غيره، أو على ما أنا فيه، يعني: دعاءَهُ ونُصحه[4]، أو على التَّبليغ[5]، وكلُّها معانٍ متقاربةٌ متعانقةٌ، وهذا من إيجازِ القرآن البليغ.

(1) الرّاغب، المفردات: (سول).
(2) الرّاغب، المفردات: (طلب).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 159.
(4) الزمخشري، الكشاف: 3/ 324.
(5) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 175.

دعوةُ نوحٍ لقومِهِ دعوةٌ شريفةٌ في قَدرِها عظيمةٌ في جاهِها ولذا قُدِّمت

نكتةُ تقديم: ﴿عَلَيۡهِ﴾ على: ﴿مِنۡ أَجۡرٍۖ﴾:

في تقديم الجار والمجرور ﴿عَلَيۡهِ﴾ على ما هو في محلِّ المفعول به ﴿مِنۡ أَجۡرٍۖ﴾، في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ﴾ تشريفٌ لهذه الدَّعوةِ العاليةِ القَدْرِ، العظيمةِ الجاهِ، التي جاءَ بها نوحٌ عليه السلام، واهتمامٌ بها؛ إذ الضَّميرُ في الجار والمجرور يعودُ إليها، وفي تأخير ﴿مِنۡ أَجۡرٍۖ﴾ بيانٌ لعدمِ الاهتمام بالأجر.

توكيدُ نوحٍ لنفي أيِّ أجـرٍ ممّا يتعلَّق بالدُّنيا على دعوته

الموقعُ الإعرابيُّ لقوله: ﴿مِنۡ أَجۡرٍۖ﴾:

﴿مِنۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنۡ أَجۡرٍۖ﴾ حرفُ جرٍّ في محلِّ مفعول به، والتَّقدير: (وما أسألكم عليه أجرًا وجعْلًا)[1]، و﴿مِنۡ﴾ في الآية لإفادةِ تأكيد نفي الأجر وعمومه، أي: لا أسألكم على هذا التَّبليغ أيَّ أجرٍ ممّا يتعلَّقُ بالدُّنيا، لا أسألكم جاهًا، ولا رياسةً، ولا سلطانًا، ولا غايةً، ولا مالًا، ولا أيَّ عرضٍ من أعراضِ الدُّنيا[2]، ولا يتعارضُ ذلك مع قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾ [الشورى: 23]؛ لكون الاستثناء فيها من غير جنسِ المستثنى منه، والتَّقدير: (لكن أذكِّركم المودَّةَ في القربى)[3].

نفيُ نـوحٍ أخْذَ أيِّ عِـوَضٍ عن دعوته مهما كان نوعه، دليلٌ على كمالِ تعفُّفه

علَّةُ التَّعبير بـ﴿أَجۡرٍۖ﴾:

عبَّر النَّظمُ الحكيمُ بلفظِ الأجر في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ﴾؛ لكونه أوسعَ دلالةً من المال، فالأجرُ: هو العوضُ على عملٍ، سواءٌ كان مالًا أم أيَّ منفعةٍ، ولذا يُسمّى ثوابُ اللّٰه أجرًا؛ لأنَّه جزاءٌ على العمل الصالح[4]، ومن ثَمَّ فالتَّعبيرُ بالأجرِ إحاطةٌ بالعوضِ النّافع بكلِّ سبيلٍ، إمّا بالمال، وإمّا بالثّواب والجزاء والمنفعة، أي: نفى نوحٌ أنْ يطلبَ من قومه مقابلَ نُصحه لهم أيَّ مالٍ، أو أيَّ ثوابٍ

(1) الصاوي، حاشيته على تفسير الجلالين، ص: 1350.

(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5378.

(3) أبو بكر الرّازي، أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة عن غرائب آي التّنزيل، ص: 366.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/ 55.

وجَزاءٍ أو منفعةٍ بجميع أشكالها، وفي هذا دلالةٌ على كمالِ تعفُّفه ﷺ؛ بما يكون أدعى لاستجلابِ قلوبهم نحو الحقِّ، كما أنَّ التَّعبير بالأجر أنسبُ مع حالِ نوحٍ ﷺ؛ لأنَّ الأجرَ لا يُقال إلّا في النَّفع دون الضَّرر[1]، بخلافِ الجزاء فإنَّه يُقال في النّافع والضّار[2]، ولأنَّ نوحًا لم يطلبِ الأجرَ مقابلَ ما قدَّم لهم من دعوةٍ إلى الله، فمن بابٍ أولى ألّا يطلبَ منهم مالًا؛ إذ قد يكونُ المالُ بدون مقابل.

دلالةُ تنكير ﴿أَجۡرٍ﴾:

تبليغُ نوحٍ دينَ اللهِ من غير شائبةِ نفعٍ له من قومه يقتضي وجوبَ طاعته

نكَّر البيانُ الإلهيُّ مفردةَ ﴿أَجۡرٍ﴾؛ لإفادة العموم، لكونها جاءتْ نكرةً في سياق النَّفي، فشملَتْ كلَّ أشكالِ الأجر أدَقَّها وأعظمَها، أي: أغرقَ في نفيِ الأجر[3]، أي: ما أطلُبُ منكم على نُصحي لكم أيَّ ثوابٍ وجَزاءٍ لا مالًا ولا غيره[4]، "وكونه رسولًا من الله - بما فيه نفعُ الدّارين من غير شائبةِ نفعٍ منهم - يقتضي وجوبَ طاعته بلا قصور"[5]، لعظيم عفَّته، كما أنَّ التَّنكيرَ يفيدُ التَّقليل، والمعنى: (لا أطلبُ منكم أيَّ نفعٍ مهما كان قليلًا)، وانتفاءُ الشَّيء القليلِ يقتضي انتفاءَ الشَّيء الكثير بطريقِ الأولى، وكذلك يفيدُ التَّحقيرَ من قيمةِ هذا المطلوب - وهو الأجر - عند الأنبياء الذين ما بُعثوا أُجراءَ لأحدٍ، وليس منهم أيُّ التفاتٍ إلى تفاهاتِ الدُّنيا.

سرُّ فصلِ الآيةِ عمَّا قبلَها:

الأنبياءُ لا يطلبون الأجورَ إلّا مِن ربِّهم يومَ القيامة

فَصَلَ القرآنُ جملةَ ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ عن الجملة التي قبلها ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍ﴾، ولم يربطهما بعاطف؛ لما بين الجملتين من شبه كمالِ اتِّصال؛ إذ إنَّ قوله تعالى: ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على سؤالٍ نشَأ من السّياق؛

---

(1) الرّاغب، المفردات: (أجر).
(2) الرّاغب، المفردات: (أجر).
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 62.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 105.
(5) الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الرّاضي: 7/ 20.

وذلك أنَّه لَمّا نفى نوحٌ سؤال قومه أجرًا على دعوته؛ نشأ توهُّمٌ أنَّه لا يسأل جزاءً البتَّة على الدَّعوة، فجاء بجملة: ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، وهذه الجملةُ احتراسٌ[1].

معنى ﴿إِنۡ﴾، وسرُّ التَّعبير بها:

مبالغةُ نوحٍ في تأكيدِ نفْيِ أيِّ نفعٍ مقابلَ دعوتِهِ إلّا من الله

﴿إِنۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ نافيةٌ، وقد آثرها البيانُ الإلهيُّ هنا؛ لقوَّة النَّفي بها؛ إذ إنَّها آكدُ من (ليس) ومن (لم)، ولا ينافسها في قوَّة النَّفي إلّا (ما)، ولكنَّها تفترقُ عنها بأنَّ (إنْ) لا بدَّ من أنْ تقترن بـ(إلّا)؛ لتفيدَ توكيدَ التَّوكيد، أي: إيثارُ استعمالها دون غيرها للمبالغةِ في تأكيد نوح نفي أيِّ شائبةٍ من النَّفع مقابلَ دعوته إلّا من اللّه، لكيلا يظنَّ ظانٌّ أنَّه جعلَ الدَّعوةَ إلى اللّه سببًا للأجر الدُّنيويِّ[2].

بلاغةُ القصرِ في الآيةِ:

أجرُ نوحٍ والمرسلين على دعوتهم هو من اللهِ لا من غيره

القصْرُ في قوله تعالى: ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ هو قصرٌ بالنَّفي والاستثناء، أي: قَصَرَ نوحٌ ﵇ أجرَهُ على اللّهِ تعالى قصرًا حقيقيًّا، وهو قصْرُ قلبٍ، أي: قلبِ معتقد قومِه، وبيَّن أنَّ أجره ليس على أحدٍ منهم، إنَّما هو على اللّهِ وحده، وفي هذا القصرِ تنبيهٌ على أنَّه لا غرضَ لنوحٍ ﵇ من عَرَضٍ دنيويٍّ يُنفِّرُ المدعوّين عنه، ولذا وجبَ تصديقه[3].

سرُّ وضعِ الظّاهر موضعَ المضمر:

الأجرانُ مختلفان إذ لا يطلبُ نوحٌ في دعوته المالَ والعرضَ المادّيّ وإنَّما الثَّواب من الله

وضعَ البيانُ القرآنيُّ الظّاهر ﴿أَجۡرِيَ﴾ موضعَ المضمر (هوَ) في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، فلم يقلْ: (إنْ هو)، للدَّلالة على اختلافِ المقصود من الأجرين؛ إذ الأوَّل يشملُ كلَّ عوضٍ من مالٍ أو منفعةٍ أو ثناءٍ أو غير

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/ 55.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 62.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/ 274.

ذلك، وأمّا الثّاني؛ فالمرادُ منه ثواب الآخرة، فإنَّ نوحًا لا يسألُ اللّهَ مالًا في الآخرة، وإنَّما يسأله ثوابًا.

سرُّ التَّعبيرِ بـ﴿عَلَىٰ﴾ دون (مِنْ):

آثرَ النَّظمُ الحكيمُ التَّعبيرَ بحرفِ الاستعلاء ﴿عَلَىٰ﴾ دون (مِن) في قوله تعالى: ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾؛ للإشارة إلى علوِّ اللّهِ وعظمته، فهو ربُّ العالمين خالقُ الخلائق أجمعين، والمدبِّرُ لشؤونها سبحانه، والإشارةُ إلى أنَّ الأجرَ الذي وعدَ اللّهُ به نوحًا، وكلَّ مؤمنٍ هو أجرٌ فيه عزٌّ للمؤمن وعلوٌّ لشأنه، لا ذلَّ له، كما هو الأجرُ الدنيويُّ الذي يعطيه أهلُ الدُّنيا.

أجرُ اللهِ العليِّ أجــرٌ فيـه عـزٌّ للمؤمن وعلوٌّ لـشـأنـهِ لا ذلٌّ وهوان

علَّةُ التَّعبيرِ بـ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾:

التَّعبيرُ بلفظ الرُّبوبيَّة التي تدلُّ على الملك والتَّربية والرِّعاية والتَّدبير والقوامة والعطاء والإنعام، في قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾؛ للإشارةِ إلى استحقاقِ اللّهِ وحده بالعبادةِ، واستحقاقِهِ أنْ يُفردَ بالسُّؤال، والطمعِ في الثَّواب والأجر منه؛ لأنَّه هو "الذي دبَّر جميعَ الخلائق وربّاهم"[1]، وهو القادرُ على الجزاءِ العظيم، وفي ذلك تقبيحٌ للكافرين الذين عبدوا أصنامًا، لا تملكُ لهم نفعًا، ولا تدفعُ عنهم ضُرًّا، بل لا تملكُ لنفسها ذلك، فهي مخلوقةٌ من ربِّ العالمين سبحانه.

اسـتـحـقـاقُ الـخـالـقِ المدبِّرِ وحــده لـئن يُـفردَ بالعبادة والـسُّـؤال والـطـمـعِ في الثواب

علَّةُ التَّعبيرِ بـ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾:

التَّعبيرُ بلفظ ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ دون لفظ (النّاس)؛ للدَّلالة على عظمةِ من لا يُطلَبُ الثَّوابُ والجزاء إلّا منه سبحانه؛ فهو ربُّ كلِّ العوالم لا عالم الإنس فقط، فهو المتفرِّدُ بخلقها وتدبيرِ شؤونها، وأمّا إيثارُ صيغة الجمع الملحق بالمذكَّر السّالم ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ دون (العوالم)؛ فلِما فيه من معنى الوصفيَّة الدّالة على العلم، والتَّغليب للعقلاء على غيرهم؛ تعريضًا بالكافرين الذين عطَّلوا عقولهم، وعبدوا أصنامًا

في عظمةِ مَن لا يُطلَبُ الثَّوابُ إلّا منه سبحانه تـعـريـضٌ بمن عطَّلوا عقولهم

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 63.

لا تعقلُ، كما أنَّ التَّعبيرَ بصيغة الجمع هذه يتناسبُ مع السّياقِ الذي يُبرزُ عظمةَ اللّه؛ إذ إنَّها جمعُ قلَّةٍ لا كثرةٍ؛ تنبيهًا على جميعِ أصناف الخلائق وإنْ كثرَتْ؛ فهي قليلةٌ في جانبِ عظمةِ اللّه، ومع هذا الإحكام للمعنى جاءَ الإحكامُ للفظِ بمراعاته للفاصلةِ القرآنيَّة في الآيات، التي خُتِمَتْ بالياء والنّون أو الواو والنّون، مثل: ﴿ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾، ﴿تَتَّقُونَ﴾، ﴿أَمِينٌ﴾.

دلالةُ التَّعريفِ في قوله: ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾:

كــمــالُ غـنــاه سبحانه يشيرُ إلى استحقاقهِ سـؤالَ الـثَّـواب منه وحده دون سواه

(أل) التَّعريف في قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ جنسيَّةٌ استغراقيَّةٌ، تفيدُ العمومَ، أي: هو ربُّ جميعِ الخلائق، وكمالُ غناه - الذي يدلُّ عليه العموم - يشيرُ إلى استحقاقه سؤالَ الثَّوابِ منه وحده دون غيره سبحانه، فكلُّ العوالمِ من مخلوقاته.

فائدةُ الجملةِ الخبريّة في الآية:

التَّنبيهُ على يوم الـجـزاء مقصدٌ لا يـغـيـب عـن تـذكـير الأنبياء لأقوامهم

أفادَ التَّعبيرُ بالجملةِ الخبرية: ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ الإشارةَ إلى يومِ الجزاء، وكان قومُهُ ينكرون البعث[1]؛ لأنَّ المقصودَ بالأجر هنا الجزاءُ والثَّوابُ يوم القيامة[2]، كما أفادتْ أنَّ الرُّسُلَ إنَّما يَأمُرونَ النّاسَ، ويَنهَوْنَهم؛ لِما يَرجونَهُ مِن ثوابِ اللّه، لا لِما يَنالونَهُ مِن النَّفعِ الدُّنيويِّ والعرضِ الماديِّ، وفي هذا دليلٌ على وجوبِ إصلاح النِّيَّةِ لِمَن قام مقامَ الرُّسُلِ بالدَّعوةِ إلى اللّهِ سُبحانَه وتعالى، وأنَّ عملَ الإنسانِ لينالَ الثَّوابَ من اللّه ليس أمرًا ممقوتًا، بل هو طريقُ الرُّسُلِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ وأتباعِه[3].

سرُّ تكرارِ قوله: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾:

تأكيدُ نـوحٍ عليه السلام أمرَ التَّقوى على قومه وتقريره في نفوسهم

كرَّر النَّظمُ الحكيمُ الأمرَ بالتَّقوى؛ لأنَّها العمدةُ في جميعِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 159.
(2) البغوي، معالم التنزيل: 6/ 121، والزّحيلي، التّفسير المنير: 19/ 183.
(3) ابن عثيمين، تفسير سورة الشّعراء، ص: 192.

الأعمال، فيجبُ على الإنسان ملاحظتها إذا أراد الإحسانَ وتجويدَ العمل، أي: كرَّر نوحٌ ﷺ الأمرَ بالتَّقوى؛ للتَّأكيدِ على أهمّيَّتها، والتَّنبيهِ على أنَّ كلًّا من الأمانةِ وقطعِ الطَّمعِ مستقلٌّ في إيجابِ التَّقوى والطّاعة، فكيف إذا اجتمعتا؟[1] وهذا ممّا حَسَّنَ التَّكرار[2]، أي: أكَّد الأمرَ بالتَّقوى عليهم، وقرَّره في نفوسهم[3].

معنى الفاءِ ودلالتُها في قوله: ﴿فَٱتَّقُواْ﴾:

علَّةُ أمرِ نوحٍ لقومه بالتَّقوى كونه متعفِّفًا فيما بين أيديهم

(الفاءُ) في قوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾؛ لتَرتيبِ ما بعْدَها على ما قبْلَها، وهو قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍ﴾، مِن تَنَزُّهه - ﷺ - عنِ الطَّمعِ[4]، أي: حضُّهم على تقوى اللّهِ بعد أنْ بيَّن لهم تعفُّفه عن أخذِ أجرٍ منهم في مقابلِ ما يدعوهم إليه من حقٍّ وخير، ومصارحته إيّاهم بأنَّ أجره إنَّما هو من اللّه ربِّ العالمين، وليس من أحدٍ سواه، وهذا من أحكمِ الطُّرقِ التي سلكها نوحٌ ﷺ في دعوة قومه إلى اللّه[5].

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

القوم والجماعة:

القومُ أخصُّ من الجماعة، فقومُ الرَّجل شيعتُهُ وعشيرته، ويُطلق على الرِّجالِ دون النِّساء

قومُ كلِّ رجلٍ: شيعتُهُ وعشيرته، والقوم يدلُّ في أصله على جماعةٍ من النّاس، والقومُ: الرِّجالُ دون النِّساء[6]، وربَّما تدخله النِّساءُ على سبيلِ التَّبع، وسُمّوا بذلك؛ لأنَّهم قوّامون على النِّساءِ بالأُمورِ التي ليس للنِّساءِ أَنْ يَقُمْنَ بها[7]، وأمّا الجَماعَة؛ فتدلُّ في أصلها على تَضامِّ الشَّيءِ[8]، والجمعُ: ضمُّ الشَّيء بتقريبِ بعضِهِ من بعض،

(1) الهرري، حدائق الرّوح والريحان: 20/ 256.
(2) الصاوي، حاشيته على تفسير الجلالين، ص: 1350.
(3) الزّمخشري، الكشّاف: 3/ 324.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 254.
(5) طنطاوي، التّفسير الوسيط: 10/ 262.
(6) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (قوم).
(7) الزّبيدي، تاج العروس: (قوم).
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جمع).

والجَماعَةُ: عَدَدُ كُلِّ شيءٍ وكثرتُهُ[1]، والجماعةُ من كلِّ شيءٍ، تُطلَقُ على القليل والكثير[2]، والجماعةُ من النّاس: طائفةٌ من النّاس يجمعها غرضٌ واحد[3]، ومن هنا ناسبَ أنْ يُخاطب نوحٌ ﵇ قومَهُ بلفظِ القوم؛ كونهم شيعتَهُ وعشيرته، وهو خطابٌ للرِّجالِ، والنِّساءُ يدخلْنَ فيه على سبيل التَّبع.

الرَّسول والنَّبيُّ:

النَّبيُّ هو من أوحيَ إليه وأنبأَ عن الله، فإذا أُرسل برسالةٍ وشرعٍ وأُمِرَ بتبليغها فهو رسولٌ نبيٌّ

عرَّفَ العلماءُ الرَّسولَ: بأنَّه رجلٌ بُعِثَ إلى الخلقِ لتبليغ الأحكام، والرَّسولُ في اللُّغة من يبلِّغ أخبارَ من بعثَهُ لمقصود[4]، وسمّيَ الرَّسولُ رَسولًا؛ لِأَنَّهُ ذو رِسالَة[5]، وأصلُ الرَّسول من (رسل)، ويدلُّ على الانبعاثِ والامتِداد، والرِّسْل: الرِّفْق والتُّؤَدة[6]، والرَّسولُ يُقال تارةً للقولِ المتحمَّل، وتارةً لمتحمِّل القولِ والرِّسالَة، ورُسُلُ اللّهِ تارةً يُراد بها الملائكة، وتارةً يراد بها الأنبياءُ[7]، وأمّا النَّبيُّ؛ فهو إنسانٌ يصطفيه اللّهُ من خلقه ليوحيَ إليه بدينٍ أو شريعة، سواءٌ كُلِّف بالإبلاغ أم لا[8]، وقيل: النَّبيُّ مشتقٌّ من (نبأ)؛ فهوَ مَنْ أَنْبَأَ عَنِ اللّه، وقيل: مُشْتَقٌّ مِنَ (النَّباوةِ أو النَّبْوَة)، أي: الشَّيءُ المُرْتَفِعُ، فالنَّبيُّ شَرُفَ على سائِرِ الخَلْقِ[9]، والنَّبيُّ يُهمز، ولا يُهمز: الطَّريق الواضح، والأَنْبياءُ: طُرُقُ الهُدى[10].

ومن الفروقِ بينهما أيضًا: أنَّ الرَّسولَ أخصُّ من النَّبيِّ؛ لأنَّ كل

(1) الزّبيدي، تاج العروس: (جمع).
(2) الفيومي، المصباح المنير: (جمع).
(3) مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط: (جمع).
(4) المناوي، التوقيف على مهمات التعريف، ص: 177.
(5) الأزهري، تهذيب اللغة: (رسل).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (رسل).
(7) الرّاغب، المفردات: (رسل).
(8) عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (نبأ).
(9) الرّازي الحنفي، مختار الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (نبأ).
(10) ابن منظور، لسان العرب: (نبأ).

رسولٍ نبيٌّ من غير عكس[1]، فالرَّسولُ الذي معه كتاب، والنَّبيُّ الذي يُنبئُ عن اللّه، وإنْ لم يكنْ معه كتاب، وقيل: الرَّسولُ من بعثه اللّهُ بشريعةٍ جديدة، والنَّبيُّ: من بعثه لتقريرِ شريعةٍ سابقةٍ، كأنبياء بني إسرائيل الذين كانوا بين موسى وعيسى عليهما السلام، وقيل: الرَّسولُ هو من أوحى إليه جبرائيلُ خاصَّة بتنزيلِ الكتاب من اللّه[2]، وقد ناسبَ هنا التَّعبيرُ بالرَّسول دون النَّبيِّ؛ للدَّلالة على أنَّ نوحًا عليه السلام يحملُ رسالةً وشريعةً جديدة من اللّه، وقد أُمِرَ بتبليغها.

الأجر والمال:

الأجرُ لا يكون إلّا مقابلَ عملٍ سواء دُنيويًّا أم أُخرويًّا

الأجرُ: في أصلِه يدلُّ على معنيَين، الأول: الكِراءُ على العَمَلِ، والثّاني: جَبْرُ العَظْمِ الكَسيرِ، والمَعْنَى الجامِعُ بَيْنَهُما: أَنَّ أُجْرَةَ العامِلِ كَأَنَّها شَيْءٌ يُجْبَرُ بِهِ حالُهُ فيما لَحِقَهُ مِنْ كَدٍّ فيما عَمِلَهُ[3]، والأجرُ: الثَّوابُ، وجزاءُ العمل[4]، والأجرُ: ما يعودُ من ثوابِ عمله عليهِ دُنيويًّا وأُخرويًّا[5]، وأمّا المالُ؛ فمَعْروفٌ، وجَمعُه أموال، وهو ما مُلك من متاعِ الدُّنيا، وصحَّ الانتفاعُ به، وغلبَ في النُّقود والعروض المعدَّة للتِّجارة[6]، وقيل: هو ما مَلَكْتَهُ من كُلِّ شيءٍ، وقيل: المالُ في الأَصل ما يُملَكُ مِنَ الذَّهَبِ والفِضَّةِ، ثُمَّ أُطلِق على كُلِّ ما يُقْتَنَى، ويُملَك مِنَ الأَعيان[7].

المالُ يكون مقابلَ عمل، ويكون بغير عمل، ويقتصرُ على الدُّنيا دون الآخرة

إذًا: فالفرقُ بين الأجر، والمال هو أنَّ الأجرَ جزاءٌ وثوابٌ على عمل، سواءٌ أكان هذا الأجر دنيويًّا أم أخرويًّا، أمّا المال؛ فقد يكون تحصيله بدون جهدٍ ولا مقابل، ويختصُّ وجوده في الدُّنيا؛ إذ لا

(1) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 530.
(2) العسكريّ، الفروق اللغوية: 530 - 532، والجرجاني، التّعريفات، ص: 239.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أجر).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (أجر).
(5) السّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (أجر).
(6) السّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (مول).
(7) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيدي، تاج العروس: (مول).

معنى لوجودهِ في الآخرة، كما أنَّ الأجرَ الدُّنيوي قد يكون مالًا، وقد يكون منفعةً، فالمالُ أعمُّ من الأجرِ من جهةٍ، وأخصُّ من جهةٍ أخرى، فهو أعمُّ من جهةِ أنَّه يكونُ أجرةً، ويكون غير أجرة، وأخصُّ من حيثُ إنَّ المالَ مختصٌّ بالدُّنيا، بينما الأجرُ يكون في الدُّنيا والآخرة، ومن هنا ناسبَ ذكر الأجر دون المال؛ إذ لم يطلبْ نوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ لقاءَ دعوتِهِ أجرًا من قومِهِ لا في الدُّنيا ولا في الآخرة، كما أنَّه لم يطلُبِ الأجرَ لقاءَ ما قدَّم لهم من دعوةٍ إلى اللّه، فمن باب أولى ألّا يطلبَ منهم مالًا؛ إذ قد يكون المالُ بدون مقابلٍ.

﴿۞قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ ١١١﴾ [الشعراء: 111]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لمّا قامَ الدَّليلُ على نصحِ نوحٍ وأمانتِهِ، ولمّا لم يجدْ قومُهُ سبيلًا للتَّخلُّص من حجَّتِهِ، وعدمِ إمكانِ الطَّعنِ بها؛ أجابوا بحالِ من ينظرُ إلى محض الدُّنيا، وشَرَعَ أشرافُهم في تنقيصِ متَّبعيه، مُنكرين اتِّباعَهُ؛ استنادًا إلى داءِ الكِبْرِ الَّذي ينشأ منه بَطَرُ الحقِّ، وغَمطُ النّاس واحتقارُهم[1].

في سبيل حبِّ الرِّياسةِ والزَّعامةِ تعمى القلوبُ عَنِ الحقِّ

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَٱتَّبَعَكَ﴾: أَصْلُ (تبع) التُّلُوُّ والقَفْوُ، يُقالُ: تَبِعتُ فُلانًا؛ إذا تَلوتَهُ، واتَّبَعْتَهُ، وأَتْبَعْتُهُ؛ إذا لَحِقْتَهُ[2]، يُقالُ: تَبِعَ الشَّيْءَ: سارَ في إِثْرِهِ[3]، وأَتْبَعَ فلانٌ فلانًا؛ إذا تبعه يُريد بِهِ شرًّا[4]، والاتِّباعُ: هو المَشْيُ وراءَ الآخرِ، ويكونُ مجازًا في العَمَلِ بقولِ الآخرِ وبرأْيِهِ وفي الاعتقادِ باعتقادِ الآخرِ[5]، ومعنى ﴿وَٱتَّبَعَكَ﴾ في الآيةِ: موافقٌ للمعنى اللُّغوي، أي: اقتفوا أثَرك في الاعتقاد.

2) ﴿ٱلۡأَرۡذَلُونَ﴾: (رذل) يدلُّ في أصله على الدّون من كُلِّ شَيءٍ[6]، الرَّذْلُ: الدّونَ من كلِّ شيءٍ، مصدرُه الرَّذالةُ، والجمع الأرذال، والأَرْذلون والرَّذِلون، ورُذالة كَلِّ شيءٍ أردَؤُه، ورجُلٌ رَذِلٌ، أي: وسِخٌ، وامرأة رَذِلة، وثوبٌ رَذيلٌ، أي: رَديءٌ[7]، والرَّذيلَة: ضِدُّ الفَضيلَةِ[8].

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 63.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (تبع).
(3) الزّبيدي، تاج العروس: (تبع).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (تبع).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/ 628.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رذل).
(7) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة: (رذل).
(8) ابن منظور، لسان العرب: (رذل).

والمُرادُ بـ﴿ٱلۡأَرۡذَلُونَ﴾ في الآية: سَقَطُ القوم موصوفونَ بالرَّذالةِ، وهي الخِسَّةُ والحقارةُ، أرادوا بهم ضُعفاءَ القوم وفُقراءهُم، فتَكَبَّروا، وتَعاظَموا أَنْ يَكونوا والضُّعَفاءُ سَواءً في اتِّباعِ نوحٍ[1].

۞ المَعْنى الإِجْماليُّ:

المُتكبِّرون أبعَدُ النّاسِ عن الانقيادِ إلى طاعةِ اللهِ بخِلافِ المُسْتضعَفينَ

قال كُبَراءُ قَومِ نوحٍ المتكَبِّرون عن اتِّباعِ الحَقِّ: أنؤمِنُ لك - يا نوحُ - ونتَّبِعُك، والحالُ أنَّه قد اتَّبعك الضُّعفاءُ والفقراءُ، وأسافلُ النّاسِ دونَ ذَوي الشَّرفِ، فكيفَ نتساوى معهم في اتِّباعِك؟ ومرادُهم أنَّ هذا لن يكونَ أبدًا، وهذه شبهةٌ واهيةٌ لا ينبغي لعاقلٍ أنْ يركَنَ إليها؛ لأنَّ نوحًا عليه السلام بُعِثَ إلى الخَلْقِ كافَّةً[2].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

سرُّ فصلِ الآيةِ عمّا قبلها:

جوابٌ لِما يَستشرِفُهُ السّامعُ لمعرفةِ ما دارَ بين نوحٍ وكبراءِ قومِهِ

فَصَلَ البيانُ الإلهيُّ جملةَ ﴿۞ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ﴾ عَنِ الجُمَلِ الَّتي يخاطِبُ فيها نوحٌ عليه السلام قومَه؛ لأنَّ هذه الجملةَ جاءتِ استئنافًا بيانيًّا لِما يُثيرُه قولُه سبحانَه: ﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ نُوحٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ من استشرافِ السّامعِ لمعرفةِ ما دارَ بين كبراءِ القومِ وبين نوحٍ عليه السلام من حوارٍ، ولذلك حُكِيَتْ مجادلتُهم بطريقةِ (قالوا، وقال)[3].

المرادُ بالقائلين في: ﴿۞ قَالُوٓاْ﴾:

اتِّفاقُهم على قولٍ ممتلئٍ كِبْرًا واستعلاءً دليلٌ على سوءِ حالِهم

القائلونَ هم كبراءُ قومِ نوحٍ، المتكبِّرون عن اتِّباعِ الحقِّ[4] الَّذين جاء ذكرهم في صدرِ هذه الآياتِ: ﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ نُوحٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾؛ لأنَّ الَّذي يجيبُ باسمِ القومِ عادةً همُ الكبراءُ الَّذين يتصَدّون لمحاورةِ الأنبياء

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 160.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 602، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 119، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 151، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 19/ 82.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 159.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 602، والبقاعيّ: نظم الدّرر: 14/ 63، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 160.

ومجادلتِهم[1]، وفي إضمارهم تحقيرٌ لهم، وأمّا التَّعبيرُ بالجمعِ؛ ففيهِ إشارةٌ إلى أنَّ قومَه قد أطبقوا على هذا القولِ من الاستكبار والاستهزاء بالضعفاء، واتَّفقوا عليه، جالَتْ به صدورُ بعضِهم، ونطقتْ به ألسنةُ آخرين، ممّا يدلُّ على سوءِ حالِ قومِه وانغماسِهم في الكِبْرِ والضَّلالةِ.

الموقعُ الإعرابيُّ لقوله: ﴿أَنُؤۡمِنُ﴾:

قـولٌ يكشفُ ما في قـلـوبِ قـومِ نـوحٍ مـن كِـبرٍ واستعلاءٍ

جاءت الهمزة في بداية النَّصِّ القرآنيِّ ﴿أَنُؤۡمِنُ﴾ للاستفهام، وأمّا الفعل؛ فهو مضارعٌ، وفاعلُه مستترٌ، تقديرُه نحن[2]، والجملةُ كلُّها في محلِّ نصبٍ مَقولِ القَوْلِ[3]، وفي كون الجملةِ مقولَ القول اختصارٌ وتلخيصٌ لجوابِ قومِ نوحٍ في ردِّهم عليه بعْدَ أنْ ذَكَرَ لهم عليه السلام مجموعةً من المطالِبِ، فلم يزيدوا على قولهم: ﴿أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ﴾؛ ليكشفَ لنا هذا المقولُ عمّا في قلوبِهم مِنْ كِبرٍ واستعلاءٍ وقُبْحٍ ظَهَرَ على ألسنتِهم.

غرضُ الاستفهامِ في قوله: ﴿أَنُؤۡمِنُ﴾:

في جَـمـعِ قـومِ نـوحٍ بـين إنـكـارِ الإيـمـانِ ونـفـي وقـوعـه منهم دليلٌ على شدَّةِ كفرِهم

جاءَ الاستفهامُ في بدايةِ جوابِ قومِ نوحٍ إنكاريًا توبيخيًّا تعجُّبيًّا، فأعطى معنى إنكارِ الوقوع[4]، أي: كيف نتَّبِعُكَ، ونؤمنُ لَكَ، والحالُ أنَّه قدِ اتَّبعك الأرذلون؟[5] وكانت إجابةً صريحةً قَبيحةً في الواقع، وإتيانُ الاستفهام للإنكار والنَّفي أبلغُ مِنَ النَّفيِ المجرَّدِ، يعني: كيف نُؤْمِنُ لك؟ ولا يمكِنُ أن نُؤْمِنَ لك[6]، وفي هذا التماسٌ منهم لطردِ أتباعِ نوحٍ عليه السلام، وتعليقٌ لإيمانهم به عليه السلام بذلك؛ أَنَفَةً مِنَ الانتظامِ معهم في سِلْكٍ واحدٍ[7].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 159.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 100.
(3) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 10/ 98.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 160، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5378.
(5) الشّوكاني، فتح القدير: 4/ 126.
(6) ابن عثيمين، تفسير سورة الشّعراء، ص: 194.
(7) الآلوسي، روح المعاني: 6/ 241.

والسِّرُّ في جمالِ أسلوبِ الاستفهامِ هنا، والعدولِ عن أسلوبِ النَّفي إليه، هو أنَّ الاستفهامَ في أصلِ وضعِهِ يثيرُ في النَّفسِ التَّفكيرَ، ويدفعُها إلى تدبُّرِ الأمورِ حتى تقتنعَ بأنّه ما كان ينبغي أنْ يقعَ ما وقعَ، أو كان الصَّوابُ أنْ يقعَ ما لم يقعْ، ولمّا كان المسؤولُ يجيبُ بعد تفكيرٍ ورويَّة عن هذه الأسئلة بالنَّفي؛ كان توجيهُ السُّؤالِ إليه حملًا له على الإقرارِ بهذا النَّفي، وهو أفضلُ من النَّفي ابتداءً[1].

سرُّ التَّعبيرِ بالإيمانِ في قوله: ﴿أَنُؤۡمِنُ﴾:

لفظُ الإيمانِ أنسبُ للمقامِ لكونِ الرّسالةِ السّماويةِ تقومُ على الغيبِ

عبَّر البيانُ القرآنيُّ بلفظ الإيمان في قوله تعالى: ﴿أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ﴾ دون لفظ التَّصديق، مع أنَّ المرادَ بالإيمانِ هنا هو المعنى اللغوي، وهو التَّصديقُ؛ لاقترانها باللام، لكونِ لفظِ الإيمانِ أنسبَ للمقام، وهو كونُ الرِّسالةِ السَّماويةِ تقومُ على الغيبِ؛ إذِ الإيمانُ تصديقٌ يُستعمَل على نحوٍ مخصوصٍ، أي: لا يُستعمَل إلّا في الخبرِ عن غائبٍ، بخلاف التَّصديق فيُستعملُ في الخبر عن غائبٍ ومُشاهَدةٍ[2]، كما أنَّ الإيمانَ مُشْتَقٌّ من الأَمنِ والسُّكون والطُّمأنينة[3]، فهو تصديقٌ معه أمنٌ[4]، وهو متضمِّنٌ معنى الأمانة[5]، وهذه المعاني تدلُّ على مدى كِبرهم وإساءتهم لنوحٍ عليه السلام؛ إذ رفضوا الإيمانَ له، أي: رفضوا تصديقَهُ رسولًا يُخْبِرُ بالغيب، ورفضوا ائتمانه، ونسبة الطُّمأنينة باتِّباعه، أي: نَفَوا عنه الصِّدقَ والأمانة والأمنَ والطُّمأنينةَ، فهُم لم يتبعوه؛ ما دام يتّبعُه الضُّعفاءُ والفقراءُ، ممّا يدلُّ على مدى عتوِّهم وكِبرِهم.

آثَرَ النَّظمُ الحكيم التَّعبيرَ بصيغة المضارع التي تدلُّ على التجدُّد

(1) بدوي، من بلاغة القرآن، ص: 126.
(2) ابن تيمية، مجموع الفتاوى: 7/ 291.
(3) العسكريّ، الوجوه والنّظائر، ص: 53.
(4) السّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (أمن).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللغة: (أمن).

تشبُّثُ قومِ نوحٍ وتمسُّكهم بكفرهم، فلا إيمانَ منهم في الحالِ وفي المستقبل

والاستمرار؛ للدَّلالة على تشبُّثهم وتمسُّكهم بكفرهم، وعدمِ الانتقال منه إلى الإيمان، أي: نَفَوا الإيمانَ في الحال وفي المستقبل مادام أتباعُه من الضعفاء، وممّا يدلُّ على هذه الحال قوله تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ٣٦﴾ [هود: 36]، وفي الإيمان استحضارٌ لصورةِ الكافرين الَّتي يظهرُ فيها هذا التشبُّثُ والتَّمسُّك بالكفر، وعدمُ الانتقالِ منه إلى الإيمان، ممّا يعطي دلالةً على اليأسِ من إيمانِهم وتصديقِهم بنوحٍ عليه السلام.

معنى اللّام، وسرُّ التَّعبير بها في: ﴿لَكَ﴾:

إنكارُ تصديقِ قومِ نوحٍ له خاصَّةً استخفافٌ واستهزاءٌ به عليه السلام

لامُ ﴿لَكَ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ﴾؛ للاختصاص، ولهذا آثرَ النَّصُّ القرآنيُّ التَّعبيرَ بها دون حرف (الباء)، أي: أنؤمنُ لك خاصَّةً دون غيرك؟ بمعنى: أنَّهم يستنكرون، ويستبعدون أنْ يستجيبوا لنوح عليه السلام، ويصدِّقوا بما جاء به، والحالُ أنَّه اتَّبعه الأرذلون، واستعمالُ أسلوبِ الاختصاص يومئُ باستهزائِهم واستخفافِهم بنوحٍ عليه السلام.

كما أنَّ التَّعبير باللام يفيدُ أنَّ المرادَ بالإيمانِ في الآية المعنى اللغوي، وهو التَّصديق[1]، كقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ١٧﴾ [يوسف: 17]؛ لأنَّ (آمن) إذا جاء بعده اللّامُ؛ فهو بمعنى: صَدَّق، فإنْ جاء بعده الباءُ؛ فهو بمعنى الإيمانِ بالمعنى الاصطلاحي[2]، وهو الإقْرارُ بما جاء به النَّبيُّ باللِّسانِ، والاعتقادُ بِالقَلْبِ والعَمَلُ بالأعضاء بِمُقْتَضى ما صدَّق بِهِ بإقراره، واعتقده بِقَلْبِه[3].

وفي إرادةِ المعنى اللغوي منهم إشارةٌ إلى استخفافِهم بنوحٍ عليه السلام، أي: حتّى مجرَّد تصديقه عندهم مرفوضٌ، ومن ثَمَّ فالإيمانُ بما جاءَ به وِفْقَ المعنى الاصطلاحي مرفوضٌ مِنْ بابٍ أولى، أو أنَّ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أمن).
(2) الشّعراوي، خواطر الشّعراوي: 17/ 10624.
(3) ابن الجوزي، نزهة الأعين النواظر، ص: 418.

قومَ نوحٍ لم يفهموا معنى الإيمان الذي طلبه نوحٌ عليه السلام؛ لأنَّ نوحًا لم يأمرهم أنْ يؤمنوا له، بل طلبَ منهم أنْ يصدِّقوا بما جاء به، وأنْ يؤمنوا باللّه الذي أرسله رسولًا[1].

معنى الواو ودلالتُها في قوله: ﴿وَٱتَّبَعَكَ﴾:

كِبرُ قومِ نوحٍ عن استوائهم مع المؤمنين الضُّعفاء

الواو في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ﴾: للحال[2]، والجملة حاليَّةٌ، والمعنى باعتبار ﴿وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ﴾ على الحقيقة: أنؤمن بك، والحال أنَّه قد اتَّبعك المؤخَّرون في الحال والمآل؟ فيكون إيمانُنا بكَ سببًا لاستوائنا معهم[3]، والمعنى باعتبار قوله: ﴿وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ﴾ مجازٌ أو كنايةٌ عن بطلان ما يدعوهم، أي: كأنَّها تجري مجرى العلَّة على عدمِ إيمانهم، كأنَّهم قالوا: أنؤمنُ لك، والحال أنَّ ما تدعوننا إليه باطلٌ؟ لأنَّه لو كان حقًّا؛ لَمَا دعوتَ الأراذلَ إليه، الذين سارعوا إليك من غيرِ إعمالِ عقولٍ أو تفكيرٍ[4]، ويؤيِّدهُ قولُه تعالى في موضع آخر: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ﴾ [هود: 27]، أي: إنَّه قد اتَّبعك الضُّعفاء والفقراء وأسافلُ النّاس دون ذوي الشَّرف.

ويجوزُ أنْ تكونَ الواو على قراءة ﴿وَأَتۡبَاعُكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ﴾[5]، إمّا للابتداء، ورفعُ ﴿وَأَتۡبَاعُكَ﴾ على أنَّه مبتدأٌ، و﴿ٱلۡأَرۡذَلُونَ﴾ الخبر، ويكون التَّقدير: (أنؤمنُ لك وإنَّما أتباعُك الأرذلون)، ويجوز أنْ تكونَ للعطف على الضَّمير في قوله: ﴿أَنُؤۡمِنُ لَكَ﴾، والتَّقدير: (أنؤمنُ لك نحن وأتباعُك الأرذلون، فنُعدُّ منهم)، وحَسُنَ ذلك الفصل بقوله: ﴿لَكَ﴾[6].

(1) الشّعراوي، خواطر الشّعراوي: 17/ 10624.
(2) الزّمخشري، الكشّاف: 3/ 324، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 160.
(3) البقاعي، نظم الدّرر: 14/ 63.
(4) القونوي وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 14/ 277.
(5) وهي قراءة يعقوب، ينظر: ابن الجزري، النّشر في القراءات العشر: 2/ 335.
(6) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 120.

علَّةُ تقديرِ (قد) بعد الواو في: ﴿وَٱتَّبَعَكَ﴾:

حجَّةُ قومِ نوحٍ في عدمِ إيمانهم هي استمرارُ اتِّباعِ الضُّعفاء له

التَّقديرُ في قوله سبحانه: ﴿وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ﴾ هو: (وقد اتَّبعك الأرذلون)؛ لأنَّ الأصلَ في الماضي ألّا يقعَ موقعَ الحال إلّا وتأتي (قد) معه ظاهرةً أو مقدَّرةً؛ لتُقرِّبَ الماضي من الحال، بما يدلُّ على استمرارِ اتِّباع الضُّعفاء لسيِّدنا نوحٍ عليه السلام.

اختصارُ قومِ نوحٍ في خطابهم له دليلٌ على خُبث نفوسهم

وقد حُذِفتْ في النَّظم الحكيم؛ اختصارًا في الكلام بما يدلُّ على نفوسهم الخبيثة التي اختصرت الكلام؛ كراهيةَ إطالةِ الحديثِ مع رسول اللّه نوحٍ عليه السلام.

علَّةُ التَّعبير بـ﴿وَٱتَّبَعَكَ﴾:

تحقيرُ قومِ نوحٍ للمؤمنين واتِّهامُهم في إيمانهم

جاء في النَّصِّ القرآنيِّ قول قوم نوح: ﴿وَٱتَّبَعَكَ﴾ متناسبًا مع السّياق الذي يدلُّ على تحقيرهم للمؤمنين الضُّعفاء، ودالًّا على أنَّ مقصودَهم هو اتِّهامُ الضُّعفاء الذين آمنوا بما جاء به نوحٌ عليه السلام بعد صدقهم، واتِّهامهم بعدم انقيادهم لنوحٍ عن حبٍّ وتسليمٍ، بل هم مع نوحٍ اقتفاءً لأثرِه وحسب، أي: اتِّباعًا شكليًّا، من غير إعمالِ عقلٍ أو تدبُّرٍ أو تفكيرٍ؛ لأنَّ "الاتِّباع عبارةٌ عن الإتيانِ بمثْلِ فعْلِ الآخر لمجرَّد كونه آتيًا به"[1]، بخلاف الطّاعة في اللُّغة التي تدلُّ على الموافقة والاتِّباع والانقياد عن حبٍّ وإرادةٍ وائتمارٍ لِما أُمر، والارتسام فيما رُسِمَ[2]، أي: أراد الكافرون بهذه الكلمة أنْ يرفعوا من شأن أنفسِهم، وأن يحقِّروا من مكانةِ أتباع سيِّدنا نوح.

دلالةُ المضيِّ في قوله: ﴿وَٱتَّبَعَكَ﴾:

تحقُّقُ الاتِّباع لنوحٍ عليه السلام من الضُّعفاء هو حجَّة الكافرين المتكبِّرين في تكذيب دعوته

عبَّر البيانُ الإلهيُّ بفعل ﴿وَٱتَّبَعَكَ﴾ بصيغة الماضي دون المضارع؛ للدَّلالة على إقرارِ قوم نوحٍ بتحقُّق وقوع الاتِّباع من الضُّعفاء لنوح عليه السلام من غير وعيٍ وتدبُّرٍ وإعمالِ عقل؛ لأنَّ الأصلَ في الماضي أنَّه يدلُّ

(1) الخطيب الشربيني، السّراج المنير: 2/ 392.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طوع)، والرّاغب، المفردات: (طوع).

على حدثٍ وقعَ، وانقطعَ، ومضى، وانقضى، وهذا الاتِّباع المتحقِّق من قِبَلِ الضُّعفاء هو حجَّةُ هؤلاء الكافرين المتكبِّرين في تكذيب دعوة نوحٍ عليه السلام، ورفضِ تصديقها والإقرار بها؛ كِبرًا منهم، وكم أعمى الكِبرُ صاحبَهُ عن الحقِّ.

بيانٌ لتحقُّقِ وقوعِ اتِّباعِ الضُّعفاء لنوحٍ عليه السلام وديمومَتِه

توجيهُ قراءتَي ﴿وَأَتْبَـٰعُكَ﴾، و﴿وَٱتَّبَعَكَ﴾:

قرأَ يعقوبُ قوله تعالى: ﴿وَأَتْبَـٰعُكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾ بقطعِ الهمزة المفتوحة، وإسكانِ التَّاء مخفَّفةً وضمِّ العين وألف قبلها، على أنَّها جمع (تابع) مبتدأ، وقرأ الباقون بوصل الهمزةِ وتشديد التَّاء مفتوحةً وفتحِ العين من غير ألف: ﴿وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾[1].

وارتفاع "﴿وَأَتْبَـٰعُكَ﴾ يجوز أنْ يكونَ بالابتداء، و﴿ٱلْأَرْذَلُونَ﴾ الخبر، ويكون التَّقديرُ: (أنؤمنُ لك، وإنَّما أتباعُك الأرذلون)، ويجوز أنْ يكون معطوفًا على الضَّمير في قوله: ﴿أَنُؤۡمِنُ لَكَ﴾، والتَّقدير: (أنؤمنُ لك نحن وأتباعُك الأرذلون فنعدُّ منهم)، وحسن ذلك الفصل بقوله: ﴿لَكَ﴾"[2].

وفي كلتا القراءتين ملمحٌ بلاغيٌّ مهمٌّ، فقراءة ﴿وَٱتَّبَعَكَ﴾ بصيغة الماضي تفيدُ تحقُّقَ وقوعِ اتِّباعِ الضُّعفاء، ومن ثَمَّ لن يرضى قومُ نوحٍ أنْ يسيروا على آثارهم، وقراءة ﴿وَأَتْبَـٰعُكَ﴾ جمعُ (تابعٍ) على وزن اسم فاعل، وفي التَّعبير باسمِ الفاعل دلالةٌ على حدثٍ ثابتٍ غير محدَّدٍ بزمن، وهذا يُعطي للمعنى مزيدًا من المبالغةِ في ثبوتِ اتِّباعِ الضُّعفاء لنوحٍ عليه السلام ودوامِهم واستمرارِهم، بما يجعلُ إعراضَ الكافرين ورفضهم لرسالة نوح مستمرًّا.

علَّةُ التَّعبيرِ بالرَّذل في قوله: ﴿ٱلۡأَرۡذَلُونَ﴾:

وصَفَ قومُ نوحٍ عليه السلام أتباعَه بأنَّهم الأرذلون، واختاروا هذا الوصف

(1) ابن الجزري، النّشر في القراءات العشر: 2/ 335.

(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 120.

مبالغةُ قومِ نوحٍ في تحقيرِ المؤمنين به دلالةٌ على كِبرهم وتسويغٌ لكفرهم

دون سواه كالقلَّة مثلًا - رغم أنَّ بينهما تقاربًا دلاليًّا، وقد يُعبَّر بهما عن الاستخفاف بالشيء؛ لكون لفظ ﴿ٱلۡأَرۡذَلُونَ﴾ أنسبَ لحال الكافرين من قوم نوح، فالرَّذْلُ: يدلُّ في أصله على الدّون مِنْ كُلِّ شَيْءٍ[1]، وقيل: الدّون في مَنْظَرِه وحالاتِه، وقيلَ: هوَ الخَسيس، وهوَ الرَّديء مِنْ كُلِّ شَيْءٍ[2]، والرّاذلُ هو المرغوبُ عنه لرداءته، فهو لا نسبَ له ولا نصيب من الدُّنيا، فالأرذلونَ هم الفقراء الأقلُّ جاهًا ومالًا، ويعنون بذلك أنَّه لا عبرةَ لاتِّباعهم لك، إذ ليس لهم رزانةُ عقلٍ وإصابةُ رأيٍ[3]، إذًا فلفظُ (الأرذل) يجمعُ أوصافَ الخسَّةِ والدَّناءة في كلِّ شيء، فهم لم يجدوا لفظًا يجمعُ كلَّ هذه الصفات الرَّديئةَ كالرَّذل، وهذا ينبئُ عن شدَّة كِبرهم وتعاليهم، وكرههم للمؤمنين.

دلالةُ التَّعريفِ في قوله: ﴿ٱلۡأَرۡذَلُونَ﴾:

مبالغةُ قومِ نوحٍ عليه السلام في التَّنفير من دعوته

(أل) التَّعريفِ في قوله تعالى: ﴿ٱلۡأَرۡذَلُونَ﴾ تحتمل أنْ تكون جنسيَّةً، تفيدُ استغراقَ خصائصِ أفرادِ ما تدخل عليه[4]، أي: قَصَدَ قومُ نوحٍ في كلامهم كلَّ الذين لا نسَبَ لهم، ولا نَصيبَ من الدُّنيا، ولا إخلاصَ لهم في العمل، أو لم يكن إيمانهم عن نظرٍ وبصيرة، وفي الجنسيَّة مبالغةُ قومِ نوحٍ في التَّنفيرِ من دعوتِه بحجَّة أنَّه قد اتَّبَعَها كلُّ مَن هو دونٌ حسَبَ زعمهم، وتحتمل أن تكون عهديَّةً، فهي تعودُ إلى أناسٍ معروفينَ في الذِّهنِ من قِبَلِ نوحٍ عليه السلام ومن قِبَلِهم، فقدْ كانَ بينَ نبيِّ اللّهِ نوحٍ وبين القوم أناسٌ أراذلُ بادي الرَّأي بزعمهم، ويشهد على إرادة العهديَّة قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ﴾ [هود: 27][5].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رذل).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (رذل).
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 521، والطّيبي، فتوح الغيب: 11/ 391، وحقّي، روح البيان: 6/ 292، ومحمد هلال، تفسير الثّري الجامع: 19/ 168.
(4) وهي التي تخلُفها (كلّ) مجازًا.
(5) الطّيبي، فتوح الغيب: 11/ 392.

سرُّ اصطفاءِ صيغةِ الجمع ﴿ٱلۡأَرۡذَلُونَ﴾:

في إيثارِ السَّلامةِ في الجَمعِ زيادةُ تأكيدِ الوصْفِ

يصِحُّ في جَمعِ كلمةِ الأرذلِ أنْ يكون جمعَ تكسيرٍ، فنقول: (أراذل)، أو أنْ يكونَ على الصِّحَّة بزيادة الألف والنّون جمعَ مذكَّرٍ سالم، فنقول: ﴿ٱلۡأَرۡذَلُونَ﴾[1]، وإنَّما آثرَ النَّصُّ القرآنيُّ جمع السَّلامة هنا؛ لأنَّ صيغةَ أرْذَل جاءتْ على وزنِ أفعل الَّذي يحمل معنى التَّفضيل، واسم التَّفضيل إذا كان لا يتمُّ نعتًا إلّا بـ (مِنْ)، كقولك: أفضل من زيد، وأصغر من خالد؛ فإنَّه يُجمعُ منه ما كان للآدميّين مذكَّرًا بالواو والنّون[2]، ثمَّ إنَّ زيادة الألف والنّون تعطي معنى التَّأكيد، فيكون اللفظ أبلغَ في التَّعبير[3].

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإيمان والتَّصديق:

الإيــمــانُ هو تــصــديــقٌ خــاصٌّ معه أمــنٌ وسكــونٌ وطمأنينةٌ وأمانةٌ

الإيمانُ أخصُّ من التَّصديق؛ لأنَّ الإيمانَ تصديقٌ يُستعمل على نحوٍ مخصوص، فالمخبرُ عن مشاهدة أو غيبٍ يُقال له: صدقتَ، وأمّا لفظُ الإيمانِ؛ فلا يُستعمل إلّا في الخبرِ عن غائب[4]، والصِّدقُ يقابلهُ الكذبُ، والإيمانُ يقابلهُ الكفرُ[5]، والتَّصديق في أصله يدلُّ على قوَّةٍ في الشَّيءِ قولًا وغيره، وسُمّيَ لِقوَّتِهِ في نَفْسِهِ؛ ولأنَّ الكذبَ لا قوَّةَ له، فهو باطل[6]، بينما الإيمان من (أمن)، ولها أصلان متقاربان، أحدهما الأمانةُ التي هي ضدُّ الخيانة، ومعناها سكونُ القلب، والآخر التَّصديق[7]، فالإيمانُ متضمِّنٌ مع التَّصديق معنى

---

(1) استخدم النَّصُّ القرآنيُّ كلا الجمعين، فقال في سورة هود: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا﴾ [هود: 27] وقال هنا في سورة الشّعراء: ﴿قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ ١١١﴾ بزيادة الواو والنون، يُنظر: الزمخشري، الكشاف: 3/ 324.

(2) ابن يعيش، شرح المفصّل: 3/ 308.

(3) ابن القيّم، بدائع الفوائد: 1/ 222.

(4) ابن تيميّة، مجموع الفتاوى: 7/ 291.

(5) ابن منظور، لسان العرب: (أمن)، (صدق).

(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صدق).

(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أمن).

الأمنِ والأمانة[1]، و"أصلُ الإيمانِ السُّكونُ والطُّمأنينةُ، ومن أمَّنك؛ فقد سكنَ إليك... ثمَّ استُعملَ الإيمانُ بمعنى التَّصديق؛ لأنَّك لا تصدِّقُ الرَّجلَ إلّا وقد سكنتَ إلى خبرِه"[2]، فهو في الشَّرعِ يُطلَقُ على الإقْرارِ بِاللِّسانِ، والاعتقاد بِالقَلْبِ، والعملِ بالأركان[3]، وقد ناسبَ هنا استعمال لفظ الإيمان؛ لكون ما جاء به نوحٌ عليه السلام هو الرِّسالة السَّماوية التي تقومُ على الغيب.

الاتِّباع والطّاعة:

الاتِّباعُ هو الامتثال والائتمار واقتفاءُ الأثر، والطّاعةُ الانقياد طوعًا ودون إكراه

الاتِّباع: من (تبع)، وأصلُه يدلُّ على التُّلوِّ والقَفْوِ، وأَتْبَعْتُهُ؛ إذا لَحِقْتَهُ[4]، والاتِّباع: اقتفاءُ الأثرِ، فتارةً يكون بالجسم، نحو تبعته في الطَّريق، وتارةً بالامتثال والائتمار، وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ﴾ [طه: 123][5]، وأمّا الطاعة؛ فمِن (طوع)، وأصله يدلُّ على الإصْحابِ والانقيادِ، يُقالُ: طاعَهُ يَطوعُهُ؛ إذا انْقادَ مَعَهُ، ومَضَى لِأَمرِه، وأَطاعَهُ بِمَعْنَى: طاعَ لَهُ، ويُقالُ لِمَنْ وافَقَ غَيْرَهُ: قَدْ طاوَعَهُ[6]، والطَّوْعُ: الانقيادُ، ويضادُّهُ الكرهُ، قال عَجَّلَّ: ﴿ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهًا﴾ [فصلت: 11]، والطّاعَةُ مثله، لكن أكثر ما تُقال في الائتمار لِما أُمر، والارتسام فيما رُسم[7].

إذًا: يتميَّز لفظُ الطّاعة بمعنى الانقياد طوعًا، أي: بإرادته ودون إكراه، ويتميَّز لفظُ الاتِّباع بمعنى الامتثال والائتمار واقتفاء الأثر، والطّاعة تقتضي الاتِّباع؛ لأنَّ من أطاعَ؛ وافقَ من أطاعه، واتَّبعه، وانقادَ له، وائتمرَ بأمره، وقد ناسب التَّعبيرُ بلفظ الاتِّباع

---

(1) السّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (أمن).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللغة: (أمن)، والعسكريّ، الوجوه والنّظائر، ص: 53.
(3) ابن الجوزي، نزهة الأعين النواظر، ص: 418، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (أمن).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (تبع).
(5) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (تبع).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طوع).
(7) الرّاغب، المفردات: (طوع).

دون الطّاعة؛ توافقًا مع الظّاهر؛ إذ يرى قومُ نوحٍ أنَّ أتباعَ نوحٍ ﷺ يمتثلون له، ويأتمرون بأمرِهِ، ولم يطَّلعوا على بواطنِهم؛ ليعلموا أنَّ انقيادهم طوعًا وعن إرادةٍ ودون إكراه.

الرَّذْل والقلَّة:

الـرَّذْلُ هو الـدّونُ من كلِّ شيء والـرَّديءُ والـخـسيس، والـقـلَّـةُ نـزارةُ الـشيءِ وقـلَّـةُ عددهِ

الرَّذْلُ: يدلُّ في أصله على الدّون مِنْ كُلِّ شَيْءٍ[1]، وقيل: الدّون في مَنْظَرِهِ وحالاتِهِ، وقيلَ: هوَ الدّون الخَسيس، وقيلَ: هوَ الرَّديء مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، وثَوْبٌ رَذْلٌ ورَذيل: وسِخٌ رديءٌ، والرَّذيلَة: ضِدُّ الفَضيلَةِ[2]، وأمّا القلَّة؛ فتدلُّ في أصل مادتها على نَزارَةِ الشَّيء، ويُقالُ: اسْتَقَلَّ القَوْمُ؛ إذا مَضَوا لِمَسيرِهِم، وذَلِكَ مِنَ الإقْلالِ أَيْضًا، كَأَنَّهُمُ اسْتَخَفّوا السَّيْرَ، واسْتَقَلّوهُ[3]، والقِلَّةُ: ضِدُّ الكَثْرَةِ، والقليلُ يُقال في قلَّةِ العددِ، وفي دِقَّةِ الجُثَّةِ والنَّحافَةِ، والقُلُّ مِنَ الرِّجالِ: الخَسيسُ الدّين، والإقْلالُ: الافْتِقارُ[4].

وقد جاء التَّعبيرُ بالرَّذل متناسبًا مع حالِ الكافرين من قوم نوح، فقد تكبَّروا، وتعاظموا أنْ يكونوا والضُّعفاء سواءً في اتِّباع نوحٍ ﷺ، وهم يرونهم دونهم، وينظرون إليهم على أنَّهم سقطُ القوم في الخسَّة والحقارة والدَّناءة.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رذل).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (رذل).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قلّ).
(4) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (قلل).

﴿قَالَ وَمَا عِلۡمِي بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١١٢ إِنۡ حِسَابُهُمۡ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّيۖ لَوۡ تَشۡعُرُونَ ١١٣ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١١٤ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ ١١٥﴾

[الشعراء: 112 - 115]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

ردُّ نوحٍ عليه السلام على استخفاف المستكبرين بأتباعه

بعد أن أنكر المُستكبرون على الذين آمنوا أعمالهم، وذهب أشرافهم إلى الانتقاص من أتباع نوحٍ عليه السلام، وقالوا عنهم: ﴿وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ ١١١﴾ [الشعراء: 111]، باعتبارهم كانوا يمتهنون الحياكة والحجامة، أي: ما يُسمّونهم بأهل الصنائع الخسيسة[1]؛ ناسب أن يردَّ بقوله: ﴿وَمَا عِلۡمِي بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾، بمعنى: وما شأني بهذه الأعمال، فحسابُهم سيكون على الإيمان وصِدْقِه، لا على ما كانوا يمتهنون، حالُهم بذلك كحال النّاس جميعًا، وما حسابهم إلّا على اللّه سبحانه.

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿حِسَابُهُمۡ﴾: (حسب) أُصولٌ أَرْبَعَةٌ، فالأَوَّلُ: العَدُّ، تَقولُ: حَسَبْتُ الشَّيْءَ أَحْسُبُهُ حَسْبًا وحُسْبانًا، والثّاني: الكِفايَةُ، والثّالِثُ: الحُسْبانُ، والرّابِعُ: الأَحْسَبُ الَّذي ابْيَضَّتْ جِلْدَتُهُ مِنْ داءٍ ففَسَدَتْ شَعَرَتُهُ، كَأَنَّهُ أَبْرَصُ[2]، والمعنى المحوريُّ: جمعُ ما هو منتشرٌ في حيّز يضمُّهُ حتى يمتلئَ به، كما يُجمَعُ الثُّمام الجاف ونحوه، فتُحشى به الوسادة، وكما يمتلئ بطنُ مَن أحسب طعامًا وشرابًا، وكما يمتلئ بدن الإبل الموصوفة[3]، والحساب: الجزاء، قال اللّه تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ

(1) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 4/ 237.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حسب).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (حسب).

عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾ [الغاشية: 26]، أي: جزاؤهم، والحساب: المحاسبة، قال تعالى: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾﴾ [الانشقاق: 8][1]، والحساب: الأَجر والثّواب[2]، والمعنى في الآية: أنَّ اللّه هو الذي يتولّى معاملتهم بما أسلفوا وما يعملون، وبحقائق أعمالهم[3].

2) ﴿بِطَارِدِ﴾: أصلُ (طرد) يدلُّ على إبعادٍ[4]، والمعنى المحوري للطَّرد: إبعادٌ عن الحيّز بدفع قَويٍّ من الخلف: زَجْرٍ أو نحوه[5]، والطَّرْدُ: هو الإزعاج والإبعاد على سبيل الاستخفاف[6]، وهو أيضًا: مطاردةُ الصَّيد، أيْ: علاج أخْذِهِ[7]، والمُراد به في الآية: الأمرُ بالبُعد عن مكانِ الحُضورِ تحقيرًا أو زَجْرًا[8].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

دأبُ الأنبياءِ موالاةُ المؤمنينَ والقُرْبُ منهم

قال نوحٌ لِقَومِه: وما عِلمي بما كان يعمَلُ أتْباعي؟ إنَّما لي منهم ظاهرُ أمرهم دون باطنه، فمَنْ أظهر الحُسْن؛ ظننتُ به حُسنًا، ومن أظهر السّوء؛ ظننتُ به ذلك، فأنا لم أُكلَّف العِلمَ بأعمالِهم وأحوالِهم الدّينيَّةِ والدُّنيويَّةِ، وإنَّما أمَرني اللّهُ أنْ أدعوَهم إلى الإيمان، وأقبَلَ منهم إقرارَهم وتَصديقَهم وانقيادَهم، وأكتفيَ بذلك دونَ النَّظَرِ إلى بواطِنِهم وحِرَفِهم وصَنائِعِهم، ما حِسابُ أتْباعي إلّا على ربّي، فهو الَّذي يعلَمُ السِّرَّ والعلانيةَ، وليس علَيَّ مَعرفةُ أعمالِهم وبواطِنِهم، وإنَّما علَيَّ التَّبليغُ، ولو كنتُم تَعلَمون أنَّ حِسابَهم على اللّهِ وحْدَه، وتَشعُرونَ بالأمرِ على حقيقتِه؛ لَمَا عِبتُموهم، ولم تَسْألوني عنهم، فإنْ

---

(1) ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، ص: 276.

(2) الفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: 2/ 460.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 161.

(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طرد).

(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (طرد).

(6) ابن دريد، جمهرة اللغة، والراغب، المُفرَدات: (طرد).

(7) الخليل، العين: (طرد).

(8) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/ 55.

كان ما جئتُكم به هو الحق؛ فاتَّبِعوه، وما أنا بطاردٍ مَنْ آمن باللّه، واتَّبعني، وصدَّق بما جئتُ به من عند اللّه، ما بعَثَني اللّهُ إلّا نذيرًا أوضِّحُ إنذارَه لكم جميعًا؛ غنيِّكم وفقيرِكم، شريفِكم ووضيعِكم(1).

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ فصْلِ الآيةِ عمّا سبقها:

الرَّسولُ ما عليه إلّا البلاغُ، ولا يُسأل عن أعمال أتباعِهِ

قوله تعالى: ﴿قَالَ وَمَا عِلۡمِي بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ فُصِلَت عن سابقتها؛ لأنَّها جوابٌ لسؤال سبقها، هو قولُهُ تعالى: ﴿۞قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ ١١١﴾ [الشّعراء: 111]، فيكون سبَبُ الفصل كمالَ الاتِّصال بين الآيتَين؛ لاتِّفاق الجملتَين إنشاءً؛ فكِلْتا الجملتَين استفهامٌ، ثمَّ إنَّ الجملة الثّانية هي بمنزلة عطفِ بيان من الجملة الأولى، في كونها وضَّحت عدم علمه عليه السلام بما قالوه عن أتباعه، وما كانوا يعملونه، فقال: ﴿وَمَا عِلۡمِي بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾.

إيثارُ التَّعبيرِ بفعل القول مادَّةً وصيغةً:

الاهتمامُ الكبيرُ بما قاله نوح عليه السلام

تُستخدم أفعالُ القول في سياق ذِكْر أنَّ فلانًا قال ما سيأتي، وفعلُ القول من فوائدِه ربْطُ السَّردِ بالحوار، والتَّصريح بالقول دليلٌ على العناية الصّادقة بالشَّيءِ(2)، فهو كالنَّص المنقول تمامًا؛ إذ يُعلم أنَّ نوحًا عليه السلام قال هذا القول بحذافيره.

دلالةُ الواوِ ومعناه في: ﴿وَمَا عِلۡمِي﴾:

مبادرةُ نوح عليه السلام بالجواب السَّريع على قول المعاندين من قومه

جواب نوح عليه السلام على كلام قومه، واقتران أوَّله بالواو في قوله: ﴿وَمَا عِلۡمِي بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ يجعله في حُكم المعطوفِ على كلام قومه؛ تنبيهًا على اتِّصاله بكلامهم، وذلك كنايةٌ عن مبادرته بالجواب، كما في طلب إبراهيم من ربِّه، بعد أن قال له: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 603، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 151، والمراغي، تفسير المراغي: 19/ 83.

(2) الرّاغب، المفردات، ص: 688.

﴿إِمَامًاۖ قَالَ﴾ [البقرة: 124]، فقال إبراهيم عليه السلام: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ﴾ [البقرة: 124]، بمعنى: واجعل لي من ذرّيَّتي للنّاس إمامًا، ويُسمَّى هذا العطفُ عطْفَ التّلقين أو التّكميل؛ لمقامهِ في النّصِّ[1].

معنى (ما) ودلالتها في قوله: ﴿وَمَا عِلۡمِي﴾:

قِلَّةُ الاعتناءِ بالمُستفهَمِ عنه أو نفيٌ له

في قوله: ﴿وَمَا عِلۡمِي﴾، (ما): استفهاميَّة، والمعنى استفهام مُؤذِنٌ بأنَّ قومَهُ فصّلوا في ذِكْر أوصاف أتباعِ نوح عليه السلام من الذين آمنوا، فذكَّروهم بالأرذلين، ثم بيَّنوا أوصافًا من أحوال أهل الحاجة الذين لا يعبأ النّاس بهم، فأتى بالاستفهام عن علمه استفهامًا مُستعمَلًا في قلَّة الاعتناء بالمُستفهَم عنه[2]، وقال الحوفيُّ والطَّبرسيُّ: نافية، وعليه يكون في الكلام حذفٌ، أي: وما علمي بما كانوا يعملون ثابتٌ أو حاصلٌ[3].

المُراد بالعلم في قوله: ﴿عِلۡمِي﴾ ودلالته:

العلم بالظّواهر واجتناب ما خفي من أسرار النّاس

أمّا العلم في قوله: ﴿قَالَ وَمَا عِلۡمِي﴾؛ فالمعنى: ما وظيفتي إلّا اعتبار الظّواهر وبناء الأحكام عليها دون التَّجسُّس والتَّفتيش عن البواطن[4]، فالعِلم هو المعرفة الظّاهرة للنّاس، دون البحث عمّا خفي في أسرارهم، والكشف عن نيّاتهم، وفي الآية بمعنى: اهتمامي وانشغالي.

سرُّ إضافةِ العِلْم إلى المتكلِّم ﴿عِلۡمِي﴾:

نفيُ السّوءِ عن نفسهِ وأتباعِهِ

دلَّت تلك الإضافة على العلم الذي يملكه القائل، وهو نبيُّ الله - نوح عليه السلام - مخاطبًا به قومه الذين اعترضوا على أتباعه، فبرَّأ نفسَهُ ودعوته من أيِّ سوءٍ يمكن أنْ يُصيبَهُ، أو يصيبَ دعوته بهذا الإنكار؛ إذ لا علم له بأيِّ سوءٍ طارئٍ على دعوته، ومَنْ أراد الإيمان بالله؛ فلا يضرُّهُ مَن أساء العمل والتَّصرُّف من المؤمنين.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 160.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 160.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 105.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 105.

معنى كلٍّ من (الباء) و(ما) في قوله: ﴿بِمَا﴾:

مدى اهتمام نوحٍ عليه السلام وانشغاله بأعمال الآخرين

في قوله: ﴿وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾، ضُمِّن ﴿عِلْمِي﴾ معنى: اشتغالي واهتمامي، فعُدّي بالباء[1]، قال الزَّمخشريُّ: "إذا عُدّي بالباء؛ معناه الأخذ والاستصحاب"[2]، والمعنى الرَّئيس للباء هو الإلصاق، وما ذُكِرَ له من معانٍ أخرى تحمل هذا المعنى، قال سيبويهِ: "وباء الجرِّ إنَّما هي للإلزاق والاختلاط"[3]، فهي هُنا للإلصاق والاستصحاب.

أمّا (ما)؛ فيُحتمل أن تكونَ اسمَ موصول بمعنى: (الذي)، وغرضُ التَّعريف بالاسم الموصول هُنا (الإبهام)؛ لأنَّ نوحًا عليه السلام كان يريد إبهام الأعمال عن السّامعين، وتقع على ذوات ما لا يعقل، وهي هُنا من قبيل الثّاني.

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعل الماضي (كان):

شمولُ نفي علمه بجميع أحوال الذين آمنوا

قد تَرِدُ (كان) زائدةً، كقوله تعالى: ﴿وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾، أيَ: (بما يعملون)؛ لأنَّه قد كان عالمًا ما علموه من إيمانِهم به[4]، فجاءت للتَّأكيد[5]، أيَ: تأكيد مدلول: ﴿وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾، والمعنى: (أيُّ شيءٍ علمي بما يعملون)، فشمل قوله: ﴿بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ جميعَ أحوالهم في دينهم ودنياهم في الماضي والحال والمستقبل والظّاهر والباطن[6].

مرجعُ الضَّميرِ في ﴿كَانُواْ﴾ ودلالته:

الحديثُ عن المؤمنين برسالة نوح عليه السلام

مرجع الضَّمير في قوله: ﴿بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ إلى الذين آمنوا من المستضعفين، الذين قال عنهم أكابرُ القومِ: إنَّهم الأرذلون،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 161.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/ 388.
(3) سيبويه، الكتاب: 2/ 304.
(4) الزّركشيّ، البرهان: 4/ 311.
(5) السّيوطيّ، الإتقان: 2/ 257، ومعترك الأقران: 2/ 246.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 161.

ووصفوهم بأوصاف تنمُّ على رعونةٍ وكِبْرٍ، فأنكرَ نوحٌ ﷺ على المُعاندين كلامَهم على المستضعفين من الذين آمنوا.

إيثارُ التعبيرِ بالفعلِ المضارعِ ﴿يَعۡمَلُونَ﴾:

عدمُ وقوعِ الأعمالِ غيرِ الجيّدةِ منهم

في قوله: ﴿بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾؛ دلَّ المضارعُ هنا على الماضي من الزَّمان، ولا يصحُّ إبدالُ الفعل الماضي هنا بالمضارع ﴿يَعۡمَلُونَ﴾؛ إذ أفاد الفعل المضارع هنا عدمَ الحصول، ولو كان في صيغة الماضي؛ لتغيَّرَ المعنى، فلو قال: (وما علمي بما كانوا قد عملوا)، أو (وما علمي بما عملوا)؛ لأثبت أنَّهم قاموا بالأعمال التي استحقّوا عليها وصفَ الأرذليَّة، ولكنَّ قوله: ﴿وَمَا عِلۡمِي بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ لم يُثبت عليهم تلك الأعمال، بل رجَّح عدمَ المعرفة والعلم بوقوعها أصلًا.

التَّوجيهُ البلاغيُّ في الآية:

صرفُ الأذهانِ عمّا لا يضرُّ قضيَّةَ الإيمان

يحتملُ أن يكون قولُ نوح ﷺ: ﴿وَمَا عِلۡمِي بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ من قبيل أسلوب الحكيم، قال الآلوسي: "ولو جُعِلَ هذا نوعًا من الأسلوب الحكيم لم يبعد عندي، وفيه من لطف الرَّدِّ عليهم، وتقبيح ما هم عليه ما لا يخفى"[1]، وفائدته هُنا صرْفُهم عمّا لا يضرُّ قضيَّة الإيمان، فهو أمرٌ لا يهمُّ الرَّسول؛ مهما كانت مهنهم وصنائعهم، فإنَّهم إنَّما يُحمدون على إيمانهم.

يحتمل أن يكون كنايةً

ويحتمل أن يكون قوله ﷺ: ﴿وَمَا عِلۡمِي بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ كنايةً عن قلَّة جدواه؛ لأنَّ الاستفهام عن الشَّيء يُؤذِن بالجَهل به، والجَهل تُلازمه قلَّةُ العناية بالمجهول وضعفُ شأنه[2].

ويحتمل أن يكون توريةً

وإمّا أن يكون تورية؛ "فَهُم قد قصدوا فقرهم وحالهم، وأعمالهم التي يقتاتون منها، تلك التي لا يمتهنها إلّا بُسطاء النّاس، وقَصَدَ هو إخلاصهم في دينهم، فيكون قوله: ﴿وَمَا عِلۡمِي بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾،

(1) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 106.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 160.

المعنى القريب: ما يقصدونه من رذالة حالهم، وفقرهم، وضعفِ رأيهم، والمعنى البعيد: ما يقصده ﷺ هو عدم استحقاقهم الإيمانَ؛ لفساد أعمالهم وقلوبهم، فقوله: ﴿وَمَا عِلۡمِي﴾، بمعنى: (وأيُّ شيءٍ علمي؟) والمُراد: انتفاء علمه بإخلاص أعمالهم لله واطِّلاعه على سرِّ أمرهم وباطنه[1].

وخلاصةُ ذلك ما ذكره الآلوسيُّ في جواز أن يُقال: إنَّهم لمّا قالوا: ﴿وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ ١١١﴾ [الشعراء: 111]، وعنوا الذين لا نصيب لهم من الدُّنيا، أو الذين اتَّضَعَت أنسابهم، أو كانوا من أهل الصَّنائع الدَّنيئة؛ تغافل ﷺ عن مُرادهم، وخَيَّلَ لهم أنَّهم عنوا بالأرذلين مَن لا إخلاص له في العمل، ولم يؤمن عن نظر وبصيرة، فأجابهم بما ذكر، كأنَّه ما عرف من الأرْذَلين إلّا ذلك[2].

غرضُ حذفِ مُتعلِّق الفعل ﴿يَعۡمَلُونَ﴾:

مدحُ المؤمنين بإيمانهم، والإعراض عمّا كان قبل الإيمان

يظهر من الآية أنَّ مُرادَ قومِ نوحٍ بنسبة الرذيلة إلى المؤمنين تهجينُ أفعالهم لا النظر في صنائعهم، يدلُّ على ذلك قول نوح: ﴿وَمَا عِلۡمِي﴾ الآية؛ لأنَّ معنى كلامِهِ: (ليس في نظري وعلمي بأعمالِهم ومعتقداتهم فائدة، إنَّما أقنع بظاهرهم، وأجتزئ به، ثمَّ حسابهم على الله تعالى)[3]، فمتعلِّقُ الفعل ﴿يَعۡمَلُونَ﴾ أخفاه القرآن؛ لأنَّ الرَّسولَ قصد مدح الذين اتَّبعوه بالإيمان، وأعرض عن ذِكْر ما أتى به المتكبِّرون من قومه، الذين كفروا، وأعرضوا بوصف المؤمنين بالأرذليَّة.

بلاغةُ الفصلِ في قوله: ﴿إِنۡ حِسَابُهُمۡ﴾:

جميعُ النّاس سيُحاسَبون يومَ القيامة

كمال الانقطاع بين الجملتَيْن: ﴿قَالَ وَمَا عِلۡمِي بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ و﴿إِنۡ حِسَابُهُمۡ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّيۖ لَوۡ تَشۡعُرُونَ﴾؛ وذلك للاختلاف في

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 329.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 106.
(3) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 4/ 237.

الخبريَّة والإنشائيَّة، وفي اللَّفظ، وفي المعنى، وفائدة تتابع الجملتَيْن هنا الإنكارُ على قول أهل الكِبْر والإعراض، وبيان أنَّ الحساب على ربِّ العالمين لجميع البشرِ، وأنتم منهم.

دلالةُ النَّفي بـ ﴿إِنْ﴾:

المَثَلُ القرآنيُّ الذي عُلِم منه حساب النّاس جميعًا يوم القيامة

في قوله: ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ﴾؛ (إنْ) تدخل على الجمل الاسميَّة والفعليَّة مثل (ما)، فإن دخلت على الجملة الاسميَّة؛ كان ذلك لنفي الحال[1]، وقيل: هي لنفي الحال عند الإطلاق، وإن قُيّدت؛ كانت بحسب ذلك القيد، فقد تكون للحقيقة غير مقيَّدة بزمنٍ، فقوله: ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ﴾، جعل محاسبتهم على ما يعملون ﴿إِلَّا عَلَىٰ رَبِّيۖ﴾، فاعتبار البواطن من شؤونه ﷻ وهو المُطَّلع عليها ﴿لَوْ تَشْعُرُونَ﴾، أي: بشيءٍ من الأشياء، أو لو كنتم من أهل الشُّعور؛ لعلمتم ذلك، لكنَّكم لستم كذلك؛ فلذا قلتم ما قلتم[2]، فدلَّ على عدم التَّقيُّد بالزَّمن، فيكون ذلك بمنزلة مَثَلٍ يمكن استعارته في المواقف المُماثلة في كلِّ وقتٍ وحينٍ، غير مقيَّدَيْن بزمنٍ، وهذا ما يجعل العبارة استعارةً تمثيليَّةً.

غرضُ التَّعبير بالاسميَّة في ﴿حِسَابُهُمْ﴾:

أمرُ الحسابِ يومَ القيامةِ قضيَّةٌ يعتقدها كلُّ مؤمن

في قوله: ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّيۖ﴾، الجملة الاسمية تُفيد الثَّبات، فحسابهم كائنٌ لا محالة، وحسابهم على اللّه، فهو مَن يَعُدُّ عليهم أعمالهم التي يعملون، فدلَّ ذلك على عدم الحاجة إلى متابعتهم، وعدِّ أخطائهم، وأعمالهم عليهم، وهذا حال كلِّ إنسانٍ، وما أنتم بخير منهم، وقوله: ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ﴾ عاد الضمير على المؤمنين الذين اتُّهموا بأنَّهم الأرذلون عند القوم، والمعنى أنَّ حسابَهم على اللّه تعالى، كحساب جميع النّاس، فإنَّه سيحاسبكم كما يحاسبهم، فاستحقَّ أن يكون قولُهُ: ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّيۖ﴾

(1) الزّمخشريّ، المُفصّل: 2/ 200.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 105.

بمنزلة المَثَل القرآنيِّ الذي قاله نوحٌ عليه السلام أوَّلًا؛ ثمَّ تابعه بذِكْره مِن بعدِهِ من الرُّسل والدُّعاة، فكان بمنزلة الاستعارة التَّمثيلية.

بلاغةُ أسلوبِ القصرِ في الآية:

براءةُ النَّبي نفسه من حساب النّاس

القصرُ في قوله: ﴿إِنۡ حِسَابُهُمۡ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّيۖ﴾ قصرُ موصوفٍ على الصِّفة، والموصوف هو ﴿حِسَابُهُمۡ﴾، والصِّفة هي ﴿عَلَىٰ رَبِّيۖ﴾؛ لأنَّ المجرورَ الخبرَ في قوَّة الوصف، فإنَّ المجروراتِ والظُّروفَ الواقعة أخبارًا تتضمَّن معنًى يتَّصف به المبتدأ، وهو الحُصول والثُّبوت المُقدَّر في الكلام بكائنٍ أو مستقِرٍّ، كما بيَّنه علماء النَّحوِ، والتَّقدير: حسابهم مقصورٌ على الاتِّصاف بمدلول ﴿عَلَىٰ رَبِّيۖ﴾، وكذلك قدَّره السَّكاكيُّ والتَّفتازانيُّ[1]، وهو قصر إفراد إضافيٍّ، أي: لا يتجاوز الكون على ربي إلى الاتِّصاف بكونه عليَّ، وهو ردٌّ لما تضمنه كلام قومه من مطالبته بإبعاد الذين آمنوا؛ لأنَّهم لا يستحقون أن يكونوا مساوين لهم في الإيمان[2]؛ لاختلافهم في المكانة والمنزلة.

إيثارُ التَّعبيرِ بلفظ الرُّبوبيَّة:

المُربِّي هو الذي سيُحاسِب العبادَ على أعمالهم

في قوله: ﴿إِنۡ حِسَابُهُمۡ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّيۖ﴾؛ ناسبَ هنا ذِكْر الرُّبوبيَّة؛ لأنَّ الرَّبَّ هو المُربّي، والرَّبُّ هو الذي يُربي غيرَه، ويُنشئه شيئًا فشيئًا، ويُطْلَقُ على المالِك والسَّيِّد والمُدَّبِّرِ والمُرَبِّي والقيِّم والمُنْعِم، واللّٰه سبحانه هو الرَّبُّ المُتكفِّل بالخلائق أجمعين: إيجادًا وإمدادًا ورعايةً وقيامًا على كلِّ نفسٍ بما كسبَتْ، قال تعالى: ﴿أَفَمَنۡ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۗ﴾ [الرّعد: 33]، فلمّا قالوا: ﴿أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ ١١١﴾ [الشعراء: 111]؛ احتاج لذلك أن يذكر المُربّي لهم، فقال: ﴿إِنۡ حِسَابُهُمۡ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّيۖ﴾.

---

(1) التفتازاني، مختصر المعاني، ص: 95.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 162.

سرُّ إضافةِ الرَّبِّ في ﴿رَبِّي﴾، وفيها معنى التَّورية:

مقاصدُ الإيمانِ تستشعرها أصحابُ القلوبِ الحيَّةِ

إضافةُ الرَّبِّ إلى ياء المتكلِّم، وهو رسولُ اللّهِ نوح عليه السلام في قوله: ﴿إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي﴾؛ ليدلَّ على (أنَّ الرَّبَّ الذي سيحاسبهم هو الرَّبُّ الذي هداني، وأمرني بالرِّسالة، وما دام أنَّ هؤلاءِ قد آمنوا بالرِّسالة نفسِها؛ فإنَّ الذي سيُحاسبهم هو ربّي)، وفيها معنى الرَّحمة بالذين آمنوا دون العذابِ والانتقام، وفي هذا وجهٌ من معاني التَّورية؛ لأنَّ المقصودَ رحمةٌ بِهم، ولكن أولئك سيتصوَّرون عذابهم والتَّنكيل بهم، وقرينة ذلك قوله: ﴿لَوۡ تَشۡعُرُونَ﴾، فإنَّ عدمَ شعورِهم ينمُّ على عدم فهمهم لفلسفة الإيمان، وأنَّه لا يُقاس بالمظاهر، وأنَّ حسابَ اللّه لهم سيكون على مدى صِدْقِهم وإخلاصِهم، وذلك لا يُقاس بالمظاهر.

مفهومُ الحرفِ ﴿لَوۡ﴾ ودلالته المجازيَّة:

التَّحسُّرُ على حال المُعارضين المُستكبرين

قوله: ﴿لَوۡ تَشۡعُرُونَ﴾؛ إذ تُستعمل (لو) للتَّمنّي، وحُكم استعمالها في التَّمنّي تابعٌ لنوع التَّمنّي: إن كان خيرًا؛ فخيرٌ، وإن كان شرًّا؛ فشرٌّ، وخرج التَّمنّي هنا إلى معنى التَّحسُّر على حال هؤلاء المُعارضين المُستكبرين؛ لِما أصابهم من الغرور الذي حال بينهم وبين الشُّعور الذّاتيِّ والتَّفكير بالأمور على وجه الصَّواب.

إيثارُ التَّعبيرِ بالشُّعور في ﴿لَوۡ تَشۡعُرُونَ﴾:

الكفّارُ أجهلُ من الدّوابِّ

قال: ﴿تَشۡعُرُونَ﴾ دون (تعلمون) أو نحو ذلك، فخاطبَ بذلك دواخلَهم، وأرادَ من كلِّ واحدٍ منهم أن يُفكِّر بنفسهِ بعيدًا عن الرَّأي والعقل الجمعيِّ؛ لأنَّ الشُّعور لا يكون إلّا من الفردِ الواحد منعزلًا عن الجماعة، التي تُحرِّكه، وتأمُرُه، وتُؤثِّر عليه تأثيرًا مباشرًا.

الشُّعورُ يحتمل أن يكون بمعنى العقلِ

ويمكنُ أن يكون الشُّعور هنا بمعنى العقلِ الذي يتفكَّر، ويتدبَّر بهِ، فهو هنا مجازٌ، فقوله: ﴿لَوۡ تَشۡعُرُونَ﴾، أي: لو كان لكم حصانةٌ فكريَّة وقدرة عقليَّة واعية؛ لعلمتم ذلك، فلم تقولوا ما قلتم ممّا هو دائرٌ

على أمور الدُّنيا فقط، ولا نظر له إلى يوم الحساب[1]، فقوله: ﴿لَوۡ تَشۡعُرُونَ﴾ تجهيلٌ لهم، ورغمٌ لغرورهم وإعجابهم بالباطل، فناسب أن يأتي التَّجهيل بالكافرين فائدة مقابلة تجهيلهم بالمؤمنين، وجواب ﴿لَوۡ﴾ محذوفٌ دلَّ عليه ما قبلَه، والتَّقدير: (لو تشعرون؛ لشَعَرْتُم بأنَّ حسابَهم على اللّه لا عليَّ)، ودَلَّ على أنَّه جهَّلَهم قولُه: ﴿وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ٢٩﴾ [هود: 29].

دلالةُ التَّعبيرِ بالمضارع ﴿تَشۡعُرُونَ﴾:

الـحــثُّ عـلى تجديد الشُّعور والنَّظر والتَّفكُّر

أفاد الفعل المضارع ﴿تَشۡعُرُونَ﴾ تجدُّدَ الدَّعوة إلى شعورهم ودواخلهم، فهو خطابٌ لتحريك نفوسِهم، لكنَّ ما حدث هو العكسُ، فعلى مدى مئات السِّنين ونوح عليه السلام يدعوهم، ويُجدِّد خطابه لهم، ولكن لم تستجب دواخلهم إلى نداء الحقِّ، وإلى معرفة الحقيقة.

دلالةُ العطفِ في قوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠﴾:

إكـرامُ المؤمنين بأمرَيْن

عُطِف قوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ على قوله: ﴿وَمَا عِلۡمِي بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾؛ فبعد أنْ أبطَلَ مقتضى طردِهم صرَّح بأنَّه لا يفعله[2]، فأفاد العطفُ جمعَ عدم محاسبة المؤمنين على أعمالهم، التي اتُّهموا بها؛ كونها من أرذلِ الأعمال إلى امتناعه عليه السلام عن طرد المؤمنين، فجمعَ بين أمرَيْن، أحدهما: تبرَّأ منه؛ لأنَّه فعلٌ عائدٌ إلى اللّه تعالى، والآخر امتنع عنه؛ لأنَّهم قد آمنوا، فاستحقّوا الإكرام دون الطَّرد والإهانة.

معنى (ما) ودلالتها في جملة: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾:

تيئيسُ الكافرين من طرد المؤمنين

أفادت (ما) النَّفي، وعندما تأتي (ما) حرف نفي، فتكون حرفًا لا محلَّ له من الإعراب، ولا تُؤثِّر على عمل بقية الكلمات في الجملة، ويقتصر عملها على تغيير المعنى فقط، وهو النَّفي؛ إذ نفت الآية طرْدَ

---

(1) البقاعيّ، أنوار التّنزيل: 5/ 375.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 162.

هؤلاء المؤمنين، فقوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، تيئيسٌ لهم من هذا الرَّأي في احتمال طرد المؤمنين وإبعادهم عن نوح ﵇، فبيَّن أنَّه لا يمكن أن يفعل ذلك أبدًا، فقوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ يريد: (ليس من شأني أن أتَّبع شهواتكم، وأُطيِّب نفوسكم بطرد المؤمنين الذين صحَّ إيمانهم طمعًا في إيمانكم وما عليَّ إلّا أن أُنذركم)[1].

غرضُ استعمالِ ضميرِ المُتكلِّم ﴿أَنَا۠﴾:

صراحةُ موقفِ نـــوحٍ ﵇ من قضيَّةِ الإيمانِ

دلَّ ورودُ الضمير المُنفصل ﴿أَنَا۠﴾ على وضوح موقفِ نبيِّ اللّٰه نوح ﵇ من قضيَّة الإيمان، فمَن آمن؛ فقد حاز الدَّرجة عند اللّٰه، وليس لأحد أن يطرده، أو ينهره عن الإيمان، مدَّعيًا فساد إيمانه، وفيها إشارة إلى التَّمسُّك بأتباع الدّين، هذا فضلًا عن دلالة ضمير (أنا)؛ فنوحٌ ﵇ قد وضع نفسه في مواجهة عتوِّ هؤلاء المُتكبِّرين من قومه.

دلالة الباء في ﴿بِطَارِدِ﴾:

التَّمسُّك بالإيمان وبالمؤمنين

الباء في اللفظ: ﴿بِطَارِدِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ باءٌ زائدة للتَّوكيد، دلَّت على العزيمة والإصرار بالتَّمسُّك بالمؤمنين، فدلَّت على تأكيد عدم طرْدِهم من قِبَله ﵇ وفي ذلك إصرارٌ على تأييد المؤمنين وعدم الاستجابة لمقترحات المُعاندين المستكبرين.

دلالةُ التَّعبيرِ باسم الفاعل في ﴿بِطَارِدِ﴾ دون الفعل:

الإصرارُ على أنَّ نوحًا لن يطرد أتباعه حاضرًا أو مستقبلًا

في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ جاء ﴿بِطَارِدِ﴾ اسم الفاعل دون الفعل (أطرد)؛ واسمُ الفاعل هنا يدلُّ على الحال والاستقبال، ودلالة ذلك أنَّه نصب مفعولًا، فدلَّ ذلك على الموقف الثّابت الذي صرَّح به النَّبيُّ نوحٌ ﵇ أنَّه لن يطردَ المؤمنين حاضرًا أو مستقبلًا.

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 329.

إيثارُ لفظ ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ مُعرَّفًا باللّام:

المؤمنون مَرضيٌّ عنهم عند الله وعند رسوله

قوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾؛ فذكر صفةَ الإيمان فيهم؛ ليدلَّ على رضاء نوح عليه السلام عنهم وعن إيمانهم، وفيه تأكيدٌ على صحَّة إيمانهم وأنَّ الله تعالى قد رضي عنهم، وذلك على الرَّغم ممّا وُصفوا به من قبل المعارضين بأنَّهم أرذلُ النّاس، وقد دلَّ التَّعريف بـ (أل) هنا على الكمال، كقولك: (هذا الرَّجل)؛ للدَّلالة على الكمال في هذا الوصف، جاء في الكتاب: "إذا قلت: (هذا الرَّجل)؛ فقد يكون أنَّك تعني كمالَهُ"[1]، فيكون ذلك من كمال شأنهم، وعظيم مكانتهم عند سيِّدنا نوح عليه السلام.

فائدةُ تقديم المُسند إليه في: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾:

ليس شأنُهُ شأن مَن يطرد المؤمنين ابتغاء مكسب آخر

قوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ جوابٌ عمّا أوهمه كلامُهم مِن استدعاء طردِهم وتعليق إيمانهم بذلك، حيث جعلوا أتباعَهم مانعًا عنه، وقد نزلوا لذلك منزلةَ مَنْ يدَّعي أنَّه عليه السلام ممَّن يطرد المؤمنين، وأنَّه مِمَّن يشترك معه فيه، فقدَّم المُسنَد إليه؛ لإفادة أنَّ ذلك ليس شأنَهُ، بل شأن المخاطَبين؛ إذ لا ينبغي للرسول أن يطرد مؤمنًا ابتغاء مكسب آخر، فقد حاز المؤمن بإيمانه حصانةً من الله، فيُطرد على ما اتُّهم به زورًا وبُهتانًا، وقيل: إنَّهم طلبوا منه عليه السلام طردهم، فأجابهم بذلك، كما طلب رؤساء قريش من رسول الله صلى الله عليه وسلم طرد مَن آمن به من الضعفاء، فنزلت: ﴿وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم﴾ [الأنعام: 52] الآية[2]، وما أنا بطارد المؤمنين: هذا مُشعرٌ بأنَّهم طلبوا منه ذلك، فأجابهم بذلك[3].

سرُّ فصل جملة ﴿إِنۡ أَنَا۠﴾ عن سابقتها:

وجملة: ﴿إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾ استئنافٌ في معنى التَّعليل، أي:

---
(1) سيبويه، الكتاب: 1/ 263.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 177، والآلوسي، روح المعاني: 10/ 106.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 177.

لأنَّ وصفي يصرفني عن موافقتكم[1]، والمُبين: من (أبان) بمعنى: بَيَّن ووضَّح.

دلالةُ إعادة ضمير المُتكلِّم: ﴿أَنَا۠﴾:

الالتزامُ بجماعة المؤمنين تأييدًا ونصرًا

في قوله: ﴿إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾، التَّكرار لضمير المتكلِّم ﴿أَنَا۠﴾ جاء للتَّوكيد؛ ليدلّل لهم أنَّه نذير للنّاس، وقد حصل - من هؤلاء - الإيمانُ، فتحقَّق الإيجابُ، فلن أطردهم، فيكون فيه تأكيدٌ على التزامه ﷺ معهم على التَّأييد والنُّصرة.

بلاغةُ أسلوبِ القصر: ﴿إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ﴾:

البعثُ بالرِّسالة لإنذار المُكلَّفين، ولا يتسنّى تعدّي ذلك

القصرُ: تخصيصُ شيءٍ بشيءٍ بعبارة كلاميَّة تدلُّ عليه، والقصر في قوله: ﴿إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ إضافيٌّ، وهو قصرُ موصوفٍ على صفة[2]، وهوَ يَقْتَضي انْحِصارَ أَوْصاف الرَّسول ﷺ في النِّذارة والبَيان، وهوَ قَصرُ قَلبٍ، أَيْ: هوَ نَذيرٌ مُبينٌ غيرُ مُحاسِبِ المؤمنين على أعمالهم، أو طاردًا إيّاهم، فردَّ بذلك عليهم قولَهم[3].

قولُه تعالى: ﴿إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾، حاصلُهُ ﴿أَنَا۠﴾ مقصورٌ على إنذار المكلَّفين، لا أتعدّاه إلى طردِ الأرذلين منهم، أو ما عليَّ إلّا إنذاركم بالبرهان الواضح، وقد فعلته، وما عليَّ استرضاء بعضِكم بطرد الآخرين، وحاصله أنا مقصورٌ على إنذاركم، لا أتعدّاه إلى استرضائِكم، ويمكن أن يكون مجموعُ الجملتَيْن جوابًا، وإنَّ إيلاءَ الضَّميرِ حرفَ النَّفي يدلُّ على أنَّهم زعموا أنَّه ﷺ موصوف بصفَتَيْن: إحداهما: اتِّباع أهوائهم بطرد المؤمنين لأجل أن يؤمنوا، وثانيتهما: أنَّه نذير مبين، فقصَرَ الحُكم على الثّاني دونَ الأوَّلِ[4].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 162.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 163.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/ 195.

(4) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 106.

إيثارُ لفظ ﴿نَذِيرٌ﴾ مادةً وصيغةً:

الـنَّـذيـرُ الـذي أوقـف حـيـاتَـهُ لإنذار النّاس من عذاب الله

الإِنْذارُ: إخبارٌ فيه تخويفٌ، كما أنَّ التَّبشير إخبارٌ فيه سرور، قال تعالى: ﴿فَأَنذَرۡتُكُمۡ نَارٗا تَلَظَّىٰ ١٤﴾ [الليل: 14]، وقال: ﴿أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةٗ مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ ١٣﴾ [فُصّلت: 13]، و(النَّذير) هو الرَّسول المبلِّغ، والنَّذيرُ: المنذر، ويقع على كلِّ شيءٍ فيه إنذار، إنسانًا كان أو غيره، المخوِّف والمحذِّر من عذاب اللّه، ومنه الإنذار: الإبلاغ، ولا يكاد يكون إلّا في التَّخويف، والنَّذير: المُنذر[1]، قال تعالى: ﴿إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ٢﴾ [نوح: 2]، وقال: ﴿إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلۡمُبِينُ ٨٩﴾ [الحِجْر: 89]، وقوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ ٩﴾ [الأحقاف: 9][2]، ودلَّت صيغة (فعيل) على المبالغة والكثرة، فالنَّذير هو الذي يكون عمله إنذارَ النّاسِ من عذاب اللّه.

سِرُّ وصفِ قولِهِ: ﴿نَذِيرٌ﴾ بـ ﴿مُّبِينٌ﴾:

الـرَّسـولُ بـيَّنَ صِدقَ الرِّسالة، وبـيَّن صِـدقَ الحال

في قوله: ﴿نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾، المبين من: بانَ واسْتَبانَ وتَبَيَّنَ، فيكون الرَّسول نذيرًا للناس من عذاب اللّه، مبيِّنًا لهم الحقائق والأوامر والنَّواهي، ويُقال: آية مُبَيَّنَة اعتبارًا بمَنْ بيَّنها، وآية مُبَيِّنَة اعتبارًا بنفسها، والبَيِّنَة: الدَّلالة الواضحة عقليَّةً كانت أو محسوسة، وقال سبحانه: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [هود: 17]، والبَيان: الكشف عن الشَّيء، وممّا هو بيانٌ بالحال قوله: ﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٦٢﴾ [الزّخرف: 62]، أيْ: هو عدوٌّ بَيِّن في الحال[3]، وكذلك قوله في هذه الآية: ﴿إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾، فالرَّسول واضحٌ بيِّنٌ من حاله، ومن رسالته التي لا ينطق فيها عن الهوى، وفي ذلك البيان حُجَّةٌ كبرى على الذين لا يؤمنون، وسمّي الكلام بيانًا لكشفه عن المعنى المقصود إظهارُهُ نحو: ﴿هَٰذَا بَيَانٞ لِّلنَّاسِ﴾ [آل عمران: 138].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: 5/ 414.

(2) الرّاغب، المفردات: 797 - 798.

(3) الرّاغب، المفردات، ص: 157.

حقيقةُ المؤمنين عند الله وعند رسوله

دلالة المقابلة بين الرّدّين:

وذلك بين قول نوحٍ عليه السلام: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ مع قولهم: ﴿وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ ١١١﴾ [الشعراء: 111]، فكشف نوحٌ عليه السلام عن قناعته بإيمانهم وصِدق إيمانهم، فوصفهم بالمؤمنين، فلمّا اعترضوا عليه قالوا: ﴿وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ ١١١﴾ [الشعراء: 111]، وهي مقابلة اثنَين باثنَين، فجعل (الطرد) مقابلَ (الاتّباع)، وجعل ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ مقابلَ ﴿ٱلۡأَرۡذَلُونَ﴾.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

العلم والظنُّ:

العِلمُ يُحقِّق المعلومَ، والظَّنُّ ليس كذلك

الظانُّ يجوز أن يكون عنده المظنون خلافًا لما هو ظنّه، ولا يحقِّقه، والعلم يحقّق المعلوم، وقيل: جاء الظَّنُّ في القرآن بمعنى الشَّكِّ في قوله تعالى: ﴿إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ ٢٤﴾ [البقرة: 78]، والصَّحيح أنَّه على ظاهره[1]، وقوله: ﴿وَمَا عِلۡمِي بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾، بمعنى: اهتمامي وانشغالي، فالعلم هنا هو المعرفة الظّاهرة للنّاس، دون البحث عمّا خفي من أسرارهم والكشف عن نياتهم، فهو يبتعدُ عن الظنِّ في تعامُلِه مع المؤمنين؛ لأنَّه غيرُ مكلَّف بالبحث عن خفاياهم، وهذا هو النموذج القويمُ في الدَّعوة إلى الله والتَّعامل مع النّاس، والظَّنُّ يطلقُ على العِلْم والظَّنِّ؛ لِأَنَّهُ جارُهُ، وقَدْ ورَدَ ذَلِك كَثيرًا في قَوْله تَعالَى: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ﴾ [التوبة: 118][2].

العمل والفعل:

العـمـلُ أخـصُّ من الفعل، فهو إيـجـادُ الأثـرِ في الـشَّيء؛ وليس الفعل كذلك

العملُ إيجادُ الأثر في الشَّيء، يُقال: فلانٌ يعمل الطّينَ خزفًا، ويعمل الخوص زنبيلًا، والأديم سقاءً، ولا يُقال: يفعل ذلك؛ لأنَّ فعل الشَّيء عبارةٌ عمّا وجد في حال كان قبلها مقدورًا، سواء كان عن سببٍ أم لا[3]، والعمل: أخصُّ من الفعل، فهو كلُّ فعل يكون

(1) العسكريّ، الفُروق اللّغوية، ص: 343.
(2) ابن العربي، أحكام القرآن: 4/ 56.
(3) العسكريّ، الفُروق اللّغوية، ص: 134.

من الإنسان بقصدٍ، والعمل يكون في الأعمال الصّالحة والأعمال السَّيِّئة[1]، قال تعالى: ﴿مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ﴾ [النّساء: 123]، ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [النّساء: 124].

الشعور والعلم:

الشُّعورُ هو ابتداء العلم بالشيء بالحواس

الفرقُ بين العلم والشُّعور: أنَّ الشُّعورَ هو ابتداءُ العلم بالشَّيء من جهة المشاعر، وهي الحواس، فقوله: ﴿لَوۡ تَشۡعُرُونَ﴾ فيه مخاطَبةُ المشاعر ودواخل النَّفس خاصَّةً، على خلاف: (لو تعلمون)؛ فهو خطابٌ للعقل، وقيل: إنَّ الشُّعورَ هو إدراك ما دقَّ للطف الحسِّ، مأخوذ من الشَّعر لدقَّتهِ[2]، فلمّا قال نوحٌ: ﴿لَوۡ تَشۡعُرُونَ﴾؛ أراد منهم تفعيل حديث النَّفس، كي تعودَ كلُّ نفسٍ إلى رشدها، ويكون كلٌّ منهم خارجَ قيد العقل الجمعيِّ الذي يحول بينه وبين مشاعره.

الطَّرد والإبعاد:

الطَّردُ يكون بإثم، والإبعادُ قد لا يقتضي إثمًا

(الطَّرد) الإبعاد والتَّنحيةُ، يُقال: (طرده)؛ إذا نحّاه، وأطرده السُّلطان: جعله طريدًا[3]، قال تعالى: ﴿وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم﴾ [الأنعام: 52]، فيكون إبعادُهم عنك بغير إثم اقترفوه، أمّا (البُعْدُ)؛ فيكون على مَعنيَيْن؛ أحدهما: ضدُّ القُربِ، وأَبْعَدَهُ اللّه: نحّاه عن الخير، وباعَدَ اللّه بينهما، وبَعَّدَ، كقوله: ﴿رَبَّنَا بَٰعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا﴾ [سبأ: 19]، فالمباعدةُ: تباعدُ الشَّيء عن الشَّيء، وتأتي بمعنى اللَّعن، قال تعالى: ﴿أَلَا بُعۡدٗا لِّمَدۡيَنَ كَمَا بَعِدَتۡ ثَمُودُ ٩٥﴾ [هود: 95]، وهذا من قولك: بُعْدًا وسحقًا، وأبعده اللّه، أي: لا يُرثى له ممّا نزل به[4]، فيكون البُعد بفعل إثمٍ اقترفوه، أو ما فعلوه من التَّكبُّر والتَّكذيب.

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 587.
(2) العسكريّ، الفُروق اللّغوية، ص: 373.
(3) المُطرزيّ، المُغرب في ترتيب المعرب، ص: 289.
(4) الخليل، العين: 2/ 48.

﴿قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ١١٦ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ١١٧ فَٱفْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ١١٨ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ١١٩ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ١٢٠﴾ [الشعراء: 116 - 120]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

لجوءُ نوحٍ إلى ربِّهِ بعد أن استشعر الخَطَرَ على نفسه ودعوته

بعد أن حاول أكابرُ قوم نوح صدَّ نوح عليه السلام عن قبول إيمان ضعاف النّاس، وفي جعْلِهِ إيمانًا خالصًا بأكابرهم، حينها أعلمهم نوح عليه السلام بأنَّ الإيمان لا يُميّز بين صغيرٍ وكبيرٍ، أو ضعيفٍ وقويٍّ، أو ذَكرٍ وأنثى، وأنَّ حساب النّاس يكون على اللّه وحده؛ فناسب أن يذكر هنا ردَّ فعلِ المستكبرين بالإنكار على نوح دعوتَهُ، تلك التي لا تميِّز بين السَّيِّد والعبد، أو القويِّ والضعيف، فأمروه بالانتهاء عن ذلك وإلّا رُجم وقُتل، فلجأ نوح إلى ربِّه بالدُّعاء بعد أن علم خطرَ هؤلاء عليه، وعلى دعوته.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَنتَهِ﴾: أَصْلُ (نهي) يَدُلُّ على غايةٍ وبُلوغٍ، ومنه: أَنهَيتُ إليه الخَبَرَ: بَلَّغْتَه إيّاهُ، ونِهايَةُ كُلِّ شيءٍ: غايتُه، ومنه: نَهَيتُهُ عنه، وذلكَ لأمرٍ يفعلُه، فإذا نَهَيتُه، فانتَهى عنكَ؛ فتِلكَ غايَةُ ما كانَ وآخِرُهُ[1]، والإنْهاءُ: الإيصالُ والإبلاغُ[2]، والنَّهي: الكَفُّ عَنِ الشَّيءِ والمَنْعُ منه، تَقولُ: نَهاهُ؛ إذا كَفَّهُ، ومَنَعَهُ عَنْ شيءٍ ما، ومنه: النُّهْيَةُ، وهي العَقْلُ؛ لأنَّه يَمنَعُ صاحِبَهُ مِنَ القَبيحِ[3]، والمقصود بالنَّهي في الآية: طَلَبُ تَرْكِ الفِعْلِ بالقولِ على وجْهِ الاستعلاءِ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نهي).
(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة: (نهي).
(3) ابن عباد، المحيط في اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (نهي).

2) ﴿ٱلۡمَرۡجُومِينَ﴾: أصلُ (رجم) الرَّميُ بالحِجارَةِ، ثُمَّ يُستعارُ ذلكَ، مِن ذلكَ: الرِّجامُ، وهي الحِجارَةُ، يُقالُ: رُجِمَ فُلانٌ؛ إذا ضُرِبَ بالحِجارة[1]، والرَّجَمُ - بفتْحِ الجيم: القَبْر، سُمِّي رَجَمًا؛ لما يُجْمَعُ عليهِ من الأحجارِ والرِّجام[2]، والرَّجم أيضًا: السَّبُّ والشَّتْم، ومنه قَوْلُه تعالى حكايةً عَن أبي نبيِّ اللهِ إبراهيمَ لابنِهِ إبراهيمَ عليه السلام: ﴿لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا ٤٦﴾ [مريم: 46]، أيْ: لأَسُبَّنَّكَ، وأَشْتُمَنَّكَ، والرَّجيمُ في نعت الشَّيْطان المرجومُ بالنُّجوم[3]، والرَّجمُ في الآية مُرادٌ بهِ: القتْلُ بالحِجارةِ رميًا[4].

3) ﴿فَٱفۡتَحۡ﴾: أصلُ (فتح) يدلُّ على خلافِ الإغلاقِ، يُقالُ: فتَحْتُ البابَ وغيرَهُ فتْحًا، ثُمَّ يُحمَلُ على هذا سائرُ ما في هذا البِناءِ، فالفَتحُ والفِتاحَةُ: الحُكْمُ، واللهُ تعالى الفاتحُ، أيِ: الحاكِمُ[5]، والمِفْتَحُ والمِفتاحُ: ما فُتِحَ به الشَّيءُ[6]، وفاتِحَةُ كلِّ شيءٍ: مبدؤُهُ الَّذي يُفتح به ما بعده[7]، والفَتْحُ في الآيةِ مُرادٌ به الحُكْمُ.

4) ﴿وَنَجِّنِي﴾: أصلُ النَّجاءِ: الانفصالُ مِنَ الشَّيءِ، ومنه: نَجا فلانٌ من فلانٍ، وأَنْجَيْتُهُ، ونَجَّيْتُه، قال تعالى: ﴿وَأَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [النَّمل: 53][8]، والنَّجاةُ: الخَلاصُ ممّا فيهِ المَخافَة، ونَظيرُها السَّلامَة، والتَّنجيةُ: الإنجاءُ، وهو جعلُ الآخر ناجيًا[9]، والنَّجْوَةُ والنَّجاةُ: المكان المرتفع الذي تظنُّ أنَّه نَجاؤُكَ لا يعلوه السَّيلُ[10]، والمقصودُ في الآية: الخلاصُ مِنْ ضُرٍّ واقِعٍ.

5) ﴿ٱلۡفُلۡكِ﴾: أصلُ (فلك) يدلُّ على استِدارَةٍ في شَيءٍ، مِنْ ذلكَ فَلْكَةُ المِغْزَلِ بِفَتْحِ الفاءِ، سُمِّيَتْ لاستِدارَتِها[11]، وفَلَكُ كُلِّ شَيْءٍ: مُسْتدارُهُ ومُعْظَمُه، وفَلَكُ البَحْرِ: مَوْجُهُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رجم).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (رجم).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (رجم).
(4) المراغي، تفسير المراغي: 19/ 83.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (فتح).
(6) ابن سيده، المُحكَم: (فتح).
(7) الراغب، المفردات: (فتح).
(8) الراغب، المفردات: (نجو).
(9) الزبيدي، تاج العروس: (نجو)، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 130.
(10) الجوهري، الصحاح: (نجا).
(11) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (فلك).

المسْتَدير المتَرَدِّد[1]، ومِنْ هذا القياسِ فلَكُ السَّماءِ: مَجرى الكواكب[2]، والفُلْكُ: السَّفينةُ، يُذَكَّرُ، ويُؤَنَّثُ، ويكونُ جمعًا للسُّفُنِ، ويُجْمَعُ على الفُلوكِ أيضًا[3]، والمُرادُ بالفُلْكِ في الآية: اسمٌ لـمَرْكَبِ البَحْرِ، واسمُ جَمعٍ لهُ بِصيغَةٍ واحِدَةٍ.

6) ﴿ٱلۡمَشۡحُونِ﴾: أصلُ (شحن) يدلُّ على المَلْءِ[4]، الشَّحْنُ: مَلْؤُك السَّفينةَ وإتمامُك جهازَها كُلَّهُ، فهيَ مشحونة: مَملوءَة[5]، والشّاحِنُ: أَعْظَمُ السُّفُنِ[6]، والشَّحْناءُ: عداوة امتلأَتْ منها النَّفسُ[7]، والمُرادُ بالفُلْكِ المَشحونِ هنا: السَّفينةُ المملوءةُ.

7) ﴿أَغۡرَقۡنَا﴾: (غرق) أَصْلُ الغَرَقِ بُلوغُ الشَّيْءِ أَقْصَى نِهايَتِه[8]، فالغَرَقُ: نُزولُ الشَّيْءِ في الماءِ بِسَبَبِ ثِقَلِه، والغَريقُ: المَيِّتُ فيه، يُقالُ: غَرِقَ الرَّجُلُ في الماءِ، يَغْرَقُ غَرَقًا، أيْ: نَزَلَ فيه، وغَلَبَهُ الماءُ، فهَلَكَ بالاخْتِناقِ، أو كادَ، فهو غَرِقٌ وغارِقٌ وغَريقٌ، والجَمعُ: غَرْقَى[9]، ويأتي الغَرَقُ بمعنى التَّعَمُّقِ والغَوْصِ، تقولُ: غَرِقَ في الوَحَلِ، أي: غاصَ فيه نَحْوَ العُمقِ، وغَرِقَ الكَأْسُ، أي: امتَلأَ وبَلَغَ فيه الماءُ آخِرَهُ، والإغْراقُ: المُبالَغَةُ ومُجاوَزَةُ الحَدِّ[10]، والمُرادُ بالإغراقِ في الآية: الإلقاءُ في الماءِ المُستَبحِرِ الَّذي يغمُرُ المُلْقى، فلا يترُكُ له تنفُّسًا[11].

8) ﴿ٱلۡبَاقِينَ﴾: (بقي) أَصْلٌ واحِدٌ، وهو الدَّوامُ، قالَ الخليلُ: يُقالُ: بَقِيَ الشَّيءُ يَبْقَى بَقاءً، وهو ضِدُّ الفَناءِ[12]، واسْتَبْقَيْتُ مِنَ الشَّيْءِ، أَي: تَرَكْتُ بَعْضَهُ، والبَقِيَّةُ أيضًا: ما بَقِيَ مِنَ الشَّيْءِ[13]، والمُراد بالبقية في الآية: ما يفضُلُ من شيءٍ بعد انقضاءِ مُعظمه[14].

(1) ابن منظور، لسان العرب: (فلك).
(2) الراغب، المفردات، والسمين، عُمدة الحُفّاظ: (فلك).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن عباد، المحيط في اللغة، وابن سِيدَه، المحكم: (فلك).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شحن).
(5) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة: (شحن).
(6) ابن عباد، المحيط في اللغة: (شحن).
(7) الراغب، المفردات، والسمين، عُمدة الحُفّاظ: (شحن).
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غرق).
(9) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة: (غرق).
(10) ابن سِيدَه، المُحكَم، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيديّ، تاج العروس: (غرق).
(11) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/ 75.
(12) الأزهريّ، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (بقي).
(13) ابن منظور، لسان العرب: (بقي).
(14) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/ 493.

۞ المَعْنى الإِجْماليُّ:

قال قوم نوح له: لئن لم تنتهِ عمّا تدعو إليه من الطَّعن في آلهتنا؛ لنرجمنَّك بالحِجارة، ولنقتلنَّك بها، قال نوحٌ: يا رَبّي إنَّ قَومي كذَّبوني فيما جئتُهم به مِن الحَقِّ، فلا نيَّةَ لهم في اتِّباعِه، فاحكُم بَيْني وبيْنَ قَومي حُكمًا مِن عندِك، تستأصِلُ، وتُهلِكُ به المُبطِلَ، ونجِّني وأتْباعي المؤمِنينَ مِن عذابِك الَّذي تُنزِلُه على المُبطِلينَ، فأنجَيْنا نوحًا ومَن حُمِلَ معه في السَّفينةِ المملوءةِ بالنّاسِ والحيواناتِ والطُّيورِ وغَيرِها، ثمَّ أغرَقْنا جميعَ الكافرين الَّذين بَقوا، فلم يَركَبوا السَّفينةَ[1].

الله تعالى هو الحَكَم العدل الَّذي يقضي بهلاك الظّالمين ونجاة المؤمنين

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الفَصْلِ في قوله: ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ﴾:

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ﴾ الجملةُ مُستأنفةٌ[2]؛ لأنَّ الجملةَ التي سبقتها كانت قولًا لسيِّدنا نوح ﷺ: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١١٤ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾؛ فتكون جملة: ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ﴾ جواب عن سؤال افتراضيٍّ هو: (وماذا قال قوم نوح بعد أن قال لهم: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾؟)، فجاء الجواب: ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمَرۡجُومِينَ﴾، أي: انتهِ عن هذا الرأي والقول وإلّا رجمناك.

لجوءُ قومِ نوحٍ إلى إرهابه وتهديده بالرَّجمِ

دلالةُ مجيء اللّام في: ﴿لَئِن﴾:

في قوله: ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ﴾ اللّام الدّاخلةُ على الشَّرط ليست بلام القَسَم، ولكنَّها زائدةٌ، وتُسمَّى الموطِّئةَ للقَسَم، فتكونُ مُؤذِنةً بأنَّ جواب القَسَم منتظرٌ، أي: الشَّرط لا يصلح أن يكون جوابًا؛ لأنَّ الجوابَ لا يكون إلّا خبرًا[3].

رغبةُ قومِ نوحٍ في استجابة نوحٍ لرأيهم ومطلبهم

(1) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 604، والواحديّ، الوسيط: 3/ 358، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 19/ 83.
(2) الدّعّاس، إعراب القرآن: 2/ 390.
(3) الزّركشيّ، البرهان: 3/ 46.

فائدةُ التَّعبيرِ بـ(إنْ) دون (إذا):

كان لدى قوم نوحٍ أملٌ في أن يستجيب لهم

تُستعمل (إنْ) في المعاني المحتملة الوقوع، والمشكوك في حصولها، والموهمة والنّادرة[1]، ولهذا استُعملت (إنْ)؛ لأنَّهم يشكّون أنَّ نوحًا سوف ينتهي عن هذا الأمر، أمّا (إذا) تكون للمقطوع بحصوله، وللكثير الوقع؛ فكان يأمل قوم نوحٍ أن يستجيب لهم نوحٌ لوما اقترحوه عليه.

سِرُّ إيثار نفي فعل الانتهاء: ﴿لَّمۡ تَنتَهِ﴾:

تحذيرُ نوحٍ من عدم تركِ دعوتِهِ

في قوله: ﴿لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ﴾ جاء النَّفيُ بـ (لم) التي تنفي الفعل[2] المضارع وتجزمه، وتقلبُ زمنه إلى المضيِّ، فنُفي هنا فعل الانتهاء ﴿تَنتَهِ﴾، وجاء مع الشَّرط ﴿لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ﴾، ومن ثَمَّ أفاد الحاضر والمستقبل.

بلاغةُ النِّداء في الآية وسرُّ تَكرار اسم نوح:

التَّهديدُ الصّريح بالرُّضوخ والانصياع لهم أو الرَّجم

بعد أن كان ردُّ سيدنا نوح عليه السلام حاسمًا في تبنّي قضيَّة الإيمان وعدم طرد المؤمنين، وأنَّه مبعوث من قبل الله تعالى لنشر الإيمان وحمايته، لا لردِّ النّاس وطردهم، فلما آيسهم من طرد أتباعه، ورأى قومُهُ ذلك منه؛ تحوَّلت نقمتُهم إلى إيذائِه وطرده، وتوجَّهَ الاتِّهامُ نحوه، والغضبُ على شخصِه، فجاء تهديدهم له صريحًا، فذُكِرَ اسمُه الصَّريح، فسمَّوه باسمه جفاءً وقلَّةَ أدبٍ، فقالوا: ﴿لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمَرۡجُومِينَ﴾، أي: المقتولين، ولن ينفعك أحدٌ من أتباعك[3].

معنى اللّام ودلالتها في ﴿لَتَكُونَنَّ﴾:

تأكيد التَّهديد والوعيد

قوله: ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمَرۡجُومِينَ﴾؛ (اللام) لامُ القَسَم (تكوننَّ) مضارعٌ ناقصٌ مبنيٌّ على الفتح ﴿مِنَ ٱلۡمَرۡجُومِينَ﴾ مُتعلِّق بخبر (تكوننّ)[4]، فأكَّدوا رجمَهُ بأكثر من مؤكِّدٍ، منها: لام القَسَم، ونون

(1) السيوطي، الإتقان: 1/ 149.
(2) سيبويه، الكتاب: 1/ 460.
(3) البقاعيّ، أنوار التَّنزيل: 5/ 376.
(4) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 19/ 100.

التَّوكيد الثَّقيلة؛ ليُعلمَ أنَّهم جادّون في إيقاع تهديدهم ووعيدهم بنوح عليه السلام.

دلالةُ التَّعبيرِ بلفظِ (الرَّجم) مادةً وصيغةً:

الرَّجمُ بالحجارةِ هــو المعنــى الأنسبُ للسّياق

قوله: ﴿مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾ على صيغة اسم المفعولِ للدَّلالة على ما سيؤولُ إليه حالُهُ، وأن قضيَّتك عندنا محسومةٌ نحو السوء، فلا يكون لك ناصرٌ ممّا أعددناه لك من العذاب، ولعلَّ هذه الصّيغةَ: ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾ دلَّت على الرَّجم بالحجارة؛ طردًا من البلدة، أو قتلًا وإنهاءً للدَّعوة.

المرجومون بين المَجازِ والحقيقةِ:

يحتملُ الرَّجم بالحجارةِ أو هو رَجم القول

الرَّجم: الرَّميُ بالحجارة، وقد غلب استعماله في القتل به[1]، فقالوا: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾، والمعنى أنَّهم خوَّفوه بأن يقتل بالحجارة[2]، وهذا المعنى على الحقيقة، ويحتمل أنَّهم أرادوا رجمَ القول؛ كالشَّتم ونحوه، وهو شبيهٌ برجم الحجارة، وهو من الرَّجم بالغيب والظَّنِّ ونحو ذلك[3]، وأخرج ابن أبي حاتم عن السُّدّي أنَّ المعنى من المشتومين على أنَّ الرَّجم مُستعارٌ للشَّتم كالطَّعن، وقيل: إنَّهم قالوا ذلك في أواخر الأمر[4].

غرضُ حذفِ متعلّق: ﴿ٱلْمَرْجُومِينَ﴾:

الـتـوسُّـع فيما يـمـكـن أن يقع من تهديدِ أهل الـكـبر والـكُـفـر ووعيدهم

خطابُ المعارضين لنوح عليه السلام إذ وجَّهوا خطابهم له، فقالوا: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾، والمعنى: (لئن لم تنتهِ عن أقوالك وأفعالك لنرجمنَّك، فنخلُص منك ومن أتباعك، وما أتيت به)، فحُذِفَ مُتعلِّقُ لنرجمنَّك؛ ليتيحَ للمتلقّي التَّوسُّع فيما يمكن أن يفعله هؤلاء برسول اللّه؛ ليُعلَمَ حجمُ التَّهديد والوعيد

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 163.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 521.

(3) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 4/ 237.

(4) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 106، وأبو حيان، البحر المحيط: 8/ 177.

الذي أطلقته هذه المجموعةُ المتكبِّرة، وما يمكن أن يلقاه الرَّسول والمؤمنون منهم، فاستحقَّ الأمرُ اللُّجوءَ إلى الله في الدُّعاء وطلب النَّصر منه سبحانه.

بلاغةُ الفصلِ في قوله: ﴿قَالَ رَبِّ﴾:

دعاءُ الشَّكوى متوجِّهًا إلى الله

لمّا أَيِس منهم بما سمع من المبالغة بالتأكيد في قولهم: ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمَرۡجُومِينَ﴾، ورأى بما يصدقه من فعلهم؛ قال تعالى مُخبرًا عنه جوابًا لسؤال مَنْ يريد تعرُّف حاله بعد ذلك[1]: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوۡمِي كَذَّبُونِ﴾؛ فتكون هذه الجملة مُستأنفةً، وهي جوابٌ لسؤالٍ افتراضيٍّ مفادُهُ: لمّا سمع نوحٌ عليه السلام تهديدَهم الخطيرَ المُتمثِّلَ بعزمهم على القضاء عليه وعلى دعوته، ماذا قال أو فعل؟ فيأتي الجواب: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوۡمِي كَذَّبُونِ﴾، فلجأَ إلى الله بالتَّوجُّه والدُّعاء والشَّكوى، وطلب النَّصر له ولدعوته وللمؤمنين.

سِرُّ اختيار التعبير بالرُّبوبيَّة في: ﴿قَالَ رَبِّ﴾:

اللجوءُ إلى مَنْ هو كفيلٌ بحفظ دعوتِهِ ورسالتِهِ

قوله: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوۡمِي كَذَّبُونِ﴾؛ الرَّبُّ هو المُربّي، وهو الخالق والمُتكفِّل بحاجات العبادِ من الأرزاق والحفظ والحياة، فلمّا جاء التَّهديدُ من هؤلاء للنَّبيِّ؛ ناسب هُنا أن يلجأَ إلى ربِّهِ الذي هو كفيلٌ بحفظهِ ونجاته من شرِّهم، ومن تهديدهم بالرَّجم والإيذاء والقتل.

خروجُ الخبرِ ﴿إِنَّ قَوۡمِي كَذَّبُونِ﴾ عن الغرض الأصلي:

شكوى نوح عليه السلام إلى الله توطئةٌ للدُّعاء على قومه

في قوله: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوۡمِي كَذَّبُونِ﴾، ليس الغرضُ منه إخبارَ الله تعالى بالتَّكذيب؛ لعلمه أنَّ عالمَ الغيب والشَّهادة أعلمُ، ولكنَّه أراد الشَّكوى إلى الله تعالى بما هو أعلمُ به منه؛ توطئةً للدُّعاء عليهم، وإلهابًا إليه وتهييجًا، مُعرضًا عن تهديدهم له صبرًا واحتسابًا[2]، فهو خبرٌ مُستعمَلٌ في إنشاء التَّحسُّر واليأس من

(1) البقاعيّ، أنوار التّنزيل: 5/ 376.
(2) البقاعيّ، أنوار التّنزيل: 5/ 376.

إقلاعهم عن التَّكذيب(1)، فإنَّ أعظم ما يُصيب الرَّسولَ من الشِّدَّة والتَّحسُّر عندما يُقابله قومه بالتَّكذيب والتَّهديد والوعيد.

دلالةُ التوكيدِ بـ ﴿إِنَّ﴾ هنا:

توكيدُ الشَّكوى إلى الله

في قوله: ﴿إِنَّ قَوۡمِي﴾ جاءت (إنَّ)، وفائدتها التَّوكيد، وهو الأصل فيها، ويدور معها حيث وردت، وفي ذلك المعنى قال ابن النّاظم: "لتوكيد الحكم ونفي الشَّكِّ فيه أو الإنكار له"(2)، والمعنى توكيد شكوى إنكار القوم لنبيِّهم، وتكذيبهم للرِّسالة، وأنَّ الأمر قد بلغ حدَّ الوعيد بالرَّجم؛ بُغية إنهاءِ الدَّعوة، فاستحقّوا الدُّعاء عليهم، وطلب الانتقام منهم.

سِرُّ إيثارِ لفظ ﴿كَذَّبُونِ﴾ مادةً وصيغةً:

التَّكذيبُ هو محورُ الإعراضِ والكِبْرِ والكُفرِ

في قوله: ﴿إِنَّ قَوۡمِي كَذَّبُونِ﴾، آثرَ لفظَ (التَّكذيب) دون التَّهديد أو الإنذار بالقتل؛ لأنَّ محورَ مهمَّته هو إيصال رسالة الإيمان والتَّوحيد إلى قومه، لكنَّهم كذَّبوه، وأعرضوا عن الإيمان بالله، فذَكَرَ التَّكذيب دون غيره؛ لأنَّه هو السَّبب الأوَّل في حدوث الإعراض والافتراء والتَّهديد، وذكر ﴿كَذَّبُونِ﴾ بالماضي؛ للدَّلالة على تحقُّق التَّكذيب ووقوعه(3).

بلاغةُ العطفِ في قوله: ﴿فَٱفۡتَحۡ﴾، ومعنى الفاء:

الطَّلبُ السَّريع في استجابة الدُّعاء

(الفاء) عاطفةٌ لربط المُسبَّب بالسَّبب(4)، ودلَّت على الطَّلب السَّريع، والدُّعاء الحاسم الأكيد، وفاءُ السَّبب قد تُفيد التَّعقيب أيضًا، فقوله: ﴿إِنَّ قَوۡمِي كَذَّبُونِ﴾ هذا هو سببُ طلبِ الفتح، الذي سيأتي لاحقًا بعد قوله: ﴿فَٱفۡتَحۡ بَيۡنِي وَبَيۡنَهُمۡ فَتۡحٗا﴾، وقد ورد أنَّ فاءَ السَّبب لا يسقطُ فيها التَّعقيب من غير مهلةٍ، وإنَّما أن يكونَ شرطها مُسبَّبًا عن الأوَّل، كما لو صرَّح بالشَّرط(5).

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 163.
(2) ابن النّاظم، شرح ألفيّة ابن مالك، ص: 65.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 163.
(4) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 19/ 101.
(5) ابن الحاجب، الأمالي النّحوية: 4.

اختيارُ لفظِ (الفتح) مادَّةً وصيغةً:

الفتّاحُ هو الحاكمُ، وطلب الفتح بمعنى طلبِ الحُكم

أمّا صيغةُ فعل الأمرِ؛ فقد خرج الأمرُ إلى غرض الدُّعاء وطلب النُّصرة من الله تعالى وتأكيده بـ ﴿فَتۡحٗا﴾؛ لإرادة حُكم شديد، وهو الاستئصالُ[1] - وهذه استعارة - قد يكون المُرادُ بها: (فاحكم بيننا وبينهم حكمًا قاطعًا، وأمرًا فاصلًا)، ويُقال للحاكم: الفتّاح؛ لأنَّه يفتح وجهَ الأمر بعد اشتباههِ واستبهام أبوابه[2]، ودعا لنفسهِ ولِمَن آمن به بالنَّجاة، وفي ذلك إشعارٌ بحلول العذاب بقومه، أي: ونجِّني ممّا يحلُّ بهم، وقيل: ونجِّني من عملهم؛ لأنَّه سببُ العقوبة[3].

دلالةُ الظَّرف في (البيْن) المُضاف في الآية:

المُفاصلةُ بين الفريقيْن

في قوله: ﴿فَٱفۡتَحۡ بَيۡنِي وَبَيۡنَهُمۡ فَتۡحٗا﴾، ولم يقل: (فافتح بيننا فتحًا)؛ فيكون في اللَّفظة طباقٌ، والتَّكرار لفائدة بيان المُفاصلة بين الفريقَيْن، وعزل كلِّ طرف عن الآخر حالةً وقدرًا، وقوله: ﴿بَيۡنِي وَبَيۡنَهُمۡ﴾، (بيني): ظرف مكانٍ منصوبٌ على الظَّرفيَّة مُتعلِّق بـ (افتح)، وبينهم: معطوفةٌ بالواو على ﴿بَيۡنِي﴾، وتُعرب إعرابها[4].

جناسُ اشتقاقٍ حاصلٌ من إعادة لفظ ﴿فَتۡحٗا﴾ وإعرابه:

أن يكونَ فتحًا حاسمًا لا مَرَدَّ له من الله

إعادةُ لفظِ ﴿فَتۡحٗا﴾ أفادَ توكيدُ ذلك الفتح، والتَّأكيد على أنَّه فتحٌ حاسمٌ قاطعٌ لا شكَّ فيه، وقوله تعالى: ﴿فَتۡحٗا﴾، يجوز أن يكونَ مصدرًا مُؤكَّدًا، وأنْ يكون مفعولًا به، ويكون الفتح بمعنى المفتوح[5]، وأفاد تكرار ﴿فَتۡحٗا﴾ بصيغة المفعول: الاشتقاق، وبينه وبين فعل الأمر: ﴿فَٱفۡتَحۡ﴾ جناسٌ، وفائدته: أن يكونَ الفتحُ حاسمًا، لا مردَّ له من اللّه.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 163.
(2) التّويجريّ، الموسوعة القرآنية: 6/ 166.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 177.
(4) بهجت صالح، الإعراب المُفصَّل: 8/ 222.
(5) العكبريّ، التّبيان في إعراب القرآن: 2/ 999.

عكسُ الألفاظِ في قوله: ﴿فَٱفۡتَحۡ بَيۡنِي وَبَيۡنَهُمۡ فَتۡحٗا﴾:

الحالُ المرجوُّ تغيُّرُ ما هم فيه من الضَّعف والهوان

العكس في قوله: ﴿فَٱفۡتَحۡ بَيۡنِي وَبَيۡنَهُمۡ فَتۡحٗا﴾، هو ردُّ آخر الكلام على أوَّله، وهذا مثل قوله: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ﴾ [الزمر: 5]، وهو تعاكسُ الجُملِ، فهذا النَّوعُ هو أنْ تُقدِّم في الكلام جُزءًا، ثُمَّ تعكس، فتُقدِّم ما أخَّرتَ، وتُؤخِّر ما قدَّمتَ، وفائدته هُنا: ظهورُ انسجام الألفاظ وترتيبها بالحال المرجوِّ تغيُّره، فدعاؤه عليه السلام طلبًا لانعكاس الحال من الاستضعافِ إلى القوَّة، ومن الاسترذال إلى العزَّة، فانسجم اللَّفظ، والمعنى، واتَّفقا في ظاهرة الانعكاس.

دلالةُ فعلِ الأمر في: ﴿وَنَجِّنِي﴾:

الدُّعاءُ على أهل الكفر والضَّلال

بعد أن قال: ﴿فَٱفۡتَحۡ بَيۡنِي وَبَيۡنَهُمۡ﴾، أيْ: (فاحكم بيني وبينهم)، والمُراد من هذا الحُكم إنزالُ العقوبةِ عليهم؛ لأنَّه قال عقبَه: ﴿وَنَجِّنِي﴾؛ ولولا أنَّ المُراد إنزال العقوبة؛ لما كان لذكر النَّجاة بعدَهُ معنًى[1]، فاقتضى الدُّعاء عليهم، بمعنى: وأنجز حتفهم: ﴿وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ﴾، أي: في الدّين ﴿مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ ممّا تُعذِّب به الكافرين[2]، فقد خرج الأمر ﴿وَنَجِّنِي﴾ إلى معنى طلب إنزالِ العقوبة بالكفار الذين توعَّدوا رسولَهم بالرَّجم.

بلاغةُ العطفِ في قولِه: ﴿وَنَجِّنِي﴾:

الواو حرفُ عطف للجمع، والمعنى: (عند الفتح بيننا، خُذهم، ونجّني ومَنْ معي)، وفائدة معنى الجمع: هو ضمان سرعة النَّجاة حال إيقاع العقوبة بقومه وإصابتهم بالعذاب.

الاحتراسُ في قوله: ﴿وَنَجِّنِي﴾:

طَلَبَ أن يكون الفتحُ مصحوبًا بالنَّجاة له وللمؤمنين

أعقب الدُّعاء بالاحتراس بقوله: ﴿وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[3]، ومعنى هذا الاحتراس أنَّ نوحًا عليه السلام طلب فتحًا له،

---

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 521.
(2) البقاعيّ، أنوار التّنزيل: 5/ 376.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 163.

واحترس أنْ يكون هذا الفتحُ مصحوبًا بالنَّجاة له ولقومه في الحياة الدُّنيا، فقد يكون الفتح أُخرويًّا، فيُحشرون جميعًا، فيحكم اللّه بينهم، فأتبع دعاءه بقولِه: ﴿وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ﴾.

سِرُّ تقديمِ الفتحِ على النَّجاةِ:

الـتَّـدرُّج في الدُّعاء والطَّلب من الله تعالى

نلمحُ في النَّصِّ أسلوب التَّرقي في قوله: ﴿فَٱفْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ﴾ و﴿وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ إذ بدأ بطلب الفتح بينه وبين قومه المعارضين لرسالته، وهو حُكم اللّه بين القوم وبين رسولهم الذي كذَّبوه، ثم ارتقى الطلب بعد الفتح بطلب نجاته، وضمَّ في طلب النَّجاة المؤمنين الذين آمنوا معه، فاحتراسُ خشية وقوع عذاب اللّه أن يُصيبَ القوم كلَّهم كافرهم ومؤمنهم، فاحترَسَ بذِكْر النَّجاة لنفسه، ولِمَنْ معه مِنَ المؤمنين.

معنى (مَنْ) ودلالتها ومفهوم المعيَّة هنا:

معيَّةُ الرَّسول خصوصيَّةٌ عاليةٌ رفيعةٌ

(مَنْ) في قوله: ﴿وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ﴾ اسم موصول بمعنى (الذي)، وتختصُّ بأولي العلم، وهي تقع على المُفرد والمُثَنَّى والجمع والمُذكَّر والمُؤنَّث، فشمل بذلك كلَّ واحدٍ من الذين آمنوا ذَكَرًا كان أم أنثى، ومعيَّة الرَّسول لها خصوصيَّة فريدة، وأهميَّة عظمى؛ فهؤلاء صحابتُهُ وخاصَّته عليه السلام؛ وهم المؤمنون الصّادقون الصّابرون المُرابطون على الحقِّ.

إيثارُ التَّعبيرِ بـ ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

الوصفُ بالإيمانِ إكرامٌ للمؤمنين وبيـانُ قَبـولِه منهم

قوله: ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أفاد تزكيةَ أتباع الرَّسول الذين قال عنهم الكفار: إنَّهم الأرذلون؛ فوصفهم الرَّسولُ بالمؤمنين؛ إكرامًا وحفظًا لهم ولسمعتهم وبيان قبول اللّه منهم الإيمان والثَّبات عليه، على الرَّغم ممّا واجهوه من الاسترذال والإهانة من القوم الذين لا يؤمنون، ثمَّ إنَّه قال: ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، ولم يقل: (الذين آمنوا)؛ لبيان ثبات صفة الإيمان عليهم، وأنَّهم غيرُ مُتردِّدين في إيمانهم، بل إنَّ إيمانهم كائنٌ فيهم بعقيدةٍ راسخةٍ.

دلالةُ العطفِ في: ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ﴾، وإيثار الفعل مادَّةً وصيغةً:

العطفُ بالفاء في قوله: ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ﴾ دلَّ على سرعة الإنجاء، فحرفُ الفاء يُفيد التَّرتيبَ والتَّعقيب بلا مُهلةٍ زمنيَّةٍ؛ فجاء إنجاؤه مع مجيء الفتح المُبين بينه وبين قومه.

سِرُّ إيثارِ ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ﴾ على (نجّينا):

النَّجاةُ المشهودةُ بالرِّعايةِ الإلهيَّةِ

قال البيان الحكيم: ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ﴾؛ ولم يقل: (نجَّيناه)، والفرق بينهما زيادة الهمزة، وأنَّ زيادة المبنى تُنبئ بزيادة المعنى، فدلَّ ذلك على حالة إنجاءٍ نادرة، مشهدها رعايةُ اللّه للفُلك المشحون، الذي أخذ قراره في الحمولة، فكان كُلُّ شيءٍ بقدرٍ مُسبقٍ من اللّه تعالى؛ فكان إنجاءُ نوح ﷺ منذ أوَّل يوم جاءه الأمر فيه بإنشاء السَّفينة وصناعتها، قال تعالى: ﴿وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ٣٧ وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ مِّن قَوۡمِهِۦ سَخِرُواْ مِنۡهُۚ قَالَ إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ كَمَا تَسۡخَرُونَ ٣٨﴾ [هود: 37 - 38].

إيثارُ الضَّمير في ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ﴾ على الاسم الظّاهر:

قال عزَّ من قائلٍ: ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ﴾ دون: (فأنجينا نوحًا)، وذلك للانسجام مع سرعة الاستجابة والإنجاء، فاختيار الضَّمائر إيجازٌ في الكلام، يُفيد الاختصار في السُّرعة.

نكتةُ التَّعبير بـ(نا) العظمة في ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ﴾:

مكانةُ النَّبي وعلوُّ شأن الرِّسالة

لمّا كان في إهلاكهم وإنجائه ﷺ من بديع صنع اللّه ما يجلُّ عن الوصف، فقد أبرزه في مظهر العظمة، فقال: ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ﴾؛ إذ عبَّر بـ (نا) العظمة عن إنجائه مع الذين آمنوا معه على ضعفهم وقلَّتهم: ﴿فِي ٱلۡفُلۡكِ﴾[1].

(1) البقاعيّ، أنوار التّنزيل: 5/ 376.

سرُّ تكرارِ المعيَّة، ومعنى ﴿فِي﴾ في الآية:

كرامةُ الصُّحبةِ والمعيَّة

في قوله تعالى: ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ﴾، كرَّر المعيَّة؛ ليدلَّ على استجابة دعائه كما دعاه؛ إذ إنَّ اللّه تعالى أهلك أعداءه، ونجّاه، ومَنْ معه من المؤمنين، وإبرازًا لما في المَعيَّة من كرامة صحبة الأنبياء، وتأييد لدعوتهم ونُصرة لهم.

أمّا معنى ﴿فِي﴾؛ فهي للوعاء؛ إذ إنَّ السّفينةَ قد احتوتهم كما يحتوي الوعاءُ الموادَّ والأشياء، فصارت حفظًا لهم بإذن اللّه، ومنجاةً لنوح عليه السلام ولصحابته من المؤمنين، الذين دعا لهم بالنَّجاة والنُّصرة بدينهم.

سِرُّ تعريف ﴿ٱلۡفُلۡكِ﴾ باللّام، ودلالة وصفه بـ﴿ٱلۡمَشۡحُونِ﴾:

تعظيمُ شأنِ الفُلك التي حدثت بها الآية والنَّجاة

ذَكَرَ البيانُ القرآنيُّ الفُلك في قوله: ﴿فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ﴾ مُعرَّفةً بـ (أل) التعريف دلالةً على التعظيم، وفي معنى قوله: ﴿ٱلۡمَشۡحُونِ﴾ قال ابن عباس: الموقر، وقال عطاء: المُثقل[1]، ودلَّ وصفُهُ بالمشحون على أنَّ الذين نجوا معه كان فيهم كثرة، وأنَّ الفلك امتلَأ[2]، وورد في سورة يس قوله: ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمۡ أَنَّا حَمَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ٤١﴾ [يس: 41]، فذكر الفُلك المشحون، وذَكَرَ حَملَ أولئك المؤمنين الذين خرجت منهم الذرّية البشريَّة.

معنى ﴿ثُمَّ﴾، وبلاغة العطف: ﴿ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا﴾:

استحقاقُ كرامةِ إنجاء نوحٍ عليه السلام وطائفة المؤمنين

في قوله: ﴿ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا﴾ جاء حرف العطف ﴿ثُمَّ﴾ للتَّراخي الرُّتبيِّ في الإخبار؛ لأنَّ إغراقَ أمَّةٍ كاملة أكبرُ دلالةً على عظيم القدرة من إنجاء طائفة من النّاس[3]، ولهذا قُدِّم إنجاءُ تلك الطّائفة على عظيم إغراق تلك الأمَّة؛ وذلك لما استحقَّه النَّبيُّ المُرسَل الأوَّل إلى

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 177.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 521.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 163.

النّاس، وهو نوح عليه السلام من الكرامة هو ومَنْ آمن معه، ولمّا كان ذلك أمرًا باهرًا؛ عظَّمه تعالى بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾، أي: الأمر العظيم من الدُّعاء، والإمهال، ثم الإنجاء، وأخيرًا الإهلاك[1].

دلالةُ الإطنابِ في لفظ ﴿بَعْدُ﴾، وإيثار لفظ ﴿ٱلْبَاقِينَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

إغراقُ مَنْ تبقَّى من قوم نوحٍ

جاء الإطناب في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ﴾، وقد دلَّت: ﴿ثُمَّ﴾ على التَّراخي الرُّتبيُّ، فبعد أن نجَّى الله نوحًا ومَن معه من المؤمنين؛ أغرق مَن تبقَّى من قوم نوحٍ، و﴿بَعْدُ﴾ دلَّت كذلك على المدلول نفسه، فهي من قبيل الإطناب؛ لما تضمَّنته كذلك من معنى التَّراخي والتَّعقيب، ثمَّ إنَّه لم يقل: (أغرقنا المُكذِّبين) أو (أغرقنا المُجرمين)، بل قال: ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ﴾، فأغرق كلَّ الذين لم يكونوا مع نوح عليه السلام في السَّفينة، فكان إغراقًا شاملًا؛ ليدلَّ على أنَّ مَنْ لم يكن مع الحقِّ والإيمان؛ فهو مع الباطل.

الفُروقُ المُعْجَميَّة:

النَّهي والكفُّ:

النَّهي فيه زجرٌ، والكفُّ بلا زجرٍ

انْتَهَى عن الشيء: كَفَّ عنه، وفي التنزيل العزيز: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: 38]، وقوله: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ﴾ [النحل: 90] إلى قوله: ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ﴾ [النَّحل: 90]، أيْ: يحثُّ على فعل الخير، ويزجر عن الشَّرِّ، والانتهاءُ: الانزجار عمّا نهى عنه، قال تعالى: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ٤٦﴾ [مريم: 46]، وقال: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾ [الشَّعراء: 116]، والإنهاء في الأصل: إبلاغُ النَّهي[2].

أمّا الكفُّ؛ فالكِفايَةُ: ما فيه سدُّ الخَلَّةِ، وبلوغ المُراد في الأمر، قال تعالى: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾ [الأحزاب: 25]، وقال: ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ

---

(1) البقاعيّ، أنوار التّنزيل: 5/ 377.

(2) الرّاغب، المفردات، ص: 826.

﴿ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ۝٩٥﴾ [الحِجر: 95]، وقيل في معنى قوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ۝٧٩﴾ [النّساء: 79]: كفى اللّهُ شهيدًا، والباء زائدة، وقيل: معناه: اكْتَفِ باللّه شهيدًا.

الرَّجم والقتل:

القَتْلُ ضروبٌ مُختلِفَة، والرَّجم بالحجارة غايته القتل

الرَّجمُ هو القتل بالحجارة، والقتل بالرَّجمِ هو الضَّرب بالحجارة، غايتُهُ قتلُ المرجوم، وقد يأخذ معاني مجازية، فقوله: ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾، يمكن أن يُفيد مجازًا الرَّجم بالقول، وهذا ما فعلوه مع مَنْ آمن به، فقالوا: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ۝١١١﴾، والقَتْل ضروبٌ مُخْتَلِفَة؛ لِأَنَّ القَتْل منه لا يُدرى أَيَقْتُلُه بضربةٍ أم بضربتَيْن أم أكثر[1]؟.

الكَذِبُ والخُلْف:

يكونُ الكذبُ في الماضي والحاضر، ويكون الخُلْف في الاستقبال

التَّكْذيب هو التصميم على أَنَّ الخَبَر كذبٌ بِالقطعِ عليه، ونقيضه التَّصديق، ولا تطلق صفة المُكذِّب إلّا لِمَنْ كذَّب بِالحَقِّ؛ لِأَنَّها صفة ذمٍّ، والفرق بين الخُلْف والكذب: أنَّ الكذب هو أن تقول: فعلتُ كذا، ولم تفعلْهُ، والخلف لما يستقبل: وهو أن تقول: سأفعل كذا، ولا تفعله[2]، فيكون الكذب في الماضي والحاضر، ويكون الخلفُ في الاستقبال من الزَّمان.

الفتح والحكم:

الفتحُ أعمُّ من الحُكم

الفتحُ هو الفصل بين الشَّيئَيْن؛ ليظهر ما وراءهما، وسُمّيت الأمطارُ فتوحًا، والفاتح: الحاكم[3]، وقد فتح بينهما، أيْ: حكم، ومنه قوله: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: 89][4].

(1) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 104.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 45.
(3) الزّبيديّ، تاج العروس: 7/ 9.
(4) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 396.

الحُكْمُ هو الفصل على شريعةٍ أو قانونٍ

يجوز أَن يُقال: الحُكْم فصلُ الأَمرِ على الأَحْكام بِما يَقْتَضيهِ العقلُ والشَّرْعُ، فإذا قيل: حكم بِالباطِلِ؛ فمَعْنَاهُ أَنَّه جعل الباطِل مَوضِع الحقِّ، ويُسْتَعْمل الحُكم في مَواضِع لا يسْتَعْمل فيها القَضاء، كَقَوْلِك: حُكْمُ هَذا، كَحُكمِ هَذا، أَيْ: هما مُتماثلان في السَّبَب أَو العلَّة أَو نَحْو ذَلِك[1].

الإغراق والإهلاك:

الإغراقُ: هو الإهلاكُ بماء النَّهر أو البحر، والإهلاكُ؛ هو الموت مع اختلاف أسبابه، فقوله: ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ﴾، أيْ: أمتنا كلَّ مَنْ كان حيًّا غير مؤمنٍ بالله.

الباقون والآخرون:

الباقون هم الذين بقوا على كفرهم وأصرّوا عليه

الباقي هو الثابتُ بعد غيره، فهؤلاء الذين ثبتوا على كفرهم، ولم يؤمنوا مع ما جاء من الدَّلائل العظيمة، فهذا نوح عليه السلام يأسف لولده الذي بقي على كفره، فناداه، وهو يرى الماء يتدفَّق من كلِّ مكانٍ: ﴿يَٰبُنَيَّ ٱرْكَب مَّعَنَا﴾ [هود: 42]، فقال له: ﴿سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ [هود: 43]، فدلَّ البقاء على الإصرار على الكُفْر، أمّا الآخَر؛ فيعني الثّاني، وكُلُّ شَيْء يجوز أَن يكون لَهُ ثالث وما فوق ذَلِك؛ يُقال فيه: آخَرُ.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 190.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾﴾ [الشعراء: 121 - 122]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

التَّنبيهُ إلى عظيمِ شأنِ الإغراقِ حتى صارَ آيةً دالَّةً على قدرةِ اللهِ

بعد أن حكت الآيات السّابقةُ ما وقع لقوم نوح ﷺ من العذاب والإغراق؛ بسبب إنكارِهم على نبيِّهم وكفرهم بآيات اللّه، وتخييرهم نبيَّهم بالانتهاء عنها أو القتل رجمًا، وجاءهم العذاب، وأُغرقوا؛ فناسب أن يأتي التَّنبيهُ على عظيم شأن هذه الآية، التي ستبقى شاخصةً في عقول النّاس وعلومِهم، ولكنَّ أكثرهم لا يؤمنون، واللّه سبحانه عزيزٌ، إن شاء؛ عجَّل العذاب في الدُّنيا لأولئك المستكبرين، وهو رحيمٌ سبحانه، فإن شاء؛ أخَّر العذاب والحساب إلى يوم القيامة.

المَعنى الإجماليُّ:

إنجاءُ الله تعالى لرسلِهِ، وعذابُهُ للعصاة دلالةٌ على صِدقِ الرُّسلِ

خَتَمَ الحقُّ سبحانه وتعالى هذه القِصَّة بقوله: إنَّ في إنجاءِ نوحٍ وأتباعِه المؤمنينَ، وإغراق الكافرين لَعِظَةً وعِبرةً ودَلالةً واضحةً على توحيدِ اللّهِ وصِدقِ رُسُلِهِ، وبُطلانِ الشِّرك، ولم يكُنْ أكثَرُ قَومِ نوحٍ مُؤمِنينَ، وإنَّ ربَّك اللّه لهو القويُّ الغالب المُنتقم ممَّن كفر به، وخالف أمره، الرَّحيم بمَنْ أطاعه، وأناب إليه وتاب، فلا يُعاقبه(1).

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نكتةُ تَكرارِ هاتَيْنِ الآيتَيْنِ في السّورة:

استهانةُ النّاسِ بالآياتِ وعدمِ الاتّعاظِ بالأممِ السّابقة

تكرَّر قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ ثمانيَ مرّاتٍ، كلُّ مرَّةٍ عَقِبَ كلِّ قصةٍ، فالإشارة في كلِّ واحدةٍ بذلك إلى قصَّة النبي المذكور قبلها، وما

(1) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 605، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 595، والزّحيلي، التّفسير المنير: 19/ 188.

اشتملت عليه من الآيات والعِبَرِ[1]، ودلَّ هذا التَّكرارُ على عدم اتِّعاظ النّاس بالآيات، واستهانتِهم بما حدث للأمم السّابقة، والإصرارِ على الضَّلال، وهو أمارةٌ على وحدة ردِّ مُنكري الرِّسالات في كلِّ العصور، وفيه من التسلية للرَّسول ﷺ ما فيه.

سرُّ الفصلِ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ﴾:

تعظيمُ شأنِ آياتِ الأنبياءِ ومُعجزاتهم

بعد أن ذَكَرَ ما أصاب قومَ نوحٍ من العذاب بإغراقِهم جميعًا، فقال: ﴿ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا بَعۡدُ ٱلۡبَاقِينَ﴾؛ بيَّن أنَّ تلك الحادثة هي آيةٌ عظيمة من آيات اللّه، فقال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ﴾، وما بين الجُملتَيْن كمالُ الاتِّصال؛ لأنَّ الجُملتَيْن خبريَّتان، وأنَّ الثّانية مؤكِّدة للأولى، فجملة: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ﴾ لا محلَّ لها استئنافيَّة، فيها معنى التَّعليل[2].

دلالةُ تَكرارِ التَّوكيد في الآية:

إثباتُ حقيقة الطّوفان

في قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ﴾ أُكِّد بـ ﴿إِنَّ﴾، ثم أُكِّد في آخر الآية باللّام في قوله: ﴿لَأٓيَةٗۖ﴾، هذا فضلًا عن التَّوكيد باسميَّة الجملة، وذلكَ على سبيل الخبر الإنكاريِّ؛ إذ إنَّ كثرةَ التَّوكيدات تدلُّ على أنَّ المخاطَب يمكن أن يكون شاكًّا في معنى الآية وصدقها، أو مُنكِرًا لها، واليوم نجد ذلك في آراء المُلحدين الذين يُنكرون آيةَ طوفان نوح عليه السلام ولكن أثبت العلمُ الحديث حدوثَ كارثة طبيعيَّة في ذلك الزَّمان، وأنَّ قسمًا من البشر قُيِّضت لهم فرصة النَّجاة[3]، ومنهم مَن وُجِدت هياكلهم العظميَّة كمتحجِّرات في كهوف في أعالي الجبال ممّا دلَّ على لُجوئهم إليها، فلم يعصمهم ذلك من أمرِ اللّه، ﴿قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ﴾ [هود: 43].

(1) السّيوطيّ، الإتقان: 3/ 227.
(2) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 22/ 205.
(3) الدليمي، رحلة في ذاكرة الجينوم: 90 - 92.

غرضُ تقديمِ الخبر على اسم ﴿إِنَّ﴾:

الأدلّةُ مُتضمِّنة في ذلك الحدث العظيم

في قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾، (ذا): اسمُ إشارة مبنيٌّ في محلِّ جرٍّ، والجار والمجرور متعلّقان بخبرٍ محذوفٍ مقدَّم لـ (إنَّ)، و(اللام): للبعد، و(الكاف): للخطاب، و﴿لَآيَةً﴾: (اللّام): للتّوكيد، و(آية): اسم (إنَّ) مُؤخَّرٌ منصوب، وقدَّم الخبر: ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾ على اسم ﴿إِنَّ﴾: (آية)، فلم يقل: (إنَّ آية في ذلك)؛ لفائدة التَّخصيص، فكأنَّ هذه الآية قد جُعلت في وعاء هذا الحدث العظيم.

بلاغةُ التَّعبيرِ باسم الإشارة الدّالِّ على البُعد ﴿ذَٰلِكَ﴾:

عِظمُ شأنِ آية الطّوفان

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ أشارَ باسم الإشارةِ؛ لتنزيل غير المُشاهَدِ منزلةَ المُشاهَد، وهو كذلك للتَّعظيم، ويكون التَّعظيمُ بلفظ القريب والبعيد، واستعمل اسمَ الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ للبعيد؛ لفائدةِ بيانِ أنَّ آية الطّوفان على الرغم من بُعدها الزَّمنيِّ عن النّاس، إلّا أنَّها ستبقى آيةً تتحدَّث بها القرون، وهي آية للنّاس كافَّةً، وبفضل الاكتشافات العلميَّة أصبحت اليوم آيةً مُشاهَدَةً.

سرُّ التَّعبيرِ بلفظ ﴿لَآيَةً﴾ مادّةً وصيغةً:

الآيةُ دليلُ صدقِ الرَّسولِ وشاهدٌ على الرِّسالة

ورد لفظ (الآية) في القرآن الكريم؛ للتَّعبير عن المُعجزة التي يحدُث بها تحدّي الأنبياء لأقوامهم؛ لتكونَ دليلًا على صِدق ما جاؤوا به من النُّبوَّة والرِّسالة، فيؤمن لهم النّاس، وهي شاهد على صدق النَّبيِّ ﷺ وتأييد الله له، أمّا آيةُ الطّوفان التي وردت في هذه الآية الكريمةِ؛ فهي آيةٌ مُعجزةٌ للّذين آمنوا مع نوح، وهي آيةٌ عظيمةٌ لِمَنْ يأتي بعدهم من النّاس إلى قيام السّاعة، وقرينةُ ذلك قوله: ﴿وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ﴾، أي: أكثرُ النّاس الذين يمرّون عليها في القرآن الكريم، أو في أخبار الأمم الماضية، فيُنكرونها، أو يمرّون عليها، وهم عنها مُعرضون.

دلالةُ نفي الكون في: ﴿وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ﴾:

أكثرُ النّاس يُنكرون الرِّسالاتِ والآياتِ العظيمةَ

في قوله ﷻ ﴿وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ نفى إيمان كثير من النّاس بصدق حدوث آيةِ الطّوفان، وقالوا عنها: أساطيرُ الأوَّلين، فلم يؤمنوا بها وبالرِّسالات التي جعلها اللّه نورًا وهدًى للنّاس، فقوله: ﴿وَمَا كَانَ﴾ دلَّ على قِدَم الإنكار لآيات الرُّسل والأنبياء ومعجزاتهم، ونفيُ التَّكوين أبلغُ من نفي الفعل؛ لأنَّ نفي التكوين نفيٌ للهَمِّ بالفعل والعزم عليه، ممّا يدلُّ على استحقاقهم العذابَ.

إيثارُ صيغةِ التَّفضيل ﴿أَكۡثَرُهُم﴾، وعودُ الضَّمير في ﴿أَكۡثَرُهُم﴾:

عدمُ إيمانِ أكثر النّاس وإنكارهم للحقيقة

في قوله: ﴿وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ دلَّت صيغةُ التَّفضيل على أن النّاس ينقسمون إلى قسمين: مؤمنين وغير مؤمنين، ولكنَّ الفئةَ الثّانية هي فئة عدم الإيمان، وهي الأكثر، وهذه سُنَّة عامَّةٌ في المجتمعات الإنسانيَّة، وفي التَّفضيل هنا إنصافٌ في الحُكم على الناس، ومطابقة للواقع، وقوله: ﴿أَكۡثَرُهُم﴾ يعود فيه الضَّمير على النّاس جميعًا: العقلاءِ منهم الذين يملكون القدرةَ على التَّمييز بين الحقِّ والباطل، والإيمان والكفر، فهؤلاء أكثرهم لا يؤمنون بالرِّسالات السَّماويَّة، ولا يتَّعظون بآيات الأنبياء التي بقي أثرها في الكتب السَّماويَّة، والقرآنُ شاهدٌ عليهم في ذلك.

دلالةُ مجيءِ التَّعبير بصيغة الإيمان في ﴿مُّؤۡمِنِينَ﴾:

أعظمُ ما يمكن أن ينالَهُ الإنسان هو الإيمان بالله

في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ﴾، ذكر ﴿مُّؤۡمِنِينَ﴾ دون أيِّ وصفٍ آخرَ مثل: (مُصدّقين)؛ لأنَّ غايةَ الرِّسالات السَّماويَّة هي تحقيق الإيمان باللّه تعالى عند النّاس، وهو أعزُّ ما يمكن أن ينالَهُ الإنسانُ في هذا الوجود، فالتَّصديق وحده لا يكفي إن لم يُتبع بالإيمان باللّه، بأنَّه سبحانه هو الذي قدَّر هذه الآية، فلعلَّ بعض النّاس اليوم يستدلّون من خلال العلم على حدوث ما يُشبِه طوفان نوحٍ في تلك

الحقبة الزَّمنيَّة، فهم يُصدِّقون بحدوث ذلك، لكنَّهم يعزونه إلى الظَّواهر الكونيَّة، التي لا علاقةَ لها بإرادة اللّه وانتقامه من المكذِّبين لرسالة نوح عليه السلام وينكرون أنَّها مُعجزةٌ من معجزات الرُّسل.

بلاغةُ العطفِ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾ والتَّعبير بالرُّبوبيَّة:

العفوُ مع العِزَّة والقدرة

قوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾ العطفُ بين جُملتَيْن خبريَّتَيْن مختلفتَيْن في المعنى للتَّوسُّط بين كمال الانقطاع وكمال الاتِّصال، فمع أنَّ أكثر النّاس لا يؤمنون؛ فإنَّ اللّه عزيزٌ إن شاء؛ عذَّبهم في الدُّنيا، وهو رحيمٌ إن شاء؛ رحمهم بالإمهال.

دلالةُ التَّوكيد في ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ﴾:

تسليةُ الرَّسولِ في ذِكْر آيات الرُّسل من قبله

في قوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾؛ جاءت الآية مُؤكَّدةً بأكثر من تأكيد، وهي خبر إنكاريٌّ مُفتتحٌ بالتَّوكيد بـ (إنّ) ولام التَّوكيد والضَّمير العائد إلى الرَّبِّ بقوله: ﴿لَهُوَ﴾، ودلالة هذه التَّوكيدات هو بيانُ عظيم قدرة اللّه تعالى في اختيار ما يناسب البشرَ المُنكرين للدّين وغير المؤمنين من التَّعجيل بالعقوبة أو الإمهال إلى الآخرة.

سِرُّ الإضافةِ في ﴿رَبَّكَ﴾:

التَّعبيرُ بالرُّبوبيَّة المُضافة لضمير الخطاب هُنا ﴿رَبَّكَ﴾ جاء مناسبًا لخطاب النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم، فإنَّ هذه الآياتِ كلَّها جاءت تسليةً للرَّسول الكريم وتربيةً ربانيَّةً له عليه السلام.

دلالةُ اللّام في ﴿لَهُوَ﴾، وفائدةُ ضمير الفصل:

حكمتُهُ سبحانه في تعجيل العقوبة أو الإمهال

اللّام في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ﴾ لامٌ مُزحلقةٌ فائدتها التَّوكيد[1]، فجاء تأكيد عظيم عزَّة اللّه في موضع ذِكْر العقوبة التي أصابت قومَ نوحٍ، وهي عقوبةُ الإغراقِ، وقال: ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾؛ لِما صاحب تلك العقوبة من رحمةٍ بالمؤمنين، فهو قادرٌ سبحانه أنْ يجمع بين العذاب والرَّحمة والعذاب والتَّمكين، كلٌّ بحسب ما يستحقُّ.

(1) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 19/ 55.

إيثارُ لفظِ ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ مادَّةً وصيغةً:

آثر البيانُ القرآنيُّ ذِكْرَ ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ لأنَّ في الآية استنصارَ الرَّسول، فاقتضى ذِكْرَ عزَّةِ اللّه؛ تطمينًا له ﷺ في تحقيق ما طلب.

سِرُّ تقديم ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ على ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾:

العِزَّةُ على الكافرين والرَّحمة للمؤمنين

في قوله تعالى: ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ نفى الذِّكْرُ الحكيم الإيمانَ عن الأكثر، فدلَّ بالمفهوم على إيمان الأقل، فكانت العِزَّة على مَنْ لم يؤمن، والرَّحمة لِمَنْ آمن، وهما مُرتَّبتان كترتيب الفريقَيْن[1]، وقد دلَّت صيغتا المبالغة ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ على أنَّهُ لا عزَّةَ أمام عزَّةِ اللّه، فإنَّهُ إذا أراد أخذ قوم بأعمالهم، أو الانتقام منهم بسببِ كفرهم؛ فإنَّه سبحانه قادرٌ على تغييرِ السُّنن الكونيَّة التي خلقها، وقدَّرها؛ ليجعلَها مطواعةً لعزَّته وانتقامِه، ثمَّ إنَّ رحمتَهُ وسعت كلَّ شيءٍ، فلا رحمة أمام رحمته سبحانه.

الطِّباقُ في معنى صيغتَي المبالغة:

اجتماعُ صفتَيْن متناقضتَيْن في أمر الله

ثَمَّة طباقٌ في قوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾؛ فبين ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ و﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ طباقٌ؛ لأنَّ العزَّة تقتضي القوَّةَ والمجازاة والانتقام، بينما تقتضي الرَّحمةُ المُسامَحَةَ أو الإمهال في الدُّنيا، فاجتمعت صفتان متناقضتان في إجراء أمر اللّه سبحانه، وهما من آيات الكمال الإلهيِّ.

الفروقُ المُعْجَميَّةُ:

الآية والعبرة:

كلُّ آيةٍ تكونُ فيها عبرةٌ، وليس العكس

الآية من الألفاظ التي فيها قَدْرٌ مشتركٌ مع العبرة؛ لأنَّ من معاني العبرة: الدَّلالةَ، ومن معاني (الآية): العلامة الدّالَّة على الشَّيءِ، وإنَّ كلَّ آيةٍ تكون فيها عبرةٌ، وليس العكس.

(1) الزّركشيّ، البرهان: 3/ 20.

الإيمان والإسلام:

الإسلامُ تسليمُ الـوجـه لـلـه، والإيمانُ تصديقُ القلبِ بما جاء به الأنبياء

الإسلامُ طاعَةُ اللّه الَّتي يُسلَم بها من عِقاب اللّه، وصارَ علمًا على شَريعَة مُحَمَّد ﷺ، ولذَلِك يَنْتَفي منه اليَهود وغَيرهم، ولا ينتفون من الإيمان(1)، وهو أن يُسلِم الإنسانُ وجهه للّه تعالى طاعةً وإيمانًا، والإيمان هو مُطلَق التَّصديق، وفي الاصطلاح: هو تصديقُ القلبِ وإذعانُه وقَبوله بِكُلِّ ما جاء به الأنبياء عليهم السلام.

العزيز والقهار:

الـعـزيـز هو القوي الشديد الغالب، والقهار لا يغلبه شيء، ولا يقهره

(العزيز) من أسماء اللّه الحسنى، قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ۝٦٦﴾ [هود: 66]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾، والعزيز هو القوي الشديد الغالب، الذي لا يُغلب، قالَ الزَّجّاجُ: هوَ المُمتَنِعُ، فلا يَغْلِبُهُ شَيْءٌ.

(القهار) صيغةُ مبالغة من (القاهر) اسم فاعل، وهو الذي يقهر كلَّ شيءٍ، فيغلبه، ويصرفه لما يشاء كيف يشاء، فيُحيي خَلْقَهُ؛ إذا شاء، ويُميتهم؛ إذا شاء، لا يغلبه شيءٌ، ولا يقهره، فالَّذي يقهر جميع الأشياء، هو الواحد الَّذي لا نظير له، وهو الَّذي يستحقُّ أن يُعبد وحده، كما كان قاهرًا وحده، يقول تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ۝١٨﴾ [الأنعام: 18]، ويقول تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ ۝١٦﴾ [الرَّعد: 16].

الرَّحيم والرؤوف:

(الـــــرؤوف) بمعنى (الرَّحيم) مع المبالغة في الرَّحمة

(الرَّؤوف): اسمٌ من أسماء اللّه الحسنى، والرؤوف: ذو الرأفة، أي: شديد الرَّحمة، أو ذو رحمةٍ واسعةٍ، وهذه الصفة أعلى معاني الرَّحمة وأرقُّها، فالرَّؤوف بمعنى: الرَّحيم مع المبالغة في الرَّحمة، والرؤوف صيغةُ مبالغةٍ دلَّت على الكثرة، فيكون معناه: كمالَ الرَّأفة

(1) العسكريّ، الفروق اللُّغوية، ص: 228.

والعطف، أمّا (الرَّحيم)؛ فصفةٌ مشبَّهة تدلُّ على الملازمة والثَّبات، فيكون معناه: الرَّحمةَ الدّائمة، ومن الاختلاف أيضًا أنَّ الرَّحمةَ يمكن أن تكون مع الكراهة، ولا يمكن أن تكونَ الكراهةُ مع الرَّأفةِ، وأنَّ الرَّأفةَ سعيٌ لرفع الضَّرر، والرَّحمةَ سعيٌ لجلب المنفعةِ.

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ١٢٣ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ١٢٤
إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ١٢٥ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٢٦ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ
عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٢٧﴾ [الشعراء: 123 - 127]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَهُما:

إتباعُ قصَّةِ قوم نوحٍ الأكثر تكذيبًا قصَّةَ قوم هود وهم الأشدُّ والأعْتى

لمّا قصَّ الله تعالى على نبيِّه محمد ﷺ نبأ نوح عليه السلام الذي كان نبَوُّهُ مع قومِهِ أعظمَ من أخبار غيره، وظلَّ يدعوهم ألفَ سنةٍ إلّا خمسين عامًا، ومع ذلك كذَّبه قومه[1]، فبعد أن ذَكَرَ أوَّلَ الأقوام وأطولهم عمرًا، وهم قوم نوح، وكيف أغرِقوا؛ ناسب أن يقصَّ هُنا نبأَ هودٍ عليه السلام مع قومه (عاد)، وهم القومُ الأعتى والأقوى، والأكثر إنعامًا على الأرض، وتفنُّنًا في ترويض الطَّبيعة من حولهم.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿عَادٌ﴾: أُمَّةٌ عَظيمَةٌ مِنَ العَرَبِ العارِبَةِ البائِدَةِ، وكانوا عَشْرَ قَبائِلَ، وقيلَ: ثَلاثَ عَشْرَةَ قَبيلَةً، وهُم أَبْناءُ عادِ بْنِ عوصٍ، وعوصٌ هوَ ابْنُ إِرَمَ بْنِ سامِ بْنِ نوحٍ، كَذا اصْطَلَحَ المُؤَرِّخونَ، وكانت مَساكنهم بالأحقاف باليمن[2].

2) ﴿أَخُوهُمْ﴾: هو المُشارِكُ الآخرَ في الوِلادَةِ مِنَ الطَّرفيْنِ، أو مِنْ أَحدِهما أو مِنَ الرَّضاعِ، ويُستَعارُ في كلِّ مُشارِكٍ لغيره في القَبيلة، أو في الدِّين، أو في صَنعةٍ، أو في مُعاملةٍ أو في مَودَّةٍ، وفي غَير ذَلك من المناسبات، والأخوَّةُ إذا كانت في غير الولادةِ؛ كانت للمشكلة والاجتماع في الفعل، نحو: هذا الثوبُ أخوُ هذا، قولُه تعالى:

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 520.
(2) الطبري، تاريخ الرسل والملوك: 1/ 207، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 8 - ب/ 200، وابن منظور، لسان العرب: (عود).

﴿كَانُوٓاْ إِخۡوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِۖ﴾ [الإسراء: 27]، أي: مُشاكلوهم[1]، وقد يكونُ الأَخُ: الصَّديقَ والصّاحِبَ، ومنه قَوْلُهم: ورُبَّ أخٍ لم تَلِدْهُ أُمُّك[2]، والمُراد بالأخ في الآية: المشارِكُ في نَسَبِ القَبيلَة.

3) ﴿أَجۡرٍۖ﴾: (أجر) أَصْلانِ يُمكِنُ الجَمعُ بَيْنَهُما بالمَعْنَى، فالأَوَّلُ الكِراءُ على العَمَلِ، والثَّاني جَبْرُ العَظْمِ الكَسيرِ[3]، ومنه سُمّيَ الثَّوابُ أَجْرًا؛ لأنَّ اللّهَ يَجْزي العَبْدَ عليه، والأَجْرُ: العِوَضُ، مَصْدَرُ أَجَرَهُ وآجَرَهُ يَأْجُرُهُ ويَأْجِرُهُ، والأجير: فعيلٌ بمعنى فاعل أو مُفاعل، والاستئجارُ: طلبُ الشَّيءِ بالأجرة[4]، والمقصودُ بالأجر في الآية: العِوَضُ والجَزاءُ على العَمَلِ[5].

المَعْنى الإجْماليُّ:

أسلوبُ الدّاعيةِ إلى اللهِ يجب أن يكون لطيفًا دون تنفيرٍ

يحكي اللّه سبحانه وتعالى جانبًا من قصةِ هودٍ عليه السلام مع قومِه، فيقولُ: كذَّبَتْ قبيلةُ عادٍ رُسلَ اللّهِ بتكذيبِهم رَسولَهم هودًا - فتَكذيبُهم له تكذيبٌ لِغَيرِه - حينَ قال لهم هودٌ، وهو أخوهم في النَّسَبِ: ألا تتَّقون اللّهَ، وتحذَرون عِقابَه، فتوحِّدوه، وتَتركوا عبادةَ الأصنام؟ إنّي لكم رَسولٌ من اللّهِ، أمينٌ على وحيِه الذي بعثَني به إليكم، فأبَلِّغُكم رسالتَهُ بلا زيادةٍ ولا نَقصٍ، فاتَّقوا سَخَطَ اللّهِ وعِقابَهُ، وأطيعوني، وما أطلُبُ منكم على نُصحي لكم ثوابًا ولا جزاءً؛ ما أرجو ثَوابي إلّا من اللّهِ الخالِقِ الرّازِقِ، المالِكِ المدَبِّرِ لجميعِ العالَمينَ دونَ غَيرِه[6].

(1) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (أخ).
(2) الزبيدي، تاج العروس: (أخو).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أجر).
(4) الراغب، المفردات: (أجر).
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8 - أ/ 28.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 606، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 119، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 151.

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ فصلِ جملة ﴿كَذَّبَتۡ عَادٌ﴾ عمّا سبقها:

قوله: ﴿كَذَّبَتۡ عَادٌ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ جملةٌ مُستأنَفة استئنافَ تعدادٍ لأخبار التَّسلية للرَّسول ﷺ ، وتكرير الموعظة للمُكذِّبين بعد جملة: ﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ نُوحٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٠٥﴾ [الشُّعراء: 105](1).

دلالةُ التَّعبيرِ بالماضي ﴿كَذَّبَتۡ﴾ مادَّةً وصيغةً:

التَّأنيثُ باعتبار القبيلة

في قوله سبحانه: ﴿كَذَّبَتۡ عَادٌ﴾ اقترنَ الفعل ﴿كَذَّبَتۡ﴾ بتاء التَّأنيث؛ لأنَّ اسمَ ﴿عَادٌ﴾ علمٌ على أمَّةٍ، فهو مُؤَوَّل بمعنى الأم(2)، فقد أسند كَذَّبَتۡ إلى ﴿عَادٌ﴾، وفيه علامة التَّأنيث، من حيث إنَّها في معنى الأمَّة والجماعة على نسقِ قوم نوح؛ إذ سبقت قوله: ﴿كَذَّبَتۡ عَادٌ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾؛ إذ أنَّثه باعتبار القبيلة(3).

سِرُّ تخصيصِ التَّعبيرِ بلفظ ﴿عَادٌ﴾:

إطلاقُ اسمِ (عاد) على قوم هود؛ لأنَّه في الأصل اسمُ أبيهم

خصَّ السّياقُ القرآنيُّ قومَ عادٍ بالذِّكر بقوله: ﴿كَذَّبَتۡ عَادٌ﴾ لجملة أمورٍ، الأوَّلُ: أنَّه في الأصل اسم أبيهم(4)، والثّاني: أنَّهم القومُ الذين أُرسل إليهم هودٌ عليه السلام خاصَّةً، قال: ﴿۞وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ﴾ [الأعراف: 65]، والثّالث: لعظيم شأنهم بين الأمم، ولِما كانوا يملكونه من القدرات والمهارات الَّتي جعلَتْهم يحكمون الأرض في ذلك الزَّمان، ودلَّ على ذلك طلبهم الخلودَ، والرّابع: ما جاءهم من الآيات البيِّنات التي يُؤمن بها المُنصِفون وأهل الاستقامة والقلوب السَّليمة.

إيثارُ لفظ ﴿ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

تكذيبُ ما جاء من عند الله من التَّشريعات والأوامر والنَّواهي

أخبر البيانُ الحكيم عن قوم هودٍ أنَّهم كذَّبوا المرسلين؛ لأنَّهم وإن كذَّبوا هودًا فحسب فإنَّ تكذيبَهُ في المعنى يتضمَّن تكذيب غيره؛

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 164.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 164.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 145.
(4) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 145.

لأنَّ طريقةَ معرفةِ الرُّسل لا تختلف، فمن حيثُ المعنى حكى عنهم أنَّهم كذَّبوا المرسلين[1]، بمعنى: أنَّهم كذَّبوا ما جاء من عند اللّه من التَّشريعات والأوامر والنَّواهي، فهم قد كذَّبوا المبدأ الأوَّل، الذي هو التَّصديقُ بالوحي من السَّماء، ثمَّ إنَّهم قد تحمَّلوا آثام جميع الأمم بعدهم ممَّن كذَّب بالرِّسالة السَّماويَّة؛ لأنَّهم قدَّموا النموذج السَّيِّئ بعد قوم نوح في تاريخ الرِّسالات كُفرًا وإعراضًا، ولو أنَّهم آمنوا؛ لوصلت أخبارهم إلى النّاس من بعدهم، ولأصبحوا نموذجًا يُحتذى به في الإيمان والتَّصديق، باعتبار أنَّهم آمنوا مع ما كان عندهم من القوَّة والمنعة، ولعلَّ ما يُذكر في هذا الصَّدد ما جاء في قصَّة قوم يونس؛ إذ حاججَ اللّهُ بهم الأقوامَ كلَّها، فقال: ﴿فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ءَامَنَتۡ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ ٩٨﴾ [يونس: 98].

سِرُّ التَّعبيرِ بالجمعِ ﴿ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ بدلَ المُفرَدِ:

كـذَّبـتْ عـادٌ رسـالـةَ هـودٍ ورسالةَ نوحٍ من قبله

قوله: ﴿كَذَّبَتۡ عَادٌ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ شبيهٌ بنظيره في قصَّة نوح عليه السلام سواء، مع اختلاف أنَّ عادًا كذَّبوا رسولهم هودًا عليه السلام، وكذَّبوا كذلك رسالة نوح؛ لأنَّ هودًا وعظهم بمصير قوم نوح في آية: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ قَوۡمِ نُوحٖ وَزَادَكُمۡ فِي ٱلۡخَلۡقِ بَصۜۡطَةٗ﴾ [الأعراف: 69].

بلاغةُ فصلِ جملةِ ﴿إِذۡ قَالَ﴾:

بيانُ ما جاء في خطاب هود عليه السلام لقومِهِ

جملة: ﴿إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾، فُصِلَت عن قوله: ﴿كَذَّبَتۡ عَادٌ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾؛ إذ إنَّ الجملة الثّانية جاءت مُبيِّنة مُفصِّلة للجملة الأولى موضِّحة لها، فتكون الثّانية بمنزلة عطف بيان من الجملة الأولى، هذا وأنَّ الجملتين خبريّتان، فتكون العلاقة بينهما هي كمال الاتِّصال، ممّا يُقرِّر الفصل بينهما، فبيَّنت الآية أنَّ هودًا عليه السلام دعاهم إلى تقوى اللّه والرُّجوع عن التَّكذيب، والإصرار على الكفر.

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 520.

معنى ﴿إِذۡ﴾، وإيثار التَّعبير بفعل (القول) مادَّةً وصيغةً:

الاهتمامُ الكبير بما قاله هود عليه السلام

معلوم أنَّ ﴿إِذۡ﴾ ظرفٌ للمضيِّ في أصل وضعها، وتفيد في قوله سبحانه: ﴿إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ هُودٌ﴾ معنى التَّعليل، فجاء بعدها بيانُ الجملة السّابقة ﴿كَذَّبَتۡ عَادٌ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾، فعلَّل ذلك الخبرَ بأنَّ اللّه قد أرسل إليهم رسولًا منهم، فاستكبروا، وكذَّبوه.

وتُستخدمُ أفعالُ القول في سياق ذِكْر أنَّ فلانًا قال ما سيأتي؛ لفائدة ربط السَّرد بالحوار، واستعمال صيغةِ الماضي؛ لارتباطِه بفعل ماضٍ سابقٍ، هو قول قومِه، والتَّصريح بالقول دليلٌ على العناية بمضمون ذلك القولِ، فهو كالنَّصِّ المنقول تمامًا؛ إذ يُعلم أنَّ هودًا عليه السلام، قال هذا القول كما ورد في النَّصِّ.

غرضُ تقديمِ الجار والمجرور ﴿لَهُمۡ﴾:

قُدِّم الجارُّ والمجرور: ﴿لَهُمۡ﴾ على ﴿أَخُوهُمۡ﴾، في قوله: ﴿إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ هُودٌ﴾ لفائدة التَّخصيص، أي: قصرُ قول أخيهم عليهم؛ لأنَّهم المَعنيّون بهذه الرِّسالة.

سِرُّ الإضافةِ في ﴿أَخُوهُمۡ﴾، وإيثار لفظ الأُخوَّة:

فائدةُ إطلاق الأخوَّةِ تشويقٌ للإيمان

آثرَ السّياقُ القرآنيُّ استعمالَ كلمةِ ﴿أَخُوهُمۡ﴾ بدلًا من قوله: (نبيُّهم) أو (رسولُهم)؛ لأنَّه كان منهم، من ذلك قول العرب: (يا أخا بني تميم) يريدون: يا واحدًا منهم[1]، ثمَّ إنَّ فائدتها - مع أنَّه رسول اللّه، وهم في العموم غيرُ مؤمنين بالرِّسالة - هو ترغيبُهم بالإيمان، وتشويقهم إلى كسب رضاء اللّه سبحانه، وفائدةٌ أخرى هي أنَّ كلَّ نبيٍّ يأتي من أصل قومه، فيكون عالمًا بطبائع مجتمعهم، قادرًا على دعوتهم بما يُناسبهم، ويكون ذلك حُجَّةً عليهم أنَّ الذي أُرسل إليهم هو قريبُهم أو واحدٌ منهم، ولو كان غريبًا عنهم؛ لأشكلت عليه دعوتُهم والتَّوفيق في إنذارهم.

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 520.

ومسألة أخرى: هي أنَّ إرسال نبيٍّ منهم هو بمنزلة شهادة من عندهم: أنَّ هذا الرَّجلَ هو على أعلى درجاتِ الأمانة والصِّدق والأخلاق؛ إذ لولا ذلك؛ لأنكروا عليه رسالتَهُ لهوانه في مجتمعه.

معنى ﴿أَلَا﴾ ودلالتها في ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾:

تكـرارُ أسلـوبِ الدَّعوة عند هودٍ عليه السلام

همزة ﴿أَلَا﴾ في قوله: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ للاستفهام، وإن احتملت أن تكون للتَّحضيض، ودخول الهمزة على (لا) نقلتها من النَّفي إلى الإثبات، وفي معناها إنكارُ هودٍ عليه السلام فجورَهم وتركَهم تقوى اللّه.

دلالةُ التَّعبيرِ بالتَّقوى مادَّةً وصيغةً:

التَّقوى هي حصيلة الإيمان الصادق باللّه تعالى

قُدِّم قولُه تعالى: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ على جميع كلام هود عليه السلام، ودلَّ الفعل المُضارع ﴿تَتَّقُونَ﴾ على الحال والاستقبال، فدعاهم إلى تقوى اللّه التي هي حصيلةُ الإيمان الصّادق باللّه تعالى، وإنَّما قدَّم الأمر بتقوى اللّه تعالى على الأمر بطاعته؛ لأنَّ تقوى اللّه علَّةٌ لطاعته، فقدَّم العلَّةَ على المعلول[1].

غرضُ حذفِ مُتعلِّق الفعل ﴿تَتَّقُونَ﴾:

تقوى اللهِ هي مطلبُ المُرسلين

في قوله: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ حُذِفَ مُتعلِّقُ فعل التَّقوى لما سبق في دعوته إيّاهم لعبادة اللّه وحده من تَكرار الإنذار والوعيد من عذاب اللّه وسخطه، فإنَّما التَّقوى تكون من اللّه سبحانه؛ إذ عُلِمَ ذلك عندهم بالضَّرورة.

بلاغةُ الفصلِ والتوكيد في قوله: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾:

الرِّسالةُ هي مقتضى طلب تقوى الله سبحانه

قولُ هود عليه السلام: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾، هو جملة خبريَّة فُصِلت عن الجملة الإنشائيَّة في قوله: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾، وسبب الفصل كمالُ الانقطاع بينهما؛ وذلك لاختلاف الجُملتَيْن خبرًا وإنشاءً، لفظًا ومعنًى، أمّا سرُّ التَّوكيد في قوله: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾؛ فلأنَّ المُخاطَبين في مقام الشّاكِّ بالرِّسالة، فأُكِّد بـ (إنَّ).

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 521.

غرضُ تقديمِ ﴿لَكُمۡ﴾ على خبر إنَّ ﴿رَسُولٌ أَمِينٞ﴾:

أهمُّ وصفٍ يوصف به الأنبياءُ أنَّهم (الأمناء)

أفاد تقديمُ الجارِّ والمجرور ﴿لَكُمۡ﴾ التَّخصيص، فقصر إرسالَ اللّه له عليهم؛ اهتمامًا بشأنهم، وطلبًا لإيمانهم وميل قلوبهم إلى ذلك، وهو توكيدٌ آخرُ يدلُّ على ما علمه الرَّسولُ من حالِ إنكار قومِهِ لرسالتِهِ.

سِرُّ تقييد ﴿رَسُولٌ﴾ بوصف ﴿أَمِينٞ﴾:

الأمانة أهمُّ صفات الرُّسلِ عليهم السلام

في قوله: ﴿رَسُولٌ أَمِينٞ﴾ ذُكِرَ أهمُّ وصفٍ يُعرف به الأنبياء في أقوامهم، فرسولُ اللّه ﷺ كان يُعرف في قومه بالصّادق الأمين، وهي صفة الدُّعاةِ كذلك إلى دين اللّه من بعد الرُّسل، فإنْ لم يكن أمينًا في إيصال الرِّسالة؛ فحتمًا سيطرأُ عليها التَّبديل والتَّحريف، وإيصالُ الرِّسالات السَّماويَّة من أخطر الأمانات وأعظمها.

دلالةُ العطفِ بالفاء في قوله: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾:

التَّفريعُ بالفاء في قوله (فاتَّقوا اللّهَ)

قوله: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ الفاء للتَّفريع[1]، وفائدة التَّفريع عمومًا أنْ يَقصِدَ المُتكلِّمُ وصفًا ما، ثمَّ يُفرِّعَ منه وصفًا آخَرَ يَتعلَّقُ بالمَوْصوفِ، يَزيدُه تَأكيدًا؛ ففرَّع هُنا على ذِكْر الرِّسالة والأمانة تقوى اللّه وطاعته.

سرُّ تكرار الأمر بالتَّقوى:

تقوى الله في كلِّ أمور الحياة

كَرَّر هودٌ الأمر بالتَّقوى ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾؛ لأنَّه في الأول أراد: ألا تتَّقون مخالفتي، وأنا رسول اللّه، وفي الثّاني: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ مخالفتي، ولستُ آخذًا منكم أجرًا، فهو في المعنى مختلفٌ، ولا تكرار فيه، وقد يقول الرَّجُل لغيره: ألا تتَّقي اللّه في عقوقي، وقد ربَّيتك صغيرًا، ألا تتَّقي اللّه في عقوقي، وقد علَّمتك كبيرًا[2].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 165.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 520 - 521.

بلاغةُ عطف الطّاعة على التَّقوى:

في قوله: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ عُطفت الطاعة على التَّقوى هُنا؛ لأنَّ تقوى الله تأتي مع الإيمان به سبحانه، وهذا يقتضي تباعًا طاعة الرَّسول؛ ليُتبع الإيمان وتقوى الله بالعمل الذي شرَّعَهُ اللهُ للمؤمنين.

من ثمار التَّقوى طاعةُ الرَّسول والعمل بالرِّسالة

بلاغةُ العطفِ في قوله: ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ﴾:

جملة النَّفي الأولى ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ﴾ معطوفةٌ على جملة مقول القول: ﴿وَأَطِيعُونِ﴾، والواو حرفُ عطفٍ للجمع، فائدتُهُ بيانُ أنَّ نبيَّ الله هود عليه السلام بعد أن أمرهم بتقوى اللّه وطاعته، وهي بمجموعها نتيجةً للإيمان الصّادق بالله تعالى، فإنَّه ذكَّرهم هُنا بانتفاء أيِّ فائدة ماديَّة يمكن أن يحقِّقها رسول اللّه من دعوته هذه، فهو لا يسألهم على إيمانهم أجرًا.

الأنبياءُ يبذلون البلاغَ حقًّا لله دون أجرٍ تجرُّدًا لله وحدَهُ

معنى (ما) ودلالتها في ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ﴾:

(ما) في قوله: ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ﴾ لنفي الاستقبال، أي: إنَّني لن أسألكم على دعوتي لكم للإيمان أجرًا، فنفى سؤالَه أجرًا عن دلالته لهم إلى طريق الإيمان والصَّلاح كونها أعزَّ السُّبلِ الَّتي تبحثُ عنها المجتمعاتُ الإنسانيَّة؛ لِما تُحدثُهُ من تغييرٍ إيجابيٍّ في الحياة والمجتمع والأُمَّة.

أثرُ الإيمانِ على المجتمعاتِ الإنسانيَّةِ كبيرٌ جدًّا

غرضُ تقديم ﴿عَلَيۡهِ﴾ على المفعول به:

الجارُّ والمجرور ﴿عَلَيۡهِ﴾ في قوله: ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍ﴾ أفاد تخصيص القول إشارةً إلى الإيمان باللّه، وما ينتج عنه من تقوى لله وطاعة للرَّسول، بل ينتج عنه تغيُّرٌ شاملٌ للإنسان، ناتج ذلك عن تغيُّرِ القناعات والأفكار.

الإيمانُ بالله تغييرٌ شاملٌ للإنسان

معنى ﴿مِنۡ﴾ ودلالتها في: ﴿مِنۡ أَجۡرٍ﴾:

﴿مِنۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍ﴾ زائدةٌ لتوكيد النَّفي؛ مبالغةً في انتفاءِ أيِّ أجرٍ.

فائدةُ التَّعبيرِ بلفظ ﴿أَجۡرٍ﴾ مادَّةً وصيغةً:

خيرُ العمل ما كان ابتغاء وجه الله احتسابًا للأجر منه

قوله: ﴿مِنۡ أَجۡرٍۖ﴾ دلَّ على أنَّ ما يُقدِّمه الرَّسول لقومه هو أعظمُ شيءٍ في الوُجود، وفي الآية معنى الحاضرِ والمستقبل، فهو ﷺ لم يخبرهم بالرِّسالة ابتغاءَ طلب الأجر، وإنّما صرَّح بأنَّ أجره على الله، ثمَّ ورث ذلك الأمر العلماء والدُّعاةُ في كثير ممّا يبذلون من الجُهدِ ابتغاءَ مرضاته سبحانه، و﴿أَجۡرٍۖ﴾: الكراء على العمل، وهو الأجر والأجرة، وكان الخليل يقول: الأجر جزاء العمل، والفعل: أَجَرَ[1].

بلاغةُ أسلوب القصر:

قـلـبُ المفـهـومِ الـذي يـتـصـوَّرُهُ المُخاطَب

قوله تعالى: ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، في الآية قصرٌ بالنَّفي والاستثناء، فقصرُ الأجرِ على ربِّ العالمين، وهو قصرُ قلبٍ؛ إذِ اعتقد المخاطَب عكس الحُكم الذي تُثبته، فقد قلبَ المفهومَ الذي يتصوَّره أهل الضَّلال أنَّ المتحدِّث يريد منهم أجرًا، أو رياسة بينهم، فقال: ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

تصديرُ القَصَصِ بـ: ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ﴾:

الأجرُ على دعوةِ النّـاس للإيمان لـيـس لـه أجـرٌ إلّا الجنَّةَ خالدًا فيها

تصديرُ القَصَصِ بهذه العبارة فيها دلالةٌ على أنَّ البعثة مقصورةٌ على الدُّعاء إلى معرفة الحقِّ والطّاعة فيما يقرب المدعو إلى ثوابه، ويُبعده عن عقابه، وكأنَّ الأنبياءَ مُتَّفقون على ذلك، وإنِ اختلفوا في بعض التَّفاريع مُبرَّئينَ عن المَطامِع الدَّنيئة والأغراض الدُّنيويَّة[2].

معنى ﴿عَلَىٰ﴾ ودلالتها في ﴿عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾:

ضـمـانُ استحصال الأجر من ربِّ العالمين

تفيد (على) الاستعلاء، كما قال سيبويه: "أمّا (على)؛ فاستعلاءُ الشَّيءِ"[3]، وفي الآية: ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، فمعنى الاستعلاء في قوله: ﴿عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ بيانٌ لتمكُّنه من استحصال الأجر كاملًا من الله تعالى، ولو كان الأجرُ على النّاس؛ لما استحصل، فبيَّن أنَّ أجرَهُ

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 145.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: 1/ 62.
(3) سيبويه، الكتاب: 2/ 310.

مضمونٌ مستحصل بأضعاف مضاعفة، وعلى العموم يمكن أن يكونَ في الآية تضمينٌ؛ إذ المعنى: من ربِّ العالمين، فالأجرُ يكون من اللّه سبحانه، فضمَّن ﴿عَلَىٰ﴾ معنى (من)؛ ليدلَّ على قضيِّتين: الأولى: أنَّ اللّه تكفَّل وضَمِنَ للرَّسول أجره، وهذا معنى ﴿عَلَىٰ﴾، والثّاني: أنَّ أجره قادمٌ من عند اللّه سبحانه، وهذا معنى (من).

إيثارُ التَّعبيرِ بالرُّبوبيَّة ودلالته:

ما جاء به الأنبياء من الهداية هو أعظمُ ما يمكن أن يناله إنسانٌ في الحياة

إيثارُ التَّعبيرِ بالرُّبوبيَّة لمناسبة ذِكْر الأجر على الأعمال، فالرَّبُّ هو الخالق والرَّزّاق، وهو المُتكفِّل بأجر النّاس على أعمالهم، وما أجرُ الرَّسول أو الدّاعي إلى الإيمان إلّا الجنَّةُ خالدًا فيها، وما جاء به الأنبياء من هداية النّاس إلى الإيمان والتَّوحيد، ونبذ الشِّرك والطُّغيان: هو أعظمُ ما يمكن أن يناله إنسان في الحياة.

سرُّ إضافة الرَّبِّ إلى لفظ ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾:

اللّه خالق العالمين ومُربّيهم

في قوله: ﴿عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أُضيف الرَّبُّ إلى لفظ ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، بمعنى: أنَّه خالقهم ورازقهم ومُربِّيهم ومُقدِّر أمورهم بما يُحدث الانسجام الكونيَّ في العلاقات بين المخلوقات من الأحياء والجوامد.

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّة:

الرَّسول والنَّبي:

الرَّسول مبعوث برسالة، والنَّبي دون رسالة

الفرقُ بين النَّبيِّ والرَّسول في الإسلام: أنَّ الرَّسول بعثه اللّه برسالة وشرعٍ جديد، أمّا النَّبيُّ؛ فهو الذي نَزَلَ عليه الوحي من اللّه، ليدعو النّاس إلى عبادة اللّه على شريعة نبيٍّ سابق، فقوله في الآية: ﴿كَذَّبَتۡ عَادٌ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾، دلَّ على تكذيب الرِّسالات السَّماويَّة، التي أوحاها اللّه إلى الرُّسل؛ لأنَّها كُلَّها دعوتها واحدة إلى الإيمان باللّه وحده، وتقوى اللّه وطاعة الرَّسول فيما أمر، فكلُّ رسولٍ نبيٌّ، وليس العكس.

الأجر والمال:

الأجرُ قد يكون مالًا أو غيره

الأجرُ: عِوَض العمل والانتفاع، أو ما يُعطَى مقابلَ شيءٍ، ويكون الأجرُ على قَدْر المشقَّة، أمّا المالُ؛ فهو العوضُ عن القيام بعمل يُعطي الأجير مالًا أو عوضًا مُتَّفقًا عليه، فالأجر قد يكون مالًا أو غيره.

﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ۝١٢٨ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ۝١٢٩ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ۝١٣٠ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١٣١﴾ [الشعراء: 128 - 131]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

بعد دعوةِ هودٍ قومَهُ ذكَّرهم بما هم فيه من النِّعمة، ووبَّخهم على ترفهم وبطشهم

بعد أن دعا نبيُّ اللّهِ هودٌ قومَهُ إلى الإيمان، وأمرهم بتقوى اللّه؛ ناسب أن يلفت أنظارهم إلى ما هم فيه من النِّعمة، ويوبِّخَهم على ما هم فيه من التَّرف والعبث بهذه النِّعمة، وبطْشِهم بالنّاس وتعاليهم على غيرهم، فكرَّر عليهم دعوته لهم بتقوى اللّه وطاعة رسوله.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَتَبْنُونَ﴾: (بني) أصلٌ واحدٌ، وهو ضمُّ الشَّيءِ، بعضُهُ إلى بعض، تقولُ: بَنَيْتُ البِناءَ أَبنيهِ[1]، والبِناءُ: المَبْنِيُّ، والجَمعُ أَبْنِيَةٌ، وأَبْنِياتٌ جمعُ الجَمعِ[2]، والبَنّاءُ: مُدَبِّرُ البُنْيان وصانِعُهُ، والبُنْيانُ: الحائطُ، وأَبْنَيْتُ الرَّجلَ: أَعطيتَه بِناءً أَو ما يَبْتَني بِهِ دارَه[3]، والمُراد بالبِناءِ في الآية: ما يُرفَعُ سُمكُهُ على الأَرضِ للاتِّقاءِ والمفاخرة[4].

2) ﴿رِيعٍ﴾: (ريع) أصلٌ يدلُّ على الارتفاعِ والعُلوِّ، الرِّيعُ: العُلُوُّ من الأَرْض حَتَّى يمتَنع أَن يسْلك، والجمع ريوع وأرياع[5]، ومنه قولُهم: كم رَيْعِ أَرْضُك؟ أَيْ: كم ارْتِفاع أَرضك؟ والرِّيعُ أيضًا: الفَجُّ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بني).
(2) الراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (بنى).
(3) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (بنى).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 167، و24/ 190.
(5) ابن دريد، جمهرة اللغة، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (ريع).

والطَّريق المنفرج في الجبال خاصَّةً[1]، والرَّيْعُ كذلك: النَّماءُ والزّيادَةُ[2]، وأمّا المُرادُ به في الآية؛ فالمكان المُرتفع من الأرض أو الجَبَل المُرتفع[3].

3) ﴿ءَايَةً﴾: (أيي) أصل واحد، وهو النَّظَرُ[4]، ومن معانيها: بقاء الشيء في مكانه شاخصًا مجسّمًا علامةً لشيء[5]، و﴿ءَايَةً﴾ هنا بمعنى العَلَم يَهتدي به المارّة، والآية: البنيان، قال ابن عباس: "﴿ءَايَةً﴾: علمٌ"، وقال مجاهد: "أبراج الحمام"، وقال النقّاش وغيره: "القصور الطّوال"[6]، وكان بناؤها لِلْعَبَث واللّهو؛ لأنهم كانوا يهتدون بالنجوم في أسفارهم فلا يحتاجون إليها، وقيل: المراد بها القصور المشيّدة مرفوعة البناء لاتخاذها للعبثّ بالمارّة[7].

4) ﴿تَعْبَثُونَ﴾: (عبث) أَصلٌ صَحيحٌ واحِدٌ، يَدُلُّ على الخَلطِ[8]، وأصلُ العَبَثِ اللَّعِبُ بما لا يَعنيْه، وليسَ من بالِه، وعَمَلُ ما لا فائدَةَ فيه من الأعمالِ، وهو مصدرُ الفِعْلِ عَبِثَ بالشَّيءِ يَعْبَثُ عَبَثًا، فهو عابِثٌ، والعَبْثَةُ: المَرَّةُ الواحدةُ[9]، والمُرادُ بالعَبَثِ في الآيةِ: العملُ الَّذي لا فائدَةَ ولا نَفْعَ فيه[10].

5) ﴿مَصَانِعَ﴾: (صنع) أَصْلٌ صَحيحٌ واحِدٌ، وهو عَمَلُ الشَّيْءِ صُنْعًا[11]، والصُّنْعُ إجادَةُ الفِعْلِ، فكُلُّ صُنْعٍ فِعْلٌ، ولَيْسَ كُلُّ فِعْلٍ صُنْعًا[12]، والصِّناعَةُ: حرفةُ الصّانِع، وعمله الصَّنْعَةُ[13]، والمصانع: ما يَصْنَعُهُ العِباد من الأبنية والآبار والأشياء[14]، وهي مَصْدَرٌ ميميٌّ وُصِفَ به للمُبالغةِ، والمُراد بها في الآية: الجوابي المحفورَةُ في الأرضِ، وقيلَ: إِنَّها قُصورٌ عظيمة[15].

---

(1) الأزهري، تهذيب اللغة: (ريع).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (ريع).
(3) طنطاوي، التفسير الوسيط: 10/ 265.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أيي).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي: (إي).
(6) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 4/ 238.
(7) درويش، إعراب القران: 7/ 104.
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عبث).
(9) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللغة، والأزهري، تهذيب اللغة: (عبث).
(10) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 167.
(11) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صنع).
(12) الراغب، المفردات: (صنع).
(13) الجوهري، الصحاح: (صنع).
(14) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (صنع).
(15) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/ 229.

6) ﴿تَخۡلُدُونَ﴾: (خلد) يدلُّ على الثَّبات المديد، دامَ أَمْ لَمْ يَدُمْ[1]، والخُلود: هو تبرّي الشَّيء من اعتراض الفسادِ، وبقاؤهُ على الحالة التي هو عليها، وكلُّ ما يتباطأ عنه التَّغييرُ والفساد تصفهُ العربُ بالخُلود، وخَلَد يَخْلُد خُلْدًا وخُلودًا: بَقى وأقام[2]، ومنه المُرادُ بهِ في الآية، وهو طولُ المُكْث.

7) ﴿بَطَشۡتُم﴾: (بطش) يدلُّ على أَخْذِ الشَّيءِ بِقَهْرٍ وغلَبَةٍ وقوَّةٍ[3]، والبَطْش: التَّناوُلُ بِشِدَّةٍ عِنْدَ الصَّوْلة، والأَخْذُ الشديدُ في كُلِّ شَيْءٍ بطشٌ، بَطَشَ يَبْطُشُ، ويَبْطِشُ بَطْشًا[4]، والبَطْشُ: الضَّربُ عند الغضبِ بسوطٍ أو سيفٍ، وهو المُرادُ به في الآيةِ الكريمة[5].

8) ﴿جَبَّارِينَ﴾: (جبر) يدُلُّ على العُلوِّ والقهرِ، فالجَبّارُ: الَّذي طالَ، وفاتَ اليَدَ، يُقالُ: فرَسٌ جَبّارٌ، ونَخْلَةٌ جَبّارَةٌ[6]، والجَبّارُ من المُلوكِ: العاتي والعَظيمُ في نَفْسِه الذي لا يَقْبَلُ مَوْعِظَةَ أَحَدٍ[7]، والجبّار أَيْضًا: القاهِرُ المُسَلَّط، والجبّارُ كذلك: اللّه تبارك وتعالى، القاهِرُ خَلْقَهُ على ما أَرادَ[8]، والمقصود بالجَبّارِ في الآية: الشَّديدُ بغيرِ الحَقِّ، فمعنى: جبّارين، أي: قتّالينَ بغيرِ حَقٍّ.

❁ المَعْنى الإِجْماليُّ:

حُبُّ الدُّنيا رأسُ كلِّ خطيئةٍ، وعنوانُ كلِّ كُفرٍ ومَعصيةٍ

قال هود عليه السلام لقومِه: أَتُشيِّدون بكلِّ مكانٍ عالٍ من أرضكم بناءً شامخًا، تتفاخرون به، وتعبثون بإقامته دون أن تكونوا في حاجة إليه، أفلا فكَّرتم في أُخراكم، فآمنتم بربِّكم، وعملتم لمرضاته؛ لأنَّكم إليه

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مكث).
(2) ابن دريد، جمهرة اللغة، وابن سِيدَه، المُحكَم: (مكث).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بطش).
(4) الخليل، العين، وابن منظور، لسان العرب، والفيروزابادي، القاموس المحيط: (بطش).
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 168.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جبر).
(7) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن عباد، المحيط في اللغة: (جبر).
(8) الأزهري، تهذيب اللغة: (جبر).

صائرون، وعلى عقائدكم مُحاسبون، وتتَّخذون الحصون والقلاع، كأنَّكم مُخلَّدون في الدُّنيا، وإذا أخَذْتُم النّاسَ، وقَهَرْتُموهم، فإنَّكم تُفرِطون في أذيَّتِهم عُدوانًا وظُلمًا، كأنْ يَقتُلوهم، أو يَضرِبوهم بقَسوةٍ بغيرِ حَقٍّ، فاتَّقوا سَخَطَ اللّهِ وعِقابَه، وأطيعوني فيما آمُرُكم به، وأنهاكم عنه، فقد بانَ لكم صِدقي(1).

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الفصلِ في قوله: ﴿أَتَبۡنُونَ﴾:

إلفاتُ النَّظرِ إلى ما هم عليه من الضَّلال

قوله: ﴿أَتَبۡنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً﴾؛ فبين هذه الجملة والتي سبقتها كمالُ الانقطاع؛ لاختلاف الجملتَيْن خبرًا وإنشاءً، لفظًا ومعنًى، وفائدةُ هذا الفصل الانتقالُ المفاجئُ بالخطاب من الدَّعوة إلى الإيمان وتقوى اللّه وطاعة الرَّسول إلى توبيخهم على ما يفعلون في واقع حياتِهم، وما يحجبهم من الأعمال عن الإيمان، ويجعلهم في عداد المتكبِّرين المعارضين للرِّسالة والإيمان؛ إذ ألفت نظرهم إلى ما هم عليه من الكِبْر والضَّلال.

غرضُ الاستفهامِ: ﴿أَتَبۡنُونَ﴾:

الانشغالُ بزخرفِ الحياةِ والإعراضِ عن الإيمانِ

قوله تعالى: ﴿أَتَبۡنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ﴾ استفهامٌ مجازيٌّ على جهة التَّوبيخ(2)، و(الرّيع) المرتفع من الأرض، لما في الأبنية العالية من رمزيَّة زخرف الحياة الدُّنيا، قال تعالى: ﴿وَلَوۡلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلۡنَا لِمَن يَكۡفُرُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ لِبُيُوتِهِمۡ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيۡهَا يَظۡهَرُونَ ٣٣ وَلِبُيُوتِهِمۡ أَبۡوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيۡهَا يَتَّكِـُٔونَ ٣٤ وَزُخۡرُفًاۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ﴾ [الزّخرف: 33 - 35]، وهم في الوقت ذاته يجعلون الإيمان وراءَ ظُهورِهم.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 613، والمراغي، تفسير المراغي: 19/ 86، ومجمع البحوث، التفسير الوسيط: 7/ 1608.
(2) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 4/ 238.

إيثارُ التَّعبيرِ بالبناءِ مادةً وصيغةً:

إنكارُ ما يبنونه من الصُّروح عبثًا وغرورًا

في قوله: ﴿أَتَبۡنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ﴾ آثر البدءَ بالبناء توبيخًا لهم مع أنَّ البناء صورة من صور الحضارة والرُّقيِّ عند الأمم، وما ذاك إلّا لأنَّهم قد وضعوا الشَّيء في غير محلِّه، فكان بناؤهم للتَّرف والكِبْر على النّاس وإظهار القوَّة فحسب، قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ﴾ [فصلت: 15]، ممّا جعل هذا البناء الذي هو آيةٌ في الشُّموخ والعظمة صادًّا لهم عن قَبول الحقِّ؛ لأنَّهم رأوا أنفسهم أشدَّ قوَّةً من النّاس والمخلوقات جميعًا، وأنَّه لا قوَّة يمكنها أن تعترضهم، فردَّ اللّه تعالى عليهم بقوله: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۖ﴾ [فُصِّلت: 15]، وقوله: ﴿أَتَبۡنُونَ﴾، فالباء والنّون والياء أصلٌ واحدٌ، وهو بناء الشَّيء بضمِّ بعضِه إلى بعض، تقول: بنيتُ البناءَ أبنيه، وتُسمّى مكَّةُ: البَنِيَّةَ[1]، وجاءت صيغة ﴿أَتَبۡنُونَ﴾ فعلًا مضارعًا، أفاد التَّجدُّد مع الزَّمن، فهُم لا يتوقَّفون عن إنجاز أبنيتهم التي ينجزونها عبثًا.

معنى الباء في ﴿بِكُلِّ﴾، ودلالة العموم:

كثرةُ أبنيتِهم الشّاهقة ممّا لا طائل منه

الباء في قوله: ﴿أَتَبۡنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ﴾ للإلصاق، فـ"باء الجرِّ إنَّما هي للإلزاق والاختلاط"[2]، ودلَّ (كل) على العموم، فأفاد ذلك أنَّهم لا يتركون مرتفعًا إلّا ويبنون عليه بناءً عظيمًا، وصرحًا هائلًا يصلح أن يكون آيةً لِمَنْ يراها، و(كل) مُستعملٌ للكثرة، أي: في الأرياع المشرفة على الطُّرق المسلوكة، والعبث: العمل الذي لا فائدةَ فيه ولا جدوى منه.

سرُّ إيثار اللَّفظ الفريد ﴿رِيعٍ﴾ مادَّةً وصيغةً:

اتَّخذوا في طرقهم أعلامًا طوالًا شيَّدوها عبثًا

في قوله: ﴿أَتَبۡنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةٗ﴾ الرّيع هو المكان المرتفع الذي يبدو من بعيدٍ[3]، ومنه قولهم: كم ريع أرضك؟ وهو ارتفاعُها، والآية:

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: 1/ 302.
(2) سيبويه، الكتاب: 2/ 304.
(3) الرّاغب، المفردات: 372.

العلمُ، وكانوا ممَّن يهتدون بالنُّجوم في أسفارهم، فاتَّخذوا في طرقهم أعلامًا طوالًا، فعبثوا بذلك؛ لأنَّهم كانوا مُستغنين عنها بالنُّجوم(1)، وهذا اللَّفظ الفريد كاشفٌ عمّا كانوا فيه من ترفٍ مُتفرِّدٍ ونعيمٍ.

غرضُ تنكير لفظ ﴿ءَايَةً﴾، ومُرادُها:

الآيةُ أُريدَ بها أبراجُ البناءِ عمومًا

أفاد التَّنكيرُ لـ ﴿ءَايَةً﴾ في قوله: ﴿بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً﴾ التَّفخيمَ والتَّعظيمَ، وجملةُ ذلك أنَّه المكانُ المُشرف، وهو الذي يتنافس البَشَرُ في مبانيه.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالفعلِ ﴿تَعۡبَثُونَ﴾:

كانت أعمالُهم العظيمةُ لغاياتٍ عابثةٍ

أفاد الفعل المضارع ﴿تَعۡبَثُونَ﴾ التَّجدُّدَ والاستمرار؛ إذ كانت غايتهم - كما يبدو - العبثَ في كثيرٍ من إنجازاتهم التي امتازت بطابع العظمة والجِدِّ، وغاية الفائدة، لكنَّهم أقاموها عبثًا، وما ذاك إلّا لِما آتاهم الله من القوَّة وضخامة الأجساد، وأمدَّهم به من البنين والأنعام.

الكنايةُ عمّا لا جدوى منه في جملة ﴿ءَايَةً تَعۡبَثُونَ﴾:

تجاوزُ قومِ عادٍ الحُدودَ وإفراطِهم في التَّرف والعبث

رغم أنَّ ذلكَ البناء على المرتفعات يُعدُّ من أصعب أنواع البناء وأخطرها؛ إلّا أنَّ قومَ عاد اتَّخذوه للَّهو والعبث، و(الآية) العلم، وفي تفسيرها وجوهٌ، منها: أنَّهم كانوا يبنون أماكن عاليةً يعبثون فيها بمَن يمرُّ في الطَّريق إلى هود عليه السلام، وقيل: كانوا يبنونها تفاخرًا، وقيل: إنَّهم كانوا يهتدون بالنُّجوم في أسفارهم، فاتخذوا في طريقهم هذه الأعلامَ، فكان ذلك عبثًا؛ لأنَّهم كانوا مستغنين عنها، وثمَّة رأيٌ يقول: إنَّها بروجُ الحمام(2)، وفي كلٍّ فقد كان قولُهُ: ﴿ءَايَةً تَعۡبَثُونَ﴾ كنايةً عمّا لا جدوى منه من الأعمال العظيمة، وعن تجاوز الحدودِ المعقولة.

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 330.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 522.

سرُّ التَّقييدِ بجملة الحال في: ﴿تَعۡبَثُونَ﴾:

جملةُ: ﴿تَعۡبَثُونَ﴾ في محلِّ نصبٍ حالٌ من فاعل ﴿أَتَبۡنُونَ﴾، وهي حال مقدَّرة على بعض الأقوال[1]، فيكون حالكم، وأنتم تبنون عبثًا، ولعلَّ هذا الأمرَ من طباع التَّكبُّر عند البشرِ، وهو اللُّجوء إلى البناء عبثًا؛ ليظهر ترفُّهٌ للنّاس وقدرته على البناء، ثمَّ الإزالة إن اقتضى ذلك، دون أن يعبأَ بالجهد والطّاقة التي بُذلت في هذا الإنشاء، ولو كانوا مؤمنين؛ لما فعلوا ذلك.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالطّباق الخفي في: ﴿ءَايَةٗ تَعۡبَثُونَ﴾:

إذا خلت الأعمال من مقاصد إرضاء الله تعالى

قوله: ﴿ءَايَةٗ تَعۡبَثُونَ﴾؛ جمعت بين الأمر العظيم ﴿ءَايَةٗ﴾ والعبث الرَّخيص ﴿تَعۡبَثُونَ﴾، فيكون بين (الآية) و(العبث) طباقُ إيجابٍ، فكان عملهم ذلك تجاوزًا للحدود وعمل ما لا جدوى منه، ولمّا كان إقامة الدَّليل على قوَّتهم بمثل ذلك قليل الجدوى عند التأمُّل، قال: ﴿تَعۡبَثُونَ﴾، والعاقل ينبغي له أن يصونَ أوقاته النَّفيسة عن العبث الذي لا يكون سبب نجاتهم، وكيف يليق ذلك بمَنِ الموت من ورائه[2]، هذه الأعمال الحسنة انقلبت عليهم مَذمَّة؛ لأنَّ فاعليها طلبوها كِبرًا وعُلوًّا في الأرض: ﴿وَقَالُواْ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ﴾ [فصلت: 15]، وأنفقوا فيها الجهدَ والمالَ دون فائدةٍ تُذكر.

بلاغةُ العطفِ في قوله: ﴿وَتَتَّخِذُونَ﴾:

الجمعُ بين مُختلفِ الأعمالِ البنائيَّة

في قوله: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ﴾؛ دلَّ حرفُ العطف الواو على الجمع، فجمعَ بين البناء والتَّطاول به والتَّفاخر في جانبٍ مع أعمال أخرى، منها اتِّخاذُ المصانع، فقال: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ﴾، فدلَّ اتِّخاذ المصانع على كثير من اختراعاتهم الصناعيَّة، وأهمُّها أحواضُ جمع الماء وتخزينه، وما يُعرف اليوم بحصاد المياه، طلبًا للخلود في هذه الحياة.

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 107.

(2) البقاعيّ، أنوار التّنزيل: 5/ 378.

دلالةُ التَّعبيرِ بالمضارع ﴿وَتَتَّخِذُونَ﴾:

رغبتُهم في بناء الحياة، وما يوحي بالقدرة على الخلود

في قوله تعالى: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ﴾ جاءَ فعلُ الاتِّخاذ مضارعًا لفائدة التَّجدُّد والاستمرار، وقد دلَّ على الرَّغبة في بناء الحياة وصناعةِ الوسائل التي توحي لهم بالقدرة على الخلود، والاتِّخاذ يدلُّ أيضًا على استثمار حالة موجودة في الطَّبيعة، كالأحواض والمنخفضات، في تصنيع ما يُفيد كخزن المياه في فترات الفيضان والشِّتاء، والاستفادة منها في فترات الجفاف والصيف.

سِرُّ اختيارِ لفظِ ﴿مَصَانِعَ﴾:

دلالـةُ المصانعِ عـلى كـثـيرٍ من اختراعاتـهـم أهمُّها حصادُ المياهِ

اختُلف في تفسير المصانع، فقيل: مآخذ الماء، وقيل: القُصورُ المُشيَّدة والحصون، وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ ترجون الخلود في الدُّنيا، أو تشبه حالكم حالَ مَنْ يَخلُدُ، وفي حرف أُبَيٍّ: (كأنَّكم)، وقُرِئ: (تَخْلُدون) بضم التّاء مُخفَّفًا ومُشدَّدًا[1]، "والمصانع: جمع مَصنع، وأصلُهُ (مَفعَل) مُشتقٌّ من (صَنَع)، فهو مصدرٌ ميمي وُصف به للمبالغة[2]، فقد بالغوا في استثمار الطَّبيعة من حولهم، وما ذاك إلّا من أفضال اللّٰه عليهم، لكنَّهم نظروا إلى أنفسهم، أنَّهم هم أهل القوَّة والقدرة حتّى حاكت في نفوسهم فكرةُ إمكانِ الخلود.

قـدرتُـهـم على تجميعِ المياهِ ثمَّ الاستفادةُ منها

ومصانعُ تجميع المياه من أصعب البنايات إنشاءً في المناطق الجافَّة وشبه الجافَّة في التُّربة الرَّمليَّة وما أشبهها، فكانت هذه المصانع كنايةً عن منظومات حصاد المياه، بتجميع المياه وخزنه، ثمَّ الاستفادة منه وقت الحاجة، وهذا ما عُلِمَ عن أحوالهم من كُتُبِ التَّفسير والنُّقول التاريخيَّة.

المقابلةُ في الجمع بين المرتفعات والمنخفضات:

الجمع بين المرتفعات والأبنية الشاهقة في قوله: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 331.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 167.

إفادةُ دلالةِ الشُّمول على تنوُّع أعمالهم وقدرتهم على فعل كلِّ ما يريدون

ءَايَةً تَعۡبَثُونَ﴾، وبين الأحواض والحُفر العميقة في قوله: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمۡ تَخۡلُدُونَ﴾، و(اتَّخذ) هنا بمعنى: عمل، أي: ويعملون مصانع[1]، ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ﴾، أي: تعملون مَصانِعَ، أي: مآخذَ للماء ومجاري تحت الأرض - كما روي عن قتادة - وفي رواية أخرى عنه أنَّها برِكُ الماء[2]، أي: أشياءُ بأخذ الماء، هي في إحكامها بحيث تأكل الدَّهرَ قوَّةً وثباتًا، فلا يبنيها إلّا من حاله حال الراجي للخلود، ولذلك قال: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَخۡلُدُونَ﴾[3]، والاتِّخاذُ هُنا اختلف عن البناء في الأولى؛ لأنَّ المناطق المنخفضة هي خزّانات طبيعيَّة للمياه، لكنَّهم يعملون على تحويرها وجعلِ مصبّاتٍ لها، فقال: ﴿وَتَتَّخِذُونَ﴾؛ لأنَّها موجودة في الطبيعة، مع الحاجة إلى تحويرها وهندستها بما يخدمُ منظومةَ تجميع المياه واستغلالها عند الحاجة، أمّا مع الأولى فاستعمل لفظ البناء؛ فقال: ﴿أَتَبۡنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ﴾؛ دلالة على إنشاء المباني، وهي غير موجودة في الطَّبيعة، وبين الأوَّل والثّاني مقابلة أفادت دلالة الشُّمول على أعمالهم الكثيرة في الطَّبيعة من حولهم، وقدرتهم على فعل كلِّ ما يحتاجون فيها.

معنى (لعلَّ) ودلالتها في ﴿لَعَلَّكُمۡ تَخۡلُدُونَ﴾:

تنوَّعت معاني (لعلَّ) هُنا في خدمة النَّص

الظّاهر أنَّ (لعلَّ) في قوله: ﴿مَصَانِعَ لَعَلَّكُمۡ تَخۡلُدُونَ﴾ على بابها من الرَّجاء، وكأنَّها تعليلٌ للبناء والاتِّخاذ، أي: الحامل لكم على ذلك هو الرَّجاء للخلود ولا خلودَ، أو يكون المعنى يشبه حالكم حال مَنْ يخلد، فلذلك بنيتم، واتَّخذتم[4]، ويمكنُ تلخيص معنى (لعلَّ) على أربعة أقوال: **الأوَّل:** أنَّها على بابها من الرجاء، والكلام

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 178.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 107.
(3) البقاعيّ، أنوار التّنزيل: 5/ 378.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 178.

تهكُّمٌ بهم، أي: أرجو لكم الخلودَ بسبب تلك المصانع[1]، **الثّاني**: أنَّها للتَّعليل، **الثّالث**: أنَّها للاستفهام على سبيل التَّوبيخ والهزء بهم، أي: هل أنتم تخلدون؟ وكون (لعلَّ) للاستفهام مذهبٌ كوفيٌّ، **والرّابع**: المعنى كأنَّكم خالدون، وظاهر ما ذُكر أنَّ (لعلَّ) هنا للتَّشبيه[2].

تَعدادُ المآخذِ على عادٍ قوم هودٍ:

تعدادُ أوصافِهم وأفعالِهم على سبيل الذَّمِّ

قوله: ﴿أَتَبۡنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةٗ تَعۡبَثُونَ ١٢٨ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمۡ تَخۡلُدُونَ ١٢٩ وَإِذَا بَطَشۡتُم بَطَشۡتُمۡ جَبَّارِينَ﴾، فالأوَّلُ إنَّما صار مذمومًا لدلالته؛ إمّا على السَّرف، أو على الخُيلاء، والثّاني: إنَّما صار مذمومًا لدلالته على الأمل الطَّويل، والغفلة عن أنَّ الدُّنيا دار ممرٍّ لا دار مقر، وثالثها: قوله: ﴿وَإِذَا بَطَشۡتُم بَطَشۡتُمۡ جَبَّارِينَ﴾؛ فبيَّن أنَّهم مع ذلك السَّرف والحرص؛ فإنَّ معاملتهم مع غيرهم معاملة الجبّارين، وحاصل الأمر في هذه الأمور الثَّلاثة أنَّ اتخاذ الأبنية العالية يدلُّ على حبِّ العلوِّ، واتِّخاذ المصانع يدلُّ على حبِّ البقاء، والجبّارية تدلُّ على حب التَّفرُّد بالعلو، فيرجع الحاصل إلى أنَّهم أحبوا العلوَّ وبقاءَ العلوِّ والتَّفرُّد بالعلوِّ، وهذه صفات الإلهية، وهي ممتنعةُ الحصول للعبد، فدلَّ ذلك على أنَّ حبَّ الدُّنيا قد استولى عليهم؛ بحيث استغرقوا فيه، وخرجوا عن حدِّ العبوديَّة، وحاموا حول ادِّعاء الرُّبوبيَّة، وكلُّ ذلك يُنبِّه على أنَّ حبَّ الدُّنيا رأسُ كلِّ خطيئة وعنوانُ كلِّ كفرٍ ومعصيةٍ.

مفهومُ الخلودِ مادَّةً وصيغةً:

قـوَّةُ أملِهم في الخلودِ

الخلود كنايةٌ عن الفترة الطَّويلة التي لا يُعلم حدٌّ لها، و(خلد) يدلُّ على الثَّبات والملازمة، فخلد يعني: أقام، وأخلدَ أيضًا، ومنه: جنَّةُ الخُلد[3]، والفعل المضارع في قوله: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَخۡلُدُونَ﴾ دلَّ على تجدُّد طلبهم وطول أملهم في الخلود.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 168.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 107.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: 2/ 207.

المجازُ في معنى الخلود:

الخلودُ في قوله: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَخۡلُدُونَ﴾ مجازيٌّ؛ لأنَّه معلومٌ أنَّهُ لا أحدَ يخلد في هذه الحياة الدُّنيا، ولكن أُريد بها الحياة الطَّويلة على سبيل المجاز العقليِّ بعلاقة الزَّمانيَّة، فذكر الخلودَ، وأراد الزَّمن الطَّويل، ويأتي معنى الخلود لفترة زمنيَّة طويلة بقصد استمرار حضارتهم؛ رجاءَ أن يخلدوا إلى آخر الزَّمان، وقيل في تفسير: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَخۡلُدُونَ﴾، أي: ترجون الخلودَ في الدُّنيا، أو: تشبه حالكم حال مَن يخلد[1].

بلاغةُ العطفِ في قوله: ﴿وَإِذَا بَطَشۡتُم﴾:

قوله: ﴿وَإِذَا بَطَشۡتُم﴾؛ الواو حرفُ عطفٍ يُفيد الجمعَ، فالرَّسولُ في معرض تَعداد ما أنكر عليهم من الأفعال والأفكار، وفائدة هذا التَّعداد إثبات الحُجَّة عليهم، أنَّهم استحقّوا من اللّه العذابَ؛ إن لم يؤمنوا، ويتَّقوا، ويُطيعوا.

معنى (إذا) هنا دون (إن):

بيانُ أنَّ بطشَهم بالنّاس كان كثيرَ الوقوعِ منهم

تُستعملُ (إنْ) في المعاني المحتملةِ والمشكوك في حصولها، أو الموهمة والنّادرة[2]، أمّا الأصل في (إذا)؛ فتكون للمقطوع بحصوله، وللكثير الوقوع، فقوله هنا: ﴿وَإِذَا بَطَشۡتُم بَطَشۡتُمۡ جَبَّارِينَ﴾ دلَّ على المُتيقَّن ببطشهم بالنّاس، وأنَّ ذلك مشهودٌ فيهم، ومعلومٌ ما سيكون نتيجةَ بطشهِم بالنّاس والضعفاء، وتَكرار حالة بطشِهم بالنّاس بلا رحمةٍ، فيُنْزِلون بهم سوءَ العذابِ.

إيثارُ التَّعبيرِ بالبطشِ مادَّةً وصيغةً:

البـطـشُ حـالـةٌ من ضروبِ الكِبْرِ والاستعلاءِ

البطشُ: الضَّربُ عند الغضب بسوطٍ أو سيفٍ[3]، ولكنَّه قال: (بطش) دون (ضرب) لدلالة المُفرَدَة على الإصرار في الإيذاء، فالبطشُ تناولُ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 331.
(2) ابن يعيش، شرح ابن يعيش: 9/ 4، والسيوطي، الإتقان: 1/ 149.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 168.

الشَّيء بصولة[1]، ولذلك فقد ناسب إتمام العبارة بقوله: ﴿بَطَشۡتُمۡ جَبَّارِينَ﴾، أي: وإذا أردتم البطشَ؛ بطشتم جبّارين، وهذا ممّا أحدثته قوَّتهم في نفوسهم من الكبر، والاستهانة بمصائرِ النّاس.

تكرارُ البطشِ مع اختلاف معناه:

حملُ البطش الأوَّل على الإرادة

قوله: ﴿وَإِذَا بَطَشۡتُم﴾، أي: (وإذا أردتم البطش)، وحُمِل على الإرادة لئلّا يتَّحدَ الشَّرط وجوابه، قال الحَسَنُ: بادَروا تعذيب النّاس من غير تثبُّتٍ ولا فِكرٍ في العواقب، فلمّا بيَّن أنَّ عملهم عملُ مَن لا يخاف الموتَ؛ أتبعه ما يدلُّ على أنَّهم لا يظنّون الجزاء، فقال: ﴿وَإِذَا بَطَشۡتُم﴾، أي: بأحدٍ، أخذتموه أَخْذَ سطوةٍ في عقوبةٍ ﴿بَطَشۡتُمۡ جَبَّارِينَ﴾، أي: غير مُبالين بشيءٍ من قتلٍ أو غيرهِ، قال البغويُّ: "والجبار الذي يضربُ، ويقتل على الغضب"[2].

سرُّ التَّعبيرِ بلفظ ﴿جَبَّارِينَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

بيانُ إفراطِهم في إيذاء الآخرين ظُلمًا وعُلوًّا

قوله: ﴿جَبَّارِينَ﴾ حالٌ من ضمير ﴿بَطَشۡتُم﴾ وهو جمع جبّار، والجبار: الشَّديد في غير الحقِّ، فالمعنى: إذا بطشتم؛ كان بطشُكم في حالة التَّجبُّر، أي: الإفراط في الأذى، وهو ظلم، قال تعالى: ﴿إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ ١٩﴾ [القصص: 19]، وشأنُ العقابِ أن يكون له حَدٌّ مناسبٌ للذَّنب[3] المُعاقب عليه، بلا إفراطٍ ولا تفريطٍ، فالإفراطُ في البطش استخفافٌ بحقوق الخلق.

المبالغةُ في الشَّرطِ في قوله: ﴿وَإِذَا بَطَشۡتُم﴾:

استيلاءُ حبِّ الدُّنيا والكِبْر على قلوب أهل الضَّلال

قوله: ﴿وَإِذَا بَطَشۡتُم﴾، أي: أردتم البطشَ بسوطٍ أو سيف ﴿بَطَشۡتُمۡ جَبَّارِينَ﴾ مُسلَّطين غاشمين بلا رأفة ولا قصد تأديب ولا نظر في

---

(1) الرّاغب، المفردات، (بطش).

(2) البقاعيّ، أنوار التّنزيل: 5/ 378.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 168.

العاقبة، وأوِّل الشَّرطُ بما ذُكِرَ؛ ليصحَّ التَّسبُّب وتقييد الجزاء بالحال لا يصحِّحه؛ لأنَّ المُطلق ليس سببًا للمُقيَّد، وقيل: لا يضرُّ الاتِّحاد لقصد المبالغة، وقيل: الجزائيَّة باعتبار الإعلام والإخبار، وهو كما ترى، ونظير الآية قوله: متى تبعثوها؛ تبعثوها ذميمةً[1]، ودلَّ توبيخه ﷺ إيّاهم بما ذَكَرَ من استيلاء حبِّ الدُّنيا والكِبر على قلوبهم، حتى أخرجهم ذلك عن حدِّ العبودية[2].

المقابلةُ بين البناءِ بعبثٍ والبطشِ بتجبُّرٍ:

جـمـعـوا المُتناقضاتِ من اللَّهو والعبثِ والبطش والتَّجبُّرِ

قوله: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم﴾ أعقب به موعظتهم على اللَّهو واللَّعب والحرص على الدُّنيا، بأنَّ وعَظَهُم على الشِّدَّة على الخلق في العقوبة، إذ كانوا متسلِّطين غاشمين بلا رأفةٍ ولا قصد تأديبٍ ونظرٍ في العاقبة[3]، وهذه مقابلةٌ دلَّت على عدم التَّوازن في العقول، فهم يبنون العلاماتِ لإرشاد السّابلة، ويصطنعون المصانع لإغاثة العِطاش، فكيف يُلاقي هذا التَّفكير تفكيرًا بالإفراط في الشِّدَّة على النّاس في البطش بهم[4]؟

بلاغةُ عطفِ قوله: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾، وفائدة التَّعبيرِ بالتَّقوى:

تـعـدادُ صفاتِ الألوهيَّة التي تلبَّسوا بها

جاءت دعوتُهم إلى تقوى الله بعد أن عدَّد عليهم ما تلبَّسوا به من الخطايا، فبناء الأبنية العالية تدلُّ على حبِّ العُلوِّ، واتِّخاذ المصانع رجاء الخلود يدلُّ على البقاء، والجبّارية تدلُّ على التَّفرُّد بالعلوِّ، وهذه صفات الإلهية، وهي ممتنعة الحصول للعبد، ودلَّ ذلك على استيلاء حبِّ الدُّنيا عليهم بحيث خرجوا عن حدِّ العبودية، وحبُّ الدُّنيا رأسُ كلِّ خطيئة[5]، فبعد أن وبَّخهم الرَّسول على أعمالهم،

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 107.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 107.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 145.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 168.
(5) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 179.

وما هم فيه من اللَّهو والتَّرف والكِبْر؛ عطفَ بقوله: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾، فأمرهم بتقوى اللّه وترْكِ هذه الأفعال، وطالبهم بالطّاعة ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ فيما أدعوكم إليه، فإنَّه أنفع لكم[1].

دلالةُ عطفِ الطّاعةِ على التَّقوى في الآيةِ:

الارتباطُ الوثيقُ بين الطّاعةِ والتَّقوى

قوله: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾؛ عطف الطّاعة على التَّقوى لما بينهما من الارتباط والتَّتابع في الأداء؛ إذ التَّقوى مرتبطةٌ بالإيمانِ الصّادق باللّه سبحانه، فتأتي تقوى اللّه بعد الإيمان به سبحانه، وهي لا يمكن أن تكتمل إلّا بطاعة الرَّسول؛ لأنَّه صاحب الرِّسالة السَّماوية الآتية بالوحي من السَّماء، فهي متضمِّنةٌ للتَّشريعات والحلال والحرام.

تكرارُ الأمرِ بالتَّقوى والطاعة:

تنوُّعُ أسباب الدَّعوة إلى تقوى الله

قوله: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ ليس بتكرير؛ لأنَّه منعقدٌ بغير ما انعقد الأوَّل؛ إذ الأوَّل بمعنى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ في ترك تكذيب الرُّسل، وأطيعوني فيما أدعوكم إليه من إخلاص عبادتِهِ، وقيل في الثّاني: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ في ترك معاصيه في بطش الجبارين، وعمل اللّاهين العابثين، أو بمعنى: احتراز هودٍ من أجورهم، فدعاهم إلى تقواه وطاعته، فيما يدعوهم إليه من الأمور[2]، فكرَّر قوله: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾؛ ليُقرِّره في نفوسهم مع تعليق كلِّ واحد منهما بعلَّة، فعلَّةُ الأوَّل كونه أمينًا فيما بينهم، وعلَّة الثّاني حسم طمعِهِ منهم، كأنَّه قال: إذا عرفتُم رسالتي وأمانتي؛ فاتَّقوا اللّه، ثمَّ إذا عرفتم احترازي من الأجر؛ فاتَّقوا اللّه[3].

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

البناء والإنشاء:

الإنشاءُ إحداثٌ وإخراجٌ بقوَّة

الإنشاءُ: إِخْراجُ ما في الشَّيْء بِالقوَّةِ إِلَى الفِعْل[4]، والإنشاء: هو

(1) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 107.
(2) ابن فورك، تفسير ابن فورك: 1/ 251.
(3) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 2/ 572.
(4) أبو البقاء، الكُلّيّات، ص: 197.

الإحداث حالًا بعد حالٍ من غير احتذاءٍ على مثالٍ، ومنه يُقال: نشأ الغلامُ؛ إذا نَما، وزاد شيئًا فشيئًا، وقال بعضهم: الإنشاءُ ابتداءُ الإيجاد من غير سببٍ[1]، والبناء نقيضُ الهَدم[2]، وبنى بيتًا أحسن بناءً وبُنيانًا، وهذا بناءٌ حسنٌ وبنيانٌ حسنٌ: ﴿كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ٤﴾ [الصَّف: 4]، وبناؤك من أحسن الأبنية، وبنى القصورَ[3]، فيكون استعمالُ البناءِ في قوله تعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ﴾؛ لأنَّ بناءهم للأعمدة العالية كالأعلام فوق المرتفعات، وهي مع كونها تتكرَّر في شكلها ومضمونها، لكنَّها عظيمةٌ في صرحها وأثرها على النّاظرين، فهي كالآية والأعجوبة في بنائها، ولو قال: (أتُنشئون بكلِّ ريعٍ آيةً...)؛ لدلَّ ذلك على تنوُّع أفكار الإنشاء وعدم تكرُّر شكلهِ ومضمونه، وكأنَّ كلَّ واحدٍ منه اختراعٌ بعينهِ، وهذا على خلاف البناءِ الَّذي يمكن أن يتكرَّرَ من موقعٍ إلى آخرَ.

العبث واللعب واللهو:

العبثُ لا يكون لإرادة تُذكر، واللَّعب يكون لإرادة اللَّذَّة بلا حكمةٍ

العَبَث ما خلا من الإرادات إلّا إرادَة حُدوث العبث نفسه فقَط، واللَّهو واللَّعب تتناوَلها غيرُ إرادَة حدوثهما؛ إرادةً صارا بها لهوًا ولَعِبًا، وقيل: اللَّعب عملٌ للَذّة لا يُراعى فيهِ داعي الحِكْمَة، كعمل الصَّبي؛ لأنَّهُ لا يعرف الحِكْمَة، وإنَّما يعمل للَذّة[4].

اللّهو أعمُّ من اللَّعب

الفرق بَين اللَّهو واللعب؛ أَنَّه لا لَهوَ إلّا لعبٌ، وقد يكون اللعب لَيْسَ بلهو؛ لِأَنَّ اللَّعب يكون للتأديب؛ كاللَّعب بالشِّطرنج وغَيره، ولا يُقال لذَلِك: لَهوٌ، وإنَّما لعب لا يعقب نفعًا، ومنه قَوْله تَعالَى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ١﴾ [التكاثر: 1][5]، فيكون اللَّهوُ أعمَّ من اللَّعب.

(1) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 80.
(2) ابن سيده، المُحكم: 10/ 498.
(3) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: 1/ 78.
(4) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 254.
(5) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 254.

الخلود والبقاء:

الخلودُ: اسْتِمرارُ البَقاء من وقت مبتدأ، بينما البقاءُ يكون وقْتَيْنِ فصاعِدًا[1]، فالخُلود لا يُحدَّد بزمنٍ على خلاف البقاء، فإنَّه يُحدَّد، فلا يُقال: هو خالدٌ فيها إلى وقت كذا، وهذا على خلاف البَقاءِ؛ إذ يُقال: هو باقٍ إلى وقت كذا.

الخلودُ اسْتِمرارُ البَقاء، والخلودُ لا يُحدَّد بزمنٍ على خلاف البقاء

التَّجبُّر والتَّعالي:

المُتَعالي هو المُستَعلي على كلِّ شيء بقدرته، أو المتنزِّه عن نعوت المخلوقات، وعن كلِّ شيءٍ لا يجوز عليه في ذاته وصفاته وأفعاله[2]، أمّا الجبّار؛ فهو جنسٌ من العظمة والعلو والاستقامة، فالجبّار: الذي طال، وفاتَ اليد، وذو الجبروت: اللّٰهُ جلَّ ثناؤه[3]، والجبّارون هم المُتعالون بسبب ما لديهم من القوَّة والسَّطوة، والقدرة على الظُّلم.

الجبّارون هم المُتعالون بما لديهم من القوَّة والسَّطوة

(1) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 254.

(2) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 374.

(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: 1/ 501.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِيٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعۡلَمُونَ ١٣٢ أَمَدَّكُم بِأَنۡعَٰمٖ وَبَنِينَ
١٣٣ وَجَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ١٣٤ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ
١٣٥ قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَوَعَظۡتَ أَمۡ لَمۡ تَكُن مِّنَ ٱلۡوَٰعِظِينَ ١٣٦﴾

[الشعراء: 132 - 136]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

مطالبتهم بالتَّقوى بعد التَّوبيخِ والتذكير بنعم الله تعالى عليهم

في الآيات السّابقة أمر رسول اللّه هودٌ ﷺ قومه بتقوى اللّه موبِّخًا إيّاهم على ما هم فيه من العبثِ بما مكَّنهم اللّه فيه، فبنوا القصورَ الشّاهقة، وأنشؤوا الأعلامَ على المرتفعات، وأوتوا من القوَّة ما كان سببًا في بطشهم وقسوتهم بالنّاس، فناسب هنا أن يُعيد عليهم الأمرَ بتقوى اللّه وطاعة رسوله؛ لأنَّ اللّه سبحانه هو المنعِمُ عليهم بالأنعام والبنين والجنّات والعيون، فكان ذلك قوَّةً حياتيَّةً واقتصاديَّةً عظيمةً مُضافةً إلى قوَّتهم وسطوتهم.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَمَدَّكُم﴾: (مَدَّ) أَصلٌ واحِدٌ يَدُلُّ على جَرِّ شَيءٍ في طولٍ، واتِّصالِ شَيءٍ بِشَيءٍ في اسْتِطالَةٍ، كما أُطْلِقَ على بَسْطِ الجِسْمِ وتَطْويلِهِ، ثُمَّ اسْتُعيرَ لِلزّيادَةِ مِنْ شَيْءٍ، تقولُ: مَدَدْتُ الشَّيءَ أَمُدُّهُ مَدًّا[1]، ومدَّ اللّهُ الأَرضَ يَمُدُّها مَدًّا: بَسَطَها وسَوّاها[2]، والمَدَدُ والإمداد: ما أمددتَ بِهِ قومَك في حَرْب أَو غير ذلك من طَعام أَو أَعوان[3]، والمَدُّ في الآية مقصودٌ به البَسْطُ والسَّعَةُ.

2) ﴿وَجَنَّٰتٖ﴾: (جنّ) أصلٌ واحدٌ، وهو السَّتْرُ والتَّسَتُّرُ، والجنَّةُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مد)، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 82.
(2) ابن منظور، لسان العرب: (مدد).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة: (مد).

ما يَصيرُ إليها المُسلمونَ في الآخرةِ، وهي ثوابٌ مستورٌ عنهم اليومَ[1]، والجنَّةُ أيضًا: البُستان، ويُقالُ: هي النَّخل الطّوال، وكلُّ شجَرٍ مُتكاثفٍ يستر بعضه بعضًا؛ فهو جنَّة، وقيل: لا تكون في كلام العرَب جنَّةٌ إلّا وفيها نخلٌ وعِنبٌ، وإلّا فهي: حديقة[2]، والمُرادُ بالجنّات في الآيةِ: الحَوائِطُ الَّتي تُشَجَّرُ بالنَّخيلِ والأعنابِ[3].

3) ﴿وَعُيُونٍ﴾: (عين) أَصْلٌ واحِدٌ صَحيحٌ يَدُلُّ على عُضْوٍ بِهِ يُبْصَرُ، ويُنْظَرُ، ثُمَّ يُشْتَقُّ منه، قالَ الخليلُ: العَيْنُ النّاظِرَةُ لكُلِّ ذي بَصَرٍ، والعَينُ تُجْمَعُ على: أَعْيُنٍ وعُيونٍ وأَعْيانٍ[4]، ويُستعار العَيْنُ لمعانٍ هي موجودة في الجارحة بنظراتٍ مختلفةٍ، واستُعير للثَّقب في المزادة تشبيهًا بها في الهيئة، وفي سيلان الماء منها، فاشتُقَّ منها: سقاء عَيِّنٌ ومُتَعَيِّنٌ؛ إذا سال منها الماء، ويُقال لمنبع الماء: عَيْنٌ تشبيهًا بها لما فيها من الماء، ومن عَيْنِ الماء اشتُقَّ: ماءٌ مَعينٌ، أي: ظاهرٌ للعيون، وعَيِّنٌ، أي: سائل[5]، والمقصودُ بالعيون في الآيةِ: جَمعُ عَيْنٍ، وهو ثُقْب يَخرجُ منه الماءُ من الأَرْضِ.

4) ﴿يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾: أصلُ اليوم: الواحِدُ من الأَيّام، ثُمَّ يستعيرونه في الأَمرِ العظيم، ويقولون: نِعْمَ فُلانٌ في اليوم؛ إذا نَزَلَ[6]، واليومُ أيضًا: مِقْدارٌ من الزَّمانِ، أَوَّلُه طُلوعُ الشَّمسِ إلى غُروبِها[7]، وأُطْلِقَتِ الأيّامُ على ما يقعُ فيها مِنَ الأحداثِ العظيمةِ، والمُراد بـ ﴿عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾: يجوزُ أن يكون عذابًا في الدُّنيا توعَّدهُمُ اللّٰه به على لسانه، ويجوزُ أن يُريدَ به عذابَ يومِ القيامةِ، أي: عظيم ما يَحصُلُ فيهِ من الأهوال[8].

5) ﴿سَوَآءٌ﴾: أصلُ (سوي) يدلُّ على استقامةٍ واعتدالٍ بَيْنَ شيئَيْنِ، يُقالُ: هذا لا يُساوي كذا، أَي: لا يُعادِلُهُ، وفُلانٌ وفُلانٌ على سويَّةٍ مِنْ هذا الأَمرِ، أَيْ: على سواءٍ[9]، فالسَّواءُ:

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جن).
(2) الخليل، العين، وابن عباد، المُحيط، وابن سِيدَه، المُحكَم: (جنّ).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 135.
(4) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (عين).
(5) الراغب، المُفردات، والسّمين، عُمدةُ الحُفّاظ: (عين).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (يوم).
(7) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والرّاغب، المُفردات: (يوم).
(8) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 170.
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (سوى).

العدلُ، قال اللّه تعالى: ﴿فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ﴾ [الأنفال: 58]، أي: على حُكم العدل والإنصاف[1]، وسَواءُ الشَّيءِ: وسَطُه؛ لاسْتِواءِ المسافةِ إليْه مِنَ الأَطْرافِ[2]، ومنه قوله تعالى: ﴿فِي سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ ۝٥٥﴾ [الصّافّات: 55]، وسواءُ الشَّيء: غيره[3]، والمقصود بـ﴿سَوَآءٌ﴾ في الآية الكريمة: متساوٍ عندنا، أوعظتَ أم لم تعظ؟

6) ﴿أَوَعَظۡتَ﴾: أصلُ (وعظ) يدلُّ على التَّخويف، والعِظَةُ: هي الاسمُ منه، قالَ الخَليلُ: هو تذكيرُك إيّاه الخيرَ ونحوَه ممّا يرقُّ له قلبُهُ[4]، والواعِظُ: النّاصِحُ[5]، ويأْتي الوَعْظُ بمعنى الأَمرِ بالطَّاعَةِ والتَّوْصيَةِ بها، فيُقال: وعَظَهُ؛ إذا أَمَرَهُ، ووَصَّاهُ بِالطَّاعَةِ، واتَّعَظَ فُلانٌ، أيْ: قَبِلَ المَوْعِظَة، وكَفَّ نَفْسَهُ عن الخَطَأِ[6]، والمقصودُ بالوعظ في الآيةِ: كلامٌ فيه نهيٌ وتحذيرٌ مِن مكروهٍ وترغيبٌ في ضِدِّهِ.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

مهمَّةُ الرُّسل والأنبياء تبليغُ الرِّسالات ومَحاجَّةُ الكفّار

بعد نهي هودٍ قومَه عن تلك الرَّذائل؛ أمرهم بتقوى اللّه وطاعته وشكرِه على نِعَمه، فقال: واتَّقوا عقابَ اللّه بطاعتكم إيّاه فيما أمركم بِه، ونهاكم عنه، فابتعدوا عن اللَّعب واللَّهو وظُلم النّاس والفساد في الأرض، واحذروا سخطَ مَن أعطاكم من عنده ما تعلمون من الأنعام والبَنين والبساتين والأنهار، تتمتَّعون بها كما شئتم حتى صرتم مضربَ الأمثال في الغِنَى والثَّروة والزُّخرف والزِّينة، فاجعلوا كِفاءَ هذا عبادةَ مَن أنعم بها وتعظيمه وحدَهُ.

---

(1) السمين، عمدة الحفاظ: (سوى).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (سوى).
(3) الجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات: (سوى).
(4) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (وعظ).
(5) الزبيدي، تاج العروس: (وعظ).
(6) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (وعظ).

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ العطف في قوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم﴾:

الواو عاطفةٌ في قوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعۡلَمُونَ﴾؛ إذ بيَّن سبب أمرهم بتقوى اللّه كونه سبحانه أمدَّهم بما يعلمون، والحقيقة أنَّ "الواو تقتضي تحقيقَ الوصف المُتقدِّم، وتقريره يكون في الكلام مُتضمِّنًا لنوعٍ من التَّأكيد من مزيد التَّقرير"[1].

سِرُّ إعادةِ فعل التَّقوى:

﴿وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعۡلَمُونَ﴾، أي: بالذي تعرفونه من النِّعم[2]، وأعاد التَّقوى؛ لأنَّها هي حصيلةُ الإيمان ونتاجه، فلا تقوى بلا إيمانٍ، فذكرَ هودٌ التَّقوى في أربعة مواضع من كلامه، فكانت أوَّل ما خاطَبَ به قومه: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾، وعرَّفهم بأنَّه رسول اللّه الأمين في رسالته، ثمَّ قال: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾؛ لأنَّ كونه رسولًا لهم أمينًا على الرِّسالة يجعلُهُ حقيقًا بأن يطيعوه، ويؤمنوا به، وبعد أن أنكر عليهم أعمالهم؛ أمرهم الثَّالثة بتقوى اللّه، فقال: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾، وكرَّر في الرَّابعة: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعۡلَمُونَ﴾، فذَكَرَ عظيمَ فضلِ اللّه عليهم، وأن قوَّتهم وجبروتهم هذا نابعٌ عن النِّعَم العظيمة التي وهبها اللّه لهم.

بلاغةُ التَّعبير بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِىٓ﴾:

الدَّعوةُ إلى تقوى مَنْ تفضَّل عليهم بالحياة المُتْرَفَة

في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعۡلَمُونَ ١٣٢ أَمَدَّكُم بِأَنۡعَٰمٖ وَبَنِينَ ١٣٣ وَجَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ﴾، لم يأتِ الخطاب على صيغة (واتَّقوا اللّه) أو (واتقوا ربكم)؛ ليدُلَّ على أنَّ الذي أنعم عليكم هو الذي سيُعذِّبكم؛ إن لم تؤمنوا، وبذلك أحرجهم؛ ليؤمنوا بمَنْ أنعم عليهم هذه النِّعَم، ثمَّ ختم الآية بقوله: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ

(1) ابن قيّم الجوزيّة، بدائع الفوائد: 1/ 191.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 107.

﴿عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾، وفي الآية مقابلةٌ بين حال النَّعيم وحال العذاب العظيم[1]، وفائدة الاسم الموصول ﴿ٱلَّذِيٓ﴾ هو بيانُ فضلِ اللّه عليهم في تخصيصِهم بهذه النِّعم التي لا تخفى، ولو نُزِعت منهم؛ لانتهت عظمتهم، وفي ذلك تعريضٌ بهم لإنكارهم عظيمَ فضلِ اللّهِ عليهم.

إيثارُ التَّعبيرِ بالماضي ﴿أَمَدَّكُم﴾ مادَّةً وصيغةً:

تَوالي النِّعَمِ على قومِ هودٍ

دلَّ الفعلُ الماضي على الأفضال السّابقة للّه سبحانه عليهم مع ما هم فيه من البطرِ والتَّرف والغفلة عن اللّه، فذكَّرهم ببعض تلك الأفضالِ وما أمدَّهم به من الرِّزق والخير ومقوِّمات الحياة وما يضمن لهم راحة وسعادة، فدلَّ فعل الإمداد على النِّعم التي تأتيهم تترى؛ كأنَّما قد انسابت عليهم من كلِّ جانبٍ.

بلاغةُ الإجمالِ في قوله: ﴿أَمَدَّكُم بِمَا تَعۡلَمُونَ﴾:

المبالغةُ في بيان كثرة النِّعم

بالغ هود عليه السلام في تنبيه قومه إلى نِعَم اللّه، حيث أجملَها، ثمَّ فصَّلها مستشهدًا بعلمهم، وذلك أنَّه أيقظهم من غفلتهم عنها حين قال: ﴿أَمَدَّكُم بِمَا تَعۡلَمُونَ﴾[2]، ولعلَّ من عظيم نكتة الإجمال الدَّلالةَ على كثرتها، فهي نِعَمٌ لا تُعدُّ، ولا تُحصى، قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾ [النّحل: 18]، فأجملها؛ ليحصرها جميعًا بعلم النّاس، وما يمكن أن يتذكَّروه، أو يعدّوه من تلك النِّعَم، ثم ذكر لهم أمثلة منها، فقال: ﴿أَمَدَّكُم بِأَنۡعَٰمٖ وَبَنِينَ ١٣٣ وَجَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ﴾.

معنى (الباء) و(ما)، وإيثار (العلم) مادَّةً وصيغةً:

اختلاطُ حياتِهم بالنِّعم

في قوله: ﴿أَمَدَّكُم بِمَا تَعۡلَمُونَ﴾ أفاد حرف (الباء) الإلصاقَ والاختلاط، فكأنَّما النِّعمُ قد أُلصقت بهم، وخالطت حياتهم، فلا تُعرف حياتهم إلّا بها، وأصبحت النِّعمُ معروفةً كحقٍّ من حقوق الحياة عندهم، و(ما) بمعنى (الذي)، أي: بالذي تعرفونه من النِّعم؛ فـ(ما)

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 331.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 331، والنّيسابوري، غرائب القرآن: 5/ 280.

موصولة، والعائد محذوفٌ والعلم بمعنى المعرفة[1]، والاستشهاد بعلمهم في قوله: ﴿أَمَدَّكُم بِمَا تَعۡلَمُونَ﴾ دلَّ على عِلمهم برزقِ اللّه وفضلهِ عليهم[2]، فأوكل معرفة تلك النِّعم إلى علمهم؛ دالًّا بذلك على المبالغة في كثرتها؛ إذ إنَّهم مهما عدّوا من النِّعَم؛ فلن يُحصوها.

بلاغةُ الفصلِ في قوله: ﴿أَمَدَّكُم بِأَنۡعَٰمٖ﴾:

ذَكَرَ لهم بعضَ النِّعم التي يعلمونها

قوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِيٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعۡلَمُونَ ١٣٢ أَمَدَّكُم بِأَنۡعَٰمٖ وَبَنِينَ﴾، فُصِلت الجملة الثّانية عن الأولى؛ لأنَّ قوله تعالى: ﴿أَمَدَّكُم بِأَنۡعَٰمٖ﴾: مُفسَّرة لما قبلَها[3]، أو لأنَّ الثّانية بمنزلة بدلِ البعض؛ وأنَّ ما يعلمونه يشملُ ما في الجملة الثّانية مِنَ النِّعم الأربع، وغيرها من سائر النِّعم، ومن ثمَّ لم يعطف بين الجملتَيْن بالواو، لقوَّة الرَّبط بينهما، فبين الجملةِ والتي قبلَها كمالُ اتِّصال، وقد خصَّ هذه النِّعم بالقول؛ لأنَّه سبقها بقوله: ﴿أَمَدَّكُم بِمَا تَعۡلَمُونَ﴾؛ وهذه النِّعمُ يعلمُها كلَّ واحد، فهي من النِّعم العظيمة الظاهرة للنّاس جميعًا.

دلالةُ ترتيب العطفِ ﴿بِأَنۡعَٰمٖ وَبَنِينَ ١٣٣ وَجَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ﴾:

بالأنعام تحصل الرياسة والغنى، وبالبنين حفظهما، وبالجنات والعيون يحصل التَّفكُّه

في قوله: ﴿أَمَدَّكُم بِأَنۡعَٰمٖ وَبَنِينَ ١٣٣ وَجَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ﴾ بدأ بذِكر الأنعام؛ لأنَّها تحصل بها الرّياسة والقوَّة على العدو، فالغِنَى الذي لا تكمل اللَّذة بالبنين وغيرهم في الأغلب إلّا به، والأنعام أحبُّ الأموال إلى العرب، ثمَّ ذكر البنين؛ لأنّهم مُعينوهم على الحفظ والقيام عليها، ومن ذلك يُعلم وجهُ قرنهما[4]، ووجهُ قرنِ الجنّات والعيون في قوله تعالى: ﴿وَجَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ﴾ ظاهر، فالجنّات يحصل بها التَّفكُّه والتَّنزُّه، ﴿وَعُيُونٍ﴾ بمائها يكمل النَّماء[5]، وكذا وجه قرنهما مع الأنعام[6].

(1) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 107.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 331.
(3) العكبريّ، التّبيان في إعراب القرآن: 2/ 999.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 331.
(5) النّيسابوري، غرائب القرآن: 5/ 280.
(6) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 108.

موقعُ جملة: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ﴾ ودلالته:

كفرانُ النِّعمة مُستتبِعٌ بزوالها

قوله: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ﴾ استئنافٌ تعليليٌّ، أي: إنّي أخافُ عليكم - إن لم تتَّقوا، وتقوموا بشكر هذه النِّعم - ﴿عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾ في الدُّنيا والآخرة، فإنَّ كفران النِّعمة مُستَتبِعٌ للعذاب، كما أنَّ شكرَها مُستلزم لزيادتها، قال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ ٧﴾ [إبراهيم: 7]، وعلَّل بما ذكر دون استلزام التَّقوى للزّيادة؛ لأنَّ زوال النِّعمة يُحزن فوق ما تسرُّ زيادتها، ودرءُ المضارِّ مقدَّمٌ على جلب المنافع[1].

سرُّ تكرار الفعل: ﴿أَمَدَّكُم﴾:

أعظمُ الإمداد للكفار ما كان لدنياهم مالًا وولدًا

في قوله: ﴿أَمَدَّكُم بِمَا تَعۡلَمُونَ ١٣٢ أَمَدَّكُم بِأَنۡعَٰمٖ وَبَنِينَ﴾ أعاد فعل الإمداد مبالغةً فيما رزقهم الله تعالى من الأفضال، وما دلَّ عليه فعل الإمداد من تتابع النِّعم، وتعدادها، وهذا ما يُسمّى بـ التَّكرار أو التَّتبيع، والإرداف أن يريد المتكلم الدَّلالة على معنى، فيتركُ اللفظَ الدالَّ عليه الخاص به، ويأتي بلفظ هو ردفه وتابع له، فيجعله عبارة عن المعنى الذي أراده[2].

وعلى مذهب بعض النَّحويّين؛ فإنَّ قوله تعالى: ﴿بِأَنۡعَٰمٖ﴾ بدلٌ من قوله سبحانه: ﴿بِمَا تَعۡلَمُونَ﴾، وأُعيد العامل كقوله تعالى: ﴿ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٢٠ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا﴾ [يس: 20 - 21]، والأكثرون لا يجعلون مثل هذا أبدالًا، وإنَّما هو عندهم من تكرار الجُمَل، وإن كان المعنى واحدًا، ويُسمَّى التَّتبيع، وإنَّما يجوز أن يُعاد العاملُ عندهم؛ إذا كان حرفَ جرٍّ دون ما يتعلَّق به، نحو: مررتُ بزيد بأخيك[3]،

(1) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 108.

(2) العسكري، كتاب الصناعتَين، ص: 350، وسمّاه ابن رشيق التتبيع، يقول: "ومن أنواع الإشارة: التتبيع، وقوم يسمونه التجاوز، وهو أن يريد الشّاعر ذكر الشَّيء، فيتجاوزه، ويذكر ما يتبعه في الصِّفة، وينوب عنه في الدَّلالة عليه". يُنظر: العمدة: 1/ 313.

(3) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 108.

ويجوز أن يكون ﴿أَمَدَّكُم﴾ الثّاني بدلًا من ﴿أَمَدَّكُم﴾ الأوّل، وقد يكون من إبدال الجملة من الجملة، وتكون الثّانية صلةَ ﴿ٱلَّذِيٓ﴾ كالأولى، ويجوز أن تكون الثّانية شارحةً للأولى[1].

بلاغةُ الفصلِ في قوله: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ﴾:

التَّخويفُ من زوال النِّعم وإبدالها عذابًا وسخطًا

قوله: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ﴾ بين الجملتَيْن كمال الانقطاع؛ لاختلاف الخبريَّة والإنشاء، واللَّفظ والمعنى، ودلَّ (إنَّ) على توكيد معنى الخوف، فإنَّه سبحانه كما هو قادر على إعزاز النّاس؛ فهو قادرٌ على إذلالِهم، وقدرته على رزقهم دليلٌ على قدرته سبحانه على منع الرِّزق عنهم، وفائدةُ ذلك أنَّه انتقل من تَعداد عظيم النِّعم إلى تخويفهم من نقمة اللّه وعذابه، فالقادر على الإنعام قادرٌ على زوال النِّعم، وإبدالها عذابًا ونقمةً.

إيثارُ التَّعبير بالخوفِ مادَّةً وصيغةً:

الخوفُ شعورٌ داخليٌّ ناتجٌ عن خطاب النَّفس

ختم هودٌ خطابَهُ لقومه بتخويفهم قائلًا: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ﴾؛ تنبيهًا على أنَّه كما قدَّر أن يتفضَّل عليهم بهذه النِّعم الجسام، فهو قادرٌ على عذابهم، فيكون فيه مزيدُ حثٍّ على التَّقوى وكمال تنفر عن العصيان[2]، فدلَّ التَّخويف على تقوية الشُّعور الدّاخليِّ وتحريك ما في نفوسهم من بقيَّة الخير، وهو نفسه الشُّعور الدّاخليُّ الذي خاطبه نوحٌ عليه السلام في قومه، بقوله: ﴿لَوۡ تَشۡعُرُونَ﴾ الذي يفيد الرُّجوع إلى الحسِّ الدّاخلي للفرد، فالخوفُ يأتي من جهة الشُّعور الدّاخليِّ بخطر ما هم عليه من الفِتَن.

غرضُ تقديم الجارِّ والمجرور: ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾:

التَّخويفُ من إصابتهم بعذابِ الله تعالى

في قوله: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ قُدِّم الجارُّ والمجرور ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾ لفائدة التَّخصيص؛ لأنَّ ما أنتم فيه من

(1) الزّركشيّ، البُرهان: 2/ 460.
(2) النّيسابوري، غرائب القرآن: 5/ 280.

النِّعمة، مع ما أنتم عليه من الكبر وعدم الإيمان؛ إذ يُنبئ ذلك بوقوع غضب الله عليكم والإنذار بعقوبته.

دلالةُ التَّعبير بالعذاب:

التَّخويفُ من أصناف العذاب في الدُّنيا والآخرة

العذابُ هو الإيجاع الشَّديد، وقد عذَّبه تعذيبًا، أكثر حبْسَهُ في العذاب، واختُلف في أصله: فقيل: ترْكُ المأكل والنَّوم، فالتعذيبُ في الأصل هو حملُ الإنسان أن يُعذَّب، أي: يجوع، ويسهر، وقيل: أصلُ التَّعذيبِ إكثارُ الضَّرب بعذبة السّوط، أي: طرفها، فالتَّعذيبُ هو الضَّرب[1]، فيكون في هذه المعاني كلِّها ما يُناسب حالَ عادٍ قومَ هودٍ؛ إذ إنَّ ما أنعم الله عليهم ممّا يُستلذُّ به من الطَّعام والشَّراب نعمة عظيمة، فحريٌّ منهم أن يحافظوا عليها، ولو أُخِذَت منهم؛ لكان ذلك عذابًا عظيمًا عليهم.

الكنايةُ في قوله: ﴿يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾:

تخويفُهم من أخطر يوم يمكن أن يواجِهَهم

كنَّى هود عليه السلام بقوله: ﴿يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾ عن يوم القيامة[2]، فذَكَرَ الصِّفة، وأراد الموصوفَ، فالجملةُ كنايةٌ عن موصوف، وهو يوم القيامة، أو يمكن أن يكونَ كنايةً عن يوم يُهلكون فيه جميعًا، لضلالِهم وإصرارهم على الكفر، وهذا أعظمُ حدَثٍ يمكن أن يتصوَّره قومه، وما إهلاك قوم نوحٍ منهم ببعيدٍ.

بلاغةُ المجاز العقلي: ﴿يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾:

تعظيمُ اليوم دون تعظيمِ العذاب

يمكن أن يكون قوله: ﴿يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾: هو اليوم الذي سيصيبهم فيه العذابُ العظيم، فقوله: ﴿يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾ - بدلًا عن (عذاب عظيم) - هو مجازٌ عقليٌّ علاقته زمانيَّةٌ[3]، وفائدة هذا المجاز أنَّ تعظيمَ اليوم أبلغُ من تعظيم العذاب.

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 327.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 331.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 331.

دلالةُ الاستئنافِ في: ﴿قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ﴾:

بيانُ سبب الخوفِ عليهم من عذاب الله

جملة ﴿قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ﴾ لا محلَّ لها استئنافيَّة[1]؛ لأنَّها بمنزلة جوابٍ عن سؤال افتراضي يُفهم من الجملة الأولى، فاقتضى ذلك فصلًا بينهما، كما يُفصل الجواب عن السؤال، فقوله: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾، يُثير سؤالًا: لمَ هذا الخوفُ على قومه مع أنَّه لم يذمَّهم في شيءٍ يُذكر، وما جاء آنفًا هو من قبيل استمتاعِهم بنِعَم اللّه عليهم، عبثًا دون شكر المنعم، فيأتي الجواب بقولهم: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَوَعَظۡتَ أَمۡ لَمۡ تَكُن مِّنَ ٱلۡوَٰعِظِينَ﴾؛ إذ عُلِمَ سببُ الخوفِ عليهم من عذاب اللّه، وعُلم حجم إعراضهم وصدِّهم عن الإيمان باللّه والقبول برسالته سبحانه، وإنَّ النَّصَّ القرآنيَّ قد أوجز في حذف جمل عديدة عُلِمَ محتواها ممّا وثَّقه عليهم بقولهم: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَوَعَظۡتَ﴾ الآية.

عودُ ضميرِ فعل القول ودلالتُه:

المستكبرون هم الذين أنكروا الرِّسالة استكبارًا وعنادًا

في قوله: ﴿قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ﴾ يعود الضَّمير في فعل القولِ على القوم المستكبرين منهم، من الذين بيدهم الحلُّ والعقد، والذين لهم الكلمة في الأرض، فهؤلاء قد أخذتهم العزَّة بالإثم، واستكبروا في الأرض، وأصرّوا على ذلك، وما لهم من أثرٍ على عامَّة النّاس في مجتمعهم؛ فالنّاس على دين ملوكِهم وكُبرائهم.

دلالةُ لفظ ﴿سَوَآءٌ﴾ هنا:

التسوية لِعدَمِ المبالاة والاستخفاف

﴿قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَوَعَظۡتَ أَمۡ لَمۡ تَكُن مِّنَ ٱلۡوَٰعِظِينَ﴾؛ فإنّا لا نرعوي عمّا نحن عليه، قالوا ذلك على سبيل الاستخفاف، وعدم المبالاة بما خوَّفهم به ﷺ[2]، فكان قصدُهم من ذلك أنَّهم لن يستمعوا من هود ﷺ مهما قال، ومهما وعظَ، أو أشار إليهم بالخير، وأطلعهم على أسباب النَّجاة استكبارًا منهم وإصرارًا على الباطل.

(1) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 19/ 106.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 108.

دلالةُ التَّعبيرِ بالجارِّ والمجرور ﴿عَلَيۡنَآ﴾:

انعدامُ أثرِ القول فيهم وانتفاء شعورهم به

قوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ﴾، أي: سواءٌ عندنا، فلا أثرَ لكلامِكَ علينا، ولا قيمة لما تقول من الوعظ والنُّصح والتَّخويف، فلا قيمة لذلك كلِّه، وما ذاك إلّا لانتفاء شعورِهم بقيمة ما يُقال لهم، وهو الدّاء نفسُهُ الذي خاطَب نوح قومَهُ طلبًا في علاجه، فقال: ﴿لَوۡ تَشۡعُرُونَ﴾، والشُّعور يتأتّى من وقفةٍ مع النَّفس ومراجعةٍ بانفرادٍ، لكنَّهم لا يشعرون.

غرضُ الاستفهامِ في قوله: ﴿أَوَعَظۡتَ﴾:

تسويةُ الوعظِ من عدمِه

الهمزة في قوله تعالى: ﴿أَوَعَظۡتَ﴾ حرفُ تسوية، فتستوي عندهم الموعظة الحسنة من عدمها، وقولهم: ﴿أَوَعَظۡتَ﴾: الهمزةُ للاستفهام وفعلٌ ماضٍ وفاعله، ﴿أَمۡ﴾: حرف عطف، ﴿لَمۡ﴾: جازمة، ﴿تَكُن﴾: مضارع ناقص مجزوم بـ﴿لَمۡ﴾، واسمها محذوف ﴿مِّنَ ٱلۡوَٰعِظِينَ﴾ متعلِّقان بخبر ﴿تَكُن﴾، وهمزة التسوية وما بعدها في تأويل مصدر مبتدأ مؤخَّر[1]، ومعناه أنَّ أقوالك وإن سُمعت، لكنَّها لا تدخل قلوبنا، ولا تعيها عقولنا، ولن ينفع قولك شيئًا.

سرُّ اختيار لفظ (الوعظ) مادّة وصيغة:

في قوله: ﴿أَوَعَظۡتَ﴾ دلَّت صيغة الماضي على احتمال المضيِّ والاستقبال؛ وذلك إذا جاء بعد همزة التَّسوية؛ إذ يُحتمل أن يكون المُراد: ما كان منك من وعظٍ، أو ما سيكون لاحقًا.

ذِكْر معادل ﴿أَمۡ﴾ في الآية:

الامتناع التّامُّ عن قول الرَّسول

في قوله تعالى: ﴿أَمۡ لَمۡ تَكُن مِّنَ ٱلۡوَٰعِظِينَ﴾، ﴿أَمۡ﴾: حرف عطف معادل للهمزة، وجاءت ﴿أَمۡ﴾ المتَّصلة بعد همزة التَّسويَة الواقعة بعد ﴿سَوَآءٌ﴾ في ستِّ آيات، منها قوله تعالى: ﴿قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَوَعَظۡتَ

---

(1) الدعاس، إعراب القرآن: 2/ 392.

﴿أَمۡ لَمۡ تَكُن مِّنَ ٱلۡوَٰعِظِينَ﴾[1]: والقضاء على فرصة الشعور الدّاخليّ والتّفكُّر بما يقوله رسولهم.

سرُّ العدولِ في قول تعالى: ﴿أَمۡ لَمۡ تَكُن مِّنَ ٱلۡوَٰعِظِينَ﴾:

المبالغةُ في التَّقليل من شأن هود عليه السلام

قوله تعالى: ﴿أَمۡ لَمۡ تَكُن مِّنَ ٱلۡوَٰعِظِينَ﴾ جملةٌ وقعت موقع: (أم لم تعظ)[2]، فلم لم يُذكر ما هو أخصر، والجواب اختلافُ المعنى بين الجملتَيْن؛ لأنَّ المُراد: (سواءٌ علينا أفعلتَ هذا الفعل الذي هو الوعظ؛ أم لم تكن أصلًا من أهله ومباشريه؟) فهو أبلغُ في قلَّة اعتدادِهم بوعظهِ من قولك: أم لم تعظ[3]، فعدلوا عن (أم لم تعظ) الذي يقتضيه الظّاهرُ للمبالغة في بيان قلّةِ اعتدادهم بوعظه عليه السلام، وقيل: في وجه المبالغةِ بقولهم إفادة معنى: سواءٌ علينا أوعظت أم استمرَّ انتفاء كونك من زمرة مَن يعظ انتفاء كاملًا، بحيث لا يُرجى منك نقيضه[4].

غرضُ التَّعريف باللّام في قوله: ﴿ٱلۡوَٰعِظِينَ﴾:

الرَّسولُ هو مصدرُ التَّشريع ومحطُّ الرِّسالة

دلَّ التَّعريفُ في قوله: ﴿ٱلۡوَٰعِظِينَ﴾ على العموم لإرادة الاستهانة بمكانة الرَّسول؛ إذ إنَّ الرَّسول الواعظ ليس كأيِّ واعظٍ، وإنَّما منه يأتي التَّشريع، وهو يأتي بموعظته من عند الله تعالى فما يقوله أمرٌ مباشر من عند الله، وما هو بوعظ يُقبَل أو يُترَك.

غرضُ حذفِ متعلّقِ قوله: ﴿ٱلۡوَٰعِظِينَ﴾:

سرُّ الفاصلةِ في الحذف

عادل ﴿أَوَعَظۡتَ﴾ بقوله: ﴿أَمۡ لَمۡ تَكُن مِّنَ ٱلۡوَٰعِظِينَ﴾، وإن كان قد يعادله: (أم لم تعظ)، كما قال: سواءٌ علينا أجزعنا أم صبرنا لأجل الفاصلة[5]، وحذْفُ متعلِّقِ الواعظين كذلك أفاد عدمَ الاكتراث بطبيعة ذلك الوعظ وعدم السَّماع له.

---

(1) العكبريّ، التّبيان في إعراب القرآن: 2/ 999.
(2) عضيمة، دراسات لأسلوب القرآن الكريم: 1/ 388.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 180.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 108.
(5) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 180.

المقابلةُ بالوعظِ وعدمه:

دلَّت المقابلةُ في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَوَعَظۡتَ أَمۡ لَمۡ تَكُن مِّنَ ٱلۡوَٰعِظِينَ﴾ على شمول جميع حالاتهم، وتساويها في رفض كلِّ دليلٍ أو آيةٍ؛ تعنُّتًا منهم، وتغييرُ شقِّ النَّفي عمّا تقتضيه المقابلة؛ للمبالغة في قلَّة اعتدادهم بوعظه؛ وأفادت المقابلة معنى التَّحدّي والتَّعنُّت، فاستحقّوا العذاب(1).

شمولُ جميعِ حالاتِهم إصرارًا واستكبارًا

دلالةُ اسمِ الفاعل على الاستقرار:

قوله: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَوَعَظۡتَ أَمۡ لَمۡ تَكُن مِّنَ ٱلۡوَٰعِظِينَ﴾، فإنَّ ذِكْرَ اسمِ الفاعل يدلُّ على استقرارِ الأمر وثبوتِهِ، بخلاف الفعل الماضي؛ فإنَّه يصدق بمرَّةٍ واحدةٍ(2)، فدلَّ على أنَّ كثرة الوعظ من هود عليه السلام لن تُجدي نفعًا فيهم، أو أثرًا في نفوسِهم، وإنما أَتَى في الآية بالجملة الثانية اسمية لأن الفعلَ يُشعِر بالحدوث(3).

استقرارُ حالتهم على عدم قبولِ دعوةِ نبيِّهم

جناسُ الاشتقاق في ﴿أَوَعَظۡتَ﴾ و﴿ٱلۡوَٰعِظِينَ﴾:

أفاد جناسُ الاشتقاق بين ﴿أَوَعَظۡتَ﴾ و﴿ٱلۡوَٰعِظِينَ﴾ التَّهوينَ من شأن الرِّسالة وما جاء به هود عليه السلام من الوحي؛ إذ إنَّه لا يخرج عندهم عن أقوالٍ وعظيَّةٍ؛ هم في غنًى عنها، ولن تنفعهم شيئًا، بحسب ما يرون في أنفسهم من العلم والفهم والقوَّة والسَّطوة.

الاستهانة بالوحي والرِّسالة

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّة:

البنون والأولاد:

الوَلَدُ: المَوْلودُ، يُقال للواحد والجمع والصَّغير والكبير، قال الله تعالى: ﴿فَإِن لَّمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ﴾ [النساء: 11]، ويُقال للمُتبَنَّى: ولَدٌ، قال: ﴿أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا﴾ [القصص: 9]، قال أبو الحسن: "الوَلَدُ: الابن والابنة،

البنونُ للذُّكور، والأولاد للذُّكور والإناث

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 146.
(2) الأنصاريّ، إعراب القرآن العظيم، ص: 292.
(3) السمين الحلبي، الدر المصون: 5/ 538.

والوُلْدُ هُمُ الأهلُ والوَلَدُ"[1]، والفرق بين الابن والولد: أنَّ الابن يفيد الاختصاص ومداومة الصُّحبة، والأوَّل للذَّكر، والثّاني يقع على الذَّكر والأنثى، والنَّسل والذُّرّيَّة يقعان على الجميع[2].

الخوف والخشية:

الخَشْيَة خوفٌ فيه تعظيمٌ للمَخشيِّ منه

الخَوْفُ توقُّعُ الضَّرَر المَشْكوك في وُقوعه، ومن يتَيَقَّن الضَّرَر؛ لم يكن خائفًا منه، والحذرُ توقّي الضَّرَر، وسَواءٌ كانَ مظنونًا أَم مُتيقَّنًا، والحذر يدْفَع الضَّرَر، والخَوْف لا يَدْفَعهُ، ولِهَذا يُقال: خُذ حِذْرك، ولا يُقال: خُذ خوفَك[3]، والخَشْيَة: خوفٌ فيه تعظيمٌ للمخشيِّ منه، وأكثرُ ما يكون ذلك عن علم بما يُخشى منه، ولذلك خصَّ العلماءُ بها في قوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: 28][4].

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 883.
(2) الرّاغب، المفردات، ص: 12.
(3) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 240.
(4) الرّاغب، المفردات، ص: 12.

﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ١٣٧ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ١٣٨ فَكَذَّبُوهُ
فَأَهْلَكْنَٰهُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ١٣٩ وَإِنَّ
رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ١٤٠﴾ [الشُّعراء: 137 - 140]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

تعلُّلُ قومِ عادٍ بتمسُّكهم بدينِ آبائِهم سببٌ للصَّدِّ عن نبيِّهم هودٍ عليه السلام

لَمّا صدَّت عادٌ عن دعوة نبيّها هودٍ عليه السلام، واستخفَّت بوعظِه إيّاهم حين دعاهم إلى عِبادةِ اللّه، وذكَّرهم بنعمه عليهم، وقالوا له: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ١٣٦﴾ [الشعراء: 136]؛ أيْ: لن نستجيب لوعظِك؛ فلا تُرهِقْ نفسك، وكانَ قولُهم هذا يحتاج إلى تعليل، بادروا إلى بيان سببِ هذا الإعراض عن دعوته فقالوا: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ١٣٧ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾؛ أي: السّببُ هو تمسُّكنا بدين آبائنا الّذين قضَوا وماتوا وهم مُستمرّون عليه، ونحن لن نَحيدَ عن دينهم.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿خُلُقُ﴾: (خلق) أَصلُ الكلمَةِ من الخَلْقِ؛ وهو: تَقْديرُ الشَّيْءِ، ومنه سُمِّيَت الطِّباعُ والسَّجايا ونَحْوُها أَخْلاقًا؛ لأنَّ صاحِبَها يَنْشأُ ويُقَدَّرُ علَيْها؛ فتَصيرُ لَهُ كالخِلْقَةِ(1)، والخُلُقُ: الطَّبْعُ والسَّجيَّةُ، وهو ما فُطِرَ عليه الشَّخْصُ من صِفاتٍ دون إرادَةٍ منه، سَواءٌ كان حَسَنًا أَوْ سَيِّئًا، يُقال: أَخْلَقَ الرَّجُلُ، وتَخَلَّقَ، وخَلُقَ: إذا صارَ ذا أَخْلاقٍ(2)، وكلُّ موضع استعمَلَ الخُلُقَ في وصف الكلام فالمُراد به الكذِبُ(3)، ويأتي الخُلُقُ بمعنى الدّين؛ يُقال: فُلانٌ صاحِبُ خُلُقٍ؛ أيْ: صاحِبُ دينٍ(4)، والمُراد بـ ﴿خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾: عادتُهم وشأنُهم ودينُهم.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خلق).
(2) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ تاج العروس: (خلق).
(3) الرّاغب، المُفردات: (خلق).
(4) الجُرجانيّ، التّعريفات، ص: 105، والمُناويّ، التّوقيف على مُهمّات التّعاريف، ص: 159.

2) ﴿ٱلۡأَوَّلِينَ﴾: أصلُ (أول) يدلُّ على ابْتِداءِ الأَمرِ؛ فالأَوَّلُ: مُبْتَدَأُ الشَّيْءِ، والمُؤَنَّثَةُ الأولَى[1]، يُقالُ: أوَّلُ المَطَرِ قَطْرَةٌ؛ أيْ: بدايَتُهُ، والأوَّليَّةُ: ابتِداءُ الشَّيءِ، ويُطلق الأوَّل أيضًا على الواحِدِ، يُقالُ: جاءَ النّاسُ أوَّلًا فأوَّلَ؛ أيْ: بالتَّرتيبِ الواحِد بَعْدَ الآخر، ويُستَعْمَلُ الأوَّلُ بمعنى القَديم؛ كقولهم: ما تَرَكَ لَهُ أوَّلًا ولا آخِرًا؛ أيْ: قَديمًا ولا حديثًا[2]، والمُراد بالأوَّلينَ في الآية: السّابقونَ المُتقدِّمونَ مِنْ أسلافِهِم.

3) ﴿لَأٓيَةٗ﴾: أصلُ الآيةِ العلامةُ الثّابتة من قولك: تأيَّيْتُ بالمكان إذا أقمتُ به وثبتُّ فيه، ومن ثَمَّ يُقالُ: لأجعلنَّك آيةً؛ أيْ: علامةً، مُشتقَّةٌ من التَّأيّي الَّذي هو التَّثبُّت والإقامة على الشَّيء[3]، تَقولُ: خَرِبَتْ دارُ فُلانٍ وما بَقيَ فيها آيَةٌ؛ أيْ: عَلامَةٌ، ومنه سُمّيَت الآيَةُ من القُرْآنِ بذلك؛ لأنَّها عَلامَةٌ لانْقِطاعِ الكلام الَّذي قَبْلَها والّذي بَعْدَها، وتُطلَقُ على المَصْنوعِ المُعْجِبِ؛ لِأَنَّهُ يكونُ علامةً على إتقانِ صانِعِهِ أوْ عَظَمَةِ صاحِبِهِ[4]، وكذلك تُطلَقُ على الحُجَّةِ المُثبَتَةِ؛ لأَنَّها علامَةٌ على ثُبوتِ الحَقِّ، وتُطلَقُ أيضًا على العِبْرَةِ؛ وهي أمرٌ وقعَ ومضى لكنْ بقيَ ما يُتَّعَظ به منه ويُتَّخذ مَثَلًا[5]، والآية هنا مُرادٌ بها الدّليلُ على قُدرة اللّه تعالى في شِدَّةِ بَطْشِه.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الإصـــرارُ على التَّكذيبِ سببٌ للإهلاكِ وسوءِ العاقبةِ

قال قَومُ هودٍ لِنبيِّهم: ما هذا الدّين الَّذي نحن عليه إلّا دين الأوَّلين من الآباء والأجداد، فنحن سالكونَ سبيلهم، نعيشُ كما عاشوا، ونموتُ كما ماتوا، فلا بعْثَ ولا مَعاد، ولا ثوابَ ولا عِقابَ، ولا جنّة ولا نار، فكذَّب المُشرِكون من قومِ عادٍ رَسولَهم هودًا،

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أول).
(2) الجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (أول).
(3) الخليل، العين، والرّاغب، المُفردات: (أى).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أيّى).
(5) الزّبيديّ، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (إيي - إي).

فأهلَكْناهم في الدُّنيا، إنَّ في إهلاكِ قَومِ هودٍ لَعِظةً وعِبرةً ودَلالةً واضِحةً على صِدقِ رسولِه، ولم يكُنْ أكثَرُ قَومِ هودٍ مُؤمِنينَ حقًّا، معَ وجودِ الآياتِ المُقتَضيةِ لإيمانِهم، وإنَّ رَبَّك يا مُحمَّدُ ﷺ لهو العزيزُ القاهِرُ الغالِبُ المنتَقِمُ من أعدائِه، الرَّحيمُ بعبادِه، فلا يعاجِلُهم بعَذابِه، ومِن رحمتِه أنَّه يُرسِلُ رُسُلًا، ويُنزِلُ معهم ما يُبَيِّنُ به ما يُرضيه وما يُسخِطُه، فلا يُهلِكُ قومًا إلّا بعد إعذارِهم، ومِن رحمتِه أنَّه يُنَجّي أتْباعَ رُسُلِه(1).

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علّةُ فصْلِ الآيةِ عمّا قبلها:

التّعليلُ بيانٌ للجحودِ والإنكارِ

جملة ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ تعليلٌ لما تضمنه قولُهم: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَوَعَظۡتَ أَمۡ لَمۡ تَكُن مِّنَ ٱلۡوَٰعِظِينَ ١٣٦﴾ [الشعراء: 136]؛ فكأنّهم سُئلوا عن سبب هذا القول الَّذي دلَّ على موقفهم الرّاسخ في الإعراض عن دعوة نبيِّهم هودٍ عليه السلام، فكان هذا القولُ: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ جوابًا عن هذا السُّؤال، وبهذا يكونُ بين الجُملتَيْن استئنافٌ بيانيٌّ، وهو ما يُعرَفُ بشِبْه كمال الاتّصال.

معنى ﴿إِنۡ﴾ في قوله: ﴿إِنۡ هَٰذَآ﴾:

﴿إِنۡ﴾ في جملة: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ نافيةٌ بمعنى (ما)، ولا عملَ لها لوقوع ﴿إِلَّا﴾ في حيِّزها، فيَنتَقِضُ النّفيُ، ويبطلُ العملُ القائمُ على المُشابهةِ بـ(ليس).

تحديدُ مرجعِ الإشارةِ في قوله: ﴿إِنۡ هَٰذَآ﴾:

تعدُّدُ المرجعِ لتعدُّدِ القراءاتِ في (خلق) وتعدُّدِ معانيهِ

يختلفُ تحديدُ مرجعِ اسم الإشارة في قوله تعالى: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ باختلاف القراءة، فقد قرأ ابنُ كثيرٍ وأبو عمرٍو والكسائيُّ وأبو جعفر ويعقوب ﴿خَلۡقُ﴾ بفتح الخاء وإسكان اللّام،

(1) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 614، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 125، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 153، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 19/ 88.

ومعناه الاختلاقُ والكذِبُ؛ وعلى هذه القراءة؛ فالإشارة بقولِهم ﴿هَٰذَآ﴾ إلى ما دعاهم إليه هودٌ عليه السلام من تقوى اللّه وطاعته وما جاءَهم به من عند اللّه، والمعنى: (ما هذا الَّذي دعوتَنا إليه إلَّا اختلاقُ الأوَّلين وكذبُهم، ونحن لن ننصاعَ لاختلاقِهم وكذبِهم)، فيكون ذمًّا لِمَا جاء به هودٌ عليه السلام، ونلمَح في الإشارة باسم موضوعٍ للإشارة إلى القريب دلالةَ الاستخفاف والتّهكُّم بما جاءهُم به من الآيات والأحكام.

ويجوز أن يكون (الخَلْقُ) بمعنى: الإنشاءِ والتّكوينِ؛ فالإشارة إلى ما توَعَّدهم به من الهلاك والعذاب، والمعنى: "ما هذا الَّذي نحن فيه إلَّا عادةُ الأوَّلِين في حياة ناسٍ وموتِ آخَرين، وعافيةِ قومٍ وبلاءِ آخَرين"[1] وهو كنايةٌ عن التَّكذيب بالبعث، والإشارة في هذا إلى الخَلْقِ الَّذي هم عليه؛ أيْ: إنَّ حياتَنا كحياة الأوّلين؛ نَحيا ثُمَّ نموت ولا نُبعث[2].

وقرأ الباقون: ﴿خُلُقُ﴾ بضم الخاء واللّام[3]، وهو العادة والإلفُ؛ وعلى هذه القراءة فإنّه يمكن أن تكون الإشارة إلى ما هم عليه، وبيان سبب تمسُّكِهم بعادة آبائهم ودينهم، والمعنى: (ما هذا الَّذي نحن عليه وتدعونا إلى التّخلّي عنه إلّا ﴿خُلُقُ﴾ آبائنا ودِينُهم، ونحن على عهدِهم ماضُون)؛ فيكون الكلامُ مدحًا لِمَا هم عليه ولِمَا كان عليه آباؤهم من قَبلِهم.

ويجوز أن يكونَ المَرجِع ما يدعوهم إليه من مُعتقَداتٍ وأوامر، ما هي إلّا من خُلُقِ وعقائدِ أقوامٍ عبَر عليها وانتحلَها وليس من أمر اللّه في شيء[4].

دلالةُ التّعريفِ بالإشارةِ دونَ الضَّمير:

يختلفُ الغرضُ المراد باختلافِ مرجعِ اسم الإشارة في قوله تعالى: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾؛ فإن كان مرجعُ اسم الإشارة عادةَ آبائِهم ودينَهم فقد قصَدوا به المدح لأنفسِهم، وإنْ كان المَرجِع إلى ما يدعوهم إليه؛ فالمُرادُ الذمُّ لنبيِّهم؛ لانتحالِه ما سار عليه الأوّلونَ ونسَبِهِ لنفسه، وهما معنيان مُترتّبانِ على قراءة ﴿خُلُقُ﴾ - بالضّم - بمعنى:

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 14/ 72، وأبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 257، ومكّيٌّ، الكشف عن وجوه القراءات السَّبع: 2/ 151، وابن خالَوَيْه، الحُجّة في القراءات السَّبع، ص: 268.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 173.
(3) ابن الجزري، النشر: 2/ 235.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 172.

العادة، والغرض من التّعريف بالإشارة دون الضَّمير تمييز المُشار إليه بإحضارِه مَحسوسًا مُشاهَدًا تقويةً لِادّعائِهم الكاذب، وحرصًا منهم على أنّه دليلٌ حِسّيٌّ لا يقبل العَذْل والمَلامة.

التّعريفُ باسمِ الإشارة يَحتمِلُ المدحَ والاستحسانَ، ويحتملُ الذَّمَّ والاستهجانَ

وإن كان مَرجعِه إلى المَعنَيَيْن المُترتّبَيْن على قراءة (خَلْق) وهما: الكذب والإنشاء، فقد قصدوا به الذّم والادّعاء حتّى صار ما يدعوهم إليه من أوامرِ اللّه حاضرًا مُشاهَدًا، وما هُم عليه من حالةٍ كحال السّابقين في عدم البعث أمرًا مُتميِّزًا لا يقبلُ النَّقضَ والاختلال.

معنى أداة الاستثناء في: ﴿إِلَّا خُلُقُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾:

وما ادّعاءُ الكافرينَ إلّا في ضلال

عبّر النظمُ الجليل بـ﴿إِلَّا﴾ في تركيب: ﴿إِلَّا خُلُقُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾، وهي هنا أداةُ استثناء للقَصر، والقَصر إضافيٌّ من قَصر الصِّفة على المَوصوف، وهو مفيدٌ للتّوكيدِ؛ فيكون تقويةً لادّعائِهم وتعميقًا لبيانِهم.

دلالةُ التَّعبير بـ﴿خُلُقُ﴾:

تنوُّع المعنى المُعجميّ وثراءُ المعنى القرآنيّ

الخُلُق (بضمّتين): السّجيّة المُتمكِّنة في النّفس، الباعثة على عملٍ يُناسبُها من خيرٍ أوْ شرٍّ[1]، والخَلْق (بفتح الخاء وسكون اللّام) هو الاختلاقُ والكذب، والإنشاء والإيجاد، ونظرًا لتعدُّد المعنى؛ احتملَ اسم الإشارة أكثر من مَرجِعٍ ودَلالةٍ، وانضوَى السّياق على دلالاتٍ وأغراضٍ مُتعدّدةٍ.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ﴿ٱلۡأَوَّلِينَ﴾:

لفظ (الأولين) يحتملُ المدحَ والذَّمَّ

عبّروا بلفظ الأوَّلين في قوله تعالى: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾، وأرادوا به آباءَهم وأسلافَهم الأقدمين، إشارةً إلى أنّهم على سُنَّتهم وعادتِهم وعهدِهم ماضون، وأنّهم بهم مُحتجّون، فكما ورِثوا منهم عاداتِهم وطبائِعَهم، فكذلك يَرِثون دينَهم؛ فهو مدحٌ لهم، أوْ مَن سبقوهم بالوجود سواءٌ كانوا أسلافًا أم لا، ويحتمل الذَّمَّ والانتقاصَ منهم.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 171.

نكتةُ التّوكيدِ بالقَصْرِ:

التّأكيدُ بالقَصْرِ مُؤشّرٌ على صلابةِ موقِفِهِم وعنادِهِم

جاءتْ جملةُ: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ لتبيِّنَ إرادةَ الكافرينَ في التعبيرِ عن صلابةِ موقفِهم من دعوة نبيِّهم؛ فأورَدوا الكَلام بطَريق الحَصْر مُبالَغةً في الإنكار، وتعصُّبًا في العِناد والاستكبار[1] على مَعنى: ما هذا الَّذي نحن عليه وأنت تُنكِرُهُ إلّا خُلقُ آبائِنا ودينُهم، ونحن مهما قُلْتَ أوْ عملتَ؛ فلن نَحيدَ عن طريقهم.

أوِ المعنى: (ما هذا الَّذي جئتَ به إلّا خُلُق الأوّلين)؛ يعني: عادة مَنْ سبقوك واختلاقُهم، يقصدون الرُّسُلَ السّابقين كما قالوا: ﴿لَقَدۡ وُعِدۡنَا هَٰذَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٦٨﴾ [النّمل: 68][2].

والاستثناء بعد النفي هو أقوى طُرُق القَصْر والحَصْر، وإنّما يواجَه به أشدُّ المخاطَبين إنكارًا.

معنى الواو في: ﴿وَمَا نَحۡنُ﴾:

تعدُّد المعنى والقراءةِ وأثرُهما في تحديدِ نوعِ العطفِ

في جملة: ﴿وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ جاءتِ (الواو) عاطفةً لجملةِ النّفي على ما قبلَها؛ أيْ: على الجُملة المَنفيَّة لفظًا، المُثبَتَة معنًى ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾، ويَحتَملُ العَطفُ عَطفَ المُغايَرة، إنْ كان (الخلُق) بالضَّم أو (الخلْق) بالتّسكين بمعنى: الكذب، أو أنَّه عطفُ تفسيرٍ لقولهم: (إنْ هذا إلّا خَلْقُ الأوَّلينَ) إن كان (الخَلْق) بالتَّسكين بمعنى: الإنشاء والإيجاد[3].

معنى الباءِ في ﴿بِمُعَذَّبِينَ﴾:

الكُفّار يُؤكّدون - غُرورًا وافتخارًا بكُفرِهِم - أنّهم لن يُعذَّبوا

الباء زائدة لتأكيد نفي التّعذيب، وقد قصَدوا بهذا التّأكيد ردَّ كلامه حين قال لهم: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 286.
(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 17/ 10640.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 173.

﴿١٣٥﴾ [الشُّعراء: 135]، كما قصَدوا إنكارَ هذا العذاب[1] الَّذي يُشير إليه ويُحذّرهم من وقوعه.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالجملةِ الاسميّةِ:

من بلاغة التَّعبير بالجملة الاسميّة في جملة ﴿وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ الدّلالة على وثوقهم الكامل في أنّهم لن يُعذَّبوا أبدًا، فهذا بالنّسبة لهم حكمٌ مُؤكَّد راسخٌ لا يتزحزح.

دلالةُ نفيِ التّعذيب في قوله: ﴿وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾:

الكُفّار يُؤكِّدون - غرورًا وافتخارًا بكفرهم - أنَّهم لن يُعذَّبوا

من الدّلالات الَّتي تُؤخذُ من التّصريح المُؤكَّد بنفي تعذيبهم في قولهم: ﴿وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ إضافةً لما سبق ثلاثةُ أمورٍ أخرى، أوّلُها: أنّهم لغرورهم يُقرّرون أنّهم لا يُعذَّبون، وليس من شأنهم أن يُعذَّبوا، وثانيها: إنكارُ البعث، وتلك خُلّة الكافرين، وثالثها: أنّه إنْ كان هناك بعثٌ فلن يكون العذابُ نصيبهم؛ بل تكون حالُهم في الآخرة هي حالَهم في الدُّنيا[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المفعولِ في قوله: ﴿بِمُعَذَّبِينَ﴾:

إنكارُ تعذيبهم يَشي بجُحود المُعذِّب

أمّا التَّعبير بصيغة المفعول بقولهم: ﴿وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾؛ فلأنَّهم يَكفُرون باللّه سبحانه، وهو المُعذِّب لِمَن يَستحِقُّه، ويُنكِرون الآخرةَ وهي دار العذاب والجزاء، فلأجْلِ هذا لم يُسنِدوه إلى فاعل، فلم يقولوا: (لن يُعذِّبنا اللّه)، كما يَحتمِلُ أنّ موضوع العذاب غيرُ مطروح أصلًا، سواء كان هناك معذِّب أو لا؛ فإنَّ العذاب لن يَطالَهم؛ لأنّهم صالحونَ وماضونَ على طريقة أسلافهم في الهداية والصَّلاح، فتكونُ جملةُ النّفي كنايةً عن رشادِهم وهدايتهم باتِّباعهم آباءَهم.

معنى (الفاء) في: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾:

الإنكارُ والتَّكذيبُ صِفتان مُتلازمتان

(الفاء) في قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ فصيحةٌ عاطفةٌ على مُقدَّر؛

(1) ابن التَّمجيد والقونوي، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 14/ 287.
(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 10/ 5387.

أيْ: فنصح لهم ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾[1]، أو فتبيَّن بعدَ كلامهم أنَّهم قد كذَّبوه، وفائدةُ العطف بها اتّصافٌ بأمرٍ على حالةٍ سابقةٍ وإفصاحُ حالةٍ عن موقفٍ سابقٍ، وذلك يُفيد أنَّ مُجرَّدَ القول والتلفُّظ بالكلام السّابقِ لنبيِّهم أنَّهم مُكذِّبون له رادّون لدعوته وخطابِه لهم، فيتعانقُ الإنكارُ والتَّكذيب ليُشكِّلا حلقتيْنِ مُتّصلتيْنِ لا انفكاكَ بينهما.

دلالةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المضعّف في قوله: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾:

المبالغةُ في التَّكذيبِ شأنُ الجاحدين

التَّعبيرُ بالفعل المضعّف في قوله سبحانه: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ دالٌّ على إصرارهم على ذلك التَّكذيب، وأنّهم لم يُعِدّوا سواه لمواجَهة دعوة هود عليه السلام، فلم يكن في نيّتهم أن يُقيموا معه حوارًا إقناعيًّا، ويكشف عن ذلك اختيارُهم صيغةً صرفيَّةً تفيد الكثرة والمبالغة في التَّكذيب والإنكار، وبذلك يتناسقُ كلامُهم فيما سبق مع فعلِهم والمبالغةِ فيه.

نكتةُ الإسنادِ إلى ضميرِ الجماعةِ في قوله: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾:

التَّكذيبُ وقعَ منهم جميعِهم

في إسناد التَّكذيب إلى ضمير الجماعة في قوله: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ دلالةٌ على أن التَّكذيب وقع منهم جميعِهم، وأنَّهم قد أطبَقوا على هذا الموقف من الكُفر والتَّكذيب؛ ولذلك حلَّ بهم عذابُ الاستئصال الَّذي استأصل جميعَهم؛ فلم يَبقَ منهم أحدٌ.

معنى الفاءِ في: ﴿فَأَهۡلَكۡنَٰهُمۡۚ﴾:

التّعليلُ طريقٌ للإقناعِ

الفاءُ عاطفةٌ لجملة ﴿فَأَهۡلَكۡنَٰهُمۡۚ﴾ على ما قبلها، ومُرتّبةٌ إيّاها عليها، ومفيدةٌ للسّببيَّة، فكان الإهلاكُ جزاءً للتّكذيب، ومُسبّبًا عنه؛ أيْ: بسبب أنّهم كذَّبوا بنبيِّهم مُجمِعين على ذلك ﴿فَأَهۡلَكۡنَٰهُمۡۚ﴾، وبهذا نلحَظ الفرقَ بين الفاء الفصيحة والفاء السّببيَّة؛ إذ الفصيحة تُنبِئ عن الفعل الحاصل سلفًا؛ لأنّ مُجرَّد الرَّدِّ والاعتراض تكذيبٌ، بخلاف الإهلاك؛ فإنَّه مُترتِّبٌ على التَّكذيب وليس عينَه، وتُنبِئُ الفاء السَّببيَّةُ عن سرعة الإهلاك عَقيبَ التَّكذيب.

(1) الخطيب وآخران، التَّفصيل في إعراب التَّنزيل: 19/ 213.

دلالةُ التَّعبيرِ بالإهلاكِ:

كان هلاكُهم بالرّيحِ دَفعةً واحدةً

عبَّر السّياق الحكيم بالإهلاك في ﴿فَأَهۡلَكۡنَٰهُمۡۚ﴾ للدّلالة على وقوع الهلاك بهِم شديدًا مرةً واحدةً ليكون أفجعَ لهم، فلفظُ (هلك) يَدُلُّ على كَسْرٍ وسُقوطٍ، والهَلاكُ: هو السُّقوطُ[1]، والسّقوط إنّما يكون مرَّةً واحدةً لا تَدرُّجًا، وكان هلاكُهم بالرّيح الشّديدة الَّتي اقتلعَتْهم وأغراضَهم وزرعَهم، كما تَقتلِع النَّخل من جذورها، وقد قال اللّه تعالى عن ذلك: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِي يَوۡمِ نَحۡسٖ مُّسۡتَمِرّٖ ١٩ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٖ مُّنقَعِرٖ ٢٠ فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ٢١﴾ [القمر: 19 - 21]، وبذلك عُلِم أنَّ التَّكذيب قد مرَّ بمراحل وعاملهم اللّه بحِلْمِه، ولكنَّه لمّا أخذهم أهلَكَهم دَفعةً واحدةً، ولذا تغايَر فِعْلا التَّكذيب والإهلاك.

دلالة الإسناد إلى ضمير العظَمة:

ما يُسنَد إلى العظيم عظيمٌ

أُسنِد الإهلاك إلى ضمير العظَمة في قوله تعالى: ﴿فَأَهۡلَكۡنَٰهُمۡۚ﴾ للإشعار بفظاعتِه وهَوله، إذ ما يُسنَد إلى العظيم عظيمٌ، سواءٌ في مَقام الثَّواب أم في مَقام العِقاب، وأفاد هذا الإسنادُ أنَّ اللّه تعالى يُدافعُ عن أنبيائِه ورُسلِه، فلا يَتركُهم في ساحة الدَّعوة من دون نُصرةٍ وإعانة.

نكتةُ إيقاعِ الإهلاكِ على ضميرِ الجماعةِ:

هلكت عادٌ بالاستِئصالِ الشّاملِ لجميعِهم

في إيقاعِ الإهلاكِ على ضمير الجماعة في قوله تعالى: ﴿فَأَهۡلَكۡنَٰهُمۡۚ﴾ تنبيهٌ على أنّه كان عِقابًا شاملًا لجميعِهم، فهو عقاب استئصالٍ لم يُبقِ منهم أحدًا، كما قال سبحانه مُخبرًا عن عقابهم: ﴿فَأَمَّا عَادٞ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَقَالُواْ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ١٥ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِيٓ أَيَّامٖ نَّحِسَاتٖ لِّنُذِيقَهُمۡ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (هلك).

﴿عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾﴾ [فُصِّلت: 15 - 16]، وقال عزَّ شأنُه: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [الأحقاف: 24 - 25]، وبذلك تحقَّقتِ المُغايَرةُ بين مفعولَيْ ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ و﴿فَأَهْلَكْنَٰهُمْ﴾ إفرادًا وجمعًا كما تحقَّقت على مستوى الصّيغة الفِعليَّة والفاعل؛ إذِ التَّكذيبُ قد توجّه لنبيِّهم؛ فوقع الإهلاكُ لجميعِهم، وصَدَر التَّكذيب منهم مُتدرِّجًا؛ فكان الإهلاكُ دَفعةً واحدةً لِمَنْ لا يُعجزهُ شيءٌ في الأرض ولا في السَّماء، وفي تلك المُغايَرة بين الجُملتَيْن إشارةٌ إلى أنّه لا مُقارنةَ بين فعلِ الكافرين وفعلِ الله تعالى بهم.

علّةُ فصلِ الجملةِ:

قوله سبحانه: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ﴾ جملةٌ مُستأنَفةٌ استئنافًا ابتدائيًّا هدفُه الإرشادُ إلى مَوطن العِبرة في إهلاكِهم، ليَفيدَ منه كلُّ مَن يصلُحُ للاعتبار؛ فإنّ الاعتبارُ من أغراضِ القصّةِ القرآنيّةِ.

دلالةُ في الجارّة في قوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾:

المَجازُ يرسمُ أبعادًا للمعنى

حرف الجرِّ ﴿فِى﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ﴾ للظّرفيَّة المَجازيَّة، والتَّعبير بها مُفيدٌ للتَّمكُّن والكفاية والشّمول؛ أيْ: فيما وقَع لهم من عذابٍ ما يكفي للاعتبار والاتّعاظ لكلِّ كافرٍ بالله، مُتمرِّدٍ على رُسُلِ الله ﷺ.

نكتةُ التَّعبيرِ بإشارةِ البعيدِ:

تعظيمُ العذابِ النّازلِ بهم مقابلَ التَّهكُّمِ بالدَّعوةِ

دلَّت الإشارة بـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ﴾ على شدَّة ما حلَّ بهم من عذاب الاستئصال، وبُعد منزلته حتّى صار يُشار إليه باسمٍ موضوعٍ للبعيد تفخيمًا؛ إذ ﴿ذَٰلِكَ﴾ اسم إشارةٍ للبعيد مؤذنٌ ببُعدِ منزلة هذا الإهلاك الَّذي حلَّ بهم في استئصالهم

وإبادتِهم واقتلاعِهم من جذورِهم؛ فالإشارة في ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى المَصدر المفهوم من الفعل (أهلكنا) وهو الإهلاك الَّذي حلَّ بهم، ونُلمِح إلى طباق خفيٍّ بين اسم الإشارة ﴿هَٰذَآ﴾ الوارد أوَّل الآية، و﴿ذَٰلِكَ﴾؛ فإن كانوا قد استهزأوا بما دعاهم إليه باسم الإشارة للقريب أو مدَحوا ما هُم عليه من عادات؛ فإنَّ ما نَزَل بهم أمرٌ عظيمٌ شديد الأثر والتَّأثير، ولمّا كان الغرضُ المقابلةَ بينَ الاسميْن؛ عدلَ عن (ذلكم) إلى ﴿ذَٰلِكَ﴾.

دلالةُ (اللّام) في قوله: ﴿لَأٓيَةٗ﴾:

(اللّام) في قوله: ﴿لَأٓيَةٗ﴾ هي لامُ الابتداء الَّتي يُقال لها: المُزحلَقة كراهةَ اجتماعِ تأكيديْنِ أوّلَ الكلام - وفائدتُها التّأكيد - ليتقابلَ توكيدُ إنكارهم وجحودِهم مع توكيد عذابِهم الَّذي استحقّوه واستوجبوه.

تأكيدُ العذابِ مقابلَ تأكيدِ الإنكارِ

نكتةُ التَّعبيرِ بـ (آية) دونَ (دليل):

عبَّر بـ ﴿لَأٓيَةٗ﴾ دون (دليل) في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ﴾؛ لأنَّ التَّعبير بالآية أعمُّ وأوسَعُ، فما الدّليل إلّا أحد معانيها، فالآية هي الدّليل، وهي العلامة، وهي العِبرة، وكلُّ هذه الدّلالات والمعاني متوفِّرة في الإهلاك الَّذي حلَّ بقوم هودٍ عليه السلام، كما تُعطي (الآية) معنى الدّلالة الظّاهرة الَّتي لا سبيلَ لإنكارها وجَحْدها، بخلاف (الدَّليل) الَّذي قد يكون خفيًّا مُحتاجًا إلى التَّأمُّل.

التَّعبيرُ بالآيةِ أشملُ وأظهرُ من التَّعبيرِ بالدّليلِ

دلالةُ التنكير في قوله: ﴿لَأٓيَةٗ﴾:

نكَّر الذِّكْرُ الحكيمُ كلمة ﴿لَأٓيَةٗ﴾ تفخيمًا لأمرِها وتهويلًا لشأنِها، وأنّها وحدَها لعِظَم ما فيها كافيةٌ في ردع الكفّار عن كُفرهم، وفي تنكيرها مقابلَ تعريف ﴿خُلُقُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ تقابُلٌ بين الفَخْم العظيم النّازل والاستخفاف والتّهكُّم في نسبة الكذِب إلى نبيِّهم، أو في وضوحِ نسبةِ العادات الطيِّبة إلى أسلافِهم وما هُم عليه مع أنَّها ليست واضحةً ولا بيّنةً.

التّفخيم مقابِلَ التّهوين

العطفُ بالجُمَل المُتقابِلةِ دليلُ العَظَمَةِ

معنى (الواو) في: ﴿وَمَا كَانَ﴾:

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ﴾ عاطفةٌ للجُملةِ المَنفيَّة: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ على الجملة المُثبَتة: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ وذلك في مُقابِل عطف الجُملة المَنفيّة ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ على الجملة المُثبَتةِ معنًى ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، والغرضُ من القلب بين الجُمَل المتعاطفة الإشارةُ إلى أنَّ قولهم وفِعلهم لا يُقارَن بشيءٍ من قول الله وفعله العظيم، وقيل: هي واو الحال[1].

توكيدُ النَّفي يُحقّق التَّوازن

دلالةُ نفي الوجود في قوله: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾:

﴿وَمَا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ نافيةٌ نفتِ الإيمان عن أكثرهم، وأُقحِمت ﴿كَانَ﴾ بعدها للتّأكيد كما هو رأي سيبويه والمُحققّين، وليست هنا زائدةً لعدم وقوعها في أسلوبِ التّعجُّب المُتوهَّم، أو بينَ شيئَيْن مُتلازمَيْن كما هو المعهودُ عند زيادتها، ونحسبُ أنَّ الإتيان بها أفاد أنَّ جحودهم وعدمَ إيمان أكثرهم ليس وليدَ المرحلة الحاضرة؛ بل يعود إلى أسلافِهم ويمتدُّ إليهم، وبذلك يتحقّقُ التَّقابُلُ بينَ ما نسبوه لآبائهم من عاداتٍ حسنةٍ وخِلالٍ طيّبةٍ إلى نسبة الكُفرانِ لأكثرِهم وأكثرِ آبائهم.

التَّعبيرُ بالكثرة للاحتراسِ، ولإفادةِ أنَّ قليلًا منهم مُؤمنون

دلالةُ التَّعبيرِ بمادّةِ الكثرةِ في قوله: ﴿أَكْثَرُهُم﴾:

نفى القرآنُ الكريم الإيمانَ عن أكثر قوم هود وليس عن جميعهم في قوله: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾؛ إنصافًا واحتراسًا، وفيه تنبيهٌ على أنَّ قليلًا منهم كانوا مؤمنين؛ وهم النّاجون من هذا الهلاك الّذين قال الله تعالى فيهم: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [الأعراف: 72]، ولذا عبَّر بصيغة اسم التّفضيل (أفعل) في ﴿أَكْثَرُهُم﴾ تمييزًا لغير المؤمنين عن المؤمنين ببيان أنَّهم الأكثرُ عددًا.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 102، والخطيب وآخران، التَّفصيل في إعراب التَّنزيل: 19/ 108.

نكتةُ الإضافةِ إلى ضميرِ الجمعِ في قوله: ﴿أَكۡثَرُهُم﴾:

كثرةُ أهلِ الكفرِ مقابلَ قلةِ أهلِ الإيمانِ

التفوُّق العدديّ في كلِّ زمانٍ هو لأهل الكُفر؛ لغلبةِ سُلطان الهوَى والغفلة عن الأدلّة المُخاطِبة لعقولهم وقلوبِهم، والضَّمير هنا عائدٌ إلى المُخبَر عنهم وهم قوم عادٍ، وفي إضافة (الأكثَرِ) إلى ضمير الجمع في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ تَسجيلٌ على أكثرِهم بالكُفر[1]. وهذا دأْب أهل الكُفر في كلِّ زمانٍ، بأنّهم أكثر عددًا كما قال سبحانه: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ٨٢ يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٨٣﴾ [النّحل: 82 - 83].

دلالةُ التَّعبيرِ بنفيِ الإيمانِ في قوله: ﴿وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم﴾:

توبيخُهُم على عدمِ الإيمانِ وإيثارِهم الكُفرَ عليه

عبَّر عن أكثرِهم بنفيِ الإيمانِ في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ دون أن يُعبِّر بإثبات الكُفر إليهم؛ فلم يَقُلْ: (وكان أكثرهم كافرين) إبرازًا لصفة الإيمان وتقبيحًا لحالهم أنّهم لم يكونوا مؤمنين، وتوبيخًا لهم على ذلك، وأيضًا مَدحًا للقلّة منهم الّذين آمنوا، فكانت صفتهم هي الأجدر بالذِّكر والإبرازِ، كما يتحقّق التّقابُلُ بين النّفيَيْن في قوله تعالى: ﴿وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ و﴿وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ إذْ سَلْبُ الإيمان عنهم يُحقّق سببَ استحقاقِ العذاب عليهم، بخلاف ما لو جاء الكفرُ ثابتًا لهم؛ فإنّهم لا يُسلِّمون بكفرِهم وجحودِهم لقولهم مدحًا لما هم عليه: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾، كما أفاد التَّعبير باسم الفاعل ﴿مُّؤۡمِنِينَ﴾ دون الفعل (قد آمنوا) رسوخَ صفة الإنكار فيهم وعراقةَ الجحود الَّتي رانت على أفئدتهم.

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ اسمِ التّفضيل: ﴿أَكۡثَرُهُم﴾:

نفيُ الإيمانِ عن بعضِ مَن تظاهرَ به منهم

عبّر النظمُ بصيغة اسم التّفضيل في قوله: ﴿وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ حين نفى عن أكثرِهم أن يكونوا مؤمنين، تنبيهًا على أنّ إيمان بعضِ مَن آمَن منهم لم يكن عن رسوخٍ وإنّما كان عن تظاهُر،

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 142.

كما عبّر عنه قوله سبحانه: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ١٠٦﴾ [يوسف: 106][1].

معنى (الواو) في ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾:

العظَمةُ المقرونةُ بالرّحمةِ تُقابِلُ الضّعفَ المُقترِنَ بالقَسوةِ

(الواو) في قوله سبحانه: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ هي واو الحال؛ أيْ: والحال[2] والشَّأن أنَّ ﴿رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ أو هي العاطفة، بأن تكون قد عَطفت هذه الجملة على سابقتها، وعلى كلٍّ من المعنيين أفادت الواوُ عِظَمَ العذاب النّازلِ بهم مع كمال الرّحمة والتَّهوينَ من شأن إنكارهم وجحودهم المُقترِن بالقسوة[3].

دلالة توالي المؤكّدات:

توالي المُؤكِّدات مُقرِّرٌ لكمالِ العَظَمَةِ والرَّحمةِ

توالت عدّةُ مؤكِّدات في جملةِ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾؛ لتقرير ما تضمنه وصفه سبحانه بالعزَّة والرَّحمة؛ وهي: تصديرُ الجملة بـ (إنَّ) التّوكيديّة، واسميّةُ الجملة، وإدخالُ اللّام على الخبر والإتيان بـ(هو) ضمير الفصل، ثمّ خَتْمُ الجملة بالوَصْفيْن الجليليْن ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ مُعرَّفيْن بالألف واللّام الدّالّيْن صيغةً على المُبالَغة بالوصف؛ فهذه كلُّها مؤكِّدات متلاحقةٌ سيقتْ في الجملة لتأكيد أنَّه سبحانه القادرُ على إهلاك مَن شاء وتقريره، وأنّه إنْ أخَّر إهلاك الظّالمين فلِمَحض رحمته بهم بإمهالِهم لعلَّهُم يعودون فيُؤمنون ويشكرون.

لطيفةُ الذكْرِ بعنوان الرُّبوبيّة مضافاً:

الرَّبُّ يُشعرُ بالعظمةِ والرَّحمةِ مع الوعدِ

عَدَلَ النَّظْم عن الاسم العلم (اللّه) إلى وصف الرّبوبيّة في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾، تنبيهًا إلى أنّ إنعامه سبحانه ورحمته بعباده قد سبقا نِقمَتَه على عباده، وأنّ عفوه سابقٌ عقوبتَه،

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 14/ 11.
(2) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 14/ 11.
(3) الخطيب وآخران، التَّفصيل في إعراب التّنزيل: 19/ 109.

ولفظ الرَّبِّ يُشعر بالعَظَمَة والتّربية والقيوميّة، كما أنّه أُضيف إلى ضمير المُخاطَب العائد إلى النَّبيِّ الأكرم ﷺ للدّلالة على عناية اللّه تعالى به وتوصيله إلى درجات الكمال كما يُربَّى الولدُ حتّى يبلغ مرحلة النَّضج والاكتمال، وفي ذلك وعدٌ خفيٌّ له ﷺ بالانتقام من الكُفّار القُساة؛ لكنّه يُمهلُهم برحمته ليُقيمَ عليهم الحُجَّة لعلَّهم يَرشُدون. "وفي التّعرُّض لوصف الرّبوبيّة مع الإضافة إلى ضميره ﷺ من تشريفه والعِدَة الخفيّة بالانتقام من الكَفَرة ما لا يخفى"[1].

دلالتا (اللّام) والضَّمير في قوله تعالى: ﴿لَهُوَ﴾:

التّوكيد تقريرٌ للكلام وتعميقٌ للبيان

جمعَ النظمُ الكريم في قوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ بينَ اللّام والضَّمير، و(اللّام) هي اللّام المُزحلَقة، كاللّام في قوله سبحانه: ﴿لَأٓيَةٗ﴾، وهي تُفيد التّأكيد، والضَّمير (هو) إمّا أن يكون ضمير الفصل، لا محلَّ له من الإعراب[2]، وفائدته حينئذٍ التّوكيد مع الدّلالة على القصر، ويجوز أنْ يكون في محلِّ رفع مبتدأ، وما بعده خبرُه.

دلالةُ القَصْر في قوله: ﴿لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾:

للهِ تعالى الكمالُ المُطلق في ذاته وصفاته وأفعاله

في قوله تعالى: ﴿لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ قصرٌ للصِّفة على الموصوف، فلا أحد يجمع بين صفتَي العزّة والرّحمةِ مع كامل القدرةِ المُطلَقة عليهما، والتّمكُّن المُطلق فيهما إلّا اللّه تعالى؛ فهو سبحانه عزيزٌ في رحمته، رحيمٌ في عزّته وقهره، وسائر مَن يكون فيه شيءٌ من هاتيْن الصّفتيْن، فإنّه من العسير عليه أن يجمعَ بينهما؛ بل يغلِب عليه إحداهما، وبقدرٍ ضئيلٍ يُناسِب المَخلوقَ، أمّا اللّه تعالى؛ فله الكمال المُطلق في ذاته وصفاته وأفعاله.

دلالةُ التَّعريفِ بـ(أل) في قوله: ﴿لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾:

تعريفُ الطَّرَفيْن تحقيقٌ للمُراد

في تعريفِ المُسنَد في قوله تعالى: ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ بـ(أل) الدالّة

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 235.
(2) الخطيب وآخران، التَّفصيل في إعراب التَّنزيل: 19/ 109.

على الجنسِ والكمال مع إيرادِ المُسنَد إليه مُعرّفًا بالإضافة ﴿رَبَّكَ﴾ دلالةٌ على القَصْر، وإثباتٌ للكمال المُطلَق للّه في صفاته، ومنه ثبوتُه في هاتيْن الصِّفتيْن الجليلتيْن، كما يتناغمُ كلٌّ من المُسنَدَيْن مع المُسنَد إليه؛ إذ الرَّبُّ يوحي بالعزَّة والرَّحمة معًا، فناسبَ أن يُحكَم عليه بأنّه عزيزٌ رحيمٌ، وكأنَّ الصّفتيْن المذكورتيْن تصريحٌ بما عُلِمَ ضمنًا من وصف الرّبوبيَّة، كما أنَّ عذاب الاستئصال نزل بالمعذّبين؛ فناسبتْه العزَّة، ولم ينزل بالمؤمنين؛ فناسبته الرّحمةُ.

براعةُ ختمِ الآيةِ والقصّةِ بصيغتي فعيل:

التّماسكُ بين الصّفتيْن عزيزٌ في رحمته، ورحيمٌ في عِزّته

قوله سبحانه: ﴿لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ تذييلٌ لهذا الخبر بوصف اللّه بالعِزَّة على سبيل الكثرة؛ أيْ: تمام القدرة، فتَعلمون أنَّه لو شاء لعجَّل لهم العقاب، وبوصفه بالرَّحمة على سبيل المُبالَغة، وفيه إيماءٌ إلى أنَّ في إمهالِهم رحمةً بهم لعلَّهم يشكرون، كما قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَفُورُ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۖ لَوۡ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلۡعَذَابَۚ﴾ [الكهف: 58][1] وفي الجمع بين هاتيْن الصّيغتيْن الدّالّتيْن على المبالغة والكثرة ما يدلُّ على التّماسك بين الصِّفتيْن الجليلتيْن؛ فهو سبحانه عزيزٌ في رحمته كثيرًا، ورحيمٌ في عزّته وقهره كثيرًا أيضًا.

وجهُ مناسبةِ العزَّة للرَّحمة:

سرُّ الجمعِ بين الصِّفتيْن في دفع توهُّم التَّناقض بينهما

جمع سبحانه في قوله: ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ بينَ هاتيْن الصِّفتيْن لما قد يُتوَهَّم أنَّ بينهما تضادًّا، وأنَّ العزّة تُنافي الرَّحمة، والرَّحمةَ كذلك تُنافيها، فكشَفَ اللّه تعالى بذِكْرهما معًا أنَّ عزّته سبحانه لا تُنتِجُ القسوة الظّالمة؛ فهي العزّة العادلةُ؛ بل العزّة المُقترِنة بالرّحمة؛ لأنَّه سبحانه غنيٌّ عن الظُّلم، لكنَّها في نفس الأمر عزّةٌ تُثبِّت مظاهر الهيبة والجلال الإلهيّ في النّفوس، وكذلك رحمته لا تعني بحالٍ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 102.

التَّهاون والمساواةَ بين المؤمنين وغيرهم، والمُصلِحين والمُفسِدين؛ بل هي الرّحمة العزيزة العادلة؛ بل المتفضِّلة حسبما تقتضي حكمتُه سبحانه، وبذلك يَظهَر أنَّ سرَّ التَّناسُب في الجمع بين الصّفتيْن هو دفع تَوَهُّم وجود التناقُض بينهما، بحيث يُتوَهَّم تنافي اجتماعِهما في موصوفٍ واحد، ومعروف أنَّ صفاته سبحانه تجمع بين مَظاهِر الجلال ومظاهر الجَمال، وفي كُلٍّ بلغ الكمالَ الَّذي يليق بذاته المقدَّسة، كما تلاءَمَ ذِكْرُ الوصفيْن مع وصف الرّبوبيّة، وأنَّ العذاب لم ينزل إلا بأكثرهم في حين نالت الرّحمةُ المؤمنين منهم.

نكتةُ التّرتيب بين الصّفتيِن: ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾:

لو رحِمَهم ابتداءً لما عذّبهم، ولأنَّ المَقام مقامُ إظهارِ القُدرة

قُدِّمت صفةُ ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ على صفة ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ في قوله تعالى: ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾؛ لأنّه لو لم يُقدّمه في السّياق هنا لكان ربما قيل: إنّه رحِمهم فلا يتناسَبُ مع الإهلاك الوارد بدايةَ القصة؛ فأزال هذا الوهم بذِكْر العزيز وهو الغالب القاهر، ومع ذلك فإنّه رحيمٌ بعباده، ولا يَخفَى أنَّ الإهلاك تقدَّم ذِكْرُه على ذِكْرِ الأكثريَّة منهم في عدم الإيمان الدّالِّ بالفَحْوى على أنَّ القليل منهم آمنوا فرُحموا؛ فناسبَ السّياقَ تقديمُ العِزَّة على الرَّحمة.

وأيضًا فإنّه لّما كان المقامُ مقامَ بيانٍ للقدرة الإلهيّة؛ كان من الأنسَبِ تقديمَ صفة العزَّة على صفة الرّحمة؛ فالرّحمة إذا كانت عن قدرةٍ؛ كانت أعظمَ وقعًا، والمعنى أنّه عزَّ في نِقمتِه من الكُفّار، ورحِم مؤمِني كلِّ أمّة(1).

الفروقُ المُعْجَميَّة:

(الأوَّلُ) دالٌّ على ابتداءِ الأمرِ، و(السّابقُ) على السَّبق في التّرتيب

الأوَّل والسّابق:

أصلُ السّبق التّقدُّمُ في السّير، ثُمّ أُطلِق مَجازًا في غيره من

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 142، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 492.

التّقدّم، فيُستعار للسَّبق في التّرتيب، ولإحرازِ الفضل والتّبريز، وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ١٠﴾ [الواقعة: 10]؛ أي: المُتقدِّمون إلى ثواب الله وجنّته بالأعمال الصّالحة[1].

وأمّا كلمة (الأوَّل) فإنّها تدلُّ على ابتداء الأمر[2]؛ أيِّ: الابتداء في الزَّمان، ثم صار يُطلَق مجازًا على غيرِه، كما يُطلَق على الأوّليّة في التّرتيب ونحو ذلك؛ وعلى ذلك فالألصَق تعبيرًا عن الأوَّليّة والقِدَم في الزّمان هو لفظ (الأوَّلين) لا (السّابقين)؛ ولذلك آثَرَ القرآن الكريم دائمًا استخدام لفظ ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾ كما في قوله سبحانه: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ لدلالته المباشِرة على المُراد؛ أيِّ: الأسلاف الأوائل الّذين قضَوا ومَضَوا، في حين أنَّ (السّابقين) يدلُّ على المُتقدِّمين؛ سواءٌ كان التقدُّمُ زمانيًا أو رُتَبيًّا ولو مِن المتأخِّرين، فبينهما علاقةُ العموم والخصوص المُطلَق، فكلُّ أوّلٍ سابقٌ، وليس كلُّ سابقٍ أوّلَ.

الآية والعلامة:

لـفـظ (الآيــة) أدلّ وأشـمـل مـن (الـعـلامـة) وغيرها

يستبطِنُ لفظُ (الآية) معانيَ كثيرةً، من أخصِّها معنى (العلامة)؛ لأنَّ الآية علامةٌ على صدقِ مَن أتى بها وعلى عَجْزِ المُتحدَّى بها مع ظهورها ووضوحها، وقيل: لأنّها علامةٌ على انقطاع ما قبلَها من الكلام وانقطاعِه ممّا بعدها[3]. كما تتضَمَّن أيضًا معاني (البرهان والدّليل والعلامة) وغير ذلك، ومن هنا يُؤثِرُ القرآن الكريم التَّعبيرَ بلفظ الآية لشموله هذه المعاني جميعَها، فقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةًۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ متضمِّنٌ لكلِّ هذه المعاني المذكورة من (العلامة) و(الدّليل) و(البرهان)، ولو قال (إنَّ في ذلك لعلامةً) لنقَصَ المعنى عن المُراد؛ لأنَّها قد

(1) الرّاغب، المُفردات: (سبق).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أول).
(3) السّيوطيّ، الإتقان: 1/ 230.

تكون خفيَّةً وموهِمةً، فضلًا عن تميُّز إيقاع كلمة (آية) على الأُذُن في السّياق الكريم.

العزيز والغالب:

العزيز القاهر المتُفرِّد، والغالب القاهر فحسب

"أصلُ (عزز) في الكَلام يعني الغَلَبَة والشِّدّة، يُقال: عزَّني فلانٌ على الأَمر إذا غلبني عليه، ويُقال: عزَّه يعزُّه، واللّه تَعالَى هوَ الغالِب على كلّ شَيْءٍ؛ فهوَ العَزيز الَّذي ذلَّ لعِزَّته كلُّ عَزيز"[1]، هذا النَّص من الزَّجّاج يَشي بالتّداخل بين لفظي (العزيز) و(الغالب)، وهكذا عرَّف العسكريُّ (العزيز) بأنَّه: "الغالب الَّذي لا يَفوتُه شيءٌ، ولا يُعجزهُ شيءٌ"[2]، وهذا ما مال إليه المفسّرون، قال الفخر الرّازيّ: اعلَم أنَّ العزيز هو الغالبُ الشَّديد، والعزّةُ هي الغلبة والشدّة[3]. وفي موضع آخَر أشار إلى سَعة لفظ (العزيز) بحيث يشمل معنى الغالب، ومعنى الَّذي لا مثل له، فقال: العزيز له تفسيران؛ **أحدُهما**: الغالب، فيكون معناه القادر الَّذي لا يُساويه أحدٌ في القدرة، **والثّاني**: الَّذي لا مِثل له[4]. وبهذا تكون خصوصيَّة لفظ (العزيز) في سَعة معناه، بحيث يدلُّ على تفرُّده سبحانه بالغَلَبة والعزّة والقهر؛ فلا شبيهَ له في قهره ولا مثيلَ له في غلَبته، ولذلك يُؤثِر القرآن الكريم التَّعبير باسم اللّه (العزيز) لدلالته على التفرُّد المطلَق في شدَّته وقوّته، والغلبة معنًى من معانيه، واسم اللّه (العزيز) هو المتَّفَق على كونه من أسمائه الحسنى، بخلاف اسم (الغالب) ففي كونه منها خلاف.

---

(1) الزّجّاج، تفسير أسماء الله الحسنى، ص: 33.

(2) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 110.

(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 16/ 178.

(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 483.

﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٤١ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ١٤٢ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ١٤٣ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٤٤ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٤٥﴾

[الشُّعراء: 141 - 145]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبلَها:

دأبُ الأقوامِ مع أنبيائِهم واحدٌ؛ من حيث تكذيبُهم وعدمُ الاستجابة لهم

بعد أن ذَكَرَ سبحانه وتعالى قصَّة هودٍ عليه السلام مع قوم عادٍ، وأخبر عن موقفهم الرّافض لدعوة نبيّهم وإصرارِهم على التَّمسُّك بدين آبائهم؛ ذَكَرَ بعد ذلك قصَّة صالحٍ عليه السلام مع قوم ثمود الّذين لم يكن موقفُهم مع نبيِّهم ودعوته بأحسنَ من موقف كلِّ الأقوام الّذين سبق ذِكْرُهم في السّورة مع أنبيائهم عليهم جميعًا صلوات اللّه وسلامه، من الرّفض لدعوتهم والتَّعنُّت معهم؛ فقال سبحانه: ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾، وفي ذلك تسليةٌ للنّبيّ صلى الله عليه وسلم وتثبيتٌ له على الدّعوة والتّبليغ.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ثَمُودُ﴾: (ثمد) أَصْلٌ واحِدٌ، وهو القَليلُ مِنَ الشَّيءِ، فالثَّمدُ الماءُ القَليلُ لا مادَّةَ لَهُ، وثَمَدَتْ فُلانًا النِّساءُ إذا قَطَعْنَ ماءَهُ[1]؛ ومنه سُمّيت قَبيلَةُ ثمود؛ لِقِلَّة مائِها، وثَمودُ أُمَّةٌ مِنَ العَرَبِ البائِدَةِ العارِبَةِ، وثَمودُ: اسْمُ جَدِّ تِلْكَ الأُمَّةِ ولَكِنْ غَلَبَ على الأُمَّةِ؛ فلذلكَ مُنِعَ مِنَ الصَّرْفِ للعلميَّةِ والتَّأْنيث باعْتِبارِ الأُمَّةِ أَوِ القَبيلَةِ[2]، والمُراد بثمود في الآية: اسمُ جَدٍّ سُمّيَتْ بِهِ القَبيلَةُ والجماعةُ.

2) ﴿تَتَّقُونَ﴾: (وقى) أَصْلُ الوِقايَةِ: دَفْعُ شَيْءٍ عن شَيْءٍ بِغَيْرِه، يُقال: وقَى نَفْسَهُ مِن العَدوِّ بِسِلاحِهِ؛ أيْ: دَفَعَهُ بِهِ، والوِقايَةُ: ما يَقي

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ثمد).

(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (ثمد)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 116.

الشَّيءَ، واتَّقِ اللّه: تَوَقَّهُ؛ أَي: اجْعَلْ بَيْنَكَ وبَيْنَهُ كالوِقايَةِ[1]، والمُتَّقي مَنِ اتَّصَفَ بِالاتِّقاءِ وهوَ طَلَبُ الوِقايَةِ، وهوَ الحَذرُ المُتَطَلِّبُ لِلنَّجاةِ مِنْ شَيْءٍ مَكْروهٍ مُضِرٍّ[2]، والاتِّقاءُ: تُكَلُّفُ الوِقايَةِ وهيَ الصَّوْنُ والدَّفْعُ[3]، وتأْتي الوِقايَةُ بِمعنى الحِفْظِ مِن الأَذَى والضَّرَرِ[4]، والمُراد بالاتّقاء في الآية: حفظُ الشَّيءِ ممّا يُؤذيه ويَضُرّه.

3) ﴿أَمِينٌ﴾: (أمن) أَصلانِ مُتقاربانِ؛ أحدهما: الأمانةُ الَّتي هي ضدُّ الخيانَةِ، ومعناها سُكونُ القَلْبِ، والآخَرُ: التَّصديقُ[5]، يُقالُ: أَمِنْتُ الرَّجُلَ أَمنًا وأَمَنَةً وأَمانًا، وآمَنَني يُؤْمِنُني إيمانًا، والعَرَبُ تَقولُ: رَجُلٌ أُمّانٌ: إذا كانَ أَمينًا، والأَمينُ: القويُّ لأَنَّه يوثَقُ بقوَّته[6]، والأمينُ أيضًا: الَّذي يحفظُ ما عُهِدَ له به حتّى يُؤَدّيَهُ دونَ نَقْصٍ ولا تَغييرٍ، والرَّسولُ لا يُبعَثُ إلّا وقد كانَ معروفًا بالأَمانةِ وحُسْنِ الخلُقِ قَبْلَ الرِّسالةِ[7].

4) ﴿أَسْـَٔلُكُمْ﴾: أَصْلُ (سأل) كلمةٌ واحدة معناها: الاسْتِدْعاءُ والطَّلَبُ، يُقالُ: سَأَلَ يَسْأَلُ سُؤالًا ومَسْأَلَةً[8]، ويُقالُ: سَأَلْتُهُ عَنْ عِلْمٍ سُؤالًا ومَسْأَلَةً؛ أَيْ: طَلَبْتَ مَعْرِفَتَهُ، وسَأَلْتُهُ الصَّدَقَةَ؛ أَيْ: طلَبْتُ منه أَنْ يَتَصَدَّقَ عليَّ[9]، والسُّؤالُ: استدعاءُ معرفة، أو ما يؤدّي إلى المعرفة، واستدعاءُ مالٍ، أو ما يؤدّي إلى المال، فاستدعاءُ المعرفة جوابُه على اللّسان، واليدُ خليفةٌ له بالكتابة أو الإشارة، واستدعاءُ المال جوابه على اليد، واللّسان خليفةٌ لها إمّا بوعدٍ، أو بردٍّ[10]، وحقيقةُ السُّؤالِ في الآية هو الطَّلَب.

5) ﴿أَجْرٍ﴾: أَصلُ (أجر) الجَزاءُ على العَمَلِ[11]، ومنه سُمّيَ الثَّوابُ أَجْرًا؛ لأَنَّ اللّهَ يَجْزي العَبْدَ عليه، والأَجْرُ: العِوَضُ، مَصْدَرُ أَجَرَهُ وآجَرَهُ يَأْجُرُهُ ويَأْجِرُهُ، والأجير: فعيل

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والسَّمين، عُمدة الحُفّاظ: (وقى).
(2) السَّمين، عُمدة الحُفّاظ: (وقى)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/ 226.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 393.
(4) السَّمين، عُمدة الحُفّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (وقى)، والمِناويّ، التّوقيف على مهمّات التّعاريف، ص: 340.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أمن).
(6) ابن سِيدَه، المُحكَم، وابن منظور، لسان العرب: (أمن).
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 164.
(8) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، ولسان العرب: (سأل).
(9) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/ 194.
(10) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، ولسان العرب: (سأل).
(11) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أجر).

بمعنى فاعِل أوْ مُفاعِل، والاستئجارُ: طلبُ الشَّيء بالأُجرة[1]، والمقصودُ بالأَجْر في الآية: العِوَضُ والجَزاءُ على العَمَلِ.

المَعْنى الإجْماليُّ:

هودٌ عليه السلام داعيةٌ يدعو باسم ربِّه إلى خيرٍ، وإلى هُدًى

يحكي اللّهُ تعالى جانبًا مِن قصَّةِ صالحٍ عليه السلام مَعَ قومِه، فيقولُ: كذَّبتْ قَبيلةُ ثمودَ بجَميعِ رُسُلِ اللّه؛ لأنَّ التَّكذيب برسولهم يستلزمُ التَّكذيب بالمُرسَلين جميعًا؛ لأنَّ دعوتَهم واحدةٌ، إذْ قال لهم نبيُّهم صالحٌ عليه السلام ألا تتّقون عِقابَ اللّه على معصيتكم إيّاه وخلافكم أمره بطاعتكم أمر المُفسِدين في الأرض؟ إنّي لكم رَسولٌ مِن اللّهِ، أمينٌ على وحيِه، أبَلِّغُكم إيّاه بلا زيادةٍ ولا نُقصانٍ، فاتَّقوا عِقابَ اللّهِ وسَخَطَه، وأطيعوني، ولا أطلبُ على نُصحي وتبليغي عِوَضًا ولا جزاءً، فما جزائي إلّا على اللّه الّذي أرسلني، وهو يتولّاني في الدُّنيا والآخرة[2].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ فصْل الجملة عما قبلها:

تسليتُهُ صلى الله عليه وسلم بذِكْرِ قصَّةِ صالحٍ كما سلّاه بقصَّةِ نوحٍ وهودٍ عليهم جميعًا السَّلام

هذه الجملةُ: ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ مفصولةٌ عمّا قبلها للاستئناف، وهو استئناف تَعدادٍ وتكرير[3]؛ كالّذي تقدَّم في هذه السّورة في قوله سبحانه: ﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ نُوحٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٠٥﴾ [الشُّعراء: 105]، وقوله سبحانه: ﴿كَذَّبَتۡ عَادٌ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٢٣﴾ [الشُّعراء: 123]، والهدف من ذِكرِها جميعًا تسليتُه صلى الله عليه وسلم عمّا لَقيَه من أذى قومه، وأشدُّه عليه عدمُ إيمانهم به، كما أخبر سبحانه عن حاله هذه في بداية السّورة بقوله سبحانه: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ٣﴾ [الشُّعراء:

(1) الرّاغب، المُفردات: (أجر).

(2) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 618، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 127، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 19/ 90، والزُّحيليّ، التَّفسير المُنير: 19/ 199.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 174.

3 وفائدةُ الاستئناف في كلٍّ من تلك القِصص الإشارةُ إلى أنَّ كلَّ واحدةٍ منها تصلحُ أنْ تكون عِبرةً للسّامعين وموعظةً للسّائرين.

نكتةُ ذِكْر صيغةِ الماضي المضعَّف في قوله: ﴿كَذَّبَتۡ﴾:

ذُكِر التَّكذيبُ صريحًا بصيغة الماضي ﴿كَذَّبَتۡ﴾ للدّلالةِ على تحقُّق وقوعِه منهم، وقد شاع وذاعَ تكذيبُ ثمود نبيَّهم صالحًا عليه السلام؛ فكانت العرب تَعرفُ هذه الأخبار معرفةً وثيقةً، للقُرب بينهم وبين ديار ثمودَ، كما أفادت الصّيغةُ الصّرفيّةُ الدّلالةَ على المبالغةِ في فعل التَّكذيبِ، وأنّهم قد مارسوه بشتّى ألوانه وصوره.

التَّكذيبُ المتنوِّعُ الصّورِ سمةُ الأقوامِ البائدةِ

لطيفة تأنيثِ الفعلِ في قوله: ﴿كَذَّبَتۡ﴾:

أُنِّث الفعلُ ﴿كَذَّبَتۡ﴾ مع الفاعل ﴿ثَمُودُ﴾ في قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾؛ لأنَّ اسم ﴿ثَمُودُ﴾ وإنْ كان في الأصل علَم سيِّدهم وكبيرهم؛ إلّا إنَّه صار علَمًا على أمّة؛ فهو مُؤوَّلٌ بمعنى الأُمّة أوِ القبيلة، فكأنَّه قال: كذّبت أمّةُ ثمود، أوْ: قبيلةُ ثمودَ، أوْ: جماعةُ ثمود، ونحو ذلك، إضافةً إلى أنَّ تأنيثَ الفعل الحامل على التّأوّل يدلُّ على كثرة هؤلاء المُكذِّبين لنبيِّهم صالح عليه السلام، وأنّهم أُمّةٌ عظيمةٌ وجماعةٌ كبيرةٌ.

تأنيثُ الفعلِ دالٌّ على كثرة المُكذِّبين

لطيفةُ إيرادِ المفعول بصيغةِ اسمِ المفعول: ﴿ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾:

الرُّسُلُ لا يَدْعون النّاسَ إلى مصالحِهم الشَّخصيَّة، ولكنَّهم يُبلِّغون رسالةَ ربِّهم المُؤيَّدة ببراهين الصِّدق، ووصْفُ المُكذَّبين بـ ﴿ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ فيه توبيخٌ للمُكذِّبين؛ لأنَّهم لم يُكَذِّبوا مَن دعاهم إلى نفسه من حيث إنَّه فلان فيُتَّهم، وإنَّما كذَّبوا من أرسلَه اللّٰه إليهم، وأيَّده بما يدلُّ قطعًا على صِدْقه من المعجزات، وشأنُ المعجزة أن تُلزِم المُخاطَبينَ بالإذعان والتّصديق، فإنْ لم يفعلوا فما صَرَفَهُمْ عنه إلّا الجحود، كما أنَّ تكذيبَ المُرسَل يستلزم تكذيب المُرسِل وبراهينه وآياته، ومن ثَمَّ عدَلَ إلى هذا الوصف المُبيِّن علّةَ الجحود الحاملِ على التّوبيخ.

التّوبيخُ للمُكذِّبين ببيانِ علَّةِ الجُحود

سِرُّ الجمع في قوله: ﴿ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾:

الرُّسُل جميعًا مُبلِّغون عن الله، وتكذيبُ أحدِهِم تكذيبٌ لهم جميعًا

كلُّ المرسَلين بُعِثوا برسالةٍ واحدة هي رسالة التّوحيد، وإنْ تعدَّدت شرائعهم بما أذِن به الله تعالى وأنزله لحكمةٍ يعلمها؛ فدين الرُّسل واحدٌ، وإنَّ الآخِر منهم جاء بما جاء به الأوّلُ، فمَن كذَّب واحدًا من الأنبياء فقد كذَّب جميعَهم[1]. فهذا سرُّ جمعِ ﴿ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ مع أنَّ المتحدَّث عنه هنا واحدٌ هو نبيُّ الله صالح ﵇.

وعلى جهة التَّفصيل في هذا الموضِع توجدُ لَفتةٌ أخرى في سرِّ هذا الجمع، وهي أنّ ثَمود قد كذَّبوا صالحًا، وكذَّبوا هودًا؛ لأنَّ صالحًا وعظَهم بعادٍ في قوله سبحانه: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ عَادٖ﴾ [الأعراف: 74] وبتكذيبهم هودًا ﵇ يكونون قد كذَّبوا بنوح ﵇ أيضًا؛ لأنَّ هودًا ذكَّر قومَه بمصير قوم نوح في آية ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ قَوۡمِ نُوحٖ﴾ [الأعراف: 69][2]. وعلى جهة الإجمال يتكرّرُ ما سبق ذِكْره، وهو أنَّ تكذيب واحدٍ من الرُّسُل هو بمثابة تكذيبِ جميعِهم.

نكتةُ الفصل في قوله: ﴿إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾:

التَّفسيرُ بعد الإجمالِ من مقاصِد البُلغاء

جملة ﴿إِذۡ قَالَ لَهُمۡ﴾ تفسيرٌ لما قبلها، إذ ما قبلها كان كلامًا مُجمَلًا، فوقعت هذه الجملة منها موقعَ البيان والتَّفسير، ولذلك فُصِلت عنها؛ لما بينَهما من شِبْه كمال الاتّصال، فكأنَّ سائلًا سأل: فماذا قال صالحٌ ﵇ لقومه لمّا كذَّبوه؟ فكان الجواب: ﴿إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾؟

دلالةُ الظرف في قوله: ﴿إِذۡ قَالَ لَهُمۡ﴾:

تسليةُ النَّبي ﷺ بصبر إخوانه من الأنبياءِ والمُرسَلين الماضين

﴿إِذۡ﴾ ظرفيّةٌ لما مضى من الزّمان، وقوله سبحانه: ﴿إِذۡ قَالَ لَهُمۡ﴾ ظرفٌ للتّكذيب باعتبار طول زمانِ الدَّعوة وامتداده، فهو زمانٌ مديدٌ وقع فيه ما وقع من الجانبَيْن إلى تمامِ الأمر، كما أنَّ تكذيبهم

---

(1) الخازن، لباب التّأويل: 3/ 328.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 174.

عبارةٌ عمّا صدر عنهم من ابتداء دعوته ﷺ إلى انتهائها[1]. وفي التَّعبير بالظَّرف الدّالِّ على ما مضَى تسليةٌ[2] للنَّبيِّ ﷺ حين يعلمُ طولَ أمدِ تكذيب أقوام إخوانِه من الأنبياء السّابقين له، وكيف أنَّهم صبروا عليهم ولم يُبالوا برفضِهم وجُحودهم؛ لأنَّ مَهمَّتهم التّبليغ والدّعوة، وليس ما ينجُم عنهما من نتائج وثمراتٍ؛ فذلك أمرُه للّه تعالى وحدَه.

لطيفةُ التَّعبير بالقول في قوله: ﴿إِذۡ قَالَ لَهُمۡ﴾:

جِـــوارٌ حـــانٍ مــن الأنــبــيــاءِ لأقــوامــهــم على مــا فــيــهــم من تكذيبٍ وسفاهةٍ

التَّعبير بفعل القول دون (هدَّد) و(وبَّخ) و(أنذَرَ) ونحوها، في قوله: ﴿قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ﴾ يُشعِرُ بما قام به صالح ﷺ من جهدٍ في محاورتهم، وأنَّه قد جرَت بينه وبينهم مقاولاتٌ وأخذٌ وردٌّ، كان من نتيجتها هذا التَّكذيب الجارف من قِبَلهم، بحيث لم يتأنَّوا فيه "بطلب دليلٍ، ولا ابتغاء وجهٍ جميلٍ"[3]، وفِعلُ القول يدلُّ على الأُنس والحوار الحاني والأسلوب الأخويِّ الطَّيِّب الجميل.

معنى (اللّام) في قوله: ﴿لَهُمۡ﴾:

التّبليغ للأقوام هـي الـوظـيـفـة العُليا للأنبياء

اللّام في ﴿لَهُمۡ﴾ هي لامُ التّبليغ والإيصال، وفيها معنى الاختصاص والغرض؛ لأنّها تحوي الدّلالة على حِرص نبيِّ اللّه هودٍ على إيصال دعوته إليهم بما يُرغِّبهم فيها ويُظهر حرصه عليهم واهتمامه بهم، فكأنَّهم الغرضُ الأسنى والمقصدُ الأعلى لعمليَّة التّبليغ والدّعوة.

دلالةُ تقديمِ الجارِّ والمجرور في قوله: ﴿قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ﴾:

الـتّـقـديـم دالٌّ على الاختصاص

ورد في النَّظم الكريم تقديمُ الجارِّ والمجرور ﴿لَهُمۡ﴾ على الفاعل ﴿أَخُوهُمۡ صَٰلِحٌ﴾، والسّببُ في ذلك التّقديم الإشارةُ إلى اختصاص

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 254.
(2) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 14/ 61.
(3) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 14/ 61.

صالح ﷺ بدعوة هؤلاء القومِ الّذين أُرسِل إليهِم دون مَن سواهم، وأنَّ دعوته مُختصّةٌ بهم، فلم يوجِّهِ التَّبليغ لغيرهم، ولا أظهر الآياتِ لِمَن سواهم.

دلالةُ التَّعبيرِ بوصفِ الأخوّةِ في قوله: ﴿أَخُوهُمْ﴾:

المُــرادُ أُخــوّةُ النَّسبِ والقبيلةِ

الأُخوّةُ هنا هي الأُخُوَّةُ في النّسب والقرابة؛ لأنَّه ﷺ كان منهم، فـ "الأخُ هنا مُستعمَلٌ في مُطلَق القريب على وجه المَجاز المُرسل، ومنه قولهم: يا أخا العرب"[1]، وهذا كالذي سبقَ مع نوح وهود ﷺ؛ فقد قيل: ﴿أَخُوهُمْ نُوحٌ﴾ [الشُّعراء: 106]، و﴿أَخُوهُمْ هُودٌ﴾ [الشُّعراء: 124]؛ فجاء التَّعبير بالأُخوّة مُتّسقًا مع ما سبق، وأفاد هذا المجازُ صورةَ الارتباط الشّديد بين المرسَلين وأقوامهم، وأنَّهم كانوا حريصينَ على هدايتهم وإنقاذهم، فلم يتصوّروهم إلّا إخوةً، يُريدون لهم كلَّ صنوف الخير والرَّشاد.

نكتةُ الإضافةِ في قوله: ﴿أَخُوهُمْ﴾:

الأُخـوّة مَـدْعـاةٌ إلى تـمحيـضِ الـنُّـصـحِ وعـدمِ الارتيابِ

أضاف النظم لفظَ (الأخ) إلى ضمير (هم) في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ﴾؛ وهي إضافة تعريفٍ، تنزيلًا لهم منزلةَ مَن لا يعرفون نسبَه، لِما أبدَوه تجاهه من صدٍّ وإعراض، وكأنّه غريبٌ عنهم يريدُ لهم الشّرّ، أَوْ أنّ الإضافة هنا إضافة تخصيص، غرضها إبرازُ مَظاهر الاهتمام بهم؛ إذ أرسل ربُّهم إليهم رسولًا خاصّا بهم، يدلُّهم على الطَّريق المستقيم والنَّهج القويم في حياتهم الأولى، الَّتي هي المَعْبَرُ للحياة الآخرة، وأيًّا ما كان؛ فالنَّص بأنَّ صالحًا أخوهم الَّذي يعرفونه يقتضي ألّا ينفِروا منه؛ بل عليهم أنْ يُعينوه وأن يكونوا له عَضُدًا في دعوته، فهو أخوهم ومنهم، وهُم إخوتُه ومنه، ومُقتضاه أنّه حريصٌ عليهم حرصَه على نفسه، وذلك أدعى لاتِّباعه، لا للارتياب فيه أوِ النُّفورِ منه، وفي ذلك تعريضٌ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8 - ب/ 201.

بأهل مكَّة في مُعارضتِهم للرّسول ﷺ ومُعاداته، مع أنّه أخوهم في النَّسب والعشيرة والأهل والقبيلة الحريصُ عليهم.

نكتةُ تقديمِ الوصفِ على اسم الذّات العلم:

التَّقديمُ لغرضِ التّأنيس والتّأليفِ

قدَّم النّظمُ ﴿أَخُوهُمْ﴾ على ﴿صَٰلِحٌ﴾ تأنيسًا لهم وتأليفًا؛ أيْ: هو أخوهم ومنهم، فلن يدلَّهم إلّا على ما ينفعهم، لا ما يضرُّهم، كما يُعطي الوصفُ دلالة الرَّحمة الَّتي تحملها الأُخوّة، وبذلك يتناغمُ مع فعل القول الدّالِّ على الحوار والكلام الهادئ اللّطيف.

براعةُ الإبدالِ أو البيانِ:

التّصريحُ باسمِ العلم للمدحِ والتّشريف

والسرُّ في التصريح باسم صالح عليه السلام، اتِّساقُه مع ما مضى في نظيريْه في السّورة في قوله سبحانه: ﴿أَخُوهُمْ نُوحٌ﴾ [الشُّعراء: 106]، و: ﴿أَخُوهُمْ هُودٌ﴾ [الشُّعراء: 124]، وفي التّصريح بالأسماء في جميعها - فضلًا عن التّعريف بها - بيانٌ لِشَرف أصحابها وفضلهم في قيامهم بواجبهم تجاهَ الرِّسالة والدّعوة؛ وعليه فهو عطفُ بيانٍ أوْ بدلٌ لـ ﴿أَخُوهُمْ﴾ مقصودٌ به المدح وليس الإيضاح؛ لكونه معروفًا لا إبهام فيه، كما في قوله تعالى: ﴿۞جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلۡكَعۡبَةَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ﴾ [المائدة: 97]؛ فقوله سبحانه: ﴿ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ﴾ [المائدة: 97] "عطفُ بيانٍ على جهة المدح، لا على جهة التّوضيح"(1) أو بدل يكون هو المقصود بالكلام، وأنَّ تقديم الوصف عليه لمجرد المِهاد والتّوطئة لذِكْره.

غرضُ الاستفهامِ في قوله: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾:

تنبيهُهُم إلى أهميَّةِ التّقوى وحضُّهم عليها وتوبيخُهم على إهمالِ قيمتِها

الاستفهامُ في قوله عليه السلام ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ ليس مُستعمَلًا بمعناه الحقيقيّ؛ لأنّه يَعلم عدمَ تقواهم، وإنّما خرج لغرضٍ مجازيٍّ هو التّوبيخ والإنكار عليهم، لكونهم لم يتّقوا اللّه، و(لا) نافية للفعل، فـ(ألا) على هذا التّوجيه مُركّبةٌ من أداتيْن، ولمّا دخلت عليها همزة

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/ 681.

الاستفهام صار النّفي إثباتًا؛ لأنّ نفيَ النّفي إثباتٌ؛ إذ المعنى: أُنكِر عليكم عدم التّقوى، ويَحتَمل أن تكون ﴿أَلَا﴾ كلمةً واحدةً للتّحضيض[1]، لحثِّهم وحضِّهم على التّقوى وعدم التّباطؤ عنها، والَّذي نميل إليه أنّها للعَرْض وليست للتّحضيض؛ لأنّ الأسلوب برُمَّته يدلُّ على الرِّفق في الخطاب والتّوجيه.

دلالةُ التَّعبيرِ بالتّقوى:

التَّعبيرُ بالتّقوى كنايةٌ عن الإيمانِ للحثِّ عليه والمُسارَعةِ فيه

نصحَهم عليه السلام في قوله: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ بالتّقوى وحضَّهم عليها، أَوْ عرضَ عليهم التّقوى بكلِّ رفقٍ ولينٍ، أَوْ أنّه أنكرَ عليهم التّخلّي عنها وهي جِماعُ الخيرِ كلِّه، وساق ذلك بأسلوبٍ ملؤُه الشّفقةُ عليهم والخوف من أن يَحيقَ بهم سوءُ العاقبةِ، والتَّعبير بالتّقوى بدلَ (ألا تؤمنون) كنايةٌ عن الإيمانِ باللّه وبرسولِه وأوامرِه ونواهيه؛ لأنّهم لم يكونوا مؤمنين أصلًا حتّى يُذَكَّروا بالتّقوى، ولكنّ كانوا كفّارًا يُطالَبون بأصلِ الإيمان، والسِّرُّ البلاغيُّ لهذه الكناية طلبُ المُسارَعة بالإيمان حتّى لكأنّهم آمنوا ثمَّ حُثّوا على التَّقوى والخشية بعد تحصيلهم أصلَ الإيمان[2]. فالتّقوى مُستعمَلَةٌ بمعنى الخوف من اللّه تعالى ولقائه، فتكون مُستلزِمةً للإيمان والعمل الصالح كليهما.

دلالةُ المضارعةِ في قوله: ﴿تَتَّقُونَ﴾:

نُصحُ الأنبياءِ مُتكرِّرُ الوقوعِ وبأساليبَ متنوِّعةٍ

عبَّر النَّظمُ الكريمُ بصيغة المضارع ﴿تَتَّقُونَ﴾ لما فيها من معنى الاستقبال، وهُم وقتَ الخِطاب لم يكونوا مؤمنين، فحُثّوا على تحصيله بعد نَبذ الشِّرك، كما أنّ صيغة المُضارعة تدلُّ على أنّه كان يُنكِرُ عليهم على سبيل الاستمرار والتّجدُّد، أَوْ يَعرِضُ عليهم الإيمان بشكلٍ مُتكرّرٍ وبأساليبَ متنوّعةٍ.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 158، والمطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 3/ 106.

(2) المطعنيّ، التّفسير البلاغيُّ للاستفهام: 3/ 106.

نكتةُ حذفِ المتُعلِّق في قوله: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾:

الحذفُ مفيدٌ للاختصارِ والعمومِ

حُذِفَ متعلِّقُ ﴿تَتَّقُونَ﴾ اختصارًا للعلْم به؛ إذ المقطوع به أنّه حثَّهم على تقوى اللّه تعالى الَّذي أرسله والإيمانِ به كما توحي به لفظةُ ﴿ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾؛ أيْ: (ألا تتّقون اللّه) الَّذي خلقَكم وأنعمَ عليكم بالنِّعَم الظّاهرة والباطنة، فيَقيكم بأسَهُ وغضبَهُ؟ كما أفاد الحذفُ العمومَ، فعليهم أن يتَّقوا اللّه واليومَ الآخِرِ وعذابَه ونِقمتَه، إلخ.

نكتةُ فصلِ جملة ﴿إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ﴾ عما قبلها:

التّعليل يُفيد الإقناعَ والوضوح

وقع الفصل بين جملة ﴿إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ والّتي قبلَها وهي جملة: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ لكونها جملةً تعليليّةً لها؛ أيْ: تعليلٌ للإنكار، أوْ للتّحضيض، أو العرض بحسَب ما أفادتْه جملةُ ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾؛ والمعنى: (كيفَ تستمرّون على الشِّرك وقد نهيتُكم عنه، وأنا رسولٌ لكُم أمينٌ عندكم؟)[1]، أوْ أحضُّكم على التّقوى وأَعرِضُ عليكم الإيمان لأنّي رسولٌ أمين؛ فالجملة مستأنَفةٌ استئنافًا بيانيًّا واقعةٌ في جواب سؤالٍ مفروضٍ متوقَّعٍ منهم.

دلالة التّوكيد في الجملة:

توقُّعُه عليه السلام شكَّهم وتردُّدَهم سَوَّغَ تأكيدَ الخبرِ

في قوله تعالى: ﴿إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ قد أكّد عليه السلام إخبارهم بأمانته بحرف (إنَّ) الدّالَّة على التّأكيد والتَّعليل مع عدم سبق إنكارهم أمانتَه؛ لأنّه توقَّع حدوثَ الشّكِّ في نفوسهم لِما سيُخبرهم به من أمر رسالته؛ فهذه عادةُ كلِّ الأقوام مع أنبيائهم، ولهذا استدلَّ عليهم بتجربة أمانته الَّتي يَعرفونها عنه قبلَ تبليغ الرِّسالة، فإنَّ حصول الأمانة من قِبَله ومعرفتَهم القاطعة بها، دليلٌ على صدقه فيما بلَّغهم من رسالة اللّه[2].

ولا يَبعُدُ أنَّه رأى في وجوههم أماراتِ الرّفض والتّردُّد، ولذا أجابهم عن سؤالهم المُتوقَّعِ صدوره منهم بهذه الجملة المفصولةِ عمّا قبلَها.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 158.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 158.

نكتةُ تقديمِ متعلّق الخبرِ:

قُدِّم الجارُّ والمجرور ﴿لَكُمۡ﴾ على الخبر ﴿رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ إبرازًا للاهتمام بهم والحرص عليهم وعلى مصالِحِهِم ومَعاشهم ومَعادهم، لكونهم قومَه وإخوته الّذين يَسُرُّه ما يسرُّهم، ويسوؤه ما يسوؤهم، وفي اللّام دلالةٌ على أنّ وظيفةَ الأنبياء الأساس هي تبليغُ الرّسالة للأقوام وإيصالُ الدّعوة إليهم.

الإشارةُ إلى الغرضِ الأساسيِّ لوظيفةِ الأنبياءِ

معنى (اللّام) في ﴿لَكُمۡ﴾:

اللّام في قوله سبحانه: ﴿لَكُمۡ﴾ هي لام الاختصاص؛ والمعنى: ﴿إِنِّي لَكُمۡ﴾ خاصَّةً لا لغيركم ﴿رَسُولٌ أَمِينٌ﴾، ولكونِ رسالتي من اللّه ربِّكم، وكونِها خاصَّةً بكم، ولكونِكم أهلي وقومي، ولكوني أمينًا، فلن أدلَّكم إلّا على ما فيه خيرُكم وتحقيقُ النَّفع لكم، فاللّام أفادت الغرَضيّةَ من الإرسال، وهي تحقيق النَّفع بتبليغ الرِّسالة وإيصال الدَّعوة.

اختصاصُ رسالتِهِ عليه السلام بهم من دواعي تحصيل ثقتِهم فيه وتصديقِهم له

لطيفةُ تنكيرِ الخبر:

نكَّر كلًّا من ﴿رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ الواردينِ في قوله تعالى: ﴿إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ لتفخيمهما وتعظيمهما، وبيان مدى التّلازم بين الموصوف ﴿رَسُولٌ﴾ وصِفَته ﴿أَمِينٌ﴾، فكونُه رسولًا من اللّه مُرسَلًا بأعظم رسالة - وهي رسالة التّوحيد - مَدعاةٌ إلى التّعظيم والتّفخيم، وكذلك كونه أمينًا، فإنّه مُقتضى كونِه رسولًا للّه في تبليغ رسالته كما حمَّله اللّه إيّاها؛ لأنَّ اللّه تعالى لن يُرسلَ إلّا أمينًا بالغَ الوصف في الأمانة، والمعنى: (أنا رسول أمين على الوحي صادقٌ في تبليغه "لا غِشَّ عندي كما تعلمون ذلك مِنّي على طولِ خِبرتكم بي، ولا خيانةَ في شيءٍ من الأمانة؛ فلذلك لا بدَّ لي من إبلاغ جميع الرِّسالة"[1]، ولا بدّ لكم من اتّباعها؛ لأنّها رسالةٌ خالصةٌ مأمونةٌ)، وبذلك أسهمَ التَّنكيرُ لكلٍّ من الخبر وصفته في إقناع المُخاطَبين بكلّ

التّنكيرُ للخبرِ وصفتِه للتّفخيم والتّعظيم وبيانِ الأهميّةِ والتّلازمِ بينهما

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 14/ 62.

رقّةٍ ورفقٍ أنّه جديرٌ بأنْ يَعرِض عليهم التّقوى، ويحضَّهم على اتّباعه وتنفيذ أوامره المُستمَدَّة من اللّه المُرسِل له.

إشارةُ صيغتَي (فعول وفعيل):

المُبالَغةُ تولّد الإقناعَ عند الخِطاب

صيغةُ ﴿رَسُولٌ﴾ و﴿أَمِينٌ﴾ بوزن (فَعول وفَعيل) وهما صيغتا مبالغة، وفي إيثارِهما دلالةٌ على المبالغة في الصّفة؛ أيْ: حقيقٌ بالرّسالة كثيرُ الأمانة بالغُها، و(فعول) و(فعيل) فيهما بمعنى مفعول؛ أيْ: مُرسَلٌ ومُؤتمَنٌ على تبليغِ الرِّسالةِ وعليكم.

معنى (الفاء) في قوله: ﴿فَٱتَّقُواْ﴾:

الفاءُ في قوله: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ هي الفصيحةُ المُنْبِئة عن شَرطٍ مُقدَّر؛ أيْ: إذا علِمتم أنّي رسولٌ إليكم أمينٌ عليكم حريصٌ على مَنفعتكم ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾، وفي الإفصاح عن الشَّرط بيانٌ لِعلَّة ترتُّب الأمرِ بالتّقوى على ما سبق من كونه رسولًا وأمينًا.

دلالةُ الإسنادِ إلى ضميرِ الجماعةِ في قوله: ﴿فَٱتَّقُواْ﴾:

التّقوى جِماعُ الخيرِ كلِّه، والأمرُ بها أمرٌ بالإيمانِ وما يَتْبعُهُ من أعمالِ البرِّ والخيرِ

جاء الأمر بالاتّقاء الَّذي هو في حقيقته أمرٌ بالإيمان موجَّهًا إليهم بضمير الجماعة في قوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾؛ لأنّهم جميعًا لم يكونوا مؤمنين، وحتَّى لو دَخلت معهم القلّة المؤمنة في مضمون الأمر بالتَّقوى فلا بأس؛ لأنَّ الأمر بالتقوى بمعناها الشّامل يحتاجُه كلُّ إنسانٍ مؤمنٍ وغير مؤمنٍ، وقد أُمِر به النّبيُّ ﷺ في قوله سبحانه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ١﴾ [الأحزاب: 1]، مع أنّه لا يُتصوَّر منه إلّا حصولُها، فكيف بغيره؟ فالتّقوى جِماع الخير كلّه، والأمر بها أمرٌ بالإيمان وما يَتْبَعه من أعمال البرِّ والخير، والبُعد عن أعمال الشّرِّ، ومن ثَمّ فالأمر بها يَصلح لجميع النّاس.

دلالة التَّعبير بالأُلوهيّة:

جاء الأمرُ بالتّقوى في الآية مُقيَّدًا باسم الجلالة ﴿ٱللَّهَ﴾ في

اختيارُ الاسمِ الجليلِ أنسَبُ بالمقَامِ

قوله: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ دون وصفِ الرَّبّ، فلم يَقُلْ: (اتَّقوا رَبَّكم) لِما سَبَقَ ذِكْرُه من كَون التّقوى هنا دالّةً بطَريق الكناية على الإيمان، والإيمان من خصائص الأُلوهيّة، أو أنَّ هؤلاء القوم يؤمنون بربوبيَّة اللّه، لكنّهم يعبدون أوثانًا من دونه ويُشركون به، فكان الأنسبُ بحالهم أنْ يَخصّوا عبادتهم باللّه تعالى وحدَه لا شريك له.

سرّ تكرار طلب التّقوى:

التّكرارُ يَستلزِمُ التّوكيدَ والاهتمامَ

كرَّر السّياقُ الحكيم الأمرَ بالتّقوى في قوله سبحانه: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ بعدَ الأمرِ بها والحَضِّ عليها في قوله سبحانه: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ من باب التّأكيد على الأمر بها، وأيضًا ليتقرَّر ذلك في نفوسهم[1]. وذلك أنّه عَلَيْهِ السَّلَامُ قد افتَتح دعوته بالنّهي عن ترك التّقوى، ثُمَّ علَّل ذلك، ثمَّ أعاد ما تقتضيه جملة الاستفتاح، ثُمَّ علَّل ذلك بقوله: ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ﴾، ثُمَّ أعاد جملة الدّعوة في آخر كلامه إذْ قال: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ مَرَّةً ثانيةً فكانت بمنزلة النّتيجة للدّعوة ولتعليلها[2].

تغايُر الخِطابَيْن في زمنَيْن أوْ مرحلتيْن

أو أنّ التّقوى إنّما تكرّرت في النّظم الكريم لتَغايُر الخطابيْن في زمنيْن أوْ مرحلتيْن؛ إذ في الأوّل كان بأسلوبٍ فيه نوعٌ من اللّين والرِّفق بِناءً على أنَّ ﴿أَلَا﴾ للعَرض، وفي الثّاني نوعٌ من الزَّجر والقوَّة كما تُنبئُ عنه صيغة الأمر، وصيغة الأمر تفيد المبالغة في التّقوى لأنّها أمر من (افتعَل).

دلالةُ وصلِ الجملة في قوله: ﴿وَأَطِيعُونِ﴾:

طاعةُ الرّسول من طاعةِ الله تعالى

الواو عاطفةٌ لجملة ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ على جملة ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ بقصد الجمع والتّشريك بينهما، فإنَّ طاعة الرُّسل من طاعة اللّه وتقواه لأنّه المُرسِل لهم والآمِرُ بطاعتِهم، كما قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 175.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 159.

﴿فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ [النّساء: 80]، والجملتانِ مُتّفقتان إنشاءً لفظًا ومعنًى، وذلك من أسباب الوصل بينهما.

دلالةُ التَّعبيرِ بالطّاعةِ:

الطّاعةُ تعني مُطلقَ الانقيادِ لما يَصدُرُ عنه ﷺ أمرًا ونهيًا

وردَ في قوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ لفظُ الطّاعة وهو من الألفاظ الجامعة؛ لكونه يدلُّ على مُطلَق الانقياد[1]؛ أيِّ: الانقياد لما يأمر به وينهى عنه بوصفه رسولًا من عند اللّه، مُبلِّغًا عنه، وقد قال اللّه تعالى في معنى هذه الطّاعة: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ﴾ [الحشر: 7] وصيغة (أفعِلۡ) تدلُّ على طلب الطّاعة جملةً واحدةً دون تجزئةٍ أوِ اختيارٍ لما يناسبُهم من تلك الأوامر والنّواهي.

لطيفةُ الأمرِ بالتَّقوى لله والطّاعة لنبيِّه:

تغايرُ الذاتين يستلزمُ تغاير الوظيفتين

الأُمرُ بالتّقوى مخصوصٌ باللّه تعالى؛ لأنّه خوفٌ وإيمانٌ لا يكون متوجِّهًا إلّا للذّات العَليّة، بخلاف الأمر بالطّاعة فإنّه يكون عامًّا مُتوجِّهًا للّه وللرّسول أيضًا؛ فالأمر بالتّقوى لا يأتي إلا مُقيّدًا بكونه من اللّه، محمولًا على معنى اتِّقاء عذابه وعقابه، فقوله: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾؛ أيِّ: خافوا بأسه وعذابه وقوا أنفسكم غضبَهَ، وهذا لا يتأتّى مع الرُّسل، فلا يُقال: (واتّقوا رُسُلَه) أو: (فاتّقوا اللّهَ واتّقون)؛ لأنّ الرّسول ﷺ لا يملك عقابًا حتّى يُتَّقى، أمّا الطّاعة فهي عامَّةٌ فتكون للّه وللرُّسل ولغيرهما.

دلالةُ الإسنادِ لضميرِ الجمع في قوله: ﴿وَأَطِيعُونِ﴾:

وجّه الأمرَ بالطّاعةِ إلى جميعهم، مُتوسِّلًا إلى ذلك بإلحاق (واو الجماعة) فاعلًا للفعل، لكونهم مُطبِقين على عصيانه ﷺ وعدم اتّباعه، ولكونه مأمورًا بتبليغ جميع القوم دون استثناءٍ.

---

(1) الرّاغب، المُفردات: (طوع).

فائدةُ تقديمِ الأمرِ بالتّقوى على الأمرِ بالطّاعة:

تقديمُ العلّةِ على المعلولِ يُرشِدُ إلى الأصلِ والتّابعِ

في قوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ قُدِّم الأمر بتقوى اللّه تعالى؛ لأنَّه الأصل؛ فله حقُّ التّقديم، وأنّه إذا ما تحقَّق هذا الأصل كانَ سببًا في حصول طاعته ﷺ؛ فتقوى اللّه علّةٌ لطاعته ﷺ فقدَّم العلَّة على المعلول[1]، والسَّببَ على المُسبَّب؛ إذْ لا يمكن إطاعة الرّسول من دون تقوى اللّه والإيمانِ به والعملِ بأوامره الَّتي منها طاعةُ رسوله والانقيادُ لتبليغاته.

دلالةُ الوصلِ في الجملة في قوله: ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ﴾:

الــواو عـاطـفـةٌ لـلـتّـشـريـك بين الـجـمـلـتـيْن في حـصـولِ الـعلم بهما من قِبَلِهم

(الواو) هنا عاطفة؛ عطفتْ جملة: ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ﴾ على جملة: ﴿إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾، والجملتان مُتَّفقتانِ خبرًا لفظًا ومعنًى، وهذا ممّا يقتضي الوَصْل؛ والمعنى: (قد علِمتم أنّي رسولٌ أمينٌ لكم، وتعلمونَ أنّي لا أسألُكُم أجرًا لنفسي على دعوتكم إلى الإيمان؛ لأنَّ أجريَ في الدَّعوة وأجرَكم في الإصغاء والاستجابة لها هو على اللّه تعالى).

دلالةُ النّفي في قوله: ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ﴾:

نفيُ سؤالِ الأجرِ على الدّعوةِ من المَدْعوّين مُطلَقٌ في كـلِّ وقـتٍ وعلى أيَّةِ حالٍ

تدلُّ (ما) في قوله: ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ﴾ في الأصل على نفي الحال؛ والمعنى: (ما أسألكم الآن أجرًا كثيرًا ولا قليلًا على ما أدعوكم إليه)، لكنَّها هنا لمُطلَق النَّفي[2]، ولو قال: (ولا أسألكم) لتمحَّض النَّفي للاستقبال، وهو غير مُرادٍ؛ بل المُراد نفيُ ذلك حالًا، ويَستلزِمُ ذلك النّفيَ استقبالًا؛ لأنَّه وقتَ الدّعوة والتّبليغ لا يريدُ على الهداية أجرًا؛ فمن باب الأَوْلى أنّه لا يريد عليها بعد الاهتداء مالًا.

دلالةُ التَّعبيرِ بنفي السُّؤالِ:

السُّؤال إنَّما يكون بالكلام، ويَقتضي جوابًا، بخلاف الطَّلب

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 175، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 521.

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 276.

فيكون بالكلام ويكون بالسَّعي(1)؛ أيَ إنَّ الطّلب قد يَفتقر إلى سعيٍ وبذلِ جهدٍ وتكلُّفٍ، أمّا السُّؤال فإنّه يكون بالكلام فحسب، فهو أدنى من الطّلب وأيسَرُ، لكونه كلامًا باللِّسان فحسب دون حاجةٍ إلى سعيٍ ولا بذلِ جهدٍ، وفي نفيه عليه السلام السّؤالَ بقوله: ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ﴾ نفيٌ للطَّلَب كذلك من باب أَوْلى؛ لأنَّ نفي الأقلِّ والأدنى نفيٌ للأعلى جهدًا بالضَّرورة.

الطَّلبُ يتحقَّق بالفعل والقَول، والسُّؤالُ يتحقّقُ بالقولِ فحسب

لّما كان السُّؤال كلامًا باللِّسان والصَّوت، وكان يقتضي جوابًا مِن المسؤول؛ كان بروزُه وظهوره لجميعهم لا يحتاج إلى عواملَ أخرى من خارجه، وخصوصًا أنّه يقتضي جوابًا، فلا يستطيعُ إنكارَه ما لو حصل منه بالفعل، وحاولَ أنْ يُنكِره بعد ذلك، ومعنى هذا: أنّهم جميعًا كانوا سيَعرفون أنّه سألهم هذا الأجر، وأنّهم أجابوا عن سؤاله بالإيجاب أوِ النّفي، وحينئذٍ يكون جميعُهم قد عَرفوا أنّه قد سألهم، فإذا نَفى عن نفسه السُّؤالَ، وأعلن أمامَهم جميعًا أنَّه لم يسألهم أجرًا، فلم يُراجعوه فيخطِّئوه؛ فمعنى ذلك أنّه بالفعل لم يسألهم يومًا ما أيَّ أجرٍ؛ فيكون صادقًا، أمّا الطّلبُ فقد يصحبُه سعيٌ، والسّعي قد يَظهرُ لبعضهم دون بعضٍ، فيكون إخفاؤه - لو وقع - وادّعاءُ نفيه أيسَرُ، فذلك كلُّه يُغلِّب نفيَ السّؤال على نفي الطّلب.

تغليبُ نفي السُّؤال على نفي الطّلب

دلالةُ المضارعة في قوله: ﴿أَسۡـَٔلُكُمۡ﴾:

آثرَ البيانُ القرآنيُّ التَّعبيرَ بالفعل المضارع فقال: ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ﴾ دون الماضي، فلم يَقُلْ: (وما سألتُكم)؛ لأنَّ المقصود استمرارُه على عدم السُّؤال وتجدُّد نفيه؛ لإشعارهم بأنَّه مُستمِرٌّ على تجرُّده عن الأغراض والمنافع الذّاتيَّة جزاءً لما يقوم به من دعوتِهم، وهذا دليلٌ على صِدْقِه وإخلاصِه في دعوتهم، فقد قال سبحانه حكايةً لكلام مُؤمن سورة (يس): ﴿وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ

إخبارُه عليه السلام باستمراره على عدم طلَب الأجر منهم دلالةٌ على إخلاصه

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 289.

﴿رَجُلٞ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٢٠ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ ٢١﴾ [يس: 20 - 21].

إشارةُ التَّعبيرِ بالمفعول ضميرَ جمعٍ في قوله: ﴿أَسۡـَٔلُكُمۡ﴾:

الـدّلالـةُ على أنَّهم كانوا على مـوقـفٍ واحـدٍ من الشّـكّ فيه عليه السلام واتّـهـامـه بالغرَض

وجَّه عليه السلام خطابه إيّاهم إلى جميعهم بضمير الجمع في ﴿أَسۡـَٔلُكُمۡ﴾؛ للإشارة إلى أنَّهم جميعًا كانوا في موقفٍ واحدٍ من التّنكُّر له والشَّكِّ في خُلوص دعوته وتجرُّدها من الغرَض، ولذا خاطَبَهم بضمير الجمع ليُثبتَ لهم إخلاصَه في دعوته، بدليل أنَّه لم يسألهم جميعًا ولا أفرادًا أجرًا على ما يقوم به، وأيضًا في مخاطبته إيّاهم بضمير الجمع قطعٌ بالحُجَّة على جميعهم، فلو كان قد سأل بعضَهم دون بعضٍ وحاولَ الإخفاء، فليَخرُجْ هذا المسؤولُ وليُحرِجْه أمامَ النّاس، فإذا لم يَخرج واحدٌ منهم ليُكذِّبَه حصل الدَّليلُ القاطعُ على صدقه فيما نفاه عن نفسه من عدم سؤال الأجر.

دلالةُ (على) الجارّة في قوله تعالى: ﴿عَلَيۡهِ﴾:

التّـعـلـيـل والاسـتـعـلاءُ المَجازيُّ يُحقّقان نـزاهـةَ الأنبيـاءِ مــن الأجـــرِ الدُّنيويِّ

في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ﴾ يَحتَمل حرفُ الجرِّ (على) المُتعلِّق بـ ﴿مِنۡ أَجۡرٍ﴾ في ﴿عَلَيۡهِ﴾ التّعليلَ[1]؛ كما هي في قوله تعالى: ﴿وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ﴾ [البقرة: 185]؛ أيْ: لأجْل ما هداكم وبسببه، والَّذي نميل إليه أنَّها للاستعلاء المَجازيِّ، فكأنَّ الأجر والمال يعلو على الدّعوة والتّبليغ لأنّه يكون مُقابِلًا لها وغرَضًا أساسيًّا يَطمَح للوصول إليه.

مَرجعُ الضَّميرِ في قوله تعالى: ﴿عَلَيۡهِ﴾:

عَـودُ الـضَّـمـيرِ إلى المعلومِ يُفيدُ الاهتمامَ بشأنِه

الضَّميرُ في قوله تعالى: ﴿عَلَيۡهِ﴾ يعودُ إلى معلوم من مَقام الدَّعوة[2] وتبليغِ الرِّسالةِ؛ أيْ: ما أسألكم أجرًا على دعوتي إيّاكم إلى الإيمان، وهذا العَود للضَّمير الغائب إلى المعلوم يُفيد الذِّهنَ في

(1) هو أحد معانيها، المُراديّ، الجَنَى الداني، ص: 477.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 159.

ربط الكلام واقتناص المَرجِع، كما أنَّه يشير إلى أهمّيَّته ومِحوريَّته في الخطاب.

لطيفةٌ في تقديمِ المُتعلِّق:

تقديمُ الأهمِّ على المُهِمِّ

في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ﴾ قيدانِ مُتكوِّنانِ من جارٍّ ومجرورٍ؛ الأوّلُ: قوله: ﴿عَلَيۡهِ﴾، والثّاني: قوله: ﴿مِنۡ أَجۡرٍۖ﴾، وقد قُدِّم الأوَّل على الثّاني، لكونه قد اشتملَ على ما هو أحقُّ بالتَّقديم والاهتمام، وهو الضَّمير العائد على الدَّعوة والرِّسالة، بخلاف الأجر فإنّه إنْ كان قد قاله ردًّا على شكِّهم فيه أنّه طَلَبَه منهم وسألَهم إيّاه، فالواقع خيرُ مَن يَرُدُّ عليهم في ذلك؛ فهو لم يسألهم شيئًا، ولذلك قالها في وثاقة: ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ﴾، وإن كان قد قاله هو ابتداءً من نفسه دفعًا لِما يمكن أن يكونَ في نفوسهم من اتّهام أو شكٍّ دون وقوعه بالفعل، فهو أيضًا لا يُسوِّغ التّقديم على ما هو أهمُّ منه، وهو أمر الرِّسالة والدَّعوة، كما أنَّ في التّقديم ما يدلُّ على الاختصاص، فهو لا يسأل أجرًا على التّبليغ والدّعوة، وإنْ كان قد يسأل أجرًا على الأمور الدّنيويّة والأحوال الاجتماعيّة.

معنى مِن الجارَّة في قوله: ﴿مِنۡ أَجۡرٍۖ﴾:

(مِنْ) دالّةٌ على استغراقِ النَّفي

﴿مِنۡ﴾ في قوله سبحانه: ﴿مِنۡ أَجۡرٍۖ﴾ هي ﴿مِنۡ﴾ الاستغراقيّة الدّالَّةُ على استغراق النّفي؛ جيء بها للدَّلالة على عموم النّفي؛ أيْ: عموم نفي سؤاله أيَّ أجر منهم يمكنُ أن تدلَّ عليه كلمة ﴿أَجۡرٍۖ﴾ قليلًا أوْ كثيرًا، واستغراقِ كلِّ معانيها الَّتي تحتملها؛ فلا أسألكم على هذا التّبليغ أيَّ أجرٍ ممّا يتعلَّق بالدُّنيا، فلا أسألكم جاهًا، ولا رياسةً، ولا سلطانًا، ولا غايةً، ولا مالًا، ولا أيَّ عرَضٍ من أعراض الدُّنيا[1].

براعة التَّعبير بمادَّة الأجر:

عبَّر بكلمة (الأجر) مُؤثِرًا إيّاها على غيرها في قوله تعالى:

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 10/ 5378.

﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ﴾؛ لعموم دلالتها على كلِّ نفع مُلزِم يعودُ على صاحبه، مقابلَ ما يقوم به من عمل؛ ولذا فإنَّه يُقال: "فيما كان عَن عَقْدٍ وما يجري مُجرى العَقْد، ولا يُقال إلّا في النَّفع دون الضّرِّ"(1)، كما أنَّ الأجر من شأنه أنْ يكونَ قبل القيام بالفعل المأجور عليه، والشاهدُ أنّك تقولُ: ما أعمل حتّى آخُذ أجري(2)، ومعنى هذا أنّه ينفي عن نفسه اشتراطَ أجرٍ عليهم يَبذلونه له قبلَ أنْ يبلِّغَهم رسالةَ ربِّه، ويدلَّهم على سُبل الخير النّافعة لهم في الدّنيا والآخرة، فالدَّعوة الخالصة الصّادقة مُنزَّهة عن هذا الأجر سواء كان قبلَ العمل أو بعدَه.

من دلائل الإخلاص في الدَّعوة عدمُ سؤال الأجر عليها

دلالةُ التّنكيرِ في قوله: ﴿مِنۡ أَجۡرٍۖ﴾:

التّنكير لإفادةِ العمومِ

كلمة ﴿أَجۡرٍۖ﴾ نكرةٌ وقعَتْ في سياق النّفي فتفيد العموم؛ والمعنى: (لا أسألكم على دعوتي إيّاكم ونُصحي لكم أيّ أجرٍ لنفسي؛ كثيرًا كان أوْ قليلًا، ومن أيِّ نوعٍ كان هذا الأجر؛ مالًا أوْ مُلكًا أوْ غيرَه)، وهذا المعنى قد تعاضدَ عليه زيادةُ ﴿مِنۡ﴾ الاستغراقيَّة وتنكير ﴿أَجۡرٍۖ﴾.

نكتةُ الفصل في جملة: ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا﴾:

الفَصلُ على الاستئنافِ البيانيِّ (شِبهِ كَمالِ الاتِّصال)

فُصلت جملة ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا﴾ عمّا قبلَها على الاستئناف البيانيِّ الَّذي يُنشِئُ ما يُعرف عند البلاغيّين بـ (شِبهِ كَمالِ الاتِّصال)، وذلك أنّه لمّا نفى عن نفسه من كلِّ وجهٍ سؤالَهم أيَّ أجرٍ نظيرَ ما يبذله في دعوتهم، فكأنَّه قيل: فإذا لم تكن طالبًا من وراء ذلك أجرًا من مالٍ أوْ مكانةٍ أوْ أيّ غرضٍ من أغراض التّنافُس في الدّنيا، فلماذا تُبالغُ في إرهاق نفسك في سبيل دعوتنا مع عدم استجابتنا لك، وممَّن تطلب الأجرَ إذن؟ فكان الجواب: ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

---

(1) الرّاغب، المُفردات: (أجر).

(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 237.

معنى ﴿إِنۡ﴾ في قوله: ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا﴾:

﴿إِنۡ﴾ في جملة ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ نافيةٌ بمعنى (ما)، ولهذا النّفي أثرُه في تكوين أسلوب القَصْر المفيد للتّوكيد، على ما سيأتي بيانه.

لطيفة الإظهار في قوله: ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ﴾:

إظهارُ الأجر في محلِّ الإضمار تعظيمًا له لكونه من ربِّ العالَمين

في قوله تعالى: ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ كان المُقتَضى أنْ يُعبَّر بالضَّمير فيقول: (وَما أَسْأَلُكُم عليه مِنْ أَجْرٍ إِنْ هو إلّا على ربِّ العالَمين)، لكنَّه أظهر (الأجر) وأضافَه إلى ضميره، فقال: ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ إبرازًا لكون أجره فقط على اللّه تعالى، وتعظيمًا لذلك الأجر، فإنَّ الأجر إذا كان من العظيم، فحتمًا سيكون عظيمًا، وبذلك يتقاطعُ الأجران: أجرُ النّاس في الدُّنيا الَّذي أورده منكَّرًا؛ للدلالة على قلَّته مهما كان عظيمًا، وأجرُ اللّه تعالى الَّذي أورده مَعرفةً؛ للدّلالة على فخامتِه وعظمتِه في الحقيقة ونفس الأمر، فالإضافةُ في ﴿أَجۡرِيَ﴾ هي إضافة تعريف؛ أيْ: إنَّ أجريَ الخاصَّ بي لا أطلبُه منكم، ولكنَّ اللّه تعالى هو الَّذي سيَمنَحُني إيّاه فضلًا منه وكرمًا.

معنى ﴿إِلَّا﴾ في قوله: ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا﴾:

في قوله تعالى: ﴿إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ جاءتْ الأداة ﴿إِلَّا﴾ للاستثناء، وهي هنا مفيدةٌ مع ﴿إِنۡ﴾ النّافية للقصر؛ لكونها جزءًا مُهمًّا من تكوين جملة القَصر، المفيدةِ للحصرِ المُستلزِم للتَّوكيد.

دلالةُ القصْر في قوله: ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾:

الأنبياءُ والمُخلِصون لا يطلبون أجرهم إلّا من الله تعالى حصرًا

القَصرُ في قوله تعالى: ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ قصرٌ حقيقيٌّ من قصر الصِّفة على الموصوف، قد أُريد به نفيُ طلَب أيِّ أجرٍ من أحدٍ سوى اللّه تعالى نفيًا تامًّا، وجملة القصر: ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ فضلًا عمّا فيها من تأكيد نفيِ طلبِه عليه السلام أجرًا

منهم أو من غيرهم؛ فإنها كذلك مؤكّدةٌ للجملة السّابقة: ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ﴾.

بلاغةُ القصرِ بالنّفي والاستثناء:

استخدمَ أقوى طـرقِ القـصـرِ لـوضـوح ما دلَّ عـلـيه وبُــروزه لجميع النّاسِ

القَصرُ بطريقِ النَّفي والاستثناء في قوله: ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ هو أقوى طُرُقِ القصر، وكان النّفي بـ ﴿إِنۡ﴾ دون (ما) لأنَّ النَّفي بـ ﴿إِنۡ﴾ أكثرُ تأكيدًا، وقد أكَّد القصرَ هنا كونُ أجره ﷺ وأجرِ كلّ الأنبياء على اللّه تعالى لا غيره، وهو أمرٌ واضحٌ مُقرَّر لا يُجهَل، قد صار في حُكم القواعد والمُقرّرات المعلومة، ومن أبرز أدلَّته أنَّ الأنبياء لا يَسألون ولايَطلبون أجرًا من النّاس على دعوتهم وتبليغِهم ما أُنزل إليهم، وهو ما لا يُنكره المَدعوّون، ونتيجته أنَّهم واثقون في ثبوت أجرهم على مَن أرسلَهم.

دلالة حرف الجرّ ﴿عَلَىٰ﴾:

ثـبـوتُ الأجـرِ وتحقُّقُه

أصلُ التَّعبير في قوله تعالى: ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ﴾ أنْ يكونَ بـ(مِن)؛ لأنَّ الأجرَ من اللّه ليس عليه، لكنَّه آثَرَ التَّعبير بـ ﴿عَلَىٰ﴾ للدّلالةِ على عُلوّ الأجر المُستحَقّ له من ربِّ العالمين، وعلى كونه واقعًا لهم لا محالة فضلًا من اللّه وكرمًا، وعبَّر بـ ﴿عَلَىٰ﴾ الدّالّة على الاستعلاء؛ للإشارة إلى علوِّ هذا الأجر الَّذي ينتظرُه بعدما وُعِد به، فهو أجرٌ من اللّه تعالى ربِّ العالمين، وهو أعلى وأسمى من أيِّ أجرٍ دُنيويٍّ يُمكن أن ينالَه منهم، وأيضًا فإنّ من دلالات ﴿عَلَىٰ﴾ الوجوبَ، ولمّا كان اللّه تعالى لا يجبُ عليه شيءٌ، وأنَّ كلَّ ما يُفيض به على عباده هو من بحرِ فضلِه وكرمه؛ كان التَّعبير بـ ﴿عَلَىٰ﴾ دالًّا على تحقُّقِ وقوع الأجر له ﷺ من اللّه تعالى؛ لأنّه وعدُ اللّه، ووعد اللّه لا يتخلَّف؛ ففي التَّعبير بـ﴿عَلَىٰ﴾ استعارةٌ تصريحيَّةٌ تَبَعيّةٌ.

لطيفةُ التَّعبير بالرُّبوبيّة مع الأجر:

الإنـعـامُ بـالأجـرِ مــن تـجـلّـيـات الرّبوبيّة

عبَّر السّياق القرآنيّ بالرّبوبيَّة دونَ الألوهيّة في قوله سبحانه:

﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ وليس بلفظ الجلالة الأعظم (اللّه)؛ لأنَّ الأجرَ - وهو أحدُ مَظاهر الإنعام الأصيلة - من تجلّيات الرّبوبيَّة الَّتي تَرجعُ إليها كلُّ مَظاهر الخَلْق والتّدبير والإنعام والرِّعاية، أمّا الألوهيَّة، فلها كلُّ اعتبارات المَهابة والجلال والعبادة والإذعان، ولا ننسى أنَّ التربيةَ تكميلُ النُّقصان، والعبدُ محتاجٌ إلى تكميلٍ بِنَيلِ الأجر والثّواب.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾:

لفظُ (العالَمين) جمعٌ باعتبار الأفراد مجازًا؛ أوْ باعتبار الأجناس والأنواع حقيقةً

لفظ ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ هو جمعُ (عالَم)، و(العالَم) هو اسمٌ لمجموع ما سِوى اللّه تعالى؛ فيشملُ بذلك كلَّ المخلوقات، وهو أرجحُ الآراء في معنى الكلمة وأصحُّها لقوله تعالى: ﴿قَالَ فِرۡعَوۡنُ وَمَا رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٣ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ٢٤﴾ [الشُّعراء: 23 - 24]؛ فكيف يتحقَّقُ جمعُه وهو شاملٌ لِما سواه تعالى؟ فقرَّروا أنَّ الجمع له بالنّظر إلى الأفراد، فكأنّ العالَم المفردَ اسمٌ للمجموع وأُريد بجمعه الأفرادُ مجازًا وإلّا كان الجمعُ مُساويًا لدلالة المُفرد، وبعضُهم حقَّق أنَّ العالَم اسمٌ للقدْر المُشترَك من كلّ جنسٍ ونوعٍ وصنفٍ، فيُقالُ عالَمُ الحيوان وعالَم الجنِّ وعالم الإنس، إلخ، والقَدْر المُشترَكُ بينها هو شيءٌ سوى اللّه تعالى وصفاته، وحينئذٍ فالجمع ظاهرٌ حقيقةً؛ لأنّه باعتبار الأجناس والأنواع والأصناف[1].

وقيل: العالَمون هم فقط العُقلاء (الإنس والجنُّ والشّياطين والملائكة)، ولا يُقال للبهائم (عالَم)؛ لأنَّ هذا الجمع إنّما هو جمعُ مَن يعقل[2]. فيكونُ الجمع أقلَّ صدقًا وشمولًا من مُفرده، ولذا صار مُلحَقًا بالجمع.

(1) الدّسوقيّ، حاشيته على أمِّ البراهين، ص: 99.
(2) الشّوكانيّ، فتح القدير: 1/ 25.

نكتةُ الجمعِ في قوله: ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾:

ألـ الجنسيّة الدّالّة على الاستغراقِ بمَعونةِ المَقامِ

(أل) في ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ لاستغراق الجنس والأفراد، سواءٌ أُريد باللّفظ كلُّ المخلوقات بِناءً على المعنى الأرجح، أوْ أُريد به جنس العقلاء فقط، وهو رأيٌ بارزٌ أيضًا في الكلام عن المُراد بلفظ ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، ودليلُ كونها للجنس صحّةُ أن يحلَّ لفظ (كُلّ) محلّها، والغايةُ من هذا الجمع والتّعريفِ بـ(أل الاستغراقيّة) إظهارُ الافتقار إلى مالك الأجور كلِّها، وبيانُ السِّرِّ لعدم طلب الأنبياء عليهم السلام الأجورَ من العباد؛ لأنَّ مالكَها هو اللّه تعالى، وممّا لا شكَّ فيه أنَّ أجره يختلفُ عن أجور العباد الفانية النّاقصة.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

التَّقوى والخوف:

الخوفُ سببٌ لحصول التَّقوى، وقد يُطلق كلٌّ منهما على الآخر تَجوّزًا

بين التّقوى والخوف تلاقٍ واشتراكٌ، وقد تُسمَّى التَّقْوَى خوفًا وخشيةً، ويُسمَّى الخَوْفُ تقوى[1]. قال الرّاغب: "التَّقوى غايةُ الخوف، وهو لها سببٌ ومُقتضٍ، وإطلاقُ كلٍّ منهما على الآخَر مجازٌ مرسل؛ فالتَّقْوَى جعلُ النّفس في وِقايَةٍ ممّا يُخاف، هذا تحقيقه، ثمّ يُسمّى الخوف تارةً تَقْوى، والتَّقْوَى خوفًا حسبَ تسمية مُقتضَى الشّيء بمقتضيه والمقتضي بمقتضاه، وصار التَّقْوَى في تعارف الشّرع: حِفظَ النّفس عمّا يُؤَثِّم، وذلك بترك المحظور، ويتمّ ذلك بترك بعض المباحات"[2] لقوله ﷺ: «الحَلالُ بَيِّنٌ، والحَرامُ بَيِّنٌ، وبَيْنَهُما مُشَبَّهاتٌ لا يَعْلَمُها كَثيرٌ مِنَ النّاسِ، فمَنِ اتَّقَى المُشَبَّهاتِ اسْتَبْرَأَ لِدينِه وعِرْضِه»[3]؛ وبهذا يَظهر أنَّ الخوف هو سببٌ ومُقتضٍ لحصول التَّقوى، والتَّقوى غايةٌ له، وإنْ سُمّي كلُّ منهما باسم

(1) الكَفَويّ، الكُلّيّات، ص: 299.
(2) الرّاغب، المُفردات: (وقى).
(3) البخاري، الجامع الصحيح، كتاب: الإيمان، الحديث رقم: (52).

الآخر، فعلى سبيل المجاز المرسَل في تسمية السَّبب باسم المُسبَّب حال أُطلِقَ على الخوف تقوى، أوِ المُسبَّب باسم السَّبب حال أُطلِق على التقوى خوف.

السُّؤال والطّلب:

بين السُّؤال والطّلبِ تلازمٌ؛ فإذا انتفى السُّؤال انتفى الطّلب

السُّؤال قد يأتي بمعنى الطّلب وبغير معنى الطّلب، فإذا كانَ بِمَعْنى الطّلب والالتماس يتَعَدَّى إِلَى مفعولَيْن بِنَفسِهِ، وإِذا كانَ بِمَعْنى الاستفسار يتَعَدَّى إِلَى الأوّل بِنَفسِه، وإِلَى الثّاني بـ(عَن) تَقول: (سَأَلتُه كَذا) و(سَأَلتُه عَنهُ سؤالًا ومَسْأَلَة) و(سَأَلتُه بِهِ)؛ أَيْ: عَنهُ[1]، والسّؤال لا يكون إلّا كلامًا، ويكون الطّلب بالسَّعي وغيره، كما في مثل: عليك الهرب وعليَّ الطَّلب[2]؛ أيْ: إنَّ الطّلب يكون كلامًا ويكون فعلًا، في حين أنّ السّؤال لا يكون إلّا كلامًا، وبهذا يكون بين السّؤال والطّلب تلازمٌ في التّحقُّق؛ فإذا انتفى السّؤالُ انتفى الطّلبُ بخلاف العَكْس، وقد أوثر في الآية نفيُ السّؤال على نفي الطّلب لذلك، كما تقدَّم بيانُه مُفصَّلًا في التَّفسير للآية.

(1) الكَفَويّ، الكلّيّات، ص: 501.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 289.

﴿أَتُتۡرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ١٤٦ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ١٤٧ وَزُرُوعٖ وَنَخۡلٖ طَلۡعُهَا هَضِيمٞ ١٤٨ وَتَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا فَٰرِهِينَ ١٤٩﴾

[الشُّعراء: 146 - 149]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبلَها:

شرُّ الكُفران باللهِ أن يأكل العبدُ خيرَ ربِّه ثمَّ يعبدَ غيرَه

لمّا خاطب صالحٌ ﷺ ثمودَ بما يدلُّ على حرصه عليهم بإخلاصٍ وصدقٍ، وساقَ لهم الدّليلَ على أمانته من الواقع الَّذي يعرفونه عنه، فثبَتت بذلك له الأمانةُ أمامهم، وانتفى موجِبُ الخيانة، بتجرُّده عن الغرض والمصلحة؛ شَرعَ بعد ذلك "يُنكرُ عليهم أكلَ خيره وعبادةَ غيره، فقال مُخوِّفًا لهم من سَطَواته، ومُرغِّبًا في المزيد من خيّراته، مُنكرًا عليهم إخلادَهم إلى شهوة البطن، واستنادَهم إلى الرّفاهية والرِّضا بالفاني قائلًا: ﴿أَتُتۡرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ﴾"[1].

شَرحُ المُفرَداتِ:

1) ﴿أَتُتۡرَكُونَ﴾: (ترك) أَصلُ التَّركِ: الكفُّ والإعراضُ، يُقالُ: ترَكْتُ الشَّيْءَ إذا كَفَفْتَ وأَعرَضْتَ عنه، ويأْتي بمعنَى التَّخلّي عن الشَّيء[2]، ويُطلَقُ على الإسقاطِ، يُقالُ: تَرَكَ حَقَّهُ؛ أيْ: أَسقطَهُ، وهو أيضًا: الجَعْلُ، يُقالُ: تَرَكَهُ يَفعَلُ كذا؛ أيْ: جَعلهُ يَفْعَلُهُ[3]، ومن معانيه: المُفارَقةُ، والهَجْرُ، والإهمالُ، والرَّفْض[4]، والمقصودُ بالتَّرك في الآية: التَّخليَةُ.

2) ﴿جَنَّٰتٖ﴾: (جنَّ) أصلٌ واحدٌ، وهو السَّترُ والتَّسَتُّرُ، فالجَنَّةُ ما يَصيرُ إليه المُسلمونَ في الآخرةِ، وهو ثوابٌ مستورٌ عنهم اليومَ[5]،

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 14/ 74.
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (ترك).
(3) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (ترك).
(4) الزّبيديّ، تاج العروس: (ترك).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جن).

والجَنَّةُ أيضًا: الحَديقَةُ ذاتُ الشَّجَرِ، والجمعُ الجِنانُ[1]؛ وهو ذاكَ لأَنَّ الشَّجَرَ بِورَقِه يَستُرُ، ويُقال: جنَّ النَبْتُ جُنونًا؛ أيْ: طال والتفَّ وخرج زَهْرُهُ[2]، وسُمّيت الجنَّة بذلك إمّا تشبيهًا بالجنَّة في الأرض - وإن كان بينهما بَون - وإمّا لسَتره نِعَمَها عنّا[3]، والمُراد بها في الآية: حدائق ثمود وزراعاتُهم.

2) ﴿طَلْعُهَا﴾: (طلع) أصلٌ واحِدٌ صحيحٌ، يدلُّ على ظُهورٍ وبُروزٍ، يُقالُ: طَلَعَتِ الشَّمسُ طُلوعًا ومَطْلَعًا[4]، والطَّلْعُ: نَوْرُ النَّخْلَةِ ما دامَ في الكافور، الواحِدَةُ طَلْعةٌ، وطَلَعَ النَّخلُ طُلوعًا، وأَطْلَعَ وطَلَّعَ: أَخرَجَ طَلْعَه، وطَلْعُه: كُفُرّاه قَبْلَ أَن يَنْشَقَّ عَنِ الغَريضِ، والغَريضُ يُسَمَّى طَلْعًا أيضًا[5]، ونخلةٌ مُطْلِعَةٌ أيضًا، إذا طالَتِ النَّخيلَ؛ أيْ: كانت أطولَ من سائرها، والمُراد بالطَّلع في الآية: وعاءٌ يَطلُعُ من النَّخْلِ فيه ثَمَرُ النَّخلةِ في أَوَّلِ أَطواره، وسُمّي طَلْعًا؛ لطُلوعِه كُلَّ سَنةٍ[6].

3) ﴿هَضِيمٌ﴾: أصلُ (هضم) يدُلُّ على كَسْرٍ وضَغْطٍ وتَداخُلٍ، وهَضَمتُ الشَّيءَ هَضْمًا: كَسَرْتُهُ[7]، والهضيم: المتكسِّرُ من لينِه ورطوبتِه، من قَولِهم: هضمَ فلانٌ فُلانًا حَقَّه: إذا انتقَصه، فكذلك الهَضمُ في الطَّلعِ إنَّما هو التنَقُّصُ منه مِن رطوبتِه ولينِه؛ إمّا بمَسِّ الأيدي، وإمّا بركوبِ بَعضِه بعضًا[8]، والمُراد به في الآية: اليانعُ والنَّضيج، أوِ الرَّطبُ اللَّيِّن اللَّذيذُ، الَّذي تداخل بعضُهُ في بعضٍ[9].

4) ﴿وَتَنْحِتُونَ﴾: أصلُ (نحت) كَلِمَةٌ تَدُلُّ على نَجْرِ شَيءٍ وتَسْوِيَتِه بِحَديدَةٍ[10]، والنَّحت: الأَخْذُ مِنَ الشَّيءِ لتجعلَه على صورةٍ مخصوصَةٍ، كنحتِ النَّحيتِ والصَّنم والبَيتِ من خَشَبٍ وحَجَرٍ ونحوهما، ويكونُ في الأَجسامِ الصُّلبة المُحتمِلةِ لذلك، وقد يُتجوَّز به في

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (جن).
(2) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح: (جنّ - جنن).
(3) الرّاغب، المُفردات: (جنّ).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (طلع).
(5) الخليل، العين، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة، وابن سِيدَه، المُحكَم، وابن منظور، لسان العرب: (طلع).
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 175.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (هضم).
(8) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (هضم).
(9) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 10/ 269.
(10) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نحت).

غيرها[1]، ونَحَتَ الجبلَ يَنْحِتُه: قَطَعَه[2]، والنُّحاتَةُ: ما يسقُطُ من المَنْحوتِ، والنَّحيتَة: الطّبيعةُ الّتي نُحِتَ عليها الإنسان، كما أنّ الغريزة ما غُرِزَ عليها الإنسانُ[3]، والمقصود بالنَّحْتِ في الآية: بَرْيُ الحَجَرِ مِنْ وسَطه أَوْ من جوانبه.

5) ﴿فَٰرِهِينَ﴾: أصلُ (فره) كلمةٌ تدلُّ على أَشَرٍ وحِذْقٍ، من ذلكَ الفارِهُ الحاذِقُ بالشَّيءِ[4]، وجمعه فُرَّهٌ، ويُقال ذلك في الإنسان وفي غيره، وقُرِئَ: (فَرِهينَ) في معناه، وقيل: معناهما أَشِرينَ[5]، والفَرِهُ: الأَشِرُ، والفارِهةُ: القَيْنَةُ وما يَتْبعُها مِنَ المَواهب[6]، ولفظ ﴿فَٰرِهِينَ﴾ في الآية مُشتقٌّ من الفَراهةِ وهي الحِذْقُ والكَياسَةُ؛ أيْ: عارفينَ حذِقينَ بنَحْتِ البُيوتِ من الجبالِ بحيثُ تَصيرُ بالنَّحتِ كأَنَّها مَبنيَّةٌ[7].

المَعْنى الإجْماليُّ:

تـذكـيرُ الـقـوم بـنِـعَـم الـلـه عليهم بما مكَّن لهم مِن خَيراتٍ

أتظُنّون أنَّ اللّهَ يترُكُكم تتنعَّمون في هذه الخَيراتِ آمنينَ لا تخافونَ، مُتمتِّعين في الجنّات والعيون، والنَّخيلِ ذاتِ الرُّطبِ الهضيمِ اللَّيِّنِ اللَّطيف، والزُّروعِ والثِّمار، وتطمعونَ في ذلك، وتظنّون ألّا دار للجزاء على الأعمال؟ لا يُعقلُ أنْ تبقوا على الشِّرك والكُفر، وأنتم ترفُلون في هذه النِّعم، وتتمتَّعون بهذه الخيرات، وتَنحِتون مِنَ الجِبالِ بُيوتًا لكم حاذِقينَ بنَحتِها[8].

(1) السَّمين، عُمدة الحُفّاظ: (نحت).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (نحت).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المُفردات: (نحت).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فره).
(5) الرّاغب، المُفردات: (فره).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (فره).
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 176.
(8) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 618، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 127، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 596، والزّحيليّ، التّفسير المنير: 19/ 199.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علّةُ فصلِ الجملة عما قبلها:

الـفـصـلُ بين الجملتيْن لكمالِ الانقطاعِ

الجملةُ في قوله سبحانه: ﴿أَتُتۡرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ﴾ هي جملةٌ إنشائيّةٌ لفظًا ومعنًى، وسابقتُها ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ هي جملة خبريّةٌ لفظًا ومعنًى[1]، وهذا يستدعي كمالَ الانقطاع بينهما، ولذلك كان الفصل بينهما، وأفاد هذا القطعُ والانتقال بتغييرِ النَّظْم من الإخبار والإرشاد وبيان الحقيقة إلى التّساؤل والجدال والإفحام - مفاجأةَ القوم المُكذِّبين وتذكيرَهم بأسلوبٍ مُتجدِّد بالنِّعَم المحيطة بهم الَّتي تستحقُّ الشُّكرَ للمُنعِم تعالى.

معنى الهمزةِ وغرضُ الاستفهامِ في قوله: ﴿أَتُتۡرَكُونَ﴾:

لا أمـانَ من الـعـذابِ مع تحقُّقِ الكُفرانِ

الهمزة في: ﴿أَتُتۡرَكُونَ﴾ هي همزةُ الاستفهام، لكنَّ الاستفهامَ بها هنا غيرُ حقيقيٍّ، والظّاهر فيه أنّه للإنكار والتّوبيخ؛ فقد نزَّل حالَهم منزلةَ مَنْ يظنُّ الخلود ودوامَ النعمة، فهم وإنْ لم يكونوا مُنكرينَ للموت والفناء إلّا أنَّ حالَهم مع الكُفران وتركِ الشُّكر للمُنعِم حالُ مَن يظنُّ المُكوثَ والخلودَ، فخاطبَهم بالاستفهام الإنكاريِّ التّوبيخيِّ؛ أيْ: إنكار اعتقادٍ وظنٍّ[2] أنهم متروكونَ آمنينَ كما يشاؤون دونَ خوفٍ من عقاب، مع ما ظهر منهم من كُفرانِ الاعتقاد، وكُفرانِ نِعَم اللّه عليهم، وهو إنكار للوقوع وإبطالٌ له ونفيٌ لأنْ يُتركَوا فيما هم فيه من النعمة[3]، مع ما هم عليه من الكفر بأنواعه، والمعنى: (أتظنّونَ أنَّكم تُتركون في دياركم آمنين، وتطمعون في ذلك، وأنْ لا دار للمُجازاة؟[4])، وجوَّز الزّمخشريّ أنْ يكون غرضُ الاستفهامِ

---

(1) المطعنيّ، التَّفسير البلاغيّ للاستفهام: 3/ 112.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 175.

(3) ابن التَّمجيد والقونوي، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 14/ 287، وأبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 258.

(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 524.

التّذكيرَ بالنِّعمة في تخلية اللّه إيّاهم وما يتنعَّمون فيه من الجنّات وغير ذلك، مع الأمن والدّعة في هذا المكان من النّعيم[1]. فيكونُ الاستفهام على هذا تقريريًّا، لكنّ كونُه للإنكار أظهرُ وأبرزُ وأوفقُ للنَّظم وأسوَغُ للذّوق البلاغيّ[2].

علّةُ الإنكارِ لفعلِ التَّركِ في قوله: ﴿أَتُتۡرَكُونَ﴾:

النّعَمُ إنَّما تدومُ بالشُّكرِ لا بالكُفرِ

قال الطّاهر ابنُ عاشور: "سلّطَ الإنكارَ على فعل التَّرك؛ لأنَّ تركهم على تلك النِّعَم لا يكون، فكان إنكارُ حصوله مُستلزِمًا إنكارَ اعتقاده، وهذا الكلام تعليلٌ للإنكار الَّذي في قوله سبحانه: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾؛ لأنَّ الإنكار عليهم دوامَ حالهم يقتضي أنَّهم مُفارِقونَ هذه الحياة وصائرونَ إلى اللّه، وفيه حثٌّ على العمل لاستبقاء تلك النّعَم بأن يشكروا اللّه عليها"[3].

نكتةُ بناءِ الفعلِ لغيرِ فاعِلِه:

الغرضُ الأهمُّ إنكارُ الحدثِ الواقعِ عليهم، وهو التّركُ المُكَنَّى به عن غفلتِهم

بُني الفعل ﴿أَتُتۡرَكُونَ﴾ لما لم يُسمَّ فاعله لغرضيْن؛ **الأوّل**: الاختصارُ والعِلْمُ بالفاعل وهو اللّه تعالى، فإنّه لا يَقدِر على تَركِهم وإبقائِهم في نِعَمهم أحدٌ سواه، **والثّاني**: مَناطُ الكلام هو الحدث نفسه الواقعُ عليهم وهو التّرك، وليس المُحدِثَ له؛ لكونه معلومًا كما سلف بيانه؛ فالكلامُ مُتَّجِهٌ إلى الحدث ومَن وقعَ عليه التّركُ، الَّذي قُصِد بالتَّعبير به الكنايةُ عن غفلتهم وطول أمَلِهم، ولذا أُسنِد الفعلُ إلى ضمير الجماعة؛ للدّلالة على أنَّهم مُتواطِئون على الغفلة، مُتوافقون على عدم الشُّكر.

نكتة التعبير بالجار في قوله: ﴿أَتُتۡرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ﴾:

تأشيرُ محلِّ التَّركِ تعميقٌ للاستفهام الإنكاريّ

﴿فِي﴾ في قوله سبحانه: ﴿أَتُتۡرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ﴾ للظّرفيَّة المكانيّة

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 327.

(2) المطعنيّ، التَّفسير البلاغيّ للاستفهام: 3/ 111.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 175.

الحقيقيّة، وهي بلادهم[1] المُشارُ إليها بقوله: ﴿هَٰهُنَآ﴾، وفائدةُ الإتيان بالظَّرف تأشيرُ محلِّ التَّرك؛ لتعميق معنى الاستفهام الإنكاريِّ بتحديد مكانه بالذّات.

علةُ التَّعبيرِ بالموصول:

التَّعبيرُ بـ (ما) أجمعُ وأخصرُ

﴿مَا﴾ اسمٌ موصولٌ بمعنى (الَّذي) وظرف المكان صلتُها[2]، وسِرُّ إيثار التَّعبير بها دون التَّعبير بـ(الذي)، هو ما تُفيده من العموم والإبهام مع الاختصار؛ فهي تُغني عن تعديد ما تدلُّ عليه، فقد قصدَ بها "جميعَ ما يُشاهدونه، وهذا إيجازٌ بديع"[3].

دلالة (ها) التّنبيهيّة:

تنبيهُ الغافلين عن الحقيقةِ وظيفةٌ لُغويّةٌ

تدلُّ (ها) التّنبيهيّةُ في قوله سبحانه: ﴿هَٰهُنَآ﴾ على شدَّة ما هم فيه من غفلةٍ عميقة، صرفَتْهم عن المُنعِم، وأعمَتْهم عن رؤية آثاره الدّالَّة عليه حتّى استحقّوا أنْ يُنبَّهوا قبلَ الإشارة ويَستفيقوا قبل أداء العبارة.

نكتةُ الإشارةِ بالقريبِ في قوله: ﴿هَٰهُنَآ﴾:

الدَّليلُ الحِسّيُّ أبلغُ في الإقناعِ

أشارَ النظمُ باسمِ الإشارةِ القريب (هنا)؛ لأنَّ الإشارةَ كانت إلى المكان الحاضر القريب[4]، وهو ما يُشاهدونه ويُعايشونه ممّا هو قريب منهم حاضرٌ لديهم، وهي بلادهم الَّتي يعيشون فيها آمنين مُنعَّمين، ليكون الكلام أوضح والإقناع أنفذ، ولا يخفى أنَّ اسم الإشارة يدلُّ على مكان محسوسٍ، قد غفلوا عن رؤيته والاعتبار بمقاصده، فيَلفتهم إليه ليأخذوا منه العِبرة والموعظةَ.

دلالةُ التَّعبيرِ بمادّة الأمان:

من أعظمِ نِعَمِ اللهِ على العبادِ نعمةُ الأمنِ

عبَّر في قوله تعالى: ﴿هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ﴾ بمفردةِ (الأمن) وخصّها

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 524، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 175.
(2) السَّمين، الدُّرّ المَصون: 8/ 541.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 175.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 181.

من بين النّعَم؛ لأنَّ نعمة الأمن تتوقّفُ عليها كلُّ النعم، فلا تذوّقَ لنعمةٍ مهما كانت إذا انعدمَ الأمنُ، وغابتِ الطّمأنينة، وسادَ الخوف، ولذلك نصَّ عليه القرآن، وذكّر بأنّه نعمةٌ عظيمةٌ امتنّ بها على قريش بقوله سبحانه: ﴿ٱلَّذِىٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ ٤﴾ [قريش: 4]، وكذلك كان مقابلُه وهو الخوف من نِقَم اللّه على عباده الّذين غضِب عليهم، كما قال سبحانه: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ كَانَتۡ ءَامِنَةٗ مُّطۡمَئِنَّةٗ يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدٗا مِّن كُلِّ مَكَانٖ فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ١١٢﴾ [النّحل: 112]، كما جُمعت الكلمة نظرًا إلى أنَّ نعمة الأمن كانت تُطوِّق كلَّ واحدٍ منهم دونَ استثناءٍ.

نكتةُ التَّعبيرِ باسم الفاعل:

اللهُ تعالى يُؤَمِّن أولياءَه بتوكُّلهم عليه

عبَّر في قوله تعالى: ﴿فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ﴾ باسم الفاعلِ ﴿ءَامِنِينَ﴾ لكونهم مُعتمِدين في أمنهم على أنفسهم، وليس على اللّه تعالى، ولذا لم يَقُلْ: (مؤَمَّنين) باسم المفعول، فاللّه تعالى إنَّما يُؤمِّنُ أولياءَه، قال تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ﴾ [الطّور: 48]، وأفاد اسم الفاعل دوامَ الأمانِ واستمرارَه فيهم، ولذا كانوا في رغدٍ من العيش حتّى أَنساهم الحقيقةَ الضَّروريّة؛ وهي وجوبُ المغادرة بالموت والفناء.

دلالة الحال في قوله: ﴿ءَامِنِينَ﴾:

وظيفةُ الحالِ البيانُ للمُجمَل

قوله سبحانه: ﴿ءَامِنِينَ﴾ حالٌ مُبيِّنة لبعض ما أجملَه قولُه: ﴿فِي مَا هَٰهُنَآ﴾، وذلك تنبيهٌ على نعمةٍ عظيمةٍ لا يدلُّ عليها اسم الإشارة؛ لأنّها لا يُشارُ إليها، وهي نعمة الأمن الّتي هي من أعظم النّعم، ولا يُتذوّقُ طعمُ النّعَم الأخرى إلّا بها[1].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 175.

موقعُ الجارّ والمجرور في قوله: ﴿فِي جَنَّٰتٖ﴾:

التَّفصيلُ بعد الإجمالِ، والتّبيينُ بعد الإبهامِ

قولُه سبحانه: ﴿فِي جَنَّٰتٖ﴾ بدلٌ من قوله: ﴿فِي مَا هَٰهُنَآ﴾ بإعادة العامل[1]، وهو تفصيلٌ وتفسيرٌ لإجمالِه، وتبيينٌ لإبهامه، فقوله: ﴿فِي مَا هَٰهُنَآ﴾ مُجمَل، قد فسَّره قوله تعالى: ﴿فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ١٤٧ وَزُرُوعٖ وَنَخۡلٖ طَلۡعُهَا هَضِيمٞ﴾، فقد أجملَ ثمَّ فصَّل توضيحًا وتبيينًا، وذلك أوقعُ في النّفس وأجودُ في التّعبير، كما أجملَ هودٌ عليه السلام في قوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِيٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعۡلَمُونَ ١٣٢﴾ [الشُّعراء: 132] ثم فصَّل في قوله: ﴿أَمَدَّكُم بِأَنۡعَٰمٖ وَبَنِينَ ١٣٣ وَجَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ١٣٤﴾ [الشُّعراء: 133 - 134][2].

معنى حرف الجرّ ﴿فِي﴾:

الظّرفيّةُ تستلزمُ الحصولَ والتّنعُّم بالمظروفِ

﴿فِي﴾ في قوله: ﴿فِي جَنَّٰتٖ﴾ للظّرفيّة الحقيقيّة؛ أيْ: مُستقرّين في ﴿جَنَّٰتٖ﴾، وفائدةُ التَّعبير بالظّرفيَّة الدّلالةُ على كمال التَّنعُّم؛ لأنَّ استقرارهم فيها وحلولَهم داخلها يستلزم كمالَ التّرفُّه بتلك الأمكنة والبقاع.

لطيفةُ التَّعبيرِ بلفظ ﴿جَنَّٰتٖ﴾:

الجنَّة هي المُشتمِلةُ على النّخيل والأعناب، وإلّا فهي حديقةٌ

عبَّر بالـ﴿جَنَّٰتٖ﴾ للدّلالة على كونها حديقةً مكتمِلةً؛ فيها الأشجار وفيها النّخيل والأعناب، فإنّه لا يُقال للحديقة (جنّة) إلّا إذا كانت مُشتمِلةً على نخيلٍ وأعنابٍ، فإذا كانت عامرةً بالأشجار لكن لا يوجدُ بها نخيلٌ وأعنابٌ؛ فإنّه يُقال لها: حديقةٌ؛ ولا يُقال لها: جَنَّة[3].

دلالةُ الجمع في قوله: ﴿جَنَّٰتٖ﴾:

جمعُ الجنّاتِ دلالةٌ على تعدُّدها وكثرتِها

التَّعبير بالجمع في ﴿جَنَّٰتٖ﴾ دون الإفراد (جنَّة) مُشعِرٌ بكثرة ما أنعم اللّه به عليهم، فقد امتنَّ اللّه عليهم بجنّاتٍ لا جنّةٍ واحدةٍ، وكذلك توجد في هذه الجنّات عيونٌ نابعةٌ[4] في داخلها تتلاءَم مع

(1) السَّمين، الدُّرّ المَصون: 8/ 541.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 181.
(3) ابن سِيدَه، المُحكَم: (جنَّ).
(4) الرّاغب، المُفردات: (عين).

كثرتها، ولهذا جمعَها أيضًا، ونكتةُ الجمع توضيحُ تلك النّعَم العظيمة والكشفُ عمّا فيها من آياتٍ تدلُّ على المُنعِم تعالى، وذلك الجمع يتناسقُ مع مقام التّذكير والامتنان، والتّذكير بما يجبُ عليهم إزاءَها.

دلالةُ التَّعبير بـ﴿وَعُيُونٍ﴾ دون غيرها:

العيونُ مُنتشرةٌ في ثمود بخلافِ الأنهارِ

العيونُ: مَنابعُ تُحفر في الضِّفاف[1]، وداخلَ البساتين؛ وإنّما عبَّر بـ(العيون) دون الأنهار فلم يقل: (في جنّاتٍ وأنهار)؛ لأنَّ منطقة الجزيرة العربية الَّتي سكنَتْها ثمود وفيها ديارها، لا توجد فيها أنهار، ومعتمدُها على الآبار والعيون الَّتي تحفَر؛ فينبع منها الماء.

معنى الواو العاطفة في قوله: ﴿وَعُيُونٍ﴾:

من كمال النَّعيم وفرةُ الماءِ في الجنّاتِ لسقيها والانتفاع بها، وللتّمتُّع برؤيتها أيضًا

(الواوُ) في قوله تعالى: ﴿فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ للعطف، عُطف بها (عيون) على ﴿جَنَّٰتٍ﴾ بقصد الجمع والتّشريك بينهما مع الدّلالة على التّغاير، فكلٌّ منهما نعمةٌ مُستقلّةٌ، لكنْ لمّا كانت العيون تابعةً للجنّات، وأنّ مهمتها الأساس هي سقيُ الجنّات وما فيها من زروعٍ ونخيلٍ وأشجارٍ، فلا جَرَم قدَّم الأهمَّ والأصلَ - وهو الجنّات - عليها، وللإشارة إلى اعتماد الجنّات في الوجود عليها قُرِنا معًا.

دلالةُ العطفِ في ﴿وَزُرُوعٍ﴾:

التّغايرُ بين المُتعاطِفَيْن مُظهِرٌ لتنوُّع النِّعَم

الواو عاطفةٌ في قوله تعالى: ﴿وَعُيُونٍ ١٤٧ وَزُرُوعٍ﴾، عَطفتْ ما بعدَها على ما قبلَها، بقصد الجمع والتّشريك مع دلالة التّغاير بينهما، وقوله سبحانه: ﴿وَزُرُوعٍ﴾ جمع (زرع) وهو النّبات الَّذي يكون منه الحَبُّ المُتراكِبُ، ويتغذّى منه الإنسان، والّذي يكون منه السّنابل من قمحٍ وأرزٍ وغير ذلك من النّعَم الَّتي أنعم بها على الإنسان في غذائه، ويشمل النّبات والحشائش الَّتي تكون كلأً للأنعام[2]. وبهذا يظهر أنَّ الجنّاتِ تشمل الأشجار المُحمَّلة بالفاكهة

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 132.
(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 10/ 5390.

بأنواعها والنَّخيل، والزّروع هي الحبوب والبقوليّات وسيقانُها الَّتي تكون كلأً للأنعام.

دلالةُ استعمال صيغة الجمع للزّرع:

جمعُ الزُّروعِ لكثرتِها في ذاتِها وكثرةِ أنواعِها

جمعَ (الزروع) فقال: ﴿فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ١٤٧ وَزُرُوعٖ وَنَخۡلٖ﴾ اعتبارًا بكثرتها وتنوُّعها؛ فهي تشملُ الحبوبَ بأنواعها، وكذلك البقوليّات والخضروات، وكلّ ما هو خِلاف الأشجار والنّخيل؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗۖ لَّكُم مِّنۡهُ شَرَابٞ وَمِنۡهُ شَجَرٞ فِيهِ تُسِيمُونَ ١٠ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ﴾ [النّحل: 10 - 11]؛ فعَطف على الزّرعِ الأشجارَ بأنواعها وكذلك النّخيل، بما يُفيد المُغايَرة بينها.

دلالةُ تخصيصِ النَّخل بالذِّكْر:

خُصَّ النَّخلُ بالذِّكْر لفضلِهِ على سائرِ الأشجارِ

يجوز أن يكون ﴿وَنَخۡلٖ﴾ الوارد في قوله تعالى: ﴿فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ١٤٧ وَزُرُوعٖ وَنَخۡلٖ﴾ من باب ذِكر الخاصِّ بعد العامِّ بعطفه عليه؛ لأنَّ الجنّات تشمل النّخلَ ضمنًا، ويكون السِّرُّ في إفراد (النّخل) ما له من فضلٍ خاصٍّ على سائر أشجار الجنّات، كما في تخصيص جبريل وميكال بالذِّكر بعد دخولهما في لفظ الملائكة في قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ [البقرة: 98]، ويجوز أن يكون المُراد بالجنّات ما يشمل سائر الأشجار خلافَ النّخل؛ لأنَّ لفظ الجنّات مُطلقٌ، يصلحُ للكلِّ والبعض، وقرينةُ إرادة البعض عَطفُ ﴿وَنَخۡلٖ﴾ عليه، فأفردَ النّخل بالذِّكْر لعدم تناول الجنّات له[1].

ويجوز أن يكون تكريرًا للشَّيْء الواحد بلفظٍ آخر، فإنّهم يُطلقون الجنّةَ ولا يريدون إلّا النّخل، كما قال زهير:

كأنّ عَيْنَيَّ في غَرْبَيْ مُقتَّلةٍ *** منَ النَّواضحِ تَسقي جنّةً سُحُقا[2]

(1) ابن التَّمجيد والقونوي، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 14/ 289.

(2) السَّمين، الدُّرّ المَصون: 8/ 541، وأبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 258.

والأنسب لِما سيأتي أنَّ النَّخل المذكور ضمنَ الجنّات يشمل المُذكَّر والمُؤنَّث منه، وأمّا النّخل المذكور هنا؛ فمختصٌّ بالإناث بقرينة ﴿طَلۡعُهَا﴾.

دلالةُ التَّعبيرِ هنا بـ ﴿وَنَخۡلٖ﴾ دون (نخيل):

التَّفنّنُ في استعمالِ اسم الجنسِ والجمع

النَّخلُ اسم جنسٍ يُستعمل مُفردًا وجمعًا، والنّخيل هو الجمع فقط، والتّغايرُ في استعمال كلٍّ منهما من باب التّفنُّن، قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٖ مُّنقَعِرٖ ٢٠﴾ [القمر: 20] وقال: ﴿كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٖ ٧﴾ [الحاقّة: 7] وقال: ﴿وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ لَّهَا طَلۡعٞ نَّضِيدٞ ١٠﴾ [ق: 10]، والنّخيل هو الجمع[1]. ومنه قوله تعالى: ﴿يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ﴾ [النّحل: 11] وقوله سبحانه: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ﴾ [النّحل: 67].

موقعُ الجملةِ الاسميّة: ﴿طَلۡعُهَا هَضِيمٞ﴾:

وظيفةُ النَّعت الكنايةُ عن جمالِ النَّخيلِ

الجملة الاسميّةُ في قوله تعالى: ﴿طَلۡعُهَا هَضِيمٞ﴾ في محلِّ جرٍّ نعتٌ لـ ﴿وَنَخۡلٖ﴾، وهي داخلةٌ في حيِّز القول؛ فمحلُّها النّصب بهذا الاعتبار[2]، وأفادت الجملة تصوير النّخل بأنَّ طلعَها ليّنٌ لطيفٌ كنايةً عن أنَّ النَّخل فتيَّةٌ ناضرةٌ بهيّةٌ.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿طَلۡعُهَا﴾ دونَ (تمرها) أو (ثمرها):

المُرادُ بالنَّخل هنا المُؤنَّث منه بقرينةِ تأنيث (طلعها)

قولُه سبحانه: ﴿طَلۡعُهَا﴾ يدلُّ على أنّ المُراد بالنّخل هنا المُؤنّث، واللّفظ يوحي بذلك، فكلمة النّخل تُستخدم للمُفرد والجمع، والمُذكَّر والمُؤنَّث، والنَّعتُ ﴿طَلۡعُهَا﴾ دلّ على أنَّ المُراد بها المُؤنَّث دون المُذكَّر، وهو الأنسب؛ "لأنَّ الإناث ولّادة التّمر، وطلعُها فيه لُطفٌ"[3]، ولم يُعبِّر بالتّمر أوِ الثّمَر؛ لأنّ المقصود بالطّلع هو ما يُعرف بـ (الكِم) وهو وعاءٌ يطلعُ من النّخل، فيه ثمر النّخلة في أوَّل أطواره، يخرج كنَصل السّيف في باطنه شماريخ القِنْوِ أشبَهَ بالعنقود من العنب،

(1) الرّاغب، المُفردات: (نخل).
(2) الخطيب وآخران، التَّفصيل في إعراب التَّنزيل: 19/ 216.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 181.

وبعد خروجه بأيام ينفلقُ ذلك الوعاء عن الشّماريخ، وهي الأغصان الَّتي فيها الثَّمر كحَبٍّ صغيرٍ، ثمّ يغلظ ويصير بُسرًا، ثمَّ تمرًا[1]. أوِ المُراد بالطّلع أوّلُ ما يَطلع، قال الزّهري: "الطَّلْعُ هو اللَّطيف، أوّلُ ما يخرج، وقال الزّجّاج: هو الَّذي رطبُه بغير نوى"[2].

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ فعيل في قوله: ﴿هَضِيمٌ﴾:

الهضيمُ مُستعارٌ للّيِّن ولطيفِ الطّلعِ للدّلالة على جودةِ تمرِه الخارجِ منه

هضيم: فعيلٌ بمعنى مفعول؛ أيْ: مهضومٌ، وأصل معنى الهضم لغةً: الانحطاط أوِ الشّدخ والشّقّ، ثمّ تُجوِّزَ به عن الرّقّة واللّطف واللّين، فقد استُعير لفظ ﴿هَضِيمٌ﴾ هنا للدّقيق الضّامر، كما يُقال: امرأةٌ هضيمُ الكشح، وتلك علامةٌ على أنّه يُخرجُ تمرًا جيّدًا[3]. وقيل: استعمالُ لفظ الطّلع مجازٌ عن التّمر[4]، فيكون وصفه بـ(الهضيم) للدّلالة على لينه وجودته، كما نلحظه الآن في بعض التُّمور الفاخرة، ويحتمل أن يكون اللُّطْف في الطَّلع بسبب كثرة الحِمل، فإنَّه متى كثر لَطُفَ ودَقَّ، فكان هضيمًا، وإذا قلَّ الحمل جاء التّمر فاخرًا، لكن هنا لمّا كانت منابتُ النّخل جيّدةً، وكان السّقيُ لها كثيرًا، وسلِمت من العاهة؛ كبُر الحِمل مع لُطفِ الحَبِّ[5].

سرُّ التّرتيب في الآيات:

التّناسقُ العجيبُ في التّرتيب بين هذه المُفرداتِ

في قوله تعالى: ﴿جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ١٤٧ وَزُرُوعٖ وَنَخۡلٖ﴾ رتّبتْ هذه المُفرَدات الأربع في نسقٍ عجيبٍ، قُدِّم فيه الأهمُّ على المهمّ، والأصلُ على التّابع، والعامُّ على الخاصّ؛ فقوله سبحانه: ﴿أَتُتۡرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ١٤٦ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ١٤٧ وَزُرُوعٖ وَنَخۡلٖ طَلۡعُهَا هَضِيمٞ﴾ بدأ بذكرِ (الجنّات) وهي الأصل والأهمّ الَّتي تشتمل على الأشجار والأعناب والنّخيل، ثمَّ عَطَفَ عليها (العيون)؛ لكونها تابعةً لها

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 175، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 288.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 112.
(3) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 7/ 22، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 175.
(4) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 288.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 181.

وخادمةً وسببًا في وجودها، ومن ثَمَّ اقترنت بذِكْرها، ثم عطف الزُّروع لأهميَّتها بالنّسبة للإنسان والحيوان معًا، ولكونها جزءًا من الجنّات حال كونها مزروعةً بين أشجارها، وهو الأنسب لذِكْرها بعدها، أوْ أنَّها مغايرةٌ لها إنْ زُرعت استقلالًا، ثمّ ذَكَرَ النّخل؛ وهو أحد أشجار الجنّات المُؤنّثة منها والجياد فيها، فكان ذِكْرًا للخاصِّ بعد العامِّ، لفضله على سائر الأشجار، وبهذا يظهر لنا هذا التّناسق العجيب في التّرتيب بين هذه المُفرَدات.

براعةُ التخصيصِ في قوله: ﴿وَنَخۡلٖ طَلۡعُهَا هَضِيمٞ﴾:

النَّخلُ وحدَه الّذي تكونُ فيه هذه الأكمام المُعبَّر عنها بالطَّلْع

في قوله تعالى: ﴿وَنَخۡلٖ طَلۡعُهَا هَضِيمٞ﴾ خُصِّص النَّخل بهذا الوصف؛ لأنّه وحدَه الّذي تكون فيه هذه الأكمام أوِ الشّماريخ المعبَّر عنها بالطَّلع، وقد قال سبحانه: ﴿وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ ١١﴾ [الرّحمن: 11]، وأمّا غيرُها من الأشجار، فثمرُها يبدأ زهرًا ثمَّ يتشكَّل، كما أعطى الوصفُ دلالةَ التّأنيث للنّخيل، وأنّها جيّدةُ التّمر.

تحديد المعطوف عليه في قوله: ﴿وَتَنۡحِتُونَ﴾:

استحضارُ الصّورة تأشيرٌ على غرابةِ الصُّنع

الواو للعطف، عطفتْ جملة ﴿وَتَنۡحِتُونَ﴾ على جملة ﴿أَتُتۡرَكُونَ﴾ في حَيِّز الاستفهام الإنكاريّ التّوبيخيّ[1]، وقيل: عطف على ﴿ءَامِنِينَ﴾؛ أيْ: وناحتين[2]. والأرجح عطفها عليه؛ لأنّ الإنكار والتّوبيخ يتسلّط على حالة الأمن في العيش والنّحت في الجبال، مع أنّهم مغادرون أمنهم ومساكنهم، وإنّما عطف الجملة الفعليّة على الحال المُفردة من أجل استحضار صورة النَّحت كأنَّها مُشاهَدةٌ محسوسةٌ، وللدّلالة على غرابة اتّخاذ الجبال بيوتًا بالنّحت والعمارة فيها.

معنى مادّة (النَّحتِ):

النَّحت يُستعملُ في معنى الحفر في شيءٍ صلْبٍ؛ كالخشب

(1) الجمل، حاشيته على الجلالَيْن: 5/ 401.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 176.

والجبل والصَّخر، ومن ثَمَّ فالنَّحت هو اللّفظ المناسبُ في الآية، لأنَّهم نحتوا الجبال، فجعلوها بيوتًا فارهةً متينةً مؤمَّنةً كالقلاع والحصون، وهذا البناء يقيهم هجومَ الأعداء، ومن ثَمَّ يكون مُحقِّقًا للأمن بشكلٍ أكبر، ولذا كان العطف على ﴿ءَامِنِينَ﴾ مناسبًا؛ لأنّه صورةٌ من صور الأمن والهدوء والثّقة بالنّفس، حتّى نسوا وغفلوا عن المُنعِم سبحانه وتعالى اعتزازًا بما لديهم.

النَّحتُ للجبالِ وقايةٌ من الأعداء وثقةٌ واعتزازٌ بالنَّفس

دلالةُ صيغةِ المضارعةِ في قوله: ﴿وَتَنۡحِتُونَ﴾:

عبّر بصيغةِ المضارعِ في ﴿وَتَنۡحِتُونَ﴾ خلافًا للمعطوفِ عليه المفرد ﴿ءَامِنِينَ﴾، لاستحضار الحالةِ في نحتهم بيوتًا من الجبالِ[1]، ممّا يُزيِّن لهم حالةً من القوّة والسُّلطة والسّيطرة فتُلهيهم وتُنسيهم نِعَمَ اللّه تعالى الَّتي يجب شكرُها.

نكتةُ ذِكرِ الجارِّ والمجرورِ في قوله: ﴿مِنَ ٱلۡجِبَالِ﴾:

ذُكِرَ الجارُّ والمجرور في قوله تعالى: ﴿وَتَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ﴾ تحديدًا للمنحوتِ الَّذي يرسم صورةً من القوّة والعَظَمَة لقوم ثمود، حتّى جعلوا بيوتهم كالجبال في القوَّة والمَنعة، فيناموَن آمنين لا يخافون عدوًّا ولا يُغير عليهم مُعتدٍ، فقد كانوا في ذلك أهل خبرةٍ لا يُباريهم فيها سواهم، وفي ذلك إشعارٌ بمدى خبرتهم في نحت الجبال وانفرادهم به بما سوَّغ اختصاصَهم به، وذلك أنَّهم قد "كانوا ينحِتون بيوتهم من الجبال، لمّا طالَتْ أعمارُهم، وتهدَّم بناؤهم من المَدَر"[2].

تحديدُ المنحوتِ يرسمُ المعنى الدَّقيقَ

معنى ﴿مِنَ﴾ في قوله: ﴿مِنَ ٱلۡجِبَالِ﴾:

﴿مِنَ﴾ في قوله سبحانه: ﴿مِنَ ٱلۡجِبَالِ﴾ ابتدائية؛ أيْ: مبتدأُ نحت البيوت ومنشؤها من الجبال، ومَن ينحت الصَّخر ويصوِّر منه

(مِن) ابتدائيّةٌ وهو الأظهر، أوْ تبعيضيّةٌ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 176.
(2) الشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 130.

البيوت والقلاع، لا بد أن يكون فيه من قوَّة البدن ما يساعده على بلوغ هذا القصد، ولذلك ضُربت بقوتهم الأمثال، وإلى هذا أشار القرآن في قوله سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَٰدِ ۝ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝﴾ [الفجر: 6 - 9].

ويمكن أن تكون تبعيضيّةً؛ والمعنى أنّهم ينحتون بعض الجبال، والأوّل أنسبُ وأرجحُ في بيان النِّعَم الَّتي خصَّهم اللّه بها، حتّى اطمأنّوا إليها ونسوا يومَ حسابهم ورجوعَهم للحساب عندَ ربِّهم على تلك النِّعَم والهِبات والعيون والجنّات.

سرُّ المجيء بـ﴿مِنَ﴾ في قوله: ﴿مِنَ ٱلْجِبَالِ﴾:

ذِكْر (مِن) في السّياق المُفصَّل وحذفُها في السّياقِ المُجمَلِ

في سورة الأعراف وردت الجملة بدون حرف الجرِّ ﴿مِنَ﴾ حيث قال تعالى: ﴿وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ [الأعراف: 74]، وهنا في سورة الشُّعراء، وكذا في سورة الحِجْر في قوله تعالى: ﴿وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ۝﴾ [الحِجْر: 82] ذُكِر حرف الجرِّ ﴿مِنَ﴾.

أمّا في سورتي الحِجْر والشُّعراء؛ فقد سبق ذِكْرُ معنى ﴿مِنَ﴾ وسرّ مجيئها، وأمّا ما في سورة الأعراف من عدم ذِكْرها؛ فلأنّه اكتفى بذِكْرها فيما قبلها؛ فقد قال سبحانه: ﴿وَبَوَّأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ [الأعراف: 74] فلمّا قال: ﴿مِن سُهُولِهَا﴾ [الأعراف: 74] اكتفى به ولم يُعدَّ (من الجبال)[1]، ولعلَّ الفرق بين ذِكْرها وعدم ذِكْرها أنَّ النَّحت إن كانَ من الجبال فإنّه يُفيد أنَّ النَّحت قد وقع في جزءٍ من تلك الجبال، بخلاف نحت الجبال فإنّها قد تحوَّلت من كونها جبالًا وصارت بيوتًا مسكونةً، وأحسب أنّه إنْ كان التّركيز على النّحت للجبال بشكلٍ مُجْمَلٍ لم

(1) الكرمانيّ، أسرار التّكرار، ص: 124.

تُذكر (من) فيها، وإنْ كان التّركيز على ذِكْر النَّحت مُفصَّلًا؛ فإنَّ النَّظم يَذْكُر (من)؛ لأنّها تُفيد تفصيلًا أكبر وأوضح لعملية النَّحت.

دلالةُ التَّعبير بلفظِ: ﴿ٱلۡجِبَالِ﴾:

النَّحتُ لا يكون إلّا للأجسامِ الصُّلبة كصخور الجبال

عبَّر بمُفردة ﴿ٱلۡجِبَالِ﴾ هنا مع النَّحت فجعلها مُتعلَّق النَّحت؛ لأنَّه لا يكون إلّا للأجسام الصّلبة كصخور الجبال ونحوها، أمّا بناء البيوت والقصور فلا يناسبها فعلُ النَّحت، ومن ثمَّ لمّا عرض للقصّة في سورة الأعراف فرَّق بين البيوت المنحوتة في الجبال والقصور المبنيّة في السُّهول، فقال: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ عَادٖ وَبَوَّأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورٗا وَتَنۡحِتُونَ ٱلۡجِبَالَ بُيُوتٗاۖ﴾ [الأعراف: 74].

نكتةُ الجمعيّة في قوله: ﴿ٱلۡجِبَالِ﴾:

المرتفعاتُ المتجاورةُ هي جبالٌ وليست جبلًا واحدًا

لفظ (الجبل) يُطلق على كلِّ مرتفِعٍ منها؛ فكلُّ مرتفع جبلٌ، والجبل: ما علا من سطح الأرْض واستطال، وجاوَزَ التلَّ ارتفاعًا[1]. ولهذا يُقال للمرتفعات المتجاورة: سلاسلُ الجبال، ويُقال: جبالُ مكّة، لا جبلُها، فلا يُقال عنها جميعًا: إنّها جبلٌ واحدٌ، ومعنى هذا أنّهم كانوا ينحتون بيوتهم في سلاسل جبليَّة متجاورة، قد يجمع كلُّ واحدٍ منها عِدَّةَ بيوتٍ، وبعدها عدّة بيوتٍ أخرى في جبلٍ آخَر مُجاورٍ، ومن هنا كان الأنسب التَّعبيرُ بلفظ الجبالِ مجموعًا.

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿بُيُوتٗا﴾ دون غيرها:

لفظُ البيوت أنسب للنّحت في الجبال، وأكثر تحقيقًا للأمان ودلالةً عليه

عبَّر البيان القرآنيُّ بكلمة (البيوت) لما لها من دلالةٍ على الأمان والسُّكون والاطمئنان؛ فالبيتُ في الأصل: مأوى الإنسان باللَّيل، والليلُ هو محلُّ المَخاطر، فما يأوي إليه الإنسان باللّيل هو ما يُحقّقُ له الأمان في أخطر الأوقات، قال الرّاغب: "يُقال: باتَ: أقام باللّيل، كما يُقال: ظلَّ بالنهار، ثُمّ قد يُقال للمَسْكن بيتٌ من غير اعتبار اللّيل

(1) مجمع اللّغة العربية بالقاهرة، المعجم الوسيط: (جبل).

فيه"[1]، وأمّا لفظا (المنازل والدور)، وإنْ أُطلِقا عُرفًا على البيوت أيضًا، إلّا أنَّ أصلهما لا يدلُّ على ذلك الأمان والقرار الَّذي يدلُّ عليه لفظ البيوت، فالمنزِل - بكسر الزّاي: الدّار موضعُ النُّزول[2]. والدّار: المنزل والبيت اعتبارًا بدورانها وإحاطتِها بالحائط[3]. وهذا ما لا يكون في البيوت المنحوتة، فليست تُحاط بحائطٍ يدور حولها؛ فإنَّها تكون كتلةً واحدةً منحوتةً في باطن الصَّخر.

دلالةُ لفظِ ﴿بُيُوتًا﴾:

الجمعُ للكثرةِ، والتّنكيرُ للتّفخيمِ

جُمعت البيوتُ في الآية الكريمة للدّلالة على كثرتها، ونُكِّرت لتدلَّ على عظمتها وفخامتها وكونها في تشييدها عظيمةً متينةً؛ كالقلاع المُحصَّنة الَّتي تَحمي مَن كان داخلَها من كلِّ خطرٍ مُتوقَّعٍ، ويُلحظ أنَّ الجَمعَ كان على (بيوتٍ) لا على (أبياتٍ)، وذلك لإرادة الكثرة؛ إذ (فُعول) جمعٌ للكثرة، وأفعالٌ جمعٌ للقِلَّة، وأيضًا فإنَّ "البيوت بالمسكن أخصُّ، والأبيات بالشِّعر"[4] فيُقال: أبياتُ الشِّعر، لا بيوتُ الشِّعر.

دلالة الحال في قوله تعالى: ﴿فَٰرِهِينَ﴾:

الحالُ بيانٌ لهيئةِ صاحبِه تقييدٌ لعامِلِه

قوله سبحانه: ﴿فَٰرِهِينَ﴾ منصوبٌ على الحال من فاعل ﴿وَتَنۡحِتُونَ﴾؛ والمعنى: (وتنحتون حاذِقين مُتحصِّنين بها مُعجَبين مُتجبِّرين)[5]، والحالُ بيانٌ لهيئةِ صاحبِه وتقييدٌ لعامله، فهو يوضِّح هيئة هؤلاء البنّائين الّذين كانوا حاذِقين في النّحت والبناء مع العُجْبِ والكِبْر المُخالِط لقلوبهم أثناء النَّحت، كما أنّهم عند نحتهم لم ينظروا إلى إقدارِ اللّه لهم؛ بل أخذهم الغرورُ والكِبْر؛ فلم يشكروا تلك النِّعمة وذلك الإقدارَ لهم.

(1) الرّاغب، المُفردات: (بيت).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (نزل).
(3) الرّاغب، المُفردات: (دار).
(4) الرّاغب، المُفردات: (بيت).
(5) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 10/ 5391.

دلالةُ التَّعبير بلفظِ ﴿فَٰرِهِينَ﴾:

تـنـوُّعُ المعنى وثراءُ التّوجيهِ

اختُلف في المُراد بـ(الفَراهة)؛ فقيل: النّشاط والقوّة والحِذْق؛ فإنَّ الحاذق يعملُ بنشاطٍ وطلَب قلب[1]، وقيل: البطَر، وقيل: هو في النّشاط حقيقةٌ، واسْتِعْمالُه في الحذاقة مَجازٌ[2]. ولا يُنافيه تفسيره به في بعض كتب اللّغة؛ لأنّهم لا يُفرّقون بين الحقيقة والمجاز الوارِدَين عن العرب، أوْ أنَّه لِشُيوعه صار حقيقةً عُرفيّةً فيه، فلا غُبار عليه[3]، وسيأتي كلامٌ عن ذلك أيضًا عند توجيه القراءات في كلمة ﴿فَٰرِهِينَ﴾؛ والمعنى: أنّكم تنحِتون إظهارًا للقدرة ﴿مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ﴾؛ أيْ: مُظهِرين النّشاطَ والقوّة، تعظيمًا لأنفسِكم وبطَرًا، لا لحاجتِكم إلى شيءٍ من ذلك[4].

دلالةُ صيغة اسمِ الفاعلِ: ﴿فَرِهِينَ﴾:

رسـوخُ صـفـةِ الـبَـطَـرِ والاسـتـطـالـةِ فيهم

دلّ التَّعبيرُ باسم الفاعل في قوله سبحانه: ﴿فَرِهِينَ﴾ على استحقاقهم هذا الوصفَ الدّالَّ على رسوخه فيهم وثبوتِه عليهم، وذلك أنَّهم لم يكونوا يعترفون بنعمة اللّه عليهم فيما أنعمَ به من تمكينِهم من حَفْر الجبال ونَقْبها، والاحتماء بها والتَّحصُّن فيها، وإنَّما كانوا ثابتِينَ على التّباهي والافتخار والاستطالة على النّاس بهذه النِّعمة، وقد ازدادوا بها كفرًا، بدلَ أنْ يعاوضوها حمدًا للّه وشكرًا، ويُؤيِّد هذا المعنى أيضًا قراءةُ (فَرِهين)؛ لكونها صيغة مُبالَغَة دالّةً على المُبالغة في اتِّصافهم بهذه الصِّفة.

براعة الجمع بين الحالَين دلالةً وصيغةً:

التّعريضُ بهم لكونِهِم قد بدَّلوا نعمةَ اللهِ كُفرًا

الجمعُ بينَ هذيْن الحاليْن ﴿ءَامِنِينَ﴾ و﴿فَٰرِهِينَ﴾ وما يدلّانِ عليه من حصول الأمن لهم مع حصولِ الفراهة والفخر، وبصيغةٍ واحدةٍ

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 259.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 112.

(3) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 7/ 22.

(4) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 14/ 75.

هي اسم الفاعل في كلٍّ منهما الدالَّةُ على ثبوت هذيْن الوصفيْنِ لهم، هذا كلُّه مُشعرٌ بعظمة هذه النّعمة الَّتي أنعمها اللّٰه عليهم، وبفخامة هذه البيوت المُتَّخَذة من الجبال ومَنَعَتها، بحيث تَرُدُّ عنهم كلَّ طامع وتَغيظُ منهم كلَّ حاسدٍ، وفي ذلك من التّعريض بهم ما فيه؛ لأنَّ المُتوقَّع منهم أن يُقابلوا هذه النِّعمة الَّتي حقّقت لهم الأمن الغذائيَّ والأمن الشّخصيّ، بالشُّكر لا بالكُفر والاستطالة على خَلق اللّٰه.

توجيهُ القراءاتِ في ﴿فَٰرِهِينَ﴾:

العـلم قد يكون وبالًا على صاحبه

في قوله سبحانه: ﴿فَٰرِهِينَ﴾ قراءتانِ مُتواترتانِ؛ إذ قرأ ابنُ كثيرٍ ونافعٌ وأبو عمرٍو وأبو جعفر ويعقوب: ﴿فَرِهِينَ﴾ بغير ألفٍ، وقرأ الباقون: ﴿فَٰرِهِينَ﴾ بألفٍ، والحُجَّةُ لَمَن أثبتها أنَّه أراد بها: حاذقين بما يعملونه، والحُجَّة لَمَن حذفها أنّه أراد بها: أشِرين، بَطِرين، مُفتخِرين[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الجنّات والحدائق والبساتين:

الجـنّـةُ هي الحائطُ المُحتوي عـلى نـخـيـلٍ وأعـنـابٍ، وإلَّا فهي حديقةٌ

يُقال: جنّ الشيءَ يجُنّه جَنًّا: ستره، وكلُّ شَيْء سُتِر عَنْك فقد جُنّ عَنْك، والجَنَّة: الحديقةُ ذات الشّجر والنَّخْل، وجَمعُها: جِنان، وقيلَ: "لا تكون الجَنَّة في كَلام العَرَب إلّا وفيها نخيلٌ وعِنَب؛ فإن لم يكن فيها ذَلِك وكانَت ذات شجر؛ فهيَ حديقةٌ وبستانٌ ولَيْسَت بجَنَّة"[2].

الطَّلع والثَّمر:

الطَّلع هو أوّلُ مراحلِ الإثمارِ وأوّلُ أطـوارِه، والثّمرُ آخِرُه

الطّلع هو ما يُعرف بـ (الكِم)؛ وهو وعاءٌ يطلع من النَّخل، فيه ثمرُ النّخلة في أوَّل أطواره، يخرج كنصل السّيف في باطنه شماريخ القِنْو أشبه بالعنقود من العنب، وبعد خروجه بأيام ينفلقُ ذلك الوعاء عن الشَّماريخ، وهي الأغصان الَّتي فيها الثّمر كحَبٍّ صغيرٍ،

(1) الفارسيّ، الحُجّة للقرّاء السَّبعة: 5/ 366، وابن خالَوَيْه، الحُجّة في القراءات السَّبع، ص: 268، وابن الجزري، النشر: 2/ 336.

(2) ابن سِيدَه، المُحكَم: (جن).

ثُمَّ يغلُظ ويصير بُسْرًا، ثمَّ تمرًا[1]، أو أنَّ المُراد بالطَّلع أوّلُ ما يَطلُعُ التّمر؛ أيْ: في أوَّل مراحله، قال الزهري: هو اللَّطيف أوَّلَ ما يخرج، وقال الزَّجّاج: هو الَّذي رُطَبُه بغير نوى[2]. وقد استُعيرَ في الآية الوصفُ ﴿هَضِيمٌ﴾ للدّقيق الضّامر الَّذي هو الطّلع الَّذي يكونُ في الكِمِّ، كما يُقال: امرأةٌ هضيمُ الكشح، وتلك علامةٌ على أنّه يُخرِج تمرًا جيِّدًا[3]. ولذلك عبَّر هنا بالطَّلع، ولم يُعبِّر بالتّمر أوِ الثَّمَر.

العُيون والآبار:

كلُّ بئرٍ هي من العُيون، وليست كلُّ عينٍ بئرًا أوْ منه

العيونُ: منابعُ تُحفَر في الضّفاف[4] وداخل البساتين والمزارع، وقد تكون العيونُ طبيعيّةً؛ أيْ: من صنع اللّه ومِنَحِه وليست من حفر البشر؛ أمّا الآبارُ فهي ما يقوم البشر بحفرها للإفادة منها في الشُّرب وفي الزِّراعة؛ وعلى هذا فكلُّ بئرٍ يكون من العيون؛ وليست كلُّ عينٍ بئرًا ولا منها.

الفراهة والحِذق:

بين الفراهة والحِذْقِ عُموم وخُصوص مُطلَق، فكُلُّ حِذْق فراهةٌ وليس كلُّ فراهةٍ حِذْقًا

الحِذْق هو النَّشاط والقوَّة في طلب الشَّيء بإدراكٍ وإتقانٍ ووعيٍ، وهو أحد معاني الفراهة، كما سلف بيانُه، وأصله كما يقول العسكريّ: حِدّة القطع، يقال: حَذِقَه إذا قطعه، وقولهم: حذِق الصَّبيُّ القرآنَ؛ معناه أنَّه بلَغَ آخِرَه، وقطَعَ تعلُّمَه، وتناهى في حِفظه، وكلُّ حاذق بصناعةٍ فهو الَّذي تناهَى فيها، وقطعَ تعلُّمَها[5]. لكنَّ الفراهة تدلُّ أيضًا على معنى: البطَر والأشَر[6] والاستطالة على الخَلْق بنِعَم اللّه واحتقارهم، كما سلف الكلام عن ذلك في توجيه قراءتَي ﴿فَٰرِهِينَ﴾ و(فرِهين)، ولأجل هذه السَّعة في احتمال لفظ الفراهة على أكثرَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 175، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 288.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 112.
(3) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 7/ 22، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 175.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 132.
(5) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 85.
(6) الرّاغب، المُفردات: (فره).

من معنًى، تَعدَّدَ الكلام حول بيان المُراد بقوله: ﴿فَٰرِهِينَ﴾ وكان الحِذْق واحدًا منها، وقيل: هو في النَّشاط حقيقةٌ، واسْتِعْمالُه في الحذاقة مجازٌ[1]. ولا ينافي ذلك تفسيرَ الفراهة بالحِذْق في بعض كُتب اللّغة؛ لأنَّهم لا يُفرِّقون بين الحقيقة والمجاز الوارِدَينِ عن العرب، أوْ أنَّه لِشُيوعه صار حقيقةً عُرفية فيه فلا غبار عليه[2]، وعليه يكون بين الفراهة والحِذْق عمومٌ وخصوص مُطلَق، فكلُّ حِذْق فراهَةٌ، وليس كلُّ فراهَةٍ حِذْقًا.

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 112.
(2) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 7/ 22.

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٥٠ وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمۡرَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ١٥١ ٱلَّذِينَ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ ١٥٢﴾ [الشُّعراء: 150 - 152]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

تذكيرٌ بتقوى اللهِ، وتحذيرٌ من الرُّكون إلى المُسرفين المُفسِدين

بعد أنْ حكتِ الآيات السّابقة تكذيبَ ثمودَ نبيَّهم صالحًا ﵇ رغم معرفتِهم بصدقه وأمانته، وكان الَّذي صدَّهم عنه هو إغراقُهم في الحياة وملذّاتِها، واغترارُهم بما أنعمَ اللّه عليهم من الجنّات والعيون والمَساكنِ الفارهة والبُيوت المنحوتة في صخر الجبال بحيث لا تُنال، وبعد أنْ كان ﵇ قد أمرَهم مِرارًا بتقوى اللّه وحضَّهم عليها؛ عادَ بعد ذلك ليُذكِّرهم بها من جديدٍ، ويُحذِّرَهم من التّمادي في الرّكون إلى المَلذّات، وإلى أهل السَّرف والتَّرف، إذ ليس في اتِّباعهم من خير؛ لأنَّهم يُفسدون في الأرض ولا يُصلحون، قائلًا لهم مُنبِّهًا ومُحذِّرًا: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٥٠ وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمۡرَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ١٥١ ٱلَّذِينَ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ﴾.

شَرحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تُطِيعُوٓاْ﴾: أصلُ (طوع) يدلُّ على الإصحابِ والانقيادِ، يُقالُ: طاعَهُ يَطوعُهُ، إذا انقادَ معه ومضَى لِأَمره[1]، والطّاعة اسمٌ لما يكون مصدرُه الإطاعةَ؛ وهو الانقياد، والطَّواعيَةُ اسمٌ لما يكون مصدرُه المُطاوعةَ، يُقال: طاوعتِ المرأةُ زوجَها طَواعيَةً حَسَنةً، ولا يُقال للرَّعيَّة: "ما أحسنَ طَواعيَتَهُم للرّاعي!"؛ لأنَّ فِعلَهم الإطاعة[2]، والطَّوعُ: نقيض الكَرْه، تقول: لَتَفْعلنَّهُ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا، طائعًا أَوْ كارهًا[3]، والمقصود بالطّاعة في الآية: الانقيادُ لأمرٍ عَن رِضًى دونَ مُمانَعةٍ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (طوع).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (طوع).
(3) الخليل، العين: (طوع).

2) ﴿أَمْرَ﴾: أَصْلُ (أمر) ضِدُّ النَّهْيِ[1]، والأَمرُ: الشَّأنُ، وجمعُه: أُمور، وأمرتُهُ: إذا كلَّفتَهُ أنْ يفعل شيئًا، وهو لفظ عامٌّ للأفعال والأقوال كلِّها، والأمرُ أيضًا: التَّقدُّم بالشَّيء سواءٌ كان ذلك بقولهم: افعلْ وليفعلْ، أوْ كان ذلك بلفظِ خبرٍ، نحو: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ﴾ [البقرة: 228]، أوْ كان بإشارةٍ أوْ غيرِ ذلك[2]، ومِنْ هذا الباب الإِمرَةُ والإِمارَةُ، وصاحِبُها أَميرٌ ومُؤَمَّرٌ[3]، والمقصودُ بالأَمر في الآيةِ: اسمٌ مُبهَمٌ بمعنَى الشَّيْءِ والشَّأْنِ.

3) ﴿ٱلْمُسْرِفِينَ﴾: أصلُ الإسرافِ: مُجاوَزةُ الحَدِّ، والإغفالُ أيضًا للشَّيءِ، يُقالُ: أَسرفَ يُسرِفُ إسرافًا وسَرَفًا؛ أيْ: جاوَزَ الحَدَّ ولم يَعتدلْ، وضدُّهُ: القَصْدُ والاعتدالُ[4]، وأمّا الإغفالُ فقولُ القائلِ: مَرَرْتُ بِكُم فسَرِفْتُكُم؛ أيْ: أَغفلتُكُم[5]، والإسرافُ أيضًا: التَّبْذيرُ، والمُسرِفُ: المُبَذِّرُ[6]، ويُطْلَقُ الإسْرافُ أيضًا على الإتْلافِ والتَّضْييع، تَقولُ: سَرِفَ الطَّعامُ؛ أَيْ: ضاعَ وتَلِفَ[7]، والإسراف في الآية معناه: الإفراطُ في شَيءٍ، والمُراد به الإسرافُ المذمومُ كُلُّهُ في المالِ وفي الكُفْرِ، ووَصْفُهُم بأنَّهم يُفسدونَ في الأرضِ؛ فالإسرافُ مَنوطٌ بالفسادِ[8].

❁ المَعْنى الإِجْماليُّ:

تقوى اللهِ تعالى عِلَّةٌ لطاعته، وهي أساسُ الطّاعةِ ومَبعثُها

وقال صالِحٌ ﷺ لقومه: فاتَّقوا سَخَطَ اللّهِ وعِقابَه، وأطيعوني فيما آمُرُكم به وأنهاكم عنه؛ فقد بانَ لكم صِدقي، ولا تَنقادوا لأمرِ المُسرِفين، الَّذين تمادَوا وتجاوَزوا الحَدَّ في الكُفرِ باللّهِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أمر).
(2) الرّاغب، المُفردات: (أمر).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أمر).
(4) الخليل، العين: (سرف).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المُفردات: (سرف).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (سرف).
(7) المعجم الوسيط: (سرف).
(8) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 176.

ومَعصيتِه، الَّذين يُفسِدون في الأرضِ بالكُفرِ والظُّلمِ والمعاصي والدَّعوةِ إلى ذلك، ولا يُصلِحونَ أنفُسَهم بالعَمَلِ الصّالحِ، ولا يأمُرونَ غَيرَهم بالصَّلاحِ[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

معنى (الفاء) في: ﴿فَٱتَّقُواْ﴾:

ترتُّبُ التّحذيرِ على التّذكيرِ

(الفاء) في قوله: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ هي فاء الفصيحة المُفصِحة عن شرطٍ مُقدَّر؛ أيِّ: إذا كنتُم على هذه الحال من النِّعَم الَّتي أحاطَتْ بكم ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾[2]، وأفادت هذه الفاء دلالة التَّرابط بين أوَّل الكلام وآخره، بحيث يترتَّب الأمر بالتَّقوى والطاعة على ما سبق ذِكْره من التّذكير بالنِّعم العظيمة والآلاء الجليلة، ممّا يجعل النَّظم مُتماسِكًا والخطابَ مُتلاحمًا.

دلالةُ التَّعبيرِ بالتَّقوى:

الأمـرُ بالتَّقوى كـنـايـةٌ عـن الإيمانِ

لفظ التَّقوى من الألفاظ الجامعة، والأمرُ بها هنا في قوله ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ هو أمرٌ بالإيمان، فهي كنايةٌ عن طلبِ الإيمان؛ لأنّهم لم يكونوا مؤمنين أصلًا حتّى يُذَكَّروا بالتَّقوى المُترتِّبة عليه، ولكن كانوا كفّارًا يُطالبون بأصل الإيمان أوّلًا، والسِّرُّ البلاغيُّ لهذه الكناية طلبُ المُسارَعة بالإيمان وما يترتّبُ عليه من التَّقوى والخشية، حتّى لكأنَّهم آمنوا ثمَّ حُثُّوا على التَّقوى والخشية بعد تحصيلهم أصل الإيمان[3]. كما تُفيد هذه الكنايةُ أهميّةَ تحصيل التَّقوى بعد تحصيل الإيمان، إذ لا يظهر للإيمان مظهرٌ خارجيٌّ وسلوكيٌّ إلّا بتقوى المؤمن وخوفِه وخشيتِه من الله تعالى بالأعمال الصّالحة وترك المنهيّات.

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 624، والسّمرقنديّ، بحر العلوم: 2/ 563، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 595.

(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 10/ 5391.

(3) المطعنيّ، التَّفسير البلاغيّ للاستفهام: 3/ 106.

دلالةُ إسنادِ الاتّقاءِ إلى ضمير الجمع:

التَّقوى جِماعُ الخيرِ كلِّه، والأمرُ بها أمرٌ بالإيمانِ

جاء الأمرُ بالاتِّقاء الَّذي هو في حقيقته أمرٌ بالإيمان وما يترتّبُ عليه من خوفٍ واتّقاءٍ موجَّهًا إليهم بضمير الجماعة؛ لأنّهم جميعًا لم يكونوا مؤمنين، حتّى لو دخلتْ معهم القلّةُ المؤمنة في مضمون الأمر بالتَّقوى، فلا بأس، لأنَّ الأمر بالتَّقوى بمعناها الشّامل يحتاجُه كلُّ إنسانٍ؛ المؤمنُ وغير المؤمن، وقد أُمِر بها النّبيُّ ﷺ في قوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ١﴾ [الأحزاب: 1]، مع أنّه لا يُتصوَّر منه إلّا حصولُها، فكيف بغيره؟! فالتَّقوى جِماعُ الخيرِ كلِّه، والأمرُ بها أمرٌ بالإيمانِ وما يتبعه من أعمال البِرِّ والخير، والبُعدِ عن أعمال الشَّرِّ كلها، ومن ثَمَّ فالأمر بها يَصلح لجميع النّاس.

دلالة التَّعبيرِ بالأُلوهيّة:

جاء الأمر بالتَّقوى في الآية مُعلَّقًا باسم الجلالة ﴿ٱللَّهَ﴾ ولم يأتِ بصيغةِ: (اتّقوا رَبَّكم)، ولعلَّ داعي ذلك - كما سبقَ ذكرُهُ - كون التَّقوى هنا دالّةً بِطَريق الكناية على الإيمان، والإيمانُ من خصائص الأُلوهيّة لا الرّبوبيّة، كما يدلُّ على أنّهم يَعترفون بأنَّ لهم ربًّا وخالقًا، لكنَّهم يُشركون به ما يتقرَّبون بها إليه زُلْفى؛ فهم يجهلونَ توجيهَ العبادة والإيمان للّه وحده لا شريكَ له.

معنى وصل الجملة في قوله: ﴿وَأَطِيعُونِ﴾:

طاعةُ الرُّسُل طاعةٌ لله تعالى في الحقيقة

الواو عاطفةٌ لجملةِ ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ على جملة ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ بقصد الجمع والتّشريك بينهما، فإنَّ طاعة الرُّسُل من طاعة اللّه وتقواه، كما قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ [النّساء: 80]؛ إذ الآمرُ بطاعة الرُّسُل هو اللّه تعالى؛ فتكون طاعتُهم فيما يُبلِّغون طاعةً وانقيادًا للّه تعالى في الأصل.

دلالة التَّعبير بالطّاعة في قوله: ﴿وَأَطِيعُونِ﴾:

إنّ لفظ الطّاعة من الألفاظ الجامعة؛ لكونه يدلُّ على مُطلَق

الانقياد[1]؛ أيْ: الانقياد لما يأمُر به ويَنهى عنه بوصفه رسولًا من عند اللّه برسالةٍ فيها أوامرُ ونواهٍ، وقد قال اللّه تعالى في معنى هذه الطّاعة: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ﴾ [الحشر: 7]، وأفاد عطفُ الطاعة على التَّقوى والأمرِ بالإيمان أنَّهما شيئان مُتغايرانِ، لكنّهما مُتماسِكان مُرتبِطان ببَعضِهما؛ إذِ الإيمانُ باللّه تعالى وحده لا شريك له تصديقٌ واعتقادٌ باللّه تعالى ربًّا وخالقًا وإلهًا لا شريك له، والطّاعةُ للرُّسل بمضمون الرّسالة انقيادٌ ومتابعةٌ بالأعمال لهم من الإتيان بالأعمال الصّالحة الَّتي ينالونَ بها رضا ربِّهم، وتركِ الأعمال الفاسدة الَّتي يحصُلون من خلالها على غضبِ مولاهم عليهم، لكنّهما أمران مُترابِطان لتحصيل كمالِ السَّعادة والفوز.

الطّاعة تعني مُطلَق الانقيادِ والامتثالِ لما يصدُرُ عن الرُّسل أمرًا ونهيًا

لطيفةُ الأمرِ بالتَّقوى لله والطّاعة له:

الأمر بالتَّقوى لا يأتي إلّا مُقيَّدًا بكونه للّه، محمولًا على معنى اتِّقاء عذابِه وعقابِه؛ فقول صالح ﷺ: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾؛ أيْ: خافوا بأسَه وعذابَه وقوا أنفسَكم غضبَه، وهذا لا يتأتّى مع الرُّسل، فلا يُقال: (واتّقوا رُسلَه) أوْ: (فاتّقوا اللّهَ واتّقونِ)؛ لِأنَّ الرُّسُل عليهم الصّلاة والسَّلام لا يَملِكون عِقابًا حتّى يُتَّقى، أمّا الطّاعة فهي عامّةٌ، فتكون للّه وللرُّسل ولغيرِهما، وطاعة اللّه وطاعة الرّسل مُتلازمتان، إذ طاعةُ الرُّسل هي من طاعة اللّه تعالى لكونه الآمرَ بها.

الأمرُ بالتَّقوى مخصوصٌ باللهِ تعالى، والأمرُ بالطّاعةِ عامٌّ فيكون للهِ ولغيره

إشارةُ التَّعبيرِ بالفاعلِ ضَميرَ جماعةٍ في قوله: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾:

وجّه صالحُ ﷺ الأمر بالطّاعة إلى جميعِهم، مُتوسِّلًا إلى ذلك بإلحاق واو الجماعة فاعلًا للفعل، لكونهم كانوا مُطبِقين على عصيانه ﷺ وعدمِ اتِّباعه في أوامره ونواهيه، كما يتناسق ويتماسكُ الخِطاب مع ما سبَق من توجيه الأمر بالتَّقوى إلى جميعِهم دون استثناءٍ.

خطابُ الجميع بالطّاعة دليلٌ على الاجتماع على الضَّلالة

(1) الرّاغب، المُفردات: (طوع).

لطيفةُ حَذف ياء المُتكلّم في قوله: ﴿وَأَطِيعُونِ﴾:

حــذفُ اليـاء للتّخفيف ورعايةِ الفاصلة وهَضْم الذّات

ياء المُتكلّم في قوله سبحانه: ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ مَحذوفةٌ للتّخفيف، كما حُذفت في قوله تعالى: ﴿وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ٤٠﴾ [البقرة: 40]، وفي قوله: ﴿وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ٤١﴾ [البقرة: 41]، وقوله: ﴿فَٱعۡبُدُونِ ٢٥﴾ [الأنبياء: 25]، ومن فوائد حذفها أيضًا رعايةُ الفواصل ومجانستُها لما قبلها وما بعدَها، كما يدلُّ الحذف لها على هضم الذّات المُشعِرة بأنَّ طاعة الرُّسل ليس لذواتهم؛ بل لأمر اللّه تعالى بطاعتهم، فأخفَوا ضمير النَّفس لتكون الطّاعةُ متوجِّهةً للآمِر بها أصلًا.

سِرُّ تقديم الأمر بالتَّقوى على الأمر بالطّاعة:

الإيـمـانُ باللّه أصلٌ يترتّب عليه طاعة الرُّسل

قُدِّم الأمر بتقوى اللّه تعالى في السّياق القرآنيّ؛ لأنَّه الأصل؛ فله حقُّ التّقديم، وأنَّه إذا ما تحقَّق هذا الأصل كان سببًا في حصول طاعته ﷺ، فتقوى اللّه علّةٌ لطاعته، والأصلُ تقديم العلَّة على المعلول[1]، والسّبب على المُسبَّب، كما أنّه لا تصحُّ طاعةٌ في الأوامر والنّواهي من دون وجود أصل الاعتقاد باللّه تعالى الآمِر والنّاهي.

دلالة واو العطف في قوله: ﴿وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمۡرَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾:

الجامع خياليٌّ بين الأمر بطاعة الـصّـالـحـين والـنَّـهـي عن طاعة المُفسدين

الواو عاطفة لجملة ﴿وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمۡرَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ على ما قَبلَها بقَصْد التّشريك بينَ ما أُمِروا به من طاعته ﷺ، وما نُهوا عنه من طاعة أمرِ المُسرفين، والَّذي سوَّغ الوصلَ هو كون الجملتَيْن إنشائيَّتيْن لفظًا ومعنًى، وبين الأمر بطاعة الصّالحين والنَّهي عن طاعة المفسدين اقترانٌ في الخيال للتّضادِّ بينهما، فيكون الجامعُ بين الجملتَيْن المتعاطفتَيْن خياليًّا.

دلالةُ (لا) النّاهية في قوله: ﴿وَلَا تُطِيعُوٓاْ﴾:

النهيُ بعدَ الأمر تأكيدٌ للمأمور به

(لا) في جملة ﴿وَلَا تُطِيعُوٓاْ﴾ ناهيةٌ زاجرةٌ بشكلٍ قطعيٍّ لا يقبل

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 175، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 521.

تأويلًا ولا تقييدًا، نهتْهُم عن طاعة أمرِ المُسرفين، الَّذين لن يدلّوهم إلّا على ما يضرُّهم ولا ينفعُهم، وبهذا النَّهي القاطع تمَّ تأكيدُ الأمر بطاعة الصّالحين، الَّذين يُمثّلُ الرُّسُل أعلاهم درجةً وأمثلَهم طريقةً؛ لأنّهم رسلُ اللّه وسُفَراؤه إلى النّاس.

دلالة التَّعبير بلفظ (الطاعة):

النّهي يتضمَّن الأمرَ بالضدِّ

لفظ الطّاعة من الألفاظ الجامعة؛ لكونه يدلُّ على مُطلَق الانقياد[1]؛ فالنّهي بها نهيٌ عن الانقياد للمُسرفين وأمرٌ بطاعة الرُّسُل والمصلحين؛ لأنَّهم وحدَهم مَن يأمر بالخير، فإنّهم يأمرون بطاعة اللّه وتقواه، وذلك هو المُنجّي في الدَّنيا والآخرة.

بلاغة الطِّباق:

الدّلالة على التّناقض عند الجمع بين طاعة المُصلِحين والمُفسِدين

بين الأمر بالطّاعة في قوله سبحانه: ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ والنِّهي عنها في قوله سبحانه: ﴿وَلَا تُطِيعُوٓاْ﴾ ما يُعرَفُ بطباق السَّلب؛ فقد أمرَهم صالحٌ عليه السلام بطاعته؛ لأنَّ طاعته من طاعة اللّه ولكونه مُحمَّلًا برسالة من عنده، ثمَّ نهاهم عن ضدِّها وهي طاعة أمر المُسرِفين على أنفسهم في الكفر والفسوق؛ لأنَّ طاعتهم تعني طاعةَ مَن مضَوْا في دَرْب الشّيطان، وفائدةُ طباق السَّلب الاحترازُ عن توهُّم الجمع بين طاعة اللّه ورسله وطاعة أمر المُسرفين والمُفسدين أيضًا؛ لأنَّ ذلك يؤدّي إلى التّناقض في المُعتقَد والقول والعمل، والكاشفُ عن ذلك التّناقضِ الجمعُ بين الإثبات والنّفي.

بلاغة الاستِعارة في قوله سبحانه: ﴿وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمۡرَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾:

الحملُ على المَجازِ العقليّ هو الأقرب من بين الاحتمالات الأخرى

قوله سبحانه: ﴿وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمۡرَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ فيه تسليطُ النّهي على الأمر، والأصلُ أن يكون النّهي عن طاعة الآمر؛ فيقال: (ولا تُطيعوا المسرفين) كما فعل في جملة الأمر ﴿وَأَطِيعُونِ﴾، فما تعليل إقحام (الأمر) هنا؟ والجواب: أن ذلك محمول على

(1) الرّاغب، المُفردات: (طوع).

الاستعارة التّبعيّة؛ فقد شبَّه امتثال الأمر بطاعة الآمِر في كونه سببًا لتَحْصيل مَرضاةِ اللّه تَعالَى، ثمّ أُطلقت عليه فاشتُقّ منه الأمر، وجَوّز بعضهم حملَه على المجاز الحُكميّ وهو العقليّ؛ أيِّ: تعليق الشيء بغير مفعوله الحقيقيّ، أو المجاز المُرسل بتسمية الآمر أمرًا لعلاقة اللّزوم، أو حملَه على الاستعارة المَكنيّة بتشبيه الأمر بالآمر[1].

وضعّف القونَويّ الحملَ على المجاز المُرسَل، وكذا حمله على الاستعارة المكنيّة، وقال في بيانه وتعليله: "وكونه مجازًا مرسلًا بعلاقة اللّزوم؛ إذ امتثال الأمر يلزمه إطاعةُ الآمر وبالعكس ضعيفٌ؛ إذ المُبالَغَة في الاسْتعارَة أتمُّ، وأمّا جَعلُه اسْتعارَةً بالكناية بتشبيه الأمر بالآمر، وقوله: ﴿وَلَا تُطِيعُوٓاْ﴾ قرينة عليه فرَكيكٌ؛ إذ مُشابَهة الأمر بمعنى القَوْل بالآمِر غير واضح"[2].

القـول الـرّاجـح بين هذه الوجوه

والَّذي يتبيّن لنا هو رُجحان المَجاز العقليّ؛ لأنّ تعليق الفعل بالأمر دون المسرفين يعطي دلالةً على أنّ مُتّبعي المُسرفين يَمضون على أوامرهم ويتركون أوامر اللّه ويصدّون عنها، كما أنَّ تشبيه الامتثال للأمر بطاعة الآمِر فيه نوعُ تكلُّفٍ أيضًا.

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظِ: (الأمر) في قوله: ﴿أَمۡرَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾:

النّهي والتّحذير من اتِّباع أوامر المُـفـسـديـن، وترغيبٌ باتّباع أوامر المُصلحين

أُضيف الأمر إلى ﴿ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمۡرَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ إضافةَ تخصيصٍ، إذ المُراد بهم هنا مَن يملكون إصدار الأمر والتّكليف على جهة الاستعلاء، فالمسرفون هنا هم: "أئمَّة القوم وكُبَراؤُهم الَّذين يُغْرونهم بعبادة الأصنام، ويُبقونهم في الضَّلالة، استغلالًا لجهلهم، وليُسخِّروهم لفائدتهم"[3]. وهم

(1) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 7/ 22، وابن التَّمجيد والقونوي، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 14/ 290.

(2) ابن التَّمجيد والقونوي، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 14/ 290.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 176.

الرَّهْط التّسعةُ الَّذين ورد ذِكْرهم في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ٤٨﴾ [النّمل: 48].

والعبدُ واقعٌ في دنياه بين أمريْن: أمرُ المُصلِحين المُتمثّل برسالة السّماء إلى أهل الأرض، وأمرُ المُفسدين الَّذي يُناقض أوامر اللّه تعالى ويخالفُها، وهو مأمورٌ باتّباع أوامر المُصلحين ونبذ أوامر المُفسدين، وفي ذلك دليلٌ على الحذف في قوله: ﴿وَأَطِيعُونِ﴾؛ أيْ: أطيعوا أمري بقرينة الأمر الوارد في ﴿أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾، ولم يصفْ أمرَهُ بأنَّه أمرُ الصّالحين بقرينة ﴿أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ اكتفاءً.

دلالة التَّعبير بالإسراف في قوله: ﴿وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾:

الإسراف تجاوُز الحدِّ في أيِّ فعل أوْ قولٍ

لم يذكر القرآنُ الإسرافَ إلّا في مقام الذَّمِّ والتّهديد، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ١٤١﴾ [الأنعام: 141]، وقوله: ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ٤٣﴾ [غافر: 43]، وقوله هنا: ﴿وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾، وإسرافُ هؤلاء الَّذين عنَتهم آيةُ الشُّعراء، كان إسرافًا عقَديًّا وعمليًّا، إسرافًا في الكفر والدّعوة إليه، وفي الصدِّ عن اتّباع رسالة الحقّ، وإسرافًا في سائر ما يشمله الإسرافُ من تصرُّفات الإنسان وسلوكه وأقواله، بما آل إلى إيقاع الإفساد في الأرض، ومن ثمَّ حرص صالحٌ عليه السلام على نهيهم عن إطاعة أمرهم.

لطيفةُ الجمعيّة في قوله: ﴿ٱلْمُسْرِفِينَ﴾:

الجمعُ يدلُّ على الكثرةِ والاجتماعِ

في جمع ﴿ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ في قوله سبحانه: ﴿أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ إشارةٌ إلى كثرتهم، وأنَّهم مجتمعون على الفساد وعدم الإصلاح، وفيه إشارةٌ إلى أنّ الإسراف كان هو الغالبَ على قومِه المُخبَرِ عنهم، كما يحدث تقابُل بين الإفراد في ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ والجمع في ﴿ٱلْمُسْرِفِينَ﴾، وهذا التَّقابل يدلُّ على أنَّ الصّالح وإنْ كان واحدًا فهو أَوْلى بالاتّباع من الفاسد ولو كانوا كثرةً؛ لأنَّ الحقَّ أحقُّ أنْ يُتّبع.

نكتةُ التعبيرِ بصيغةِ اسمِ الفاعلِ في قوله: ﴿ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾:

الــدّلالــة على دوام الاتّـصافِ بالإسرافِ

أوثرت صيغة اسم الفاعل ﴿ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ على التَّعبير بالفعل، للدّلالة على أنَّهم بلغوا في الاتّصاف بالإسراف درجة السّجيَّة والعادة، لكونهم ثابتينَ عليها لا ينفكّون عنها في أقوالهم وأفعالهم ومعتقداتهم وصَدِّهم عن طاعة اللّه وطاعة رسوله صالحٍ عليه السلام.

نكتةُ التَّعبير بالموصول:

إبــــرازُ سببِ وصـــفِـهِــم بــالمُـسـرفـين، وســرُّ مضارَعة (يُفسِدون)

عُبِّر بالاسم الموصول الواقع نعتًا في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ دون الاسم الصّريح (المفسدين)؛ تنبيهًا وتسليطًا للنَّظر على جملة صلة الموصول المتّضمّنة سببَ ذمِّهم والتّحذيرِ من اتّباع أمرهم؛ فهم يُفسدون في الأرض بكلِّ أنواع الفساد، ويُداوِمون ويَستمرّون عليه حرصًا ومحافظةً، فيَنشَطون له في كلِّ وقتٍ بحيث لا يَفتُرونَ عنه، ولهذا عبَّر البيان القرآنيُّ بالمضارع دون الماضي، فلم يَقُلْ: (الَّذين أفسدوا)، كما فسَّرت دلالة المضارع دلالةَ اسم الفاعل ﴿ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ بأنَّ إسرافَهم كان مُستمِرًا من دون انقطاعٍ، وأفاد هذا النّعت تفسير (المُسرِف) وقَصْرَه هنا على عمل الشَّرِّ والمبالَغة فيه - وأمّا عمل الخير فلا يُسمَّى إسرافًا إلّا إذا تجاوز الحدود الشّرعيّة - فأراد أنْ يُبيِّن أنّ إسرافَهم كان في الإفساد والمحاربة لأوامر اللّه تعالى، وهنالك دلالةٌ أخرى من هذا الوصف تُفهَم بطريق التّقابُل والإشارة؛ وهي أنَّ دعوات الأنبياء جميعًا تُصلِحُ العبادَ والبلاد.

دلالةُ التَّعبيرِ بصيغة الرُّباعيّ:

الإفسادُ يستلزمُ الفسادَ وزيادةً

(الفساد) لفظٌ عامٌّ يدلّ على خروج الشّيء عن حدِّ الاعتدال والاستقامة، قليلًا كان الخروجُ عنه أَوْ كثيرًا، ويُضادُّه الصّلاح، ويُستعمل ذلك في النّفس والبدن والأشياء الخارجةِ عن الاستقامة، وهوَ أَعمُّ من الظُّلم[1]، والإفسادُ مصدرُ (أفسد) الرُّباعيِّ، ومضارعُه

(1) الرّاغب، المُفردات: (فسد)، والكَفويّ، الكلّيّات، ص: 636.

(يُفسد) بالضَّمِّ، وهو مُتعدٍّ؛ لأنَّ المُفسِد لا يكتفي بفساده في نفسه، ولكنَّه يسعى دائمًا إلى إفساد غيره، فلم يكتفوا بكونهم فاسدينَ؛ بل حرصوا على إفساد غيرهم بالتصدّي والعدوان، ومن ثَمَّ كان نهيُه عليه السلام المدعوّين عن اتّباع أمر المسرفين المفسدين ضرورةً من ضرورات الدّعوة وركنًا من أركانها.

معنى ﴿فِي﴾ في قوله: ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾:

عـدمُ الإيـمانِ باللهِ والتّواضعِ لأوامِـرِه سببٌ فـي الإسـرافِ والإفسادِ فيها

حرف الجرِّ ﴿فِي﴾ في قوله سبحانه: ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أصلُ معناه الدّلالة على الظّرفيّة، والمظروف هو الأرض، فيفيد الشّمول والاستيعاب والغطرسة، وكأنّ المُفسدين في الأرض المقصودين في الآية قد بلغوا من عُلوِّهم فيها المكانةَ الَّتي بها يأمرون فيُستجابُ لهم، ويتَوعَّدون فيُخشى بأسُهم، فغَدَوا بذلك حجرَ عثرة أمام الدّعوة، وعقبةً كَؤودًا في وجه أيِّ أحد يريدُ أنْ يؤمِنَ ويستجيبَ لصالح عليه السلام، ولذلك ربط القرآن في حديثه عن فرعون وبطشه وظلمه بين العلوّ في الأرض والإسراف، وكأنّه هو الدافعُ إلى الوقوع فيه، ومن ثَمَّ الوقوع في الإفساد، فقال سبحانه: ﴿وَلَقَدۡ نَجَّيۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡمُهِينِ ٣٠ مِن فِرۡعَوۡنَۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيٗا مِّنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣١﴾ [الدّخان: 30 - 31]، وقال أيضًا: ﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٤﴾ [القصص: 4]؛ فإنَّه قد اتَّخذ من العلوِّ في الأرض وسيلةً إلى الإسراف والإفساد، وهكذا كانت ثمود، فطِباع الشرِّ يتوارثها أهلُ الفساد، كما أنَّ طباع الخير مُتوارَثةٌ كذلك.

معنى التعريف في: ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾:

(أل) في (الأرض) لـلـعـهـدِ، لا للجنسِ

(أل) في ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ للعهد، والمقصود أرضُهم الَّتي كانوا يعيشون فيها، وفيها بيوتهم وديارهم وزراعاتهم؛ فهي "أرض ثمود"[1].

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 112، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 176.

وحينئذٍ يكون سرُّ التَّعبير عن ديارهم بالأرض تعظيمَ أمر الفساد الَّذي وقع فيها، فلو أنّه وُزِّع على الأرض جميعًا لَوَسِعَها، ولا يبعدُ أن تكون (أل) للجنس المفيد للاستغراق، بتصوير أنَّ هذا شأنُ المسرفين على مرِّ الأزمنة والأمكنة، فهم لا ينفكّون عن الإفساد في الأرض جميعِهَا ومحاربة أهل الصَّلاح والخير، أينما وُجدوا وحلّوا وارتحلوا.

دلالةُ التَّعبيرِ بالظَّرفِ:

تبشيعُ حالهم بالنَّصِّ على محلِّ إفسادهم رغمَ العلْم به

في قوله سبحانه: ﴿يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ نصٌّ على كون إفسادهم واقعًا في الأرض، مع أنّه لا يُتصوَّر في غيرها، وذلك مثل النصّ على الصُّدور في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ٤٦﴾ [الحج: 46] مع أنَّ القلوب لا تكون إلّا فيها، والهدف من التّنصيص على ما عُلِم زيادةٌ في تبشيع حالهم لإفسادِهم في الأرض، وذاك بالنّصّ على محلِّ إفسادهم، خصوصًا أنّهم خالفوا حكمة اللّه في خلقِهم، فاللّه تعالى خلق الناس ليعمروا الأرض ويصلحوها، فيكون الإفساد مخالفًا لتلك الحكمة المقصودة، كما قال سبحانه: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا﴾ [هود: 61]؛ أي: طلب منكم إعمارها، لكنَّكم خالفتم هذا فأفسدتُم فيها، فناقضتُم الحكمةَ من خلقكم، وفيه أيضًا تعريضٌ بخفّة عقولهم وانعدام وعيهم وإدراكهم؛ لأنَّ العاقل لا يُفسد مكانًا يَحويه ويَعيش فيه؛ بل يُعمره ويُنمّيه بالعمل الصّالح والنّافع.

معنى الوصل في: ﴿وَلَا يُصۡلِحُونَ﴾:

الأمرُ بالشيء نهيٌ عن ضدِّه

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُصۡلِحُونَ﴾ عاطفةٌ عطفتْ ما بعدها على ما قبلها، ومُسوِّغ العطف بالواو والوصل هو الضّدّيّة؛ فالجامع خياليٌّ للاقتران الواقع بين الشّيْء وضدِّه في الخيال، وهو تأكيد لوقوع الشّيْء بنفي ضدِّه، مثلُ قوله تعالى: ﴿وَأَضَلَّ فِرۡعَوۡنُ قَوۡمَهُۥ وَمَا

﴿هَدَىٰ ٧٩﴾ [طه: 79][1]، وقوله هنا: ﴿وَأَطِيعُونِ ١٥٠ وَلَا تُطِيعُوٓاْ﴾؛ إذِ الأمر بالشَّيء نهيٌ عن ضدِّه، فيكون التَّصريح بالنّهي تأكيدًا لمعنى الأمر.

دلالة النفي بـ (لا) في قوله: ﴿وَلَا يُصۡلِحُونَ﴾:

نـفـيُ وقـوعِ الإصلاحِ منهم مُطلقًا في الحال والمآل

(لا) في قوله سبحانه: ﴿وَلَا يُصۡلِحُونَ﴾ نافيةٌ، ونفي المضارع بها يدلُّ على النّفي في الحال والاستقبال؛ فهي غير مُقيّدةٍ بزمن على الرّاجح[2]؛ وعلى هذا فالنَّفي بها في الآية يدلُّ على نفي وقوع الإصلاح منهم مطلقًا حالًا ومآلًا، و"ذلك أنّ الإنسان قد يُفسِد في شيءٍ، ويُصلحُ في شيءٍ، إنّما هؤلاء دأبُهم الفساد، ولا يأتي منهم الصَّلاح أبدًا"[3]، واحتُرس بهذا النَّفي من وقوع الإصلاح منهم في زمنٍ من الأزمنة؛ بل هم ماكثون على الإفساد ولا يُظهِرون أيَّ صلاحٍ في أقوالهم وأفعالهم.

نكتةُ الإسنادِ لضميرِ الجمع في الآية:

الإطـباقُ على الـخـطـيـئـة المُتعمَّدة دليلُ غـيـاب الـوعـي الجمعيِّ

أُسنِدَ الإفسادُ وعدمُ الإصلاح إلى واو الجماعة فقال تعالى: ﴿يُفۡسِدُونَ﴾ وقال: ﴿وَلَا يُصۡلِحُونَ﴾؛ للدّلالة على أنّ المُسرِفينَ جميعًا كذلك؛ فهم جميعًا يُفسدونَ وهم جميعًا لا يُصلحون، فقد غابَ عن أذهانهم الصّلاحُ، واختفت من مُخيِّلتهم أعمالُ البرّ والنَّفع للأرض وأهلها.

دلالةُ المضارعةِ في الفعلِ المَنفيِّ: ﴿وَلَا يُصۡلِحُونَ﴾:

تجدُّدُ حرصِهم عـلـى عـدمِ الإصلاح قرينٌ لتجدُّد حرصهم على الإفساد

عبَّر البيان الحكيم بالفعل المضارع في نفي وقوع الإصلاح من المفسدين فقال: ﴿وَلَا يُصۡلِحُونَ﴾؛ للدَّلالة على استمرارهم على عدم الإصلاح، وأنَّهم كما يُجدِّدون على سبيل الاستمرار نشاطَهم في إيقاع الإفساد والشّرور، فإنَّهم كذلك يُجدِّدون معه حرصَهم على ألّا يقع منهم إصلاحٌ أبدًا، ولو كان مَشوبًا بشيءٍ من الإفساد.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 176.
(2) السّامرّائيّ، معاني النحو: 4/ 206.
(3) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 17/ 10654.

وجهُ المناسبةِ بين عطفِ المنفي على المثبت:

لمّا كان الحكم بإفسادِهم في قوله سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ لا يُنافي وقوعَ الإصلاح منهم أحيانًا، فقد أزال القرآن الكريم هذا الاحتمال عنهم أصلًا، فأردف مُحترِسًا[1] بقوله: ﴿وَلَا يُصۡلِحُونَ﴾ فقطعَ بذلك الإردافِ كلَّ احتمالٍ عنهم في وقوع الإصلاح منهم، ولو على سبيل النُّدرة أو كانَ مختلطًا بفساد، قال الزّمخشريّ في تبيين المناسَبة بين الجملتيْن: "فإن قلتَ: ما فائدة قوله: ﴿وَلَا يُصۡلِحُونَ﴾؟ قلتُ: فائدته أنّ فسادهم فسادٌ مُصمَتٌ ليس معه شيءٌ من الصّلاح، كما تكون حالُ بعض المُفسدين مخلوطةً ببعض الصَّلاح"[2].

إزالةُ توهُّم وقوعِ الإصلاحِ منهم أبدًا، ولو على سبيل النُّدرة أو العرَض (فن الإرداف)

لطيفةُ العدولِ عن القصرِ المُغني عن الجُملتيْن السّابقتيْن:

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ﴾ مُشتمِلٌ على تأكيد وقوع الشَّيء بنفي ضدِّه، وذلك في قوّة ما يُفيده الحصر من التّأكيد، فيما لو قال: (إنَّما هُم مُفسِدون في الأرضِ) ونحوَه من صيَغ القَصْر؛ لكنَّه عدلَ عن صيغة القصر إلى هذه الطَّريقة من طُرُق التَّأكيد؛ لِئَلّا يَحتَمِل أنّه قَصر مبالغة وادِّعاء؛ فنفيُ الإصلاح عنهم يؤكّدُ إثباتَ الإفساد لهم، فيتقرّرُ ذلك في الذِّهن، ويتأكّدُ معنى إفسادهم بنفي ضدِّه؛ كقول السَّموأل أو الحارثيِّ:

تسيلُ على حدِّ الظُّباتِ نفوسُنا *** وليست على غيرِ الظُّباتِ تَسيلُ[3]

كما قد يُتوهَّم من القصر أنّه قصرٌ ادّعائيٌّ للمبالغة؛ وليس ذلك مُرادًا.

تأكيدُ الوقوع بنفي الضِّدِّ؛ ولنفي توهُّم كون القصر للمُبالغة والادّعاء

❁ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

الطّاعة والامتثال:

بين (الطّاعة) و(والامتثال) مُشترَكٌ دلاليٌّ، حيث يُقال:

الطّاعةُ لفظٌ قرآنيٌّ أعمُّ من الامتثال عمومًا مطلقًا

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 112.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 328.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 176.

(امتثل) فلان أمرَ فلانٍ؛ بمعنى: أطاعه واحتذاهُ، ويُقال: امتثل طَريقَته؛ يعني: تَبِعَها فلم يَعْدُها[1]، وأمّا لفظ (الطّاعة) فهو من الألفاظ الجامعة؛ لكونه يدلُّ على مُطلَق الانقياد[2]؛ أيْ: الانقياد للأمر والنّهي، وأخَصُّه ما كان أمرًا أوْ نهيًا إلهيًّا أو نبويًّا، والآيات المعبِّرة عن الانقياد لله ورسوله كثيرةٌ، ومنها قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأنفال: 20]، أمّا الامتثال فلم يَستعمله القرآن مُطلقًا، وإنْ دلَّ على أصل معناه، وأحسب أنَّ الطّاعة تشمل الانقيادَ المُطلَق للقول والفعل والمعتقَد، بخلاف الامتثال فإنّه يكون للأقوال فحسْب، فكلُّ امتثالٍ طاعةٌ؛ وليس كلُّ طاعةٍ امتثالًا.

الفساد والإفساد:

الفسادُ يَلحَق النَّفس، والإفسادُ يتعدّاها إلى الآخرين، فكلُّ مُفسِدٍ فاسدٌ ولا ينعكس

الفساد مصدرُ (فسد) الثّلاثيّ، وهو لفظٌ عامٌّ يدلُّ على خروج الشّيء عن حدِّ الاعتدال والاستقامة، قليلًا كان الخروجُ عنه أوْ كثيرًا، ويُضادّه الصّلاح، ويُستعمل ذلك في النّفس، والبدن، والأشياء الخارجة عن الاستقامة، وهوَ أَعمُّ من الظُّلم[3]، واسم الفاعل من الثّلاثي (فاسد)، وهو صفة للنّفس لازمة لها، وأمّا (الإفساد) فهو إيقاع الفساد بالشّيْء أوْ فيه بحيث يجعله فاسدًا غيرَ صالح، وهو مصدر (أفسد) الرباعيّ المتعدّي، واسمُ الفاعل منه (مُفسِد)، وبهذا يظهر أنَّ الفرق بين الفساد والإفساد، أنَّ الأول ما يلحقُ النفس لازمًا لها ولا يقتضي الإفساد، والثّاني ما يتعدّى ضررُه وخَطرُه إلى غيره ويَستلزمُ الفساد، ومن ثَمَّ فإنَّ العلاقة بينهما العموم والخصوص المُطلَق؛ فكلُّ مُفسِدٍ فاسدٌ وليس كلُّ فاسد مُفسدًا.

---

(1) مجمع اللّغة العربية بالقاهرة، المعجم الوسيط: (مثل).

(2) الرّاغب، المُفردات: (طوع).

(3) الرّاغب، المُفردات: (فسد)، والكَفَويّ، الكلّيّات، ص: 636.

﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ۝١٥٣ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا فَأۡتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝١٥٤﴾ [الشُّعراء: 153 - 154]

مُناسَبَةُ الآيتينِ لِما قَبْلَهما:

الاتِّهامُ بالباطلِ عـادةُ حُـجَّـةِ الـعـاجـز عن مواجهةِ صاحبِ البرهانِ القاطعِ

بعد أنْ أُسقِط في أيديهم من دعوة صالح عليه السلام لهم المُرتكِزة على الحُجَّة والبرهان والإقناع، والمُدعَّمة بالمُحاكَمة إلى الواقع؛ فيما يعود إلى صفاته الَّتي يعرفونها عنه من الصّدق والأمانة، ونتيجتُها أنّه بذلك لن يخونهم، وأيضًا فيما يعود إليهم بِحَثِّهم على مراجعة أنفسهم، حين ينظرون إلى النِّعَم الَّتي أنعم اللّه بها عليهم، ثم هم يَكفُرونه ولا يشكرونه ويعبدون غيره، فكانت دعوته إيّاهم إلى الإيمان باللّه دعوةً مُحكَمةً مُتقنةً مُكتملةَ الأركان، بعد هذا كلِّه أيقنوا "أنّهم عاجزون عن الطّعن في شيءٍ منها؛ فعدَلوا إلى التَّخييل على عقول الضّعفاء بأن ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ﴾"(1)

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡمُسَحَّرِينَ﴾: أصلُ (سحر) يدلُّ على خَدْعٍ وشِبْهِه، وعلى عُضوٍ مِنَ الأعضاءِ(2)، وحقيقةُ السِّحْرِ: صَرْفُ الشَّيءِ عَنْ حَقيقَتِهِ إلى غَيْرِه، فكأَنَّ السّاحِرَ لَمّا أَرَى الباطلَ في صورَةِ الحَقِّ وخَيَّلَ الشَّيءَ على غيرِ حَقيقَتِه، قَدْ سَحَرَ الشَّيءَ عَنْ وجْهِه؛ أَيْ: صَرَفَهُ(3)، والسَّحْر والسُّحْر: الرِّئة في البطن بما اشتَمَلَتْ، وما تَعَلَّق بالحُلقوم، والمُراد بالمُسحَّرينَ في الآية: الَّذين بولِغَ في سِحْرِهم مرَّةً بعْدَ مرَّةٍ حتّى غَلَبَ على عُقولِهم، وقيل: المُسحَّرين؛ أَيْ: مِن ذَوي السَّحْرِ؛ أَيِ: الرِّئةِ؛

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 14/ 76.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سحر).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (سحر).

فهو كنايةٌ عن كونِه مِنَ الأناسيِّ فليس برسولٍ أصلًا؛ لاعتقادهم الباطل أنَّ الرَّسول لا يكونُ من البشر العاديّين[1].

2) ﴿بَشَرٌ﴾: (بشر) أَصْلٌ واحِدٌ يدلُّ على ظُهورِ الشَّيْءِ مَعَ حُسْنٍ وجَمالٍ؛ فالبَشَرَةُ ظاهِرُ جِلْدِ الإنسانِ، وسُمّيَ البَشَرُ بَشَرًا لِظُهورِهِم[2]، وخُصَّ في القرآنِ كلُّ مَوضِع اعتَبر من الإنسان جُثَّتَه وظاهِرَه بلفظ البَشَر، نحو: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا﴾ [الفرقان: 54][3]، والبَشَرُ أيضًا: اسْمٌ يَقع على النّاس أسودِهم وأحمرِهم، يُقالُ: هذا بَشَرٌ للرَّجُلِ، وهما بَشَران للرَّجُلَيْن، ولم يَقولوا ثَلاثَة بَشَر[4]؛ وعليه فالمُراد بالبَشَرِ في الآيةِ: اسمُ جِنْسٍ للإنسانِ.

المَعْنى الإجْماليُّ:

مواجَهةُ الدّعوةِ الحقَّةِ بالأكاذيبِ والأوهامِ

قال قومُ صالحٍ له: أنتَ لستَ إلّا مِن الَّذين غلَب عليهم السِّحر، وأثَّر في عقولهم؛ فصاروا يتكلَّمون بكلام المجانين، وما أنت إلّا آدميٌّ مِثلُنا، فكيف خَصَّك اللّهُ بالرِّسالةِ مِن بينِنا حتّى نتَّبِعَك؟ فأْتِ بحُجَّةٍ تدُلُّ بوُضوحٍ على صحَّةِ ما تقولُ إن كنتَ مِن الصّادقينَ في أنَّك رَسولٌ من اللّهِ إلينا حَقًّا[5].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علّةُ فصل الآية عما قبلها:

شِبْهُ كمالِ الاتّصالِ يستدعي التّماسكَ في النّظْمِ

فُصلت جملةُ: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ عمّا قبلها، لعِلَّة الاستئناف البيانيّ، وهو ما يُعرف بـ (شِبْه كمال الاتّصال)؛ فكأنَّه قيل: فماذا قالوا بعد أنْ دعاهم صالح ﵇ إلى تقوى اللّه وطاعته،

(1) الواحديّ، البسيط: 17/ 108، والرّاغب، المُفردات: (سحر).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المُفردات: (بشر).
(3) الرّاغب، المُفردات: (بشر).
(4) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (بشر).
(5) البغويّ، معالم التَّنزيل: 3/ 476، والواحديّ، البسيط: 17/ 110، والشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 130، وطنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 10/ 270.

وذكَّرهم بما هم فيه من نِعَم اللّه عليهم، وحذَّرهم من فواتها؛ فكان الجواب: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ﴾، وهذا الارتباط القائمُ على تقنيَّة السُّؤال والجواب يجعل النّظمَ مُتماسكًا مبنيًّا اللّاحقُ فيه على السّابق.

دلالةُ إسنادِ القولِ إلى ضميرِ الجماعةِ:

اجتماعُ كلمةِ الكافرين على التَّكذيبِ والاتّهامِ

أسنَدَ البيانُ القرآنيُّ هذا القول: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ﴾ إلى ضمير الجماعة ﴿قَالُوٓاْ﴾؛ للإشعار بجماعيّةِ موقفهم من صالح ﷺ؛ فهم جميعًا اتّهموه بأنَّه مُسحَّر سِحرًا عظيم التّأثير، وجميعُهم ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ﴾، وصدورُ هذا الكلام منهم بفعل (القول) يدلُّ على أنّهم كانوا في حالة حوارٍ يسودُه الهدوء والرِّفق وإنْ كان المَقولُ تكذيبًا وردًّا لدعوته.

دلالةُ ﴿إِنَّمَآ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ﴾:

أسلوبُ الحَصْرِ مناقضٌ دعوى الرِّسالةِ

﴿إِنَّمَآ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ﴾ مُتكوِّنةٌ من (إنَّ) المؤكِّدة و(ما الكافَّة) الَّتي تُبطِل عملَها وتجعلُها أداة قصر، والقصر هنا قصر موصوفٍ على صفةٍ كذبًا منهم وادِّعاءً، والغرضُ ردُّ دعوى الرّسالة في قوله لهم: ﴿إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ﴾ بحصرِ كونِه منَ المُسحَّرين، وليس من المرسَلين، فقد منعوا كونه رسولًا وأثبتوا له كونه مُسحَّرًا بواسطة السَّلب الكُلّيّ؛ فكأنَّهم قالوا له: لا صفةَ تتَّصف بها إلّا كونك مُسحَّرًا؛ فقولك: إنّك رسولٌ كريمٌ مناقضٌ لهذا الانتفاءِ الكليِّ؛ فقد تقرَّر في موضعه أنّ نقيض الموجَبة الجزئيَّة هو السّلبُ الكُلّيُّ، ولذا كان الحصرُ أسلوبًا مفيدًا له لتحقيق المناظرةِ بأصولها العلميَّة.

نكتةُ إيثارِ القَصْرِ هنا بـ﴿إِنَّمَآ﴾ دون النّفي والاستثناءِ:

ادّعاءُ أنّ كونَه من المُسَحَّرين ممّا لا يُشَكُّ فيه، ويعلمُه هو عن نفسه علمًا أكيدًا

أوثِرتْ في جملة القصر ﴿إِنَّمَآ﴾ دون (النّفي والاستثناء) مع أنَّه أوكد؛ لما في التَّعبير بـ﴿إِنَّمَآ﴾ من موافَقة غَرضِهم الَّذي يُروِّجون له، وهو أنّه ﷺ ﴿مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ﴾، وأنَّ ادِّعاء كونه منهم من الظّهور

بحيث يعلمُه هو عن نفسه ولا يُنكِرُه، كما يعلمونه هم عنه، فاختيار ﴿إِنَّمَآ﴾ لإفادةِ "معلوميَّة الحُكم"[1]، والغرضُ الإنكار عليه أنْ يكون لهم داعيًا ورسولًا وهو غير مُؤهَّل لذلك؛ لكونه من المُسحَّرين.

دلالةُ التَّعبيرِ بضميرِ الخطاب:

مقابلتُهم تَلطُّفَه عليه السلام معهم في الدّعوة بقسوة الخطاب

دلَّ توجيهُ الكلام له عليه السلام بضمير الخطاب في قوله: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ﴾ على أنَّه كان يُحاورهم ويُجادلهم لأجل أن يهتدوا، وأنّهم كانوا يواجهون لُطفَه معهم بقسوة الخطاب وعنيفِه، وأنّهم لم يواروا في اتّهامهم له بأنّه ﴿مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ﴾؛ فلم يتحدَّثوا بها في غيبته بل في حضوره، بما يُشعر بضراوةِ عداوتهم له، وعدمِ اعتبارِهم لمقامه فيهم، إذ ضميرُ المخاطب دليلُ الجسارة في توجيه الاتّهامات عندَ المُخاصَمة.

معنى ﴿مِنَ﴾ في قوله: ﴿مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ﴾:

(من) التّبعيضيّة والابتدائيّة

قال تعالى: ﴿مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ﴾ بذِكْر ﴿مِنَ﴾ التّبعيضيّة، للدّلالة على أنّه واحدٌ منهم، وللإشعارِ بأنّهم كثيرٌ وما هو إلّا واحدٌ من بينهم، كما تحتمل أن تكون للابتداء والصّدور، وكأنّ ﴿ٱلۡمُسَحَّرِينَ﴾ مكانٌ يصدر عنه وينشأ منه الَّذين أُصيبوا بالسِّحر، ففقدوا القدرةَ على الوعي الصّحيح المُنضبِط؛ فتَصدُرُ عنهم أقوالٌ لا تصحُّ ولا تُعقلُ كدعوى الرِّسالة من اللّه تعالى، وعلى كلٍّ من المعنيَيْن فإنَّ الغرضَ إثباتُ كونِه بعضًا منهم أوْ صادرًا عنهم، وهو لا يخرج من جملتهم، وبذلك لم يَنسبوه وحده إلى هذا المرضِ؛ بل نسبوا كلّ مدّعي النبوّة والرِّسالة قبلَه إليه.

دلالةُ لفظِ ﴿ٱلۡمُسَحَّرِينَ﴾ وصيغتُه:

الافتراءُ في نسبةِ الاختلالِ العقليِّ للأنبياءِ سمةُ الكافرين المُكذِّبين

آثَرَ البيان القرآنيُّ التَّعبير بـ: ﴿ٱلۡمُسَحَّرِينَ﴾؛ ولم يَقُلْ: (من

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 290.

المَسحورين)؛ للمبالغة في معنى السِّحر، الَّذي وقع عليه بسبب كثرته وتكرُّر تسلُّطِه عليه، وما أحدَثَه من تأثيرٍ عظيم فيه على حدِّ زعمهم الباطل، وذلك أنَّ صيغة المفعول (مَسحور) تُشتقّ من الثّلاثيّ، بخلاف ﴿ٱلۡمُسَحَّرِينَ﴾ المُشتقَّة من المَزيد عليه بالتّضعيف للمبالغة والكثرة، فتظهرُ جسارتُهم وجرأتُهم مُجدَّدًا عند الخطاب، وذلك أنَّ المسحور على حدّ تصورهم يتصرّف تصرّفات غيرَ واعية، وأمّا المُسحّر فإنَّه ينسبُ نفسَه إلى الرَّسوليَّة، وهذا لا يَصدُر إلّا من مُختلٍّ شديدِ الاختلال في تصوُّرهم الباطل.

الأبلَغيَّة في الاتِّصافِ بالتّسحير من (مُسَحَّرٌ)

أفادت الجمعيّةُ أيضًا في قوله سبحانه: ﴿مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ﴾ أبلغيَّةً في الاتّصاف بالتّسحير مِن أنْ يُقال: (إنّما أنت مُسَحَّرٌ)[1] بالإفراد؛ والمعنى: (إنّما أنت واحدٌ من هؤلاء الَّذين فقدوا عقلَهم بتأثير السِّحر الشَّديد عليهم)، وبهذا يكونون قد ضَربوا له نُظَراءَ في الواقع يُقارَن حالُه بحالهم، إهانةً له وتنفيرًا للنّاس من القبول بدعوتِه والإيمانِ برسالته، وهذا كلُّه قائمٌ على أنَّ ﴿ٱلۡمُسَحَّرِينَ﴾ من السِّحر بالكسر.

تفسيرُ (المُسحَّر) بأنَّه الشَّخص المُحتاج للتَّنفُّس

وقيل: إنَّ قوله: ﴿مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ﴾ من السَّحْر بالفتح، و"السَّحْرُ: طرَف الحُلقوم، والرِّئة"[2]؛ فيكونُ المعنى: إنّك من ذوي السَّحْر؛ أي: الرِّئة، ومُرادُهم: أنّك بشرٌ مثلنا تحتاج إلى التّنفُّس عبر الرِّئة كما نحن كذلك، فأينَ تفوُّقك علينا؟ فيكون التَّعبير بقولهم: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ﴾ "كنايةً عن كونه بشرًا"[3]، وضعَّف أبو حيّان هذا التَّفسير الثّاني بحُجَّة قولهم بَعدُ: ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا﴾، إذ تكون هذه الجملةُ توكيدًا لما قبلَها، والأصلُ التأسيس[4]، كما تكون الصّيغة

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 177.
(2) الرّاغب، المُفردات، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (سحر).
(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 11/ 403.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 182.

على هذا التَّوجيه للمعنى من صيغ النَّسَب مع كونه اسم مَفْعول من المزيد، وهو ليس بشائعٍ في صيغِ النِّسبة[1].

علّةُ الفصلِ في قوله: ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ﴾:

الجملة مُؤكِّدةٌ لما قَبلَها، أو تعليلٌ لها، وهذا سرُّ فصلها عنها

قولُهم: ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ﴾ مفصولٌ عمّا قبلَه، تأكيداً لمعنى قولهم: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾، وكان هذا الكلام منهم تمهيدًا لنتيجة يريدونَ تقريرها، وهي نفيُ الرّسالة عنه، ونفي أن يكونَ مُتميِّزا عليهم بها، بعد ذلك أعلنوا هذا الحُكمَ الباطلَ المُقرِّر لمعنى ما تقدَّمه، منتَزعين إيّاه من مقدِّمته السَّابقة الخاطئة، نازلًا منها منزلةَ النَّتيجة المترتِّبة عليه، ومنزلةَ المؤكِّد لها في ذات الوقت، فقالوا: ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ فيكَ ما فينا من أعضاءٍ وجوارحَ، وتفعل ما نفعلُ، وتحتاج إلى ما نحتاجُ، فالتّوكيدُ حاصلٌ باعتبار كونه مسحورًا أَوْ بشريًّا؛ إذ المسحورُ بشريٌّ أيضًا، وقيل: الجملة اسْتئْنافٌ بيانيٌّ لتعليلِ ما قبلها؛ أيْ: أنت مسحورٌ لأنّك لستَ إلّا بشرًا مِثلَنا، لا فضلَ لك علينا، فدَعوى الرِّسالة إنّما هي لخللٍ في عقلك بسَبَب السِّحر، ولذا اختير الفصل[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بضميرِ الخطابِ في قوله: ﴿مَآ أَنتَ﴾:

من سماتِ اللّئامِ الغضُّ من مَقاماتِ أهلِ الإحسانِ

في قوله تعالى: ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ﴾ دلَّ توجيهُ الكلامِ له عليه السلام بضميرِ الخطابِ على أنّهم واجهوه بقسوةِ الخطاب مع الازدراء والاستخفاف، وأنَّهم كما لم يواروا في اتّهامهم له بأنّه ﴿مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ بضمير الغيبة، لم يتخفَّفوا معه في الحُكم عليه بأنّه بَشَرٌ مثلهم، وهو ما لم يُنكره صالحٌ عليه السلام ولا يتأتّى منه ذلك، ويدلُّ كذلك على أنَّه عليه السلام لم يبخلْ عليهم بوقتٍ في سبيل الجلوس معهم ودعوتهم إلى التّوحيد، لكنَّهم كانوا يقابلون إحسانَه إليهم، وحرصَه

---

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 290.

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 291.

على مصلحتهم بالإساءة والقسوة، الدّالَّةِ على ضراوة عداوتِهم له، وعدمِ اعتبارهم لَمقامه فيهم.

نكتةُ القصرِ بالنَّفي والاستثناء في قوله: ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ﴾:

اختلافُ الدّعوى عند المُنكرين يفرضُ طريقةَ القصرِ المناسبة

إنَّ ﴿مَآ﴾ في قوله: ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ﴾ نافيةٌ، وهي مع الاستثناء بعدَها مفيدةٌ للقصر، كطريقٍ من طرائقه؛ بل هو أقواها، واستَعمل الكُفّار أقوى أساليب القصر المؤكِّدة لدعواهم أنه ﷺ بشر، وليس رسولًا من الله تعالى قد أُرسل إليهم، وهي ليست تهمةً في ذاتها، بل هي عبارةٌ لها ما وراءها؛ قصدوا بها تأكيدَ موقفهم من نفي كونه رسولًا؛ بل بشرٌ قد اختلطَ عقلُه بسبب تأثير السِّحر المكثّف الَّذي سُلِّط عليه، فهذَى وادَّعى أنّه رسول، مع أنَّ الرَّسول حسب زعمهم لا يكون بشرًا؛ بل من جنس المَلَك، فهم بذلك أرادوا أنْ يدعموا موقفهم منه ويؤكِّدوه بأقوى الأساليب الدّالَّة عليه، وهو (النَّفي والاستثناء)؛ لتوقُّعهم إنكاره ﷺ لقولهم، واعتراضِهم على ما ادَّعوه فيه، وإنّما تقدَّم القصرُ بقولهم: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ على القصر بقولهم: ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾؛ لأنَّ إثبات اختلالِ عقله ينقضُ دعواه الرِّسالةَ بشكلٍ أوضحَ وأجلى من إثبات بشريَّتِه؛ إذِ ادّعاؤُهم كونَ الرّسول من جنسِ المَلَك قد لا ينهضُ دليلًا واضحًا وجليًّا، ولعلَّ تغايُرَ طريقتيِ القصر لاختلاف مرادهم بالاتّهامَيْن؛ إذ الاتهام الأوّلُ يحتاج إلى تقرير كونِه أمرًا معلومًا لا شكَّ فيه فلجأوا إلى القصر بـ﴿إِنَّمَآ﴾، بخلاف الاتّهام الثّاني الَّذي لا ينكره أحدٌ، ولا حاجة إلى إثبات كونِه أمرًا معلومًا لأنّه مفروغ منه، فلجأوا إلى هذه الطّريقة القويَّة في القصر الشّديدة التّأكيد لإثبات المطلوبِ.

دلالةُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿بَشَرٌ﴾:

الغَضُّ من مَقامِ الأنبياءِ أسلوبُ الكفرةِ عند الخطابِ

آثَروا التَّعبير بلفظ ﴿بَشَرٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ﴾ للغَضِّ من قدره ﷺ ببيان أنَّه في تكوينه البدنيِّ لا يزيدُ عنهم شيئًا،

وأنَّ حاجياته البدنيّة هي نفس حاجياتهم؛ فهو يأكلُ كما يأكلون، ويشرب كما يشربون، ويمشي في الأسواق، فكيف يدَّعي التفوُّقَ عليهم بدعوى الرِّسالة، وأنَّه أزكى منهم روحًا ونفسًا؟ والفرق بين (البشر) و(الإنسان) أنّ البشر يشتركونَ في القوام البدنيِّ، وأنَّهم من ذوي البشَرة الظّاهرة المعروفة، بخلاف الإنسان الدّالِّ على العقل والإدراك، فإثباتِ البشريّة دون الإنسانيّة غضٌّ من قدره وتوهينٌ لَمقامه، وإنْ أثبتوا لهم البشريَّة أيضًا، لأنّهم في مقام الجدال ونفي التّفوُّق عليهم، ومِن ثَمَّ أوثر التّنكيرُ في كلمة ﴿بَشَرٌ﴾ للدّلالة على التّوهين والتّحقير بوصف البشريَّة، وهو لا يتّفق مع ما ينبغي أن يكون عليه حالُ الرّسول.

عادةُ القرآنِ في استعمالِ لفظِ ﴿بَشَرٌ﴾:

تسمية الناس بـشـرًا باعـتـبـار بدنهم وقوامِهم عادةٌ قرآنيَّة

قال الرّاغب: "وخُصّ في القرآن كلُّ موضع اعتبَر مِن الإنسان جثَّته وظاهرَه بلفظ البشر، نحو قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا﴾ [الفرقان: 54]، وقال ﷻ: ﴿إِنِّى خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۝٧١﴾ [ص: 71]، ولمّا أراد الكفّار الغضّ من الأنبياء اعتبروا ذلك فقالوا: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ۝٢٥﴾ [المدثر: 25]، وقال تعالى: ﴿فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ﴾ [القمر: 24]، وعلى هذا جاء قوله سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [الكهف: 110]، تنبيهًا على أنّ الناس يتساوَونَ في البشريّة، وإنَّما يتفاضلونَ بما يختصّونَ به من المعارف الجليلة والأعمال الجميلة، ولذلك قال بعده: ﴿يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ [الكهف: 110]، تنبيهًا على أنّي بذلك تميّزت عنكم[1].

نكتةُ الوصفِ بـ ﴿مِّثْلُنَا﴾:

إثباتُ أنّه نظيرٌ لهم لا يتفوّقُ عليهم بشيءٍ

قصدوا بقولهم: ﴿مِّثْلُنَا﴾ إحالتَه عليه السلام إلى حُجّةٍ ملموسة قاطعةٍ، لا يستطيع إنكارها؛ لأنَّه لا يملكُ الاعتراض على كونه من حيث

(1) الرّاغب، المُفردات: (بشر).

البشريّة مثلَهم، ولأنَّهم بنَوا على الحُكم بالبشريّة نفيَهم للرِّسالة، فقد سعَوا بكلّ سبيلٍ للتّأكيد على إثبات بشريّته، وأنّها بشريّةٌ تُماثلهم غيرَ متفوِّقةٍ عليهم في شيءٍ، فكان وصفُهم البشريّة بقولهم ﴿مِّثۡلُنَا﴾ مقصودًا به هذا، والمماثلة اتِّفاقٌ في أخصِّ الأوصاف الذّاتيّة، كما نقول: زيد مثلُ عمرٍو؛ بمعنى أنهما مشتركانِ في كلِّ وصفٍ إنسانيٍّ، فيفيدُ التّماثل التامَّ والاتِّفاق الكاملَ بين الذاتيّن، فكيف يصحُّ بعد هذا الاتِّفاق الكامل الادِّعاءُ بأنّك رسول أمين؟

بلاغة التَّشبيهِ في قوله: ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ﴾:

التّشبيهُ قاطع دعوى الرِّسالة بإثبات التَّماثل

أرادوا بهذا التّشبيهِ الواردِ في قوله تعالى: ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا﴾ إفحامَه ﷺ بقطع المجادلة النّظريَّة بينهم وبينه، فنفَوا اختصاصَه بشيءٍ زائدٍ في صورته البشريّة وتكوينه الذّاتيّ، يُعلَم به أنَّ اللّه اصطفاه دونهم فجعله رسولًا منه إليهم، وهم قد حسِبوا أنَّ هذا أقطعُ لدعواه الرّسالةَ؛ لأنَّ المُماثَلة بينهم وبينه محسوسةٌ لا تحتاج إلى تطويلٍ في الاحتجاج؛ فلذلك طالبوه بعد ذلك أنْ يأتيَ بحُجَّةٍ محسوسةٍ تُثبتُ أنَّ اللّه اختاره للرِّسالة عنه وجعله مُتفوِّقًا عليهم بالآيات والاختيار الإلهيّ والاصطفاء الرَّبّانيِّ، بقولهم فيما سيأتي تعجيزًا له: ﴿فَأۡتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[1].

دلالةُ عقْدِ التّشبيه بالاسمِ (مثل) في قوله: ﴿بَشَرٞ مِّثۡلُنَا﴾:

الـدّلالـةُ على تـمام المُشابَهة حدَّ المُطابَقة

الَّذي يظهر من عقْد التّشبيه بالاسم (مثل) الدّلالة على قوَّة المُشابَهة بينه وبينهم الَّتي تَصدُقُ بالمطابَقة، وليس فقط حصولَ مُطلق المشابهة، الَّتي تدلُّ عليها أدواتُ التَّشبيه الأخرى، فإنَّها وإنْ جرت فيها المشابهة بالرَّبط بين المُشبَّه والمُشبَّه به، لكن تبقى الفوارق بين المُشبَّه والمُشبَّه به حاصلةً في التّركيب من حيث إنَّ المُشبَّه به عادةً هو أقوى من المُشبَّه في صورة التّشبيه، وإنَّ هنالك مغايرةً بين

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/ 200.

المشبَّه والمشبَّه به، وهذا ما لم يقصدوه؛ فإنَّهم أرادوا تمامَ المطابقة بينه وبينهم بلا زيادة ولا نقصان؛ أيِّ: المشابهة من جميع الوجوه الذّاتيّة؛ فإن "الشّيء يُشبَّه بالشّيء من وجهٍ واحدٍ لا يكون مثلَه في الحقيقة، إلّا إذا أشبهه من جميع الوجوه لذاته"[1].

معنى الفاء في قوله: ﴿فَأۡتِ بِـَٔايَةٍ﴾:

الإفصاحُ عن الشَّرط المُقدَّر يتناغم في الجدلِ القرآنيّ

الفاء في قوله سبحانه: ﴿فَأۡتِ بِـَٔايَةٍ﴾ فصيحةٌ، عطفَتْ ما بعدَها على مُقدَّر يُدرَك من السّياق؛ أيِّ: إن كنتَ صادقًا فيما ادَّعيتَ ﴿فَأۡتِ بِـَٔايَةٍ﴾، وبذلك يتقابَل قَولُهم مع قوله السّابق: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾؛ أيِّ: إذا علِمتُم أنّي رسولٌ فاتّقوا وأطيعوا، فرتَّبوا على اتِّهامهم وإنكارهم رسوليّتَه بأنّك لو صدَقتَ في دعواك، فأتِ بمعجزةٍ تثبتُ أنَّك رسولٌ مُصطفًى من الله تعالى.

غرضُ الأمر في قوله: ﴿فَأۡتِ بِـَٔايَةٍ﴾:

الأمــرُ للتّعجيز يُفيدُ الاستخفافَ

ورد الأمرُ بالإيتاءِ في قوله سبحانه: ﴿فَأۡتِ بِـَٔايَةٍ﴾ للتّعجيز[2]؛ لأنّ حقيقةَ الأمر طلبُ الفعل على وجه الاستعلاء، وهم يعتقدونَ أنّه غيرُ صادقٍ في دعواه الرّسالة؛ لأنَّ مُعتقدهم أنَّ الرّسول لا يكون من البشَر، فلن يكون الطّلبُ على حقيقته؛ فمهما حاول إجابةَ طلبِهم وسعى في ذلك، فإنّهم واثقون أنَّه لن يأتيَهم بما طلبوا، وقصدوا بذلك إثباتَ عجزِه وإبطالَ دعواه، والتَّعجيزُ فيه معنى الاستخفاف والتّهكُّم بالمُعجَّز؛ لأنّه غيرُ قادرٍ على إثبات دعواه.

نكتةُ التَّعبير في الأمر بالإتيان دون المَجيء:

عبَّروا بالإتيانِ دونَ المجيء تهكُّما وثقةً منهم في عدم قدرته على تحقيق طلبِهم

عبَّروا في الأمر بالإتيان دون المجيء، فلم يقولوا: (فجِئْنا بآية) تهَكُّما به عليه السلام إثباتًا لعجزه؛ وثقةً منهم في عدم قدرته على أن يأتي بتلك الآية المطلوبة، فقالوا له مُتهكّمين: ﴿فَأۡتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 156.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 291.

﴿ٱلصَّٰدِقِينَ﴾؛ أيْ: إن كُنتَ صادِقًا فإنّه يسهُل عليك أنْ تأتينا بآية تدلُّ على هذا الصِّدق، لكنَّك غير صادق فلن تستطيع أنْ تأتينا بآية، ولن يحصل هذا أبدًا.

والأصل في ذلك: أنَّ الإتيان هو المَجيء بسهولةٍ، وقد يُقال باعتبار القصد دونَ الحصول، أمّا المجيء فأعمُّ منه[1]، وأيضًا فإنّه يُقال باعتبار حصول الشَّيء، وهم واثقون في عدم حصوله، ولذلك عبّروا بالإتيان لكونه المُعبِّر عن أغراضهم.

معنى الباءِ في قوله: ﴿بِـَٔايَةٍ﴾:

تعديةُ اللّازمِ تحديدٌ لنوعِ المأتيِّ به

الباء للتّعدية؛ والمعنى: (إن كنتَ صادقًا في دعواك الرّسالةَ وأنّ اللّه تعالى قد اختارك واصطفاك علينا؛ فاجعل لك آيةً تدلُّ على أنّك كذلك، وتأمُلُ وتطمح من ورائها أنْ تُعيننا على تصديقك)، وأفادت التّعديةُ إلى الآية تحديدَ نوعِ المأتيّ به.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿بِـَٔايَةٍ﴾:

مُفردةُ (آية) أعمُّ وأشملُ وأجمعُ ممّا سواها

لمُفردة الآية معانٍ كثيرةٌ؛ من أخصِّها معنى (العلامة)؛ لأنَّ الآية علامةٌ على صدق مَن أتى بها وعلى عجْز المتحدَّى بها، وأنّها تَبهَر الجميع بوضوحِها ونصاعتِها وظهورها، كما تتضمّن أيضًا معانيَ (البرهان) و(الدّليل) و(المعجزة) وغير ذلك، ومن هنا يُؤثِر القرآنُ الكريم التَّعبير بلفظ الآية لشمولِه هذه المعاني جميعَها.

دلالــة (آيــة) إفرادًا وتنكيرًا

أفردَ النَّظمُ كلمة ﴿بِـَٔايَةٍ﴾ ولم يجمعْها، فلم يَقُل: (آيات)؛ ولعلَّ ذلك لأنَّهم لثقتهم في عدم صدقِه بادّعاء الرِّسالة لكونه بشرًا مثلهم، فهم واثقون كذلك في عدم إتيانه بشيءٍ واحدٍ يدل على هذا الصِّدق، فاكتفوا بطلب آية واحدة شرطَ أن تكون آيةً عظيمةً تقطعُ بتصديقِه، ولذلك نُكِّرت؛ فالتَّنكير للتّعظيم والتّفخيم.

---

(1) الرّاغب، المُفردات: (جاء).

معنى ﴿إن﴾ في قوله: ﴿إِن كُنتَ﴾:

التَّعبيرُ بـ (إن) الشّرطيّة أنسبُ لشكِّهم في صدقه

﴿إن﴾ في قوله: ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ هي الشّرطيّة، وهي من أدوات الشّرط الجازمة، ومثلُها في إفادة الشّرطيّة أيضًا (إذا) لكنّها غير جازمة، وأمّا عن الفرق في المعنى بين كلٍّ منهما، فإنَّ ﴿إن﴾ تكون للتّقليل والشّكِّ في الوقوع، بخلاف (إذا) فإنّها لتحقُّقِه، ولذا أوثِرَ التَّعبير بـ ﴿إن﴾ دونها؛ إيعازًا بأنَّهم شاكّون في صدقه عليه السلام، والواقع أنَّهم جازمون بعدمِ صدقه، واثقونَ في عدم استطاعته تحقيقَ مطلبهم، فكان التَّعبير بـ ﴿إن﴾ الشكّيّة اعتبارًا، و"بناءً على اعتقاد المخاطَب، وإلّا فهم جازمونَ بعدم الصِّدق غيرَ متردِّدين فيه"[1].

دلالة التَّعبير بماضي الكينونة في الشَّرط:

عُبِّر بالفعل الماضي ﴿كُنتَ﴾ في قولهم: ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾؛ لأنّهم يريدون منه "كونًا هو غايةُ الرُّسوخ"[2]؛ فالعادة أنَّ (كان) تُقحَمُ في الكلام لإفادة معنى الرُّسوخ والتّمكُّن.

معنى ﴿مِنَ﴾ الجارّة في قوله: ﴿مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾:

التّبعيضُ والابتداءُ وسيلتان للنّسبة إلى الصّادقين

﴿مِنَ﴾ في قولهم ﴿مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ للتّبعيض؛ والمعنى: (إنْ كنتَ واحدًا من جملة الصّادقين وفردًا من أفرادهم)، كما تحتملُ أنْ تكون ﴿مِنَ﴾ للابتداء، وكأنَّ الصّادقينَ بصدقهم مكانٌ يخرجُ منه المُتحدِّثون؛ أيْ: (فإنْ كنتَ تنسبُ نفسَك إلى مكانِ صِدق الصادقين؛ فقدِّم لنا آيةً تَبهرُنا بوضوحِها).

دلالةُ التَّعبير بمادّة الصّدق:

مُجاراةُ الخصم مهمّةٌ في المُناظَرة

عبَّروا بالصِّدق في قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ استيثاقًا من صحَّة خبره تنزُّلا على اعتقاده هو، أمّا هم فقد قطعوا في أمرِه بأنّه

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 291.
(2) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 14/ 77.

من الكاذبين، ومُرادهم: إنْ كنت واثقًا في صحّة ما تخبرُنا به - حسَب زعمك - من كونك رسولًا من عند الله ﴿فَأۡتِ بِـَٔايَةٍ﴾.

نكتةُ التَّعبيرِ بالجمعِ في قوله: ﴿مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾:

تحديدُ المُرادِ بالصّادقين وأثرُه في الكشفِ عن غرضِ الوصفِ

جمعوا في قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ لفظَ ﴿ٱلصَّٰدِقِينَ﴾؛ لأنَّهم عنَوا به الفئة المعروفة بالصّدق، وهم جملةُ الرُّسُل الصّادقين المعروفين بالصِّدق، وهذا مبنيٌّ كما سبق ذِكْره على اعتقاد المُخاطَب، وإلّا فهم جازمونَ بعدم الصّدق غيرُ متردِّدين فيه[1]، أَوْ أنَّهم أرادوا بـ ﴿ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ الملائكة، الَّذين هم الأحقُّ بالرِّسالة دون البشر، وعليه فلا يخلو الكلام من تهكُّم به وسُخرية منه؛ أيْ: إنْ كنتَ تزعمُ أنّك لستَ بشرًا - مع جزمنا بأنّك كذلك - وأنّك ملَك من جملة الملائكة الصّادقين ﴿فَأۡتِ بِـَٔايَةٍ﴾؛ فهذا "بمنزلة ما كانوا يَذكُرون في الأنبياء أنّهم لو كانوا صادقين كانوا من جنس الملائكة"[2].

إشارة التَّعبير باسم الفاعل:

إرادة الرّسوخ في الوصف دون الحدوث

أوثر التَّعبيرُ باسم الفاعل ﴿ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ دون التَّعبير بالفعل؛ فلم يقولوا: (إن كنتَ مِن الَّذين صدقوا أَوْ يصدُقون)؛ لأنّهم يريدون العراقة في هذا الوصف والرّسوخ فيه والتمكُّن منه، وليس مُجرّدَ الاتّصاف الَّذي قد يحدثُ بإيقاعه مرَّةً أو مرّاتٍ، فالمُتَّجَهُ هنا إرادة معنى الصّفة المُشبَّهة الدّالّةِ على الدَّوام والثّبوت.

۞ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

ٱلۡمُسَحَّرِينَ والمَسحورين:

لفظ (المُسَحَّرين) أبلغ وأعمق دلالةً من (المَسحورين)

إنْ حمَلْنا المادّة على كونها من السِّحْر بالكسر، وهو المعنى الأبرز هنا، بخلاف مَن قال: هو مأخوذ من السَّحَر بالفتح بمعنى الرئة، كنايةً عن كونه بشرًا، وحملُ الآية على هذا المعنى ضعيف كما

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 177، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 291.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 525.

مضت مناقشته في الإيضاح اللّغويّ والبلاغيِّ، ولأجل الموازنة بين لفظي: ﴿ٱلۡمُسَحَّرِينَ﴾، و(المسحورين)؛ فإنَّ التَّعبير بالمُسَحَّرين أبلغُ من التَّعبير بالمسحورين؛ لأنَّ المُسَحَّر هو مَن تكاثفَ عليه السِّحر، فكان شديدًا قويًّا مؤثّرًا على عقله وسلوكه، قال الزّمخشريّ: المُسَحَّر: الَّذي سُحِر كثيرًا حتّى غلب على عقله[1]، وقال ابن عاشور: المُسَحَّر اسم مفعول سَحَّرَهُ، إذا سَحَرَهُ سِحرًا متمكّنًا منه، و﴿مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ﴾ أبلغُ في الاتّصاف بالتّسحير مِن أن يُقال: إنما أنت مُسحَّر[2]؛ أيّ: بالإفراد، وأبلغ كذلك من أنْ يُقال: (أنت مسحورٌ) أو (أنت من المسحورين)، وقيل: المُسحَّر هو الَّذي أوتي علْمَ السِّحر فكانت له قدرةٌ على الإتيان بالقول الخادع الَّذي يوجِدُ تخييلاتِ الحقِّ وليس بحقٍّ، ومعنى ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ﴾؛ أيّ: إنّك بهذا التَّسحير الَّذي عَلِمتَه تصرفُ الأنظارَ عن الحقِّ، فتسحَرُ فكرَ النّاس كما يسحَرُ السّاحرُ أعينَ النّاس ويَسترهبُهم بفعلِه[3]؛ وعلى هذا فالفرقُ بينهما هو فرقٌ في المبالغة وعُمق الدّلالة البارز في كلمة ﴿ٱلۡمُسَحَّرِينَ﴾ وتفوُّقها في ذلك على كلمة (المسحورين)، ولو أُريد به: المُعلَّمون السِّحر؛ فمعناه أنه ﷺ هو مَن يقوم بسِحر العقول بما تعلَّمَه من السِّحر، وليس من وقعَ عليه السِّحر.

البَشَر والإنسان:

لفظُ البَشَرِ يُطلق باعتبار المادّة، ولفظ الإنسان يُطلق باعتبار المعنى

إنّ عادة القرآن في التَّعبير عن الإنسان بلفظ البشر إنّما يكون إذا اعتبَر منه جُثَّتَه وظاهِرَه، قال الرّاغب: "وخُصّ في القرآن كلُّ موضعٍ اعتبَرَ من الإنسان جثتَه وظاهرَه بلفظ (البشَر)؛ نحو قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ مِنَ ٱلۡمَآءِ بَشَرٗا﴾ [الفرقان: 54]، وقال ﷻ: ﴿إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن طِينٖ ٧١﴾ [ص: 71]، ولمّا أراد الكفار الغضّ من الأنبياء

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 328.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 177.

(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 10/ 5393.

اعتبروا ذلك فقالوا: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ۝٢٥﴾ [المدّثر: 25]، وعلى هذا جاء قوله سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [الكهف: 110]، تنبيهًا على أنّ النّاس يتساوَونَ في البشَريّة، وإنَّما يتفاضلون بما يختصّون به من المعارف الجليلة والأعمال الجميلة، ولذلك قال بعده: ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ [الكهف: 110]"[1]، أمّا الإِنْسان؛ فهوَ المَعْنى القائِم بِهَذا البدن، ولا مدْخل للبدن في مُسَمّاهُ، ولَيْسَ المشارُ إِلَيه بـ (أَنا) الهيكلَ المحسوس - أي: البدن - بل الإنسانيّة الَّتي هيَ صورتُها النّوعيّة الحالَّة في مادَّتها المُحصِّلة لنَوْع البدن الإنسانيّ"[2]، وبهذا يظهر الفرق بين مفردتي (البشر) و(الإنسان) من حيث الدّلالة اللّغويّة؛ إذ لفظ البشر يُطلقُ على الإنسان باعتبار المادّة والبدن، ولفظ (الإنسان) يُطلق باعتبار معنى الإنسانيّة فيه وخصائصها؛ أيْ: من حيث هو: كائنٌ عاقلٌ مُفكّر، يُؤمن ويكفرُ، ويوالي ويعادي، إلخ.

(1) الرّاغب، المُفردات: (بشر).
(2) الكَفَويّ، الكلّيّات، ص: 198.

﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ١٥٥ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ١٥٦﴾ [الشُّعراء: 155 - 156]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

تأييدُ اللهِ لصالحٍ عليه السلام بالآيةِ تحقيقٌ للنُّصرة

لمّا كان قومُ صالح عليه السلام - وهم ثمود - قد طالبوه بآيةٍ تدلُّ على صدقه، على أيِّ وجهٍ من الوجوه سواءٌ كان طلبُهم هذا تعجيزًا أَوْ سُخريةً وتهكُّمًا أو غيرَ ذلك، وكان الظّاهر أنّه عليه السلام قد دعا ربَّه أَنْ يُجيبهم إلى ما طلبوه، لتتأيَّد رسالتُه ويَظهر صدقُه، فيكفّوا عن التّهكُّم به والسُّخرية منه والصَّدِّ عن دعوته، أجابهم اللّٰه تعالى إلى ما طلبوا إجابةً عاجلةً، تأييدًا لرسوله صالح عليه السلام، وقطعًا لحُجَجِهم، فأمَدَّهم بالآية المناسبة الَّتي ربَّما كانوا قد طلبوها بعينها، وهي النّاقة، فدعاهم مُستبشِرًا بتأييد ربِّه له، فرِحًا بتحقيق وعدِه بنَصْرِ رُسُله، فـ ﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿شِرْبٌ﴾: (شرب) أَصلٌ واحدٌ مُنقاسٌ مُطَّردٌ، والشُّرْبُ تناولُ كلِّ مائعٍ، ماءً كان أو غيرَه[1]، تقولُ: شَرِبتُ الماءَ أَشرَبُهُ شَرْبًا، وهو المصدرُ، والشَّرابُ: اسمٌ لِما يُشرَبُ، وجمعُه أَشْرِبَةٌ[2]، والشَّرْبُ: القَوْمُ الَّذين يَشربونَ، والشِّرْبُ: الحَظُّ مِنَ الماءِ[3]، والشَّرّابُ: الشَّديدُ الشُّرْبِ كَثيرُه[4]، والمقصودُ بالشِّرْبِ في الآية: النَّوْبَةُ في الماءِ[5].

2) ﴿تَمَسُّوهَا﴾: أصلُ (مسَّ) يَدُلُّ على جَسِّ الشَّيءِ باليَدِ[6]، يُقالُ:

(1) الرّاغب، المُفردات: (شرب).
(2) الخليل، العين، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (شرب).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شرب).
(4) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (شرب).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 177.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (مسس).

مَسِسْتُ الشَّيءَ أَمَسُّه مَسًّا: لَمَسْتَه بيدِك، وهوَ مجازٌ في إصابةِ الشَّيءِ وحُلولِه، وأَكثَرُ ما يُطلَقُ في إصابَةِ الشَّرِّ، قالَ تعالى: ﴿۞وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا﴾ [الزُّمر: 8]، ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾ [الأعراف: 73][1]، والمَسوسُ من المياه: ما نالته الأيدي[2]، وحاجةٌ ماسَّة: مُهِمَّة[3]، وحقيقةُ المَسِّ في الآية مُستَعْمَلٌ في الإصابَةِ على وجْهِ المجازِ.

3) ﴿فَيَأْخُذَكُمْ﴾: (أخذ) أصلُ الأخذ: حَوْزُ الشَّيْءِ وجَبْيُهُ وجَمعُهُ[4]، أخذتُ الشّيْءَ آخذُه أخذًا: تناولتَه، والإخذُ بالكسر: الاسمُ، والأمر منه: خُذ، وأصله (أُؤْخُذْ)؛ إلّا أنّهم استثقلوا الهمزتَيْن فحذفوهما تخفيفًا[5]، واستُعمِلَ مجازًا مَشهورًا في الاستيلاءِ، قالَ تعالى: ﴿وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ﴾ [التَّوْبَة: 5]، وفي القَهْرِ نحو: ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ﴾ [الأَنعام: 42]، وفي التَّلقّي مثلُ: ﴿أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [آل عمران: 81] وفي الاحتِواءِ والإحاطَةِ، يُقالُ: أَخَذَتْهُ الحُمَّى وأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ، وفي الإهلاكِ نحو: ﴿فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ۝١٠﴾ [الحاقة: 10][6]، والمُراد بالأخذِ في الآية: الإهلاكُ والقَهر.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

ناقةُ صالح مُعجزةٌ حِسيَّةٌ تدلُّ على صِدقِهِ

قال صالح لثمود لمّا سألوه آيةً يعلمون بها صِدْقَهُ: يا قوم هذه ناقةُ اللّه آيةً لكم، ترِد ماءَكم يومًا وترِدونه أنتم يومًا، فلها حظٌّ من الماء يومًا ولكم مثلُه يومًا آخر، ولا تمَسّوها بأيِّ أذًى كائنًا ما كان؛ فإنَّكم إنْ فعلتُم يُصبْكم مِنَ اللّهِ عذابُ يومٍ عظيمِ الأهوالِ[7].

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة، والرّاغب، المُفردات، وابن منظور، لسان العرب: (مسس)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/ 316.
(2) الخليل، العين: (مسس).
(3) الجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (مسس).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أخذ).
(5) ابن دريد، جمهرة اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح: (أخذ).
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/ 271.
(7) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 4/ 147، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 19/ 92، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 596.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علّةُ فصلِ الآيةِ عما قبلها:

الـجـوابُ عن السّؤالِ مُؤكِّدٌ للحوارِ والمناظَرة وصولًا إلى الحقّ

فُصِلت هذه الجملة ﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ﴾ عمّا قبلها على الاستئناف البيانيّ، حيثُ إنَّ فعل القول هنا يُنبئُ عن حوارٍ دار بينه عليه السلام وبينهم حول الآيةِ المطلوبة، وهذا الحوار يهدفُ من خلاله النبيُّ صالحٌ عليه السلام إلى إثبات الحقِّ وإقامة الحجَّة القاطعة، قال أبو حيّان "وفي الكلام حذفٌ تقديرُه: قال آتي بها، قالوا: ما هي؟ ﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ﴾"(1)؛ فتحقّق بين الجُملتيْن ما يُعرفُ بـ (شبه كمال الاتّصال)، ويوحي فعلُ القول المُترتِّب على السّؤال المُقدَّر بفوريَّة الإتيان بالآية، وهو شرطٌ من شروط المعجزة الّتي تُقارن دعوى النبوَّة.

نكتةُ التّعريفِ باسمِ الإشارةِ في قوله: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ﴾:

الإشارةُ القريبةُ دالّةٌ على سرعةِ خروجِ النّاقةِ بعد طلبِهم الآيةَ مباشرةً

استعملَ النظمُ اسم الإشارة الدّالّ على القُرب ﴿هَٰذِهِۦ﴾؛ "إشارةً إلى سهولة إخراجها وسرعته"(2)، فلكأنّه بمجرَّد أنْ طلبوا هذه الآية تحدّيًا لنبيِّ اللّه صالحٍ عليه السلام، وتعجيزًا له، وقع المددُ الإلهيُّ مباشرةً، فخرجتِ النّاقة من الصَّخر خروجًا سهلًا سريعًا، وكأنَّها كانت متأهِّبةً لذلك، تنتظرُ الإذنَ من اللّه بالخروج؛ ولذا أشار عليه السلام بإشارة القرب قائلًا: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ﴾ دلالةً على كونها حاضِرةً مُعايَنَةً وقتَ الخطاب، وذلك أعونُ على بلوغ القصد من خلقِها، وهو كونُها حجّةً ودلالةً ظاهرةً باهرةً على صدق صالحٍ عليه السلام؛ على معنى: إنَّ ما طلبتموه موجودٌ الآن أمامَ أعينكم؛ فهلّا استجبتم لندائي إيّاكم بالإيمان باللّه، كما استجابَ اللّه لكم بخَلْقِ هذه الآية وإيجادِها على الفور.

دلالةُ التنكيرِ في قوله: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ﴾:

تفخيمُ أمرِها وتعظيمُ شأنها، ويَحتَمِلُ أنْ يكون للتّنويع

نكَّر ﴿نَاقَةٌ﴾ تفخيمًا لأمرِها وتعظيمًا لشأنها، ويَحتَمِلُ أنْ يكون

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 182.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 14/ 77.

التّنكير للتّنويع؛ للدّلالة على أنّها نوعٌ خاصٌّ يختلف عن بقيّة النّوق المعروفة؛ لكونها جاءت وفقَ ما طلبَه القوم، ولكونها مُفحِمةً لهم، ودالّةً دلالةً قاطعةً على صدق صالحٍ ﷺ، ولكونها آيةً تحملُ معها آيةً أخرى، وهي شِربُها ماءَ البئر كلَّه في يوم، وامتِناعُها في اليوم التّالي؛ فذلك كلُّه من دواعي التّنويع والتّفخيم لشأنها الَّذي دلَّ عليه التّنكير.

دلالةُ الوصفِ بالجملة:

وظيفةُ النَّعتِ الكشفُ عن الخصوصيَّةِ الكامنةِ في المعجزةِ

وصْفُ صالحٍ ﷺ النّاقةَ بقوله سبحانه: ﴿نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ﴾ هو إشارةٌ بهذا الوصف إلى آيةٍ أخرى فوق الآية الأصليَّة الَّتي هي خروج النّاقة من الصَّخر؛ فأضاف النَّعتُ إلى هذا آيةً أخرى، هي أنَّ لها نصيبًا من الماء تشربُه في يومٍ فلا تذرُ منه شيئًا، ثمَّ في اليوم التّالي يَشربون هم ولا تشرب هي.

معنى اللّامِ في جملةِ ﴿لَّهَا شِرْبٌ﴾:

(اللّام) في قوله سبحانه: ﴿لَّهَا شِرْبٌ﴾ للاختصاص؛ أيّ: اختصاصِ الشِّرب بالنّاقة لا ينازعُها عليه أحدٌ، كما نقول: للدّار بابٌ فيفيد اختصاص الباب بالدّار.

دلالةُ تقديمِ الخبرِ في قوله: ﴿لَّهَا شِرْبٌ﴾:

التّقديم يُفيد التّميُّزَ والاختصاصَ

الجارُّ والمجرور ﴿لَّهَا﴾ خبرٌ مُقدَّم، و ﴿شِرْبٌ﴾ مبتدأٌ مُؤخَّرٌ في قوله تعالى: ﴿لَّهَا شِرْبٌ﴾، والجملة من المبتدأ والخبر صفة لـ ﴿نَاقَةٌ﴾، وإنّما قُدِّم الخبر على المبتدأ فيها لإفادة الاختصاص، والمعنى: (للنّاقة حظٌّ ونصيبٌ خاصٌّ بها من الماء في يومها المُخصَّص لها ليس لغيرها)، وفي هذا الاختصاص ما يدلُّ على أنّها آيةٌ عجيبةٌ، لها تميُّزٌ خاصٌّ عن سائر النّوق، وأنَّ فيها امتحانًا لهم ولصبرهم بعد أن طلبوا الآية.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿شِرْبٌ﴾:

دقّةُ الاختيار توضّحُ أبعادَ الإعجازِ

الشِّرْبُ: الحَظُّ مِنَ الماءِ والنَّصيبُ منه؛ كالسِّقي، وبالضّم (الشُّرب)

المصدر[1]، والمعنى: (لها نصيبٌ وحصّةٌ من الماء خاصَّة بها فلا تعتدوا عليها فيه، وأنتم لكم نصيبٌ لا تشارككم هي فيه)، وقد نكَّره فقال: ﴿شِرۡبٌ﴾ لتفخيمه وتعظيمه؛ فهي وحدَها تشرب نصيبًا كاملًا، وهم في التّالي يشربون نصيبًا، كما يَحتَمِلُ التّنكير إرادةَ التّنويع فيدلُّ على أنَّ نصيبها يختلف عن بقية شِرب النّوق العاديَّة، واكتفى هنا بالنّصّ على نصيبها من الماء المُعبَّرِ عنه بقوله سبحانه: ﴿لَّهَا شِرۡبٌ﴾، ولم يُعطَف عليه (أكلٌ)؛ لأنّ الأكل الخاصَّ المتميِّز قد نُصَّ عليه في موضع آخر في قوله تعالى في سورتي الأعراف وهود: ﴿فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ﴾ [الأعراف: 73] [هود: 64] فأجملَ في كلِّ موضع بذِكْر أحدِ المعاشَيْن، ليُحمل الآخرُ عليه، وهذا من بديع الإيجاز في الكتاب العزيز.

دلالة الوصل في قوله: ﴿وَلَكُمۡ شِرۡبٌ﴾:

العطفُ دليلُ المُغايَرة والتَّميُّزِ

الواو في قوله تعالى: ﴿لَّهَا شِرۡبٌ وَلَكُمۡ شِرۡبٌ﴾ للعطف، عطفت جملة: ﴿وَلَكُمۡ شِرۡبٌ﴾ على جملة: ﴿لَّهَا شِرۡبٌ﴾، وهو من عطف الجملة على الجملة المُتَّفِقة معها في الخبريّة لفظًا ومعنًى، وأفاد العطف التَّفصيل والتّوضيح مع دلالته على أنَّ شِربها ونصيبها متميّزٌ ومن نوعٍ عجيب، بحيث انفردَت بشُربِ الماء كلِّه في ذلك اليوم المُخصَّص لها.

دلالةُ تقديمِ الخبرِ في قوله: ﴿وَلَكُمۡ شِرۡبٌ﴾:

الاختصاصُ يُحقِّق الإنصافَ والعدالةَ

ما قيل في الجملة الأولى يُقال هنا أيضًا في ﴿وَلَكُمۡ شِرۡبٌ﴾؛ إذ الجارُّ والمجرور (لكم) خبر مُقدَّم، وقوله سبحانه: ﴿شِرۡبٌ﴾ مبتدأٌ مُؤَخَّر، وإنّما قدَّم الخبر على المبتدأ فيها أيضًا لإفادة الاختصاص، والجملة معطوفةٌ على سابقتها، والمعنى: (كما أنَّ للنّاقة نصيبًا خاصًّا بها في يومها، كذلك أنتم لكم نصيبٌ خاصٌّ لكم في يومكم، بحيث لا يبغي كلٌّ منكما على الآخر في نصيبه ويومه).

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شرب)، والسَّمين، الدُّرّ المَصون: 8/ 542.

بلاغةُ التّوازي بين الجُملتيْن:

ملامحُ التّوازي والتّشابه بين الجملتيْن

أوّلًا: التّوازي في التّركيب، فكلتاهما قد تكوَّنتا من مبتدأٍ وخبرٍ، والخبر فيهما شِبهُ جملةٍ، وجاء مُقدَّمًا على المبتدأ، **ثانيًا:** أفاد تقديم الخبر على المبتدأ فيهما الاختصاص على السَّواء، ثالثًا: توازت الجملتان في السَّجع، حيث خُتِمت كلٌّ منهما بنفس الكلمة ﴿شِرۡبٞ﴾، وهو جناسٌ تامٌّ، وأخيرًا؛ كلُّ مواطن التّوازي والتّشاكُل هذه تَمخَّض عنها التّوازي في التّقسيم، فالنّاقة لها يومٌ تشربُ فيه من الماء ما تشاء وترعى أيضًا كيفما تشاء، فلا يعتدي على يوم شربِها وحريَّةِ أكلها أحدٌ فيقع العذاب، هكذا حذَّرهم نبيُّهم صالح ﷺ.

نكتةُ الإضافةِ بعدَ الإطلاقِ في قوله: ﴿وَلَكُمۡ شِرۡبُ يَوۡمٖ﴾:

تقييدُ شِربهم دون شِربِها لتوقّعِ حصولِ التّجاوزِ من قِبَلِهم

قيَّد ما يخصُّهم من شِربٍ بالنَّصِّ على ﴿يَوۡمٖ﴾، فأضاف شِربَهم إليه، فقال: ﴿وَلَكُمۡ شِرۡبُ يَوۡمٖ﴾، وهو ما لم ينصَّ عليه فيما يخصُّ النّاقة، فلم يَقُلْ: (لها شِربُ يوم) مع كونه كذلك؛ اكتفاءً بدلالة المذكور عليه؛ لأنَّ المتوقَّع أنْ يتمَّ التّجاوز من قِبَلِهم لا من قِبَلِها؛ لأنّها مُسيَّرة مأمورة بأمر الله، تعرفُ طريقها وتنقادُ لمراد الله منها، ولو أطلقَ في شِربهم كما أطلق في شِربها فقال: (لها شِرب ولكم شِرب) لطغَوا على شِربِها، وظلموها حقَّها، فقيّد شِربَهم بـ ﴿يَوۡمٖ﴾ وأضافه إليه لتأكيد هذه المزامَنة بالنَّص، منعًا للتَّأويل، وفي الكلام محذوفٌ دلَّ عليه الكلام المذكور، تقديرُه: (لها شِربُ يوم معلوم)[1] ﴿وَلَكُمۡ شِرۡبُ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ﴾، لكنَّه حذفَه اكتفاءً بدلالةِ المذكور عليه.

دلالةُ التنكيرِ والوصفِ في قوله: ﴿يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ﴾:

التّنكيرُ يفيد التّفخيم، والوصفُ يقطع العُذر

نكَّر ﴿يَوۡمٖ﴾ ثمَّ وصفه بـ ﴿مَّعۡلُومٖ﴾ في قوله: ﴿شِرۡبُ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ﴾، فأدناه بهذا الوصف من المعرفة بالتّخصيص دون أن يُحقّقَها، فالنّكرةُ هنا مُخصَّصةٌ غير محضة، لتأخذ من التّنكير سرَّه

(1) الكرمانيّ، أسرار التّكرار، ص: 123.

وحكمته، وهو هنا تفخيمُ أمر هذا اليوم وتعظيمُه وتميُّزُه، ليؤكِّد لهم ضرورةَ المحافظة عليه وعدم تجاوزه في الشِّرب، فيقع بسبب هذا التَّجاوز عذابٌ عظيمٌ، ومن الوصف بـ ﴿مَّعۡلُومٖ﴾ فائدته، وهي قطعُ كلِّ عُذرٍ لهم في تجاوزه بادِّعاء عدم معرفته؛ لأنّه معلومٌ لديهم غيرُ مجهولٍ، فلا مجال لادِّعاء أنّه غير محدَّد؛ كاعتذارٍ غير مقبول قد يلجأ إليه المُتجاوِزون.

دلالةُ الوصف في قوله: ﴿يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ﴾:

لفظُ (معلوم) قرآنيُّ الاستعمال حاسمُ الدّلالةِ على المُراد

﴿مَّعۡلُومٖ﴾ في قوله: ﴿يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ﴾ اسم مفعول من: عَلِمَ، والعِلْمُ: إدراك الشيء بحقيقته[1]، وهذا المعنى لا تُؤدّيه مفردتا (مُحدَّد)، و(مُعيَّن)، ولأنَّ المَقام مَقامُ تثبُّت وتَحَرٍّ، ويترتّبُ عذابٌ عظيم على الوهم فيه، كان من الضروريِّ أنْ يكون النَّصُّ فيه قاطعًا حتّى لا يُترَك للتّأويل فيه مجالٌ، بحيث لا يمكن أن يُدَّعى نسيانُه أوِ الغفلةُ عنه، وهو ما أسهمَ فيه وصف ﴿مَّعۡلُومٖ﴾، وأيضًا، فإنَّ الوصف به دالٌّ على تعيُّن الموصوف النَّكرة، وهو ﴿يَوۡمٖ﴾، فلولا الصّفة بالمعلوميّة له لأمكن ادّعاءُ أنَّ هذا اليوم غيرُ معلوم، ويُضاف إلى هذا أنَّ لفظ ﴿مَّعۡلُومٖ﴾ استعمالٌ قرآنيٌّ، بخلاف لفظَي: (مُحدَّد) و(مُعيَّن) لما تميَّزت به كلمة ﴿مَّعۡلُومٖ﴾ من العِلْم باليوم بشكلٍ قاطعٍ، بخلاف كونه مُعيَّنًا أوْ محدَّدًا لكنَّه مجهول؛ إذ لا يَلزم من التّعيين والتحديد العلمُ به على سبيل الذُّيوع والشُّهرة.

معنى الوصل في قوله: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ﴾:

عطفُ النَّهي دليلُ النَّهي المُقدَّر

الواو في قوله تعالى: ﴿وَلَا﴾ عاطفة، عطفت جملةَ ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ﴾ على ما قبلَها، لكنَّ الجملة الَّتي قبلَها خبريّةٌ لفظًا ومعنًى، وهذه جملةٌ إنشائيَّةٌ لفظًا ومعنًى، فلا اشتراك بينهما حتّى يصحَّ التّشريك، لكنّ السّياق المُتقدِّم لمّا أرشد إرشادًا بَيِّنًا إلى أنَّ المعنى من التَّقسيم

(1) الرّاغب، المُفردات: (علم).

السّابق الإنشاءُ معنًى بتقدير: فخذوا شِربكم واتركوا لها شِربها، جاز عطفُ الإنشاء عليه بقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ﴾[1].

معنى (لا) في قوله: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا﴾:

النـهـيُ عن الـشيء دليـلُ الحرمة أصالةً

(لا) في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ﴾ ناهيةٌ نهيًا جازمًا عن كلِّ تلبُّس بالمنهيِّ عنه، والمضارع بعدها مجزوم بها، والنَّهي بها هنا جازمٌ، يقتضي تحريمَ قُربانها بأقلِّ ما يَخرِق النَّهيَ من ألوان الأذى والسّوء، فالمنهيُّ عنه بعد صدور النَّهي الاستعلائيِّ ممَّن يملِكه يوجِب عدمَ التلبُّس به، ولذلك اختصَّت بصيغة المضارع الدّالّة على الاستقبال؛ أيْ: بعد صدور النَّهي يحرُمُ مسُّها بأيِّ سوء؛ لأنَّ النَّهي إنّما يكون على أمرٍ حاليٍّ أوِ استقباليٍّ.

نكتةُ التَّعبيرِ بالمسِّ:

تـحديدُ المنهيِّ عـنـه بـشـكـلٍ معلومٍ

المسُّ الواردُ في قوله: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا﴾ يُقال فيما يكون معه إدراكٌ بحاسّة اللّمس، وهي الحاسَّة الشُّعوريّةُ الكائنة في ظاهر الجسد، وأخَصُّها ما كان باليد[2]، ولدِقَّة الشُّعور المُنبعث من كلمة (المسّ) صار يطلق مجازًا وكنايةً عن أشياءَ كثيرة؛ فقد كُنّي به عن النّكاح، فقيل: مسَّها وماسَّها، قال تعالى: ﴿وَإِن طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ [البقرة: 237] وكُنّي بالمسّ عن الجنون، قال تعالى: ﴿كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ﴾ [البقرة: 275] والمسّ يُقال في كلّ ما ينال الإنسان من أذى، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَةٗۚ﴾ [البقرة: 80]، وقال: ﴿مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ﴾ [البقرة: 214][3]، وأُنيطَ النَّهي بالمسِّ بالسّوء؛ لأنَّ المسَّ يصدُق على أقلِّ اتّصال شيءٍ بالجسم، فكلُّ ما ينال الناقةَ ممّا يُراد منه السّوء فهو منهيٌّ

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 14/ 78.
(2) ابن منظور، لسان العرب: (لمس).
(3) الرّاغب، المُفردات: (مسس).

عنه، وذلك لأنَّ الحيوان لا يسوؤه إلّا ما فيه ألمٌ لذاته؛ لأنّه لا يفقه المعاني النّفسانيَّة[1]، فيُفهم من هذا أنَّ النَّهي عن مسِّ النّاقة أن يكون هنالك معه إيذاءٌ، فيحصلُ تحديدٌ دقيقٌ للمنهيِّ عنه، بخلاف ما لو قال: ولا تلمسوها بسوء؛ إذ اللّمس لا يترتَّب عليه إيذاء؛ لأنّه مُجرّدُ وضع اللّامسة على الجسم الآخر، بخلاف المسِّ الَّذي يكون فيه مباشرةٌ أشدُّ فيُتصَوَّر فيه الإيذاء؛ فالنَّهي ليسَ عن مُطلَقِ المَسِّ وإلّا أغنى عنه اللّمس، وإنَّما عن المَسِّ بقصد السّوء والإيذاء، وهذا ينسجمُ مع المسِّ دون اللَّمس.

معنى القيدِ بِ(الباء) في قوله: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾:

الباءُ في قوله: ﴿بِسُوٓءٍ﴾ للمُلابَسة؛ وهي في موضع الحال من فاعل ﴿تَمَسُّوهَا﴾؛ أيَ: لا تمسّوها - مُلابِسين - قَصدَ سوء[2]، وبتلك المُلابَسة يتحدَّد مَوطِنُ النّهي عن المسِّ، وهو المخلوط بالأذى المقصودُ منه التّعدّي.

دلالة التَّعبير بلفظ ﴿بِسُوٓءٍ﴾:

السّوءُ كلمةٌ عامّةٌ لكلّ ما يُؤذي، وزاد من دلالةِ عمومِها تنكيرُها

كلمة (السّوء) عامّةٌ تُطلق على كلِّ ما يسوء ويضرُّ، ويُلحِق الأذى بالنّفس أو الغير، وهي تجري "مجْرى الشَّرّ"[3]، ونكَّرها للدّلالة على العموم، فالنّكرة في سياق النّهي كالنّكرة في سياق النّفي، فإنّها تعُمُّ، فيشمل النّهيُ القليلَ من السّوء بلهَ الكثيرَ منه بالأَوْلى؛ أيَ: "لا تضربوها ولا تطردوها ولا تقرَبوها بشيءٍ من السّوء فضلًا عن عقرها وقتلها"[4].

نكتةُ تقييدِ المنهيِّ عنه في قوله: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾:

النهيُ عن المُقيَّد نهيٌ عن قيدِهِ

في التَّعبير بقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾ مُبالَغةٌ في النّهي

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8 - ب/ 219.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8 - ب/ 219.
(3) الكَفَويّ، الكلّيّات، ص: 503.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/ 222.

عن الإساءة إلى النّاقة وإيذائِها وإلحاقِ أقلِّ الضَّرر بها؛ حيثُ نهى عن المسِّ الَّذي هو من مبادئ الإصابة، والمُرادُ النّهيُ عن السّوء[1]، لأنَّ النهيَ إذا تسلَّط على شيءٍ مُقيَّدٍ توجَّه إلى قيده، وليس المُراد النهيَ عن مطلق المسِّ، بل المسِّ المتلبِّس بقصد السّوء وإنْ قلَّ، فيكون النّهي في الواقع مُتَّجهًا إلى السّوء؛ فقد يكون مسّ الحيوان من باب العطف والإكرام، كمن يمرّرُ يدَه بحنوٍّ على فرسه أو ناقته كما هو المعتاد، فليس هذا موطنًا للنّهي.

معنى (الفاء) في قوله: ﴿فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٌ﴾:

وقوعُ العذابِ المتوعَّدِ مسبَّبٌ عن تلبُّسهم بما نُهوا عنه مُترتِّبٌ عليه

(الفاء) في قوله: ﴿فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابُ﴾ للسّببيَّة، والمضارع بعدَها جوابُ النّهي ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا﴾ منصوبٌ بـ (أنْ) مُضمرة وجوبًا، وسرُّ التَّعبير به دلالته على الاستقبال؛ لأنَّ أخذهم بالعذاب مُترتِّبٌ على تلبُّسهم بالمنهيِّ عنه، فإنْ تلبَّسوا به وقعَ العذاب، والمعنى: (لا تمسّوا النّاقةَ بسوء، فيتسبَّبَ عن ذلك وقوعُ العذاب الموعودِ بكم)، وأفادت هذه السَّببيّة الإعلامَ بترتُّب الجزاء على المعصية، فلا غموضَ ولا إبهامَ في الفعل الصّادرِ منهم والجزاءِ المُترتِّب عليهم.

دلالةُ التَّعبيرِ بالأخذِ في قوله: ﴿فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٌ﴾:

فـي التَّعبيرِ بأخذِ العذابِ استعارتان تصريحيَّةٌ ومَكنيّةٌ

أصلُ الأخذ: تناولُ شيءٍ باليد[2]، لكنَّه يخرج كثيرًا عن هذا الأصل إلى معانٍ مجازيّةٍ يدلُّ عليها السّياق، منها ما وقعَ هنا من قوله تعالى: ﴿فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٌ﴾، حيث استُعمل لفظ ﴿فَيَأۡخُذَكُمۡ﴾ مُرادًا به إيقاعُ العذاب، على سبيل الاستعارة التصريحيّة التّبعيّة، كما أنَّ العذاب لا يَأخذ لكنّه شُبِّه بذاتٍ يتأتّى منها التّناول باليد، ثمَّ حُذف وأُبقي شيء من لوازمه وهو (يأخُذكم) على سبيل الاستعارة المكنيَّة؛ فدلَّ التَّعبير بقوله: ﴿فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابُ﴾ على أنَّ العذاب

---

(1) ابن التَّمجيد والقونوي، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 14/ 291.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8 ب/ 227.

يأخذهم من مأمنهم إلى حيثُ الهلاك والدّمار[1]، كمَن يتناولُ بيده شيئًا سَهلَ الأخْذ، وبسرعة وشدَّة[2]، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ ١٠٢﴾ [هود: 102].

نكتةُ إيقاعِ فعلِ الأخذ على ضمير المُخاطَبين:

عذاب الاستئصال حين يأتي يُبيد الجميعَ مع كمال التَّرهيب

أوقَعَ فِعلَ الأخذ بالعذاب على جميعهم بواسطة ضمير الجماعة، فقال: ﴿فَيَأۡخُذَكُمۡ﴾، ولم يخُصَّ المُباشِرين منهم للفعل المتلبِّسين به، فلم يَقُلْ: (فيأخذ المعتدين منكم)، أو (الَّذين مسّوها بسوء) ونحوَه؛ لأنَّ عذاب الاستئصال إنْ جاء لا يفرِّق بين المعتدي وغيره، فإنّه يُبيدُ جميع القوم ويُهلكُهم، المُباشِرَ منهم لسبب الإهلاك والسّاكتَ عليه والرّاضيَ به، وذلك كلُّه قد توفَّر في ثمود، فقد كانوا على قلب رجلٍ واحدٍ في الكُفر بصالح ﷺ والعناد معه، فجاءهم التّهديد جميعًا بالعذاب الشّامل المُستغرِق لجميعهم، إنْ قاموا جميعًا، أوْ قام بعضهم بمسِّ النّاقة بسوء، كما أفاد توجيهُ الخطاب بصيغة ضمير المُخاطَبين إلى القوم كمالَ التَّرهيب والتَّخويف والتّهديد.

دلالةُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿عَذَابُ﴾:

لفظُ العذابِ أعمُّ من العقاب باعتبارٍ، وأخَصُّ باعتبارٍ آخَر

اختُلف في أصل لفظ ﴿عَذَابُ﴾ على أقوال؛ فقيل: هو من قولهم: عَذَبَ الرّجلُ إذا ترك المأكلَ والنّوم، والتّعذيبُ حملُ الإنسان أن يَعذِب؛ أيْ: يجوع ويسهر، وقيل: أصلُه من العَذْبِ، فعَذَّبْتُهُ؛ أي: أزلتَ عَذْبَ حياته، وقيل: أصل التَّعْذيبِ إكثارُ الضّرب بِعَذَبَةِ السَّوطِ؛ أيْ: طرَفِها، وأيًّا مّا كان أصلُه؛ فإنه يُطلَق على الإيجاع الشّديد[3]؛ وإنَّما أوثر التَّعبير بـ ﴿عَذَابُ﴾ دون قرينِه الدَّلاليِّ وهو لفظ (عِقاب)؛ لأنَّ ﴿عَذَابُ﴾ هو اللّفظ الأوسعُ معنًى، فيشملُ ما دلَّ عليه العقابُ

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/ 3726.
(2) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 7/ 235.
(3) الرّاغب، المُفردات: (عذب).

وزيادة، وذلك أنَّ أهل اللّغة قائلون في الفرق بين العقاب والعذاب بأنّ العقاب يُنبِئ عَن اسْتِحْقاق، وسُمّي بذلك لِأَن الفاعِل يسْتَحقّهُ عَقيبَ فعله، أمّا العذاب فيجوز أَن يكون مُسْتَحَقّا وغيرَ مُستحَقٍّ[1]. ومعنى هذا أنَّ بين العقاب والعذاب - من حيث اللّغة - عمومًا وخصوصًا مطلقًا، فكلُّ عقاب عذابٌ؛ وليس كلُّ عذابٍ عقابًا.

كما أنَّ العقاب قد يكون سهلًا يتحمّله المُعاقَبُ نوعَ تحمُّل، بخلاف العذاب الَّذي يدلُّ على الشَّديد من العقوبة، وبهذا الاعتبار يكون العذاب أخصَّ من العقاب، أمّا عن عذاب اللّه في الآخرة، فلا فرقَ بينه وبين العقاب؛ لأنَّ اللّه تعالى لا يُعذِّب إلّا عن استحقاق، ولعلَّ إيثارَ لفظ (العذاب) هنا مناسِبٌ للاستئصال؛ لأنّه يشمل المُستحِقَّ للعذاب كالمباشِر لعَقْر النّاقة ومَن معه وغيرَ المباشِر له.

العـقـابُ قد يتحمّله المُعاقَبُ نـوعَ تـحـمُّل، بخلاف العذاب الَّذي لا يُطاق

لطيفةُ وصفِ ﴿يَوۡمٍ﴾ دون ﴿عَذَابُ﴾:

اختُصَّت في الآية ﴿عَذَابُ يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾ كلمةُ ﴿يَوۡمٍ﴾ دون ﴿عَذَابُ﴾ بوصف ﴿عَظِيمٍ﴾، مع أنَّ الَّذي يتبادر إلى الذِّهن هو وصف العذاب بذلك وليس اليوم، فما الحكمة؟ يكاد المفسّرون يُجمعون على أنَّ وصف اليوم بالعِظَم أبلغُ من وصف العذاب به، وذلك لحلول العذاب فيه؛ لأنَّ الوقت إذا عظُم بسبب العذاب، كان مَوقعُ العذاب من العِظَم أشدّ، وأمّا جَعْلُ ﴿عَظِيمٍ﴾ صفة لـ ﴿عَذَابُ﴾ وأنَّ جرَّ الصِّفة للمُجاوَرة نحو: (هذا جُحْرُ ضبٍّ خَرِبٍ) فضعيف؛ بل ليس بشيء[2]، والأرجح لقرينة السّياق أنَّ المُراد بالعذاب هنا هو عذابُ الدنيا؛ أيْ: عذاب الاستئصال الَّذي هُدِّدوا به وحُذِّروا منه أنْ يُصيبهم ويأخذَهم إنِ انتهكوا ما نُهوا عنه، وهو ما حلَّ بهم بعد أن عقَروا النّاقة، كما تمَّ التّقابُل بين ﴿يَوۡمٍ مَّعۡلُومٍ﴾ و﴿يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾؛

التّرهيب والتّخويف يتناسبان مع الجُرم المشهود

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 239.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 183، والآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 113.

فإنَّ معلوميّة يوم الشِّرب أدَّت إلى وصف يوم العذاب بأنّه عظيم؛ إذ العلمُ بالشّيء وعدمُ الالتزام به يستوجبُ العذاب والتَّنكيل.

بلاغة التَّعبير بالمَجاز في قوله: ﴿فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾:

تنوُّعُ الصّوَرِ المَجازيَّة وأثرُه في ثراءِ المعنى

في قوله تعالى: ﴿فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ نوعانِ من المجاز:

الأوّل: المَجاز العقليُّ في وصف ﴿يَوۡمٍ﴾ بـ ﴿عَظِيمٖ﴾، إذ وصفُ ﴿يَوۡمٍ﴾ بـ ﴿عَظِيمٖ﴾ وإسناد العظمة إليه إنَّما هو جارٍ على طريقة المَجاز العقليِّ، أيِ: المَجازِ الإسناديّ؛ لأنَّ عظمة اليوم بعظمةِ ما يقَع فيه من أهوال؛ فالمعنى: "عَظيمٌ ما يَحْصُل فيهِ من الأَهْوال"[1].

والثّاني: الاستعارة التّصريحيّة التّبعيّة في: ﴿فَيَأۡخُذَكُمۡ﴾، حيث استُعير لفظ ﴿فَيَأۡخُذَكُمۡ﴾ مُرادًا به إيقاعُ العذاب، على سبيل الاستعارة التّصريحيّة التّبعيّة، والثّالث: الاستعارة المكنيّة في كلمة ﴿عَذَابُ﴾، وذلك بأن يكون قد وقع تشبيه العذاب بعاقلٍ يملك بإرادته أن يوقِع العذابَ بالمُراد تعذيبُهم، ثمَّ حذف المُشبّه به، ودلَّ عليه بشيءٍ من لوازمه، وهو الفعل ﴿فَيَأۡخُذَكُمۡ﴾؛ لأنّ أصل معنى الأخذ التّناول باليد، وهذا لا يكون إلّا من العاقل.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الشِّرب والسِّقي:

الشِّرب والسِّقْي كلاهما النّصيب والحظُّ

قال الفيوميّ: "الشَّرابُ ما يُشْرَبُ مِنَ المائِعاتِ، وشَرِبْتُهُ شَرِبًا بِالفَتْحِ، والاِسْمُ: الشُّرْبُ بِالضَّمِّ، وقيلَ هُما لُغَتانِ"[2]، وقوله: المائعات يشمل الماء وغيره كالعسل؛ ومنه قوله تعالى: ﴿يَخۡرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٞ لِّلنَّاسِۚ﴾ [النّحل: 69]، والمعنى المِحوريّ للشُّرب هو: سَحْب الماء أو اللّطيفِ إلى الجوف؛ أيْ: مصُّه وإنفاذُه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 170، والآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 113.
(2) الفيوميّ، المصباح المنير: (شرب).

إلى الأثناء بقوّة (مِن مَنفَذٍ عُلويٍّ) كشُرب الماء وغيره[1]، وأمّا الشِّرْبُ - بكسر الشّين - فهو الحَظُّ مِنَ الماءِ والنَّصيبُ والنَّوبَة منه، فقوله تعالى: ﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الشُّعراء: 155] النَّوْبَةُ في الماءِ، لِلنّاقَةِ يَوْمًا تَشْرَبُ فيهِ لا يُزاحِمونَها فيهِ بِأَنْعامِهِم، ويومًا لهم لا تزاحمُهم فيه[2]، وأمّا السَّقْي - بفتح السّين - فهو إِشْرابُ الشَّيْءِ الماءَ وما أَشْبَهَهُ، تَقولُ: سَقَيْتُهُ بيَدي أَسْقيهِ سَقْيًا، وأَسْقَيْتُهُ، إذا جَعَلْتَ لَهُ سِقْيًا، والسُّقْيُ: المَصْدَرُ[3]. والمعنى المحوريُّ للسَّقي هو: إشرابُ الماء ونحوه من المائعات للغير لأنّه مُتعدٍّ إلى اثنَيْن بخلاف الشُّرب، وكلُّ ما في القرآن من التّركيب هو من سُقي المائع ماءً أَوْ لبنًا أَوْ حميمًا[4].

وأمّا السِّقْيُ - بكسر السّين - فهو الحَظُّ مِنَ السَّقْيِ والشُّرْبِ، يُقالُ: كَم سِقْيُ أَرْضِكَ؛ أَيْ: كَم حَظُّها مِنَ الشُّرْبِ؟ وأَنشد أَبو عُبَيْدٍ لِعَبْدِ اللهِ بْنِ رَواحَةَ:

هُنالِكَ لا أُبالي نَخْلَ سِقْيٍ *** ولا بَعْلٍ وإِنْ عَظُمَ الإتاءُ[5]

وعلى هذا، فالمُشترَك الدّلاليُّ بين الشِّرب والسِّقْي أنَّ كلًّا منهما يُطلَقُ على النَّصيب والحظّ ممّا يُشرَب ويُسقى، ومَثَلُهما مَثَل: (القيت) من القوت، فإنَّه الحظُّ والنّصيبُ منه، تقول: ما عنده قيتُ ليلةٍ[6]؛ أَيْ: حظُّ ليلةٍ ونصيبُها.

المَسّ واللّمس:

المَسُّ أوّل اللَّمس وهو أشمل منه

قال الرّاغب: المسّ كاللّمس، لكنَّ اللّمس قد يُقال لطلب الشّيءِ

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي: (شرب).
(2) ابن منظور، لسان العرب، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والكَفَويّ، الكلّيّات، ص: 539، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 177.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المُفردات: (سقي).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (سقي).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (سقي).
(6) ابن منظور، لسان العرب، والجوهريّ، الصّحاح، والزّبيديّ، تاج العروس: (قوت)، والكَفَويّ، الكلّيّات، ص: 539.

وإنْ لم يوجد(1)، فالمَسّ يُقال فيما يكون معه إدراكٌ بحاسّة اللَّمس، وهي الحاسَّة الشُّعورية الكائنةُ في ظاهر الجسد، وأَخَصُّها ما كان باليد(2)، ولدِقَّة الشُّعور المنبعِث من كلمة (المَسّ) صار يُطلق مجازًا وكنايةً على أشياء كثيرةٍ؛ فقد كُنّي به عن النّكاح، فقيل: مسَّها وماسَّها، قال تعالى: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ [البقرة: 237]، وكُنّي في القرآن الكريم بالمسّ عن الجنون، قال تعالى: ﴿كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ [البقرة: 275] والمسّ يُقال في كلّ ما ينال الإنسان من أذى، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ [البقرة: 80]، وقال: ﴿مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ﴾ [البقرة: 214](3)، وقد أُنيط النَّهي في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾ بالمَسِّ - دون اللّمس - لأنَّ النّهيَ مُنصَبٌّ على المسِّ بسوء وليس مجرد المسّ وإلا أغنَى اللّمس عنه، كما تقدَّمتْ نكتتُه في التَّفسير.

(1) الرّاغب، المُفردات: (مسس).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (لمس).
(3) الرّاغب، المُفردات: (مسس).

﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُواْ نَٰدِمِينَ ١٥٧ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ١٥٨ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ١٥٩﴾ [الشُّعراء: 157 - 159]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

الظّالم لا يسُرُّه أبدًا مُعاينةَ أدلةِ ظُلمه وبراهينِ إدانته

بعد أنْ أُجيبت ثمود إلى ما طلبَتْه على سبيل التّحدّي والتّعجيز، من الإتيان بآيةٍ تكون دالَّةً على صدق نبيِّهم صالحٍ عليه السلام - والأظهر أنّهم هم مَن عيَّنوها - أخرج اللّه لهم النّاقةَ من بين صخر الجبال وفق ما طلبوا، فدعاهم نبيُّهم لرؤيتها، وحذَّرهم من المِساس بها بما يَسوؤهم، لكنْ لكونهم لم يتوقَّعوا أنْ يُجابوا إلى ما طلبوه تعجيزًا، فقد أُسقِط في أيديهم، ولكونهم كانوا مُصرّين على الكفر، فإنَّ وجود هذه الآية أمامَهم كان يُزعجهم ويُذكّرهم بجحودهم وانهزامهم أمامَ صالحٍ عليه السلام، فعملوا على التّخلُّص منها، وخيانةِ عهدهم معه عليه السلام؛ فعقروها؛ فأنزل اللّه بأسَه الّذي توعّدوا به من قبل، فلمّا عاينوهُ ندموا، ولاتَ ساعةَ مَندَم، فأخذهم العذابُ ليكون في ذلك عبرةٌ لكلّ الظّالمين.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَعَقَرُوهَا﴾: أصلُ العَقْرِ: الجَرْحُ أوْ ما يُشبِهُ الجَرْحَ من الهَزْمِ في الشَّيْءِ[1]، والعَقْر عند العرَب كَشْفُ عرقوب البَعير، ثم جُعِل النَّحرُ عقْرًا؛ لأنَّ العَقْر سببٌ لنَحْرِه، وناحِرُ البعير يعْقِره ثمَّ يَنحَرُهُ[2]، والعَقيرةُ السّاقُ المَقْطوعةُ، يُقال: عَقَرتُ الفَرَسَ بالسَّيف: إذا ضَربتَ قوائمَهُ[3]، والعَقّارُ: الَّذي يَعْنُفُ بِالإبِلِ لا يَرْفُقُ بها في

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (عقر).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (عقر).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (عقر).

أَقتابِها فتُدْبِرَها، ومِنَ البابِ: العاقِرُ مِنَ النِّساءِ، وهي الَّتي لا تَحْمِل؛ وذلك أَنَّها كالمَعقورَة[1]، والمُراد بالعَقْرِ في الآية: ضَرْبُ النّاقة بِالسَّيْفِ على عَراقيبِها لِتَسْقُطَ إلى الأَرْضِ جاثيةً، فيتمكَّنَ النّاحِرُ مِنْ نَحْرِها[2].

2) ﴿نَٰدِمِينَ﴾: أصلُ (ندم) يدُلُّ على تَفَكُّر في شيءٍ قَدْ كانَ، يُقالُ: نَدِمَ عليهِ نَدَمًا ونَدامَةً[3]، والنَّدَمُ والنَّدامَةُ: التَّحَسُّر من تغيُّر رأي في أمرٍ فائِتٍ[4]، ونَدِمَ على الشَّيءِ، ونَدِمَ على ما فعل نَدَمًا ونَدامةً وتَنَدَّمَ: أَسِفَ[5]، وأصله من مُنَادَمَةِ الحزن له[6]؛ وعليه فالنَّدَمُ في الآية مُرادٌ به: الأَسَفُ على فِعْلٍ صَدَرَ[7].

۞ المعنى الإجمالي:

بعد نزول الآيات ينقطع اعتبار العذر

لما طلب قوم لوط منه ﷺ آية جاءهم بما طلبوا، ونهاهم عن مسها بسوء، ولكنهم اعتدوا عليها فذبحوها، ثم ندموا على فعلهم عند معاينة العذاب، وأيقنوا أن العذاب نازل بهم، ولم ينفعهم الندم لأنَّ العذاب قد حل بهم سريعًا، فاللّٰه سبحانه المنيع بالنقمة لمن لم يعظم آيات اللّٰه تعالى، الرَّحيمُ لمن تاب ورجع[8].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى (الفاء) في قوله: ﴿فَعَقَرُوهَا﴾:

الـدّلالـة على سرعة المُخالَفة بـالإقـدام على عَقْر النّاقة

في الفاءِ الواردة في قوله: ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ قولان؛ أَوّلُهما وأَوْلاهما أَنَّها عاطفةٌ، والمعطوف عليه محذوفٌ لظهوره، تقديره: فكذَّبوه

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عقر).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 202.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ندم).
(4) الرّاغب، المُفردات: (ندم).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (ندم).
(6) الرّاغب، المُفردات: (ندم).
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 232.
(8) السمرقندي، بحر العلوم: 2/ 564، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 232، والزحيلي، التفسير المنير: 19/ 201.

﴿فَعَقَرُوهَا﴾[1]، والتَّعبير بالفاء على هذا يدلُّ على سُرعة مخالفتهم لنبيِّهم، بإقدامهم على عَقْر النّاقة مع تسبُّب العَقْر لها عن التَّكذيب، ويرى بعضهم أنَّ الجملة معطوفةٌ على جملة: ﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ﴾ فلا محلَّ لها من الإعراب[2]. ومعنى ذلك أنّه لم يطل صبرُهم عن عقرها، بعد أنْ قال لهم صالحٌ ؈: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ﴾، وثانيهما: قيل: إنها استئنافيّةٌ، والجملة بعدَها مُستأنَفةٌ، لا محلَّ لها من الإعراب[3].

دلالةُ التَّعبيرِ بالعَقْرِ:

إطلاقُ العَقْرِ على النَّحرِ كنايةٌ

العَقْرُ كالجَرْحِ، يُقال: عَقَرْتُ الفرسَ؛ أيْ: كَسَعْتَ قوائمَه بالسَّيف، وفرس عَقير ومعقور[4]، والمُراد: الجَرْح البليغ الغائر، قال امرؤ القيس:

تقولُ وقد مالَ الغَبيطُ بنا معًا *** عقَرتَ بَعيري يا امرأَ القيسِ فانزلِ

أيْ: جرحتَه باحتكاك الغَبيط في ظهره من ميله إلى جهةٍ، ويُطلق العَقر على: قطع عُضْوِ الحيوان، ومنه قولهم: عقرَ حمارَ وحشٍ؛ أيْ: ضربَه بالرُّمح فقطعَ منه عضوًا، وكانوا يَعقِرون البعير المُراد نحرُه بقطع عضو منه حتّى لا يستطيع الهروبَ عندَ النَّحر؛ فلذلك أُطلِق العقرُ عن النَّحر على وجه الكناية في هذه الآية، ومنه قول امرئ القيس أيضًا:

ويومَ عَقَرتُ للعَذارَى مَطيَّتي[5]

دلالةُ إسنادِ الفعلِ إلى ضميرِ جماعتِهم في: ﴿فَعَقَرُوهَا﴾:

الرِّضا بالفعلِ والتّدبيرُ له مشاركةٌ للفاعلِ في فعلِهِ

أُسنِد العقرُ إلى ضمير جماعتهم، وإنْ كان الفاعل المباشِرُ أحدَهم وليس جميعَهم؛ لأنّهم كانوا راضينَ ومُشاركينَ في التَّدبير، وأنَّهم هم الَّذين انتخبوا أشقاهُم ليقومَ بهذه المهمَّة، وقد دلَّ على

(1) ابن جرير، جامع البيان: 15/ 372.
(2) الخطيب وآخران، التَّفصيل في إعراب التَّنزيل: 19/ 222.
(3) الخرّاط، المُجتبَى من مُشكل إعراب القرآن: 3/ 850، وصافي، الجدول في إعراب القرآن: 19/ 112.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عقر).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8 - ب/ 225.

ذلك قولُه تعالى: ﴿فَنَادَوۡاْ صَاحِبَهُمۡ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ٢٩﴾ [القمر: 29] وقوله سبحانه: ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِطَغۡوَىٰهَآ ١١ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا ١٢﴾ [الشَّمس: 11 - 12] أي: أشقى القبيلة، الَّذي انتُخِب لعَقر النّاقة، وقد بعثوه لأجل هذا، فالفعلُ ﴿ٱنۢبَعَثَ﴾ [الشمس: 12] مُطاوِعُ بعث؛ أيّ: بعثوه فطاوعهم وانبعث ولم يتردَّد، بل سارع إلى عقرها، فدلَّ هذا على أنَّه لم يُباشر عقرَها إلّا بموافقتهم وطلبهم ورضاهم، ولذا أسنِدَ العقر إليهم وإنْ كان الأشقى فاعلَ العَقْر المُباشِر.

معنى (الفاء) في قوله: ﴿فَأَصۡبَحُواْ﴾:

العجلة والتسرّع بريد الخطايا

الفاء للعطف، عطفتْ جملة: ﴿فَأَصۡبَحُواْ نَٰدِمِينَ﴾ على جملة: ﴿فَعَقَرُوهَا﴾، والفعل (أصبح) هنا فعلٌ تامٌّ[1]، و﴿نَٰدِمِينَ﴾ حالٌ من الفاعل بيانٌ لهيئتهم عند الصَّباح، فلا تحتاج إلى ما تحتاج إليه النّاقصةُ من الاسم والخبر، والتَّعبير بالفاء يدلُّ على التسبُّب والسُّرعة أيضًا؛ إذ بمُجرَّد العَقر لها صاروا نادمين.

لطيفةُ تقييدِ النّدامةِ بالإصباحِ:

وقوعُ الهلاكِ صباحًا أنكى وأشدُّ إيلامًا

قيَّد ندمَهم بالإصباح في قوله: ﴿فَأَصۡبَحُواْ نَٰدِمِينَ﴾؛ لأنَّ العذاب قد حلَّ بهم صباحًا، فلمّا عاينوه أبدَوا ندمهم، كما دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُصۡبِحِينَ ٨٣﴾ [الحِجر: 83]، ووقوعُ العذاب صباحًا يَستدعي الرُّؤيةَ للعذاب النّازل بهم، فيكونُ مصحوبًا بهَوْل المُفاجأة، فيَتضاعفُ إيلامُه، كما قال سبحانه أيضًا عن هلاكِ قوم لوطٍ ﷺ: ﴿وَقَضَيۡنَآ إِلَيۡهِ ذَٰلِكَ ٱلۡأَمۡرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقۡطُوعٞ مُّصۡبِحِينَ ٦٦﴾ [الحِجر: 66].

إشارةُ إسنادِ الفعلِ إلى ضمير الجمع في: ﴿فَأَصۡبَحُواْ﴾:

المعاينةُ الجماعيّةُ للعذاب نتيجةُ الاتفاق الجماعيِّ على العصيان

أُسنِد الفعل إلى ضمير الجماعة في: ﴿فَأَصۡبَحُواْ﴾ للدَّلالة على أنَّ ما حلَّ بهم كان هلاكَ استئصال، لم يَستَثنِ منهم أحدًا، فكلُّهم

(1) الخطيب وآخران، التَّفصيل في إعراب التَّنزيل: 19/ 222.

استيقظوا على هول المفاجأة، وكلُّهم عاينوا العذاب وأيقنوا أنَّهم هالكون، وكلّهم ندِموا على ما فرَط منهم؛ لأنَّهم لم يملِكوا في هذا الوقت سواه، لكنَّه النَّدم في الوقت الَّذي لا يصلح فيه النَّدم؛ لأنَّ النَّدم وما يَتْبعه من توبة، لا يُجدي نفْعًا عند معاينة العذاب، كما قال سبحانه عن توبة فرعونَ حين عاينَ الغرق: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٩٠ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٩١﴾ [يونس: 90 - 91].

نكتةُ التَّعبيرِ باسمِ الفاعلِ: ﴿نَٰدِمِينَ﴾:

الـدّلالـةُ على صـدقـهـم في إعلان النَّدم

عبَّر عن ندمهم باسم الفاعل وليس بالفعل (ندِموا) فلم يقل: (فأصبحوا وقد ندِموا) للإشعار بأنَّهم في هذا الوقت كانوا أصدقَ ما يكونون مع أنفسهم، وأنَّ إعلانَهم النَّدم كان حقيقةً راسخةً في قلوبهم، وما ضرّهم في عدم قبوله منهم إلّا تأخيرُهم إيّاه إلى الوقت الَّذي لا يُتقبّلُ فيه توبةٌ ولا ندمٌ، كما أفاد الحالُ ﴿نَٰدِمِينَ﴾ بيانَ هيئتهم عندما أصبحوا، فلم يكن النَّدمُ عند العَقر وإلا غُفِر لهم، بل اعتراهم النَّدم في حالةِ رؤية العذاب صباحًا، ومن ثمَّ لم ينفعْهم ندمُ الخوفِ على أنفسهم.

توجيهُ سببِ مُعاقبتِهم مع ندمهم:

ندمُ التَّوبةِ وندمُ الخوفِ

قال الرّازيّ في توجيهِ مُعاقبتهم مع أنّهم ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصۡبَحُواْ نَٰدِمِينَ﴾: "فإنْ قيلَ لِمَ أخذهم العذاب وقد ندِموا؟ فجوابه من وجهيْن؛ **الأوّل**: أنّه لم يكن ندمُهم ندمَ التّائبين؛ بل ندمُ الخائفين من العذاب العاجل، **والثّاني**: أنّ النَّدم وإن كان ندمَ التّائبين، ولكن كان ذلك في غير وقت التَّوبة، بل عند مُعايَنةِ العذاب، وقال تعالى: ﴿وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ﴾ [النساء: 18]"[1].

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 525.

معنى (الفاء) في قوله: ﴿فَأَخَذَهُمُ﴾:

(الفاء) عاطفةٌ، عطفَتْ جملة: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ﴾ على جملة: ﴿فَأَصۡبَحُواْ نَٰدِمِينَ﴾ وإيثارُها في العطف لدلالتها على التَّرتيب والتَّعقيب والفوريّة؛ أيْ: لم يُمهلهم العذابُ فأخذهم أخذًا سريعًا، فقد أمهلهم اللّه من قبلُ فما زادَهم إلّا جحودًا.

سرعةُ إهلاكِهم بعد أنْ غرَّهم إمهالُ الله لهم أيّامًا

بلاغة الاستعارة في قوله: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ﴾:

أصلُ الأخذ تناولُ شيءٍ باليد[1]، لكنّه يخرجُ كثيرًا عن هذا الأصل إلى معانٍ مَجازيَّة يدلُّ عليها السّياق، ومنها ما وقع هنا، حيث استعمل لفظ (أخذهم) مُرادًا به إيقاع العذاب، على سبيل الاستعارة التصريحيَّة التَّبَعيَّة، فدلَّ التَّعبير بقوله: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ﴾ على أنَّ العذاب قد أخذهم فجأةً وقتَ الصَّباح أخذًا سهلًا سريعًا، تشبيهًا له بمَن يتناول بيده شيئًا سهْلَ الأخذ، ومع كونه كذلك فهو أخذ شديدٌ؛ كما قال تعالى مُصوِّرًا أخذَه للظّالمين: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ ١٠٢﴾ [هود: 102].

فـي التَّعبير بالأخذ استعارةٌ تصريحيّةٌ تَبَعيّة

دلالةُ إسنادِ الأخذِ إلى العذاب:

إسنادُ الأخذِ إلى العذاب في قوله: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ﴾ إسنادٌ مَجازيٌّ؛ أيْ: مجاز عقليٌّ، وهو أحد احتمالات ثلاثة للمجاز في هذه الجملة؛ **الأول**: المجاز العقليّ، بأن أُسنِد الأخذُ إلى العذاب، مع أن الآخِذ لهم في الحقيقة هو اللّه تعالى، وما العذاب إلّا وسيلةٌ من وسائل انتقامه، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ ١٠٢﴾ [هود: 102]، وقال سبحانه: ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذۡنَٰهُمۡ أَخۡذَ عَزِيزٖ مُّقۡتَدِرٍ ٤٢﴾ [القمر: 42]، **والثّاني**: الاستعارة التَّصريحيَّة التبعيَّة في: ﴿فَأَخَذَهُمُ﴾، حيث استُعير لفظ (أخذهم) مُرادًا به إيقاعُ العذاب، على سبيل الاستعارة التَّصريحيَّة التَّبَعيَّة.

فـي المجاز تجسيدٌ للمَعنى وتشخيصٌ له

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8ب/ 227.

والثّالث: الاستعارة المَكنيَّة في كلمة ﴿ٱلۡعَذَابُ﴾، وذلك بأنْ وقع تشبيهُ العذاب بعاقل يملكُ بإرادته أنْ يوقِع الهلاك بالُمراد إهلاكُهم، ثمَّ حذف المشبَّه به، ودلَّل عليه بشيء من لوازمه، وهو الفعل (أخذهم)؛ لأنَّ أصل معنى الأخذ التّناول باليد، وهذا لايكون إلّا من العاقل.

معنى التعريف بـ(أل) في كلمة ﴿ٱلۡعَذَابُ﴾:

(أل) في ﴿ٱلۡعَذَابُ﴾ للعهد، والمعهود هو العذاب[1] الَّذي توعّدوا به في قوله سبحانه: ﴿فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ [الشّعراء: 156] وهو العذاب الَّذي استأصل كلَّ الكافرين، وهي الصّاعقة، ولم ينجُ منها إلّا المؤمنون وهم قليلٌ، كما حكى القرآن ذلك في قوله سبحانه: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ فَأَخَذَتۡهُمۡ صَٰعِقَةُ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ١٧ وَنَجَّيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ١٨﴾ [فُصِّلت: 17 - 18].

دلالة التَّعبير بلفظ ﴿ٱلۡعَذَابُ﴾:

لفظ العذاب أعَمُّ من العقاب باعتبارٍ وأخصُّ باعتبارٍ آخَرَ

أوثِر التَّعبير بـ ﴿ٱلۡعَذَابُ﴾ دون قرينِه الدّلاليِّ وهو لفظ (عقاب)؛ لأنّ ﴿ٱلۡعَذَابُ﴾ هو اللّفظ الأوسعُ معنًى، فيشملُ ما دلَّ عليه العقاب وزيادةً، وذلك أنَّ أهل اللّغة قائلون في الفرق بين العقاب والعذاب بأنّ العقاب يُنبِىء عَن اسْتِحْقاق، وسمّي بذلك لأَن الفاعِل يسْتَحقّهُ عَقيبَ فِعلِه، أمّا العذاب فيجوز أَن يكون مُسْتَحقّا وغيرَ مُستحَقٍّ[2]، ومعنى هذا أنَّ بين العقاب والعذاب - من حيث اللّغة - عمومًا وخصوصًا مُطلَقًا، فكلُّ عقاب عذابٌ، وليس كلُّ عذاب عقابًا.

العقاب قد يتحمّله المُعاقَبُ، بخلاف العذاب الَّذي يفوق الاحتمال

العقاب قد يكون سهلًا يتحمّله المعاقَبُ نوعَ تحمُّل، بخلاف العذاب الَّذي يدلُّ على الشَّديد من العقوبة، وبهذا الاعتبار يكون العذاب أخصَّ من العقاب، أمّا عن عذاب اللّه في الآخرة، فلا فرقَ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 329.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 239.

بينه وبين العقاب؛ لأنَّ اللّه تعالى لا يُعَذِّب إلّا عن استحقاق، ولعلَّ إيثارَ لفظ ﴿ٱلۡعَذَابُۚ﴾ هنا مناسبٌ للاستئصال؛ لأنَّه يشمل المستحِقَّ للعذاب كالمباشِر لعَقر النّاقة ومن معه وغيرَ المباشِر له.

نكتةُ الفصل في قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ﴾:

الاستئنافُ تسليةٌ للنَّبيِّ ﷺ وتهديدٌ لمُشركي العرب

قوله سبحانه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ﴾ جملةٌ مستأنَفةٌ استئنافًا ابتدائيًّا فُصِلتْ عمّا قبلها، وهدفُه الإرشادُ إلى موطِن العِبرة في إهلاكِهم، ليَفيدَ منه كلُّ مَن يصلحُ للاعتبار، وفي ذلك تسليةٌ للنَّبيِّ ﷺ بما تحقَّق من نصر النَّبيّ صالح عليه السلام على قومه الكافرين، وتهديدٌ لمشركي العرب بما جرى سابقًا لقوم ثمودَ.

دلالة ﴿فِي﴾ الجارة:

الظّرفيّة دالّةٌ على التّمكُّن والكفاية

﴿فِي﴾ في قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ﴾ للظَّرفيَّة المَجازيَّة، والتَّعبير بها مفيد للتمكُّن والكفاية والشّمول؛ أيْ: فيما وقع لهم من عذابٍ ما يَكفي للاعتبار والاتّعاظ لكلِّ كافر باللّه، متمرِّد على رسلِ اللّه عليهم السلام.

نكتةُ التَّعبير بإشارة البعيد:

التَّبعيدُ للمُشارِ إليه تعظيمٌ وتفخيم

الإشارة بـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ للإيذان ببُعد منزلةِ هذا العذاب؛ تعظيمًا لشأنه وتفخيمًا له لغرابة ما حلَّ بهم من عذاب الاستئصال، فالإشارة في ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى العذاب في قوله سبحانه: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ﴾، وهي الصّاعقة الّتي أهلكَتْهم واستأصَلَتْهم.

نكتةُ الجمعِ بين المؤكِّداتِ:

توالي المؤكِّداتِ لتنزيلِ غيرِ المُنكِر منزلةَ المنكِر

نلحظُ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ﴾ اجتماعَ أربع مؤكِّدات، وهي ﴿إِنَّ﴾ المؤكِّدة الَّتي تفيد تحقيقَ ثبوتِ الخبر للمبتدأ وتقريرَه، و(اللّامُ المزحلَقة) الَّتي أصلها لامُ الابتداء وزُحلقت كراهةَ اجتماع مؤكِّدَين أوّلَ الكلام، و(تقديمُ الخبر) الظَّرفيِّ على اسم إنَّ، و(اسميَّةُ الجملة)، وما كلُّ هذه المؤكِّدات المتوالية إلّا لمواجَهةِ الإنكار من المُخاطَبين زمنَ النُّزول، مع أنَّ العرب كانوا يعرفون بما جرى

لقوم ثمودَ من عذاب، لكنَّ النَّظمَ الكريمَ نزَّل غيرَ المُنكِر منزلةَ المُنكِر؛ لأنَّهم لا يفعلون ما يجبُ عليهم فعلُه من الإيمان بالنَّبيِّ محمَّد ﷺ.

التَّعبير بـ(الآية) أخصُّ من التَّعبير بـ(الدَّليل)

نكتة التَّعبير بـ ﴿لَآيَةً﴾:

عبَّر بـ ﴿لَآيَةً﴾ دون (دليل)؛ لأنَّ التَّعبير بالآية أخصُّ منه، إذ الدَّليل قد يكون يقينيًّا وظنّيًّا وظاهرًا وخفيًّا، في حين أنَّ الآية تكون ظاهرة واضحة قطعيَّة الدّلالة على معناها، وكلُّ هذه الدّلالات والمعاني متوفِّرة في عذاب الاستئصال الَّذي حلَّ بثمودَ قومِ صالحٍ عليه السلام.

التَّنكيرُ بين التَّعظيمِ والتَّنويعِ

دلالةُ التنكيرِ في قوله: ﴿لَآيَةً﴾:

نكَّر كلمة ﴿لَآيَةً﴾ تفخيمًا لأمرِها وتهويلًا لشأنها، وأنَّها وحدَها لِعظَم ما فيها كافيةٌ في ردع الكفّار عن كفرهم، ويحتملُ أنَّ التَّنوين فيها للتَّنويع؛ أيْ إنَّها آيةٌ وعلامةٌ من نوعٍ خاصٍّ لم يرَوْهُ مُسبقًا ولم يطَّلعوا عليه في سابقِ أيّامِهم.

البقاء على الكفر مع رؤية الآيات سِمةُ الأقوام السّابقين

معنى الوصل في: ﴿وَمَا كَانَ﴾:

(الواو) عاطفةٌ لجملة: ﴿وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ على جملة: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾، وفي هذا العطف بيانٌ لموقف أكثرِ الناس من رؤية الآيات البيّنات؛ فإنَّهم بدلًا من الإيمان والنّدم والرُّجوع إلى اللّه يَمضون على كفرِهم ويَستمرّون في ضلالهم، وعطفُ المنفيِّ على المثبَت يفيدُ حالتين متناقضتين، هما وجود الآيات المثبَتة ووجود النّاس المنكِرة، فيكون هنالك تصويرٌ عميق لِمَدَيات الضَّلال وأبعاده، وقيل: هي واو الحال[1]. فتفيد التَّقييدَ والتَّخصيص للجملة السّابقة عليها، مع بيان قسوة قلوبهم المُزامنة لنزول العذاب وبقائِهم على الكفر.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 102، والخطيب وآخران، التَّفصيل في إعراب التَّنزيل: 19/ 108.

دلالة (ما) في قوله سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ﴾:

النَّفيُ المقترنُ بالماضي دليلُ الرّسوخِ والثّبات

(ما) في قوله سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم﴾ نافيةٌ، نفَتِ الإيمان عن أكثرهم، وأُقحِمت ﴿كَانَ﴾ بعدها للتّأكيد كما هو رأيُ سيبويه والمُحقِّقين، لتفيدَ عراقةَ ورسوخَ عدمِ الإيمان لأكثرهم، حتّى إنّ قلوبهم لا تستشعر عِظَمَ الآيات وشدّة المنبِّهات وتوالي العلامات.

دلالةُ التَّعبيرِ بالكثرةِ:

القلّةُ المؤمنةُ منتصِرةٌ على الكثرةِ المُنحرفةِ

نفى الإيمانَ عن أكثرهم في قوله: ﴿وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم﴾ إنصافًا واحتراسًا، وفيه تنبيهٌ على أنَّ قليلًا منهم كانوا مؤمنين بصالح عليه السلام، وفي التَّعبير بالكثرة تطمينٌ للقلّة المؤمنة بالنَّبيِّ ﷺ بأنَّهم النّاجون والمنتصِرون على الكثرة المنحرفة والضّالَّة، وعبَّر بصيغة (أفعل) في ﴿أَكۡثَرُهُم﴾ تمييزًا لغير المؤمنين عن المؤمنين ببيان أنّهم الأكثر عددًا والأكثر خسرانًا.

نكتةُ إضافةِ الكثرةِ إلى ضميرِ (هم):

التفوُّقُ العدديُّ لأهلِ الكفرِ ناجمٌ عن غلبة سُلطانِ الهوى والغفلة

الضَّمير في قوله: ﴿وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم﴾ عائدٌ إلى المُخبَر عنهم وهم قومُ ثمود، وفي إضافة الأكثر إلى ضمير (هم)، تسجيلٌ على أكثرهم بالكفر[1]. وهذا دأبُ أهلِ الكفر في كلِّ زمان، أنَّهم أكثرُ عددًا لغلَبة سُلطان الهوى والغفلة على عقولِهم وأفئدتهم، كما قال سبحانه: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ٨٢ يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٨٣﴾ [النحل: 82 - 83].

دلالة التَّعبير بالإيمان:

توبيخُهم على عدمِ الإيمانِ وإيثارِهم الكُفرَ عليه

عبَّر عن أكثرهم بنفي الإيمان، دون أنْ يُعبِّر بإثبات الكفر لهم، فلم يقل: (وكان أكثرهم كافرين) إبرازًا لصفة الإيمان، وتقبيحًا لحالِهم أنّهم لم يكونوا مؤمنين، وتوبيخًا لهم على ذلك، وأيضًا مدحًا

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 142.

للقلّة منهم الَّذين آمنوا، فصفتُهم هي الأجدر بالذِّكر والإبرازِ، كما أنَّ المُناسبَ لذِكر الآية الَّتي هي مدعاةٌ للإيمان أنْ يُنفَى الإيمان معَ وجودها دونَ إثبات الكفر لأكثرهم بها.

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ اسم الفاعل:

نفي حدوثِ الإيمانِ واستمرارُه مع رؤية الآيات

عبّر بصيغة اسم الفاعل في ﴿مُّؤۡمِنِينَ﴾ حين نفى عن أكثرهم أن يكونوا كذلك، تنبيهًا على أنّ عِظَم الآيات وتوالي البيِّنات ووضوحَ البراهين لم تجعلْهم يُحدِثون الإيمانَ في قلوبهم، ويُحدِّثون نفوسهم به أدنى حديث، أوْ حتّى إنّهم لم يُتعبوا عقولَهم بوظيفة الإيمان وأهمّيّته في حياتهم، بل استمرّوا على حالة الكفر وثبَتوا على الضّلال والانحراف.

معنى (الواو) بين العطف والحال:

(الواو) في قوله سبحانه: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ هي واو الحال؛ أيْ: والحال[1] والشَّأن أنَّ ﴿رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ أو هي العاطفة بأنْ عَطفت هذه الجملة على سابقتها[2]. وسواءٌ كانت للحال أو للعطف فإنّ الجملة أفادت عِزَّة اللّه تعالى وقوَّتَه، فلا يضرُّه كفرُ الكافرين ولا ينفعه إيمانُ المؤمنين، وأنَّه رحيمٌ بعباده المؤمنين يعاملهم برحمته وينجّيهم من عدوِّهم.

دلالةُ المؤكّداتِ في الآية:

توالي المؤكّداتِ تصويرٌ لكمال الصِّفات

في جملة ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ توالت عدّة مؤكّدات لتقرير ما تضمنه وصفُه سبحانه بالعزَّة والرَّحمة، وهي: تصديرُ الجملة بـ (إنَّ) التَّوكيديّة، واسميَّةُ الجملة، وإدخالُ اللّام على الخبر، وإيرادُ ضمير الفصل، ثُمّ خَتْمُ الجملة بالوصفين الجليلين ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ مُعرَّفَين بالألف واللّام، فهذه كلُّها مؤكِّدات سيقت

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 14/ 11.
(2) الخطيب وآخران، التَّفصيل في إعراب التَّنزيل: 19/ 109.

في الجملة لتأكيد أنَّه سبحانه القادرُ على إهلاك من شاءَ وتقريرِه، وأنَّه إنْ أخَّر إهلاك الظّالمين فلمَحْض رحمتِه بهم بإمهالِهم، لعلَّهم يعودون فيُؤمنون ويَشكرون.

دلالةُ إيرادِ المُسنَد إليه مُضافًا بعنوان الرّبوبيّة:

تشريفُ النَّبيِّ ﷺ بالرِّعاية والعناية الإلهيَّة

أوردَ المُسنَد إليه مضافًا بوصف الرُّبوبيَّة في قوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ﴾، تنبيهًا إلى أنَّ إنعامه سبحانه ورحمتَه بعباده قد سبق نِقمتَه عليهم، وأنَّ عفوَه سابقُ عقوبتِه، "وفي التعرُّض لوصف الرُّبوبيَّة مع الإضافة إلى ضميره ﷺ من تشريفه والعِدَة الخفيَّة بالانتقام من الكفرة ما لا يخفى"[1]، كما أفادت الإضافة أنّ اللّه تعالى يتولَّى نبيّه محمَّدًا ﷺ بالرِّعاية والعِناية، ويُبلّغه مقاصده وأهدافه؛ لأنَّه ربُّه ومالكُه وسيِّدُه.

معنى (اللّام) في قوله: ﴿لَهُوَ﴾:

(اللّام) في قوله: ﴿لَهُوَ﴾ هي اللّام المُزحلَقة، كاللّام في قوله سبحانه: ﴿لَآيَةً﴾ وهي تفيد التَّأكيد.

دلالة وقوع الخبر بعد ضَّمير الفصل:

الضَّمير (هو) إمّا أن يكون ضمير الفصل، ولا محلَّ له من الإعراب[2]، وفائدته حالَئذٍ الدّلالة على القَصْر والحَصْر، كما حقّق ضميرُ الفصل تمييزَ الخبر عن احتمال النَّعتيَّة به، ومن ثَمَّ سُمّي فصلًا؛ أيْ: بينَ النَّعت والخبر، ويجوز أن يكون في محلّ رفع مبتدأ، وما بعده خبرُه، والجملة بأكملها حينئذٍ خبرٌ للمبتدأ ﴿رَبَّكَ﴾.

دلالةُ القصرِ في الجملة:

لله تعالى الكمالُ المُطلَقُ في ذاتِه وصفاتِه وأفعالِه

في قوله تعالى: ﴿لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ قَصْرٌ للصِّفة على الموصوف، فلا أحدَ يجمعُ بين صفتي العزّة والرّحمة بكاملِ القدرة

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 235.
(2) الخطيب وآخران، التَّفصيل في إعراب التَّنزيل: 19/ 109.

المطلقة عليهما والتمكُّن المطلقِ فيهما إلّا اللّه تعالى، فهو سبحانَه عزيزٌ في رحمته، رحيمٌ في عزّته، وسائرُ مَن يكون فيه شيءٌ من هاتَين الصِّفتين، فإنَّه من العسير عليه أن يجمعَ بينهما، بل يغلبُ عليه إحداهما، وبقدرٍ يناسبُه كمخلوق، أمّا اللّه تعالى فله الكمالُ المطلقُ في ذاته وصفاته وأفعاله.

دلالةُ التعريفِ في قوله: ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾:

في تعريف قوله: ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أيضًا دلالةٌ على القَصر بتعريف كلٍّ من المُسنَد إليه والمُسنَد، فيفيد ثبوتَ الكمال المطلق للّه في صفاته كلِّها، ومنها هاتان الصِّفتان الجليلتانِ اللّتان اقتَصر عليهما لدلالة السّياق.

وجهُ مناسبةِ العزّة للرّحمةِ:

الجمع بين هاتيْن الصّفتيْن لدفع توهُّم وجود التّناقض بينهما

جمع سبحانه بين هاتين الصِّفتين لما قد يُتوهّم أنَّ بينهما تضادًّا، وأنَّ العزّة تُنافي الرّحمة، والرّحمة كذلك تُنافيها، فكشف اللّه تعالى بذكرهما معًا أنَّ عزَّته سبحانه لا تُنتِجُ القسوة الظّالمة، فهي العزّةُ العادلة، بل العزّة الرَّحيمة؛ لأنَّه سبحانه غنيٌّ عن الظُّلم، لكنَّها في نفس الأمر عزّةٌ تُثبِّت مظاهر الهيبة والجلال الإلهيِّ في النُّفوس، وكذلك رحمته وعطفه وشفقته بخلقه لا تعني بحالٍ التهاونَ والمساواة بين المؤمنين وغيرهم، والمصلحينَ والمفسدين، بل هي الرّحمة العزيزة العادلة، بل المتفضِّلة حسْبما تقتضي حكمتُه سبحانه، وبذلك يظهر أنّ سرَّ التناسُب في الجمع بين الصّفتين هو دفع توهُّم وجود التناقض بينهما، بحيث يُتوهَّم تنافي اجتماعهما في موصوف واحد، ومعروفٌ أنَّ صفاتِه سبحانه تجمع بين مظاهر الجلال ومظاهر الجمال، وفي كُلٍّ بلغ الكمالَ الّذي يليق بذاته المقدَّسة.

نكتةُ التقديمِ بينَ الوصفَين:

قدَّم النظم المُعجِز صفةَ ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ على صفة ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾؛ لأنَّه لو

لم يُقدِّمه لكان ربّما قيل توهُّمًا: إنّه رحِمهم لعجزه عن عقوبتهم، فأزال هذا الوهم بذكر العزيز وهو الغالب القاهر، ومع ذلك فإنّه رحيم بعباده، وأيضًا فإنّه لما كان السّياق موضع بيان القدرة، كان من الأنسب تقديمُ صفة العزّة على صفة الرَّحمة؛ فالرّحمة إذا كانت عن قدرة، كانت أعظمَ وقعًا وأنفَذَ أثرًا، والمعنى أنه عزَّ في نقمته من الكفّار، ورحِم مؤمني كلِّ أمَّة[1]. كما أنّ السّياق ورد في مقام العذاب للكافرين والنَّجاة للمؤمنين، وكان العذاب سابقًا ومتقدِّمًا، فقدّم صفة العزَّة والقوَّة على صفة الرَّحمة، تناسبًا مع نزول العذاب بالكافرين وتنجية المؤمنين منه.

الأنسبُ بالمَقامِ تقديمُ صفةِ (العزيز) على صفة (الرَّحيم)

براعة خَتمِ الآية والقصّة بصيغتَي فعيل:

قوله سبحانه: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ تذييلٌ لهذا الخبر: بوصف اللّه بالعِزّة، أيِّ تمامِ القدرة، فتعلمون أنّه لو شاء لعجَّل لهم العقاب، وبوصف الرّحمة؛ إيماءً إلى أنَّ في إمهالهم رحمةً بهم لعلّهم يشكرون، كما قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَفُورُ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۖ لَوۡ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلۡعَذَابَۚ﴾ [الكهف: 58][2] وفي الجمع بينهما ما يدلُّ على مناسبة هاتين الصّفتين الجليلتين مع عدم تعجيل العقوبة لهم وإمهالِ الكافرين على كفرهم.

مناسبةُ الصّفتيْن الجليلتيْن لانتفاء تعجيل العقوبة وإمهال الكافرين

۞ الفُروقُ المُعجَميَّة:

الأخذ والتَّناول:

الأخذُ مصدرُ أخذْتُ بيدي، ويُستعار فيُقال: أخذه بلسانه إذا تكلَّم فيه بمكروه، وجاء بمعنى العذاب في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ﴾ [هود: 102]، وأصله في العربيَّة: الجمع، ومنه قيل للغدير: وخذ وإخذٌ[3]. والتَّناول يقتضي أخذَ شيء يُستعمَل في أمرٍ من الأمور، وهو

الأخذُ أعمُّ من التَّناول مُطلقًا

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 142، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 492.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 102.

(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 138.

كالأخذ يُستعملُ مع الإنسان فيقال: تناول زيدٌ كذا، وأخذ زيد كذا، ولا يُستعمل التَّناول مع الله تعالى وإنما يُستعملُ الأخذ، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ﴾ [الأحزاب: 7] فلم يَقُلْ: تناوَلْنا.

وقيل أيضًا: التَّناولُ أخذُ القليل المقصودِ إليه، ولهذا لا يقال: تناولتُ كذا من غير قصدٍ إليه، بخلاف الأخذ، فإنه يقال: أخذتُه من غير قصد[1]، وقيل: الفرق بين الأخذ والتَّناول أيضًا؛ أنّ التَّناول أخذ الشيء للنَّفس خاصّةً، والأخذ لنفسه ولغيره فهو أعمُّ، ويجوز أن يُقال التَّناول يقتضي تسليم شيءٍ، بخلاف الأخذ[2].

الكثرة والغَلَبَة:

الكثرةُ تكونُ في الكَمّيَّة والعدد، والغلبةُ تكون في المعاني الذّاتيَّة كالقُدرة والعلم

(كثر) أَصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ على خِلافِ القِلَّةِ، مِنْ ذَلِكَ الشَّيْءُ الكَثِيرُ[3]، وتُطلق الكثرة باعتبار الكَمّيّة المنفصلة كالأعدادِ، قال تعالى: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا﴾ [المائدة: 64] وقال: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ۝٧٠﴾ [المؤمنون: 70] فالكثرة تعني الزّيادة العدديَّة الكَمّيَّة[4]، وأمّا الغلَبة فإنَّها تكون في الكيفيّات والصِّفات المعنويَّة كالقدرة والعلم، يقال: قاتله فغلبَه وصرَعه، وذلك لفضلٍ في صفة القدرة، وتقول: حاجَّه فغلبَه، ولاعبَه الشِّطْرَنج فغلبه بفضل علْمه وفطنتِه وذكائه[5]. وبذلك يُعرف أنَّ الكثرة إنَّما تكون في الكمّيَّة والعدد والمقدار، والغلَبة تكون في الكيفيّات الذّاتيَّة من القدرة والعِلم والفطنة والعقل، ونحو ذلك.

---

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 139.

(2) مجلَّة المقتبس، العدد: (64) كتاب في الفروق، تضمنه هذا العدد: (64)، وهو عبارة عن تعليقات على الفروق اللّغويّة للعسكريّ.

(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كثر).

(4) الرّاغب، المُفردات: (كثر)، والعسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 252.

(5) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 105.

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ١٦٠ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ١٦١ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ١٦٢ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٦٣﴾

[الشّعراء: 160 - 163]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

فصلٌ جديد من فصول تاريخ الأُمم الهالكة متّصلٌ بما قبله

هذه هي القصّة السّادسة في هذه السّورة، سبقتها قصّةُ موسى وإبراهيم ونوح وهود وصالح عليهم السلام، وقدِ اقترنت بقصّة هود وصالح؛ لتشابه الحال والعاقبة، ولعلاقة الجوار المكانيّ، مع التّباعد الزّمنيّ، وممّا يلفتُ النّظرَ أنّها كما جاءت على هذا التّرتيب في القرآن، جاءت هكذا على لسان نبيّ اللّه شعيب عليه السلام: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ٨٩﴾ [هود: 89]، كما تتّسق قصة لوطٍ وتنتظم مع السّياق العامّ للسّورة الكريمة؛ حيثُ تقريرُ الأصولِ الثّلاثة: التّوحيد والرّسالة والبعث، كما يتجلى التّناسبُ اللّفظيُّ بينَ القَصَص الخمس: قصّة نوحٍ وهودٍ وصالحٍ ولوطٍ وإبراهيم، كما هو معهود السّورة القرآنيّة، نسيجٌ واحدٌ، ولُحمةٌ واحدةٌ.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿قَوْمُ﴾: أصلُ (قوم) يدلُّ على جماعةِ ناسٍ، ورُبَّما استُعيرَ في غيرهم(1)، والقَوْمُ: جماعة الرِّجال في الأصل دون النِّساء، وفي عامَّة القرآن أريد به الرجال والنِّساء جميعًا(2)، وسُمّوا بذلك لأَنَّهم قَوّامونَ على النِّساءِ بالأُمور الّتي ليس للنِّساءِ أَن يُقمنَ بها(3)، وقَوْمُ كُلِّ رَجُلٍ: شيعته وعَشيرَتُه، والقَوْمُ يُذَكَّرُ ويُؤَنَّثُ؛ لأَنَّ أَسماء الجُموعِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قوم).

(2) الراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (قوم).

(3) ابن الأثير، النهاية، وابن منظور، لسان العرب: (قوم).

الَّتي لا واحِدَ لها مِنْ لفظِها إذا كانَتْ للآدميّينَ تُذَكَّرُ وتُؤَنَّثُ، مِثْلَ رَهْطٍ ونَفَرٍ وقَوْمٍ، قال تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ﴾ [الأنعام: 66] فذكَّر، وقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ [الشعراء: 105] فأَنَّث، والمراد بالقوم في الآية: الجماعةُ العظيمةُ الَّذين يَجمعهم أَمرٌ[1]، ومعنى قوله تعالى: ﴿قَوْمُ لُوطٍ﴾، أي: جماعتُه الَّذين كان يعيش بينهم، فالنّبيُّ يُرسَلُ لقومه.

2) ﴿أَخُوهُمْ﴾: أصل الكلمة من الآخيَةِ، وهي عُروةٌ تُثَبَّتُ في أرض أو حائط، وتُربَطُ فيها الدّابّة، يُقال: له عندي آخيَةٌ، أي: متانةٌ قويّةٌ، ووسيلةٌ قريبة، وآخى فلانًا مُؤاخاةً وإخاءً: اتَّخذه أخًا، وآخى بينهما: جعلهما كالأَخَوَين، والأَخُ مِنَ النّسَب: مَعْروفٌ، وهو الأخ الشّقيق أو لأب أو لأمّ، ويشمل أخا الرّضاعة[2]، ويُستَعارُ في كلِّ مُشارِكٍ لغيره في القَبيلة، أو في الدّين، أو في صَنعةٍ، أو في مُعاملةٍ أو في مَودَّةٍ، وفي غَير ذَلك مِنَ المناسبات[3]، والأخوةُ إذا كانت في غير الولادةِ كانت للمشكلة والاجتماع في الفعل، كقولك: هذا الثّوب أخو هذا الثّوب أي يشبهه، وكقوله تعالى: ﴿كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ [الإسراء: 27]، أي مُشاكلوهم[4]، والمراد بالأخ في الآية: المشارك للآخرين في المكان، إذ جعل الله تعالى لوطًا أَخًا لقَومِه ولم يكن من نسبهم وإنَّما كان نزيلًا فيهم، فقد كان قومُ لوطٍ من أهل فلسطينَ من الكنعانيّينَ، وكان لوطٌ عِبرانيًّا[5].

3) ﴿أَمِينٌ﴾: أصلُ (أمن) أَصلانِ مُتقاربانِ: الأمانةُ الَّتي هي ضدُّ الخيانة، ومعناها سكونُ القَلْب، والآخرُ التَّصديقُ[6]، والعَرَبُ تقولُ: رَجُلٌ أُمّانٌ: إذا كانَ أَمينًا، والأَمينُ: القويُّ لأنه يوثَقُ بقوَّته[7]، والرَّسولَ لا يُبعَثُ إلّا وقد كانَ معروفًا بالصِّدقِ وحُسْنِ الخلُقِ قَبْلَ الرِّسالة[8]، والمقصود بالأمين في الآية: فعيلٌ إمّا بمعنى مفعولٍ، أَيْ مأمونٌ مِنْ أَمنه على كذا، وإمّا صِفةٌ مُشبَّهةٌ من أَمُنَ بضمِّ الميمِ إذا صارتِ الأمانةُ سجيَّته، وكِلا المعنيين جائز في هذا المقام[9].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 208.
(2) الرّاغب، المفردات: (أخ)، والمناوي، التّوقيف على مهمّات التّعاريف، ص: 41.
(3) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (أخ).
(4) السجستاني، غريب القرآن، ص: 146، وابن الهائم، التبيان في تفسير غريب القرآن، ص: 212.
(5) السجستاني، غريب القرآن، ص: 146، وابن الهائم، التبيان في تفسير غريب القرآن، ص: 212.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أمن).
(7) ابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (أمن).
(8) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 178.
(9) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 157.

المَعنى الإجْماليُّ:

تُبيِّن الآياتُ الكريمة حالَ قومِ لوطٍ بتكذيبهم لدعوته - وهي دعوة كلّ المرسلين عليهم السلام - وذلك حين دعاهم، وكان مُصاهِرًا لهم، مُقيمًا بينهم، مُشفقًا عليهم، فرَغّبَهم واستَحثَّهم على تقوى اللّه؛ بامتثال ما أمر واجتناب ما نهى عنه وزجر، وأن يُعَظِّموا اللّهَ ويخافوه، وقد أكَّد لهم أنّه مرسلٌ من ربّهم، أمينٌ على الوحي، وأمينٌ عليهم، وناصِحٌ لهم، وكلُّه حِرْصٌ على صلاحهم، ولمّا كان الأمر كذلك؛ فتَوَجّبَ عليهم أن يتّقوا اللّهَ وحدَه، ويَتّبِعوا رسولَه، ويمتثلوا له.

من كذَّبَ برسولٍ فـإنَّـمـا كـذَّبَ بـجـمـيـع رسـل الله

وتُرشِدُ الآياتُ الكريمةُ إلى جواز إطلاق الأُخوَّة على البلد والسُّكنى والوطن دونَ الدّين والنَّسب، وإلى أنَّ الأمانةَ من مستلزمات الرّسالة؛ إذ كلّ رسولٍ يقول لقومه المُرسَل إليهم: ﴿إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ﴾، وأنَّ سبيلَ نجاةِ الفَرد والجماعة في تقوى اللّه تعالى وطاعةِ الرّسول صلى الله عليه وسلم ، وإلى وجوب إنكارِ المُنكر وتقبيحه على فاعله لعلّه يرعوي[1].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

نُكْتَةُ فصلِ الجملة عمّا سبقها:

تـشـابـهُ الـحـال يُفضي إلى تشابه المآل

فُصِلت جملة: ﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ لُوطٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ عمّا قبلها؛ لأنَّها جملةٌ مستأنَفة، فهي بدايةُ قصّةٍ أخرى من قصص الأنبياء مع أقوامهم، وفصلٌ جديد من فصول تاريخ الأُمم الهالكة، فيها تسليةُ قلبِ نبيّ اللّهِ صلى الله عليه وسلم، وتثبيتُ فؤادِه، فناسبَ الفصلُ.

بلاغةُ اختيارِ مفردةِ التّكذيب:

مبادرةُ قوم لوطٍ بـتـكـذيـبـه دونَ تفكُّرٍ ونظرٍ

ذِكْرُ التّكذيب الصّريح في قوله: ﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ لُوطٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾؛ لأنّهم كذّبوا رُسلَ اللّهِ جميعًا، بتكذيبهم بنبيّ اللّه لوطٍ، وكفرِهم

(1) الجزائريّ، أيسر التّفاسير: 3/ 675.

بما جاء به، وقد فصَّلت الآياتُ بعدَها ما أَجملتْهُ هذه الآية، فلِقَصْدِ التّسلية عبّر بالتّكذيب، فحين ﴿قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ لُوطٌ﴾ لم يتأنّوا بطلب دليل، ولا ابتغاء وجهٍ جميلٍ، وأشار إلى زيادة التّسلية بمفاجأتهم بالتّكذيب من غير تأمُّل ولا توقُّف؛ كحال كفّار قريش[1]، وناسبَ التّصريحُ بالتّكذيب ما ورد في أول السورة: ﴿فَقَدۡ كَذَّبُواْ فَسَيَأۡتِيهِمۡ أَنۢبَـٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٦﴾ [الشّعراء: 6]، فإنّ ما بعدها تفصيلٌ لما أجملته هذه الآيةُ الكريمة؛ تثبيتًا لقلب نبيِّنا ﷺ وتسريةً له، وقد قال له ربُّ العالَمين، كما في مطلَع السّورة: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ٣﴾ [الشّعراء: 3].

لطيفةُ تأنيثِ الفعل للفاعل المذَكّر:

شناعةُ التّكذيب وذَمِّه

أُنِّثَ فعلُ ﴿كَذَّبَتۡ﴾، فلم يقل: (كذَّب)؛ لأنّ القوم يُذَكَّر ويُؤنَّث، فهو من أسماء الجموع التي لا واحد لها من لفظها، كرهط ونفر، وأغلب ورودِ الفعل (كذّب) في القرآن مع (قوم) بتاء التّأنيث، وقد ورد فعل التّكذيب بغير تاء التّأنيث، كما في قوله تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوۡمُكَ﴾ [الأنعام: 66][2]، وذلك لأنّه أُضيف إلى ضمير المخاطَب، وقيل: القوم بمعنى الجماعة والأُمَّة[3]، فناسبَ إلحاقَ تاءِ التّأنيث بالفعل، باعتبار الفاعل مؤنثًا، وأضاف الشّربينيّ: "واختير التّأنيث ها هنا للتّنبيه على أنّ فعلهم أخسُّ الأفعال"[4]، وذلك باعتبار تنزيلهم منزلةَ العجماوات.

معنى الإضافة ودلالتُها في: ﴿قَوۡمُ لُوطٍ﴾:

إنَّما يُعرف الخسيس بالشَّريف

أُضيف لفظُ ﴿قَوۡمُ﴾ إلى لوط عليه السلام في قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ لُوطٍ﴾؛ للتّعريف؛ لأنَّ ﴿قَوۡمُ﴾ مبهَمٌ، و﴿لُوطٍ﴾ علَمٌ معروف، وقد

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 61، 73.

(2) الهمذانيّ، الكتاب الفريد في إعراب القرآن المجيد: 5/ 60.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 254.

(4) الشّربينيّ، السّراج المنير: 3/ 23، وأبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 175، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 156.

نُسبوا إليه كذلك في قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ١٢ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ١٣﴾ [ق: 12 - 13]، ففيه تصريحٌ إلى أنَّه مرسلٌ إليهم؛ لأنَّهم قومُه باعتبار تكليفه بتبليغهم الرّسالةَ، وقد عُرِفوا به عليه السلام، ولولاه لطمسهم التّاريخ، واندرس أمرُهم.

فائدة التّعبير باسمِ المفعول:

تـكـذيـبُ الصّادقين ظُلمٌ عظيمٌ، وأشنع منه التّكذيب برُسل الله!

إذا كان تكذيبُ الصّادقين ظُلمًا وجهلًا، فكيف التّكذيب بمَن أرسله اللّه! ممن اصطفاهم اللّه برسالاته، واختارهم لصدقهم وأمانتهم! من هنا كانت نُكْتَةُ التّعبير باسم المفعول للفظ ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، وهو زيادة التّشنيع على المُكذّبين؛ فإنَّ تكذيبَهم وقع على مَن أرسله اللّه تعالى تحقيقًا، لا على منِ افترى من تلقاء نفسه، فهم مرسلون من قِبَل اللّه، معروفون بالصّدق والأمانة، فلا يصِحُّ تكذيبُهم بحال، وأنّ تكذيبهم تكذيبٌ لَمن أرسلهم جل جلاله، وكيف يكذّبونهم وقد شهدوا لهم بالصّدق قبلَ مبعثهم؟ مع أنَّ الأولى تصديقُهم بعد الرّسالة.

دلالةُ جمعِ ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾:

التّكذيبُ برسولٍ تكذيبٌ لسائر الرّسل!

آثَرَ النَّظمُ الكريمُ التّعبير بصيغة الجمع ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ دونَ الإفراد، كأن يُقال: (كذبت قومُ لوط رسولَهم) ونحوه، وذلك أنَّ تكذيبهم بنبيِّ اللّه لوط تكذيبٌ بجميع المرسلين؛ إذ دعوتُهم واحدة، والمُرْسِلُ سبحانه واحد، والمُعْتَقَد واحد، والمقصد واحد، فمن كذّب برسول فقد كذّب بسائر الرّسل، ففيه منَ التّشنيع ما لا يوجد في الإفراد.

نُكْتَةُ فصلِ الجملة عمّا قبلَها:

التّفصيلُ بعدَ الإجمال بيانٌ وتوكيدٌ

الفصلُ في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾؛ لكمال الاتّصال بينَ الجُملتين، إذِ الثّانيةُ مبيّنة للأولى، من باب التّفصيل بعد الإجمال، ومؤكِّدةٌ لها، أو مُعلِّلةٌ؛ باعتبار إفادة ﴿إِذْ﴾ معنى التّعليل؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ٣٩﴾ [الزّخرف: 39]؛ أي: لأجل ظلمكم في الدّنيا.

بلاغة استعمال الظّرف ﴿إِذۡ﴾ ودلالتُه:

تصويرُ الماضي القديم من خصائص إعجاز القرآن الكريم

أداةُ ﴿إِذۡ﴾ ظرفيَّةٌ، والعاملُ فيها ﴿كَذَّبَتۡ﴾، فهي ظرفٌ زمانيٌّ، تدخلُ غالبًا على الفعل الماضي، فتنقلُ السّامعَ إلى حدثٍ مضى، وقد تدخل على المضارع، لاستحضار الحَدَث، كما تدخل على الاسم، وقد اجتمع دخولُها في ذلك كلِّه في قوله تعالى: ﴿إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾ [التّوبة: 40]، فهي ظرفٌ لفعل التّكذيب على أنّه عبارة عن زمان مديد وقع فيه ما وقع من الجانبين إلى تمام الأمر، كما أنَّ تكذيبهم عبارةٌ عمّا صدر منهم من حين ابتداء دعوته ﷺ إلى انتهائها، وهي كذلك للتّعليل، أي: كذَّبوا لأجل أن قال لهم أخوهم لوط[1].

لطيفةٌ في ذِكر لفظ ﴿قَالَ﴾:

الدَّعوةُ كانت شِفاهًا، والتّكذيبُ وقع على ما في حيّز القول

جاء التَّعبيرُ بفعل القول في قوله تعالى: ﴿إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾؛ لبيان أنهم كذَّبوا بقوله الذي سمعوه وأدركوه، إذ خاطبهم ودعاهم، فالدَّعوةُ شِفاهًا، والتّكذيبُ وقع على ما في حيّز القول.

معنى اللّام في الجارّ والمجرور ﴿لَهُمۡ﴾، ودلالةُ تقديمها:

من رحمةِ الله تعالى تخصيصُ رسولٍ لكلّ قومٍ

اللّام في ﴿لَهُمۡ﴾ لامُ الصّلة بينَ الفعل ومفعوله، فالفعل ﴿قَالَ﴾، ومفعوله من وُجِّهَ لهم القولُ، وغرضُها: تعديَةُ اللّازم لمفعوله، وفي اللّام تخصيصٌ للقول بأنّه لهم؛ اعتناءً بهم وإشفاقًا عليهم، وقُدّم الجارّ والمجرور ﴿لَهُمۡ﴾ على الفاعل ﴿أَخُوهُمۡ لُوطٌ﴾؛ لبيانِ أنَّ هذا القول لهم خاصّةً، فدعوتُه قاصرة عليهم، فكلّ نبيٍّ كان يُبعَث في قومه، وفيه اعتناءٌ بهم، وحِرصٌ على هدايتهم.

بلاغةُ استعمالِ مفردة الأُخوَّة:

المُصاهرة والمجاورة من مظاهر الأُخوَّة

آثَرَ النّظمُ الكريم استعمالَ لفظِ: ﴿أَخُوهُمۡ﴾ دون (رسولهم)، ومعنى ﴿أَخُوهُمۡ﴾ أي: في البلد والسّكنى والتّجاور في القرية، لا في

---

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 104.

الدّين والنسب؛ لأنَّه ابنُ أخي إبراهيمَ عليه السلام، وهما من أرض بابل في العراق، وجَعَلُ لوطٍ عليه السلام أخًا لقومه ولم يكن منهم؛ لاستيطانه بلادَهم ومصاهرتهم، وقال تعالى: ﴿وَإِخۡوَٰنُ لُوطٖ ١٣﴾ [ق: 13]؛ فدلَّ التّعبيرُ بالأُخوّة على محبَّتِه لهم، وإشفاقِه عليهم، فالأُخوّة هي أُخوّة الدّمِ التي تضمّ الجميعَ مؤمنهم وكافرَهم، قريبَهم وبعيدَهم، وفيها ما يدلُّ على إشفاقه عليهم، شفقةَ الأخِ على أخيه[1]، وممّا يدلُّ على أنَّه تزوّج منهم، كونُ زوجتِه على شاكلتهم، وتميل إليهم.

معنى الإضافةِ وفائدتُها:

الإضافة في قوله تعالى: ﴿أَخُوهُمۡ﴾ تُفيد معنى التّعريف، فهو أخوهم في البلد والسكنى والمجاورة، وليس بأخيهم في الدّين والنّسب، ونظيرها: ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَأَصۡحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ١٢ وَعَادٞ وَفِرۡعَوۡنُ وَإِخۡوَٰنُ لُوطٖ ١٣﴾ [ق: 12 - 13].

الإضافة إلى المعرفة تُفيد التّعريف

نُكْتَةُ إظهارِ ما حقُّه الإضمار:

أُظهر لفظ ﴿أَخُوهُمۡ لُوطٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ لُوطٌ﴾ بعد ذكره في الآية السّابقة: ﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ لُوطٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾؛ فلم يقل: (إذ قال لهم ألا تتقون) اكتفاءً بسبق ذكره؛ لتأكيد أُخوّته لهم، التي تَنُمُّ عن حرصه وإشفاقه عليهم، ونُصْحه لهم، لما بينهم من وشيجةٍ قوية، ورابطةٍ متينةٍ، ولأنَّ الحبيب يستلذُّ بذِكْر حبيبه، والأنبياءُ أحبُّ النّاس إلى اللّه، فتكرَّرَ ذِكْرُهم بأسمائهم دونَ التّكنية بالضّمير.

محبّةُ اللهِ لأنبيائه، وتشريفُهم بتكرار ذكرهم في أعظم كتبه

معنى ﴿أَلَا﴾ وبلاغةُ استعمالِها:

﴿أَلَا﴾: أداةُ استفتاح وتنبيه وتشويق، جاءت في قوله تعالى: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾، وفيها معنى التّحضيضِ، وهي تصويرُ أسلوبِ نبيّ اللّه لوطٍ في ترغيب قومه؛ لأنّه يدعوهم إلى الخير العظيم، ولعلّه دعاهم قبلَ ذلك فلم يستجيبوا، فاستحثّهم بعد ذلك ورغَّبهم، ويجوز أن

روعةُ الاستفتاح وجمالُ التّشويق ومعنى التّحضيض

(1) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (أخ).

يكون لفظُ ﴿أَلَا﴾ مُركّبًا من حرفين؛ همزةِ استفهام دخلت على (لا) النّافية، فهو استفهامٌ عنِ انتفاء تقواهم، مستعملٌ في الإنكار، وهو يقتضي امتناعَهم منِ الامتثال لدعوته[1].

بلاغةُ استعمالِ مفردة التّقوى:

زجرٌ لهم عنِ الذّنوب والمعاصي، وترقيقُ قلوبِهم لقَبول دعوتِه

جاء استعمالُ مفردة التّقوى في قوله تعالى: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ دون حَثّهم على العبادة، أو الإسلام، أو الإيمان، ونحوِ ذلك؛ لأنَّ التّقوى هي الأصل القلبيّ المُحرّك للعمل، وقد تكون سابقةً للإيمان الصّحيح، والتّقوى نوعان؛ تقوى ناشئةٌ عنِ الإيمان، وهذه أنفعُ أنواعِ التّقوى، وتقوى ناشئةٌ عنِ القلب الفِطريّ - وإن كان صاحبه غيرَ مؤمن -، ففي ذِكْر التّقوى على هذا زجرٌ لهم عنِ الذّنوب والمعاصي، وترقيقُ قلوبِهم لقَبول ما جاءهم به، ودعوةٌ إلى الإيمان الذي هو أساسُ التّقوى ومَبعثُها.

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بصيغة المضارع:

حرصُ المرسلين على أتباعِهم ممتدٌّ مستدام

دلَّت صيغةُ المضارعِ في قوله تعالى: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ على طلب التّقوى في الحال والاستقبال، في أن يمتثل المخاطَبُ حالًا لتقوى اللهِ تعالى، وأن يستمرّ عليها مستقبلًا، فليس المطلوبُ تحصيلَ التّقوى في لحظة الخطاب فحسب، بل المطلوبُ الاستمرارَ عليها، معَ اتّساقها مع دلالة ﴿أَلَا﴾ التّحضيضيّة، في الدّلالة على المستقبل.

عِلّةُ الفصلِ بينَ الجملة وما قبلها:

خطابُ الأنبياء لقومهم، خطابُ العقلِ والوجدان

فُصِلَت جملة: ﴿إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ﴾ عمّا قبلها؛ لما بينهما من شِبه كمال الاتّصال، فهي مستأنَفَة استئنافًا بيانيًّا، تُجيب عن سؤال يتبادَر إلى الذِّهن، صدر عن قومه: وما شأنُكَ أنتَ يا لوط؟ ومَن الذي كلّفكَ بنُصحِنا؟ وماذا تريد من ورائه؟ فقال: ﴿إِنِّي لَكُمۡ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 158.

﴿رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ تعليلٌ لحضّهم على تقوى اللّه، وجوابٌ عمّا قد يجيش في صدورهم.

غرضُ التّوكيد وفائدتُه:

الـتَّـجـارِبُ السّـابقة خيرُ دليلٍ على صدق الوعود القادمة

أكّد الخبرُ في قوله: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾؛ ليقطعَ الطّريق أمامَ شكوكِهم، وليُقَرّر لهم أنّه على بيّنة من أمره، ويقينٍ برسالته، لما قد تَوَقَّعَه من بادرة الإنكار، "فاستدلَّ عليهم بتجربة أمانتِه قبلَ تبليغ الرّسالة، فإنّ الأمانة دليلٌ على صدقه فيما بلّغهم من رسالة اللّه"[1].

معنى اللّام ونُكْتَةُ تقديمِ الجارّ والمجرور على الخبر:

أَحْـرَصُ الخَلْقِ على الخَلْقِ رسلُ الحقِّ

اللّام الدّاخلة على الضّمير في قوله تعالى: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾؛ للتَّخصيص، أي: لكم لا لغيركم، فدعوةُ كلِّ نبيٍّ خاصَّة بقومه، وفي هذا مزيدُ اعتناء بهم، وحرصٌ عليهم، وترغيبٌ لهم في الاستجابة والامتثال، وقُدِّم الجارُّ والمجرور ﴿لَكُمْ﴾ على الخبر ﴿رَسُولٌ﴾؛ للاعتناء بهم، وللاهتمام بشأنهم، وفيه منَ التّشويق للمُتأخّر، والمعنى: (إنّي من أجلكم رسولٌ مُؤتَمَنٌ عليكم، ناصحٌ لكم، أمينٌ على رسالة ربّي).

بلاغةُ استعمالِ مفردة الرّسالة:

وظيفةُ الرَّسولِ تـبليغُ رسـالـةِ الحقِّ

جاء استعمالُ مفردة الرّسالة دونَ النُّبوّة في قوله تعالى: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾؛ لأنّ المقصود بسياقِ الكلام بيانُ أنّه مرسلٌ إليهم، ومعنى أنّه مرسلٌ من ربّ العالَمين أنَّ اللّه أنبأه، فلمّا كان المقامُ مقامَ تبليغ ناسبَ ذِكرَ الرّسول، فالرَّسولُ هو الذي يأتي برسالةٍ منَ اللّه تعالى؛ لتحذير النّاس منَ الباطل الذي هم فيه، واتِّباعِ الحقّ المبعوثِ به.

نُكْتَةُ تنكيرِ ﴿رَسُولٌ﴾:

تـعـظـيـمُ قَـدْرِ رسالةِ الرّسول

نُكِّر لفظُ ﴿رَسُولٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾؛

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 158.

لتعظيم قدرِ الرّسالة، ليُقدِّروها قَدْرَها، ويَعرِفوا فضلَها، ويمتثلوا لها، فهو رسول ربِّ العالمين.

دلالةُ إيثارِ صفةِ الأمانة في وصف الرّسول:

أمانةُ الرّسل منَ المُسَلَّمات العقليَّة السّلوكيّة في إثبات صِدقهم

جاء استعمالُ صفةِ الأمانة في وصف الرّسول ﴿رَسُولٌ أَمِينٌ﴾؛ لأنَّ الأمانةَ من أهمّ صفاتِ الرّسل، وما من نَبيّ إلّا عُرِفَ بين قومِه قبلَ دعوتِه بالصِّدق والأمانة، فالأمانةُ صفةٌ جامعة، والرَّسولُ أمينٌ في قوله، وأمينٌ في فعله، وأمينٌ في سِرّه، وأمين في علانيّته، وأمينٌ على الوحي فلا يَكْتُمه، وأمينٌ على قومه فلا يَكْذِبُهم ولا يخونُهم، مع ما في هذا الوصف من التّعريض بهم؛ لأنّهم ركبوا متنَ الخيانةِ والتّنكُّرِ لدعوته، ولو كانوا أمناءَ لكان الرّسولُ منهم.

وجهُ التّعبيرِ بصيغة (فعيل) وتنكيرُها:

أمانةُ الرُّسل أمانةٌ خاصَّةٌ في قدرها ونوعها ووظيفتها

دلَّت صيغةُ (فعيل) وهي من صيغ المبالغة في مفردة ﴿أَمِينٌ﴾، على أنّه بالغُ الأمانةِ، فهو ليس مُجرَّد أمينٍ من أمناء النّاس، بل هو ممَّن امتاز بهذه الصّفة، ونُكِّر الوصف ﴿أَمِينٌ﴾؛ متابعةً لتنكير الموصوف، فلمّا جاء نكرةً جاءت صفتُه نكرةً، مع ما فيها من المبالغة في وصفه بالأمانة؛ لأنّ النّكرة تُفيد التّعظيم في مثل هذا السّياق.

نوعُ (الفاء) ومعناها:

الفاء فصيحةٌ؛ لترتيب الأمر بالتّقوى على كونه رسولًا أمينًا

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ هي الفاء الفصيحة عن شرطٍ مُقدّر، يدلُّ عليه ما بعدَ الفاء، والمعنى: (فإذا كنتُ أمينًا مُتجرّدًا للّه في دعوتي مُخلِصًا، لا أبتغي منكم أجرًا، فعليكم أن تمتثلوا لأوامري، وتتّقوا اللّهَ خالقي، وتطيعوا أمري، وأنا رسولٌ لكم، أمينٌ عندكم)[1]، أو هي لتفريع الأمر بالتّقوى، فما دام رسولًا أمينًا، فيتفرّع عن ذلك الأمرُ بالتَّقوى.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 175، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 158، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5378.

دلالةُ تكرارِ مفردة التّقوى:

جاء استعمال مفردةُ التّقوى في قوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ مع تقدُّم الأمرِ بالتّقوى في قوله: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾؛ لأنَّ تقوى الله جماعُ كلِّ خير، وأصلُ كلِّ برٍّ، وهي بُرهان الإيمان وثمرتُه، والبداية بها ممّا اتّفقت عليه الرّسالاتُ، والتّقوى نذارةٌ، والنّذارةُ أوّلًا ثمّ البشارةُ لَمَن هو أهلٌ لها، فبعدَ أن حضَّهم على التّقوى تمهيدًا، حَسُنَ ذكرها أمرًا تأصيلًا.

الــحــضُّ على التّقوى تمهيدًا، مُقدّمةٌ للأمر بها تأصيلًا

غرض الأمرِ ودلالتُه:

أَمَر نبيُّ الله لوطٍ ﵇ قومَه بتقوى الله تعالى بقوله: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾، وغرضُ الأمرِ الإلزامُ العقديّ، والتّوبيخ على تركه، وجاء الخطاب للجميع ﴿فَٱتَّقُواْ﴾؛ لأنَّ الرّسالة للجميع لا يختصُّ بها طائفةٌ دونَ أخرى.

الإلزامُ العقديّ، والـتّـوبـيـخ على ترك الأمر

مناسبةُ استعمالِ لفظِ الجلالة:

إيثارُ عنوانِ الأُلوهيّة في قوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾؛ للتّعظيم والمهابة والجلال، فالمقام مقام أمرٍ بالتّقوى وتركِ المُحرّمات والفواحش، فناسبَه لفظُ الجلالة؛ لإدخال الرَّوعة والرّهبة في القلوب.

دلالةُ عطفِ الأمر بالطاعة:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ للعطف، والعطف يقتضي المشاركة في الحُكم، فقد أَمرَهم أن يجمعوا بين تقوى الله وبين طاعته؛ وذلك لأنَّ طاعةَ الرّسول من طاعة المُرْسِل ﷻ، فأَمَر بطاعته بعد الأمرِ بتقوى الله؛ ليجمعَ بين حَقِّ المُرْسِل ﷻ، وحَقّ المُرْسَل ﵇، ولكون الرّسول جاء برسالة، فلَزِم قومُه اتّباعَه وطاعتَه.

دعـــوةُ الـرّسـل تتلخّص في الأمر بتقوى المُرْسِل، وطاعةِ الرّسول

عِلَّةُ تقديمِ الأمر بالتّقوى على الأمر بالطّاعة:

قُدِّم ذِكْرُ الأمرِ بتقوى الله تعالى على الأمر بطاعته في قوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾؛ لأنَّ تقوى الله عِلّةٌ لطاعته، فقَدَّم العِلّة على المعلول[1]، فإذا حصَّل الإنسانُ تقوى الخالقِ سبحانه،

أعمالُ القلوبِ مُـقـدَّمـةٌ على أعمالِ الأبدان

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 521.

أطاعَ المُرْسَلين، فالتّقوى - وهي عملُ القُلوب - أصلٌ للطّاعة - وهي عملُ الأبدان، فمَن صحَّ قلبُه قُبِلَت أعمالُه.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الأهلُ والعشيرة والقوم:

الأهل أخصُّ الألفاظِ، والعشيرة أوسعُ دلالةً، والقوم أعمُّها

أهلُ الرّجل قرابتُه الأَدْنَون، وأهلُ بيتِه زوجتُه وأبناؤه، والأهلُ كذلك الأصحابُ، ومنه؛ أهلُ الجنّة، وأهلُ العِلْم، أي: من اختَصّ به، وأهلُ القرآن؛ لأنّهم خاصَّتُه، ومنه أهلُ الفضل وأهلُ الإحسان، وأهلُ التَّقوى؛ لمُلازمتهم هذه الصّفات والأحوالِ، وأهلُ الدّار، وأهلُ كلّ بلدةٍ: ساكنوها.

والعشيرة هم الأهلُ ومَن يليهم من أقاربه، قال تعالى: ﴿قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ﴾ [التّوبة: 24]، وقال سبحانه: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ٢١٤﴾ [الشّعراء: 214]، والعشيرة آلُ الرّجل، فتشمل قرابتَه القريبةَ والبعيدةَ، وسُمّيَت العشيرةُ لكثرتهم، كأنّهم يفوقون العَشَرة، أو لترابطهم وتشابكهم، كتعاقد العشرة، أو لما بينَهم من حُسْن العِشْرة، والمؤانسة.

والقوم دائرةٌ أوسع، تنضوي تحتَها العشائرُ، والقومُ: من يجمعُهم وطنٌ واحدٌ، أو هويّةٌ، أو لغةٌ، أو عِرْقٌ، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ ٤٤﴾ [الزّخرف: 44]، فالقومُ يشمل قريشًا لأنّهم قومُه، كما يشمل سائرَ العربِ لأنّ القرآن نزل بلغتهم، وهم مَن بَلَّغَه، وسُمّي القومُ؛ لأنّهم يقومون لنُصْرَة بعضِهم بعضًا، وينهضُ بعضُهم لمساعدة بعضٍ[1]، وقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ لُوطٍ﴾: عبّر برابطة القوم لأنّها الدّائرةُ الأوسعُ، التي ينضوي تحتَها الجميعُ.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 84، والآلوسيّ، روح المعاني: 5/ 265.

التَّقوى امتثالٌ ناشئٌ عن خوفٍ منَ الله، والخوفُ أعمُّ منَ الخشيَة

التّقوى، والخشيَة، والخَوف:

التّقوى: امتثالٌ ناشئٌ عنِ الخوف منَ اللّه تعالى، والخَوفُ: أعمُّ منَ الخشية؛ لأنّه قد يكون عن علم أو لغير علم، أمّا الخشيةُ: فخوفٌ مقرونٌ بمعرفة، قال النّبيُّ ﷺ: «إنّي أتقاكم اللّه وأشدّكم له خشية»[1]، وعلى قَدْر العِلْم والمعرفة تكون الخشية.

والخشيةُ أشدّ منَ الخوف؛ لأنّها مأخوذة من قولهم: شجرة خاشية، أي: يابسة، وهو فواتٌ بالكلّيّة، والخوفُ النّقصُ مطلقًا، من قولهم: ناقةٌ خَوفاء، أي: بها داءٌ، وهوَ نقص وليس بفوات، ولذلك خُصَّتِ الخشيةُ باللّه في قوله تعالى: ﴿وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ﴾ [الرعد: 21]، والخشيةُ تكون من عِظَم المَخشيّ، وإن كان الخاشي قويًّا، والخوفُ يكون من ضعف الخائف، وإن كان المَخوف أمرًا يسيرًا، وأيضا فإنّ أصل الخشية خوفٌ مع تعظيم؛ ولذلك خُصّ بها العلماء في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَـٰٓؤُاْۗ﴾ [فاطر: 28][2].

العبادةُ لله وحْدَه، والطّاعةُ لـه سبحانه ولكلّ مَن أمر بطاعتِهم

الطّاعة والعِبادة:

الطّاعةُ تقابلُها المعصيةُ، والطّاعةُ الحَقَّة قد تكون للّه ولغيره، كطاعة الرّسول ﷺ وطاعةِ أولي الأمر، والوالدين وأهلِ العِلْم، وطاعةِ الزّوجةِ لزوجها، والطّاعة: هي الاتّباع والامتثالُ للأوامر، والاجتنابُ للنّواهي.

أمّا العبادةُ الحقَّةُ، فإنّها لا تكون إلّا للّه تعالى، وجميعُ الأنبياء دَعَوا لعبادة اللّه، كما دَعَوا لطاعتِهم، فهم مُبَلّغون عنِ اللّه تعالى، والعبادةُ اسمٌ جامعٌ لكلّ ما يُحبُّه اللّه ويرضاه منَ الأقوال والأفعال،

(1) أخرجه البخاريّ في صحيحه، الحديث رقم: (6101) و (7301)، ومسلم في صحيحه، الحديث رقم: (128)، (2356).

(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 241، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 428، والفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: 2/ 544 - 546، والسّيوطيّ، الإتقان: 2/ 363، وأحمد ياسوف، جماليّات المفردة القرآنيّة، ص: 293.

الظّاهرة والباطنة، بمفهومِها العامّ، وبمفهومها الخاصّ، والعبادات الصّلاةُ والصّيام والزّكاة والحَجّ والذّكرُ والدّعاء.

فالطّاعةُ أعمُّ منَ العبادة؛ لأنّ العبادة غلبَ استعمالُها في تعظيم اللّه غايةَ التّعظيم[1].

التّقوى والطّاعة:

التّقوى خاصّةٌ باللـه تعالى، والطّاعة عامّةٌ فيمَن أوجبَ اللهُ طاعتَهم

التّقوى تنصرف للّه تعالى، فهو المُستَحِقُّ لها، وهي أمرٌ قلبيٌّ ينتجُ عنه امتثالُ المأموراتِ واجتنابُ المنهيّات، فهي الحافِزُ والدّاعي إلى الطّاعة.

أمّا الطّاعة: فهي للّه ولكلّ من أمر اللّه وأذن بطاعته، كالرّسل، وأولي الأمر، كما قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ [النّساء: 59]، فالطّاعة: "الانقياد لمطلوب الشّارع بما أمر به، واجبًا كان أم مستحبًّا، والتّقوى: كَفُّ النّفسِ عمّا نهى الشّارعُ عنه؛ حرامًا كان أم مكروهًا"[2].

(1) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 583.

(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 137.

﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٤ أَتَأۡتُونَ ٱلذُّكۡرَانَ مِنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٥ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٌ عَادُونَ ١٦٦﴾ [الشّعراء: 164 - 166]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

العقيدةُ طريقُ إصلاحِ كلِّ فاسدٍ، وتقويمِ كلِّ معوَجّ

لما جاء بيانُ أنَّ لوطًا مرسلٌ من قِبَل ربّ العالَمين، وأنّه أمينٌ على الرّسالة منَ اللّه تعالى، وهو عليهم من باب أولى، ووضَّحَ لقومه مقصودَ الرّسالة ومضمونَها، ناسبَ بعدَ ذلك أن يدفع عن نفسه ما قد يَظنّونَه من أنّه طالبُ مالٍ أو جاهٍ، فبيّنَ تَجَرُّدَه للّه تعالى، وأنَّ أَجْرَه منه وحْدَه، ثمّ شرع بعدَ بيانِ العقيدة - وهي أساسُ دعوته - بالدَّعوة لإصلاح الأخلاق، فالعقيدةُ هي المُنطلّق لكلِّ إصلاح، والوقودُ لكلّ تغيير، والطّاقةُ لكلِّ تجديد، فلا سبيلَ لإصلاح المُعْوَجِّ وتقويمِ المُنحَرِف إلّا بعدَ تثبيتِ الإيمان، وتقريرِ التّوحيد، فمَهّدَ لترك هذه الأخلاقِ المُنحَطَّةِ والأوضاعِ المُتردّيَةِ بالتّقوى، التي تنبثق عنِ الإيمان.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَسۡـَٔلُكُمۡ﴾: أَصْلُ (سأل) كلمة واحدة معناها الاستدعاءُ والطَّلَبُ، يُقالُ سأَلَ يسألُ سُؤالًا ومَسْأَلَةً، ورَجُلٌ سُؤَلَةٌ: كَثيرُ السُّؤالِ[1]، ويُقالُ: سأَلْتُهُ عن عِلْم سُؤالًا ومَسْأَلَةً، أي: طَلَبْتُ معرفتَه، وسألْتُه الصَّدَقَةَ، أي: طلَبْتُ منه أنْ يتصدَّقَ علَيَّ[2]، والسُّؤالُ: استدعاء معرفة، أو ما يؤدّي إلى المعرفة، واستدعاء مال، أو ما يؤدّي إلى المال، فاستدعاء المعرفة جوابه على اللِّسان، واليد خليفة

(1) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (سأل).

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/ 194.

له بالكتابة، أو الإشارة، واستدعاء المال جوابه على اليد، واللِّسان خليفة لها إمّا بوعدٍ، أو بِرَدٍّ[1]، وحقيقةُ السُّؤالِ في الآية هو الطَّلَب.

2) ﴿أَجْرٍ﴾: أصلُ (أجر) الجزاءُ على العمل[2]، ومنه سُمّيَ الثَّوابُ أجْرًا؛ لأنَّ اللّٰهَ يَجْزي العَبْدَ عليه، والأجرُ أيضًا: العِوَضُ، مصدرُ أَجَرَهُ وآجَرَهُ يَأْجُرُهُ ويَأْجِرُهُ، والأجير: فعيل بمعنى فاعل أو مفاعل، والاستئجارُ: طلَب الشَّيء بالأجرة[3]، والمقصودُ بالأجر في الآية: العِوَضُ والجَزاءُ على العَمَلِ.

3) ﴿أَتَأْتُونَ﴾: أصلُ الإتيان يدلُّ على مجيءٍ بسهولَةٍ، وهو أخَصُّ مِن المَجيءِ، يُقال: أَتَيْتُهُ إِتْيانًا، أيْ: جِئْتُهُ، وأتاهُ، أتْيًا، وإتْيانًا: إذا صارَ إليَّ، والإتْيانُ يُقالُ لِلمَجيءِ بالذّاتِ، وبالأَمرِ، والتَّدْبيرِ، وفي الخَيْرِ والشَّرِّ[4]، وهو أيضًا فعلُ الشّيء، يُقالُ: أَتَى زوجتَه إتيانًا، كنايةٌ عنِ الجِماع، والمَأْتَى مَوضِعُ الإتيان[5]، والمراد بالإتيان في الآية: كنايةٌ عَنِ الفعل القبيح، الَّذي يقع بينَ الذَّكَرين (اللِّواط).

4) ﴿ٱلذُّكْرَانَ﴾: أصلُ (ذكر) يدلُّ على غِلَظٍ وقوَّة، ومنه ذُكور البَقْل: ما غَلُظَ منه، كالخُزامَى والأُقْحوان، وناقة مُذَكَّرَة: تشبه الذَّكر في عظم خلقها، وسيف ذو ذُكْرٍ، ومُذَكَّر: صارم، تشبيها بالذّكر[6]، والذَّكَرُ خلافُ الأُنثى، ويُجْمَع على ذُكور، والمُذْكِرُ: التي ولَدَت ذَكَرًا، والمِذْكار: التي تَلِدُ الذُّكْران عادةً[7]، وجُعِل الذَّكَر كناية عن العضو المخصوص[8]، والذُّكران في الآية مراد به: جَمعُ ذَكَرٍ، وهو ضِدُّ الأُنثى.

5) ﴿وَتَذَرُونَ﴾: أصلُ (وذر) القَذْفُ والتَّرْك[9]، يُقالُ: فُلانٌ يَذَرُ الشَّيءَ، أي يَقذفه لِقلَّةِ اعتِدادِهِ به، ومن ذلك الوذرة: وهي قِطعةُ لحمٍ صغيرةٍ سُمّيت بذلك لِقلَّة الاعتداد

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (سأل).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أجر).
(3) الراغب، المفردات: (أجر).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (أتي)، والمناوي، التوقيف على مهمات التعاريف، ص: 37.
(5) الفيوميّ، المصباح المنير: (أتى).
(6) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (ذكر).
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ذكر).
(8) الراغب، المفردات: (ذكر).
(9) الأزهري، تهذيب اللغة، والسمين، عمدة الحفاظ: (وذر).

بها، والجمع وُذَر[1]، والعَرَبُ قد أَماتتِ المَصْدر من (يَذر) والفِعْل الماضي، واستعملته في الحاضِر والأمر، فإذا أرادوا المصدر قالوا: ذَرْه تَرْكاً[2]، والمقصود بالوذر في الآية: التَّركُ، أي: تتركون الحلالَ الطَّيِّبَ، وتزهدون فيه، وتُهملونه.

6) ﴿عَادُونَ﴾: أصلُ (عدو) يدُلُّ على تجاوُزٍ في الشَّيْءِ وتقدُّم لما ينبغي أن يُقتَصَرَ عليه، يُقالُ: قَدْ عَدا فُلانٌ عَدْوًا وعُدوًّا، أَي: ظَلَمَ ظُلْمًا جاوَزَ فيهِ القَدْرِ[3]، ومنه تَعَدَّى النَّهْرَ، أيْ: تَجاوَزَهُ، وعدا عليهِ بِالسَّيْفِ يعدو عَدْوًا[4]، فالعَدْو مَصْدَرٌ بِمَعْنَى الظُّلم والتَّجاوز، ولَيْسَ مِنَ الاعْتِداءِ الَّذي مثاله قوله تعالى: ﴿جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان: 31]، فالعَدْوُ تَجاوُزُ الحَدِّ في الظُّلْم[5]، والعادي: هو الَّذي تجاوزَ حدَّ الحقِّ إلى الباطِل، ومعنى قوله تعالى: ﴿عَادُونَ﴾: متجاوزون ما أباحَهُ اللّٰه لكم منَ الحلال إلى الحرام[6].

المَعنى الإجْماليُّ:

تَجرُّدُ لوطٍ في دعوته، وإنكارُه على قومه ما هم عليه من شُذوذٍ وانحراف

تُبيِّن الآياتُ الكريمة الموقفَ الواضحَ للوطٍ عليه السلام، في كونه لم يطلب على دعوته ثوابًا أو مكافأةً، فما ثوابُه إلّا على ربّ العوالم كلّها، الذي خلقها وتكفّل بها، وأنكر عليهم فعلَهم الفاحشة في الذّكور وترك نساء العالَمين، تاركين الحلالَ الطّيب إلى الشّاذِّ المنكر الخبيث، وبيّنت تعجُّبَه عليه السلام من كيفيّة تَرْكِهِمُ الحلالَ الطيّبَ الذي خلقه اللّٰهُ لهم منَ النّساء، ظانّين أنّ الشّذوذَ حقٌّ لهم، وهم بذلك يعتدون الاعتداءَ الآثم، ويأتون المنكرَ الغاشم، وترشدُ الآياتُ الكريمة إلى التّنبيه على أنَّ هذا الفعلَ الفظيعَ مخالفٌ للفطرة، لا يقع منَ

(1) السمين، عمدة الحفاظ: (وذر).
(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (وذر).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عدو).
(4) ابن دريد، جمهرة اللغة: (عدو).
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/ 274، 19/ 180.
(6) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (وذر).

الحيواناتِ العُجْم، فهو عمل ابتدعَه هؤلاء القومُ، ما فعلَه غيرُهم، وأنَّهم مخالفون جميعَ العالَمين منَ الأنواع التي فيها ذكورٌ وإناث؛ فإنّها ليس فيها البتّةَ ما يأتي الذّكور، وترشد إلى أكبر فاحشةٍ وقعت في الأرض، والعياذ باللّه تعالى[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواو، ودلالتُها التّناسبيَّة:

زُهدُ الأنبياءِ بما في أيدي النّاس يمنحُهم القوَّة في تقويم النّاس

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ﴾ عاطفةٌ، عطفت الجملة على ما قبلها ﴿إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ﴾، فهي من ضمن القول الذي قاله لهم، تعريفًا برسالته ومهمّته، "أي: علمتم أنّي أمينٌ لكم، وتعلمون أنّي لا أطلب من دعوتكم إلى الإيمان نفعًا لنفسي"[2]، "ولمّا أثبتَ الدّاعي إلى طاعته، نفى النّاهي عنها، فقال: ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ﴾ أي: الدّعاء إلى اللّه ﴿مِنۡ أَجۡرٍ﴾ أي: فتتهموني بسببه، ونفى سؤالَه لغيرهم منَ الخلائق بتخصيصه بالخالق، فقال: ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾"[3].

فائدةُ استعمالِ (ما) النّافية:

كلُّ أجرٍ منَ العبادِ متوقَّعٌ، فهو عنِ القَبول واقع

(ما) في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ﴾ نافية، تنفي الفعل المضارع في الحال، أي: لم أسألكم عليه أجرًا مكافأةً مقابلَ دعوتي لكم إلى الخير، وهي تدخل على المضارع فتنفي الحال، وآثَر النَّظمُ استعمال (ما) دون غيرِها منَ الأدوات، للعموم، أي: ما أسألكم أجرًا ممّا يقع في خيال أذهانكم، وتحتَ منظارِ أفكاركم.

دلالةُ استعمال مفردةِ السّؤال مادّةً وصيغةً:

آثَرَ النّظمُ الكريم استعمالَ مفردة السّؤال في قوله تعالى: ﴿وَمَآ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 179، والجزائريّ، أيسر التّفاسير: 3/ 675.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 159.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 81.

رسلُ اللهِ تعالى لا يطلبون المالَ صراحةً ولا كنايةً

﴿أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ دون أن يقال: (وما أطلب منكم)، ونحوُ ذلك، والسّؤال بمعنى طلبِ الشّيء؛ لبيان أنّه لا يطلب صريحًا أو كناية، فهو لا يطلب المالَ صراحةً، ولا يسأل عنه بطريق التّلويح والإشارة، وهذا أبلغ في التّعبير من ذِكْر لفظ الطّلب.

علّةُ التَّعبيرِ بصيغة المضارع:

لِـيَـعُـمّ نفيُ الطّلب الزّمان كلّه

جيء بصيغة المضارع ﴿وما أَسْئَلُكُمْ﴾، فهو ﷺ لم يطلب مالًا ولم يستفهم عنه في الماضي، وهم يعلمون أنَّه لم يطلب، ونفيًا للحال والاستقبال، فإنَّ عدم السّؤالِ فيما مضى، لا يعني عدمَ السّؤالِ فيما يأتي، فعَمَّ النّفيُ الزّمان كلَّه.

غرضُ استعمالِ حرفِ الاستعلاء:

رُسلُ اللهِ تعالى لا يسألون الأجرَ ولا يُساومون العبادَ

تعدَّى فعل ﴿أَسْئَلُكُمْ﴾ بحرف (على) دون أن يتعدَّى بنفسه، فلم يقل: (أسألكم أجرًا)؛ وذلك لتضمينه معنى قايض وساوم، أي: لا أطلبُ منكم أجرًا مقابلَ دعوتي لكم إلى الخير، أو جاهًا أو جُعْلًا، أو أيَّ عَرَضٍ دنيويّ، وقُدِّم ﴿عَلَيْهِ﴾ على القيد ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾؛ للاعتناء بالمُقدَّم، بالتَّنبيه على أنّه لا يسألهم الأجر عليه خصوصًا، والتّشويق إلى المُؤخَّر.

تعيينُ مرجعِ الضّمير:

يرجع الضّمير في ﴿عَلَيْهِ﴾ إلى الإيمانِ، أي: لا أسألكم على إيمانكم باللّه تعالى وتقواكم له وطاعتِكم لي من أجرٍ، وهو معلومٌ من عموم النّصوص الشّرعيّة، وإن لم يسبق لمرجع الضّمير ذِكْرٌ.

معنى ﴿مِنْ﴾ ودلالتُها:

نفي العموم أبلغ في الدّلالة على النّزاهة منَ النّفي المُجرَّد

جاء حرف ﴿مِنْ﴾؛ لتأكيد العموم، أي: أيُّ أجرٍ كان، فأشارَ بذلك إلى الإغراق في النّفي[1]، ولو قال: (وما أسألكم عليه أجرًا) لما شَمِل

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 62.

ما يَشْمَلُه دخولُ ﴿مِنۡ﴾ منَ الاستغراق، واشتمالِ كلِّ أجرٍ يتصوّرُه الذّهْنُ، مهما قلَّ أو كَثُر.

بلاغةُ استعمالِ مفردةِ ﴿أَجۡرٍ﴾ وتنكيرِها:

دعوةُ الأنبياءِ عظيمةٌ، ذاتُ جَهْدٍ ومشقّة

آثر النَّظمُ الكريم استعمالَ مفردة ﴿أَجۡرٍ﴾ دونَ (مال) أو (جاه) ونحوه؛ لبيان أنَّ ما يقوم به من عملٍ قد يُطلب عليه الأجرُ عند سائر النّاس، وللإشارة إلى أنَّ مهمّته ليست يسيرةً، بل هي أمرٌ عظيم يحتاج لجَهدٍ جهيدٍ وعملٍ دؤوب، كأيّ عملٍ يقوم به الأجيرُ، وينتظر أُجرتَه، ونُكِّر ﴿أَجۡرٍ﴾ للتَّقليل، أي: أجرٍ ولو كان قليلًا، أو للإبهام، أي: أيِّ أجرٍ كان، كما أنَّ النّكرة في سياق النّفي تُفيد العموم.

عِلَّةُ فصلِ الجملة عمّا قبلها:

ربطُ المعاني بالمقاصد من أعظم وسائل الإقناع لأهل العقول

حَسُن فصلُ جملةِ ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ عمّا قبلها؛ إمّا لأنّها جملة تعليليّةٌ، فهو لا يسألهم على دعوته من أجرٍ؛ لأنَّ أجره على اللّه تعالى، ففيها بيانُ ما تقدَّم، فهي من كمال الاتّصال، وإمّا لأنَّها بيانيّةٌ مستأنَفَةٌ، جاءت جوابًا عن سؤالٍ يتبادَر إلى الذِّهن: فمَن يُثيبُكَ على هذا العمل؟ فأجاب: بأنّ أجرَه على اللّه وحدَه، فبينَ الجملتين شِبهُ كمالِ الاتّصال، لذا حَسُن الفصلُ.

نوعُ ﴿إِنۡ﴾ ودلالتُها:

﴿إِنۡ﴾ بمعنى (ما) النّافية، بدليل الاستثناء، أي: ما ﴿أَجۡرِيَ﴾ في دعائي لكم ﴿إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، أي: الذي دَبّر جميعَ الخلائقِ وربّاهم[1].

لطيفةُ تكرارِ لفظِ الأجر مُضافًا إلى ياء المُتكلّم:

المقابلةُ تدعو العقولَ لاستحضار الفروق

أعاد ذِكرَ الأجرِ في قوله تعالى: ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، ولم يُكَنِّ عنه بالضّمير احتراسًا؛ ليَستقيمَ الكلامُ، ويصِحَّ الاستثناءُ منه، وأعادَه بنفسه دونَ أن يقول: (ثوابي) أو (جزائي)؛ لبيانِ أنَّ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 63.

له أجرًا عند اللّه تعالى، ولإظهار الفرقِ بينَ الأجر الذي يتوهّمونه، والأجرِ الجزيلِ من ربِّ العالَمين، والإضافةُ في لفظ ﴿أَجۡرِيَ﴾ للمُلْكيّة والاختصاص، وفيه حَفْزٌ لهم على الامتثال؛ لينالوا أجورَهم من ربِّ العالَمين، كما يرجو لنفسه.

دلالةُ القَصْر بالنّفي والاستثناء:

التَّجرُّدُ في طلب الأجر من الله وحْدَه

أفاد القَصْر بالنّفي والاستثناء في قوله تعالى: ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أنَّ الأجر كلَّه منَ اللّه تعالى، لا مطمَعَ له فيهم، ولا رجاءَ من ورائهم، فالأجرُ خالصٌ منَ اللّه تعالى، وهذا يعني تجرُّدَه وإخلاصَه في دعوته، فجملة: ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ تعميمٌ لنفي تَطَلُّبِه أجرًا على دعوتهم، سواء منهم أم من غيرهم[1]، وقد خاطبَ به كلُّ نبيٍّ قومَه؛ إزاحةً لما عسى يتوهَّمونَه، وإمحاضًا للنّصيحة؛ فإنَّها ما دامت مشوبةً بالمطامع بمَعْزِل عنِ التّأثير[2].

بلاغةُ استعمالِ حرف ﴿عَلَىٰ﴾:

تشوُّفُ لوطٍ عليه السلام إلى الأجر العظيم الموعودِ به من ربِّ العالَمين

أتى النّظمُ الكريم بحرف ﴿عَلَىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ لإفادة أنَّه حقٌّ، وهو له عند اللّه تعالى؛ بناءً على وعد اللّه إيّاه، فقد عَلِمَ بأنّ اللّه لا يُخْلِف وعدَه، فصار بالوعد حقًّا على اللّه ألزمَ به نفسَه[3]، وحرفُ ﴿عَلَىٰ﴾ يقتضي أنَّه حقٌّ على اللّه، وذلك بالنّظر إلى وعده الصّادق[4]، كما عبّر بحرف ﴿عَلَىٰ﴾؛ للإشارةِ إلى عُلوِّ هذا الأجرِ، وهو يعلو عليكم، ولا يمكن أن تتساموا إليه؛ لأنَّه من ربِّ العالَمين، الذي يَدينُ له العالمون أجمعون بالرّبوبيّة والطّاعة والخضوع[5].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/ 241.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/ 216.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/ 241.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 237.
(5) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5378.

فائدةُ التّعبير بعنوان الرّبوبيّة:

معاني الرّبوبيّة تجمع بين تعظيم الله ومحبّته؛ الجامعةِ بينَ الرّهبة والرّغبة

آثر النّظمُ الكريم التّعبيرَ بالرّبوبيّة في قوله: ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾؛ للإشارة إلى أنَّه هو "الذي ربّاهم بنعمه، وأدرَّ عليهم فضلَه وكرمَه، والذي دبَّر جميعَ الخلائق وربّاهم"[1]، وهو "المُحسن إليهم بإيجادهم ثمَ تربيتِهم"[2]، فكان الواجبُ عليهم أن يتلقَّوا رحمتَه بالقَبول، ويقابلوها بالإيمان، فجاء التّعبيرُ بصفة الرّبوبيّة؛ تعظيمًا لهذا الأجر، فهو مِن قِبَلِ الخالقِ الرّازق، المالكِ المُدبّر، المُحسن، وأفادَ إيثارَ عنوانِ الرّبوبيّة هنا، أن يجمع العبدُ بين تعظيمه ومحبّته، فهو ربُّ العوالم كلّها، وهو مَليكُها وخالقُها، ومُدبِّرُها ومُصَرِّفُها، وهو المُحسنُ إلى عباده، المُتعهِّدُ لهم بالنّعم، المُتَكفِّلُ لهم بالهداية والرّعاية.

معنى تعريفِ ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، ودلالةُ جمعِها:

كثرةُ العوالم دليلٌ على عَظَمة ربّها الذي خلقها ودبّرها

(أل) في لفظ ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾: للاستغراق لتشملَ جميعَ العوالم، و﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ "جمعُ عالَم، والعالَم: اسمٌ موضوع للجمع، وهو كلّ موجودٍ سوى اللّه تعالى"[3]، وجمعُ ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ للتّعظيم والتّكثير، فهي عوالمُ كثيرةٌ لا تُعَدُّ ولا تُحصَى، ففيه تعظيمٌ لهذا الأجرِ الذي تكفّل به ربُّ العوالم كلّها، ومالِكِها ومُدبِّرِها، الذي عمَّ بفضلِه الوجودَ، وغمرَ بإحسانه كلّ موجودٍ، وفي هذا الجمعِ تعظيمٌ لَمن أرسله، وتعظيمٌ للأجر، وإشعارُهم بعَظَمة اللّهِ ورحمته، فيهابونه ويحبّونَه.

غرضُ الاستفهام وبلاغتُه:

مَن شذَّ عن العالَمين استحقَّ إنكارَ رسولِ ربِّ العالمين

الاستفهامُ في قوله تعالى: ﴿أَتَأۡتُونَ ٱلذُّكۡرَانَ مِنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ للتَّوبيخ والإنكار والتّعجيب! أنكر عليهم هذه الفعلةَ الشّنيعةَ، وهذه الكبيرةَ الفاحشة، أي: أتأتون من بين أولاد آدمَ عليه السلام - على فرط

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 63.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 81.

(3) العكبريّ، التّبيان في إعراب القرآن: 1/ 5، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/ 28.

كثرتهم، وتفاوتِ أجناسهم، وغلبةِ إناثهم على ذكورهم في الكثرة - ذُكْرانَهم؛ كأنَّ الإناث قد أعوزَتْكُم، وهذا على معنى الاستغراق، أو أتأتونَ أنتُم - من بين مَن عداكم منَ العالَمين - الذّكرانَ، يعني: أنَّكم يا قومَ لوطٍ وحدَكم مختصّون بهذه الفاحشة، و(العالَمون) على هذا القول: كلّ ما يُنكَح منَ الحيوان(1).

بلاغةُ الكناية في قوله: ﴿أَتَأۡتُونَ﴾:

مقتضى فقهِ الأولويّات البَدءُ بالأظهرِ فُحْشًا والأشدِّ أذًى

آثَر النَّظمُ الكريم لفظَ الإتيان في قوله تعالى: ﴿أَتَأۡتُونَ ٱلذُّكۡرَانَ﴾؛ لتضمنها معنى فعلِ الشّيء ومقاربتِه، ونظيرُه التّعبيرُ عنِ الجماع بالقُربان: ﴿وَلَا تَقۡرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطۡهُرۡنَۖ﴾ [البقرة: 222]، وهو كنايةٌ عن ممارسة الفاحشة وإتيانِ الرّجال، وهذا من أدب القرآن، وسُموّ عباراته، وهو كذلك من أدب نبيّ اللّهِ لوطٍ ﷺ وفطانتِه في انتقاء الكلمات، رغمَ أنّه يخاطبُ مَن تجاوز حَدّ الأدبِ، وأفرط في الفُحش والخَنا، وتمادَى في الفجور، وتظاهر بالفِسق، وخلعَ عذارَ الحياء، وتدثّر بثوب التّفحُّش والبَذاء.

معنى التّعبير بالجمع في قوله: ﴿أَتَأۡتُونَ ٱلذُّكۡرَانَ﴾:

شيوعُ الشّذوذِ والفجور يوجِب المسارعةَ في تغييره لمنع مُكنتِه

دلَّ جمعُ الفاعلين للفاحشة في قوله تعالى: ﴿أَتَأۡتُونَ ٱلذُّكۡرَانَ﴾ على عموم البَلوى، واستشراءِ الدّاء، واستفحالِ الوباء في قريتهم، حتّى انغمسَ فيه الجميعُ، بل كانوا يتظاهرون بها في نواديهم ويُجاهِرون، ويتباهَون ويتنافسون: ﴿أَئِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقۡطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأۡتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلۡمُنكَرَۖ﴾ [العنكبوت: 29]، وفيه دلالةٌ على أنَّ الفاحشة أو الكفرَ إذا انتشر استعصى على الدُّعاة، وتمكَّن منَ النّاس، ويؤخذ منه: ضرورةُ المسارعةِ إلى تغيير المنكر عند وقوعه؛ كي لا يثبتَ مع تقادُم الأيام في النّفوس والقلوب واعتيادِ النّاس، فإنَّ النّاس إذا اعتادوا أمرًا استوثقوا منه، وإن لم تقنع به عقولُهم.

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 329.

دلالةُ صيغةِ الجمع في قوله: ﴿ٱلذُّكۡرَانَ﴾:

يحسُنُ مع شذوذِ السُّلوك غرابةُ الألفاظ

جاء جمع لفظِ ﴿ٱلذُّكۡرَانَ﴾ وهو جمع ذَكَر مقابل الأُنثى[1]، على وزن (فُعْلان) دون أن يجمع على (ذُكور)، وسِرُّ ذلك: هو الإشارةُ إلى غرابة الفعل الذي كان يفعله هؤلاء الذُّكران من قوم لوط، فناسبَ ذلك غرابةَ اللّفظ وقلّة استعماله، كما أنَّ كلمة ﴿ٱلذُّكۡرَانَ﴾ توحي باكتمال الذّكورة، وفي هذا تقبيحٌ لهم - لعنهم اللّهُ تعالى -، وفي جمع ﴿ٱلذُّكۡرَانَ﴾ دونَ الذّكور إمعانٌ في الإنكار عليهم، والتّشنيعِ بقبيح فعلِهم.

معنى ﴿مِنَ﴾ ودلالتُها:

شذوذُ ذُكران قومِ لوطٍ انحرافٌ لم يُعرَف في تاريخ البشر أو الحيوانات

﴿مِنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَتَأۡتُونَ ٱلذُّكۡرَانَ مِنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ فصليَّةٌ، تُفيد معنى الفصل بين متخالِفَين، بحيثُ لا يماثِلُ أحدُهما الآخر، وعليه فالمعنى: أنتم مفصولون منَ العالَمين، منعزلون عن صفاتهم الفطريّة، لا يماثلكم في ذلك صنفٌ منهم[2]، والمعنى: (أتأتون الذُّكران مُخالفينَ جميعَ العالَمين منَ الأنواع التي فيها ذكورٌ وإناثٌ)، فإنّها لا يوجد فيها ما يأتي الذّكور، ويقوّي هذا المعنى قولُه تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٨٠﴾ [الأعراف: 80][3].

معنى التّعريف في لفظِ ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾:

سواء كان التّعريف للاستغراق أو الجنس، ففيه توبيخٌ لا يخفى

جاء تعريف ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَتَأۡتُونَ ٱلذُّكۡرَانَ مِنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ للاستغراق، على معنى: أنَّهم مختصّون بهذه الفاحشة من دون سائر النّاس، وقد يكون هذا التّعريف للجنس، إذا أُريد بـ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ كلُّ ما يُنْكَح منَ الحيوان[4]، وفي احتماليّ معنى (أل) التّعريفية توبيخٌ لا يخفى.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 36، والآلوسيّ، روح المعاني: 19/ 115.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 179.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 179.
(4) ابن عثيمين، سورة الشّعراء دراسة بلاغيّة تحليليّة، ص: 188.

دلالةُ العطفِ في إظهار المعاني:

الشُّذوذُ الجنسيُّ بينَ الرِّجال يُفضي إلى الشّذوذ بينَ النِّساء

الواو في قوله تعالى: ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمۡ رَبُّكُم﴾؛ للعطف المقتضي الاشتراكَ في الحُكم، إذ كلاهما مُنكرٌ خبيث، فالشُّذوذُ فِسقٌ شنيعٌ، وتركُ الزّوجات إضاعةٌ لحقِّهنَّ الشَّرعيّ، وإهمالٌ لهُنَّ، وتعريضٌ لهُنَّ للوقوع في الفاحشة، وإفسادٌ لفِطرتِهنّ؛ ممّا قد يُفضي إلى انتشارِ السُّحاق بينَهُنّ، ولا تنتشر هذه الفِعْلَةُ الشّنيعةُ إلّا بسبب خَواء الأرواح، وفسادِ الأخلاق، معَ الحِرمان منَ الأزواج، فهو تعديدٌ لجرائمهمُ الأخلاقيّة، جريمةٍ تِلوَ الأُخرى، والأخرى لا تَقِلُّ عن جريمتهم الأولى، وهي إهمالُ النّساء، بالعُزوف عنِ الزّواج الطّبيعيّ، أو التّفريطِ في حَقّ الزّوجات.

بلاغةُ التَّعبير بمفردة ﴿وَتَذَرُونَ﴾:

اشتمالُ (وتذرون) على إهمال المَتروك والنّفْرة منه

آثَر النّظمُ الكريم اصطفاءَ لفظِ ﴿وَتَذَرُونَ﴾ دونَ ما يقاربُه منَ الألفاظ، نحو: (تتركون)؛ لاشتمال ﴿وَتَذَرُونَ﴾ على معنى إهمال الشّيء والنّفور منه، فهو تركٌ معَ إهمال، كأنَّهم يرتكبون أمرين: إتيانَ الذُّكران، وتركَ النّساء، فالفعلُ يدلُّ على تركٍ مع نُفور وإهمالٍ، يُقال: فلانٌ يَذَرُ الشَّيءَ، أي: يَقذِفُه لقِلَّة اعتداده به[1]، بخلاف (تتركون) و(تَدَعون)، فقد يكون عن غير رغبة، وقد يَترك الشّيءَ وهو مُحبٌّ له، مولَعٌ به.

دلالةُ التّعبير بصيغة المضارع:

تصويرُ عمومِ البَلوى وشيوعِ الفُجور

جاء التَّعبيرُ بصيغة المضارعة ﴿وَتَذَرُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمۡ رَبُّكُم﴾؛ ليدلَّ على إصرارهم على ذلك، وتماديهم فيه، وفيه تصويرٌ لبشاعة فعلِهم؛ تنفيرًا منه وتقبيحًا له، كما أنَّه دلَّ على شُيوع تلك الفاحشة فيهم، وتلطُّخهم بها، حتّى لم يبقَ منهم طاهرٌ مُتعفِّفٌ، إلّا في بيت لوطٍ عليه السلام، فدلّ هذا على

(1) الرّاغب، المفردات: (وذر)، والبروسويّ، روح البيان: 6/ 301.

ممارستهم جميعًا لهذا الفعلِ الشّنيع، وإن وُجِدَ مَن لم يشارك، فهو راضٍ عن فعلهم، مُسْتَحْسِنٌ له.

براعةُ فنِّ الطِّباق:

إتيانُ الرّجالِ وتركُ الحلائلِ مِنَ النّساءِ جريمتان متقابلتان متباينتان

دلَّتِ المقابلةُ بينَ الفعلين: ﴿أَتَأۡتُونَ﴾ و﴿وَتَذَرُونَ﴾، على أنَّ الاشتغال بأحدهما إهمالٌ للآخر، وهو مُحسِّنٌ بديعيٌّ في هذا السّياق؛ روعيَ في هذا الطّباق الجمعُ بين متضادّين مع مراعاة التّقابل، وهو من فنون البديع، فإتيانُ الرّجالِ وتركُ الحلائلِ مِنَ النِّساء جريمتان متقابلتان، متباينتان، مع اتّصالهما بفاعل واحد.

معنى ﴿مَا﴾ ودلالةُ استعمالِها:

النَّظمُ القرآنيُّ يجمع قيمَ الأخلاقِ ومقاصدَ الشَّريعة

﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُمۚ﴾ موصولةٌ، أي: الذي خلق لكم ربُّكم، وعبّر عنِ الاسم الموصول بـ ﴿مَا﴾ دون (من)؛ لأنَّه يُشير إلى الجنس لا لفرد بعينه، ففيه تصويرٌ لبشاعة فعلِهم تنفيرًا منه، أو أنّه عبّر بـ﴿مَا﴾ للإبهام، والمرادُ موضعُ الحَرْث، وفي ذلك مراعاةٌ للحَشْمة والتّصوّن[1]، والتّعبيرُ بصِلة الموصول ﴿مَا خَلَقَ لَكُمۡ رَبُّكُم﴾ للوصول إلى ما في حيِّز الصّلة من أنَّ خَلْقَ اللّهِ هو المناسِبُ للفطرة والأنسب لهم، ففيه إيماءٌ إلى الاستدلال بالصّلاحيّة الفطريّة[2]؛ إذ إنَّ ما خلقه اللّهُ صالحٌ للفطرة، وما عداه مُجافٍ لها.

بلاغةُ استعمال مفردة الخَلْق مادّةً صيغةً:

الخروجُ عن الفطرة انتكاسةٌ توجِب العذابَ الماحِقَ

آثَر النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بمفردة الخَلْق في صلة الموصول ﴿مَا خَلَقَ﴾؛ ليُكنّيَ به عنِ المُراد، وهذا من أدب القرآن، وليردَّهم إلى الفطرة التي انقلبوا عنها وتمرّدوا عليها، ونوَّه بنعمة اللّه التي رفضوها، فهذا الأمر لا يخضع للتّغيير والتّطوّر البشريّ؛ لأنّه

---

(1) الصّافيّ، الجدول في إعراب القرآن: 10/ 115.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 186.

انحرافٌ عنِ الطّبيعة التي خلق اللّهُ البشرَ عليها جميعًا، وفي قوله: ﴿مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم﴾ إيماءٌ إلى الاستدلال بالصّلاحيّة الفطريّة لعملٍ على بُطلان عمل يضاده؛ لأنّه منافٍ للفطرة، فهو من تغيير الشّيطان وإفسادِه لسُنّة الخَلْق والتّكوين، قال تعالى: ﴿وَإِن يَدۡعُونَ إِلَّا شَيۡطَٰنٗا مَّرِيدٗا ١١٧ لَّعَنَهُ ٱللَّهُۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنۡ عِبَادِكَ نَصِيبٗا مَّفۡرُوضٗا ١١٨ وَلَأُضِلَّنَّهُمۡ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمۡ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلۡقَ ٱللَّهِۚ﴾ [النّساء: 117 - 119][1]، وجاء التّعبير بالفعل الماضي ﴿خَلَقَ﴾؛ لبيانِ أنَّ ما خلقَه اللّهُ وقضاه مضى في حُكْمه تعالى لا يتغيّر، فالفطرةُ لا تتبدّل ولا تتغيّر، مهما تغيّر الزّمان، كما قال تعالى: ﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ﴾ [الرّوم: 30].

معنى (اللّام) في ﴿لَكُمۡ﴾، ونُكْتَةُ التّقديم:

الامـتـنـانُ من أغـراض تقديم القيود

(اللّام) في ﴿لَكُمۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُمۚ﴾ للتّخصيص والتّعليل، أي: خلق من أجلِكم، فالسّياق سياقُ امتنان، وقُدِّم الجارُّ والمجرور ﴿لَكُمۡ﴾ على الفاعل ﴿رَبُّكُم﴾ في قوله تعالى: ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُمۚ﴾؛ لبيان عناية اللّه بهم، إذِ السّياق سياقُ امتنان.

نُكْتَةُ التّعبير بالرّبوبيّة:

حرصُ الأنبياءِ على ترسيخ معنى الرّبوبيّة في نفوس أقوامهم

آثَرَ النّظمُ الكريم التّعبيرَ بالرّبوبيّة في قوله تعالى: ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُمۚ﴾ دونَ الأُلوهيّة؛ لما يشمله هذا الوصفُ الجليل من معاني الخَلْق والتّقدير والرّعاية والإنعام والتّربية، وهو المناسبُ للإنكار عليهم فطرةَ اللّه التي فطرَ النّاس عليها، التي هي مظهرٌ من مظاهر ربوبيّتِه، أي: كيف تتركون ما خَلَقه لكم خالقُكم المتفضّلُ عليكم، المُدَبِّرُ لأموركم، والمُحسنُ إليكم!.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 179.

الإمعانُ في تبكيتِ الشّاذّين المخالِفين لأمر ربِّ العالَمين

دلالةُ إضافةِ لفظِ الرّبوبيّة إلى الضّمير:

أُضيفَ لفظُ الرّبوبيّة إلى ضمير المخاطَبين في ﴿رَبُّكُم﴾؛ لتبكيتهم، والإمعانِ في توبيخهم، كيف يفعلون ذلك ويتركون الحلالَ الطّيبَ الذي خلقَه خالقُهم ورازقُهم ومالكُهم، ومُدَبّر أحوالِهم، المُشَرّع لهم، الهادي لما يُصلحهم؟[1] فهو ربّكم الذي أوجدكم من عدم، وخلقكم بطريق التّناسل الذي لا يكون إلّا بين الذّكور والإناث، فهو دالٌّ على أنَّ ما خلقه اللّهُ تعالى لعباده، من كمال ربوبيّته ورأفته بخَلْقه ورحمته بهم.

بلاغةُ الإيجاز وسموُّ التّعبير، معَ التَّعريض بصنيع الشّواذ

معنى ﴿مِّنۡ﴾ ودلالتُها التّعريضيَّة:

﴿مِّنۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُمۚ﴾ للبيان إن أُريد به جِنسُ الإناث، أو للتّبعيض إن أُريد الزّوجات، وعليه: فالمُراد موضعُ الإتيان منهنَّ، كنّى عنه أدبًا وترفُّعًا، وفيه تعريضٌ بأنّهم كانوا يفعلون مثلَ ذلك بنسائهم أيضًا، "وفيه دليلٌ على تحريم أدبار الزّوجات والمملوكات، ومن أجازه فقد أخطأ خطأً عظيمًا"[2].

النُّفرةُ منَ الفطرة سببُه اعتيادُ الباطل واستنكاهُ الشّذوذ

بلاغةُ استعمالِ مفردةِ الأزواج مضافة إلى ضمير الخطاب:

المراد بالأزواج في قوله تعالى: ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُمۚ﴾ الإناث، وإطلاقُ اسم الأزواج عليهنَّ "مجازٌ مرسل بعلاقة الأوّل، أي: باعتبار ما يكون"[3]، أي: من تَحِلُّ لكم إذا تزوجتُم بهِنَّ، ردّهم للفطرة، أو المراد بالأزواج؛ الزّوجات، وعلى هذا فالزّواج هو العقد بمعناه الشّرعيّ، والزّوجة هي التي حلّت بالعقد، أي: تتركون إتيانَ الزّوجات، وهو الحلالُ الطّيب، إلى إتيان الرّجال في أدبارهم، وإنّما جاء التّعبير بلفظ الأزواج دون الإناث: للإشعار بأنَّ

(1) العثيمين، تفسير سورة الشّعراء، ص: 261.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 330، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 148، وابن عادل، اللّباب: 5/ 67.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 179.

ما خلقه اللّه لهم لأجل استمتاعهم، إنّما هو قائم على رابطة الزّواج بينَ الذّكر والأنثى، ومشروطٌ بحصول العلاقة الزّوجيّة التي شرعها اللّهُ لهم، وفيها تعريض بمن ابتغى وراءَ تلك العلاقة الشّرعيّة.

دلالةُ إضافةِ الأزواج إلى ضمير المخاطَبين:

الحلالُ الطّيّب هو العلاج من إدمان الخبيث والسّقوط في الشّذوذ

إذا جعلنا المُراد بلفظ ﴿أَزۡوَٰجِكُم﴾ الإناث، فالإضافةُ للتَّخصيص، والمقصود نفورُهم منَ الفطرة التي تقضي بالتّزاوج الطّبيعيّ بينَ الذّكر والأنثى، إلى الشّذوذ بإتيان الرّجلِ للرّجل، فالتّعبيرُ هنا مجازٌ عنِ الزّوجات باعتبار ما يؤول، وهذا ردٌّ لهم إلى الفطرة حيثُ خلق اللّهُ الذّكر والأنثى، وجعل بينَ الجنسين ميلًا فطريًّا، فلوطٌ عليه السلام يردُّهم إلى الفطرة التي نكّسوها، والطّبيعةِ التي تجاوزوها، إذ خلق اللّهُ النّساء للرّجال، ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا﴾ [الرّوم: 21]، أو المراد بالأزواج: الزّوجات، وعلى هذا فالزّواج هو العقد بمعناه الشّرعيّ، والزّوجة هي التي حلَّت بالعقد.

معنى ﴿بَلۡ﴾ ودلالتُها:

التّدرُّج في تبكيت أصحاب الفواحش، والانتقال في توبيخهم من حالٍ إلى حال

﴿بَلۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٌ عَادُونَ﴾ للإضراب، وهو في هذه الآية انتقالٌ من وصفٍ إلى وصفٍ، أو حالٍ إلى ما هو أسوأ منه، فلمّا أنكر عليهم حالَهم في فعل الفاحشة بالرّجال، وإهمالِ النساء، ذكر ما هو أعمُّ وأطمُّ، وهو أنّهم قومٌ اشتُهروا بالعُدوان على الحُرمات، حتّى صار ذلك وصفًا لازمًا لهم، وقيل: ﴿بَلۡ﴾ للانتقال، تدرُّجًا في الإنكار والتّوبيخ، كعادة من يُنكِر، فتشتدُّ نبرةُ إنكاره، ويَغلُظ على المخاطَب، فينتقل من أسلوب التّلطُّف والتّرفُّق إلى أسلوب الشّدّة والقَسوة؛ تعنيفًا للمُذنب، وتأنيبًا له، وهذا من أسلوب التّدرُّج القائمِ على الحكمة والموعظة الحسنة في الدّعوة إلى اللّه تعالى، فهو إضرابٌ انتقاليٌّ من أسلوبٍ إلى

أسلوب، أو منَ التّوبيخ على ما هو منكر، إلى التّوبيخ على ما هو أشنَعُ وأقبَحُ[1].

نُكْتَةُ التّعريف بضمير الخطاب:

مَنْ أصرَّ على فُحْشِه حَرِيٌّ أن يُشَهَّر به

التّعريف بضمير الخطاب ﴿أَنتُمۡ﴾ تشهيرٌ بفعلهمُ القبيح، الذي عُرِفوا به دونَ غيرهم منَ العالَمين، وهذا الخطاب يُشْعِر بأنَّهم قومٌ تجاوزوا الحَدَّ في ارتكاب هذه المعصية على عِظَمِها، فأصبحَ أمرُهم ذائعًا معروفًا بينَ الأقوام، فالتَّعريفُ بضمير الخطاب جاء لغرض الذَّمّ والتّشهير.

بلاغةُ الجملةِ الاسميّة:

تأكيدُ المعاني، والمبالغةُ في تحقيق نسبتِها لأصحابها

جاء تصدير الجملة ﴿أَنتُمۡ قَوۡمٌ عَادُونَ﴾ بضمير الخطاب؛ تعظيمًا لقُبح فعلِهم، وتنبيهًا على أنَّهم هم مختصّون بذلك[2]، وللتّأكيد وبيان كونِ العُدوان وصفًا لازمًا لهم، فضلًا عنِ التّفنُّن في الأسلوب، فقد عُطِفَت على فعلين: ﴿أَتَأۡتُونَ﴾، و﴿وَتَذَرُونَ﴾، فالاسميّة في ﴿أَنتُمۡ قَوۡمٌ عَادُونَ﴾ للثّبات والتّوكيد، فهذا دَيْدَنُكم ودَأْبُكم، وللمبالغة في تحقيق نسبة العُدوان إليهم[3].

فائدةُ ذِكْر لفظ ﴿قَوۡمٌ﴾:

دِقّةُ التّعبيرِ القرآنيّ، ومصارحةُ لوطٍ قومَه بحالِهم المُتَردّيَة

جاء الإخبارُ عن قوم لوطٍ عليه السلام بلفظ ﴿قَوۡمٌ﴾، دون الاكتفاء بجعل ﴿عَادُونَ﴾ خبرًا عنهم؛ للتَّنبيه على أنّ العُدوان سجيّةٌ فيهم، حتّى كأنّه من مقوّمات قوميّتِهم[4]، وهو وصمٌ لهم بالعار الذي جلبوه، ولطّخوا به جماعتَهم، حتّى صار مذمّةً وعارًا، وبات لهم شعارًا ودِثارًا، فالعُدوان الذي هو مجاوزة الحَدّ في الشّرّ وصفٌ لهم باعتبارهم قومًا، فهم عريقون فيه.

(1) ابن يعيش، شرح المفصّل: 5/ 27، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 179، منير سلطان، الفصل والوصل في القرآن الكريم، ص: 95.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 82.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 180.
(4) ابن عاشور التّحرير والتّنوير: 19/ 180.

بلاغةُ التَّعبيرِ بلفظ (العُدوان):

آثَر النَّظمُ الكريم استعمالَ مفردة العُدوان دونَ الطّغيان؛ لأنَّ العُدوان تَعَدٍّ دائمٌ، وانتهاكٌ مستمِرٌّ عن عمدٍ، ومن غيرِ حقٍّ؛ فكُلُّه محظورٌ، والعادي: هو الذي تجاوز حَدَّ الحقِّ إلى الباطل، والحلالَ إلى الحرام، والطّيّب إلى الخبيث، فعدوانُهم خروجٌ عنِ الحَدِّ الموضوع بوضع الفطرة، إلى ما هو منافٍ لها محفوفٌ بمفاسد التّغيير للطّبع[1]، كما أنَّ العُدوان اعتداءٌ على النَّفس والفطرة والأخلاق، ويُلحظ فيه معنى الطُّغيان، فهو طغيانٌ وزيادة، فكان استعمالُه في هذا السّياق أبلغَ من لفظ الطُّغيان.

الشُّذوذُ وصفٌ لهؤلاء، لَطَّخَ سُمعَتَهم على مدى الحياة

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

(يَذَرُ) و(يَتْرُكُ):

يَذَرُ الشّيءَ بمعنى يتركُه، إلّا أنّ التّعبير بـ (يَذَر، وذَرْ) فيه زيادة معنى؛ لأنَّه تركٌ للشّيء عن زهادة فيه ونفورٍ منه، كأنَّه يعافُه، ومنه المرأة الوَذِرَةُ، التي تُشَمُّ منها رائحةُ اللّحم، وهذا أمرٌ غيرُ مستحبٍّ.

يذر يترك مع إهمال ونفور، والتَّركُ أعمُّ منه

"والتّركُ عند العرب: تخليفُ الشّيء في المكان الذي هو فيه، والانصرافُ عنه، ولهذا يُسَمّون بيضةَ النّعامةِ إذا خرج فرخُها تَريكة؛ لأنَّ النّعامَةَ تنصرف عنها، والتّريكةُ: الرّوضةُ يُغْفِلُها النّاسُ ولا يَرْعَونها"[2]، وتعبيرُ القرآن ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُمۚ﴾ أي: تتركون متعمِّدين، مولَعين بالخبيث، نافرين منَ الطّيِّب، ومهملين للزّوجات.

السّؤال والطّلب:

السّؤالُ بمعنى الطّلب، وقد يكون للاستفهام، والطّلب بمعنى السّؤال، وقد يكون لإدراك شيء واللّحاق به وإمساكه، والسّؤال لا يكون إلا كلامًا.

الطّلبُ أعمُّ منَ السّؤال، والسّؤالُ يختصُّ بالاستفهام والمسألة

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 180.

(2) السّيرافيّ، شرح كتاب سيبويه: 1/ 181، والعسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 124.

والطّلبُ: السّعيُ وغيرُه، وفي المثل: عليكَ الهربُ وعليّ الطّلبُ[1]، والطّلب قد يفتقر إلى جواب، وكلُّ سؤالٍ طلبٌ، وليس كلُّ طلبٍ سؤالًا، كما أنَّ "الطلب عامّ، حيثُ يُقال فيما تسأله من غيرك، وفيما تطلبه من نفسك، والسّؤال لا يُقال إلّا فيما تطلبه من غيرك"[2]، ولهذا قال تعالى على لسان رسله: ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، أي: لا أفرض عليكم، ولا أساومُكُم، ولا أستجدي منكم، فأجْري كاملًا على اللّه تعالى.

الأجرُ والثّواب:

الأجرُ يكون على عمل دنيويّ أو أُخرويّ، والثّوابُ أغلبُه لعمل الآخرة

ذُكِرَ الأجرُ في القرآن غالبًا في أجر الآخرة، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمٗا ٢٩﴾ [الأحزاب: 29]، وقد يأتي لأجر الدّنيا، قال تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ أَجۡرَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٢٧﴾ [العنكبوت: 27]، بينما يأتي الثّواب في القرآن من جهة اللّه تعالى مضافًا إليه أو فعلًا له: ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا وَحُسۡنَ ثَوَابِ ٱلۡأٓخِرَةِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٤٨﴾ [آل عمران: 148]. "وأصلُ الثّواب رجوعُ الشّيء إلى حالته الأولى التي كان عليها، أو إلى حالة المُقدّر المقصودة بالفكرة، وهي الحالة المشارُ إليها بقولهم: آخرُ الفِكْرة أوّلُ العمل، فمنَ الأوّل: ثابَتْ إليه نفسُه، وثابَ إلى داره، ومنَ الثّاني: الثّوبُ؛ سُمّي بذلك لأنّ الغَزْلَ رجع إلى الحالة التي قُدّرَ لها بالفِكْرة، والثّواب من ذلك، وإنّما سُمّي الجزاء ثوابًا تصوُّرًا أنّه هو هو، ألا ترى كيف جعلَهُ نفسَ الفعلِ في قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ٧﴾ [الزّلزلة: 7]، ولم يقل: يُجْزاه، والثّوابُ وإنِ استُعمل في الخير والشّرّ - كما تقدم - إلّا أنّه غلبَ في الخير"[3].

---

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 286.
(2) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 917، والدّهلويّ، حجّة الله البالغة، ص: 129.
(3) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (ثوب).

العُدوان والظّلم:

العُدوان: مجاوزةُ الحَدّ في الاعتداء والإثم، والظُّلم: وضع الشّيء في غير موضعه، فكلاهما تجاوزٌ، وكلُّ عُدوان ظُلْمٌ، وليس كلُّ ظُلْم عدوانًا، فهناك ظُلْمُ الإنسان لنفسه، بتقصيره في حَقّها، وقد وردَ العدوان في القرآن لمجاوزة الحَدّ، قال تعالى: ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ عُدۡوَٰنٗا وَظُلۡمٗا فَسَوۡفَ نُصۡلِيهِ نَارٗاۚ﴾ [النّساء: 30]، وقد وقع قوم لوطٍ في الأمرين: العدوان كما وصفهم لوط عليه السلام: ﴿أَتَأۡتُونَ ٱلذُّكۡرَانَ مِنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٥ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٌ عَادُونَ﴾؛ فإنَّ من وضعَ الشَّهوةَ في غير موضعها عادٍ آثمٌ، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ٦ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ٧﴾ [المؤمنون: 5 - 7].

الظّلمُ أعمُّ مِنَ العُدوان، ويختصُّ بتجاوز الحَدِّ المطلوب

﴿قَالُواْ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُخۡرَجِينَ ١٦٧ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلۡقَالِينَ ١٦٨ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهۡلِي مِمَّا يَعۡمَلُونَ ١٦٩﴾

[الشّعراء: 167 - 169]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

موقفُ المرسَلين شفقةٌ وإحسان، وموقفُ المُرسَل إليهم تفريطٌ وعُدوان

بعد أن بيَّنت الآياتُ السّابقة لقوم لوطٍ ﷺ حقيقةَ رسالتِه ودعوتِه للإيمان، ونهيهم عن سلوكهم المنحرف، ناسبَ ذكرَ ما يتشوّفُ السامعُ لمعرفته، فبيّن موقفَهم من دعوته ﷺ، كيف استقبلوها بالصّدود والوعيد، حتّى يُثنوه عن دعوته، ويُرغموه على السّكوت، لكنّه ثبت على الحقّ، وأصرَّ على إنكار ما هم عليه من قبيح الأعمال، مُعربًا عن شِدّة كراهيّته ونفورِه من شذوذِهم ورجْسهم، ثمّ لمّا أيسَ منهم، وتفاقَم شرُّهم، دعا اللّهَ أن ينجّيَه وأهلَه من خَبَثهم ودَنَسهم، فهو انتقالٌ من بيانِ موقفِ الرّسول، إلى بيان موقف المُرسَل إليهم.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَنتَهِ﴾: أصلُ (نهي) يدُلُّ على غايةٍ وبُلوغ، ومنه أنهيتُ إليه الخَبَرَ: بلَّغتُه إيّاه، ونهايةُ كلِّ شيءٍ: غايتُه[1]، والانتهاءُ: الامتناعُ منَ الفعل المنهيِّ عنه، يُقال: نهاه عن كذا فانتهى[2]، والنَّهيُ خِلافُ الأمر، والنِّهاية هي الغاية والخاتمة التي ينتهي إليها الشَّيء، والمراد بالانتهاء في الآية: الكفُّ والامتناع، والمعنى: (لئن لم تَكُفَّ وتمتَنِعَ عن نَهينا وتقبيح أمرنا).

2) ﴿ٱلۡمُخۡرَجِينَ﴾: أصلُ (خرج) يدلُّ على النَّفاذِ عن الشَّيء، يُقالُ: خَرَجَ يَخْرُجُ خُروجًا، والخَراجُ والخَرْجُ: الإتاوَةُ؛ لأَنَّهُ مالٌ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نهي).
(2) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (نهى).

يُخْرِجُهُ المُعْطي[1]، والإخراجُ ضِدُّ الإدخال، وأكثر ما يُقالُ في الأعيان، نحو: ﴿أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ٣٥﴾ [المؤمنون: 35]، والمُخْرَجُ بالضَّمِّ، قد يكون مَصْدَر قولك: أَخْرَجَهُ، أي المصدر الميميّ، وقد يكون اسم المفعولِ به على الأصل واسْم المكانِ، أي يدُلُّ عليه، والزَّمان أيضًا، دالًّا على الوقْتِ، ومنه: ﴿أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ [الإسراء: 80][2]، والمُرادُ بالإخراج في الآية: الطَّردُ والإبعاد، أي: لتكوننَّ منَ المطرودين من بلادنا.

3) ﴿ٱلْقَالِينَ﴾: أصلُ (قلو) يدُلُّ على خِفَّةٍ وسُرعةٍ، من ذلكَ القِلْوُ: الحِمارُ الخفيفُ[3]، والقالي: التّارك للشَّيء، الكارِهُ له غايةَ الكراهة[4]، والقِلَى: تجافٍ عنِ الشَّيء وذهابٌ عنه، وهو أيضًا: البُغض الشَّديد، وقَلَيْتُه أقليه قليًا: أبغضته[5]، مع سآمةٍ ونُفور، ومعنى﴿ٱلْقَالِينَ﴾ في الآية: المُبغِضون المُنكِرون.

4) ﴿نَجِّنِى﴾: أَصلُ الإنجاءِ الخَلاصُ مِنَ الشَّيْءِ، نَجا يَنْجو نَجْوًا ونَجاءً، مَمدودٌ، ونَجاةً، مَقْصورٌ، وأَنْجَيْتُ غَيْري ونجَّيْته، واستَنْجَى منه حاجَتَهُ: تخَلَّصها، وانْتَجَى مَتاعَه: تَخلَّصه وسَلبَه، ومعنى نَجَوْت الشيءَ: خَلَّصته وأَلْقَيْته، والنَّجاةُ: الخَلاصُ مِنْ ضُرٍّ واقِعٍ[6]، والنَّجوةُ والنَّجاةُ: ما ارتفَع من الأَرض فلم يَعْلُه السَّيلُ فظننتَه نجاءَك، والجَمعُ نِجاءٌ[7]، والمقصود بالإنجاء في الآية: جَعْلُ الغَيْرِ ناجيًا.

المَعْنى الإِجْماليُّ:

تُبيِّنُ الآياتُ الكريمةُ موقفَ قومِ لوطٍ عليه السلام من دعوته، كيف

الظّالمون يُسارعون إلى إخراج المؤمنين للخلاص من سماع المعروفِ والحقِّ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خرج).
(2) الزبيدي، تاج العروس: (خرج).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قلو).
(4) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 4/ 99، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (قلو).
(5) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (قلو).
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 130.
(7) ابن منظور، لسان العرب: (نجو).

استقبلوها بصدودٍ وجَفاء! فقالوا له مُتوعِّدين: لئن لم تَكُفَّ عنِ الإنكار علينا، لتُصبِحَنَّ منَ المُبعَدين عن بلدنا، المَطرودين منها، المحرومين من سُكناها، فأجابَهم ﵇ بثباتٍ وإصرار: إنّي منَ المُبغِضين أشَدّ البُغضِ لِفعلكم الذي يعتصر الفؤادُ حُزنًا، ويكتوي غضبًا من شناعته وفظاعته، ثمّ لمّا يئس منهم، وضاق ذرعًا بأفعالهم، توجّه لربّه طالبًا منه العِصْمةَ والنّجاةَ من شَرّهم، والخلاصَ مع أهل بيتِه من خُبْثِهم ومَكْرِهم، ومِن عقوبة اللّه التي ستصيبُهم.

وتُرشِدُ الآياتُ الكريمةُ إلى أنَّ التّهديد بالنّفي سنةٌ بشريَّةٌ قديمة، وإلى وجوب بُغْض الشّرِّ والفساد في أيّ صورةٍ من صورهما، وإلى أنَّ الأنبياء أولياءُ اللّه؛ يُحبّون ما يحبُّ، ويُبغِضون ما يُبْغِض[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

عِلَّةُ الفصلِ بينَ جُمَل الحوار:

اكـتـفـاءُ قـومِ لـوط بالتّهديد والوعيد والحِقد البعيد

قولُه تعالى: ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُخۡرَجِينَ﴾، إجابةٌ عن سؤال يتبادَر: فماذا كان جوابُهم؟ فالجملةُ استئنافٌ بيانيٌّ على طريقة فصْلِ جُمَل الحوار في القَصَص القُرآنيّ، فهي شِبه كمالِ الاتّصال، لذا حَسُن فصلُ الجملةِ الثّانية عنِ الأولى؛ لأنّها جوابٌ عن سؤال ينبثق عن سابقتها.

نُكْتَةُ التّعبير المجازيّ:

رضا السّاكتِ بكلام القائل مشاركةٌ له ومعاضَدَة

جاء فعلُ القول: ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُخۡرَجِينَ﴾ مُسْنَدًا لجميع قوم لوطٍ ﵇، والواقع أنَّ القول لا يصدر عنِ القوم جميعًا في وقتٍ واحد، وبلفظ واحد، فهو مجاز من إطلاق الكلّ وإرادةِ الجُزء، ويدلُّ على أنَّ صدور القولِ عن بعضهم مع رضا البقيَّة صدورٌ عنِ الجميع؛ لِرضاهم عن مضامينه، وموافقتِهم عليه.

---

(1) ابن تيميّة، جامع الرّسائل: 2/ 387، والجزائريّ، أيسر التّفاسير: 3/ 677.

نوعُ اللّامين، وفائدةُ اجتماعِ الشَّرطِ والقَسَم:

التّوعّدُ والتّهديد بالتّأكيد اللّفظيّ تعنيفٌ وترهيبٌ بقصد ترك الدّعوة

(اللّام) الأولى في ﴿لَئِن﴾ من قوله تعالى: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ﴾ موطِّئة للقَسَم المُضمَر، وتُسَمَّى اللّامُ المُؤذِنة، أي: المؤذنة بمَجيء القَسَم، والمعنى: (قسمًا لئن لم تنته)، واللّام الثّانية في ﴿لَتَكُونَنَّ﴾ واقعةٌ في جواب القَسَم المُقَدَّر، وجوابُ الشّرطِ محذوف؛ لتَأخُّر أداة الشّرط عن أداة القَسَم، وقد دلَّ عليه جوابُ القَسَم، وفي هذه الآية اجتمعَ القَسَم والشّرط، والقاعدةُ: إذا اجتمع شرطٌ وقَسَمٌ وجاء الجواب واحدًا، كان للأسبق منهما، وأغنى عن جواب المُتأخّر.

بلاغةُ استعمالِ مفردة ﴿تَنتَهِ﴾:

طلبُ الانتهاء عن قول الحقِّ دليلُ الضّيق الشّديدِ والشّعورِ البليد

الانتهاءُ: الكفُّ عنِ الشّيء مطلقًا فلا يعاوده؛ لذا جاء التّعبير بالانتهاء ﴿تَنتَهِ﴾ عن الوصول للنّهاية في شيء بلا رجعة، ومعنى الانتهاء: الامتناع منَ الفعل المنهي عنه، يُقال: نهاه عن كذا فانتهى[1]، ودلَّ هذا على أنَّهم نَهَوْه قبلَ ذلك، فلم ينتهِ، فهدّدوه متوعّدين: لئن لم تَكُفّ عن "نهينا وتقبيح أمرنا، لتكونَنَّ من جملة من أخرجناه من بين أظهرنا وطردناه من بلدنا، ولعلّهم كانوا يخرجون مَن أخرجوه على أسوء حال: من تعنيف به، واحتباسٍ لأملاكه"[2].

لطيفةُ إيثارِ النّفي على الإثبات:

النّفيُ أبلغُ منَ الإثبات، وهو أقوى من الأمر بالتّرك

النّهي عنِ الشّيء: الزّجر على فعله، وهو أقوى من الأمر بتركه؛ لكونه نهيًا صريحًا، والتّعبير بالنّفي: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ﴾ أبلغ منَ الإثبات؛ لأنّه يُفيد القطعَ والحسم والكفَّ المطلق عن توبيخهم، والإنكار عليهم.

دلالة نداء لوطٍ عليه السلام باسمه بأداة البعيد:

جاء النِّداء بأداة النّداء للبعيد في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ

(1) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (نهى).

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 330.

جفوةُ الجاهلِ ظاهرةٌ ولو أردتَ الخيرَ له

﴿يَٰلُوطُ﴾، رغم أنّه حاضر بينهم؛ لمعاملته معاملة البعيد، إقصاءً له، وإمعانًا في وعيده، وفيه ما يدلُّ على فظاظة، وجفّوة، وازدراء، مع جلالة قدره، ورفيعِ شرفه، فقد "وسموه باسمه؛ جفاءً وغِلْظَة، فقالوا: ﴿يَٰلُوطُ﴾"، وهذا يدلّ على جهالةٍ منهم وسَفَهٍ(1).

نُكْتَةُ الاعتراض بجملة النّداء:

التّهكُّم بلوطٍ عليه السلام، والإمعانُ في وعيده

الأصل هو الاتّصال بينَ الشّرط والجزاء، فإذا وقع الاعتراضُ فلِنُكْتَةٍ؛ والغرضُ منَ الاعتراض بجملة النّداء ﴿يَٰلُوطُ﴾ التّهكُّم به، والإمعان في الوعيد وتغليظه.

بلاغةُ الإطناب في قوله: ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُخۡرَجِينَ﴾:

الإطنابُ فائدةٌ بيانيَّة وتوثيقٌ لفظيّ

جاء التّعبيرُ عن وعيد قوم لوطٍ عليه السلام بإخراجه بقوله تعالى: ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُخۡرَجِينَ﴾، دون أن يُقال: (لنخرجنَّك)، فعبّر بصيغة المضارع في ﴿لَتَكُونَنَّ﴾؛ لمناسبة القَسَم، وللتّوكيد بدخول نون التّوكيد المُشَدّدة؛ ففيه إمعانٌ في الوعيد؛ لتخويف لوطٍ عليه السلام وصرفه عن دعوتهم، وهو إمعانٌ في التّهديد، أي: سنخرجك كما أخرجنا مَن قبلَك، فالكلمةُ كلمتُنا، والقضاء قضاؤنا، كما أنّهم بهذا التّعبير جعلوا خروجه كأنّه وصمةٌ ستلْحَقُ به، كما يطرد الإنسان من بلاده، فيصبح شريدًا طريدًا، يهيم على وجهه في البلاد، يلتصق به وصف الطّريد، أينما حلَّ لا يزايلُه، فيُضيّق عليه أينما حَلَّ، وتهديدُهم له بالخروج كأنه عليه السلام سيعاقَبُ بذنبٍ اقترفه، ويعاملُ معاملةَ الجُناة المُذنبين، ويُضمّ إلى قائمتهم؛ وصمًا له بالجريمة، رغم أنّه دعاهم للخير والفضيلة، ونهاهم عنِ الشّرّ والرّذيلة، ولكنّه منطقُ أهلِ الباطل المعكوس، وفطرتُهم المنقلبةُ، فيتباهَونَ بالدَّنَس والخبثِ، ويمتعضون منَ الطُّهر والعفاف، ويقولون: ﴿أَخۡرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٖ مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ ٥٦﴾ [النّمل: 56].

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 82.

دلالةُ استعمال ﴿مِنَ﴾:

الإخراجُ مِنَ الأرض دَيْدَنُ الظّالمين مِنَ الشّاذّين

﴿مِنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ﴾ بيانيّةٌ، أي: لنُخْرِجنَّك من بين مَن أخرجناهم، لذنبٍ أو لغير ذنب، فدلَّ على أنّ هناك من أنكر عليهم فأخرجوه، أو من أخرجوه لغير ذلك من أسباب، فهذا دَيْدَنُهم، وقد يكون الإنكارُ عليهم من أصحاب الفضيلة من قومهم، فلم يبق فيهم إلّا الشّواذّ، وخرج أصحابُ الفطرة السّليمة، أو منَ الرّسل ممّن لم يقصصِ اللّهُ تعالى علينا خبرَهم.

غرضُ تعريف ﴿ٱلْمُخْرَجِينَ﴾:

يحرصُ الظّالمون على تشويه سمعة المصلِحين

التّعريف في لفظ ﴿ٱلْمُخْرَجِينَ﴾ إمّا للاستغراق، أي: من أُخرجوا قبلَك بذنبٍ أو بغير ذنب، أو للعهد، باعتبار أنّهم معروفون مشهورون، سيتبادرون للأذهان عند ذكر هذا الوعيد، أي: مَن أخرجناهم قبلك، فالصّفة المذكورة، كالسِّمة للموصوف، ثابتةِ العُلوق به؛ كأنّها لقبٌ، وكأنّه من طائفة صارت كالنّوع المخصوصِ المشهورِ ببعض السّمات الرّديئة[1].

بلاغةُ استعمالِ مفردة ﴿ٱلْمُخْرَجِينَ﴾ مادّةً وصيغةً:

لا يغادِرُ رسلُ اللهِ تعالى أرضَهم إلّا بإخراجٍ أو لمطلبٍ شرعيّ

دلَّ استعمالُ مفردةِ ﴿ٱلْمُخْرَجِينَ﴾ على أنَّ لوطًا عليه السلام ليس من بلدهم، فهو في نظرهم غريبٌ، ليس له عشيرةٌ ينصرونه، وهم يرون في إخراجه عقوبةً قاسية له، ولاسيما وهم يعيشون في قرية مزدهرة عامرة، ولم يقل: (الخارجين)؛ لأنَّه لن يخرج بمحض إرادته، بل سيُخْرَج رغمًا عنه؛ يخرجونه قَسْرًا، والخروجُ منَ الدّيار أمرٌ شاقٌّ على النّفس، وهو من أشدّ البلاء، كما أنَّه يومِئ إلى أنَّ هناك منَ المُخرجَين من سبق حين نهاهم عن ذلك، "فنفَوْه بسبب النّهي، أو مِنَ المُخرجَين بسببٍ غير هذا السّبب، كأنّه من خالفهم في شيء نفَوه، سواء كان الخِلاف في هذا الفعل الخاصّ، أم في غيره"[2]،

(1) ابن المُنيّر، الانتصاف: 3/ 330.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 184.

وهذا دَيْدَن الطّغاة المُجرمين، فقد قال فرعون لموسى: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذۡتَ إِلَٰهًا غَيۡرِي لَأَجۡعَلَنَّكَ مِنَ ٱلۡمَسۡجُونِينَ ۝٢٩﴾ [الشّعراء: 29]، وقال قومُ نوح له: ﴿لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمَرۡجُومِينَ ۝١١٦﴾ [الشّعراء: 116]، وقال قومُ لوط له: ﴿لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُخۡرَجِينَ﴾، فأفصحَ المجرمون وأقرّوا بما سلف من جرائمهم، وصرّحوا بتماديهم، وتبجّحوا دونَ خجلٍ أو شعورٍ بذنب.

نُكْتَةُ الفصلِ بين جملة القول وما قبلها:

لـوطٌ يَـصِرُّ على إنكاره، غيرَ آبهٍ بتهديد قومه

قولُه تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم﴾ جملةٌ مستأنفةٌ بيانيّة، فهي جوابٌ عن سؤال: فماذا قال لهم حين قالوا له ما قالوا؟ فبينَ الجُملتين شِبه كمال اتّصال، وهذا حوارٌ دار بين لوطٍ عليه السلام وقومِه، أصرَّ لوطٌ على الإنكار عليهم، وأعلن الثّبات أمامَ تهديدهم له.

عِلّةُ التّوكيد وفائدتُه:

دفـعُ تـوهّـم أنَّ الـكراهـيَـة لأشخاصهم لا لأعمالهم

جاءت جملةُ ﴿إِنِّي لِعَمَلِكُم﴾ مؤكَّدَةً؛ لبيان أنَّه باغضٌ لعملهم الذي اقترفوه، لا لأشخاصهم بأعيانها؛ فإنَّ الدَّعوة إلى الحقِّ وتركِ الباطل الذي عليه قومُ لوط عليه السلام، تُثير في النَّفس أنَّه مبغض لأشخاصهم، وهو يُؤكِّد لهم أنَّ البُغض هو لهذا العمل الذي آثَروه على الفضيلة، والقيامِ بحقوق الفطرة الإنسانيّة.

معنى (اللّام) ودلالتُها:

كـراهَـةُ الرّسـلِ ليست للأقوام، بل لأعمالهم

رغمَ وعيدِ قوم لوطٍ عليه السلام وجَفوتِهم له، لكنّه لم يُظْهِر كراهيةً لذَواتهم، بل لصنيعهم فحسب، فاللّام في ﴿لِعَمَلِكُم﴾ للتّخصيص، أي: كراهيتي لعملكم وليس لأشخاصكم، ويمكن أن تكون اللّام متعلقةً بمحذوف، تقديره: إنّي لقالٍ لعملكم منَ القالين؛ لأنّ صلة الموصول لا تعمل فيما قبل الموصول[1]، فقولُه تعالى: ﴿لِعَمَلِكُم﴾

---

(1) الفارضيّ، شرح ألفيّة ابن مالك: 1/ 278.

يتعلّق إما بـ ﴿ٱلۡقَالِينَ﴾، وإن كان فيه (أل)؛ لأنّه يسوغ في المجرورات والظّروف ما لا يسوغ في غيرها، لاتّساع العرب في تقديمها، حيثُ لا يتقدّم غيرُها، وإمّا بمحذوف دلّ عليه ﴿ٱلۡقَالِينَ﴾، تقديرُه: إنّي قالٍ لعملكم، وإمّا أن تكون للتّبيين، أي: لعملكم، أعني منَ القالين[1].

بلاغةُ الكناية ولطفُها:

تـنـوّعُ خـطـابِ المَدعوّين حكمةٌ ورفقٌ عزيز

جاء استعمالُ لفظِ العمل في قوله تعالى: ﴿إِنِّي لِعَمَلِكُم﴾ كنايةً عنِ الفاحشة، وهذا من أدبه ﷺ في الخطاب، فأراد في معرض بيان بُغضِه لما يقومون به من الفاحشة نعتَه بالعمل - وهو عمل - ؛ للتّلطف في الخطاب بعد تشديده عليهم، وهذا من حكمة الدَّعوة، والمراد بعملهم: "إمّا ما أنكره ﷺ عليهم من إتيان الذُّكْران، وتركِ ما خلق ربّهم سبحانه لهم، وإمّا ما يشمل ذلك وسائرَ ما نهاهم عنه وأمرَهم بضِدّه منَ الأعمال القلبيّة والقالبيّة"[2]، فجميعُ أعمالِهم رذائلُ تستوجبُ الإنكارَ، وتستحِقُّ البُغْضَ.

دلالةُ إضافةِ العمل إلى الضّمير:

جـمـيـعُ قـوم لـوطٍ متورّطون فـي الـشّـذوذ، راضـــون بـه، مستحلّون له

أُضيف لفظُ العمل لضمير الخطاب في قوله تعالى: ﴿لِعَمَلِكُم﴾؛ لبيانِ أنّهم جميعًا متورّطون في هذا الشّذوذ، منغمسون في مستنقعه، راضون به، مستحلّون له، وفيه إيماءٌ إلى أنَّ هذا العمل هو عملهم الوحيد الذي يتقنونه، ويُعرفون به.

معنى ﴿مِّنَ﴾ ودلالتُها:

الإيماءُ إلى مدح الـقـالـين لـهـذا العمل

﴿مِّنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلۡقَالِينَ﴾ بيانيّةٌ، أي: من جنسهم ومن بينهم، فهو واحدٌ منهم، فاللّه تعالى يمقت هذا العمل، والملائكةُ، وصالحو ذلك الزّمان؛ كنّبيّ اللّه إبراهيمَ وأهلِ بيتِه ﷺ، وصالحو كلِّ زمان، "وكونه بعضَ القالين يدلُّ على أنّه يبغض هذا

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 184، والآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 115.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 115.

الفعلَ ناسٌ غيرُه هو بعضُهم، ونبّه ذلك على أنّ هذا الفعلَ موجبٌ للبُغض حتّى يبغضَه النّاس"(1).

سِرُّ العدولِ عنِ الإفراد إلى الجمع في ﴿ٱلْقَالِينَ﴾، وتعريفِه:

البُغضُ في الدّين يـقـوَى ليبـلـغَ منزلةَ الكراهةِ الجِبلّيّة

آثر النّظمُ الكريم العدولَ عنِ الإفراد "قالٍ" إلى الجمع ﴿ٱلْقَالِينَ﴾، فقولُه: ﴿مِّنَ ٱلْقَالِينَ﴾ "أبلغُ من (قالٍ) لما ذكرنا من أنَّ النّاس يبغضونه، ولتضمنه أنّه معدود ممّن يُبغضه، ألا ترى أن قولك: زيد منَ العلماء، أبلغُ من: زيد عالم؛ لأنّ في ذلك شهادةً بأنّه معدودٌ في زُمرتهم"(2)؛ وليُبيِّن أنَّ كراهيَةَ هذا الأمرِ ليس من جهته فحسب، بل كلُّ عاقلٍ زكيٍّ يُبغضُ هذا الفعلَ الخسيس، وفيه إشارةٌ إلى أنّه بلغ النّهاية في بُغضه المقيت لعملهم الشّنيع، ونسبةُ لوطٍ عليه السلام نفسَه إلى القالين؛ اعتزازًا بهم وانضواءً لهم، ردًّا على تباهي قومِه بفعلتهم، وتعصّبهم لها، ولا شكّ أن كلّ غيورٍ أبيٍّ متى سمع عن فعلتهم - وقد اشتُهروا بها - ذمّهم وأبغضَهم، وقد افتُضِح أمرُهم بينَ القرى، وشاع خبرُهم، "وقد تقوى همّةُ الدّين في دين اللّه حتّى تقرُبَ كراهتُه للمعاصي منَ الكراهة الجبلّيّة ممّا يعملون من عقوبة عملهم، وهو الظّاهر"(3).

فنُّ بديعِ الجِناس:

الجناسُ اللّطيف ما اجتمع فيه بـلاغـةُ المعنى وجمالُ العبارة

من بديع هذه الآية التّجنيسُ بينَ ﴿قَالَ﴾، و﴿ٱلْقَالِينَ﴾، وهما كلمتان راجعتان إلى أصلٍ واحد في الاشتقاق، وإنِ اختلفتا في المعنى، وهذا منَ المحاسن البديعيّة، إذ جمع بينهما شِبه الاشتقاق من جهة اللّفظ لا المعنى، فضلًا عن بديع التّصدير أو رَدّ العَجُز على الصّدر، حيثُ وقعت إحدى الكلمتين أوّلَ الآيةِ، والأُخرى في آخرها، ويُضاف

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 331، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 526، وأبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 184.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 331، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 526، وأبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 184.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 331.

لذلك من جماليّات البديع رعايةُ الفاصلة[1]، ويُسَمّى جناسًا مُذَيّلًا؛ لزيادة الكلمة الثّانية عن الأولى بحرفين: الياء والنون: ﴿قَالَ﴾، (قالين)، ومطرّفًا لوقوعه في آخر الآية[2].

غرضُ الأمرِ في طلب النَّجاة وبلاغتُه:

الضَّراعةُ والتَّوسّل إلى الله تعالى

الأمر في قوله تعالى: ﴿نَجِّنِي وَأَهْلِي﴾ للدّعاء والابتهال، تضرّع لرَبِّه مُناديًا أن يُنجيَه وأهلَه من سوء عملِهم، ومَغبّة ذنوبهم، وقبيحِ صنيعِهم الذي يُجاهِرون به، فكيف يساكنُهم في تلك القريةِ الظّالمة، وفي قوله: ﴿رَبِّ نَجِّنِي﴾: استعطافُ المولى ﷻ والتّوسلُ إليه بربوبيّته له، أي: يا خالقي ورازقي وراحمي وحافظي، نجّني وأهلي من شُؤم معصيتِهم، ومِن تبعتِها، كَرِهَ البقاءَ في هذه القريةِ التي صارت مستنقعًا آسِنًا، تفوحُ منه رائحةُ الذّنوبِ الكريهة، وأمسَت مسرحًا للعَبَث والمُجون والتّعرّي والشّذوذ.

دلالةُ التّعبير بلفظ ﴿نَجِّنِي﴾:

كرهَ المقامَ بينهم لما يرتكبونه من منكرات

جاء الدُّعاءُ بلفظ ﴿نَجِّنِي﴾ دونَ الحفظ، فلم يقل: (احفظني)؛ كي يخلِّصَه اللّهُ منهم؛ لأنَّ الحفظَ قد يتمُّ وهو بينَهم، لكنّه كَرِهَ المقامَ بينَهم لما يرتكبونه من فُحْشٍ وبَذاءٍ تُنكرُه النّفوس وتأباهُ، فكيف يرضى مجاورةَ هؤلاء الشُّذاذِ الفُسّاق؟

فائدةُ عطفِ الأهل على ضمير المتكلّم:

حِرصُ الرّسلِ على أهلهم كحِرْصهم على أنفسهم

الواو في قوله تعالى: ﴿نَجِّنِي وَأَهْلِي﴾ للعطف، ويقتضي الاشتراكَ في الحُكم، أي: نجِّني ونجِ أهلي، أو للمصاحبة والمَعيّة، أي: مع أهلي حالةَ كوني معهم لا أفارقُهم، ولا يفارقوني، ففيه بيانُ حرصِ الرُّسل على أهلهم، وجاء العطفُ مباشَرًا دونَ فصل، فلم يقل: (نجني مما يعملون وأهلي)؛ احتراسًا من أن يَدْخُل أهلُه فيما طلب النّجاةَ منه،

---

(1) السّكاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 430، والإسفرايينيّ، الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم: 1/ 115.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 180.

وكذلك حتّى لا يفصلَه عن أهله فاصل، فهو مُهتمٌّ بنجاتهم، كما هو حريصٌ على نجاة نفسه.

معنى (من) ودلالتُها:

جمالُ التّوريَةِ، وروعةُ الكناية، من أدب الدّعاء

(من) في قوله تعالى: ﴿مِمَّا يَعۡمَلُونَ﴾ بيانيَّة، أي: من جميع ما يعملون؛ فعملُهم كلُّه شُؤمٌ وشرٌّ، قبيحٌ بغيضٌ، أو تبعيضيّةٌ متعلِّقة بمحذوف مُقدَّر، أي: من عقوبة عملهم[1]، وقد دلَّ الجواب على الأمرَين، فإنّ إخراجَه سالمًا معافىً من هذه القرية بإذن ربّه، وإهلاكَ أهلِها، نجاةٌ له من شَرهم وشُؤمهم وخُبثهم، ونجاةٌ له من عقوبتهم، والمُختارُ القولُ الأوّل؛ لأنّ نجاتَه من عذابهم أمرٌ معلومٌ، لا يحتاج لطلبٍ.

نوعُ (ما) ودلالتُها:

تحتمل الموصوليَّة والمصدريَّة

(ما) في قوله تعالى: ﴿مِمَّا يَعۡمَلُونَ﴾ تحتمل أن تكون اسمَ موصول بمعنى (الذي)، أي: من جميع ما يعملون، فكلُّ أعمالِهم شنيعةٌ منكرة، وتحتمل أن تكون مصدرية وما بعدها مؤوّلٌ بمصدر، أي: من عملهم، وروعيَ في ختام الآية الفاصلة، فضلًا عن أدبه وتنزُّهه عن ذِكر فحشِهم، فعَبّر بالعمل.

بلاغةُ التَّعبير بلفظ ﴿يَعۡمَلُونَ﴾:

براعةُ اجتماعِ اختيارِ المفردة والصّيغة والنّظم في اللّفظ الواحد

كنّى عنِ الفاحشة بقوله تعالى: ﴿مِمَّا يَعۡمَلُونَ﴾ دونَ تصريحٍ بها؛ من حُسن أدبِه، وعِفّةِ لسانِه، ولطفِ بيانِه، وللتّعميم، كذلك ليشملَ كلّ أعمالِهم، وكلّها منكرةٌ، وجاء التَّعبيرُ بصيغة المضارع؛ لبيانِ عنادهم وإصرارهم عليها، مع إقامة البرهان على استحقاقهم العذاب؛ فإنّ المعاند يستحقُّ شديدَ العقاب على عناده على الباطل، وممّا يزيد منَ التَّشنيع عليهم، إسنادُ ارتكابِهم جميعًا لهذا المنكر الذي شاع فيهم، وتفشّيه، كالوباء الذي لا يَترك أحدًا، كما أنَّ المفعول قد حُذف لمعرفته.

---

(1) الواحديّ، التّفسير البسيط: 17/ 112، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 11/ 408.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإخراج والطّرد:

الإخراجُ أعمُّ مِنَ الطَّرد، فيختصّ الطَّردُ بكراهيَة المطرود واستفزازه

الإخراج يقابله الإدخالُ، قد يكون قسرًا، وقد يكون باختيار، أمّا الطّرد: فهو إخراجٌ من صحبة أو من بلدة أو من عملٍ، والطّرد كذلك: مطاردةُ الصّيد ومعالجة أخذه، والطّريدة: الصّيد، وطرد الشّيءَ يطردُه طردًا، هيّجَهُ واستفزّه وأبعدَه، وفي القرآن (طرد) وكذلك (شرّد)، قال تعالى في قصّة نوح: ﴿وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٣٠﴾ [هود: 30]، ﴿وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ مَا عَلَيۡكَ مِنۡ حِسَابِهِم مِّن شَيۡءٖ وَمَا مِنۡ حِسَابِكَ عَلَيۡهِم مِّن شَيۡءٖ فَتَطۡرُدَهُمۡ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥٢﴾ [الأنعام: 52]، ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا تَثۡقَفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡحَرۡبِ فَشَرِّدۡ بِهِم مَّنۡ خَلۡفَهُمۡ﴾ [الأنفال: 57]، أي: فرّق وبَدِّد جمعهم، والشّريد: الطّريد[1]، وقولُه تعالى: ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُخۡرَجِينَ﴾ أي: ممّن أُخرج قسرًا وكُرهًا؛ تنكيلًا به، ونكايةً به.

القِلَى والكُره:

القِلى شدَّةُ الكراهيَة، والكراهيَةُ أعمّ من ذلك، فتكون في الخير والشَّرِّ

القِلَى: شِدّةُ الكراهيَة، إلى حَدّ اكتواءِ الكبد واحتراقِ القلب من شِدّة الكراهيَة وفَرْط النّفور، كأنّهما على مِقلاة، فهي أبلغُ مِنَ الكره، والشّيءُ الكَريهُ، الذي لا يُكره إلّا لشَرّه أو لقُبْحِه أو خُبْثِه، فالكراهيَةُ: شعورٌ ينتاب الإنسانَ لشخصٍ أو شيءٍ ينفر منه، كمَن يكره طعامًا أو دواءً، وإن كان فيه خير، قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٢١٦﴾ [البقرة: 216]، والإكراه: لا يكون إلّا على شيء يكرهه الإنسان، قال تعالى: ﴿وَلَا تُكۡرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمۡ عَلَى ٱلۡبِغَآءِ إِنۡ أَرَدۡنَ تَحَصُّنٗا﴾ [النّور: 33]، وقال

---

(1) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (طرد).

تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ [النّحل: 106]، وقولُه تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلۡقَالِينَ﴾، أي: المُبغِضين لفعلكم القبيحِ أشدَّ البُغض، الكارهين له كراهيَةً جِبِلّيّةً.

﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ١٧٠ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ١٧١ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ١٧٢ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ١٧٣﴾

[الشّعراء: 170 - 173]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

ليس بعد تضرّع المرسلين إلّا استجابةُ ربِّ العالَمين

لّما دعا لوطٌ عليه السلام ربّه في نهاية الأمر طالبًا النّجاة، بعد أن ضَيَّق عليه قومُه، وتمادَوْا في غيّهم، ويئسَ من هدايتهم، ناسبَ ذكرَ ما كان له وأهلِه منَ التَّنجية، إلّا امرأتَه، حيثُ وقع عليها وعلى قومه العذابُ المعهود، فهو انتقالٌ من ذِكر الدّعاء، إلى ذِكر الاستجابة، وتفصيلُ ما حلَّ بقومه منَ العذاب.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿عَجُوزًا﴾: أصلُ (عجز) يدُلُّ على الضَّعْفِ، يُقال: عَجِزَ عَنِ الشَّيْءِ يَعْجِزُ عَجْزًا، فهوَ عاجِزٌ، أَيْ ضَعيفٌ[1]، والعَجْزَ نقيض القُدرة، ويقابلُه الحَزْمُ؛ لأنَّ العاجِز ضعيفُ القوَى والرَّأي، وأَعْجَزَني فُلانٌ، إذا عَجِزتُ عَن طلَبِه وإدراكه[2]، والعجوز: اسمٌ للمرأة الطّاعنة في السّنّ؛ سُمّيت بذلك لعجزها، أي: ضعفِها ووهنِها، وهي صفةٌ للنّساء من خواصِّهنّ، فلا تحتاج لتاء التّأنيث، وجمعها: عجائز، والمقصود بالعَجوزِ في الآية: المرأةُ المُسِنَّة، والمُرادُ بها زوّج لوطٍ عليه السلام.

2) ﴿ٱلْغَٰبِرِينَ﴾: أصلُ (غبر) يدُلُّ على البَقاءِ[3]، يُقالُ: غَبَرَ الشيءُ يَغْبُر أي بَقيَ، وغَبَرَ الشيءُ يَغْبُر غُبوراً: مَكَثَ وذَهَبَ، والغابِرُ:

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عجز).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (عجز)، وسيبويه، الكتاب: 3/ 637، والسّيرافيّ، شرح كتاب سيبويه: 4/ 380.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غبر).

الباقي، والغابرُ: الماضي، وهو مِنَ الأَضداد[1]؛ وأَشْهَرُ إطلاقَيه هو المُنْقَضي؛ ولذلك يُقالُ: غَبَرَ بِمَعْنَى هَلَكَ[2]، والمراد بالغابر في الآية: المُتَّصِفُ بالغُبورِ، وهو البقاءُ بعد ذهابِ الأصحابِ أو أهلِ الخَيْلِ، أي باقيةٌ في العَذاب بعد نجاةِ زوجها وأهله.

3) ﴿دَمَّرْنَا﴾: أصلُ (دمر) يدلُّ على الدُّخولِ في البيتِ وغيرِه، يُقالُ دَمَرَ الرَّجُلُ بَيْتَهُ، إذا دخَلَهُ[3]، والتَّدميرُ: إدخال الهلاك على الشَّيء[4]، والدَّمار هلاكٌ بالاستئصال، يُقال: دَمَر القومُ يَدْمُرون دَمارًا: أي هَلَكوا، ودَمَرَهم مَقتَهم ودَمَّرهم الله تَدْميراً[5]، والتَّدْميرُ في الآية معناه: الإِصابةُ بالدَّمارِ وهو الهلاكُ، وذلك أنَّهم استُؤصلوا بالخَسْفِ وإمطارِ الحِجارةِ عليهم[6].

4) ﴿وَأَمْطَرْنَا﴾: أصلُ (مطر) يدُلُّ على الغَيْثُ النّازِلُ مِنَ السَّماءِ[7]، يُقالُ: مَطَرَتْهُمُ السَّماءُ - بِدونِ هَمزَةٍ - بِمَعْنَى نَزَلَ عليهم المَطَرُ، كما يُقالُ: غاثَتْهُم ووَبلَتْهُم، ويُقالُ: مكانٌ مَمطورٌ، أي: أَصابهُ المَطَرُ، ولا يُقالُ: مُمطِرٌ، ويُقالُ أُمطِروا - بِالهَمزَةِ - بِمَعْنَى نَزَلَ عليهم مِن الجَوِّ ما يُشْبِهُ المطَرَ، وليس هو بِمَطَرٍ، فلا يُقالُ: هُم مُمطِرونَ، ولكِنْ يُقالُ: هُم مُمطَرونَ[8]، وتَمَطَّرَ الرَّجُلُ: تَعَرَّضَ للمَطَرِ، ومنه المُسْتَمطِرُ: طالِبُ الخَيْرِ[9]، والمقصود بالإمطار في الآية: إنزالُ المَطَرِ، وسُمّيَ ما أصابهم من الطّيْنِ المُتحجِّرِ مطرًا؛ لأنَّه نَزَلَ عليهم من الجوِّ.

5) ﴿ٱلْمُنذَرِينَ﴾: أصلُ (نذر) يدُلُّ على تخويفٍ أو تخوُّف، ومنه الإِنذارُ: الإبلاغُ ؛ ولا يَكادُ يَكونُ إلّا في التَّخويفِ[10]، والنَّذيرُ: المُنْذِرُ، والجَمعُ: النُّذُرُ، والتَّناذُرُ: إِنْذارُ بَعْضِهم بَعْضًا[11]، والمقصود بالمُنْذَرين في الآية: الَّذي يُنذَرون، أي يُخبَرون بأمرٍ فيه ضُرٌّ لقَصْد الاتِّقاء منه.

(1) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (غبر).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8 - ب/ 237، 19/ 181.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (دمر).
(4) الراغب، المفردات: (دمر).
(5) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة: (دمر).
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 181.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مطر).
(8) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8 - ب/ 237.
(9) ابن عباد، المحيط في اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (مطر).
(10) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نذر).
(11) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن عباد، المحيط في اللغة: (نذر).

المَعْنى الإِجْماليُّ:

شرطُ النَّجاةِ الإيمانُ والمتابعةُ، لا القُرْبَى والمخالفةُ

تُبيِّنُ الآياتُ الكريمة عاقبةَ قومِ لوطٍ عليه السلام، حين دعا ربَّه فأجابه، ونجّاهُ وجميعَ مَن آمن به من أهل بيته، حيثُ نَجَوْا جميعًا إلّا تلك العجوزُ الشّمطاءُ التي كانت على عصمته، فإنّها آثَرت أن تكون منَ الهالِكين، لم يزجرها هَرمُها وشيخوختُها، ولم يرقق قلبَها عاطفةٌ على زوجها وبناتها، بل كان ميلُها مع قومها وهواها، ثمّ لمّا نجّى اللّهُ لوطًا وبناتِه وصاروا بمَنأى ومأمَنٍ من قريتهم الظّالمة، نزل العذابُ بها، فدمَّرَها اللّهُ بأهلها تدميرًا، وأمطر عليهم منَ العذاب صنوفًا، فكان هلاكُهم لا مثيلَ له فيمن سبقَهم، وكانوا مثلًا وعِبرةً لكلِّ معتَبِرٍ، أنزل اللّهُ عليهم الحجارةَ منَ النّيران، واقتلع جبريلُ قُراهم، فجعل عاليَها سافلَها، وبقي مكانُها بحرٌ لا رَوح فيها ولا نِسْمة ولا حياة، حتّى صارت خرابًا بعد أن كانت عامِرة، وأثرًا بعد عينٍ، ومطمورةً بعد أن كانت ظاهرة.

وترشدُ الآياتُ الكريمة إلى استجابة دعوة المظلوم، ولا سيما إن كان من الصّالحين، وإلى تَوقُّع العذابِ إذا انتشر الشّرُّ وعظُمَ الظُّلْمُ والفساد، وإلى أنَّ الآياتِ مهما كانت عظيمةً لا تستلزم الإيمانَ والطّاعةَ، وإلى أنَّ من لم يَسْبق له الإيمانُ لا يؤمنُ ولو جُلب عليه كلُّ آية، وإلى أنَّ صلةَ الدّين أقوى من صلة النَّسب[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نوعُ الفاء ودلالتُها:

من إكرام الله لرسله الاستجابةُ لدعائهم

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَنَجَّيۡنَٰهُ﴾ تحتمل أن تكون الفصيحةَ، حيثُ أفصحت عن محذوفٍ دلَّ عليه السّياق، والتّقديرُ: (فاستجبنا له فنجيناه)، أو للتّعقيب؛ لتدلَّ على سُرعة الجواب، كشأن اللّهِ مع

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 83، والجزائريّ، أيسر التّفاسير: 3/ 677.

أنبيائه. "أو للتّفريع، يعني: فتفريعًا على دعوته نجّيناه"[1]، والعبرة: أنَّ التّنجيَة قد حصلت عَقِبَ الدّعاء، وهي دالّة على كرامة رسلِ اللّٰه تعالى على اللّٰه.

براعةُ التّعبير بصيغة ﴿فَنَجَّيۡنَٰهُ﴾:

يُـنـجـي الـلـهُ رسلَه قبلَ وقوعِ المَهلكة؛ إكرامًا لهم وكراهة أن يَرَوا ما يسوؤهم

جاء التَّعبيرُ بمفردة التّنجية دونَ الإنجاء في قوله تعالى: ﴿فَنَجَّيۡنَٰهُ﴾؛ لموافقة دعاء لوطٍ عليه السلام ﴿رَبِّ نَجِّنِي﴾، ولم يقل: (أنجني)، وقد فرَّق بعضُهم بأنَّ الإنجاء: الخلاصُ قبلَ الوقوعِ في المَهلكة، والتّنجيَةُ: تستعمل في الخلاص بعد الوقوع في المهلكة، يُؤيِّد الأوّلَ: قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ صَدَقۡنَٰهُمُ ٱلۡوَعۡدَ فَأَنجَيۡنَٰهُمۡ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهۡلَكۡنَا ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٩﴾ [الأنبياء: 9]، فإنّ المراد بالمُنجَين الأنبياءُ، وقد أنجاهمُ اللّٰهُ منَ العذاب قبلَ وقوعِه على الأمم، ويُؤيِّد الثّاني: قولُه تعالى: ﴿وَإِذۡ نَجَّيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ٤٩﴾ [البقرة: 49]، فإنّ تنجيَةَ بني إسرائيل من آل فرعون، وذبحِ أبنائهم، وتحميلِهمُ الأعمالَ الشّاقّة، كان بعدَ مُدّة منَ الزّمان[2].

دلالةُ إسناد التّنجية إلى ضمير العَظَمة:

النَّجاة منَ الله تـعـالى سابقةٌ للعادات

أُسنِد فعلُ التّنجيَة إلى ضمير العَظَمة في قوله تعالى: ﴿فَنَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ﴾، للتّعظيم، أي: نجّيناه بعَظَمتِنا وجلالِنا وقُدرتِنا، وبرحمتِنا ولُطفِنا، نجاةً تليقُ بنا، وقد دَلَّ هذا الإسناد في هذا السّياق، إلى أنَّ التّنجيَة لم تكن لأحد ولا تكون إلّا بتوفيق اللّٰه تعالى، وعَظَمتِه التي تعلو كلَّ السُّنَنِ والعادات.

معنى الواو ودلالتُها:

العطفُ للاقتران والمشاركة في الحُكم، وفيه تشريفٌ للأهل بتلك التّنجيَة

الواو في قوله تعالى: ﴿فَنَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ﴾ للعطف، وهي

(1) العثيمين، تفسير سورة الشّعراء، ص: 264.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عجز)، والعسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 77.

من عطف الأهل على الضّمير العائدِ على لوط، والعطفُ للاقتران والمشاركة في الحُكم، ففيه تشريفٌ للأهل بتلك التّنجية.

فائدة ذِكْر لفظ الأهل دون الإضمار:

أُظهر ذِكرُ الأهل في قوله تعالى: ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ﴾، دون الإضمار بأن يُقال: (فنجيناهم)؛ للاعتناء بهم، واحتراسًا من توهّم دخول بعض قومه معهم، ولإظهار معنى الأهل، وأنَّه قائم على أهليّة الإيمان لا النّسب والقرابة والمصاهرة، ولا سيما مع استثناء امرأته.

الأهليّةُ للإيمان لا القرابةِ والمصاهرة

نُكْتَةُ التّوكيد بلفظ ﴿أَجْمَعِينَ﴾:

جاء ذكر لفظ ﴿أَجْمَعِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ﴾؛ تأكيدًا لنجاتهم جميعًا إلّا مَن استثناه اللّهُ، وهو امرأته عجوزُ السّوء، وفيه رعاية الفاصلة، ونظيره قولُه تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٣٥ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ٣٦﴾ [الذّاريات: 35 - 36]، ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍۖ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ٣٤﴾ [القمر: 34]، وهو توطئة للاستثناءِ، فإنَّ تأكيد تنجية الجميع، يلزم عنه الإطلاق أو الاستثناء.

تنجيةُ جميع المؤمنين يدلُّ على هلاك جميع المجرمين

نوع الاستثناء ودلالتُه:

أداة ﴿إِلَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿إِلَّا عَجُوزًا﴾ للاستثناء، أي: نجَّينا أهلَه جميعًا ما عدا هذه العجوزَ الهالكةَ، والاستثناءُ متّصل إن كان المراد بالأهل أهلَ بيته، وهو منقطع إن كان الأهل من آمن به، كما قال تعالى في قصّة نوح: ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍۖ﴾ [هود: 46].

الأهل على التّحقيق هم المؤمنون

فائدة استعمالِ مفردة ﴿عَجُوزًا﴾:

آثَر النَّظمُ الكريم استعمالَ مفردة ﴿عَجُوزًا﴾ عن امرأة لوطٍ عليه السلام؛ للإيماء إلى أنَّها مع كونها أصبحت عجوزًا شيخة، وهي كذلك ضعيفةُ الجسم هَشَّتُه؛ فهي تخون زوجَها، وأنَّها استحقت أن تكون

طولُ صحبة الصّالحين إذا لم تنفع صاحبَها فهي وبالٌ عليه

في الغابرين بسبب صنيعها الخبيث، فاستُعمل هذا الوصفُ للذمِّ، ولبيان أنَّها شبّت على الكفر وشابت عليه دون أن ترعوي، أليس بلوغُها الكبرَ من أبلغ النّذر، ومن أعظم العِبَر؟! ومنطقُ الحقّ يقول: إنَّ الإنسان كلَّما كَبِرت سِنُّه نضِجَ عقلُه وصفا ذِهنُه، وزادت خِبرتُه، وقويت فراستُه، وضعُفَت غرائزُه وشهوتُه، ولكنّ عجوز السّوء على خلاف ذلك، ما زادها تراكمُ السّنين وتتابعُ الأعوام إلّا غفلة وحرصًا وضلالًا، وهي قد جمعت أمرين زاداها ذمًّا؛ وهما: صحبة نبيّ اللّه لوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وتطاولُ العُمُرِ عنده.

لطيفةُ التّعبير بصيغة (فَعول):

طولُ العُمُرِ لا يدفع العقوبةَ

دلّت صيغةُ (فَعول) في لفظ ﴿عَجُوزٗا﴾ على المبالغة، والمعنى: أنّه قد بلغت هذه العجوزُ منَ الكبر عِتيًّا، ودلَّ على شدّة وهنِها، وفَرْطِ عجزِها، ومع ذلك لم يردعها رادعٌ، وهو ما يُؤكِّد المعنى المذكور في النّكتة السّابقة، وأبلغ النّظم ما اجتمعت فيه دلالةُ المفردة مع دلالة الصّيغة.

معنى حرفِ الظّرفيّة ودلالتُه:

بلاغةُ الحرف القرآنيّ من بلاغة استعماله

أفاد حرفُ الظّرفيّة ﴿فِي﴾ في قوله تعالى: ﴿فِي ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾ الاستقرارَ، أي: متلبِّسةً فيهم تلبّسَ المظروفِ في الظّرف، مع ما يوحي به هذا الاستعمالُ، من كون العجوز غارقةً فيهم، وباقيةً معهم، لا تفارقهم، وليَنفصلَ اتّصالُها بنبيّ اللّه لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ.

بلاغةُ استعمالِ مفردة ﴿ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾:

اجتماعُ المعاني المتقابلة من بلاغة القرآن وإيجازه

دلّت مفردةُ ﴿ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾ على معنيين متقابلين: البقاء والمضي، فغَبَرت بمعنى: مضت، وغبرت بمعنى: بقيت؛ لأنَّها بقيت مع الهالكين، بعد أن مضت وتركت زوجَها لوطًا وأبناءَهما، فحَرمَت نفسَها من فرصة النّجاة التي لاحت لها إن تراجعت وتابت، لكنها حنّت لقومها ومالت إليهم، وآثَرتهم فهلكت معهم، قال ابن عبّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: والغابر الباقي بعد مضي من معه، "والمراد: ﴿فَنَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ﴾

من العذاب بإخراجهم من بينهم ليلًا عند مشارفة حلوله بهم، ﴿إِلَّا عَجُوزًا﴾ مقدّرة في الباقين في العذاب، بعد سلامة من خرج"[1].

نُكْتَةُ التّعبيرِ بصيغة اسم الفاعل:

الإنسانُ يختار مصيره، وينتقي سبيله

جاء التّعبير بصيغة اسم الفاعل ﴿ٱلْغَٰبِرِينَ﴾، دون اسم المفعول (المغبورين)، مع أنَّهم مجبورون على ذلك، وهو ممّا قضاه اللّهُ عليهم؛ للإشارة إلى أنّهم اختاروا مصيرَهم ذلك بمحض إرادتهم، وبقيت هذه المرأةُ الهَرِمةُ في قومها باختيارها، لم يُرغمها أحدٌ، وهذا الوصف يدلّ على معنيين متضادين: البقاء والمضي، فهي مضت تاركةً زوجَها وأبناءها المؤمنين، وآثَرت البقاءَ مع قومها، فبئسما اختارت! تترك طريقَ النّجاة، وتُؤثرُ طريقَ الهلاك!.

نوع ﴿ثُمَّ﴾ ودلالةُ استعمالِها:

رتبةُ عذاب المُهلكين مباينةٌ لرتبة نجاة المؤمنين

استعمل النَّظمُ الكريم حرف التَّراخي ﴿ثُمَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا﴾؛ لبيان أنَّ إهلاكَ قومِ لوطٍ رتبةٌ مختلفة عن نجاة لوط عليه السلام ومن معه، فنوعُ التّراخي هو الرّتبيّ لا الزّمانيّ؛ "لأنَّ إهلاك المكذبين أجدرُ بأن يُذكر في مقام الموعظة من ذكر إنجاء لوطٍ المؤمنين"[2] فالتّراخي هنا الرُّتبيّ بينَ المُهَلَكين والنّاجين، للبَون الشّاسع بين منزلتهما.

بلاغة استعمال مفردة التّدمير:

التّعبير عن هول عقوبة قوم لوط وفظاعتها، بما يتناسب مع فظاعة جُرمهم

آثَر النّظمُ الكريم استعمالَ مفردة التّدمير في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا﴾ دون لفظ الإهلاك؛ لأنَّ التّدمير في الأصل لا يكون للأحياء من إنسان أو حيوان، وإنّما يكون للقرى المُحصَّنة والأبراج المُشيّدة، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ١٦﴾ [الإسراء: 16]، وقوله: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 115.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 181.

بِأَمۡرِ رَبِّهَا فَأَصۡبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمۡۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ٢٥﴾ [الأحقاف: 25]، والتّعبير به هنا يدلُّ على شدّة تنكيلِ اللّه بهم، وشِدّةِ العذاب الذي لا تصمدُ له قِلاعٌ ولا حُصونٌ، ولا تمنعه حواجزُ ولا أسوارٌ، فالتّدمير في الآية تصوير لحقيقة العذاب الشّديد، وكيف سلَّط اللّهُ على قُراهم دمارًا أتى على بيوتهم ونواديهم ومجامعهم، وكيف سلّط اللّهُ الدّمار على أجسادهم، عذابًا لو سُلّط على جبال راسيات لدمّرها تدميرًا.

نُكْتَةُ إسنادِ لفظ التّدمير إلى نون العَظَمَة:

عقابُ اللّه لا يُطاق، ونقمتُه تليقُ بجلاله وعَظَمتِه

أُسْنِد لفظُ التّدمير لضمير العَظَمة ﴿دَمَّرۡنَا﴾، والمعنى: أي بعظمتنا وجلالنا، دمرناهم تدميرًا مهولًا، يليق بقوتنا وعظمتنا، فعقاب اللّه تعالى لا يطاقُ، ولو شاء لأهلكهم بأيسره وأهونه، لكنّه الانتقامُ الذي يليق بجلال اللّه وعَظَمته، وغضبه وغيرته.

دلالةُ وصفِ قوم لوطٍ بـ ﴿ٱلۡأٓخَرِينَ﴾:

ذَمُّ قومِ لوطٍ وتحقيرُهم بالإخبار عن تأخُّرهم وتقاعسهم

جاء وصفُ قوم لوطٍ عليه السلام بـ﴿ٱلۡأٓخَرِينَ﴾؛ استهانةً بهم، وتحقيرًا من شأنهم، وبيانًا لعدم الاعتداد بذِكرهم، إلّا بهذا الوصف الدّالّ على إهمالهم، والمقصود بالآخَرين قومُ لوطٍ عليه السلام، وامرأتُه التي آثرت الكفرَ على الإيمان، مع كونها أحقَّ من يؤمن بنبيّ اللّه لوط، زوجِها وعشيرِها وقيّمِها وبعلِها، "وما أحسنَ التّعبيرَ عنهم بلفظ ﴿ٱلۡأٓخَرِينَ﴾ لإفهام تأخُّرِهم من كلّ وجه"[1].

وجهُ الصّيغة الصّرفيّة في ﴿ٱلۡأٓخَرِينَ﴾:

اختيارُ قوم لوطٍ مصيرهم باختيارهم التّأخُّر والتّقاعس

(آخر) صيغةُ تفضيل على وزن (أَفْعَل)، وهي هنا على غير بابها، إذ ليس هناك أخير وآخَر، وفي صيغة التّفضيل دلالةٌ على أنّهم سبقوا بهذا الوصف وفاقوا فيه غيرَهم، حتّى فاضلوهم بهذه

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 84.

الصّفة الذّميمة التي أودت بهم، وتسبّبت في هلاكهم، وفي إسناد التّأخير لهم إشارةٌ إلى تعمُّدهم التّأخير، تأخّروا عن دعوة نبيّ اللّه لوطٍ ﵇ وتقاعسوا فهلكوا، وعادةُ القرآن التّعبيرُ بالظّاهر موضعَ المُضمَر، وبالصّفة موضعَ الاسم، فلم يقل: (ثمّ أهلكناهم)، أو: (أهلكنا سائر القوم)؛ ليُسجّلَ عليهم سببَ هلاكِهم ودمارِهم، وهو تقاعسُهم عنِ الحقّ، وتخلّفُهم عنِ اللَّحاق بلوط ومَن آمن معه.

معنى (الواو) ودلالتُها:

العقوبةُ الرّهيبة تَعُمُّ قومَ لوطٍ، لا تستثني أحدًا

الواو في قوله تعالى: ﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِم﴾ للعطف، وتقتضي الاقتران، حيثُ عطف جملة على جملة، ويمكن القول: بأنّه عطف فعلًا على فعل، والعطف يقتضي المشاركةَ في الحُكم، فجمع اللّهُ لهم بين عذابين شديدين: الرجمُ بالحجارة عقوبةً لشذوذهم وهتكِهم للأعراض، وقلبُ قُراهم رأسًا على عَقِبٍ؛ لانقلاب فطرتهم، فكان الجزاء من جنس العمل.

بلاغةُ استعمالِ مفردة الإمطار:

تشبيهُ العذاب بالمطر تهكُّمٌ بالقومِ، وعذابٌ فوقَ العذاب

لفظ الإمطار يُستعمل غالبًا في الشّرِّ، بخلاف (مطر) فيكون غالبًا في الخير وفي الماء خصوصًا، ولا يُقال أمطرهم اللّه تعالى إلّا في العذاب[1]، كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ ٨٢﴾ [هود: 82]، وقوله تعالى: ﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٍ ٧٤﴾ [الحجر: 74]، وقوله تعالى: ﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِم مَّطَرٗاۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾، ولم تأت إلّا في عذاب هذه القرية التي استحقّتِ الرّجمَ بالحجارة، وأن تُقْتَلَع من جذورها، وأن تُقلبَ رأسًا على عقب، حتّى عُرفت بها، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَتَوۡاْ عَلَى ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِيٓ أُمۡطِرَتۡ مَطَرَ ٱلسَّوۡءِۚ﴾ [الفرقان: 40][2]، ففي الإمطار

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 126.
(2) رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم: 8/ 458.

تشبيهُ نزولِ حجارة العذاب بنزول حبّات المطر؛ تهكُّمًا بالقوم، وزيادةً في العذاب.

غرضُ إسناد فعل الإمطار إلى نون العَظَمة:

تهويلُ العذابِ وتفخيمُ العقابِ رحمةٌ باللّاحقين

أُسنِد فعلُ الإمطار في قوله تعالى: ﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِم﴾ إلى نون العَظَمة؛ لتعظيم الفعل وتهويله، أي: أمطرناهم بعظمتنا وجلالنا، فهو مطر عظيم وانتقام شديد يليق بجلالنا، وشديدِ انتقامِنا منَ الظّالمين المُعاندين، وفيه منَ التّهويل والتّفخيم ما لا يكون في إسناد الفعل إلى غير مصرَّحٍ به، كأن يُقال: (وأُمطروا)، فكيف إذا كان التّصريح بالضّمير العائد على العظيم، وفي ذلك رحمةٌ بمَن بعدَهم؛ فإنَّ مَن يعلم ما وقع للمتقدّمين من شديد العذاب، يَرْدَعُه عنِ المُضيِّ فيه، والعناد عليه.

بلاغةُ استعمالِ حرفِ الاستعلاء وتقديمِه:

العذابُ أحاط بالمجرمين قصدًا شاملًا للجميع

آثر النّظمُ الكريم استعمالَ حرفِ الاستعلاء في قوله تعالى: ﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِم﴾؛ لتضمين فعل ﴿وَأَمۡطَرۡنَا﴾ معنى فعلِ الإرسال[1]، فهو مطرٌ مرسَلٌ منَ اللّه تعالى، مقصودٌ به قومُ لوطٍ ؛ للعذاب والعقاب، وقد أفاد استعمالُ هذا الحرف الإحاطةَ والشّمول، حيثُ غمرهم المطرُ وشملهم، فلم يخطئهم، ولم يصب غيرَهم، فجاء مخصوصًا بهم؛ ولذلك قُدِّم الحرفُ في النّظم، فلم يقل: (وأمطرنا مطرًا عليهم)؛ وقد دخل حرفُ الاستعلاء على الضّمير الجمعيّ في ﴿عَلَيۡهِم﴾؛ لأنّها لم تترك منهم أحدًا، ولم يَنْجُ منَ العذاب ناجٍ.

دلالةُ استعمالِ مفردة ﴿مَّطَرٗاۖ﴾ نكرةً:

حجارةُ العذاب نزلت متتابعةً حتّى بلّلت الأرضَ من دماء المجرمين

دلَّ استعمالُ مفردة ﴿مَّطَرٗاۖ﴾ على تتابع هذه الحجارة المُسوَّمة وكثرتها، ومجيئها منَ السّماء، حتّى أهلكتهم وطمرتهم، وفيه معنى

(1) الشّهاب الخفاجيّ، عناية القاضي وكفاية الرّاضي: 4/ 186.

التَّهكُّم؛ لأنّ المطر لا يأتي إلّا في الخير، فأمطرتِ السّماءُ عليهم، ولكنّها أمطرت حجارةً من طين متصلِّبٍ متينٍ تَرجمُهم، ونُكِّر لفظ ﴿مَّطَرًاۖ﴾ للدّلالة على النَّوع، أي: أرسلنا عليهم نوعًا منَ المطر عجيبًا، والمقصودُ به الحجارة[1]، وقد بيّنه قولُه سبحانه: ﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٍ ٧٤﴾ [الحجر: 74][2]، أي: مطرًا غيرَ معهود[3].

نوع (الفاء) ودلالتُها:

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَسَآءَ مَطَرُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾ عاطفةٌ؛ لتعقيب الجملة المعطوفة بالفاء على التي قبلها[4]، وهذا من تعقيب الإمطار بالاعتبار.

نُكْتَةُ التّعبير بلفظ المساءة:

أعظمُ العذاب ما كان عبرةً للآخرين

أخبرتِ الآيةُ في قوله تعالى: ﴿فَسَآءَ مَطَرُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾، عمّا وقع للمُنذَرين من قوم لوطٍ من المساءة التي لحقتهم، وهي حتفُهم وموتُهم واندثارُهم، والمخصوص بالذّمّ محذوف، وهو المطر، أي: ساء مطرُ المنذرين مطرُهم[5]، والتَّعبير بهذا اللّفظ لبيان أثره فيما بعد؛ فإنَّ قصَّتَهم قد عرفتها البشريَّةُ، وبلغتِ العربَ، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَتَوۡاْ عَلَى ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِيٓ أُمۡطِرَتۡ مَطَرَ ٱلسَّوۡءِۚ﴾ [الفرقان: 40]، ففيه تلويحٌ بالعذابِ لجميع المُنذَرين.

عِلّةُ الإضافة في ﴿مَطَرُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾:

عدلُ الله تعالى يتجلَّى في بيان أسباب العقوبة

الإضافةُ في قوله تعالى: ﴿مَطَرُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾ إضافةُ تخصيص، أي: مطرُ للمُنذَرين؛ لبيان استحقاقهم هذا العذابَ الذي عمّهم؛ لما سبق من إنذارهم، فيكون ذكرُ الإنذار من باب ذِكْر عِلَّة العذاب، فهو من إضافة النّتيجة للسّبب، أي: بسبب إنذارِهم الذي أهملوه

(1) القزوينيّ، الإيضاح في علوم البلاغة: 2/ 39.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 4/ 409.
(3) ابن عجيبة، البحر المديد: 4/ 157.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 5.
(5) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 8/ 629.

وتغافلوا عنه، أُمطِروا مَطرَ السَّوْء، وهذا من بيان عدلِ اللّه تعالى، وهذا من معهود القرآن عند الحديث عن عقوبة الهالكين، يبيّن استحقاقَهم لذلك بما أسلفوا، ويُقرّر عدلَ اللّه تعالى في حُكمه.

دلالةُ التّعبير بمفردة الإنذار:

لا ينزل العذابُ إلّا بعد إنـذار، ولا يُعاقَبُ إلّا الفُجّار

جاء استعمالُ مفردة الإنذار في قوله تعالى: ﴿فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾؛ لأنَّ الحُجَّة أُقيمت عليهم، بما سبق من إنذارهم، "وإنّما قال: ﴿ٱلْمُنذَرِينَ﴾؛ لبيان أنّها قد قامت عليهمُ الحُجّة ولم يُنذَروا بالعذاب إلّا بعد أن أعذر منهم"[1]، ففيه دلالةٌ واضحة على أنَّ اللّه تعالى إنّما يُحاسِب النّاسَ بأعمالِهم التي ارتكبوها، وجرائمِهمُ التي اقترفوها، وأنَّ ذلك لم يكن إلّا بعد إنذار، وفي التَّصريح بهذا اللّفظ إيماءٌ إلى أنَّ العذاب كان شديدًا؛ لأنَّه عَلَّلَ عذابَهم، وبيَّن سببَ عقابِهم.

معنى التّعريف في لفظ ﴿ٱلْمُنذَرِينَ﴾:

الــلّام للعهد وهــو الأظهـر، وتحتمل الجنس

اللّام في لفظ ﴿ٱلْمُنذَرِينَ﴾ للعهد الذّهنيّ، والمعنى: (فساء المطرُ مطرُهم)؛ ذَمًّا وتشنيعًا وتهويلًا للمطر الذي أهلكهم وطمرهم، والمعنى: (ساء مطرُ من أُنذِروا)، وعَبّر بالوصف دون الضّمير، لبيان استحقاقهم لهذه العقوبة، لأنّهم أُنذِروا فلم يَرْعَووا، وهذا يناسبُ المقام أن تكون اللّام للعهد الذّهنيّ، "والمخصوص محذوف، أي: ساء مطرُ جنسِ المُنذَرين مطرُ أولئك المعهودين"[2]، "ولو كان ساء بمعنى قَبُحَ على أصله، جاز اعتبارُ العهد من غير تقدير"[3].

وتحتمل اللّام أن تكون للجنس؛ لتشملَ كلَّ من أُنذِر وعوقِبَ؛ لأنَّ عقوبتهم فاقت كلَّ عقوبة إلَهيّة، والعِلّة في كون اللّام للجنس أن تشمل كلَّ من أُنذر، "حتّى يصِحَّ وقوعُ المضاف إليه فاعل ساء، والمخصوص

(1) العثيمين، تفسير سورة الشّعراء، ص: 266.

(2) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 5/ 282.

(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 150.

بالذّمّ محذوفٌ، وهو مطرهم"(1)، فاللّام في ﴿ٱلۡمُنذَرِينَ﴾ للجنس، "إذ لم يُرِد قومًا بأعيانهم، أي: بئسَ مطرُ الذين أُنذِروا بالعذاب مطرُهم"(2).

❁ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

التّدمير والإهلاك:

الإهلاكُ أعمُّ مِنَ التَّدمير، والتّدمير ينصرف إلى كلّ ما هو ظاهر

التّدمير غرضه الإفساد والإعطاب والإهلاك، أمّا الإهلاك فيقع بالتّدمير كما يقع بغيره، والتّدمير ينال القرى والمدن والمنشآت، والإهلاك ينصرف إلى النّفوس والأرواح، من إنسان أو حيوان أو نبات، وقد يُصَرَفُ الهلاك إلى القرية؛ لأنّ هلاك أهلها خرابٌ لها، كما قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرۡيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَتۡكَ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ فَلَا نَاصِرَ لَهُمۡ ١٣﴾ [محمّد: 13]، وقال: ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ١٦﴾ [الإسراء: 16].

المطر والغيث:

الغيثُ محضُ رحمةٍ، بخلاف المطر فقد يأتي بالشّرِّ والدّمار

المطر قد ينزل لحاجة ولغير حاجة، وقد ينزلُ في الخير وينزل في الشّرّ، أمّا الغيثُ فإنّه لا ينزل إلّا بعد ترقُّب وانتظارٍ، فيُغيث النّاس ويسقيهم، ويروي الزّرع والضّرع، فلا ينزل الغيثُ إلّا بخير، والمطر قد ينزل بالخير وقد ينزل بالشّرّ، والغيث دائمًا رحمة، والمطر قد ينزل بالعذاب، فتحدُث السُّيول، وتُدَمَّر البيوت، وتنهارُ السّدود، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ مِنۢ بَعۡدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحۡمَتَهُۥۚ وَهُوَ ٱلۡوَلِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ٢٨﴾ [الشّورى: 28]، والذي أصاب قومَ لوطٍ مطرُ عذاب، حجارةٌ من طين متصلّب متينٍ، مُصَوّبةً عليهم، لا تخطئهم: ﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِم مَّطَرٗاۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾(3).

---

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 4/ 148، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 261.

(2) المنتجب الهمذانيّ، الكتاب الفريد: 5/ 67.

(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 391، والعِزّ بن عبد السّلام، تفسير القرآن: 3/ 143، والبروسويّ، روح البيان: 4/ 352.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾﴾ [الشّعراء: 174 - 175]

بعد سردِ قَصَص المتقدّمين تأتي عظاتُ التّدبّرين

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

بعد بيان مصير المُكذِّبين وعاقبة المؤمنين من قوم لوطٍ عليه السلام، ناسبَ بيانَ الموعظةِ البليغة، والآيةِ العجيبة، في توجيه الخطاب إلى النّبيّ ﷺ، خطابِ تودُّدٍ، مؤكِّدًا أنّه تعالى هو الغالبُ المنتقِم، مع كونه الرّحيمَ بأوليائه، والرّحيمَ أيضًا بالعصاة إذ يُمهلهم؛ لعلَّهم يرجعون، أو تقوم عليهم الحُجّة؛ فجاءتِ الآيتان، تعقيبًا على القِصّة، وهو التّعقيب ذاتُه على ما سبق من قِصّة موسى مع فرعون، ونوحٍ مع قومه، وهودٍ وصالح.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَآيَةً﴾: أصلُ (أَيَى) يدلُّ على النَّظَرِ، وتأيَّيْتُ بالمكان: إذا تحبَّست به وتثبَّتُّ[1]، والآية: العلامَة الثّابتة الدّالَّةُ على أمرٍ مِنْ شَأْنِه أَنْ يَخْفَى، وهي في القرآن على وجهين: الأوّل: العِبرة، الثّاني: العلامة، والوجهان مُتقاربان يصلح استعمال أحدهما في موضع الآخر[2]، أي: لعلامةً ودلالةً لكلّ مُهتدٍ، وعِظَةً لكلِّ معتبرٍ.

2) ﴿الْعَزِيزُ﴾: أصل (عز) يدلُّ على شدَّةٍ وقوَّةٍ وما ضاهاهُما، مِنْ غلَبَةٍ وقَهْرٍ[3]، يقال: عَزَّ يَعَزُّ - بالفتح للمُضارع -: إذا اشتَدَّ وقَوِيَ، وبالكسر للمُضارع: إذا قَوِيَ وامتَنَع، وبالضَّم: إذا غَلَب وقَهَر[4]، والعَزِيز: من صِفات اللّهُ تعالى وأسمائِه الحُسنى، قالَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أيي)، وينظر: العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 368، وابن السِّكّيت، إصلاح المنطق، ص: 217.
(2) العسكري، الوجوه والنظائر، ص: 92.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عز).
(4) النحاس، معاني القرآن: 1/ 379.

الزَّجّاج: هوَ المُمتَنِعُ فلا يغلبُه شيءٌ، وقالَ غيره: هوَ القويُّ الغالِبُ كلَّ شَيْء، وقيل: هو الَّذي لَيْسَ كمِثله شيءٌ[1]، والمُرادُ به في الآيةِ: فعيلٌ، وهو القويُّ الغالبُ على كلِّ شيءٍ.

3) ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾: أصلُ (رحم) يدُلُّ على الرِّقَّةِ والعَطْفِ والرَّأْفَة، يُقالُ: رَحِمَهُ يَرْحَمُهُ، إذا رَقَّ له وتَعطَّفَ عليه[2]، والرَّحيم: صيغة مُبالغة من الرَّحمة على وزن (فَعيل)، ولا يوصَف بالرَّحيم إلّا مَن تكرَّرت منه الرَّحمة"[3]، والعزيز الرَّحيم: الجامع بينَ العِزّة والرّحمة، فبِعزّته يَقْهَر أعداءَه، وبرحمتِه يُنَجّي أولياءَه[4]، والرَّحيمُ في الآية مراد بها: وَصْفٌ من الرَّحمةِ، وهي صفةٌ تقتضي النَّفعَ لمُحتاجه[5].

المَعْنى الإِجْماليُّ:

أجملُ النِّهاياتِ ما أعقبتها العِبرُ والعِظات

تُبيِّن الآيتان الكريمتان في ختام هذه القِصّة المصيرَ المشؤوم للعصاة العُتاة من قوم لوط، والعاقبةَ المحمودة للمؤمنين، بنجاتهم من سطوة الكافرين، إنَّ في هذه النّهاية لعِظَة وعِبْرة للمُعتَبِرين، وما كان أكثرُهم مؤمنين، وأنَّ القرآن تنزيلُ ربّ العالَمين، آيةٌ جليَّةٌ على اقتدار ربّنا ﷻ، ورغم ذلك فالقليلُ مَن يعتبر ويَرعوي، ويُقبل على معين الإيمان ويرتوي، وما آمنَ بنبيّ الله لوطِ إلّا بناتُه، فإن الله لهو المُعِزّ لأوليائه، المُنتَقِمُ المُذلُّ لأعدائه، الغالبُ؛ فلا يُغلَب، المنيع؛ فلا يمتنعُ عليه شيءٌ، العزيزُ المُتفرّد بالجلال والكمال، الرّحيم بأوليائه، المُمهلُ للعُصاة لعلّهم يعودون، المُبيّن لهم طريقَ الهداية، فإن عادوا إليه تاب عليهم ورحمهم.

(1) الراغب، المفردات، والزبيدي، تاج العروس: (عز).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رحم).
(3) مكّي، الهداية الى بلوغ النهاية: 1/ 96.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 336، والإسكافيّ، دُرّة التّنزيل وغرّة التّأويل: 1/ 963، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 254.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 327.

وترشِدُ الآيتان إلى مظاهر قدرةِ اللّه وعِلْمِه ورحمتِه، وأنَّ السّعادة في توحيد اللّه، وأنَّ الجزاء من جنس العمل[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نُكْتَةُ فصلِ الجملة عمّا قبلها:

تعقيبٌ على قصّة قوم لوطٍ بالدّعوة إلى النّظر والاعتبار

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً﴾ استئنافٌ بيانيٌّ، فبينها وبين ما قبلها شِبهُ كمالِ الاتّصال، وهي تعقيبٌ على القصة، بالدَّعوة إلى النَّظر والاعتبار في قصّة قوم لوطٍ كما هو معهود القرآن.

دلالةُ استعمالِ حرفِ الظَّرفيَّة:

التّنويه بالنّظر في القصص لاستخراج عِبَرها وعظاتِها

دلَّ استعمالُ حرفِ الظَّرفيَّة ﴿فِي﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً﴾ على أنَّ العِبَر والعِظات في طيّات هذه القصّة، تحتاج إلى استخراجها واستنباطها، كما نقول: في هذا المغار كنز، وفي هذا البئر ماء، فتحتاج هذه الآيات لمن يُنقّب عنها، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً﴾ أي: دلالةً عظيمة على صدق الرّسل في جميع ترغيبهم وترهيبهم وتبشيرهم وتحذيرهم[2].

فائدةُ استعمالِ اسم الإشارة للبعيد:

العاقلُ يعتبر بما تقدَّم، بقطع النَّظر عن بُعْدِه الزّمني

استُعمل اسمُ الإشارة للبعيد ﴿ذَٰلِكَ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ العائدُ على ما تقدّم منَ القصّة؛ لبيان البُعد الزّمنيّ بين زمن هذه القصّة وزمنِ من خاطبهم القرآنُ، فالإشارةُ بلام البُعد تُثير الاهتمامَ، وتلفتُ الأنظار، ففيه: أنَّ العِبرة تكون لقصص المتقدِّمين، وأنَّ الاتّعاظ بما حصل لهم - مع تقدّمهم واختلافِ أحوالهم - هو مسلكُ العقلاء منَ المخاطَبين.

معنى (اللّام) ودلالتُها:

حرفُ اللّام في قوله تعالى: ﴿لَأٓيَةً﴾ للتّوكيد، وهي اللّام المُزحلقة

(1) الجزائريّ، أيسر التّفاسير: 3/ 677.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 84.

التي دخلت على اسم ﴿إِنَّ﴾ لوجود فاصلٍ بينهما[1]، وفيه تنويهٌ بهذه الآية اليقينيَّة التي يجدر الاعتبارُ بها.

نُكْتَةُ استعمالِ لفظ ﴿لَآيَةً﴾ وتنكيرها:

آثر النَّظمُ الكريم استعمالَ مفردة ﴿لَآيَةً﴾ دونَ رديفاتها؛ لأنَّ الآية الشّيءُ الثّابتُ الجليّ، فهي واضحة ثابتة في مقاصدها ومعانيها، وهي أمرٌ بدهيٌّ ظاهرٌ للعقول، ونُكِّرت في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾؛ للتّعظيم والتّفخيم؛ فهي آيةٌ عظيمة جليلة، فيها العِبَرُ والعِظات، والفوائدُ والهدايات.

تفخيمُ وتعظيمُ ما في القصّة من دروس وعِبَر ودلائل

نوعُ الواوِ ودلالتُها في ﴿وَمَا كَانَ﴾:

الواو في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ عاطفة، عطفت جملتين؛ الأولى مُثبتةٌ، والثّانية منفيَّة، وحَسُن العطفُ بينهما؛ لترابطهما، فرَغْمَ ما في هذه الآيات منَ العِبَر، إلّا أنَّ كثيرًا من قريش عند نزول هذه السّورة لم يؤمنوا، وتحتمل أن تكون حاليَّةً، والمعنى: (إنّ في ذلك لآيةً، والحالُ أنَّ أكثرهم لا يؤمنون).

تحتملُ الواوُ العطفَ والحالَ

دلالةُ (ما) النّافية:

جاءت (ما) نافيةً في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾، فهي تنفي الإيمانَ عن أكثر المُتحدَّث عنهم، والكلامُ عن قوم لوط، كما يُفهم منَ السّياق القريب، أو عن أهل مَكّة حين نزول الآيات، إذ كان أكثرُهم مشركين، كما يُفهم منَ السّياق العامِّ للسّورة، وكما جاء في أوّلها عن إعراضهم وتكذيبهم، وحملُها على قوم لوطٍ تصريحًا، وعلى كفّار قريش تلويحًا أولى بسعة دلالةِ الآيات القرآنيَّة.

النّفيُ محمولٌ على قومِ لوطٍ تصريحًا، وكفّارِ قريشٍ تلويحًا

بلاغةُ التَّعبيرِ ﴿أَكْثَرُهُم﴾ مادّةً وصيغةً:

(أفعل) صيغةُ تفضيل، ولفظ (أكثر) من كثير، وقد جاء التَّعبير

الأكثريَّةُ الغالبة مِنَ الأقوام ترفض الحقَّ وتُجابِهُه

(1) ابن جنّي، سِرّ صناعة الإعراب: 2/ 54، وابن الخبّاز، توجيه اللّمع، ص: 152، بهجت عبد الواحد، الإعراب المفصّل لكتاب الله المرتل: 8/ 165.

بالأكثريّة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾؛ لأنَّ القليل منهم آمن، وهذا من دقّة القرآن، سواء حملناه على قوم لوطٍ عليه السلام، أو على كفّار قريش وقتَ نزولِ هذه الآيات، فقليلُهم آمن، فموقفُ النّاسِ منَ الآيات هو موقفُ الأكثريّةِ التي لا تُؤْمِن، والمعنى على جَعْل الكلام متَّجهًا لكفّار قريش: "وما كان أكثرُ هؤلاء المُكذِّبين بالبعث، الجاحدين نُبوَّتَك يا محمّد بمُصَدِّقيكَ على ما تأتيهم به من عند اللّه منَ الذّكر، يقول جلّ ثناؤه: وقد سبق في علمي أنّهم لا يؤمنون، فلا يؤمن بكَ أكثرُهم، للسّابق من علمي فيهم"[1].

دلالةُ التّعبير بلفظ ﴿مُّؤْمِنِينَ﴾ مادّةً وصيغةً:

الإيمانُ قاعدةُ الإسلامِ وأصلُ القَبولِ

آثر النَّظمُ الكريم استعمالَ مفردة الإيمان في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾؛ لأنَّ الإيمانَ هو المطلوبُ، الإيمانَ بمعناه التّامّ، وهو التّصديق باللّه وملائكته ورسله وكُتبه واليوم الآخر والقدر خيرِه وشَرّه، فإذا صحَّ الإيمانُ صحَّ ما بعدَه منَ الإقبال والإذعان والعمل، ولذلك لم يقل: (مسلمين)، وأتى باسم الفاعل، لأنَّ الإيمان ليس مُجرّدَ قولٍ أو حَدَثٍ، ولكنّه ما وقَر في القلب وصَدَّقه العملُ، فهو منهجُ حياة، فاسمُ الفاعلِ يدلُّ على لزوم الإيمانِ ورُسوخِه، بخلاف التّعبير بالفعل الذي يدلُّ على حَدثٍ قد ينقطع، كما أنَّ فيه إيماءً إلى الحاضر والمستقبل.

معنى (الواو) العاطفة ودلالتُها التّناسبيَّة:

سُنَّةُ اللّهِ واحدةٌ، وموقف المَدعوّين متقاربٌ

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ عُطِفَ على قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾؛ فكلاهما عبرةٌ خُتِمَت بها القِصّة، تحتاج لوقفةٍ متأنيّة، كون هذه القصّةِ كمثيلاتها آيةً؛ فإنَّ سُنَّةَ اللّهِ في الأقوام واحدةٌ، وكونُ أكثرهم لم يؤمنوا؛ ففيه بيانُ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 550.

موقفِ المَدْعوّين، وكذلك أكثريّةُ قريشٍ وقتَ نزولِ السّورةِ الكريمة، وأنَّ اللّه عزيزٌ رحيم؛ ففيه بيانُ اجتماعِ التّرهيب والتّرغيب، ثلاثُ حقائق متآخية متعاطفة.

دلالةُ توالي المُؤكّدات:

دَفْعُ أوهامِ المُخاطَبين في استنزالِ الرَّحماتِ معَ العنادِ على الكفر

توالتِ المُؤكّداتُ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾، حيثُ أكَّد سبحانه صدقَ القَصَص في تلك الجملة بأربعة مُؤكّدات؛ وهي: (إنَّ)، واللّام، وضميرُ الفصل، والقَصْرُ الذي تضمنه تعريفُ الطّرفين[1]؛ ليزدادَ النّبيُّ والمؤمنون يقينًا وإيمانًا، ولبيان أنَّ سُنَّة اللّهِ تعالى قضت في معاملة الأقوامِ معاملةً واحدةً، ولدفع أوهامِ المُخاطَبين في استنزال الرَّحمةِ مع كفرهم باللّه تعالى، فإنَّ من أمِنَ العقوبةَ أساءَ العمل.

فائدةُ استعمالِ عنوانِ الرُّبوبيَّة:

الوعدُ بالنَّصرِ وإعلاءُ كلمةِ الإسلام

آثَرت الآيةُ عنوانَ الرّبوبيَّة في قولِه تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾؛ لما يتضمنه هذا الوصفُ الجليلُ من معانٍ لا تُحصى، وإنَّ ربَّك الذي خلقكَ وتَكَفّل بهدايتك وحِفْظِكَ ورِعايتكَ ونَصْرِكَ، وإنَّ ربَّك المُحسنُ إليك والمُدبِّرُ لك، وهذا الأسلوبُ مطَّردٌ في القرآن، الذي هو خطابُ اللّه لنبيّه ﷺ، والذي نزل لتثبيته وتسرية فؤادِه من همِّ الدّعوة الثّقيل، فإنَّ مقتضى الرُّبوبيّة نصرةُ النّبيِّ ﷺ، ففيه وعدٌ بالنَّصر، وإعلاءِ كلمةِ الإسلام.

بلاغةُ القَصْر:

تأكيد عِزَّته ﷻ، وتقرير رحمته، فله تعالى كمالُ العِزّةِ والرّحمةِ

جاء القَصْرُ في قوله تعالى: ﴿لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ بتعريف طرفي الجملة، المسند إليه والمسند، والتّأكيد بضمير الفصل ﴿لَهُوَ﴾؛ لتأكيد عِزَّته، وتقريرِ رحمتِه ﷻ، فكمالُ العِزّةِ والرّحمةِ من خصائصه ﷻ، ليست لسواه.

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3/ 1254.

كمالُ العِزّة والرَّحمة ترهيبٌ شديد وترغيبٌ حميد

معنى التّعريف في لفظي ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾:

أفاد تعريف الاسمين الجليلين ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ كمالَ العِزّة والرّحمة، أي: الكاملُ في عِزّتِه ورحمتِه، فلا شريكَ له في صفاته، ولا مثيلَ ولا مشابِهَ، وقد تجلّى الاسمان الجليلان في سورة الشّعراء في مواضعَ كثيرة، منها هنا في التّعقيب على قصّة لوطٍ ﵇؛ فإنَّ إهلاكَ الظَّلَمَة وعقوبتَهم الرّادعة من دلائل عِزّته تعالى، فهو الغالبُ الذي لا يمتنع عليه شيءٌ، العزيزُ الذي يعامل العصاةَ بما يستحِقّونَهُ من شديد عذابه، ومن عِزّتِه تعالى: أنّه إن رَحِمَ لا يمنعُهُ مانعٌ، ولا يغلِبُهُ غالبٌ، فهو الغالبُ، وهو تعالى الرّحيم بأوليائه، يَلۡطُف بهم، ويعصمُهم في قلب المِحَن والشّدائد، وينجّيهم، وتتجلّى رحمتُه في إمهاله للعُصاة، لعلّهم يرجعون، وقبولِه توبتَهم إن تابوا.

ترهيبُ الفُجّار مُقدَّم على ترغيب الأبرار

نُكۡتَةُ تقديم ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ على ﴿ٱلرَّحِيم﴾:

جميع المواضع منَ القَصَص القرآنيّ في هذه السّورة التي اقترن فيها الاسمان الجليلان ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾، تقدَّمت فيها صفةُ العِزّة؛ لتناسُبِها مع سياقها، من حيثُ إهلاكُ اللّهِ للعُصاة، فهو العزيزُ الغالبُ، الذي لا يمتنع عليه شيءٌ، وهو أيضًا الرّحيمُ بإهلاك أعدائه، نَجّى بلُطۡفِه أولياءَه، فإذا رَحِمَ لا يمنعُه مانِعٌ من إيصال رحمته، وبرحمته أمهل العُصاة، وبرحمته أنذرهم، وبرحمته تاب على مَن تاب منهم، وبرحمته بلَّغَ التّائبين منازلَ الأبرار، فلذلك تقدّمت العِزّة، هو تعالى العزيزُ الغالبُ القاهِرُ القويّ، ولا يَرۡحَمُ إلّا مَن يملِكُ الرّحمةَ، ويَقۡدِرُ عليها.

الختامُ بأسماء الله الحسنى ربطٌ بقدرة الله تعالى، وترسيخٌ لمعنى الرّبوبيّة

براعةُ ختمِ القِصّة بصفتي ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾:

خُتِمَت هذه القِصّة - كأخواتها منَ القَصَص في هذه السّورة - بصِفتي ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾؛ لتقرير هَذَين الاسمين الجليلين، وبيانِ كيف يتجلّيان في قَصَص القرآنِ الذي يُمَثّل ديوانَ مسيرةِ الأُمم

وحياةَ الأنبياء، ولترسيخ هَذَين الاسمَين الجليلين في قلب القارئ للسّورة، وفيها منَ الاعتبار ما في غيرها، فكانت كلّ واحدةٍ منها تُدْلي بحَقّ في أن تُخْتَم بما اختُتِمَت به صاحبتُها، ولأنّ في التّكرير تقريرًا للمعاني في الأنفس، وكلّما زاد ترديدُه كان أمكنَ له في القلب، وأرسخَ في الفهم، وأبعدَ منَ النّسيان، ولأنّ هذه القصصَ طُرِقت بها آذانٌ وقِرَتْ عنِ الإنصات للحقّ، فكوثِرَت بالوعظ والتّذكير، وروجِعَت بالتّرديد والتّكرير، لعلّ ذلك يفتحُ أُذُنًا أو يَفتُق ذِهنًا[1].

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّة:

الآية والعلامة:

الآية ثابتةٌ في المحسوسات والمعقولات، بخلاف العلامة ففي المحسوسات

الآية هي العلامة الواضحة الجليَة، وتعني كذلك الأمرَ العجيب، والمعجزة الخارقة للعادة، وآياتِ الله في الأنفس والآفاق، الدّالَّة على كمال القدرة وجمال الصّنعة، ولم تَرِد العلامةُ في القرآن إلّا في قوله تعالى: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ١٦﴾ [النّحل: 16] أي: الجبال والأنهار، كما في الآية السّابقة لها: ﴿وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَأَنۡهَٰرٗا وَسُبُلٗا لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ١٥﴾ [النّحل: 15]، أي: معالم يهتدي بها المسافرون برًّا وبحرًا وجوًّا، كما "أنَّ الآية هي العلامة الثّابتة، من قولك: تأيَّيْتُ بالمكان؛ إذا تحبست به وتثبّتُّ"[2]، من الإقامة والقرار؛ لذا فالعلامات التي يُستَدلُّ بها على الطّرق لا بدّ أن تكون علاماتٍ ثابتةً مستقرّةً، كالجبال والأنهار، فلا يصلح أن تكون متنقلة أو متغيِّرة، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ﴾، أي: لعلامة واضحة جليَّة باقية لكلِّ معتبر.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 91.

(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 368، وابن السِّكِّيت، إصلاح المنطق، ص: 217.

﴿كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٧٦ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ شُعَيۡبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ١٧٧ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ١٧٨ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٧٩ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٨٠﴾

[الشعراء: 176 - 180]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبلَها:

تقارُبُ الزّمان والمكان بين قصّتي قومِ لوطٍ وقومِ شعيبٍ عليهما السلام

تأتي قصّة نبيّ الله شعيبٍ عليه السلام، وهي القصّة السّابعة بعد قصص موسى وإبراهيم ونوح وهود وصالح ولوط، وكما هو معهود القرآن مجيءُ قصّة شعيبٍ بعد قصّة لوطٍ عليهما السلام، وهذا هو التّرتيب الذي مَرّ في سورة الأعراف وفي سورة هود وفي سورة الحِجْر، وفي الحَجّ: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَعَادٞ وَثَمُودُ ٤٢ وَقَوۡمُ إِبۡرَٰهِيمَ وَقَوۡمُ لُوطٖ ٤٣ وَأَصۡحَٰبُ مَدۡيَنَۖ﴾ [الحج: 42 - 44]، وسيأتي في سورة العنكبوت: ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗا﴾ [العنكبوت: 36] عقيبَ قصّة لوط، وفي سورة ص: ﴿وَثَمُودُ وَقَوۡمُ لُوطٖ وَأَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَحۡزَابُ ١٣﴾ [ص: 13]، فإلى جانب القُرْب الزّمنيّ بين قوم لوطٍ وقوم شعيب، نجد القُرْبَ المكانيّ؛ إذ سكن قومُ شعيبٍ بَلَدَةَ "مَدْين"، وهي من أرض مَعانٍ، في الأطراف الجنوبيّة مِنَ الشّام، ممّا يلي ناحيةَ الحجازِ، قريبًا من بُحَيرة قوم لوط.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لۡـَٔيۡكَةِ﴾: (أيك) أصلٌ يدلُّ على اجتماع شَجَرٍ[1]، والأَيْكةُ: الشَّجَرُ الكَثيرُ المُلتَفُّ، وقيلَ: هي الغَيضة تُنبِتُ السِّدْر والأَراك ونَحوهُما مِنْ ناعِم الشَّجَر، وخَصَّ بعضهم بِهِ مَنْبَتَ الأَثْل ومُجتَمعه[2]، وقيلَ: الأَيْكة جَماعَةُ الأَراك[3]، والجَمعُ أَيْكٌ، وأَيك

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أيك).

(2) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (أيك).

(3) ابن فارس، مقاييس الله، وابن منظور، لسان العرب: (أيك).

الأَراك فهو أَيِكٌ واسْتَأْيَك، كلاهما: التفَّ وصار أيكة[1]، وأُطلقَتْ هنا مُرادًا بِها الجِنْسُ إذ قد كانَتْ مَنازِلُهم في غَيْضَةٍ مِنَ الأَشجارِ الكثيرَةِ الوَرق[2]، وأَصحابُ الأَيْكَةِ: هم قَوْمُ شُعيب عليه السلام وهم مَدْيَنُ، وقيلَ أَصحابُ الأَيْكَةِ فريقٌ مِنْ قَوْمِ شُعيب غيرُ أَهْلِ مَدْيَنَ، فأَهلُ مَدْيَنَ هم سُكّانُ الحاضِرَةِ وأَصحابُ الأَيْكَةِ هم باديَتُهُم، وكانَ شُعيبٌ رسولًا إليهِم جميعًا[3].

المَعْنى الإِجْماليّ:

تـشـابـهُ دعــوةِ نبيّ الله شعيب عليه السلام مع دعوات جميع الأنبياء

ابتدأتِ الآياتُ الكريمة ببيان كَذِبِ مَن سبق مِنَ الأُمَمِ الهالكة، فقد كَذّبَ أصحابُ تلك الغَيْضَة الكثيفة المرسلين؛ بتكذيبهم بنبيّ اللّه شعيبٍ عليه السلام، إذ قال لهم نبيُّهم شعيب - يحضّهم ويرغّبهم - ألا تخافون اللّه تعالى، فتمتثلون لما أمر، وتجتنبون ما أنتم عليه من سوء الخِصال وذَميم الفِعال، كما أنَّه أكَّد لهم رسالته وبيّن أمانته على وحي اللّه، وحِرصَه عليهم، ونُصْحَه لهم، فإذا صدَّقتم برسالتي، فعليكم بتقوى اللّه وحدَه، وطاعتي واتّباعي، أَهْديكُم إلى سبيل النّجاة، وطريقِ الخير، وهو كغيره منَ الأنبياء بيّن لهم أنّه لا ينتظر منهم الأجرَ والمثوبةَ، وأن أجرَه على من أرسله سبحانه، فهو الخالق الرّازق الهادي المُدبّر.

وترشدُ الآيات الكريمة إلى أنَّ دعوة الأنبياء كلّهم - فيما حكى اللّه عنهم - على صيغة واحدة؛ لاتفاقهم على الأمر بالتّقوى والطّاعة والإخلاص في العبادة، وإلى أنَّ الأمر بالتّقوى فريضةُ كلِّ داعٍ إلى اللّه تعالى، وهي طريقةُ الدّعاة والهُداة، إذ طاعةُ اللّه واجبة، وأنه لا يصِحُّ لداعٍ إلى اللّه أن يطلب أجرَه ممّن يدعوهم؛ فإن ذلك يُنَفِّرُهم عنِ الهداية والخير[4].

(1) ابن منظور، لسان العرب: (أيك).
(2) الخليل، العين: (أيك)، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 71.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 358.
(4) البغويّ، معالم التّنزيل: 3/ 371، والجزائريّ، أيسر التّفاسير: 3/ 680.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نُكْتَةُ فصلِ الجملة عمّا قبلها:

تستقلُّ كلُّ قصّة بمعانيها رغمَ اتّساقها مع سوابقها ولواحقها

جاءت الآيةُ ﴿كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِ﴾ مفصولةً عمّا قبلها؛ لأنَّها جملةٌ مستأنفة، فهي بداية قصّة أخرى من قصص الأنبياء مع أقوامهم، وفصلٌ جديد من فصول تاريخ الأُمم الهالكة، ولما بينهما من تغاير في المعنى؛ فهذه قصّة جديدة، تتّسق مع ما قبلها منَ القَصَص، لذا حَسُن الفَصْل.

دلالةُ تذكير فعل ﴿كَذَّبَ﴾:

جاء الفعل ﴿كَذَّبَ﴾ خاليًا من تاء التّأنيث في قوله تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِ﴾ وهو الأصل، بخلاف القصّة المتقدِّمة ﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ لُوطٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾؛ وذلك أنَّ الفاعل هنا جمعٌ، وهناك اسم جمع، واسم الجمع للعاقل يجوز فيه الأمران، التّذكير والتّأنيث.

نُكْتَةُ التَّعريف بإضافة ﴿أَصۡحَٰبُ﴾ إلى ﴿لۡـَٔيۡكَةِ﴾:

دقّة القرآن في التّعريف بالاسم الأشهر

جاء التَّعبير بإضافة لفظ ﴿أَصۡحَٰبُ﴾ إلى ﴿لۡـَٔيۡكَةِ﴾ دون أن يقول: (قوم شعيب)؛ لأنَّهم مُلازمون لها منسوبون إليها، كما في أصحاب الجنّة، وأصحاب الكهف، وأصحاب القرية، فالأيكةُ شجرةٌ، والأقوام من تربطهم رابطة دم، أو تجمعهم بلد، أو تربطهم لغةٌ، فدلَّ هذا الاستعمال على أنَّ الأيكة هي الجهة الجامعة لهم، باعتبار أنَّهم عُرفوا بها، فاشتُهروا بانتسابهم لها في زمانهم، فنُسبوا إليها؛ لأنَّهم مجاوروها وملازموها، ومنتفعون بخيرها، في الرّعي وغيره منَ المنافع.

دلالةُ التّعريف بالإضافة في: ﴿أَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِ﴾:

عظيم النّعمة وجلالُها، مع رُزْءِ الكفرِ وشناعته

تمييز هؤلاء المذكورين بالمكان الذي عاشوا فيه، وهو مكان مشهورٌ، فيه إشارةٌ إلى أنّهم كفروا بنعمة اللّه، كشأن قوم لوط الذين عاشوا في قرًى حاضرةٍ عامرة، بين خصبٍ ونَعْمَةٍ، لكنّهم فسقوا

وفجروا، وقابلوا النّعمَ بالكُفران والعصيان، كذلك أصحابُ الأيكة، أنعم اللّهُ عليهم بهذه الواحة الغنّاء، والرّوضات الفيحاء، والظّلال الممتدة، والماء والخُضرة، في قلب قِفارٍ وصَحارٍ، فكان أجدرَ بهم أن يؤمنوا بدعوة نبيّهم، وينصفوا في موازينهم ومكاييلهم، فالخيرُ كثير، والرّزقُ وفير، والماءُ عذبٌ نمير، فلماذا هم أشحّاء أخسّاء! أو أُضيفوا إليها لأنّهم كانوا يعبدونها، وهي التي هلكوا بها.

معنى (أل) في لفظ ﴿لۡـَٔيۡكَةِ﴾:

واحة خضراء في قلب صحراء قاحلة نِعمةٌ تستحقّ الذّكر وتستوجب الشّكر

اللّام في ﴿لۡـَٔيۡكَةِ﴾ للعهد؛ لأنّها معروفة، وهي مجتمع الشّجرة، أو كعلم لشُهرتها، سواء كان المراد بالأيكة الأشجارَ الكثيفة الأغصان، الوريفةَ الظّلال، أم البلدةَ التي سُمّيت باسمها، كما هو الحال بتسمية بلاد كثيرة، بمَعْلَم من معالمها، نهرًا، أو شجرةً، أو بئرًا، أو بستانًا، قال ابن كثير عن أصحاب الأيكة: "هم أهل مدين على الصّحيح، وكان نبيّ اللّه شعيبٌ من أنفسهم، وإنّما لم يقل هنا أخوهم شعيب؛ لأنّهم نُسبوا إلى عبادة الأيكة، وهي شجرة، وقيل: شجر ملتف كالغيضة، كانوا يعبدونها؛ فلهذا لما قال: ﴿كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾، لم يقل: (إذ قال لهم أخوهم شعيب)، وإنما قال: ﴿إِذۡ قَالَ لَهُمۡ شُعَيۡبٌ﴾، فقطع نسبة الأُخوّة بينهم؛ للمعنى الذي نُسِبوا إليه، وإن كان أخاهم نسبًا"(1).

توجيه القراءات في ﴿لۡـَٔيۡكَةِ﴾:

اسمُها (لَيْكة)، ووصفُها (الأيكة) لأنّها عامرة بالشجر الكثيف الملتفّ

ورد ذِكر (الأيكة) في القرآن في أربعة مواضع؛ في سورة الحجر، الآية (78)، وفي سورة الشّعراء، وفي سورة ص، الآية (13)، وفي سورة ق، الآية (14)، فأمّا التي في الشّعراء وص؛ فنافع وابنُ كثير وابن عامر وأبو جعفر، يقرؤونهما ﴿لَـيۡكَةَ﴾ بلام مفتوحة بلا ألف قبلها ولا همز بعدها، وفتح تاء التّأنيث على

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 158.

وزن (فَعْلَة)، مُنعت من الصرف، والباقون ﴿لَـْٔيۡكَةِ﴾ بهمزة وصل وسكون اللّام وبعدها همزة مفتوحة وبكسر التّاء فيهما، وكذلك رُسِمَت - في هذين الموضعين - في جميع المصاحف، وأمّا موضعا الحجر و(ق) فقد اتّفقوا على قراءتهما على ﴿ٱلۡأَيۡكَةِ﴾ بالهمز؛ لإجماع المصاحف على كتابتهما على ذلك[1]، والفرق بينهما: أنّ الأيكة الدّوحة المُلتفة منَ الشجر على الإطلاق، وقيل: من شجر معروف له غُضَارة، تألَفُه الحمامُ والقُماريّ ونحوها، و﴿لَـْٔيۡكَةَ﴾: اسم البلد، في قراءة من قرأ ذلك، قالَهُ بعضُ المفسّرين، وذهب قوم إلى أنّها مُسهّلة منَ (الأيكة)[2].

دلالةُ التّعبير بمفردةِ ﴿ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ جمعًا:

تكذيبُ رسولٍ، تكذيبٌ للجميع، وجحودٌ بالمُرسِل والرّسالة

جاء التَّشنيع على قوم شُعيب ﵇ في قوله تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ لَـْٔيۡكَةِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ في كون تكذيبهم كان لرُسل اللّه تعالى، الذين هم أحقُّ بالتّصديق، وفي تكذيبهم تكذيبٌ لَمن أرسلهم ﷻ، وآثَر النَّظمُ جمعَ المُرسلين، مع أنَّ المُرسَل إليهم نبيٌّ واحد؛ لأنَّ تكذيبَ نبيٍّ واحدٍ هو تكذيبٌ لجميع الأنبياء، فرسالتُهم واحدة، وهي إخلاص الدّين للّه تعالى، وهو ليس تكذيبًا للمتقدِّمين فحسب، بل تكذيبٌ للجميع، ويدخل في ذلك رسولُ اللّه ﷺ؛ لأنَّ العبرة في التَّكذيب هي التَّكذيب بالمُرسِل سبحانه وتعالى، ولهذا آثَر النَّظم استعمال مفردة الإرسال.

لطيفةُ فصل الجملة عمّا قبلها:

تقدير الأسئلة في باب الاستئناف البيانيّ بحسب نظم الألفاظ

فُصِلت جملة ﴿إِذۡ قَالَ لَهُمۡ شُعَيۡبٌ﴾ عمّا قبلها؛ لأنَّها استئنافٌ بيانيٌّ جاءت جوابًا عن سؤال مفترض: متى كذّبوا؟ فجاء الجواب بتعيين وقتِ الدَّعوة ﴿إِذۡ قَالَ لَهُمۡ شُعَيۡبٌ﴾، أي: كذَّبوا وقتَ أن دعاهم

---

(1) ابن مجاهد، السّبعة، ص: 473، وابن خالويه، الحُجّة، ص: 208، والفارسيّ، الحُجّة للقرّاء السّبعة: 5/ 51، وابن زنجلة، الحُجّة، ص: 519، وابن الجزريّ، النّشر في القراءات: 2/ 336 .

(2) الثّعالبيّ، الجواهر الحسان في تفسير القرآن: 4/ 235.

عليه السلام إلى تقوى اللّه تعالى، فبينهما شِبه كمال اتّصال، أو كمالُ اتصال إذا جعلنا الثّانية مبيّنةً للأولى.

دلالةُ تقديمِ الجارّ والمجرور ﴿لَهُمۡ﴾:

قُدِّم الجارُّ والمجرور في قوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُمۡ شُعَيۡبٌ﴾، دون أن يقول: (قال شعيب لهم)؛ لبيان أنَّ قول ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ لهم على وجه الخصوص والاعتناء بهم حين الخطاب.

توجيهُ المتشابهِ اللّفظيّ في حذف لفظ (أخوهم):

الأنبياء يُنسبون لأقوامهم إذا تجرّدوا من معاني الباطل

لم تذكر هذه الآية ﴿إِذۡ قَالَ لَهُمۡ شُعَيۡبٌ﴾ أُخوّتَه لقومِه، مع أنَّه أخوهم كما قال اللّه تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗا﴾ [الأعراف: 85]، وهكذا جاءت في هود والعنكبوت، وذلك أنَّه لمّا نسبهم تعالى إلى (الأيكة)، وهي شجرة عظيمة كانوا يعبدونها، لم يقل: (أخوهم شعيب)؛ لأنّهم نُسبوا إلى عبادتها، وهو عليه السلام بريء من ذلك[1]، ولكنّه قال: ﴿أَخَاهُمۡ﴾ [الأعراف: 85] حين ذكرَهم باسم قبيلتهم، ولم يقل أخوهم هنا حين نسبهم إلى الأيكة التي هلكوا فيها؛ تنزيهًا لشعيب عليه السلام عنِ النّسبة إليها[2]، فنَسبَهُ إليهم لمّا ذكر اسمَ مدين المتمحض للتّعريفِ.

نوع ﴿أَلَا﴾ ودلالتُها:

حِرْصُ الرّسلِ على أقوامهم ولطفُهم في دعوتهم

﴿أَلَا﴾ في قوله تعالى: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ بمعنى هلّا، فهي للتّحضيض، وهو طلبُ الشّيء، وتحريكُ الهمّة له، وبعثُ النّفوسِ إليه، وحضّهم على تقوى اللّه تعالى، وهي للاستفتاح والتّنبيه، استفتح دعوتَهم، فنبّههم وحثّهم على تقوى اللّه، بتلطُّفٍ وترغيبٍ، ويجوز أن يكون لفظُ ﴿أَلَا﴾ مُركَّبًا من حرفين: همزة استفهام دخلت على (لا)

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 158.
(2) ابن جزيّ، التّسهيل لعلوم التّنزيل: 2/ 95.

النّافية، "فهو استفهام عنِ انتفاء تقواهم، مستعملٌ في الإنكار، وهو يقتضي امتناعَهم منَ الامتثال لدعوته، وتباطؤَهم عن تصديقه"[1].

دلالةُ استعمالِ مفردة التّقوى:

التّقوى أساسُ الدّعوات، وأصلٌ من أصول الرّسالات

آثَر النَّظمُ الكريم استعمالَ مفردة التّقوى في قوله تعالى: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾، دونَ الإسلام أو الإيمان؛ وذلك لأنَّ التّقوى هي أساسُ الاستجابة، فإنَّ الكافر قد يوصَف بتقوى اللّه تعالى، ويُراد بها الخوفُ والخشية منه تعالى حينَئِذٍ، إذِ التَّقوى تأتي وصفًا للمؤمن، وهي التقوى التي تقود إلى الجنَّة، ووصفًا للكافر وهي التّقوى التي تقود إلى الإيمان، وهذا الذي حضَّهم عليه ﷺ، ودلَّ على تلطُّفه بهم وحِكمته في دعوتهم، وترفُّقه وحرصه عليه، كما أمر اللّهُ نبيّه موسى ﷺ حين أرسله لفرعون، ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ١٧ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ١٨ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ١٩﴾ [النّازعات: 17 - 19].

غرضُ الاستفهام وبلاغتُه في: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾:

أسلوبُ التّحضيض والتّشويق أسلوبٌ مشتركٌ في دعوة الأنبياء

قوله تعالى: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ استفهامٌ غرضُه التّحضيض، "فاللّفظُ لفظُ الاستفهام، والمُراد به الأمر، يعني: اتّقوا اللّهَ تعالى"[2]، وقال ابن فوْرك: "جاء الإنكار بحرف الاستفهام في ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾؛ لأنّه لا جوابَ لهم عنه إلّا بما فيه فضيحتُهم؛ لأنّهم إن قالوا: لا نتّقي ما يُؤدّينا إلى الهلاك هتكوا أنفسَهم، وإن قالوا بلى نتّقيه: لزمَهُم أن يتركوا عبادة غيرِ ربّهم"[3].

بلاغةُ استعمال مفردة التّقوى بالفعل المضارع:

التّقوى أصلُ الدّعوات، ومنبتُ الخيرات

بدأ شُعيبٌ ﷺ بحضّ قومه على التّقوى ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾، كحال الأنبياء جميعًا؛ تخويفًا لهم وتحذيرًا من عذاب اللّه، والتّقوى تتفتّقُ عنِ الإيمان، فلا تقوى بلا إيمانٍ، فمَن يؤمن باللّه يَتّقِه، وهي المنطلق

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 158، بتصرّف.
(2) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 3/ 151.
(3) ابن فورك، تفسير القرآن: 1/ 245.

لكلّ داعيةٍ، ونقطة البداية لكلّ مُحاورٍ، فبادر بإنذارهم، وكلّ نبيٍّ بدأ قومَه بالنّذارة، قال تعالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ٢﴾ [النّحل: 2]، وجاء بالفعل المضارع ﴿تَتَّقُونَ﴾ لتقوية معنى الحضّ؛ لأنَّهم لم يكونوا أتقياء في ماضيهم أو في حاضرهم، فدعاهم إلى تقوى اللّه في الحاضر إنشاءً، وفي المستقبل امتدادًا.

نُكْتَةُ فصلِ جملة التّعليل عمّا قبلها:

تعليلُ الخِطاب أقنعُ في بيان الحجّة

فُصِلَت جملةُ ﴿إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ﴾ عمّا قبلها؛ لأنَّها جملة تعليليّة، فحَسُن الفصلُ لكمال الاتّصال؛ لأنَّ الثّانية تعليلٌ للأولى، فهي تعليلٌ للإنكار أوِ التّحضيض، أي: كيف تستمرّون على الشّرك وقد نهيتُكم عنه، وأنا رسولٌ لكم، أمينٌ عندكم؟[1].

دلالةُ التّوكيد في قوله: ﴿إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ﴾:

استباقُ الأحداث دليلُ المِكْنةِ والفصاحة

جاء التّوكيدُ في قوله تعالى: ﴿إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ﴾، بحرف التّأكيد - مع عدم سبق إنكارهم أمانتَه - ؛ إمّا لأنَّه توقَّع حدوثَ الإنكار، فاستدلّ عليهم بتجربة أمانته قبلَ تبليغ الرّسالة، فإنّ الأمانة دليلٌ على صدقه فيما بلّغهم من رسالة اللّه[2]، وهذا استباقٌ جَريءٌ يدلُّ على مُكنته في الكلام، وهو خطيبُ الأنبياء ﵈؛ وكان رسولُ اللّه ﷺ إذا ذَكَرَهُ قال: «ذاكَ خَطيبُ الأَنْبياءِ» لِمُراجَعَتِه قَوْمَهُ[3]، وإمّا أنّه أكّد اختصاص إرسالِه لهم.

معنى (اللّام) ونُكْتَةُ تقديم ﴿لَكُمۡ﴾:

مزيدُ عناية الرّسول بالمَدعوّين يزيد منَ التّشنيع عليهم عند إدبارهم

(اللّام) في القيد ﴿لَكُمۡ﴾ بمعنى التّعليل[4]، أي: من أجلكم، فرسالتُه ﵇ لأجل هداية قومه، وقُدِّم الجارّ والمجرور ﴿لَكُمۡ﴾

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 158.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 158.

(3) أخرجه الحاكم في المستدرك على الصّحيحين، الحديث رقم: (4071)، وسكت عنه الذّهبيّ في التّلخيص.

(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 15/ 78.

في قوله تعالى: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾؛ لتَدلَّ على الاختصاص، فالخطابُ لقومه؛ اهتمامًا بهم وحِرصًا عليهم، والمعنى: (إنّي لكم لا لغيركم رسولٌ أمين)، ومعرفةُ المَدْعوِّ أنَّ الدّاعي أُرسِل إليه على وجه الخصوص لأجل هدايته، يزيد من إقباله، فإذا أدبر وتولَّى فإنَّ ذلك يزيد من التّشنيع عليه، والزّيادة في لومه.

دلالةُ اختيارِ لفظ ﴿رَسُولٌ﴾ وتنكيره:

شرفُ الرّسولِ بعَظَمة المُرْسِل وكرامةِ الرّسالة

آثَر النّظمُ الكريم استعمالَ مفردة ﴿رَسُولٌ﴾ دون (نبيّ)؛ وذلك لِلَمحِ مفهوم الإرسال؛ فالرّسول مرسلٌ مِنَ اللّه تعالى، ففي اللّفظ إشارةٌ إلى المُرسِل سبحانه وتعالى، وإلى الرّسالة التي كُلِّف بها لتبليغ قومه بها، فالخَطْبُ جليل، والأمرُ عظيم، وهذا أدعى لتعظيم الرّسول وتبجيلِه والامتثالِ له، مع ما في تنكير لفظ ﴿رَسُولٌ﴾ مِنَ التّفخيم والتّعظيم، إذ شَرفُ الرِّسالة بشَرف مضمونها، وقدرُها نابعٌ من عَظَمة مُرْسِلها، ففيه حَفْزٌ لهم على الاستجابة والطّاعة.

بلاغةُ الوصف بلفظ ﴿أَمِينٌ﴾:

أبلغُ الأوصاف ما كان تعليلًا للموصوف

وُصِفَ الرّسولُ بالأمانة في قوله تعالى: ﴿رَسُولٌ أَمِينٌ﴾، والأمانةُ مِنَ الأخلاق الرّاسخة التي تكون في المرسلين؛ للتّذكير بحاله قبلَ البعثة، وقياسِ ما بعدَها على ما قبلها، فأفاد الوصفُ تعليلَ كونِه رسولًا مِنَ اللّه تعالى، ورَشَّحَ ذلك مجيءَ الوصفِ على وزن (فعيل)، وهي صيغة مبالغةٍ مِنَ الأمانة، فقد بلغ الغايةَ ﵇ في هذا الوصف، مع ما فيها من رعاية الفاصلة.

نوع الفاء ودلالتُها في قوله: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾:

تحتمل الفاءُ أن تكون فصيحةً أو تفريعيَّةً أو استئنافيّةً

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ هي الفصيحة، وهي تُفصح عن محذوف مُقدَّرٍ، فبعد قوله تعالى: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾، يكون التّقدير: (فإذا كنت كذلك، وأنتم تُسَلِّمون بأمانتي، فعليكم أن تستجيبوا لدعوتي، وتتّقوا اللّه ربَّ العالمين، وتطيعوا رسولَه)، أو

أن تكون تفريعيَّة، أي: مقتضى الإيماءِ إرسالُ الأمين بتقوى اللّه ربّ العالَمين، فالفاءُ لترتيب ما بعدَها على ما قبلها، يعني: رسالتي إليكم أنِ اتّقوا اللّه وأطيعون. "ويجوز أن تجعل الفاء في ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾: استئنافيّة، فيكون الكلام مستأنفًا من اللّه؛ للدّلالة على طريق الطّاعة ومَحجّتها الواضحة"(1).

معنى الواو ودلالتُها في ﴿وَأَطِيعُونِ﴾:

التّقوى دعوى دليلُها الطّاعةُ

الواو في قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ من باب عطف الأمر بالطّاعة على الأمر بالتّقوى، فهي عطف أمر على أمرٍ، وفيه بيانُ اقتران الأمرين وتلازمِهما؛ فمنِ اتَّقى اللّهَ تعالى عليهِ أن يُطيع رسولَه في الأمر كلِّه، ولا تستقيم التّقوى بدون الطّاعة، فتقوى اللّهِ تعالى دعوى، ودليلُها طاعةُ رسولِه.

دلالةُ استعمالِ مفردة الطّاعة:

الطّاعةُ تأتي يسيرةً مُنقادةً

جاء استعمالُ مفردة الطّاعة في قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُونِ﴾؛ لبيان أنَّ مقتضى اتّباعِ الرّسول في الأوامر والنّواهي يجب أن يكون سهلًا عن طواعيَةٍ واختيار، فواجبُ الأُمّة اتّباعُ نبيِّها والانقيادُ له دونَ عَسارة أو نَكادة.

لطيفةُ حذف ياء المتكلم في قوله: ﴿وَأَطِيعُونِ﴾:

طاعة الرّسول ليست مقصودةً لشخصه وذاته

جاء ذِكر لفظةِ: ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ في القرآن إحدى عشرة مَرّة فواصلَ آياتٍ، منها: ثمانيةُ مواضع في سورة الشّعراء، حُذِفت الياءُ فيها جميعًا؛ وذلك للإشعار بأنَّ طاعة الرّسول ليست مقصودةً لشخصه وذاته.

معنى الواو ودلالتُها في: ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ﴾:

يحسن الاحتراسُ في مخاطبة النّاس

الواو في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾؛ جاءت للاستئناف، فبعدَ أن أمرهم بتقوى اللّه

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 26/ 323.

تعالى وطاعتِه، شرعَ في بيان أنَّه لا يسألهم على ذلك أجرًا، ففيه احتراسٌ أن يقع منهم ظنٌّ ووهمٌ أنَّه يطلب إليهم أجرًا على دعوته.

نوع (ما) ودلالتُها:

نافيةٌ للحال والاستقبال

(ما) في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ﴾ نافيةٌ، دخلت لنفي أن يسأل رسولُ اللّهِ شعيبٌ قومَه أجرًا على دعوته، وفي دخولها على الفعل المضارع نفيٌ للحال والاستقبال.

دلالةُ استعمال مفردة ﴿أَسۡـَٔلُكُمۡ﴾ مادّةً وصيغةً:

نزاهةُ الرُّسلِ أثرٌ طبيعيٌّ لأمانتهم وإخلاصهم

آثَر النّظمُ الكريم استعمالَ مفردة السّؤال في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ﴾ دون أن يقال: (وما أطلب إليكم) ونحو ذلك، والسّؤالُ بمعنى طلبِ الشّيء؛ لبيان أنّه لا يطلب إليهم شيئًا صريحًا أو كناية، فهو لا يطلب المالَ صراحةً، ولا يسأل عنه بطريق التّلويح والإشارة، وهذا أبلغ في التّعبير من ذِكْر لفظِ الطّلب، وجيء بصيغة المضارع ﴿أَسۡـَٔلُكُمۡ﴾؛ إذ إنَّ شُعيبًا عليه السلام لم يطلب مالًا ولم يستفهم عنه؛ نفيًا لذلك في الماضي، وهم يعلمون أنّه لم يطلب، ونفيًا للحال والاستقبال؛ فإنَّ عدم السّؤال فيما مضى، لا يعني عدمَ السّؤال فيما يأتي، فعَمَّ النّفيُ عدمَ طلبِه الزّمان كلّه.

دلالة استعمالِ حرفِ الاستعلاء، وتقديمِ الجارّ والمجرور:

رسلُ اللهِ تعالى لا يسألون الأجرَ ولا يُساومون العبادَ

تعدَّى فعل ﴿أَسۡـَٔلُكُمۡ﴾ بحرف (على) دونَ أن يتعدَّى بنفسه، فلم يقل: (أسألكم أجرًا)؛ وذلك لتضمينه معنى قايض وساوَم، أي: لا أطلب منكم أجرًا مقابلَ دعوتي لكم إلى الخير، أو جاهًا أو جُعْلًا، أو أيّ عرضٍ دُنيويّ؛ فرُسلُ اللّه يتسامَوْن فوقَ الأعراض الدّنيويّة، ويترفَّعون عنِ الهِمَم الدَّنيَّة، وقُدِّم ﴿عَلَيۡهِ﴾ على القيد ﴿مِنۡ أَجۡرٍۖ﴾؛ للاعتناء بالمُقَدَّم بالتَّنبيه على أنّه لا يسألهم الأجر على هذا العمل خصوصًا، لأنّه قد يقوم بأعمال دنيويّة ويتقاضى أجرَه عليها.

تعيين مرجع الضّمير:

يرجع الضّمير في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ﴾ إلى مُقدَّر دلَّ عليه السّياق، أي: على إنذاري، ودعوتي لكم بتقوى اللّه تعالى وطاعتي، ونُصحي وتعليمي، وهذا من بلاغة الإيجاز.

بلاغةُ القيد ﴿مِنۡ أَجۡرٍۖ﴾:

دلَّ حرف ﴿مِنۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنۡ أَجۡرٍۖ﴾ على تأكيد النَّفي وعمومِه، أي: لا أطلب أيَّ أجرٍ، قلَّ أو كَثُر، وجاء استعمال لفظ ﴿أَجۡرٍۖ﴾ للإيماء إلى أنَّ الرّسالة عملٌ دؤوبٌ، وجَهْدٌ مُضنٍ، ليست بالمُهمّة اليسيرة؛ فإنَّ مَن يسلك هذا المسلكَ من آحاد النّاس فلن يتردَّد في طلب الأجر، وقد جاء هذا اللّفظ نَكرةً للتّقليل والإبهام، والنّكرةُ في سياق النّفي تُفيد العمومَ، فنفى أن يكون قد طلب أيَّ أجرٍ كان، وأفاد القيدُ أنَّ قومَه - وهم أهل مالٍ واقتصاد - أشعروه من طَرْفٍ خَفيٍّ بأنَّه يطلب الأجر، وهذا وإن لم يظهر في النَّظم، لكنَّه يُؤخذ من فحوى الرَّدِّ، فجاء هذا النّفيُ بهذه البلاغة البديعة، لردِّ ما قد تتصوّره الأذهانُ من طلبه مقابلَ إرشادِهم وهدايتهم.

براءةُ النَّفي الصَّريح تَئِدُ قوّةَ التُّهمة الخَفيَّة

علَّةُ فصلِ الجملةِ عمّا قبلَها:

فُصِلَت جملة ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾؛ لأنَّها جملة بيانيَّة مستأنَفة، فهي جوابٌ عن سؤالٍ يتبادر في الذِّهنِ: فمن يُثيبُك على هذا العمل؟ فأجاب بأنّ أجرَه على اللّه وحدَه، فبينَ الجُملتين شِبه كمالِ اتّصال، أو تكون محمولةً على التَّعليل والبيان، فهي بيان للجملة السّابقة النّافية أن يسألهم أجرًا؛ لأنَّه يطلب الأجر منَ اللّه ربِّ العالَمين، فبينَ الجُملتين كمالُ الاتّصال.

تعليلُ الكلام وبيانُ فحواه أقنعُ في العقل وأرسخُ في القلب

بلاغةُ القَصْر في قوله تعالى: ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾:

معنى ﴿إِنۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ النَّفي، وقد جاءت أداةُ الاستثناء بعدَها للقَصْر، أي: لا أجرَ لي على

أبلغُ الكلامِ ما تعاضدت فيه المعاني في ردّ الأوهام

أحدٍ منَ البشر؛ لأنَّه على اللّه وحْدَه سبحانه، والقَصْر يُؤكِّد معنى التَّعليل في الجملة، والتّوكيد للسّابقة؛ قطعًا لشكوكهم، وتصريحًا بقوّة يقينِه بربّه.

بلاغةُ إظهارِ ما حَقّه الإضمارُ:

إذا اختلفتِ المعاني حَسُنَ إعادةُ المباني

أظهر النّظمُ الكريم لفظَ ﴿أَجۡرِيَ﴾ مع تقدّم ذِكْرها في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ﴾ دونَ التّكنية عنه، كأن يقول: (وما أسألكم عليه من أجر إن هو إلا)؛ لإفادة أنَّ الأجر الذي يطلبه منَ اللّه تعالى يختلف عنِ الأجر الذي ظنَّه قومُه، فأعاد اللّفظ لبيان أنَّ الأوّل غيرُ الآخَر، وأنَّ الأجر الأوّل هو أجرُ النّاس، وأنَّ الآخَر هو الأجر منَ اللّه تعالى، وما كان كذلك لا يَسُدُّ الضَّميرُ مَسَدَّه؛ لأنَّ الضّمير تعيينٌ للأوّل مطابقةً، والمقصودُ شيءٌ آخَرُ، فالأجرُ الأوّل دنيويٌّ، والآخَر أُخرويٌّ، فيدخل هذا في باب الوجوه والنّظائر، إذ جاء اللّفظ الواحد لمعنيين مختلفَين.

بلاغةُ إضافةِ الأجر للضّمير:

أجرُ الرُّسُل لا مثيلَ له في الدُّنيا

أُضيفَ لفظُ (الأجر) إلى ضمير المتكلِّم في قوله: ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ﴾، والإضافةُ للمُلكيّة والاختصاص؛ وذلك للإيماء إلى أنَّ هذا الأجرَ لا شبيهَ له ممّا يعلمُه النّاسُ، فهو أجرٌ مخصوصٌ به عليه السلام من ربِّ العالَمين، ولتحقير ما يتصوّرونه من أجورٍ على دعوته عليه السلام، وهو أجرٌ لا مثيلَ له في الدّنيا، ففيه إشارةٌ إلى إثبات البعث.

معنى ﴿عَلَىٰ﴾ وفائدتُها:

الأجرُ منَ الله تعالى مضمونٌ ومكفول

جاء استعمالُ حرف الاستعلاء في قوله تعالى: ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾؛ للإشارة إلى معنًى لطيف وهو أنَّ اللّه تعالى هو الذي كَفَل ليَ الأجرَ، فلا يُراد منَ الاستعلاء هاهنا معناه الظّاهر، فلا يجب على اللّه تعالى شيءٌ، وإنّما المرادُ أنَّ اللّه تعالى قد كَفَل لرسله الكرام أجرَهم، فهو تعبيرٌ يُفهَم في ضوء الجملة كلِّها، ففيه توكيدٌ وضمانٌ بأنَّ حقَّه عند اللّه تعالى لا يضيع.

نُكْتَةُ التّعبيرِ بعنوان الرّبوبيّة:

الأجرُ العظيم مِنَ الرّبِّ العظيم

جاء التّعبيرُ بعنوان الرّبوبيَّة في قوله تعالى: ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾؛ تعظيمًا لهذا الأجر، فهو من قِبَلِ الخالق، الرّازق، المالِك، المُدبّر، المُحسن، أي: الذي دبَّر جميعَ الخلائقَ وربّاهم[1]، وإيتاءُ الأجرِ يدخل في توحيد الرّبوبيَّة.

معنى تعريف ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾:

دلَّ لفظ ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ على الاستغراق؛ فشمل جميعَ العوالم، وفيه تعظيمُ الرّسول لربِّه، وتعظيمٌ لأجره ومثوبته، وهو دالٌّ على كثرة هذه العوالِم وتنوّعها، وتعظيم الله تعالى الذي خلق هذه العوالِم.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الأيكة والغَيضة:

الأيكةُ شجرٌ مُلتفٌّ متكاثف، والغَيضة ما يكثُر ماؤه

الأيكة مفرد الأيك، وهي الشّجرُ الذي تشابكت أغصانُه، أو الشّجرُ الكثيف المتقارِبُ، والشّجرة: الواحدة منَ الشجر، والغَيضة: المكان الذي يجتمع فيه ماء، وينبت فيه شجرٌ كثيف، فترعى فيها الأنعام، والجمع: غياض، أصلها من غاض الماء يغيض غيضًا، أي: قلَّ ونضُبَ، وانغاضَ مثله[2]، والأَجَمة: الشّجر الكثير المُلْتَفّ، جمعها: آجام وأَجَمات[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 63.
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (غيض).
(3) ابن سيده، المخصّص: (أجم).

﴿۞أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾﴾ [الشّعراء: 181 - 183]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

العقيدةُ ركيزةُ كلِّ إصلاحٍ اجتماعيٍّ واقتصاديّ

لمّا بدأ شعيبٌ عليه السلام بالعقيدة - فالإيمان هو النّهر الذي يَرفُد شُعَبَ الأخلاق، ويروي شجرةَ المكارم والمآثر - انتقل إلى إصلاح المجتمع وتنقيته ممّا ترسّب فيه من غِشٍّ وتدليسٍ وبَخسٍ وظُلم، فأمرهم أن يوّفوا المكاييلَ والموازين، وأن يَعْدلوا ويقسطوا، فانتقل من بناءِ الأساس إلى تعديل المُعوَجّ مِنَ السّلوك والأخلاق.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَوْفُوا۟﴾: أَصْلُ (وفى) يدُلُّ على إكمالٍ وإتْمام، منه الوفاءُ: إتْمامُ العَهْدِ وإكمالُ الشَّرْطِ، ووَفَى: أَوْفَى، فهو وفيٌّ، ويقولونَ: أَوْفَيْتُكَ الشَّيءَ، إذا قَضيتَهُ إيّاهُ وافيًا، وتَوَفَّيتُ الشَّيءَ واسْتَوفَيْتُهُ: إذا أَخَذْتَهُ كُلَّهُ حتَّى لم تَتْرُكْ منه شيئًا، ومنه يُقالُ للمَيِّتِ: تَوَفَّاهُ اللّه[1]، والمرادُ مِنَ التَّوفيةِ في الآية: جَعْلُ الشَّيءِ وافيًا، أَي: تامًّا لا نقيصةَ فيه ولا غَبْنَ[2].

2) ﴿ٱلْكَيْلَ﴾: أصلُ الكيلِ ضَبْطُ الشَّيءِ وإمساكُهُ[3]؛ وسُمّيَ المِكْيالُ بذلكَ لأَنَّهُ يَضْبِطُ الحَبَّ ونَحْوَهُ، والكَيْلُ: تَحْديدُ قَدْرِ الشَّيءِ وقياسُهُ، والجَمعُ: أَكْيالٌ، والمِكْيالُ: آلَةُ الكَيلِ تكونُ مِنْ خَشَبٍ أَوْ حَديدٍ أو غَيْرِهُ كالصَّاعِ ونَحْوِهِ[4]، يُقالُ: كالَ الطَّعامَ يَكيلُ كَيْلاً إذا

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وفى).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 307.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (كيل).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن عباد، المحيط في اللغة: (كيل).

حَدَّدَ مِقْدارَهُ، ويأتي الكَيْلُ بمعنَى: الإِعْطاءِ، وكِلْتُ فُلانًا: أَعْطَيْتُه، واكْتَلْتُ عليه: أَخَذْتُ منه، والاسْمُ: الكيلَةُ، والكَيَّالُ: صاحِبُ حِرْفَةِ الكَيْلِ[1]، والكيلُ في الآية مصدرٌ، ويُطلَقُ على ما يُكالُ به، وهوَ المِكيالُ[2].

3) ﴿ٱلۡمُخۡسِرِينَ﴾: أصل (خَسِرَ) يَدُلُّ على النَّقْصِ[3]، ومنه الخاسِرُ: الَّذي وُضِعَ في تجارته، والتَّخْسيرُ: الإهلاك[4]، وقيل: الإِبْعادُ مِن الخَير[5]، وخَسَرَ إِذا نَقَصَ ميزانًا أَو غَيْرَهُ، وخَسِرَ إِذا هَلَكَ[6]، والمخسر: اسمُ فاعل من أخسر يُخْسِر فهو مُخْسِر، أي: أنقص في المكيال والميزان، ليُلْحِقَ الخسارة بمَن يكيل له، وينهبَ الزّيادة بغير وجهِ حقٍّ[7]، والمقصود بالمُخْسِرِ في الآيةِ: فاعلُ الخَسارَةِ لغيره، أي المُنقِصُ، فمعنى ﴿وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُخۡسِرِينَ ١٨١﴾: لا تكونوا من المُطفِّفينَ[8].

4) ﴿بِٱلۡقِسۡطَاسِ﴾: أصلُ (قسط) يدُلُّ على معنيين مُتضادَّين والبناءُ واحدٌ، فالقِسْطُ: العَدْلُ، يُقالُ: أَقْسَطَ الرَّجُلُ يُقْسِطُ فهو مُقسِطٌ، أي: عَدَلَ[9]، وأمَّا القَسْطُ - بِفَتْحِ القافِ - فهو: الجَورُ والظُّلمُ، وقَسَطَ إذا جارَ وظَلَمَ فهو قاسِطٌ، والقِسْطاسُ: اسمٌ للميزانِ، أَيْ: آلَةِ الوَزْنِ، واسمٌ للعَدْلِ، قيلَ: هو مُعَرَّبٌ مِنَ الرّوميَّةِ مُرَكَّبٌ مِنْ كَلِمَتَيْنِ قَسَطَ، أَي: عَدَلَ، وطاسَ وهوَ كِفَّةُ الميزانِ[10]، والحقُّ أنَّها عربيَّة صَميمة، في بنائها، وفي ميزانها الصرفي، وقد تصرّف القرآن الكريم فيها على جميع الوجوه كما يتصرف في كل كلمة عربية متمكنة في عروبتها[11]، والمقصودُ بالقِسْطاط في الآية: العَدْلُ والميزانِ، فهما صالِحانِ لمعنى الآية.

(1) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (كيل).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8 - ب/ 244.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خسر).
(4) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (خسر).
(5) الزبيدي، تاج العروس: (خسر).
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8 - ب/ 244.
(7) الواحديّ، التّفسير البسيط: 17/ 119.
(8) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 184.
(9) الخليل، العين، وابن الأنباري، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (قسط).
(10) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (قسط)، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 15/ 98.
(11) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 8/ 486.

5) ﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ﴾: (بخس) يدلُّ على النَّقْصُ[1]، والبَخسُ مَعناهُ: نَقصُ الشَّيء على سَبيلِ الظُّلم، يُقالُ: بَخَسَ الكَيلَ والميزانَ، يَبخَسُهُ، بَخسًا، إذا: نَقصَهُ، وثَمَنٌ بَخسٌ، أي: ناقِصٌ[2]، و"البَخْسُ في لسانِ العَربِ هو النَّقْصُ بالتَّعييبِ والتَّزْهيدِ أو المخادَعةُ عَنِ القيمَةِ أو الاحتيالُ في التَّزَيُّدِ في الكَيْلِ والنُّقصانِ منه"[3]، والجَمعُ: بُخوسٌ، والمقصودُ بالبَخْسُ في الآية: إِنْقاصُ شيءٍ مِن صفةٍ أو مِقدارٍ هو حَقيقٌ بكمالٍ في نَوعِه[4].

6) ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ﴾: (عثى) كلمةٌ تدُلُّ على فسادٍ[5]، والعَيْثُ: أَفْسَدَ وأَخَذ بغير رِفْقٍ، والعَيْثُ أيضًا: الإسراعُ في الفَسادِ[6]، قالَ اللّٰه تعالى: ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِى ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ۝٦٠﴾ [البقرة: 60]، والأَعْثَى: لونٌ إلى السَّوادِ، وقيل للأحمَقِ الثَّقيل: أَعْثَى[7]، والمراد بالعُثوِّ في الآية: أشدّ أنواع الفَسادِ[8].

المَعنى الإجماليُّ:

الإصلاحُ الاقتصاديّ المبنيّ على الصَّلاح الإيمانيّ

بيَّنتِ الآياتُ الكريمة تدرُّج شعيبٍ ﷺ في خطاب قومه، فبعد أن أوصاهم بتقوى اللّٰه، ودعاهم إلى طاعته، أمرهم بتوفية الكيل، ونهاهم أن يكونوا ممَن ينقص المكيالَ، وكان هذا حالهم، ما يَدلُّ على لؤمهم وخراب ذِمَّتهم، كما أمرهم بالعدل في الميزان، بأن يكون الميزانُ سويًّا مقسِطًا، بعيدًا عنِ التّلاعب والعبث، ونهاهم أن يُضيّعوا حقوقَ النّاسِ ويمحقوها، ويتهاونوا بأدائها ويهضموها، بل يعدلوا في تقديرها ويُجملوا في أدائها، ولا يعيثوا في الأرض فسادًا،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بخس).
(2) نشوان الحميري، شمس العلوم: 1/ 441.
(3) ابن العربي، أحكام القرآن: 2/ 318.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8 - ب/ 242، و19/ 185.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عثي).
(6) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (عثي).
(7) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (عثى).
(8) الزجاج، معاني القرآن: 1/ 142.

بالشّرك والقتل والنّهب وقطعِ الطريق وترويعِ الآمنين وتخويفِ النّاس وارتكابِ المعاصي.

وترشد الآياتُ الكريمة إلى وجوب توفية الكيلِ والوزن، وحرمةِ التّطفيف فيهما، وحرمةِ بَخْسِ النّاس حقوقَهم ونقصِها بأيّ حالٍ مِنَ الأحوال، وحُرمةِ الفسادِ في الأرض بارتكاب المعاصي وغِشْيانِ الذّنوب، ويُفيد السّكوتُ عنِ الزّيادة في الكيل والوزن على أنَّ من فعلها فقد أحسن، ومن لم يفعلها فلا حرجَ عليه(1).

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نُكْتَةُ فصلِ الجملة عمّا قبلها ﴿أَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ﴾:

الانـتـقـال بـينَ الأغـراض توثيقٌ لـلـمَـقْـصِـد الأساس

جاءت جملةُ الأمر في قوله تعالى: ﴿أَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ﴾ مفصولةً عمّا قبلها ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾؛ لأنّها استئنافٌ من كلامه عليه السلام، انتقل به من غرض الدّعوة الأصليّة بقوله: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾، إلى الدّعوة التّفصيليّة بوضع قوانين المعاملة بينهم، فقد كانوا مع شِركهم باللّه يُطَفِّفون المكيالَ والميزان، ويبخسون أشياءَ النّاس إذا ابتاعوها منهم، ويُفسدون في الأرض(2).

دلالةُ التّعبير بمفردة الإيفاء:

الـوفـاء بالكيل مـن تـمام عدل الإيمان

معنى قوله تعالى: ﴿أَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ﴾ أي: أتمّوه إتمامًا لا نقصَ فيه إذا كلتُم، كما توفّونَه إذا اكتلتُم لأنفسكم، "عبّر عنِ الأوَل بالوفاء؛ لأنّه الزّيادة للقدر الواجب، إذ هو محتاجٌ إلى محاولةٍ وتكلّفٍ، ممّا لا يتوصّل فيه إلى تحقيق الخروج منَ العُهْدَة إلّا بالزّيادة منَ القدر الواجب، بخِلاف القسطاس، فإنّه يمكن فيه بتحقيق الخروج من العُهْدَة من غير زيادة"(3)، وعليه: فالكيلُ على ثلاثة أضرب: وافٍ،

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 117، والجزائريّ، أيسر التّفاسير: 3/ 680.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 184.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 248، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 87.

وطفيفٌ، وزائدٌ، فأمر بالواجب الذي هو الإيفاء، ونهى عنِ المُحَرّم الذي هو التّطفيف، ولم يذكرِ الزّائد، وكأنّ تَرْكَه غُفلًا عنِ الأمر والنّهي دليلٌ على أنّه إن فعلَه فقد أحسن، وإن لم يفعله فلا عليه[1].

براعةُ التّعبير بلفظ ﴿ٱلۡكَيۡلَ﴾:

التّفنّنُ في العبارة، ووفرةُ المعاني، ووجازةُ اللّفظ

جاء استعمالُ مفردة ﴿ٱلۡكَيۡلَ﴾؛ ليشملَ حالةَ البيعِ والشّراء، فلا يحتال للزّيادة عند الشّراء، ولا للنّقص عند البيع، فالمصدرُ يشملُ الأمرين اللَّذَين اجتمعا في قوله تعالى: ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ٢ وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ ٣﴾ [المطفّفين: 1 - 3]، فالوفاءُ بالكيل يقتضي أن يكون المَكيل تامًّا؛ لأنّ بعضَ التّجارِ له مكيالان مختلفان؛ أحدهما: أوسع، للشّراء، والثّاني: أقلّ منه، للبيع، وقد نهى شُعيبٌ عنِ النّقص في المكيال، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۚ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ ٨٤ وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾ [هود: 84 - 85]، فخرج قولُه تعالى في سورة الشّعراء: ﴿۞أَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ﴾ مخرجَ التّفنّن في العبارة.

بلاغةُ العطفِ في النّهي:

التّرقّي في خطاب التّكاليف الإصلاحيَّة

في الكلام "تَرَقٍّ؛ ذكَرَ أوَّلًا الأمرَ بإيفاءِ الكيلِ، وأكَّده بقولِه: ﴿وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُخۡسِرِينَ﴾ على الطَّرد والعكسِ، ثمَّ ترقَّى إلى الأمر بالعدل في الموازين؛ فإنَّها أكثرُ استعمالًا مِنَ المكاييلِ، ثمَّ جاء بهذا العامِّ، ثمَّ بأعمَّ منه ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾؛ فإنَّ بخس الأشياءِ أعَمُّ مِن أن يكونَ في المِكيالِ أو الميزانِ، والعُثُوَّ أعمُّ مِن تنقيصِ الحُقوقِ وغيرِه مِن أنواعِ الفسادِ"[2]، ووقعت جملةُ ﴿وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُخۡسِرِينَ﴾ كحلقةِ وصلٍ بين حَلَقتَين، زادَتهُما اتّصالًا،

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 332 بتصرف، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 528، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 11/ 411.

(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 11/ 412.

فكانت تتميمًا لما قبلَها، وتمهيدًا لما بعدَها، إذ كلتا الحالتين تخسيرٌ؛ نقصُ المكيال والميزان، كلاهما خسارةٌ بالطّرف الآخر.

بلاغةُ نظمِ النَّهي في الآية:

الـنَّـهـي عـن ممارسة سلوكٍ مـعـهـودٍ مـنَ الـنّـافـذيـن مـنَ التّجّار

جاء النَّهي عن إخسار الوزن في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُخۡسِرِينَ﴾، دون أن يقول: (ولا تُخسروا)، والمُخْسِرُ هو الذي ينقص المِكيالَ، فيدفع معامِلَه إلى الخُسران، بأن يُخْسِره ولا يعطيه حقّه، فما جاءت عليه الآيةُ أبلغ في الدّلالة من قول: (ولا تخسروا)؛ لأنّ المعنى لا تكونوا منَ الطّائفة التي اعتادت الإخسار، أي: لا تكونوا في صفوفهم فتصابَ تجارتُكم بالكساد؛ لأنّ النّاس لا يُقْبِلون على الشّراء إلّا ممّنِ استقام في طريقته، وأعطى المُتعامِلين حقوقَهم، ولأنَّ الإخسار أكلُ مالِ النّاس بالباطل، ولأنّه ظُلمٌ، والظُّلمُ نتيجتُه وخيمةٌ دائمًا[1].

غرضُ النَّهي عنِ الإخسار:

حِـرْصُ الـرُّسـلِ عـلـى مـصـالـحِ عامّةِ النّاسِ وإن كانوا كافرين

النَّهيُ في قولِه تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُخۡسِرِينَ﴾ للتّحريم، فلا يجوز إيقاعُ الخسارةِ بالآخرين، لتحصيل الرّبح للنّفس، فهذا منَ الظّلم والأَثَرةِ والجَشَع والغِشّ، فإذا اكتال لغيره أنقصَ في المكيال، وإنِ اكتالَ لنفسه زاد على القَدْر، فأوقعَ في الحالتين الخسارةَ على غريمه، وفيه: أنَّ شعيبًا عليه السلام كان حريصًا على تعميم الأمانة في النّاس مع كونهم كافرين.

بلاغةُ التّعبير بقوله: ﴿مِنَ ٱلۡمُخۡسِرِينَ﴾:

المطلوبُ التّبرُّؤُ مـن صـنـيـعِ الـمُـخـسِـريـن بالكُلّيَّةِ

حرف ﴿مِنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُخۡسِرِينَ﴾ بيانيّةٌ، فالكلامُ عن سائر المُخْسِرين، نهاهم أن يكونوا منهم، وعلى هذا فاللّام في لفظ ﴿ٱلۡمُخۡسِرِينَ﴾ لامُ الاستغراق؛ لتشملَ جميعَ المُخْسِرين، والمُخْسِر: فاعلُ الخسارة لغيره، أي: المُنقِصُ، فمعنى:

---

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5402.

﴿وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ﴾ أي: لا تكونوا منَ المُطفّفين، وصَوْغُ ﴿مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ١٨١﴾ أبلَغُ من (لا تكونوا مُخْسِرينَ)، أو من: (لا تخسروا)؛ لأنَّه يدُلُّ على الأمر بالتّبرُّؤ من أهل هذا الصَّنيع[1]، مع تركه بالكُلّيَّة.

معنى (الواو) ودلالتُها في ﴿وَزِنُواْ﴾:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ﴾ حرف عطف، فقد عطف أمر ﴿وَزِنُواْ﴾ على أمر ﴿*أَوْفُواْ﴾، وهذا على جعل جملة ﴿وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ﴾ اعتراضيّةً مُؤكِّدة، أو يكون عطف ﴿وَزِنُواْ﴾ على ﴿وَلَا تَكُونُواْ﴾، فكلاهما إنشاءٌ، الأمرُ والنّهي.

بلاغةُ نظمِ الأمر وغرضُه:

الــــــــوزن بـالـقـسـطـاس يـسـاوي إيـفـاءَ الكيل

آثَر النَّظمُ الكريم التّعبيرَ بقوله تعالى: ﴿وَزِنُواْ﴾ ولم يقل: (وأوفوا الميزان)؛ لأنَّ المطلوب إقامتُه بالقسط، فالميزان إذا كان سويًّا فإنه دقيقٌ لا يحتاج للتّوفية، وإنما لتحرير الوزن فقط، حتّى لا يَظلِم ولا يُظلم، قال البقاعيّ: "ولمّا أمر بوفاء الكيل، أتبعه بمثل ذلك في الوزن، ولم يجمعهما لما للتّفريق من التّعريف بمزيد الاهتمام، فقال: ﴿وَزِنُواْ﴾ أي: لأنفسكم وغيرِكم"[2]، فالوزن بالقسطاس يُساوي إيفاءَ الكيل، ودلَّ الأمرُ بإحسان الميزان على تلاعبهم في موازينهم؛ لأنَّ هذا - إن حدث - لا يشعر به الموزونُ له، بخلاف الكيل فإنَّ تطفيفه أمرٌ مفضوحٌ، وكذا الإنقاص من حجم الصّاع وغيره أو الزّيادة فيه لا تخفى، كمن يكتال بمكيال، ويكيل للنّاس بآخر.

نوعُ الباء في ﴿بِٱلْقِسْطَاسِ﴾ ودلالتُها:

آلةُ الوزنِ لا بدّ مـن سلامتـهـا ودِقّتها

الباء في لفظ ﴿بِٱلْقِسْطَاسِ﴾ للاستعانة، أو للآلة، كما تقول: (كتبتُ بالقلم)، و(طرقتُ بالقَدوم)، أو للملابسة، والمعنى: (وزِنوا

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 184.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 87.

وزنًا ملتبسًا بالقسطاس)، أي: ميزان العدل الذي هو أقوم الموازين، "وزاد في تأكيد معناه، فقال تعالى: ﴿ٱلۡمُسۡتَقِيمِ﴾ دون شيء من الحيف على ما مضى في الكيل سواءً"[1].

براعةُ استعمالِ مفردة ﴿بِٱلۡقِسۡطَاسِ﴾:

القسطاس يَجمع معنى العدلِ في الوزن وآلتِه

آثَر النّظمُ استعمالَ ﴿بِٱلۡقِسۡطَاسِ﴾ دون الميزان؛ لأنَّ القسطاس هو المعتدل منَ الموازين، وهو بناءُ مبالغة منَ القسط، وهو أقوم الموازين، وقيل: القسطاس: العدل، وقيل: الميزان عمومًا، ثمّ وصفَه بالعدل[2]، فأمرهم بأمرين؛ بإحسان الميزان، وباختيار أحسن الموازين، وهو دالٌّ على علمه ﷺ بالاقتصاد، ففيه تنبيهٌ: على أنَّ الدّاعي يجب عليه أن يعلم طرائقَ النّاس، ومسالكَها الفاسدةَ؛ ليُحسن الدَّعوةَ والإصلاح والتَّقويم.

توجيه القراءات في ﴿بِٱلۡقِسۡطَاسِ﴾:

الجمع بين المصدر وآلته التي يُؤدَّى بها

قرأ الجمهور: ﴿بِٱلۡقُسۡطَاسِ﴾ بضمّ القاف، وقرأه الكوفيون خلا شعبةَ بكسر القاف ﴿بِٱلۡقِسۡطَاسِ﴾، وهما لغتان، مثل قِرطاس وقُرطاس، والقُسطاس: بضمّ القاف وبكسرها بمعنى العدل، صيغة مبالغة من القسط، ومن أسماء الميزان[3].

دلالةُ الوصفِ بـ ﴿ٱلۡمُسۡتَقِيمِ﴾:

تأكيد الميزان بصفة الاستقامة دليلٌ على شديد الانحراف في قوم شعيب

جاء وصفُ ﴿بِٱلۡقِسۡطَاسِ﴾ بصفة ﴿ٱلۡمُسۡتَقِيمِ﴾، والقسطاس: هو الميزان المستقيم، الذي لا اعوجاجَ فيه ولا ميلَ ولا انحراف، وهكذا الميزان، لسانه قائم في المنتصف، فلا يميل لجهة منَ الجهتين، ولا يحابي طرفًا منَ الطّرفين، وهو من باب التّوكيد، ودلَّ الوصفُ بصيغة اسم الفاعل: ﴿ٱلۡمُسۡتَقِيمِ﴾، من الفعل استقام؛ لأنَّه قائم

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 412.

(2) الفراهيديّ، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (قسط).

(3) ابن مجاهد، السّبعة في القراءات، ص: 380، وابن الجزريّ، النّشر في القراءات العشر: 2/ 307، وينظر: ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 242.

في ذاته، مقيم لغيره، فلا ميلَ ولا انحراف، فالميزانُ السَّويُّ يُقيم الوزنَ، والمُقيم لغيرِه لا بدَّ أن يكون قائمًا بنفسِه.

دلالةُ واو العطف في ﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ﴾:

الاقـــترانُ في الـحُـكـم بـينَ النّهي والأمر

الواو في جملة ﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ﴾ عاطفة، والعطف يقتضي الاقترانَ في الحُكم، والنّهيُ والأمر كلاهما طلبٌ، فالأوّلُ طلبُ فعلٍ، والثّاني طلبُ تركٍ؛ فصحّ اقترانُهما واتّساقُهما، "وهو تعميمٌ بعد تخصيص"[1].

بلاغةُ استعمال مفردة البَخْس:

البَخْسُ انتقاصُ النّاسِ أشياءَهم بغرضِ الانتفاعِ منها

جاء استعمالُ مفردة البَخس في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ﴾، دون أن يقول: (ولا تُنقصوا الناس أشياءهم)، والفرقُ بين البَخْس والنّقص: أنَّ البَخْس نقص بالظُّلم، والمعنى: (لا تُنقصوهم ظُلْمًا)، والنّقصانُ يكون بالظُّلم وغيرِه[2]، وبخسُ أشياءِ النّاس: غبنُ منافعِها وذَمِّها بغير ما فيها؛ ليضطروهم إلى بيعها بغَبن، زاهدين قانعين، ومِن بَخْسِ الأشياء أن يقولوا للذي يعرض سِلْعة سليمةً للبيع: إنّ سلعتَكَ رديئةٌ؛ ليصرفَ عنها الرّاغبين، فيشتريَها برُخْص[3]، فالبَخس يشمل نقصَ المكيال والميزان، كما يشمل هضمَ حقوقِ النّاس وإضاعتَها بالتّقليل من قيمتها وعيبِها للنّقص من ثمنها.

معنى التّعريف في لفظ ﴿ٱلنَّاسَ﴾:

عـمـومُ حرمةِ البَخس جميعَ النّاس

اللّام في لفظ ﴿ٱلنَّاسَ﴾ هي لام الجنس؛ فتشمل جميعَ النّاسِ، إذ لا استثناءَ في المعاملات، فالكلُّ سواءٌ، ولا يجوزُ البَخْسُ بحال، ويصِحّ أن تكون للعهد، أي: المغبونون، المسالِمون، من أصحاب الحقوق والبائعين؛ لأنَّ البَخْس يكون من جهة المشتري، يبخسُ البضاعةَ بعيبِها؛ ليستنقصَ قَدْرَها.

(1) البروسويّ، روح البيان: 6/ 303.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 179.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 185.

بلاغة النّظم في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ﴾:

الـنّـهـيُ عن البَخْس يشمل كـلّ شيء ولـو كان تافهًا

لمّا ذكر النّاسَ وأراد الجميعَ، ناسبَ مقابلةَ ذلك الجمعِ بجمعٍ آخر وهو ﴿أَشۡيَآءَهُمۡ﴾؛ فيكون المعنى: لا تبخسوا أحدًا شيئًا، وجوّز أن يكون الجمعُ للإشارة إلى الأنواع؛ فإنَّهم كانوا يبخسون كلَّ شيء جليلًا كان أو حقيرًا، وهذا تعميم بعد تخصيص بعضِ المراد بالذّكر لغاية انهماكهم فيه[1]، "والمعنى الظّاهر: لا تبخسوا أشياءَ النّاس، ولكن عبّر ذلك التّعبيرَ القرآنيّ لفائدتين جليلتين؛ أولاهما: أنَّ بخس قيمِ الأشياء بخسٌ للنّاس أنفسِهم، فمن بخس تقديرَ القيم، فقد ظلم، وأعظم الجريمة، والفائدة الثّانية: أنّ في ذلك إبهامًا ثمّ بيانًا، فيكون ذلك توكيدًا للمعنى فضلَ توكيد"[2].

دلالةُ الإضافة في ﴿أَشۡيَآءَهُمۡ﴾:

هضمُ حقوقِ الآخرين غمطٌ وازدراء لهم، واستهانةٌ بضعفهم

دلَّت إضافةُ لفظِ (أشياء) إلى ضمير الجمع، في ﴿أَشۡيَآءَهُمۡ﴾ على الخصوصيّة والمِلْك، وأنهم أحقُّ باستيفاء حقوقهم، أي: كيف تنتقصونهم وتهضمونهم حقوقَهم، و﴿أَشۡيَآءَهُمۡ﴾ بدلُ اشتمالٍ من ﴿ٱلنَّاسَ﴾، ومن بلاغة النّهي أنَّه قال: ﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ﴾، ولم يقل: (ولا تبخسوا أشياءَ النّاس)؛ لأنَّ بخسَهم لحقوقِ النّاس بخسٌ للنّاس، واستخفافٌ بهم، وازدراءٌ لهم؛ لضعفهم، فالضّعيف هو الذي يُظلَم ويُهضَم.

دلالةُ العطفِ في ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ﴾:

الفسادُ منهيٌّ عنه بجميع صوره

الواو في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾ عاطفة، عطفت نهيًا على نهي، أي: لا تبخسوا ولا تعثَوا، وهي من عطف العامّ على الخاصّ، إن قلنا: إنّ الإفساد يشمل الجميع، أو عطف المتناظرَين، إذِ العُثوّ فسادًا: نشرُ الفسادِ والسّعي به، وهو الفسادُ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 117، والشّهاب، عناية القاضي وكفاية الرّاضي: 7/ 25.

(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5403.

المتحرّك، كقطع الطّريق، والقتل، والسّرقة، وغيرها منَ الجرائم، والأوّل الفساد في البيع والتّجارة.

غرضُ النّهي وبلاغتُه:

عمومُ النّهي عن الفساد كلّه

(لا) في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ﴾ ناهيةٌ، حيثُ نهاهم عنِ السّعي في الأرض بالفساد ونشرِه؛ بترويع الآمنين، والسّلب والنّهب، وقطعِ الطّريق، والإغارةِ على القُرى، وغيرِ ذلك من وجوه الفساد التي كانوا يعملونها[1]، وهو يُفيد العموم.

جمالُ استعمالِ مفردة ﴿تَعۡثَوۡاْ﴾ بالفعل المضارع:

تشبيهُ المُفسدين بأخسّ الحشرات؛ للانكفاف عن فسادهم

جاء استعمالُ مفردةِ العُثي في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾، وهو الإسراعُ في الإفساد ونشره، ومنه العُثَّةُ: حشرةٌ تأكل الثّياب[2]؛ فينتشر في الثّوب فيبلى ويَخْلَق، ففيه تشبيهٌ لهم بأخَسِّ المخلوقات التي تُفسد منافعَ النّاس من غير شعورهم بها، وقد جاء التّعبير بصيغة المضارع؛ لبيانِ أنّهم حين الخطاب كانوا يُفسدون في الأرض.

بلاغة القيد ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾:

المُفسِدُ فوقَ الأرض مفسدٌ تحتَها، إذ يصلُها شُؤْمُه ويبلغُها أثَرُه

معنى (أل) في لفظ ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ للعهد الذّهنيّ، أي: الأرض التي كانوا يُهيمنون عليها، ويعيثون فيها فسادًا، وليس كلّ الأرض، وجاء استعمالُ حرفِ الظَّرفيَّة لبيان أنَّ فسادهم يشمل ظاهرَ الأرض وباطنَها، فهو من باب المبالغة، كأنَّ من يُفسد فوقَ الأرض يُفسد في جوفها.

نُكْتَةُ التّعبيرِ بمُفردة الإفساد:

النّهيُ عنِ الإفساد يتضمَّن النَّهيَ عنِ الفساد

عبّر بالمُفسدين في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾، وهو جمع مُفسِد، اسم فاعل من أفسد، والإفساد أشدُّ منَ الفساد

---

(1) الزّحيليّ، التّفسير المنير: 19/ 213.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/ 199.

وأخطر؛ فالفسادُ ذاتيٌّ، والإفساد مُتعدٍّ؛ فليس كلُّ فاسدٍ مُفْسِدًا، ومعنى ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ﴾: "لا تُفسدوا في الأرض بالقتل والغارة وقطعِ الطّريق والنّهب وغيرِ ذلك، ﴿مُفۡسِدِينَ﴾ يعني: قاصدين الفساد"(1)، والنَّهيُ عن الإفساد نهيٌ عنِ الفساد؛ لذا آثَر التَّعبير بمفسدين.

براعةُ القيد بالحال ﴿مُفۡسِدِينَ﴾:

الحالُ إمّا مقيّدة، وإمّا مؤكِّدة

الحالُ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾ إمّا أن تكون مقيّدةً، أي: لا تعتدوا حالَ إفسادِكم، وإنّما قيّده - وإن غلبَ العُثيُّ في الفساد - ؛ لأنّه قد يكون منه ما ليس بفساد كمقابلة الظّالم المُعتدي بفعله، ومنه ما يتضمّن صلاحًا راجحًا؛ كقتل الخَضِرِ عليه السلام الغلامَ وخَرْقِه السّفينة(2)، والعُثوّ أعمّ من تنقيص الحقوق وغيره من أنواع الفساد، "مثل: قطعِ الطّريق، والغارةِ، وإهلاكِ الزّروع"(3)، وإمّا حال مُؤكّدة؛ لأنَّ العُثوّ هو الفساد، كما في قوله تعالى: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكٗا﴾ [النّمل: 19](4).

❁ الفُروقُ المُعجَميَّة:

التّوفية والإكمال والإتمام:

التّوفية فيها الكمال والتّمام، والتّمام لما تمّ بدون انقطاع، والكمالُ لما كَمُلَ بانقطاع

يظهر الفرقُ بينَ الكمال والتّمام، بأنَّ الكمال يكون بالنَّظر للأجزاء بعد اجتماعها، والتّمامُ يكون بالنَّظر إلى الجُزء الأخير المُتمّم للمجموع(5)، ويُلحظ في التّمام الاتّصال دونَ انقطاع، بخلاف الكمالِ فلا يُلحظ فيه هذا، وقد فرَّق أبو هلال بينهما؛ فجعلَ الكمالَ اسمًا لاجتماع أبعاضِ الموصوف به، بينما التَّمام فهو اسم للجُزء

(1) المظهريّ، التّفسير المظهريّ: 7/ 82.
(2) البروسويّ، روح البيان: 6/ 303.
(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 11/ 412.
(4) العثيمين، تفسير سورة الشّعراء، ص: 277، بتصرف، وينظر: المُراديّ، توضيح المقاصد والمسالك: 2/ 716.
(5) قال الرّاغب في تعريف التّمام: "انتهاؤه إلى حدٍّ لا يحتاج إلى شيء خارج عنه"، المفردات، ص: 168.

والبعضِ الذي يتمّ به الموصوفُ بأنَّه تامٌّ؛ ولهذا قال أصحابُ النّظم: القافيةُ تمامُ البيت، ولا يُقال: كمالُ البيت، ويقولون: البيتُ بكمالِه، أي: باجتماعه، والبيت بتمامه، أي: بقافيته[1]، وتوفيةُ الشّيء إتمامُه وإكمالُه، قال تعالى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾﴾ [النّجم: 37]، وبيانُه في قوله تعالى: ﴿۞وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة: 124]، وقولِه تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: 3] أي: جعلت دينَكم كاملًا، وأتممت عليكم النّعمة فلا نقصانَ فيهما[2].

البَخْسُ والنّقْصُ:

البَخْسُ نقصٌ مـع ظُـلْـمٍ، والنّـقْـصُ أعـمُّ منه

البَخْسُ: هضمُ حقوقِ النّاس وأشيائِهم، ومَحْقُها، والنَّقصُ منها، ومنها: أرض مبخوسةٌ، لا تشرب منَ النّهر، وبخسَ عينَه: فقأها، فهي هضمُ الحقّ وادّعاءُ العيب فيه لانتقاصه، كأن يشتريَ السِّلعةَ بأقلّ من ثمنها، فيبخسَ صاحبَها حقّه؛ لجهله أو غفلته، أو لحُسْنِ نيّتِه في المُشتري الذي غَشّه، أو يعيبَ السّلعةَ وهي غيرُ معيبةٍ، فسوءُ تقديرِ الأثمان من بخس الحقوق، وقد يوَفّي البائعُ بالكيل والميزان، لكنّه أو المشتري يبخس الآخرَ حقّه في الثّمن، وهو حرامٌ مطلقًا، بخلاف النّقص فقد يكون لعِلّة، فلا يُعَدّ ظُلْمًا وهضمًا[3].

العُتيُّ والفساد:

الـعُـتـيُّ أشـدُّ الـفـسـادِ، فهو أخصّ من عموم الفساد

العُتيّ: أشدُّ الفساد، ويشير إلى نشره، وسُرعته، فهم كانوا لا يكتفون بمزاولة الفساد، بل كانوا يسارعون إلى نشره على أوسع نطاق، وهذا من شدّة فسادِهم وتمرّدِهم[4]، فالعُتُوّ: شِدّةُ الفسادِ،

(1) العسكريّ، الفروق اللُّغويّة، ص: 263، والمثنى محمود، الإيضاح والتّقييد في إعجاز القرآن المجيد، ص: 230 - 231.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 14، والمناويّ، التّوقيف على مهمّات التّعاريف، ص: 59.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 92، بتصرُّف.
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (عتي).

أو السَّعيُّ به، ونشرُه في الأرض، كتلك الدّويبةُ التي تُفسِد الثّياب، قال الطّبريّ: "وأصل العَثا: شِدَّةُ الإفسادِ، بل هو أشَدُّ الإفساد، يُقالُ منه: عَثَى فُلانٌ في الأَرْضِ: إذا تَجاوَزَ في الإِفسادِ إِلَى غايته، يَعْثَى عَثًا"[1]، وكان بعضُ الرّواةِ يُنشِد بيتَ ابنِ الرِّقاع[2]:

لولا الحياءُ وأنّ رأسيَ قد عَثا *** فيه المشيبُ لزُرْتُ أمَّ القاسمِ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 2/ 123.

(2) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 50، والبيت لعَدِيِّ بن الرِّقاع، وهو في ابن قتيبة، الشّعر والشّعراء: 2/ 602، والمُبرّد، الكامل في اللّغة والأدب: 1/ 127.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلۡجِبِلَّةَ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٨٤﴾ [الشُّعراء: 184]

مُناسَبَةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

توكيدُ الأمر بالتَّقوى، وتعليلُه بالدَّليل النّاصع، والبرهانِ الباقع

سُبقتْ هذهِ الآيةُ المُبارَكةُ بأمرِ سيدِنا شُعيبٍ عليه السلام قومَهُ بالتّقوى مرَّتين: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ ١٧٧﴾ [الشّعراء: 177]، ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٧٩﴾ [الشّعراء: 179]، ولمّا كان جُرْمُهم مُتعلِّقًا بحقوقِ العبادِ، وظُلمُهم بخُسران الكيلِ والميزانِ وبَخْسِهم أشياءَهم، وعُثوِّهم في الأرضِ فسادًا: ناسب هنا أن يُكَرِّرَ الأمر بتقوى اللّه، مُذَكِّرًا إيّاهم بأنَّه خالقُهم وخالقُ آبائِهم: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلۡجِبِلَّةَ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾؛ تَنْبيهًا على أَنَّ مَنْ أَوْجَدَهُم وأَوْجَدَ مَنْ قَبْلَهُم قادِرٌ على أَنْ يُعَذِّبَهُم ويُهْلِكَهُم كما أهلك من سبَقوهم(1).

ولمّا وعَظَهُم فأبْلَغَ في وعظِهم، بما خَتَمَهُ بالنَّهيِ عن الفسادِ، خَوَّفهم مِنْ سَطَواتِ اللّهِ تعالى ما أَحَلَّ بِمَنْ هو أعظمُ منهم، فقال: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلۡجِبِلَّةَ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ أي كما أهلك مَن كان قبلَكم، فإهلاكُكم أهونُ شيءٍ عليْه(2).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَٱلۡجِبِلَّةَ﴾: (جبل) أصلٌ يطَّرِدُ ويُقاسُ، وهو تَجَمُّعُ الشَّيءِ في ارتفاعٍ، ومنه الجَبَلُ، والجِبِلُّ: الجماعةُ العظيمةُ الكثيرةُ، قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَضَلَّ مِنكُمۡ جِبِلّٗا كَثِيرًاۖ﴾ [يس: 62]، والجِبِلَّةُ الخليقَةُ(3)، وهيَ مِنْ جُبِلوا على كذا، أَيْ خُلِقوا؛ قيلَ: وتَشْديدُ اللّامِ للمُبالِغَةِ، وهي في قول اللّه تعالى ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلۡجِبِلَّةَ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ بمعنى الجماعةِ الكثيرةِ من المخلوقات، قال ابْنُ عَبّاسٍ: الجِبِلَّةُ: عَشَرَةُ آلافٍ(4).

---

(1) أبو حيّان، البحرُ المُحيطُ: 8/ 187.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 88.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جبل).
(4) أبو حيّان، البحرُ المُحيطُ: 8/ 187.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

مصيرُ الأممِ المكذّبةِ واحدٌ

استمرارُ الأمرِ الإلهيِّ لشعيبٍ ﷺ بأمرِ قومه بالتّقوى وتخويفِهم من مصيرِ الأمم التي سبقتهم، وأنّهم لن يكونوا أقوى منهم ولا أكثر جمعًا.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علّةُ الوصلِ وبلاغتُه:

قـوّةُ دليـلِ التّقوى تكمنُ في تفرُّدِه بعد الأمر به السّابق

جاء قول اللّه تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ موصولًا بالواوِ عطفًا على قولِه السّابق: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٧٩﴾ [الشعراء: 179] للتَّوسُّطِ بينَ الكماليْن، حيثُ اتَّفقتِ الجُملتانِ في الإنشائيَّة، فكلتاهُما مبدوءةٌ بأمرٍ، فهو من جهةٍ: تأكيدٌ للأمرِ السّابق، مع ما فيه من زيادةِ ذِكرِ دليلِ استِحقاقِ التَّقوى بأنَّ اللّهَ خَلَقَهُم وخَلَقَ الأُمَمَ مِن قبلِهم؛ وهذا مُسوِّغُ العطفِ بالواوِ، إذْ لوْ كانَ مُجرَّدَ تأكيدٍ لم يصِحَّ عطفُه[1].

غرضُ الأمرِ بالتّقوى دون الأمر بالإيمانِ:

التّقوى مَفزَعُ العقلاء قبل الإيمان، ومَجمَعُ الخير بعده

آثرَ النَّظمُ الكريمُ الأمرَ بالتَّقوى دون الأمرِ بالإيمانِ في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ ليُبْرِزَ تنكُّبَهُمُ الطَّريقَ الحقَّ وبُعدَهم عنهُ في اتِّباعِهم ما كانَ عليهِ آباؤُهم، وأنَّهم بذلك يجِبُ أنْ يتذكَّروا اللّهَ الذي خلقَهم وخلقَ آباءَهم الأوَّلينَ، ويَحذروا عِقابَه وانتِقامَهُ؛ فالتَّقوى هي مفزعُ العقلاءِ قبل الإيمان، ومجمعُ الخير بعد الإيمان.

دِلالةُ التعبير بالأمر في قوله: ﴿وَٱتَّقُواْ﴾:

التّهديدُ والوعيدُ لمن استمرَّ على عصيانه وظلمه

أفادَ فِعلُ الأمرِ بالتّقوى في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ التَّهديدَ والوعيدَ، لأنَّهم ليسوا أتقياءَ، بل هم في غمرة المعاصي، وبئرِ الكبائر؛ فوراءَ الأمر بالتّقوى إيحاءٌ بتوعُّدِهم إن همُ استمرّوا

(1) ابن عاشور، التَّحريرُ والتَّنويرُ: 19/ 185.

على عِصيانِهم وظُلمِهِمُ النّاسَ، وفيه إيحاءٌ بانحرافِهم عنْ طريقِ الجادَّةِ، وسُلوكِهم طُرُقَ الفسادِ.

نكتةُ التّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِى﴾:

تعليلُ الخطابِ الإنشائيِّ سمةٌ للنّظم القرآنيّ

آثر النّظمُ الكريم التّعبير بالاسم الموصولِ في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ دون الاسم الصريح بأن يُقال: (واتّقوا خالقَكم): ليُبرزَ عِلَّةَ الأمرِ بالتَّقوى، فهو الأحقُّ بأن يُتَّقى، ووراءَه تعريضٌ وإيماءٌ إلَى نَبْذِ اتِّقاءِ غَيْرِهِ مِنْ شُرَكائِهِم[1]؛ ولعدم علم المُخاطَبِ بالأحوالِ المُختصَّةِ به سِوى الصِّلة[2]، فهُم، مع إنكارهم عبوديّةَ اللّه وتفرُّدَه بالألوهيّة، يُقِرّونَ للّهِ بالخلْقِ، فخاطبهُم بِما يعترِفونَ به، ليكونَ دليلًا على ما يُنكِرونَ.

فائدةُ عطف ﴿وَٱلْجِبِلَّةَ﴾ على ضمير الخطاب:

جَمَعَهُم في مَشْهَدٍ واحِدٍ ليَكونَ أَوْقَعَ في الحُجَّةِ

عُطفَ ﴿وَٱلْجِبِلَّةَ﴾ على ضَميرِ المَفْعولِ بِهِ (كُم) في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ﴾، واستغنيَ به عن تكرار فعلِ الخلق لِما في العَطْفِ من نيَّةِ تَكْرارِ العامِلِ، فلَم يَقُلْ: (واتّقوا الّذي خَلَقَكُم وخَلَقَ الجِبِلَّةَ الأَوَّلِيْن)، فبالعطفِ يكون الفِعْلُ مُكَرَّرًا تقديرًا؛ وليَجْمَعَ خَلْقَهُم وخَلْقَ الأُمَمِ السّابقة في فعلٍ واحدٍ، ومَشْهَدٍ واحِدٍ، ليَكونَ أَوْقَعَ في الحُجَّةِ والبُرْهانِ؛ فالذي خلق الأولين هو خالقُ المخاطَبين.

مُناسَبَةُ تَقْديمِ ضَميرِ الخِطابِ على ﴿وَٱلْجِبِلَّةَ﴾:

العِنايةُ بالتّقديمِ منعقدةٌ على مقاصدِ الكلام

قُدِّم ذكرُ ضمير المخاطَبين على الاسم الصّريح العائدِ على آبائهم في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، فلم يقل: (الذي خلق الجبلة الأولين وإيّاكم): لأنَّه موضع الاهتمام والفائدة؛ فهم المأمورون بالتّقوى، وذكرُ الجبلَّة الأوّلين إنّما هو من باب التّنبيه على أنَّ مردَّهم ومآلهم إلى ما آلَ إليه المتقدِّمون.

(1) ابن عاشور، التَّحريرُ والتَّنويرُ: 19/ 185.

(2) التّفتازانيّ، مختصر المعاني: 1/ 42.

الجِبِلَّةُ الأوّلون معهودون للمخاطَبين بأخبارِهم الثّابتة

فائدةُ استعمالِ ﴿وَٱلۡجِبِلَّةَ﴾ صيغَةً وتعريفًا:

لَفْظُ ﴿وَٱلۡجِبِلَّةَ﴾ في قول اللّه تعالى ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلۡجِبِلَّةَ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ معناه الخِلقَة، وهو مَحْمولٌ على ظاهِرِه؛ وأريد به المخلوقاتُ؛ لأنّه اسْمٌ كالمَصْدَر، ولِهَذا وُصِفَ بِقوله: ﴿ٱلۡأَوَّلِينَ﴾، وقيلَ: أُطْلِقَ ﴿وَٱلۡجِبِلَّةَ﴾ على أَهْلِها، أَيْ: وذَوي الجِبلَّة الأَوَّلين؛ والمَعْنَى: (الَّذي خَلَقَكُم وخَلَقَ الأُمَمَ قَبْلَكُم)[1].

و(أل) في لفظ ﴿وَٱلۡجِبِلَّةَ﴾ لِلعَهْدِ الذِّهْنيِّ، فهُم مَعْهودونَ في أَذْهانِهِم مَعْروفونَ لَدَيْهِم، تَنْتَقِلُ أَخْبارُهُم مِنَ السَّلَفِ إِلَى الخَلَفِ، وهَذا أَوْقَعُ في الاسْتِدْلالِ.

الإيماءُ إلى سببِ كفرِ الأوّلين، ليقعَ التّهديدُ للّاحقين

نُكْتَةُ اختيارِ مادّةِ ﴿وَٱلۡجِبِلَّةَ﴾:

آثَرَ النَّظم الكريم استعمالَ لَفْظِ ﴿وَٱلۡجِبِلَّةَ﴾ لأَنَّ الموصوفينَ بها جُبِلوا على العِنادِ وتَكْذيبِ الرُّسُلِ، وكانوا ثابِتِيْنَ عليْه فلَم يُزَحْزِحْهُم عَنِ التَّكْذيبِ شَيْءٌ؛ وقَدْ رأى المخاطَبون ما فعل اللّه بِهِم لمّا كَذَّبوا رُسُلَهُ، فليَحْذَروا أَنْ يَكونوا مِثْلَهُم، فيَنْزِلَ بهم ما نَزَلَ بِهِم[2]، ومادّة ﴿وَٱلۡجِبِلَّةَ﴾ توحي بِالغِلْظَةِ والتَّجَمُّعِ والكَثْرَة، والتَّشْديدُ في اللّفظ لِلْمُبالَغَةِ في المعنى؛ ووَراءَهُ إيحاءٌ بِأَنَّهُم جُبِلوا على الكُفْرِ والمُكابَرَة والعِنادِ، واجْتَمَعوا عليه، ومن أَبْرَزِ صِفاتِهِم الصَّلَفُ والكِبْرياءُ؛ وإذا كانَ اللّه خَلَقَهُم وأَهْلَكَهُم وهُم أَشَدُّ مِنْكُم، فإِنَّهُ قادِرٌ على إِهْلاكِكِم، فهذا من باب ذكْرِ الدَّليل النّاصع، الذي لا يُمارَى فيه، ولا يُدارى حوله.

الاعتبارُ سنّةُ العقلاء، وديدنُ الحكماء

بلاغةُ وصف ﴿وَٱلۡجِبِلَّةَ﴾ بـ﴿ٱلۡأَوَّلِينَ﴾:

وُصفَ الجِبِلَّة بالأَوَّلينَ في قولِ اللّهِ تعالى ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلۡجِبِلَّةَ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ للإشارةِ إلى أنَّهُم يجب أَنْ يَأْخُذوهُم عِبْرَةً أمامَهُم،

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 19/ 185.

(2) الشَّعراويُّ، تفسيرُ الشَّعراويِّ: 17/ 10677.

ويَتَّعِظوا ويَرْتَدِعوا بما حَدَثَ لِسابِقيهم، وقَدْ كانوا أَكْثَرَ منهم وأَشَدَّ قوَّةً؛ والقادِرُ على إِهْلاكِ الأَشَدِّ قادِرٌ على إِهْلاكِ مَنْ هوَ دونَهُ.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الخِلْقَةُ والجِبِلَّة:

الخِلْقَةُ الخَلْقُ عُمومًا، والجِبِلَّةُ الـجَـمـاعـاتُ غَليظَةُ الطِّباعِ

الخِلْقَةُ: هُم الخَلْقُ عُمومًا، بَيْنَما الجِبِلَّة اسْمٌ يَقَعُ على الجَماعاتِ المُجْتَمِعَةِ مِنَ النّاسِ، حَتَّى يَكونَ لَهُم مُعْظَمٌ وسَوادٌ، وذَلِكَ أَنَّ أَصْلَ الكَلِمَةِ: الغِلَظُ والعِظَم، ومنه قيلَ الجَبَلُ، لِغِلَظِه وعِظَمِه، كما في الآية: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا﴾ [يس: 62]، أَي: جَماعاتٍ مُخْتَلِفَةً مُجْتَمِعَةً أَمثالَكُم.

والجِبِلُّ: أَوَّلُ الخَلْقِ، جَبَلَهُ إِذا خَلَقَهُ الخَلْقَ الأَوَّلَ، وهوَ أَنْ يَخْلُقَهُ قِطْعَةً واحِدَةً قَبْلَ أَنْ يُمَيِّزَ صورَتَهُ، كما قيلَ: جُبِلَتِ القُلوبُ على حُبِّ مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْها؛ وذَلِكَ أَنَّ القَلْبَ قِطْعَةٌ مِنَ اللَّحْمِ، وذَلِكَ يَرْجِعُ إِلَى مَعْنَى الغِلَظِ[1].

فالجِبِلَّةُ في الآية تُشيرُ إِلَى صِنفٍ مَخْصوصٍ مِنَ النّاسِ، غِلاظٍ جُفاةٍ اجْتَمَعوا على المُعانَدَةِ والمُكابَرَةِ ومُحارَبَةِ اللهِ، وصارَتْ تِلْكَ الصِّفاتُ السَّيِّئَةُ طَبْعًا فيهم وفِطْرَةً لا يَسْتَطيعونَ التَّخَلُّصَ منها، وهَذا شأنُ الأُمَمِ الّتي أُهلِكَت.

الأَوَّلونَ والمُتَقَدِّمون:

الأَوَّلــونَ جمعُ أَوَّلٍ وهـــوَ لا يَـقْـتَـضي ثانيًا، والـمُـتَـقَـدِّمـونَ السّابِقونَ

الأَوَّلُ لا يَقْتَضي ثانيًا، يُقالُ هَذا أَوَّلُ مَوْلود وِلِدَ لِفُلانٍ وإِنْ لَم يولَدْ لَهُ غَيْرُهُ، ويُقالُ أَوَّلُ عَبْدٍ يَملِكُهُ حُرٌّ وإِنْ لَم يَملِكْ غَيْرَهُ، ولا يَخْرُجُ العَبْدُ والابْنُ مِنْ مَعْنَى الابْتِداءِ؛ فلَفْظُ الأَوَّلِيْنَ يَعْني أَنَّهُم مُتَفَرِّدونَ في جَبَروتِهِم، وأَنَّهُم لا يُشْبِهُهُم غَيْرُهُم في قوَّتِهِم، ومَعَ ذَلِكَ أَهْلَكَهُم،

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 156.

والمُتَقَدِّمُ ليس فيه هذا المعنى، بل هو خِلافُ المُتَأَخِّرِ؛ فالتَّقَدُّمُ حُصولُ الشَّيْءِ قُدّامَ الشَّيْءِ، ومنه القَدَمُ؛ لأَنَّه يُتَقَدَّمُ بِها في المَكانِ في المَشْيِ، وقوادِمُ الرّيشِ العَشْر المُتَقَدِّمات، ويُقالُ: قَدِمَ العَهْد وقَدِمَ البِلَى، أَيْ: طالَ، وكُلُّ ما يُقَدَّمُ فهوَ قَديمٌ(1).

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 91.

﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ١٨٥﴾ [الشعراء: 185]

مُناسَبَةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

موقفُ المعانِدِ القدحُ في الحقائق

لمّا كان حاصِلُ ما مضى إعْلامَهم بالرِّسالة، وتخْويفَهم عَذابَ اللّه، لِأَنّه لا يَستعْصي عليْه صغير ولا كبير: أجابوه بِالقَدح في الرِّسالة أوَّلًا، وباسْتصْغار الوعيد ثانيًا، بأن ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ﴾[1]، إعْلانًا منهم عن رَفْض دَعوَتِه وردِّها وعدَم الاكْتراث بِها جُملَةً وتفْصيلًا.

المَعْنى الإجْماليُّ:

المكذِّبُ المعاندُ سريعُ الاتِّهامِ بذيءُ الكلام

تُبيِّن الآيةُ الكريمة موقفَ قوم شعيبٍ عليه السلام من دعوته لهم بالتّقوى والطّاعة للّه ربِّ العالمين، بأن رمَوه بأنَّه مسحورٌ، وحصروا دعوته عليه السلام كلَّها في هذا الأمر؛ وهذا ديدنُ الفاسدين في كلِ عصرٍ وحين.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فصْلِ الآية عما قبلها:

من شأنِ المحاوراتِ الفصْلُ بين أطْرافِها

فُصِلَتْ جُملَةُ ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ﴾ عَنِ الجُملَةِ السّابقة، التي مطلَعُها ﴿كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٧٦ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ شُعَيۡبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ١٧٧﴾ [الشعراء: 176 - 177]؛ لِشِبْه كَمالِ الاتِّصالِ، حَيْثُ أَثارَتِ السّابِقَةُ، بِمُشْتَمِلاتِها وما عُطِفَ عليْها مِنْ جُمَلٍ، هي خُلاصَةُ دَعْوَة شُعَيبٍ عليه السلام قومَهُ إِلَى تَقْوَى اللّه وعَدَم ظُلْم النّاسِ، وتَحذيرِهم عِقابَ اللّه، أَثارَتْ سُؤالًا فحواهُ: فماذا كانَ رَدُّهُم؟ فجاءَتْ جُملَةُ: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ﴾ بِمَنْزِلَةِ الجَواب عَنْ هَذا السُّؤالِ المُقَدَّرِ، ففُصِلَتْ عَنْها كَما يُفْصَلُ الجَوابُ عَنِ السُّؤالِ.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 88.

غَرَضُ الخَبَرِ وفائدتُه:

رفضُ الدَّعوة يأتي بالحُجَجِ الباطلةِ والاتِّهامات الزّائفة

غَرَضُ الخَبَرِ في قَوْلِه تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ﴾ هوَ إفادَتُهُ عَدَمَ اقْتِناعِهِم بِرسالَة شُعَيبٍ عليه السلام، أو أنَّهُ لا يَصلُحُ أصلًا لِلرِّسالَة، لِكَوْنِه مسحَّرًا مَخْبولَ العَقْلِ كَما يَزْعُمونَ؛ فهو رفضٌ لقبولِ الدَّعوةِ بحجَّة التُّهمة الباطلة، فالخبرُ يُراد منه بيانُ موقفِهم، مع ما فيه من الاحتجاج الباطل.

دلالةُ القَصْرِ وبلاغتُه:

على قدْرِ رسوخِ المخاطَب يكون رسوخُ الخطابِ

بُنيَتِ الآيَةُ الكَريمَةُ على أُسْلوبِ القَصْرِ في قَوْلِه تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ﴾، أَي: ما أَنْتَ إلّا مُسَحَّرٌ لا تَصلُحُ لِلرِّسالَة، وهوَ قَصْرٌ إضافيٌّ، حيثُ نَفَوْا عَنْهُ صِفَةَ اسْتِواءِ العَقْلِ واتَّهَموهُ بالجُنون والتَّسَحُّر، وهوَ قَصْرُ مَوْصوفٍ على صِفَةٍ، هي صفةُ السحر، كما أنَّ غرض القصرِ هو قَصْرُ قَلْبِ اعتقاد المخاطَب، وهوَ سَيِّدُنا شُعَيْبٌ عليه السلام الذي يَعْتَقِدُ العَكْسَ، فهوَ يَعْرِفُ أَنَّهُ عاقِلٌ مدرِك لا سِحْرَ بِهِ؛ فخاطَبوهُ على خِلافِ اعْتِقادِهِ لإنفاذ باطلِهم، وتحقيقِ غايتهم.

نكتةُ القَصْرِ بطريقِ ﴿إِنَّمَآ﴾:

غايةُ اللُّؤمِ الادِّعاءُ بأنّ الباطلَ مِنَ المُسَلَّماتِ

آثَرَ النَّظْمُ الكَريمُ أسلوب القَصْرِ بأداة ﴿إِنَّمَآ﴾ في قوله تعالى ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ﴾ دون بقيَّة طرق القَصْر؛ لأَنَّهُ طَريقٌ يَأْتي في مَقامِ الحَديثِ عَنِ المُسَلَّماتِ والبَدَهيّاتِ الَّتي لا يُنْكِرُها المُخاطَبُ، ولا يَشُكُّ فيها، ولا يُصِرُّ على خَطَئِه، والسّامِعُ مَعَها مُتَلَقٍّ الكَلامَ بِالقَبول، إمّا لِأَنَّهُ في نَفْسِ الأَمرِ جَليٌّ، أَوْ لِأَنَّ المتكلِّم يَدَّعيه جَلِيًّا[1]، فالأَصْلُ في ﴿إِنَّمَآ﴾ أَن تَأْتي في خَبَرٍ مِنْ شَأْنِه أن لا يَجْهَلَهُ المُخاطَبُ ولا يُنْكِرهُ، حَتَّى إنَّ إنكاره يزولُ بِأَدْنَى تَنْبيهٍ لِعَدَمِ إصراره عليه[2]، فقومُ شُعَيبٍ يَدَّعونَ أَنَّهُ مُسَحَّرٌ، وأَنَّ كَوْنَهُ مُسَحَّرًا مِمّا

(1) السكاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 295.
(2) التّفتازانيّ، مختصر المعاني، ص: 116.

لا يَشُكُّ فيهِ عاقِلٌ، ولا يُنْكِرُهُ مُنْكِرٌ، حَتَّى هوَ ﷺ؛ وهذا في غايةِ البجاحةِ والوقاحةِ، وقد أتى النَّظم الكريم بما يُصوِّر حالَهم، ويُبرِزُ للمخاطَب أخلاقَهم.

بَلاغَةُ الكِنايَةِ فِي الوصفِ بالتَّسَحُّر:

الاتِّهامُ بالسِّحر كنايةٌ عن رفض الاعتراف بالرِّسالة

جاءت جُملَةُ القَصْرِ في قَوْلِه تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ كِنايَةً عَنْ زَعمِهم بعَدَم صَلاحيَّة شُعَيبٍ ﷺ لِلرِّسالَةِ، فقَدْ زَعَموهُ مَسْحورًا، أَيْ مُخْتَلَّ الإِدْراكِ والتَّصَوُّراتِ مِنْ جَرّاءِ سِحْرٍ سُلِّطَ عليه، وذَلِكَ كِنايَةٌ عَنْ بُطْلانِ أَنْ يَكونَ ما جاءَ بِهِ رِسالَةً عَن اللّهِ تعالى[1].

دَلالَةُ مجيءِ المُسنَد إليه ضميرًا ﴿أَنتَ﴾:

احتمالُ الأذى في سبيل الحقِّ بُلغةُ الأتقياء ورِفعَةُ الأنقياء

جاء المسندُ إليه ضَميرَ مُخاطَبٍ ﴿أَنتَ﴾ في قَوْلِ اللّه تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾؛ للدّلالة على وقاحَتِهم وسوءِ أَدَبِهم في مُخاطَبَةِ نَبيِّ اللّه شُعَيْبٍ ﷺ، وتَأْكيدًا على إِلْصاقِ التُّهْمَةِ بِهِ، حَتَّى لا يَتَطَرَّقَ الاحْتِمالُ إِلَى غَيْرِه، وهذا الخطابُ لشخص شعيبٍ ﷺ، مع ما يحمل في طيّاته من الوقاحة، يدلُّ على صبره ﷺ على سوءِ أدبهم في خطابه، ومدى احتماله في سبيل رضا اللّه تعالى.

نُكتةُ التَّعْبيرِ بِالجارِّ والمَجْرورِ ﴿مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾:

كلَّما زاد ازدراءُ أهل الحقِّ بانت أماراتُ الكِبْر والزَّهو

آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بِالجارِّ والمَجْرورِ في قَوْلِه تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ دونَ أَنْ يُقالَ: (قالوا إِنَّما أَنْتَ مُسَحَّرٌ)، لِيَدُلَّ على ازْدِرائِهِم لَهُ، وتنقيصِهم مِنْ شَأْنِه؛ إِذْ لَوْ وصَفوه بأنّه مُسَحَّرٌ لَما اكتسب قوَّة وصفِه بأنّه إنّما هو مُنخَرِطٌ في سِلك المُسَحَّرين، وفردٌ من جماعَتهم، كما أنّهم أرادوا باستعمال الجارّ والمجرور ﴿مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ بيانَ أَنَّ السِّحْرَ مُتَأَصِّلٌ فيه، فهوَ مُتَّصِفٌ بِهِ طَبيعَةً وجِبلَّةً، ومُتَأَصِّلٌ في ذاتِه.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 186.

دَلالَةُ التَّعْبيرِ بِصيغَةِ ﴿ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾:

رمـيُ الأفّـاكـين بليغٌ أليم

جاء التَّعبير بصيغَةِ ﴿ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ في قَوْلِ اللّٰه تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾، وهيَ اسْمُ مَفْعولٍ مِنْ (سَحَّرَ) بتَشْديدِ الحاءِ، ولم يُصَغِ اسمُ المفعولِ من (سَحَرَ) مخَفَّفِ العَين، فلم يُقَل (من المَسْحورينَ): لِلْمُبالَغَةِ في الدّلالَةِ على حُدوثِ السِّحْرِ ووُقوعِهِ عليه أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ؛ فلَوْ سُحِرَ مَرَّةً واحِدَةً لَقالوا: مَسْحورٌ، هذا على القول بأنّ ﴿ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ في الآية من وقعَ عليهمُ السِّحر[1]، فيكون المَعْنَى: أَنَّكَ مُخْتَلُّ العَقْلِ والتَّفْكير، مَجْنونٌ، لَنْ نَسْمَعَ لَكَ[2]؛ وفيه إيحاءٌ بِشِدَّةِ وُقوعِ شُعَيبٍ عليه السلام تَحْتَ وطْأةِ السِّحْرِ - فيما يزعمون - مَعَ تَكْرارِ وقوعه مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ.

معنى تعريفِ ﴿ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾:

ذمُّ المخاطَب بالمعهودِ أبينُ في الازدراءِ

تعريفُ لفظِ ﴿ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ بـ(أل) في قَوْلِ اللّٰه تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ لِلْعَهْدِ الذِّهْنيِّ، أَيْ: من المُسَحَّرينَ المَعْروفينَ المَعْهودينَ في أَذْهانِنا، ممَّن وقع عليهم أثرُ السِّحر، فلم يستطيعوا فهمَ الواقع، ولا إدراكَ الحقائق، وهَذا أَوْقَعُ في الازْدِراءِ، وأَعْظَمُ في الاحْتِقارِ؛ وأندى في مَدحِ شعيبٍ عليه السلام في الصَّبر على قومِه.

(1) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 4/ 97.

(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 17/ 10677.

﴿وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ١٨٦﴾ [الشعراء: 186]

مُناسَبَةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

حشدُ أدلَّةِ إبطالِ الحقِّ نحرٌ لحاشديها

لمّا ذكرتِ الآيةُ السّابقة وصفَ قوم شعيبٍ عليه السلام له بأنَّه من المسحَّرين، ناسب أن تذكر الآيةُ اللّاحقة وصفَ قومِه الآخرَ وهو أنّه بَشَرٌ، قصدًا منهم إبطالَ رسالته؛ لأنَّ البَشَرَ في اعْتِقادِهِم لا يَصْلُحونَ لِلرِّسالَةِ مُطْلَقًا، ولَوْ كانوا أعْقَلَ النّاسِ وأبْعَدَهُم عَنِ الآفَةِ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مِّثۡلُنَا﴾: (مثل) أصلٌ يدلّ على مناظَرَةِ الشّيءِ للشّيءِ[2]، ومنه المَثَلُ، وهو الشَّيْءُ يُضْرَبُ لِلشَّيْءِ فيُجْعَلُ مِثْلَهُ، والمِثْلُ شَبَهُ الشَّيْءِ في المِثالِ والقَدْرِ ونَحْوِه، حَتَّى في المَعْنَى، ويُقالُ: ما لِهَذا مَثيلٌ؛ والمِثالُ ما جُعِلَ مِقْدارًا لِغَيْرِهِ[3]، والمقصود بالمِثل في الآية ﴿وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا﴾: المماثِلُ للجنس في البشريَّة.

2) ﴿نَّظُنُّكَ﴾: (ظن) أصلٌ يدلّ على ضِدَّين: الشّكُّ واليقين[4]، إلّا أَنَّ الظّنَّ لَيْسَ بيَقينِ عيانٍ، إنَّما هوَ يَقينُ تَدَبُّرٍ؛ فأَمّا يَقينُ العيانِ فلا يُقالُ فيه إلّا عِلْمٌ، والظَّنّ يكونُ اسْمًا ومَصْدَرًا، وجَمعُ الظَّنِّ الَّذي هوَ الاِسْمُ ظُنونٌ وأَظانينُ على غَيْرِ القياسِ[5]، والمرادُ بالظّنّ في الآية ﴿وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾: الاعتقادُ.

3) ﴿ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾: (كذب) أصلٌ يدلُّ على نَقْصِ الحِدّة والشدّةِ الجاريَةِ في الشّيء أوِ المتوقَّعةِ منه؛ ومنه الكَذِبُ في القول، إذْ هو

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 89.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (مثل).
(3) الخليل، العين: (مثل).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ظن).
(5) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (ظنن).

نَقْصٌ بل فقْدٌ للمتوقَّع منَ الكلام، أو لِما وُجد الكلامُ من أَجْلِه؛ وهو التّعبيرُ عن حقيقةِ ما في النّفس[1]، فالكَذِبُ هوَ الإِخْبارُ عَنِ الشَّيْءِ بِخِلافِ ما هوَ عليه، سَواءٌ فيه العَمدُ والخَطَأُ، ولا واسِطَةَ بَيْنَ الصِّدْقِ والكَذِبِ على مَذْهَبِ أَهْلِ السُّنَّةِ؛ والإِثْمُ يَتْبَعُ العَمدَ، يُقال: كَذَبَ يَكْذِبُ كَذِبًا، ويَجوزُ التَّخْفيفُ بِكَسْرِ الكافِ وسُكونِ الذّالِ: (كِذْبًا)؛ وأَكْذَبَ نَفْسَهُ وكَذَبَها بِمَعْنَى اعْتَرَفَ بِأَنَّهُ كَذَبَ في قَوْلِه السّابِقِ؛ وأَكْذَبْتَ زَيْدًا بالأَلِفِ: وجَدْتَهُ كاذِبًا؛ وكَذَّبْتَهُ تَكْذيبًا: نَسَبْتَهُ إِلَى الكَذِبِ، أَوْ قُلْتَ لَهُ كَذَبْتَ[2]، ومعنى الكَذِبِ في زَعم قوم شُعَيب عليه السلام ﴿وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾: القائلين خلافَ الصِّدق في ادّعاء الرّسالة منَ الله.

❁ المَعْنى الإِجْماليُّ:

أُنسُ المكذِّب بالأدلَّة الواهيات

ذكرتِ الآية استمرارَ القوْم في تَكْذيبِ شُعَيْبٍ عليه السلام، ونَفْيِ الأَهْلِيَّةِ له، مُعَلِّلينَ إِنْكارَهُم - إِضافَةً إِلَى ما سَبَقَ من ذكر السِّحر - بِأَنَّهُ بَشَرٌ مِثْلُهُم، وأَغْلَبُ الظَّنِّ أَنَّهُ كاذِبٌ، فكَيْفَ يَصْلُحُ أَنْ يكونَ رَسولًا مِنْ قِبَلِ الله؟!.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الوَصْلِ بِالواوِ في قوله: ﴿وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ﴾:

غايةُ المكذِّب تعديدُ الصّفات، بما يَنفي البيِّناتِ

جاءَ قولُ الله تعالى حكايةً عن مقولَةِ قوم شُعَيبٍ ﴿وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثۡلُنَا﴾ مَوْصولًا بِالواوِ، عَطْفًا للجملةِ على سابِقَتِها، لِاتِّفاقِهما في أَنَّ كِلتَيْهِما مَقولُ القَوْلِ؛ فالجملةُ مِنْ تَمام كَلامِ المُشْرِكينَ رَدًّا على نَبِيِّ الله شُعَيْبٍ عليه السلام، فقَدْ قُصِدَ هُنا مَعْنَيانِ، كِلاهما مُنافٍ لِلرِّسالَةِ عِنْدَهُم: التَّسْحيرُ والبَشَرِيَّةُ، وأَنَّ الرَّسولَ لا يَجوزُ أَنْ يَكونَ

---

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (كذب).

(2) الفيوميّ، المصباح المنير: (كذب).

مُسَحَّرًا، ولا يَجوزُ أَنْ يكونَ بَشَرًا؛ وإذا تُرِكَتِ الواو لَم يُقْصَدْ إلّا مَعْنًى واحِدٌ وهوَ كَوْنُهُ مُسَحَّرًا، ثُمَّ قُرِّرَ بِكَوْنِه بَشَرًا مِثْلَهُم[1].

توجيهُ المتشابه اللّفظيّ بذكر الواوِ وحذفِها:

تقريرُ المعاني، وتوكيد الأدلّة أسلوبانِ في جدال الأقوام لأنبيائهم

الإتْيانُ بواوِ العَطْفِ في قَوْلِ اللّه تعالى حكايةً عن قوم شُعَيب ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ۝١٨٥ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا﴾ يَجْعَلُ كَوْنَهُ بَشَرًا إبْطالًا ثانيًا لِرسالَتِه، وتَرْكُ العَطْفِ في قِصَّةِ ثَمودَ في قَوْلِهِ تعالى حكايةً عنهم: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ۝١٥٣ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا﴾ [الشعراء: 153 - 154] يَجْعَلُ كَوْنَهُ بَشَرًا حُجَّةً على أَنَّ ما يَصْدُرُ منه لَيْسَ وحْيًا من اللّه بَلْ هوَ مِنْ تَأْثيرِ كَوْنِه مَسْحورًا؛ فمَآلُ مَعْنَى الآيَتَيْنِ مُتَّحِدٌ، ولَكِنَّ طَريقَ إفادَتِه مُخْتَلِفٌ، وذَلِكَ على حَسَبِ أُسْلوبِ الحِكايَتَيْنِ[2].

فالكَلامُ نَظيرُ ما تَقَدَّمَ في قِصَّةِ ثَمودَ، بَيْدَ أَنَّهُ أَدْخَلَ الواوَ بَيْنَ الجُمْلَتَيْنِ هُنا، لِلدّلالَةِ على أَنَّ كُلًّا مِنَ التَّسْحيرِ والبَشَرِيَّةِ مُنافٍ لِلرِّسالَةِ، فكَيْفَ إذا اجْتَمَعا؟! وأَرادوا بِذَلِكَ المُبالَغَةَ في التَّكْذيبِ؛ ولَم تَدْخُلْ هُناكَ، حَيْثُ لَم يَقْصِدْ إلّا مَعْنًى واحِدًا وهوَ كَوْنُهُ مُسَحَّرًا، ثُمَّ قُرِّرَ بِكَوْنِه بَشَرًا مِثْلَهُم[3].

بَلاغَةُ القَصْرِ في قوله: ﴿وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ﴾:

نَفْيُ النُّبوّة عن البَشَر مراوغةُ الأقوامِ لأنبيائهم

في قولِ اللّه تعالى حكايةً عن قوم شُعَيبٍ ﴿وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا﴾ قَصَر القومُ نَبيَّ اللّه شُعَيْبًا ﵇ على صِفَةِ البَشَرِيَّةِ، وهو من قَصْرِ المَوْصوف على الصِّفَة قَصْرًا إضافيًّا، أَيْ: أَنْتَ بَشَرٌ ولَسْتَ بِمَلَكٍ؛ حَيْثُ يَعْتَقِدونَ أَنَّ النُّبوَّةَ لا يَصْلُحُ لَها إلّا مَلَكٌ مِنَ المَلائِكَةِ، والبَشَرُ في عَقيدَتِهِم لا يَصْلُحونَ لِلنُّبوَّةِ، فكَوْنُهُ بَشَرًا، ومَقْصورًا على صِفَة

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 333.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 186.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 117.

البَشَرِيَّة، لا يَتَعَدّاها إلَى صِفَةِ المَلَكِيَّة: لا يُؤَهِّلُهُ ذَلِكَ لِحَمل رِسالَةِ السَّماءِ كَما يَعْتَقِدونَ؛ وهَذِهِ طامَّة سائِرِ أَقْوامِ الأَنْبياءِ، وهيَ تَعْكِسُ خَرابَ عُقولِهِم، وضيقَ أُفُقِهِم.

نكتةُ القَصْرِ بِطريقِ النَّفيِ والاستثناء:

إذا تطرَّق الوهمُ ضاقتِ الحقائقُ على الفهم

آثَرَ النُّظُمُ الكَريمُ القَصْرَ بِـ(ما) و﴿إِلَّا﴾ في قَوْلِهِ تعالى حكايةً عن قول المُكَذِّبين: ﴿وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثۡلُنَا﴾، بَعدَ القصر بـ﴿إِنَّمَآ﴾ في الجملة السّابقةِ ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ﴾: تَنْزيلًا لِغَيْرِ المُنْكِرِ - وهوَ شُعَيْبٌ عليه السلام - مَنْزِلَةَ المُنْكِرِ، فهوَ عليه السلام لا يُنْكِرُ بَشَرِيَّتَهُ، ولَكِنَّهُ، لَمّا دَعاهم إلَى تَوْحيدِ الله، وبَلَّغَهُم أَنَّهُ رَسولُ الله، ظَنّوا أَنَّهُ بِذَلِكَ يَدَّعي لنفسِه مكانةَ المَلَك، ويُنْكِرُ بَشَرِيَّتَهُ، حَسْبَما يَعْتَقِدونَ هُم؛ فأَتَوْا بِالقَصْرِ بِطَريقِ النَّفْيِ والاِسْتِثْناءِ، وهوَ يَأْتي في الغالِبِ في المَقاماتِ الَّتي تَتَطَلَّبُ دَفْعًا لِلإِنْكارِ والجَحْدِ.

دَلالَةُ استعمالِ ضَميرِ المُخاطَبِ في قوله: ﴿أَنتَ﴾:

التَّجَهُّمُ في الخِطابِ ضعفٌ في تفهّمِ الخطاب

جاءَ المسندُ إليه ضَميرًا للمُخاطَبِ ﴿أَنتَ﴾ في خِطابِ المُكَذِّبين لنَبيِّ الله شُعَيْبٍ عليه السلام ﴿وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثۡلُنَا﴾ لِيُبْرِزَ وقاحَةَ القَوْمِ وسوءَ أَدَبِهِم في خِطابِ الأَنْبياءِ، ومواجَهَتِه بِالرَّفْضِ الصَّريحِ دونَ مواراةٍ؛ وليَدُلَّ كذلك على اعْتِقادِهِم نُزولَ قَدْرِه عَنْ مَرْتَبَةِ النُّبوَّةِ.

نُكْتَةُ الوصف بالبَشَر، وغَرَضُ تنكيرِه:

لا يرون في الرسول أكثر من كونه بشرًا لا يتميّز بشيء

جاءَ المُسْنَدُ وهوَ الخَبَرُ بِلَفْظِ البَشَرِيَّةِ ﴿بَشَرٌ﴾ في الآية ﴿وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثۡلُنَا﴾، دون الوصف بالإنسانيَّة ونحوِها: لِيَدُلَّ على أَنَّهم وصفوه بأعمِّ الأوصاف المرتبطة بكونه مخلوقًا آدميًّا؛ وتَنْكيرُهُ لِلتَّحْقيرِ مِنْ شَأْنِه، فهوَ عندهم مُجَرَّدُ بَشَرٍ مِنْ آحادِ النّاسِ.

بَلاغَةُ الكِنايَةِ في الوصف بالبشريّة:

قولُ الله تعالى حكايةً عن المُكَذِّبين من قوم شُعَيبٍ ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثۡلُنَا﴾ كِنايَةٌ عَنْ نفيِ صِفَةِ النّبوّة؛ لأنَّ البشر لا يكونون أنبياءَ

اجتماعُ الدّعوى الباطلة والدَّليل الصّادق مراوغةٌ في الحقائق

باعتقادِ قوم شعيبٍ ﵇، فهوَ واحِدٌ منهم، لا فرْقَ بَيْنَهُم، ولَوْ أَرادَ اللّهُ إليهِمُ الرِّسالةَ لأرسل ملَكًا من الملائكة، ومن ثَمَّ يَسْتَلْزِمُ ذَلِكَ أَنْ يَكونَ كاذِبًا في ادِّعائِه النُّبوَّةَ كَما يَعْتَقِدونَ؛ ففي هذه الكناية جمعوا بين الدَّعوى ودليلِها.

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بِلَفْظِ ﴿مِّثْلُنَا﴾:

زعَموا أنّ التّماثلَ في البشريَّة يدلُّ على المماثلةِ في الطّبائع والأخلاق

جاء استعمالُ لفظِ: ﴿مِّثْلُنَا﴾ في الآية ﴿وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ ليَدُلَّ في زعمِهم على تَساويهم في الدَّرَجَةِ؛ فلَوْ كانَ ثَمَّ نَبيٌّ يَصْلُحُ لِلرِّسالَةِ مِنَ البَشَرِ لَكانوا هُم أَوْلَى بِذَلِكَ منه، وفي هذا اللَّفظ أماراتُ الاعتراض على أن يمتازَ عليهم بشيءٍ، فهو مثلُهم، ولا يفضلُهم بشيءٍ، فلماذا كانت النُّبوّةُ فيه لا فيهم؟ وهذا الاعتراض ديدَنُ الأقوامِ المكذِّبين، ظنّوا أنَّ التّماثلَ في البشريّة مماثلةٌ في الأخلاق والصّفات، مع علمهم بتفاضلِ النّاس بين وضيعٍ ورَفيع، وكاذبٍ وصادق، وظالمٍ وعادل؛ فاستعملوا أداةً لإثبات صدقهم وقوّة اعتراضهم، وهي تنقض مَقولتَهم، لأنَّ التّماثل في البشريّة هو في أصل الخلق، لا في طبائع الأخلاق، ممّا هو معلومٌ لدى العقلاء.

بلاغةُ العطف بالواو في قوله: ﴿وَإِن نَّظُنُّكَ﴾:

يتدرّجُ المنكِرون من الاتِّهام الكنائيِّ إلى الصَّريح

لمّا وصَف قومُ شعيبٍ إيّاه بالعَراقَةِ في السِّحْرِ ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾، وأَنَّهُ لا فرْقَ بَيْنَهُ وبَيْنَهُم ﴿وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ - أَيْ: فلا وجْهَ لِتَخْصيصِكَ عَنّا بالنّبوّة والرّسالة - أَرْدَفوا ذَلِكَ بِعَطْفِ اعْتِقادِهِم كَذِبَهُ في قَوْلِهِم: ﴿وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ أَيْ: لَمِنَ العَريقينَ في الكَذِبِ، فأفادت الواوُ العاطفةُ لهذه الجملة على جملةِ إثباتِ البشريَّة: المُبالَغَةَ في نَفْيِ إِرْسالِه بِتَعْدادِ ما يُنافيه، فيَكونُ مُرادُهُم أَنَّهُ لَيْسَ لَنا ظَنٌّ يَتَوَجَّهُ إِلَى غَيْرِ الكَذِبِ، وهوَ أَبْلَغُ

مِنْ إِثْباتِ الظَّنِّ بِهِ[1]؛ فهم جمعوا حُجَّتَين: حجَّةَ البشريَّة - فيما يتوهّمون أنّه حجّةٌ لزعمهم - ثمّ كرّوا عليها الاتّهامَ بالكذب، ليُبالغوا في إثبات مرادِهم.

بلاغةُ القصر في الآية:

مبالغةُ الظّالمين في تكذيبِ الصّادقين استنزالٌ للغضبِ الأليم

(إنْ) في حكايةِ اللّه تعالى قولَ المُكَذّبين: ﴿وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ إمّا أن تكون مُخَفَّفَةً مِنَ الثَّقيلَة، واللّامُ في ﴿لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ هي الفارِقةُ، وإمّا أن تكونَ نافيةً، واللّام للاستثناء؛ وهذان مذهبان مشهوران عند النُّحاة، الأوّل مذهبُ البصريّين، والآخر مذهبُ الكوفيّين، وعليه يُفيد الأسلوبُ القصرَ، إذ هو نفيٌّ لكلِّ ما يُظنُّ مِنَ الصِّفات إلّا صفةَ الكذب؛ وهو قصْرٌ إضافيٌّ، بقصدِ المبالغةِ في التَّكذيب.

نُكْتَةُ حَذْفِ ضَميرِ الشَّأْنِ:

وَهْـنُ حُجَّةِ المُكَذِّبِ وضَعْفُ بُرْهانِه

على اعْتِبارِ أَنَّ (إِنْ) في الآية ﴿وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ مُخَفَّفَةٌ مِنَ الثَّقيلةِ ولَيْسَتْ نافيَةً، فإنَّ ضميرَ الشّأنِ محذوفٌ، أَيْ: الحالُ والشَّأْنُ أَنّنا نَظُنُّكَ لَمِنَ الكاذِبينَ في دَعْواكَ، وحَذْفُ ضَميرِ الشَّأْنِ أَوِ القِصَّةِ يوحي بِوَهَنِ حُجَجِهِم، وضَعْفِ بَراهينِهِم، وإِفْلاسِهِم في مواجَهَةِ خَصْمِهِم؛ إذْ شأنُهم لا يعدو أن يكونَ تكذيبًا لا تحقُّقًا واستدلالًا.

معنى الظَّنِّ ودلالةُ استعمالِه في قولِه: ﴿وَإِن نَّظُنُّكَ﴾:

الإيماءُ إلى خرابِ العُقولِ وسوءِ التَّقديرِ

لفظُ الظَّنِّ في قَوْلِه تعالى: ﴿وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ بِمَعْنَى اليَقينِ، وإِطْلاقُ الظَّنُّ على اليَقينِ مَجازٌ، وهوَ إِطْلاقٌ شائعٌ كَما في قَوْلِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ﴾ [البَقَرَة: 46]، أي يوقِنون ذلك، وقَرينَةُ المجاز هنا: دُخولُ اللّام على مَفْعولِ (ظَنّ) الثّاني: ﴿لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾، لأَنَّ أَصْلَها لامُ قَسَمٍ[2]، والقسم يستلزِمُ اليقينَ

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 89.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 186.

الجازِمَ، ولا يقوم على الشكِّ الواهِن؛ وإنّما أوثر التَّعْبيرُ بِلَفْظِ الظَّنِّ فيما معناه الاعتقادُ الموقن: ليَعْكِسَ ما هُم فيه مِنْ تَخَبُّط ووَهْم وارْتياب، وقَدْ يُحْمَلُ الظَّنُّ هنا على حَقيقَتِه، والمَعْنَى أَنَّهُم إِنَّما قالوا ذَلِكَ ظَنًّا منهم لا يَقينًا وحَقًّا، فحَياتُهُم ومَصيرُهم مَبْنِيٌّ على الظَّنِّ والتَّخْمين؛ وعلى كِلا الاحتمالين فاللّفظُ يوحي بخرابِ عقولِهم، وسوءِ تقديرِهم.

دلالةُ التَّعْبيرِ بِالجارِّ والمَجْرورِ ﴿لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾:

قوَّةُ التَّكذيب تكشفُ حجمَ الحسدِ

آثَرَ النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بِالجارّ والمَجْرورِ في الآية ﴿وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ دونَ أَنْ يُقالَ: (وَإِن نَظُنُّكَ كاذِبًا)؛ لِلدِّلالَةِ على أَنَّهُ عليه السلام مُتَعَمِّدٌ - في زعمِهِمُ الباطلِ - الكَذِبَ، عَريقٌ فيه، حينَ ادّعى الرِّسالَةَ، أو حينَ ادّعى نُزولَ العَذابِ، الَّذي يُشْعِرُ به الأَمرُ بِالتَّقْوَى تهديدًا ووعيدًا[1].

معنى (أل) في قوله: ﴿ٱلْكَٰذِبِينَ﴾:

احتمالُ الإسْتِغْراقِ والعَهْدِ الذِّهْنيّ

تُفيدُ (أل) في لفظِ ﴿ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ من الآية ﴿وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ الاِسْتِغْراقَ، والمعنى: العَريقونَ في الكَذِبِ، المُتَأَصِّلونَ فيه، الجامِعونَ لِكُلِّ صِفاتِ المَكْرِ والخِداعِ والتَّدْليس - حاشاه من نبيٍّ صادق - ، وقَدْ يدلّ التّعريف بـ(أل) على العَهْدِ الذِّهْنيِّ، أيْ المَعْهودونَ في الكَذِب، المَعْروفونَ بِهِ.

فائِدَةُ حَذْفِ مُتَعَلَّقِ ﴿ٱلْكَٰذِبِينَ﴾:

مقاصدُ العمومِ ملحوظةٌ في نظومِ الكلام

حُذِف متعلّقِ ﴿ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ من الآية ﴿وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾، والتَّقْدير: (لَمِنَ الكاذِبينَ في أَنَّكَ رَسولُ اللّه) أَوْ (لَمِنَ الكاذِبينَ في دَعْواك)، وهذا الحذفُ للدّلالَة على العُموم، لِيَشْمَلَ قَوْلُهُم عُمومَ الكَذِبِ في كُلِّ ما يَتَعَلَّقُ بِقَوْلِه وفِعْلِه ودَعْواه الرِّسالَةَ، لِيُجَرِّدوهُ مِنَ الثِّقَةِ والصِّدْقِ، بَلْهَ أنّه عند اللّه صادقٌ مُصَدَّق.

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 339.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

المِثْل والشَّبيه:

الشَّبيهُ يَقْتَضي التَّـجـانُـسَ، والمِـثْـلُ يَقْتَضي التَّكافُؤَ في الذّاتِ

قَلَّما يُسْتَعْمَلُ الشَّبيهُ إلّا في المُتَجانِسَيْن، تَقولُ: زَيْدٌ شَبيهُ عَمرو، لِأَنَّ بابَ فعيلٍ حُكْمُهُ أَنْ يَكونَ اسْمَ الفاعِلِ الَّذي يَأْتي فِعْلُهُ على فعُلَ مَضْموم العَين، ولا يَأْتي ذَلِكَ في الصِّفات، فإذا قُلْتَ: زَيْدٌ شَبيهُ عَمرو فقَدْ بالَغْتَ في تَشْبيهه بِهِ، وأَجْرَيْتَهُ مُجْرَى ما ثَبُتَ لِنَفْسِه، وإضافَتُهُ إِلَيْه إِضافَةٌ صَحيحَةٌ؛ أَمّا المِثْلانِ فهُما ما تَكافَآ في الذّاتِ[1].

الكَذِبُ والِافْتِراء:

الكَذِبُ مُطْلَقٌ في الفاحشِ وغيرِه، والإِفْـكُ هـوَ الكَذِبُ الفاحِشُ القُبْحِ

الكَذِبُ هوَ الخَبَرُ الَّذي يَكونُ مُخْبَرًا على خِلافِ ما هوَ عليْه، ويَصِحُّ اعْتِقادُهُ بِذَلِكَ كما يَصِحُّ عدَمُ الاعتِقاد[2]؛ وأَصْلُ الكَذِب في العَرَبيَّةِ التَّقْصيرُ، وسَواءٌ كانَ الكَذِبُ فاحِشَ القُبْحِ أَوْ غَيْرَ فاحِشِ القُبْحِ سُمّيَ كذِبًا، أَمّا الإِفْكُ فهوَ الكَذِبُ الفاحِشُ القُبْحِ، مِثْلُ الكَذِبِ على اللّه ورَسولِه، أَوْ على القُرْآن، ومِثْلُ قَذْفِ المُحْصَنَة، وغَيْرِ ذَلِك مِمّا يَفْحُشُ قُبْحُهُ؛ وجاءَ في القُرْآنِ على هَذا الوَجْه، قالَ اللّه تَعالَى: ﴿وَيۡلٞ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ ۝٧﴾ [الجاثيَة: 7][3].

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 154.

(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 43.

(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 45.

﴿فَأَسۡقِطۡ عَلَيۡنَا كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١٨٧﴾

[الشّعراء: 187]

❁ مُناسَبَةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

تمادي قوم شعيب في التحدّي والعناد

لمّا تمادى قوم شعيب في إنكارهم نبوّته وأظهروا يقينَهم في تكذيبه زادوا على ذلك بأن طلبوا عقابًا ينزل عليهم منّ السّماء، وهذا على سبيل السّخريةِ والتّعجيز.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَأَسۡقِطۡ﴾: (سقط) أصلٌ يدلّ على الوقوع[1]، ومنه السُّقوطُ، وهو طَرْحُ الشَّيْءِ مِنْ مَكانٍ عالٍ إلَى مَكانٍ مُنْخَفِضٍ، كَسُقوطِ الإنْسانِ مِنَ السَّطْحِ، قالَ تعالَى: ﴿أَلَا فِي ٱلۡفِتۡنَةِ سَقَطُواْۗ﴾ [التوبة: 49]، وقال تعالى: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ كِسۡفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطٗا﴾ [الطور: 44]، والسَّقْطُ والسُّقاطُ: لِما يَقِلُّ الاعْتِدادُ بِهِ، ومنه قيلَ: رَجُلٌ ساقِطٌ أي لَئِيمٌ في حَسَبِهِ، وقَدْ أَسْقَطَهُ كذا، وأَسْقَطَتِ المَرْأَةُ: اعْتُبِرَ فيه الأمرانِ: السُّقوطُ مِنْ عالٍ، والرَّداءةُ جَميعًا، فإنَّهُ لا يُقالُ: أَسقَطَتِ المَرْأَةُ إلّا في الوَلَدِ الَّذي تُلْقيه قَبْلَ التَّمام، ومنه قيلَ لِذَلِكَ الوَلَدِ: سَقْطٌ[2]، ومعنى الوقوعِ من مكانٍ عالٍ معتَبَرٌ في الآية ﴿فَأَسۡقِطۡ عَلَيۡنَا كِسَفٗا﴾.

2) ﴿كِسَفٗا﴾: (كسف) "أَصْلٌ يَدُلُّ على تَغَيُّرٍ في حالِ الشَّيْءِ إلَى ما لا يُحَبُّ، وعلى قَطْعِ شَيْءٍ مِنْ شَيْءٍ"[3]، ومن التَّغَيُّر: كُسوفُ الشَّمسِ والقَمَرِ، وهو اسْتِتارُهُما بِعارِضٍ مَخْصوصٍ وتغيّرُ حالهما بزَوالِ ضَوئِهما؛ وبِه شُبِّهَ كُسوفُ الوَجْه والحالِ، فقيلَ: كاسِفُ الوَجْه

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سقط).
(2) الرّاغب، المفردات: (سقط).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كسف).

وكاسِفُ الحالِ، ومن معنى القطع الكِسْفَةُ: قِطْعَةٌ مِنَ السَّحاب، والقُطْنِ، ونَحْوِ ذَلِكَ مِنَ الأَجْسامِ المُتَخَلْخِلَةِ الحائِلَةِ، وجَمعُها كِسَفٌ، كما في قول اللّٰه تعالى: ﴿وَيَجۡعَلُهُۥ كِسَفٗا﴾ [الرّوم: 48]، وقوله: ﴿أَوۡ تُسۡقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمۡتَ عَلَيۡنَا كِسَفٗا﴾ [الإسراء: 92]، وقوله هنا: ﴿فَأَسۡقِطۡ عَلَيۡنَا كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾؛ وتُجمَع (كِسْفَة) كذلك على (كِسْف) بسكون السّين، نَحْوَ: سِدْرَةٍ وسِدْرٍ[1]، ويجوز أن يكونَ (كِسْفٌ) السّاكنُ مُفرَدًا لا جمعًا، ومعناه المفعول من الكَسْف، أي المَكسوف المَقطوع[2].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

غـــرضُ قـــومِ شُعيب من طلبِ العقابِ

بالغ قومُ شعيبٍ في تكذيبه فطلبوا أن يُنزّل عليهم منَ السّماء عقابًا، وإنّما قالوا ذلك على سبيل التّهكّم والتّعجيز.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى فاءِ ﴿فَأَسۡقِطۡ﴾ ودلالتُها:

التّرتيبُ والتَّرَقّي في التَّهَكُّم والتَّعجيز

أَفادتِ الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَأَسۡقِطۡ﴾ التَّرْتيبَ والتَّرَقّي في تَعَنُّتِ القَوْمِ مَعَ رَسولِهِم، حَيْثُ طَلَبوا ذَلِكَ منه على سَبيلِ التَّهَكُّم والتّعجيز، بَعْدَما وصفوه بِأَنَّهُ مِنَ المُسَحَّرين ثُمَّ الكاذِبينَ إِنْكارًا واسْتِهْزاءً.

نُكْتَةُ استعمالِ مفردةِ ﴿فَأَسۡقِطۡ﴾:

نتائجُ الإمعان في الكفرِ اللّامُبالاةُ في نزولِ العذابِ

جاء التَّعبيرُ بِفِعْلِ الإسقاطِ أمرًا في حكايةِ اللّٰه قولَ المعاندين ﴿فَأَسۡقِطۡ عَلَيۡنَا كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، دونَ فِعْلِ النُّزولِ، لأَنَّ السُّقوط فيه انْحِدارٌ، وهوَ أَقْرَبُ لِلْعَذابِ، وأَلْصَقُ بالمادَّة، بِخِلافِ النُّزولِ الَّذي يُكونُ لِلْمَعْنَويِّ والماديِّ؛ فناسَبَ مَقامَ طلبِ العَذابِ التَّعبيرُ بِلَفظِ الإسقاطِ، إمعانًا في التَّحدّي، ومُبالَغَةً في التّعجيز.

---

(1) الرّاغب، المفردات: (كسف).

(2) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 7/ 409.

بلاغةُ الكناية في فعل الأمر ﴿فَأَسۡقِطۡ﴾:

فرحةُ المعاندين في تعجيزِ الصّادقين

الأَمرُ بالإسقاطِ في الآية كنايةٌ عن التَّعْجيز، فقَدْ سَأَلوهُ إنْزالَ العَذابِ عليهِم اسْتِهْزاءً به وسُخْرِيَّةً منه، قائلين: ﴿فَأَسۡقِطۡ عَلَيۡنَا كِسَفًا﴾، مُسْتَبْعِدينَ وُقوعَ ما طَلَبوهُ، وهَذا الطَّلَبُ لبيانِ إصرارهم على التَّكْذيب، ولَوْ كانَ فيهم أَدْنَى مَيْلٍ إلَى التَّصْديقِ لَما أَخْطَروهُ ببالِهِم، فضْلًا عَنْ طَلَبِه، ولا سيما كَوْنُهُ على وجْه التَّهَكُّمِ والسُّخْرِيَّةِ والاسْتِهْزاءِ بِنَبيِّ اللّه شُعَيْبٍ عليه السلام[1].

نكتةُ تَقْديم شبه الجملة ﴿عَلَيۡنَا﴾:

سطوةُ المتبجّح في نصلِ تحدّيه

قَدَّمَ النَّظْمُ الكَريمُ حَرْفَ الجَرِّ ومجرورَه ﴿عَلَيۡنَا﴾ على المَفْعولِ ﴿كِسَفًا﴾ في الآية ﴿فَأَسۡقِطۡ عَلَيۡنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ للإشارَةِ إلَى تَبَجُّحِهِم في رَفْضِ الحَقِّ، واسْتِبْعادِهِم وُقوعَ العَذاب؛ فهُم جاهِزونَ بأَجْسامِهِم وكيانِهِم لِتَلَقّي هَذا العَذابِ المَزْعومِ كَما يَعْتَقِدونَ، معَ ما فيه منَ الاختصاص، أي: أسقطْ علينا كِسَفًا من العذابِ دون غيرِنا.

دلالةُ استعمال حرفِ الاستعلاءِ (على):

المكابرةُ تعرِّضُ صاحِبَها للمهلكةِ الماحقة

جاء استعمالُ حرفِ الاِسْتِعْلاءِ (على) في الآية ﴿فَأَسۡقِطۡ عَلَيۡنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ ليَدُلّ على شِدَّةِ السُّقوطِ والارْتِطام، فيقع عليهم العذابُ فيُهلكَهم، وهو يوحي بِأَنَّهُم مُسْتَعِدّونَ ومُتَأَهِّبونَ لِلْعَذابِ إنْ كانَ نَبيُّهُم صادِقًا؛ ووَراءَ ذَلِكَ اسْتِبْعادٌ عَميقٌ لِنُزولِ العَذابِ.

دلالةُ استعمالِ مفردة ﴿كِسَفًا﴾:

غايةُ ما يرجوه المُنْكِرُ الإغراقُ في التَّكذيبِ

في قوله: ﴿كِسَفًا﴾ قرأ عاصم هنا وفي سبأ بفتح السين، وقرأ الباقون بسكونها ﴿كِسۡفًا﴾[2]، فمَنْ فتح السينَ جعله جمعَ كِسْفة نحو: قِطْعَة وقِطَع، وكِسْرة، وكِسَر، ومَنْ سَكَّن جعله جمع كِسْفَة أيضاً على حَدِّ سِدْرة وسِدْر، وقَمْحة وقَمْح.

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 90.

(2) ابن الجزري، النشر: 2/ 309.

وجوَّز أبو البقاء فيه وجهين آخرين، **أحدُهما:** أنه جمعٌ على فعَل بفتح العين، وإنما سُكِّن تخفيفاً، وهذا لا يجوز لأنَّ الفتحةَ خفيفةٌ يحتملُها حرفُ العلة، حيث يُقدَّر فيه غيرُها فكيف بالحرف الصحيح؟ **والثاني:** أنه فعْل بمعنى مَفْعول كالطَّحْن بمعنى مَطْحون، فصار في السكون ثلاثةُ أوجهٍ[1].

واستعمالُ مفردة ﴿كِسَفًا﴾ في الآية ﴿فَأَسۡقِطۡ عَلَيۡنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ إمّا باعتبارِ أنَّ هَؤُلَاءِ القومَ عَيَّنوا الآيَةَ وحدّدوها بكونها كِسَفًا من السماء؛ فيُحْتَمَلُ أَنَّ تَعْيينَها اقْتِراحٌ منهم، ويُحْتَمَلُ أَنَّ شُعَيْبًا أَنْذَرَهُم بِكِسَفٍ يَأتي فيه عَذابٌ؛ وذَلِكَ هوَ يَوْمُ الظُّلَّةِ المَذْكورُ في هَذا السّياقِ[2]، أَيْ: قِطَعُ عَذابٍ تَسْتَأْصِلُنا[3]، وفي كُلٍّ ما يَدُلُّ على غَرَضِهِمُ القَبيحِ، وهوَ التّعْجيزُ والتّهَكُّمُ بِنَبيِّ اللّه؛ فإنْ كانوا قد اقترحوه فهو عُنجُهيَّة وغطرَسة، وإن كانوا قد كرَّروا ما سمعوه فهو تكذيبٌ بالغ، والمعنيانِ مجتمِعانِ فيهم.

نوعُ حرفِ ﴿مِّنَ﴾ ودَلالتُه:

الإيماءُ إلى مصدرِ العذابِ دالٌّ على شِدَّة التَّحدّي وفَظاظَةِ الإنْكارِ

أفاد حرفُ ﴿مِّنَ﴾ في الآية ﴿فَأَسۡقِطۡ عَلَيۡنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ ابتداءَ الغاية؛ فحَدَّدَ النّظمُ الكَريمُ مَكانَ ابتداءِ السُّقوطِ، وهوَ السَّماءُ - مَعَ أَنَّ السُّقوطَ لا يَكونُ إلّا مِنْ عُلوٍّ - إشارَةً إلَى شِدَّةِ التَّحَدّي، وفَظاظَةِ الإنْكارِ، وغايَةِ الاسْتِبْعادِ، ونِهايَةِ الكِبْرِ والطُّغْيانِ؛ لعلمهم وإقرارِهم بمصدر العذاب.

بَلاغَةُ تقديم ذكرِ الجَزاءِ على الشَّرْطِ:

رأسُ الكفرِ المسارعةُ في استنزالِ العذابِ

قُدِّم ذكرُ الجَزاءِ على الشَّرطِ في حكايةِ اللّه قولَ المُكَذِّبين: ﴿فَأَسۡقِطۡ عَلَيۡنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾؛ فقَوْلُهُم: ﴿فَأَسۡقِطۡ عَلَيۡنَا كِسَفًا﴾ بمَثابَةِ الجَزاءِ، وهو دَليلٌ على جَوابِ الشَّرْطِ

---

(1) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 7/ 409 - 410.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 189.

(3) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 597.

المَحْذوفِ، والتَّقْديرُ: (إنْ كُنْتَ مِنَ الصّادِقينَ أَسْقطتَ علينا كِسَفًا مِنَ السَّماءِ)، والغَرَضُ البَلاغيُّ مِنْ ذَلِكَ بَيانُ حِرْصِهِم على تَقْديمِ التَّحَدّي والتَّعْجيزِ في صَدْرِ كَلامِهِم، مسارعةً منهم في استجلابِ العقابِ الماحق، وإمعانًا منهم في التَّكْذيبِ والمُكابَرَةِ والعِنادِ.

بلاغةُ استعمالِ أَداةِ ﴿إِن﴾ دون (إذا):

بيانُ مقصودِ الخصومِ من براعةِ نظمِ القرآن

لَمّا كانَ القَوْمُ مُسْتَبْعِدينَ صدقَ نَبيِّ اللّٰه شُعَيْبٍ عليه السلام ومُعْتَقِدينَ كَذِبَهُ أَوْ جازِمينَ بِذَلِكَ، ناسبَ استعمالُ أداةِ الشَّرْطِ ﴿إِن﴾ في تَحَدّيهم ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾؛ والأَصْلُ في ﴿إِن﴾ إفادَةُ الاسْتِبْعادِ أَوِ التَّقْليلِ أَوِ الشَّكِّ، وعَدَمُ الجَزْمِ واليَقينِ بِوُقوعِ مَضْمونِها، وذلك لتصوير وبَيانِ اسْتِبْعادِهِم لِصِدْقِهِ عليه السلام، أي: إن كنت من الصّادقين كما تزعمُ، ولَسْنا مُعتَقِدين ذلك.

غَرَضُ التَّعْبيرِ بِصيغَةِ الماضي ﴿كُنتَ﴾:

الإيماءُ إلى انتفاءِ الصِّدقِ جبلَّةً وطَبْعًا

جاء التَّعبيرُ بِصيغَةِ الماضي في حكايةِ اللّٰه قولَ المُكَذِّبين: ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أَيْ: كَوْنًا هو لَكَ كالجِبِلَّةِ[1]، حَتَّى يَتَيَقَّنوا تَأَصُّلَ الصِّدْقِ في طَبيعَتِه وجِبِلَّتِهِ؛ لا جُنوحًا إِلَى الثِّقَةِ والاطْمِئْنانِ، ولَكِن رَغْبَةً في التَّعْجيزِ والتَّهْديدِ والاسْتِبْعادِ.

دلالةُ استعمالِ الجارِّ والمَجْرورِ ﴿مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾:

مِن أغراضِ التَّثَبُّتِ التَّعجيزُ والاسْتِهزاء

جاءَ التَّعْبيرُ بالجارِّ والمَجْرورِ في الآيةِ ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ دونَ أَنْ يُقالَ: (إنْ كُنْتَ صادِقًا)، لِلدّلالَةِ على بيان قصدهم في التَّثَبُّتِ مِنْ صِدْقِه تَعْجيزًا واسْتِهْزاءً؛ أَيْ إِنْ كُنْتَ مِنَ العَريقينَ في الصِّدْقِ، المَشْهورينَ به فيما بَيْنَ أَهْلِه، لِنُصَدِّقَكَ فيما لَزِمَ مِنْ أَمرِكَ لَنا، بِاتِّخاذِ الوِقايَةِ مِنَ العَذابِ المُهَدَّدَ بِه[2].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 90.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 90.

معنى التَّعريفِ في لفظِ ﴿ٱلصَّٰدِقِينَ﴾:

تعريفُ ﴿ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ بـ(أل) في الآية ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ للجنسِ، أي: من جنس الصّادقين، المشهودِ لهم بالصِّدقِ البالغ.

فائِدَةُ حَذْف مُتَعَلَّق ﴿ٱلصَّٰدِقِينَ﴾:

التَّوَسُّعُ في تقديرِ المحذوفِ من أغراضِ الحذفِ

حُذِفَ مُتَعَلَّق لفظِ ﴿ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في الآية ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ لغَرَضٍ بَلاغيٍّ، وهوَ التَّوسُّعُ في تأْويلِ المُتَعَلَّق، دونَ التَّقيُّدِ بِمَفْعولٍ واحِدٍ؛ أَي: إنْ كُنْتَ مِنَ الصّادِقينَ بأَنَّ العَذابَ نازِلٌ بنا، أَوْ إنْ كُنْتَ مِنَ الصّادِقينَ في دَعْواك، أَوْ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّادِقينَ في أَنَّكَ رَسولُ اللّه، وهذه التَّقديراتُ وغيرها يَصْلُحَ لها المَحْذوفُ تقديرًا، فالحذفُ هنا غَرَضُه الاتِّساعُ في التَّأويل.

بَديعُ المُقابَلَةِ في الآيتَين ودلالتُها:

التَّقابلُ بين الجُمَلِ قائمٌ على الاتِّساق بين المعاني

جاءَ التَّقابلُ بين حكاية اللّه قولَ المُكَذِّبين ﴿وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ وبينَ قولِهم ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾؛ فالأولَى اتِّهامٌ صَريحٌ لَهُ بِالكَذِبِ، والأخرى اسْتِبْعادٌ لِكَوْنِه مِنَ الصّادِقينَ، والأولَى مَسْبوقَةٌ بِوَصْفِه بالبَشَريَّةِ، بغرضِ نفي الرِّسالة عنه، فأَتْبَعوهُ بوَصْفِه بالكَذِبِ؛ والأخرى مَسْبوقَةٌ بالتَّحَدّي والتَّعْجيزِ بإِنْزالِ العَذابِ، ظانِّينَ اسْتِحالَةَ ذلِكَ، فناسَبَهُ أَنْ يُخْتَتَمَ باسْتِبْعادِ كَوْنِه مِنَ الصّادِقينَ.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

النُّزول والسُّقوط:

النُّزولُ يَكونُ في النِّعْمَةِ والنِّقْمَةِ، أَمّا السُّقوطُ فلا يَكونُ إلّا في العَذابِ

النُّزولُ في الأصل هو انحطاطٌ من عُلْوٍ، يُقال: نَزَلَ عن دابَّته، ونَزَلَ في مكانٍ كذا: حَطَّ رَحْلَهُ فيه، وأَنْزَلَهُ غيرُه، قال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلۡنِي مُنزَلٗا مُّبَارَكٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ ٢٩﴾ [المؤمنون: 29]؛ ونَزَلَ بكذا وأَنْزَلَهُ بمعنًى، وإنْزالُ اللّه تعالى نِعَمَهُ ونِقَمَهُ على الخَلْق، وإعطاؤُهُم إيّاها، وذلِكَ إمّا بإِنْزالِ الشَّيْءِ نَفْسِه، كَإِنْزالِ القُرْآنِ، وإمّا بإِنْزالِ

أَسْبابه والهدايَةِ إِلَيْه، كَإِنْزالِ الحَديدِ، ونَحْو ذَلِكَ، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ وَٱلۡمِيزَانَۗ﴾ [الشورى: 17]، ومن إنزال العذاب: ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ٣٤﴾[1] [العنكبوت: 34]، فالنُزولُ يَكونُ في النِّعْمَة والنِّقْمَة، ويكونُ في الخَيْرِ والشَّرِّ، وفي النَّعيم والعَذابِ؛ أَمّا السُّقوطُ، فلا يَكونُ إلّا في العَذابِ والنِّقْمَةِ والشَّرِّ، ولِذَلِكَ جاءَ هُنا: ﴿فَأَسۡقِطۡ عَلَيۡنَا كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ مُناسِبًا لِمَقام طَلَبِهِمُ العَذابَ دَليلًا على رِسالَةِ شُعَيْبٍ عليه السلام.

الكِسْفَة والقِطْعَة:

الكِسْفَةُ قِطعَةٌ مِنَ الجِسْمِ المُتَخَلْخِلِ الحائِلِ، والقِطْعَةُ جزءٌ مِنْ أيِّ شَيْءٍ

الكافُ والسّينُ والفاءُ أَصْلٌ يَدُلُّ على قَطْعِ شَيْءٍ مِنْ شَيْءٍ، مِنْ ذَلِكَ: كَسَفَ العُرقوبَ بالسّيف كَسْفًا يكسِفُهُ؛ والكِسْفة: الطّائفة من الثَّوب، يُقال: أعطِني كِسفةً من ثوبك؛ والكِسْفة: القِطعةُ من الغَيم، قال اللّه تعالى: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ كِسۡفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطٗا﴾ [الطور: 44][2]، فالكِسَفُ جَمعٌ مُفْرَدُهُ الكِسْفَةُ، وهيَ قِطْعَةٌ مِنَ السَّحابِ، والقُطْنِ، ونَحْوِ ذَلِك مِنَ الأَجْسامِ المُتَخَلْخِلَةِ الحائِلَة[3]؛ فهي نوعٌ خاصٌّ من القِطعَة.

أَمّا القِطْعَةُ فأَعَمُّ، فأصل الكلمةِ يَدُلُّ على صَرْمٍ وإبانَةِ شَيْءٍ مِنْ شَيْءٍ، يُقالُ: قَطعتُ الشَّيْءَ أَقْطَعُهُ قطْعًا؛ والقَطيعَةُ: الهُجْرانُ، يُقالُ: تَقاطَعَ الرَّجُلانِ، إذا تَصارما؛ والقِطْعُ، بِكَسْرِ القافِ، الطّائِفَةُ مِنَ اللَّيْلِ، كَأَنَّهُ قِطْعَةٌ؛ وأَقْطَعتُ الرَّجُلَ إِقْطاعًا، كَأَنَّهُ طائِفَةٌ قَدْ قُطِعَتْ مِنْ بَلَدٍ[4].

---

(1) الرّاغب، المفردات: (نزل).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كسف).
(3) الرّاغب، المفردات: (كسف).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قطع).

﴿قَالَ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨٨﴾ [الشّعراء: 188]

مُناسَبَةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

تَفْويضُ العِلْمِ للهِ فيما يَسْتَحِقّون

لَمّا طَلَب قومُ شعيبٍ عليه السلام نُزولَ العَذابِ تعجيزًا لَهُ، ناسَبَ أَنْ يُفَوِّضَ العِلْمَ للّه تعالى، حَيْثُ يَتَوَقَّفُ عَذابُ العُصاةِ على العِلْمِ المُحيطِ بِأَعْمالِهِم، والقُدْرَةِ على نَكالِهِم؛ فاسْتَأْنَفَ تَعالَى الحِكايَةَ عَنْهُ في تَنْبيهِهِ لَهُم على ذَلِكَ بقولِه: ﴿قَالَ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾[1]، فكانَ جَوابُ شُعَيْبٍ بِإِسْنادِ العِلْمِ إِلَى اللّه، فهوَ العالِمُ بِما يَسْتَحِقّونَهُ مِنَ العَذابِ ومِقْدارِهِ[2].

المَعْنى الإجْماليُّ:

الآيـــات والمعجزات التي يؤيد بها الرسل من الله تعالى وحده

شعيب عليه السلام نبيُّ اللّه ورسولُه والعاملُ بأوامرِه وليس له منَ الأمرِ شيءٌ، لذلك عندما تحدّاه قومُه وطلبوا منه إنزالَ العذاب عليهم أحالَ الأمرَ برمَّتِه إلى ربّه، فهو العليمُ بخلقه القادرُ على إنزال العقاب عليهم.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الاستئنافِ البيانيّ:

كمالُ الإيمان يستدعي تفويضَ الأمر لصاحبِ الأمرِ

جاءتِ الآيةُ الكريمةُ على طريقة المُحاوراتِ بفصل الجواب: ﴿قَالَ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾؛ حَيْثُ أَثارَ طَلَبُهُم العذابَ مِنَ السَّماءِ سُؤالًا فحواهُ: وماذا كانَ رَدُّ نَبيِّ اللّه شُعَيْبٍ؟ فجاءَتْ هَذِه الآيَةُ بِمَثابَةِ الجَوابِ عَنْ هَذا السُّؤالِ المُقَدَّرِ في النَّفْسِ، وفُصِلَت عَنْ سابِقَتِها كَما يُفْصَلُ الجَوابُ عَنِ السُّؤالِ، لِشِبْهِ كَمالِ الاتِّصالِ، وبَلاغَةُ الفَصْلِ تَتَمَثَّلُ في بُعْدِ الشُّقَّةِ بَيْنَ قَوْلِهِم وقَوْلِه، وانْفِصامِ العُقْدَةِ بَيْنَ الكلامَيْنِ.

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 90.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 189.

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بِعُنْوانِ الرُّبوبيَّةِ ﴿رَبِّي﴾:

مَقامُ التَّفويض يُناسِبُهُ عنوانُ الرُّبوبيَّةِ

ذُكِرَ لفظُ الرُّبوبيَّةِ في قول اللّه تعالى: ﴿قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾؛ لِأَنَّ المَقامَ مَقامُ تَفْويضٍ للّه ﷻ، وتَسْليم الأمرِ إِلَيْه في اسْتِحْقاقِهم العَذابَ ومَوْعِدِ ذَلِكَ وكَيْفيَّتِه، ولا يَقومُ بِذَلِكَ إلّا رَبٌّ يُدَبِّرُ كَوْنَ عبادِه، ويَطَّلِعُ على سَرائِرِهم وضَمائِرِهم.

غَرَضُ الإضافَةِ في ﴿رَبِّي﴾:

أُضيف لفظُ الرّبّ إِلَى ضَميرِ المُتَكَلِّم في قول اللّه تعالى: ﴿قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ﴾ للتَّشريف، وتَسْليم الأمرِ لِرَبِّه وتَفْويضه لَهُ سُبْحانَهُ، واسْتِمدادَ واسْتِمدادِ القوَّةِ منه ﷻ.

دَلالَةُ صيغَةِ ﴿أَعْلَمُ﴾:

الإيماءُ إلى التَّهديدِ القريبِ والوعيد الشَّديد

آثر النَّظمُ الكريم في الآية ﴿قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ﴾ استعمالَ صيغَة (أَفْعَل) دون المضارعِ (يعلم)، لا لِلتَّفْضيلِ، وإِنَّما للمُبالَغَةِ في بيان العِلْم؛ فكانَ جَوابُ شُعَيْبٍ بِإِسْنادِ العِلْم إِلَى اللّه العالم بما يَسْتَحِقّونَهُ مِنَ العَذابِ ومِقْدارِه[1]، وقدِ اشتملت هذه الصّيغةُ في هذا السّياقِ على معنى التَّهديد والوعيد؛ إذ لمّا طلبوا إسقاط الكِسف مِنَ السَّماء، نَسبَ عِلمَ ذلك لربِّ العالمين، للإيماءِ إلى أنَّ العذابَ إنَّما هو بأمرِ اللّه تعالى، فليحذروا عاقبةَ طلبهم واستهزائِهم.

نوعُ (ما) ودلالَتُها:

عِلْمُه سُبْحانَهُ محيطٌ بأعمالِ العبادِ ظاهِرًا وباطِنًا

(ما) في قَوْلِ اللّه تعالى: ﴿قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ تَحتملُ أَنْ تَكونَ مَوْصولَةً، وما بَعْدَها صِلَةٌ، أَي: أَعْلَمُ بِالَّذي تَعْمَلونَهُ، وتحتمل أَن تَكونَ مَصْدَريَّةً، وهي وما بَعْدَها مؤوَّلٌ بِالمَصْدَرِ، أَي: رَبّي أعلَمُ بِعَمَلِكُم؛ وكِلا التَّوْجيهَيْن يُشيرُ إِلَى إحاطَةِ عِلْمِه سُبْحانَهُ بِعَمَلِهِم إحاطَةً شامِلَةً لِلظَّواهِرِ والبَواطِنِ.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 189.

بَلاغَةُ الكِنايَةِ فِي ذِكرِ العَمَل:

قَوْل شُعَيبٍ عليه السلام: ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ كنايةٌ عن الجزاءِ، الّذي هو العذابُ، وقومُه إنَّما طَلَبوا ذَلِكَ لِاسْتِبْعادِهِم وُقوعَهُ، فظَنّوا أَنَّهُ إذا لَم يَقَعْ ظَهَرَ كَذِبُهُ؛ فعِنْدَها قالَ شُعَيْبٌ عليه السلام: ﴿رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ فلَم يَدْعُ عليْهِم، بَلْ فوَّضَ الأَمرَ فيه إِلَى اللّه تَعالَى، فلَمّا اسْتَمَرّوا في التَّكْذيبِ أَنْزَلَ اللّه عليْهِمُ العَذابَ، على ما اقْتَرَحوا مِنْ عَذابِ يَوْمِ الظُّلَّةِ إنْ أَرادوا بِالسَّماءِ السَّحابَ، وإنْ أَرادوا الظُّلَّةَ فقَدْ خالَفَ بِهِم عَنْ مُقْتَرَحِهِم[1]، فكَنّى عَنِ العَذابِ والجَزاءِ بِالعَمَلِ أَمَلًا في رُجوعِهِم إِلَى اللّه تعالى، وتركِ ما هم فيه من المعاصي والمفاسد.

قيمُ الهدايةِ مبثوثةٌ في نظْمِ القرآنِ وألفاظِه المنتقاة

فائِدَةُ حَذْفِ مفعولِ ﴿تَعۡمَلُونَ﴾:

حُذِفَ مفعولُ العَمَلِ في قولِه تعالى: ﴿قَالَ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ ليَصْلُحَ لِلاتِّساعِ لِكُلِّ عَمَلٍ وقَوْلٍ، وتَفْويضِ أَمرِ نُزولِ العَذابِ ووَقْتِه المُقَدَّرِ إِلَى عِلْمِ اللّه تعالى.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

العملُ والفعلُ:

الفعل كون الشَّيء مُؤَثِّرًا في غيره، وهو أعمُّ من معنى سائر أخواته، نحو: العملِ، والصُّنع، والإبداع، والإحداثِ، والخلق، والكسب... فالعمل يُطلَق على كلِّ فعلٍ صادرٍ منَ الحيوان بقصد، فلا يُقال إلّا لما كان منَ الحيوان، دون ما كان منَ الجماد، ولما كان بقصدٍ وعلمٍ، دون ما لم يكن عن قصدٍ وعلمٍ؛ فهو أخصُّ منَ الفعل.

العملُ فِعْلٌ صادرٌ عن قصدٍ، والفعلُ أعمُّ منه

والعمل لا يُقال إلّا ما كان عن فِكْرٍ ورَوِيَّة؛ ولهذا قُرِن بالعلم،

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 528.

فقيل: عِلْمٌ وعَمَلٌ، حتَّى قال بعض الأدباء: قُلِبَ لَفْظُ العمل عن لفظ العلم تنبيهًا أنَّه من مُقتضاه، فالفعل لفظ عامٌّ يُقال لِما كان بإجادةٍ وبدونها، ولِما كان بعلم أو بغيرِ علم، وبقَصْدٍ أو بغير قَصْدٍ، ولِما كان منَ الإنسان والحيوان والجماد؛ والعملُّ أخصُّ منه.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ١٨٩﴾ [الشعراء: 189]

۞ مُناسَبَةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

عذابُ الله عدلٌ مطلَقٌ وجزاءُ حَكيمٍ

لَمّا فوَّضَ نَبيُّ اللّه شُعَيبٌ عليه السلام العِلْمَ للّه وجَرَّدَ نَفْسَهُ مِنَ الحَوْلِ والقوَّةِ، ناسبَ ذكرَ موقِفِ قومِه ممّا قال، بذكر تكذيبِهم؛ فأنزل اللّه عليهم العذابَ العظيمَ جزاءَ كفرِهم وعنادِهم؛ وفيه بيانُ أنَّ عذابَ اللّه تعالى هو عدلٌ ناشئٌ عن علمٍ وحِكمَة.

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَأَخَذَهُمۡ﴾: (أخذ) أَصْلٌ يدلُّ على حَوْزِ الشَّيْءِ وجَبْيِه وجَمعِه[1]، فالأَخْذُ هو التَّناوُلُ، والإيقاعُ بالشَّخْصِ، والعُقوبَةُ، يُقال: أَخَذَهُ بِذَنْبِه مُؤاخَذَةً، ولا يُقال: واخَذَهُ؛ ويقالُ: ائْتَخَذوا، بهمزتين: أَخَذَ بعضُهم بعضاً[2]، والمقصودُ بالأخذ في قول اللّه تعالى ﴿فَأَخَذَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِۚ﴾ نيلُ العذابِ إيّاهم، بإصابة مقتلِهم.

2) ﴿ٱلظُّلَّةِۚ﴾: (ظلّ) أَصْلٌ يَدُلُّ على سَتْرِ شَيْءٍ لِشَيْءٍ، فالظُّلَّةُ: ما سَتَرَكَ مِنْ فوقٍ، والجَمْعُ ظُلَلٌ وظِلالٌ، وقيلَ: ﴿عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِۚ﴾؛ لِأَنَّ اللّهَ تَعالَى بَعَثَ غَمامَةً حارَّةً فأَطْبَقَتْ عليهِم وهَلَكوا تَحْتَها، وكُلُّ ما أَطبَقَ عليْكَ فهوَ ظُلَّة، وكَذَلِكَ كُلُّ ما أَظَلَّكَ، وقيلَ: ﴿عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِۚ﴾ هو غَيْمٌ تَحْتَهُ سَمومٌ، وهي سَحابَةٌ أَظَلَّتْهُم فلَجَؤوا إِلَى ظِلِّها مِنْ شِدَّةِ الحَرِّ فأَطْبَقَتْ عليْهِم وأَهْلَكَتْهُم[3]، و﴿ٱلظُّلَّةِۚ﴾: السَّحابَةُ، كانَتْ فيها صَواعِقُ مُتَتابِعَةٌ أَصابَتْهُم

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أخذ).

(2) ابن منظور، لسان العرب: (أخذ).

(3) ابن منظور، لسان العرب: (ظلل).

فأَهْلَكَتْهُم؛ وقَدْ كانَ العَذابُ مِنْ جِنْسِ ما سَأَلوهُ، مِنْ إِسْقاطِ شَيْءٍ مِنَ السَّماءِ[1].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

لما كذّب قومُ شُعيب برسالتِه جرت عليهم سنّةُ اللّه في القوم المُكذّبين، فنزلَ بهم العذابُ الذي قضاه اللّه في شأنِهم، وكان عذابًا عظيمًا.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

نوعُ فاءِ ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ ودلالتُها:

الفاءُ فصيحَةٌ تَحمِلُ معانيَ التَّرْتيبِ والتَّعْقيبِ والسَّبَبيَّةِ

الفاءُ في قولِ اللّه تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ فصيحَةٌ، أَيْ: فتَبَيَّنَ مِنْ قَوْلِهم: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ﴾ أَنَّهُم كَذَّبوهُ، أي: تَبَيَّنَ التَّكْذيبُ والثَّباتُ عليْه، كَما دَلَّ عليْه ما قَصَدوهُ مِنْ تَعْجيزِه إذْ قالوا: ﴿فَأَسۡقِطۡ عَلَيۡنَا كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[2]؛ فقَدْ أَفْصَحَتِ الفاءُ عَنْ جُمَلٍ مَحْذوفَةٍ مَعَ إفادَتِها التَّرْتيبَ والتَّعْقيبَ، أَي أَنَّ التَّكْذيبَ وقَعَ عَقِبَ قَوْلِهم مُتَرَتِّبًا عليْه مُسَبَّبًا عَنْهُ، ففيها كَذَلِك معنى السَّبَبيَّة، ويُحْتَمَلُ أَن تَكونَ الفاءُ عاطِفَةً مَعَ ما سَبَق مِنْ معاني التَّرْتيبِ والتَّعْقيبِ والسَّبَبيَّةِ، وفي ذَلِك مُبالَغَةٌ في التَّكْذيبِ؛ ويَكونُ المَعْنَى أَنَّهُم اسْتَمَرّوا على تَكْذيبِه، وكَذَّبوهُ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّة، ليُفيدَ التَّكْثيرَ، وأَنَّهُم كَذَّبوهُ في كَلِّ ما قالَهُ لَهُم، ومنه إِسْنادُ العِلْمِ بما يَعْمَلونَ إِلَى اللّه تَعالَى، ففيه معنى المُبالَغَةِ والإمعانِ في التَّكْذيبِ والعِنادِ.

دَلالَةُ التَّعْبيرِ بِصيغَةِ (فَعَّل):

المُبالَغةُ في التَّكْذيبِ اعتداءٌ بالغٌ

التَّعْبيرُ بِصيغَةِ (فعَّل) مُشَدَّدَ العَيْنِ في قَوْلِه تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ يَدُلُّ على بُلوغِهم الغايَةَ العُظْمَى في التَّكْذيبِ والرَّفْضِ والازْدِراءِ والصَّدِّ عَنْ دينِ اللّهِ، وأَنَّهُم وصَفوه بالكَذِبِ الصَّريحِ؛ وفي ذَلِك بَيانٌ لِتَعَدّيهم على قُدْسيَّةِ أَنْبياءِ اللّه تعالى.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 191، 190.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 191، 190.

بلاغةُ ذكر مُفردةِ التَّكذيب:

صَرَّحَ النَّظْمُ الكَريمُ بِلَفْظِ التَّكْذيبِ في قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ - مَعَ أَنَّ ما قَبْلَهُ مِنَ الكَلامِ يُفيدُ بِلازِمِه تَكْذيبَهُم شُعَيْبًا عليه السلام - لِيُبَيِّنَ أَنَّ الجَزاءَ مِنْ جِنْسِ العَمَلِ، وأَنَّ العَذابَ ما أَظَلَّهُم إلّا مِنْ أَجَلِ التَّكْذيبِ، وفي ذَلِكَ إِحْقاقٌ لِعَدالَةِ اللّه تعالى، وأنَّه سبحانه ما كان ليأخذ الظّالمين إلّا بعد بيانِ المَحَجَّة، ووقوعِ المَعصيَة.

الجَزاءُ مِنْ جِنْسِ العَمَلِ

نوعُ فاءِ ﴿فَأَخَذَهُمۡ﴾ ودلالتُها:

الفــاءُ في قوله تعالــى: ﴿فَأَخَذَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِۚ﴾ أفادت التَّعْقيبَ، والمعنى أَنَّ العذابَ وقَعَ عَقِبَ التّكذيبِ، فالجزاءُ من جنسِ العملِ؛ وهي تدلُّ على المُباغَتَةِ والفُجاءَةِ، وهذا أوقَعُ في الألمِ وأشدُّ، وقَدْ تُفيدُ السَّبَبِيَّةَ، والمَعْنَى أَنَّ العَذابَ مُسَبَّبٌ عَنِ التَّكْذيبِ.

تحتمل الفاءُ التَّعْقيبَ والسَّبَبِيَّة

بَلاغَةُ الاسْتِعارَةِ المكنيَّة في ﴿فَأَخَذَهُمۡ﴾:

في قول اللّه تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِۚ﴾ شُبِّه العَذابُ بِالوَحْشِ الكاسِرِ، وحُذِفَ المشبَّه به ودَلَّ عليْه بِلازِمِه وهوَ الأَخْذ، على سَبيلِ الاسْتِعارَةِ المَكْنيَّة، وغرضُ ذلك: تَجْسيد العَذاب بِصورَةِ السَّبُعِ المُفْتَرِسِ، الذي يَأْخُذُ بِلا هَوادَةٍ أَوْ رَحْمَةٍ؛ فلَم يَقُلْ: (فَأَخَذَهُمُ اللّهُ بِعَذاب)، وإنَّما جعل العَذابَ آخذًا، لبيان هَول الموقف، وسَطوَة العذاب.

تصويرُ العذابِ بوحشٍ كاسرٍ آخذٍ للظّالمين

فائِدَةُ إضافتَي ﴿عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِۚ﴾:

أُضيف العذابُ إلى الظَّرف ﴿يَوۡمِ﴾ في قول اللّه تعالى ﴿فَأَخَذَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِۚ﴾ والإضافَةَ على معنى في، إشارَةً إِلَى وُقوعِ اليَوْم ظَرْفًا لِلْعَذابِ؛ وجَعلتْهُ الإضافَةُ علمًا مُخْتَصًّا بِهَذا الاسْمِ: ﴿عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِۚ﴾، كما أُضيف ﴿يَوۡمِ﴾ إِلَى ﴿ٱلظُّلَّةِۚ﴾ لإفادة الاخْتِصاصَ، أَي: تَخْصيصِ هَذا اليَوْمِ بِيَوْمِ الظُّلَّة، لِيَصيرَ مَعْروفًا بَيْنَ الأَيّام، مختصًّا بهذا الاسم، منبِّهًا على ما وقع فيه مِنَ العقابِ الأليم.

يتعيَّن معنى الإضافةِ بحسب مُفرداتها وسياقِها

نكتةُ إضافَةِ الـ﴿عَذَابُ﴾ إلَى ﴿يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِۚ﴾ دون الظّلّة:

الإيذانُ بِأَنَّ لَهُم عَذابًا آخَرَ مُبالَغَةً في الانْتِقامِ

في إضافَةِ العَذابِ إلَى يَوْمِ الظُّلَّةِ في قوله تعالى: ﴿عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِۚ﴾ دونَ الظُّلَّةِ نَفْسِها إيذانٌ بِأَنَّ لَهُم يَوْمَئِذٍ عَذابًا آخرَ غَيْرَ عَذابِ الظُّلَّةِ، وفي تَرك بَيانه تَعْظيمٌ لِأَمره، وتَفْخيمٌ لِشَأنه، وحَتَّى تَذْهَبَ النَّفْسُ في تَصوُّرِه كُلَّ مَذْهَبٍ مُمكِنٍ، ويُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ التَّخْصيصُ لِلْمُبالَغَةِ في انْتِقامِ اللّهِ، حَيْثُ أَخَذَهُمُ اللّهُ بِنَحْوِ ما اقْتَرَحوا مِنْ عَذابِ الظُّلَّةِ إِنْ أَرادوا بِالسَّماءِ السَّحابَ، وإِنْ أَرادوا المَظَلَّةَ فقَدْ خالَفَ بِهِم عَنْ مُقْتَرَحِهِم[1]، فجاء التَّعبيرُ بِيَوْمِ الظُّلَّةِ مُشاكَلَةً لِما اقْتَرَحوهُ مِنْ إِسْقاطِ كِسفٍ مِنَ السَّماءِ عليْهِم، عُقوبَةً لَهُم وتَنْكيلًا بِهِم، وتَحْقيقًا لِاسْتِعْجالِهِمُ العَذابَ، وليكونَ عِلمًا مَعْروفًا بَيْنَ الأَنامِ، زَجْرًا ورَدْعًا لِمَنْ يَسيرُ على شاكِلَتِهِم.

بَلاغَةُ الاسْتِئْنافِ البَيانيِّ بِـ﴿إِنَّهُۥ﴾:

الإِشْعارُ بِضَراوَةِ العَذابِ وشِدَّتِه وتَوَحُّشِهِ

لَمّا كانَ الحالُ موجِبًا لِلسُّؤالِ عَنْ عذابِ يَوْمِ الظُّلَّةِ، قالَ تَعالَى مُهَوِّلًا أَمرَهُ ومُعَظِّمًا قدرَهُ[2] ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾ على سَبيلِ الاسْتِئْنافِ البَيانيِّ، بَعْدَ أَنْ ذَكَرَ الخَبَرَ بِأَخْذِ عَذابِ يَوْمِ الظُّلَّةِ القَوْمَ، فذَكَرَ تَقْريرًا وافِيًا عَنْ كُنْهِ هَذا العَذابِ، وكَأَنَّ سائِلًا سَأَلَ: وما مِقْدارُ هَذا العَذابِ وما كُنْهُهُ؟ فقيلَ: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾؛ ففُصِلَتِ الجُملَةُ عَنْ سابِقَتِها لِشِبْهِ كَمالِ الاتِّصالِ، كَما يُفْصَلُ الجَوابُ عَنِ السُّؤالِ، ووَراءَ الفَصْلِ المُؤَسَّسِ على الاسْتِئْنافِ البَيانيِّ إِشْعارٌ بِضَراوَةِ العَذابِ وشِدَّتِه، وأَنَّهُ مِمّا يَهولُ النَّفْسَ ويُفْزِعُ القَلْبَ ويَصْدَعُ الفُؤادَ.

فائِدَةُ التَّأْكيدِ بِـ(إنّ):

أَفادَ التَّأْكيدُ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 334.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 92.

شِدَّةَ ضَراوَةِ عَذابِ يَوْمِ الظُّلَّةِ، فالتَّأْكيدُ راجِعٌ لِلْخَبَرِ ذاتِه ولَيْسَ لِلْمُخاطَبِ، تَأْكيدًا على هَوْلِه وفَظاعَتِه.

بلاغةُ مقتضى الحالِ في الإضمار من ﴿إِنَّهُۥ﴾:

تـهـويـلُ شَـأْنِ العَذابِ وتفخيمُ وقْعِه

الضَّميرُ في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾ يَعودُ على عَذابِ يَوْمِ الظُّلَّةِ، وهو آتٍ على مقتضى الظّاهر في إضمار المذكور، وعَوْدُ الضَّميرِ على العذاب بِصيغَةِ الغائِبِ إشارَةٌ إِلَى أَنَّه عذابٌ يُعرف بالإضمارِ والإظهار لهَوْلِه وشدّة وقعِه وأثره.

بَلاغَةُ تركيب الإسنادِ:

المعاني المهولةُ تـتـطـلّـب قـوَّةً تركيبيّةً

جاءَ المُسْنَدُ خَبَرُ (إِنَّ) جُملَةً مُكَوَّنَةً مِنْ كانَ واسْمِها وخَبَرِها: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾؛ ومَجيئُهُ على هَذا النَّحْوِ يوحي بِتَوَغُّلِه في الشِّدَّةِ وتَعَمُّقِه في الهَوْلِ، والمُسْنَدُ الآخَرُ في الجملَةِ خَبَرُ كانَ، والتَّقْديرُ: (كانَ العذابُ عذابَ يَوْمٍ عَظيمٍ)، وهوَ في الثّاني خَبَرٌ مُفْرَدٌ، لَكِنَّهُ مُضافٌ إِلَى مُضافٍ إِلَى مُضافٍ إِلَيْهِ، وهَكَذا يُشْعِرُكَ هَذا التَّداخُلُ والتَّرْكيبُ وتَتابُعُ الإضافاتِ بِثِقَلِ هَذا اليَوْمِ وشِدَّتِه وأَنَّ الوَصْفَ المُفْرَدَ لا يَنْهَضُ بِوَصْفِ عَذابِه وهَوْلِه.

دلالَةُ الإضافَةِ في قوله: ﴿عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾:

سِـنـةُ الـعـذابِ سَـنـةٌ وسَـنـةُ النّعيمِ سِنةٌ

إضافَةُ العَذابِ إِلَى اليَوْمِ في قول اللّه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾ للتَّخْصيص؛ فهي تَدُلُّ على أَنَّ اليَوْمَ كُلَّهُ كانَ عَذابًا، وحَسْبُكَ مِنْ يَوْمٍ يَشْتَدُّ عَذابُهُ ويَعْظُمُ مِنْ أَوَّلِه إِلَى آخِرِه دونَ تَوَقُّفٍ تَسْتَجْمِعُ فيه القِوَى والقُدَرَ، وفيه تصويرُ العذاب بأنَّه لليوم لا لغيره، مع طول زمانه، فإنَّ لحظاتِ العذاب تطول، بخلاف لحظات المتعة فقصيرة سريعة.

غَرَضُ تَنْكيرِ ﴿يَوۡمٍ﴾:

نُكِّرَ اليومُ في قول اللّه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾ للتَّهْويلِ والتَّفْخيمِ وبَيانِ شِدَّتِه على نُفوسِ القَوْمِ، وأَنَّهُ يَوْمٌ لا تُعْرَفُ لَهُ بِدايَةٌ ولا نِهايَةٌ.

نكتةُ وصْفِ ﴿يَوۡمٍ﴾ بصفة ﴿عَظِيمٍ﴾:

الإمعانُ في الدّلالَةِ على الشِّدَّةِ والتَّهْويل

وُصِف اليَوْمُ بِالعَظَمةِ في قول اللّٰه تعالى ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾، دونَ تَعْظيم العَذاب: إِمعانًا في الدّلالَةِ على الشِّدَّةِ والهَوْلِ وفَظاعَةِ ما وقَعَ فيه مِنَ الطّامَّةِ، والدّاهيَةِ التّامَّة، واسْتِدْلالًا به على شِدَّةِ العَذابِ؛ فإذا كانَ اليَوْمُ عَظيمًا مَهولًا فما بالُكَ بِالعَذابِ الواقِعِ فيه؟! وهذا أوقعُ في التَّهويل.

دلالةُ تنكيرِ ﴿عَظِيمٍ﴾:

تنكيرُ الأوصاف يُعطيها معنى الشّيوع والذّيوع

نُكِّر وصْفُ ﴿عَظِيمٍ﴾ متابعةً للموصوف ﴿يَوۡمٍ﴾ في قول اللّٰه تعالى ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾، وفي ذلك إشارَةٌ إِلَى التَّهْويلِ والتَّفْخيم مِنْ شِدَّة ما وقَعَ في ذَلِكَ اليَوْمِ مِنِ انْتِقام وغَضَبٍ من رَبِّ العِبادِ على قَوْمٍ انتَهَكوا حُرْمَةَ العِبادِ والبِلادِ، وكَذَّبوا نَبِيَّ اللّٰه؛ فناسَبَ ذَلِكَ عَظَمَةُ العَذابِ وعَظَمَةُ اليَوْمِ، حَتَّى يُكافِئَ فِعْلَهُمُ الشَّنيعَ.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ١٩٠ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ١٩١﴾ [الشعراء: 190 - 191]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

تذْكيرُ المخاطَبين موطِنَ العبرةِ في الكلام المبين

لَمّا ذَكَرَ سُبْحانَهُ ما أَصابَ الأُمَمَ السّابِقَةَ - وآخِرَهُم قَومَ شُعَيْبٍ عليه السلام - مِنْ نُزولِ العَذابِ والهَلاكِ: ناسب أن يُذَكِّرَ أَهْلَ مَكَّةَ خصوصًا وعمومَ المخاطَبين بِأَنَّ ما حَدَثَ لِلْأُمَمِ السّابِقَةِ وهُم أَقْوَى وأَشُدُّ، يُمكِنُ أَنْ يَحْدُثَ لَهُم مَتَى ساروا في طَريقِ المُكابَرَةِ والضّلالِ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَأٓيَةٗۖ﴾: (أيي) أَصْلٌ يدلّ على النّظر، يُقال: تأيّا يتأيّا تأيّيًا، أي: تمكَّث، وتأيَّيْتُ بالمكان: إذا تحبَّست به وتثبتُّ[1]، ومنه الآية، وهي العلامة الواضحةُ الجليّة، والدّلالة، وتعني كذلك الأمرَ العجيبَ، والمعجزةَ الخارقةَ للعادة، والموعظةَ البليغةَ؛ فالآية هي النّظرة الثّابتةُ المتأنيّةُ للشّيء، والمقصود في قول اللّه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ﴾: أي: لَعلامةً ودلالةً لكلّ مهتدٍ، وعِظَةً لكلِّ معتبِرٍ.

المَعْنى الإِجْماليُّ:

القـــصـــص القرآني للاعتبار والاتعاظ

تُبيِّن الآيتان أنّ ما يقصُّه الحقُّ سبحانه في كتابه إنَّما هو للاعتبارِ والاتّعاظ، وأولى النّاس بذلك كُفّارُ قُرَيْشٍ، إِذْ كانَ حالُهُم كَحالِ أَصْحابِ الأَيْكَةِ، فقَدْ كان السّابقون أكثرَ منهم عددًا[2]، وأشدَّ قوةً، فما أغنَتْ عنهُم قوَّتُهم ولا كثرَتُهم، وما كانَ لهُم أنْ يُؤمِنوا حيثُ طَبَعَ اللّهُ على قلوبهم وأعمى أبْصارَهم.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أيّي)، والعسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 368، وابن السِّكّيت، إصلاح المنطق، ص: 217.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 19/ 187.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ التَّذييلِ بالآية:

تُختَتَمُ القَصَصُ ببارقِ العبَر

جاء قول الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ كالتَّذْييلِ المُسْتَقِلِّ لِلْقِصَّةِ المُبارَكَةِ، عَوْدًا إلَى ما افْتُتِحَتْ به السّورَةُ مِنَ التَّنْويه بالقُرْآنِ وكَوْنه الآيَةَ العُظْمَى، بما اقْتَضاهُ قَوْلُهُ: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝﴾ [الشُّعَراء: 2]؛ لِتُخْتَتَمَ السّورَةُ بإِطْنابِ التَّنْويه بالقُرْآنِ كَما ابْتُدِئَتْ بإِجْمالِ التَّنْويه بِهِ، والتَّنْبيه على أَنَّهُ أَعْظَمُ آيَةٍ اخْتارَها اللهُ أَنْ تَكونَ مُعْجِزَةَ أَفْضَلِ المُرْسَلينَ[1].

فائِدَةُ التَّأْكيدِ بـ﴿إِنَّ﴾ واللّام:

تأكيدُ المعاني يحسُن عند غفلةِ النّاس عنها

جاءَ قولُ اللّه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ مُؤَكَّدًا بإِنَّ واللّام لَلدّلالَةِ على تَمامِ العِبْرَةِ والعِظَةِ ممّا ذُكِرَ في قصّة أصحاب الأَيكة خاصّةً، وفي قَصَصِ الأَنْبياءِ السّابِقَةِ كلِّها، وأَنَّ مَنْ لَم يَعْتَبِرْ بِتِلْكُمُ الآيات يكونُ لاهيًا غافِلًا مُتَنَكِّبًا طَريقَ الهُدَى والرَّشادِ؛ فأكَّدتِ الآيةُ الحثَّ على الاعتبارِ لغفلةِ عموم النّاس عنه.

غرضُ تَقْديمِ المُسْنَدِ ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾:

توجيهُ الأفهامِ فيما يجبُ أن يكونَ موطِنَ اهْتِمامٍ

قُدِّمَ في قول اللّه تعالى ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ المُسْنَدُ - وهوَ الجارُّ والمَجْرورُ ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾، وهوَ خَبَرُ ﴿إِنَّ﴾ - على المُسْنَدِ إلَيْه - ﴿لَآيَةً﴾ وهوَ اسمُ ﴿إِنَّ﴾، مُؤَخَّر - للاهْتِمام بِشَأْنِ المُقَدَّم، وهوَ ما ذُكِرَ مِنَ القَصَصِ السّابِقَة؛ فقَدْ قَصَرَ الآيَةَ والعِبْرَةَ على كَوْنِها في قَصَصِهِم، كَما قالَ تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ﴾ [يوسف: 111]، وهوَ قَصْرٌ حَقيقيٌّ ادّعائيٌّ، إذْ لَيْسَتِ العِبْرَةُ مَقْصورَةً على قَصَصِ الأُمَمِ السّابِقَة، بَلْ توجَدُ فيها وفي غَيْرِها، كالمَوْتِ، والمَرَضِ، والذُّلِّ، والفَقْرِ؛ لَكِنَّهُ قَصَرَها عليْها لِيُؤَكِّدَ على أَهَمّيَّتِها في الاعْتِبارِ.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 19/ 188.

بلاغةُ استعمالِ حرفِ الظَّرفيَّة ﴿فِي﴾:

الظَّرْفيَّةُ في قول اللّه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ ظَرْفيَّةٌ مَجازيَّةٌ، حَيْثُ إِنَّ حرفَ الظّرفيّة ﴿فِي﴾ دخل على اسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾، والمُشارُ إِلَيْه المَظْروفُ مَعْنَويٌّ، وهوَ قَصَصُ الأُمَمِ السّابِقَةِ؛ على إرادةِ تَشْبيهه بالماديِّ المَحْسوسِ المُشارِ إليه، وذلك لتصوير المعنويّات وتشخيصها لشدَّة وضوحِها، وحسن بيانِها، بحيث لا يتجاوزُها العاقلُ إلّا ويعتبرُ بها؛ وهي بمثابة بئرٍ عميقٍ فيه منَ الكنوز ما يدعو الحريصَ على استخراجها واستنباطِها.

تنزيلُ المعنويّات منزلةَ الماديّات لتشخيصِها

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بِاسْمِ الإشارَةِ لِلْبَعيدِ ﴿ذَٰلِكَ﴾:

جاء التَّعبيرُ باسم الإشارَة ﴿ذَٰلِكَ﴾ لَلْبَعيدِ في قول اللّه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾، لتشخيص تِلْكَ القَصَصِ؛ فهي بمثابةِ الطّود الشّامخ، لا تخفى على ذي نظرٍ، كما أنَّها بعيدةٌ في الزّمن على الحقيقة.

معنى لام ﴿لَآيَةً﴾ ودلالتُها:

اللّام الدّاخلةُ على لفظِ الآية في قول اللّه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ لامُ التّوكيد، حيث دخلت على اسم ﴿إِنَّ﴾ لوجود فاصلٍ بينهما[1]؛ ففيه تنويهٌ بهذه الآية اليقينيَّة التي يجدر الاعتبارُ بها.

الابتلاء في الدنيا من علامات الدعوة إلى الإيمان

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بِلَفْظِ الآيَة:

لَفْظُ الآيَةِ في قول اللّه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ يَدُلُّ على العِظَةِ والحُجَّةِ والاعْتِبارِ، وأَنَّ ما حَدَثَ لَهُم عَلامَةٌ فارِقَةٌ في تاريخ الزَّمَن، وأمارَةٌ على إطلاقِ قُدْرَةِ المَلِكِ جَلّ في عُلاهُ، حَيْثُ لا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ في الأَرْضِ ولا في السَّماءِ؛ فالآية هي الشّيء الثّابت الجليّ، فهي واضحةٌ في مقاصدها، ثابتةٌ في معانيها، وهي أمرٌ بدهيٌّ ظاهرٌ للعقولِ.

الدّلالَةُ على العِظَةِ والحُجَّةِ والاعْتِبارِ

(1) ينظر: ابن جنّي، سِرّ صناعة الإعراب: 2/ 54، وابن الخبّاز، توجيه اللّمع، ص: 152، وبهجت عبد الواحد، الإعراب المفصّل لكتاب الله المرتّل: 8/ 165.

غرضُ تَنْكيرِ لفظِ الآيةِ:

تعظيمُ الآيةِ وتفخيمُها باعتبارِ أثرِها ومضمونِها

نُكِّرَ المُسْنَدُ إِلَيْه لفظُ الآيَةَ في قول اللّه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾ لِلتَّعْظيم والتَّفْخيم؛ فهي آيَةٌ لَيْسَتْ كَسائِرِ الآياتِ، ومُعْجِزَةٌ لَيْسَتْ كَباقي المُعْجِزات، فوراءَ التَّنْكيرِ تَضْخيمٌ لِشَأْنَ الآيَةِ وتَهْويلٌ لِقَدرِها؛ فهي آيَةٌ لا توصَفُ، وقَدْ عايَنَها النّاسُ وشاعَ أَمرُها فيهم[1].

سببُ إفرادِ لفظِ الآيةِ:

إرادةُ الجنسِ أو لتعدُّدِ القَصَصِ فيكونُ في كلِّ واحدَةٍ آيةٌ

أُفرد لفظُ الآيَة في قول اللّه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾ لِإرادَةِ الجِنْسِ، أَوْ لِأَنَّ في المَذْكورِ عِدَّةَ أَشْياءَ، في كُلِّ واحِدٍ منها آيَةٌ، فيَكونُ على التَّوْزيعِ[2]، وفي الإفرادِ دلالةٌ على قوّتِها رغم انفرادِها، وأنّها تُغني عمّا سِواها، وأنَّ عِمادَ العِبْرَةِ في تلكَ الآيةِ، وهي هلاكُ الأممِ السّابقةِ.

نكتةُ عدمِ تقْييدِ لفظ الآيةِ:

أُطلقَ لَفْظُ الآيةِ في قول اللّه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾، ولم تُقيَّد كأنْ يُقال: (إنَّ في ذلك لآيةً لكم): لإفادةِ العموم، للإشعارِ بأنَّها لكلِّ من اعْتَبَرَ بها؛ وهذا يعْكِسُ عظَمَتَها وفخامَتَها.

نوعُ واوِ ﴿وَمَا﴾ ودلالتُها:

الــواو تحتملُ الحالَ والعطفَ

الواو في قول اللّه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ تحتملُ أنْ تكونَ واوَ الحالِ، أي: والحالُ أنَّ أكْثرَهُم لا يعتبرونَ بتلكَ الآيةِ، مع قوّتِها وفخامَتِها، وتحتمل أنْ تكونَ عاطفةً للجمع بينَ حالين: حالِ الإثباتِ، وهي إثباتُ الآيةِ في قَصَصِهم والعِبْرةِ، وحالِ النّفي، وهي نفيُ اعتبارِ أكثرِهم أوِ اسْتِبصارِهم وإيمانِهم؛ وكلا الوجهينِ يحتمله المعنى.

دلالةُ (ما) النّافيةِ:

النّفيُ محمولٌ على قومِ شعيبٍ تصريحًا وكفّارِ قريش تلويحًا

جاءت (ما) نافيةً في قول اللّه تعالى ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾، لتنفيَ الإيمانَ عن أكثرِ المُتحدَّثِ عنهم، والكلامُ عن قوم شعيبٍ، كما

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 317.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 102.

يُفهم منَ السّياق القريب، أو عن أهل مكّة، إذ كان أكثرُهم حينَ نزول الآيات مشركًا، كما يُفهمُ منَ السّياق العامّ للسّورة، وكما جاء في أوّلها عن إعراضهم وتكذيبهم؛ وحملُها على قوم شُعَيبٍ تصريحًا، وعلى كفّارِ قُرَيشٍ تلويحًا أولى بِسَعَة دلالةِ الآيات القرآنيَّة.

دلالةُ ذكرِ فعل الكَون ﴿كَانَ﴾:

علمُ الله سابقٌ بِعَدَمِ إيمانهم

دخلت (ما) النّافيةُ على فعلِ الكَونِ في قول اللّه تعالى ﴿وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ للدّلالة على أسبَقيّةِ عِلم اللّه بعدم إيمانهم ماضيًا وحالًا ومستقبلًا، فهو نفيٌ قطعيٌ يبثُّ اليأسَ والقنوطَ في قلوبهم، ويقطعُ بعدمِ إيمانهم.

دلالةُ التّعبيرِ باسمِ التّفضيلِ:

إصرارُ معظم النّاسِ على الضّلالِ مع وضوحِ جهةِ الاعتبارِ

اسمُ التّفضيلِ (أكثر) في قول اللّه تعالى ﴿وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ دالٌّ على أنَّ الأغلبيّةَ لم تُؤمن، وأنَّ أكثرَ النّاسِ لا يرغبونَ بطريقِ الهُدى، ويُفضِّلونَ طريقَ الضّلالِ، كما قال تعالى ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ١٠٣﴾ [يوسف: 103]؛ والمعنى: ما تَنَبَّهَ عليها أكْثَرُهُم، ولا آمنَ باللّهِ[1]، إخبارًا عَنْهُم بِأنَّهُم مُصِرّونَ على الكُفْرِ بَعْدَ هَذا الدَّليلِ الواضِحِ[2]، واستعمالُ اسم التّفضيل هنا دالٌّ في المقابلِ على أنَّ هناك من آمن واختار طريقَ الهدايةِ؛ وهذا من دقّة القرآن، ومراعاةِ قيَم الهداية والدّعوة.

بلاغةُ التّذييلِ:

الأملُ منقطعٌ في إيمانِ الأكثرِ، وما على الرَّسولِ إلّا البلاغُ

قول اللّه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ جملةٌ قطعيَّةٌ يقينيَّةٌ بانعدامِ الأملِ في إيمانِ أكثرهم، رغم جهود شُعَيب عليه السلام في دعوة قومه وهدايتهم، وهكذا شأنُ كلِّ داعيةٍ، عليه أن يبذُلَ قُصارى جُهده في تبليغِ دعوةِ ربِّه، ولا يربطُها ببُلوغِ الغايَةِ وتحقيقِ النّتيجةِ، فلْيعلمَ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 317.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 19/ 102.

أنَّ أكثرَ النّاسِ لا يَتَّبِعونَ الحقَّ، ولا يقبلونَ طريقَهُ، بل يتمسّكونَ بطريقِ الباطلِ والعصيانِ.

نُكتةُ استعمالِ مُفردةِ الإيمانِ:

إذا غاب الإيمانُ غاب معه الخيرُ كلُّه

نُفيَ الإيمانُ دونَ غيْرِه منَ الطّاعةِ والاستِقامَةِ في قولِه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ﴾؛ لشمولِ الإيمانِ لما سواهُ، ولأنَّ الإيمانَ هو بَذرةُ الهُدى في قلبِ المسلمِ، فمتى وُجِدتْ أثمرَتْ ما سواها، ومتى فُقدتْ أجْدَبَ ما حولها.

دلالةُ التَّعبيرِ باسم الفاعل ﴿مُّؤۡمِنِينَ﴾:

عدلُ الله بالغٌ كلَّ كافر

آثر النّظمُ الكريم التّعبيرَ بنَفيِ اسمِ الفاعلِ منَ الإيمان في قوله تعالى ﴿وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ﴾، دونَ الفعلِ، للدّلالةِ على ثبوتِ النّفيِ ودوامِه، وأنَّ اللّه سبحانه وتعالى يُحاسبُهم ويحكمُ عليهم باعتبارِ ما استقرَّ من حالهم.

بلاغةُ العطفِ بين الجمل:

تتوافقُ الجملُ في تعيينِ المقاصد وتبليغ المعاني

عُطف قولُ اللّه تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ على الآيةِ السّابقةِ؛ والوصلُ بين الآيتين بالواو للتّوسُّط بين الكمالين، حيث إنَّ كلتيهما خبريَّةٌ مؤكَّدةٌ بأكثرَ من مؤكِّد، وبينهما مناسبةٌ في المعنى، فالآيتان متوافقتان في توجيه رسالةٍ قويّةٍ للأمم المارقة، وهي أنَّ اللّه متى أراد إبادتَهم فعل، لكنّ رحمتَه تأبى أن يأخُذَهم بأوّل ظُلمهم، فيُمهلهم ولا يُهملهم.

فائدةُ تأكيد الجملة وغرضُه:

في مضامين التَّأكيد تعريضٌ وتنبيه

جاء في قول اللّه تعالى ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أكثرُ من مؤكِّد، وهي: (إنّ)، واللّام، وضمير الفصل، واسميّة الجملة؛ وهي ليست راجعةً لإنكار المخاطَب أو غيره، وإنّما لقوّة الخبر وأهمّيَّته، وخطورةِ التّغافل عنه، وضرورةِ الانتباه لمضمونه، وفي ذلك تعريضٌ صريح لأهل مكّة إن ساروا سَيرَهم في الانحراف والمكابرة والعناد.

فائدةُ إضافة لفظِ الرّبّ إلى الضّمير:

أُضيف لفظُ الرّبّ إلى ضمير الخطابِ الموجَّه إلى رسول اللّه ﷺ في قول اللّه تعالى ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ لتسليته ﷺ وتشريفه، وليدلّ على بسط المَلَكوت، وسَعة الرَّحَموت، فهو المُحسِن إليك بكلّ ما يُعلي شأنَك ويوَضِّحُ برهانك.

تشريفُ الرُّسُلِ إكرامُ العزيزِ وتوقير الرحيم

بلاغةُ القصر بضمير الفصل (هو):

قصرتِ الآيةُ الكريمة صفتَي العزّة والرّحمة على اللّه ﷻ في قول اللّه تعالى ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ قصرًا حقيقيًّا تحقيقيًّا، حيث إنَّ كلَّ رحيم أو عزيزٍ إنَّما يستمدُّ عزَّته ورحمته منَ اللّه تعالى؛ وهو قصرُ صفة العزّة والرّحمة على الموصوف وهو اللّه تعالى.

بيانُ قدرته على الانتقام متى شاء، لكنّ رحمته تمنعُ ذلك

معنى تعريفِ لفظَي ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾:

أفاد تعريفُ الاسمين الجليلين ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ كمالَ العزّة والرحمة، أي: الكامل في عزّته ورحمته؛ فلا شريكَ له في صفاته، ولا مثيلَ ولا مشابِهَ، وقد تجلّى الاسمان الجليلان في سورة الشّعراء في مواضعَ كثيرةٍ، فإنَّ إهلاكَ الظّالمين وعقوبتَهم الرّادعةَ من دلائل عزَّته تعالى، فهو الغالب الّذي لا يمتنع عليه شيءٌ، العزيزُ الذي يعاملُ العُصاةَ بما يستحقّونه من شديد عذابه.

كمالُ العزّة ترهيبٌ شديد، وكمالُ الرّحمة ترغيبٌ حميد

سرُّ اقترانِ صفتَي ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾:

جَمعتِ الآيةُ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ بين صفتَي العزّة والرّحمة، لمناسبة العزّة لمقام الانتقام والهلاك، ومناسبةِ الرحمة لمقام الإمهال قبل العذاب؛ فوصْفُ اللّه بالعِزَّةِ لبيانِ تَمامِ القُدْرَةِ على تعجيلِ العِقاب، ووصفُه بالرَّحْمَةِ لبيانِ أَنَّ في إمهالِهِم رَحْمَةً بِهِم لَعَلَّهُم يَشْكُرونَ، وفي وصْفِ الرَّحْمَةِ إيماءٌ إِلَى أَنَّهُ يَرْحَمُ رُسُلَهُ بِتَأْييدِه ونَصْرِهِ[1]، ومن عزّته تعالى أنّه إن رحِم لا يمنعُه مانعٌ، ولا يغلبُه غالبٌ؛

مناسبةُ العزّة لمقام الانتقام، ومناسبةُ الرّحمة لمقام الإمهال

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 19/ 102.

فهو الغالب، وهو تعالى الرّحيمُ بأوليائه، يلطف بهم، ويعصمُهم في قلب المحن والشّدائد وينجّيهم، وتتجلّى رحمته في إمهاله للعصاة، لعلّهم يرجعون، وقبولِه لهم إن رجعوا وتوبتِهم إن تابوا.

نكتةُ تقديم العزيز على الرّحيم:

مناسبةُ اسم العزيز لذكر الأمم الهالكة، ومناسبةُ الرّحيم لذكر أمّة الإسلام

قُدّم لفظُ العزيز في قول اللّه تعالى ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾، وهو بمعنى الغالب الذي لا يُقهَر، القويّ المتين المنتقِم: لقرب لفظِه من ذكرِ الأمم البائدة، التي أهلكها اللّه انتقامًا لأنبيائه، وأُخّر لفظُ الرّحيم؛ لقرب لفظِه من ذكرِ قريشٍ، قومِ رسول اللّه صلّي اللّه عليه وسلّم، الذين أمهلهم ورحِمهم إكرامًا لرسول اللّه.

وفي جميع المواضع التي اقترن فيها الاسمان الجليلان ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ تقدّمت فيها صفةُ العزّة لتناسُبِها مع سياقها من حيثُ إهلاكُ اللّه للعصاة؛ فهو العزيز الغالبُ القاهر القويّ، الّذي لا يمتنع عليه شيءٌ، ثمّ إنّ عزّته تتمثّلُ في قدرته جلّ شأنُه على تنفيذ إرادته، وإيصالِ رحَماته؛ فهو الرّحيم، وبعزّته يملك الرّحمة، ويقدر على إسباغها على من شاء منَ العباد، متى شاء في الزّمان، ثمّ هو الرّحيم بإهلاك أعدائه، نجّى بلطفه أولياءَه، وبرحمته أمهل العصاةَ، وبرحمته أنذرهم، وبرحمته تاب على من تاب منهم، وبرحمته بلّغ التّائبين منازلَ الأبرار؛ فهو العزيز، وهو الرّحيم.

بلاغةُ تَكرار جملة التّذييل في السّورة:

تقريرُ المعاني في الأنفُسِ وترسيخُها في النُّفوس

جاء تَكرارُ قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ١٩٠ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ في هذه القَصصِ السّبعِ؛ لأنَّ في التّكريرِ تقريرًا للمعاني في الأنْفُسِ، وترسيخًا لها في الصُّدور؛ مع تعليقِ كلٍّ واحدةٍ بعلّةٍ، وفنُّ التّكريرِ فنٌّ دقيقُ المأخذِ، عظيمُ التّأثيرِ، يقرعُ الآذانَ الصّمّاءَ فيُسمعُها الحقَّ، ويَصِلُ القلوبَ الغُلفَ فيُزيلُ

رانَها، ويفتحُ مغاليقَها، ويَجلو صدَأها[1]؛ ففيه فوائدُ جمَّةٌ لمن أرادَ أنْ يعتبرَ، وعظةٌ كُبرى لِمَنْ فتحَ قلبَهُ للإيمانِ، وحَرَص على الانتفاعِ بآثارِ مَنْ سبقوه.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الآيةُ والعلامةُ:

الآيةُ علامةٌ راسخةٌ على مرّ الزّمان، ظاهرةٌ للمعتبِرِ مِنَ الإنس والجانّ

الآية هي العلامةُ الواضحة الجليّة، وتعني كذلك الأمرَ العجيبَ، والمعجزةَ الخارقة للعادة؛ وآياتُ اللّه في الأنفُس والآفاق دالَّةٌ على كمال القدرة وجمالِ الصنعة، ولم تردِ العلامةُ في القرآن إلّا في قوله تعالى: ﴿وَعَلَٰمَٰتٖۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ١٦﴾ [النحل: 16]، أي الجبال والأنهار، كما في الآية السابقة لها: ﴿وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَأَنۡهَٰرٗا وَسُبُلٗا لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ١٥﴾ [النحل: 15]، أي: معالِم يهتدي بها المسافرون برًّا وبحرًا وجوًّا.

والعلاماتُ التي يُستدلُّ بها على الطرُق لا بدّ أن تكون واضحةً ثابتةً مستقرّةً، كالجبال والأنهار، فلا يصلح أن تكون متنَقِّلةً أو متغيِّرَةً، وأمّا الآياتُ، فهي مع ذلك أوضحُ مِنَ العلامات، وأكثرُ ظهورًا ورسوخًا، إذِ "الآيةُ هي العلامة الثّابتة، من قولك: تأيَّيْتُ بالمكان، إذا تحبّست به وتثبتُّ"[2]، فهي مِنَ الإقامة والقرار، لذا، فاستعمالُ لفظِ الآية في مثلِ قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ﴾ أبلغُ من استعمال لفظ العلامة - أي: لعلامةً واضحةً جليَّةً باقيةً لكلِّ معتبِر - وأوقعُ للدّلالَةِ على ثُبوتِ تأثيرها فيمنْ رآها أو سمِعها أو وصلتْ إليهِ.

(1) درويش، إعراب القرآن: 7/ 130، 135.

(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 368، وابن السّكّيت، إصلاح المنطق، ص: 217.

﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣
عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ ١٩٥﴾

[الشعراء: 192 - 195]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

الانتقالُ من سردِ قصص الاعتبارِ إلى كتابِ الاعتبار

بعد سرد القصص السّابقة، والتّعقيبِ على كلِّ قصة، انتقل السّياقُ للتّنويه بشأن القرآن، فإنَّه المعجزة الباقية التي لا تُضاهيها أيُّ معجزة؛ لا سيما أنَّه المعجزةُ التي كذَّب بها المشركون، ولم ينزل عليهم عذابٌ منَ اللّه بسبب تكذيبهم كما نزل على السّابقين، فهو انتقالٌ منَ القصص التي سيقت بغرضِ الاعتبار، إلى ذكر ما يجب أن يُعتبر به، وهو القرآن الكريم.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلرُّوحُ﴾: (روح) أَصْلٌ كَبيرٌ مُطَّرِدٌ يَدُلُّ على سَعَةٍ وفُسْحَةٍ واطِّرادٍ، وأَصْلُ ذَلِكَ كُلِّه الرّيحُ؛ وأَصْلُ الياءِ في الرّيحِ الواوُ، وإنَّما قُلِبَتْ ياءً لِكَسْرَةِ ما قَبْلَها، فالرّوحُ روحُ الإنْسانِ، وإنَّما هو مُشْتَقٌّ مِنَ الرّيحِ، وكَذَلِكَ البابُ كُلُّهُ، والرّوحُ: جَبْرَئيلُ عليه السلام؛ قالَ اللّه جَلَّ ثَناؤُهُ: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ﴾ وهو أمين وحي السّماء[1].

2) ﴿ٱلۡمُنذِرِينَ﴾: (نذر) كَلِمَةٌ تَدُلُّ على تَخْويفٍ أَوْ تَخَوُّفٍ؛ ومنه الإنْذارُ: الإبْلاغُ، ولا يَكادُ يَكونُ إلّا في التَّخْويفِ، وتَناذَروا: خَوَّفَ بَعْضُهُم بَعْضًا[2]، والإنذار: تخويفٌ مع إعلامِ موضع المخافة، من قولك: نذرتُ بالشّيء إذا علِمته فاستعددت له؛ فإذا خوّف الإنسانُ غيرَه وأعلمه حالَ ما يخوِّفه به: فقد أنذره، وإن لم يُعلِمه ذلك لم يُقل

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (روح).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نذر).

أنذره، والإنذار إحسانٌ منَ المُنذِر، وكلّما كانت المخافة أشدَّ كانت النّعمة بالإنذار أعظمَ؛ ولهذا كان النّبيّ صلّى اللّه عليه وآله وسلّم أعظمَ النّاس منّةً بإنذاره لهم عقابَ اللّه تعالى، والإنذار لا يكون إلّا بالزّجر عن القبيح وما يعتقد المنذرُ قبحَه(1).

3) ﴿بِلِسَانٍ﴾: (لسن) أَصْلٌ صَحِيحٌ واحِدٌ يَدُلُّ على طول لَطيفٍ غَيْرِ بائِنٍ، في عُضْوٍ أَوْ غَيْرِه، مِنْ ذَلِكَ: اللِّسانُ، مَعْروفٌ، وهوَ مُذَكَّرٌ، والجَمعُ أَلْسُنٌ، فإذا كَثُرَ فهيَ الأَلْسِنَةُ، ويُقالُ لَسَنْتُهُ، إذا أَخَذْتَهُ بِلِسانِكَ، واللَّسَنُ: جَوْدَةُ اللِّسانِ والفَصاحَةِ، واللِّسْنُ: اللُّغَةُ، يُقالُ: لِكُلِّ قَوْمٍ لِسْنٌ أَيْ لُغَةٌ(2)؛ والمقصود باللّسان في قول اللّه تعالى ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾: اللّغةُ، بدليل وصفه بالعربيّة والإبانة.

المَعْنى الإجْماليُّ:

أفضليّة التّنزيل والنّازِل به والمنزَلِ عليه

تُبيِّن الآيات أنَّ القرآن الكريم إنَّما هو تنزيلُ ربِّ العالمين، نزل به جبريلُ عليه السلام على قلب المصطفى صلى الله عليه وسلم، بغرض جعله آلةَ الإنذار، لعبادة ربِّ العباد، وقدِ اختار سبحانه العربيَّةَ لغةَ القرآن، لِما تحويه من قوَّة البيان، وبراعةِ الفصاحة، وجمالِ البلاغة؛ فهي حجَّة اللّه على عباده، ومعجزةُ الإسلام الخالدة.

وقدِ اجتمعت في هذه الآيات أعظمُ الأوصاف لكتاب اللّه عز وجل، حيث وصفت أفضل الكتب وهو القرآن الكريم، فجعلته أوّلًا تنزيلًا منَ اللّه ربِّ العالمين، ثمّ خصّصت مَن نزل به، وهو أمين وحي السّماء عليه السلام الذي هو أفضل الملائكة، على أفضل الخلق، على أفضل بَضعة فيه، وهي قلبه، الذي نقّاه اللّه من حظّ الشّيطان، على أفضل أمّة أُخرجت للنّاس، بأفضل الألسنة وأفصحِها، وأوسعِها، وهو اللّسانُ

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 78.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (لسن).

العربيّ المبين[1]؛ واختارتِ الآياتُ أشرف الألفاظ وأقواها وأظهرها، توافُقًا مع مقام كتاب اللّه جلّ شأنُه.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ عطفِ الآية على ما سَبق:

القـرآنُ قطعةٌ واحـدةٌ، مهما تباعدت جمَلُه، وطالت آياته

لمّا بدأ النّظمُ الكريم قصصَ الأنبياء في السورة المباركة، وشرع في عَدِّ آياتٍ على صِدْقِ الرَّسولِ ﷺ بِذِكْرِ عَواقِبِ المُكَذِّبينَ بِرُسُلِهِم: ناسب أن يختم بما بدأ به أوّلَ السّورة، وهو التّأكيدُ على صدق نبوَّته ﷺ وصدقِ القرآن، فقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، فبواوِ العَطْفِ اتَّصلَتِ الجُملَةُ بِالجُمَلِ الَّتي قَبْلَها، وبِضَميرِ القُرْآنِ في قوله ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ اتَّصلَ غَرَضُها بِغَرَضِ صَدْرِ السّورَةِ[2]؛ وكَأَنَّهُ عادَ أَيْضًا إِلَى ما افْتَتَحَ بِهِ السّورَةَ مِنْ إِعْراضِ المُشْرِكينَ عَمّا يَأْتيهِم مِنَ الذِّكْرِ، لِيَتَناسَبَ المُفْتَتَحُ والمُخْتَتَمُ[3]، فوُصِل بين هذه الآية وما سبقها من مفتتح السورة الكريمة إيذانًا بأنّ ما ذُكر إنّما ذُكر تسريةً وتسليةً لرسول اللّه ﷺ، واستدلالًا على صدقه وصدق القرآن.

بلاغةُ التَّأكيد في الآية:

ردُّ الإنـكـار ودحضُ الجَحد مـن وظـائـف التَّوكيد

التَّأْكيدُ بـ(إِنَّ) ولامِ الابْتِداءِ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ لِرَدِّ إِنْكارِ المُنْكِرينَ[4]، ودَحض جَحد الجاحدين، من مشركي مكّة وغيرهم الذين ادَّعَوْا أنّ القرآن من كلام محمّد، وذلك مُشارٌ إليه في أوّل السّورة: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ٣ إِن نَّشَأۡ نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةٗ فَظَلَّتۡ أَعۡنَٰقُهُمۡ لَهَا خَٰضِعِينَ ٤ وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ مُحۡدَثٍ إِلَّا كَانُواْ عَنۡهُ مُعۡرِضِينَ ٥ فَقَدۡ كَذَّبُواْ﴾ [الشعراء: 3 - 6]؛ فغرضُ التَّأكيدِ على بابه في الرَّدِّ على المنكرين المكذِّبين.

(1) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 597.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 19/ 102.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 188.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 19/ 188.

نكتةُ عودِ ضميرِ ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ على غير مذكور:

شهرةُ شأنِ القرآن لم تُحْوِج إلى التَّصريحِ به

الضَّميرُ في قول اللّه تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ عائدٌ على القُرْآنِ، أَي: إِنَّهُ لَيْسَ بِكَهانَةٍ ولا سِحرٍ، بَلْ هوَ مِنْ عِنْدِ اللّه[1]، ورجع الضّمير إلى القرآنِ، مع عدم ذكره قريبًا: لشهرة شأنِه، وفرَط تعيّنه؛ وهذا يدلُّ على فخامة شأنِه، وأنَّه منَ الظّهور بحيث لا يخفى عند جميع المخاطَبين، المؤمنِ منهم والكافرِ.

غرضُ استعمال مصدر التّنزيل:

المبالغةُ في الوصف، حتّى كأنّ المُنَزَّل نفسُ التّنزيل

جاء الإخبار عنِ القرآن بلفظ التّنزيل في قول اللّه تعالى ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ - والتَّنْزِيلُ مَصْدَرٌ بِمَعْنَى المَفْعولِ - لِلْمُبالَغَةِ في الوَصْفِ، حَتَّى كَأَنَّ المُنَزَّلَ نَفْسُ التَّنْزِيلِ[2]، فوصفه بأنَّه (تنزيلٌ)، مع أنَّه (مُنزَّلٌ): أبلغ من أن يقال: (منزّل ربِّ العالمين)، مبالغةً في التّنويه بشأن القرآن، وتشريفًا وتعظيمًا لكتاب اللّه، وإيجازًا في العبارة.

بلاغةُ التّعبير بالتّنزيل دون الإنزال:

نُزولُ القرآنِ مُفرَّقًا دليلٌ بيِّنٌ على الحكمة والعلم

التّعبيرُ بـ﴿لَتَنزِيلُ﴾ مصدرًا للفعل المضعَّفِ (نزَّل) في قول اللّه تعالى ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، دون المصدر (إنزال) للفعل (أَنزَل): للإشارةِ إلى ثِقَلِ القُرآنِ وهو يتنزَّلُ على رسولِ اللّه ﷺ؛ وهذا ما يتوافقُ مع ما كان يحدُثُ لرسولِنا الكريم من تعرُّق وقتَ نُزولِ الوحْيِ لِثِقَلِه عليْه، وممّا يُفيدُه التَّضعيفُ كذلكَ: نزولُ القرآنِ الكريمِ مُفرَّقًا في أوقاتٍ مُتعدِّدةٍ، لتثبيتِ فؤادِ النَّبيِّ ﷺ، حيثُ لم يَنزِلْ جُملةً واحدةً.

فائدةُ إضافةِ ﴿لَتَنزِيلُ﴾ إلى ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾:

ما كان مِنَ اللّه فهو شريفٌ عظيم

أفادت الإضافةُ في قولِه تعالى: ﴿لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ وهي بمعنى (مِن)، أي: (تنزيلٌ مِن ربِّ العالمين): صلاحيّةَ هذا التّنزيل، ليكون

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 188.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 19/ 188.

دستورًا لجميع العالمين، حيث نزّله ربُّ العالمين موافِقًا لقدراتهم، نافعًا لهم في أمر دينهم ودنياهم وآخرتهم، وهو ربُّهم وأعلمُ بهم ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ١٤﴾ [الملك: 14]؛ مع ما في الإضافة منَ التَّشريف والتَّعظيم لهذا القرآن، والإيجاز في العبارة.

مناسبةُ اختيارِ عنوان الرّبوبيَّة:

تنزيل القرآن من معالم ربوبيّته سبحانه

آثر النَّظمُ عنوانَ الرّبوبيّة في قوله تعالى ﴿لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ للإيذانِ بأنَّ تنزيلَه من أحكام تربيته تعالى ورحمته بالعالمين؛ فهو المُنَزِّل، وهو الرّبّ، والرّبُّ أعلم بما يُصلِح خلقَه وعباده، ومِن ثَمّ نزّل القرآنَ دستورًا لهم، يضمن لهم صلاحَ الدّين والدّنيا.

معنى تعريف ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾:

التَّعريف في لفظ ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ للجنس، أي جنسِ العالمين؛ ليشمل بذلك عالَمَيِ الجنّ والإنس، وهم المخاطَبون بالتّكليف.

علَّةُ فصل الآية:

احتمالُ كمال الاتّصال وشبهه

جاء قولُ اللّه تعالى ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ﴾ مفصولًا عمّا قبله، ويمكن توجيهُ الفصل بأنّ الجملة صفةٌ لـ﴿لَتَنزِيلُ﴾[1]، فالقرآن تنزيلٌ موصوفٌ بأنّه ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ﴾، ويجوز أن تكون الجملة خبرًا ثانيًا لـ﴿وَإِنَّهُۥ﴾، فيكون من تعدّد الخبر، تعظيمًا لشأنِ القرآن بتعدّد الخبر عنه؛ وحينئذٍ يكون الفصل داخلًا في باب الفصل بين المفردات، حيثّ إنّ الجملة في محلِّ رفع خبرٍ ثانٍ لـ(إنَّ).

ويحتمل الفصلُ أن يكون استئنافًا بيانيًّا، لتكون الآيةُ جوابَ سؤالٍ تقديرُه: مَن نزل بالقران، وعلى من نزل؟[2] فجاءت جملة ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ﴾ بمثابة الجواب عن هذا السؤال المقدَّر في النّفس، ففُصلت عن سابقتها كما يُفصل الجوابُ عنِ السؤال؛

(1) درويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه: 7/ 137.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 19/ 188.

وسرّ الفصل هو شِبهُ كمال الاتّصال، والفصل هنا يستقصي الهواجسَ النّفسيّةَ والمعانيَ والخواطر التي تجول بقلب المخاطَب، لتأتي إجابتُها في الجملة التالية.

نكتة التّعبير بلفظ ﴿نَزَلَ﴾:

النـزول الجمليّ هو النزول الأول إلـى السماء الدنيا

لمّا كان النّزول دفعيًّا، والتّنزيل للتّدريج، عبّر هنا بالفعل ﴿نَزَلَ﴾ الذي مصدره النّزولُ؛ ليدلّ على نزوله دفعةً واحدةً ليلةَ القدر منَ اللوح المحفوظ إلى سماء الدّنيا، ثمّ نزل بعد ذلك مفرَّقًا منجّمًا على النّبي صلّى اللّه عليه وآله وسلَّم في ثلاث وعشرين كما وردت به الرّواياتُ[1].

نكتةُ مجيء الفعل ﴿نَزَلَ﴾ ماضيًا:

الـوعـدُ بـنـزول القـرآن الكريم كلِّه

لمّا كان القرآنُ ينزِل تدريجيًّا كان التّعبير بصيغة الماضي ﴿نَزَلَ﴾ في قول اللّه تعالى ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾، دون أن يقال (يَنزِل)، وهذا من مجيء الكلام على خلاف مقتضى الظّاهر؛ لأنَّ الآية الكريمة نزلت والقرآن ما زال يتنزَّل؛ ونكتة ذلك: الوعدُ الضِّمنيّ باكتمالِ نزولِ القرآنِ على قلب رسولِ اللّه ﷺ، فإنَّ الإخبار عنِ النّزول هو لا باعتبار ما نزل فحسب، بل باعتبار ما نزل وما سينـزلُ، وهذا كقوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ [النحل: 1].

قَرَأَ نافِعٌ وابْنُ كَثِيرٍ وأَبو عَمرٍو وحَفْصٌ وأَبو جَعْفَرٍ بِتَخْفيفِ زاي ﴿نَزَلَ﴾ ورَفْعِ ﴿ٱلرُّوحُ﴾: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾، وقَرَأَ ابْنُ عامِرٍ وحَمزَةُ والكِسائيُّ وأَبو بَكْرٍ عَنْ عاصِمٍ ويَعْقوبُ وخَلَفٍ ﴿نَزَّلَ﴾ بِتَشْديدِ الزّاي ونَصْبِ ﴿ٱلرُّوحَ ٱلْأَمِينَ﴾: ﴿نَزَّلَ بِهِ ٱلرُّوحَ ٱلْأَمِينَ﴾، أَيْ: نَزَّلَهُ اللّهُ بِهِ[2]، والقراءة الأولى جعلت جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ فاعلًا، فهو

---

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 79.

(2) ابن مجاهد، السّبعة في القراءات، ص: 165، وابن الجزري، النشر: 2/ 336، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 188.

أمينُ وحي السَّماء، والواسطةُ بين اللّه ورسوله، وعلى القراءة الثانية فاعلُ التّنزيل هو الضّمير المستتر العائد على اللّه تعالى، وهي تجعل تكليفَ التّنزيل أمرًا مباشرًا وتكليفًا منَ اللّه لجبريل ﷺ؛ وفي هذا اهتمامٌ بشأن القرآن الكريم، والقراءتان أفادتا أنَّ الإنزال ابتداءً كان بأمر اللّه تعالى، وأنّ جبريل هو من تولّى ذلك.

دلالةُ الجارّ والمجرور في: ﴿بِهِ﴾ ومعناه:

نــزولُ جبريل مُصاحِبٌ لنزولِ القرآنِ

الباءُ في قَوْلِه تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ﴾ لِلْمُلابسةِ والمصاحبة[1]، أي: مصاحبًا له؛ وهي تدلُّ على أنَّ نزوله بالقرآن كان وظيفةً خاصّةً بأمين الوحي جبريل ﷺ، والجارّ والمجرور في موضع الحال، وهي حالٌ مقيِّدٌ لعاملِه؛ فالنّزول ملتبس بالقرآن مصاحبٌ له لا يفارقه.

فائدةُ تقديم شِبه الجملة ﴿بِهِ﴾:

قدَّم النَّظم الكريم الجارَّ والمجرور ﴿بِهِ﴾ من قوله تعالى ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ﴾ على ما هو فاعلٌ في قراءة الرّفع، ومفعولٌ في قراءة النّصب؛ لأنّ القرآن هنا محطُّ الاهتمام؛ فقدَّمه لكون ذكرِه أهمَّ، فهو محورُ الحديث، ومرتكزُ الكلام.

نكتةُ التّعبيرِ بلفظ ﴿ٱلرُّوحُ﴾:

القـرآنُ يُحيي القلوبَ الموات ويُنهض النُّفوسَ الفوات

﴿ٱلرُّوحُ﴾ من قول اللّه تعالى ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ﴾ هو جبرئيل ﷺ، وهوَ لَقَبُهُ في القُرآنِ، سُمّيَ روحًا لِأَنَّ المَلائِكَةَ مِنْ عالَمِ الرّوحانيّاتِ، وهيَ المُجَرَّداتُ[2]، ولِما ينزل به منَ القرآن الكريم الذي هو روحٌ للنّاس، فهو مصدرُ الإحياء بعد موت القلوب والنّفوس؛ فهي تسميةٌ ملحوظٌ بها الأصلُ، والمآل.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 19/ 188.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 19/ 188.

نكتةُ الوصفِ بصفة ﴿ٱلۡأَمِينُ﴾:

صفةُ الأمين هي مرتكزُ أداءِ الرسالة

الأَمينُ من قول اللّٰه تعالى ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ﴾ صِفَةُ جِبْرِيلَ عليه السلام؛ لِأَنَّ اللّٰه أَمنه على وحْيِهِ[1]، وفي الوصف إشارةٌ إلى كونه معصومًا من كلِّ دَنَس، فلا يمكن منه خيانةٌ[2]؛ لأنَّ الموضع موضعُ أداء الأمانة وهي الرّسالة؛ فالوصف قطعٌ لألسنة المتقوِّلين على الرّسول والقرآن والوحي.

دلالةُ التَّعبير بصيغة ﴿ٱلۡأَمِينُ﴾:

أمانة الرسول مبعث على اطمئنان المرسل إليه

صفةُ ﴿ٱلۡأَمِينُ﴾ من قول اللّٰه تعالى ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ﴾ على وزن (فَعيل)، فهي صيغةُ مبالغةٍ؛ والمرادُ منها: المبالغةُ في اتِّصافه عليه السلام بصفةِ الأمانة، في إيصال الوحي، دون زيادة أو نقصان.

بلاغةُ استعمالِ حرف الاستعلاء ﴿عَلَىٰ﴾:

نزولُ القرآن على قلب المصطفى تمكُّنٌ راسخ

حرف ﴿عَلَىٰ﴾ استُعمل في قول اللّٰه تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ﴾ لِلاسْتِعْلاءِ المَجازيِّ؛ لِأَنَّ النُّزولَ وُصولٌ مِنْ مَكانٍ عالٍ فهوَ مُقْتَضٍ اسْتِقْرارَ النّازِلِ على مَكانٍ، ومَعْنَى نُزولِ جِبْريلَ على قَلْبِ النَّبيِّ عليه الصلاة والسلام: اتِّصالُهُ بِقوَّةِ إِدْراكِ النَّبيِّ لِإِلْقاءِ الوَحْيِ الإِلَهيِّ في قوَّتِه المُتَلَقّيَةِ لِلْكَلامِ الموحَى بِأَلفاظِه؛ ففِعْلُ ﴿نَزَلَ﴾ حَقيقَةٌ، وحَرْفُ ﴿عَلَىٰ﴾ مُسْتَعارٌ لِلدّلالَةِ على التَّمَكُّنِ مِمّا سُمّيَ بِقَلْبِ النَّبيِّ[3].

بلاغةُ المجازِ المُرسَل في ذكر القَلب:

القلبُ محلُّ الوعيِ والتَّثبيت والحفظ

آثر النّظمُ ذِكرَ القلب في قوله تعالى ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ﴾ دون أن يُقال (عليك)، من باب المجاز المرسَل، بإطلاق الجزء وإرادة الكل؛ لِأَنَّ القلبَ مَحَلُّ الوَعْيِ والتَّثْبيتِ، وليُعْلَمَ أَنَّ المُنَزَّلَ على قَلْبِه عليه السلام مَحْفوظٌ، لا يَجوزُ عليْه التَّبْديلُ ولا التَّغْييرُ[4].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 19/ 188.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 96.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 189.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 188.

وقد أُسقِطَتِ الواسطةُ إشارةً إلى أنّه - لشدّة إلقائه السّمعَ وإحضاره الحِسَّ - يصير في تمكُّنه منه بحيث يحفظُه فلا ينسى، ويفهمُه حقَّ فهمه فلا يخفى؛ فدخوله إلى القلب في غاية السّهولة، حتّى كأنّه وصل إليه بغير واسطة السّمع، عكس ما يأتي عنِ المجرمين، وهكذا كلُّ من وعى شيئاً غايةَ الوعي يحفظُه كلَّ الحفظ(1).

دلالةُ الإضافة في ﴿قَلۡبِكَ﴾:

قلبُ رسولِ اللهِ أشرفُ القلوبِ وأعلاها وأضبطُها وأوعاها

أُضيف لفظُ القلب إلى الكاف في قول اللّه تعالى ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ﴾، وهي خطابٌ للنّبيّ ﷺ، أي: على قلبك يا محمّد، الذي هو أشرفُ القلوب وأعلاها، وأضبطُها وأوعاها، فلا زيغَ فيه ولا عِوَج(2)؛ فهي إضافة تشريفٍ وتعظيمٍ لقلب رسول اللّه، الذي هو قطعةٌ منه.

نوعُ لامِ ﴿لِتَكُونَ﴾ ودلالتُها:

تعليلُ النّزول بيانٌ لوظيفةِ الرّسول

اللّام في قول اللّه تعالى ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ﴾ لتعليل ما سبق، أي: نزل القرآن لتكونَ منَ المُنذرين المُخَوِّفين المُحَذِّرين لمن أعرض عنِ الإيمان، وفعَلَ ما نُهيَ عنه منَ العصيان(3)، فاللّام للتّعليل، أي تعليلِ النّزول على قلب النّبيّ ﷺ؛ لأنَّ الإنذار يكون بعد حفظه، فهي عِلَّةٌ في التَّنْزيلِ أَوِ النُّزولِ؛ واقْتُصِرَ على ذكر الإنذار؛ لِأَنَّ ذَلِكَ أَزْجَرُ لِلسّامِعِ، والمقام مقامُ تخويف وتحذير(4).

نكتةُ التّعبيرِ بفعل الكون ﴿لِتَكُونَ﴾:

الإيماءُ إلى أصالة اتّصافه عليه السلام بصفةِ النِّذارة

استعمل النّظم الكريمُ فعلَ الكَون في قوله تعالى: ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ﴾ للإشعارِ بأنَّ وصف الإنذار صفةٌ ملازِمةٌ لرسول اللّه

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 97.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 96.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 97.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 188.

ﷺ، أي: الاتّصاف على جهة الجبلَّة والوصف اللّازم؛ فهو ﷺ منذِرٌ أصالةً بتحذير النّاس منَ الشَّرِّ، وتنبيهِهم على مواضع الباطل.

نوعُ ﴿مِنَ﴾ وبلاغتُها:

رسولُ الله درّةُ قلادةِ سائر المنذرين

آثر النّظمُ الكريم أن يأتي وصفُ النّبيّ ﷺ بجعله من جملةِ المنذِرين باستعمال حرف ﴿مِنَ﴾ الدّالّ على التّبعيض في قوله تعالى: ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ﴾، دون أن يُقال: (لتكون منذرًا)؛ وذلك للإشعار بانتظامِه ﷺ في سلك أولئك المشهورين بتلك المزيّةِ الجليلة، والمنقبةِ الفاضلة، المذكورين في قصص السّورة الكريمة؛ وهي الرّسالةُ الإلهيّة بالإنذار، فهو واحدٌ منهم، سائرٌ على منهجهم، وهذا التّبعيضُ يدلّ على اتّفاق جميع الأنبياء على منهج التّوحيد وأصل العبوديّة.

معنى تعريفِ ﴿ٱلۡمُنذِرِينَ﴾:

منهج الأنبياء واحد، ورسالتهم واحدة

دلّت (أل) الدّاخلةُ على لفظِ المنذِرين من قول الله تعالى: ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ﴾ على العهد الذّهنيّ؛ فأنبياء الله معهودون معروفون بمنهجهم القويم، ودعوتِهم إلى الإصلاح في كلِّ زمانٍ ومكانٍ.

دلالةُ التّعبيرِ باسم الفاعل ﴿ٱلۡمُنذِرِينَ﴾:

الوصفُ المشتقّ (منذِرٌ) في قوله تعالى: ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ﴾ اسمُ فاعلٍ من (أنذر)، وهو جامعٌ للاسميّة الدّالّة على الثّبات، والفعليّةِ الدّالّة على التّجدّد والاستمرار.

مناسبةُ الاقتصارِ على الإنذار دون التّبشير:

انتقاءُ الألفاظ معذوقٌ بمقصد السورة وسياقِها

اقتصر النَّظمُ الكريم على ذكر الإنذار دون التّبشير في قوله تعالى: ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ﴾، وذلك لِأَنَّه أَخَصُّ بِغَرَضِ السّورَة، فإنَّها افۡتُتِحَتۡ بِذِكۡرِ إِعۡراضِهم وإِنۡذارِهم[1]؛ والمقامُ مقامُ زجرٍ وتخويف وبيانٍ لعلّة نزول القرآن، وكَبۡح جِماح النّفس عنِ الشّهوات

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 19/ 196، 197.

أشقُّ على المسلم من حثّها على الطّاعات، والزّمن الذي نزلت فيه السّورة كان الشّركُ طامًّا، والكفرُ مسيطرًا، فناسب ذكرَ الإنذار مراعاةً لِما عليه غالبُ حال الناس.

بلاغةُ التّعريضِ في ذكر الإنذار:

الإنذار يستلزمُ وقوعَ المنذَر منه

قولُ اللّه تعالى: ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ﴾ فيه تعريضٌ بتقرُّرِ وقوعِ العذاب المنذَرِ به إن لم يؤمنوا بالقرآن وبنبوّة سيّدنا محمّد ﷺ، إيذانًا بأنَّهم في ذلك ليسوا بدعًا ممَّن سبقهم؛ فإنَّ الإنذار يستلزمُ وقوعَ المنذَر منه، وهو هنا عذاب اللّه تعالى في الدّارَين.

توجيهُ تعلُّقِ الجارّ والمجرور ﴿بِلِسَانٍ﴾:

عربيّةُ القرآن إقامةٌ للحجّة على المخاطَبين من قريش

يحتمل أن يكون الجارُّ والمجرورُ ﴿بِلِسَانٍ﴾ في قول اللّه تعالى ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ﴾ متعلّقًا بالفعل ﴿نَزَلَ﴾، ليدلَّ على أنّ رسول اللّه ﷺ كان يتلقّى من جبريل كلامَ اللّه بحروفٍ عربيّة، أي: نزل جبريل عليه السلام على قلب المصطفى بلسان عربي مبين؛ ولمّا كان القصدُ مِنَ السّورة التّسليةَ عن عدم إيمانهم بأنّه لسُفولِ شأنهم، لا لخللٍ في بيانه، ولا لنقصٍ في شأنه، قال تعالى موضِّحًا: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ﴾[1]، ويحتمل أن يكون متعلِّقًا باسم الفاعل ﴿ٱلۡمُنذِرِينَ﴾، أي: لتكون مِنَ الذين أنذَروا بهذا اللّسان، ليُقيم الحجَّة البالغة عليهم فلا عذرَ لهم.

بلاغةُ التّقديم والتّأخير:

تقديمُ مواضعِ الاهتمام أرسخُ في قدحِ الأذهان

على القول بتعلُّقه بفعل النّزول أوِ التّنزيل، أُخِّر شِبهُ الجملة ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ﴾ في النّظم الكريم، وقُدِّم ﴿عَلَىٰ قَلۡبِكَ﴾، فقال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ﴾، ولم يجئِ النّظم: (نزل به الرّوح الأمين بلسانٍ عربيّ مبين على قلبك لتكون من المنذرين)، للإشعار بأنَّ محطّ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 97.

النّظر وابتداءَ الأمر في ذكر الحالةِ الأهمِّ والأخصِّ بأن يكون تنزيلُه على قلب رسول اللّه ﷺ ليحفظَه ويَعيَه، ثمّوصفُ حالةٍ أخرى له، وهي أن يكون بلسان عربي مبين، بعد أن حفظه رسول اللّه ووعاه.

التّأخيرُ للتّصريح بعد التّضمين، والإجلاء بعد الإخفاء

كما أنَّ النّزول على قلب سيّدنا رسول اللّه ﷺ لدلالته على فهمه ووعيه وحفظه يقتضي أن يكون بلسانٍ عربيٍّ مبين، فلو نزل بلسان أعجميٍّ لكان نازلًا على سمع رسول اللّه ﷺ دون قلبه؛ فيكون ذكر اللّسان العربيّ المبين تصريحًا بما عُلم ضمنًا، لأهميَّة هذا الوصف، فهو مدحٌ للّسانِ العربيّ، ولتوكيد مقتضاه، من بلوغ رسالة الإنذارِ المخاطَبين بها منَ العرب.

رسالةُ المنذِرين واحدةٌ، وإن تعدّدت لغاتُهم

وفي تأخير شِبه الجملة فائدةٌ أخرى، هي الاعتناء بأمر الإنذارِ، والإيماءُ إلى أنَّ مدارَ كونِ الرّسول من جُملة المنذِرين المذكورينَ عليه السلام: مجرّدُ إنزال القرآن عليه، لا إنزالُه باللِّسان العربيِّ؛ فلغاتُ الرّسُلِ المُنذِرين متعدّدة، لكنَّ رسالةَ الدعوة إلى التّوحيد والإنذارِ منَ الشِّرك واحدةٌ[1].

بلاغةُ المجاز المرسَل في ذكر اللّسان:

بيانُ القرآن لسانٌ ذَلِقٌ، تُسابق معانيه ألفاظَه

لفظُ اللّسان في قولِ اللّه تعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ مجازٌ مرسَلٌ، علاقته الآليّة، حيث ذُكِرت آلةُ النّطق وهي اللّسان، وأريد المنطوقُ وهو اللّغةُ؛ ونكتةُ ذلك هو المبالغة في بيان القرآن وتصويره.

نكتةُ الجمعِ بين وصفَيْ ﴿عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾:

الإبانةُ صفةُ القرآن، وخصّيصتُه التي امتاز بها

يحتمل أن يكون الوصفان بالعربيّة والإبانة في قول اللّه تعالى ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ لموصوفٍ واحد وهو (اللّسان)، ويحتمل أن تكون صفة العربيّة تقييدًا للّسان، وصفةُ الإبانة تقييدًا لصفة ﴿عَرَبِيٍّ﴾؛ فلمّا كان في العربيّ ما هو حوشيٌّ لفظًا أو تركيبًا، مشكِلٌ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 335، وأبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 189، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 264.

على كثير منَ العرب، قال: ﴿مُّبِينٖ﴾ أي بيِّنٌ في نفسه، كاشفٌ لما يُراد منه، غيرُ تاركٍ لبسًا عند من تدبّره[1].

دلالةُ صيغة ﴿مُّبِينٖ﴾ بين اللّزوم والتّعدية:

إبانةُ القرآن ذاتيَّة ومتعدّيةٌ لغيرِها

﴿مُّبِينٖ﴾ من قول الله تعالى ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ﴾ اسمُ فاعلٍ من (أبانَ)، يأتي لازمًا ومتعدّيًا، والمعنى على اللّزوم: (بَيِّنٌ) في نفسه، كاشِفٌ لما يُراد منه، غيرُ تاركٍ لبسًا عند من تدبَّره، على ما تتعارفه العرب في مخاطباتها من سائر لغاتها بحقائقها ومجازاتها، على اتِّساع إرادتها وتباعُد مراميها في محاوراتها، وحُسنِ مقاصدها في كناياتها واستعاراتها، ومن يحيط بذلك حقَّ الإحاطة غيرُ العليم الحكيم الخبير البصير[2]؟! والمعنى على التّعدية: مُبينٌ لغيره طريقَ الحقِّ من الباطل، والنّورِ من الظّلام.

بلاغةُ استعمال مفردة ﴿مُّبِينٖ﴾:

الإيماءُ إلى اشتمالِه على أسبابِ الصِّدقِ والحقِّ

وفي الوصف بالإبانة في قول الله تعالى ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ﴾ إيماءٌ إلى أنّه بنفسِه دليلٌ على حقّيَّته وصدقِه وكونِه من عند الله تعالى، وأنَّ ذلك من الوضوح والظهور بمكانٍ، بحيث لا يحتاج دليلًا عليه، ولا برهانًا بين يديه[3]؛ ومن ثمَّ فلا حجَّة لكم في الإعراض عنه وعدم الإيمان به.

نكتةُ تقديمِ وصف ﴿عَرَبِيّٖ﴾ على ﴿مُّبِينٖ﴾:

كمالُ العربيّة لم يكن إلّا بالقرآن، وإبانةُ القرآن لا تكون إلّا بالعربيّة

قُدِّم وصف ﴿عَرَبِيّٖ﴾ على وصف ﴿مُّبِينٖ﴾ ليدلَّ على شرَف هذه الأمّة وقوَّة فصاحتها، حيث نزل القرآن بلسانهم، كما أنَّ فيه تخصيصًا بعد التَّعميم، بتأخير الوصف ﴿مُّبِينٖ﴾، ولو قُدِّم لاحتمل أن يكون مُبينًا بغير العربيّة؛ فدلَّ تقديم ﴿عَرَبِيّٖ﴾ على كمال العربيّة وشرفِها بين اللغات، فهو من باب وصف العامِّ بالخاصِّ.

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 97.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 98، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 19/ 190.

(3) ابن التَّمجيد والقونوي، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 13/ 312.

بلاغةُ التّعريضِ في ذِكر عربيّة القرآن وإبانتِه:

إعـــراضُ المشركين بسبب استكبارهم، لا لِعَدَمِ فهمِهم

قوله تعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ﴾ فيه تعريضٌ بالمشركين، وتقريعٌ لهم بأنَّ الّذي حملهم على التّكذيب هو الاستكبار والعناد، وليس عدمَ الفهم؛ لأنَّ القرآن نزل بلغتِهم، وهو واضحٌ مُبين، فلا عذرَ لهم في الإعراض عنه؛ كما أنَّ فيه تعريضًا لكلِّ من لم يؤمن بالقرآن، بأنَّه لا عذرَ له بعد قيام الحجّة، ووضوحِ البرهان.

غرضُ تنكير ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ﴾:

جاءت الألفاظ الثّلاثةُ ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ﴾ نكرةً للتّعظيم والتّفخيم، وإشارةً إلى أنّه نزل بأعظمِ لغة لأشرفِ أمّة، وبلَغ غايةَ الإفصاح والإبانةِ والوضوح.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإبانةُ والظّهورُ والبدوُّ:

الإبانةُ الإفصاح، والبدوُّ يكون بغير قصد، والظّهورُ بقصدٍ وبغير قصد

الظّهور يكون بقصد وبغير قصد، تقول: استتر فلان ثمّ ظهر، ويدلُّ هذا على قصده للظّهور، ويُقال: ظهر أمرُ فلان وإن لم يقصد لذلك؛ فأمّا قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ﴾ [الروم: 41] فمعنى ذلك الحدوثُ، وكذلك قولك ظهرتْ في وجهه حمرةٌ، أي: حدثت، ولم يُقصدْ أنّها كانت فيه فظهرت.

أمّا البدوُّ فهو لِما يكون بغير قصد، تقول: بدا البرق، وبدا الصّبحُ، وبَدَتِ الشّمسُ، وبدا لي في الشّيء، لأنّك لم تقصد للبُدُوِّ[1]، وأمّا الإبانة فهي الوضوح والظّهور والإفصاح؛ ففيها معنى الفصاحة، بخلاف البدوِّ والظّهور، وتستعمل الإبانةُ مع اللّسان والقول، لذا ناسب أن يوصف اللّسانُ بالمبين في قول اللّه تعالى ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ﴾.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 343، 344.

﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٩٦﴾ [الشعراء: 196]

مُناسَبَةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

الجمعُ بين الدّليل الرّوحيّ والمادّيّ على صدق القرآن

هَذا تَنْويهٌ آخَرُ بِالقُرْآنِ بِأَنَّه تُصَدِّقُهُ كُتُبُ الأَنْبياءِ الأَوَّلينَ[1]، حيث نوَّهتِ الآيات السّابقةُ بصدق القرآن، وبعدم تحريفه لصدق مُنزِله وأمانته، وبوعي رسول الله له بقلبه؛ وقد أردف في تلك الآية دليلًا مادّيًّا ملموسًا على ذلك بذكر القرآن بمعناه وأحكامه في كتب الأمم السابقة، ليجمع بين الدّليل الرّوحيّ المعنويّ والدّليل المادّيِّ على صدق ما يقول.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿زُبُرِ﴾: (زبر) أصل يدلّ على قراءةٍ وكتابةٍ، يُقال: زبرت الكتاب إذا كتبته، ومنه الزّبور؛ وربّما قالوا زبرته إذا قرأته، ويقولون في الكلمة أنا أعرِفُ تَزْبِرَتي، أي: كتابتي[2]، والزَّبْرُ: الكتابة، والزِّبْر الكتاب، والجمع زُبور، مثل: قِدْر وقُدور، ومنه قرأ حمزة وخلف العاشر: ﴿وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زُبُورٗا ١٦٣﴾ [النساء: 163][3]؛ أمّا الزَّبور على قراءة الجمهور ﴿وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ١٦٣﴾ [النساء: 163] فهو الكتاب المَزْبور، والجمع زُبُر، كما قالوا: رَسول ورُسُل، وكلاهما في معنى مفعول، وقد غلب الزَّبور على صُحُف داود على نبيّنا وعليه السلام، وكلُّ كتابٍ زَبورٌ، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ﴾ [الأنبياء: 105][4]، وقال هنا ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾، أي في كُتُب السّابقين.

المَعْنى الإِجْماليُّ:

أصول القرآن وأمّهات فروعه وكثيرٌ من قصصه في كتب الأوّلين المضبوطة

لَمّا كان الاستكثارُ من الأدلَّة ممّا يُسَكِّن النّفوسَ، وتطمئِنُّ به

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 19/ 190.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (زبر).
(3) ابن الجزريّ، النّشر: 2/ 253.
(4) ابن منظور، لسان العرب: (زبر).

القلوبُ، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي هذا القرآن أصولُه وكثيرٌ من قَصصه وأمَّهاتِ فروعه في كتب الأوّلين المضبوطة، الظّاهرةِ في كونها أتتْ منَ السّماء، إلى أهلها الذين سكنتِ النّفوس إلى أنّه أتتهم رسلٌ، وشُرعت لهم شرائعُ نزلت عليهم بها كتب؛ من غير أن يخالط هذا النّبيُّ الذي جاء بالقرآن أحدًا منهم أو من غيرهم في علمٍ ما، فكان ذلك دليلًا قاطعًا على أنّه ما أتاه به إلّا اللّه تعالى[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

مناسبةُ الوصل في مطلع الآية:

تتوافق الجُملُ في توكيد المضامين والاستدلالِ عليها

جاءت هذه الآية ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ موصولةً بالواو عطفًا على قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ للتوسُّط بين الكمالَين، حيث اتّفقتِ الجملتان في الخبريّة لفظًا ومعنًى، والضّميرُ فيهما عائدٌ على القرآن، وقدِ اجتمع في الجملتين إثباتُ أنَّ القرآن تنزيلٌ منَ اللّه تعالى، وأنَّه في الكتب السّابقة؛ لتكون الجملةُ المعطوفة كالدَّليل على مضمون الجملة المعطوفِ عليها.

فائدةُ حشْدِ المؤكِّدات:

تتابعُ المؤكِّدات لدفعِ أباطيلِ المُرجِفين، وتكذيبِ الأفّاكين

جاء قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ مؤكَّدًا بأكثرَ من مؤكِّد، وهو (إنَّ)، و(اللّام)، واسميَّةُ الجملة؛ وذلك لدفع إنكار القوم، ومقاومةِ جَحدهم، والدّلالةِ على صدق رسول اللّه ﷺ فيما أخبرهم به منَ القرآن والوحي، تأكيدًا على أنّه ليس بِدعًا منَ الرُّسُل، بل أتى بما أتَوا به، وإنّما هو مذكورٌ في كتبهم وشرائعهم التي لا تُنكرونها أنتم.

نكتةُ تَكرارِ الضَّمير المقصودِ به القرآنُ:

عاد الضّمير في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ على ما

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 98، 99.

شأنُ القرآنِ عظيمٌ يُعرف بالإضمارِ والإظهار

عاد عليه الضّمير في قولِه تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ وهو القرآن، حيث أفادَ أنَّه عاد على القرآن بما اتّصف به من كونِه تنزيلَ ربِّ العالمين، وكونِه قد نزل به الرّوح الأمين على قلبك إلى آخر الأوصاف الشّريفة، ففيه تنويهٌ بشأنِ القرآن وأنّ أوصافه المذكورةَ موجودةٌ في كتب الأوّلين المأثورة عن أنبيائهم الذين بشّروا به في أزمانِهم؛ وفي ذلك منَ المبالغة في تعظيم القرآن ما فيه.

دلالة استعمالِ حرفِ الظَّرفيّة (في):

الحقُّ راسخٌ في الأصولِ ثابتٌ في مصادره

أفاد حرف الظّرفيّةِ في قولِه تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِي زُبُرِ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ تشبيهَ الكتب السّابقة بالظَّرف، وأنَّ ذكرَ القرآن مظروفٌ فيها، فمن راجعها وجد فيها نعتَ القرآن، وصفتَه، وهديَه، وذِكرَ من يُنزَل عليه، فهي دعوةٌ ضمنيَّة للمراجعة والتّحقيق والتّدقيق، ورسالةُ هذا الحرفِ عظيمةٌ، إذ إنَّها تعني الاعتناءَ بالبحث عنِ الحقِّ وتمحيصَه من مصادره وأصوله؛ ومثل هذا التّوجيه لا يكون إلّا عنِ الحقِّ، لو أنَّ أهل الباطلَ فقِهوه.

نكتةُ استعمالِ مُفردة ﴿زُبُرِ﴾:

عمومُ الزُّبرِ للعَريق منَ المكتوب والمقروء

المقصود بالزُّبُر في قول اللّه تعالى ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِي زُبُرِ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ كُتُبُ السّابقين؛ وعبَّر بهذه المفردة لاشتمالِها على المكتوب والمقروء، ممّا نزل على مَن قبْلَهم منَ الأمم السّابقة التي لا ينكرونها، لتكون دليلًا على صدق القرآن، ويُلاحَظ أنَّ الزّبر يُستعمل في وصف الكتب القديمة، وهذا يدلُّ على أنَّ ذكرَ القرآن قديمٌ في ذكرِه، عريقٌ في أصالته.

معنى تعريف ﴿ٱلۡأَوَّلِينَ﴾:

التَّعريفُ في لفظِ ﴿ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ من قول اللّه تعالى ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِي زُبُرِ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ للعهد الذّهنيّ، أي الأوّلين منَ الأمم السّابقة، المعهودين في أذهانكم، الذين نزلت عليهم الكتب السّابقة، والذين تعايشونهم.

بلاغةُ الكناية في: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِي زُبُرِ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾:

لمّا أخبر اللّه تعالى أنَّ القرآن بما اتّصف به من كونه تنزيلَ ربِّ العالمين، وأنَّه قد نزل به جبريل على قلب سيّدنا رسول اللّه ﷺ بلسانٍ عربيٍّ مبين، ثم أخبر أنَّ القرآنَ المُنَزّل مذكورٌ في زُبر الأوّلين: أفاد بلازمِه أنَّ ذكر رسول اللّه ﷺ الذي نزل عليه القرآن، ووصفَ رسالتِه في زبر الأوّلين كذلك، ولهذا أخبر اللّه تعالى عن عيسى عليه السلام قوله: ﴿وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ﴾ [الصف: 6]؛ فكانتِ الجملة كنايةً بالتّبعيّة عن ذكر رسول اللّه في كتبهم والتّبشير به.

ذكرُ القرآنِ في كتب السّابقين يستلزمُ ذكرَ رسول الله في كتبهم

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الزُّبُر والكُتُب:

الزَّبْر الكتابةُ في الحَجَر نَقرًا، ثم كثُر ذلك حتّى سُمّيت كلُّ كتابة زَبرًا؛ وأكثرُ ما يقال الزَّبْر وأعرَفُه: الكتابة في الحَجر، وأهل اليمن يسمّون كلَّ كتابةٍ زَبرًا، وأصل الكلمة: الفخامةُ والغِلَظ، ومنه سُمّيت القطعة من الحديد زُبرَةً، والشَّعر المجتَمِع على كتِف الأسد زُبرَةً، وزَبَرتُ البئر إذا طويتُها بالحجارة، وذلك لغلظ الحجارة؛ وإنّما قيل للكتابة في الحَجَر زَبرٌ لأنّها كتابةٌ غليظة، ليس كما يكتب في الرُّقوق والكواغد، ويجوز أن يقال: الزَّبور كتابٌ يتضمّن الزَّجر عن خلاف الحقِّ، من قولك: زَبَرَه إذا زَجَرَه؛ وسمّي زبور داود لكثرة مزاجره، وقال الزّجّاج: الزّبور كلُّ كتاب ذي حكمة[1]، أمّا الكُتُب فهي كلّ مكتوب بأوراق وصحائفَ.

الكتبُ ما في أوراقٍ وصحائِفَ، والزُّبُر ما في الحَجَر، وما فيه غلظةٌ وزَجْر

---

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 265.

﴿أَوَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ ءَايَةً أَن يَعۡلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ١٩٧﴾

[الشعراء: 197]

❁ مُناسَبَةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لّما تحدثّتِ الآية السّابقة عنِ القرآن وأنَّه في كتب السّابقين، وذكْرِ دليلَين على صدقه، أحدُهما غيبيٌّ، والآخر مادّيّ، وهو ذكره في كتب السابقين: ناسب أن يُشير إلى دليلٍ آخر، وهو علِم أحبار اليهود به في كتبهم، وهذه آية قطعيَّة، وحجّة على أهل مكّة في صدق كتاب اللّه تعالى، وصدقِ رسوله؛ فهو انتقالٌ من عموم الكتب السّابقة، إلى خصوص علماء بني إسرائيل.

الانتقالُ من عمومِ الكتب السّابقة إلى خصوصِ علماء بني إسرائيل

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

تُبيِّن الآية الكريمة بطريق تثوير العقل أنَّ منَ الآيات العظيمة على صدق القرآن: علمَ أحبار اليهود بشأنه؛ وهو الدّليلُ الواضحُ على صدق الرّسول والرّسالة.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ العطفِ بالواو:

الواو في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ ءَايَةً أَن يَعۡلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ عاطفةٌ، إمّا على محذوفٍ مقدَّر بعد الاستفهام، والتّقدير: (أتعامَوْا ولم يكن لهم آيةً أن يعلمَه علماءُ بني إسرائيل؟)، أو على ما قبل الاستفهام من قول اللّه تعالى ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِي زُبُرِ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾، فإذا جعلناها محمولةً على الوصل، على اعتبار أنَّ الاستفهامَ مقدَّمٌ عن تأخير، والواو عاطفةٌ على ما سبقها، وكان لازمُ الآية السّابقة ما تقديرُه: (ألم تكن لهم أمارةٌ على صدق ذلك أن يطلبوا تلك الزُّبُرَ فينظروا فيها، ليصلوا إلى حقِّ اليقين؟): عُطف عليه قوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ﴾[1].

التّنويهُ بشأن القرآنِ يقتضي جملًا متكاثراتٍ متتابعاتٍ

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 99.

ولمّا كان الاستفهام على معنى التّقرير كانت الجملة في حكم الجملة الخبريَّة، فالجملتان خبريَّتان من حيث المعنى، والوصل للتّوسُّط بين الكمالَين؛ ومناسبةُ الوصل هي أنَّ الغرض منَ الجملتين معًا: التّنويهُ بشأن القرآن، فباعْتِبارِ كَوْنِ هَذِه الجُملَةِ تَنْوِيهًا آخَرَ بِالقُرْآنِ عُطِفَتْ على الجُملَةِ الَّتي قَبْلَها[1].

غرضُ الاستفهام وبلاغتُه في: ﴿أَوَلَمۡ﴾:

الاستفهامُ لتقرير المجادلين، والإنكار على الجاحدين

الاستفهام في قول الله تعالى ﴿أَوَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ ءَايَةً أَن يَعۡلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ يُحمَل على التّقرير عند جمهور المفسِّرين، فهو استفهام تقريريّ خبريّ، وعليه فقد جاء الوصل بالواو عطفًا على الخبر السّابق، والمعنى: (قد كان علمُ علماء بني إسرائيل لهم آيةً على صدق القرآن)؛ وهو تقريرٌ وتأكيد على وروده في علوم الأمم السابقة وكتبهم.

وإذا حُمل الاستفهام على الإنكار، على طريقة الزّمخشريّ في مثل تلك الاستفهامات، كان المعنى أنّه ينكرُ على أهل مكة تكذيبَهم بالقرآن وأمامَهم دليلٌ وآيةٌ على صدقه، وهو علمُ أحبار أهل الكتاب، فقد كانوا يسألونهم ويثِقون فيهم؛ ولا مانعَ من اجتماع الغرضَين، فإنَّ النِّكاتِ لا تتزاحم.

دلالةُ النّفي بأداة (لَم):

انطماسُ البصائر عنِ الاعتبار كبرٌ وعنادٌ

آثر النَّظمُ الكريم النَّفيَ بحرف (لم) في قول الله تعالى ﴿أَوَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ ءَايَةً﴾، وهي أداةُ نفيٍ وجزمٍ وقَلْبٍ، تدخل على مضارع اللَّفظِ، فتصرِف معناه إلى المضيِّ[2]، وقد استعمل النَّظمُ هذا الحرفَ دون غيره من أحرف النّفي لِما يتضمنه من قصدِ إدخال الفعل المضارع بعدَه، المفيدِ لنفي الماضي في جميعِ أزمانه، أي: أَوَلم يكن -

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 19/ 192.

(2) المراديّ، الجنى الدّاني، ص: 44.

في أيِّ وقتٍ من الأوقات - علمُ اليهود آيةً لهم؟، ويوحي هذا الحرفُ بانطماسِ بصائرهم عنِ الاعتبار والرّجوع إلى الحقِّ كِبرًا وعِنادًا.

غرضُ تقديم شبْه الجملةِ ﴿لَّهُمۡ﴾:

الاهتمامُ بمقاصد الكلام من مسالك النّظم الكريم

قُدِّم الجارُّ والمجرور ﴿لَّهُمۡ﴾ في قول اللّه تعالى ﴿أَوَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ ءَايَةً أَن يَعۡلَمَهُۥ عُلَمَـٰٓؤُاْ بَنِيٓ إِسۡرَـٰٓءِيلَ﴾ على اسم ﴿يَكُن﴾، وهو المصدر المُؤَوَّل مِن ﴿أَن﴾ والفعل ﴿يَعۡلَمَهُۥ﴾، أي عِلمُ بني إسرائيل؛ لأنَّهم محطُّ الاهتمام، وموطِنُ الشّاهد؛ وعلى إنكارهم وجحدهم تدورُ رحى الإخبار.

نكتةُ التّعبير بلفظ ﴿ءَايَةً﴾:

قوّةُ البيان ووضوح الحجّة وظُهور الدّلالة مجتمعةٌ في لفظِ الآية

آثر النّظمُ الكريم استعمالَ مفردة ﴿ءَايَةً﴾ في قول اللّه تعالى ﴿أَوَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ ءَايَةً أَن يَعۡلَمَهُۥ عُلَمَـٰٓؤُاْ بَنِيٓ إِسۡرَـٰٓءِيلَ﴾، والآية هي الدّليل والبرهان؛ فعبَّر بها لِما تحويه هذه المفردةُ منَ الحجَّة الدّامغة، والبرهان السّاطع، والظّهور البيِّن، ليُزيل ما خيَّم على عيونهم من غِشاوة الإنكار والجَحد، بحيث لا تبقى لهم حجَّةٌ بعد أن استبانوا واستوثقوا من أهلِ الكتاب.

غرضُ تقديمِ المسنَد ﴿ءَايَةً﴾ على المسند إليه:

مدارُ البراهين والأدلّة على العلم الصَّحيح الصّادق

قُدِّم المسنَد ﴿ءَايَةً﴾ على المسنَد إليه ﴿أَن يَعۡلَمَهُۥ﴾ في قول اللّه تعالى ﴿أَوَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ ءَايَةً أَن يَعۡلَمَهُۥ عُلَمَـٰٓؤُاْ بَنِيٓ إِسۡرَـٰٓءِيلَ﴾ للتّشويق لمعرفةِ المسنَد إليه، وللاهتمام بمضمون الجملة، وهو علم علماء بني إسرائيل، وفي هذا التَّقديم إلماحٌ إلى عناية القرآن بالعلم، وهو اعتناءٌ راجع لاهتمام الإسلام بإعلاء شأن العقل، والتّشويقِ إلى المؤخَّر، وهو علم اليهود.

دلالةُ التّعبير بالمصدر المؤوّل ﴿أَن يَعۡلَمَهُۥ﴾:

العلمُ المتجدِّدُ أوضحُ حجّةً من المعرفةِ الكامنة

جاء التَّعبير باسم ﴿يَكُن﴾ مصدرًا مؤوَّلًا من ﴿أَن﴾ والفعل ﴿يَعۡلَمَهُۥ﴾ في قول اللّه تعالى ﴿أَوَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ ءَايَةً أَن يَعۡلَمَهُۥ عُلَمَـٰٓؤُاْ

﴿بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ لأنَّه أخصُّ وأعرف وأوضح من ذكْرِ المصدر[1]، وذلك للدّلالة على أنَّ علم علماء بني إسرائيل بالقرآن كان قائمًا حاضرًا وقتَ إنكار المشركين للقرآن؛ فاحتجَّ عليهم بذلك من خلال التَّعبير بالمصدر المؤوّل، لاستمرارِه ولعدم تقييده بقيد أو وصف، بمعنى أنَّ مطلق العلم به حاصلٌ.

دلالةُ استعمالِ مُفردة ﴿يَعۡلَمَهُۥ﴾:

استعمالُ مفردةِ العلم في قوله تعالى: ﴿أَن يَعۡلَمَهُۥ عُلَمَـٰٓؤُاْ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ يدلُّ على يقينيّة الدّليل والبرهان على صدق القرآن، بما ثبت من علم أهل الكتاب، الموثوقِ به لدى المشركين.

بلاغةُ الاتِّساق في الإضمار في قوله: ﴿يَعۡلَمَهُۥ﴾:

الإضمارُ إذا ارتبط بالعظيم كان أقوى من اللّفظ الصّريح

يعود الضّميرُ - في الآيات السّابقة - في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ﴾ وقوله ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِي زُبُرِ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾، وفي قوله هنا: ﴿أَن يَعۡلَمَهُۥ﴾ على القرآن، وهو الظّاهر، أي: أن يعلمَ القرآنَ، وأنَّه من عند الله، علماءُ بني إسرائيل، وقد يعود على الحكمِ المذكور في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِي زُبُرِ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾، والمعنى: (ألم يكن لأهل مكة آيةٌ أن يعلمَ علماءُ اليهود أنّ القرآن مذكورٌ في كُتُبهم؟) فعَودة الضَّمير على القرآنِ من غير سابقِ ذكرٍ صريحٍ له في المواضع كلِّها دليلٌ على أنَّ مدار السّياق في شأنِ القرآن العظيم؛ وهذه الضّمائر لهي أقوى تعبيرًا من اللّفظ الصَّريح، وأحلى مذاقًا منَ الشّهد المعتَّق، وأقوى دلالةً منَ الاستدلال الصّحيح.

نكتةُ إيثارِ الوصف بالعلماء:

التَّنبيهُ على صفة العلمِ وأثرِها في الإقرار بالحقِّ

آثر النَّظمُ الكريم استعمالَ مفردة ﴿عُلَمَـٰٓؤُاْ﴾ في قول الله تعالى ﴿أَوَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ ءَايَةً أَن يَعۡلَمَهُۥ عُلَمَـٰٓؤُاْ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾، دون الأحبار أوِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 99.

الرّبانيّين، للتّنبيه على صفة العلمِ على وجه الخصوص، فإنَّ العلماء همُ الذين يستحضرون أثرَ العلم في الحياة، ويعملون على تحقيقه وتثبيته؛ وللإيماء إلى أنَّهم علماء، يعلمون حقائق المعاني والدّلالات؛ بالإضافة إلى ثقة أهلِ مكَّة بهم فيُقِرّوا به ولا ينكروه، ليؤمن به القوم ولا يهجروه، فإنَّ قريشًا كانوا كثيرًا ما يرجعون إليهم، ويُعَوِّلون في الأخبار الإلهيّة عليهم، فإنَّ كثيراً منهم أسلم وذكر تصديقَ التّوراة والإنجيل والزّبور وغيرها من أسفار الأنبياء ﷺ للقرآن في صفة النّبيِّ ﷺ، وفي ذلك ما يؤيّد صدقَه، ويحقّق أمره[1].

فائدةُ إضافةِ ﴿عُلَمَٰٓؤُاْ﴾ إلى ﴿بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾:

الأحبـارُ مصدرُ ثقةٍ لـدى أهل مكّةَ

أفادت إضافة ﴿عُلَمَٰٓؤُاْ﴾ إلى ﴿بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ في قول الله تعالى ﴿أَوَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ ءَايَةً أَن يَعۡلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ أنّ مَن يعلمُ حقيقةَ القرآن هم من يثق فيهم أهلُ مكّة من أحبار يهود، وعلماءِ بني إسرائيل؛ فلا حجَّة لهم بعد ذلك في الإنكار والجَحد، حيث أقرَّ لهم علماءُ بني إسرائيل بنبوّة رسول الله وبصدّقِ القرآن.

بلاغةُ التّعريضِ في ذكرِ عِلم الأحبار:

إقـامـةُ الحجَّة عـلى الـخـصـم بعلم الخصْم الألدِّ حجَّةٌ على الطَّرَفين

في قول الله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ ءَايَةً أَن يَعۡلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ تعريضٌ بالأحبار والرّهبان الذين لم يُعلنوا إيمانَهم برسول الله ﷺ، حيث أنكروا أن يكون القرآن من عند الله، وأنكروا رسالة نبيّنا محمَّد ﷺ، مع أنَّه معلومٌ لديهم بالبرهان، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٤٦﴾ [البقرة: 146]، وهو تعريضٌ مؤسَّسٌ على التّقرير لأهل مكّة بإخبار علماء بني إسرائيل لهم بصدّقِه حين يسألونهم، ومؤسَّسٌ كذلك على اعتراف علماء بني إسرائيل لهم بذلك.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 99.

﴿وَلَوۡ نَزَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ بَعۡضِ ٱلۡأَعۡجَمِينَ ١٩٨ فَقَرَأَهُۥ عَلَيۡهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ مُؤۡمِنِينَ ١٩٩﴾ [الشعراء: 198 - 199]

۞ مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

الانتقالُ من احتجاجٍ باهر، إلى احتجاجٍ قاهر

لمّا ذكرتِ الآياتُ السّابقة أنّ القرآن نزل بلسان عربيٍّ مبين، وأنّه مذكور في كتب السّابقين، نصّت هذه الآيةُ على أنّ القرآن لو نزل على أعجميٍّ من آحاد النّاس ما آمنوا به؛ فصارت مكمِّلةً لما سبقها في القطع بعدم إيمانهم، وأنَّ ذلك راجع لكِبْر في نفوسهم وتعنُّتٍ، وليس لعيب في كتاب الله، فهو انتقالٌ من احتجاجٍ باهر، إلى احتجاجٍ قاهر، ومن دليل ناصع، إلى برهان ساطع.

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡأَعۡجَمِينَ﴾: (عجم) أصلٌ يدلُّ على سكوت وصمت؛ ومنه الرّجُل الذي لا يُفصح، هو أعجمُ، والمرأة عجماءُ بيِّنةُ العُجمَة، ويقال عَجُم الرّجل، إذا صار أعجَمَ، مثل سَمُر وأدُم، ويقال للصَّبيِّ ما دام لا يتكلَّم ولا يُفصح: صبيٌّ أعجمُ، ويقال: صلاةُ النَّهار عَجْماءُ، إنّما أراد أنّه لا يُجهر فيها بالقراءة، وقولهم: العَجَمُ الذين ليسوا من العرب، فهذا من هذا القياس، كأنَّهم لمّا لم يَفْهَموا عنهم سَمَّوهم عَجَمًا، ويقال لهم عُجْم أيضًا[1]، فالأعجم: الذي لا يفصح، وفي لسانه عُجمةٌ واستعجام، والأعجميّ مثله؛ ولمّا كان من يتكلم بلسانٍ غيرِ لسانهم لا يفقهون كلامه، قالوا له: أعجم، وأعجمي، شبّهوه بمن لا يُفصح ولا يُبين[2]؛ ومن هذا المعنى قولُ الله تعالى ﴿وَلَوۡ نَزَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ بَعۡضِ ٱلۡأَعۡجَمِينَ﴾.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عجم).
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 336.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الكفرُ إنِ اقترن بالعنادِ فلا رجاء فيه

تُبيِّن الآيتان حالَ المشركين وعنادَهم وإصرارهم على رفض الحقِّ، في أنَّه لو نزل القرآنُ على بعض الأعجمين، وهم الذين لا يتقنون العربيَّة، فقرأه عليهم ما آمنوا، ولأصرّوا على كفرهم.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

مناسبةُ الوصل بالواو:

عطفُ الأدلّةِ النّاصعةِ على البراهين السّاطعة

جُملَةُ: ﴿وَلَوۡ نَزَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ بَعۡضِ ٱلۡأَعۡجَمِينَ﴾ مَعْطوفَةٌ على جُملَةِ: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ﴾؛ والوصل بينهما للتّوسُّط بين الكمالين، وقدِ اتّفقت الجملتان في الخبريّة لفظًا ومعنًى، والجُملُ المعطوف عليها تفيد أنّ القرآن من عند الله، وليس من تأليف النّبيّ ﷺ كما يدَّعي المشركون؛ فلَمّا فرَغَ مِنَ الاِسْتِدْلالِ بِتَعْجيزِهِم فضَحَ نيّاتِهم بِأَنَّهُم لا يُؤْمِنونَ به في كُلِّ حالٍ، كما قالَ تَعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٩٦ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ﴾ [يونُس: 96 - 97][1]، فوُصِل بينهما إكمالًا للاستدلال، وإتمامًا للدّليل والبرهان.

بلاغةُ مجيءِ الشّرط بأداة (لَوْ):

الامتناعُ عن الإيمان مردُّه على التَّحقيق إلى الكبر والعناد

جاء استعمالُ أداة (لو) في قول الله تعالى ﴿وَلَوۡ نَزَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ بَعۡضِ ٱلۡأَعۡجَمِينَ ١٩٨ فَقَرَأَهُۥ عَلَيۡهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ مُؤۡمِنِينَ﴾ دون سائر أدوات الشَّرط، وهي حرف امتناعٍ لامتناعٍ في الغالب، يدلّ على تعليق فعلٍ بفعلٍ فيما مضى؛ فيلزم من تقدير حصول شرطها: حصولُ جوابها، ويلزم كونُ شرطها محكومًا بامتناعه إذ لو قُدّر حصولُه لكان الجواب كذلك، فتصير حرفَ وجوب لوجوب؛ فهي حرف يقتضي فعلاً امتنعَ لامتناع ما كان يثبت لثبوته[2]، فإنزال القرآن على بعض الأعجمين

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 19/ 193.

(2) المراديّ، الجنى الدّاني، ص: 45، 46.

ممتنع، وثبوتُ نفي إيمانهم واقع؛ فقد أنكروا أن يكون القرآنُ كلامَ اللّه وقد نزل على رسول عربيّ، فكيف لو نزل على أعجمي؟! فامتناعُ نزوله على أعجميٍّ ليس هو المانعَ على التَّحقيق من الإيمان، وإنَّما هو افتراضٌ لبيانِ شدَّة إصرارهم على الكفر، فإنَّ للافتراضِ شأنًا في بيان الحقائق وإقامة الحجج، وغايةُ هذا الافتراض بأداة (لو): إلزامُهم الحجَّةَ بأنَّ عدمَ إيمانِهم سببُه الكفرُ والعناد.

دلالةُ استعمالِ صيغة (فعَّل):

التَّضعيفُ في فعلِ التّنزيل من قول اللّه تعالى: ﴿وَلَوۡ نَزَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ بَعۡضِ ٱلۡأَعۡجَمِينَ﴾ يُشيرُ إلى نزولِ القُرآنِ الكريم مُفرَّقًا في أوقاتٍ مُتعدِّدةٍ، لتثبيتِ فؤادِ النَّبيِّ ﷺ حيثُ لم يَنزِلۡ جُملةً واحدةً.

غرضُ إسنادِ الفعل إلى نون العظمة ﴿نَزَّلۡنَٰهُ﴾:

شأن الإنـزال أن يكون شريفًا

أُسند فعلُ (نزَّل) إلى نون العظمة في قول اللّه تعالى: ﴿وَلَوۡ نَزَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ بَعۡضِ ٱلۡأَعۡجَمِينَ﴾ لتشريف شأنِ الإنزال، وتعظيم القرآن، وإكساب الثِّقة فيه؛ فهو نازلٌ من عند ربِّ السّماوات.

تعيينُ مرجع ضمير ﴿نَزَّلۡنَٰهُ﴾:

الإضمار للتعظيم والتعريف

ضميرُ المفعول في فعلِ التّنزيل من قول اللّه تعالى ﴿وَلَوۡ نَزَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ بَعۡضِ ٱلۡأَعۡجَمِينَ﴾ راجعٌ للقرآن، وهو مندرج في سِلك سِمَة الإضمار في التّعريف بالقرآن في هذا السّياق: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ﴾، ﴿نَزَلَ بِهِ﴾، ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِي زُبُرِ﴾، ﴿أَن يَعۡلَمَهُۥ﴾.

نكتةُ التّعبير بلفظ ﴿بَعۡضِ﴾:

الـدّلالـةُ على العموم المطلق

استعمل النّظمُ الكريم لفظَ ﴿بَعۡضِ﴾ في قوله تعالى ﴿وَلَوۡ نَزَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ بَعۡضِ ٱلۡأَعۡجَمِينَ﴾ للعموم والإبهام؛ لأنَّه ليس المقصودُ بعضًا بعينه، أو فِرقةً مخصوصة، أو طائفةً معلومة؛ بلِ المرادُ بعضُ الأعجمين مطلقًا، إذ لا غرضَ يُستفاد منَ التّحديد والتّعيين، والمهمّ هو الخُلوصُ إلى الغرض المَسوقِ له الكلامُ.

بلاغةُ استعمالِ مُفردة ﴿ٱلۡأَعۡجَمِينَ﴾:

براءةُ الرَّسول من تهمةِ القوم وبيانُ أنَّ سببَ عدمِ الإيمان العنادُ الشَّديد

لفظُ ﴿ٱلۡأَعۡجَمِينَ﴾ في قول اللّه تعالى ﴿وَلَوۡ نَزَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ بَعۡضِ ٱلۡأَعۡجَمِينَ﴾ جَمعُ أَعْجَم، والأَعْجَمُ: الشَّديدُ العُجْمَةِ، أَي: لا يُحْسِنُ كَلِمَةً بِالعَرَبِيَّةِ؛ وهوَ هُنا مُرادِفُ أَعْجَميٍّ بياءِ النَّسَبِ، فيَصِحُّ في جَمعِه على أَعْجَمينَ اعْتِبارُ أَنَّهُ لا حَذْفَ فيه باعْتِبارِ جَمعِ أَعْجَم[1]، وجاء انتقاء هذه المفردة دون غيرِها لبيانِ أنَّ اللّه تعالى لو اختار أعجميًّا لأداء الرِّسالة، فأدّاها وهو لا يُحسن العربيَّة: لما آمنوا؛ وعليه فعدمُ إيمانهم ليس عائدًا إلى كون الرَّسول متّهمًا، بل لشيء آخرَ وهو العنادُ الشَّديد، والاستكبارُ العتيد.

نوعُ فاءِ ﴿فَقَرَأَهُۥ﴾ ودلالتُها:

الفاء في قول اللّه تعالى: ﴿فَقَرَأَهُۥ عَلَيۡهِم﴾ عاطفةٌ أفادتِ التّعقيبَ؛ أي: لو بمجرّد نزولِ القرآن قام هذا المشارُ إليه بقراءة القرآن على المشركين، فإنَّهم لن يؤمنوا.

دلالةُ استعمالِ فعلِ القراءة:

القراءةُ باللّفظ العربي المبين هي عين الخارق

المقصودُ بالقراءة في قول اللّه تعالى ﴿فَقَرَأَهُۥ عَلَيۡهِم﴾: القراءة بلفظ القرآن العربيّ المبين، أي: كما أُنزل، وهذا أكملُ في الإعجاز، وأوقعُ في البيان والبرهان؛ لأنَّ الرسول المفترض أن ينزّل عليه القرآن مع كونه أعجميًّا، سيقرأه عليهم بقدرةٍ إلهيّة لا بمكنةٍ لسانيَّة؛ وهذا هو عين الخارق، ومع ذلك فلن يُؤمنوا.

فائدةُ ذكرِ الجارِّ والمجرور ﴿عَلَيۡهِم﴾:

المبالغةُ في إقامة الحجّة مع شدّة التّكذيب لا تستوجب الإيمانَ

آثر النَّظمُ الكريم ذكرَ قيدِ ﴿عَلَيۡهِم﴾ على حذفه في قوله تعالى ﴿فَقَرَأَهُۥ عَلَيۡهِم﴾، وشِبهُ الجملة متعلِّقٌ بفعل القراءة، زيادةً في بيان مكنةِ قراءته، وما فيها منَ الاستعلاء والثّبات، وفيه إيذانٌ بكمال الاستماع والإنصات، بحيث يصل مسامعَهم وعقولَهم وقلوبَهم،

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 19/ 193.

وتنتفي الشّبهةُ في أنّهم لم يسمعوه، أو سمعوه مشوَّشًا غيرَ واضحِ المعاني والألفاظ؛ ومع ذلك فإنَّهم لن يؤمنوا.

دلالةُ نفي فعلِ الكَون الماضي ﴿مَّا كَانُواْ﴾:

إذا تمكّن الكفرُ في القلبِ انسلَّ الإيمان منه

جاء النّفيُ بأداة ﴿مَّا﴾ داخلًا على كان النّاقصةِ في قول اللّه تعالى ﴿مَّا كَانُواْ بِهِۦ مُؤۡمِنِينَ﴾ لإفادة القطع بنفي الإيمان حالًا ومستقبلًا، فقضيَّتُهم ليست فيمن جاء بالقرآن، وإنّما في القرآن ذاته، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ٣٣﴾ [الأنعام: 33].

فائدةُ تقديمِ ﴿بِهِۦ﴾ على ﴿مُؤۡمِنِينَ﴾:

قصرُ نفيِ الإيمان على القرآن مبالغةٌ في الكراهية

قُدِّم الجارُّ والمجرور ﴿بِهِۦ﴾ على خبر كان ﴿مُؤۡمِنِينَ﴾ في قول اللّه تعالى ﴿مَّا كَانُواْ بِهِۦ مُؤۡمِنِينَ﴾، فلم يقل: (ما كانوا مؤمنين به): لإفادةِ القصر، حيث قُصر نفيُ الإيمان على القرآن، فالقرآن هو شغلُهم الشّاغلُ، وهو قصرٌ حقيقيٌّ مجازيّ، مبالغةً في بغضهم وما انطوت عليه نفوسُهم من كراهيةٍ وحِقد لمضامين القرآن، وأوامرِه ونواهيه؛ فهم يؤمنون بكلِّ شيءٍ إلّا بهذا القرآن.

دلالةُ التّعبيرِ باسم الفاعل ﴿مُؤۡمِنِينَ﴾:

أفاد التّعبيرُ باسم الفاعل ﴿مُؤۡمِنِينَ﴾، المشتقِّ من فعل الإيمان، والواقعِ في سياق النّفي من قول اللّه تعالى ﴿مَّا كَانُواْ بِهِۦ مُؤۡمِنِينَ﴾: تجدُّدَ نفيِ الإيمان عنهم بتجدُّدِ القراءة، فالقراءة تُثير أضغانَهم، وتستنفر مشاعرَ الكراهية لديهم؛ مع ما في اسميّة ﴿مُؤۡمِنِينَ﴾ من معنى الثّبوت على الكفر، والرّسوخِ في العناد.

﴿كَذَٰلِكَ سَلَكۡنَٰهُ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ٢٠٠ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ٢٠١ فَيَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ٢٠٢ فَيَقُولُواْ هَلۡ نَحۡنُ مُنظَرُونَ ٢٠٣﴾ [الشّعراء: 200 - 203]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

الانتقالُ من نفي الإيـمـان، إلى أسباب الكُفران، إلى مآلِ الإجرام

لمّا نفى القرآن عنِ المشركين الإيمانَ بسبب كفرهم العتيد، ناسب أن ينتقل إلى بيانِ أنَّ عدم إيمانهم راجعٌ لكِبْرهم وصلَفِهم، فقد سلكه اللّٰه في قلوبهم فضلًا عن أسماعهم، وأكّد أنَّهم لن يؤمنوا حتى يروا العذابَ الأليمَ؛ فهو انتقالٌ من بيان أسباب عدمِ الإيمان، إلى بيان حالهم في المآل.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سَلَكۡنَٰهُ﴾: (سلك) أصلٌ يدلُّ على نفوذ شيءٍ في شيء، يقال سلكت الطَّريقَ أَسلُكُه، وسَلكت الشّيءَ في الشّيء: أنفذْته، والطَّعْنَة السُّلْكَى، إذا طَعَنَه تِلقاءَ وجهه، وسَلَكْتُ الشّيءَ في الشّيء فانْسلَك أي أَدخلته فيه فدخل[1]، ومعناه في قول اللّٰه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكۡنَٰهُ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾: أدخلنا ومكّنّا وقرّرنا.

2) ﴿بَغۡتَةٗ﴾: (بغت) أصلٌ واحدٌ لا يُقاس عليه، منه البغْت، وهو أَنْ يفجَأَ الشّيءُ[2]؛ بغتَه، أي فاجأه، ولقيته بغتة، أي فجأة، والمباغتة: المفاجأة[3]؛ ومنه قولُ اللّٰه تعالى عن عذاب المجرمين: ﴿فَيَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗ﴾.

3) ﴿مُنظَرُونَ﴾: (نظر) أَصْلٌ يدلّ على تَأَمُّلِ الشَّيءِ ومُعايَنَتِه[4]، ثمّ أُخذ معنى الإمهالِ والانتظارِ من التّرقُّب والتّفحُّص في المواجهة

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (سلك).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بغت).
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (بغت).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نظر).

بالعَين، فإنَّ التّفحّص والتّأمّل يستغرق زمنًا[1]؛ تقول العرب: أنظرني، أي انتظرني قليلا، ويقول المتكلّم لمن يُعجله: أنظرني أبتلعْ ريقي، أي أمهلني، والإنظار: التّأخير والإمهال، يقال: أنظرته أنظره، أي أمهلته وأخّرته، واستنظره: طلب منه النّظِرة واستمهله، وأنظره: أخّره[2]، والمقصود بطلب الإنظار في قول الله تعالى ﴿هَلۡ نَحۡنُ مُنظَرُونَ﴾: أنَّهم يطلبون الإمهال عند مجيء العذاب بغتةً.

المَعْنى الإِجْماليُّ:

بيّنتِ الآياتُ أثرَ القرآن في قلوب المجرمين، وأنَّه تمكَّن منهم حتّى عرفوه، ومع ذلك فلم يؤمنوا؛ ثم أكَّد هذا المعنى مُبيِّنًا أنَّهم مُستمِرّونَ على المُكابرةِ بعدمِ الإيمانِ حتَّى يحُلَّ بِهِمُ العذابُ بغتةً، ومن ثمَّ يطلبون الإمهال والإنظار.

معرفةُ الحقِّ غيرُ كافيةٍ في الإيمانِ ونجاة العباد

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الاستئناف البيانيّ بـ﴿كَذَٰلِكَ﴾:

ورد قول الله تعالى ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكۡنَٰهُ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ على طريق الفصل استئنافًا بيانيًّا، فقد أثار ما قبلها سؤالًا: كيف كفروا بالقرآن مع توارُدِ الحُجج والأدلّة على أنَّ الله تعالى نزّل القرآن على قلب رسولِ الله ﷺ وأنّه من عند الله تعالى، فإنَّ ظهور هذه الحجج يقتضي ألّا يكفر به أحدٌ؟ فقال تعالى ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكۡنَٰهُ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾[3].

عجائبُ الكفر تدعو إلى بوادر الاستفهام

بلاغةُ التّشبيه في ﴿كَذَٰلِكَ﴾:

لمّا كان لفظ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ من قول الله تعالى ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكۡنَٰهُ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ مفيدًا التّشبيهَ على أمرٍ قد سبق، أو أمرٍ حاضرٍ

من بديع التّشبيه تشبيهُ الشَّيءِ بنفسِه

---

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نظر).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (نظر).
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 19/ 194.

في ذهنِ المخاطَبِ، كان اسمُ الإشارة الذي للبعيد (ذلك) للتّعبير عن المشبَّه به الذي يكون مركّبَ الصّورة والمعنى، فهوَ تَشْبيهٌ لِلسُّلوكِ المَأْخوذِ مِنْ ﴿سَلَكْنَهُ﴾ بِنَفْسِه لِغرابَتِه، أَي: هوَ سُلوكٌ لا يُشْبِهُهُ سُلوكٌ، وهوَ أنَّهُ دَخَلَ قُلوبَهُم بِإِبانَتِه، وعَرَفوا دَلائِلَ صِدْقِه مِنْ أَخْبارِ عُلَماءِ بَني إِسْرائيلَ، ومَعَ ذَلِكَ لَم يُؤْمِنوا بِه[1]؛ فأوجزَ معناه التّركيبيَّ في لفظٍ واحدٍ، وجعله مشبَّهًا به ثمّ ذكر المشبَّه، فيكون هذا التّركيب من قَبيل التّشبيه المركّب.

عدمُ إيمانِ المجرمين، حتّى يروْا العذابَ الأليمَ سنّةُ الله الكَونيَّةُ فيهم

ويحتمِلُ أن يكونَ التَّشْبيهُ في قول الله تعالى ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ تَشْبيهًا بَيْنَ سَلْكَيْنِ، فالتّشبيهُ بين حالَيْنِ يَقْتَضي في الأصلِ تَغايُرَ مَنْ حَلَّ بِه كُلٌّ منهما، فالمَعْنَى: مِثْلُ ذَلِكَ السَّلْكِ في قُلوبِ قُرَيْشٍ، سَلَكْناهُ في قُلوبِ مَنْ أَجْرَمَ - أَرادَ بِهِم مُجْرِمي كُلِّ أُمَّةٍ - لاشْتِراكِهِما في عِلَّةِ السَّلْكِ وهوَ الإِجْرامُ؛ أَيْ إِنَّ هَذِه عادَةُ اللّٰه فيهِم، أَنَّهُم لا يُؤْمِنونَ حَتَّى يَرَوُا العَذابَ، فلا يَنْفَعُهُمُ الإيمانُ بَعْدَ تَلَبُّسِ العَذابِ بِهِم، وهَذا على جِهَةِ المِثالِ لِقُرَيْشٍ، أَيْ هَؤُلاءِ كَذَلِكَ، وكَشْفُ الغَيْبِ بِما تَضَمَّنَتْهُ الآيَةُ يَوْمَ بَدْرٍ[2]؛ وهو يُؤَكِّد أنّ الكفرَ كُلَّه مِلَّةٌ واحدةٌ، مَهْما اختلف الزّمانُ والمكانُ.

دلالةُ إسنادِ فعل السّلك إلى نون العظمة ﴿سَلَكْنَهُ﴾:

أُسند فعلُ السَّلك في قول اللّه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ إلى نون العظمة لبيان أنَّ الأمور كلَّها بيد اللّه الواحد الأحد، وأنَّه لا يَدخُلُ شيءٌ في قلوبِ العبادِ إلّا بإذنه.

تعيينُ مرجع ضميرِ مفعول ﴿سَلَكْنَهُ﴾:

يحتمل عَودُ الضّمير على القرآن أو على الكُفران

ضميرُ المفعول لفعل السّلك من قول اللّه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ إمّا أن يعود على ما عادَتْ عليْه الضَّمائِرُ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 19/ 194.
(2) أبو حيّان البحر المحيط: 8/ 192.

وهو القرآن، أي: مكّنّا القرآنَ في قلوبهم حتّى فهِموه، ومع ذلك جحدوه وأنكروه، وإمّا أن يعود على الكفر والتّكذيب، وأَرادَ به أَنَّهُ صارَ ذَلِكَ التَّكْذيبُ مُتَمَكِّنًا في قُلوبِهِم أَشَدَّ التَّمَكُّنِ، فصارَ ذَلِكَ كالشَّيْءِ الجِبِلّيِّ[1].

بلاغةُ استعمالِ حرف الظَّرفية ﴿فِي﴾:

تصويرُ المعاني وتشخيصُها أبينُ في الحجَّةِ والبرهان

استعمل النَّظمُ الكريم حرفَ الظّرفيَّة في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكۡنَٰهُ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ وهي ظرفيّةٌ حقيقيّة، سواءً حُمِل المسلوكُ على الكفر والتّكذيب، أوِ القرآنِ مع التّكذيب به؛ فهي لإقامة الحجَّة عليهم إذا جعلنا المسلوكَ القرآنَ، ولبيان تمكُّن الجحود من قلوبهم واستقراره فيها استقرارَ الظّرف في المظروف إذا جعلنا المسلوكَ الكفرَ والتَّكذيب.

بلاغةُ استعمالِ مفردة القلوب:

القلوب هي موضعُ التّمييز والإرادة، ومجمعُ الأحاسيس والشعور

استعمل النَّظمُ الكريم لفظَ القلوب في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكۡنَٰهُ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ وخصَّه من بين سائر أعضاء الإدراك، لأنّه موضع التّمييز والفهم والإرادة، ومجتمعُ المشاعر من الخوف والوجل والخشية والتّرغيب والتّرهيب، وقد شبّه القلوبَ بالوعاء، الذي يدخله المسلوك، وقرينةُ ذلك: حرفُ الظَّرفيَّة؛ فإذا كان المقصودُ القرآنَ فسريعًا ما يُخرج، وإذا كان المقصودُ الكفرَ فهو ماكثٌ لابثٌ.

دلالةُ الإضافةِ في ﴿قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾:

الإجرامُ أعظمُ أسباب التّكذيب

دلَّت إضافةُ القلوب إلى لفظ المجرمين في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكۡنَٰهُ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ على بشاعة تلك القلوب وسوادِها، حيث اكتسبت ظلمتَها من ظلمات أصحابها، وبيّنت الإضافةُ سببَ التّكذيب واضحًا جليًّا للعيان، وهو الإجرام الذي اتَّصف به أصحابُ تلك القلوب.

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 337، وأبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 191.

بلاغةُ الإظهارِ في ﴿قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ وفائدتُه:

تكـثيرُ المعـاني أولى من قصرِها على معيَّن

لم يختـرِ النَّظمُ مسلكَ الإضمار في قوله تعالـى: ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكۡنَٰهُ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾، حيث لم يقل: (في قلوبهم)، بل أتى بالاسم الظّاهر: ﴿ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾، تشنيعًا عليهم، وإظهارًا لاستحقاقهم العذابَ بسبب إجرامهم، وتعميمًا لقضيّته، حتّى لا تقتصر على كفّار مكّةَ، فتكون أوقعَ في الزّجر لهم ولمن سلك مسلكَهم في كلِّ زمان ومكان.

معنى تعريف ﴿ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾:

يحتملُ التّعريفُ أن يكون للعهد أوِ الجنس

(أل) في لفظ ﴿ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ من قول اللّه تعالـى ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكۡنَٰهُ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ للعهد الذّهنـيّ، أي: المجرمين المعهودين من كفّار مكّة، وفي هذا تبشيعٌ لجُرمهم، حيث صاروا علَمًا في الإجرام والضّلال، وتحتمل أن تكون (أل) للجنس، ويكونَ اللّفظُ المعرَّفُ به قد دلَّ على عموم المجرمين بدلالة (أل) على الجنس، ليشملَ كلَّ من نهَج نهْجَهم، وصار على طريقهم في الضّلال.

توجيهُ تخصيصِ الإجرام بالذِّكر:

تكذيبُ القرآن أبـشـعُ صــوَرِ الإجرام

آثر النَّظمُ الكريم استعمالَ مفردة الإجرام في قوله تعالـى ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكۡنَٰهُ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ دون أن يقال (كذلك سلكناه في قلوب المشركين)، بل عبَّر عَنِ المشركينَ بـ ﴿ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾؛ لأنَّ كُفرَهم بعْدَ نُزول القرآن إجرامٌ[1] وإنكار وجَحد بعد ظهور الدّليل والبرهان.

توجيهُ المتشابه اللّفظيّ مع آية الحجر:

دفـعُ أوهـامِ الأفـهـامِ من معتنيات النَّظم القرآنيّ

جاء قوله تعالـى: ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكۡنَٰهُ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ بصيغة الماضي، بينما جاء في سورة الحجر بصيغة المضارع: ﴿كَذَٰلِكَ نَسۡلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ١٢﴾ [الحجر: 12]، وفيه مُناسَبةٌ حسنةٌ: فوجْهُ اختيارِ المضارعِ في آيةِ الحِجْرِ أنَّهُ دالٌّ على التّجدُّدِ، لئلّا

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 19/ 194.

يُتَوَهّمَ أنَّ المقصودَ إبلاغٌ مضَى، وهو الذي أُبلغ لِشيَعِ الأوَّلينَ المتَقَدِّمِ ذِكْرُهم في قوله تعالى ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي شِيَعِ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٠﴾ [الحجر: 10]، فيُتَوَهَّمَ أنَّهمُ المرادُ بالمجرمينَ مع أنَّ المرادَ كفّارُ قريشٍ، وأمّا هذه الآيةُ فلَم يَتَقَدَّم فيها ذِكْرٌ قريبٌ لغيرِ كفّارِ قريشٍ، فناسَبَها حكايةُ وقوعِ هذا الإبلاغِ مُنذُ زمنٍ مضى، وهم مُستمِرّونَ على عدمِ الإيمانِ[1].

بلاغةُ مَوقِعِ جُملَةِ ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ مِن سابِقَتِها:

المعاني المتتابعة تستكمل الاتِّساقَ السّياقيّ والتّلاحم البلاغيّ

جاء قولُه تعالى: ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾ مفصولًا عمّا قبله لكمال الاتّصال، حيث وقَعتْ من سابقتها بمنزلةِ البيان والتّأكيد، ووقعت مَوقِعَ الموَضِّح والمُلَخِّص؛ لأنَّ السّابق وهو قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكۡنَٰهُ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ مَسوقٌ لإثبات عدم إيمان المشركين، فأتبع ما يقرّر هذا المعنى من أنّهم لا يزالون على التّكذيب به وجحوده حتى يعاينوا الوعيدَ، ويجوز أن يكون حالًا مِن ضمير الهاء في ﴿سَلَكۡنَٰهُ﴾ أو حالًا من ﴿ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾؛ وعلى اعتبار الحاليّة فلا فصلَ؛ لأنّها حينئذٍ جملةٌ لها مَوقِعٌ منَ الإعراب[2].

غرضُ النّفي بأداة ﴿لَا﴾:

تنزيل انتفاء سعي الكافرين للإيمان على واقعهم

النّفيُ بأداة ﴿لَا﴾ في قول اللّه تعالى ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾ يستغرق الحالَ والمستقبلَ، فهو قطعٌ بعدم إيمانِهم؛ وفيه تسليةٌ لرسول اللّه ﷺ، في تيئيسه منهم، وتهدئةِ نفسِه وطَمأنَتِها.

دلالةُ التّعبيرِ بصيغة المضارع ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾:

جاء التّعبيرُ بصيغة المضارع في قوله تعالى: ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ المنفيِّ، للدّلالةِ على استمرارهم في عدم الإيمان، ويَقوَى هذا

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 19/ 194.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 337.

الاعتبارُ في احتمال حاليَّة الجملة، أي: يستمرّون على ما هم عليه من التّكذيب، وذلك شأنُهم؛ فهي حالٌ مقارِنة لازمةٌ، ولذلك كان النّفيُ داخلًا على المضارع؛ لأنَّ فيه تصويرًا لعدمِ إيمانهم، وإحضارًا لصورته إذ هم مادّيّون حسّيّون، لا يُؤمنون إلّا بالمحسوسات.

نكدُ المشرك يكمنُ في تكذيبه وعناده المستمرّ على ذلك

نوعُ باءِ ﴿بِهِۦ﴾ وفائدتُها:

الباء في قوله تعالى: ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ للملابسة والإلصاق، وهي تُشير إلى نفي ملابسةِ إيمانِ قلوبِهم للقرآن.

نكتةُ التّعبير بحرف انتهاء الغاية ﴿حَتَّىٰ﴾:

إذا وقع العذابُ الأليم لم ينفع إيمانٌ صاحبَه

استعمل النَّظم أداة ﴿حَتَّىٰ﴾ الغائيّة في قوله تعالى: ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾ لإقرار مجموعةٍ منَ المعاني المكتنزة، منها: التّقضّي شيئًا فشيئًا، وبيانُ غايةِ عدمِ الإيمان، أي: فحينئذٍ ينتهي عدمُ الإيمان بالإيمان؛ ومنها: أنَّ الإيمانَ لا ينفعهم حين يرون العذاب؛ ومنها: الحثُّ على المبادرة إلى الإيمان قبل أن يحلَّ بهم، فما زالت الفرصة سانحةً أمامهم؛ ومنها: أنَّ العذاب الأليم مُلجِئٌ للإيمان بالقرآن وبالنّبيّ ﷺ حين لا ينفعهم الإيمانُ، ليفيد بلازمه عِظَمَ العذاب وظهورَ قدرة اللّه تعالى فيه.

دلالةُ استعمالِ فعل الرّؤية ﴿يَرَوُاْ﴾:

طلب الجاحدين للعلامات الحسّيّة لا يوقفه إلّا أن يغرقوا في أشدّ المحسوسات إيلامًا وهو العذاب الأليم

انتقى النَّظمُ فعلَ الرّؤية في قول اللّه تعالى ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾ للدّلالة على أنَّ إيمانَهم لا يقع بالعقل، بل لا بدّ أن يروه بأعينهم؛ فلا اعتدادَ عندهم بالغيبيّات، وإنّما ينحصر إيمانُهم في المحسوسات.

فائدةُ تعريفِ لفظ ﴿ٱلۡعَذَابَ﴾:

(أل) في لفظ ﴿ٱلۡعَذَابَ﴾ من قول اللّه تعالى ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾ للجنس، والمرادُ به العذابُ المُلجِئ للإيمان، أي: حين لا ينفع الإيمان؛ والعذاب هو الموت بالسّيف، أو عذابُ الآخرة، أيُّهما يقع أوّلًا.

نكتةُ وصْفِ العذاب بصفة ﴿ٱلۡأَلِيمَ﴾:

وُصف العذابُ بالأليم في قول الله تعالى ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾، وفعيل هنا بمعنى اسم الفاعل، أي العذاب المُؤلِم: للمبالغة في شدّة هذا العذاب، وقوّةِ إيلامه في الجسَد والرّوح.

براعةُ العطفِ بالفاء في ﴿فَيَأۡتِيَهُم﴾:

بيانُ ارتباطِ رؤية العذاب ببغتته وتداخلِ أنواع الشَّدائد

دلَّتِ الفاءُ الدّاخلةُ على فِعل الإتيان في قول الله تعالى: ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ٢٠١ فَيَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗ﴾ على التّعقيب مع الترتّب في الوجود والشّدّة؛ فليس المعنى إردافَ رؤية العذاب بالبغتة، إذ ليس الإتيان مرتّبًا على الرّؤية ولا واقعًا عَقِبَها، كيف وهما متلازمان؟! وإنّما المراد الدّلالةُ على الانتقال من شدّة إلى شدّة، ومن عذابٍ إلى عذابٍ أفظعَ، كأنَّه قيل: لا يؤمنون بالقرآن حتّى تكون رؤيتُهم للعذاب، فما هو أشدّ منها وهو لحوقُه بهم مفاجأة[1]؛ فالفاء، مع إفادتها التّعقيبَ، تفيد ترتيبَ الإخبار، فهي هنا للتّرتيب الذِّكريّ.

وتفيد أيضًا عطفَ المفصّل على المجمل، لبيان حالة رؤيتِهم العذابَ وتصويرِها، بغرض تفصيل المجمَل؛ فقد أُجمل في الجملة السابقة ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾، ثم فُصِّل هنا شدّة العذاب وكيفيّة نزوله فقال: ﴿فَيَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾، تفصيلًا للمجمَل، وتصعيدًا للشّدّة، وتَرَقّيًا في وصف فُجاءة العذاب.

مناسبةُ استعمالِ مُفردة الإتيان:

أفخمُ الألفاظِ ما ناسب السّياقَ والنَّظم

ناسب استعمالُ مفردة الإتيان في قول الله تعالى: ﴿فَيَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗ﴾ السّياقَ، فالإتيان: مجيءٌ بسهولة، وعبّر به دون المجيء أو الأخذ، ليدلَّ على السُّرعة والفُجاءة؛ فلم يقل مثلًا: (يأخذهم بغتة)، لتكتمل عناصرُ المفاجأة، وهي أشدُّ على النَّفس، وأوقع في العذاب.

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 337، 338.

بلاغةُ الاستعارةِ المكنية في إتيان العذاب:

تشخيصُ المعاني أرسخُ في تثبيت الحقائق

ضمير الفاعل لفعل الإتيان من قول اللّه تعالى: ﴿فَيَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗ﴾ يعود على العذاب الأليم؛ وقد جاء الكلام على طريقة الاستعارة المكنيّة، حيث شُبّه العذابُ بشخصٍ يأتي، فحُذف المشبَّه به وذُكر المشبَّه، ودلّ عليه بلازمه وهو الإتيان، وفيه تشخيصٌ واضح للعذاب بصورةِ كائنٍ حيٍّ متحرِّكٍ يملك القدرةَ على الإتيان بنفسه؛ ووراءَ ذلك مبالغةٌ في شدّة هذا العذاب.

نكتةُ استعمالِ لفظِ ﴿بَغۡتَةٗ﴾:

البغت هو الفجاءة من حيث لا يُحتسب، وقدِ استُعمل اللّفظُ في قوله تعالى: ﴿فَيَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗ﴾ ليدلَّ على أنَّه يأتي من حيث لا يتوقّعون؛ فجُمع عليهم العذابُ المادّي والمعنويّ.

دلالةُ وقوعِ ﴿بَغۡتَةٗ﴾ حالًا:

إذا وقع العذاب فلا إنظارَ ولا إمهال

دلَّت الحاليّة في لفظ البغت من قول اللّه تعالى ﴿فَيَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗ﴾ على تلبُّس إتيان العذابِ بالمباغتة والفُجاءة، إذ لا وقتَ لديهم للتّفكير أوِ النّجاة، أوِ البحثِ عن وسائل النَّجاة أوِ الإمهال والتَّأخير؛ ولذا جيء عَقِبَه بطلبهم الإمهالَ والنّظِرة، دون مجيب.

فائدةُ واو الحال وبلاغتُها:

أعظمُ الفجعِ وأكبرُ الفزعِ غفلةُ المعذَّب وفجاءةُ العذاب

لّما كان البغتُ هو الإتيان على غفلة، حقّق ذلك بجملة الحال فقال تعالى: ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾، ليؤكِّد على المباغتة والمفاجأة، دون توقُّعٍ أو تأهّب لوقوع العذاب؛ وهذا أشدّ وأنكى، فاجتمع عليهم المفاجأة الذّاتيّة في العذاب، وعدمُ الشُّعور من قِبَلِهم، فهي غفلةٌ صاحَبَها فجاءةٌ مقصودة، وهذا من أعظم العذاب المُفجِع.

دلالةُ الجملةِ الاسميّة:

دلَّتِ الجملةُ الاسميَّة ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ على الثّبوت والدّوام على حال الغفلة، وعدم التأهّب لنزول العذاب، ودوامهم على تلك الحال.

فائدةُ مجيء المسند جملةً فعليّةً:

انعدامُ الشّعور إثباتٌ لتجدُّدِ الغفلة

جاء المسند في قول اللّه تعالى ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾، وهو الخبر ﴿لَا يَشۡعُرُونَ﴾ جملةً فعليّة منفيّة، ليدلَّ على انعدام شعورهم بأدنى درجات الخوف أوِ القلق، فقد كانوا في مأمنٍ واستكانوا إليه؛ فإنَّ نفي الشّعور بصيغة المضارع إثباتٌ لتجدُّد الغفلة، مع ما فيه من استحضارٍ لِما كانوا عليه من صورة الغفلة والأمن، وأنّه لم يخطر ببال أحدٍ منهم العذابُ.

سببُ حذفِ متعلّق الفعل ﴿يَشۡعُرُونَ﴾:

تنزيلُ المشركين منزلةَ العجماوات بعدم الشُّعور

حُذِف متعلّق فعلِ الشّعور من قول اللّه تعالى ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾: إمّا للعموم، فهو نفيٌ لعموم الشّعور عنهم، ففيه تنزيلهم منزلةَ البهائم، وهم خَليقون بها؛ وإمّا لتقدير محذوفٍ خاصٍّ، وتقديرُ الكلام: (وهم لا يشعرون بإتيانه)، فحُذِف الجارُّ والمجرور لقرينة السّياق الدّالة عليه، إيجازًا في اللفظ، وحفاظًا على الفاصلة المتوازنة.

فائدةُ العطفِ بالفاء في ﴿فَيَقُولُواْ﴾:

التّعقيبُ إشارةٌ إلى التّأزّم النّفسيّ

الفاءُ في قَوْلِه تعالى: ﴿فَيَقُولُواْ هَلۡ نَحۡنُ مُنظَرُونَ﴾ لإفادَةِ التَّعْقيب في الوُجودِ بعد ما جاء في قوله تعالى ﴿حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ٢٠١ فَيَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗ﴾؛ أي بَوحُهم بتمنّي الإمهالِ صادِقٌ بِأَسْرَعِ تَعْذيبٍ، فتَكونُ خَطِرَةً في نُفوسِهِم قَبْلَ أَنْ يَهْلَكوا في الدُّنْيا، أَوْ يَقولونَ ذَلِكَ ويُرَدِّدونَهُ يَوْمَ القِيامَةِ حينَ يَرَوْنَ العَذابَ وحينَ يُلْقَوْنَ فيهِ[1].

غرضُ الاستفهامِ المجازيّ بـ﴿هَلۡ﴾:

من معاني الاستفهام التّمنّي والحسرة

﴿هَلۡ﴾ في قول اللّه تعالى ﴿فَيَقُولُواْ هَلۡ نَحۡنُ مُنظَرُونَ﴾ مُسْتَعْمَلَةٌ في اسْتِفْهامٍ مُرادٍ بِه التَّمَنّي مَجازًا[2]، وهو تمنٍّ يمتزج بالحسرة والخسران المبين، والتّأسفِ على ما حلَّ بهم، ولا مُجيرَ ولا مُغيث؛

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 19/ 195.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 19/ 195.

على أنَّ الإمهال والإرجاء والإملاء لا تغني مع نزول العذاب بعدها ووقوع النّقمة، لكنّها مجرّد أماني، وإملاءات النّفس، وخطرات القلب عند نزول ما تكره، وهذا على جهة التّمنّي منهم والرّغبةِ حيث لا تنفع الرّغبةُ[1].

أمنيةُ العاجز وأملُ اليائس في طلب الإنظار

نكتةُ استعمالِ لفظ ﴿مُنظَرُونَ﴾:

جاء استعمالُ مفردة ﴿مُنظَرُونَ﴾ على لسانِ المشركين في قول اللّه تعالى ﴿فَيَقُولُواْ هَلۡ نَحۡنُ مُنظَرُونَ﴾ للدّلالة على رغبتهم في الإمهال ساعةً يُراجِعون فيها أنفسَهم، ويرجعون عن غيِّهم وضلالهم، لكنَّها أمنيةُ العاجزِ، وأملُ اليائس، وفيها من الذّلة والمهانة ما يدعو العاقلَ أن ينأى بنفسه عن مثل هذه المواقف، فإنَّ طلبَ الإنظار مع نزول العذاب لا ينفع أحدًا، والإنظار هو الانتظار، فكيف بالذَّليل أن يُطالب صاحب الجبروت أن يُنْظره ساعةً منَ الزمن؟!.

أماني المفرِّطين فَرَطٌ على النّار

فائدةُ التّعبيرِ بالجملة الاسمية:

جيءَ بِالجُملَةِ الاسْميَّةِ ﴿نَحۡنُ مُنظَرُونَ﴾ للدّلالة على الثَّباتِ، أَيِ: تَمَنَّوْا إنْظارًا طَويلًا يَتَمَكَّنُونَ فيه مِنَ الإيمانِ والعَمَلِ الصّالحِ[2]؛ وهي تعكس حديثَ النّفس وهواجسَها، لكن دون جدوى.

تصويرُ الكرب والشّدّة والضّيق الشَّديد

فائدةُ تقديمِ المسند إليه ﴿نَحۡنُ﴾:

جاء التّعبيرُ القرآنيُّ على الأصل في التّرتيب بتقديم المسنَد إليه على المسنَد في قوله تعالى: ﴿هَلۡ نَحۡنُ مُنظَرُونَ﴾، لإفادة الاهتمام لا للحصر؛ فهم لا يقصدون قصرَ الإنظار عليهم، وإنّما يعنيهم الاهتمامُ بشأنهم وما هم فيه من كربٍ وضيق وشدّة.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

السّلكُ في الحسي والمعنوي، والإدخال في الحسي

السَّلكُ والإدخالُ:

السَّلك يعني نفوذَ شيء في شيء، وهو بمعنى الإدخال والتّمكين

---

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 244.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 19/ 195.

والتّقرير، ويكون للشّيء الحسّيّ كالسّكّين واليد، وللشّيءِ المعنويّ، كالإيمان والكفر؛ بينما الإدخالُ يكون للشّيءِ الحسّيّ فقط، فناسب استعمالُ السّلك مع القرآن أوِ التّكذيب والكفر على الاختلاف في عَودة عودِ ضمير ﴿سَلَكۡنَٰهُ﴾.

العلمُ والشّعورُ:

العلمُ يبدأ بالعقل والتّفكير، والشّعور يبدأ بالمشاعر والحواسّ

العلمُ هو اعتقادُ الشّيء على ما هو به على سبيل الثّقة؛ والشّعورُ علمٌ يوصَل إليه من وجهٍ دقيق، كدقّة الشّعر، ولهذا قيل للشّاعر: شاعر، لفطنته لدقيق المعاني، وقيل للشّعير شعيرًا للشّظيّة الدّقيقة التي في طرفه، خلافَ الحنطة؛ ولا يقال: اللّه تعالى يشعر، لأنَّ الأشياء لا تدِقُّ عنه، وقال بعضُهم: الذَّمُّ للإنسان بأنَّه لا يشعر أشدُّ مبالغةً من ذمِّه بأنَّه لا يعلم؛ لأنّه إذا قال لا يشعر فكأنّه أخرجه إلى معنى العجماوات، وكأنّه قال: لا يعلم من وجه واضح لا خفيّ؛ وهذا على قولِ من يقول إنّ الشّعور هو أن يُدرك بالمشاعر، وهي الحواسّ، كما أنَّ الإحساس هو الادراك بالحاسّة؛ ولهذا لا يوصف اللّه بذلك، وإنّما يوصف بأنّه عالم ويعلم(1).

الإنظارُ والإمهالُ والتّأخير:

الإنظارُ مقيّدٌ بالنّظر، والإمهال مبهم، والتّأخير خلاف التّقديم

الإنظار مقرون بمقدار ما يقع فيه النّظرُ، والإمهال مُبهَم، وقيل الإنظار تأخير العبد لينظر في أمره، والإمهال تأخيره ليسهل ما يتكلّفه من عمله، والفرق بين الإنظار والتّأخير: أنّ الإنظار إمهالٌ لينظر صاحبه في أمره، والتأخير خلافُ التّقديم؛ ويرشد إليه قولُه تعالى حاكيًا عن هود عليه السلام مخاطبًا قومَه: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ٥٥﴾ [هود: 55](2).

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 255، 254.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 254.

﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسۡتَعۡجِلُونَ ٢٠٤ أَفَرَءَيۡتَ إِن مَّتَّعۡنَٰهُمۡ سِنِينَ ٢٠٥ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ ٢٠٦ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ٢٠٧﴾

[الشّعراء: 204 - 207]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبلَها:

تناقضُ الأحوالِ ناشئٌ عن غفلةٍ وقلّة اكتراث بإنذار الوحي

لما تحدّثتِ الآياتُ السّابقة عن نزول العذاب بهم بغتةً، وما يحدث لهم منَ الحسرة والنَّدامة والمُطالبة بإنظار العذاب: ناسب أن ينتقل إلى توبيخهم بذكر استعجالهم العذابَ، ليحصل التَّقابلُ بين صورة المُطالِب بالإنظار بعد العذاب، وصورة المُطالِب بإنزاله قبل إتيانه، وهما صورتان للمشركين لبيان التّناقض عند وقوع المِحَن.

العذابُ الأخرويّ يُنسي لذّةَ النّعيم الدّنيويّ

ثمّ ذُكر حالهم وهم مستمتعون غيرُ آبهين بالوعيد، لبيانِ حال الغفلة التي هم فيها؛ فافتُرِض حصول التَّمتيع للمدعوّين، ثم مجيء الوعد الإلهيّ، لتنتقل الآيات بالمخاطَبين إلى السّؤال عنِ الثّمرة العمليّة من حصول التَّمتيع عند مجيء الوعد، ما الذي يُغني ذلك التّمتيعُ؟ وما الذي يدفع العذابَ عنهم؟ فهو انتقالٌ لتحريك العقل والفؤاد في كون التّمتيع مؤقّتًا لا دوامَ له، وأنَّ وقوع الوعد هو الباقي الدّائم.

شَرحُ المُفرَداتِ:

1) ﴿يَسۡتَعۡجِلُونَ﴾: (عجل) أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على الإسراع، ومنه العَجَلة في الأمرِ، يقال: هو عَجِلٌ وعَجُل، لغتان، واستعجلتُ فلاناً: حثثته، وعَجِلْتُه: سبَقْتُه، قال الله تعالى: ﴿أَعَجِلۡتُمۡ أَمۡرَ رَبِّكُمۡۖ﴾ [الأعراف: 150][1]، والمراد بالاستعجال في الآية: طلبُ الإسراع بإيقاع العذاب.

2) ﴿مَّتَّعۡنَٰهُمۡ﴾: (متع) أصلٌ صحيح يدلُّ على منفعة وامتدادِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عجل).

مُدّةٍ في خيرٍ، ومنه استمتعت بالشَّيء، والمُتْعة والمَتاع: المنفعة في قوله تعالى: ﴿بُيُوتًا غَيۡرَ مَسۡكُونَةٖ فِيهَا مَتَٰعٞ لَّكُمۡۚ﴾ [النور: 29]، ويُقال: أمتَعْتُ بمالي، بمعنى تمتَّعت، ويقولون: حبل ماتِعٌ: جيِّد، ومعناهُ أنَّ المدّة تمتدّ به، ومتَّع اللّه به فلانًا تمتيعًا، وأمتَعَه به إمتاعًا بمعنىً واحد، أي أبقاه ليستمتع به فيما أحبَّ منَ السّرور والمنافع، والمتاعُ: الانتفاع بما فيه لذَّةٌ عاجلة[1]، وهو المراد في الآية.

3) ﴿يُوعَدُونَ﴾: (وعد) كلمةٌ صحيحةٌ تدلُّ على تَرجيَةٍ، يقال: وعَدْتُه أعِدُهُ وعْداً، ويكون ذلك بخيرٍ وشَرٍّ، فأمّا الوَعيدُ فلا يكون إلّا بشَرّ، يقولون: أوعَدْتُه بكذا، والمواعَدَة من الميعاد، والعِدَة: الوَعْد، وجمعها عِداتٌ، والوَعْد لا يُجمع، وأرضٌ بني فلانٍ واعِدَةٌ، إذا رُجيَ خَيرُها منَ المطر والإعشاب[2]، والمراد في الآية: الوعيد بنزول العذاب.

4) ﴿أَغۡنَىٰ﴾: (غني) أصلٌ يدُلُّ على الكِفاية، ويكون الغِنَى في المالِ، يُقالُ: غَنيَ يَغْنَى غِنًى؛ والغَناءُ بِفَتْحِ الغَيْنِ مَعَ المَدِّ: الكِفايَةُ[3]، يُقالُ: لا يُغْني فُلانٌ غَناءَ فُلانٍ، أيْ لا يَكْفي كِفايَتَهُ، والإغناءُ: مُرادِفُ الغِنَى، وهُما معًا ضِدُّ الفَقْرِ، وكَثُرَ استِعمالُ الغَناءِ في الإجْزاءِ والكِفايَةِ؛ لأَنَّ مَنْ أَجْزَأَ وكَفى فقدْ أَذْهَبَ عَنْ نَفْسِه الحاجَةَ إلى المُغْنينَ وأَذْهَبَ عَمَّنْ أَجْزَأَ عنه الاحتياجَ أيضًا، ثمّ خُصِّصَ الغِنَى في معنى ضِدِّ الفَقْرِ ونَحْوِه حَتَّى صارَ الغَناءُ لا يَكادُ يُسْمَعُ في معنى ضِدِّ الفَقْرِ[4]، والغُنْيَةُ: اسمٌ منَ الاستغناءِ عنِ الشَّيْءِ[5]؛ والغانيةُ: المُستَغنيةُ بزوجها عنِ الزّينة؛ وقيل: المُستغْنيةُ بحسنها عنِ التَّزيُّن[6]، والمُرادُ بنفي الإغناءِ في قول اللّه تعالى ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ﴾: نفيُ حُصولِ النّافِعِ المُحتاجِ إليهِ، أي: ما نَفعهم وما دفَعَ عنهم.

المَعْنى الإجْماليُّ:

توجِّه الآيات سؤالًا يحرّكُ القلوب، ويهزُّ الأفئدة، كيف يستعجل أولئك عذاب اللّه

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (متع).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وعد).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غني).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/ 22.
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (غني).
(6) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (غني).

قيمةُ العقلِ النّافع في تجنُّبِ مساوئ الأعمال

تعالى، وهم إن نزل بهم أصابتهم الحسرةُ والشّدّة والبلاء؛ فالآيات تدعو الإنسانَ إلى التّفكُّر في مآل التّمتّع منَ الحياة الدّنيا مع تركِ الإيمان إذا ما جاء العذابُ الشّديد، فإنَّ التّمتُّع الذي نال الكافرين في الدّنيا - من طول آجالهم، وطيب معاشهم، وسَعة رزقهم - ما نفعهم في الآخرة شيئًا، بل زادهم آثامًا، وأكسبهم إجرامًا[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الاستفهامِ بالهمزة ﴿أَفَبِعَذَابِنَا﴾:

قائلُ الباطلِ المستهزئ بالحقائق حقُّه الإنكارُ والتّوبيخُ والتّبكيت

قوله تعالى: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسۡتَعۡجِلُونَ﴾ تبكيتٌ لهم بإنكار وتهكُّم، ومعناه: كيف يستعجل العذابَ من هو مُعرَّض لعذابٍ يَسأل فيه مِن جنس ما هو فيه اليوم منَ النّظِرة والإمهال طَرْفةَ عين فلا يُجاب إليها؟! ويحتمل أن يكون هذا حكايةَ توبيخ يوبَّخون به عند استنظارهم يومئذ، و﴿يَسۡتَعۡجِلُونَ﴾ على هذا الوجه حكايةُ حالٍ ماضية[2].

ووجهٌ آخرُ متّصل بما بعده، وذلك أنّ استعجالهم بالعذاب إنّما كان لاعتقادهم أنَّه غيرُ كائن ولا لاحقٍ بهم، وأنَّهم ممتّعون بأعمارٍ طوال في سلامة وأمن، فقال تعالى: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسۡتَعۡجِلُونَ﴾ أشرًا وبطرًا واستهزاءً واتّكالًا على الأمل الطويل[3]؟!.

نوعُ فاء ﴿أَفَبِعَذَابِنَا﴾ ومعناها:

كشفُ ضعفهم عند وقوع العذاب الذي يستعجلونه

الفاء في قوله تعالى: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسۡتَعۡجِلُونَ﴾ للتّعقيب عَقِبَ تكرُّر نحو قولهم ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝٤٨﴾ [يونس: 48]، حَيْثُ جَعَلوا تَأَخُّرَ حُصولِ العَذابِ دَليلًا على انْتِفاءِ وُقوعِه[4]، ويحتمل المعنى أن تكون الفاءُ عاطفةً على مقدَّرٍ يقتضيه المقام، والتّقديرُ:

(1) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 402، والزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 338.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 338.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 338.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 196.

(أيغفُلون عن كونهم يطلبون الإنظارَ عند نزول العذاب الأليم بهم فيستعجلون به)[1]؟!.

دلالةُ إضافةِ العذاب إلى نون العظمة:

أُضيف العذاب إلى نون العظمة في قوله تعالى: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ للتّهويل والتّفخيم من شأن العذاب الذي لا يُطاق، فكيف يستعجلونه، وهو عذاب الجبّار سبحانه؟!.

غرضُ تقديمِ الجارّ والمجرور ﴿أَفَبِعَذَابِنَا﴾:

مصبُّ الإنكارِ والتّوبيخ هو استعجال العذاب

قُدِّم الجارُّ والمجرورُ (بعذابنا) على الفعل في قوله تعالى: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾، فلم يقل: (أفيستعجلون بعذابنا) للإيذانِ بأنَّ مصبَّ الإنكارِ والتَّوبيخِ كونُ المستعجَلِ به عذابُه تعالى؛ لأنَّ الهمزة يليها المُنكَر، فمدار الإنكار أن يكون المستعجَلُ هو عذاب اللّه تعالى، ولِلِاهْتِمامِ بِهِ في مَقامِ الإنْذارِ، أَيْ: لَيْسَ شَأْنُ مِثْلِهِ أَنْ يُسْتَعْجَلَ لِفَظاعَتِهِ؛ مع ما فيه من رعايةِ الفواصل، والحفاظ عليها متوازية[2].

نكتةُ التّعبيرِ بلفظ ﴿يَسْتَعْجِلُونَ﴾:

من طاش عقلُه سأل العجائبَ وطلب المعايبَ

دلَّ لفظُ الاستعجال في قوله تعالى: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ على ما هُم فيه من نَزقٍ وخفّةٍ وطيْشٍ، يتوافق مع عقولهم التّافهة؛ ولَيتَهم يستعجلون شيئًا طيِّبًا تستمتع به النّفسُ! لكنّهم لحمقهم وبلاهتهم يستعجلون عذاب اللّه تعالى، وقد دلَّت صيغة المضارعة في الفعل ﴿يَسْتَعْجِلُونَ﴾ على تجدُّدِ استعجالهم وحدوثِه منهم تارةً بعد أخرى، بحيث لا يصبرون، ويُلِحّون على نزول العذاب.

فائدةُ الاعتراضِ بالجملة ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾:

مباغتةُ الحمقى بالتّوبيخ عاجلُ نذارةٍ وسابقُ تأنيبٍ

قوله تعالى: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ جملةٌ معترضةٌ بين سابقتها ولاحقتها من النّظم الكريم؛ لأنّ جملة: ﴿أَفَرَءَيْتَ﴾ مرتّبة على قولهم

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 141.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 19/ 196.

﴿هَلۡ نَحۡنُ مُنظَرُونَ﴾ وما بينهما اعتراضٌ للتّوبيخ والتّبكيت والتّهكّم وإنكارِ أن يَستعجل العذابَ من هو مُعَرَّض لعذاب يسأل فيه النّظرةَ والإمهال طرفةَ عين فلا يجاب إليها، والمعنى: أنّه لمّا ذكر أنّهم لا يؤمنون دون مشاهدة العذاب، ذكر أنّ هذا العذاب الموعود - وإن تأخّر أيامًا قلائِلَ - فهو لاحِقٌ بهم لا محالةَ، وحينئذ لا ينفعهم ما كانوا فيه من غرور وكِبْر حملهم على الكفر وعدم الإيمان[1].

بلاغةُ الاستفهامِ بالهمزة ﴿أَفَرَءَيۡتَ﴾:

تقريرُ المعاني الذِّهنيَّة توطئةً لتقرير الحقائق الكليّة

الاِسۡتِفۡهامُ في قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتَ إِن مَّتَّعۡنَٰهُمۡ﴾ لِلتَّقۡرير، والمعنى: (هَبْ أنّ الأمر كما يعتقدون من تمتيعهم وتعميرهم، فإذا لَحِقَهمُ الوعيد بعد ذلك لم ينفعْهم حينئذٍ ما مضى من طول أعمارهم وطيب مَعايِشهم)[2]، ففيه وصفٌ دقيق لواقعهم وما يَؤول إليه حالُهم مهما طال بهم العمرُ.

معنى الرّؤية ودلالتُها:

الرّؤيةُ القلبيَّة أعمُّ زمانًا ومكانًا منَ البصريّة

الرُّؤيَةُ في قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتَ إِن مَّتَّعۡنَٰهُمۡ﴾ قَلۡبيَّةٌ، أَي: أَفَعَلمتَ؟ ولمّا كانت الرُّؤيةُ من أقوى أسبابِ الإخبارِ بالشّيء وأَشهرِها شاعَ استعمالُ (أرَأَيتَ) في معنى (أَخبِرْني)؛ والخطابُ لكلِّ من يصلُح له كائنًا من كانَ[3].

فائدةُ فاءِ ﴿أَفَرَءَيۡتَ﴾ ودلالتُها:

ترتيبُ الاستفهام على أقوال الخصم أحشَدُ للدّلالة

الفاء في قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتَ إِن مَّتَّعۡنَٰهُمۡ﴾؛ لترتيب الاستخبار على قولهم: ﴿هَلۡ نَحۡنُ مُنظَرُونَ﴾، وما بينَهما اعتراضٌ للتَّوبيخِ والتَّبكيتِ، والفاءُ متقدِّمةٌ في المعنى على الهمزةِ، وتأخيرُها عنها صورةً لاقتضاءِ الهمزةِ الصّدارةَ، كما

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/ 308.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 338، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 196.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 266.

هو رأي الجمهور، أي: فأخبرني إِن متّعناهم سِنينَ متطاوِلةً بطول الأعمار وطيب المعاش[1].

بلاغةُ الخطابِ المجازيّ في ﴿أَفَرَءَيۡتَ﴾:

تنزيلُ غيرِ المعيَّن منزلةَ المعيَّن لتنبيه الأذهان وتحريك الأفهام

الخِطابُ في قولِه تعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتَ إِن مَّتَّعۡنَٰهُمۡ سِنِينَ﴾ لِغَيْرِ مُعَيَّن، فهو يَعُمُّ كُلَّ مُخاطَبٍ، حَتَّى المُجْرِمينَ[2]؛ ومن ثمّ فقد خرج بالكلام على خلاف مقتضى الظّاهر، حيث أُسند الفعلُ إلى ضمير المخاطَب، الذي يكون للمعيَّن، والقصدُ إرادةُ غيرِ المُعَيَّن، على المجاز المرسل، بذكر المعيَّن وإرادة العموم، والغرضُ البلاغيّ منه أن يخاطب كلَّ مَنْ مِن شأنه الخطابُ، لجعل الخطاب كأنَّه موجَّهٌ له على وجه الخصوصِ، بأن يخبر بأنَّ تمتيعهم ماذا أفادَهم؟ وأيُّ شيءٍ أغنى عنهم؟ فلم يقدرْ أحدٌ على أنْ يخبر بشيءٍ من ذلك أصلاً.

بلاغةُ استعمالِ أداة ﴿إِن﴾:

الشّرطُ بأداة ﴿إِن﴾ في قول اللّه تعالى ﴿أَفَرَءَيۡتَ إِن مَّتَّعۡنَٰهُمۡ سِنِينَ﴾ يدلُّ على القلّة والنُّدرة، أي: هَبْ أنَّنا متَّعناهم عُمرًا مَديدًا، فماذا يكون بعد تلك المتعة؟ وهو يشير إلى استبعاد وقوع ذلك أصلًا.

بلاغةُ إسنادِ فعل التَّمتيع إلى نون العظمة:

طلاقةُ القدرة الإلهيّة على النّعيم والعذاب

أُسند فعلُ التَّمتيع إلى نونِ العظمة في قول اللّه تعالى ﴿أَفَرَءَيۡتَ إِن مَّتَّعۡنَٰهُمۡ سِنِينَ﴾ للإشارةِ إلى عظمة الخالق جلَّ في علاه، وأنَّ مَنْ يملك ذلك إنَّما هو القادر الذي لا يُعجزه شيءٌ في الأرض ولا في السَّماء، فهو سبحانه من يملك التّمتيعَ، وهو من يملك العذاب؛ وأنَّ التَّمتيع ومقابِلَه منَ التَّعذيب صدَرا جميعًا عن فاعلٍ واحد؛ وأنَّ العاقل الذي يستمتع في الحياة الدُّنيا عليه أن يستحضر أنَّ من يملك

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 266.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 19/ 196.

زمامَ مُتع الحياة، هو من يملك إرادة التَّعذيب، فليُنتبَه وليُحذر أن يقع المخاطَبُ في المحذور.

نكتةُ مجيءِ فعل التّمتيع بصيغة الماضي:

عُبّر بصيغة الماضي في فعل التّمتيع من قولِ اللّه تعالى ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَـٰهُمْ سِنِينَ﴾ للدّلالة على تحقُّق وقوع المتعة - على افتراضِ الوقوع الذي دلّ عليه ﴿إِن﴾ - وهي مع تحقُّقِها وهْمٌ إلى زوال.

فائدةُ تقييدِ الفعل بالظرف ﴿سِنِينَ﴾:

المقصودُ بالظَّرف الزَّمنُ الطَّويل

الظّرف ﴿سِنِينَ﴾ في قول اللّه تعالى ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَـٰهُمْ سِنِينَ﴾ لا مفهومَ له، فالمراد به العمر المديد أوِ السّنين الطّوالُ؛ أي: سنين لا حصرَ لها، فيدخل فيه بُرْهَةٌ منَ الزّمان، وحينٌ من الدهر، وإن طال، والمعنى: (فأخبرني إن متّعناهم سِنينَ متطاولةً بطول الأعمار وطيب المعاش)[1]؛ فالمراد هنا طول العمر، بدلالة قرينة السّياق، وهو لفظ التَّمتيع، وسياقُ الإمهال المرادُ منه التَّحذير.

فائدةُ استعمالِ حرف ﴿ثُمَّ﴾:

مهما تطاول الزّمن فللمتعة انتهاءٌ وللعبد ابتلاء

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾ مَعْطوفٌ على جُملَةِ الشّرطِ المُعْتَرِضَة ﴿إِن مَّتَّعْنَـٰهُمْ سِنِينَ﴾، و﴿ثُمَّ﴾ فيه لِلتَّرتيب والمُهْلَة، أي: جاءَهُم بَعْدَ سِنينَ؛ وفيه رَمزٌ إلَى أَنَّ العَذابَ نازلٌ وحالٌّ بِهِم لا مَحالَةَ[2]، والمَعْنَى: (أَعَلِمتَ أَنَّ تَمتيعَهُم بالسَّلامَةِ وتَأْخيرَ العَذابِ إنْ فُرِضَ امتِدادُهُ سِنينَ عَديدَةً غَيْرُ مُغْنٍ عَنْهُم شَيْئًا إنْ جاءَهُمُ العَذابُ بَعْدَ ذَلِكَ؟)[3]، فهو يفيد التّرتيبَ والتّراخيَ، مع إفادة أنَّ الشّرط هو مجموع المعطوف والمعطوف عليه.

نكتةُ التّعبيرِ عن فعل المَجيء بصيغة الماضي:

جاء التَّعبير عن فعل المجيء بصيغة الماضي في قول اللّه تعالى ﴿ثُمَّ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 266.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 19/ 197، 196.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 19/ 197.

﴿جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾ أي: جاءهم لا محالةَ، فهو واقعٌ بهم، طالَ الزّمن أو قصُر؛ ففيه تحقيقٌ لوقوع العذاب، وتهديد لهم بأنّهم لا مَهرَب لهم منه.

دلالةُ التّعبيرِ بالاسم الموصول ﴿مَّا﴾:

تهويلُ العذابِ وتضخيمُ العقاب لا ينفع مع هوان النّفس وذهاب العقل

﴿مَّا﴾ في قول اللّه تعالى ﴿ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾ اسمٌ موصول بمعنى الذي، أي: ثمّ جاءهم الذي كانوا يوعدونه؛ وهو يعود على العذاب المذكور سابقًا في قوله تعالى ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾، وجاء بصيغة الموصول العامّ للتّهويل والتّضخيم، ففيه منَ التّهديد والوعيد ما فيه؛ ووراءَه تبكيتٌ لهم بما مضى من تحدّيهم رسولَ اللّه وتعنُّتهم معه في طلبهم العذابَ، مع ما في الاسم الموصول منَ التَّذكير بالعذاب المعهودِ ذكرُه.

بلاغةُ ذكرِ فعل الكَونِ ﴿كَانُواْ﴾:

آثر النَّظمُ الكريم ذكرَ فعل الكَونِ في جملة الصّلة ﴿مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾ للدّلالة على أنَّ العذاب الذي وُعِدوه قد سمِعوه تكرارًا، لكنَّهم لم يَنتَهوا عن غَيِّهم.

نكتةُ بناء فعلِ الوَعيد للمفعول:

إبهامُ مصدرِ العذاب أوقعُ وأشدُّ على النفس

بُني الفعلُ (أُوعَدَ) للمفعولِ في قول اللّه تعالى: ﴿ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾، وهو منَ الوعيد الذي يكون في الشّرِّ؛ وذلك أنّ مقصودَ السّياق هو الاهتمام بفعل الوعيد، لا بالفاعل، فهو لشهرته والعلمِ به لم يُذكر، وفي عدم ذكره بإسناد الفعل إليه إيماءٌ إلى الغضبِ الشَّديد، فهو أشدّ على النّفس وأوقَع.

نوعُ ﴿مَآ﴾ ودلالتُها:

(ما) للاستفهام إنكارًا وتبكيتًا، وتحتمل أن تكون للإخبار بالنّفي

تحتمل ﴿مَآ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم﴾ أن تكون نافيةً، والمعنى: (لم يُغنِ عنهم تمتُّعُهم المتطاوِل في دفع العذاب وتخفيفه)[1]؛ وعليه فالجملة خبرٌ، و﴿أَفَرَءَيۡتَ﴾ في الآية السابقة

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 150.

مفعولُه الثّاني مقدّرٌ، دلّ عليه السّياقُ، وتحتمل أن تكون ﴿مَآ﴾ استفهاميّةً، مفعولًا ثانيًا لـ﴿أَفَرَءَيْتَ﴾، وهو الأظهر؛ والمعنى: (أيُّ شيءٍ أغنى عنهم تمتُّعهم في تلك السّنين التي مُتِّعوها؟)[1]، ويكون الاستفهامُ إنكاريًّا[2]، حاملًا معنى التَّبكيت، ومؤدّاه النّفيُ كذلك، أي نفيُ إغناءِ تمتيعهم بالسّلامة وتأخيرِ العذاب عنهم.

المفعولُ محذوفٌ على جعل (ما) نافيةً، ومذكورٌ على الاستفهاميَّة

نكتةُ حذفِ مفعول ﴿أَغْنَىٰ﴾:

إذا جعلنا ﴿مَآ﴾ الأولى في قوله تعالى: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ﴾ استفهاميَّةً، فهي مفعول للفعل مقدَّمٌ ﴿أَغْنَىٰ﴾؛ وإذا جعلناها نافيةً، فعلى تقدير مفعول محذوف، والتّقديرُ: (لَم يُغْنِ عنهم تمتُّعهم شيئًا)[3]، ونكتةُ حذفِ المفعول إفادةُ معنى العموم، وأنَّ التّمتيعَ الدّنيويّ ما أجدى عنهم فتيلًا، وبالإضافة إلى هذه الفائدة، فإنّ حذف المفعول يُفسحُ المجالَ لاحتمال معنى الاستفهام في ﴿مَآ﴾، ولو ذُكر المفعول لقُطع المعنى على النَّفي، ولذهب احتمالُ الاستفهام؛ وهذا من بديع النَّظم في تنوّع الدّلالات، وتوسيعِ دائرة المعنى.

التّعريضُ بظُنون الجاهلين من استحقاقهمُ التّمتيعَ في العاجلة والآجلة

نكتةُ اختيارِ مُفردة ﴿أَغْنَىٰ﴾:

اختير لفظُ ﴿أَغْنَىٰ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ﴾ لما يُفيضه منَ المعاني العديدة، التي تسلبُ جميعَ المنافع والفوائد منَ التّمتيع الدّنيويّ للكافرين، الذي قد يُتوهّم نفعُه لهم حين يرون العذاب الأخرويّ، فاللّفظةُ تؤدّي معنى الإجزاء والكفّ[4]؛ ومن ثمَّ، فإنَّ هذا التَّمتيع العريضَ الذي انغمس فيه الكافرون في الدّنيا غيرُ جازٍ عنهم شيئًا عند مجيء العذاب، ولا يكفّ عقابَ اللّه عنهم، وفيه تعريض بما يظنّه هؤلاء من إغناء تمتيع اللّه لهم

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 194.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 196.
(3) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 8/ 559.
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (غني).

عن عذاب الآخرة، فإنَّهم ظنّوا أنَّ تمتيعَهم في الدّنيا لاستحقاقهم ذلك، كما قال صاحبُ الجنة: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ۝٣٦﴾ [الكهف: 36].

دلالةُ التّعبيرِ بالماضي ﴿أَغْنَىٰ﴾:

قطعُ الأملِ عنِ القلوب أَدعى للاستجابة، وأرسخُ في التّبكيت

آثر النَّظمُ الكريم استعمالَ صيغة الماضي ﴿أَغْنَىٰ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ﴾ دون المضارع، فلم يقل: (ما يُغني عنهم): لنقْلِ المخاطَب إلى زمنٍ يستحيل معه العودة إلى الوراء، ولقطع الأمل وزرعِ اليأس في قلوبهم، فإنَّ دلالة الفعل ﴿أَغْنَىٰ﴾ أكّدت على نفي وقوعِ الإغناء، أي أنَّ الحدث منْتَفٍ تمامًا مع انتفاء زمنه؛ وهذا آكدُ في نفي الغَناء عنهم، وأنّ تمتيعهم في الدّنيا كان نسيًا منسيًّا، فلم يَرفع عنهم في الآخرة عذابًا، ولم يدفع عنهم عقابًا.

معنى حرف (عن) وفائدتُه:

التّيئيسُ منَ الانتفاعِ بالتّمتيع مُعينٌ على ترك التّمادي والتّباهي

(عن) في قول اللّه تعالى: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ﴾ تدلّ على المجاوزة، وهذا المعنى هو أشهر معانيها وأكثرُها استعمالًا؛ والمعنى: أنّه في الآخرة ينتفي أن يتجاوزَ عنهم إغناءُ تمتيعهم الدّنيويّ، بأنْ يَدفعَ عنهم ضرًّا أو يجلبَ لهم خيرًا، فلا يستفيدون منه شيئًا، وهذا فيه قطعٌ بالغ لأمانيِّهم الكِذاب، وتيئيسٌ شديد من أن ينتفعوا بشيء من متاع الدّنيا العريض؛ وفيه كبحٌ لجماح نفوسهم عنِ التّمادي في الكفر، والإمعانِ في الضلال.

نوعُ ﴿مَّا﴾ ومعناها:

زوالُ التّمتيع يهوّن حالَه ويُزري بأنصاره

﴿مَّا﴾ الثّانية في قول اللّه تعالى: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ﴾ تحتمل أن تكون مصدريّةً، والمعنى: (ما أغنى عنهم تمتيعُهم في الدّنيا)، ويكون النّفيُ بالغًا في نفي إثبات التّمتيع؛ فالمعنى مع المصدر أثبتُ من غيره، فإذا ما انتفى كان أخوفَ لهم، وأدعى إلى تَوبهم

إلى رشدهم؛ وكذلك المعنى إنْ جعلنا ﴿مَآ﴾ الأولى استفهاميَّةً، فإنّ الاستفهام هنا إنكاريٌّ يدلّ على النّفي، وتحتمل ﴿مَّا﴾ الثّانية أن تكون موصولةً مع حذف العائد، والمعنى: (ما أغنى عنهم الذي كان يُمَتَّعونه في الدّنيا؟)؛ فيكون فيه تهوينٌ من شأن هذا التّمتيع المعهود لدى المخاطَبين، فإنَّ لذّة المتعة زائلةٌ، وبزوالِها يهون أمرها.

نكتةُ ذكرِ الفعل ﴿كَانُواْ﴾:

عــنــوانُ حيــاةِ الكافر الحرصُ عـلى تـحـصيـلِ المتَع

آثر النّظمُ الكريم ذكْرَ ﴿كَانُواْ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ﴾، فلم يُقَل: (ما يُمتّعون)؛ ولذلك نكتةٌ عالية، وهي أنَّ تمتُّعهم في الحياة الدُّنيا كان ديدنَهم، وأنَّ حياتهم كانت عبارةً عن مُتَعٍ يسعَون إلى تحقيقها، و﴿كَانُواْ﴾، بدلالاتها على المضيّ: أفادت سرعةَ زوال هذا التَّمتيع، مع أنّهم ظلّوا فيه سنينَ عددًا، إلّا أنّه في سرعة انقضائه وعِظَم تفصّيه، يشعرون بأنَّهم لم يلبثوا فيه إلّا قليلًا، وأن تقلّبهم في البلاد وتصرُّفَهم في المعايش كان ضئيلًا، كما قال تعالى: ﴿قُلۡ مَتَٰعُ ٱلدُّنۡيَا قَلِيلٞ﴾ [النساء: 77]، وقال: ﴿مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۚ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ١٩٧﴾ [آل عمران: 197]، فصار تمتّعُهم أثرًا بعد عين، فكأنّه لم يَغْن بالأمس؛ فمجيء الفعل ﴿كَانُواْ﴾ يهوّن من هذا التّمتيع، ويستخفُّ من قدره.

دلالةُ بناءِ الفعل ﴿يُمَتَّعُونَ﴾ للمفعول:

مُتَعُ الدّنيا سببُ الغفلة وعنوان النِّسيان

عبّر النّظمُ الحكيم بالفعل المبنيّ للمفعول ﴿يُمَتَّعُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ﴾، فلم يقل: (ما مَتَّعْناهُم)؛ وذلك لأنَّ فاعل التّمتيع معلوم، وهو اللّه سبحانه وتعالى، لأنَّه لا يستطيع أحد أن يُغدق عليهم النَّعيمَ الوفير، والعيش الوثير، إلّا اللّه سبحانه وتعالى، وعنايةُ النّظم بالحدَث، أي بوقوع التّمتُّع وحصوله، لا بالفاعل؛ لأنَّهم وقعوا في فتنتها، وفي تحصيل زهرتها، وتغافلوا

عن المُنعِم سبحانه، فأراد النَّظم لفتَ انتباههم إلى أنَّ هذه المُتع التي عاشوها ستزول، وفيه إشارة إلى أنَّ التَّمتيع يأتيهم من قوّة غيبيّة خفيّة، وأنّ تلك القوّة قادرةٌ على السَّلب بعد العطاء.

بلاغةُ اختيارِ مُفردة ﴿يُمَتَّعُونَ﴾:

أعظمُ الكُفرِ ما كان بسببِ كثرةِ النِّعَم وامتدادِها

دلّت مفردة ﴿يُمَتَّعُونَ﴾ في قول اللّه تعالى ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ﴾ على طول المُتعة التي تمتّع بها أولئك في الدّنيا، وأنّه كان متاعًا عريضًا؛ إذِ اللّفظةُ مأخوذة منَ المُتوع، وهو "الامتداد والارتفاع، يُقال: مَتَعَ النَّهار ومَتَعَ النّبات؛ إذا ارتفع في أول النّبات؛ والمَتاعُ: انتفاعٌ ممتدٌّ الوقت"[1]، وهذا التَّمتيعُ كان مُغْدقًا عليهم منَ المُنعِم سبحانه وتعالى، فكان المقتضى أن يعبدوه ولا يجحدوه، ويشكروه ولا يكفروه، لكنَّهم استطالوا في الكفر والتَّكذيب، حتى فاجأَهم العذابُ الأليم، فكان متاعُهم الطّويل سببَ كفرِهم العظيم.

فائدةُ التَّعبيرِ بالمُضارع ﴿يُمَتَّعُونَ﴾:

استحضارُ مُتَعِ النَّعيمِ أشدُّ في تبكيتِ اللّئيم

آثر النّظمُ الكريم التّعبيرَ بالمضارع ﴿يُمَتَّعُونَ﴾ في الآية ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ﴾ لاستحضار الحال الماضية منَ التّمتيع؛ فيجعلها نصبَ أعينِهم، ليُذكِّرهم بها، زيادةً في تبكيتهم وتعنيفهم، وبعثًا لتحسّرهم وتنديمهم، وأنَّ منَ الواجب على مَن كان في مثل حالهم منَ النَّعيم العريض، والعيش الغريض، أن ينطلق قلبُه بالشُّكر، ولسانُه بالذّكر، للمنعم سبحانه وتعالى، لكنّهم أبوا إلّا كفورًا.

غرضُ حذفِ متعلّق الفعل ﴿يُمَتَّعُونَ﴾:

متاعُ الدّنيا مصيرُه الحذف ونهايتُه الحتف

في الفعل ﴿يُمَتَّعُونَ﴾ من قول اللّه تعالى ﴿مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ﴾ متعلِّقٌ محذوف، والتّقديرُ: (ما كانوا يُمَتّعون به)، من متاعِ الحياةِ الدُّنيا، على أنَّ ﴿مَّا﴾ موصولةٌ حُذِف عائدها[2]؛ أوِ التّقديرُ: (الذي

---

(1) الرّاغب، المفردات: (متع).

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 266.

كان يُمَتّعونه)[1]، ويكون الضّميرُ المبنيّ هو المحذوف، وهو في محل مفعولٍ ثانٍ للفعل المبنيّ لما لم يسمّ فاعله، وغرض الحذف التَّهوينُ من شأن هذا المتاع، وعدم الاعتداد به، وأنَّه لهوانه لا يستحقّ أن يذكر؛ لأنَّه متاعٌ زائل، ونعيمٌ حائل؛ ففي الحذف إشارةٌ إلى أنَّ متاع الدّنيا ينبغي أن يُنزَع منَ الصَّدر، كما نُزِع منَ السّطر، حتّى لا يكونَ طريقًا للمضلّة، وسببًا للمزلّة.

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 141.

﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ٢٠٨ ذِكۡرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ٢٠٩﴾ [الشّعراء: 208 - 209]

۞ مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

إهلاكُ السّابقين سنّةٌ ماضيةٌ في اللّاحقين، إذا دام الكفرُ بعدَ الإنذار

هاتان الآيتانِ وثيقتا الصِّلةِ بالسّياق الممتدِّ في سورة الشّعراء، فقد ذَكر اللّهُ ﷻ في السّورة هلاكَ الأقوامِ السّابقين، فرعونَ وقوم إبراهيمَ وقوم نوحٍ وعادٍ وثمودَ وقوم لوطٍ وأصحابِ الأيكة، فبَعد سردِ تلك الأخبار، ناسبَ أن يَذكُرَ حُكمًا عامًّا يَلُفُّهم جميعًا؛ فأخبر سبحانه تعالى أنّه لم يُهلِكْ قريةً من تلك القُرى إلّا بعد أن أرسل إليها مَن يُنذِرهم عذابَ اللّه ﷻ، ذِكْرَى لهم، وتبصرةً وإقامةً للحُجّة عليهم؛ لئَلّا يكون للنّاس على اللّه حُجّةٌ بعدَ الرّسل[1]، وهذا قريب من باب التَّذييل على الأخبار السّابقة، بجملةٍ جامعةٍ للمتقدِّم كلِّه.

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَهۡلَكۡنَا﴾: (هلك) أصلٌ يَدُلُّ على كَسْرٍ وسُقوطٍ[2]، يُقالُ: هَلَكَ الشَّيءُ هَلاكًا وهُلوكًا ومَهلِكًا: إذا ماتَ، فهو هالِكٌ[3]؛ والتَّهلُكَةُ: كلُّ شيءٍ يَصيرُ عاقِبتُه إلى الهَلاكِ[4]؛ ويُطلَق الهلاكُ والهَلَكَةُ أيضًا على فقْدِ الشَّيْءِ مع وُجودِه مع غَيْرِه، وعلى مَصيرِ الشَّيْءِ إلى حيثُ لا يُدْرَى أين هو[5]؛ والإهْلاكُ: إعْدامُ ذاتِ المَوْجودِ وإماتَةُ الحَيِّ[6]، والمقصود بالإهلاك في قول اللّه تعالى: ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾: الإفناء والإزالة، وإبطالُ وجودهم منَ العالَم الدّنيويّ[7].

(1) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 403، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 244.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (هلك).
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (هلك)، والهرويّ، الغريبين في القرآن والحديث: 6/ 1935.
(4) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (هلك).
(5) المطرزيّ، المعرب: (هلك).
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8 - أ/ 82.
(7) الرّاغب، المفردات: (هلك).

2) ﴿ذِكۡرَىٰ﴾: أصلُ (ذكر) الحِفْظُ الَّذي تَذْكُرُه، وهو خِلافُ النِّسيان[1]؛ ثُمَّ حُمِلَ عليه الذِّكْرُ باللِّسانِ، فالذِّكْرُ ما ذَكَرْتَهُ بلسانك وأظهرتَه؛ والذُّكْرُ - بضَمِّ الذّال - بالقَلْبِ، يُقالُ: ما زالَ مِنّي على ذُكْرٍ، أي: لم أَنْسَه[2]؛ والتَّذْكِرَةُ: ما تُستَذْكَرُ به الحاجةُ؛ واستَذكَرَ الشَّيءَ: دَرَسَهَ للذِّكْرِ؛ والاسْتِذْكارُ: الدِّراسَةُ لِلْحِفْظِ؛ والتَّذَكُّر: تَذَكُّرُ ما أُنسيتَه[3]؛ والذِّكرى: اسمٌ للتَّذكير، وهي كثرةُ الذِّكر، وهو أبلغُ مِنَ الذِّكر، قال تعالى: ﴿رَحۡمَةً مِّنَّا وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ۝٤٣﴾ [ص: 43][4]، والمُرادُ بالذِّكرَى في الآيةِ: التَّذكيرُ بما هو مَظِنَّةٌ أن يُنسى أو يُغفَلَ عنه.

❁ المَعنى الإجماليُّ:

سنَّةُ اللهِ أن الإهلاكَ لا يقع إلّا بعد الإنذار

توضِّحُ الآيةُ سنَّةً إلَهيَّةً في شأن الأقوام والأُمم التي أنذرها اللهُ تعالى ببَعثِ الأنبياء والمرسلين، والمعنى: (وما أهلكنا قريةً من هذه القرى - المذكورة في القرآن، وغيرها ممّا لم يُقَصَّ عليكَ ذِكْرُه - إلّا بعدَ إرسال الرُّسُل؛ لإنذارهم بأسَ اللهِ وعذابَه، قبلَ أن يقعَ بسبب كفرهم)؛ فإنَّ اللهَ تعالى لا يَظلِم أحدًا من خَلْقه، ولا يعذِّب أحدًا بدون إنذار.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

نوعُ واو ﴿وَمَآ﴾ ودلالتُها:

احتمالُ العطفِ والاستئنافِ لبيانِ مُجمَلٍ بعدَ تفصيل

الواو في قول اللّه تعالى: ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ﴾ تحتمل أن تكون عاطفةً، عطفت جملةَ الخبرِ ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾ على الجملة السابقةِ الخبريّةِ معنًى، وإن كانت إنشائيّةً

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (ذكر).
(2) الشّيبانيّ، الجيم، وابن دريد، جمهرة اللّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (ذكر).
(3) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (ذكر).
(4) الخليل، العين، والرّاغب، المفردات: (ذكر).

في لفظها؛ وهو ما يُسمّى عند البلاغيّين بالتّوسُّط بين الكمالَين، وتحتمِل أن تكون استئنافيّةً، استأنفتْ معنًى جديدًا، وهو أنَّ إهلاكَ اللّه للكافرين إنّما يكون بعد إرسالِ الرّسل إليهم وإنذارهم، حتّى لا يكون لهم حُجّةٌ بعدَ الرُّسل.

نُكْتَةُ استعمالِ أداة (ما) في النَّفي:

الوعيدُ الشَّديدُ في طيّاته العدلُ الحميد

استعمَل النَّظمُ الكريم أداةَ النَّفي (ما) في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا﴾؛ لتأكيد وتحقيق وتقرير عدم وقوعِ فعلِ الإهلاكِ إلّا بعدَ إرسالِ المُنذِرين، فأداةُ (ما) تُفيد العمومَ الشّموليَّ، وهو المناسبُ لتقرير هذه السُّنَّة الإلَهيَّة وتحقيق غرَضها؛ أي: أنَّه ما حصل إهلاكٌ لقوم منَ الأقوام إلّا بعدَ تحقُّق الإنذار، وهذا مع ما فيه من شديد الوعيد، إلّا أنّه يحمل في طيّاته العدلَ الحميد.

بلاغةُ اختيارِ مفردة الإهلاك:

الإهلاكُ استئصالٌ شاملٌ، وفناءٌ كامل

آثَرَ النَّظمُ الكريم استعمالَ مفردة الإهلاك في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ﴾ دونَ مرادفاتها، حيثُ تدلُّ هذه المفردةُ على أنَّ الإهلاك الذي نزل بالقرى كان شاملًا، واستئصالَ أهلِها كان كاملًا، وأنَّ العذاب أتاهم من فوقهم، فلم يُغادِر أحدًا، وهذا مستفادٌ من لفظ الهلاك الدّالِّ على الاستئصال غيرِ المُعقّب؛ لأنَّ الهلاكَ يكون بإفساد الشَّيء المُهْلَك وإفساده تمامًا[1]، وهو ما حدثَ للأقوام المَقصوصِ إهلاكُهم في هذه السّورة، حيثُ فسدت حياتُهم، واندثرت أحوالُهم، فلم تقم لهم قائمةٌ.

دلالةُ إسنادِ فعلِ الإهلاك إلى ضمير العَظَمَة:

تخويفُ المُكَذِّبين بالإيماءِ إلى شِدَّة الغضب

أُسند فعلُ الإهلاك إلى ضمير العَظَمة في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ﴾؛ لتهويله وتعظيم أثره، فهو إهلاكٌ منَ العزيز الحكيم، دالٌّ على شدَّة العذاب، وشمولِ العقاب للمُهلَكين؛ لأنَّ

(1) الرّاغب، المفردات: (هلك).

العذابَ إذا صدر عنِ العظيم سبحانه لم يكن إلّا بعد غضبٍ، وعدلٍ، وفيه تحذيرٌ للمَكذِّبين مِن أن يسلكوا مسالكَ السّابقين في الكفر والجُحود، فيكونوا منَ المُعذَّبين في نار الخلود.

نُكْتَةُ ذكرِ حرف ﴿مِن﴾:

عـمـومُ الـنّـفي واستغراقُه

حرفُ ﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ﴾ دالٌّ على عموم النّفي واستغراقِه[1]؛ وقد تأكّد هذا العمومُ والاستغراقُ بوقوع النّكرة ﴿قَرۡيَةٍ﴾ في سياق النَّفي.

بلاغةُ اختيارِ مفردة ﴿قَرۡيَةٍ﴾ دون (أُمَّة):

القريةُ الهالكة هــي مـكــانُ الإجرام ومَجمَع المُجرمين

يُلمَحُ أنَّ الآية الكريمة جاء فيها ذِكْر ﴿قَرۡيَةٍ﴾ لا (أُمّة)، حيثُ قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾؛ وذلك أنَّ القرية تُطلَق على الموضع الذي يجتمع فيه النّاسُ، وعلى النّاس، وفيها معنى الاجتماع[2]؛ فلمّا كانتِ القريةُ دالَّةً على الموضع وساكنِه، ودَلّت على معنى الاجتماع واللّزوم والاستقرار؛ لَزِمَ من ذلك شمولُ العذاب وعمومُ الهلاكِ للمَوضِع ولساكنيه، ممّنِ اجتمع فيه واستقرّ منَ الكافرين المُعانِدين، أمّا الأمّة فليس فيها شيءٌ من هذه المعاني، فهي تُطلَق على القرْن منَ النّاس[3].

بلاغةُ أسلوبِ القَصْر:

القَصْر بالنَّفي والاستثناء هو الأنسَبُ في هذا السّياق

في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾ أسلوبُ قَصْرٍ، طريقُه النّفيُ والاستثناء، فقد قُصِرَ الإهلاكُ على القُرى التي أُرسِل إليها المرسلون فكفروا بهم؛ فيكون المعنى: "وما أهلكنا من قريةٍ ظالمين إلّا بعد أن ألزمناهم الحُجّةَ بإرسال المُنذِرين"[4]، وطريقُ النّفي والاستثناء من أقوى طرقِ القَصْر، فهو يُستعمَل في

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5413.
(2) الرّاغب الأصفهانيّ، المفردات: (قرى).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (أمّ).
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 338.

المعاني الفَخْمَة، والمقاماتِ التي يشوبُها جَدَلٌ وإنكارٌ، وسياقاتِ العذابِ والإهلاك؛ فكان القَصْرُ بالنّفي والاستثناء أنسَبَ لهذا السّياق؛ لدلالته على جميع صور الإهلاك المسرودة في السّورة.

توجيهُ المتشابِه اللّفظيّ بحذف الواو وذِكْرها:

ذِكْرُ الواوِ دالٌّ على معانٍ محذوفةٍ، وحذفُها دالٌّ على إرادة المعنى المذكور

حُذِفت الواو في ﴿إِلَّا لَهَا﴾، من قول الله تعالى: ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾، ولم تُحْذَف في آية الحِجر: ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعۡلُومٌ ٤﴾ [الحجر: 4]، والأصلُ عدمُ وجودِ الواو؛ لأنّ الجملة صفةٌ لـ﴿قَرۡيَةٍ﴾، وإذا ذُكِرت فلِتأكيدِ وصلِ الصّفة بالموصوف، كما في قوله تعالى: ﴿سَبۡعَةٞ وَثَامِنُهُمۡ كَلۡبُهُمۡۚ﴾ [الكهف: 22][1]؛ فليس القصدُ هنا التّأكيدَ على اتّصاف القرية بالإنذار، بعكس الأُخرى، فالصّفة المرادُ إثباتُها في آية الحِجر كونُ القرية ذاتَ كتابٍ سابق قد أُنزل على رسولها: ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ ٤﴾، والصّفةُ المُرادُ إثباتُها في آية الشّعراء كونُ القريةِ ذاتَ مُنذِرين، وفرقٌ بينَ الكتاب والمُنذِرين؛ لأنّ الكتاب ليس له من قوّة الظّهور ما للرُّسل، لذلك كان المقامُ في الحِجر مقامَ تأكيد، وهنا جماعةُ المُنذِرين، فهم ظاهرون، لا يحتاجون إلى التّأكيد الذي احتاجت إليه الأولى، فكانَ الذِّكْرُ والحَذفُ من أجلهما[2]، ومنَ الوجيه أن تكون الواو في آية الحِجر دالّةً على صفةٍ محذوفة مأخوذة من آية الشّعراء، والتّقدير: (إلّا لها منذِرون وكتابٌ معلوم).

دلالةُ استعمالِ حرف اللّام:

من رحمةِ الله تعالى أنْ خَصَّ كلَّ قريةٍ بنذير

اللّام في قول الله تعالى: ﴿إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾ للاختصاص، أي: أنّ كلّ رسولٍ أُرسل إلى قومه خاصّة، فأنذرهم وحذَّرهم، وهذا الاختصاص يُشير إلى أنّه كان منَ الواجب على الأقوام أن يستجيبوا

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 339.

(2) المطعنيّ، خصائص التّعبير القرآنيّ وسماته البلاغيّة: 2/ 17.

لدعَوات أنبيائهم، فهم خاصَّتُه، وهو خاصَّتُهم، وهم أمّتُه التي يريد لها الخيرَ؛ لكنّها غفلت عن هذا، فكانت عاقبةُ أمرِها خُسْرًا.

بلاغةُ حذفِ موصوفِ ﴿مُنذِرُونَ﴾:

الإنــــذارُ لازمٌ عـنِ الإرسـال، وهـو مقصودُه ومطلوبُه في هذا السّياق

في قول اللّه تعالى: ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾ حذفٌ للموصوف مع إقامة الصّفة ﴿مُنذِرُونَ ٢٠٨﴾ مقامَه، فلم يقل: (وما أهلكنا من قرية إلّا لها رسلٌ مُنذِرون)، وهذا الحذف دلَّ عليه السّياق؛ لأنَّ الإنذار من مهمَّة النّبيِّ المُرسَل، فالحَذفُ إيجازٌ في العبارة، وتلاحمٌ في النَّظم؛ والإنذار لازمٌ من لوازم الإرسال، فلا يكون الإنذار إلّا بعدَ الإرسال، فحذفُ صفةِ الإرسال للإشارة إليها، ولإغناء صفة الإنذار عنها بالذّكر، فالإنذارُ هو المقصود في هذا السّياق، وهو المرادُ في التَّهديد والوعيد.

نُكْتَةُ تقديمِ الجارِّ والمجرور:

المقصودُ بالكلام هـو الحَقيق بالتّقديم

قُدِّم الجارُّ والمجرورُ في قول اللّه تعالى: ﴿لَهَا مُنذِرُونَ﴾ لتقوية حُكْم الإنذار والتّأكيد عليه، وللاعتناء بشأن القرية التي يعود الضّمير إليها، فهي المعنيّة بالحديث، فكان تقديم الضّمير العائد إليها أولى، وفي التّقديم مراعاةٌ للفاصلة القرآنيّة، التي لها أثرٌ في تحقيق جمال المبنى، لِما لها من جرس يشوق ويروق.

بلاغةُ اختيار مُفردة ﴿مُنذِرُونَ﴾:

الإنــــذار دالٌّ عـلى الإعـلام الواجبِ المَشوبِ بالتَّخويف

آثَرَ النّظم القرآنيّ اختيارَ لفظة ﴿مُنذِرُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾؛ لأنَّ هذه اللّفظةَ تحملُ المعانيَ المتناسِبةَ مع مهمَّة النّبيّ المُرسَل إلى قومِه، فهي تحمل معنى الإعلام[1]، ومعنى التّخويف، إلّا أنَّه تخويفٌ مع إعلامِ موضع المخافة[2]؛ ومعنى الوجوب ظاهرٌ في بعض دلالات المادّة[3].

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (نذر).
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 78.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نذر).

بلاغة التّعبير بالجمع دونَ المُفْرد ﴿مُنذِرُونَ﴾:

دعـوةُ جميع الأنبياء متّحِدَةُ المَقْصِد

آثَرَ النّظمُ القرآنيّ التّعبيرَ بصيغة الجمع ﴿مُنذِرُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾؛ وكان مقتضى الظّاهر أن يأتيَ اللّفظ مفردًا، لأنَّ الضّمير ﴿لَهَا﴾ يعود على القرية، ويرسَل إليها رسول لا رسل، ولكنّ النّظم جمَعَ؛ لأنَّ لفظ ﴿قَرۡيَةٍ﴾ "عامٌّ في القرى الظّالمة"[1]، أو "لأنَّ المُراد بهم النّبيُّ وأتباعُه المُظاهِرون له"[2]، وفي الإفراد كذلك إشارةٌ إلى أنَّ الرُّسُل مهما تنوّعت دعوتُهم، واختلفتْ أزمنتُهم، فإنَّ غرضهم واحدٌ، وأنّ دعوة الرّسول الواحد هي دعوةُ جميعِ الرّسل، وهي الإيمانُ باللّه وحدَه لا شريكَ له؛ فكأنّه حصلَ، بإرسالِ رسولٍ واحدٍ إلى قريته، إنذارٌ من جميع الرّسل.

أوجه إعرابِ ﴿ذِكۡرَىٰ﴾ وأثرُها في تكثير المعاني:

لكلِّ إعرابٍ دلالةٌ مِنَ المعنى تَتّسق مع النَّظم

كلمة ﴿ذِكۡرَىٰ﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ۝٢٠٨ ذِكۡرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ تتعاورُها إعراباتٌ متعدِّدة[3]؛ ولكلّ وجهٍ إعرابيٍّ معنًى:

فيجوز أن تكون في موضع نصب، على أنَّها مصدرٌ لفعلٍ محذوف، والتّقدير: (يُذكّرونَهم ذِكرى)، ففي هذا الإعراب تأكيدٌ قويٌّ على رسالة الرُّسُل، وأنَّهم جادّون في التّذكير، دائمون على الإنذار والتّبشير، وإشارةٌ إلى "إمعانهم في التّذكرة، وإطنابِهم فيها"[4].

ويجوز النّصب على أن تكون ﴿ذِكۡرَىٰ﴾ حالًا من ضمير المفعول في ﴿مُنذِرُونَ﴾، أي: ينذرونهم ذوي تَذْكِرة[5]، وهذا الإعراب يكشِف عنِ الحرص الحثيث منَ الرّسل في تحقيق التّذكرة في نفوس

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 194.
(2) الخلوتيّ، روح البيان: 6/ 309.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 403، والسّمرقنديّ، بحر العلوم: 2/ 568، والزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 338.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 338.
(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 338.

أقوامهم، لدرجة أنَّ أقوامَهم صاروا متلبِّسين بالتّذكرة، من كثرة تكرارها عليهم.

ويجوز النّصب على أن تكون ﴿ذِكۡرَىٰ﴾ مفعولًا له؛ إمّا لفعل الإنذار، على معنى: أنّهم يُنذِرون لأجل الموعظة والتّذكرة[1]، فعلى هذا الإعراب يكون غرضُ الرّسلِ تذكيرَ أقوامهم ووعظَهم؛ ترغيبًا وترهيبًا، وإمّا لفعل الإهلاك، والمعنى: "وَما أَهْلَكْنا من أهل قريةٍ ظالمين إلّا بعدَ ما ألزمناهم الحُجَّة بإرسال المُنذِرين إليهم؛ ليكونَ تذكرةً وعبرةً لغيرهم، فلا يعصون مثلَ عصيانهم"[2].

ويجوز أن تكون ﴿ذِكۡرَىٰ﴾ في موضع رفع، على أنّها خبرٌ لمبتدأ محذوف، والتّقدير: (هم ذكرى)[3]، أو: (تلك ذكرى)، أو: (هذه ذكرى)[4]، فعلى تقدير: (هم)، يكون فيه مبالغةٌ في وصف الرّسل، بأنَّهم مِن بالِغِ تذكيرِهم جُعلوا كأنَّهم هم الذِّكرى نفسُها؛ وعلى تقدير: (تلك)، تكون الإشارةُ بالبعيد تعظيمًا لهذه الذّكرى، التي تأخذ بأيدي النّاس إلى ما فيه سعادتُهم؛ أو تكون الإشارةُ بالقريب (هذه)؛ دلالةً على قُرْب التّذكّر منَ الأقوام، وأنّه يسيرٌ عليهم، وفي متناول أيديهم.

ويجوز أن تكون ﴿ذِكۡرَىٰ﴾ مرفوعةً على أنّها صفة، بمعنى: "مُنذِرون ذَوو ذِكرى"[5]؛ وعليه يكون الرّسل موصوفين بصفة التّذكير؛ إشارةً إلى أنَّ هذه الغاية دَيْدَنُهم وهِجّيراهم.

بلاغةُ الاعتراضِ بقوله: ﴿ذِكۡرَىٰ﴾:

مهمّةُ الرّسلِ الإنذارُ وتحقيقُ العَدْلِ

على إعراب ﴿ذِكۡرَىٰ﴾ خبرًا لمبتدأ محذوف، والتّقدير: (هم ذكرى) أو (تلك ذكرى) أو (هذه ذكرى)، تكون جملةً اعتراضيّة

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 338.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 338.

(3) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 2/ 568.

(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 338.

(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 338.

بين قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾، وبين قوله: ﴿وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾؛ لأنَّ المعنى: أنّ إهلاكَ اللّه القريةَ بعدَ إنذارِ الرّسل لها ليس ظُلْمًا، فيكون الاعتراضُ هنا تركيزًا وتأكيدًا على مهمّة الرّسل وغرَضِهم، وهو إنَّما أُرسِلوا إلى أقوامهم لأجل التّذكرة والإرشاد؛ استعدادًا ليوم المَعاد؛ فالاعتراضُ بيانٌ لمُهمّة الرُّسل، وهي الإنذارُ وتحقيقُ العدل، لا التّعذيبُ بقصد إيقاع الظّلم.

بلاغةُ الفصل بقوله: ﴿ذِكۡرَىٰ﴾:

جملةُ الإنذارِ تُتَمِّمُها وتُبَيِّنُها جملةُ بيانِ التَّذكير

في قوله تعالى: ﴿ذِكۡرَىٰ﴾ فصلٌ عن قوله: ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾ لو نظرنا على أنّها مصدرٌ لفعل محذوف، أي: (يُذَكِّرونهم ذكرى)، أو اعتبرناها خبرًا لمبتدأ محذوف، أي: (هم ذكرى) ونحوها، فإذا اعتبرنا هَذَين الوجهين يكون قد فُصِلَ بينَ هذه الجملة وبين سابِقَتِها، وعِلَّة الفصل هو الاستئنافُ البيانيّ، المُسمّى بشِبه كمالِ الاتّصال؛ لأنّ الجملة السّابقة أثارت في النّفس سؤالًا، يمكن تقديرُه: ما مُهمَّة المُنذِرين الذين أُرسِلوا إلى تلك القرية؟ فيكون الجوابُ: يُذكّرونهم تذكرةً، أو هم ذكرى، فيصِحّ على تقدير مبتدأ محذوفٍ الاعتراضُ، وأن تكون استئنافًا بيانيًّا.

نوعُ واوِ ﴿وَمَا﴾ ودلالتُها:

الـواو تحتمل العطفَ والحاليَّة

الواو في قول اللّه تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾، يجوز أن تكون عاطفةً أو حاليّةً، فإذا اعتبرنا القولَ بالعطف، تكون قد عَطفت جملةَ ﴿وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ٢٠٩﴾ على جملة ﴿لَهَا مُنذِرُونَ﴾؛ ويجوز أن تكون معطوفة على ﴿ذِكۡرَىٰ﴾، ويكون المعنى: (نُذَكِّرُكم ولا نَظْلِم)، وعلى القول بالحاليّة، فإنّها تكون حالًا منَ الضّمير في ﴿لَهَا﴾، أو حالًا منَ الضّمير المستتر في ﴿ذِكۡرَىٰ﴾؛ لأنّه كالمصدر، يقتضي مُسنَدًا إليه[1].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 128، ومحمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 19/ 128.

دلالةُ استعمالِ (ما) النّافية:

حلولُ العقاب على الكافرين بعدَ الإنذار عدلٌ

(ما) في قول اللّه تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ نافيةٌ، نَفَتِ الظُّلمَ عنِ اللّه سبحانه وتعالى؛ فجملةُ ﴿وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ مفيدةٌ إعذارَ كفّار قريش، والإنذارَ بأنَّهم سيحِلُّ بهم الهلاكُ[1] إنْ هُم أصرّوا على عنادهم وكفرهم، وأنّ هذا ليس إلّا عدلًا منَ اللّه تعالى شأنُه، ومجيء (ما) هنا دالٌّ على عموم الظُّلْم المَنفيّ، أي: ما كنّا ظالمين في أيِّ حالٍ منَ الأحوال.

بلاغةُ ذِكْر فعلِ الكون ﴿كُنَّا﴾:

اللهُ لا يَظْلِمُ أحدًا منَ العالَمِين

آثَرَ النَّظمُ الكريم ذِكْرَ ﴿كُنَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾، دون أن يُقال: (وما ظلمناهم)؛ وذلك لبيانِ أنَّ اللّه تعالى هذا شأنُه معَ الخَلْق جميعًا، وهو الأنسَبُ بالسُّنَّة الإلَهيّة المَذكورة، فكما أنَّه سبحانه ما أهلَكَ القرى إلّا بعدَ إنذارها، فكذلك لم يَظلِم أحدًا، فناسبَ العمومُ العمومَ؛ أي: (وما كنّا ظالمين لأحدٍ من العالَمين)، وهو أبلغُ من نفي الظُّلم عنِ القُرى على وجه الخصوص، فهو المتناسب معَ العموم؛ أي: ليس شأنُنا أن يَصدُرَ عنّا ما هو في صورة الظّلم لو صدر من غيرنا، بأن نُهلِك أحدًا قبلَ إنذاره، أو بأنْ لا نعاقبَ مَن يَظْلِم، ولإرادة نفي أن يكون ذلك من شأنه عزّ شأنُه قال: ﴿وَمَا كُنَّا﴾ دون أن يقول: (وما نظلم)[2]؛ ففِعلُ الكَينونةِ في الآية دالٌّ على النَّفي الدّائم، أو نفيِ الشّأن، أي: وما كان من شأننا الظّلمُ[3].

نُكْتَةُ التّعبيرِ عنِ العدل بنفي الظّلْم:

دفعُ الأوهامِ في هذا المَقام

في قول اللّه تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ نفَى اللّهُ سبحانه وتعالى الظُّلمَ عن نفسه، دونَ إثباتِ العدل؛ وذلك لأنَّ المُعذَّبين منَ الكافرين قد يُصيبُهم وهْمٌ ناشئٌ عن سوءِ طَويّةٍ وفسادِ نيّة، بأنَّ إيقاعَ العقوبة

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 128.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 19/ 132.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5413.

عليهم، وتعذيبَهم بسبب كُفرِهم، هو لونٌ من ألوان الظُّلْم، ولو سُبِقَ بإنذارٍ، فكان نفيُ ما يَجول في خواطرهم أبلغُ من إثبات ما هو مُقرَّرٌ، فهو ردٌّ استباقيٌّ على ما قد يَظُنُّه بعضُ المُعانِدين.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّة:

الإهلاكُ والتّدمير:

الإهــلاكُ أعــمٌّ، والتّدمير أخصّ

الدَّمارُ استئصالُ المقصودِ بالدَّمار، يُقال: دَمَر القومُ يَدْمُرون دَمارًا، أَي: هَلَكوا[1]؛ والتَّدْمير: الإهلاكُ مع طَمس الأَثَرِ وهَدْمِ البِناء[2]، ومنه قوله تعالى: ﴿فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ١٦﴾ [الإسراء: 16]، أي: أهلكناها بإهلاكِ أهلها وتخريب ديارهم[3].

وأمّا الإهلاك: فهو الإفناء والإزالة، وإبطالُ الوجودِ منَ العالَم[4]، إمّا بالاستئصال، وإمّا بالموت[5]؛ وهو المناسب للآية هنا، لأنّه ليس من مقصود السّياق هنا الحديثُ عن نوع الهلاك، وإنّما القَصْد هو أنَّ الإهلاك لا يقع على الأُمم إلّا بعدَ إنذارِها وظهورِ كُفرِها؛ وعلى هذا يكون الإهلاكُ أعمَّ، والتّدميرُ أخصّ.

القَرْية والمَدينة:

القريةُ أعمُّ من المدينة

القريةُ فيها معنى الاجتماع، يقال: قَرَيْتُ الماءَ في الحوض، أي: جمعتُه؛ وقَرَيانُ الماءِ: مجتمعُه[6]؛ وتكون القريةُ مجمعًا لما اتّفق عليه النّاسُ من عاداتٍ وأفكار وتقاليد، والمدينةُ تُطلَق على الإقامة في المكان الذي يجتمع النّاسُ فيه، يقال: مَدَنَ بالمكان: أقام به[7].

أمّا عند تأمّل الاستعمالِ القرآنيَّ لهذَين اللّفظين، يُلحَظ أنّ

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (دمر).
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 27.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/ 253.
(4) الرّاغب، المفردات: (هلك).
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/ 466.
(6) الرّاغب، المفردات: (قرى).
(7) الأزهريّ، الصّحاح: (مدن).

القرية أعمّ منَ المدينة؛ فالقريةُ إمّا أن تكون اسمًا للموضع الذي يجتمع فيه النّاس، من ذلك قوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [البقرة: 58]، وإمّا أن تطلق على النّاس[1]، ومنه قوله: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ﴾ [الكهف: 59]؛ أمّا المدينةُ فتُطلَق فقط على الموضع المُقام فيه، وعليه جاء قوله: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ﴾ [القصص: 20]، أي: جاء من هذا المكان القَصيّ.

(1) الرّاغب، المفردات: (قرى).

﴿وَمَا تَنَزَّلَتۡ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ٢١٠ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمۡ وَمَا يَسۡتَطِيعُونَ ٢١١ إِنَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّمۡعِ لَمَعۡزُولُونَ ٢١٢﴾ [الشّعراء: 210 - 212]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

الانتقالُ من دفعِ التّهم عن مرسِل الرّسالة، إلى دفعِ التُّهم عن المرسَلِ بها

لمّا كان القرآنُ الكريم بلَغ منَ الفصاحة والبلاغة ما بلغ، وقد أخبر اللّهُ قبلَ هذه الآياتِ أنّه تنزيلُ ربّ العالَمين، نزل به جبريلُ الأَمينُ على النّبيّ ﷺ؛ فلمّا كان القرآنُ بتلك الفصاحة، قال المشركون: إنّ محمّدًا كاهِنٌ، وما يتنزّل عليه إنّما هو من جنس ما يتنزّل به الشّياطينُ على الكَهَنة، فكُذِّبوا بأنّ ذلك ممّا لا يُمَكَّن للشّياطين، ولا يقدرون عليه، لأنّهم مرجومون بالشّهُب، معزولون عنِ استماع كلام أهل السّماء[1]؛ فهو انتقالٌ من دفع ما يعتقده المشركون منَ الظُّلم في حقِّ اللّه تعالى إذا أُنزل عليهم العذابُ، إلى دفع ما يعتقدونه في شأن الرّسالة والرّسول ﷺ.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَنَزَّلَتۡ﴾: (نزل) أصلٌ يَدُلُّ على هُبوطِ شَيْءٍ ووُقوعِه[2]، يُقالُ: نَزَلَ الشَّيء، ينزِلُ، نُزولًا، أي: هَبَط وانحَدَرَ مِنْ عُلوٍّ إلى سُفلٍ؛ وأنزلَ الشَّيءَ: جعلَه يَنزِل[3]، والتَّنْزيل: ترتيبُ الشَّيْءِ ووَضْعُهُ مَنْزِلَهُ؛ والتَّنَزُّلُ: النُّزول في مُهْلَةٍ[4]، ولا يقال في المُفتَرَى والكَذِب وما كان منَ الشَّيطان إلّا التَّنَزُّلُ[5]، والمقصود به في قول اللّه تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتۡ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ أي: لا ينبغي للشَّياطينِ، ولا يَستطيعونَ مثلَه.

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 339.
(2) الأزهريّ، مختار الصّحاح: (نزل).
(3) الأزهريّ، مختار الصّحاح: (نزل).
(4) الأزهريّ، مختار الصّحاح: (نزل).
(5) الرّاغب، المفردات: (نزل).

2) ﴿وَمَا يَنۢبَغِي﴾: (بغي) أصلٌ يدلُّ على طَلَبِ الشَّيْءِ[1]، ومنه البُغيَةُ: مصدرُ الابتغاء، تقول: هو بُغْيَتي، أي: طلبتي وطيَّتي؛ وبَغَيْتُ الشّيء أَبغيه بُغاء؛ وابتغيتُه: طلبتُه[2]؛ ويُقال: انبغى لفُلان أَن يفعل كَذا، أَي: صَلَح لَهُ أَن يفعل، وكَأَنَّهُ يطْلب فعل كَذا، فانطلب لَهُ، أَي: طاوعَه ولكنّه اجتُزِىء بقَوْلهم: انبغى[3]، والمعنى في الآية ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمۡ﴾: ما يصلُح للشَّياطين أن يتنزّلوا بالقرآن على النَّبي ﷺ.

3) ﴿ٱلسَّمۡعِ﴾: (سمع) أصلٌ يدلُّ على إيناسِ الشَّيءِ بالأُذُنِ، منَ النّاسِ وكُلِّ ذي أُذُنٍ؛ تَقولُ: سَمِعْتُ الشّيءَ سَمعًا[4]، والسَّمعُ: قوَّةٌ في الأُذن تُدرَكُ بها المسموعاتُ، وفعله يُقالُ له السَّمعُ أيضًا[5]، والجَمع أسماع، والسَّماعُ: ما سَمِعْتَ به فشاع وتُكُلِّمَ بِهِ[6]؛ والاستِماعُ: الإصغاء[7]، والمقصود بالسَّمعِ في قول اللّه تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّمۡعِ لَمَعۡزُولُونَ﴾: سَمعُ أَخبارِ السَّماء، أو سماعُ القرآنِ[8]؛ ويجوزُ أن يراد به الآلةُ، وهي الأُذن.

4) ﴿لَمَعۡزُولُونَ﴾: (عزل) أصلٌ صحيحٌ يدلّ على تَنْحيَةٍ وإمالَةٍ[9]؛ فالعَزْلُ: التَّنْحيَةُ والإبْعادُ، يُقال: عَزَلَ الشّيْءَ، يَعْزِلُهُ، عَزْلًا، وعَزَّلَهُ تَعْزيلًا، فاعْتَزَلَ: نَحّاهُ جانبًا وأَبْعَدَهُ[10]، والعُزْلَةُ: الابْتِعادُ عنِ النّاسِ، ويُقالُ: عَزَلَ عنِ المَرْأَةِ واعْتَزَلَها: إذا لَم يُرِدْ ولَدَها[11]، ومن مَعانيه أيضًا: المَنْعُ والتَّرْكُ، والمُراد به في قول اللّه تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّمۡعِ لَمَعۡزُولُونَ﴾: المنعُ والإبعادُ، أي: لَممنوعون بالشُّهُب بعدَ أن كانوا مُمَكَّنين[12].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

ادّعى المشركون أنَّ القرآن كانت تتنزّل به الشّياطينُ على الرّسول ﷺ، فرَدَّ اللّهُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بغي).
(2) الخليل، العين: (بغي).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (بغي).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سمع).
(5) الرّاغب، المفردات، والسمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (سمع).
(6) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن الأثير، النّهاية: (سمع).
(7) الرّاغب، المفردات: (سمع).
(8) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 653.
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عزل).
(10) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (عزل).
(11) الجوهريّ، الصّحاح، وابن سيده، المحكم: (عزل).
(12) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 19/ 103.

سبحانه وتعالى هذا الادّعاءَ بقوله: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتۡ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ٢١٠ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمۡ﴾ ولا جازَ لهم، ﴿وَمَا يَسۡتَطِيعُونَ﴾ ذلك، وقد حيل بينَهم وبينَ السَّمع[1]، فأثبتَ بهذا النَّفيِ الرِّسالةَ بالحَقِّ، وأنَّ القرآن كلامُه سبحانه وتعالى، بنفي قدرة الشّياطين عن تلقّي السّمع الذي قد عُزِلوا عنه؛ فهو نفيٌ معلَّلٌ، مقنعٌ للعَقلِ، مُؤَثِّرٌ فيمَن عندَه قلبٌ واعٍ.

نفيُ ادِّعاءِ المُبطِلين، بتعليلٍ وبُرهانٍ يقين

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نوعُ واوِ ﴿وَمَا تَنَزَّلَتۡ﴾ ودلالتُها:

الواو في قول اللّه تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتۡ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ عاطفةٌ، عطفت الآيةَ على قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٩٢﴾ [الشُّعَراء: 192]، ودلالةُ العطفِ تأكيدٌ على تأكيد؛ فأكَّدت جملةُ المعطوف عليه أنَّ القرآن تنزيلٌ منَ اللهِ على النّبيّ ﷺ بواسطة جبريلَ عليه السلام، ثمّ جاءتِ الجملةُ المعطوفة لِتُؤكِّدَ هذا المعنى بأسلوب النّفي، وأنّ الشّياطين ما كان لهم دورٌ أبدًا في هذا التّنزيل.

التّأكيد على تنزُّل جبريلَ بالقرآن منَ الله، بنفي تَنزُّلِ الشّياطينَ به

نُكْتَةُ النّفي بأداة (ما):

النّفيُ في قول اللّه تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتۡ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ فيه تأكيدٌ وتحقيقٌ وتقرير لعدم تنزّل الشّياطين بالقرآن، أو التّدخُّلِ فيه البتَّةَ بالخَلْط؛ وذلك أنَّ ورودَ (ما) لنفي عموم تنزّل الشّياطين، فدَلَّ العمومُ على الاستغراق الشّموليّ، وهذا تأكيدٌ بالغٌ شاملٌ لجميع أفراد الشّياطين المزعومة، ممّا قيل صراحةً، وممّا أضمرتْه النُّفوسُ؛ والمشركون ادّعَوا الكهانةَ على النّبيّ ﷺ، وزعموا أنَّ شيطانًا كان يتنزّل عليه، ولمّا انقطعَ الوحي عنه فترةً قالوا: تركه رَئِيُّه منَ الجنّ؛ فكان منَ المناسِب تحقيقُ النّفيِ بلفظ (ما).

النَّفيُ يستغرق دعاوى المشركين جميعَها

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 652، والسّمرقنديّ، بحر العلوم: 2/ 569.

دلالةُ اختيارِ فِعلِ التَّنزُّل:

دقَّةُ الاستعمالِ تُنبِئُ عن واقعِ الافتراء

اختار النّظمُ الكريم فعلَ التَّنزُّل في قول اللّه تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتۡ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾؛ لأنّه يكشِف عنِ التّخرُّصات التي يدَّعيها المشركون، مِن أنّ تنزُّلَ القرآن كان بفعل الشّياطين، فالقرآنُ نزل تدريجيًّا، وهم يعلمون ذلك لِما يشاهدونه من وقائعِ التّنزيل؛ فكانت دعاواهم مطابِقةً للواقع المشاهَد، فجاء النَّفي كذلك منسابًا مع هذا الواقع.

فائدةُ مجيءِ فعلِ التّنزُّل ماضيًا:

نُفيَ الماضي ليكونَ مهادًا لنفْيِ الحالِ والاستقبال

دلّت صيغةُ الماضي في قول اللّه تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتۡ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ على تحقيق عدم تنزّل الشّياطين بالقرآن على النّبيّ ﷺ، وأنّ القرآنَ بعيدٌ عن طاقات الشّياطين، وليس في مقدور الجنّ أن ينفذوا إليه من أدنى سبيل؛ فانصبَّ النّفيُ على الماضي، ليَشمل نفيَ الحالِ والاستقبالِ ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمۡ وَمَا يَسۡتَطِيعُونَ﴾.

معنى الباءِ في ﴿بِهِۦ﴾، وتعيينُ مَرجعِ الضّمير:

القرآنُ كتابٌ عزيزٌ، لا يأتيه الباطلُ من بين يدَيه ولا من خلفِه

الضّمير في ﴿بِهِۦ﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتۡ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ يعود على القرآن، وحرفُ الباء في ﴿بِهِۦ﴾ يحتمل أن يكون للتّبعيض، ومعنى هذا: أنّ الشّياطين ليس لها القدرةُ في أن تتنّزل على النّبيّ ﷺ ببعض آيةٍ من آيات القرآن الكريم، ويحتمل أن يكون الباء للإلصاق، والمعنى: (ليس في طوق الشّياطين أن يلابسوا التّنزيل)، فهو أعزُّ من أن ينالَه عبثُهم.

نُكْتَةُ تقديمِ الجارِّ والمجرور ﴿بِهِۦ﴾ على الفاعل:

دقائقُ النَّظم متعلّقةٌ بحقائق المعاني وتجلّيات الحقائق

في قول اللّه تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتۡ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ قُدِّمَ الجارُّ والمجرور ﴿بِهِۦ﴾ على الفاعل ﴿ٱلشَّيَٰطِينُ﴾، وهذا التّقديم يُناسِب سياقَ الحديث عن القرآن، فهو المقصود بنفي الرَّيب عنه في السّياق كلِّه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣﴾ [الشّعراء: 192 - 193]، ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِي زُبُرِ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٩٦﴾ [الشّعراء: 196]، ﴿وَلَوۡ نَزَّلۡنَٰهُ

﴿عَلَىٰ بَعۡضِ ٱلۡأَعۡجَمِينَ ١٩٨﴾ [الشّعراء: 198]؛ ومن ثمَّ فإنَّ القرآن هو مِحوَرُ النّظام، فكان تقديمُه أولى، لفتًا إليه، وتركيزًا عليه.

فائدةُ تعريف لفظِ ﴿ٱلشَّيَٰطِينُ﴾:

اللّام في لفظ الشياطين في قول اللّه تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتۡ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ للعهد، أي: أنّ هناك أنواعًا منَ الشّياطين معهودين لدى المُخاطَبين في وهمِهمُ الفاسد، موصوفين بالتّمرُّد، يحاولون الصّعود إلى الملأ الأعلى، واستراقِ السّمع؛ ولكن هيهاتَ هيهاتَ، فإنّ الشّهابَ الثّاقبَ لهم بالمرصاد.

الشّياطين - وإن غابت عن الأبصار - لكنَّها حاضرةٌ في الخيالات

نوع واو ﴿وَمَا يَنۢبَغِي﴾ ودلالتُها:

الواو في قول اللّه تعالى: ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمۡ﴾ عاطفةٌ، عطفت هذه الجملةَ على قوله سبحانه: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتۡ﴾، ودلالةُ هذا العطفِ: التّأكيد القويُّ، والتّركيزُ الشّديدُ على أنّ الشياطين ليس في مُكْنتهمُ الاقترابُ من آيات القرآن والتّنزُّلُ بها على النّبيّ ﷺ، وأنّهم لا يصلحون لهذا الأمر.

ليس في طَوق الشّياطين العبثُ بآيات القرآن

فائدةُ النّفي بأداة (ما):

آثَرَ النَّظمُ الكريم استعمالَ (ما) دون (لا) في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمۡ﴾، فلم يُقل: (ولا ينبغي)؛ وذلك لأنّ (ما) تأتي نفيًا للفعل المُؤكَّد المُدَّعى وقوعُه، وهي تَعُمُّ كلَّ ما يُتصوَّر من تخرُّصات الأفّاكين، في الأزمان كلِّها، فلمّا زعم المشركون أنَّ الذي ينزل على النّبيّ ﷺ إنَّما هو من زمزمات الشّياطين المُلْقاة على الكَهَنة؛ جاء النَّفيُ القويُّ بـ(ما) موافِقًا لاعتقادِهم؛ ليَجتثَّ هذا الوهمَ المزعوم، والزَّعمَ المَوهوم.

ادّعاءاتُ المشركين لا تَعْدو أن تكونَ سرابًا

بلاغةُ اختيارِ ﴿يَنۢبَغِي﴾ دون (يكون):

اختيرَ فعلُ الانبغاء في قول اللّه تعالى: ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمۡ﴾ دونَ غيرِه من مرادفاته، كفعل الكَون مثلًا، وسببُ ذلك: أنّ الانبغاءَ

نفيُ صلاحيّةِ الشّياطين بتَنزّل القرآن جاء على أكملِ الوجوه

يمتاز عنِ الكوْن بأنّ له دلالاتٍ متعدّدةً تتناسب مع نفي تنزّل الشّياطين بالقرآن على النّبيّ ﷺ، فالفعلُ ﴿يَنۢبَغِي﴾ مطاوِعُ (بغى)، أي: طلب؛ والابتغاء خُصّ بالاجتهاد في الطّلب[1]، فظَنّ هؤلاء أنّه مع هذا الاجتهاد ودلالةِ المُطاوعة سهولةُ تنزّل الشّياطين بالقرآن، فجاء النّفيُ بلفظٍ يحمل منَ الدّلالات المُتعدّدة القاطعة بعدم تمكّن الشّياطين من ذلك، ومن هذه الدّلالات: لا يتأتّى، ولا يمكن، ولا يستقيم، ولا يليق، ولا يصلُح، ولا يصِحّ، ولا يَتَسهّل للشّياطين أن تفعل هذا؛ فجاء النّفي بالانبغاء على أكمل الوجوه.

دلالةُ استعمالِ المضارع ﴿يَنۢبَغِي﴾:

نفيُ تنزُّلِ الشّياطين بالقرآن في الأزمان كلِّها

لمّا كان المضارع دالًّا بصيغته على التّجدُّد المُؤذِن بوقوع الشّيء مرّةً بعدَ مرّةٍ، لزم أن يكون نفيُ الانبغاء في قول اللّه تعالى: ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمۡ﴾ متجدِّدًا في الحال والاستقبال، وهذا إبطالٌ لزَعْم المشركين من أنَّ الكَهَنةَ كان لهم دورٌ في نزول القرآن على النّبيّ ﷺ؛ فكانوا يَصِفونه بالكهانة، وأنَّ ما ينزل عليه من جنس ما يتنزَّل به الشّياطينُ على الكَهَنة، فكذَّبَهمُ اللّهُ ﷻ، بأنّ ذلك ممّا لا يتسهّل للشّياطين ولا يَقدِرون عليه، مهما طلبوه مَرّةً تلوَ الأخرى، وحاولوا الوصولَ إليه مجدّدًا؛ لأنَّهم مرجومون بالشّهاب، معزولون عن السّماع[2].

غرَضُ حذفِ فاعلِ ﴿يَنۢبَغِي﴾:

إطلاقُ الفعلِ ليشملَ كلَّ ما تزعمُه أوهامُ المُكذِّبين

حُذف فاعلُ ﴿يَنۢبَغِي﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمۡ﴾، والفاعلُ إمّا أن يكون القرآنَ، أي: (وما يَنۢبَغي القُرۡآنُ لَهُم)[3] - وعلى هذا يكون لفظُ القرآن حُذف صيانةً له وبُعدًا من أن ينالَه وهمُ شيطان -، وإمّا أن يكون التّنزُّلَ، وتقديره: (وما ينبغي تنزُّلُ الشّياطين بالقرآن)، وحُذِفَ

(1) الرّاغب، المفردات: (بغى).

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 339.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 199.

لدلالة ما قبلَه عليه ﴿وَمَا تَنَزَّلَتۡ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾، ولا موجبَ لتكرارِ فعلِ التّنزّل، ثمّ إنَّ النّظم القرآنيَّ أخفى هذا الفاعلَ لعدم الاعتداد به، وأنَّه في حيِّز العدمِ، خاصّة وقد سَبَق نفيُه، وللإشعارِ بأنَّه لا ينبغي لهم شيءٌ من هذا القبيل؛ فأفاد إطلاقُ الفعل ذهابَ النَّفي في كلِّ ما يتوهَّمه الوهمُ الخالي منَ الحقِّ والإيمان.

معنى لامِ ﴿لَهُمۡ﴾ ودلالتُها:

الشّياطين أضعفُ من أن يتعلَّقوا منَ القرآن بسبب

الظّاهر أن يكون معنى اللّام في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمۡ﴾ الاختصاصَ، وفيها دلالةٌ على أنّ الشّياطين، مهما بلغوا منَ التّمرُّد والشّيطَنَة، فإنَّهم لا يستطيعون الاقترابَ منَ القرآن، ولا قذفَه مخلوطًا إلى النّبيّ ﷺ؛ فهم أقصرُ هِمَّةً، وأضعفُ نَحيزَةً، مِن أن ينالوا ذلك.

نوعُ واوِ ﴿وَمَا يَسۡتَطِيعُونَ﴾ ودلالتُها:

دلالة العطف على عدم استطاعة الشّياطين النَّيلَ منَ القرآن بالخلط والتّمويه

الواو في قول اللّه تعالى: ﴿وَمَا يَسۡتَطِيعُونَ﴾ عَطفت الجملةَ على ما قبلها ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمۡ﴾، ودلَّ العطفُ على شِدّة التّأكيد على عدم استطاعة الشياطين نَيلَ القرآن بالخلط والتّمويه.

نُكْتَةُ تكرارِ النّفي بأداة (ما):

تحقيقُ عدمِ استطاعة الشّياطين التّنزلَ بالقرآن

سبقتِ الإشارةُ إلى نُكْتَة النّفي بأداة (ما) في قول اللّه تعالى: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم﴾، وقولِه تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتۡ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمۡ﴾؛ وفي هذه الجملة ﴿وَمَا يَسۡتَطِيعُونَ﴾ أُعيدت مرَّةً أُخرى لتحقيق عدمِ استطاعة الشّياطين، وتأكيدِ عدمِ قدرتهم على المساس بالقرآن، وفيه دليلٌ على إرادة ما في هذه الأداة منَ البيان اللّغويّ، بشمولِها لجميع أشكالِ الاستطاعة المزعومة، وإبطالِ زَعم المشركين في أنَّ الشّياطين كان لهم دورٌ في هذا الأمر.

بلاغةُ اختيارِ فعلِ الاستطاعة:

من بديعِ الاختيار الإتيانُ بفعل الاستطاعة في قول اللّه تعالى:

﴿وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾، لأنَّها تحمل منَ الدّلالات التي اقتضاها النّظم، فالاستطاعةُ مأخوذة منَ الطَّوْعِ، والطّوعُ: الانقياد؛ وتكون الاستطاعة بوجود ما يصير به الفعلُ متأتّيًا، وبها يتمكّن الفاعلُ ممّا يريده من إحداث الفعل[1]، فالاستطاعةُ بمعنى الطّاقة؛ والاستطاعةُ: القُدرةُ على الشَّيء[2]، فهذه المعاني - الانقياد والطّاقة والقدرة - دخلت في مفهوم لفظ الاستطاعة؛ ليتحقَّق نفيُها كلِّها؛ فليس القرآنُ مُنقادًا ليتلاعبَ به الشَّياطين، وليس في طاقتهم وقدرتهم التّكذيب فيه.

الشّياطين مسلوبو الطّاقةِ والقدرة على المِساس بالقرآن

بلاغةُ ترتيبِ الأفعال المنفية:

الأفعالُ المنفيّة ﴿تَنَزَّلَتْ﴾ و﴿يَنۢبَغِي﴾ و﴿يَسْتَطِيعُونَ﴾ جاءت منفيّةً على أحسن ترتيبٍ في الآيتين: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ۝٢١٠ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾، نفى أوّلًا تنزيلَ الشّياطين به، والنّفيُ في الغالبِ يكونُ في الممكن، وإنْ كان هنا لا يمكن للشّياطين التّنزُّل بالقرآن؛ ثمّ نفى ثانيًا انْبِغاءَ ذلك وصلاحيَّتَهم، أي: ولو فُرِض الإمكانُ لم يكونوا أهلًا له؛ ثمّ نفى ثالثًا قدرتَهم على ذلك، فارتقى النّظمُ الحكيم من نفي الإمكان، إلى نفي الصّلاحيّة، إلى نفي الاستطاعة والقُدرة؛ وذلك مبالغةٌ مترتّبةٌ في نفي تنزُّلِهم به[3].

نفيُ التّنزّل الماضي، ثمّ الأهليّة في الحاضر، ثمّ الاستطاعة في المستقبل

غرضُ حذفِ مفعولِ فعل الاستطاعة:

حُذف مفعولُ فعل الاستطاعة في قول الله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾؛ لتعميم النَّفي، فجائزٌ أن يكون المنفيُّ النّزولَ بالقرآن منَ السّماء، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾[4]؛ أو أن يكونَ حملَ القرآن، ولو فعلوا ذلك لاحترقوا، وهذا مرويٌّ عن ابن عبّاس[5]، بل إنّهم لا

سلبُ الشّياطين كلَّ وسائلِ القدرةِ المُتخيَّلة

(1) الرّاغب، المفردات: (طوع).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (طوع).
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 196، وابن عطيّة، الدّرّ المصون: 8/ 563.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 653.
(5) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 2/ 569.

يقدرون على ذلك أصلًا[1]؛ وجائزٌ أن يكون التّقدير: (ما يَسْتَطيعونَ تَلَقّيَه)[2]، أو أنَّهم لا يمكن أن ينقلوه أو يسرقوه[3]، فأعطى الحذفُ هذا الثّراءَ المعنويَّ، ولو ذُكِر المفعولُ لضاق المعنى، ولَحُصِر في الشّيء المذكور؛ فأفاد الحذفُ إطلاقَ المعنى، ليَشملَ كلَّ وسائلِ القدرةِ، ولبيان أنَّهم أعجزُ من أن ينالوا القرآنَ بشيءٍ.

بلاغةُ الاستئناف البيانيّ بـ﴿إِنَّهُمۡ﴾:

تعليلُ الأخبار أرسخُ في تثبيت المعاني والدّلالات

فُصِلت جملة ﴿إِنَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّمۡعِ﴾ عمّا قبلها: ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمۡ وَمَا يَسۡتَطِيعُونَ﴾؛ لأنَّها وقعت استئنافًا بيانيًّا لما قبلها، وهو ما يُسمى عند البلاغيين بشِبه كمالِ الاتّصال؛ حيثُ أثارت الآيةُ السّابقة سؤالًا في النَّفس: ما سِرُّ عدمِ استطاعة الشّياطين فعلَ ذلك؟ فجاءت جملة ﴿إِنَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّمۡعِ لَمَعۡزُولُونَ﴾ جوابًا عن هذا التّساؤل، وتعليلًا لعدم الاستطاعة، وهذا التّعليل أكّد على عدم قدرة الشّياطين في أن يكون لهم مدخلٌ في القرآن المُنزَّل على النّبيِّ ﷺ.

معنى حرف ﴿عَنِ﴾:

نُحّيَ الشّياطينُ وأُبعِدوا عنِ استراق السّمع منَ السّماء

أفاد حرف ﴿عَنِ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّمۡعِ لَمَعۡزُولُونَ﴾ معنى المجاوزة؛ أي: أنَّ الشياطين نُحّوا وأُبعِدوا عن استراق السّمع منَ السّماء، فالقرآنُ محجوبٌ عنهم.

بلاغةُ اختيارِ مفردة ﴿ٱلسَّمۡعِ﴾:

نفيُ أقلِّ السّمعِ يقتضي نفيَ الاستماع

آثَرَ النّظمُ الكريمُ استعمالَ السّمعِ دونَ الاستماع في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّمۡعِ لَمَعۡزُولُونَ﴾؛ للمبالغة في نفي أدنى سمعٍ؛ لأنّ السّمع مصدر (سَمِع)، وهو سماعٌ دونَ تهيُّؤٍ وترقّبٍ وتنصّت للشّيء المسموع، فقد يسمع الإنسانُ الشّيء عرَضًا، دون أن يكون له قصدٌ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 130.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 199.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5414.

في سماعه؛ عكسَ الاستماع، فهو منَ الفعل (اسْتَمَع)، والاستماعُ الإنصات[1]، فيكون النّظمُ نفَى الأقلّ، ونَفيُ الأقلِّ يقتضي نفيَ الأكثر.

نوعُ لامِ ﴿لَمَعۡزُولُونَ﴾ ودلالتُها:

اللّام المُزَحْلَقة لتوكيد معنى المنعِ والإبعاد

(اللّام) التي دخلت على فعل العزل في قول اللّه تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّمۡعِ لَمَعۡزُولُونَ﴾، داخلةٌ على خبر (إنّ) المكسورةِ الهمزة، وهي اللّام المُزَحْلَقة، جاءت لتوكيد معنى المنع والإبعاد، وأنّ الشّياطين بمعزلٍ عنِ الاستراق.

بلاغةُ اختيارِ مفردة العَزْل:

العَزل دالٌّ على منع الوصولِ للمطلوب، فضلًا عن الإبعاد بعدَ الوصول

اختار النّظمُ القرآنيّ مفردةَ العزل دون مرادفاتها في قول اللّه تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّمۡعِ لَمَعۡزُولُونَ﴾؛ وذلك لأنَّ لفظَ العزل يدلُّ على المباعدة التّامّة، والمفارقة الكاملة بينَ المعزول والمعزول عنه، بحيثُ لا يلتقيان، ولو قيل: (لَمُبعَدون) لأوهمَ أنَّهم أدركوا السّمعَ لكنَّهم بَعْدَ ذلك قد أُبعِدوا، بخلاف العَزل، فهو ينفي أن يكون هناك بلوغٌ للسّمع بتاتًا؛ فهو أبلغ في النَّفي، وأدقّ في بيان المطلوب.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الاستطاعةُ والقُدْرةُ:

الاستطاعة أخصّ منَ القُدرة، والقدرة القيامُ بالفعل عنِ اكتمال

الاستطاعة: انصياعُ الجوارح للفعل، والقدرة هي ما أوجب كونَ القادر عليه قادرًا على الفعل؛ ولذلك لا يوصَف اللّهُ تعالى بأنّه مستطيع، ويوصَفُ بأنّه قادر، والاستطاعة اسمٌ لمعانٍ يتمكّن بها الفاعلُ ممّا يريده من إحداث الفعل، وهي أربعة أشياء: إرادتُه للفعل، وقدرتُه على الفعل، بحيثُ لا يكون له مانعٌ منه، وعِلمُه بالفعل، وتهيُّؤ ما يتوقّف عليه الفعلُ، فعلى هذا تكون الاستطاعةُ أخصَّ منَ القُدْرة، فكلُّ مستطيع قادرٌ، وليس كلُّ قادرٍ بمستطيع[2].

(1) الجوهريّ، الصّحاح، والرّاغب، المفردات: (سمع).
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 47.

﴿فَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُعَذَّبِينَ ٢١٣ وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ٢١٤ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢١٥ فَإِنۡ عَصَوۡكَ فَقُلۡ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ٢١٦﴾

[الشّعراء: 213 - 216]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

التَّخليَةُ قبلَ التَّحليَة، وإقامةُ الحُجَّة بعدَ دفعِ الشُّبهة

بعد أن نفتِ الآياتُ السّابقةُ ما زعمَه المشركون في حقِّ الرّسول ﷺ وفي حقّ الرّسالة، وأثبتت الآياتُ التي قبلها أنَّ القرآن ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣﴾ [الشّعراء: 193]، ناسب في هذه الآيات بيانُ وظيفةِ الرّسول ﷺ في تبليغ الرّسالة؛ فبعدَ دفعِ الاتّهام يُثبِت الحقَّ ويُظهر الصِّدقَ، وتكون وظيفةُ الدَّعوةِ والهداية واضحةً، وهذا من باب التَّخلية قبلَ التَّحلية، فلا تقوم الحُجَّة مع وجود الشّبهة، ولا يثبت الحَقُّ في النَّفوس إذا تلجّلَج الباطلُ فيها.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَٱخۡفِضۡ﴾: (خفض) أصلٌ يدلُّ على الانْحِطاط بعدَ العُلوِّ[1]، فالخفضُ ضِدّ الرّفع، والتَّخفيضُ: مَدُّكَ رأسَ البَعير إلى الأَرْض لتَرْكبَهُ؛ والخَفْضُ أيضًا: الدَّعَة والسّير اللّيّن[2]، والعربُ تقولُ: فلانٌ خافِضُ الجناح، وخافِضُ الطَّيْر، إذا كانَ وقورًا ساكِنًا[3]؛ وخَفْضُ الجَناحِ تَمثيلٌ لِلرِّفْقِ والتَّواضُعِ بحالِ الطّائِر، إذا أَرادَ أَنْ ينحطَّ للوقوعِ خفضَ جَناحَهُ يُريدُ الدُّنوَّ، وكذلكَ يَصنَعُ إذا لاعَبَ أُنثاهُ، فهو راكِنٌ إلى المُسالَمَةِ والرِّفْقِ، أَوِ الَّذي يَتَهَيَّأُ لِحَضْنِ فِراخِهِ[4]، وخفضُ

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (خفض).

(2) الرّاغب، المفردات: (خفض).

(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (خفض).

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 83.

الجَناح في قول اللّه تعالى: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ﴾ مرادٌ به الدّعَةُ والسّيرُ اللّين.

2) ﴿جَنَاحَكَ﴾: (جنح) أَصْلٌ واحِدٌ يَدُلُّ على المَيْلِ والعُدْوانِ، يُقالُ: جَنَحَ إلى كذا، أي: مالَ إليه، وسُمّيَ الجَناحانِ جَناحَيْنِ لِمَيلهما في الشِّقَّيْنِ، والجُناحُ: الإِثْمُ، سُمّيَ بِذَلِكَ لِمَيْلِه عَنْ طَريقِ الحَقِّ[1]، وجَناحا الطّائِرِ: يَداهُ؛ وجَناحُ الإنسان: يَدُه، وفي التَّنْزيل: ﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ﴾ [الإسراء: 24]، أَي: أَلِنْ لَهُما جانِبَكَ[2]، والمقصود بالجناح في قول اللّه تعالى: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ﴾ التَّواضُعُ واللّينُ في المُعاملةِ.

۞ المَعنى الإجماليُّ:

إنــذارُ النّــاس ولــينُ الجانب للمؤمنين قائمٌ على التّوحيد

تُخاطبُ الآياتُ الكريماتُ رسولَ اللّه ﷺ بأنّ لا يدعوَ معَ اللّه إلهًا آخر؛ ليكونَ أصلُ التّوحيد في هذه الأُمّة؛ وتأمرُه بإنذار عشيرته الأقربين، وتحذيرهم منَ الكُفر والشّرك؛ وتَحُثّه على لين الجانب للمؤمنين؛ ليقعَ التّمايزُ بين مَن آمن ومَن كَفَر؛ وتضع ضابطًا للمؤمنين في الاستمرار على الطّاعة وتَركِ المعصية كليًّا.

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

نوعُ فاءِ ﴿فَلَا﴾ ومعناها:

الفاءُ فصيحةٌ تدلُّ على وجوب التَّوحيد بناءً على صدق القرآن

الفاء في قول اللّه تعالى: ﴿فَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ هي الفصيحةُ، أي: أنّها أفصحت عن شرط مُقدَّر، والتّقدير: (إذا كان القرآنُ هو الحَقّ، وهو يدعو إلى التّوحيد، فلا تدعُ معَ اللّه إلهًا آخر)[3]، فالفاء وما دخلت عليه حقّقت معنى الإقناع، الذي يجعل الإنسانَ يخصّ اللّهَ وحْدَه بالعبادة، بعد أن تبيّن صدقُ القرآن، وأنّه يدعو إلى عبادة اللّه ونبذِ الشّرك والأوثان.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جنح).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (جنح).
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 131، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5416.

غرَضُ النّهيِ بـ(لا) وبلاغتُه:

النّهيُ في قول اللّه تعالى: ﴿فَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ خوطِبَ به النّبيُّ ﷺ، مع استحالةِ تصوُّر صدورِ المنهيّ عنه ﷺ، فكان غرضُ النّهي هو التّحريكُ والتّهييجُ لازدياد الإخلاص والتّقوى[1]، لأنّه لا يُتَصوَّر منَ النّبيِّ ﷺ مخالفةُ النَّهي حتّى يُنهى عنه، وفيه لطفٌ لسائرِ المكلَّفين، ببيانِ أنَّ الإشراكَ منَ القُبح والسّوء بحيثُ يُنهى عنه من لا يمكنُ صدورُه عنه، فكيف بمَن عداهُ؟![2].

النَّهيُ لإلهاب المُخاطَب وإيقاظِ المُكلَّفين

بلاغةُ اختيارِ مفردة ﴿تَدۡعُ﴾:

اختار النّظمُ الكريم فِعلَ الدّعاء في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾، دون أن يُقال: (فلا تَعبُدْ إلهًا آخر)؛ وذلك أنَّ الدّعاء أخصُّ منَ العبادة، فإذا نَهى عن دعاء غير اللّه تعالى، فمن باب أولى يَنهَى عن عبادة غير اللّه تعالى، وغالبُ ما يقع فيه النّاسُ في أمر الشّرك ابتداءً: هو دعاءُ غيرِ اللّه تعالى بالطّلب والمسألة؛ فلمّا نَهى عمّا يكون فيه الابتداءُ نَهى عمّا يكون بعدَه من باب أولى، فيكون النَّهيُ عنِ الدّعاء أبلغَ منَ النّهي عنِ العبادة، وهو الأنسب بمقام المُخاطَب ﷺ.

النَّهيُ عنِ الدّعاء يستلزم النَّهيَ عنِ العبادة

بلاغةُ خطابِ المُفرَد بـ﴿تَدۡعُ﴾:

الخطاب في قول اللّه تعالى: ﴿فَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ وإن كان للمُفرد في ظاهر الأمر، حيثُ خوطِب به النّبيُّ ﷺ، إلّا أنّه يُراد به كلُّ مَن يَبلُغه الخطابُ[3]؛ لأنّه يستحيل أن يقعَ المنهيُّ عنه منَ المعصوم ﷺ، فلزِمَ أن يوَجَّه إلى جميع المأمورين بالعبادة، وكلِّ مَن يبلغه الخطابُ، وهذا فيه توسيعٌ للمعنى، وفيه النّهيُ لغير النّبيّ ﷺ بطريق الأولى.

تعميم الخطابِ أولى مِن تخصيصه

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 339.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 267، والشّهاب الخفاجيّ، كفاية الرّاضي وعناية القاضي: 7/ 27.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 200.

نُكْتَةُ تقديمِ شِبه الجملة ﴿مَعَ ٱللَّهِ﴾:

مِــن أشــنعِ وأبشعِ الموبِقاتِ أن تتّخذ معَ الله نِدًّا

في قول اللّه تعالى: ﴿فَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ قُدِّم شِبهُ الجملة ﴿مَعَ ٱللَّهِ﴾ على المفعول ﴿إِلَٰهًا﴾، وهذا التّقديم فيه استبشاعٌ شديدٌ، وتشنيعٌ عظيمٌ على مَن يتّخذ إلهًا معَ اللّه؛ فحينَ يكون لفظُ الجلالةِ أوّلَ طارِقٍ للذّهن، تتبدّد معه جميعُ الآلهة، ويكونُ هو سبحانه مِلءَ النّفس والعقل والقلب، وفي تأخير لفظ ﴿إِلَٰهًا﴾ إشارةٌ إلى وجوب عدمِ وجودِه واتّخاذِه معبودًا.

بلاغةُ ذِكْرِ عنوانِ الأُلوهيّة دونَ الرّبوبيّة:

لـفـظُ الجـلالـة أدلّ على وصف العبادة، ولفظُ الـرّبّ أدلّ على معاني التّربية

لمّا كان السّياق نهيًا عن أن يُتّخذ معَ اللّه إلهًا يُعبد، كان لفظُ الأُلوهيّة في قول اللّه تعالى: ﴿فَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ هو الأنسبُ من لفظ الرّبوبيّة؛ لأنَّ لفظ الرّبوبيَّة مأخوذٌ منَ التّربية، وهو إنشاء الشّيء حالًا فحالًا إلى حَدّ التّمام؛ والرّبُّ هو المُدَبِّرُ الخالِقُ المالِك، المُتكفّلُ بمصلحة الموجودات[1]، فلمّا كان وصفُ اللّه دالًّا على التّعبّد دونَ لفظِ الرّبّ، كان أنسبَ للسّياق؛ لأنَّ السّياق نهيٌ عن عبادة غير اللّه تعالى.

غرضُ الوصف بلفظ ﴿ءَاخَرَ﴾:

الـتّـأكـيـد على وحدانـيّـة الله تـعـالى، ودفـعُ الاستثناءِ لأيِّ معبودٍ

غرضُ وصف ﴿إِلَٰهًا﴾ بـ﴿ءَاخَرَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ التّأكيدُ على عدم اتِّخاذ إلهًا مع اللّه تعالى، فظاهرُ التّعبير يوحي بالاكتفاء بالموصوف، دونَ ذِكْر الصّفة ﴿ءَاخَرَ﴾، لكنّه لا يحمل منَ المبالغة في النَّهي وتأكيدِه مثل دخولِ الصّفة، ثمّ إنّ لفظ ﴿ءَاخَرَ﴾ يُشعر بأنَّ اللّه هو الأوّل الذي ليس معه آخَر، وفيه استغراقٌ لكلِّ إلهٍ يُعبد من دون اللّه تعالى، ووصفُه بأنَّه آخر، فلا يقع الاستثناءُ على أيِّ معبودٍ من دون اللّه تعالى.

---

(1) الرّاغب، المفردات: (ربّ).

نوعُ فاءِ ﴿فَتَكُونَ﴾ ومعناها:

الشّركُ بالله مَجْلَبَةٌ للعذاب الأُخرويّ

الفاء في قول اللّه تعالى: ﴿فَتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُعَذَّبِينَ﴾ سببيّةٌ، أي: فتكونَ بسبب ذلك منَ المعذَّبين، ولذا نُصب الفعل ﴿فَتَكُونَ﴾ بعدَها، والنَّهيُ موجَّهٌ إلى النّبيّ ﷺ؛ ليَقتديَ به غيرُه، وليَعلمَ كلُّ إنسان أنَّ العذاب لاحِقٌ بمَن يَعبُد معَ اللّه إلهًا آخر[1].

بلاغةُ ذِكْرِ فعلِ الكون:

الاسميّة أقوى منَ الفعليّة في إثبات المعنى

آثَرَ النّظمُ الكريم ذكرَ فعلِ الكون في قول اللّه تعالى: ﴿فَتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُعَذَّبِينَ﴾، دون أن يقال: (فلا تدْعُ معَ اللّه إلهًا آخرَ فتُعذَّبَ)؛ وذلك ليُهيِّئَ اسميّةَ التّعبير بعدَها ﴿مِنَ ٱلۡمُعَذَّبِينَ﴾، ولا شَكّ أنّ التّعبير بالاسميّة أقوى في ثبوت معنى التّعذيب منَ التّعبير بالفعل، وأدلُّ على لزوم العذابِ للمُشْرِك، وهذا تخويفٌ ما بعدَه تخويف؛ ولأنَّ فعلَ الكونِ أَدْخَلَ المُشرِكَ في جملة المُعذَّبين الذين هم أرسخُ النّاس قَدَمًا في العذاب؛ فهو يَدخُل في جملة المُستحقّين لهذا العذاب.

معنى حرف ﴿مِنَ﴾:

بيانُ حالِ مَن وقع في حمأة الإشراك ومآلِه

حرفُ ﴿مِنَ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿فَتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُعَذَّبِينَ﴾ للبيان؛ فهو يُبيّن حالَ مَن وقع في حمأة الإشراك ومآلِه، بأنّه منخَرِطٌ في سِلك المُعذَّبين.

بلاغةُ اختيارِ مفردة ﴿ٱلۡمُعَذَّبِينَ﴾:

التَّعذيب وعيدٌ بالعاجل تلويحًا، وبالآجِل تصريحًا

استعمل النّظمُ الكريم مفردةَ ﴿ٱلۡمُعَذَّبِينَ﴾ دونَ مرادفاتها من مثل: (المُهلَكين)؛ لأنَّ التّعذيب هو الذي يتناسب مع سياق التّخويف، بخلاف الإهلاك، وذلك أنَّ الإهلاك وعيدٌ بالعاجل، والتّعذيبَ وعيدٌ بالآجِل صراحةً، وبالعاجل تلويحًا؛ ووعيدُ الآجِلِ والعاجِل أعظمُ وأشدُّ من وعيد العاجل.

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5416.

بلاغةُ التّعريض في الآية:

وعيدُ المُخاطَب بما هو منه بَريءٌ وعيدٌ مقصودٌ لمَن وقع فيه

في قول اللّه تعالى: ﴿فَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُعَذَّبِينَ﴾ تعريضٌ بالمُشركين بأنَّهم سيُعذَّبون[1]؛ ذلك أنَّ ما جاء النَّهي عنه من دعاء غير اللّه تعالى الذي يترتّب عليه التّعذيب واقعٌ فيه المشركون، وبلاغةُ التَّعريض تكمُن في الإشارة إلى شِدَّة العذاب، وعِظَم العقاب الذي سينال مَن يدعو من دون اللّه تعالى؛ لأنَّه إذا خوطِب النّبيّ ﷺ بهذا الوعيد - وحاشاه أن يقع فيما يُتَوَعّد عليه - فإنّ الوعيد بالمشركين أولى.

نوعُ واوِ ﴿وَأَنذِرۡ﴾ ودلالتُها:

الأقربون أولى النّاس بالدّعوة، ولا تُغنيهم قرابتُهم منَ الوعيد شيئًا

الواوُ في قول اللّه تعالى: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾ عَطفت الجملةَ على قوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ۝١٩٤﴾[2]، ودلالةُ هذا العطف: أنّه خَصّص إنذارَ العشيرة بعدَ التّعميم في قوله: ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ۝١٩٤﴾، والغرضُ من هذا التّخصيص: هو الاهتمامُ بهذا الخاصّ، ووجهُ الاهتمام: أنّ عشيرته أولى النّاس بقَبول نُصحه، وتعزيزِ جانبِه؛ ولئلّا يسبقَ إلى أذهانهم أنَّ ما يُلقيه الرّسول مِنَ الغِلْظة في الإنذار وأهوالِ الوعيد لا يقع عليهم، لأنَّهم قرابةُ هذا المُنذِر وخاصَّتُه[3].

مناسبةُ اختيارِ فعلِ الإنذار:

مقاماتُ التّبليغ تقتضي التّحذيرَ والتّخويف

اختار النّظمُ الحكيمُ الفعلَ (أنذر) في قول اللّه تعالى: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾ دون مرادفاته من مثل: (ادعُ) - والمقام مقام دعوة - ؛ لما في الإنذار من معنى التّخويف والتّحذير، الذي يتناسب مع إنذار النّبيّ ﷺ قومَه، فدلالةُ الإنذار: الإعْلام بالشَّيء الَّذي

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 200.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 201.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 201.

يُحذَر منه، وهذا يتناسب مع قوله تعالى: ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ١٩٤﴾؛ فكونه منَ المُنذِرين يقتضي أن يُنذِر عشيرتَه الأقربين، ومع قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾ تلويحًا بالعذاب إن لم يستجيبوا، وهذه مناسبة لفظيَّة دلاليّة في أمر الإنذار، وقد قال ﷺ: «فإنّي نذيرٌ لكم بين يديْ عذابٍ شديد»[1]؛ فالإنذارُ في البيان النّبويّ على وفْق الإنذار القرآنيّ، لذا فهو أنسب لهذا السّياق منَ الفعل (ادعُ).

غرضُ صيغةِ الأمر ﴿وَأَنذِرْ﴾:

وجـوبُ إنـذارِ عـشيرة النّبـيّ ﷺ الأقربين

غرضُ فعلِ الأمر ﴿وَأَنذِرْ﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ هو الوجوب، وهو وجوبُ إنذارِ عشيرة النّبيّ ﷺ الأقربين، ودلَّ الأمرُ بالإنذار على أنَّ الرّسول مأمورٌ في معاملة عشيرته كمعاملة بقيَّةِ الخَلْق.

غرضُ اختيارِ لفظِ العشيرة:

أولـى النّـاسِ بالدّاعي عشيرتُه القريبةُ منه

لفظُ العشيرةِ في قول اللّه تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ أنسبُ للسّياق من لفظ القوم؛ فمَقامُ دعوةِ النّبيّ ﷺ قومَه يحتاج إلى العشيرة، لأنَّ العَشيرَة تعني: أهلَ الرَّجُل الذين يتكثَّر بهم، بخلاف القوم، فقد لا يكون بينَ الرّجل وقومِه صلةُ قرابةٍ؛ لذا كان الرّسول ﷺ محتاجًا في بداية دعوته إلى مَن يُؤيِّده وينصرُه ويَشُدّ أزرَه، فالعشيرةُ إذا صدّقوه كانوا عونًا له وسندًا في نشر دعوته، وتبليغِ رسالته؛ فهم الذين يتكثَّر بهم، ومَن كانوا كذلك كانوا أولى النّاس بالدّعوة والإنذار.

فائدةُ إضافةِ العشيرة إلى الضّمير:

دعـوةُ الأقـارب تقتضي تمحيضَ النُّصح لهم

أضاف النّظمُ الكريم لفظَ العشيرة إلى ضمير النّبيّ ﷺ في قول

(1) أخرجه مسلم في صحيحه، الحديث رقم: (208).

اللّه تعالى: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾، ودلالةُ تلك الإضافة تحفيزُ النّبيِّ ﷺ وتحضيضُه على الاجتهاد في الدّعوة، والإخلاص فيها، وتمحيضِ النُّصح لعشيرته؛ لأنَّه منهم، وهم منه، فيتحقّق التّأثير المقصود منَ الدّعوة.

غرضُ الوصفِ بلفظ ﴿ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾:

دعــوةُ الأقــاربِ مجلَبةٌ للأباعد

وُصِف لفظُ ﴿عَشِيرَتَكَ﴾ بـ﴿ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾، والعشيرة قريبةٌ، فهذا من باب توكيد قُرب العشيرة، واجتلابِ قلوبهم إلى إجابة ما دعاهم إليه، وفيه تعريضٌ بأهل الاعتراض والتّكذيب منهم[1]، والحُجّة إذا قامت عليهم تعدّت إلى غيرهم، وإلّا كانوا علّةً للأبعدين في الامتناع، وألّا يأخذَهم ما يأخذ القريبَ منَ العطف والرّأفة بقريبه؛ فوجبَ على النّبيّ ﷺ أن يُحابيَ أقاربَه في الدّعوة[2].

دلالةُ صيغةِ الأقرب:

البَـدْءُ بدعـوةِ الأقـارب أنجعُ للدَّعوة وأنجح

(الأقرب) في قول اللّه تعالى: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾ على زنَة (أَفْعَل)، وقد جاء مقترنًا بالألف واللّام؛ وليس المرادُ بالصيغة التَّفضيلَ، بل معناه الصّفة، أي: العشيرة الموصوفة بالقُربى، ودلالة هذه الصّيغة: الإشارةُ إلى أنَّ "الاهتمامَ بشأن الأقربين أهمّ، فالبداية بهم في الإنذار أولى"[3].

بلاغةُ التّعريض في الآية:

التّـعـريـض كـاشـفٌ عن حقائق المعرَّضِ بهم، وفاضحٌ لأحوالهم

في قول اللّه تعالى: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾ تعريضٌ بأقارب النّبيّ ﷺ[4]، الذين لم يَرْعَوا حَقَّ القرابة، التي كانت توجِب عليهم حُسنَ الطّواعيَة والاقتداءَ بسيِّد الخَلْق، الذي أمره مولاه بحُسْن

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 202.
(2) ابن حجر العسقلانيّ، فتح الباري: 8/ 503.
(3) الخلوتيّ، روح البيان: 6/ 311.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 201.

إنذارِهم ورعايتهم، باعتبارهم العشيرة الأقرب؛ لكنَّ الإيذاءَ جاء من أقربِ النّاس إليه، ممَّن يُظنُّ منه الارعواءُ والاقتداء.

نوعُ واوِ ﴿وَٱخۡفِضۡ﴾ ودلالتُها:

التّناسُب بينَ الجُمَل يقتضي الوصلَ

الواو في قول اللّه تعالى: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ عاطفةٌ، حيثُ عَطفت هذه الجملة على جملة ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾، وهما جملتان إنشائيّتان، وصَلَتْهما الواوُ؛ لما بينهما منَ التّوسُّط بينَ الكمالَين؛ فهما متّفقتان في الإنشائيّة لفظًا ومعنًى، وبينَ الإنذار المليء بالتَّرهيب، والخَفض المليء بالتَّرغيب، مفارقةٌ لا تخفى، فناسبَ الوصلُ، وحسُنَ التّقابُلُ بينَ الأمر بالإنذار، والأمرِ بخفض الجَناح.

غرَض الأمر ﴿وَٱخۡفِضۡ﴾:

تواضعُ الدّاعي يفتح منافِذَ القلوبِ

الأمر بخفض الجناح في قول اللّه تعالى: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ للنُّصح والتّوجيه والإرشاد؛ فاللّه سبحانه وتعالى يوجِّه النّبيَّ ﷺ إلى إلانة الجانب، والاتّسام بالتّواضع مَعَ مَنِ اتّبعَهُ منَ المؤمنين، لتجدَ دعوتُه سبيلًا إلى نفوسهم، وفيه معنى الإلزام والإيجاب، لا سيَّما بعد الأمر بإنذار العشيرة.

براعةُ المجاز في تجسيد الأخلاق:

كثرةُ احتمالات التّوجيه البيانيِّ أمارةُ الثَّراء، وبرهانُ البَراعة

لمكانة التّواضع ولينِ الجانبِ في شخص القائد المُربّي، آثَرَ النَّظمُ الكريم استعمالَ خفضِ الجناح في قول اللّه تعالى: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، من أجل تجسيد هذه الصّفات العظيمة، وهو إمّا أن يكون كنايةً عن صفة التّواضع، وإمّا أن يكون استعارةً تمثيليّة، حيثُ شبَّه فيها الحاني العطوفَ على مَن معه مِنَ المؤمنين بالطّائرِ الذي يَخفِض جناحَه، ويحوطُ به فِراخَه، حتّى ينضجوا ويستغنوا عن كلاءَته وحمايته[1]، وهو تشبيهُ هيئةٍ بهيئة،

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5417.

فشَبَّه هيئةَ المتواضعِ بهيئة الطّائر؛ ذلك أنّ الطّائر إذا أراد أن ينحطّ للوقوع، كسَر جناحَه وخفضَه، وإذا أراد أن ينهض للطّيران رفعَ جناحَه، فجعلَ خفضَ جناحِه عندَ الانحطاط مثلًا في التّواضع ولينِ الجانب[1]؛ أو أن يكون مجازًا مرسلًا علاقتُه اللّزوم[2].

نُكْتَةُ دخولِ اللّامِ على الاسمِ الموصول ﴿لِمَنِ﴾:

الاتِّباعُ مِهمازُ الرِّفق، والإعراضُ صَوتُ الفِسق

اللّامُ الدّاخلةُ على (مَن) في قول اللّه تعالى: ﴿لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ لامُ التّعدية، تَعدّت إلى اسم الموصول (من)، ولم يأتِ النَّظمُ بالاسم الصّريح، كأن يُقال: (واخفض جناحك للمؤمنين)؛ وذلك لإظهار أمرِ الاتّباع، الذي هو صلة الموصول ﴿ٱتَّبَعَكَ﴾؛ لأنّه لكلِّ موصولٍ صلةٌ توضِّحُه وتُزيلُ الإبهامَ عنه، فأتباعُ النّبيِّ ﷺ منَ المؤمنين هم المقصودون بتواضع النّبيّ لهم، فكان ذِكر الاتّباعِ بمثابة التَّعليل للتّواضع، أي: لأنَّهم اتَّبعوك فتَواضَعْ لهم، ولأنَّ غيرَهم عصاكَ فأنذِرْهُ؛ وهذا من بديع التَّعليل البيانيِّ في القرآنِ الكريم.

بلاغةُ اختيارِ فِعلِ الاتِّباع:

مَن حقَّق الاتِّباع فقد أحرزَ حقيقةَ الامتثال

آثَرَ النَّظمُ الكريم استعمالَ فِعلِ الاتّباع في قول اللّه تعالى: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ﴾ دون مرادفاته، كالطّاعة أو الإيمان، مع أنّهما أعمُّ؛ وذلك لأنَّ لفظَ الاتّباع هو الأنسب بالسّياق، إذ فيه معانٍ يقتضيها المقامُ، فهو يدلُّ على الإيمان ابتداءً، فلا يتّبِعُ إلّا المؤمنُ؛ ويدلُّ على الطّاعة، بل هو دليلُ الطّاعة؛ لأنَّ الاتِّباع درجةٌ أخصُّ من عموم الطّاعة، والاتّباعُ يومِئُ إلى وحدة الاتّباع ووحدة الانقياد، فالمؤمنُ إنّما يتّبع رسولَه وهو في تمام العقل وكاملِ المَحبّة القلبيّة، فمَن حقّق الاتّباعَ فقد حقّق الامتثال.

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 340، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 4/ 586.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 133.

بلاغةُ استعمالِ ﴿ٱتَّبَعَكَ﴾ دون (تَبِعَكَ):

الاتّباع تكلّفٌ ومجاهدةٌ، والتّبعُ خضوعٌ بلا تعمّل

يُلمَح أنّ الفعل (اتّبع) من قول اللّه تعالى: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ فيه معنى الافتعال، وزيادةُ المبنى تدلّ على زيادة المعنى في الغالب، فهي تدلّ في الآية على التّعمُّل والتّكلّف والمجاهدة لدى القوم الذين لم تنصع قلوبُهم ابتداءً إلى الدّاعي ﷺ، فكان استعمالُها في السّياق أنسبَ، ويجوز أن يكون في صيغة الافتعال الدّالّةِ على التّكلُّفِ إشارةٌ إلى العقَبات التي واجهَها المؤمنون الأوّلون، أتباعُ النّبيّ ﷺ، وما تحمّلوه منَ العداوة والاضطهاد والتّعذيب في سبيل إيمانهم، فوَصْفُ تبعيّتِهم للنّبيّ ﷺ بصيغة الافتعال ثناءٌ عليهم، بالتّلميح إلى اجتهادهم واصطبارهم، وحَثٌّ للمتبوع بزيادة الاعتناء بهم، وخفضِ الجَناح لهم.

معنى حرف ﴿مِنَ﴾ ودلالتُه:

احتمالُ البيانِ والتّبعيض بحسب توجيه المُراد منَ المؤمنين

حرفُ ﴿مِنَ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ يجوز أن يكون بيانيًّا لعبارة ﴿لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ﴾، والمراد به المتابعةُ في الدّين، وهو الإيمانُ، والغرضُ من هذا البيان: التّنويه بشأن الإيمان، كأنَّه قيل: واخفض جناحَك لهم؛ لأجل إيمانِهم[1]، ويجوز أن يكون تبعيضيًّا، على أنَّ المُراد مِنَ المُؤْمنينَ المشارفون للإيمان، أو المصدّقون باللّسان[2]، وعلى هذا يكون في التّعبير مجازٌ مُرسل، حيثُ سمّاهم مؤمنين باعتبار ما سيؤلون إليه، ويكون المعنى: تواضَع لهؤلاء استمالةً وتأليفًا، أو يُراد بالمؤمنين الذين قالوا: آمنا، وهم صنفان: صنفٌ صدَّق واتّبع، وصنفٌ صدَّق فحَسْبُ؛ فقيل: ﴿مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ وأُريد البعضُ الذين صدّقوا واتّبعوا، أي: تواضع لهم محبّةً ومودّةً، أوِ اخفضْ جناحَك لبعض المؤمنين، وهم الذين

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 203.

(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 151.

اتّبعوك، ومن ثَمّ فصَلَهم، كأنّه قيل: "فإنِ اتّبعوكَ وأطاعوكَ فاخفض لهم جناحَكَ، فإن عصوكَ ولم يتّبعوكَ فتبرّأ منهم"[1].

نُكْتَةُ اختيارِ لفظ ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ دونَ (المسلمين):

الاتِّباعُ والإيمانُ اجتماعٌ لعمل القلب والأبدان

آثَرَ النّظمُ الكريم استعمالَ لفظِ الإيمان دونَ الإسلام، في قوله تعالى: ﴿لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ وذلك أنَّ لفظ الاتّباع دلَّ على العمل، وجاء بيانُ المُتّبعين بأنّهم مؤمنون؛ لبيان علّة الاتّباع، فجمعَ النَّظمُ الكريم بينَ اللّفظ الدّالّ على الإيمان الذي حرَّكهم، وعلى الاتِّباع الذي هو بمثابة البُرهان؛ وأيضًا ليكونَ الإيمانُ هو العنوانَ الأوضحَ في مقابل من كفر وجَحد.

بلاغةُ العدولِ إلى لفظ ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾:

بيانُ علّة الإكرام أصلٌ في بيانِ المعاني

آثَرَ النَّظمُ الكريم لفظَ ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ دونَ أن يُقال: (لمنِ اتّبعك منهم)؛ مُريدًا عشيرتَه، وهذا هو الظّاهر؛ فعدلَ إلى ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ليَعُمّ ويُؤذِنَ أنّ صفةَ الإيمان هي التي يَستحِقّ أن يُكرَم صاحبُها، ويُتواضَعَ لأجلها، سواء كان مَنِ اتّصف بها مِنَ عشيرتك أم من غيرهم[2]، ولو أتى بالضّمير العائد إلى قوله: ﴿عَشِيرَتَكَ﴾ لكان فيه لونٌ من ألوان الخصوص، والنَّظمُ يريد أن يطويَ صفحةَ ذِكْر عشيرتِه؛ للانتقال إلى عموم المؤمنين الذين آمنوا وصدّقوا واتّبعوا.

نوعُ فاءِ ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ﴾ ومعناها:

الكفرُ والإيمانُ يطرأ عليهما التّغيُّرُ والتّبديلُ، والأمرُ بيد العزيز الحميد

الفاء في قول اللّه تعالى: ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ إمّا أن تكون تفريعًا على جملة ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾، أي: فإن عصوا أمرَكَ المُستفادَ منَ الأمر بالإنذار، فما عليكَ إلّا أن تتبرّأ من عملهم[3]، وإمّا أن تكون الفاء فصيحةً، والضّمير في ﴿عَصَوْكَ﴾ يعود إلى ﴿ٱلْأَقْرَبِينَ﴾، أو إلى ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ ويُؤيّد عَودَه على المؤمنين

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 11/ 433.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 11/ 433.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 203.

أنّه أقربُ مذكورٍ، وأنّ خفضَ الجناح لهم مشروطٌ بأنّهم مؤمنون لا يعصونَك، فإن عصوكَ أيّها الرّسولُ فتبرّأ منهم[1]، والصّحيح أنَّ احتمالَ عودِ الضَّمير في ﴿عَصَوۡكَ﴾ على الجميع هو الأولى، أي: إن عصوكَ في إنذارك، أو إن عصوكَ بعدَ اتّباعِك؛ وفيه إيماءٌ إلى أنَّ الإنسان لا يأمَن على نفسه، ففيها تهييجٌ للمؤمنين؛ كما أنّ فيها توجيهَ الاتِّكال على العزيز الحميد، فإنَّ الأمر كلَّه بيد اللّه تعالى.

فائدةُ استعمالِ (إن) دونَ (إذا):

الفألُ الحَسَنُ رُكنٌ من أركانِ الدَّعوة وأصلٌ في الدَّوام

في قول اللّه تعالى: ﴿فَإِنۡ عَصَوۡكَ﴾ آثَرَ النّظمُ استعمالَ أداةِ الشّرط (إن)، التي تُفيد عدمَ قطعيَّة الوقوع، دونَ (إذا) المقطوعِ بوقوع فعلِ الشّرط معها، وغرضُ هذا الإيثار: انعقادُ قلبِ النّبيّ ﷺ على مَظنّة الخير فيهم؛ ولو قال: (فإذا عصوكَ)، لأفاد أنّ المعصية متحقّقةٌ، وهو ما يدفع الأملَ والفألَ الحَسنَ في دعوتهم، فكان اختيارُ (إن) هو مقتضى الحِكمة، ويجوز أن يكون استعمالُ (إن) للإشارة إلى أنّ عصيان القوم للنّبيّ ﷺ كان ينبغي ألّا يقع، ويكونَ في حيِّز العدم، بحيثُ لا يوجد أصلًا، تبعًا لعدم تحقُّق فعلِ الشّرط مع (إن)، فكان الأوجبُ عدمَ عصيان مَن يدعوهم إلى النّجاة منَ النّار.

بلاغةُ اختيار فِعلِ العصيان:

إذا تساوى العمومُ والخصوصُ، فالعمومُ أولى؛ لاتّساع المعنى وإطلاق الدّلالة

استعمل النّظمُ القرآنيّ في قوله تعالى: ﴿فَإِنۡ عَصَوۡكَ فَقُلۡ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ لفظَ ﴿عَصَوۡكَ﴾ دونَ مرادفاته؛ تفاؤلًا بعدم وقوع الشّرك، واستبعادًا له، أو للإشارة بأنّه يجب ألّا يقع، وقد يكون هذا التّعبيرُ تخفيفًا عنِ النّبيّ ﷺ، فإنَّ وقْعَ المعصيةِ ألطفُ من ذِكْر الشّرك، ففيه عدمُ مجابهةِ النّبيّ ﷺ بهذا اللّفظ الشّديد، خاصةً وأنّه في أوّل الدّعوة، التي يحتاج معها فتحَ أبوابِ الأمل في

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5417.

إيمان القوم، حتّى لا يتسلّلَ اليأسُ إلى قلبه ﷺ، وذلك على جَعْلِ فِعْلِ المعصية خاصًّا بالمُنْذَرين، واحتمالِ رَجْعِه للجميع يجعل لفظَ المعصية شاملًا لمعصية الاعتقاد، ومعصيةِ السّلوك، ومسالكُ العموم أولى منَ التّخصيص؛ لسَعَةِ الدّلالة، واتّساع المعنى.

نوعُ فاءِ ﴿فَقُلۡ﴾ ودلالتُها:

السـبراءةُ مـنَ العُـصاة نَـهجُ الأنبياء

فاء ﴿فَقُلۡ﴾ من قول الله تعالى: ﴿فَإِنۡ عَصَوۡكَ فَقُلۡ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ رَبطت الجوابَ بالشّرط، وهي في أصل معناها تُفيد التّعقيب، وفي هذا إشارةٌ إلى وقوع البراءة عقِبَ العصيان وقوعًا بلا مُهلة؛ دلالةً على سُرعة استجابة النّبيّ ﷺ لربّه؛ فبِمُجرَّد وقوع العصيان يقع قولُه: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ﴾.

غرضُ الأمرِ (قل):

إعلانُ البراءةِ رادعةٌ عن الكُفر ومُجابِهَةٌ للباطل

الأمر في قول الله تعالى: ﴿فَقُلۡ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ للإلزام والوجوب بأن يُسمعَهم البراءةَ منهم، خطابًا صريحًا واضحًا، وغرضُ الأمر: بيانُ المفاصَلة بينَ الحَقِّ والباطل، مع ما في الجملة منَ الإتيان بالاسميّة التي تُفيد ثبوتَ البراءة من هؤلاء العُصاة، ولو لم يُذْكَر لفظُ القولِ لتهيَّأتِ الجُملةُ للفعليّة، فيُقال مثلًا: (فإن عصوكَ فتبرّأ)؛ فلا يكون فيها دوامُ البراءة وثبوتُها، كما في الجملة الاسميّة.

بلاغةُ التّوكيدَ في ﴿إِنِّي بَرِيٓءٞ﴾ ودلالتُه:

دوامُ البراءةِ قائمٌ بدوام العصيان

جاء التّوكيد في قول الله تعالى: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٞ﴾ بحرف (إنّ)، وجاء خبرُها اسمًا لا فعلًا، فلم يقل: (أبرَأ)؛ فاستعمل النّظمُ القرآنيُّ التّأكيدَ مرّتَين، مرّةً بأداة (إنّ)، ومرّةً بالتّعبير بالاسم ﴿بَرِيٓءٞ﴾، والتّأكيد بـ (إنّ) حقَّق معنى البراءةِ، وأثبتَها في قلب النّبيّ ﷺ ثُبوتًا لا شَكَّ فيه؛ والتّوكيد بالاسم أفاد دوامَ البراءةِ بدوام عصيانِهم، وأنّها لا تنفكُّ عنهم ما داموا عنِ العصيان غيرَ منفكّين، وهذا فيه تخويفٌ شديدٌ لهؤلاء العِصاة.

بلاغةُ اختيارِ مفردة ﴿بَرِيٓءٞ﴾:

المبالغةُ في براءة النّبيّ ﷺ من العصاة

أتتِ الآيةُ باسم الفاعل منَ البراءة في قوله تعالى: ﴿فَقُلۡ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ﴾؛ لإعلان البراءة منَ الذين عصَوْا رسولَ اللّه ﷺ، وآثَرَت هذه المفردةَ دونَ سواها لِما فيها منَ التّخلُّص والتّباعد ممّا تُكرَه مُجاورتُه[1]، فعندَ التَّصريح بالبراءةِ ينشأ عنه الإبعادُ والتّنائي بينَ المُتبرِّئ والمُتبرَّأِ منه، والتّخلُّصُ من أدنى الملابسات والعلاقات بينهما.

معنى (مِن) ودلالتُها:

الكشفُ عن أعمال العُصاة وتبيين سوءِ فعلِهم

(مِن) في قوله: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ بيانيّةٌ، تكشِف عن أعمال العصاة، وتبيّن سوءَ فعلِهم، وطَيش صنيعِهم، حيثُ كفروا باللّه ورسوله.

نُكْتَةُ التّعبير بأداة (ما):

تعليل البراءة وكونها من عمومِ الأعمال

تحتمل (ما) في قول اللّه تعالى: ﴿فَقُلۡ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ أن تكون موصولةً، أي: بريءٌ منَ الذي تعملونه، ودلالةُ التّعبير بالموصول دونَ ذِكر الاسم الصّريح، إذ لم يُقل: (إنّي بريء من أعمالكم)؛ للاستشهاد عليهم بما في حيِّز الصِّلة؛ لأنَّ الأعمال هي سببُ المعصية، والمعصية هي سببُ البراءة منهم، وتحتمل (ما) أن تكون مصدريَّةً، والتّقدير: (إنّي بريء من أعمالكم)، لدلالتها على العموم، ويؤيِّده استعمالُ (مِن)، وعلى الاحتمالَين يكون استشهادٌ على العصاة بأعمالهم الخارجةِ عن نطاق القَبول، وبعموم أعمالِهم، ممّا يُنبئ أنّها أعمالٌ صدرت عن باطلٍ في الاعتقاد والسّلوك.

نُكْتَةُ التّعبير بالمضارع ﴿تَعۡمَلُونَ﴾:

إقامةُ الحُجّة على المُخاطَبين

جاء التّعبيرُ بصيغة المضارع ﴿تَعۡمَلُونَ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿فَقُلۡ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ﴾؛ لإقامة الحُجَّة عليهم فيما يقومون به

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات: (برأ).

من أعمالٍ وقتَ البراءة منهم، فهي ليست أعمالًا سابقةً أو لاحقة، بل قائمةٌ مستمرّة.

نُكْتَةُ العدولِ عن لفظ المعصية إلى لفظ العمل:

المقامات تُنادي على الألفاظ، والمعاني متقدّمة على المباني

ممّا يقتضيه ظاهرُ قولِه تعالى: ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ﴾ أن يُقال: (إنّي بريءٌ ممّا تعصون)، لكنَّه قال: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾، فعدلَ عن لفظ المعصية إلى لفظ العمل؛ لإفادة عموم وشمولِ الأعمال الشّركيّة والسّلوكيّة، فكلّ ذلك ينطبق عليه لفظُ العمل، ولو ذَكر المعصيةَ لتوُهِّم أنَّ البراءة منَ المعاصي، وأنَّ لهم أعمالًا موصوفةً بالطّاعة، فكان ذِكْر لفظِ العمل نصًّا في كون الباطل المُتبرَّأ منه هو جميعُ الأعمال الصّادرة منهم؛ وهو ما ينساب مع لفظ البراءة التي تعني التَّخلّصَ من عموم أعمالِهم دونَ استثناء، فإنَّ المقاماتِ مناديةٌ على الألفاظ.

نُكْتَةُ اختيارِ لفظِ العمل دونَ لفظ الفعل:

البراءةُ تكون منَ الأعمال الصّادرة عن قصد

تتّضِحُ دِقّةُ الأسلوبِ القرآنيّ في إيثار لفظ ﴿تَعْمَلُونَ﴾ دونَ استعمال (تفعلون) في قوله تعالى: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾؛ ذلك أنَّ العمل يكون مقصودًا من فاعله، فالمُرادُ هو البراءة منَ الأعمال التي كانت عن قصدٍ من فاعلها، وهو يدرك أبعادَ عملِه وسلوكِه، لا الأفعالِ التي هي عبارةٌ عن سجايا وأخلاقٍ جبلّيَّةٍ، ومِن ثَمّ، فإنّ البراءة لا تكون إلّا من الأفعال التي انعقد على فعلها القلبُ، وذهب إليها القصدُ، وتوجّهت إليه الهمّةُ.

غرضُ حذفِ متعلّق الفعل ﴿تَعْمَلُونَ﴾:

لِيَدْخُل كلُّ عملٍ قاموا به، ممّا عُلِم أو خَفيَ

حُذفَ متعلّق الفعل ﴿تَعْمَلُونَ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾؛ لتنزيله منزلةَ الفعل اللّازم، إذ هو فعلٌ متعدٍّ، يحتاج إلى معمول؛ أو للعموم، ليَدْخُلَ فيه كلُّ عملٍ قاموا به، ممّا عُلِم وممّا خَفيَ.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾﴾ [الشّعراء: 217 - 220]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

لا تستقيم البراءةُ إلّا بالتّوكُّل على الله تعالى

لما بيَّنتِ الآيةُ السّابقةُ موقفَ البراءةِ منَ العصاة والتَّنائي عنهم: ﴿فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾؛ ناسبَ أن يُذْكَر ما يترتّب على البراءة من أعداء اللّه سبحانه وتعالى، فجاء الأمرُ بالتَّوكل على العزيز الرّحيم، إذ مقتضى البراءة منَ النّاس الالتجاءُ إلى ربِّ النّاس، والتّوكُّلُ عليه في جميع الأحوال والمقامات، فهو الذي يَرْعَى عبدَه، وهو الذي يُراقب سلوكَه في الأفعال كلِّها؛ فهو انتقالٌ من بيان البراءة منَ العصاة، إلى بيان التَّوكّل على اللّه تعالى.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَقُومُ﴾: (قوم) أصلٌ يدلُّ على انْتِصابٍ أَوْ عَزْمٍ، يُقالُ: قامَ، يَقومُ، قَوْمًا، وقيامًا، أي: وقَفَ وانْتَصَبَ، والقَومَةُ المَرَّةُ الواحدَةُ، إذا انْتَصبَ[1]، والإقامَةُ: الثَّباتُ والاسْتِقْرارُ، يُقالُ: أَقامَ بالمَكانِ، أيْ: ثَبَتَ واسْتَقَرَّ فيه؛ وتُطْلَقُ بِمعنى الدَّوام على الشَّيْءِ، كَقَوْلِهم: أَقامَ الشَّيءَ بمعنى أَدامَهُ[2]، ومِن مَعانيها: القِيامُ بالشَّيءِ، مِن أَقامَ الشَّيْءَ: إذا قَوَّمَهُ وسَوّاهُ؛ كَما تُطْلَقُ الإقامَةُ أيضًا ويُرادُ بها: جَعْلُ القاعِدِ قائمًا[3]، ومعنى القيام في قول اللّه تعالى: ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ﴾: الصَّلاةُ في جَوْفِ اللَّيلِ، إذ غلَبَ هذا الاسمُ عليه في اصطلاحِ القُرآنِ[4].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قوم).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (قوم).
(3) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، وابن سيده، المحكم، والزّبيديّ، تاج العروس: (قوم).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 204.

2) ﴿وَتَقَلُّبَكَ﴾: (قلب) أصلٌ يدُلُّ على رَدِّ شَيءٍ مِنْ جِهَةٍ إلى جِهَةٍ؛ تقولُ قَلَبْتُ الثَّوبَ قَلْبًا، وقَلَبْتُ الشّيْءَ: كَبَبْتُه، وقَلَّبْتُهُ بيدي تَقْليبًا[1]، والقَلْبُ: صَرْفُكَ إنسانًا، تَقلِبُه عن وجهه الَّذي يُريده، وقَلَّبَ الأُمورَ: بَحَثَها، ونَظَر في عَواقبها[2]، والتَّقَلُّبُ: التَّصرُّف؛ وتَقلُّبُ القلوبِ والأَبصارِ: اضطرابُها عن مواضِعها مِنَ الخوفِ والوَجَلِ كما يتقلَّبُ المَرْءُ في مكانه، والتَّقلُّبُ في السّاجدينَ في الآية: هو صلاتُهُ ﷺ في جماعاتِ المسلمينَ في مسجده[3].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

التَّوكّل على الله تعالى معذوقٌ ببصيرةِ أنَّه العزيزُ الرّحيمُ

يأمر اللّهُ ﷻ النّبيَّ ﷺ في هذه الآيات بالتّوكُّل عليه؛ فهو العزيز الذي يقهر أعداءَه وينصر أولياءه، وهو الرَّحيم الذي يكفيه شَرَّ مَن يعصيه منهم ومِن غيرهم، وهو الذي يراه في جميع أحواله، ويرى تصرُّفَه فيما بينَ المُصَلّين بالقيام والرّكوع والسّجود والقعود إذا أَمَّهم، وهو السّميع لما يقوله العليمُ بما يَنويه[4].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

نوعُ واوِ ﴿وَتَوَكَّلْ﴾ ومعناها:

التّوكل على الله عِصمةٌ من كلّ سوء

الواو في قوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ عاطفة، عطفت هذه الجملةَ على قوله: ﴿فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ﴾، والمعنى: (إن لم ينتفعوا بإنذارك ولم ينجعْ فيهم وعظُك تبرّأْ منهم، وكِلْ أمرَك وأمرَهم إلى العزيز الغالب القاهر، واشتغل بدعوة من يَقْبل دعوتَك)[5]، ويجوز أن تكون معطوفة على جملة ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ﴾[6].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قلب).
(2) ابن سيده، المحكم، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (قلب).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 249، و19/ 204.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 341، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 151، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 2/ 586.
(5) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 11/ 435.
(6) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 19/ 130.

توجيه القراءات:

بناء الجملة على التفريع أو التشريك لإفادة المعاني

قرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر: ﴿فَتَوَكَّلْ﴾، وقرأ الباقون: ﴿وَتَوَكَّلْ﴾؛ فعلى القراءة الأولى: عطف الأمر بالتّوكل بفاء التّفريع، فيكون تفريعًا على قوله: ﴿فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ٢١٦﴾ [الشعراء: 216]؛ تنبيهًا على المبادرة بالعَوذ من شرّ أولئك الأعداء، وتنصيصًا على اتّصال التّوكّل بقوله: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٞ﴾، وعلى قراءة الباقين: ﴿وَتَوَكَّلْ﴾ هُوَ عَطْفٌ عَلَى جَوَابِ الشَّرْطِ، أَي: (قُلْ إِنِّي بَرِيءٌ وتَوَكَّلْ)، وعَطْفُهُ على الجَوابِ يَقْتَضي تَسَبُّبَهُ على الشَّرْطِ، كَتَسَبُّبِ الجَوابِ، وهوَ يَسْتَلْزِمُ البِدارَ بِهِ، فمَآلُ القِراءَتَيْنِ واحِدٌ وإِنِ اخْتَلَفَ طَريقُ انْتِزاعِهِ(1).

غرض الأمر بالتوكّل ودلالتُه:

التّوكلُ على الله كفايةٌ، واللّجوءُ إليه أمنٌ

الأمرُ بالتوكّل في قول الله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ يحمِل معنى النّصحِ والإرشادِ للنّبيّ ﷺ؛ لأنَّ التّوكلَ على الله كفايةٌ، واللّجوءَ إليه أمنٌ منَ الأضرار، ومنجاةٌ منَ الأخطار.

فائدةُ ذِكْر التّوكل في سياق الإنذار:

التّوكّل على الله يزيلُ المخاوفَ ويُبدِّدُ المخاطرَ

ذِكْرُ التّوكّل في سياق الإنذار - أي: في قوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ بعد قوله: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾ - أمرٌ يقتضيه المقام، لأنَّ الإنذار تخويفٌ وتهديد، وتحذيرٌ ووعيد، والمُنذِرُ قد يَلقى مِنَ القوم عنتًا وصدودًا، وأذًى وجُحودًا؛ فالتّوكّل على الله يكون لهذه الأمور مانعًا، ولها دافعًا، فالذي يُفوّض أمرَه إلى مَن يملك أمرَه ويَقْدِر على نفعه وضره(2) لا شَكّ أنّه سيكون من عناية الله في المحلّ الأرفع.

بلاغةُ استعمالِ حرف الاستعلاء ﴿عَلَى﴾:

المُتوكِّلُ ثابتُ الخُطى غيرُ متأثِّرٍ بتيّارات الفتن

استعمل النّظمُ حرفَ الاستعلاء في قوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾؛ للإيماء إلى أنَّ المُتوكِّل ينبغي أن يكون متمكّنًا في

(1) ابن الجزري، النشر: 2/336، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 203.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 341.

طريق التَّوكّل على اللّه تعالى، لا تجرُفُه تيّاراتُ الفتن، ولا تُضلُّه ظلماتُ الطُّرُق؛ فهو على بيِّنةٍ من أمرِه، وعلى سداد من هديه.

نُكْتَةُ اقترانِ الاسمَين ﴿ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾:

اقترنت صفةُ الرّحمة بالعِزّة في قول اللّه تعالى: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾؛ زيادةً في تأنيسِ النّبيِّ ﷺ، والرِّباطِ على قلبه في مواجهة عشيرته، فصِفةُ العِزّة تُشير إلى قَهْر أعدائِه، وصفةُ الرّحمةِ تُشير إلى نُصرته عليهم[1]؛ فجمعَ له قَهْرَ الأعداءِ ونَصْرَ أهلِ الإيمان، فاللّهُ بعِزَّته قادرٌ على تغلّبه على عدوّه، وهو برحمته يعصمُه منهم[2].

يَجْدُر بالمؤمن أن يتوكّل على مَن ينصرُه بالرّحمة، ويقهرُ أعداءَه بالعِزّة

دلالةُ تقديم ﴿ٱلۡعَزِيزِ﴾ على ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾:

لما كانت العِزَّةُ حالةٌ مانعة للموصوف بها من أن يُغلَب، والعَزيزُ: الذي يَقْهَر ولا يُقهر[3]، كان تقديمها على صفة الرّحمة في قول اللّه تعالى: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ أولى بالسّياق؛ لأنَّ مُنذِرَ القوم المُكذّبين قد يعتري قلبَه وجَلٌ من شِدَّة إنذار قومِه، فيخشى ضررَهم، ويتوقّعُ خطرَهم، فيأتي العزيزُ بسطوته وقهره ليكون أمنًا للمُنذِر ﷺ، وتكون صفةُ ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ بمثابة التّسلية للمنصور باللّه العزيز، وهو آتٍ في اقتضاء مقامِ التّسلّي عنِ المشاقّ اللّاحقة منَ القوم إليه[4].

مـقـامُ الـنَّـصـر يقتضي تقديمَ الـعِـزَّة على الرَّحمة

نُكْتَةُ تكرارِ الاسمَين في السّورة كلِّها:

تكرّر وصفُ ﴿ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ في أواخر كلّ قصّة من قصص سورةِ الشّعراء، ثمّ ذُكرا في قول اللّه تعالى: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾؛ وكان غرضُ هذا التّكرار تثبيتَ قلوبِ الأنبياء في مواجهة الجاحدين، الذين قد يقع منهم أذًى، ولبيان أنَّ اللّه تعالى يعامل

سـنَّـةُ الـلـه في العقابِ والنّصرة واحـدةٌ مع جميع الرّسل

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 536.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 204.
(3) الرّاغب، المفردات: (عزّ).
(4) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 11/ 435.

رسلَه معاملةً واحدةً في عقاب الجاحدين ونصرةِ المؤمنين، وفيه تلويحٌ بأنَّ ما كان للسّابقين قد يكون للمُعاصِرين، فهو تحذيرٌ ووعيدٌ ضمنيٌّ وتنبيهٌ قرآنيّ.

فائدةُ الوصفِ بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِى﴾:

الإشعارُ بخصوصيّة عنايةِ الله برسله الكرام

الاسم الموصول (الذي) في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ﴾ وصْفٌ لقوله: ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾، وهذا الوصف قُصِد به لازمُ معناه، وهو أنَّ النّبيَّ ﷺ بمحلٍّ كبير من عناية اللّه ﷻ، لأنَّه سبحانه وتعالى يعلم توجُّهَه وتقلُّباته، وجميعَ تصرّفاتِه[1]؛ والإتيانُ بالاسم الموصول للإشعار بخصوصيَّة العناية الرّبانيَّة، فإنَّ ذلك لا يكون للنّبيِّ إلّا منَ العزيز الرّحيم.

دلالةُ الفعل ﴿يَرَىٰكَ﴾، وعِلّةُ مجيئِه مضارِعًا:

حفظُ الله لنبيّه سِترٌ وحِفظٌ وعناية

دلَّ الفعل ﴿يَرَىٰكَ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ﴾ على أنَّ النّبيَّ ﷺ مشمولٌ بحفظ اللّه وعنايته، فهي رؤيةٌ خاصّة، تجعل النّبيَّ ﷺ في عين اللّه إقبالًا وتقبُّلًا، كما قال اللّهُ ﷻ: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطّور: 48][2]، وأتى بصيغة المضارع لبيان التَّجدُّد الاستمراريّ في حفظ اللّه لنبيّه، وأنّ العناية الإلَهيّة ترعاه وتحفظه.

فائدةُ استعمالِ الظّرف ﴿حِينَ﴾:

حياةُ النّبيِّ كلُّها في عناية الله ورعايته

في اختيار لفظ ﴿حِينَ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ﴾ دلالةٌ على أنَّ حفظَ اللّه تعالى لنبيِّه ﷺ هي في جميع أزمان قيامه في الصّلاة، فهو محفوفٌ بعصمة اللّه تعالى في جميع حركاته وسكناته؛ ومن كان كذلك، وعَلِم أنّه بمشهد الحَقّ، راعى دقائقَ حالاتِه وخفايا أحوالِه مع الحقّ[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 204.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 204.
(3) الخلوتيّ، روح البيان: 6/ 313.

بلاغةُ المجازِ المُرسل في قوله: ﴿تَقُومُ﴾:

القيامُ أعظمُ أركانِ الصّلاة، إذ فيه قراءةُ القرآن

في قول اللّه تعالى: ﴿حِينَ تَقُومُ﴾ مجازٌ مرسلٌ في القيام علاقتُه الجُزئيّة؛ حيثُ أَطْلَق القيامَ - وهو جُزءٌ - وأراد الصّلاة، وخُصّت رؤيةُ اللّه ﷻ بحال قيامه ﷺ لأنَّها أشرف الأحوالِ التي يُحِبّ النّبيُّ أن يراه اللّهُ عليها، وهو حالُ قيامِه بين يدي ربّه للصّلاة[1].

دلالةُ صيغةِ المضارع للفعل ﴿تَقُومُ﴾:

كناية عن كثرة القيام وطوله

دلَّ الفعلُ المضارع ﴿تَقُومُ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ﴾ على تجدُّدِ قيامِه ﷺ في صلاته، وهو كنايةٌ عن كثرة القيام وطولِه.

غرضُ حَذْفِ متعلّق الفعل ﴿تَقُومُ﴾:

قيام النّبيّ ﷺ بين يدي اللّه سلوكٌ جبليّ

حُذِفَ متعلّق الفعل ﴿تَقُومُ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ﴾؛ وذلك لبيان أنَّ القيام في الصّلاة هو سلوكُ النّبيّ ﷺ، وأصبحَ شبيهًا بالسّلوك الجبليّ، فقيامُه في الصّلاة أشهرُ من أن يُقيَّد.

نوعُ واو ﴿وَتَقَلُّبَكَ﴾ ودلالتُها:

العبدُ في عناية اللّه تعالى في حال الانفراد والاجتماع

الواو في قول اللّه تعالى: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ عاطفةٌ، حيثُ عطفت فعلَ التّقلّب على الكاف في فعل الرّؤية ﴿ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ﴾، والمقصودُ بالخطاب: النّبيُّ ﷺ، حيثُ جاء الخطاب له في حال انفراده بالصّلاة ﴿يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ﴾، وفي حال اجتماعه لها بغيره ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ﴾؛ فهو في جميع أحوالِه ﷺ التّعبديَّةِ برعايةِ اللّه تعالى؛ ولولا توفيقُ اللّه تعالى لعبدِه ونبيِّه ما وُفِّق إلى هذا المقام الكريم.

بلاغةُ الاستعارةِ في فعل التّقلُّب:

ملازمةُ النّبيّ ﷺ لجماعة المسلمين وثباتُه فيهم

التَّقلُّب مصدر للفعل (تَقَلَّبَ)، يقال: تَقَلَّبَ الشّيءُ ظَهْرًا لبَطْنٍ[2]؛

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 10/ 185.
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (قلب).

ويُعنى به: الذّهاب والمجيء، فيكون في قول الله تعالى: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ مجازًا[1] عنِ الانتقال بينَ المُصَلّين، وهو تَصرّفُ النّبيّ ﷺ بينَ السّاجدين بالقيام والرّكوع والسّجود، وتقلّبُ أحوالِه بينَهم؛ فالعبارةُ مجازٌ عن ذلك، وهي استعارةٌ تصريحيّة تبعيّة، شَبَّه انتقالَه في أحوال الصّلاة بالتّقلّب؛ لبيان ثباته فيهم، فهو لا يَعْدو أن يكون متقلّبًا فيهم.

دلالةُ استعمال حرفِ الظَّرفيَّة ﴿فِي﴾:

تصويرُ وحدة صفّ المُصلّين، واجتماعِ قلوبِهم

آثَرَ النَّظمُ الكريم في قوله تعالى: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ استعمالَ حرفِ الظَّرفيَّة ﴿فِي﴾، دون أن يُقال: (وتقلُّبَك بين الساجدين)؛ للدّلالة على شِدَّة مخالطته ﷺ للمُصلّين، ودوام ملازمتِه لهم؛ فقدِ انتظم في سِلْكِهم، وذابَ في صفّهم قيامًا وركوعًا وسجودًا، فهو لبيان أنَّه فيهم قد استقرَّ استقرارًا ثابتًا، لا ينعدل عنهم بحالٍ منَ الأحوال.

بلاغةُ المجازِ المُرسل في الوصف بالسّجود:

السُّجودُ مَكْمَنُ الاطمئنان، وسِرّ الدُّعاء

المُراد بالسّاجدين في قوله تعالى: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ﴾: المؤمنون، والمعنى: (وتقلُّبَكَ في المؤمنين)[2]؛ أو المُراد: المصلّون، إلّا أنّ النّظمَ عدل عنها إلى التّعبير بالسّاجدين؛ لبيان أنّ أشرف حالاتِ المؤمن تكون في السّجود، الذي يكون فيه العبد أقربَ من ربّه، فـ"السّجود أشرفُ الأركان"[3]؛ ففي التّعبير مجاز مرسل، علاقتُه الجُزئيّة.

براعةُ الجمعِ بين مجاز القيام ومجازِ السّجود:

الانتقالُ من رُكنِ القيامِ منفردًا إلى رُكن السّجود جماعةً

بعد أن ذَكَر في الآية السّابقة ﴿تَقُومُ﴾، وهو مجاز مُرسل علاقتُه الجزئيّة عن الصّلاة، ذَكَر في هذه الآية ﴿ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ وهو

(1) الشهاب الخفاجي، كفاية الراضي وعناية القاضي: 7/ 28.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 198.
(3) الشهاب الخفاجي، كفاية الراضي وعناية القاضي: 7/ 28.

مجازٌ مرسلٌ علاقتُه الجُزئيّة عنِ الصّلاة؛ فجمعَ بين لفظ القيام والسّجود، إذ إنَّ قيامَه ﷺ في الصّلاة أطولُ ما يكون، وسجودَ المؤمنين واجتماعَهم في الدّعاء أشرفُ ما يكون، وهو انتقالٌ من ركن القيام الذي آثَرَ فيه حالَ الانفراد، وركنِ السّجود الذي أومأ فيه إلى حال الاجتماع.

بلاغةُ الفصل بـ﴿إِنَّهُۥ﴾:

بيـانُ الأوامـر بتعليلِ الخطاب وطمأنة القلوب

فُصِلَت جملةُ ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ عمّا قبلَها؛ لأنّها وقعت تعليلًا للأمر في قوله تعالى: ﴿فَقُلۡ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ﴾، ووقعت تعليلًا أيضًا للأمر في قوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾، فصِفةُ السّميع مناسبةٌ للأمر بالقول ﴿فَقُلۡ﴾، وصِفةُ العليم مناسبةٌ للأمر بالتّوكّل ﴿وَتَوَكَّلۡ﴾؛ أي: إنّه يسمع قولَكَ، ويعلم عزمَكَ[1]، وفي التَّعليل بيانٌ للأوامر السّابقة.

بلاغةُ التّوكيد في الآية:

من شأنِ توكيد الخطاب تثبيتُ معانيه وطمأنةُ سامعيه

اجتمع في قول اللّه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ ثلاثةُ مؤكِّداتٍ، وهي: التّوكيد بحرف (إنّ)، وله من تحقيق المعنى وتأكيدِه نصيبٌ كبير، والتّعبير باسميّة الجملة، فهو أوكد للمعنى منَ التّعبير بالفعليّة، وضمير الفَصْل ﴿هُوَ﴾، إذ كان يجوز أن يُقال: (إنّه السّميع العليم)، لكنّ نُكْتَةَ استعمالِ ضميرِ الفَصْل هي إفادةُ التّقويَة[2]، أو أنْ يكون للحَصْر، أي: حصرِ صفةِ السّمع والبصر في اللّه ﷻ، باعتبار الرّقابة والعناية الكاملة، وأنّ ما سوى ذلك لا يُعتدّ به؛ فسَمعُ البشرِ محدودٌ، وعِلْمُهم قاصرٌ، أمّا سمعُ اللّه وعِلْمُه فلا يُحدّان، فاجتماعُ تلك المُؤكِّدات في هذا التّعبير زيادةُ تثبيتٍ وطمأنةٍ لقلب النّبيّ ﷺ، حتّى يُنذِرَ القومَ بلا خوفٍ أو وجَلٍ.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 204.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 204.

نُكْتَةُ اقترانِ اسمَي ﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾:

جمعَ النَّظمُ الكريم بين صفتَيِ السّمعِ والعِلْمِ في قول اللّه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾؛ لأنَّهما يكشفان عن كلِّ ما يكون منَ الإنسان، إجهارًا كان أو إسرارًا؛ فالسّمعُ للأصوات، والعِلْمُ بالنّيّات، واللّهُ سميعٌ بما ينطق به اللّسان، عليمٌ بما يدور في الجَنان، وهذا يجعل الفِئةَ المؤمنة لا تقول إلّا حقًّا، ولا تنطق إلّا صدقًا، ذِكرًا وتمجيدًا، وتكبيرًا وتحميدًا، ولا ينعقد قلبُها إلّا على إخلاص الطّاعة، لأنَّ اللّه عليم بالنّوايا.

سَمعُ اللهِ وعِلمُه محيطان بكلِّ أحوالِ العِباد

﴿هَلۡ أُنَبِّئُكُمۡ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ٢٢١ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ ٢٢٢ يُلۡقُونَ ٱلسَّمۡعَ وَأَكۡثَرُهُمۡ كَٰذِبُونَ ٢٢٣﴾ [الشّعراء: 221 - 223]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

الانتقالُ من بيان صفات المصطفى إلى صفات ضِدّه

بعد أن بيَّنتِ الآياتُ السّابقة رعايةَ اللّه وعنايتَه بنبيِّه ﷺ في عباداته وجميع أحوالِه، وأنَّ من كان هذه حالُه فإنَّه لا ينزل عليه إلّا ملائكةُ الرّحمن بالقرآن - ناسب أن تنتقل الآياتُ إلى بيان على مَن تنزّل الشّياطينُ حقًّا، وأنَّ ما يَظنُّه المشركون من أوهام باطلة لا تَليق بمَن رعاه اللّهُ واصطفاه، فهو انتقالٌ من بيان أوصافِ المصطفى، ورعايةِ المرسِل به سبحانه، إلى بيان أوصاف ضِدِّه، وطَردِ الرّحمن له.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَفَّاكٍ﴾: (أفك) أصلٌ واحدٌ يدلُّ على قَلبِ الشّيءِ وصَرفِه عن جهته[1]، ومنه الأَفْكُ: وهو القَلْبُ والصَّرْفُ، لأنَّ الكذبَ مَصروفٌ عنِ الوَجْه الحَقِّ، وكُلُّ قَوْلٍ مَصروفٍ عن الحَقِّ فهو إفْكٌ[2]، والإفْكُ: الكَذِبُ، ورَجُلٌ أَفّاكٌ، أي: كَذّابٌ، يُقال: أَفَكَهُ يَأْفِكُهُ أَفْكًا: إذا كَذَبَ عليه[3]، والأفّاكُ: الذي يَأفِكُ النّاسَ، أي: يَصرِفُهُم عنِ الحَقِّ بباطِلِه[4]، ومِن مَعاني الإفْكِ أيضًا: الإثْمُ والزّورُ والبُهْتانُ والباطِلُ[5]، والمراد بالأفّاك في قول اللّه تعالى: ﴿تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ﴾: هو الإنسانُ الكثيرُ الإفكِ، وهو أشنعُ الكَذبِ وأقبَحُه[6].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أفك).
(2) الجوهريّ، الصّحاح، وابن الأثير، النّهاية: (أفك).
(3) المناويّ، التّوقيف على مهمّات التّعاريف، ص: 81، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 219.
(4) ابن منظور، لسان العرب: (أفك).
(5) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (أفك).
(6) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 13/ 147.

2) ﴿يُلۡقُونَ﴾: (لقي) أَصْلٌ يَدلُّ على طَرْحِ شَيْءٍ[1]، والإلقاءُ: طَرْحُ الشَّيءِ حيثُ تلقاه، أي: تراه، ثمَّ صارَ في التَّعارف اسمًا لكلِّ طَرْحٍ[2]، ويُطلَقُ على الإفْضاءِ بالكلام ﴿يُلۡقُونَ ٱلسَّمۡعَ﴾، وعلى حُصولِ الشَّيءِ في النَّفْسِ، كأَنَّ مُلْقيًا ألقاهُ، أَي: مِنْ غير سَبْقِ تهيُّؤ، وقولُه: ﴿أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٞ ٣٧﴾ [ق: 37]، فعبارةٌ عنِ الإصغاءِ إليه[3]، وحقيقةُ الإلقاءِ في قول اللّه تعالى: ﴿يُلۡقُونَ ٱلسَّمۡعَ﴾: شِدَّةُ الإصغاءِ، حتَّى كأنَّه إلقاءٌ للسَّمع من موضعه[4].

المَعْنى الإجْماليُّ:

علاقةُ الشّياطينِ بالأفّاكين وطيدةٌ، ومَفْسَدتُه طريدةٌ

تُخبر الآياتُ الكريمة بصفات من تتنزّل عليه الشّياطين، بعد نفي أن تكون نازلةً على سيِّد الخَلْق ﷺ، وهم الكَهَنةُ الكَذّابون الآثمون، الذين يتخرَّصون بالباطل، فتُلقي الشّياطينُ سمعَها إلى السَّماء لمحاولة الاستراق، وذلك قبل أن يُمنَعوا، فتُلقي الشّياطينُ ما سمعوه إلى الكهنة، فيكذبون معها مائةَ كِذْبَة، وتُلقيه الكَهَنةُ إلى النّاس ترويجًا لباطلهم، وهؤلاء وهؤلاء كاذبون فيما ينقلون[5].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّة فصلِ جملة ﴿هَلۡ أُنَبِّئُكُمۡ﴾:

تنزُّلُ الشَّياطينِ مقتصرٌ على أوليائهم مِنَ الإنسِ

فُصِلَ قولُ اللّه تعالى: ﴿هَلۡ أُنَبِّئُكُمۡ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ عمّا قبله؛ لأنَّه استئنافٌ مَسوقٌ لبيان استحالةِ تنزُّل الشّياطين على رسول اللّه ﷺ، بعد بيان امتناع تنزُّلهم بالقرآن في قوله: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتۡ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾[6]، وهذا الاستئنافُ نحويٌّ لا بيانيٌّ، فهو

(1) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (لقي).
(2) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ، والزّبيديّ، تاج العروس: (لقى).
(3) الرّاغب، المفردات: (لقي).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 206.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 414، 415، 416.
(6) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 268.

استئنافُ معنًى جديدٍ، يبيّن نزاهةَ النّبيّ ﷺ من نزول الشّياطين عليه، وبراءَتَه من ذلك، ويُخبِر بحقيقة مَن تَنَزّل الشّياطينُ عليه، لبيان العلاقة الضِّدّيَّة.

غرضُ الاستفهام بـ﴿هَلۡ﴾:

الاستفهامُ أنجعُ مِنَ الخبرِ في تقرير المعاني

الاستفهام في قول اللّه تعالى: ﴿هَلۡ أُنَبِّئُكُمۡ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ ليس على حقيقته، وإنّما هو في معنى الخبر الذي يُراد تحقيقُه وتأكيدُه؛ وإنَّما جاء في صورة الاستفهام اهتمامًا بشأنه، فالاستفهامُ من لوازم الاهتمام[1]، وعليه يكون الاستفهامُ للتّقرير[2]، فالنّظمُ عَدَلَ عنِ الخبر إلى الإنشاء، واصطفى منَ الإنشاء أسلوبَ الاستفهام لتحقيق الإثارة، وتهييجِ النّفس؛ لتتلقّى جليلَ الخبرِ، وهو أنَّ النّبيَّ بمَنأًى ومَنجًى مِن تنزّل الشّياطين عليه.

بلاغةُ اختيارِ مفردة ﴿أُنَبِّئُكُمۡ﴾:

بيانُ الحقّ وفَضحُ الباطل مِنَ الأمور الجليلة، ذاتِ الشّأن العظيم

آثَرَ النّظمُ القرآنيّ اختيارَ مادّةِ النّبأ باستعمال الفعل ﴿أُنَبِّئُكُمۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿هَلۡ أُنَبِّئُكُمۡ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ دون الإخبار أو الإعلام؛ وذلك لأنَّ النّبأ يحمل منَ المعاني التي تتناسب مع السّياق، فالنّبأ يكون في الخبر العظيم ذي الشّأن، بعكس الخبر فهو أعمّ، إذ يكون في العظيم وغيره[3]، ونفيُ تنزّلِ الشّياطين على النّبيّ منَ الأمور الخطيرة الجليلة ذاتِ الشّأن، وإنباءُ المخاطَبين بهذا الأمر منَ الأهمّيّة بمكانٍ في بيان الحقّ، وفضحِ الباطل وأهلِه؛ فاكتسابُ هذا النّبأ أهمّيَّتَه باعتبار تعلقّه بالحقّ النّازل، والباطلِ المُدَّعَى.

دلالةُ استعمالِ المضارع لِفعلِ التّنبئة:

الحقُّ نبأٌ ظاهرٌ وحُكمٌ باقٍ

التّعبيرُ بصيغةِ المضارع ﴿أُنَبِّئُكُمۡ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿هَلۡ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 205.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 135.

(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 528، 529.

﴿أُنَبِّئُكُمۡ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ أفاد معنى التّجدُّد المُترقَّب في المستقبل، فإنباءُ اللّه ﷻ في تجدُّدٍ استمراريٍّ ما استمرّتِ الدُّنيا، وسيظلّ هذا الإنباء قائمًا في كتابه، يتجدّد بتجدّد قراءَتِه؛ ليَعْلَم كلُّ قارئٍ أو مستمعٍ أنَّ القرآن الكريم ليس من جنس ما تتنزّل به الشّياطين على أوليائهم.

نُكْتَةُ أسلوبِ الخطاب في ﴿أُنَبِّئُكُمۡ﴾:

أسلوبُ الخطاب أعظمُ أثرًا وأشدُّ لفتًا للحقائق

المخاطَبون بالتّنبئة في قول اللّه تعالى: ﴿هَلۡ أُنَبِّئُكُمۡ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ هم كفّارُ مكّة، الذين ادَّعَوا نزولَ الشّياطينِ على النّبيّ ﷺ، وأسلوبُ الخطابِ أوقعُ في النّفس من عموم الإخبارِ المُجرَّد، ففيه استثارةٌ لنفوسهم، وتنبيهٌ لعقولهم؛ ليَتنبَّهوا إلى جليل ما يُلْقَى عليهم.

بلاغةُ استعمالِ حرفِ الاستعلاء ﴿عَلَىٰ﴾:

تمكّنُ الشّياطينِ مِنَ الكَهَنةِ الدّجّالين

استُعمل حرف الاستعلاء ﴿عَلَىٰ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿هَلۡ أُنَبِّئُكُمۡ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾؛ للدّلالةِ على شدَّة تمكُّن الشّياطين من أوليائهم وكَهَنَتِهم الذين يوحون إليهم كاذبَ القول؛ فهم مُستعلون عليهم، ومُستحوذون على عقولهم استحواذًا يمنعهم منَ الالتفات إلى الحقّ، وإدراكِ الصّواب.

عِلّةُ تقديمِ شِبه الجملة ﴿عَلَىٰ مَن﴾:

مقصودُ السّياق هو الأولى بالتّقديم

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ ﴿عَلَىٰ مَن﴾ على عامله ﴿تَنَزَّلُ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿هَلۡ أُنَبِّئُكُمۡ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾؛ للاهتمام بالمُتنزَّل عليه، وأصلُ التّركيب: (مَن تنزَّلُ عليه الشّياطين)، فلمّا قُدِّمَ المجرور دخل حرفُ ﴿عَلَىٰ﴾ على اسم الاستفهام، وهو ﴿مَن﴾؛ لأنَّ ما صَدّقها هو المُتنزَّل عليه، ولا يُعَكّر عليه أنّ المتعارف أن يكون الاستفهام في صدر الكلام، لأنَّ أسماء الاستفهام تضمَّنت معنى الاسميَّة وهو أصلها، وتضمَّنت معنى همزة الاستفهام كما تضمّنته

﴿هَلۡ﴾؛ فإذا لَزِم مجيءُ حرفِ الجَرِّ مع أسماء الاستفهام ترجَّح فيها جانبُ الاسميَّة، فدخل الحرفُ عليها، ولم تُقَدّم هي عليه[1].

نوعُ ﴿مَن﴾ وغرضُها:

الاستفهامُ من لوازم الاهتمام

﴿مَن﴾ في قوله تعالى: ﴿هَلۡ أُنَبِّئُكُمۡ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ للاستفهام، وهو ليس استفهامًا حقيقيًّا، فلا يحتاج إلى جواب؛ إنّما هو استفهامٌ صوريّ معناه الخبر، وهو كناية عن أهمّيَّة الخبر، وسيق الخبرُ في صورة الاستفهام للإيذان بأهمّيّته، بحيثُ إنَّه ممّا يَستفهم عنهُ المُتحسِّسون ويتطلّبونه، فالاستفهامُ من لوازم الاهتمام[2].

بلاغةُ الانتقال منَ النّفي إلى الإخبار:

القرآنُ لا يترك المقامَ بلا جوابٍ، بل يأتي بالحقِّ الكاشفِ عنِ التّخاليط

انتقل النّظمُ الحكيم من نفي تنزّل الشّياطين في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتۡ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ إلى الإخبار عن تنزّلها في قوله تعالى: ﴿هَلۡ أُنَبِّئُكُمۡ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾؛ فالجملتان متَّحدتان في المعنى، فيكون المُراد: ما تنزّلت الشَّياطين بِالقُرْآنِ على مُحَمَّد ﷺ، وإنَّما تنزَّلت على الأفّاكين، وغرضُ الانتقال: إلقامُهمُ الحَجَر، وإسخاطُ توقّعاتِهم من ترك السّاحة بلا جوابٍ، إلى الإجابة التي تكشف عن إرادتهم إلحاقَه ﷺ بالكَهَنة، ففي هذا الانتقال تبرئةٌ لساحتِه ﷺ، ووضعُ الجوابِ في مكانه اللّائق به.

عِلّةُ تعريفِ ﴿ٱلشَّيَٰطِينُ﴾:

المشركون يعرفون مُسْتَرِقي السّمعِ مِن مَردَةِ الشّياطين

التّعريف في لفظ (الشّياطين) في قوله تعالى: ﴿هَلۡ أُنَبِّئُكُمۡ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ تعريفٌ بأل العهديّة؛ فليس كلّ الشّياطين يقومون باستراق السّمع، وإنّما هم شياطينُ معهودون، معروفون بالتّمرّد، جاوزوا حدّهم، وتعدّوا طورَهم، والمشركون يعرفونهم، فذِكْرُهم بالتَّعريف دليلُ استقرارِ صفاتِهم في أذهان المشركين؛ وهو ممّا

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 205.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 205 - 206.

يكشف معرفةَ المشركين بالحقِّ، وأنَّ هناك من يقوم بهذا الإفك من أعوانهم وأنصارهم، ففيه إيماءٌ إلى رميهم بالتَّعامل مع الشّياطين.

نُكْتَةُ تكرارِ الفعل ﴿تَنَزَّلُ﴾ دونَ الفاعل:

مدارُ النَّفي على فعل التّنزّل، والفاعلُ تابعٌ له

كُرِّرَ فعلُ التّنزّل دونَ الفاعل في قول اللّه تعالى: ﴿تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾، فحُذِفَ الفاعلُ على مقتضى الظّاهر، وذُكِرَ الفعلُ على مقتضى الحال لا الظّاهر؛ وذلك أنَّ مقتضى الظّاهرِ أن يُقال: (هل أنبِّئُكُم على مَن تَنزّل الشّياطينُ، على كلّ أفّاكٍ أثيم)، أو يُكرّر فعل التّنزّل مع الفاعل، فيُقال: (تنزّل الشّياطينُ على كلِّ أفّاك أثيم)، فآثَرَ النّظمُ تكرارَ الفعلِ دونَ الفاعلِ لأنَّ مقصودَ النّظم هو نفيُ التّنزّل من أصله، فعليه مدارُ الأمر؛ فكان تكرارُ فعلِ التّنزّل أوكد؛ ليَثْبُتَ في الذّهن ابتداءً في جملة الاستفهام، ويثبت انتهاءً في جواب الاستفهام، وفي تكرير الفعل تأكيدٌ على كَذِب وافتراءِ الشّياطين؛ والتّنزّلُ منَ الشّياطين هو ما يوَسْوِسون به، ويوجّهونها نحو الشّرّ والإثم البَيِّن[1].

دلالةُ استعمالِ حرفِ الاستعلاء ﴿عَلَىٰ﴾:

سلطانُ الشّياطينِ على أوليائهم

لَمّا كان الحرف ﴿عَلَىٰ﴾ مُفيدًا للاستعلاء، والاستعلاءُ تمكُّنٌ وسيطرة، دلّ استعمالُه في قول اللّه تعالى: ﴿تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ على أنّ الشّياطين استحوذت على أوليائهم منَ الكَهَنة، وخالطت عقولَهم، فلا يَصْدُرون إلّا عنها، ولا يُروِّجونَ باطلَهم إلّا بها.

دلالةُ استعمالِ لفظِ العمومِ ﴿كُلِّ﴾:

الكَهَنةُ الأفّاكون غايةُ الشَّياطين

لفظُ العموم ﴿كُلِّ﴾ مستعملٌ في معنى التّكثير، ويكون المعنى مِن استعماله في قول اللّه تعالى: ﴿تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾: تنزّل الشّياطينُ على كثير من الأفّاكين، وهم الكُهّان[2]، ويجوز أن تكون

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5419.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 205.

للإحاطة والشّمول، ويجوز أن يكون المُراد نزولَها على كلّ كاملٍ في الإفك[1].

دلالةُ إضافةِ ﴿كُلِّ﴾ إلى ﴿أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾:

حصرُ مطمع الشَّياطين بالأفّاكين الآثمين

إذا اعتُبرت دلالةُ العموم ﴿كُلِّ﴾ في قول الله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾، فإنّ إضافتها إلى ﴿أَفَّاكٍ﴾ أفاد اختصاصَ النّزولِ على كلّ من اتّصف بالإفكِ الكثيرِ، والإثم الكبيرِ منَ الكَهَنةِ والمُتَنبّئة، وتخصيصَه بهم بحيثُ لا يتخطّاهم إلى غيرِهم[2]، وهو يُفيد القَصْرَ بطريق اللّغة، لا بأساليب القَصْر المعهودة، فهو قصرٌ لُغَويٌّ لا اصطلاحيٌّ.

براعةُ اقترانِ صفتَي ﴿أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾:

أشدُّ الكَذِبِ يوصِلُ إلى أعظمِ الإثمِ

جمع النَّظمُ الكريم في قول الله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ بين صفتين يُعدّان من أبشع وأشنع الصّفات، وهما كثرةُ الإفكِ مَع كثرةِ الإثم، بحيثُ لو اجتمعتا في شخص، كانتا محلًّا خِصْبًا لتَنزّل الشّياطين عليه، يقذفان تخاليطَهم وأكاذيبَهم في قلبه المفتون، وعقلِه المأفون، والإفكُ: الكذبُ[3]، وصيغت الكلمة على زنة (فَعّال) للمبالغة في إفكه، فالأفّاكُ: هو الذي يُكثِر الكَذِبَ[4]، والثّانيةُ مأخوذة منَ الإثم، وهو الذَّنب، والأثيم: الكَذّابُ[5]؛ وصيغة (فَعيل) للمبالغة في الإثم، فحسُن اجتماعُهما، لتكونا تربةً صالحة يُفْرِغُ فيها الشّياطينُ أضاليلَهم.

نُكْتَةُ تقديمِ ﴿أَفَّاكٍ﴾ على ﴿أَثِيمٍ﴾:

تقديمُ الأخصِّ على الأعمِّ، والسّببِ على المُسَبَّب

قُدّمت صفةُ الإفكِ - وهي الكَذبُ الكثيرُ - على صفة الإثم - وهي الذّنب - في قول الله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾، من

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 136.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 268.
(3) الفراهيديّ، العين: (أفك).
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 538.
(5) الفراهيديّ، العين: (أثم).

باب تقديم الأخصّ على الأعمّ، ولبيانِ أنَّ هذا الإفكَ هو من أسباب الإثم، فهو من تقديم السّببِ على المُسَبَّب؛ فإنَّ الكذبَ والافتراء يوصِلان إلى رُتبة الإثم العظيم، فإنَّ الآثمَ يوصَف بالإثم لأنَّه كذَب وافترى، وأتى الكثيرَ منَ الأعمال الفاسدة والباطلة، والآيةُ ذَكَرت أحدَ أنواعِ هذه الأعمالِ، وهو ما يتعلّق بأمر تنزّل الشّياطين منَ الإفك المبين.

بلاغةُ التّعبيرِ بمُفردة الإلقاء:

تعيينُ المُحْتَملِ اللّغويّ بالسّياق أوقعُ في بيان المُراد

مفردةُ الإلقاءِ في قول اللّه تعالى: ﴿يُلۡقُونَ ٱلسَّمۡعَ﴾ تدلّ على إلقاء شيءٍ على آخر، وقدِ احتملت هذه المفردة معنى الإلقاء بإجمالٍ، فالإلقاءُ لفظٌ عامٌّ يحتمل معانيَ كثيرةً في أصل اللّغة؛ فجاء بيانُ هذا الإجمالِ في السّياق بقوله تعالى: ﴿وَأَكۡثَرُهُمۡ كَٰذِبُونَ﴾؛ ليجعلَ معنى الإلقاءِ محصورًا في معنى الكذبِ والافتراء.

دلالةُ التّعبيرِ بالمضارع ﴿يُلۡقُونَ﴾:

بطلانُ كلامِ الكَهَنةِ في كلّ زمان ومكان

أفاد التّعبيرُ بصيغة المضارع ﴿يُلۡقُونَ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿يُلۡقُونَ ٱلسَّمۡعَ﴾ استحضارَ تلك الصّورةِ العجيبةِ أمامَ النّاس؛ لتكون عبرةً وعِظةً لهم؛ فيُدرِكون أنّ كلامَ الكَهَنةِ كلامٌ مكذوب، ناجِمٌ عن أوهام الشّياطينِ وتخييلاتِهم، وأنّ كَهَنةَ اليوم ما هم إلّا دجّالون مُفترون، يُرَوِّجون الضّلالاتِ والشّعوذات.

توجيهُ إعرابِ جُملة ﴿يُلۡقُونَ ٱلسَّمۡعَ﴾:

توجيهُ الإعرابِ قائمٌ على دقائقِ المعاني

جملة ﴿يُلۡقُونَ ٱلسَّمۡعَ﴾ تعتريها ثلاثةُ إعراباتٍ، ولكلّ إعرابٍ معنًى يُلازِمُه:

الأوّل: يجوز أن تكون الجملة في محلّ النّصب على الحال من ﴿تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾، أي: تنزل الشّياطينُ مُلقين السّمعَ[1]؛ فهذا

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 343.

الإعرابُ يُفيد مقارنةَ التّنزّلِ للإلقاء[1]، وهو يُؤذِنُ بحِرْص الشّياطين على سُرعة الإلقاء، وفيه إشارةٌ إلى عجَلتهم في هذا الأمر؛ ضمانًا لتَرويج أكاذيبِهم.

الثّاني: أن تكون الجملةُ في محلّ الجَرّ صفةً لـ﴿كُلِّ أَفَّاكٍ﴾، لأنّه في معنى الجمع[2]؛ فالفعلُ في جملة ﴿يُلۡقُونَ ٱلسَّمۡعَ﴾ مسندٌ إلى ضمير الجمع، وساغ أن تكون صفةً للمفرد ﴿كُلِّ أَفَّاكٍ﴾ لأنَّ هذا المُفرد مُرادٌ به الجمع، فهو نكرةٌ تفيد الشّيوعَ والعموم، فلمّا كان وصفُ المفردِ بالجمع في ظاهر الأمر، دلَّ هذا على تَوغُّل صفةِ الإفك في البشاعة والشّناعة، وأنّ الأفّاك من كثرة كَذِبه، وتَعَدُّد أباطيله، فإنّه يقوم مقامَ الكذّابين؛ وهذا فيه تنفيرٌ شديد من تلك الصّفة.

الثّالث: ألّا يكون للجملة محلٌّ منَ الإعراب، بأن تُستَأنف، كأنّ قائلًا قال: لمَ تتنزّلُ على الأفّاكين؟ فقيل: يفعلون كيتَ وكيتَ[3]، فهذا الإعرابُ يدلّ على كون تنزّل الشّياطين على الأفّاكين أمرًا شائعًا، وأنّه منَ الوضوح بمكان، ممّا جعل النّاسَ يتساءلون: لماذا تتنزّل الشّياطينُ على هؤلاء؟ فجاء الجواب: يلقون السّمعَ.

بلاغةُ التّعبير بالمصدر ﴿ٱلسَّمۡعَ﴾:

مبالغةُ الشّياطينِ والكُّهان في الإنصات

السّمعُ قد يُراد به آلةُ السّمعِ، وقد يُراد به المسموعُ منَ الكلام؛ وعلى المعنى الثّاني، يكون قد عبّر النّظمُ عنِ المسموع بالمصدر: ﴿يُلۡقُونَ ٱلسَّمۡعَ﴾، أي: يُلقي الشّياطينُ السَّمعَ، وهو ما يسمعون ممّا استرقوا سَمعَه من حين حَدَث منَ السّماء[4]، والتّعبيرُ بالمصدر يُفيد المبالغةَ الشّديدة في نقل المسموع، والحِرْص على استيعابه، والتّحوّط في إلقائه؛ ليَضمنَ جدواه منَ التّأثير في قلب المُتَلَقّي.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 269.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 343.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 343.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 538.

بلاغةُ المجاز في إلقاء السّمع:

إذا اعتُبِر لفظُ السّمع بمعنى آلة السّمع، وهي الأُذُن، فيكون في قول الله تعالى: ﴿يُلۡقُونَ ٱلسَّمۡعَ﴾ مجازٌ، شُبِّهَ توجيهُ حاسَّةِ السّمعِ إلى المسموع الخَفيِّ بإلقاء الحَجَر من اليد إلى الأرض، أو في الهواء، وهذا أبلغُ في الإصغاء، لأنَّ فيه إمالةَ السّمعِ إلى المسموع، ليَعيَ ما يُقال له[1].

إمالةُ السّمعِ إلى المسموع أبلَغُ في الإنصات

نوعُ واو ﴿وَأَكۡثَرُهُمۡ﴾ ودلالتُها:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَأَكۡثَرُهُمۡ كَٰذِبُونَ﴾ تحتمل أن تكون حاليّةً، ويكون ﴿وَأَكۡثَرُهُمۡ﴾ مبتدأ، و﴿كَٰذِبُونَ﴾ خبرًا، والجملةُ حاليّةً[2]؛ والضّميرُ في ﴿وَأَكۡثَرُهُمۡ﴾ إمّا أن يعود على الأفّاكين، أي: أنّ هؤلاء قلّ من يَصدُق منهم فيما يَحكي عنِ الجِنّي، وقيل: الضّمائر للشّياطين، أي: يُلقون السّمع إلى الملأ الأعلى قبل أن يُرجَموا، فيَخْتَطِفونَ منهم بعضَ المغيّبات، ويوّحون به إلى أوليائهم، ﴿وَأَكۡثَرُهُمۡ كَٰذِبُونَ﴾ فيما يوحون به إليهم، إذ يَسمعونَهُم لا على نحوِ ما تكلّمت به الملائكةُ لشرارتهم، أو لقصور فهمِهم أو ضبطِهم أو إفهامِهم[3]، ويجوز أن تكون الواوُ عاطفةً، عطفت ﴿وَأَكۡثَرُهُمۡ كَٰذِبُونَ﴾ على جملة ﴿يُلۡقُونَ﴾[4]، وعلى القول بالعطف، فإنّها تكون في موضع الحال؛ لأنَّها معطوفةٌ على جملة الحال، في أحَدِ أوجُه إعراب جملة ﴿يُلۡقُونَ ٱلسَّمۡعَ﴾، وعلى كلٍّ فإنّ الواوَ - سواءً كانت حاليّةً أو عاطفة - كشفت عن كَذِب الشّياطين ومَن يوحون إليهم، وأكّدت على أنّهم يُلْقون زُخرُفًا منَ القول وزورًا.

احتمالُ الواوِ أن تكون حاليَّةً أو عاطفةً

نُكْتَةُ استعمالِ الأكثريّة بعدَ العموم:

إن سألَ سائلٌ فقال: كيف قيل: ﴿وَأَكۡثَرُهُمۡ كَٰذِبُونَ﴾، بعد ما

الأفّاكُ قد تَصْدُر منه بادرةُ صِدقٍ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 206.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 147.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 152.
(4) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 19/ 132.

قضى عليهم أنَّ كلَّ واحدٍ منهم أفّاك؟ أي: على القول بعود الضّمير في ﴿وَأَكۡثَرُهُمۡ﴾ إلى ﴿كُلِّ أَفَّاكٍ﴾، فالجوابُ: أنَّ الأفّاكين هم الذين يُكثرون الإفكَ، ولا يَدلُّ ذلك على أنّهم لا يَنطِقون إلّا بالإفك؛ فأرادَ أنَّ هؤلاء الأفّاكين قلَّ مَن يَصدُق منهم فيما يُحكى عن الجنّيّ، وأكثرُهم مُفْترٍ عليه[1]، أي: أنَّ الكذب فيهم مركَّبٌ؛ فهو كذِبٌ ابتداءً، وكَذِبٌ في الكذب؛ فالأكثرُ يكذِب في الكذب فيما يوافِق مصالحَه، والصّنفُ الآخَر - الأقلُّ منهم - ينقل الكَذِبَ كما هو.

فائدةُ ذِكْر الكذبِ بعدَ الإفكِ والإثم:

دفعُ تَوهُّمِ التزامِ الأفّاكين بما تُلقيه الشَّياطين

ذُكِرَ لفظُ ﴿كَٰذِبُونَ﴾ المتّصفُ به ﴿كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ﴾ في قوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ ٢٢٢ يُلۡقُونَ ٱلسَّمۡعَ وَأَكۡثَرُهُمۡ كَٰذِبُونَ﴾، والإفكُ هو الكَذِبُ، والإثمُ يدخل فيه معنى الكذبِ كذلك، ونُكتَةُ ذلك: أنّه ذكر اختيار الشّياطين لكلِّ أفّاك أثيم كي يُلقوا السّمعَ في أُذُنه، وهذا وصفٌ ثابتٌ قائم في أولئك، ثمّ أَخبرتِ الآيةُ أنَّ الكَهَنة يَكذِبون الأكاذيبَ العريضة بعد إلقاء السَّمع، وهو صفةُ فعلٍ؛ لأنّه قد يُتوهَّمُ أنَّ الأفّاكين الآثمين قد يلتزمون بما تُلقيه الشّياطينُ، فدَفَعَه بقوله تعالى: ﴿وَأَكۡثَرُهُمۡ كَٰذِبُونَ﴾.

دلالةُ التّعبير باسم الفاعل ﴿كَٰذِبُونَ﴾:

كَذِبُ الأفّاكين مُتوالٍ لا حَدَّ له

جاء التَّعبيرُ باسم الفاعل في قوله تعالى: ﴿وَأَكۡثَرُهُمۡ كَٰذِبُونَ﴾؛ للدّلالة على ثبوت الكَذِب ودَوامِه، سواءً كان منَ الشّياطين أم من أوليائهم، فقبلَ المَنعِ بالرّجم كانت تَستَرقُ السَّمعَ، فتَجيءُ بكلمة حَقّ، فتقذِفُها في أُذُن وليّه، وتزيدُ فيها أكثرَ من مائة كَذِبة[2].

بلاغةُ اسميّةِ الجملة ﴿وَأَكۡثَرُهُمۡ كَٰذِبُونَ﴾:

جاءتِ الجملةُ ﴿وَأَكۡثَرُهُمۡ كَٰذِبُونَ﴾ اسميّةً؛ ليكونَ المعنى معها

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 343.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 415.

ثابتًا ومحقَّقًا، ومِن ثَمّ، فإنّ مجيءَ تلك الجملةِ اسميّةً دلالةٌ على ثبوت الكَذِب للأكثريّة منَ الشّياطين، أو منَ الأفّاكين الدّجّالين؛ بحيثُ تظلّ تلك الصّفةُ دائمةً لهم، لا ينفكّون عنها، ولا تنفكّ عنهم؛ ولمراعاة الفاصلة القرآنيّة.

ثباتُ المعنى ومراعاةُ اللّفظِ من خصائص الفواصل القرآنيّة

﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾ [الشّعراء: 224 - 227]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

الانتقالُ منَ الكُهّان أدعياءِ الغيبِ إلى الشُّعراء زعماءِ الغِوايَة

بعد أن ذَكرتِ الآياتُ السّابقة تنزُّل الشَّياطين على الأفّاكين مِنَ الكَهَنة، وبيّنت أنَّ صنيعَهم ودعاويهم قائمةٌ على الكَذِب استعانةً بالشَّياطين، ناسبَ بعد ذلك أن ينتقل إلى بيانِ نوعٍ آخَر منَ الذين يفترون على الحقِّ، وهم غالبُ الشَّعراءِ الذين يتَّبِعُهُمُ الغاوون، فاجتمع في الكَهَنة الذين يلبسون لبوسَ الدّيانة، ويَدّعون معرفة الغيب، والشّعراءِ الذين يعتمدون على ذكائِهم اللّغويّ في قلب الحقائقِ وإثارةِ الغرائزِ وتحريكِ المشاعر أمران: المعنى الباطلُ والكذبُ الواضحُ، واللَّفظُ المُنمَّقُ والأسلوبُ المُحَسَّن؛ والنّاسُ ما بين مائلٍ إلى المعاني، ومائلٍ إلى الألفاظ والمباني، فاجتمع في ذِكْر هَذَين الصّنفين أساليبُ الباطلِ في مجابهة الحقِّ، وبه تكتمل دائرةُ بيانِ أعداء القرآن.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلْغَاوُۥنَ﴾: (غوي) أصلٌ يَدُلُّ على خِلافِ الرُّشْدِ، وإظْلام الأمر[1]، فالغَواية: الضَّلال واتِّباع الهوى والانهماكُ في الباطل، ورَجُلٌ غاوٍ وغوٍ وغَويٌّ وغيّان: ضالٌّ؛ وأَغْواه هو، وغوى غيًّا: انهمكَ في الجَهل، وخلافُهُ: الرُّشد[2]، والغَيُّ: جَهْلٌ مِن اعتقاد فاسد[3]، والمقصود

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غوي).
(2) الخليل، العين، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (غوي).
(3) الرّاغب، المفردات: (غوي).

بالغاوين في قول الله تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾: جمع غاوٍ، وهو المُتَّصِفُ بالغَيِّ والغَوايةُ، وهي الضَّلالةُ الشَّديدةُ، والمعنى: (يَتَّبِعُهُم أهلُ الضَّلالةِ والبِطالَة، الرّاغبونَ في الفِسْقِ والأذى)[1].

2) ﴿يَهِيمُونَ﴾: (هيم) أصلٌ يدُلُّ على عَطَشٍ شَديد، فالهَيَمانُ: العَطَشُ، والهيَمُ: الإبلُ العِطاشُ، والهيمُ أيضًا: الرِّمالُ الَّتي تَبتلِعُ الماءَ، والهُيامُ: داءٌ يَأْخُذُ الإبلَ عِنْدَ عَطَشِها فتَهيمُ في الأَرْضِ لا تَرْعَوي[2]، والهُيّامُ: المَوْسوسون، ورَجُلٌ هائِمٌ وهَيومٌ، والهُيومُ: أَن يذهبَ على وجْهِه، وقَدْ هامَ يَهيمُ هُيامًا، واسْتُهيمَ فُؤادُه، فهوَ مُسْتَهامُ الفُؤاد، أَيْ: مُذْهَبُه[3]، والمُراد بالهُيام في قول الله تعالى: ﴿فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ الحَيْرَةُ والتَّردُّدُ في المَرْعى[4].

3) ﴿مُنقَلَبٍ﴾: (قلب) أصلٌ يدُلُّ على رَدِّ شيءٍ من جهةٍ إلى جهةٍ، تقول: قَلَبْتُ الثَّوبَ قَلْبًا[5]، والانْقِلابُ: الرُّجوعُ مُطْلَقًا، والانقلابُ إلى الله ﷻ: المصيرُ إليه، والتَّحوُّلُ؛ وقد قَلَبه اللهُ إليه[6]، والمُنْقَلَبُ يكونُ مكانًا، ويكونُ مصدرًا، مِثلُ المُنْصَرَف[7]؛ وهو أيضًا: مَصيرُ العِبادِ إلى الآخرةِ[8]. والمُرادُ بالمُنْقَلَب في قول الله تعالى: ﴿أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾: المصيرُ والمآلُ[9].

المَعْنى الإِجْماليُّ:

شعراءُ المشركين غـواةٌ، وشعـراءُ المسلمين هُداة

بيَّنتِ الآياتُ مسالكَ الشّعراء في تَصرَفات القول، وأنّ قولَهم مخالفٌ لظاهر أحوالِهم، وأنّهم من غوايتهم يتبعُهُم أمثالُهم من

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 208.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (هيم).
(3) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (هيم).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 209.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قلب).
(6) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (قلب).
(7) الجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (قلب).
(8) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة، والزّبيديّ، تاج العروس: (قلب).
(9) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 213.

الغاوين، وأنّهم لا يتعفَّفون من النّسيب بالحرام والغَزَل، والابتهارِ وتمزيقِ الأعراضِ، والقدحِ في الأنساب، والوعدِ الكاذب، والافتخارِ الباطل، ومدحِ مَن لا يستحِقُّهُ، والإطراءِ فيه، باستثناء شعراء المسلمين الذين يعملون الصّالحات، ويَذْكُرون اللّهَ على الدّوام، وينتصرون ممّن هجاهم من شعراء المشركين.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

نوعُ واوِ ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ﴾ ودلالتُها:

احتمالُ الواو للاستئناف والعطف

الواو في أوّل قول اللّه تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾ تحتمل أن تكون استئنافيَّةً؛ وغرضُ الجملة إبطالُ ما قيل في حقِّ القرآن العظيم، من أنَّه مِن قبيل الشّعر، وأنَّ رسولَ اللّه ﷺ مِنَ الشُّعراء، ببيان حالِ الشُّعراء المُنافية لحاله ﷺ[1]، وتحتمل أن تكون عاطفةً، لما بينَ الشّعر والكَهانة من جامع - في خيال المشركين المخاطبَين بهذه الآيات -، فقد كانوا يدّعون أنّ للشّاعر شيطانًا يُملي عليه الشّعرَ، وربما سَمّوه الرَّئيّ؛ ولذلك حَسُن عطفُ قولِه تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾ على قوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾، كما عُطف مثلُه في قوله تعالى من سورة الحاقّة: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الحاقّة: 41 - 42][2]؛ فالعطفُ لتمام انتفاء تنزّل الشّياطين بالقرآن على النّبيّ ﷺ.

غرضُ تقديمِ المسنَد إليه ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ﴾:

ما كان عليه مَدارُ الكلامِ قُدِّم لبيانِ حاله

قُدِّم المُسندُ إليه ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ﴾ على الخبر الفعليِّ ﴿يَتَّبِعُهُمُ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾؛ للاهتمام بالمُقدَّم، وتقويةِ الحُكم، فالمقصودُ: نفيُ الشِّعرِ عنِ القرآن؛ ببيان أنَّ طريقة الشّعراء منافيةٌ لطريقة النَّبيِّ ﷺ، فكان تقديمُ لفظِ ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ﴾

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 269.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 207.

- الذي هو مقصِد السّياق - أولى من تقديم الفعل، وليس التّقديم للاختصاص، فالسّياق في غنًى عنِ القول بالحصر[1]، لا سيَّما أنَّ الغاوين يتّبعون الشّعراءَ وغيرَهم.

نُكْتَةُ مجيءِ المُسند ﴿يَتَّبِعُهُمُ﴾ فعلًا مضارعًا:

لِشُعراءِ الغِوايَة أتباعٌ من طلّاب الغِوايَة

آثَرَ النّظمُ التَّعبيرَ بصيغة المضارع ﴿يَتَّبِعُهُمُ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾؛ لإفادة التَّجدُّد، أي: كلَّما وُجِد شعراءُ غاوون، وُجدَ لهم أتباعٌ منَ الغاوين؛ لترويج باطلهم، وتزيين ضلالهم، ولصرفِ النّاس عنِ الحقِّ المبين؛ فالاتِّباعُ متجدِّدٌ بتجدُّدِ الشُّعراء.

بلاغةُ اختيارِ مفردة ﴿يَتَّبِعُهُمُ﴾:

اتِّباعُ الغوايةِ محاربةٌ للحقِّ ونُصرةٌ للباطل

آثَرَ النّظمُ الكريم استعمالَ مفردةِ الاتّباع في قول اللّه تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾، دونَ مجرَّد الاستماع - والشِّعرُ يُسمع -، فلم يُقل: (يسمعهم الغاوون)؛ وذلك أنَّ المقصود بالسّياق هو بيانُ اتِّباع الغاوين لشُعراء الضّلالة، لا مجرَّد الاستماع؛ فهم يتّبعون غوايتَهم، ويسلكون طريقَ الضّلال معهم؛ لنشر فسادِهم، إذِ الاتّباع ميلٌ ورضًا بالمتبوع.

براعةُ اجتباءِ مفردة ﴿ٱلْغَاوُۥنَ﴾:

براءةُ الرَّسولِ من تُهْمَةِ الشِّعرِ، وتطهيرُ أتباعِه من تُهْمَةِ الغوايةِ

المقصودُ بالغواية: الإمعانُ في الفساد والإضلال، وقد آثَرَ النّظمُ استعمالَ مفردة ﴿ٱلْغَاوُۥنَ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾؛ لبيان أنَّ الشّعراء تتّبعهم هذه النَّوعيّةُ منَ النّاس؛ ليقعَ التّفاضُل، وتبينَ المفارقةُ بينَ أتباع النّبيّ وأتباع الشّعراء على الحقيقة، مع ما فيها من إبطال كونِ الرّسول ﷺ شاعرًا، والرّدِّ على المشركين في زعمهم أنَّ الرّسول شاعرٌ، وأنّ ما تنزّل عليه من قبيل الشّعر، وجاء إبطالُ هذا الزّعم من خلال أتباعه؛ فأتباعُه ﷺ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 208.

لَيسوا غواة[1]، ومعلومٌ أنّ كلّ قرينٍ بالمُقارَن يقتدي، وأنّ المَرء على دين خليله؛ فلمّا كان أتباعُ النّبيّ ﷺ منَ الأطهار البَرَرَة، عُلِم علمًا يقينيًّا لا يخالجُه شكٌّ ولا ارتيابٌ أنّ النّبيّ ليس شاعرًا، فأفاد هذا اللّفظ أمرَين: تطهيرَ النّبيِّ ﷺ منَ الاتّهام بأنَّه شاعر، وتطهيرَ أتباعِه رضوان اللّه عليهم من تُهَمَة الغِوايَة.

نُكْتَةُ جمعِ اسمِ الفاعل ﴿ٱلۡغَاوُۥنَ﴾ وتعريفِه باللّام:

كثرةُ النّاس محلٌّ للغِوايَة

جاء اسمُ الفاعل (غاوٍ) مجموعًا ومعرّفًا بـ(أل) في قول اللّه تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلۡغَاوُۥنَ﴾، و(أل) هنا لتعريف الجنس[2]، والجمع فيه إشارةٌ إلى كثرة الغواة منَ النّاس، وأنَّ الشّعراء الضّالّين لا يَعْدِمون أن يكونَ لهم نُصراءُ كُثُر من أهل الضّلال، ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ١٠٣﴾ [يوسف: 103]، والغاوون هم الضّالّون المائلون عنِ السّنن الأقوم، إلى الزّنا والفُحش، وكلِّ فسادٍ يَجُرُّ إلى الهلاك[3]؛ وما أكثرَ هؤلاء في كلِّ زمان ومكان!

بلاغةُ الكنايةِ التّعريضيّة في الآية:

التّابع كاشفٌ عن مواصفات متبوعِه

لم يَذُمَّ النَّظمُ الحكيم الشّعراءَ صراحةً في قوله تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلۡغَاوُۥنَ﴾، وإنّما ذَمَّهم من خلال أتباعِهم، حيثُ وصَفَهم بأنّهم غاوون، وهذا يستلزم أن يكون الشّعراء غاوين، بل هم أغوى من أتباعِهم؛ لِتَهَتُّكِهم في شهوة اللَّقْلَقَة باللّسان، حتّى حسَّن لهم الزّورَ والبُهتان[4]؛ وهذا تعريضٌ حسَنٌ، وإذا جعلناه كنايةً، أي: كَنَّى عن غواية الشّعراء باتّباع الغاوينَ إيّاهُم[5]، فهي كنايةٌ تعريضيَّة؛ لأنَّ التَّعريض نوعٌ من أنواع الكناية.

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 152.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 11/ 444.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/ 400.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/ 400.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 210.

بلاغةُ الاستفهامِ الدّاخل على فعل الرُّؤية:

تقريرُ اعتسافِ الشّعراء طُرقَ الضَّلالةِ

الاستفهامُ في قول الله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّهُمۡ فِي كُلِّ وَادٖ يَهِيمُونَ﴾ استفهامٌ تقريريٌّ[1]، يُقرِّر أنَّ الشّعراء في أودية الضّلالة يهيمون، وفي فنون القول يغالِطون ويعتسفون، والخطابُ الاستفهاميُّ وإن كان في الظّاهر للنّبيِّ ﷺ، إلّا أنَّه لكلِّ مَن تتأتّى منه الرّؤيةُ؛ دلالةً على أنَّ حالَهم كان منَ الجَلاء والظُّهور، بحيثُ لا يَختصّ برؤيته راءٍ دونَ آخَر[2]، والرُّؤية هنا قلبيّةٌ، لأنَّ الهُيامَ والوادي مستعملان في معاني اضطرابِ القولِ في أغراض الشّعر، وذلك ممّا يُعلَم لا مما يُرَى[3].

بلاغةُ التّوكيد بـ(أنَّ):

التّوكيدُ وسيلةٌ من وسائلِ تقويةِ المعاني

جاءت جملةُ ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّهُمۡ فِي كُلِّ وَادٖ يَهِيمُونَ﴾ مؤكَّدةً بأداة التّأكيد (أنّ)، ومعلومٌ أنَّ التّأكيد يُقرِّر المعانيَ ويُرَسِّخُها في النّفوس، ويبعدُها عن أن تكون مجالًا للشّكوك؛ لذا آثَرَ النّظمُ تقريرَ أنَّ الشّعراء يتيهون في أودية الضّلالات، ويرتعون في حَمَأة المُنكرات، باستثناء صالح الشّعراء.

فائدةُ حرفِ الظّرفيّة:

الإشارةُ إلى تغلغُل الشّعراء في الضّلالة والفساد

أفاد حرفُ الظّرفيّة ﴿فِي﴾ غرَضًا مقصودًا في قول الله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّهُمۡ فِي كُلِّ وَادٖ يَهِيمُونَ﴾، وهو إفادةُ أنَّ الشّعراء توغَّلوا في متاهات الضّلالة، وتغلغَلوا في سراديبها، لدرجة أنَّهم ذابوا فيها، وانصهروا في بوتَقَتِها، فاشتملت عليهم اشتمالَ الظّرف على المظروف؛ وهذا يُنبِئ عن تضلّعهم وتشبُّعهم في طُرُق الغِواية.

فائدةُ استعمالِ لفظِ العموم ﴿كُلِّ﴾:

تنوّعُ الأغراضِ الشّعريّة، وكثرةُ المقاصدِ الإفساديَّة

دلَّ لفظُ العموم ﴿كُلِّ﴾ في قول الله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّهُمۡ فِي كُلِّ وَادٖ يَهِيمُونَ﴾ على تنوُّع الأغراض الشِّعريَّة، منَ المدح والثّناء والنّسيب

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 209.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 270.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 209.

والهِجاء، وعلى كثرة طُرق الضّلال والفساد التي يسلُكها الشّعراءُ في أشعارهم؛ فهم إذا نظموا قلَبوا الحقائقَ، وأتَوا بالبوائق، فيَمدحون مَن يستحِقّ الذَّمَّ، طمَعًا في نَواله، ورغبةً في وِصالِه، ويَذمّون مَن يستحِقّ المدحَ؛ لهوًى في نفوسهم، ويُبَخِّلون الكريمَ، ويُسَخّون الشّحيحَ، ويَهتِكون الحُرُماتِ، بفاضح الادّعاءات.

بلاغةُ الاستعارة في ﴿وَادٍ﴾:

أبلغُ الاستعاراتِ ما صَوَّرتِ المعاني وقَرَّبتِ الدّلالات

أصلُ الوادي: هو المكانُ المنخفضُ بينَ جبلَين[1]، والمراد به في قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ شُعَبُ القولِ وفنونُه وطُرُقُه وشجونُه، والهُيام: أن يذهب المَرءُ على وجهه من عِشقٍ أو غيرِه؛ فالهُيام في الأوديَة تمثيلٌ لذهابهم في كلِّ شُعب منَ القول[2]، والمعنى: (يخوضون في كلِّ لَغْوٍ من هَجْوٍ ومدح)[3]، وهذا من باب الاستعارة البليغة والتّمثيلِ الرّائع، شَبَّهَ جَوَلانَهم في أفانينِ القول، وطرائقِ المَدحِ والذَّمّ والتّشبيبِ وأنواعِ الشّعر - بهَيَمِ الهائم في كلِّ وجهٍ وطريق[4]، وهذا يدلُّ على عدم وضوح مقاصدِهم، وإنّما يكتبون الشّعرَ حسبما تُمليه أهواؤهم، وتفرضُه عليهم مصالحُهم.

نُكْتَةُ تقديمِ شِبه الجملة ﴿فِي كُلِّ وَادٍ﴾:

تقديمُ الغاياتِ على الوسائلِ من أساليبِ القرآنِ في كشفِ الحقائق

قُدِّم ﴿فِي كُلِّ وَادٍ﴾ على الفعل ﴿يَهِيمُونَ﴾ في قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾؛ اهتمامًا بالمُقدَّم، وتشويقًا إلى المُؤَخَّر، فغرَضُ السّياق هو تبرئَةُ النّبيّ ﷺ من كون القرآنِ شِعرًا، وبيانُ أنَّ تصرُّفاتِ الشّعراء مضطربةٌ ومتناقضة، من خلال الأغراض الشّعريّة التي ينظمونها في أشعارهم، فكان تقديمُ تلك الأغراض أحقَّ، وهي المُعَبَّر عنها بلفظ ﴿فِي كُلِّ وَادٍ﴾؛ وهذا من باب تقديم

(1) الرّاغب، المفردات: (ودى).
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 344.
(3) الشهاب الخفاجي، كفاية الراضي وعناية القاضي: 7/ 29.
(4) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 15/ 99.

الغايات على الوسائل، ثُمّ إنَّ في تقديمها تعجيلًا وإسراعًا بالكشف عن فنون تصرُّفاتهم، لبيان أنَّها مغايِرَةٌ للحَقّ الذي نزل على النّبيّ ﷺ، وفي التّقديم تشويقٌ يأخذ بالنّفس، ويجعلُها تترقّب الشّيء المُؤخَّر، فإذا ما وقعت عليه ثبتَ فيها واستقرّ، فتنكشفُ معه حقائقُ الشّعراء؛ بالإضافة إلى مراعاة جمالِ المَبنى، فتتآخَى الفواصلُ القرآنيّة المنتهيَةُ بحرف النّون، ليتآزرَ جمالُ المبنى مع جلال المعنى.

بلاغةُ استعمالِ مفردة ﴿يَهِيمُونَ﴾ مادّةً وصيغة:

الـشّـعـراءُ يَـصْـدرون عن هوًى جامِح، لا عن عقلٍ راجح

تدلُّ مفردةُ الهُيام على ذهاب الإنسان على وجهه، لا يَدري أين يقصِد[1]؛ فاستعمالُها في قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ يوضِّح أنّ الشَّعراءَ يهيمون في أغراض الشِّعر، غيرَ قاصدين غايةً نبيلةً، بل غايةُ أمرِهم أن يَهيموا في الأرض غيرَ بالِغين مُرادًا، ولا واصلين هدفًا، ولا محقِّقين حقًّا.

وفي التّعبير بصيغة المضارع ﴿يَهِيمُونَ﴾ دليلٌ على أنَّ الشعراء هذا حالُهم المُستمرّ، وشأنُهم المُتجدِّد؛ فليس الهُيامُ أمرًا طارئًا، بل هو سلوكُهم المُتَجدِّدُ عن إرادةٍ وقصد.

نوعُ واوِ ﴿وَأَنَّهُمۡ﴾ ودلالتُها:

عـطـفُ الـدّلـيـل عـلـى الـدّعـوى، والـبـرهـانِ على الوصف

الواوُ في قول الله تعالى: ﴿وَأَنَّهُمۡ يَقُولُونَ مَا لَا يَفۡعَلُونَ﴾ عاطفةٌ، حيثُ عطفت الجملةَ على قوله تعالى: ﴿أَنَّهُمۡ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾، ومقتضى العطف: الجمعُ بين تلك الرّذيلتَين، رذيلةِ "تخليطِهم وخوضِهم في كلِّ فنٍّ، من غَثِّ الكلام وباطلِه، وتحسينِهمُ القبيحَ، وتقبيحِهمُ الحسنَ"[2]، ورذيلةِ الكذبِ والتّبجُّح بأقوالٍ وأفعالٍ لم تصدُرْ عنهم، فيتكثّرون بما ليس فيهم[3]؛ ترى الشّاعرَ قد يمدح

---

(1) الرّاغب، المفردات: (هيم).

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 246.

(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 157.

الجودَ وهو أبخلُ النّاس، ويحضّ على الجُرأة في الوغى وهو أجبنُ من المنزوف ضَرطًا، فأفادت الواوُ ذكرَ الدّليلِ بعد ذِكْر المستَدَلِّ عليه، فإنَّ هُيامَهم في كلِّ وادٍ أمرٌ وصفيٌّ، وأمّا قولُهم خلافَ فِعلِهم فهو الدّليل عليه.

دلالةُ تكرارِ (أنَّهم):

استقلالُ توكيدِ مضمون الجملة يُقوّي إرادة معناها

آثَرَ النَّظمُ القرآنيُّ تكرارَ (أنهم) في جملة ﴿وَأَنَّهُمۡ يَقُولُونَ مَا لَا يَفۡعَلُونَ﴾، بعد جملة ﴿أَنَّهُمۡ فِي كُلِّ وَادٖ يَهِيمُونَ﴾؛ تحقيقًا لمضمون كلٍّ منهما، باستقلال كلِّ جملةٍ منهما بنفسِها، فيكون التَّأكيدُ لاحقًا لمضمون كلِّ جملةٍ باستقلال، تأكيدًا على أنَّ الشُّعراء سائرون في شعرهم بلا قصد، وأنّ فعلَهم مخالِفٌ لأقوالهم، ولو جاء التَّعبيرُ بحذفِ التَّأكيد في الثّانية، بأن قيل مثلًا: (ألم تر أنّهم في كلّ وادٍ يهيمون ويقولون ما لا يفعلون)، لم يكُن في قوَّة تأكيدِ التَّعبير الأوّل.

بلاغةُ تقديم ﴿يَهِيمُونَ﴾ على ﴿يَقُولُونَ﴾:

الهُيامُ يَصْدُر عن النَّفس، فيتبعُه القولُ الصّادر عنِ العقل

ما يقتضيه ظاهرُ عقلِ البشر تقديمُ القولِ على الهُيام، لا سيما في جانب الشّعراء، الذين صنْعَتُهمُ الألفاظُ والأقوال، لكنّ المُتأمِّلَ في المعنى يجد أنّ السّياق هو الذي اقتضى تقديمَ الهُيام على القول في الآيتين: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّهُمۡ فِي كُلِّ وَادٖ يَهِيمُونَ ٢٢٥ وَأَنَّهُمۡ يَقُولُونَ مَا لَا يَفۡعَلُونَ﴾؛ إذ إنّ الهُيامَ صادرٌ عنِ النَّفس وهواها، والقولَ صادرٌ عنِ العقل وإرادته، فأبانتِ الآيةُ أنَّ الشُّعراءَ يُقَدِّمون هُيامَهم، فيجعلونَه قائدًا لعقلِهم؛ وهذا دليلُ سَخَفِهم، وقُبْحِ مسلَكِهم.

دلالةُ التّعبيرِ بالمضارع ﴿يَقُولُونَ﴾:

أكثرُ الشّعراء أقوالٌ بلا أفعال، وأشكالٌ بلا أرواح

دلّت صيغةُ المضارعِ في قول الله تعالى: ﴿وَأَنَّهُمۡ يَقُولُونَ مَا لَا يَفۡعَلُونَ﴾ على التّجدُّد الاستمراريِّ لتلك الأقوالِ الصّادرة عن الشُّعراء، دونَ أن يكون لها فعلٌ يطابقُها، وهذا التّجدُّد لا ينقطع، فالشُّعراء عن قول الشّعر لا ينتهون، وعن صَوغِ ما يُمليه عليهم

خيالُهم لا ينقطعون، يمدحون ويقدحون في آنٍ واحد، وفي شخص واحد، ترى أكثرَهم يُقدِّس في شعره الفضائلَ، ويأتي الرّذائلَ.

نوعُ ﴿مَا﴾ ودلالتُها:

الموصولُ يطوي في صيغته ما تَنوء به العباراتُ

﴿مَا﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿وَأَنَّهُمۡ يَقُولُونَ مَا لَا يَفۡعَلُونَ﴾ اسمٌ موصول، والتّقدير: (يقولون الذي لا يفعلونه)، ودلالةُ الموصول أنّه اختزل في صيغته أقوالًا كثيرة، فأوجزها إيجازًا بليغًا، وطواها في تلك الصّيغة طَيًّا عجيبًا، لو أردتَ الإفصاحَ عنها لناءَ بها اللّسان، وضاقَ بها الجَنان؛ وهذا سِرٌّ عجيبٌ كامِنٌ في هذا الاسم.

نُكْتَةُ النَّفيِ بأداة ﴿لَا﴾:

تنفي (لا) وقوع الفعل في الحال والاستقبال

﴿لَا﴾ النّافية في قول اللّه تعالى: ﴿وَأَنَّهُمۡ يَقُولُونَ مَا لَا يَفۡعَلُونَ﴾ تنفي الفعلَ الذي لم يُؤكِّد صاحبُه وقوعَه، ولم يُحقِّق حصولَه، فتأتي ﴿لَا﴾ دالَّةً على عدم وقوعِ الفعل في الحال والاستقبال.

فائدةُ استعمالِ مفردة ﴿يَفۡعَلُونَ﴾:

أقوالُ الشّعراء لا توافِقُ الفعلَ غيرَ المقصود، فضلًا عنِ العمل المقصود

تُشير لفظةُ ﴿يَفۡعَلُونَ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿وَأَنَّهُمۡ يَقُولُونَ مَا لَا يَفۡعَلُونَ﴾ إلى اعتباطيَّةِ وعشوائيَّةِ أفعالِ الشّعراء، فهم لا يَقصِدون الأفعالَ التي ذكروها في أقوالهم قصدًا، وليسوا حريصين على فعلها، بل غيرُ عابئين بمطابقتها لأقوالهم أو عدم مطابقتها؛ وإذا وقع منهم أيُّ فعلٍ، فليس فيه أثرٌ محمودٌ يُذكر، فإنَّ أقوالَهم لا توافِقُ أفعالَهم العامَّة، فضلًا عن أعمالهم المقصودة، ففيه مزيدُ تبكيتٍ لهم، ورميُهم في زاوية الرّزايا.

غرضُ حذفِ متعلّق ﴿يَفۡعَلُونَ﴾:

الحذفُ يراعي في السّياق معناه ومبناه

حُذف متعلّق ﴿يَفۡعَلُونَ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿وَأَنَّهُمۡ يَقُولُونَ مَا لَا يَفۡعَلُونَ﴾، والتّقدير: (ما لا يفعلونه)، ونُكْتَةُ الحذف ترجع إلى غرضين؛ غرضٍ يتعلّق بالمعنى، وغرضٍ يتعلّق بالمبنى، فأمّا ما يتَّصل بمعنى السّياق: فهو أنَّ الحذف إشارةٌ إلى عدم الاعتداد بتلك الأقوال

الجُزافيّة التي تُقال ولا تُفعل؛ فتركُها في السّياق تهوينٌ من شأنها، فلا تستحقّ أن يكون لها في الكلام ذكر، وأمّا ما يتعلّق بالمبنى: فإنّ هذا الحذفَ اقتضتْه الفاصلةُ القرآنيّة المختومة بحرف النّون، التي تركتْ جمالًا ملحوظًا في الأداء، نفتقدُه في حالة ذِكْر المحذوف.

نُكْتَةُ التّعبير بالمضارع ﴿يَفْعَلُونَ﴾:

أكبرُ المَقت عند اللـه قـولٌ بلا فعل

أفادت صيغةُ المضارع في ﴿يَفْعَلُونَ﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ أمرين؛ **الأوّل**: تجدّدُ عدمِ فعلِ الشّعراء لما يقولونه، فنفيُ وقوعِ فعلِهم مُتجدِّدٌ مع وقوع أقوالهم، وهذا منَ العَجب العُجاب، **والآخر**: استحضارُ فعلِ الشّعراء المُناقض لقولهم، زيادةً في التّبشيع والتّشنيع عليهم، وأيّ مَذمّة بعدَ قولٍ لا يصاحبه الفعل؟! فاجتمع عليهم عجبُ تجدُّدِ تركِ الأفعال، مع بشاعة المناقضة.

نوعُ الاستثناء بـ﴿إِلَّا﴾ ودلالتُه:

إنصافُ القرآن لـشـعـراء المسلمين دليلُ ذمِّ المعاني الباطلة، لا المباني الفصيحة

الاستثناء في قول اللّه تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْۗ﴾ تامٌّ موجَبٌ مُتّصل، والمستثنى فيه يكون واجبَ النّصب، وهو نصبٌ مُقدَّر على الاسم الموصول اللّازمِ للبناء، ودلَّ الاستثناء على أنّه أنصف الشّعراءَ المؤمنين، وأخرجَهم من دائرة الشّعراء المذمومين؛ فاستثنى الشّعراءَ المؤمنين الصّالحين الذين يُكثرون ذِكْرَ اللّه وتلاوةَ القرآن، ويكونُ شعرُهم في توحيد اللّه والثّناء عليه، والحكمةِ والموعظةِ، والزّهدِ والآدابِ الحسنة، ومدحِ رسول اللّه ﷺ والصّحابةِ وصُلحاءِ الأُمّة، وما لا بأس به منَ المعاني التي لا يتلطّخون فيها بذنب، ولا يتلبّسون بشائنة ولا منقصة، وكان هجاؤهم على سبيل الانتصار ممّن يهجوهم(1).

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 343.

غرضُ استعمالِ الاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

بيانُ عِلَلِ الاستثناءِ وسببِ الاجتباء

التّعبيرُ بالاسم الموصول في قول الله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْۗ﴾ أفاد علَّةَ استثناءِ الشّعراء المُتّصفين بالإيمان وعملِ الصّالحات وذِكْرِ الله كثيرًا، والانتصارِ منَ الظُّلم، فكأنَّه قيل: إلّا المؤمنين لأنَّهم آمنوا، وعملوا الصّالحات، وذكروا اللّهَ كثيرًا، وانتصروا دافعين الظُّلم عن أنفسهم.

بلاغةُ استعمالِ مفردة ﴿ءَامَنُواْ﴾ مادّةً وصيغةً:

تحقُّقُ الإيمانِ سبيلُ الانقيادِ ورفعةُ الأتقياءِ

مادّةُ الإيمانِ اقتضاها سياقُ المدح لشعراء المسلمين في قول الله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْۗ﴾؛ فدلالتُها تعني إذعانَ النّفسِ للحقّ على سبيل التّصديق، وذلك يكون اعتقادًا بالجَنان، وقولًا باللّسان، وعملًا بالجوارح والأركان[1]؛ وهذا ما كان عليه شعراء المسلمين، وصيغ التّعبيرُ بالماضي لِما دلَّ عليه المُضيُّ من تحقيق إيمانهم ووقوعه؛ وهذا يكشف عن سرعة استجابتهم لنِداء الإيمان.

بلاغةُ استعمالِ لفظِ العمل ﴿وَعَمِلُواْ﴾:

يُمتدَح الصّالحون بأعمالٍ مقصودة، ونوايا محقَّقة

آثَرَ النّظمُ الحكيم وصفَ الشّعراء المؤمنين بفعل العمل في قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ دون الوصفِ بالفعل، كما وصف الشّعراء المذمومين في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُمۡ يَقُولُونَ مَا لَا يَفۡعَلُونَ﴾؛ وذلك لبيان أنَّ المؤمنين يقومون بأعمالهم عن قصدٍ ونيَّة واضحة، وأنَّ مدحَ الله لهم كان بسبب أعمالهم العظيمة وسلوكيّاتِهم الجليلة.

دلالةُ اختيارِ لفظ ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾:

اقترن لفظُ العملِ بالصّالحات في القرآن الكريم، فأصبح مقاربًا

(1) الرّاغب، المفردات: (أمن).

الصّالحاتُ وصْفٌ مختصٌّ بالأعمال المَرْضيّة

للتّركيب العلميّ، والمقصودُ بالصّالحات: الأوصافُ الشَّرعيّةُ التي ارتضاها الشّرعُ الحكيم للعِباد، ليداوِموا عليها في الأوقات كلِّها، وهي الدّرجة التي ارتضاها الشّرع من عموم المؤمنين، فكان ذِكْر عملِ الصّالحات في سياق قول اللّه تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ لبيان أنَّ الشّعراء المؤمنين داخلون في عموم العِباد المَرضيّين عند ربِّ العالَمين.

نوعُ عطفِ الذّكر على عمل الصّالحات:

عطفٌ للسّبب على المُسبَّب، أو الخاصّ على العامّ

الواو في ﴿وَذَكَرُواْ﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ عطفت ذِكْرَ اللّه تعالى على عمل الصّالحات، وهو من عطف الخاصّ على العامّ، لأنَّ عمل الصّالحات عامٌّ يدخل فيه الذِّكْر؛ ووجهُ ذِكر الخاصّ: بيان أنَّ الشّعراء المؤمنين يذكرون اللّهَ كثيرًا، أكثرَ من ذِكر بقيَّة الشّعراء لِمَدوحيهم.

نُكْتَةُ إظهارِ اسمِ الجلالة ﴿وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ﴾:

أكثرُ الألفاظ دورانًا على ألسنة الشّعراء المؤمنين هو اسمُ الله الأعظم

الاسمُ الأعظم في قوله تعالى: ﴿وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾، هو الذي تَلهَج به الألسنةُ بالذّكر، وتخفِقُ القلوبُ له بالشُّكر، بما فيه من دلالات تَحْمِل اللّسانَ والجَنان حملًا على الذِّكر، فالإنسانُ يستشعر بهذا الاسم استحقاقَ مسمّاه سبحانه للحمد والثّناء، إذِ اسمُ (اللّه) علَمٌ على الذّات الإلَهيّة، الموصوفِ بأكمل الصّفات، فهو المعبودُ، القادرُ، الخالقُ، الرّازقُ، المُدبّرُ لشؤون العباد[1]، وآثَرَ النّظمُ الإتيانَ بهذا الاسم دونَ سواه من أسماء اللّه الحسنى؛ لأنَّه الأكثرُ دوَرانًا على الألسنة، ولأنّ أكثرَ الألسنة تمجيدًا له هي ألسنةُ شعراءِ المؤمنين.

بلاغةُ حذفِ موصوفِ ﴿كَثِيرًا﴾:

ذِكْرُ الله يَرِدُ على ألسنة الشّعراء في غالب مقاماتهم

حُذف الموصوفُ في قول اللّه تعالى: ﴿وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾، والتّقدير: (وذكروا اللّهَ ذِكْرًا كثيرًا)؛ وذلك أنَّ المقامَ هو مقامُ ذِكْر

(1) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (أله).

الشّعراء المؤمنين، وهم يذكرون اللّه بقلوبهم وألسنتهم، ويذكرونه في أشعارهم[1]، ولو ذُكر الموصوف، فقيل: (ذكرًا كثيرًا)، لظُنَّ أنَّهم يذكرونه كما يَذْكره بقيَّةُ العِباد، لكنَّ الشّعراءَ المؤمنين يُكثِرون من ذِكْر اللّه في جميع مقاماتهم وأحوالهم بقول الشّعر وترداده، فكان حَذْفُ الموصوفِ لتمحُّض الأمر على الصّفة وهي الكثرة، فهم يذكرونه كثيرًا في جميع أوقاتهم.

براعةُ وصفِ الذّكر بالكثير:

وُصِفَ الذِّكْر بالكثير في قول اللّه تعالى: ﴿وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾؛ ليَدلَّ على أنَّ هذا صار لهم خُلُقًا وعادةً[2]، وكشفٌ عن دوام الذّكر الذي صار لهم دَيْدَنًا وسَجيَّة.

صار الذّكر لهم خُلُقًا وعادةً، ودَيْدَنًا وسَجيَّة

بلاغةُ عطفِ الانتصار على ذِكْر الله:

عَطف النّظمُ القُرآنيُّ الانتصارَ على ذكر اللّه في قوله تعالى: ﴿وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْۗ﴾، وهو من عطف الأخصّ على الخاصّ؛ فإنَّ ذِكر اللّه تعالى منَ الأعمال الصّالحة، وانتصارُ الشّعراءِ المؤمنين بشِعرهم لنُصرة دينِ اللّه وإعلاءِ كلمته سبحانه، هو نوعٌ من ذِكر اللّه تعالى، إذ ظلمُهم ما كان إلّا لأنَّهم مؤمنون باللّه تعالى، يذكرونه ويدْعون إلى دينه، فكان ذِكْر الانتصارِ بيانٌ واضحٌ على أنَّ الشُّعراء لهم دورٌ كبير في الانتصار لدين اللّه تعالى، وإعلاءِ كلمته فوقَ كلِّ كلمة وراية.

الانتصارُ من بعد الظُّلم هو إعلاءٌ لكلمة الله تعالى

نُكْتَةُ اختيارِ (انتصر) مادّةً وصيغةً:

الانْتِصارُ والاسْتِنْصارُ: طلبُ النُّصْرة والعَون[3]، ونَصَرَهُ اللّهُ: أعانَه على عَدوِّه؛ فدلَّت مفردةُ الانتصار بهذه الصّيغة في قول اللّه تعالى: ﴿وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْۗ﴾ على أنَّ شعراء المسلمين طلبوا

نصرُ الله تعالى يَنزِل على طالبه نزولَ الغيث منَ السّماء

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 176.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 202.
(3) الرّاغب، المفردات: (نصر).

العَون من اللّه تعالى بأنْ ينصُرَهم على أعدائهم، وأنَّ اللّه أعانهم فانتقموا منهم، وردّوا هجاء المشركين بهجاء أقذع، وثلبٍ ألذَع، وشَتم أوجع، وهذا، وإن كان مفهومًا منَ الدّلالة اللّغويّة للكلمة، فإنَّ حدوثَه وحصوله وتحقُّقَه مفهومٌ من صيغة الماضي.

غرضُ حَذفِ متعلّق فعلِ الانتصار:

أماراتُ العموم أشفى للنَّفس مِنَ التّقييد بالمذكور

لم يُعيِّن النّظمُ الكريم في قوله تعالى: ﴿وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعۡدِمَا ظُلِمُواْۗ﴾ ممّا كان الانتصار، فلم يقل: (انتصروا لدينهم أو لأنفسهم)؛ وذلك لإفادة العموم والشّمول، فالحَذْفُ أعطى للمعنى ثراءً؛ لبيان أنَّ انتصار شعراءِ المسلمين كان من أجل الدّين، والذَّبِّ عن حياضه، أو من أجلِ رَدِّ المَسَبَّة عن رسول اللّه ﷺ وعنِ الصّحابة، أو مِن أجل التّشفّي مِنَ الخَصم؛ ولو ذُكِر متعلّق الفعل، لضاق المعنى، وانحصر في المذكور.

دلالةُ دخولِ ﴿مِنۢ﴾ على ﴿بَعۡدِ﴾:

الانتصارُ يكون بَعدَ وقوعِ الظُّلم

حرفُ ﴿مِنۢ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِمَا ظُلِمُواْۗ﴾ للابتداء، أي: انتصروا ابتداءً من بعد وقوعِ الظُّلم، فشُعراءُ المسلمين ما هجَوا شعراء المشركين إلّا بعدَ أن وقع عليهم الظُّلم، ودلّ لفظُ ﴿بَعۡدِ﴾ الذي هو بمعنى الظّرفيّة على أنَّ شعراء المسلمين في هذا الانتصار غيرُ معتدين، وإنّما كان انتصارُهم رَدًّا لطُغيان طاغٍ، وعداوةِ مُعتدٍ.

عِلّةُ استعمالِ ﴿مَا﴾ المصدريّة:

بيانُ الأسبابِ مُسوِّغٌ للأفعال

عبَّر النّظمُ الكريم بـ﴿مَا﴾ المصدريّة في قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِمَا ظُلِمُواْۗ﴾، ولم يُعبِّر بالمصدر الصَّريح، فلم يقل: (من بعد ظلمهم)؛ لبيان أنَّ ظُلّم شعراءِ المشركين لشعراء المؤمنين وقع أوّلًا، ممّا سوّغ النُّهوض بردِّ المثالب، ودفعِ المعايب، والانتقاصِ من أعدائهم، أمّا التّعبيرُ بالمصدر الصّريح، فإنّه - وإن كان أثْبتَ لمعنى الظُّلم - إلّا أنّه لا يَدُلُّ ظاهرًا على حصوله في الماضي، كما أنّ في التّعبير بالمصدر

المُؤوّل ﴿من بعد ما ظُلِمُواْ﴾ إبرازٌ لصيغة الماضي، الدّالّةِ على تحقّق الظّلم ووقوعِه، وإبرازٌ أيضًا لصيغة البناء للمفعول، الّتي ترفع اللّبس المحتمَلَ في استعمال المصدر الصّريح (من بعد ظلمِهم)؛ فالظُّلم وقعَ على الشّعراء المؤمنين، ولم يقعْ منهم، وفي المصدر المُؤوّل ﴿مَا ظُلِمُواْ﴾ أيضًا مراعاةٌ لاتّساق الآية في الأفعال الماضية المُسنَدة إلى واو الجماعة: ﴿ءَامَنُواْ﴾ ﴿وَعَمِلُواْ﴾ ﴿وَذَكَرُواْ﴾ ﴿وَٱنتَصَرُواْ﴾.

فائدةُ بناءِ الفعل ﴿ظُلِمُواْ﴾ للمفعول:

أفـــادَ حـذفُ الفاعلِ إيجازَ العبارةِ، والاستهانةَ بالمحذوف والازدراء به

بناءُ الفعل ﴿ظُلِمُواْ﴾ للمفعول في قول اللّه تعالى: ﴿وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ﴾ أفاد أمرَين؛ أحَدهما: إيجازُ العبارة وإحكامها، والآخَر: أنّ حذفَ الفاعلِ منَ البناء للمفعول يُفيد الاستهانة بالمحذوف والازدراءَ به، والاستخفافَ من شأنه.

نوعُ واوِ ﴿وَسَيَعۡلَمُ﴾ ودلالتُها:

استئنافُ معنًى جديدٍ يُرهِبُ الظّالمين

الواو في أوّلِ قولِ اللّه تعالى: ﴿وَسَيَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٖ يَنقَلِبُونَ﴾ استئنافيّةٌ[1]؛ فهي تستأنِفُ معنًى جديدًا يُرْهِبُ الظّالمين، وهو تهديدُهم بأنَّ هناك منقلبًا يسوؤهم، وعقابًا مُبهمًا لا يُدرَك كُنْهُه ينتظرهم.

دلالةُ استعمالِ حرف السّين مع الفعل ﴿وَسَيَعۡلَمُ﴾:

مهما تطاولَ الظّالِمُ فعقوبتُه قريبة

السّينُ حرفُ تنفيس دالٌّ على الاستقبال القريب؛ وآثَرَه النّظمُ الحكيم في قوله تعالى: ﴿وَسَيَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٖ يَنقَلِبُونَ﴾؛ للدّلالة على اقتراب المُتوعَّد به منَ العذاب المُبهَم الذي لا تُدرَك صفتُه، والانقلابِ المُنكَّرِ الذي لا تُعرَف سطوتُه وقسْوَته، فهو حرفٌ مُؤذِنٌ بالاقتراب، وبأنّ سوءَ المُنقلَبِ يترقّب الظّالمين لأجل ظلمهم[2]، والجملة التي دخل عليها السّينُ جملةٌ خبريّة، غرَضُها التَّهديدُ

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 147.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 213.

الشّديدُ، والوعيدُ الأكيد؛ فالوعيد والتّهديد مستفادان مِن استعمال حرفِ السّين، ومِنَ الإطلاق والتَّعميم في الفعل ﴿ظُلِمُوا۟﴾، والإبهامِ في ﴿أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾، أي: بعدَ الموت منَ الإيهام والتّهويل[1].

بلاغةُ استعمالِ الاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

يحسُن التَّهديدُ ببيان سببِ عقوبة الظّالمين

التَّعبير بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ أوسع معنًى ممّا لو عُبِّر بالاسم الصّريح (وسيعلم الظّالمون)، فيدخل فيهم جميعُ الظّالمين الذين يَسمَح بدخولهم السّياقُ، فالآية تتناول كلَّ من وقع منه ظُلمٌ، ولو عَبَّر بالاسم الظّاهر لضاق المعنى عن ذِكْر هؤلاء؛ ولِتكونَ صلةُ الموصول علَّةً للتَّهديد، ثمّ إنّ التّعبير بالموصول معَ الظّالمين ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟﴾ بالبناء للفاعل، يُناسِبُ التّعبير بالموصول معَ المؤمنين ﴿وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟﴾ بالبناء للمفعول.

بلاغةُ الإبهام في استعمال ﴿أَىَّ﴾:

إبهامُ العقابِ أبلغُ في الوعيد، وأَشَدُّ في التّهديد

الإبهامُ بـ﴿أَىَّ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ فيه وعيدٌ وتهويل[2]، وهو ناطقٌ بما لا شيءَ أهيَبُ منه وأهولُ، ولا أنكى لقلوب المُتأمّلين، ولا أصدعَ لأكباد المُتدبِّرين[3]، وعدمُ ذِكْر عقابٍ مُعيَّن أبلغُ في الوعيد، وأعظمُ في التّهديد؛ "لِتذهبَ نفوسُ الموْعَدين في كلِّ مذهبٍ ممكنٍ، من هول المُنقلَب"[4].

دلالةُ إضافةِ ﴿أَىَّ مُنقَلَبٍ﴾:

لفظةُ ﴿أَىَّ﴾ مبهمةٌ، وأُضيفت إلى نكرةٍ في قول اللّه تعالى: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾، والتّنكيرُ فيه تهويلٌ من سوء المُنقلَبِ، وإبهامٌ ناجِمٌ عن دلالة الشّيوع؛ فالإضافة إبهامٌ فوقَ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 345، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 152.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 345، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 152.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 345.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 213.

إبهام، و﴿أَيَّ﴾ هنا فيها معنى الاستفهامِ الإنكاريّ، الذي يُفيد بأنَّه ليس لهم وجهٌ من وجوه النّجاة[1].

نُكْتَةُ استعمالِ المصدرِ الميميّ ﴿مُنقَلَبٍ﴾:

المصدرُ الميميّ أقوى في الدّلالة منَ المَصدَر الأصليّ

لفظ ﴿مُنقَلَبٍ﴾ في قول الله تعالى: ﴿وَسَيَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ مصدرٌ منصوبٌ بالفعل ﴿يَنقَلِبُونَ﴾، مُقدَّمٌ من تأخير، والأصل: (ينقلبون أيَّ انقلاب)[2]، أو هو صفةٌ لمصدر محذوف، أي: (ينقلبون انقلابًا أيَّ منقلب)[3]، والمصدرُ الميميّ له مزيّةٌ يمتاز بها عنِ المصدر الأصليّ، فهو يُؤدّي ما يُؤدّيه المصدرُ الأصليّ منَ الدّلالة على المعنى المُجرّد، لكنّه يفوقُه في قوّة الدّلالة وتأكيدِها[4]؛ وبهذا تتكشّفُ نُكْتَةُ التّعبير به؛ وهو التّأكيد على وقوع هذا المنقلَبِ السَّيِّئ، المُعدِّ للظّالمين في الآخرة.

دلالةُ الفعلِ ﴿يَنقَلِبُونَ﴾ مادّةً وصيغةً:

الانــقــلابُ انــتــكــاسٌ وصـرفٌ وتحوّلٌ مبهَمُ الكيفيَّة والنَّوعيّة

الفعل ﴿يَنقَلِبُونَ﴾ من قول الله تعالى: ﴿وَسَيَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ مضارعٌ، وهو منَ الانقلاب، أي: الائتفاك، يقال: انقلبت بهِمُ الأرضُ، أَي: ائْتَفَكَتْ[5]، والانقلاب: الصَّرف، يُقال: اقْلِبْهم، أَي: اصرِفهم إلى منازلهم، والانْقِلابُ إلى الله ﷻ: المصيرُ إليه، والانقلاب: التَّحَوُّلُ[6]، فمن خلال تلك الدّلالات يتبيّن هولُ هذا المَنقلب، الذي لا يعرف كُنْهَهُ إلّا الله، فلو راعينا معنى الائتفاك؛ لدَلَّ على أنّ الظّالمين ستُنَكَّسُ رؤوسُهم في هذا الدّركِ المُنتَظَر؛ وإذا راعينا معنى الصّرفِ والتّحوّل والمصير إلى الله، لجاز أن نقول: إنَّ

(1) القونويّ، حاشية على البيضاويّ: 14/ 333.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/ 394.
(3) زكريا الأنصاريّ، إعراب القرآن العظيم، ص: 423.
(4) عبّاس حسن، النّحو الوافي: 3/ 231.
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (قلب).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (قلب).

اللّه ﷻ سيُحَوِّل الظّالِمين ويصرفُ وجوهَهم إلى حمأة هذا المُنْقَلَب؛ فاللّفظة بجميع دلالاتها مُخيفةٌ مُرعِبةٌ.

غرضُ حذفِ متعلّق ﴿يَنقَلِبُونَ﴾:

في الحذف تذهبُ النّفسُ كلّ مذهبٍ

حُذِفَ متعلّقُ الفعلِ ﴿يَنقَلِبُونَ﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾؛ لتذهبَ النّفسُ كلَّ مذهبٍ في تقدير الشّيء الذي ينقلبون إليه، ففيه تهويلٌ شديدٌ لهذا المصير المُبهَم، فجائزٌ أن يكون التّقدير: (ينقلبون إلى اللّه انقلابًا أيَّ منقلبٍ، فيجازيهم على ظُلْمهم)، ويجوز أن يكون الانقلابُ إلى جهنّم.

فائدةُ الجِناسِ في ﴿مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾:

تحريكُ الأذهان لترسيخ المعاني في النّفوس

الجِناسُ في قوله تعالى: ﴿مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ جِناسٌ اشتقاقيٌّ، وفائدتُه: التّأثيرُ على السّامع تأثيرًا يَحْمِلُه على المَيل والإصغاء بما يكون فيه من دَنْدَنةٍ ناجمةٍ عن جَرَس الكلمات، فيتوهّمُ السّامعُ أنَّ الكَلِمَتَين المُتشابهتَين بمعنًى واحدٍ، فيفاجَأ بأنَّ كلَّ كلمة تُؤدّي معنًى آخر؛ ففيه من تحريك الأذهان ما يُرَسِّخ المعنى في النّفس.

سُورَةُ النَّمۡلِ

سُورَةُ النَّمْلِ

❁ التّعريفُ العامُّ بالسّورة:

سورةُ النّمل كلُّها مكّيّةٌ

سورةُ النَّمل من السّوَر المَكّيَّة عند جمهورِ العلماءِ(1).

وعدد آياتها تسعون وثَلاث آيات في الكوفيّ، وأَرْبعٌ وتسعون في البَصريّ والشاميّ، وخمس وتسعون في المَدَنيّيْن والمَكّيّ، وذلك بحسب اختلافهم في الوقوف على رؤوس الآي فيها(2).

ترتيب نزول السورة وترتيبها في المصحف:

وهي السّورة السّابعة والعشرون في ترتيب المصحف الشّريف، وهو التّرتيب الثّابت، والمُعوَّل عليه عند أهل النَّظر والتّحقيق، جاءت بين سورتي الشُّعراء والقَصص، وأمّا ترتيبها النّزوليّ فهيَ الثّامنةُ والأَربَعونَ في تَرتيبِ النُّزولِ، نَزَلَتْ بعدَ سورَةِ الشُّعراء وقَبلَ سورَةِ القَصَص(3)، كما هو في ترتيبها المُصحَفيِّ.

فضائل السورة:

عند البحث والتّحقيق في آثار فضلها نجد أنّها تدخل في سوَر الطّواسين الّتي قال فيها النَّبيُّ ﷺ فيما رواه عنه مَعْقِلُ بْنُ يَسارٍ رضي الله عنه، قالَ: قالَ رَسولُ اللّه ﷺ: «اعْمَلوا بِالقُرْآنِ، وأَحِلّوا حَلالَهُ، وحَرِّموا حَرامَهُ، واقْتَدوا بِهِ، ولا تَكْفُروا بِشَيْءٍ منه، وما تَشابَهَ عليْكُم منه فرُدّوهُ إلَى اللّه وإلَى أولي الأَمرِ مِنْ بَعْدي كَيْما يُخْبِروكُم، وآمِنوا بِالتَّوْراةِ والإنْجيلِ والزَّبورِ، وما أوتيَ النَّبيّونَ مِنْ رَبِّهِم، ولْيَسَعْكُمُ القُرْآنُ وما فيه مِنَ البَيانِ، فإنَّهُ شافِعٌ مُشَفَّعٌ، وما حَلٌّ مُصَدَّقٌ إلّا ولِكُلِّ آيَةٍ نورٌ يَوْمَ القيامَةِ، وإنّي أُعْطيتُ سورَةَ البَقَرَةِ مِنَ الذِّكْرِ

(1) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 248، والسّيوطيّ، الإتقان: 1/ 39.

(2) الدّاني، البيان في عَدّ آي القرآن، ص: 199.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 19/ 215.

الأَوَّلِ، وأُعْطيتُ طَهَ، وطَواسينَ، والحَواميمَ، مِنْ أَلْواحِ موسَى، وأُعْطيتُ فاتِحَةَ الكِتابِ مِنْ تَحْتِ العَرْشِ»[1].

أسماءُ السّورة الكريمةِ، وسببُ التَّسميةِ:

أُنموذجُ النّملِ الفريدُ في البناءِ والتّنظيمِ مثالُ عظةٍ لِمَن يتفكّر

اشتُهر اسم (النّمل) مُسمًّى لهذه السّورة المباركة؛ إذ سُمّيت به في جميع المصاحف، وكتب التّفسير والسُّنّة، فقد وردت تسميتها بذلك في صحيح البخاريّ[2]، وقد تفرّدت من بين سورِ القرآن الكريم بذِكْرِ النّملِ بلفظِ الجمعِ والإفرادِ[3].

وسُمّيت أيضًا بسورة (الهدهد) لانفرادِها بذِكْرِه[4]، وسُمّيت بـ(سليمان) لأنّها فصَّلتْ في ذِكْرِ قصَّته أكثرَ من غيرها[5].

ويمكن الربط بين هذا الاسم المُشتَهَر لها (النّمل) ومحورها في بيانِ أثرِ القرآنِ الكريم في تحقيقِ الهدايةِ بما يُحقّق النُّهوضَ الحضاريَّ للأممِ على الصَّعيدَيْن: المادّيّ والمعنويّ، فعرضتْ أُنموذجًا سريعًا لمملكةِ النَّملِ في جانبٍ يكشفُ عن نظامِ التّعاون لهذه المملكةِ؛ من خلالِ حرصِ مَليكَتِهم على شَعبها وتحذيرها إيّاهم، وانتفاعهم بهَدْيِها لهم، كما أنّ سليمان ﵇ كان حريصًا على مملكتِه أن يكون لها شُهودُها الحضاريُّ بما حقّقه لمملكته من قيَم ومبادئ، فكانت التَّسميةُ بالنّملِ على أنَّهم الأنموذجُ في البناءِ والتَّنظيمِ الّذي سعتِ السّورة لتحقيقِه.

محور السّورة:

القرآنُ الكريمُ مَوئلُ الهدايةِ ومدادُ الرَّشادِ

يرى الإمامُ البقاعيُّ رحمه الله أنَّ مَقصِدَ هذه السّورة هو وصفُ هذا الكتاب بالكفاية لهداية الخَلْق أجمعين، بالفصلِ بين الصّراطِ

(1) الحاكم، المُستَدرَك، حديث رقم: (2087).
(2) البخاريّ، الصّحيح: 4/ 1788.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 19/ 215.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 19/ 215.
(5) السّيوطيّ، الإتقان: 1/ 194، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 19/ 215.

المستقيمِ، وطريقِ الحائرين، والجمعِ لأصولِ الدّينِ؛ لإحاطةِ عِلْمِ مُنزِلِه بالخفيِّ والمُبِينِ، وبشارةِ المؤمنين ونِذارةِ الكافرين بيوم اجتماع الأوّلين والآخرين، وكلُّ ذلك يرجع إلى العِلْم المُستلزِم للحِكمة، فالمقصودُ الأعظمُ منها: إظهارُ العلمِ والحِكمةِ، كما كان مقصد الّتي قبلها إظهارَ البطشِ والنّقمةِ، وأدلّ ما فيها على هذا المقصدِ ما للنّمل من حُسنِ التّدبيرِ، وسدادِ المذاهبِ في العيشِ، ولا سيّما ما ذَكَرَ عنها سبحانه من صحّةِ القصدِ في السّياسةِ، وحُسنِ التّعبيرِ عن ذلك القصدِ، وبلاغةِ التأديةِ[1].

والحقّ أنّها تلتقي في النّهايةِ مع سورةِ الشُّعراء الّتي سبقتْها في التّرتيبِ النُّزوليّ والمُصحفيّ في تقريرِ أثرِ القرآنِ الكريمِ في تثبيتِ فؤادِ النّبيِّ ﷺ على دعوتِهِ، بما قَصَّه اللّه تعالى عليه من أنباءِ الأنبياءِ السّابقين، وبيان أنّ هذا القرآن هُدًى وبُشرى للمؤمنين؛ لأنّه من لَدُن حكيمٍ عليمٍ.

واقتضى هذا المحورُ هنا أن تُبَيِّن السّورة أَثَرَ هذا القرآنِ الكريمِ في تحقيقِ الهدايةِ، الّتي من شأنها تحقيقُ الوجودِ والشّهودِ الحضاريَّيْن لهذه الأمّة القائم على العِلْم، من خلال المِحورَيْن الرّئيسَيْن اللَّذَيْن تقوم عليهما الحضارة؛ وهما: المحورُ المادّيُّ المُتمثّل بالمدنيّة، بما تحويه من مظاهر التّقدُّم، والمحور المعنويُّ المُتمثِّل بالقيم والمبادئ والعقائد والأخلاق، فبيّنت السّورة الكريمة مظاهر المدنيّة الّتي يسعى القرآنُ إلى إنشائها، وتتمثّل في عالَم البشر في المملكة السّليمانيّة، وفي عالَم الحيوان في مملكة النّمل؛ حيث استجابت هاتان المملكتان لنداءِ الهدايةِ، وضربتِ السّورة نماذجَ لحضاراتٍ قامت على باطلٍ ولم تنتفع بالهدايةِ كالحضارةِ الفرعونيّةِ، وحضارةِ ثمودَ، والمُؤتفكاتِ، ومملكة سبأ، وبيّنت السّورة أنّ هذه الحضارات الّتي أقامت وُجودَها على المحور المادّيِّ فقط المُتمثِّل في قوَّتها المَدَنيّة - دون القيَمِ المعنويّةِ من دينٍ وأخلاقٍ ومبادئَ - أنّها سرعان ما أُزيلت أو تحوّلت عن قيمِها الباطلة إلى القيم الحقّة، وهذا ما اختارتْه مَلِكةُ سبأ لشعبها؛ إذ تخلّت عن عقائدها الفاسدة، ودخلت في دين سليمان، فحفظت حضارتها من الإفساد بجعل أعزّة أهلها أذلّةً، وقادتهم إلى تمكين وجودهم الحضاريّ بدلًا من تعريضهم للزّوال.

(1) البقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرر: 14/ 122.

بيانُ أثرِ القرآنِ المُعجِزِ في تحقيقِ الشُّهودِ الحضاريِّ

موضوعات السورة وخصائصها:

بيّنتِ السّورة أثَرَ الدَّور الأخلاقيِّ في البناء الحضاريِّ مُمَثَّلةً بخصال: الحلم ﴿۞قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٢٧﴾ [النمل: 27]، والنَّزاهة ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ۝٣٦﴾ [النمل: 36]، وأظهرت أثر الشّورى في حفظ العمران: ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ۝٣٢﴾ [النمل: 32]، وكذلك بيّنت مظاهر التّفوّق الحضاريّ في العمران ﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٤٤﴾ [النمل: 44]، وغير ذلك.

ومن أغراضها: مُحاجَّةُ المُشركينَ في بُطْلانِ دينِهم وتَزييفِ آلِهَتِهم وإِبْطالِ أَخبارِ كُهّانِهم وعَرّافيهم وسَدَنَةِ آلِهَتهم، وإِثْباتُ البَعْثِ وما يَتَقَدَّمُهُ من أَهْوالِ القيامَةِ وأشراطِها، وأَنَّ القرآن مُهَيمِنٌ على الكُتُبِ السّابِقَةِ، ثُمَّ موادَعَةُ المُشركينَ وإِنباؤُهُم بأَنَّ شَأنَ الرَّسولِ الاستِمرارُ على إبلاغِ القرآنِ وإِنذارُهُم بأَنَّ آياتِ الصِّدقِ سيُشاهِدونَها واللهُ مُطَّلِعٌ على أَعمالِهِم(1).

واقتضى الأمر كذلك أن تُبَيِّنَ السّورةُ الكريمةُ أَهَمَّ المبادئ الّتي تقوم عليها القيم المادّيَّة والمعنَويَّة في بناء الحضارة من مثل: العلم النّاشئ عن إيمان ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٥﴾ [النمل: 15]، فأَوْلَتِ السّورة العنايةَ بالعلم وأكّدت عليها في أكثر من موضعٍ(2).

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 19/ 215 - 216.

(2) الآيات: 13 - 16، 22، 25، 40، 42، 52، 55، 61، 64 - 66.

الخصائصُ الموضوعيّةُ والأسلوبيّةُ لسورةِ النّملِ:

الخصائصُ الموضوعيّةُ:

تميّزت سورةُ النّملِ بخصائصَ تتناسبُ مع موضوعاتِها

أولاً: تميّزت السّورة الكريمةُ باشتمالِها على القصص في معظم آياتها؛ إذ شغل القصص منها نحو اثنتيْن وخمسين آيةً من أصل ثلاث وتسعين آيةً؛ أيْ: بنسبة ستة وخمسين بالمائة من آيات السّورة الكريمة، وقد احتلّت قصّة موسى عليه السلام نحو ثماني آيات [7 - 14] تلاها قصّة سليمان عليه السلام في نحو ثلاثين آية [15 - 44]، وهي أكثر القصص طولًا في السّورة الكريمة وفي القرآن كلّه من حيث حديثها عن سليمان عليه السلام، تلاها جانبٌ من قصّة صالح مع ثمود في نحو تسع آيات [45 - 53]، ثمّ يأتي جانبٌ من قصّة لوطٍ عليه السلام مع قومه في نحو خمس آيات [54 - 58].

ثانيًا: تفرَّدت السّورة الكريمة كذلك بأنّها صرّحت بالسّبب الرئيس للانحراف البشريّ عبر التّاريخ، بقوله تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ١٤﴾ [النمل: 14]؛ فالجحود بسبب الظّلم والاستكبار مع استيقانهم وجه الحقّ هو السّبب الرئيس في إهلاك المفسدين.

ثالثًا: تميّزت السّورة بحديثها عن جوانب جديدة في شخصيّة سليمان عليه السلام لم تَعرض لها السّور الأخرى الّتي تناولت جانبًا من شخصيّته، فقد بيّنت أنّ اللّه تعالى علّمه منطقَ الطّير، وانفردت السّورة كذلك ببيان ما جرى بينه وبين الهدهد، وما جرى بينه وبين مليكة سبأ.

رابعًا: انفردت السّورة بكشف جوانب جديدة من عالم الحيوان تجلّت في قصّة النّملة والهدهد، وهي قضايا تجلّى فيها الكثير من الهدايات في كشف العلم الحديث عن جوانب عجيبة من عالم النّمل، أو من شخصيّة الهدهد الّذي بات شعارًا لبعض أجهزة الاستخبار في العالم، وهذه الجوانب تتّفق مع الحقائق البيولوجيّة المعروفة عن هذيْن العالَمين.

خامسًا: تضمَّنت السّورة الكريمة أبلغ وأوجز كتاب تحذيريّ نقله التّاريخ، تمثّل في كتاب سليمان إلى مليكة سبأ: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣٠ أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ۝٣١﴾ [النمل: 30 - 31]؛ لاشتماله على تَمامِ المَقصودِ، وذَلِكَ لِأَنَّ المَطلوبَ مِنَ الخَلقِ، إِمّا العِلمُ وإمّا العَمَلُ(1).

سادسًا: تضمّنت السّورة الكريمة آيةً وجيزةً صرّحت بهيمنة الكتاب على بقيّة الكتب السّماوية؛ بما حواه مِن حقائقَ وتفاصيلَ ليست في كتبهم المزعومة، وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَكۡثَرَ ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ۝٧٦﴾ [النمل: 76].

سابعًا: تضمّنت السّورة الكريمة عرضًا قويًّا متتابعًا للأدلّة الكونيّة على وجود اللّٰه تعالى ووحدانيّته بأسلوب الاستفهام الإنكاريّ لم تُشاركها فيه سورة أخرى، وذلك في معرض تقرير أنّ أساس دعوة الأنبياء لأقوامهم إنّما كانت لتقرير حقيقة التّوحيد، وأنّ أَهَمَّ القيَم الّتي يجب أن تنهض عليها أيُّ حضارةٍ لا بدّ أن تستند إلى هذه الحقيقة وإلّا كان حكمُها الزّوالَ، لذلك سجّل الهدهد هذه الحقيقة، وهذا الاستدراك العظيم على حضارة سبأ كما في الآيات [24 - 26]، وكذلك الآيات الكونيّة الّتي ذكرتها السّورة الكريمة في الآيات: [60 - 88].

الخصائصُ الأسلوبيّةُ للسورة:

أولًا: تفرَّدت السّورة الكريمةُ بمَطلَعها الخاصِّ بالحروفِ المُقطَّعةِ ﴿طسٓ﴾؛ إذ انفردت عن بقيّة سور الطّواسين المجاورة لها - التي كان مطلعها ﴿طسٓمٓ ۝١﴾ [الشعراء: 1] [القصص: 1] - بكونها استُهلّت بحرفيْن لا بثلاثة.

ثانيًا: تميّزت السّورة الكريمة بأنّها ذكرت جانبًا من قصّة موسى ﵇ شاركت فيه جارَتَيْها سورة (الشُّعراء) و(القَصَص) مع انفراد كلِّ واحدةٍ منها بألفاظٍ وأنساقٍ تعبيريّة فتحت المجال أمام الباحثين في عِلْم مُتشابِه اللّفظ أو النَّظم كي يدرسوه، ويُبيِّنوا أثر السّياق في اختلاف ألفاظِ كلِّ آيةٍ، ومن ذلك المُتشابه بين الآيات: [7 - 8] من سورة (النّمل)، والآيات: [29 - 30] من سورة (القصص)، ولا شكَّ أنَّ هذا الاختلاف في نَظْمِ كلٍّ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 554 - 555.

من الموضعيْن ههنا - أو في غيرهما من المواضع - فتح آفاقًا للبحث عند العلماء المُهتمّين بدراسة مُتشابِه النَّظْم، للبحث في أثرِ السّياق في هذه الاختلافات.

ثالثًا: تفرّدت السّورة الكريمةُ في أسلوبها بتكرارِ قولِه تعالى: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ﴾ في خمس آياتٍ مُتجاوراتٍ[1]، بعد التّذكير بكلّ مَظهرٍ من مظاهر قدرة اللّه تعالى في الكون فيها، ولا شكّ أنّ استعمال مثل هذا الأسلوب الإنكاريّ من شأنه أن يُقرّر حقيقةَ انفراد اللّه تعالى في الخلق والإيجاد والتّصرُّف في هذا الكون.

رابعًا: تميّزت السّورة الكريمة في أسلوبها بذِكْر بعضِ الأبنيةِ والمشتقّاتِ الصّرفيّةِ الّتي لم تَرِدْ في غيرها من السّور؛ فمن الأفعال: ﴿لَتُلَقَّى﴾، و﴿وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ﴾ [النمل: 14]، و﴿يَحۡطِمَنَّكُمۡ﴾ [النمل: 18]، و﴿فَأَلۡقِهۡ﴾ [النمل: 28]، و﴿تَأۡمُرِينَ ٣٣﴾ [النمل: 33]، و﴿يُجِيبُ﴾ [النمل: 62]، و﴿تَمُرُّ﴾ [النمل: 88]، و﴿فَكُبَّتۡ﴾ [النمل: 90]، وغيرها، ومن الأسماء: ﴿ضَاحِكٗا﴾ [النمل: 19]، و﴿ٱلۡمُلُوكَ﴾ [النمل: 34]، و﴿مُرۡسِلَةٌ﴾ [النمل: 35]، و﴿طَرۡفُكَۚ﴾ [النمل: 40]، و﴿صُنۡعَ﴾ [النمل: 88]، وغيرها. ولا شكّ أنّ لهذه الأبنية والاشتقاقات ارتباطًا قويًّا بالمشاهد القصصيّة في السّورة والتي تُشكِّل جِسمها الرئيسَ الّذي قامت عليه.

خامسًا: حظيَت السّورة الكريمةُ بألفاظٍ تفرّدت بها عن غيرها من السّور من جهة الجذْر والمادَّة؛ وهذه الألفاظ هي: ﴿ٱلنَّمۡلِ﴾ [النمل: 18]، و﴿ٱلۡخَبۡءَ﴾ [النمل: 25]، و﴿فَتَبَسَّمَ﴾ [النمل: 19]، و﴿عِفۡرِيتٌ﴾ [النمل: 39]، و﴿جَامِدَةٗ﴾ [النمل: 88]، و﴿أَتۡقَنَ﴾ [النمل: 88]، وإنّ الجامع لهذه الألفاظ الّتي تفرّدت بها السّورة، أنّها ذات اتّصالٍ مباشرٍ بمِحْوَر السّورة القائِم على بيانِ أثرِ القرآنِ المُعجِزِ في تحقيقِ الشّهودِ الحضاريِّ من خلالِ المِحوَريْن المادّيّ والمعنويّ للحضارات.

بيانُ المناسبةِ بين السّورة وسابقتِها ولاحقتِها:

جاءت هذه السّورة في التّرتيبِ المُصحفيّ بعد سورةِ (الشُّعراء)، وقد تقدّم في (الشُّعراء) بعض وجوه الصّلاتِ بينهما؛ ومنها:

أولًا: أنّها كالتّتمَّة لسورة (الشُّعراء) في بيانِ بقيّةِ قصصِ الأنبياءِ، وهي قصّةُ داودَ وسليمانَ عليهما السلام.

(1) الآيات، ص: 60، 61، 62، 63، 64.

سورةُ النَّمل متّصلةٌ تمامًا بسورتَي (الشُّعراء) و(القَصَص) مضمونًا وأسلوبًا

ثانيًا: أنّ فيها تفصيلًا لما أُجمل في سورة (الشُّعراء) من القصص النّبويّ، وهي قصّة موسى في الآيات [7 - 14] وقصّة صالح في الآيات [45 - 53] ولوط في الآيات [54 - 58].

ثالثاً: نزلتْ هذه السّورُ الثَّلاثُ: (الشُّعراء، والنَّمل، والقَصَص) متتاليةً على هذا التّرتيبِ، وذلك كافٍ في ترتيبها في المصحفِ على هذا النّحو.

رابعًا: التَّشابُهُ الموضوعيُّ بينهما في وصف القرآن وتنزيله من عند اللّه؛ لأنّه قال في بداية (الشُّعراء): ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ٢﴾ [الشعراء: 2]، وقال في النّمل: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ﴾ وقال في أواخر (الشُّعراء): ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٩٢﴾ [الشعراء: 192] ﴿وَمَا تَنَزَّلَتۡ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ٢١٠﴾ [الشعراء: 210]، وقال في (النّمل): ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ﴾؛ أيِ: الّذي هو تنزيل ربِّ العالمين.

خامسًا: تلتقي السّورتان في بيانِ وحدةِ القصدِ من القصصِ القرآنيِّ، وهو تسليةُ الرّسولِ ﷺ عمّا يلقاه من أذى قومِه، وإعراضهم عنه[1].

أمّا وجْهُ اتّصالها بسورة (القَصَص)؛ فقد أوجزها المراغيُّ على هذا النَّحو:

أولًا: بسطَ سبحانه وتعالى في سورة (القَصَص) ما أوجز في السّورتَيْن قبلها من قصص موسى عليه السلام، وفصّل ما أجمله هناك؛ فشَرَح تربية فرعون لموسى وذَبْحَ أبناء بني إسرائيل الّذي أوجب إلقاءَ موسى حين ولادته في اليمِّ خوفًا عليه من الذَّبح، ثم ذَكَر قَتْلَه القبطيَّ، ثُمَّ فراره إلى مَدْيَن وما وقع له مع شعيب من زواجِه ببنته، ثم مناجاته لربِّه.

(1) الزُّحيليّ، التّفسير المنير: 19/ 252 - 253.

ثانيًا: أجمَلَ جلَّ ثناؤه في سورةِ (النّمل) توبيخَ المشركين بالسّؤالِ عن يومِ القيامةِ وبسَطَه في (القَصَص) أتمّ البسط.

ثالثًا: فصّل سبحانه وتعالى في (النّمل) أحوالَ بعضِ المُهلَكين من قوم صالحٍ وقوم لوطٍ، وأجمله في (القَصَص) في قوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ﴾ [القصص: 58] الآيات.

رابعًا: بسط ﷻ في (النّمل) حالَ مَنْ جاء بالحَسَنَة وحال مَنْ جاء بالسيئة، وأوجز ذلك في القصص، وهكذا من المناسبات الّتي تظهر بالتّأمُّل حين قراءةِ السّورتيْن[1].

والحقّ أنّ أوجهَ التّناسبِ بين هذه السّورِ الطّواسين أكثر من أن تُحصى؛ فكلّها بدأت بالحروفِ المُعجزةِ، ثمّ بالحديثِ عن القرآنِ الكريمِ، ثمّ اشتركت في تسلية النّبيّ ﷺ من أجل تثبيته على الدّعوة، واشتركت في بيان مَصارع الأمم السّابقة من المكذّبين وبيان سُننِ الله تعالى في نُصرةِ الحقِّ على الباطلِ، واشتركتْ هذه السّور كذلك في عرضِ آياتِ الله تعالى في الأنفُسِ والآفاقِ، لتبيّن هذا الاتّساق بين كتاب الله المسطور وكتابه المنظور.

(1) المراغيُّ، تفسير المراغيِّ: 20/ 30.

﴿طسٓۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ ١﴾ [النَّمل: 1]

❁ مُناسَبَة الآية لما قَبْلَها:

لما أوضح النَّظم في آخر سورة الشعراء ما كان عليه أهل الشعر من الغواية واتباع الهوى، وما كان يحتويه الشعر من التَّصنع والحضّ على التخلق بأخلاق لا مصداق لها في الواقع، وأنهم لم يسّلم منهم إلا من آمن بالله، نبه هنا على عظمة القرآن، فأشار إليه إشارة دالة على التعظيم، فقال: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ﴾، أي: هي أعلى الآيات وأقوى البيِّنات وأوضح الدلالات وأبينها على أجل المطالب وأفضل المقاصد، وخير الأعمال وأزكى الأخلاق، آيات تدل على الأخبار الصادقة والأوامر الحسنة والنهي عن كل عمل وخيم وخلق ذميم[1].

❁ شَرحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مُّبِينٍ﴾: (بين) أَصلٌ يَدُلُّ على بُعدِ الشَّيءِ وانكِشافِه، فالبَيْنُ موضوعٌ للخلالة بين الشَّيئَيْن ووسطهما، قال تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمَا زَرۡعٗا ٣٢﴾ [الكهف: 32]، والبَيْنُ: الفِراق، بانَ الشَّيْءُ وأَبانَ إذا اتَّضَحَ وانْكَشَفَ[2]، وبان الصُّبح: ظَهَر، والبَيانُ: الكشف عن الشَّيء، وهو أعمّ من النّطق؛ لأنّ النُّطق مُختصٌّ بالإنسان، ويُسمَّى ما بيّن به بيانًا، وسُمّي ما يُشرَح به المُجمل والمُبهم من الكلام بيانًا[3]، والمعنى في الآية الكريمة: بيِّنٌ في نفسه[4].

❁ المَعْنى الإِجْماليُّ:

هذه آياتُ القرآنِ وهي آيات الكتاب العزيز بَيِّنَةُ المعنى واضحةُ

كتابٌ بَيِّنٌ في نفسه موَضِّحٌ لكلِّ مُلبسٍ

(1) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 600، والبقاعي، نظم الدرر: 14/ 124.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بين).
(3) الرّاغب، المُفرَدات: (بين).
(4) البقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرر: 14/ 123.

الدّلالة، على ما فيه من العلوم والحِكَم والشرائع؛ فالقرآن هو الكتاب، جمع الله له بين الاسميْن، وهي آياتٌ تُرشد إلى طريق الفوز في الدُّنيا والآخرة، وتُبشِّر بحُسنِ الثواب للمؤمنين الّذين صَدَّقوا بها، واهتدَوْا بهديها[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الفصلِ في: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ﴾:

تُرك العطفُ بين الآياتِ لكمالِ اتّصالِها

تقدَّم مرارًا أنّ الحروف المُقَطَّعة دَلَّت على التّحدّي والإعجاز؛ لذلك لم يُعطف عليها هنا قولُهُ: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ ۝١ هُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾؛ لأنّها جاءت مُؤَكِّدَةً لها، والتَّوكيد لا يحتاج الى رابطٍ يَصِلُه بالمُؤَكَّد، كما أنَّ الصِّفة لا تحتاج في اتِّصالها بالموصوف إلى شيءٍ يَصِلُها به[2]، لذلك فإنّ ترك العطف بين هذه الجُمَل إنّما هو لكمال اتِّصالها ببعضها، لكون الجملة الثّانية مؤكِّدة لمضمون الأولى، أو صفةً أخرى لها.

نكتةُ التّعبيرِ باسمِ الإشارةِ البعيدِ ﴿تِلۡكَ﴾:

آياتُ القرآنِ مُنتهى العلوّ في الفضلِ والشَّرفِ

أفاد التّعبير باسم الإشارة المُستعمَل مع البعيد في قوله تعالى: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ﴾ علوَّ منزلةِ الآياتِ؛ فهو من إنزال البُعد المعنويِّ منزلةَ البُعد الحِسّيّ لعُلوّ المُشار إليه، وللإيذان ببُعد منزلتِه في الفضلِ والشَّرفِ[3].

نكتةُ إضافةِ (الآيات) إلى ﴿ٱلۡقُرۡءَانِ﴾:

في إضافة الآياتِ إلى القرآنِ تعظيمٌ لشأنِها وتشريفٌ

إضافةُ الآياتِ إلى القرآنِ الكريمِ في قوله تعالى: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ﴾ هي إضافةٌ حقيقيّةٌ؛ لكونِ القرآنِ مُشتملًا عليها، وهي أيضًا إضافةُ تشريفٍ وتعظيمٍ لشأنها، فإنّ المُراد به المُنَزَّلُ المُبارَك

---

(1) مجموعة من المؤلّفين، التفسير المُيسّر: 1/ 376 - 377.

(2) الجُرجانيُّ، دلائل الإعجاز، ص: 151.

(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 271.

المُصدِّقُ لما بين يديه، الموصوفُ بالكمالات الّتي لا نهاية لها[1]، ويمكن أن تكون الإضافةُ تخصيصًا للآيات عن كونها آيات كونيّة، أو آياتٍ من كتابٍ آخر من الكتبِ السّماويّة.

معنى (الآيات) بين العمومِ والخصوصِ:

جميعُ آياتِ القرآن أو جميعُ المُنزَّل عند نزولِ السّورة

قد يكون المُرادُ من (الآيات) في قوله تعالى: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ﴾ كلَّ المُنزَّل عليه ﷺ للإعجازِ أو بعضَه، وجوِّز هنا إرادة المعنيَيْن كليهما، وإذا أُريد الثّاني فالمُراد بالبعض جميعُ المُنزَّل عند نزول السّورة[2].

نكتةُ جمعِ ﴿ءَايَٰتُ﴾:

مقاصدُ البيانِ في آياتِ القرآنِ متعددةٌ

جُمع (الآيات) في قوله تعالى: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ﴾ لِتَعدُّدِ وجوهها في مقصدِ البيانِ[3]، وتعدُّدِ معاني ما فيها من عظيم القدرةِ والعلمِ والحكمةِ والتّشريعِ وغير ذلك من المضامين الدّينيّةِ والدّنيويّة.

دلالةُ تعريفِ ﴿ٱلۡقُرۡءَانِ﴾:

التّعريفُ العهديُّ أو الجنسيُّ لتَفْخيم القرآنِ الكريمِ

التّعريفُ بـ(أل) للقرآنِ في قوله تعالى: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ﴾ تعريفٌ للعهد على الأظهر، والمُراد به القرآن الكريم، الكتاب الّذي اشتُهرَ بين النّاس، الموصوف بالكمالات الّتي لا نهاية لها، ويُمكِن على معنًى بعيدٍ حملُ التّعريف على الجنس، ويرجع المعنيان إلى التّفخيم فلا بأس بمثل هذا الاختلاف[4].

نكتةُ عطفِ ﴿وَكِتَابٖ مُّبِينٍ﴾:

العطفُ بين الصّفاتِ لإنزالِ التّغايرِ العنوانيِّ منزلةَ التّغايرِ الذّاتيِّ

عَطْفُ (الكتاب) على ﴿ٱلۡقُرۡءَانِ﴾ في قوله تعالى: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ﴾ - مع أنّه ذاته - مِن عطف الصّفات، كما

(1) الآلوسيُّ، روح المعاني: 19/ 232.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 19/ 232.
(3) البقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرر: 11/ 201.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 19/ 233.

تُعطف إحدى الصِّفتيْن على الأخرى في نحو قولك: هذا فعلُ السَّخيِّ والجوادِ الكريم؛ لأنّ القرآنَ هو المُنزَّل المبارَك المصدِّقُ لما بين يديه، فكان حُكمه حُكمَ الصّفات المُستقلّة بالمدح[1]، فهو من أجلِ إنزالِ التّغايرِ العنوانيِّ منزلةَ التّغايرِ الذّاتيِّ للإشادةِ به.

نكتةُ تنكيرِ ﴿وَكِتَابٍ﴾:

أفاد تنكير ﴿وَكِتَابٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ معانيَ التّفخيمِ والتّعظيم لشأنِ القرآنِ الكريمِ[2].

نكتةُ تقديمِ ﴿ٱلْقُرْءَانِ﴾ على ﴿وَكِتَابٍ﴾:

التّنويهُ بالقرآنِ ومُتَّبعيه المؤمنين

قُدِّمَ لفظُ ﴿ٱلْقُرْءَانِ﴾ في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ وعُطف عليه ﴿وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ على عكس ما في مطلع سورة الحِجْر؛ لأنّ المقام هنا مقامُ التّنويه بالقرآن ومُتَّبِعيه المؤمنين؛ فلذلك وُصف بأنّه ﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أيْ: بأنّهم على هدًى في الحال، ومُبَشَّرون بحسن الاستقبال؛ فكان الأهمّ هنا للوحي المُشتمِل على الآيات هو استحضاره باسمِه العلم المنقولِ من مصدرِ القراءةِ؛ لأنّ القراءةَ تُناسب حالَ المؤمنين به والمُتقبِّلين لآياته فهُم يدرُسونها، ولأجل ذلك أُدخلت اللّامُ للمحِ الأصلِ، تذكيرًا بأنّه مقروءٌ مدروسٌ، ثمّ عُطف عليه: ﴿وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ ليكون التنويه به جامعًا لعُنوانَيه ومستكملًا للدّلالة بالتعريف على معنى الكمال في نوعه من المقروءات"[3].

وقيل: قُدّم ﴿ٱلْقُرْءَانِ﴾ في النَّمل نظرًا إلى حال تقدُّم القرآنيّة على حال الكتابيّة؛ وعُكس في الحِجْر لأنّ المُرادَ تفخيمُه من حيث اشتماله على كمال جنسِ الكتب الإلهيّة حتّى كأنّه كلُّها، ومن حيث كونه ممتازًا من غيره نسيجَ وحده بديعًا في بابه، والإشارةُ إلى امتيازِه من سائرِ الكتبِ بعد التّنبيه على انطوائِه على كمالاتِ غيرِه من الكتبِ أدخلُ في

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 351.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 351، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 11/ 453.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 19/ 218.

المدحِ، لِئلّا يُتوهّم مِن أَوَّل الأمرِ أنّ امتيازَه من غيرِه لاستقلالِه بأوصافٍ خاصّةٍ به مِن غيرِ اشتمالِه على نعوتِ كمالِ سائرِ الكتبِ الكريمةِ[1].

سرُّ وصفِ (الكتاب) بـ(المبين):

إعجازُ القرآنِ ظاهرٌ بما فيه من العلومِ والحِكَمِ والشرائعِ ممّا لا غنى عنه

الكتاب المبين في قوله تعالى: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ﴾ إمّا اللّوح الّذي خُطّ فيه كلُّ ما هو كائنٌ فهو يبيّنه للنّاظرين، وإمّا السّورة، وإمّا القرآن اللذانِ يبيِّنان ما أودِعاه من العلوم والحِكَم والشرائع، وأنّ إعجازهما ظاهرٌ مكشوفٌ[2].

دلالة التّعبير بـ﴿مُّبِينٍ﴾ من حيثُ الصّيغة:

إعجازُ القرآنِ الكريمِ ظاهرٌ في نفسِه، مُظهرٌ لغيرِه

تقدّم في شرح المُفرَدات أنّ المادّة اللّغويّة (بان) تدلّ على البُعد والوضوح والظّهور، و﴿مُّبِينٍ﴾ إمّا من (أبان) المتعدّي، وإمّا من (أبان) اللاَّزم بمعنى: بائن؛ أيّ: ظاهر الإعجاز، أو ظاهر الصحّة للإعجاز؛ وهو على الاحتمالَيْن صفةٌ مادحةٌ لـ﴿وَكِتَابٖ﴾، مؤكّدة للفخامة الّتي أفادها التّنكير[3]، فوَصْفُ الكتاب بـ﴿مُّبِينٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ﴾ دالٌّ على أنّه ظاهرُ الإعجازِ في نفسِه، مُظهرٌ لغيرِه[4].

نكتةُ حذفِ مفعولِ (أبانَ) المتَعدّيَة:

ما فرّط اللهُ تعالى في القرآنِ من شيءٍ

على القول بأنّ ﴿مُّبِينٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ﴾ مِن (أبان) المتعدّي؛ فإنّ المشهور في مثل هذا الحذف أنّه يُفيد العموم، ليعمّ كلَّ ما يُمكِن إبانته؛ أيّ: مُظْهِرٌ ما في تضاعيفه مِن الحِكَم والأحْكام وأحوال القرون الأولى وأحوال الآخرة الّتي من جُملتها الثّواب والعقاب، أو سبيل الرّشد والغيّ أو نحو ذلك[5].

---

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 19/ 232.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 346 - 347.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 19/ 232.
(4) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 11/ 453.
(5) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 11/ 453.

﴿هُدَى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٣﴾ [النمل: 2 - 3]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

غـايـةُ إنـزالِ الكتبِ السّماويةِ تحقيقُ الهداياتِ البشريّةِ

هاتان الآيتان مُتّصلتانِ تمامَ الاتّصالِ بالآيةِ السّابقةِ؛ فآيات الكتابِ المُبين إنّما أُنزلت لهدايةِ النّاسِ إلى دين الله ﷻ، وفيها البُشرى والإنذار للنّاس بحسب استجابتهم لهذه الآياتِ، واقتصر هنا على البشارةِ للمؤمنين الّذين وصفهم بأنّهم يُقيمون الصّلاة ويُؤتون الزّكاة، ويوقنون بالآخرةِ؛ تبيانًا لعموم وصفِ المؤمنين.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَبُشْرَىٰ﴾: (بشر) أصلٌ يدُلّ على ظُهورِ الشَّيْءِ مَعَ حُسْنٍ وجَمالٍ؛ فالبَشَرَةُ ظاهِرُ جِلْدِ الإنسانِ، وسُمّيَ البَشَرُ بَشَرًا لِظُهورِهِم والبَشيرُ: الحَسَنُ الوَجْهِ، والبَشارَةُ: الجَمالُ، والبِشْرُ: الطَّلاقةُ، وبَشَّرتُه بالأمر، فبَشِرَ وأبشر واستَبشر وتَبَشَّر: فرِح وسُرَّ، فظهر ذلك على وجهه بانبساط أساريره، كما يُعبَّر عن قريبٍ من ذلك بالبشاشة وبسط الوجه؛ أيّ هو من الانتشار الظّاهريّ: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ۝١٠١﴾ [الصّافات: 101][1]، وذلكَ يَكونُ بالخَيْر، ورُبَّما حُمِلَ عليه غَيْرُهُ من الشَّرِّ جِنْسًا مِنَ التَّبْكيتِ[2]؛ وقوله: ﴿وَبُشْرَىٰ﴾؛ أيْ: تُبَشِّر بحُسْن الثّواب للمؤمنين الّذين صَدَّقوا بها.

2) ﴿يُوقِنُونَ﴾: (يقن) أصلٌ يدُلّ على زَوالِ الشَّكِّ، يُقالُ: يَقِنْتُ، واسْتَيْقَنْتُ، وأَيْقَنْتُ[3]، واليَقينُ من صفة العلم وهو فوق المعرفة

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بشر).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بشر).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (يقن).

والدّراية وأخواتها، يُقال: عِلْمُ يَقينٍ، ولا يُقال: معرفةُ يَقينٍ، وهو سكون الفهم مع ثبات الحُكْم[1]، وقوله تعالى: ﴿هُمۡ يُوقِنُونَ﴾؛ أيّ: يعلمونها ويؤمنون بها إيمانًا تامًّا.

المَعْنى الإِجْماليُّ:

إقامةُ الصّلاةِ وإيتاءُ الزّكاةِ من أهمِّ صفاتِ المؤمنين

بيّنت هاتان الآيتانِ الكريمتان أنّ آياتِ القرآنِ الكريم أُنزلت على النّاس لهدايتهم إلى طريق الحقّ، وأنّها إنّما جاءت بُشرى للمؤمنين الّذين يتّصفون بصفاتٍ جليلةٍ على رأسِها إقامةُ الصّلاةِ على حسبِ ما تقتضيه الحكمةُ، وإيتاءُ الزّكاةِ لمُستحقّيها، فضلًا عن تزكيةِ النّفوسِ وتطهيرِها، وأنّ أهمّ صفاتِ أولئك المؤمنين أنّهم يؤمنون باليوم الآخر إيمانًا راسخًا لا يتزعزع.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نكتةُ فصلِ قولِه: ﴿هُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾:

الفصلُ لكمالِ الاتّصالِ بين الجُمَلِ

لم تُعطف هذه الآية على سابقتها لكمال اتّصالها بها، ولأنّ هاتيْن اللّفظتيْن اسمان مقصوران احتملا عدّة إعراباتٍ، فيُحتمل أن يكونا منصوبيْن على الحال؛ أيّ: حال كون آياته هاديةً ومُبشّرةً، أو أن يكونا منصوبيْن على المصدريّة؛ أيّ: تهدي هُدًى، وتُبشِّر بُشرى، واحتمل أن يكونا مرفوعيْن على إضمار مبتدأ والتّقدير: هي هُدًى وبشرى، أو على كونهما بدلًا من الآيات، أو على أنّهما خبرٌ بعد خبر على معنى أنّ الآياتِ جمعت بين كونها آياتٍ وهدًى وبُشرى[2].

نكتةُ تنكيرِ ﴿هُدٗى وَبُشۡرَىٰ﴾:

أفادَ تنكيرُ هذَيْن الاسمَيْن في قوله تعالى: ﴿هُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ التّفخيمَ والتّعظيمَ، على معنى أنّ آياتِ القرآنِ هاديةٌ وأيّ هدايةٍ، ومُبشِّرةٌ أعظمَ بشرى.

---

(1) الرّاغب، المُفرَدات: (يقن).

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 207.

غرضُ تقديمِ الهدايةِ على البُشرى:

هدايةُ القرآنِ مَقصِدٌ أصليٌّ، والبُشرى شعارُ الدّينِ

الهدايةُ أعمُّ من البُشرى، ويكون عطف البُشرى على الهداية من عطف الخاصّ على العامِّ لإفرادِه بمزايا رائقَةٍ تُشعِر بكونه ليس من جنسِ المعطوفِ عليه، نظرًا الى أنّ البشرى هي شعارُ هذا الدّينِ، والهدايةُ مقصدُها الأصليُّ.

معنى اللّامِ في قوله: ﴿لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾:

إرشادٌ وتبشيرٌ في الدُّنيا، وهداية إلى الجنّةِ في الآخرةِ

الهداية والبشرى يتنازعان لفظة ﴿لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿هُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، والهداية بمعناها العامّ ليست حِكْرًا على المؤمنين؛ فهي للنّاس كافّةً؛ وعلى هذا لا تكون اللّامُ للتّخصيص؛ بل للتّعليل؛ أيْ: لأجل المؤمنين، ويمكن أن يكون في الآية فنّ الاحتباك؛ وهو نوعٌ من الحذف يُذكر فيه ما يدلّ على المحذوف؛ فيكون تقدير الجملة: هدًى للنّاس وإنذارٌ للكافرين، وبُشرى للمؤمنين، فحذف من كلٍّ منهما ما دلّ عليه المذكور، وتكون اللّامُ حينئذٍ للتّخصيص.

كما تكون اللّام للتّخصيص على معنى الهداية الخاصّ؛ أيْ: (يهديهم إلى الجنّة وبُشرى لهم) أو على أنّ المقصودَ زيادةُ الهُدى على هُداهم كقول اللّه تعالى: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ هُدٗىۗ﴾ [مريم: 76]"[1].

معنى (أل) في ﴿لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾:

القرآنُ هدًى لِمَن اتّصفَ بالإيمانِ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ

أفاد تعريفُ ﴿لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿هُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ الاستغراقَ؛ ليعمّ كلَّ مَن اتّصف بالإيمان، ولا وجهَ لحملِه على فئةٍ معهودةٍ ومُحَدَّدةٍ؛ لأنّ الهداية والبشرى غيرُ مُقَيَّدةٍ بزمانٍ ومكانٍ وأحوالٍ.

بلاغةُ المجازِ العقليّ ﴿هُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾:

في إسنادِ الهدايةِ للمُنَزَّلِ دونَ المُنَزِّلِ مَجازٌ لطيفٌ

في وصفِ الآياتِ بالهُدى والبُشرى في قوله تعالى: ﴿هُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ مَجازٌ عقليٌّ؛ إذ الهادي والمُبَشِّرُ هو اللّه تعالى عن طريق

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 540.

رسوله الكريم ﷺ بِسَبَبِ الكِتابِ[1]؛ فالمجاز العقليّ أو الحُكْميّ هو إسنادُ الفعل لِمَن لم يقع منه لعلاقةٍ وقرينةٍ، وهنا أُسندت الهداية والبُشرى لآيات الكتاب، وهي من الله أوّلًا وأخيرًا، لكون الآيات سببًا في ذلك.

نكتةُ فصلِ قولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾:

الفصلُ لكمالِ الاتّصالِ أو لشبه كمالِه

لم تُعطف آية ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ على سابقتِها؛ إمّا لكمال الاتّصال بينهما؛ لكونها بيّنَتْ صفاتِ أولئك المؤمنين، ولا عطف بين التّابع والمتبوع، وإمّا لِشبه كمال الاتّصال أو ما يُعرف بالاستئنافِ البيانيّ جوابًا عن سؤالٍ مُقَدَّرٍ بعد الآيةِ الأولى تقديرُهُ: ومَنْ هم أولئك المؤمنون الّذين استحقّوا الهدايةَ والبُشرى؟

عموم لفظ الإيمان يقتضي تخصيصه

لَمّا كان وصفُ الإيمان خفيًّا، وصَفَهم بما يُصَدِّقُه من الأمور الظّاهرة من إقامة الصلاةِ، وإيتاءِ الزكاةِ، واليقينِ بالآخرة[2].

بلاغةُ التّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ وصِلتِهِ:

صفةُ المؤمنين ديمومةُ العبادةِ ومُلازَمتُها

أفاد التّعبيرُ بالاسم الموصول في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ التّفخيمَ والتّعظيمَ لأولئك المؤمنين، فالاسم الموصول مُبهَمٌ، وهو يفتقر إلى جملةِ صلةِ الموصولِ لتُزيلَ إبهامَه، وجاءت جملةُ صلةِ الموصولِ هنا بالمضارعيّة الّتي تقتضي التّجدُّدَ الاستمراريَّ، فحالُ أولئك المؤمنين المداوَمَةُ والمُلازَمَةُ لإقامةِ هذه الشّعيرة، فضلًا عن إفادة المضارعِ استحضارَ صورتِهم وهم يُقيمون أركانَها في سائر حياتهم.

بلاغةُ المجازِ في ﴿يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾:

في الأمرِ بإقامةِ الصّلاةِ مَجازٌ مُرسَلٌ أو استعارةٌ تبعيّةٌ

وَصَفَت الآيةُ المؤمنين بإقامة الصّلاةِ في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ دون أدائها؛ لِما في الإقامة من معاني ظهورِ آثارِ هذه الصّلاةِ في معتقداتِهم وأقوالِهم وأفعالهم، بخلاف أدائها الّذي

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 219.

(2) البقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرر: 14/ 126.

يقتضي الإتيانَ بأفعالِها وأقوالِها بطريقةٍ مخصوصةٍ دون اشتراطِ ظهورِ آثارِها على الجوارح، فكان للقيام لَوازِمُ عُرْفيَّةٌ مَأخوذَةٌ مِن عَوارِضِه اللّازِمَة، ولذلك أُطْلِقَ مجازًا على النَّشاطِ في قولهم: قام بالأمر، فهو مِنْ قَبيلِ المَجازِ المُرْسَلِ، وشاع فيها حتَّى ساوى الحقيقة فصارت كالحقائقِ، فإقامَةُ الصَّلاةِ استعارةٌ تَبَعيَّةٌ شَبَّهَتِ المواظَبةَ على الصَّلَواتِ والعنايةَ بها بجَعْلِ الشَّيْءِ قائِمًا[1].

معنى (أل) في ﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾ و﴿ٱلزَّكَوٰةَ﴾:

الصّلاةُ والزّكاةُ المعروفتان، أو الأمور الّتي توسَم بالطّهارةِ والتّزكيةِ

إمّا أن يكون تعريف ﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾ و﴿ٱلزَّكَوٰةَ﴾ في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ عهديًّا ذهنيًّا إذ إنّ المُراد منها الصّلاةُ المعروفةُ، وقد فُرضت عليهم في مكّة، والزّكاة المعروفة وإن لم تُفرض بعد؛ فإنّ أصول هذه الشّرائع تحدّثت عنها السّور المكّية في أكثر من موضعٍ توطئةً وتهيئةً للعمل بها بعد ذلك في المدينة، وإمّا أن تكون (أل) جنسيّةً تَشْمَل سائرَ الأمور الّتي توسَم بالطّهارة والتّزكية، فالزّكاة بمعنى الطّهارة من النّقائص وملازمة مكارم الأخلاق، لكنّه خلافُ المشهور في الزّكاة المقرونة بالصّلاة ويُبعده تعليق الإيتاء بها[2].

نكتةُ عطفِ إيتاءِ الزّكاةِ على إقامةِ الصّلاةِ:

مآلُ الإصلاحِ بين العبدِ والخالقِ إصلاحُ التعاملِ مع الخلائقِ

جاء عَطْفُ إيتاءِ الزَّكاةِ على إقامةِ الصَّلاةِ في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ ليَجمع بين صفتيْن عمليّتيْن من صفات المؤمنين: الصّلاة الّتي هي رأسُ العبادات البدنيّة بإقامةِ حدودِها الظّاهرةِ والباطنةِ من المواقيتِ والطّهاراتِ والشّروطِ والأركانِ والخشوعِ والخضوعِ والمراقبةِ والإحسانِ؛ إصلاحًا لما بينهم وبين الخالق، وبين الزّكاة الّتي هي رأسُ العباداتِ الماليّةِ، وهي

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/ 231.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 19/ 234.

العبادة ذات المساسِ المباشرِ مع الناسِ، إحسانًا فيما بين المؤمنين وبين الخلائقِ من خلال التَّوسعةِ على الفقراء بوصفه المقصود الأعظم من الزَّكاة[1].

سرُّ تقديمِ ﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾ على ﴿ٱلزَّكَوٰةَ﴾:

تقديمُ إقامةِ الصّلاةِ على إيتاءِ الزّكاةِ لفضلِها وعمومِ وجوبِها

جمعتِ الآية الكريمة ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ بين وصْف المؤمنين بإقامة الصّلاة وإيتائهم الزّكاة؛ لأنّهما من أعظمِ العباداتِ وأهمِّ شرائع الدّين؛ ولذلك اقترنا مرارًا في القرآنِ الكريمِ، مع تقديمِ الأمرِ بإقامةِ الصّلاةِ على الأمرِ بإيتاءِ الزّكاةِ في جميعِ هذه المواضع؛ لأنّ الصّلاةَ أعظمُ عند اللّهِ، وهي لا تَسقُط عن المُكلَّف بحالٍ من الأحوالِ، بخلافِ الزّكاةِ الّتي قد تسقُط عن غيرِ القادرِ، أو عَدَم تَحَقُّق شروطِها.

معنى الواو في جملة ﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾:

الجملةُ معطوفةٌ أو حاليّةٌ أو معترِضةٌ

الواو في قوله: ﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾ إمّا أن تكون عاطفةً، أو حاليّةً، أو معترِضَةً بحسب المعاني المُحتمَلة؛ فالعطفُ لاحتمال أنْ يكون من جملة صلة الموصول، أو معطوفًا على الصّلة وليس من الصّلة؛ ولذلك خولف بين أسلوبها وأسلوب الصّلة فأُتي له بجملةٍ اسميّةٍ اهتمامًا بمَضمونها؛ لأنّه باعِثٌ على فِعْلِ الخيراتِ[2].

ويحتمل أن تتمّ الصّلة عنده ويكون جملةً اعتراضيّةً، كأنّه قيل: وهؤلاء الّذين يؤمنون ويعملون الصّالحاتِ من إقامةِ الصّلاة وإيتاءِ الزّكاةِ هم الموقنون بالآخرة، ويدلّ عليه أنّه عَقَدَ جملةً ابتدائيةً وكرَّر فيها المبتدأ الّذي هو (هُم) حتّى صار معناها: وما يوقن بالآخرة حقّ الإيقان إلّا هؤلاء الجامعون بين الإيمانِ والعملِ الصالحِ؛ لأنّ

(1) البقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرر: 14/ 126.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 19/ 219.

خوفَ العاقبةِ يحملهم على تحمُّل المشاقِّ[1]، إلّا أنّ من شرط الجملة الاعتراضيّة أن تقع بين شيئَيْن يتعلّق بعضهما ببعض، كوقوعها بين صلةٍ وموصولٍ، وبين نعتٍ ومنعوتٍ، أو بين قَسَم أو شرط وجوابهما[2]، ويُمكن أن تكون الواو حاليّةً دون أدنى تكلُّفٍ[3]، على معنى: يُقيمون الصّلاةَ ويُؤتون الزّكاةَ، وحالهم أنّهم يوقنون بالآخرة.

نكتةُ العُدولِ في النّظْم من الجُملِ الفعليّةِ إلى الاسميّةِ:

ثبوتُ يقينِ المؤمنين بالآخرةِ واستمراره

إذا كانت هذه الجملة ﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾ معطوفةً على جُمَل صلة الموصول؛ فهناك عُدولٌ في النَّظْم من الأسلوب الفِعليّ إلى الأسلوب الاسميّ، للدّلالة على قوَّةِ يقينهم وثباتِه وأنَّهم أوحديّون فيه[4]، فالجملة الاسميّة تُعطي معاني الثّباتِ والاستقرارِ، لذلك أفاد هذا العدولُ في النّظم العنايةَ بأمرِ إيقانِهم بالآخرةِ، وأتى بخبر المبتدأ ﴿هُمۡ﴾ جملةً فعليّةً ﴿يُوقِنُونَ﴾، لإفادة هذا التّجدّد.

فائدةُ الوصفِ بالإيمانِ بالآخرةِ بعد الوصفِ بإقامةِ الصّلاةِ وإيتاءِ الزّكاةِ:

الإيمانُ باليوم الآخرِ هو ثمرةُ أركانِ الإيمانِ جميعها

لّما كان الإيمانُ بالبعثِ هو الجامع للصّلاةِ والزّكاةِ ولغيرِهما من سائرِ الطّاعاتِ، ذكره مُعَظَّمًا لتأكيده؛ فقال مُعلِمًا بجعله حالًا: ﴿وَهُم﴾؛ أيّ: والحال أنّهم[5]، وذلك أنَّ كمال الإنسان في أن يعرف الحقّ لِذاته، والخيرَ لِأَجْل العَمَلِ به، وأمّا عرفانُ الحقِّ فأقسامٌ كثيرةٌ لكن الّذي يُستفاد منه طريقُ النَّجاة معرفةُ المبدأ، ومعرفةُ المَعاد، وأمّا الخير الّذي يُعمل به فأقسامٌ كثيرةٌ وأشرفُها قسمان: الطّاعةُ بالنَّفس، والطّاعةُ بالمالِ؛ فقوله: ﴿لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ إشارةٌ إلى معرفةِ المبدأِ، وقولُه: ﴿يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ إشارةٌ إلى الطّاعةِ

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 347.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 208.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 272.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 272.
(5) البقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرر: 14/ 126.

بالنّفس والمال، وقولُه: ﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾ إشارةٌ إلى عِلْم المعادِ، فكأنّه سبحانه وتعالى جَعَل معرفة المبدأ طرَفًا أوّلًا، ومعرفةَ المعاد طَرَفًا أخيرًا، وجَعَل الطّاعةَ بالنّفسِ والمالِ مُتوسِّطًا بينهما[1].

نكتةُ تقديم شبه الجملة ﴿بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ على المُسندِ:

أفاد تقديمُ شِبْه الجُملة ﴿بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾ العنايةَ بشأنِ الإيمانِ بالآخرةِ دون سائرِ الأركانِ؛ لذلك اقتصر عليها؛ لأنّ الإيمانَ باليوم الآخرِ أصلٌ عظيمٌ تقوم عليه أركانُ الإيمانِ الأخرى، فضلًا عن أنّ في تقديمها مراعاةً لفاصلةِ الآيةِ.

الإيمانُ باليومِ الآخرِ أصلٌ عظيمٌ تقوم عليه أركانُ الإيمانِ الأخرى

بلاغةُ القَصْرِ في قولِهِ: ﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾:

يجوز أن تكون (هم) الأولى في قوله تعالى: ﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾ مبتدأً، والجملةُ الاسميّةُ المكوَّنَةُ من مبتدأٍ وخَبرٍ ﴿هُمۡ يُوقِنُونَ﴾ خبرَه، وفائدةُ الإتيانِ بالخبرِ جملةً اسميّةً هي الدَّلالة على ثبوتِ هذا الوصفِ وتمكُّنه فيهم، ويجوزُ أن تكون ﴿هُمۡ﴾ الثّانية ضميرَ فصلٍ أُتي به بين المبتدأ وخبره للقصر؛ أيْ: ما يوقِنُ بالآخِرَة إلّا هَؤُلاءِ، فيكون من قصرِ الصّفةِ على الموصوفِ، والقَصْرُ إضافيٌّ بالنِّسبةِ إلى مُجاوريهم من المشركين، وإلّا فإنَّ أهلَ الكتابِ يوقِنون بالآخرةِ، إلّا أَنَّهُم غَيْرُ مَقصودٍ حالهم للمخاطَبينَ من الفريقَيْنِ[2].

ما يوقن بالآخرة من أهلِ قريشٍ إلّا هؤلاء المؤمنون

ولمّا كان الإيمانُ بالبعثِ هو السببَ الأعظمَ للسّعادةِ وهو محطٌّ للحكمةِ وموئلٌ للاعتبارِ؛ عبّر فيه بما يقتضي الاختصاصَ، لا للاختصاص؛ بل للدّلالةِ على غايةِ الرُّسوخِ في الإيمانِ به؛ أي: المختصّون بأنّهم يوقنون بالآخرة؛ أيْ: يوجِدون الإيقانَ حقَّ الإيجادِ ويُجَدِّدونه في كلِّ حينٍ[3].

من عظيمِ أسبابِ سعادةِ المرءِ إيمانُه بالآخرة

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 541.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 19/ 219.

(3) البقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرر: 14/ 126.

دلالة التّعبير بـ﴿يُوقِنُونَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

رسوخُ الإيمانِ في قلوبِ المؤمنين دون أدنى ريبٍ فيه ولا شكٍّ

تقدَّم في شرحِ المُفرَداتِ أنّ اليقينَ يفوقُ المعرفةَ والدِّرايةَ، وأنّه قد يكون ناشئًا عن علم، أو معاينةٍ، أو دليلٍ، لذا فإنّ الإتيان به في قوله تعالى: ﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾ دلّ على أنّ إيمانهم بالآخرة قد أصبح يقينًا لا شكّ فيه، وأمّا التّعبير بالفعل المضارع ﴿يُوقِنُونَ﴾ فقد أفاد تجدُّدَ اليقينِ بالآخرة في قلوبهم كُلَّما تَرَسَّخَت أقدامُهم في هذا الإيمان.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإيتاء والإعطاء:

الإيـتـاءُ أَقْـوى مِـن الإعْـطـاءِ، ولا يُستعمل إلّا لِـلـشَّيْءِ الكَثير والعظيمِ الشَّأْنِ

الإيتاءُ أقوى من الإعطاء في إثبات مفعولِه؛ لأنَّ الإعطاء له فعلٌ مطاوعٌ، تقول: أعطاني فعطوتُ، ولا يُقال في الإيتاء: آتاني فأتيتُ، وإنّما يُقال: آتاني فأخذتُ، ويترتَّب على هذا أنَّ الإيتاءَ أقوَى مِنَ الإعطاءِ؛ لأنَّ المُتقرِّرَ أنَّ ما له مطاوعٌ مِنَ الأفعالِ أضعفُ في إثباتِ مفعوله ممّا لا مُطاوِعَ له[1]، ولذلك عبَّر بالإيتاءِ في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ﴾ [آل عِمران: 26] لأنَّ المُلك شيءٌ عظيمٌ لا يُعطاه إلّا مَنْ له قوَّةٌ، وكذا قوله: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ﴾ [الأعراف: 171] لعِظَم الكتابِ وشأنِه[2]، ويُستعمَلُ الإيتاءُ غالبًا فيما له ثباتٌ وقرارٌ، بخلاف الإعطاءِ فإنَّ الغالبَ استعمالُهُ فيما يَنتقِلُ منه بعد قضاءِ الأَرَبِ منه، وفي الإعطاءِ دليلٌ على التَّمَلُّكِ بخلاف الإيتاءِ، ففي خصوصِ الاستعمال القُرآنيِّ لِلَفظتَيِ (الإيتاء) و(الإعطاء)؛ فإنَّ بينَهُما فرْقًا من جِهَتَيْنِ[3]:

إحداهما: أنَّ الإيتاءَ لم يُستعمل إلّا لِلشَّيْءِ الكَثير والعظيمِ الشَّأْنِ؛

---

(1) السّيوطيّ، الإتْقان: 2/ 367.
(2) الكَفَويُّ، الكُلِّياتُ، ص: 212.
(3) داود، معجم الفروق الدِّلاليَّة، ص: 2729.

كالقرآنِ الكريمِ، والتَّوراةِ، والمُلْكِ، والرَّحمة، بخلاف الإعطاءِ؛ فإنَّهُ يُستعمَلُ لِلشَّيْءِ القليل، ولم يَرِد الإعطاءُ مُرادًا به الشَّيءُ الكثيرُ إلّا بقيدِ ما يدلُّ على الكثرَةِ.

والأخرى: أنَّ الإيتاءَ إذا صدَرَ مِنَ العَبْدِ يكون عَنْ طيبِ نفسٍ، بخلاف الإعطاءِ فهوَ مُطْلَقٌ؛ ولذلك ناسَبَ هذَيْن المعنيَيْن اصطفاءُ لفظ الإيتاء مع الزّكاة؛ لكونه شأنًا عظيمًا من حيث إنّه رُكْنٌ مِنْ أركان الإسلام؛ يُدفع لِمُستَحِقّيه عن طيبِ نفسٍ.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُمۡ يَعۡمَهُونَ ٤ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ وَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ ٥﴾ [النمل: 4 - 5]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

الحديثُ عن جزاءِ المؤمنين يقتضي الحديثَ عن جزاءِ غيرِهِم

لمّا بيّن اللهُ تعالى ما للمؤمنين من الهُدى والبُشرى؛ أتبعه بما على الكُفّارِ من سوءِ العذاب[1]، وذلك بأنْ أَعْقَب ذِكْرَ المؤمنين الموقنين بالبعثِ ذِكْرَ المُنكرين، والإشارةَ إلى قريشٍ ومَن جرى مجراهم في إنكارِ البعثِ[2]؛ إجابةً عن سؤالٍ قد يُثار في نفس السّامعِ عن علّةِ عدمِ هدايةِ مَنْ لا يوقنون بالآخرةِ مع كونِ الكتابِ هدًى وبُشرى[3].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿زَيَّنَّا﴾: (زين) أَصْلٌ يَدُلُّ على حُسْنِ الشَّيءِ وتحسينِه؛ فالزَّينُ نَقيضُ الشَّيْنِ، يُقالُ: زَيَّنْتُ الشَّيْءَ تَزْيينًا، وأَزْيَنَتِ الأَرْضُ وازَّيَّنَتْ وازْدانَتْ إذا حَسَّنَها عُشْبُها[4]، والزّينةُ الحقيقيّة: ما لا يشينُ الإنسانَ في شيءٍ من أحواله لا في الدُّنيا ولا في الآخرة، فأمّا ما يَزينُه في حالةٍ دون حالةٍ فهو من وجهٍ شَينٌ[5]، ومعنى قوله تعالى: ﴿زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾؛ أيْ: حَسَّنّا لهم أعمالَهم السَّيِّئة، فرأوها حَسَنَةً.

2) ﴿يَعۡمَهُونَ﴾: (عمه) أصلٌ يَدُلُّ على حَيرَةٍ وقِلّةِ اهتداءٍ؛ بل على الخُلوّ من التّمييز والبيان أو الهداية، ومنه قيل: عَمِه؛ أيْ: تَعِبَ وتَحَيَّرَ مُتردِّدًا لا يهتدي لطريقه، وقوله تعالى: ﴿فَهُمۡ يَعۡمَهُونَ﴾؛ أيْ:

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 541.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 208.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 220.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (زين).
(5) الرّاغب، المُفرَدات: (زين).

يتردَّدون حيارى ضُلّالًا قد انقلبتْ عليهم الحقائقُ فرأوا الباطلَ حَقًّا والحَقَّ باطِلًا[1].

3) ﴿ٱلۡأَخۡسَرُونَ﴾: (خسر) أَصْلٌ يَدُلُّ على نَقْصِ الشَّيءِ بذهاب أجزاءٍ منه فقدًا، يُقالُ: خَسَرْتُ الميزانَ وأخْسَرْتُه، إذا نَقَصْتَهُ[2]، ومنه خَسِر: هلك؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ٢﴾ [العصر: 2][3]، فيُستعمل ذلك الخسران في المُقتنيات الخارجة كالمال والجاه في الدُّنيا وهو الأكثر، وفي المُقتنيات النّفسيّة كالصّحّة والسّلامة، والعقل والإيمان، والثّواب، وهو الّذي جعله اللّه تعالى الخسران المبين، ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ﴾ [الزُّمر: 15][4]، ومعنى قوله تعالى: ﴿وَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ﴾؛ أيْ: خسروا أنفسهم وأهليهم يومَ القيامةِ وخسروا الإيمانَ الّذي دعتْهُم إليه الرُّسلُ.

المَعنى الإجْماليُّ:

الكفرُ مُستوجبٌ للجزاءَيْن الدُّنْيويّ والأُخرويّ

إنّ الّذين لا يُصَدِّقون بالدّارِ الآخرةِ، ولا يعملون لها، حَسَّنَ اللّهُ تعالى لهم أعمالَهم السَّيِّئةَ، فرأوها حَسَنَةً، فهم يتردَّدون فيها مُتحيِّرين، أولئك الّذين لهم العذابُ السَّيِّئُ في الدُّنيا قَتْلًا وأَسْرًا وذُلًّا وهزيمةً، وهم في الآخرة أشدُّ النّاسِ خُسرانًا[5].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نكتةُ فصلِ الآيتيْن عن الآيتيْن السّابقتيْن:

الاستئنافُ البيانيُّ لبيانِ سببِ استمرارِهم على ضلالِهم

فُصِلت هاتان الآيتانِ لأنّهما وقعتا جوابًا عن سؤالٍ مُقَدَّرٍ بعد الآيتيْن السّابقتيْن مفادُه: ما حالُ غير المؤمنين مع هذا الكتاب الموصوف بالهُدى والبُشرى؟

(1) الرّاغب، المُفرَدات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عمه).
(2) ابن فارس، مقاييسُ اللّغة: (خسر).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (خسر).
(4) الرّاغب، المُفردات: (خسر).
(5) مجموعةٌ من المؤلّفين، التّفسير المُيسّر: 1/ 377.

فَوَقَع هذا الاستئناف البيانيُّ لبيان سبب استمرارهم على ضلالهم، ذلك بأنَّ اللّه يعلم خُبْثَ نواياهم؛ فحَرَمَهم التّوفيق، ولم يَصرِف إليهم عنايةً تنشلهم من كيد الشيطان لِحكمةٍ عَلِمَها اللّهُ من حال ما جُبِلَت عليه نفوسُهم، فوَقَع هذا الاستئنافُ بتوابعه مَوقِعَ الاعتراضِ بين أخبارِ التّنويه بالقرآنِ بما سبق والتّنويه به بمَنْ أُنْزِلَ عليه بقولِه: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ﴾[1].

غرضُ توالي المُؤكّداتِ في الآيةِ:

تـأكـيـدُ استـمـرارِهـم عـلى كُـفـرِهـم وحـيـرتـهـم وضلالِهم

جاء التّأكيدُ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ بـ﴿إِنَّ﴾، والجملة الاسميّة، وتكرار ذِكْر المُسند إليه، مرّةً على أنّه اسم ﴿إِنَّ﴾، ومرّةً على أنّه الضّمير في ﴿يُؤْمِنُونَ﴾، و﴿لَهُمْ﴾، و﴿أَعْمَٰلَهُمْ﴾، و﴿فَهُمْ﴾، و﴿يَعْمَهُونَ﴾، ومن شأن هذه المؤكّدات أن تُزيل من النّفوس كلَّ شكٍ وشائبةٍ في أمرِ عاقبةِ أولئك الكافرين باليومِ الآخرِ، وتحقُّقُ الوعيد الّذي يستحقّونه، فالتركيبُ من بابِ تحقيقِ الخبرِ، وأنّ المعنى استمرارُهم على الكُفر، وأنّهم بحيث لا يُتوقّع منهم الإيمانُ ساعةً فساعةً، أمارةً لِرَقْم الشّقاءِ عليهم في الأزلِ، والختمِ على قلوبهم، وأنّه تعالى زيَّن لهم سوءَ أعمالِهم فهم لذلك في تيه الضّلال يتردَّدون، وفي بيداءِ الكفرِ يعمهون[2].

فائدةُ التّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ وصلتِهِ:

الـتـعـريـفُ بالاسمِ الموصولِ قد يأتي في سياقِ المدحِ أو الذَّمِّ

جاء التّعبيرُ بالاسم الموصولِ وصلتِه في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ في مقابلِ التّعبيرِ بالاسم الموصولِ مع المؤمنين، إلّا أنّه في هذا الموضعِ أفادَ ذَمَّهم وتحقيرَهم؛ فإنّ التّعريفَ بالاسم الموصولِ يقتضي إبهامًا ثمّ إعلامًا من خلالِ جملةِ صلةِ موصولِه،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 220.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 11/ 457، والآلوسيّ، روح المعاني: 19/ 237.

وجاءت جملةُ صلةِ الموصولِ هنا بالفعلِ المضارعِ المَنفيِّ للدّلالةِ على تجدُّدِ عدمِ إيمانِهم؛ فأومأ إلى أنَّ الحُكْمَ مَنوطٌ بالاستمرارِ على عدمِ الإيمانِ[1].

الموقعُ النَّحويُّ لقوله: ﴿زَيَّنَّا﴾:

تأكيدُ حصولِ التَّزيينِ بالأزلِ، وأنّ اللهَ علِم منهم الكفرَ فزادهم ضلالًا

وقعت جملة ﴿زَيَّنَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ خبرًا لاسم ﴿إِنَّ﴾، وهي جملة فعليّة بالماضي، لتأكيدِ حصولِ التّزيينِ بالأزلِ وأنّه محتومٌ عليهم محكومٌ، بسبب عدمِ إيمانِهم بالآخرةِ، فلم يكن كفرُهم بالآخرةِ نتيجةَ تزيينِ الأعمالِ؛ ولكن كفروا فزادهم اللّه مرضًا، ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ ٣١﴾ [غافر: 31].

نكتةُ التّعبيرِ بالفعلِ الماضي في ﴿زَيَّنَّا﴾:

وقوعُ التّزيينِ من آثارِ التّكوينِ

أَوْمَأَ جَعْلُ الخبرِ ماضيًا في قوله تعالى: ﴿زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ إلى أنّ هذا التّزيين حُكْمٌ سَبَق وتقرّرَ من قبل، وحَسْبُكَ أنّه من آثارِ التّكوينِ بحَسَبِ ما طرأ على النّفوسِ من الأطوارِ[2].

سِرُّ إسنادِ الزّينةِ إلى ضميرِ العَظَمَةِ:

عواقبُ التّزيينِ وخيمةٌ

أُسندتِ الزّينةُ إلى ضميرِ العَظَمَةِ في قوله تعالى: ﴿زَيَّنَّا﴾؛ لبيانِ عظيمِ أثرِها عليهم، وتحذيرِهم من عواقبِها، ووجَّه ابنُ عاشور معنى إسنادِ التَّزيينِ إلى اللّه تعالى فقال: "وَتَزْيِينُ تِلْكَ الأَعْمالِ لَهُم: تَصَوُّرُهُم إيّاها في نُفوسِهِم زَيْنًا، وإِسْنادُ التَّزْيِينِ إلَى اللّه تَعالَى يَرْجِعُ إلَى أَمرِ التَّكْوِينِ؛ أيْ: خُلِقَتْ نُفوسُهُم وعُقولُهُم قابِلَةً لِلانْفِعالِ وقَبولِ ما تَراهُ من مساوِئِ الاعْتِقاداتِ والأَعْمالِ الَّتِي اعْتادوها، فإِضافَةُ أَعْمالٍ إلَى ضَميرِ الّذين لا يُؤْمِنونَ بالآخِرَةِ يَقْتَضي أَنَّ تِلْكَ الأَعْمالَ هيَ أَعْمالُ الإِشْراكِ الظّاهِرَةُ والباطِنَةُ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 19/ 221.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 19/ 221.

فهُم لإِلْفِهِم إيّاها وتَصَلُّبِهم فيها صاروا غَيْرَ قابلِينَ لِهَدْيِ هَذا الكِتابِ الّذي جاءَتْهُم آياتُهُ، فإِسْنادُ تَزْيِينِ أَعمالِ المُشْرِكينَ إِلَى اللّه في هَذِه الآيَةِ وغَيْرِها مِثْلُ قَوْلِه: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ [الأنعام: 108] لا يُنافي إِسْنادَ ذَلِكَ إِلَى الشَّيْطانِ في قَوْلِه الآتي: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [النّمل: 24]؛ فإِنَّ وسْوَسَةَ الشَّيْطانِ تَجِدُ في نُفوسِ أولَئِكَ مَرْتَعًا خِصْبًا ومَنْبَتًا لا يَقْحَلُ؛ فاللّه تَعالَى مُزَيِّنٌ لَهُم بِسَبَبِ تَطَوُّرِ جِبِلَّةِ نُفوسِهم مِنْ أَثَرِ ضَعْفِ سَلامَةِ الفِطَرِ عِنْدَهُم، والشَّيْطانُ مُزَيِّنٌ لَهُم بِالوَسْوَسَةِ الّتي تَجِدُ قبولًا في نُفوسِهِم"[1].

قابلَ الجاحدونَ إنعامَ الله تعالى بمتاعٍ بالشّهواتِ

إسنادُ الزّينةِ إلى الله بين الحقيقةِ والمجازِ:

إسنادُ التّزيينِ إلى الشّيطانِ في قولِه تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [النمل: 24] حقيقةٌ، وإسناده إلى اللّه ﷻ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأٓخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ يُحمل على المَجاز من طريق الاستعارة التّصريحيّة التّبعيّة، حيث استعار التّزيين للتّمتيع، فكأنّه زَيَّن لهم بذلك أعمالَهم؛ بما رَكّبَ فيهم مِن الشَّهَوات، ولِما متّعهم بطول العمر وسَعة الرّزق، وجعلوا إنعام اللّه بذلك عليهم وإحسانه إليهم ذريعةً إلى اتّباع شهواتهم وبَطَرهم وإيثارهم الرَّوْح والتَّرفُّه، ونفارهم عمّا يلزمهم فيه التّكاليف الصَّعبة والمَشاقّ المُتعِبة، فكأنّه زيّن لهم بذلك أعمالَهم[2].

ولو أُسنِد التَّزيينُ إلى اللّه حقيقةً لكان أصوبَ، لِكَون التَّركيب من بابِ تحقيقِ الخبرِ، وتأكيد الحكم، وأنّ المعنى استمرارهم على الكفر، لا رادّ لقضاءِ اللّه ولا مُعَقِّب لِحُكمه، وأنّهم بحيث لا يُتوقّع منهم الإيمانُ ساعةً فساعةً، أمارةً لِرَقْمِ الشّقاوةِ عليهم في الأزلِ،

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 19/ 220 - 221.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 348.

والختم على قلوبهم، وأنّه تعالى زَيَّن لهم سوء عَمَلِهم، فهم لذلك في تيه الضَّلالة يتردَّدون، وفي بيداءِ الكفرِ يعمهون[1].

فالشَّيطانُ سببُ الإغواءِ، ووسيلةُ تزيينِ الأعمالِ في نفوسِ المشركين، واللّه جلّ في علاه مُسبِّبُ الأسبابِ، خالِقُ كلِّ شيءٍ، له الكمال والجلال في أسمائِه وصفاتِه، وله الحكمةُ البالغةُ في أفعاله وأحكامِه، الخير في يديه، والشرّ ليس إليه، خالِقُ كلِّ نَفْسٍ ومُسَوِّيها، ومُلهِمُها فجورَها وتقواها.

فهو تعالى مُزَيِّنٌ للمُشركين بسببِ تطوُّرِ جِبِلَّةِ نفوسهم من أثر ضعف سلامةِ الفِطَر عندهم، والشّيطانُ مُزَيِّنٌ لهم بالوسوسة الّتي تجدُ قبولًا في نفوسِهم.

معنى اللّامِ في ﴿لَهُمۡ﴾، ونكتةُ تقديم شبه الجملةِ:

مـدارُ الحـديثِ ومنـاطُ العنايةِ مَـن لا يـؤمـنُ بالآخرة

اللّام في قوله تعالى: ﴿زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ قد تكون للتّعليل؛ أيْ: لأجلِهم، وقد تكون للتّقويةِ، وقُدّم شبه الجملة ههنا لأنّ مدارَ الحديثِ عنهم وعن جزائِهم، فالتّقديمُ قائمٌ على أهمّيةِ الأمرِ المُتَحدَّث عنه هنا.

نكتةُ إيثارِ لفظِ العملِ وجمعِهِ:

كـثرةُ الأعـمـالِ وكـثرةُ إضلالِهم بها

عَبَّرَت الآيةُ الكريمةُ ﴿زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ عن التّزيينِ بأنّه كان لأعمالِهم على سبيلِ الجمعِ، فلم يَقُلْ: (عَمَلَهم)، أو (فِعْلَهم)، أو (صُنْعَهم)؛ لأنّه أرادَ هذه الأعمالَ الّتي تقع بنيّةٍ وقَصدٍ ويمتدُّ زمانُها، وجمعُها هو للدّلالة على كثرتها، وكثرةِ إضلالِهم بها.

معنى الفاءِ في قولِه: ﴿فَهُمۡ يَعۡمَهُونَ﴾:

الإيـذانُ بكمالِ عُتوِّهم وكِبْرِهم

الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَهُمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ لترتيب المُسبَّب على السَّبب، لبيان أنّ ما بعدها مُترتِّبٌ على ما قبلها؛ أيْ: ترتَّبَ على تزيينِ الأعمالِ القبيحةِ بأنّها حسنةٌ مُشتهاةٌ للطّبعِ أنّهم يعمهون.

---

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 11/ 456 - 457، وابن المُنيّر في هامش الكشّاف: 3/ 348.

أو تكون لترتيب ضِدّ المُسبَّب على السَّببِ، إن قلنا بأنّ تزيين الأعمال بمعنى بيان حُسنها في نفسها، فيكون معنى الآية: (بيّنّا لهم منافع أعمالهم فلَم يعملوا بمقتضاه) كما في قولك: وعظتُه فلم يتّعظْ، وفيه إيذانٌ بكمالِ عُتوِّهم ومُكابرتِهم وتكيسهم في الأمورِ[1].

نكتةُ مجيءِ الفاصلةِ جملةً اسميّةً:

العَمَهُ فيهم راسخٌ مُتمكِّنٌ

فُرِّعَ على تزيين أَعمالِهم لهم أنَّهُم في عَمَهٍ مُتَمكِّنٍ منهم راسخٍ فيهم بِصَوْغِ الإخبار عنهم بذلك بالجُملَةِ الاسميَّةِ ﴿فَهُمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ لما فيها من معاني الثّبات والاستمرار، تأكيدًا على أنّ العَمَه فيهم راسِخٌ مُتمكِّنٌ.

فائدةُ صيغةِ المُضارعِ ﴿يَعۡمَهُونَ﴾:

أفادت صيغَةُ المضارع أَنَّ العَمَهَ مُتجدِّدٌ مُسْتَمِرٌّ فيهم، فلا يرجعونَ إلى اهتِداءٍ؛ بسببِ عدمِ انفكاكِهم عنه؛ ذلك أَنَّهُم يَحْسَبونَ أَنَّهُم على صَوابٍ[2].

نكتةُ فصلِ قولِهِ: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمۡ﴾:

وصفُ الحالِ يُثيرُ السّؤالَ عن المآلِ

وقعتْ هذه الآيةُ ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ وَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ﴾ استئنافًا بيانيًّا بعد الآيةِ السّابقة؛ لأنّها جاءت لتُجيب عن سؤالٍ مُقدَّرٍ حول جزاء أولئك الضّالّين المُتردِّدين في الدُّنيا والآخرة.

غرضُ التّعبيرِ باسمِ الإشارةِ البعيدِ:

أفادَ التّعبيرُ باسمِ الإشارةِ هنا وصفَهم بالبُعدِ في الضّلالِ

أفادَ اسمُ الإشارةِ ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ في قوله تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ﴾ والمستعمَل في الأصل مع البعيد، بيانَ بُعدِ دَرَجَتِهم في الضّلال بإنزال البُعد في الدَّرَكة منزلةَ البُعد الحِسّيّ.

بلاغةُ القصرِ بتعريفِ طرفي الإسنادِ:

في قولِه تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ﴾ وقعت

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 272، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5431.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 221.

في قصرِ العذابِ زيادةٌ في التّهديدِ

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ مبتدأً والاسمُ الموصول خبرًا لها، وكلاهما معرفةٌ أفاد تعريفهما القَصْرَ الإضافيَّ، فالعذابُ كأنّه ليس لأحدٍ إلّا لهم، وفي أسلوبِ القصرِ هذا مزيدٌ من الوعيدِ والتّهديدِ لهم.

غرضُ التّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ وصلتِهِ:

في التّهديدِ بالعذابِ ذَمٌّ وقَدْحٌ

أفاد التّعبيرُ بالاسمِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ﴾ ذَمَّهم والنَّعيَ عليهم بهذا الجزاءِ، وجاءت جملةُ صلةِ الموصولِ اسميّةً ﴿لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ﴾ للدّلالة على ثباتِ العذابِ وتأكيده بالنّسبة لهم، فهو أمرٌ ثابتٌ مُتحقّقٌ لهم.

معنى اللّامِ في ﴿لَهُمۡ﴾:

العذابُ استحقاقٌ يُنالُ جزاءً لسوءِ الأعمالِ

اللّامُ في ﴿لَهُمۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ﴾ قد تكون لامَ الاستحقاق؛ لكونهم استحقّوا هذا العذاب، وقد تكون لامَ التّعليل؛ فهذا العذابُ ما كان إلّا لأجلِهم، ويمكن أن تكون للتّخصيصِ على سبيلِ المبالغة؛ للإشارةِ إلى أنّهُم في حالَتِهم هذه قد هُيِّئَ لهم سوءُ العَذابِ[1].

نكتةُ تقديمِ شبه الجملةِ ﴿لَهُمۡ﴾:

التّخصيصُ بالعذابِ مبالغةٌ في الوعيدِ

أفادَ تقديمُ شبه الجملةِ ﴿لَهُمۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ﴾ تعجيلَ ما يَضُرُّهم، ويُمكن حملُ سَبَبِ التّقديمِ على التّخصيصِ وكأنّهم وحدَهم المخصوصون بالعذابِ؛ مبالغةً في تهديدِهم والنّعيِ عليهم.

نكتةُ وصفِ العذابِ بالسّوءِ:

لا عذابَ أشدُّ من عذابِ الكافرين

﴿سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ﴾ في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ﴾؛ أيّ: أشدُّه وأفظعُه، وأصلها: العذابُ السّوءُ، فالسّوءُ هو وصفٌ للعذاب، ولكن لمّا كان هذا العذابُ فظيعًا جدًّا عبّر عنه بقوله: ﴿سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ﴾ على معنى: أشدُّ وأسوأُ ما في هذا العذابِ كان بانتظارهم.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 222.

معنى (أل) في ﴿ٱلۡعَذَابِ﴾:

يشملُ العذابُ الدُّنيا والآخرة

أفادَ تعريفُ ﴿ٱلۡعَذَابِ﴾ هنا الاستغراقَ ليعمّ سائرَ أنواعِ العذابِ الدُّنيويِّ - كما هو ظاهرٌ - والأخرويّ، أو كليهما، فالظّاهر أنّه ليس مُقيَّدًا بالدُّنيا؛ بل لهم ذلك في الدُّنيا والآخرة[1].

معنى الواو في قولِه: ﴿وَهُمۡ﴾:

لا أخسرَ مِمَّن اجتمعَ عليه العذابُ الدُّنيَويُّ والأُخرَويُّ

الواو في قوله تعالى: ﴿وَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ﴾ قد تكونُ عاطفةً، عطفت الجزاءَ الأُخرويَّ على الجزاءِ الدُّنَيَويِّ؛ إذا كان المُرادُ من سوءِ العذابِ ما لحقهم في الدُّنيا من القتلِ والأسرِ، أو من سكراتِ الموتِ، ويكون قولُهُ: ﴿ٱلۡأَخۡسَرُونَ﴾ ليس للمفاضلةِ، وإنّما للمبالغةِ في جزائِهم، ويحتمل أن تكون واوًا للحالِ، وقولُه: ﴿وَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ﴾ جملةً حاليّةً، والمُرادُ عندئذٍ أنّ عذابَهم الأخرويَّ أشدُّ وأبلغُ من عذابهم الدّنيويّ، فتكون: ﴿ٱلۡأَخۡسَرُونَ﴾ للمُفاضلة.

غرضُ تقديمِ شبه الجملة: ﴿فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾:

من وجوه العنايةِ بعذابِهم تخصيصُه بهم في الآخرة

إن كان المُرادُ بالخُسرانِ في قولِه تعالى: ﴿وَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ﴾ خسرانَ الآخرةِ دونَ الدُّنيا، فتقديمُ شبه الجملة ﴿فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ للتّخصيص، وإن كان المُراد بيانَ أنّ خسارة الآخرة أشدُّ وأنكى من عذاب غيرهم؛ فالتّقديم عندئذٍ للاهتمام والعناية بعذابهم، ولا يتعارض ذلك كلُّه مع مراعاةِ الفاصلةِ بعد مراعاةِ المعنى[2].

بلاغةُ القصرِ ﴿وَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ﴾:

أفادَ أسلوبُ القصرِ قَصْرَهم على خسارةِ الآخرةِ دونَ غيرِهم

من المُحتَمَل أن تكون (هم) الأولى في قولِه تعالى: ﴿وَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ﴾ مبتدأً، والجملة الاسميّةُ المكوَّنة من مبتدأ ثانٍ وخبره ﴿هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ﴾ هي خبرها، ويكون القصر هنا مُتحقّقًا من تعريفِ طرفَي الإسنادِ في الجملتيۡن الاسميّتيۡن، وتكون فائدةُ الإتيانِ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 209.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 19/ 236.

بالخبرِ جُملةً اسميّةً الدّلالةَ على ثبوت هذا الوصف وتمكّنه فيهم، ويحتمل أن تكون ﴿هُمُ﴾ الثّانية ضميرَ فصلٍ أُتي به بين المبتدأ وخبره للقَصْرِ؛ فيتحقّقُ القصرُ من طريقَيْن؛ أَيْ: ما يخسر في الآخرة إلّا هَؤُلاءِ، فيكون من قصرِ الصِّفة على الموصوفِ، والقَصْرُ إضافيٌّ(1).

دلالةُ التّعبيرِ بـ﴿ٱلۡأَخۡسَرُونَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

تقدَّم في شرحِ المُفرَدات أنّ الخسرانَ قد يقعُ في المُقتنياتِ الخارجةِ كالمالِ والجاه في الدُّنيا وهو الأكثر، وفي المقتنياتِ النّفسيّةِ كالصّحّةِ والسَّلامةِ والعقلِ والإيمانِ والثّوابِ، وقد يقع في كليهما، والإتيان بصيغة التّفضيل هنا مع تعريفهم بـ(أل) يفيدُ المبالغةَ في استغراقِ هذا الخسرانِ لهم في الدّاريْن، سواءٌ أكان هذا الخسرانُ مادّيًّا أو معنويًّا.

استحقّ الكفّارُ لعدمِ إيمانِهم بالآخرةِ أن يكونوا أخسرَ من كلِّ خاسرٍ

لفظ ﴿ٱلۡأَخۡسَرُونَ﴾ على صيغة أفعل التَّفضيل، والتّفضيل باعتبار حالَيهم في الدّاريْن؛ أيْ: هم في الآخرة أخسر منهم في الدُّنيا، لا غيرهم كما يدلّ عليه تعريف الجزأيْن، على معنى أنّ خسرانهم في الآخرة أعظم من خسرانهم في الدُّنيا من حيث إنّ عذابهم في الآخرة غير منقطعٍ أصلًا، وعذابهم في الدُّنيا منقطعٌ، ويحتمل التّفضيل باعتبار ما في الآخرة؛ أيْ: هم في الآخرة أشدّ النّاس خسرانًا لا غيرهم، لحرمانهم الثّواب واستمرارهم في العقاب، بخلاف عصاة المؤمنين، ويلزم من ذلك كون عذابهم في الآخرة أعظم من عذابهم في الدُّنيا(2).

خسرانُهم في الآخرةِ أعظمُ منه في الدُّنيا

❁ الفروقُ المُعْجَميَّةُ:

العمى والعَمَه:

يختلف العَمَهُ عن العمى بأنّ العمى عمى البصر، والعمه عمى

العمى عمى البصرِ، والعَمَهُ عمى البصيرة

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 19/ 219.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 19/ 236.

البصيرة، وينشأ عنه التّخبّط، سواءٌ التخبّط الحسّيّ من عمى البصر، أو التّخبّط في القيم ومنهج الحياة من عمى البصيرة، والله تعالى يقول: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحجّ: 46] ويقول سبحانه: ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾ [طه: 125 - 126]؛ فكأنّ عمى البصيرة في الدُّنيا يُعمي بصرَ الإنسانِ عن رؤية آياتِ اللّه في كونِه، ويُعميه عن الإيمانِ والمنهجِ[1].

العملُ والفعلُ والصُّنع:

الفعلُ أعمُّ من العملِ، والعملُ أعمُّ من الصُّنعِ

الفِعلُ عامٌّ لِما كان بإجادةٍ وبدونها، ولِما كان بعلم أو بغير علم، وبقصدٍ أو بغير قصدٍ، ولِما كان من الإنسانِ والحيوانِ والجمادِ[2]، والعملُ: كلُّ فعلٍ يكون من الحيوانِ بقصدٍ؛ فهو أخصّ من الفعلِ[3]؛ لأنَّه يُقال لِما كان من الحيوانِ دون ما كان من الجمادِ ولِما كان بقصدٍ وعلم دون ما لم يكن عن قصدٍ وعلم[4]، والصُّنع: إجادةُ الفعلِ، فكلُّ صُنعٍ فعلٌ، وليس كلُّ فعلٍ صنعًا، ولا يُنسب الصُّنعُ إلى الحيواناتِ والجماداتِ كما يُنسب إليها الفعل[5].

ويتبيَّن ممّا سبقَ أنَّ الصُّنعَ أخصُّ المعاني الثّلاثة[6]، والفعلَ أعمُّها، والعملَ أوسطُها؛ فكلُّ صُنعٍ عملٌ، وليس كلُّ عملٍ صنعًا، وكلُّ عملٍ فعلٌ، وليس كلُّ فعلٍ عملًا[7].

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 1/ 162.
(2) الرّاغب، المُفرَدات: (فعل).
(3) الرّاغب، المُفرَدات: (عمل).
(4) العسكريّ، معجم الفروق اللّغويّة، ص: 322.
(5) الرّاغب، المُفرَدات: (صنع).
(6) الرّاغب، المُفرَدات: (فعل).
(7) العسكريّ، معجم الفروق اللّغويّة، ص: 323.

﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝٦﴾ [النمل: 6]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الانتقالُ مِن وصفِ النّازلِ إلى وصفِ المُنْزَلِ عليه

الآيةُ انتقالٌ من التّنويه بالقرآنِ إلى التّنويه بالذي أُنزِل عليه، بأنّ القرآن آياتٌ دالّةٌ على أنه كتابٌ مُبينٌ، وذلك آيةٌ أنّه مِنْ عند اللّه، ثمّ بأنّه آيةٌ على صِدقِ مَنْ أُنزِل عليه، إذ أنبأه بأخبارِ الأنبياءِ والأُمَم الماضين الّتي ما كان يعلمها هو ولا قومه قبل القرآن، وما كان يَعلَمُها خاصّةُ أهلِ الكتابِ إلّا قليلًا منها وأكثرُه مُحرَّفٌ، والآية أيضًا تمهيدٌ لما يذكر بعدَه من القصص[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَّدُنْ﴾: (لدن) كَلِمَةٌ واحِدَةٌ، يُقالُ لِلَّيِّنِ مِنَ القُضْبانِ: لَدْنٌ، ولَدُنْ بِمَعْنَى: لَدَى؛ أَيْ: عِنْدَ[2]، والمعنى المحوريُّ: مرونةُ الجسم من لُطْفٍ أو رِقّةٍ تمتدّ في باطنه: كالقناة اللَّيِّنة، وكالجسم الممتلئ بالرّطوبة، ومنه: رَكِبَ البعيرَ ثمّ بعثه فتلدَّنَ عليه: تمكَّثَ وتلكّأ من الرّخاوة وعدم الحِدّة.

ومن ذلك (لَدُنْ) بمعنى: عِند، لكنّها عنديّةُ صدورٍ وامتدادٍ من رقّة الباطن، لا عنديّةُ مكانٍ وتحيّزٍ فيه مثلُ (لدى): ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾؛ أيْ: صادرًا منه سبحانه وتعالى، وليس في القرآن من التّركيب إلّا لفظ (لَدُنْ) وهو في كلّ مواضعه - عدا موضع واحد - مُضافٌ إلى اسم المولى ﷻ، أو الضمير العائد إليه سبحانه؛ أيْ: من خزائن رحمته سبحانه، والموضع المُستثنى مُضافٌ لضمير موسى عليه السلام: ﴿قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ۝٧٦﴾ [الكهف: 76][3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 223.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (لدن).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (لدن).

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

النّبيّ ﷺ يتلقّى القرآن بلفظه ومعناه من لَدُنْ ربٍّ حكيمٍ عليم

معنى الآية: وإنّك - أيّها الرّسول الكريم - لتتلقّى القرآنَ الكريمَ بواسطةِ جبريل عليه السلام من لدن ربِّك الّذي يفعل كلَّ شيءٍ بحكمةٍ ليس بعدها حكمةٌ، ويُدبّر كلَّ أمرٍ بعلمٍ شاملٍ لكلِّ شيءٍ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواوِ في قولِه: ﴿وَإِنَّكَ﴾:

تنويهٌ بالمُنزَل عليه بعد التّنويه بالمُنزَل، وتمهيدٌ لما بعدُ من أقاصيص

يُحتَمَلُ أن تكون الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلۡقُرۡءَانَ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ استئنافيّةً، وليست عاطِفَةً على سابقتها، وسيق الكلامُ بعد بيانِ بعضِ شؤونِ القرآنِ الكريم تمهيدًا لما يعقبُه من الأقاصيصِ[2]، ويمكن أن تكون الواو عاطفةً، عطفت هذه الآيةَ على قوله: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ﴾، فالمعطوف عليها تتعلّق بالتّنويه بالقرآنِ، والمعطوفة تتعلّق بالتّنويه بمَن نزلَ عليه القرآنُ الكريمُ[3].

غرضُ توالي المُؤكِّداتِ:

التّأكيدُ عنايةً بأمرِ المُؤكَّد وتثبيتًا لفؤادِ المُخاطَبِ

أُكّد قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ بأربعةِ مُؤكِّداتٍ هي: (إنّ)، والجملةُ الاسميّةُ، واللّامُ المُزحلقةُ في ﴿لَتُلَقَّى﴾، وذُكر المُسنَد إليه مرّتَيْن: مرّةً على أنّه اسم (إنّ)، ومرَّةً على أنّه فاعل ﴿لَتُلَقَّى﴾ المُستَتِر، وذلك لإظهار كمالِ العنايةِ بمضمونِه؛ أيْ: لتُؤتاه بطريقِ التَّلقيةِ والتَّلقينِ[4]، وتتابُعُ المُؤكِّدات هنا قد يكون موافِقًا لمُقتضى الظّاهر والحال معًا إن كان الخطاب لأهل مكّة وليس للنّبيّ ﷺ تعريضًا بهم، ويمكن أن يكون التّأكيدُ قد خرجَ عن الظّاهرِ ولم يخرج عن مقتضى الحالِ بإنزالِ غير المُنكِر - وهو النّبيّ ﷺ ومَنْ

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 10/ 302.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 273.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 223.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 273.

تَبِعَه من المؤمنين - منزلةَ المُنْكِر وذلك للتَّسرية عنه وعمّن معه، وتثبيتِ فؤادِه ومواساتِه فيما يلقاه.

نكتةُ بناءِ الفعل ﴿لَتُلَقَّى﴾ للمفعول:

بناءُ الفعلِ لما لم يُسمّ فاعلُهُ إيجازًا للعِلْمِ بالفاعلِ

بُني الفعلُ ﴿لَتُلَقَّى﴾ للمفعول في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ﴾، وحُذِفَ الفاعل وهو جبريل عليه السلام للدَّلالة عليه في قوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ١٩٣﴾ [الشُّعراء: 193][1]، إعلاءً له وللعلم به؛ أيّ: تُجعَل مُتلقّيًا للقرآنِ من المَلَك[2]، كأنّ جبريل عليه السلام سعى للجمع بين النَّبيّ ﷺ والقرآن.

أو يكون الفاعل هو الله، وحُذِفَ للتّفكُّر بعَظَمَة مَن أنزلَ القرآنَ، وعُلوِّه، وسَعةِ قُدرتِه.

بيانُ مفعولي التَّلقّي:

تُلَقُّنُ القرآنَ وتُؤتاه من لدنْ حكيمٍ عليمٍ

(لقي) المخفّف يتعدّى لواحدٍ، والمُضاعف يتعدّى لاثنين، وهما في قوله تعالى: ﴿لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ﴾ نائبُ الفاعل (وتقديره: أنت)، والقرآنُ؛ والمُراد: (وإنّك لتُعطى القرآنَ تُلَقَّنُهُ مِنْ لَدُنْ حَكيمٍ عَليمٍ)[3].

معنى (أل) في ﴿ٱلْقُرْءَانَ﴾:

القرآنُ هو الكتابُ المعهودُ الّذي أنزله أمينُ السّماءِ على أمينِ الأرضِ

التّعريفُ في ﴿ٱلْقُرْءَانَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ﴾ للعهد الصَّريح، لتَقَدُّم ذِكرِه في بدايةِ السّورة الكريمةِ، والمُرادُ به اللّفظُ والمعنى الّذي نزل به أمينُ السّماءِ على أمينِ الأرضِ.

معنى ﴿مِن﴾ في قولِه: ﴿مِن لَّدُنْ﴾:

﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ ابتدائيّةٌ، على معنى أنّ نزوله ابتدأ أوّل ما ابتدأ من لَدُنه سبحانه وتعالى؛ أيّ: من حيث ابتُدِئت الغايةُ.

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 19/ 237.
(2) البقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرر: 14/ 128.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 19/ 237.

القرآنُ في أعلى منازلِ الغرابةِ في أنواعِ الخوارقِ

سرُّ إيثارِ لفظِ ﴿لَّدُنْ﴾ دون (عند):

﴿لَّدُنْ﴾ أخصّ من (عند)؛ لأنّه يدلُّ على ابتداءِ نهايةٍ، نحو: أقمتُ عنده من لدن طلوعِ الشمسِ إلى غروبِها، ولأنّ ﴿لَّدُنْ﴾ يَدُلّ على ما يليك، بخلاف (عند)، ولهذا يُقال: (هذا القولُ عندي صوابٌ)، ولا يُقال: (لدُنّي صوابٌ).

ولمّا كانت الأمور الّتي من عند اللّه تارةً تكون على مقتضى الحكمة فتُسنَد إلى أسبابها، وأخرى خارقة للعادة فتُنسب إليه سبحانه، والخارقة تارةً تكون في أوّل رُتَب الغرابة فيُعبَّر عنها بـ(عند)، وتارةً تكون في أعلاها فيعبّر عنها بـ(لدن)؛ نبّه سبحانه على أنّ هذا القرآن في الذُّروة من الغرابة في أنواع الخوارق فقال: ﴿مِن لَّدُنْ﴾[1].

لـمّا تضمَّنت آياتُ القصِّ في السّورة أنواعَ الحِكَم قُدِّمت الحكمةُ على العِلْم

غرضُ تقديمِ الحكمةِ على العلمِ في قوله: ﴿حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾:

اقترنت صفتا العِلْم والحكمةِ في ستٍّ وثلاثين موضعًا في القرآنِ الكريمِ، تقدّمت فيها صفةُ العِلمِ على الحكمة في تسعة وعشرين موضعًا، وتقدّمت الحكمة على العِلْم في سبعة مواضع؛ وذلك لظهور الحكمة وسبْقِها العلمَ في هذه المواضع مع كونِ الحكمة من مستلزماتِ العلمِ.

وتتجلّى الحكمةُ في سورة النّمل في قصّة موسى ﵇ مع فرعون، وفي قصّة سليمان وداود ﵉، وفي قصّة النّملة والهدهد، ومليكة سبأ، وكذلك ثمود وقوم لوط، وهكذا تتراءى صفتا العلم والحكمة في كلِّ آيةٍ من آياتِ السّورة الكريمةِ؛ فاقتضت مقاصدُ السّورة تقديمَ الحكمةِ على العِلْم.

ولمّا مضى في آخر سورة الشُّعراء ما تقدّمَ من الحِكَم الجَمَّة في تنزيله بهذا اللِّسان، وعلى قلب سيّد ولَدِ عَدْنان، بواسطة الرّوح

(1) البقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرر: 14/ 128.

الأمينِ، مُباينًا لأحوال الشّياطين، إلى غير ذلك ممّا مضى إلى أن خُتِمَت بتهديد الظّالمين، وكان الظّالم إلى الحكمة أحوجَ منه إلى مُطلقِ العلمِ، اقتضى السّياقُ تقديمَ وصفِ الحكمةِ[1].

سرُّ تنكيرِ الاسميْن ﴿حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ وصوغُهما على زنَةِ (فعيل):

مــن وجـــوه الـفـخـامـةِ والـتّـعـظـيـمِ، امتلاكُ الحكمةِ والعلمِ المُطلقَيْن

أفاد التّنكير لهذيْن الاسميْن الجليليْن في قوله تعالى: ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ معانيَ التّفخيم والتّعظيم[2]، وجاء الوزنُ الصّرفيّ لهذيْن الاسميْن على زنة (فعيل)، وهي مفيدةٌ الشِّدَّة والقوّة في الوصف، والثّباتَ في صاحبه، فضلًا عن المبالغة في هذيْن الوصفيْن للّه تعالى؛ إذ له سبحانه الحكمة والعلم المُطلقان، فقوله: ﴿حَكِيمٍ﴾؛ أيْ: بالغ الحكمة، فلا شيء من أفعاله إلّا وهو في غاية الإتقان، و﴿عَلِيمٍ﴾؛ أيْ: عظيمُ العِلْم واسعُه تامًّا شاملًا، فهو بعيد جدًّا عمّا ادَّعوه فيه من أنّه كلامُ الخَلْقِ الّذي لا علم لهم ولا حكمة إلّا ما آتاهم اللّهُ، ومصداقُ ذلك عجزُ جميعِ الخلق عن الإتيان بشيءٍ من مثلِه، وإدراك شيءٍ من مغازيه حقَّ إدراكه"[3].

نكتةُ تذييلِ الآيةِ الكريمةِ بهذيْن الوصفيْن:

الإخـــبـــارُ عن الأمـمِ الماضيةِ وتقريرُ أحوالِهم يـقـتـضـيـان الحكمةَ والعِلمَ

ذُيّلت الآية الكريمة بهذيْن الاسميْن الجليليْن ﴿حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾؛ لأنّهما مرتبطان بالحديث عن تلقّي القرآنِ الكريم ممّن شأنه أن يَعلَم أحوال المخاطَبين به، وما يلائم أحوالهم، وأنّه الحكيمُ الّذي يضع الأمورَ في موضعِها الأصحِّ لها، والذي لا يصلح أن يوضع لها سوى ما قرّره سبحانه وتعالى، ثمّ إنّ التّذييل بهذيْن الاسميْن الجليليْن هو توطئةٌ لما أخبر به العليمُ عن أحوال الأمم الماضية مع أنبيائهم، وما اقتضته الحكمة في تقرير سائر أحوالهم، ففي

(1) البقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرر: 14/ 128 - 129.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 349.
(3) البقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرر: 14/ 129.

الوصفَيْن الشَّريفَيْن مُناسبةٌ للمعطوف عليه وللمُمَهَّد إليه، فإنّ ما في القرآنِ دليلٌ على حِكمَةِ وعِلمِ مَن أَوحى به، وأنّ ما يُذكَر هنا من القصص وما يُستخلَص منها من المغازي والأمثال والموعظة، من آثار حكمةِ وعِلمِ حكيمٍ عليمٍ، وكذلك ما في ذلك من تثبيتِ فؤادِ الرّسولِ ﷺ [1].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

(لدن) و(عند):

بين اللّفظتيْن عمومٌ وخصوصٌ

(لَدُنْ) أخصّ من (عند)؛ لأنّه يدلّ على ابتداءِ نهايةٍ؛ نحو: أقمتُ عنده من لدُنْ طلوعِ الشمسِ إلى غروبِها، فيوضع ﴿لَّدُنْ﴾ موضع نهاية الفعل.

وقد يوضع موضع (عند) فيما حكي؛ يُقال: أصبتُ عنده مالًا، ولدُنه مالًا، قال بعضهم: (لَدُنْ) أبلغ من (عند) وأخصّ، قال تعالى: ﴿قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ۝٧٦﴾ [الكهف: 76]، ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ [الكهف: 10][2].

قال أبو هلال العسكريّ: الفرق بين (لدُنّي) و(عندي)؛ أنّ (لدُنّي) يتمكّنُ تمكُّنَ (عند)، ألا ترى أنّك تقول: (هذا القولُ عندي صوابٌ)، ولا تقول: (لدُنّي صوابٌ)، وتقول: (عندي مالٌ)، ولا تقول: (لدُنّي مالٌ)، ويجوز أن تقول: (عندي مالٌ) وإن كان غائبًا عنك؛ لأنّ (لدُنّي) هو لما يليك[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 224.
(2) الرّاغبُ، المُفرَدات: (لدن).
(3) العسكريُّ، الفروق في اللّغة، ص: 462.

﴿إِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهۡلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا سَـَٔاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ ءَاتِيكُم بِشِهَابٖ قَبَسٖ لَّعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ ٧ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٨ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٩﴾ [النمل: 7 - 9]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

قصّةُ موسى عليه السلام استدلالٌ على تمامِ الحكمةِ وسَعَةِ العِلْمِ

لمّا وصَفَ اللّهُ تعالى نَفسَه بتمامِ الحكمةِ وشمولِ العلمِ، دَلَّ على كلٍّ من الوصفيْنِ، وعلى ما للقرآنِ من العَظَمَةِ الّتي أشارَ إليها أوّلَ السّورة، بما يأتي في السّورة من القصص وغيرِها، واقتصر في هذه السّورة على هذه القصصِ لما بينها من عظيمِ التّناسبِ لمقصدِ السّورة[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ءَانَسۡتُ﴾: (أنس) أصلٌ يدور معناه على ظُهورِ الشّيْءِ ورؤيته والإحساس به، والأُنسُ خلافُ النُّفورِ والاستيحاشِ، وأَنِسَ الإنسانُ بالشّيءِ إذا لم يستوحش منه، والإيناسُ: الإبصارُ البَيِّنُ الّذي لا شُبْهَةَ فيه، ومنه: إنسانُ العينِ؛ أيْ: ناظرُها، فإنَّهُ يَبينُ به الشّيْءُ، وقيلَ: سُمّي الإنسُ إنسًا لِظُهورِهِم وإدراكِ البصر إيّاهم، ولأنَّه يُؤنس بهم، كما أنَّ الجنَّ سُمّوا كذلك لاسْتِتارِهم، وإيناس النّار: رؤيتها من بعيدٍ[2]؛ وهو المعنى المُراد في الآية الكريمة.

2) ﴿بِخَبَرٍ﴾: (خبر) أصلٌ يدلّ على العِلْم، فالخُبْرُ: العِلْمُ بالشّيء، تقول: لي بفلانٍ خِبْرَةٌ وخُبْرٌ، واللّهُ تعالى الخَبيرُ؛ أَيِ: العالِمُ بكلِّ شَيْءٍ، وقال اللّهُ تعالى: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ ١٤﴾

(1) البقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرر: 14/ 129.

(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المُفرَدات، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (أنس)، والزَّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 53.

[فاطر: 14][1]، والخُبْرُ: العِلْمُ بالأشياء المعلومة من جهة الخَبَر، والخِبْرَة: المعرفةُ ببواطنِ الأمرِ، وأَخْبَرْتُ: أعلمتُ بما حصل لي من الخبر[2]، ومعنى قوله: ﴿بِخَبَرٍ﴾؛ أيّ: بما يدلّنا على الطريق.

3) ﴿بِشِهَابٍ﴾: (شهب) أَصْلٌ يَدُلُّ على بَياضٍ في شَيْءٍ من سَوادٍ، لا تَكونُ الشُّهْبَةُ خالِصَةً بَياضًا، ومن ذلكَ الشُّهْبَةُ في الفَرَسِ، هو بياضٌ يُخالِطُهُ سوادٌ، ويُقالُ: كَتيبَةٌ شَهْباءُ، إذا كانت عِلْيَتُها بياضَ الحَديدِ، ومن الباب: الشِّهابُ، وهو شُعْلَةُ نارٍ ساطِعَةٌ[3]، وحِدّةُ نارٍ أو بريقٍ تنتشر في أعلى الشَّيء دون أسفلِه مع صفاءٍ أو خفَّةٍ ما؛ كَلَهَب الشُّعلَة في رأس العود[4]، وقوله: ﴿بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾؛ أيّ: بشعلةٍ نارٍ.

4) ﴿قَبَسٍ﴾: (قبس) أَصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ على صِفَةٍ من صِفاتِ النّارِ، والقَبَسُ: شُعْلَةُ النّارِ، قالَ اللّه تعالَى في قِصَّةِ موسَى عليه السلام: ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ﴾ [طه: 10]، ويَقولونَ: أَقْبَسْتُ الرَّجُلَ عِلْمًا، وقَبَسْتُهُ نارًا، قالَ ابْنُ دُرَيْدٍ: قَبَسْتُ مِنْ فُلانٍ نارًا، واقْتَبَسْتُ منه عِلْمًا، وأَقْبَسَني قَبَسًا[5]؛ فالمعنى المحوريّ لهذا الأصل: تحصيلٌ مباشِرٌ لمادّةٍ حادَّةٍ من أصلٍ لها، كأَخْذ الشُّعلة من نارٍ عظيمةٍ، ومن قَبَس النار قوله تعالى: ﴿أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾[6].

5) ﴿تَصْطَلُونَ﴾: (صلي) أصلٌ يَدُلُّ على النّارِ وما أَشْبَهَها مِنَ الحُمَّى؛ كقولهم: صَلَيْتُ العودَ بِالنّارِ، والصَّلَى: صَلَى النّارِ، واصْطَلَيْتُ بالنّارِ، والصِّلاءُ: ما يُصْطَلَى بِهِ وما يُذْكَى بِهِ النّارُ ويوقَدُ[7]، والمعنى المحوريّ لهذا الأصل: لينُ أثناءِ الشيءِ، أو رخاوتها من الداخل مع تماسكٍ ما، فيُمكِن التّصرّف فيه، والاصطلاء: الاستدفاء[8]، وقوله: ﴿لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾؛ أيّ: رجاء أن تستدفئوا بالنّار من البرد.

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (خبر).
(2) الرّاغب، المُفرَدات: (خبر).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شهب).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (شهب).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قبس).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (قبس).
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صلى).
(8) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (صلو) و (صلى).

6) ﴿بُورِكَ﴾: (برك) أصلٌ يَدُلُّ على ثَباتِ الشَّيْءِ، ثُمَّ يَتَفَرَّعُ فُروعًا يُقارِبُ بَعْضُها بَعْضًا، كَبَرْكِ البعير على الماءِ أو بالفلاةِ، مِن حَرِّ الشَّمسِ أو الشِّبَعِ، وكالبِرْكَة: ما وليَ الأرضَ مِن جِلْدِ البَطنِ وما يَليه مِن الصَّدْرِ، مِنْ كُلِّ دابَّةٍ[1]. والبَرَكَةُ: الزِّيادةُ والنَّماء، والتَّبْريكُ: الدُّعاء بالبَرَكة[2]، والبَرَكَةُ: ثبوت الخير الإلهيِّ في الشَّيء، قال تعالى: ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: 96]، وسُمّي بذلك لثبوت الخير فيه ثبوت الماء في البِرْكَة، والمُبارَك: ما فيه ذلك الخير[3]، ومعنى قوله تعالى: ﴿بُورِكَ﴾: تقدَّس.

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

عرضُ قصّةِ موسى عليه السلام للتّذكيرِ والعِظَةِ

الآيةُ تذكيرٌ للرّسولِ الكريمِ ﷺ ولأتباعه ليعتبروا ويتّعظوا بقصّة موسى عليه السلام وقتَ أن قال لأهله وهو في طريقه من جهة مَدْيَن إلى مصر: إنّي أبصرتُ نارًا، فامكثوا في مكانِكم، فإنّي سَآتيكُم مِن جِهتها بخبرٍ ينفعنا في رحلتِنا هذه، ونسترشدُ به في الوصولِ إلى أهدى الطُّرقِ الّتي توصلنا إلى المكانِ الّذي نريدُه، فلمّا وصل موسى عليه السلام قريبًا من مكان النّار، ناداه اللّه ﷻ على سبيل التّكريم والتّحيّة: أن قُدِّس وطُهِّر واختير للرِّسالة مَنْ هو بالقرب منها وهو موسى عليه السلام ومَنْ حولَها من الملائكةِ، أو الأماكن القريبة منها[4].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نكتةُ فصلِ الآياتِ عن سابقتِها:

عَقَّبَ التَّنْويهَ بالقُرآنِ ذِكْرَ قِصَصِ الأنْبياءِ

الجُملَةُ في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ﴾ اسْتِئْنافٌ ابْتِدائيٌّ، أفادت تَنْظيرَ تَلَقّي النَّبيّ ﷺ القُرْآنَ بِتَلَقّي موسَى عليه السلام كَلامَ اللّه إذْ نوديَ ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾، وذلك مِن بَديع

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (برك).
(2) الخليل، العين: (كرب).
(3) الرّاغب، المُفرَدات: (برك).
(4) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 10/ 304 - 305.

التَّخَلُّصِ إلى ذِكْرِ قِصَصِ هَؤُلاءِ الأَنبياءِ عَقِبَ التَّنْويه بالقرآنِ، وأَنَّه مِن لَدُنْ حَكيم عَليم، والمَعْنى: أَنَّ اللّه يَقُصُّ عليك مِن أَنباءِ الرُّسُلِ ما فيه مَثَلٌ لك ولقَوْمِك وما يُثَبِّتُ به فُؤادَك، وفي ذلك انْتِقالٌ لنَوْعٍ آخَرَ مِن الإعجازِ وهو الإخْبارُ عَنِ المُغَيَّباتِ[1].

معنى ﴿إِذْ﴾ وموقعها النّحويّ:

تُستعمل (إذْ) ظرفًا للزّمنِ الماضي، ويكثُرُ وُرودُها في القصصِ القرآنيّ

﴿إِذْ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ﴾ ظرفٌ في محلّ نصب مفعولٍ به، والتّقدير: (واذكر حين قال)، وكثيرًا ما يُستعمل (إذ) بهذا التّقدير في أوائل القَصَص في التَّنزيل نَحْو: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ [البقرة: 30] ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ [البقرة: 34] ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ﴾ [البقرة: 50]؛ فلمّا كان تعلُّق ﴿إِذْ﴾ بـ(اذكر) من الوضوح في حدٍّ لا يخفى على أحدٍ، قال دالًّا على حكمته وعلمه: ﴿إِذْ﴾ طاويًا لمتعلّقه لوضوح أمره؛ فصار كأنّه قال: (اذكُرْ حكمتَه وعلمَه حين قال موسى لأهلِه)[2].

نكتةُ التّعبيرِ عن الزَّوجةِ بلفظةِ الأهلِ:

تُستعملُ لفظةُ الأهلِ مع الزّوجةِ لتعظيمِ شأنِها ولحمايتِها وسترِها

الأَهْلُ في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ﴾ مُرادٌ به زَوْجُهُ، فالمُخاطَبُ بالقولِ زَوْجُهُ، وذلك لأنّه يُكَنَّى عن الزَّوْجَةِ بالأَهْلِ مِنْ: أهِلَ فلانٌ يأْهَلُ أهولًا وتأهّلًا؛ أيْ: تزوّج وصار له أهلٌ[3]، ودليلُ جوازِ إطلاقِ لفظِ الأهلِ على الزّوجةِ ما جاء في حديثِ الإفكِ الطّويلِ في قولِ النّبيِّ ﷺ عن عائشةَ رضي الله عنها: «واللّه ما عَلِمتُ على أَهْلي إلّا خَيْرًا»[4]، ولذلك أُتي بضميرِ المُذكَّر المجموع للتَّعبير عن زوجة موسى عليه السلام بلفظ (الأهل) الصّالح للمُذَكَّر والجَمعِ صيانةً لها وسترًا

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 19/ 224.

(2) البقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرر: 14/ 129.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 19/ 225، والخليل، العين: 1/ 96، وابن فارس، مُجمَل اللُّغة: 1/ 212.

(4) البخاريّ، الصّحيح، باب حديث الإفك، حديث رقم: (3910).

وتعظيمًا، وهو الوجه في تسمية اللّه تعالى امرأة موسى عليه السلام بالأهل مع أنّه في الوضع اللّغويّ: جماعةُ الأتباع[1].

فائدةُ توالي المُؤكّداتِ: ﴿إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا سَـَٔاتِيكُم﴾:

توالي المُؤكّداتِ لإبعادِ الخوفِ عن أهلِه وتثبيتِ الطُّمأنينةِ

أُكّدت جملة ﴿إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا سَـَٔاتِيكُم﴾ بعدّةِ مُؤكّداتٍ وهي: (إنّ)، والجملة الاسميّة، وتكرير ذِكْرِ المُسنَدِ إليه، مرّةً على أنّه اسم (إنّ)، ومرّةً على أنّه الضّمير المُتّصل الفاعل في ﴿ءَانَسۡتُ﴾، وكذلك بحرف التّسويف؛ إذ واعَدَ أهلَه أنّه يأتيهم به وإن أبطأ، أو كانت المسافة بعيدةً[2]، قال الآلوسيّ: "وما قيل من أنّ السّين للدّلالة على تقريب المُدّة دفعًا للاستيحاشِ إنّما ينفع على ما قيل في اختياره على (سوف) دون التّجريد الّذي يتبادر من الفعل معه الحالُ الّذي هو أتمُّ في دفع الاستيحاشِ، ولعلّ الأَوْلى اعتبارُ كونه للتّأكيد"[3].

وسببُ تزاحم هذه المُؤكّداتِ أنّ النّار لم تَظْهَر إلّا لموسى عليه السلام دون غيره من أهلِه؛ لأنّها لم تكن نارًا مُعتادةً، لكنّها مِن أنوار عالَم المَلَكوت جلّاه اللّهُ لموسى فلا يراه غيره، ويُؤَيِّد هذا تَأكيدُه الخَبَرَ بـ(إنّ) المُشير إلى أنّ زَوجَه تَرَدَّدَت في ظهورِ نارٍ لأنّها لم تَرَها[4]، ثمّ أراد أن يُطَمئِنَها أنّه يستأنس خيرًا في هذه النّار الّتي شاهدها، ولا يظنّ وجود قُطّاع طرقٍ أو غيره، فالمُؤكّدات تزاحمت ليُبعد عن زوجته الخوف، ويبعث في نفسها الشّعورَ بالطّمأنينة.

نكتةُ التّعبيرِ بلفظِ الاستئناسِ:

تحقيقُ الأُنسِ وإزالةُ الوَحْشَةِ صورةٌ لرعاية اللّه تعالى لموسى

أفاد التّعبيرُ بلفظ الاستئناسِ في قوله تعالى: ﴿إِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهۡلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا﴾ شعورَ موسى عليه السلام بالطّمأنينة دون الاستيحاش من

(1) البقاعيّ، نَظْمُ الدُّرر: 14/ 130، والآلوسيّ، روح المعاني: 19/ 238.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 349.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 19/ 238.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 225.

هذه النّار، فالأنس ليس مجرّد رؤية عابرة؛ بل هي شعور بالرّاحة والأمان، وإبصارٌ حصل معه الأُنس، وأزال عنه الوَحْشَة[1].

فائدةُ تنكير ﴿نَارًا﴾:

تنكيرُ النّارِ وسّعَ صورةَ هيأتِها

أفاد تنكيرُ ﴿نَارًا﴾ في قوله تعالى: ﴿إِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهۡلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارًا﴾ عدّة معانٍ مُحتمَلةٍ بحسب تفسيرها في سياقها الّذي جاءت فيه، فقد يكون التّنكير للتّعميم، على معنى أنّها نارٌ مجهولةٌ مُبهمةٌ، لا يُدرك كُنهها، ولا سبب وجودها، وقد يكون التّنكير للتّهويل على معنى أنّها نارٌ مهيبةٌ، ويمكن أن يكون التّنكيرُ للتّفخيمِ والتّعظيمِ لا سيَّما أنّها جاءتْ في سياقِ الاستئناسِ بها وهو الأقربُ.

فائدةُ التّعبيرِ بالإتيانِ في قولِهِ: ﴿سَـَٔاتِيكُم﴾:

القبسُ آلةُ الإيناسِ والإرشادِ

ناسبَ لفظُ (الإتيان) في قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا سَـَٔاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ﴾ دون المجيء؛ لأنّ الإتيان مجيءٌ بسهولةٍ، على معنى توقّع تحصيل القَبَس وسهولة الإتيان به إلى أهله، أراد موسى عليه السلام أن يُطَمئِنَ أهلَه أنّ الأمر سهلٌ وميسورٌ ومُحَقَّقٌ.

معنى (مِن) في قولِهِ: ﴿مِّنۡهَا﴾:

بعضُ القَبَسِ يكفي للحمايةِ والإيناسِ

يحتمل أن تكون (مِن) في قوله تعالى: ﴿سَـَٔاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ﴾ ابتدائيَّةً، وهو المعنى الّذي لا يكاد يفارقها، وهو مناسِبٌ للإتيانِ بخبرٍ منها، وقد تكون تبعيضيّةً وهو الأظهر مع الشّهابِ، على معنى أنّه سيأتي ببعضِ هذه النّارِ لأهلِه لا كلّها.

غرضُ تقديم ﴿مِّنۡهَا﴾:

أفادَ التّقديمُ العنايةَ بأمرِ النّارِ المؤنسةِ

قُدِّمَ الجارُّ والمجرور ﴿مِّنۡهَا﴾ على ﴿بِخَبَرٍ﴾ و﴿بِشِهَابٖ﴾ في قوله تعالى: ﴿سَـَٔاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ ءَاتِيكُم بِشِهَابٖ قَبَسٖ﴾ للإشعارِ بأهميَّة النّار الّتي آنسَها، وتأكيد أنَّ الخبر والشّهاب يكون من النّار الّتي آنسها وليس من غيرِها.

(1) البقاعيّ، نَظْمُ الدُّرر: 14/ 130.

معنى الباءِ في قولِه: ﴿بِخَبَرٍ﴾ و ﴿بِشِهَابٍ﴾:

إتحافُ أهلِه بالاهتداءِ عن طريقِ البصرِ أو البصيرة

الباء في قوله تعالى: ﴿سَـَٔاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ ءَاتِيكُم بِشِهَابٖ قَبَسٖ﴾ للإلصاقِ والملابسةِ، ويمكن أن تكون للتّعدية، وتُسمَّى باء النَّقل، وهي المعاقِبةُ للهمزة، وتنقل ما بعدها من الفاعليّة إلى المفعوليّة، لبيان أنّ ذهابه إلى النّار ثم مجيئه منه إنّما هو لاصطحاب الشّهاب أو الخبر وإفادة أهله به ليهتدوا به بعد أن ضلّوا الطّريق.

نكتةُ تنكيرِ ﴿بِخَبَرٍ﴾:

التّنكيرُ للتّعميمِ أو التّعظيمِ أو التّقليلِ

تنكيرُ ﴿بِخَبَرٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿سَـَٔاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ﴾ للعموم؛ ليشمل أيَّ خبرٍ من شأنه أنْ يُقدِّم لموسى عليه السلام أدنى فائدةٍ، ويمكن أن يكون تنكيره للتّقليل، بمعنى تحصيل خبرٍ مهما كان ضئيلًا، والأفضل حملُ تنكيره على التّعظيم والتّفخيم على معنى أنّ نفسَه توّاقةٌ لأنْ يحصل على خبرٍ ذي شأنٍ من هذه النّار الّتي استأنس بها خيرًا.

أو المُراد خَبَرُ المكان الّذي تلوح منه النّار، ولعلَّه ظَنَّ أنَّ هنالك بيتًا يرجو استضافَتَهم إيّاه وأهلَه تلك الليلة، وإن لم يكن أهلُ النّار أهلَ بيتٍ يستضيفون بأن كانوا رجالًا مُقْوين يأتِ منهم بجمرة نارٍ ليوقِدَ أهلَه نارًا مِن حَطَب الطَّريق للتَّدَفُّؤ بها[1].

معنى ﴿أَوۡ﴾ في قولِه: ﴿أَوۡ ءَاتِيكُم﴾:

التّرديد بـ(أو) من ثقةِ النَّبيِّ بربِّه أنّه لن يجمعَ عليه حِرْمانَيْن

﴿أَوۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَوۡ ءَاتِيكُم بِشِهَابٖ قَبَسٖ﴾ عاطفةٌ، وهي للتّخيير بين أمرَين، وهي لمنعِ الخلوِّ، بمعنى أنَّه يتوقَّعُ تحصيل أحدِهما أو كليهما معًا، فالتّرديد للدّلالة على أنّه عليه السلام إن لم يظفر بهما لم يعدم أحدهما، بناءً على ظاهر الأمر، وثقةً بسُنَّة الله عز وجل أنّه لا يكاد يجمع حِرْمانَيْن على عبد، وقيل: يجوز أن يُقال: التّرديد لأنّ احتياجه عليه السلام إلى أحدهما لا لهما؛ لأنّه كان في حال التّرحال

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 19/ 225.

وقد ضلّ عن الطّريق، فمقصوده أن يجد أحدًا يهدي إلى الطّريق فيستمرّ في سفره، فإن لم يجده يقتبس نارًا ويوقدها ويدفع ضرر البرد في الإقامة[1].

توجيهُ القراءاتِ القرآنيّةِ في: ﴿بِشِهَابٖ قَبَسٖ﴾:

تتعاضدُ القراءاتُ القرآنيّةُ في بيانِ معاني الآية

قرأ نافعٌ وابنُ كثيرٍ وأبو عمرٍو وابن عامرٍ وأبو جعفر بترك تنوين ﴿بِشِهَابِ﴾ على إضافة الشّهاب إلى القبس، وقرأ الباقون بتنوين ﴿بِشِهَابٖ﴾[2]؛ فعلى قراءةِ الإضافةِ تكون إضافةُ الشّهابِ إلى القبسِ من إضافةِ العامِّ إلى الخاصِّ؛ وهي إضافةٌ بيانيّةٌ، كقولنا: خاتم حديد، وعلى قراءةِ التّنوين يكون ﴿قَبَسٖ﴾ صفةً أو بدلًا من ﴿بِشِهَابٖ﴾ وتأويله: (بشهابٍ مُقتَبَسٍ)[3]. ولا تعارض بين كلتا القراءتَيْن؛ فمؤدّاهما واحدٌ في أنّه يرجو الحصولَ على قطعةٍ من النّارِ يستضيءُ ويستدفئُ بها.

نكتةُ تنكيرِ ﴿بِشِهَابٖ﴾ على قراءةِ التّنوين:

الإتيانُ بشعلةٍ تُعطينا كلَّ الدّفءِ أو بعضَه في أقلِّ تقديرٍ

أفاد تنكيرُ ﴿بِشِهَابٖ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَوۡ ءَاتِيكُم بِشِهَابٖ قَبَسٖ﴾ التّفخيمَ والتّعظيمَ، على معنى أنّه سيأتي أهلَه بشعلةٍ من النّارِ عظيمةٍ تُعطيهم الدِّفء والشّعور بالأمان، ويمكن أن يُفيد التّنكيرُ معنى التّقليل؛ أيْ: (سآتيكم بما يُحقّق لكم بعضَ الدِّفءِ على أقلِّ تقديرٍ).

نكتةُ فصلِ قولِه: ﴿لَّعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ﴾:

الفصلُ لكمالِ الاتّصالِ أو لشبهِ كمالِه

فُصل قولُه تعالى: ﴿لَّعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ﴾ عمّا قبله للاتّصال التّامِّ، كونه جاء مُعلِّلًا له، فالجملة تعليليّة، أو على سبيلِ الاستئنافِ البيانيِّ جوابًا عن سؤالٍ مُقدَّرٍ حول سبب رجائِه الحصولَ على الشّهابِ.

---

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 19/ 238.

(2) ابن الجزريّ، النَّشر: 2/ 337.

(3) ابن زَنْجَلَة، حجّة القراءات، ص: 522 - 523، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 19/ 225.

معنى ﴿لَّعَلَّكُمْ﴾:

أفاد معنى ﴿لَّعَلَّكُمْ﴾ في قوله: ﴿لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ التّعليلَ؛ أيّ: لأجلِ أن تستدفئوا وتنتفعوا بها، وتأنسوا في ظلمةِ الليلِ الحالكِ.

دلالةُ التّعبيرِ بـ﴿تَصْطَلُونَ﴾ مادّةً وصيغةً:

رغبـةُ موسى بـدوامِ الـدّفءِ على أهلِه

(الاصطلاء) في قولِه تعالى: ﴿لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ هو الاستدفاءُ، والمعنى الّذي يجمع شتات مادّة (صلي) يقوم على الرّخاوةِ واللّينِ ليتمكّن من فعلِ ما يريده صاحبُه، والمعنى أنّ هذا الاستدفاءَ من شأنِه أن يليّن الأعضاءَ حتّى تعودَ قادرةً على فعلِ المطلوبِ منها، والتّعبيرُ بالفعلِ المضارعِ في الآية ﴿تَصْطَلُونَ﴾ من شأنه أن يُحقّق استحضارَ الصّورةِ لأهلِه وهم يَنْشُدون هذه النّار، فضلًا عن الأملِ بتجدّدِ هذا الدّفءِ واستمراره طوال اللّيلةِ الباردة.

توجيهُ المتُشابه اللّفظيّ بين ما جاءَ في سورتيْ (طه) و(القصص):

حين حُثَّ موسى على قوّةِ التلقّي، عـبّرَ بما يؤكِّدُ عزمَه، ويُحقِّقُ مقصدَه

جاء في سورةِ (طه) و(القَصص) ذِكْرُ (لعلَّ) فقال: ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ﴾ [طه: 10]، وقال: ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ﴾ [القصص: 29]، وفي سورة (النّمل) أتى بالسّين فقال: ﴿سَـَٔاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ﴾، وتوجيهه أنَّ موسى عليه السلام ذَكَرَ معنى السّين و(لعلَّ) في كلامِه، فكأنَّه قال: (سأذهبُ لعلّي آتيكم) للإشعارِ بأنّه عزمَ على الذّهابِ وتأكّدَ عنده العزمُ، وكان مُتوقِّعًا حصولَ مقصودِه، ومناسبةُ التّعبير بـ﴿سَـَٔاتِيكُم﴾ في سورة (النّمل) أنّه سبقَ الكلامَ على قصّة موسى قولُه تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلۡقُرۡءَانَ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾، ففيه حَثٌّ على قوّةِ التّلقّي والثّبات عليه والدّعوة إلى تبليغه بقوّة، فناسبه مجيء السّين الّتي تُفيد التّأكيدَ، فهي أقوى في ثبوت الخبرِ في المستقبلِ من (لعلَّ)، للإشعارِ بأنَّ موسى عليه السلام كان قويًّا في عزمِه كذلك، كما أنَّه في سورتي (طه) و(القصص) ذَكَرَ (لَعَلَّ) بعد الإخبارِ عن سَيْرِه وسفرِه المُؤذِنِ بالتّعبِ والمشقّة، وفي

سورة (القصص) ذُكِرَ فيها خوفُ موسى عليه السلام في مواضع عديدةٍ، فناسبه عدمُ القطع وذِكْرُ التّوقُّع، وأمّا في سورة (النّمل) فلم يتقدّم القصّةَ ذِكْرُ السّفرِ والسَّيرِ بأهلِه، فبعد أن ذَكَرَ إثباتَ تلقّي رسول الله ﷺ القرآنَ من لدن حكيم خبيرٍ قال: ﴿إِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهۡلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا سَـَٔاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ ءَاتِيكُم بِشِهَابٖ قَبَسٖ لَّعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ﴾، فناسبَه مجيءِ السّين، فلكلٍّ موضعٍ لفظُه ومناسبتُه.

أغنت (أو) عن تكرارِ (لعلّ)؛ لأنّ العطفَ على نيّةِ التّكريرِ

جاء في سورةِ (القصصِ) تكريرُ (لَعَلَّ) لفظًا، وفي سورة (طه) و(النّمل) ذُكِرَ اللَّفظُ مرَّةً واحدةً؛ لأنَّ ﴿أَوۡ﴾ [طه: 10] في قَوْله: ﴿أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى ١٠﴾ [طه: 10] نائِبٌ عَن ﴿لَّعَلِّيٓ﴾ [طه: 10]، فالعطفُ على نيّة تكرير (لَعَلَّ)، و﴿ءَاتِيكُم﴾ في قوله: ﴿سَـَٔاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ﴾ تَتَضَمَّن معنى (لَعَلّي)؛ لأنَّ (لَعَلَّ) تتضمّن معنى الاستقبال، فالتّرجّي لا يكون إلّا في المستقبل(1).

ثمرةُ تأكيدِ الخبرِ صدقُ الإخبارِ

جاء في سورة (طه) و(القصص) ذِكْر ﴿ءَاتِيكُم﴾ [طه: 10] [القصص: 29] مرَّةً واحدةً، وتكرَّر الفعل في سورة (النّمل)، فقال: ﴿إِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهۡلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا سَـَٔاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ ءَاتِيكُم بِشِهَابٖ قَبَسٖ لَّعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ﴾، ومناسبتُه أنَّه لمّا اقترن الفعل الأوَّل بالسّين الدّالّة على تأكيد الفعل؛ ناسبه تكرارُ الفعلِ المُفيدِ تقوية تأكيدِ عزمِه على الإتيانِ بأحدِ الأمريْن أو بكليهما، ووجّهه الغرناطيّ توجيهًا آخر فقال: "وأمّا تكرار: ﴿أَوۡ ءَاتِيكُم﴾ في سورة النّمل فليس فيه إلّا تكرار ما يُحرزُ التأكيدَ، وتأكيدُ ما هو خبرٌ ليس أمرًا ولا نهيًا إنّما ثمرته وفائدته صدق الإخبار، وذلك حاصل هنا سواء تأكّد أو لم يتأكّد، وإذا كان الكلامُ على ما قلنا والصِّدقُ حاصلٌ على كلِّ حالٍ فلا يُنكر إذا حكي بمعناه، أو يؤكَّدُ مرَّةً ولا

(1) الكرمانيّ، أسرار التّكرار، ص: 174.

يُؤَكَّدُ أخرى، إذ لا زيادة للتّأكيد فيه سوى الجري على مرتكبات العرب في مثله"[1].

القَبَسُ والجذوةُ والشِّهابُ كلّها من النّارِ

جاء في سورة (طه) قوله تعالى: ﴿ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ﴾ [طه: 10]، وفي (القَصَص): ﴿ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ ٢٩﴾ [القصص: 29]، وفي (النَّمل): ﴿سَـَٔاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ ءَاتِيكُم بِشِهَابٖ قَبَسٖ لَّعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ﴾؛ فذكر القَبَس في سورة (طه) والجذوة في (القصص) والشّهاب من نارٍ في (النّمل)، وكلّها شيءٌ واحدٌ، فالجذوةُ من النّار خشبةٌ في رَأسِها قبسٌ لَها شهابٌ، فهيَ في السّورِ الثّلاثِ عبارَةٌ عَن معنًى واحِد[2]، أو يُقال: القبس: النّار الّتي تكون في رأس العود على معنى أخذِها للانتفاع منها، سواءٌ أكانَ القبسُ جذوةً أو شهابًا، والجذوة: قطعةٌ غليظةٌ من الحطب فيها نارٌ لا لهب لها؛ أيْ: هي عودٌ قد احترقَ، فهي جمرةٌ مُلتهبةٌ من نارٍ[3]، سواءٌ أكانت صغيرةً أو كبيرةً، والشِّهابُ هو اللَّهبُ الّذي فيه إضاءةٌ، فالقبس قد يكون جذوةً في بدايتِه ويكون شهابًا بعد الجذوة، أو العكس بأن يكون شهابًا عندَ النّار، فإذا رجعَ إلى أهلِه ضعف الشّهابُ وصار جذوةً، فلا تعارض في التعبيرِ، وأيضًا ذَكَرَ الجذوةَ والشّهابَ مع الاصطلاء الّذي هو الاستدفاء لمناسبتِها له، وأمّا في سورة (طه) فقد ذَكَرَ اللفظَ الأعمَّ؛ لأنّه لم يذكر الاصطلاءَ، وإنَّما قَصَدَ مُطلقَ الانتفاعِ.

تنوُّعُ أسلوبيِ الإيجازِ والإطنابِ في السّورِ الثّلاثِ

تنوَّع الإخبارُ في بيانِ قصّةِ موسى ﷺ؛ فقال تعالى في سورة (طه): ﴿وَهَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ٩ إِذۡ رَءَا نَارٗا فَقَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى ١٠﴾ [طه: 9 - 10] وفي (النَّمل): ﴿إِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهۡلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا سَـَٔاتِيكُم مِّنۡهَا

(1) الغرناطيّ، مِلاك التّأويل: 2/ 334.
(2) الكرمانيّ، أسرار التّكرار، ص: 174.
(3) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 332، وأبو حيّان، تحفة الأريب، ص: 91، والجوهريّ، الصّحاح: (جذو).

بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾، وفي (القَصَص): ﴿۞فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًاۖ قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [القصص: 29]، فهَذِه الآياتُ تشْتَمل على ذِكْرِ رُؤْيَة موسَى النّار وأمرِه أهلَه بالمكث وإخبارِه إيّاهُم أَنه آنس نارًا، وإطماعِهم أَن يَأْتيهم بنارٍ يصطلون بها أَو بِخَبَرٍ يَهْتَدونَ به إلَى الطَّريق الّتي ضلّوا عَنْها، لكنّه نقص في (النَّمل) ذكرُ أمرِ أَهله بالمكث اكْتِفاءً بِما تقدّم، وزاد في (القَصَص) قَضاءُ موسَى الأَجَلَ المَضْروبَ وسيرُه بأَهْله إلى مصر؛ لأنَّ سورة (القصص) قد بُنِيت على الإطناب في ذِكْرِ قصَّة موسى منذ بدايتِها، قال تعالى: ﴿نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ﴾ [القصص: 3]، وتوجيهه عمومًا أنْ يُقالَ: إنَّ الشَّيْء قد يُجمَلُ ثمَّ يُفَصَّلُ، وقد يُفَصَّلُ ثمَّ يُجمَلُ، وفي سورة (طه) الّتي هي من أوائل سور القرآن فصَّلَ، وأَجمَلَ في (النَّمل)، ثمَّ فصَلَ في (القَصَص) وبالغ فيه لِما تقدَّم من بنائِها على قصَّةِ موسى عليه السلام[1].

معنى الفاءِ في قولِهِ: ﴿فَلَمَّا﴾:

الفاءُ عاطفةٌ، وقد تكون عاطِفةً على كلامٍ محذوفٍ تقديرُه: ترك أهلَه وذهبَ باتّجاه النّارِ فلمّا جاءَها.

دلالةُ (لمّا):

عُلِّقَ نداءُ موسى عليه السلام على مجيئِه

قد تخْتَصّ (لمّا) بالماضي فتقتضي جملتَيْن وُجِدَت ثانيتُهما عِند وجودِ أولاهُما نَحْو: لمّا جاءَني أكرمتُه، ويُقال فيها: حرفُ وُجودٍ لِوجودٍ، وبَعضهم يقول: حرفُ وجوبٍ لوُجوبٍ، وزعم جماعَةٌ أَنَّها ظرفٌ؛ بمعنى: حين[2].

(1) الكرمانيّ، أسرار التّكرار، ص: 174.
(2) ابن هشام، مُغني اللّبيب، ص: 368 - 371.

وعلى هذا فـ(لمّا) في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ﴾ ظرفيّةٌ حينيّةٌ، تقتضي معنى الشّرطِ؛ فعُلِّق النِّداءُ على المجيءِ.

عَودُ الضّمائرِ في ﴿جَآءَهَا﴾:

حصلَ النّداءُ عند مجيءِ موسى عليه السلام النّارَ

ضميرُ الفاعلِ في قولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا﴾ يعودُ إلى موسى عليه السلام، وضميرُ المفعولِ يعودُ إلى النّارِ على الأرجحِ، ولا عبرة برأيِ مَنْ يقولُ إنّه يعود إلى الشّجرةِ لعدم تقدُّم ذِكْرِها.

نكتةُ بناءِ ﴿نُودِىَ﴾ و﴿بُورِكَ﴾ لما لم يُسمَّ فاعلُهُ:

بناءُ الفعلِ لما لم يُسمّ فاعلُه يكونُ للإيجازِ وللدّعوةِ بالانشغالِ بذاتِ الفعلِ

بُني فعلُ النّداءِ لما لم يُسمّ فاعلُهُ للعلم به إيجازًا، فالمنادي هو اللّه سبحانه وتعالى، والمبارِك هو اللّهُ عزّ شأنُهُ، وفي بناء الفعلِ لما لم يُسمّ فاعلُه مراعاةٌ للاتّساق في بناءِ العبارةِ القرآنيّة ليتوافق المشهدان: مشهدُ الإيحاءِ إلى نبيّنا مُحمَّدٍ صلى الله عليه وسلم المُفتَتَح بالفِعْلِ المَبْنيّ للمفعول ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ﴾، ومشهدُ الإيحاء إلى موسى عليه السلام المُفتَتَح بعبارةِ ﴿نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ﴾.

وهناك فرقٌ في طبيعةِ الإيحاءِ ومستواه بين كليم اللّه موسى عليه السلام الّذي نودي لينتبه إلى الوحيِ الّذي سيُنزله اللّهُ تعالى عليه، والذي سعى بنفسِه باحثًا عن شيءٍ يهديه، وبين نبيّنا محمّدٍ صلى الله عليه وسلم واستعمالِ عبارة التَلَقّي في حقِّه، والتي تُشير إلى معنى التَّلقين والبثِّ في الرّوعِ ومنحِ نبيِّنا العلمَ اللّدُنّيَّ ووضعِه في فؤاده مباشرةً دونَ سعيٍ منه.

معنى ﴿أَنۢ﴾ في قولِه: ﴿أَنۢ بُورِكَ﴾:

تفسيرٌ للنّداءِ وبيانٌ للخطابِ ودعاءٌ بالبَرَكَةِ

في ﴿أَنۢ﴾ الّتي في قوله تعالى: ﴿أَنۢ بُورِكَ﴾ ثلاثةُ أوجهٍ، **أحدُها**: أنّها المُفَسِّرَةُ؛ لتقدُّم ما هو بمعنى القول؛ والمعنى: (ونودي أنْ يا موسى)، **والثّاني**: أنّها النّاصبةُ للمضارعِ، ولكنْ وُصلَتْ هنا بالماضي، وذلك على إسقاطِ الخافضِ؛ أيّ: نُودي موسى بأَنْ بورِك، **الثّالث**:

أنّها المُخفَّفةُ، واسمُها ضميرُ الشَّأنِ، و﴿بُورِكَ﴾ خبرُها، ولم يَحْتَجْ هنا إلى فاصلٍ؛ وهذا لا يتأتّى إلّا على القول بأنّه دعاءٌ لا خبرٌ[1].

المُرادُ بالاسم الموصول ﴿مَن﴾:

قُـرْبُ موسى من النّارِ كأنّه فيها

وُجِّه قولُه تعالى: ﴿مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ بأنّه موسى عليه السلام لِقُرْبِه منها، فإنَّهُ لَمّا حَلَّ في مَوْضِعِ النّورِ صارَ مُحيطًا به، فتلك الإحاطَةُ تُشْبِهُ إحاطَةَ الظَّرفِ بالمَظْروفِ، فعَبَّرَ عنه بـ﴿مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ وهو نَفْسُهُ ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ يعني: الملائكة الّذين وُكِّلَ إليهم إنارَةُ المكانِ وتَقْديسُه، وهذا أَقْرَبُ؛ لأَنَّ القَريبَ مِنَ الشَّيْءِ قد يُقالُ إِنَّهُ فيه[2].

نكتةُ التّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ وصلتِه:

الإتيانُ بالاسمِ الموصولِ للتّعظيمِ

تقدّم أنّ المُرادَ بـ: ﴿مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ هو موسى عليه السلام، والعُدولُ عن ذِكْرِه بضمير الخطاب كما هو مُقتضى الظّاهر، أو باسمه العلم إن أُريد العدول عن مُقتضى الظّاهر؛ لأنّ في معنى صلة الموصول إيناسًا له وتلطُّفًا، وكثيرٌ التَّلَطُّفُ بِذِكْر بعض ما التبس به المُتلطَّفُ به من أحواله؛ ففي الكلامِ بشارةٌ لموسى عليه السلام ببركَة النُّبوءَة، وهذا التّبريكُ تبريكُ ذواتٍ لا تبريكُ مكانٍ بدليلِ ذِكْر ﴿مَن﴾ الموصولة في الموضعيْن، وهو تبريكُ الاصطفاءِ الإلهيِّ بالكرامة[3]؛ وعلى هذا فإنّ غرض الإتيانِ بالاسم الموصول في هذيْن الموضعيْن هو التّعظيم.

معنى (أل) في ﴿ٱلنَّارِ﴾:

التّعريفُ في قوله تعالى: ﴿مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ للعهدِ الصّريحِ، فهي ذاتُ النّارِ الّتي جاءها موسى عليه السلام بعد أن رآها عن بُعدٍ في قوله: ﴿إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾.

(1) السَّمين، الدُّرُّ المَصون: 8/ 573.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 544، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 19/ 226.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 19/ 226.

معنى الواوِ في جملةِ الفاصلةِ ﴿وَسُبۡحَٰنَ﴾:

يجب تنزيه الله تعالى عن خَطَراتِ البالِ، وما لا يليقُ من الأحوالِ

يجوز أن تكون الواو في قوله: ﴿وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ عاطفةً، عطفت التّسبيحَ على ما نودي به موسى على صريح معناه إخبارًا بتنزيه اللّه تعالى عمّا لا يليق بإلهيَّتِه من أحوال المُحدَثات ليَعْلَم موسى أنّ النِّداء وحيٌ مِنَ اللّه تعالى، وأنّ اللّه مُنَزَّهٌ عمّا عسى أن يخطر بالبالِ أنّ جلالتَه في ذلك المكانِ.

ويجوزُ أن تكون الواو اعتراضيّةً، والجملةُ بعدها مُعترضةٌ لا محلّ لها من الإعرابِ، ويكون ﴿وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ مُستعمَلًا للتّعجيب مِن ذلك المَشْهَد وأنّه أمرٌ عظيمٌ من أمرِ اللّه تعالى وعنايتِه يقتضي تَذَكُّرَ تنزيهِه وتقديسِه[1].

في التّنزيه تحقيقٌ لأمرِ الله تعالى، وتثبيتٌ لموسى عليه السلام

لمّا أتى موسى النّداءُ من جميع الجهات، فسمعه بجميع الحواسّ، أُمر بالتّنزيه، تحقيقًا لأمرٍ من أمره سبحانه، وتثبيتًا له بقوله: ﴿وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ﴾؛ أيْ: ونَزِّه المَلِك الّذي له الكمالُ المُطلَقُ تنزيهًا يليقُ بجلالِه[2].

نكتةُ حذفِ مُتعلّقِ التّسبيحِ:

حذفُ مُتعلّقِ التّسبيحِ للعمومِ

في حَذْفِ مُتَعَلّقِ التّنزيه في قوله تعالى: ﴿وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ إيذانٌ بالعموم المناسِب لمصدر التّنزيه وهو عمومُ الأشياءِ الّتي لا يليق إثباتُها لِله تعالى وإنّما يُعلم تفصيلُها بالأدِلَّة العقليَّة والشَّرعيَّة؛ فالمعنى: ونَزِّه اللّهَ تَنْزيهًا عن كُلِّ ما لا يليق به، ومِن أَوَّل تلك الأشياء تنزيهُهُ عن أن يكون حالًّا في ذلك المكانِ[3].

دلالةُ التّعبيرِ بالمصدرِ ﴿وَسُبۡحَٰنَ﴾:

المبالغةُ في التّنزيهِ

﴿وَسُبۡحَٰنَ﴾: اسمُ مصدرٍ أو مصدرٌ، وهو من الأسماءِ اللّازمةِ

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 19/ 227.

(2) البقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرر: 14/ 132 - 133.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 19/ 227.

للإضافة[1]، والتّعبيرُ بالمصدرِ ﴿وَسُبۡحَٰنَ﴾ في قوله: ﴿وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ للمبالغةِ في التّنزيه والتّقديسِ.

نكتةُ وصفِ لفظِ الجلالةِ بأنّه ربُّ العالمين:

اللهُ تعالى مُنزَّهٌ، لا يُشبه شأنُه شؤونَهم

إرْدافُ اسم الجَلالة ﴿ٱللَّهِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ بوصْف ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ فيه معنى التَّعليل للتّنزيه عن شؤونِ المُحْدَثات؛ لِأَنَّهُ رَبُّ العالَمِينَ فلا يُشْبِهُ شَأْنُه تَعالَى شؤونَهم[2].

استحقاقُ الله التّنزيهَ لِجَمعِهِ صفاتِ الكمالِ، ولجميلِ أفعالِه بِكُلِّ مخلوقٍ

ولمّا كان تعليقُ ذلك باسمِه الأعظم ﴿ٱللَّهِ﴾ دالًّا على أنّه يستحقُّ ذلك لمجرّدِ ذاته المُستجمِع لجميعِ صفاتِ الكمالِ، من الجلالِ والجمالِ، وصَفَهُ بما يُعرف أنّه يستحقّهُ أيضًا لأفعاله بكلّ مخلوق الّتي منها ما يريد أن يُربّي به موسى ﷺ كبيرًا بعد ما ربّاه به صغيرًا، فقال: ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾"[3].

نكتةُ فصلِ قولِه تعالى: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ﴾:

في النّداءِ باسمِ موسى الصّريحِ تعظيمٌ له وإتمامٌ لبيانِ ما خوطِبَ به في النّارِ

الجملة في قوله تعالى: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ إنشائيّةٌ ندائيّةٌ، وقد سبقها جُمَلٌ خبريّة، والأصل عَدَم العطفِ بين الجُمَل الخبريّة والإنشائيّة إلّا إذا آلتْ إحداهما إلى معنى الأخرى، فبينهما هنا كمال انقطاع، ويمكن على معنًى آخر أنْ يكون تَرْكُ العطف بينهما لكمال الاتّصال؛ لأنّ الجملةَ داخلةٌ في حيّز النّداء السّابق ﴿نُودِيَ﴾؛ فإنّه لمّا تشوّفتِ النَّفسُ إلى تحقُّق الأمر تصريحًا، قال مُعظِّمًا له تمهيدًا لما أراد سبحانه إظهاره على يده من المعجزات الباهرات: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ﴾[4].

دلالةُ نداءِ موسى ﷺ:

النّداءُ من الله تعالى تشريفٌ وطمأنةٌ لا ينالُها إلّا خُلّصُ أوليائِه

ونداءُ اللّه تعالى لنبيّه بحرفِ النّداءِ المستعملِ للبعيدِ في قوله

(1) السّمين، الدُّرُّ المَصون: 1/ 265.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 227.
(3) البقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرر: 14/ 133.
(4) البقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرر: 14/ 133.

تعالى: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾ لِعُلوِّ منزلةِ المنادي وهو الله سبحانه وتعالى، ولإنزالِ المُنادَى منزلةَ مَن يحتاجُ إلى تنبيهٍ لِما سيتلوه من خطابٍ وإيحاءٍ وتكليفٍ، ولطمأنَة موسى عليه السلام، وإزالة الخوفِ والوجلِ من قلبِه، لا سيّما أنّه النّداءُ الأوّلُ له.

بلاغةُ تتابعِ المؤكّداتِ:

تتابعتِ المؤكِّداتُ لـزيـادةِ طمأنةِ موسى عليه السلام

حَوَتِ الجملةُ ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ عددًا من المُؤكّداتِ، منها: (إنّ)، والجملةُ الاسميّةُ، ومجيء الخبرِ جملةً اسميّةً، وتكرار ذِكْرِ المُسنَد إليه، وتعريف طرفي الإسناد في قوله: ﴿أَنَا ٱللَّهُ﴾ الّذي يُفيد القصرَ الحقيقيَّ، وكلّ ذلك للإشعار بالشأن العظيم الجليل الّذي لا يُبلغُ وصفه، ولا يُدرك كُنهه، وتقصر عنه الأوهامُ، وتتضاءل دونه نوافذُ الأفهام[1].

نكتةُ تذييلِ الآيةِ بهذيْنِ الاسميْنِ الجليليْنِ:

اللهُ سبحانه لا يُغالب، وتقتضي حكمتُه اختيارَ مَن يشاءُ زمانًا ومكانًا

ذُيّلت الآيةُ الكريمة ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ بهذيْن الاسميْن الجليليْن ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ لمناسبتهما سياقَ الموقف، فالعزيز هو الّذي لا يُمانَع ولا يُغالَب، وهو الّذي يختار رُسله ويُؤيّدهم بالمعجزاتِ، والحكيم؛ لأنّ حكمته اقتضت اختيار موسى عليه السلام لهذه المهمّة في هذا الوقت وهذا المكان لتلكم الجهة.

ثمّ انظر إلى اختيار هذيْن الاسميْن وتناسبهما مع مقام ثقل التّكليفِ؛ فإنّ فرعون حاكمٌ مُتَجبِّرٌ يرتدي رداءَ العِزَّة، ألا ترى كيف أَقْسَمَ السَّحَرةُ بِعِزَّته قائلين: ﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ٤٤﴾ [الشّعراء: 44]، فاختار من بين أسمائه ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ مُعَرَّفًا بالألف واللّام للدَّلالة على أنّه هو العزيزُ ولا عزيزَ سواه، و﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ للدّلالة على أنّه لا حاكمَ ولا ذا حكمةٍ سواه، فهو المتّصفُ بهذيْن الوصفيْن على

(1) البقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرر: 14/ 133.

جهة الكمال حصرًا، وفي تعريف هذيْن الاسميْن بالألفِ واللّامِ من الدّلالةِ على الكمالِ والحصرِ ما لا يخفى.

نكتةُ تقديمِ ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ على ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ في كلِّ المواضعِ:

العـزّةُ صفةُ ذاتٍ، والحكمةُ صفةُ فعلٍ

في كلّ المواضعِ الّتي اقترن فيها هذانِ الاسمان ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ في فواصل الآيات القرآنيّة كان اسمُ اللّه (العزيز) يتقدّم على (الحكيم)، وربّما كان ذلك لأنّ العزّة صفةُ ذاتٍ، والحكمةَ صفةُ فعلٍ، وربّما كان ذلك لأنّ العِزّةَ إذا لم تقترن بالحكمةِ كانت قاهرةً ولا يردّها شيءٌ، فقدَّمت الآيةُ هنا العزّةَ؛ لأنّ مشاهدةَ هذه الآياتِ وطبيعة هذا التّكليفِ اقتضت ذلك، ثمّ أتبعها بالحكمةِ؛ لأنّه من لوازمها.

فائدةُ المبالغةِ في الأبنيةِ الصّرفيّةِ:

في قوله تعالى: ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ جاءت الصّفتان الكريمتان على بناء (فعيل) الّذي يقتضي المبالغةَ، وهذا يعني أنّ عزّته فاقت كلَّ عزّةٍ، وحكمته تجاوزت كلَّ حكمةٍ.

بلاغةُ المتُشابِهِ اللّفظيِّ في نداءِ الله تعالى لموسى عليه السلام:

تـختـصُّ كـلُّ سورةٍ بألفاظِها وتـراكـيـبـهـا في عـرضِ المشهدِ القصصيِّ الواحدِ

نادى اللّه تعالى موسى عليه السلام في سورة (طه) بقوله: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ١٤﴾ [طه: 14]، وفي سورة (القصص): ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٠﴾ [القصص: 30]، وهنا قال: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾، والحقيقة أنّه لا تعارض بينها، وإنّما قدَّمت كلُّ سورةٍ منها تفصيلًا يتّفق ومحورَها الّذي جاءت فيه، وكانت سورة (النّمل) أكثرها إيجازًا؛ لأنّها تناولت جانبًا من قصّة موسى عليه السلام من أجل تحقيق محورها في بيان أثر القرآن الكريم في تحقيق الشّهود الحضاريّ؛ فقال في (النّمل): ﴿إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾، وجاء بضميرِ الشّأنِ الدّالّ على

التّعظيم: ﴿إِنَّهُۥٓ أَنَا﴾، ولم يأت به في (القصص)، ثمّ جاء باسميْه الكريميْن: ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ في (النّمل) زيادةً في التّعظيم.

ثمّ انظر كيف أنّه لمّا قال: ﴿أَنَا ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ لم يذكرْ أنّ موسى سألَ ربَّه أن يُعزِّزه ويُقوّيَه بأخيه، ولمّا لم يَقُلْ ذلك؛ ذَكَرَ أنّه سألَ ربَّه أن يكون له رِدْءًا يُصدِّقه ويُقوّيه وهو أخوه هارون، وقد تقول: ولكنّه قال في (القصص): ﴿إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٠﴾ [القصص: 30]؛ وفي ذلك من التّعظيم ما لا يخفى، ونقول: وقد قال ذلك أيضا في (النّمل)، فقد قال: ﴿وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، وزاد عليه: ﴿إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾؛ فاتّضح الفرقُ بين المَقاميْن، في حين كان الكلامُ في سورة (طه) بصورةِ الخطابِ؛ فناسبَ أن يقول له في (طه): ﴿أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ [طه: 12]، بخلاف ما في (النّمل) و(القصص)، وقال في (النّمل): ﴿وَأَلۡقِ عَصَاكَۚ﴾، وقال في (القصص): ﴿وَأَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَۚ﴾ [القصص: 31] حيث مَبْنَى عَرْضِ القصّةِ في (القصص) مبنيٌّ على التّفصيلِ[1].

الفُروقُ المُعْجَميَّة:

الإيناس والرُّؤية:

الإيناسُ رؤيةُ الشّيءِ بلا شُبهةٍ، والرُّؤيةُ إبصارُ الشّيءِ بالعينِ

الإيناسُ هو رؤيةُ الشيءِ من بعيدٍ رؤيةً واضحةً بَيِّنَةً لا شبهة فيها، وزاد الواحديُّ وغيرُه أنَّ في الإيناس معنى السّكنِ إلى المَرئيِّ والاستئناسِ به[2]، فلا يُؤتى بلفظ الإيناسِ إلّا إذا أرادَ المتكلِّمُ تأكيدَ خبرِ الرُّؤيةِ للشّيءِ مع الاستئناسِ به والسّكنِ إليه، وأمّا الرؤيةُ فهي إبصارُ الشّيءِ بالعينِ وقد تُستعمل بمعنى رؤية القلبِ لتكون بمعنى العِلْم، كما تُستعمل الرُّؤية بمعنى الظّنِّ مجازًا[3]؛ ومن هنا ناسب

(1) السّامرّائيّ، لمسات بيانيّة، ص: 85 - 86.
(2) الواحديّ، التّفسير البسيط: 14/ 363، والكرمانيّ، لباب التّفاسير، ص: 1396.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 94.

الإيناسُ سياقَ الآيةِ لكون ما أبصرَه بوضوحٍ نارًا قصَدَها إيناسًا بها، وطلبًا لنفعها.

الأهل والأصحاب والآل:

من خلالِ ما ذكرتْه مُعجماتُ اللّغةِ وكتبُ المصطلحاتِ، وكتبُ الفروقِ اللُّغويَّة[1]، يمكن استخلاصُ جملةٍ من الفروقِ اللُّغويّةِ بين هذه الألفاظِ على النَّحو الآتي:

الصُّحبةُ هي العلاقةُ الأعمُّ، ثمّ الأهلُ، ثمّ الآلُ

تلتقي هذه الألفاظ في دلالتها على علاقة تربط بين طرفيْن، وتختلف في سبب هذه العلاقة ودرجتِها، فكلمة (أهل) في أصلِ وضعِها للدَّلالة على عائلةِ الرَّجُلِ المقيمين معه في مسكنٍ واحدٍ؛ أيْ: إنَّ سبب العلاقةِ هو رابطةُ الزَّواجِ، ثمّ توسَّع المعنى ليشملَ كلَّ من يجتمعون معًا بسببٍ واحدٍ قويٍّ بقوّةِ سببِ الزَّواجِ، وبصورة الاجتماع معًا في مسكنٍ واحدٍ.

أمّا كلمة (آل) - مع اختلافِ الأقوالِ في أصلها - فتُستعملُ للدّلالةِ على معنى الاختصاصِ الشّديدِ؛ بالقرابةِ والاتّباعِ، وهذا المعنى تؤكّده الاستعمالاتُ الحسّيّةُ للكلمةِ.

وتُستعمل كلمة (أصحاب) للدّلالةِ على علاقةِ المُلازمةِ، والاقترانِ النّاتجِ عن الملازمةِ الطويلةِ، ويمكن من خلالِ الاستعمالاتِ المادّيّةِ لهذا اللّفظِ تَصوّرُ معنى الملازمةِ بالالتصاقِ المادّيِّ.

ومع هذا الاختلافِ بين الألفاظِ الثلاثةِ في سببِ العلاقةِ، وما يتبعها من اختلافٍ في دلالتِها على درجةِ القرابةِ واختصاصِ العلاقةِ؛ إلّا أنّه يمكن ملاحظةُ علاقةِ عموم وخصوص بين هذه الألفاظِ؛ فالصّحبةُ هي العلاقةُ الأعمُّ؛ لأنّها تشملُ كلَّ مُلازمة ممتدّة مُدّةً من الزَّمن، ثمّ الأهل؛ فهي علاقةُ ملازمةٍ ولكن لِسَبَبٍ مُحَدَّدٍ،

(1) الرّاغب، المُفرَدات، والسَّمين، عمدة الحفّاظ، والجرجانيّ، التّعريفات، والعسكريّ، الفروق في اللّغة: (أهل - آل).

وفي ظرفٍ مكانيٍّ مُحَدَّدٍ أو ما شابهه من مَعانٍ مَجازيَّة، ثمّ (الآل) فهي تدلّ على الأكثر ملازمةً والأشدّ اختصاصًا، وفي الاستعمالِ اللّغويّ لكلمتَي (أهل) و(أصحاب)، أُضيفتا للعاقِلين وغير العاقِلين للحقائقِ المادّيّةِ وللمعاني، أمّا (أل) فلا تُضاف إلّا للعاقلين.

المجيء والإِتْيان:

المَـجـيءُ إتْـيـانٌ مُحَقَّقٌ

الإتيانُ مَجيءٌ بِسهولَةٍ، وهو بدايةُ المجيءِ[1]، فإذا اكتمل وبلغ مقْصدَهُ من مكانٍ أو زمانٍ أو شخصٍ؛ أَصْبَحَ مَجيئًا؛ فالمجيءُ هو إتْيانٌ مُحَقَّقٌ بَعيدٌ عن عوامل النَّقصِ، قالَ تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ﴾ [الأعراف: 129]، فالإتيانُ بدايةُ المجيءِ زمانيًّا أو مكانيًّا، وقد لا يتمُّ فلا يكون مجيئًا، أَمّا المجيءُ فهو إتْيانٌ مُحَقَّقٌ قَريبٌ زَمانيًّا ومَكانيًّا[2]، أمّا في باب الأسماء والصّفات فمَن تَكلَّمَ عن صِفَةِ المَجيءِ والإتيانِ مِن مُحقِّقي أَهْلِ السُّنَّةِ[3] يَجْعَلُهما بِمَعنًى واحدٍ ويَستَدِلُّ لَهما بالأدلّة نَفْسِها دون تفريقٍ؛ فالفرق السّابقُ غَيرُ واردٍ في باب الصّفات؛ فقوله تعالى: ﴿أَوۡ يَأۡتِيَ رَبُّكَ﴾ [الأنعام: 158] كقوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر: 22]، ولمّا كان مجيءُ موسى عليه السلام مُحقّقًا وقَع في زمانٍ ومكانٍ مُحَدَّدَيْنِ؛ ناسب اختيارُ فعل المجيء بوصفه إتْيانًا مُحَقَّقًا بَعيدًا عَنْ عَوامِلِ النَّقْصِ.

(1) الرّاغب، المُفرَدات، ص: 283.

(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: 1/ 264.

(3) ابن تيمية، مجموع الفتاوى: 5/ 458، وابن القيم، الصواعق المرسلة: 3/ 1099.

﴿وَأَلْقِ عَصَاكَۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنّٞ وَلَّىٰ مُدْبِرٗا وَلَمْ يُعَقِّبْۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝١٠ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنَۢا بَعْدَ سُوٓءٖ فَإِنِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝١١ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٖۖ فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمٗا فَٰسِقِينَ ۝١٢ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةٗ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٞ مُّبِينٞ ۝١٣﴾ [النمل: 10 - 13]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

تولّت سورةُ النَّملِ جانبًا من قصّةِ موسى يتعلّقُ بتكليفِه بالنّبوّةِ وتأييدِه بالمعجزاتِ

هذا المشهدُ القصصيُّ معطوفٌ على المشهدِ السّابقِ، فهو من عطفِ مشاهدِ القصّةِ على بعضِها؛ إذ أمر اللّه تعالى موسى ﷺ هنا أن يُلقي عصاه لتتحوَّل بعد ذلك إلى ثُعبانٍ مُخيفٍ، فخاف موسى ﷺ وولّى مُدبِرًا، ثمّ ناداه رَبُّه وطَمأَنه وكَلَّفَه بالرّسالةِ وبالوجهةِ الّتي سيذهب إليها، وبيّن له آياتِ التّأييدِ التّسعَ الّتي سيواجههم بها.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿جَآنّٞ﴾: (جنن) أَصلٌ واحِدٌ، وهو السَّتْرُ؛ فالجَنَّةُ ما يَصيرُ إليه المسلمون في الآخرة، وهو ثَوابٌ مَسْتورٌ عنهم اليوم، والجَنَّةُ: البُسْتانُ، وهو ذاك لأنَّ الشَّجَرَ بورَقِه يَسْتُرُ، والجَنينُ: الوَلَدُ في بَطْنِ أُمِّه، والجَنينُ: المَقْبورُ، والجَنانُ: القَلْبُ، والمِجَنُّ: التُّرْسُ، وكُلُّ ما استُتِرَ به مِنَ السِّلاحِ فهو جُنَّةٌ، والمَجَنَّةُ: الجُنونُ، والحَيَّةُ الّذي يُسَمَّى الجانَّ هو تَشْبيهٌ له بالواحِدِ مِن الجانِّ، وسُمّي الجِنُّ بذلك لأَنَّهُم مُتَسَتِّرون عن أَعْيُنِ الخَلْقِ، قالَ اللّه تَعالَى: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْۗ﴾ [الأعراف: 27][1]، وقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهَا جَآنّٞ﴾؛ أيْ: كأنّها ذَكَرُ الحيّاتِ سريعُ الحرَكة.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المُفرَدات: (جنّ).

2) ﴿مُدۡبِرٗا﴾: (دبر) أَصلٌ يَدُلُّ على آخِرِ الشَّيْءِ وخَلْفِه خِلاف قُبُلِه، فمُعْظَمُ الباب أَنَّ الدُّبُرَ خِلافُ القُبُلِ، والدَّبيرُ: ما أَدْبَرَتْ به المرأَةُ من غَزْلِها حين تَفْتِلُهُ، والدَّبيرُ: ما أَدْبَرَتَ به عن صَدْرِك، ودَبَرَ النَّهارُ وأَدْبَرَ، وذلك إذا جاءَ آخِرُهُ، وهو دُبُرُه[1]. ووَلَّى دُبُرَه؛ أَيْ: جَعَلَ دُبُرَه وظَهْرَه إلى ما ينبغي أن يواجِهه، قال تعالى: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ دُبُرَهُۥٓ﴾ [الأنفال: 16]؛ أَيْ: يفِرُّ فيكون ظهرُه للعَدوِّ[2]، وقوله: ﴿وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا﴾؛ أَيْ: ذهب هاربًا.

3) ﴿يُعَقِّبۡۚ﴾: (عقب) أصلٌ يَدُلّ على تأخير شيءٍ وإتيانه بعد غيره، والعَقِبُ: مُؤَخَّرُ القَدَم، وتُجمعُ على أعقابٍ، وعَقِبُ الرَّجُل: وَلَدُه وولدُ وَلَدِه الباقونَ من بَعْدِه، وقَوْلُهم: لا عَقِبَ له؛ أَيْ: لم يبق له ولدٌ ذَكَرٌ، وتقول: وَلَّى فلانٌ على عَقِبه وعَقِبَيه؛ أَيْ: أَخَذَ في وجْهٍ، ثم انثَنَى راجعًا، والتَّعْقيبُ: انصرافك راجعًا من أمرٍ أَرَدْتَه أو وجْهٍ، والمُعَقِّبُ: الّذي يتتبع عَقِبَ إنسانٍ في طلب حَقٍّ أو نحوه، وكُلُّ شيءٍ يُعْقِبُ شيئًا فهو عَقيبُه؛ كقولك: خَلَفَ يَخْلُفُ بمنزلةِ اللَّيْلِ والنَّهارِ إذا قضى أحدُهُما عَقِبَ الآخر؛ فهما عقيبان كلُّ واحدٍ منهما عَقيبُ صاحبه[3]، وقوله تعالى: ﴿وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ﴾؛ أَيْ: لم يلتفت وراءه[4].

4) ﴿جَيۡبِكَ﴾: (جوب) أو (جيب) أَصْلٌ يَدُلُّ على قَطْعِ وسط الشّيء المُجتمِع الصّلب أو الشّديد قطعًا مستديرًا مع بقاء جوانبه ملتحمة، فجَيْبُ القَميص أو الدّرع: منفذ الرأس منه، يُقالُ: جِبْتُ القَميصَ: قَوَّرْتَ جَيْبَهُ، وجَيَّبْتُهُ: جَعَلْتَ لَهُ جَيْبًا[5]، وقوله تعالى: ﴿فِي جَيۡبِكَ﴾؛ أَيْ: في فُتحة قميصك المفتوحةِ إلى الصَّدْر.

5) ﴿مُبۡصِرَةٗ﴾: (بصر) أصلٌ يَدُلُّ على العِلم بالشّيْء؛ يُقالُ: هوَ بَصيرٌ بِه، ومِن هَذه البَصيرَةُ وهي: البُرْهانُ والقِطْعَةُ مِن الدَّم إذا وقَعَتْ بالأَرْض استَدارَتْ، والبَصيرَةُ: التُّرْسُ، وأَصْلُ ذلك كُلِّه وُضوحُ الشَّيْءِ، ويُقالُ: رَأَيْتُهُ لَمحًا باصِرًا؛ أَيْ: ناظِرًا بِتَحْديقٍ شَديدٍ، ويُقالُ: بَصُرْتُ بِالشَّيْءِ: إذا صِرْتَ به بَصيرًا عالِمًا، وأَبْصَرْتُه: إذا رَأَيْتَهُ[6]، وقال

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (دبر).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (دبر).
(3) الفراهيديّ، العين: (عقب).
(4) الرّاغب، المُفرَدات: (عقب).
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (جيب) والسَّمين، عُمدة الحُفّاظ: 1/ 361.
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (بصر).

ﷻ: ﴿وَجَعَلۡنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبۡصِرَةٗ﴾ [الإسراء: 12]؛ أيْ: مُضيئةً للأبصار، وكذلك قوله ﷻ: ﴿وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةٗ﴾ [الإسراء: 59]، وقيل: معناه: صار أهلُهُ بُصَراءَ[1]، وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَٰتُنَا مُبۡصِرَةٗ﴾؛ أيْ: مُضيئةً تَدُلّ على الحقِّ ويُبصِر بها كما تُبصِرُ الأبصارُ بالشّمسِ.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

ذِكْرُ الآياتِ الّتي أيّدَ اللهُ تعالى بها موسى عليه السلام

أي: وألقِ عصاك؛ فألقاها فصارت حَيّةً، فلمّا رآها تتحرّك في خِفَّةٍ تَحَرُّكَ الحيّةِ السَّريعة ولَّى هاربًا ولم يرجع إليها، فطمأنه اللّه بقوله: يا موسى لا تَخَفْ، إنّي لا يخاف لديَّ مَن أرسلتُهم برسالتي، لكن مَن تجاوزَ الحدَّ بذنبٍ، ثمّ تابَ فبدَّل حُسْنَ التّوبة بعد قبحِ الذَّنبِ، فإنّي غفورٌ له رحيمٌ به، فلا ييأس أحدٌ من رحمة اللّه ومغفرته، وأدخلْ يدكَ في فتحةِ قميصِك المفتوحةِ إلى الصَّدرِ تخرجْ بيضاءَ كالثّلجِ من غير بَرَصٍ في جملةِ تسعِ معجزاتٍ؛ لتأييدك في رسالتك إلى فرعون وقومه، إنّهم كانوا قومًا خارجين عن أمر اللّه كافرين به، فلمّا جاءتهم هذه المعجزاتُ ظاهرةً بيِّنةً يبصر بها مَن نظر إليها حقيقةَ ما دلّت عليه، قالوا: هذا سحرٌ واضحٌ بيِّنٌ[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواو في قولِه: ﴿وَأَلۡقِ عَصَاكَۚ﴾:

العَطْفُ للتّغايُرِ والتّشريك

الواو في قولِه تعالى: ﴿وَأَلۡقِ عَصَاكَۚ﴾ عاطفةٌ، عطفت ما بعدها على قولِه: ﴿أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾، والمعنى: (نودي أن بورك مَن في النّار، وأنْ ألقِ عصاك)؛ كلاهما تفسير لنودي؛ أيْ: قيل له: (بورك مَن في النّار)، وقيل له: (ألقِ عصاكَ)، وإنّما احتيج إلى تقديرٍ حتّى يتناسقَ عطفُ الإنشاء على الخبر؛ والدّليل على ذلك قوله تعالى:

---

(1) الرّاغب، المُفرَدات: (بصر).

(2) مجموعة من المؤلّفين، التّفسير الميسّر: 1/ 377 - 378.

﴿وَأَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَۚ﴾ بعد قوله: ﴿أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾ [القَصَص: 30] على تكريرِ حرفِ التَّفسيرِ، كما تقول: كتبتُ إليك أن حُجَّ وأن اعتَمِرۡ، وإن شئت أن حُجّ واعتمِرۡ[1].

ويجوز أنۡ تكون الجملةُ معطوفةً على قوله: ﴿إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ عند مَن يُجَوِّز عطف الإنشاء على الخبر مُطلقًا دون تقديرٍ[2].

دلالةُ الأمرِ في ﴿وَأَلۡقِ﴾:

الأمۡرُ الإلهيُّ واجبُ التَّنفيذِ

الأصل في الأمر أنّه يُفيد الوجوبَ لا سيّما إنۡ كان على جهةِ الاستعلاء، وأفاد الأمر في قوله تعالى: ﴿وَأَلۡقِ عَصَاكَۚ﴾ وجوبَ إلقاءِ موسى العصا، وقد امتثل عليه السلام لِما أُمر به، ليعلمَ علمًا شهوديًّا عزّتَه تعالى، وحكمتَه[3].

نكتةُ إضافةِ (العصا) إلى الضّميرِ المتعلّقِ بموسى عليه السلام:

العصا لموسى عليه السلام وإضافتُها إليه تطمينٌ له

إضافة العصا إلى موسى عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَأَلۡقِ عَصَاكَۚ﴾ هي لطمأنة موسى وإزالة الرّهب عنه، فضلًا عن كونها إضافةَ تخصيصٍ أو تمليكٍ، فالعصا له وليست لغيره، ولكنّه لمّا كان مُحتاجًا إلى التَّسريةِ والإحساسِ بالأمنِ قال له: ﴿وَأَلۡقِ عَصَاكَۚ﴾ دون قوله: (ألقِ العصا) أو (ألقِها).

معنى الفاءِ و(لمّا) في قولِه: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ﴾:

العطفُ مع الإفصاحِ عن محذوفٍ

الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ﴾ فصيحةٌ تُفصِح عن جملةٍ قد حُذفت ثقةً بظهورها ودلالةً على سرعةِ وقوعِ مضمونِها، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَيۡنَهُۥٓ أَكۡبَرۡنَهُۥ﴾ [يوسف: 31] بعد قوله تعالى: ﴿ٱخۡرُجۡ عَلَيۡهِنَّۖ﴾ [يوسف: 31] كأنّه قيل: فألقاها فصارت في الحال - بما أذنت به الفاء - حَيَّةً تسعى فأبصرَها، فلمّا أبصرها

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 350.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 213.
(3) البقاعيُّ، نَظۡمُ الدُّرر: 14/ 134.

متحرِّكةً بسرعةٍ واضطرابٍ وخِفَّةٍ ولّى[1]، و(لمّا) ظرفيّة حينيّة فيها معنى الشّرط.

دلالةُ ﴿تَهۡتَزُّ﴾، وموقعُها النّحويّ:

هيئةُ اضطرابِ الحَيَّةِ وديمومةُ الاهتزازِ أدعى للرَّهبةِ منها

معنى ﴿تَهۡتَزُّ﴾؛ أيْ: تضطربُ في تحرُّكها[2]، وتُنبئ صيغةُ المضارع عن استمرار الاضطرابِ وديمومةِ الاهتزاز، وجملة ﴿تَهۡتَزُّ﴾ حاليَّةٌ مِنْ هاء ﴿رَءَاهَا﴾؛ لأنَّ الرُّؤية بَصَريَّةٌ[3]، والاهتزاز والاضطراب حالُها الدّائمُ الّذي تبدو عليه وذلك أدعى للخوفِ منها والرَّهبةِ.

بلاغةُ التّشبيه في قولِه: ﴿كَأَنَّهَا جَآنّٞ﴾:

شبّهُ حالَ اهتزازِ العصا المُنقلبةِ بالجانِّ

شُبّهتِ العصا في قولِه تعالى: ﴿كَأَنَّهَا جَآنّٞ﴾ بالجانِّ بأداةِ التّشبيه (كأنّ)، وهو تشبيهٌ مُرسَلٌ مُجمَلٌ، شَبَّهَ حالَ اهتزازِها وسرعةَ انقلابِها وتغيير أوصافها بالجانِّ؛ وهو صغير الحيّاتِ[4].

بلاغةُ المُتشابِه اللّفظيِّ في وصفِ العصا:

اختصّتْ كلُّ سورةٍ بأسلوبِها التّعبيريِّ تبعًا لمقصودِها

جاء وصفُها في سورة (الأعراف) و(الشُّعراء) بأنّها ثعبانٌ مبينٌ ﴿فَأَلۡقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعۡبَانٞ مُّبِينٞ ١٠٧﴾ [الأعراف: 107]، و[الشُّعراء: 32]، وجاء وصفها بأنّها حيّة في سورة طه: ﴿فَأَلۡقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٞ تَسۡعَىٰ ٢٠﴾ [طه: 20]، وهنا - في سورة النَّمل - جاء وصفها بأنّها جانٌّ، والحقّ أنّه لا تعارض حقيقيًّا بين هذه الأوصاف، وإنّما جاء كلّ وصفٍ مُتَّسقًا مع سياقه العامّ والخاصّ الّذي جاء فيه؛ فوصْفُها بالثّعبان المُبين جاء في سياقِ عرضِ هذه المعجزةِ أمام فرعون وسحرته، وكان القصد منها بيانَ ضخامتها وقوّة بأسِها وأنّها تلقف كلّ شيء أمامها، وأمّا وصفُها بأنّها حيَّةٌ؛ فقد جاء في معرض بيان سرعة حركتِها أمامه في سياقِ حديثِه عن عصاه؛ إذْ أطنب موسى عليه السلام في بيان مآثر هذه

(1) البقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرر: 14/ 134، وأبو السّعود العمادي، إرشاد العقل السّليم: 6/ 274.
(2) البقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرر: 14/ 134.
(3) السَّمين، الدُّرُّ المَصون: 8/ 577.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 213.

العصا واستعمالاتها لديه؛ فقال تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝١٧ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ۝١٨ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ۝١٩ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ۝٢٠ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ۝٢١﴾ [طه: 17 - 21] فهذه العصا الّتي كانت طوع إرادة موسى عليه السلام أصبحت في هذا المشهد وبقدرة الله تعالى شيئًا آخر لا قدرة لموسى عليه السلام عليه ألبتَّة، وأمّا وصفُها هنا بأنّها كالجآنّ فهو لبيان شدّةِ الخوفِ الّتي لحقت موسى عليه السلام لدى مشاهدتها لذلك ولّى مدبرًا ولم يُعقّب.

الموقعُ النَّحويُّ لقوله: ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا﴾:

الجملة ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا﴾ جوابُ شرطِ (لمّا) لا محلّ لها من الإعرابِ، دلالةً على سرعة تولّيه وفوريّة حصولِ الإدبارِ عند رؤيةِ اهتزازِ العصا، لغلبة خوفِه الجِبِلّيِّ على تأمّله العقليّ[1].

دلالةُ الإدبارِ وإعرابُهُ:

لشدّةِ إدبارِه وسرعةُ هربِه، وكأنّها حالٌ مُلازمةٌ له

المُرادُ بقولِه: ﴿مُدْبِرًا﴾؛ أيْ: هاربًا منها مُسرعًا جدًّا لقوله: ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾؛ أيْ: لم يرجع على عقبه[2]، فالإدْبارُ: التَّوَجُّهُ إلَى جِهَةِ الخَلْفِ وهوَ مُلازِمٌ لِلتَّوَلّي، فقَوْلُهُ: ﴿مُدْبِرًا﴾ حالٌ لازِمَةٌ لِفِعْلِ ولّى"[3]، فكأنّ الإدبار حالٌ مُلازمةٌ له لشدَّةِ هربِهِ، وإسراعِه فيه.

معنى الواو في: ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾:

لم يتردَّد موسى عليه السلام في تولّيه

يمكن أن تكون الواو في قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ عاطفةً على معنى أنّه فعل الأمرَيْن: التّولّي، وعدم الرّجوع، ويمكن أن تكون الواو حاليّة، والجملة بعدها حال مؤكّدة لتولّيه، فقَوْلُهُ: ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 171، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 19/ 228.
(2) البقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرر: 14/ 134.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 19/ 228.

تَأْكيدٌ لِشِدَّةِ تَوَلّيهِ؛ أيْ: ولَّى تَوَلّيًا قَويًّا لا تَرَدُّدَ فيهِ[1]، فلم يتردد في الجدّ في الهرب، ولم يلتفت إلى ما وراءَه بعد توليتِه[2].

نكتةُ فصلِ قولِه: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفۡ﴾:

الفصلُ لكمالِ الانقطاعِ أو للاستئنافِ البيانيِّ

لم يُعطف النّداء في قوله تعالى: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفۡ﴾ على قوله: ﴿وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ﴾ لاختلاف الخبر والإنشاء كما هو مُقرَّرٌ في علم المعاني، ولأنّ ما سبقها كان إخبارًا عن حالِ موسى ، وهنا نداءُ اللّٰه تعالى له، ويمكنُ حملُ الفصلِ على الاستئنافِ البيانيّ جوابًا عن سؤالٍ مُقدَّرٍ تشوّقت له النَّفس: فما فعلَ ربُّه معه لمّا ولّى مُدبرًا؟ فكان الجواب أنّه ناداه بأنْ لا يخاف.

نكتةُ ندائه بـ(يا) مع قُربِه منه:

نداءُ القريبِ ذي الشّأن بـ(يا) دليلُ عنايةٍ وعلوِّ منزلةٍ

إذا نودي بـ(يا) القريبُ المفاطنُ، فذلك للتّأكيد المُؤْذِن بأنّ الخطاب الّذي يتلوه مَعْنيٌّ به جدًّا[3]، ونداء اللّٰه تعالى لنبيّه بحرف النّداء المُستعمَل للبعيد في قوله تعالى: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفۡ﴾ لِعُلوِّ منزلةِ المُنادي وهو اللّٰه سبحانه وتعالى، ولإنزال المُنادَى منزلةَ مَن يحتاج إلى تنبيه لِما سيتلوه من خطابٍ وتَطْمينٍ.

دلالةُ النَّهيِ في قولِه: ﴿لَا تَخَفۡ﴾:

لا تستمرّ في خوفِك ولا تستسلم لنتائجِهِ

الأصلُ في النّهي أن يُفيد وجوبَ التَّركِ إذا كان على سبيلِ الاستعلاءِ ما لم تقم قرينةٌ صارفةٌ عن الوجوب إلى غرضٍ آخر، ولكن لمّا كان النّهي هنا مُنصبًّا على أمرٍ يتعلّق بمشاعر الإنسان وانفعالاته الدّاخليّة - وهي أمورٌ لا يمكن للإنسان أن يتحكّم بها - يُحمل النّهي على مُسبِّبات الخوفِ أو نتائجه، بحيث لا يترتّب عليه استمرار تولّيه، أو يُحمل على النّهي عن الاستمرار في الخوف؛ لأنّ خوفَه قد حصلَ[4].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 19/ 228.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 19/ 228.
(3) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 1/ 121.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 19/ 228.

نكتةُ فصلِ قولِه: ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾:

الفصلُ لكمالِ الاتّصالِ أو للاستئنافِ البيانيِّ

يمكنُ أن يكونَ الفصلُ في قولِه تعالى: ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ لكمالِ الاتّصالِ؛ لكونِ هذه الجملةِ في موضعِ التّعليلِ للنّهي، مُبَشِّرَةً بالأمنِ والرِّسالة[1]، ويمكن أن يكون سببُ تركِ العطف شِبْهَ كمال الاتّصالِ جوابًا عن سؤالٍ مُقدَّرٍ: (لماذا النّهي عن الخوف؟).

فائدةُ تتابعِ المؤكِّداتِ:

تزاحمتِ المؤكّداتُ من أجلِ التّسريةِ والتّخفيفِ عن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ

أُكّدت الجملةُ في قولِه تعالى: ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ بعدّةِ أساليب للتّوكيدِ، بـ(إنّ)، وبالجملةِ الاسميّةِ، وبذِكْرِ ضميرِ العَظَمَةِ، وبتقديم ﴿لَدَيَّ﴾، وبتعريف ﴿ٱلْمُرْسَلُونَ﴾؛ وذلك للتّسرية والتّخفيف عن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ من هولِ ما رآه، فالتّوكيدُ في أصلِه يُؤتى به للشّاكِّ أو المُتردِّد، أو لِمَنْ يُنَزَّل هذه المنزلةَ.

دلالةُ النَّفي بـ﴿لَا﴾، والتّعبير بالمضارعِ: ﴿لَا يَخَافُ﴾:

حقٌّ على مَن اصطفاه اللهُ بالرِّسالةِ أن يغلبَ الأمنُ خوفَه

﴿لَا﴾ تدخلُ على الفعلِ المضارعِ فلا تُقيِّده بزمنٍ على الأرجحِ، وقيل: تخلّصه للاستقبال، والحقُّ أنّ زمنَ المضارعِ المَنفيّ بها يتحدّد بالسّياق، فتنفيه في زمنِ الحاضرِ والمستقبلِ مع إفادةِ الاستمرار، كما هو المعنى في قوله تعالى: ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾، وحقٌّ على مَن ارتبط بربّه سبحانه بعلاقة النّبوّة والرّسالة أن يغلبَ الأمنُ عنده الخوفَ؛ "لأنّهم معصومون من الظّلم، ولا يخاف من المَلِكِ العَدْلِ إلّا ظالمٌ"[2].

نكتةُ حذفِ متعلّقِ الخوفِ:

في حذفِ المفعولِ أبلغُ التَّعميمِ

المُراد بالخوف في قوله تعالى: ﴿لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ﴾ في الموضعَيْن: الخوفُ من انقلاب العصا حيَّةً، وعن كلِّ خوفٍ يخافه كما في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَٱضْرِبْ لَهُمْ

---

(1) البقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرر: 14/ 135.
(2) البقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرر: 14/ 135.

﴿طَرِيقًا فِي ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ٧٧﴾ [طه: 77]، وحَذْفُ مُتَعَلِّق الخوفِ أبلغُ في تعميمِ جميعِ أنواعِ الخوفِ المتبادرِ إلى الذّهنِ.

معنى ﴿لَدَىَّ﴾ وغرضُ تقديمِها:

تنزيهُ اللهِ سبحانه وتعالى عن الحلولِ والأعراضِ

معنى لَدَيَّ؛ أيْ: في حَضْرَتي، فمعنى قوله تعالى: ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾؛ أيْ: حينَ تَلَقّي رِسالَتي، وليس المُراد هنا المكان(1)، وأفاد تقديمها التّخصيص على معنى أنّ الخوف مُنتفٍ عن الرُّسل في حضرةِ الألوهيّةِ دون غيرِها، ولا مانعَ من كونِ التّقديمِ مفيدًا لتعجيلِ المَسَرَّة.

معنى (أل) في ﴿ٱلْمُرْسَلُونَ﴾:

التّعريف في قوله تعالى: ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ للاستغراق؛ ليعمّ كلّ الرّسلِ بدليل وقوعِ الاستثناءِ بعده، لا سيّما عند مَن عدّ الاستثناء بعده استثناءً مُتّصلًا.

بلاغةُ الكنايةِ: ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾:

جملة ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ كِنايَةٌ عن تشريفِ موسى عليه السلام بمرتبةِ الرِّسالةِ إذ عُلِّلَ بأنَّ المُرسَلينَ لا يخافونَ لدى اللّه تعالى(2).

نوعُ الاستثناءِ في: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾:

مقصودُ الاستثناءِ تسكينُ خاطِرِ موسى وتبشيرُه بأنَّ الله غَفَرَ له ما كان فرَطَ منه

ذهبَ بعضُ أهلِ العلم إلى أنّ الاستثناءَ في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾ مُنقطعٌ، و﴿إِلَّا﴾ بمعنى (لكن)؛ لأنّه لمّا أطلقَ نفيَ الخوفِ عن الرُّسلِ، كان ذلك مَظَنّةً لطروّ الشّبهة؛ فاستدرك ذلك، والمعنى: (ولكن مَن ظلم منهم)؛ أيْ: فرَطَت منه صغيرةٌ ممّا يجوز على الأنبياء، كالّذي فرَط من آدم ويونس وداود وسليمان وإخوة يوسف، ومن موسى بوكزِه القبطيّ، ويوشك أن يقصد بهذا التّعريضَ بما

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 19/ 228.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 19/ 228.

وجد من موسى، وهو من التّعريضاتِ الّتي يلطف مأخذها، وسمّاه ظُلمًا، كما قال موسى: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي﴾ [القصص: 16][1].

وذهب بعضُهم إلى أنّه استثناءٌ مُتّصلٌ على أنّ الأنبياء عليهم السلام معصومون من الكبائر ومن الصّغائر الّتي هي رذائلُ، واختُلف فيما عدا هذا، وفي الآية على هذا التّأويل حذفٌ اقتضى الإيجازُ والفصاحةُ تركَ نَصِّه، تقديرُه: (فمَنْ ظلم ثُمَّ بَدَّلَ)[2]، والمقصودُ من هذا الاستثناءِ على هذا الوجه تسكينُ خاطرِ موسى وتبشيرُه بأنَّ اللّه غفر له ما كان فرَطَ فيه، وأنَّه قَبِلَ توبَتَه ممّا قاله يوم الاعتداء: ﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ۝١٥ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي﴾ [القَصَص: 15 - 16]، فأفرغ هذا التّطمينَ لموسى في قالَب العموم تعميمًا للفائدة.

وقد تحصَّل مِن الاحتِمالَيْن في معنى الاستثناءِ أنَّ الرُّسلَ في حضرةِ اللّه (أيْ: حين القيام بواجبات الرِّسالة) لا يخافون شيئًا من المخلوقاتِ؛ لأنَّ اللّه تعالى تكفَّل لهم السَّلامة، ولا يخافون الذُّنوب؛ لأنَّ اللّه تكَفَّلَ لهم العِصمةَ، ولا يخافون عقابًا على الذُّنوب؛ لأنَّهم لا يقربونها، وأنّ مَن عداهم إنْ ظَلَم نفسَه ثمّ بَدَّل حُسنًا بَعْدَ سوء أَمِنَ ممّا يخافُ من عقابِ الذّنوبِ؛ لأنَّه تداركَ ظلمَه بالتّوبةِ، وإنْ ظلم نفسه ولم يَتُبْ يَخَفْ عِقابَ الذَّنب، فإنْ لم يَظْلِم نَفْسَه فلا خوف عليه، فهذه معانٍ دَلَّ عليها الاستثناءُ باحتماليْه، وذلك إيجازٌ[3].

معنى ﴿مَن﴾ في قولِه: ﴿مَن ظَلَمَ﴾:

إفادةُ عمومِ مَنْ دخلَ في حيّزِ الصّلةِ

يمكن أن تكون ﴿مَن﴾ في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾: موصولةً، والأصلُ في الاسم الموصول أنّه مُبهم، وهو هنا مُفيدٌ لعمومِ مَنْ دخل في حيِّز الصِّلة، وجاءت جملة صلةِ الموصول بالفعل الماضي للدّلالةِ على

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 351.
(2) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 251.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 19/ 229 - 231.

وقوعِ الظُّلم في الزّمن الماضي وتبديله بعد ذلك بفعل الحُسْن، ويمكن أن تكون ﴿مَن﴾ شرطيّةً، وفعل الشّرط ﴿ظَلَمَ﴾ في محلِّ جزمٍ[1].

نكتةُ حذفِ مُتعلّقِ الظّلمِ:

حُذِف متعلّقُ الظّلم في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا﴾ للعموم؛ ليشملَ كلَّ أنواعه، سواءٌ أكان ظلمًا بين العبدِ وربّه، أو بينه وبين غيرِه، أو ظلمه لنفسه، وهذا من الإيجازِ البديعِ.

معنى ﴿ثُمَّ﴾ في قولِه: ﴿ثُمَّ بَدَّلَ﴾:

يأتي التّبديلُ متأخِّرًا زمنًا عن فعلِ السّوءِ

أفادتْ ﴿ثُمَّ﴾ في قوله: ﴿ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوٓءٍ﴾ التّراخي الرُّتْبيَّ والزّمنيَّ في آنٍ واحدٍ[2]؛ إذ إنّ التّبديل يأتي متأخِّرًا زمنًا عن فعلِ غير الحُسن، بدليلِ قوله: ﴿بَعْدَ﴾، فضلًا عن عُلوّ رُتبته عن فعلِ السّوءِ.

دلالةُ التّعبيرِ بلفظِ التّبديلِ:

يقتضي لفظُ التّبديلِ وجودَ مُبدَّلٍ ومُبَدَّلٍ منه

فِعْلُ ﴿بَدَّلَ﴾ يقتضي شيئَيْن: مأخوذًا، ومُعطًى، فيتعدَّى الفعلُ إلى الشَّيئَيْن تارةً بنفسه كقوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ﴾ [الفرقان: 70]، ويتعدّى تارةً إلى المأخوذ بنفسه وإلى المُعطَى بالباءِ على تضمينه معنى (عاوض)؛ كما قال تعالَى: ﴿وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلۡخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِۖ﴾ [النّساء: 2]؛ أيّ: لا تأخذوا خبيثَ المال وتُضَيِّعوا طَيِّبَه، فإذا ذُكِر المفعولانِ منصوبَيْن تَعَيَّن المأخوذُ والمبذولُ بالقرينة؛ وإلّا فالمجرور بالباء هو المبذول، وإن لم يُذكَر إلّا مفعولٌ واحدٌ فهو المأخوذ.

فمعنى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوٓءٍ﴾؛ أيّ: أخذ حُسنًا بسوءٍ، فإنّ كلمة ﴿بَعْدَ﴾ تدُلُّ على أنّ ما أُضيفتْ إليه هو الّذي كان ثابتًا ثم زالَ وخَلَفَه غيرُه[3].

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 171.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 19/ 248.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 231.

نكتةُ تنكيرِ ﴿حُسۡنَۢا﴾، و﴿سُوٓءٍ﴾:

أفادَ تنكيرُ ﴿حُسۡنَۢا﴾ و﴿سُوٓءٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسۡنَۢا بَعۡدَ سُوٓءٍ﴾ العمومَ، ليَشْمَل كُلَّ حُسْنٍ وكُلَّ سوء.

بلاغةُ الطّباقِ بين لفظتي ﴿حُسۡنَۢا﴾ و﴿سُوٓءٍ﴾:

تـصـوّرُ حالتي الحُسنِ والسّوءِ حاضِرتَيْن ترغيبًا وترهيبًا

بين ﴿حُسۡنَۢا﴾ و﴿سُوٓءٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسۡنَۢا بَعۡدَ سُوٓءٍ﴾ طباقُ إيجابٍ، وهو من المُحسِّنات البديعيَّة الجميلة لحصولِ التّقابلِ بين هاتيْن اللّفظتيْن، وإفادةِ تصوُّر حالتي الحُسْن والسّوء حاضرتيْن، واللَّبيب مَنْ يتَّعظ.

معنى الفاءِ في قولِه: ﴿فَإِنِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾:

الفاءُ في قولِه: ﴿فَإِنِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ عاطفةٌ للتّرتيبِ والتّعقيبِ السّريعِ، ويمكن أن تكون واقعةً في جوابِ الشَّرطِ ورابطةً له.

فائدةُ توالي المؤكِّداتِ:

أُكّدت جملة ﴿فَإِنِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ بـ(إنّ)، والجملة الاسميّة، وذلك تطمينًا للنّفوس، وتطييبًا للخواطر، وتسليةً لموسى عليه السلام، وتعليمًا له بعضًا من صفات مولاه.

نكتةُ تذييلِ الآيةِ بـ﴿غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾:

مَنْ تابَ تابَ اللهُ عليه وغَفَرَ ذنبَه ورحِم ضَعفَه

ذُيّلت الآيةُ الكريمةُ ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسۡنَۢا بَعۡدَ سُوٓءٖ فَإِنِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ بهذيْن الاسميْن الجليليْن ﴿غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾؛ لأنّها تناولت الحديثَ عن فعلِ السّوءِ ثمّ التَّوبة عنه، فـ﴿غَفُورٞ﴾؛ أيْ: من شأني أنّي أمحو الذنوبَ محوًا يُزيل جميعَ آثارِها، و﴿رَّحِيمٞ﴾ أُعاملُ التّائب منها معاملةَ الرّاحم البليغِ الرَّحمة بما يقتضيه حالُه من الكرامة[1].

سرُّ تقديمِ المغفرةِ على الرَّحمةِ:

يُغفرُ الذّنبُ وتَنزِلُ الرَّحمةُ

تتقدّمُ المغفرةُ على الرَّحمةِ في كلِّ المواضعِ وعددها سبعون موضعًا في فواصلِ الآياتِ، ولم تتقدّم الرّحمةُ على المغفرةِ إلّا في

---

(1) البقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرر: 14/ 136.

موضعٍ واحدٍ في مطلعِ سورة سبأ في قوله تعالى: ﴿يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلۡغَفُورُ ۝٢﴾ [سبأ: 2]، وذلك لأنّ هذه الآيةَ لم تتحدَّث عن ذنوبٍ تُرتَجى مغفرتُها، بخلافِ المواضع السّبعين الأخرى؛ حيث سبقها حديثٌ عن ذنوبٍ أو تشريعاتٍ وأحكامٍ تستوجب المغفرةَ والرّحمةَ عند وقوعِ الزّلل فيها، والمغفرة تأتي في التّرتيب العقليّ قبل الرّحمة؛ لأنّ في المغفرةِ معاني التّغطية والسّتر، وهي سابقةٌ لحصولِ الرّحمةِ.

نكتةُ تنكيرِ الاسمين الجليلين والمبالغةِ فيهما:

أفاد تنكيرُ ﴿غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ التّعظيمَ والتّفخيمَ، وجاءا على زنةِ (فعيل) الّذي يدلُّ على المبالغةِ في تحقُّقِ مضمونِهما.

بلاغةُ التّشابه اللّفظيّ مع سورةِ القَصصِ:

تختلفُ الألفاظُ والتّراكيبُ في القصّةِ الواحدةِ تبعًا للسّياقِ الّذي تُعرضُ فيه

قال تعالى في سورة النَّمل: ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾، وفي سورة القَصَص: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلۡأٓمِنِينَ ۝٣١﴾ [القصص: 31]؛ لأنّ المقامَ في سورةِ القَصص مقامُ خوفٍ، والخائفُ يحتاجُ إلى الأمنِ فأمنه قائلًا: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلۡأٓمِنِينَ ۝٣١﴾ [القصص: 31]، أمّا في سورة النّمل فالمقام مقامُ التّكريم والتّشريف، فقال: ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾؛ فألمح بذلك إلى أنّه منهم، وهذا تكريمٌ وتشريفٌ، ثمّ قال: ﴿لَدَيَّ﴾ مُشعِرًا بالقُرْب، وهو زيادةٌ في التّكريم والتّشريفِ.

ثمّ إنّه لمّا قال في سورة النّمل: ﴿لَدَيَّ﴾ المُفيدة للقُرب؛ ناداه بما يُفيد القُرْب فقال: ﴿يَٰمُوسَىٰ﴾، ولم يَقُلْ: ﴿أَن يَٰمُوسَىٰٓ﴾ [القصص: 30] كما قال في القَصَص، ففصل بين المنادي والمنادَى بما يُفيد البُعد، وأمره أيضًا بما يُفيد القُربَ بلا فاصلٍ بينهما فقال: ﴿وَأَلۡقِ عَصَاكَۚ﴾، ولم يَقُلْ: ﴿وَأَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَۚ﴾ [القصص: 31] للدّلالة على قُرب المأمور منه، فناداه من قُرْبٍ وأمرَه من قُرْبٍ، وذلك لأنّه كان منه قريبًا، فانظر عُلوَّ هذا التّعبيرِ ورفعته.

ومن ناحية أخرى قال: ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ ولم يَقُلْ: (إنّي لا يخاف منّي المرسلون)؛ لأنّ المرسلين لا يخافون بحضرته، ولكنّهم يخشونه ويخافونه كلّ الخوف، وقال في النّمل: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، ولم يَقُلْ مثل ذلك في القَصَص؛ لأنّه لا يحسُنُ أن يُقال: (إنّك من الآمنين إلّا مَن ظَلَم ثُمَّ بدّل حُسْنًا بعد سوءٍ)، ولو قال هذا لم يكن كلامًا(1).

معنى الواو في قوله: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾:

تعاقبُ الآياتِ تطمينٌ وتسليةٌ

الواو في قوله تعالى: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾ عاطفةٌ، عَطَفت ما بعدها على قوله: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ﴾، وما بينهما اعتراضٌ، بعد أَنْ أراه آيةَ انقلابِ العصا ثُعْبانًا أَراهُ آيَةً أُخْرَى في نفسه بقلبِ عَرَضِها الّذي كانت عليه إلى عَرَضٍ آخر نورانيّ؛ ليَطْمَئِنَّ قَلْبُهُ بِالتَّأْييدِ(2).

دلالةُ الأمرِ في قولِه: ﴿وَأَدْخِلْ﴾:

أمرٌ بما يترتّب عليه ظهورُ آيةٍ أخرى

قوله تعالى: ﴿وَأَدْخِلْ﴾ أَمرٌ بما يترتَّبُ عليه مِن ظهورِ المُعْجِزِ العظيم، لَمّا أَظْهَرَ له مُعْجِزًا في غيره، وهو العصا، أَظْهَرَ له مُعْجِزًا في نَفْسِه، وهو تَلَأْلُؤُ يَدِه كأنَّها قِطْعَةُ نورٍ، إذا فعل ما أُمِرَ به، وجوابُ الأَمرِ الظّاهرِ أَنَّهُ ﴿تَخْرُجْ﴾؛ لِأَنَّ خُروجَها مُتَرَتِّبٌ على إِدْخالِها(3).

بلاغةُ الاحتباكِ في الآيةِ:

الاكتفاءُ بالمُثْبَتِ عن المحذوفِ لظهورِه بالسّياقِ

ويجوزُ أَنْ يكون في قوله تعالى: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ﴾ حَذْفٌ تَقْديرُهُ: وأدخِلْ يَدَكَ في جَيْبِكَ تَدْخُلْ، وأَخْرِجْها تَخْرُجْ، فحَذَفَ من الأَوَّلِ ما أَثْبَتَ مُقابِلَهُ في الثّاني، ومن الثّاني ما أَثْبَتَ مُقابِلَهُ في الأَوَّلِ(4)، ويترتّب على تقديرِ الحذفِ هنا وجودُ أسلوبِ الاحتباك في الجملة؛ إذ إنّ حذفَ شيءٍ يدلُّ عليه مذكورٌ يُعدُّ نوعًا

---

(1) السّامرّائيّ، لمسات بيانيّة، ص: 87 - 88.

(2) البقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرر: 14/ 136، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 231.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 215.

(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 215.

من بلاغة الاحتباكِ، لكنّ تقديرَ المحذوفاتِ بهذه الطّريقة قد يكون فيها تكلُّفٌ[1].

معنى الظّرفيّةِ في قولِهِ: ﴿فِي جَيۡبِكَ﴾:

إدخالُ اليدِ في القميصِ حقيقةً، أو إدخالُها تحت الإبطِ مَجازًا

الظّرفيَّةُ في قوله تعالى: ﴿وَأَدۡخِلۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ﴾ حقيقيَّةٌ على معنى إدخالِ اليدِ في جيبِ القميصِ الّذي يدخُل ويخرجُ منه الرّأسُ، أو إدخاله في القميصِ نفسِه أو فُتحةٍ أخرى فيه حسب المُراد بالجيب، وقد تكون الظّرفيَّةُ مجازيَّةً إذا كان المعنى إدخال اليد تحت الإبط كما جاء في بعض الرّوايات، قال السُّدّيُّ: في جَيۡبِكَ؛ أيّ: تحت إبطك[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ: ﴿تَخۡرُجۡ﴾:

قوله تعالى: ﴿تَخۡرُجۡ﴾ فِعۡلٌ مضارِعٌ مجزومٌ؛ لأنّه جواب الأمر، واستحضار الصّيغة ههنا لتصوير حالةِ خروجِ اليدِ بيضاءَ وكأنّها الآن مشاهدة.

فائدةُ قوله: ﴿بَيۡضَآءَ﴾:

وقولُه تعالى: ﴿بَيۡضَآءَ﴾ حالٌ مِن فاعلِ ﴿تَخۡرُجۡ﴾؛ أيّ: بياضًا عظيمًا نَيِّرًا جِدًّا، له شعاعٌ كَشُعاع الشَّمس[3]، وصار البياض هيئةً ملازِمَةً لليد.

نكتةُ فصلِ قولِه: ﴿مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٍ﴾ عن سابقتها:

الإتيانُ بالصّفةِ لدفعِ وقوعِ وهمِ أنّ بياضَ اليدِ آفةٌ

نكتةُ فصلِ قولِه تعالى: ﴿مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٍ﴾ عن سابقتِها، أنّها إمّا أن تكون حالًا أخرى مؤكِّدَةً للحال الأولى، أو صفةً لليد فيكون سبب الفصل كمال الاتّصال، والإتيان بهذه الجملة لدفع توهُّم أن يكون البياض مرضًا أو آفةً من بَرَصٍ أو غيره[4].

(1) السَّمين، الدُّرُّ المَصُون: 8/ 875، والآلوسيّ، روح المعاني: 19/ 250.
(2) الآلوسيُّ، روح المعاني: 19/ 249.
(3) البقاعيُّ، نَظۡمُ الدُّرر: 14/ 136.
(4) البقاعيُّ، نَظۡمُ الدُّرر: 14/ 136.

معنى ﴿مِنۡ﴾ في قولِه: ﴿مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٍۖ﴾:

﴿مِنۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٍۖ﴾ صِلَةٌ للفعل (ابْيَضّ) المُسْتَكِنّ في الصفة ﴿بَيۡضَآءَ﴾، كأنّه قال: (ابيَضّت مِن غير سوءٍ).

سرُّ تنكيرِ ﴿سُوٓءٍۖ﴾:

نفيُ السّوءِ نوعًا وكَمًّا

أفاد تنكير ﴿سُوٓءٍۖ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٍۖ﴾ معنى العموم؛ أيْ: من دون سوءٍ سواء أكان صغيرًا أو كبيرًا فضلًا عن النّوع، ويمكن أن يفيد التّنكير التّحقير على معنى دون أدنى سوءٍ يُذكر.

نكتةُ فصلِ قولِه: ﴿فِي تِسۡعِ ءَايَٰتٍ﴾:

أُمِر موسى عليه السلام بالذّهابِ إلى فرعون وقومِهِ

نكتةُ الفصلِ في قوله تعالى: ﴿فِي تِسۡعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَقَوۡمِهِۦٓۚ﴾ أنّه كلامٌ مُستأنفٌ جديدٌ، والجارُّ والمجرور فيه مُتَعَلِّقٌ بمحذوف، والمعنى: (اذهب في تسع آياتٍ إلى فِرْعَوْنَ ونحوه)[1].

التّعلُّق النَّحويُّ في قولِه: ﴿فِي تِسۡعِ ءَايَٰتٍ﴾:

تتنوَّعُ وجوهُ تعلُّقِ الجملةِ بحسبِ المعاني المُرادةِ

قوله: ﴿فِي تِسۡعِ﴾ فيه أوجهٌ؛ **أحدُها**: أنّهُ حالٌ ثالثةٌ مِنْ فاعلِ يَخْرُجْ؛ أيْ: (آيةً في تسعِ آياتٍ)، **والثّاني**: أنّها مُتعلِّقةٌ بمحذوفٍ؛ أي: (اذهَبْ في تسع)؛ فهنا نقدّر فعل أمرٍ محذوفًا، **والثّالث**: أَنْ يتعلَّقَ بقولِه: ﴿وَأَلۡقِ عَصَاكَۚ﴾ و﴿وَأَدۡخِلۡ﴾؛ ويكونَ المعنى: (وأَلْقِ عَصاكَ وأَدْخِلْ يَدك في تسعِ آياتٍ)؛ أيْ: في جملةِ تسعِ آياتٍ[2].

معنى ﴿فِي﴾ في قولِه: ﴿فِي تِسۡعِ ءَايَٰتٍ﴾:

العصا واليدُ في جملةِ تسعِ آياتٍ أو مع تسعِ آياتٍ أُخَرَ

تُفيد ﴿فِي﴾ في قوله تعالى: ﴿فِي تِسۡعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَقَوۡمِهِۦٓۚ﴾ الظّرفيّةَ المجازيّةَ، على معنى: في جملة تسعِ آيات، وتكون العصا واليد من جملتها، وعند مَنْ يرى أنّ الآيات الّتي أُرسل بها موسى إلى فرعون تسعٌ سوى العصا واليد، فيكون مجموعها إحدى عشرة، وهي: الفلق، والطّوفان، والجراد، والقُمَّل، والضّفادع، والدّم،

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 351.

(2) السَّمين، الدُّرُّ المَصون: 8/ 578 - 579.

والطّمس، والجدب في بواديهِم، والنّقصان في مزارعهم، فإنّ ﴿فِي﴾ بمعنى (مع)، وبعضهم رأى أنّ معنى قوله: ﴿فِي تِسۡعِ ءَايَٰتٍ﴾؛ أيّ: (من تسع آيات)، كما تقول: خُذْ لي عشرًا من الإبلِ فيها فحلان؛ أيّ: منها[1].

نكتةُ تنكيرِ ﴿ءَايَٰتٍ﴾:

أفادَ تنكيرُ ﴿ءَايَٰتٍ﴾ في قولِه تعالى: ﴿فِي تِسۡعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَقَوۡمِهِۦٓ﴾ تعظيمها من ناحيةٍ، وتعميمها من ناحيةٍ أخرى طالما كان هنالك اختلافاتٌ في تحديدها.

نكتة عطف قوم فرعون:

الإشارة إلى التّبعيّة، وإلى مصدر الأذى والعداوة

عطفت الآيةُ الكريمةُ قومَ فرعون عليه في قوله: ﴿إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَقَوۡمِهِۦٓ﴾، إيذانًا بتبعيّتهم له ابتداءً في كلّ ما يراه ويُقرِّره، وإشارةً إلى أنّ ما سيواجهه نبيّ اللّه بعد ذلك من أذًى وضيقٍ سيكون من كلّ الأصعدة، وكامل الاتّجاهات، سواءً أكان ذلك من السّحرة أو الملأ أو حتّى من قومه من بني إسرائيل.

نكتةُ فصلِ قوله: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ﴾:

الفصلُ للاستئنافِ البيانيِّ

لم تُعطف هذه الجملة ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ﴾ على سابقتها؛ لأنّها جاءت استئنافًا بيانيًّا جوابًا عن سؤالٍ مُقدَّرٍ: (لمَ أُرسلتَ إليهم هذه الآيات؟)؛ فكان التّعليل بفسقِهم هو محور هذه الإجابة عن هذا السّؤال.

نكتةُ توالي المؤكِّدات:

قد تتزاحم المُؤكِّدات في معرضِ التّحذيرِ والتّنبيه والتّهيئَةِ

أُكّدت جملة: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ﴾ بـ(إنّ) والجملة الاسميّة الّتي خبرها جملة اسميّة كذلك، فضلًا عن تكرار ذِكر المُسند إليه في الجملتيْن، ودخول (كان) الّتي أفادت تحقُّق وصف الفسق فيهم

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 215، والزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 351.

واستقراره علمًا لهم منذ أن كانوا، وكلّ ذلك ليتهيّأ موسى عليه السلام لهذه المهمّة الصّعبة الّتي ستجعله من أولي العَزْم من الرُّسُل بعد ذلك.

نكتةُ تنكيرِ ﴿قَوۡمًا﴾:

إفادةُ التّحقيرِ أو التّكثيرِ

أفاد تنكير ﴿قَوۡمًا﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمًا فَٰسِقِينَ﴾ تحقيرَهم على هذا الفسق الّذي وُصفوا به، ولا مانع مع هذا مِنْ حَمل تنكيرهم على التّكثير، فهم أمّةٌ كبيرةٌ وقويّةٌ ومع ذلك استحقّوا هذا الوصف لخروجهم عن جادّةِ الطّريق.

دلالةُ وصفِهم بالفِسْقِ:

الفِسقُ أعمُّ من الكُفْر

يُقال: فسَقَ فلانٌ: خرج عن حِجْرِ الشَّرْعِ، وذلك من قولهم: فسَقَ الرُّطَبُ، إذا خرج عن قشرِه، وهو أعمُّ من الكفر، والفِسْقُ يقع بالقليل من الذُّنوب وبالكثير، لكن تُعورف فيما كان كثيرًا، وأكثر ما يُقال الفاسِقُ لِمَن التزم حُكْم الشّرع وأقرَّ به، ثمّ أخلّ بجميع أحكامه أو ببعضه، وإذا قيل للكافر الأصليّ: فاسِقٌ، فلأنّه أخلَّ بحُكْم ما ألزمه العقل واقتضته الفطرة[1]، فسبب وصفهم بالفِسق في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمًا فَٰسِقِينَ﴾ إنّما هو لمبالغتهم في الخروج عن الجادّة، ولمخالفتهم ما يُمليه العقل السّليم والفطرة النّقيّة.

معنى الفاءِ و(لمّا) في قوله: ﴿فَلَمَّا﴾:

الفاءُ للعطفِ على محذوفٍ

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَٰتُنَا﴾ عاطفةٌ على محذوفٍ، وتُفيد التّرتيب والتّعقيب السّريع، فموسى عليه السلام لم يتلكّأ في المهمّة، ولذا قد يكون تقدير الكلام: (ذهب موسى إلى فرعون وملئه وواجههم بما أُرسل به إليهم، وعرضَ عليهم الآيات المُؤيّدة له، فلمّا جاءتهم آياتنا)، وأمّا (لمّا) فهي ظرفيّةٌ حينيّةٌ تتضمّن معنى الشّرط، الّذي فِعْلُه ﴿جَآءَتۡهُمۡ﴾ وجوابه ﴿قَالُواْ﴾.

---

(1) الرّاغب، المُفرَدات: (فسق).

إسنادُ الفعل لغيرِ فاعلِه تجوُّزٌ عقليٌّ لغرضٍ وقرينةٍ

بلاغةُ المجازِ في إسنادِ المجيءِ إلى الآياتِ:

في قوله: ﴿جَآءَتۡهُمۡ ءَايَٰتُنَا﴾ أُسند المجيءُ إلى الآيات، والآيات لا تجيء من تلقاء نفسها، وإنّما موسى عليه السلام هو الّذي جاء بها من عند اللّه، فهذا مجازٌ عقليٌّ أو حُكْميٌّ لأنّ فيه إسنادًا لمَنْ لم يقع منه الفعل والعلاقة فيه السَّببيَّة والمُسببيّة، فمجيء موسى عليه السلام إليهم هو السّبب في مجيء الآيات.

فالمجيء مجازٌ عن الظُّهور، وإسناده إلى الآيات حقيقيٌّ، أو المجيء حقيقةٌ وإسناده إلى الآيات مجازيٌّ، وهو حقيقةٌ لموسى عليه السلام، ولما بينهما من الملابَسَة؛ لكونها معجزةً له عليه السلام ساغ ذلك، ولعلّ النّكتةَ في العدولِ عن (فلمّا جاءهم موسى بآياتنا) إلى ما في النَّظْم الجليل الإشارةُ إلى أنّ تلك الآياتِ خارجةٌ عن طوقِه عليه السلام كسائرِ المُعجزاتِ، وأنّه لم يكن له عليه السلام تصرُّفٌ في بعضها[1].

نكتةُ إسنادِ الآياتِ إلى ضميرِ العَظَمَةِ:

في قوله: ﴿ءَايَٰتُنَا﴾ دون (بالآيات) تشريفٌ لهذه الآياتِ وتعظيمٌ لشأنها بإسنادها إلى ضمير العَظَمَة، فهو لم يأت بهذه الآياتِ من تلقاءِ نفسه؛ إنّما هي آياتُ اللّه أيّده بها.

اختصّتْ كلُّ سورةٍ بألفاظِها الخاصَّةِ بها

بلاغةُ المتُشابه اللّفظيِّ مع سورة القَصَص:

قال اللّه تعالى في سورة القَصَص: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٖ﴾ [القَصَص: 36]، فأُسنِد المجيء بالآياتِ إلى موسى عليه السلام، وواضحٌ من سياق الآيات في سورة القَصَص أنّ التّفصيل فيها كان أكثر، والعرض لجوانب قصّة موسى عليه السلام كان أشمل، والمماحكة بين موسى عليه السلام وفرعون وملئه كانت على أشدّها؛ فاقتضى السّياقُ إسنادَ المجيء بالآيات إلى موسى عليه السلام، بخلاف سياقِ سورة النّملِ الّتي كان العرضُ فيها موجزًا ومُركّزًا على عدم انتفاعهم بالآيات رغم استيقانهم بها.

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 19/ 251.

بلاغةُ المجازِ في وصفِ الآياتِ بالإبصارِ:

في قوله تعالى: ﴿جَآءَتۡهُمۡ ءَايَٰتُنَا مُبۡصِرَةٗ﴾ وصَف الآياتِ بالإبصارِ، ومن العلماء من يرى أنّ هذا الإسناد حقيقيٌّ، ومنهم مَن يراه مجازًا عقليًّا لعلاقة السّببيّة، فالمُبصرة: الظّاهرة البيّنة، جعل الإبصار لها وهوفي الحقيقة لمتأمّليها؛ لأنّهم لابسوها وكانوا بسببٍ منها بنَظَرِهم وتفكّرهم فيها، ويجوز أن يُراد بحقيقة الإبصار كلّ ناظر فيها من كافّة أولى العقل، وأن يُراد إبصارُ فرعون وملئه، لقوله: ﴿وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ﴾ [النّمل: 14]، أو جُعِلت كأنّها تُبصِر فتَهدي؛ لأنّ العمياء لا تَقدِر على الاهتداء، فضلًا أن تهدي غيرها[1]، وعلى هذا الوجه الأخير هو استعارةٌ مكنيَّةٌ، شُبِّهَت الآيات في جلائها في نفسها وأنّها بحيث يهتدي بها النّاس، كأنّها الشّخص تُبصِرُ بنفسها فتهدي النّاس، ويمكن أن تكون ﴿مُبۡصِرَةٗ﴾ بمعنى مبيَّنةً اسمُ فاعِلٍ أُطلق للمفعول، وإشعارًا بأنّها لِفَرْط اجتلائها للأبصار بحيث تكاد تُبصِر نفسَها لو كانت ممّا يُبصِر، أو ذات تبصّر من حيث إنّها تهدي، أو: مبصرةً كلَّ مَن نظر إليها وتأمَّلَ فيها[2].

إسنادُ الإبصار للآياتِ فيه تجوُّزٌ عقليٌّ

الموقعُ النَّحويُّ لقوله: ﴿مُبۡصِرَةٗ﴾:

تُعرَب ﴿مُبۡصِرَةٗ﴾ على أنّها حالٌ منصوبةٌ[3]؛ فالإبصارُ حالٌ ملازمةٌ لآياتِ اللّه تعالى لكونها منيرةً وظاهرةً، فهي هاديةٌ لهم إلى الطَّريقِ الأقوم هداية النّور لِمَنْ يُبصر، فهو لا يُخطئ شيئًا ينبغي أن ينتفع به[4]، فلا يزيغ عنها إلّا جاحدٌ ضالٌّ مَعميُّ البصيرة.

آياتُ الله تعالى ظاهرةٌ بيّنةٌ مُنيرةٌ لا يكفُر بها إلّا مَن عميت بصيرتُه

غرضُ التّعبيرِ باسمِ الإشارةِ القريبِ:

عبّر فرعون ومَلؤُهُ عن الآيات الّتي رأوها باسم الإشارة المُفرد

حقَّروا ما جاءَ به موسى فأعمى اللهُ بصيرتَهم

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 351.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 11/ 473.
(3) السَّمين، الدُّرُّ المَصون: 8/ 580.
(4) البقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرر: 14/ 136.

القريب ﴿هَٰذَا﴾ في قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾، والمعنى: (هذا الّذي نراه من الآيات، أو هذا الّذي جئتَ به سحرٌ مبينٌ)، وأفاد التّعبيرُ باسمِ الإشارةِ هنا التّحقيرَ والذّمَّ لما جاء به موسى ﵇، وهذا يدلّ على عُنجُهيَّتِهم بعدم رغبتِهم بذِكر المُشارِ إليه، وإنّما اكتفوا باسم الإشارةِ كِبْرًا وبطَرًا.

سرُّ تنكيرِ لفظةِ ﴿سِحۡرٞ﴾، ووصفهم الآياتِ بها:

تهمةُ السّحرِ هي الأقربُ للكافرين في وصفِ مُعجزاتِ الأنبياءِ

اُتُّهِم موسى ﵇ بالسِّحر في قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾، كما اتُّهِم غيرُه من الأنبياءِ حتّى نبيُّنا محمد ﷺ؛ وذلك لجحودهم الحقَّ مع استيقانهم إيّاه في أنفسهم، ولتبريرِ ما يرونه من خوارقِ العاداتِ، وروائعِ المُعجزاتِ؛ فالتّعليل لكلِّ ذلك بكونه سِحْرًا للتّلبيسِ على النّاسِ، ولتأثيرِ الرّأي العامِّ، لا سيّما مع انتشار وشيوع السّحرِ في مصر، بدليل طَلَب فرعونَ اجتماعَ كبارِ السّحرةِ مع موسى ﵇، وأمّا تنكير لفظةِ السِّحْر فإنّما جاء للتّعظيم والتّفخيم؛ أيْ: هذا الّذي جئتَ به سحرٌ عظيمٌ في أعينِ النّاس ظاهرُ الوضوحِ.

دلالةُ التّعبيرِ بـ﴿مُّبِينٞ﴾ مادّةً وصيغةً:

زعموا أنّ السّحرَ الّذي جاءَ به موسى واضحٌ شديدُ الظّهورِ

يدلّ الجذرُ (بان) على البُعدِ في الشّيءِ، ومنه الظّهورُ والوضوحُ والانكشافُ، فهذا السّحرُ الّذي جاء به موسى بزعمهم في قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ واضحٌ شديدُ الظّهورِ على أنّه دلالةٌ على كونه عملًا بشريًّا وليس تأييدًا ربّانيًّا، فالأمر لا يحتاج إلى عمقِ تفكيرٍ؛ فهذه الآيات الّتي جاء بها من الواضح تمامًا أنها من فعل السّحرة المُشتهرين في ذلك الزّمان، والتّعبير بـ﴿مُّبِينٞ﴾ من (أبان) اللّازم كما يظهر على معنى أنّه اسم الفاعل للجذر (بان)؛ فهو شديدُ الظّهورِ والانكشافِ.

بلاغةُ المتشابه اللّفظيِّ في توجيه تهمةِ السّحرِ لموسى:

اختصّتْ كلّ سورةٍ بألفاظٍ وتراكيبَ تتلاءمُ مع محاوِرِها الخاصّةِ

نجدُ في أثناءِ عرضِ قصّةِ موسى في القرآنِ الكريم، تباينًا في اتّهامهم تارةً للآيات الّتي جاء بها بأنّها سحرٌ مبينٌ، وتارةً لموسى

عليه السلام بأنّه ساحرٌ عليمٌ، ففي سورة يونس: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ۝٧٥ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧٦﴾ [يونس: 75 - 76]؛ فالتّهمة هنا أُلقيت من قِبَلِ فرعون مع مَلَئِه على الآيات الّتي جاء بها موسى عليه السلام، ولذلك طلب فرعونُ منهم بقوله: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ۝٧٩﴾ [يونس: 79]، في حين قال في النّمل: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ۝١٢ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾؛ فالقائلُ هو فرعون وقومه، والتّهمة أيضًا مثل سورة يونس مُنصَبَّةٌ على ما جاء به موسى عليه السلام.

أمّا في سورة الأعراف: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ۝١٠٩﴾ [الأعراف: 109]؛ فالملأ هم مَنْ أسقطوا هذه التّهمةَ على موسى عليه السلام نفسه، وهم الّذين اقترحوا بعد ذلك ﴿قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ۝١١١ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ۝١١٢﴾ [الأعراف: 111 - 112].

وفي سورة الشُّعراءِ كان فرعون هو مَنْ أسقطَ هذه التّهمةَ ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ۝٣٢ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ۝٣٣ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ۝٣٤﴾ [الشُّعراء: 32 - 34] والملأ هم مَن قالوا له: ﴿قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ۝٣٦ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ۝٣٧﴾ [الشُّعراء: 36 - 37].

وهذا التّباينُ بين التّراكيبِ والعباراتِ لا يدلّ على اضطرابٍ وتناقضٍ - عياذًا باللّه - وإنّما تتشكّل الصّورةُ الكُلّيّة من هذه التّراكيب الّتي من المحتمل أنّها قد جاءتْ وصفًا لحالاتٍ مختلفةٍ، وجاء كلّ تركيبٍ منها مُتَّسقًا مع السّياقِ العامِّ والخاصِّ الّذي جاء به، فبعضُ السّياقاتِ صوَّرت المماحكة الطّويلة بين موسى وفرعون، وبعضها قدَّمت إيجازًا سريعًا ومرورًا عابرًا لما جرى، وكلٌّ من هذه المواقف تطلَّب ألفاظهُ الخاصّة به، وأمّا الصّورة الكلّيّة فيمكن استنباطها من أنّ فرعون قد استخفّ بعقول قومه فأطاعوه، فهو الّذي بدأ بالاتّهام لموسى عليه السلام تارةً، وللآيات الّتي جاء بها تارةً أخرى، وفي كلّ ذلك يقوم الملأُ بترديدِ وترويجِ هذه الاتّهاماتِ، ثمّ يتأثّر القومُ بهذه الإشاعات، فتصبح التّهمةُ موجَّهة من قوم فرعون جميعهم، ثمّ يُقدِّم الملأُ اقتراحَهم بأن يُرْجِهْ وأخاه حتّى يجمعوا السّحرةَ، ويوافق

فرعونُ على ذلك ويقول: ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ ٱئۡتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٖ ٧٩﴾ [يونس: 79]، وهكذا تتكاملُ معالمُ الصّورةِ الكلّيّةِ للأحداثِ من مجموعِ هذه المشاهدِ وتظهر الشّخصيّةُ الفرعونيّة على حقيقتِها، ويظهر دورُ الملأ الّذين يتلاعبون بالرّأي العامّ وفي عقول النّاسِ، وهي صورٌ صالحةٌ لكلّ زمانٍ ومكانٍ.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الفسق والإثم وبعضُ الألفاظ المُقاربة:

ألفاظُ الذّنوب والمعاصي في القرآن الكريم تتناسب مع السّياقات الّتي تأتي فيها

سَمّى القرآنُ الكريم هذه الذنوبَ والمعاصي بأسماءَ عديدةٍ في مواضعَ مختلفةٍ، ممّا يؤكّد أنّ لكلّ لفظةٍ منها خصوصيّتها الّتي تميّزها من اللّفظة الأخرى الّتي تشاركها في بعض السّمات، فقد استعمَل القرآنُ ألفاظَ: الإثم، والسيّئة، والجُرْم، والخطأ، والخطيئة، والوِزْر، والمعصية، والذَّنب، والحَوْب، والفِسق، والفساد، والظُّلم، والفجور، والبَغْي، والطُّغيان، والعُتوّ، والحَنْث، والجُنُف، والفاحشة، وغيرها من الألفاظ، وإنّ تتبع هذه الألفاظ ودراسة الفروق المعجميّة والسياقية بينها يكشف عن رافدٍ مُهمٍّ من روافد الإعجاز.

فلفظة (الذَّنب) في أصلِ اللّغة هو الجُرْم[1]، وأُخذ من ذَنَب الدّابّة؛ فالذَّنْبُ هو الأخذ بذَنَبِ الشَّيء، ويُستعمل في كلّ فعلٍ يُستوخمُ عقباه اعتبارًا بذنبِ الشيء ولما يحصلُ من عاقبته[2]، فالمعصيةُ إذن تُسمَّى ذنبًا تبعًا لما تجرُّه أذنابُها على العاصي.

ولأنّ البحثَ في دلالةِ كلِّ لفظةٍ من الألفاظِ السّابقة يطولُ؛ فنُشير إلى بعض محاولات العسكريّ وهو يُفرِّق بين بعض هذه الألفاظ، فالفرقُ عنده بين الذّنب والمعصية أنّ المعصية تُنبئ عن كونها منهيًّا

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، ص: 389.
(2) الرّاغب، المُفرَدات، ص: 137.

عنها، وتقع من فاعلها على وجهٍ قد نُهي عنه أو كُره منه، والذَّنب يُنبئ عن استحقاقِ العقاب[1]، والفرقُ بين الإثم والخطيئة أنّ الخطيئةَ قد تكون من غيرِ تعمُّدٍ، ولا يكون الإثم إلّا تعمُّدًا[2]، والفرق بين الإثم والذَّنبِ: أنّ الإثم في أصل اللُّغة التَّقصير[3]، والذَّنب فيها وفي غيرها، والفرق بين الذَّنْب والجُرْم: أنّ الذَّنب ما يتبعه الذّمّ، وهو القبيح من الفعل، والجُرْم ما ينقطع به عن الواجب[4]، والفرقُ بين الحَوْب والذَّنب: أنّ الحَوْب يُفيد أنّه مزجورٌ عنه[5]، والذَّنب يُفيد أنّه يتبعه مؤاخذةٌ، والفرقُ بين الوِزْرِ والذَّنْب: أنّ الوِزْرَ يُفيد أنّه يُثقلُ صاحبَه[6]، والإثمُ يُفيد المؤاخذةَ والعقوبةَ.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 257.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 261.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 261.
(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 262.
(5) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 262.
(6) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 262.

﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ١٤﴾ [النّمل: 14]

مُناسَبَةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

الرَّبْطُ بين مجيءِ معجزةِ موسى، وجحودِ فرعونَ وقومِهِ بآياتِها البيِّنات

لمّا ذكرتِ الآيةُ السّابقةُ وصفَ فرعونَ وقومِهِ لآياتِ موسَى عليه السلام، بأنَّها سِحۡرٞ مُّبِينٞ؛ جاءت هذه الآيةُ ببيانِ أنّهم كانوا يُنكِرونَها في الظّاهرِ، مع أنَّهم كانوا في قرارة أنفسهم على غير ما تنطق به ألسنتهم، فقال: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ﴾.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَجَحَدُواْ﴾: (جحد) أصلٌ يدلُّ على قلَّةِ الخيرِ[1]، يُقالُ: رجلٌ جَحِدٌ، أيْ: شحيحٌ قليلُ الخيرِ، يُظهِرُ الفَقْرَ[2]، وأرضٌ جَحِدَةٌ: قليلةُ النَّبْتِ[3]، والجُحودُ: نفيُ ما في القلبِ إثباتُه، وإثباتُ ما في القلبِ نفيُهُ[4]، ومعنى ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا﴾ في الآية: لم يقرّوا بها، وأنكروها رغم وضوحها.

2) ﴿وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ﴾: (يقن) أصلٌ يدلُّ على ثبوتِ الشَّيءِ واستقرارِهِ[5]، واليقينُ: هو سكونُ الفَهْمِ مَعَ ثباتِ الحُكْمِ، وأصلُهُ مِنْ: يَقَنَ الماءُ، أيْ: ثبتَ وسكنَ، ويُقالُ: أيقنَ الرَّجلُ، ويَقَنَ، وتيقَّنَ، واستيقنَ، وقولُهُ: ﴿وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ﴾، أي: تيقَّنَتْها[6]، وقيلَ: اليقينُ مِنْ صفةِ العِلمِ فوقَ المعرفةِ والدِّرايةِ، يقالُ: علمُ يقينٍ، ولا يقالُ: معرفةُ يقينٍ[7].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جحد).
(2) الخليل، العين: (جحد).
(3) الزبيدي، تاج العروس: (جحد).
(4) الراغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (جحد).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي: (يقن).
(6) السمين، عمدة الحفاظ: (يقن).
(7) الراغب، المفردات: (يقن).

3) ﴿ظُلۡمٗا﴾: (ظلم) أَصْلانِ صَحيحانِ، أَحَدُهُما خِلافُ الضِّياءِ والنُّورِ، والآخَرُ وضْعُ الشَّيْءِ غَيْرَ مَوْضِعِهِ تَعَدِّيًا[1]، إمّا بنقصانٍ أو بزيادةٍ، وإمّا بعُدولٍ عن وقتِهِ أو مكانِهِ، ولذلكَ يُقالُ: ظلمتُ السِّقاءَ، أيْ: تناولتُهُ في غيرِ وقتِهِ، ويُسمَّى ذلكَ اللَّبَنُ: الظَّليمَ[2]، والظُّلْمُ لا يَخْرُجُ عن انتقاصِ المُستحقِّ، فالجَوْرُ على حقوقِ النّاسِ منعٌ لهُم منها[3]، ويُقال فيما يكثر، وفيما يقلُّ من التَّجاوز، ولهذا يُستعمل في الذَّنب الكبير والصَّغير[4].

4) ﴿وَعُلُوّٗاۚ﴾: (علو) أصلٌ يدلُّ على السُّموِّ والارتفاعِ[5]، فالعُلُوُّ: ضدُّ السُّفْلِ، وهو الارتفاعُ، ويُقالُ: علا يَعْلو عُلوًّا، وهو عالٍ، وعَليَ يَعْلَى عَلاءً، فهو عَليٌّ[6]، ويدور أصل هذه الكلمة حول ارتفاع الشَّيءِ فوق شيءٍ تحته أو أدناه، وكلُّ ذلك راجعٌ إلى العلو المادي، ويُطلق على العلوِّ المعنويِّ أيضًا، والسّياق يُبيِّن كلًّا منهما، ومنه: علا فلانٌ فلانًا، أيْ: قهره، والعلو: التَّكبُّر[7]، وهو المقصود في الآية الكريمة.

5) ﴿عَٰقِبَةُ﴾: (عقب) أصلانِ: أحدُهما يدلُّ على تأخيرِ شيءٍ وإتيانِهِ بعدَ غيرِهِ، والآخرُ يدلُّ على ارتفاعٍ وشدَّةٍ وصعوبةٍ[8]، يُقالُ: جاءَ في عَقِبِ الشَّهرِ، أي: آخِرِهِ، وعقَّبَهُ؛ إذا تلاهُ[9]، وتعقَّبتُ ما صنعَ فلانٌ، أيْ: تتبَّعتَهُ[10]، والعُقْبُ والعُقْبَى يختصّانِ بالثَّوابِ، قالَ تعالى: ﴿هُوَ خَيۡرٞ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ عُقۡبٗا ۝٤٤﴾ [الكهف: 44]، وإطلاقُ العاقبةِ يختصُّ بالثَّوابِ، نحوُ: ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ۝١٢٨﴾ [الأعراف: 128]، وبالإضافةِ قد يُستعمَلُ في العقوبةِ[11]، والمعنى الأخير هو المقصود في الآية الكريمة.

6) ﴿ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾: (فسد) كَلِمَةٌ واحِدَةٌ، فَسَدَ الشَّيْءُ يَفْسُدُ فَسادًا وفُسودًا، وهوَ فاسِدٌ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ظلم).
(2) الراغب، المُفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحُفّاظ: (ظلم).
(3) جبل، المُعجم الاشتقاقيّ: (ظلم).
(4) الراغب، المُفردات: (ظلم).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (علو).
(6) الراغب، المُفردات، والسّمين الحلبي، عُمدة الحفاظ: (علو).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقي المُؤصَّل: (علو - على).
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عقب).
(9) الرّاغب، المُفردات: (عقب).
(10) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (عقب).
(11) الراغب، المُفردات: (عقب).

وفَسيدٌ[1]، والفسادُ: خروجُ الشَّيءِ عنِ الاعتدالِ، قليلًا كانَ الخروجُ أو كثيرًا، والصَّلاحُ ضدُّهُ، ويُستعمَلُ ذلكَ في النَّفْسِ والبَدَنِ والأشياءِ الخارجةِ عنِ الاستقامةِ، يُقالُ: فَسَدَ فسادًا، وأفسدَهُ غيرُهُ، قالَ تعالى: ﴿لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [المؤمنون: 71]، وقالَ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: 11][2]، والاستفسادُ: خلافُ الاستصلاحِ، والمَفْسَدةُ: خلافُ المَصْلَحةِ[3].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الإنكارُ لما هو يقين في النَّفس، ظلمٌ وعلوٌّ واستكبار وعتوٌّ

بيَّنت هذه الآيةُ جحودَ فرعون وقومه بالآياتِ الَّتي جاءَهم بها موسَى عليه السلام مِنْ عندِ اللّهِ، مع عِلْمِهم يقينًا أنَّها مِنْ عندِه سبحانه، ومع ذلك عاندوا، وتكبَّروا؛ لِما عندهم من جرأة على العدوان، واستكبارٍ على الخضوع للحقِّ، (فانظُرْ كيفَ كانَ عاقبةُ تكذيبِ هؤلاءِ، وماذا حلَّ بهم، فإنَّهم أُخرِجوا مِنْ جنّاتٍ وعُيونٍ، وزُروعٍ ومقامٍ كريمٍ، إلى هلاكٍ في العاجلِ بالإغراقِ، وفي الآجلِ إلى عذابٍ دائمٍ لا يُفتَّرُ عنهُم، وهم فيه مُبْلِسونَ)[4].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الواوِ في جملة: ﴿وَجَحَدُواْ﴾:

جحودُ الآياتِ كفرانٌ مبين، وتأبٍّ مهين

الواوُ في قولِ الحقِّ جلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا﴾: لعطفِ هذهِ الجملةِ على جملةِ: ﴿قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ١٣﴾ [النمل: 13]، وهي تفيدُ دخولَها معَها في حيِّزِ جوابِ (لمّا)، في قولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً﴾ [النمل: 13]، فيكونُ فرعونُ وقومُهُ قد قابلوا الآياتِ الَّتي جاءَهم بها موسَى عليه السلام بالجُحودِ وبوصفِها بأنَّها سِحْرٌ مُبينٌ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فسد).
(2) الرّاغب، المُفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحُفّاظ: (فسد).
(3) الجوهري، الصّحاح: (فسد).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 435.

سِرُّ التَّعبيرِ بالجحودِ دون الإنكارِ:

جحودُ ما هو موجودٌ، كفران بالآيات وكنود

آثرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بالجحود دون الإنكار، في قوله: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا﴾؛ لوجود فرقٍ بينهما في الاستعمال، وإن تشاركا في مصاحبة الكفرِ، غير أنَّ كفرَ الجحودِ، يكون مع معرفة القلبِ بصحَّةِ ما يجحده، لكنَّه لا يُقرُّه بلسانه، ومن ذلك كفْرُ إبليس لعنه اللّه.

وممّا يدلُّ عليه التَّعبيرُ بالجحود أنَّ الكفّارَ مع كُفرهم في الدَّنيا، يعترفون بوجود الرَّبِّ، وإن أظهروا التَّكذيبَ في الظّاهر، وممّا يدلُّ عليه أيضًا نفيُ ما يثبت في العقل وإثبات ما ينفى في العقل، ففرعونُ وقومه يجحدون الحقَّ بعقولهم وأقوالهم، لكنَّ نفوسَهم مستيقنةٌ؛ لأنَّه لا سبيل لها لأنْ تُنكر وتَجحد[1].

دلالةُ الماضي ﴿وَجَحَدُواْ﴾:

الجحودُ جبلَّة في الأنفس، وتنكُّرٌ للهُدى الأقدس

دلَّ التَّعبيرُ بصيغةِ الماضي في قولِ الحقِّ عزَّ شأنُهُ: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا﴾ على أنَّ جُحودَ فرعونَ وقومِهِ بآياتِ موسَى عليه السلام أمرٌ قد تحقَّقَ وثبتَ، لا شكَّ فيهِ ولا امتراءَ؛ لأنَّهُ أمرٌ تخلَّقت بِهِ نفوسُهم، وصارَ صفةً مِنْ صفاتِهم الجِبِلّيَّةِ الَّتي لا تفارقُهم.

دلالةُ الجمعِ بقوله: ﴿وَجَحَدُواْ﴾:

الجحودُ الجماعيُّ للآيات، تمالُؤٌ على الباطل

جاء التَّعبيرُ القرآنيُّ مُسندًا الجحودَ إلى الجماعة في قوله: ﴿وَجَحَدُواْ﴾، وذلك من خلال واو الجماعة؛ للدَّلالة على أنَّ جحودهم للآيات التي جاء بها موسى عليه السلام، كان جحودًا جماعيًّا، وإن كان في ظاهر الأمر أنَّه واقع من فرعون باعتبار ادِّعائه الألوهيَّة، لكن دلَّ التَّعبيرُ بواو الجماعة على أنَّهم وافقوه على هذا الجحود، والموافقة على الكفر كفرٌ، ولذلك كان العقابُ جماعيًّا، كما صوَّر ذلك القرآن بقوله: ﴿كَمۡ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ٢٥ وَزُرُوعٖ وَمَقَامٖ كَرِيمٖ ٢٦ وَنَعۡمَةٖ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ ٢٧﴾ [الدُّخان: 25 - 27].

---

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5438.

سِرُّ التَّعديةِ بالباءِ في ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا﴾:

الجحودُ كفرٌ سافر، مع وجود الدَّليل الظّاهر

عُدّي الفعل ﴿وَجَحَدُواْ﴾ بالباء، في قوله تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا﴾؛ لأنَّ معناهُ: وكذَّبوا بها[1]، فالجُحودُ هنا مُضمَّنٌ معنى التَّكذيبِ، ولهذا عُدّيَ بالباءِ، وإلّا فهو مُتعدٍّ بنفسِه، يُقالُ: جَحَدَهُ حقَّهُ[2]، وقد ورد استعمالُ القرآن لهذا الفعل في أغلب مواضعهِ مُتعدّيًا بالباء، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ عَادٌۖ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ [هود: 59]، وقوله: ﴿وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ۝٥١﴾ [الأعراف: 51]، وعلَّة ذلك أنَّ الجحود أبلغُ من الكفر؛ لأنَّه كفرٌ مع وجود الدَّليل الظاهر؛ لذلك كانت الباءُ دالَّةً على شدَّة تلبُّسِهم بالكفر لآيات اللّه.

دلالةُ الإضمارِ في قوله: ﴿بِهَا﴾:

الخفاءُ بالإضمارِ، يناسب الجحودَ والإنكار

جاء التَّعبيرُ القرآنيُّ بالإضمار عن الآيات، فلم يقل: (وجحدوا بالآيات) مُظهرًا، وذلك لسبق ذِكْرها في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا﴾ [النمل: 13]، ويمكن أن يُقال: إنَّ الإضمارَ جاء وصفًا لحالة الجحود التي وقعت من فرعونَ وقومه، وهي حالةُ إنكارٍ شديدٍ يُناسبها الخفاءُ، فَهُم لا يعتبرون وجودها، ولم يهتدوا بها.

دلالة الواو في جملة: ﴿وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ﴾:

الإنكارُ باللِّسانِ، مهلك مع الإيقان بالوجدان

الظّاهرُ والأبلغُ أنَّ الواوَ في قولِه سبحانَهُ: ﴿وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ﴾ واوُ الحالِ، و(قد) بعدَها مُضمَرةٌ[3]، أيْ: كَفَروا بها، وأنكروها في الظّاهرِ، وقد استيقنَتْ أنفُسُهم في الباطنِ أنَّها آياتٌ مِنْ عند اللّهِ، وكابَروا، وسمَّوْها سِحْرًا[4]، وفي هذهِ الحالِ توبيخٌ عظيمٌ لهُم، وتنبيهٌ على أنَّ الإيقانَ لا يفيدُ عندَ وجودِ علامةِ الإنكارِ، كالإنكارِ باللِّسانِ[5].

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 156.
(2) ابن التّمجيد، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 356.
(3) الزمخشري، الكشاف: 3/ 352.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 216.
(5) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 356.

سرُّ التَّعبيرِ بالاستيقان بعد الجحود:

التَّكذيبُ مع العلم هلكة، وحجَّة على صاحبه مهلكة

جاء التَّعبيرُ القرآنيُّ بذِكْر الفعل ﴿وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ﴾ بعد قوله: ﴿وَجَحَدُواْ﴾، وإن كان المعنى المُراد منها مذكور في لفظ الجحود؛ لأنَّه إنكارٌ مع علم، إلّا أنَّ القرآنَ جاء بالفعل ﴿وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ﴾؛ لأنَّ الجحود ليس على معناه الأصلي؛ بل هو مُستعمَلٌ لمعنى التكذيب، والتَّكذيب أعمُّ من أن يكون إنكارًا مع علم أو إنكارًا مع جهلٍ، فلمّا كان مُبهمًا؛ بيَّنه مضمونُ الجملة الحاليَّة، ﴿وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ﴾ بأنَّ المُراد: التَّكذيبُ مع علم[1].

نكتةُ التَّعبيرِ بالماضي ﴿وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ﴾:

الكفرُ بالآيات مع التَّحقُّق، إنكارٌ وهلاك وتمزُّق

عُبِّرَ بصيغةِ الماضي في قولِه ﷻ: ﴿وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّ استيقانَ فرعونَ وقومِهِ بالآياتِ الَّتي جاءَ بها موسَى عليه السلام أمرٌ قد تحقَّقَ، وثبتَ، واستقرَّ في أنفسِهم استقرارًا لا يُزاحِمُهُ شكٌّ ولا ارتيابٌ.

بلاغةُ الإيجازِ في ﴿وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ﴾:

الجحودُ مع الاستيقان خللٌ في الفهم والإيمان

في قولِهِ جلَّ ذكرُهُ: ﴿وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ﴾ إيجازٌ بحذفِ حرفِ الجرِّ وتعديةِ الفعلِ إلى المجرورِ، وذلكَ أنَّ ﴿وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ﴾، بمعنى: أيقنَتْ بها، فحُذِفَ حرفُ الجرِّ، وعُدّيَ الفعلُ إلى المجرورِ على التَّوسُّعِ، أو على نزعِ الخافضِ، أيْ: تحقَّقَتْها عُقولُهم[2].

دلالةُ العدولِ إلى ﴿وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ﴾:

الاستيقانُ منوطٌ بالآيات، لا بالأنفس الجاحدات

عدل القرآنُ الكريمُ إلى هذا التركيب ﴿وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ﴾ دون: (وأيقنت أنفسهم بها)؛ لِما في هذا العدولِ من فائدةٍ بلاغيَّة؛ وهي تقديمُ المفعولِ - وهو الهاءُ في ﴿وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ﴾ - على الفاعلِ ﴿أَنفُسُهُمۡ﴾، والغرضُ مِنْ هذا التَّقديمِ العنايةُ بإيقاعِ الاستيقانِ على

(1) ابن التّمجيد، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 356.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 232.

الآياتِ الَّتي جاءَ بها موسَى عليه السلام، ولو جيءَ بالتَّركيبِ على أصلِهِ؛ لكانَ الظّاهِرُ أنْ يقالَ: (وأيقنَتْ أنفسُهم بها).

دلالةُ التَّعبيرِ بصيغةِ (اسْتَفْعَلَ):

الاستيقانُ أبلغُ مِنَ الإيقانِ، في الإيضاحِ والبيان

جيءَ بصيغةِ (استفعلَ) في قولِ الحقِّ تقدَّسَتْ أسماؤُهُ: ﴿وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ﴾، ولم يقل: (وأيقنَتْ بها)؛ لأنَّ الاستيقانَ أبلغُ مِنَ الإيقانِ[1]، فالسّينُ والتّاءُ للمبالغةِ[2]، ففي زيادةِ المبنى زيادة للمعنى، وفي هذه الصّيغة كذلك زيادة تأكيدٍ؛ إذِ الحاصلُ بالطَّلبِ في غايةِ الكمالِ[3]، وقيلَ: (استفعلَ) هنا بمعنى: (تفعَّلَ)، نحو: استعظمَ واستكبرَ، بمعنى: تعظَّمَ وتكبَّرَ[4].

فائدةُ ذِكرِ لفظ (الأنفُسِ):

الاستيقان إشارةٌ على جحود الأنفس الأمّارة

أفادَ ذِكْرُ الأنفُسِ في قولِ الحقِّ جلَّتْ قُدرتُهُ: ﴿وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ﴾ أنَّهم جحدوا هذه الآيات البيِّنات بألسنتِهم، واستيقنوها في قلوبِهم وضمائرِهم[5].

سِرُّ التَّعبيرِ بـ ﴿وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ﴾ دون (واستيقنوا):

العدولُ إلى إيقانِ الأرواحِ والأذهانِ، أولى وأظهر في البيان

آثر التَّعبيرُ القرآنيُّ القولَ: ﴿وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ﴾، وكان الظّاهر أن يجيء على صيغة (واستيقَنوا)؛ تبعًا للفعل السّابق ﴿وَجَحَدُواْ﴾، وإنَّما كان هذا العدول؛ لأنَّ محلَّ الإيقانِ هو الأرواحُ والأذهانُ، والجحودُ وإنْ كانَ كذلكَ لكنْ أُريدَت المبالغةُ، كأنَّهم جَحَدوا بأبدانِهم وأرواحِهم، والظّاهرُ أنَّ إسنادَ الجُحودِ إليهِم مجازٌ؛ لأنَّهُ للأنفُسِ - أيِ: الأرواحِ - كالاستيقانِ[6].

أثرُ إعرابِ ﴿ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ﴾ على المعنى:

الظُّلمُ في الأرض والعلوُّ، مسلكٌ للجحود والغلوِّ

انتصب قوله: ﴿ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ﴾ في قولِهِ جلَّ شأنُهُ: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 24/ 546، والنسفي، مدارك التنزيل: 2/ 594.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 232.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 356.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 216، والسّمين الحلبي، الدر المصون: 8/ 580.
(5) الزمخشري، الكشاف: 3/ 352، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 24/ 546.
(6) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 356.

﴿وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ﴾ على أنَّهما مفعولٌ لأجله من فعل ﴿وَجَحَدُواْ﴾، أيْ: جحدوا، وأنكروا، وخالفوا نفوسهم وفطرتهم؛ لأجل الظُّلم وإرادتهم العلوَّ في الأرض(1)، ويجوزُ أنْ يكونَ انتصابُهما على الحاليَّةِ، أيْ: ظالمينَ وعالينَ مُترفِّعينِ عنِ الإيمانِ(2).

سرُّ عطفِ العُلوِّ على الظُّلم:

من تفاقم علوِّه؛ استشرى ظلمه

عُطِفَ العُلوُّ على الظُّلم في قولِه جلَّ ثناؤُه: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ﴾ لزيادةِ التَّقبيحِ والتَّشنيعِ لحالِ فرعونَ وقومِه، حيثُ جمعوا بينَ وصفَيْنِ في غايةِ القُبْحِ، وهما الظُّلمُ والعُلوُّ، ولو اتَّصفوا بواحدٍ منهما فقط؛ لكانَ كافيًا في تقبيحِ شأنِهم.

بلاغةُ اللَّفِّ والنَّشرِ في ﴿ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ﴾:

ارتباطُ الظُّلمِ بالكفران، والعلوِّ بالإيقان

﴿ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ﴾ في قولِه سبحانه: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ﴾، نَشْرٌ على ترتيبِ اللَّفِّ، فالظُّلمُ في الجَحْدِ بها، والعُلوُّ في كونِهم موقِنينَ بها(3).

سِرُّ التَّعبيرِ بالفاءِ ﴿فَٱنظُرۡ﴾:

التَّذكيرُ بسوءِ العاقبةِ، سمةٌ في الوعظ غالبة

الفاءُ في قولِه ﷻ: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ للتَّفريعِ(4)، والغرضُ مِنْ هذا التَّفريعِ المبادرةُ بالتدبُّر والتأمُّل عند سماعِ أخبار قوم فرعونَ، في ما آلَ إليه أمرهم من الغرق والهلاكِ، كما قال ربُّنا سبحانه: ﴿فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ [الأعراف: 136]، والتَّذكيرُ بسوءِ عاقبتِهم(5).

دلالةُ التَّعبيرِ بلفظ (النَّظر):

الدَّعوةُ إلى التَّأمُّل والنَّظر، أخْذٌ للعظات والعِبَر

التَّعبيرُ بفعلِ الأمرِ ﴿فَٱنظُرۡ﴾ في قولِه عزَّ شأنُه: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ

(1) أبو زهرة: زهرة التفاسير: 10/ 5438.
(2) الخفاجي، عناية القاضي: 7/ 36، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 357.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 233.
(4) الخفاجي، عناية القاضي: 7/ 36.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 138.

﴿كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ يدلُّ على أهميَّة التَّفكُّر والتَّأمُّل في أخبار مَن سبق من الأمم الفاسدة الظالمة، ولا سيَّما فرعونَ ومَلَئِه، وفيه دعوةٌ إلى دراسة التاريخ لأخذ العظةِ والاعتبار؛ لأنَّه لا يمكن معرفة عاقبة أمرهم إلّا بعد دراسة أخبارهم، وفيه إشارةٌ إلى جَعْلِ ما هو معلومٌ مِنْ حالِهم فيما لحقَ بِهِم مِنَ العذابِ بمنزلةِ الشَّيءِ المُشاهَدِ للسّامعينَ، فأمرَ بالنَّظرِ إليهِ[1]، كأنَّه مُتَحقِّقٌ مشاهد يُنظَرُ إليه بالعينِ الباصرةِ.

دلالةُ إبهامِ المخاطَبِ في قوله: ﴿فَٱنظُرۡ﴾:

دعوةُ كلِّ ناظرٍ للاعتبار بعاقبة كلِّ مفسدٍ فاجر

الخطابُ في قولِه جلَّ ذِكْرُهُ: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ لغيرِ مُعيَّنٍ[2]؛ لأنَّ المُراد دعوةُ كلِّ مَنْ له عقلٌ ونظرٌ أن يعتبر بما آل إليه أمرهم من الغرق والهلاك، وفي ذلكَ إيذانٌ بأنَّ ما لحقَهم مِنَ العذابِ، أمرٌ ظاهرٌ مشهورٌ بمنزلةِ المحسوسِ المُشاهَدِ، فيصحُّ أنْ يُؤمَرَ بالنَّظرِ إليه، كلُّ مَنْ يتأتَّى منهُ النَّظرُ، ويجوزُ أنْ يكونَ الخطابُ للنَّبيِّ ﷺ؛ تسليةً لهُ بذِكرِ ما حلَّ بالمُكذِّبين بالرُّسُلِ قبلَهُ[3].

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿كَيۡفَ﴾ في السّياق:

مفادُ الاستفهام عن مآل فرعونَ، وقومه اللِّئام

آثر القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بـ ﴿كَيۡفَ﴾ في قولِهِ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾؛ لأنَّ التَّعبيرَ بها مناسبٌ لما آل إليه أمرُ فرعونَ وملئه من الحال العجيبة الَّتي وصلوا إليها من الفساد، وكأنَّ المعنى: (انظر عاقبة المفسدين التي يُسأل عنها بكيف)[4]، ويجوزُ أنْ تكونَ مُجرَّدَّة عن معنى الاستفهام منصوبة على المفعوليَّة[5]، ويجوزُ أنْ يكونَ ﴿كَيۡفَ﴾ استفهامًا مُعلِّقًا فعلَ النَّظرِ عنِ العملِ، والاستفهامُ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 233.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 233.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 233.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 9/ 36.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 233.

للتَّعجيبِ[1]؛ نُبِّهَ بذلكَ على أنَّ خبرَهم ممّا تتوفَّرُ الدَّواعي على السُّؤالِ عنهُ لعظَمتِهِ[2].

دلالةُ تذكيرِ الفعل ﴿كَانَ﴾ دون تأنيثِهِ:

ورد الفعل ﴿كَانَ﴾ مُذكَّرًا رغم تأنيث لفظ ﴿عَٰقِبَةُ﴾؛ جريًا على أسلوب العرب في جواز تذكير الفعل وتأنيثه، بناءً على أنَّ المقصودَ بالعاقبة محلُّ العذاب، أو العذابُ نفسه.

العـاقـبـةُ الخاسرةُ، عِبرةٌ للعقول الباصرة

سِرُّ التَّعبيرِ بالعاقبةِ دونَ غيرِها:

آثر القرآنُ الكريم التَّعبيرَ بلفظ ﴿عَٰقِبَةُ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾؛ لما تحمله هذه اللَّفظة المُضافة إلى المُفسدين من التَّهديد والوعيد في الدُّنيا والآخرة، ففي الدُّنيا الغرقُ والهلاك، وفي الآخرة العذابُ الشَّديد.

لفظُ العاقبةِ أثيرٌ؛ لأنَّه منبئٌ عن المصير

بلاغةُ الإظهارِ في مقامِ الإضمارِ:

كانَ الظّاهر أنْ يُقالَ: (فانظُرْ كيفَ كانَ عاقبتُهم)، أيْ: آخرُ أمرِ فرعونَ وقومِهِ، ولكنْ عُدِلَ عنِ الإضمارِ إلى الإظهارِ، فقيلَ: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾؛ ليُدلَّ على الوصفِ الَّذي كانَ سببًا لأخذِهم بالعقوبةِ[3]، وفي ذلكَ ذمٌّ لهُم وتحذيرٌ لأمثالِهم[4].

الأخذُ بالعقوبة المُستحقَّة، تجسيدٌ لأوامر الله المحقَّة

علَّةُ عدمِ ذِكْرِ عقوبةِ فرعونَ وقومِهِ:

لم تذكرِ الآيةُ الكريمة عقوبةَ فرعون وقومه - وهي الغرق - كما هو مذكور في آيات أُخر، إنَّما جاء قولُهُ تعالى: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ على العموم دون تخصيص ما آلَ إليهِ فرعونُ وقومُهُ منَ الإغراقِ على الوجهِ الهائلِ الَّذي هو عِبرةٌ للظّالمينَ؛ تنبيهًا على أنَّهُ عُرْضةٌ لكلِّ ناظرٍ، مشهورٌ لدَى كلِّ بادٍ وحاضرٍ[5]، ولتعظيمِ شأنِهِ وتهويلِهِ[6].

ذيوعُ العقوبةِ في الخبر؛ لأنَّها أشهرُ من أن تذكر

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 233.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 252، والبقاعي، نظم الدرر: 14/ 138.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 138.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 165.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 275، والآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 165.
(6) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 17/ 10751.

تهديدُ المشركينَ بالعاقبةِ، طريقة في التَّعريض صائبةٌ

بلاغةُ التَّعريضِ في: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ﴾:

تظهر بلاغةُ التعريضِ في قولِه جلَّ ذكرُهُ: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ في تسلية النَّبيِّ ﷺ بما حلَّ بالمُكذِّبينَ بالرُّسلِ قبلَهُ، وفيه تعريضٌ بتهديدِ المشركينَ بمِثْلِ تلكَ العاقبةِ[1]، والدَّليلُ على التَّعريضِ هو الإتيانُ بوصفِ الإفسادِ المُشعِرِ بأنَّ مآلَ جميعِ المُفسدِينَ لا يكونُ إلى خيرٍ.

الإفسادُ خيبةٌ في الدُّنيا، وخسرانٌ في المعاد

سِرُّ إيثار التَّعبيرِ بلفظ (الإفسادِ):

في قوله تعالى: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾، آثر القرآن الكريم وصْفَهم بالمفسدين دون (الظالمين) مثلًا؛ لأنَّ الفسادَ لفظٌ عامٌّ، وهو نقيضُ الإصلاح، ويُطلق على أخذ المال ظلمًا بغير وجهِ حقٍّ، وعلى إهلاك الزَّرع والنَّسل إلى غير ذلك من صور الفساد الَّتي ارتكبها فرعون وملؤه مع بني إسرائيل مِن قتْلِ أبنائهم واستحياء نسائهم، ولأنَّ الفساد يشمل الظُّلم وغيره؛ فهو أعمُّ.

تفاقمُ الفسادِ، ناشئٌ عن الإيغال في الإفساد

نكتةُ التَّعبيرِ باسمِ الفاعلِ ﴿ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾:

عُبِّرَ بصيغةِ اسم الفاعلِ ﴿ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾، في قولِ الحقِّ تباركَ شأنُهُ: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾، ولم يقل مثلًا: (الَّذين أفسَدوا)؛ لأنَّ صيغةَ اسم الفاعلِ تدلُّ على رُسوخِهم في الإفسادِ، وأنَّهُ صارَ بمنزلةِ صفةٍ مِنْ صفاتِهم الجِبِلّيَّةِ الَّتي لا تفارقُهم، وفي ذلكَ مزيدُ تقبيحٍ لشأنِهم وسوءِ حالِهم ومآلِهم، كذلك في التَّعبيرِ بهذهِ الصّيغةِ مراعاةُ ملاءمةِ فاصلةِ الآيةِ القرآنيَّة لما قبلَها.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الجَحْدُ أخصُّ مِنَ الإنكارِ، وكلاهما مفردة قرآنيَّةٌ صميمة

الجَحْد والإنكار:

الجَحْدُ أخصُّ مِنَ الإنكارِ؛ لأنَّ الجَحْدَ إنكارُ الشَّيءِ الظّاهرِ،

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 233.

كقولِهِ تعالى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ٥١﴾ [الأعراف: 51]، فجُعِلَ الجَحْدُ بما تدلُّ عليهِ الآياتُ، ولا يكونُ ذلكَ إلّا ظاهرًا، ويجوزُ أنْ يُقالَ: الجَحْدُ هو إنكارُ الشَّيءِ معَ العلم بهِ، كقولِهِ سبحانَهُ: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ﴾، فجُعِلَ الجَحْدُ معَ اليقينِ، والإنكارُ يكونُ معَ العلمِ وغيرِهِ[1].

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 157.

﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ عِلۡمٗاۖ وَقَالَا ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّنۡ عِبَادِهِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٥﴾ [النّمل: 15]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

المقابلة بين حال المفسدين وحال الشّاكرين

لمّا ذكرت الآياتُ السّابقة قصَّةَ موسى عليه السلام وما فيها من آياتٍ وعظات وموقف فرعونَ وقومه منها؛ شرع في ذِكْر قصَّة داودَ وسليمانَ عليهما السلام، وما تحمله من دلائل على تفضيل اللّه لهما بما منحهما من العلم والفضل، وفي كلتا القصَّتيْن إقامةٌ للدليل على حكمته وعلمه، وبيانٌ لِمَنْ كفرَ بِنِعَمِ اللّه عليه مثل فرعونَ وقومِه، ومن شكر أَنْعُمَ اللّه عليه كداود وسليمان عليهما السلام.

ومنها: أنّها مَسوقةٌ لتقريرِ ما سبقَ مِنْ أنَّهُ صلى الله عليه وسلم يُلقَّى القرآنَ من لدن حكيم عليم؛ فإنَّ قصَّةَ داودَ وسليمانَ عليهما السلام مِنْ جملةِ القرآنِ الكريمِ، لُقِّيَهُ صلى الله عليه وسلم مِن لدنْه تعالى، كقصَّةِ موسَى عليه السلام[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَضَّلَنَا﴾: (فضل) أصلٌ يدلُّ على زيادةٍ في شيءٍ[2]، ومِنْ ذلكَ: الفَضْلُ، وهو الزّيادةُ والخيرُ، والإفضالُ: الإحسانُ، يُقالُ: رجلٌ مُفْضِلٌ[3]، وأمّا المُتفضِّلُ؛ فالمُدَّعي للفَضْلِ على أقرانِه، قالَ تعالى: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيۡكُمۡ﴾ [المؤمنون: 24][4]، والمعنى في الآية الكريمة: أحسن إلينا بالزيادة على غيرنا.

2) ﴿عِبَادِهِ﴾: (عبد) أَصْلانِ صَحيحانِ، كَأَنَّهُما مُتَضادَّانِ، فالأَوَّلُ يَدُلُّ عَلَى لينٍ وذُلٍّ، والآخَرُ عَلَى شِدَّةٍ وغِلَظٍ[5]، والعُبوديَّةُ:

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 276، والآلوسي، روح المعاني: 10/ 165.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (فضل).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فضل).
(4) الخليل، العين، والزمخشري، أساس البلاغة: (فضل).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عبد).

إظهارُ التَّذلُّلِ، والعِبادةُ أبلغُ منها؛ لأنَّها غايةُ التَّذلُّلِ، ولا يستحقُّها إلّا اللّهُ تعالى[1].

المَعْنى الإجْماليُّ:

التّنويهُ بعلم داودَ وسليمانَ، وتفضيلُهما على كثير من أهل الإيمان

بيَّنت هذه الآيةُ أنَّ اللّهَ ﷻ أعطى داود وسليمانَ عليهما السلام علمًا عظيمًا؛ فشكرا اللّهَ على ما أولاهما مِنْ مِنَنِه، وقالا: الحمدُ للّهِ الَّذي فضَّلَنا بما آتانا مِنَ العلمِ على كثيرٍ مِنَ المؤمنينَ مِنْ عبادِهِ الَّذينَ لم يُؤْتِهم مِثْلَ ما آتانا.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الواوِ في ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا﴾:

الواوُ بين العطفِ والاستئنافِ معبِّرةٌ عن الإنعامِ والإيلافِ

الواوُ في قوله: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا﴾ يجوز أن تكون عاطفةً، وتكون الجملةُ معطوفةً على محذوفٍ، والتَّقديرُ: (ولقد آتَيْنا موسَى وأخاهُ هارونَ عليهما السلام حكمةً وهُدًى وعلمًا ونصرًا على مَنْ خالفَهما وعِزًّا، ولقد آتَيْنا داودَ وسليمانَ علمًا)[2]، وقيلَ: هذهِ القصَّةُ تتَّصلُ بقولِه تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلۡقُرۡءَانَ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ٦﴾ [النّمل: 6]، فيصحُّ أنْ تكونَ جملةُ: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ عِلۡمٗاۖ﴾ معطوفةً على ﴿إِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهۡلِهِۦٓ﴾ [النّمل: 7]؛ إذا جعَلْنا ﴿إِذۡ﴾ [النّمل: 7] مفعولًا لفعلٍ محذوفٍ، تقديرُهُ: (اذكُرْ)[3].

ويجوز أن تكون استئنافيَّةً، وتكون الجملةُ بعدها: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ عِلۡمٗاۖ﴾ مَسوقةً؛ لتقريرِ ما سبقَ مِنْ أنَّهُ ﷺ يُلقَّى القرآنَ مِنْ لَدُنْ حكيم عليم، فإنَّ قصَّةَ داودَ وسليمانَ عليهما السلام مِنْ جملةِ القرآنِ الكريم، تلقّاه ﷺ من لَدُنْهُ تعالى، كقصَّةِ موسَى عليه السلام[4].

(1) السمين، عمدة الحفاظ: 3/ 20.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 138.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 234.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 276، والآلوسي، روح المعاني: 10/ 165، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 234.

دلالةُ تصديرِ الآية باللّام و(قد):

إظهارُ الإيتاءِ المأمون، من علم الله المكنونِ

جاء تصديرُ قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ عِلۡمٗاۖ﴾ باللّام الموطِّئة للقَسَم وحرفِ التَّحقيقِ (قد)؛ لإظهارِ كمالِ الاعتناءِ بتحقيقِ مضمونِهِ، أي: آتَيْنا كلَّ واحدٍ منهما طائفةً منَ العلم لائقةً بهِ، مِنْ علم الشَّرائعِ والأحكامِ وغيرِ ذلكَ ممّا يختصُّ بكلٍّ منهما، كصنعةِ لَبوسٍ، ومَنْطِقِ الطَّيرِ، أو آتَيْنا كلَّ واحدٍ منهما علمًا سَنيًّا عزيزًا[1].

وممّا يُذكَرُ في غرض تصدير الجملةِ بلامِ القَسَم وحرفِ التَّحقيقِ تنزيلُ المُخاطَبينَ بالآيةِ منزلةَ مَنْ يتردَّدُ في ذلكَ؛ لأنَّهم جَحَدوا نُبوَّةً مِثْلَ نبوَّةِ داودَ وسليمانَ ﵉؛ إذ قالوا: ﴿لَن نُّؤۡمِنَ بِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَلَا بِٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ﴾ [سبأ: 31][2].

ويحتمل أن يكون سببُ هذا التصدير الاهتمامَ بالقصَّة، وما فيها من أحداثٍ تسترعي انتباه القارئِ لها لأخذ العظة والعِبرة، وللتَّدليل على أنَّ اللّه ﷻ هو وحده واهبُ النِّعم، ولا أحد سواه.

سرُّ التَّعبيرِ بالإيتاء دون الإعطاء:

إيتاءُ العِلمِ الشَّريف، فيضٌ من إنعامِ الله المنيفِ

آثَرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بالإيتاء دون الإعطاءِ، في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ عِلۡمٗاۖ﴾؛ لأنَّ الإيتاء هو المناسب لهذا السّياق، فهو يدلُّ على الشَّيء العظيم، كالمُلك والحكمة، ونحو ذلك من الأمور العظام التي استعمل القرآنُ فيها لفظ الإيتاء، وهنا آتى اللّهُ داود وسليمان العِلمَ، وهو شيءٌ عظيم؛ لذلك ناسب التَّعبير بالإيتاء.

دلالةُ التَّعبيرِ بالماضي ﴿ءَاتَيۡنَا﴾:

تحقُّقُ الإيتاءِ بالعلم والتَّمكين، إغداقٌ زاخر من ربِّ العالمين

دلَّ التعبيرُ بصيغةِ الماضي ﴿ءَاتَيۡنَا﴾ في قولِه: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ عِلۡمٗاۖ﴾ على تحقُّقِ الإيتاءِ ووقوعِه، وأنَّهُ لا شكَّ فيه

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 276، والآلوسي، روح المعاني: 10/ 165، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5442.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 234.

ولا امتراءَ، وذلكَ يُقوّي دلالة القَسَمِ وحرف التَّحقيق (قد) على الاعتناء بتحقيقِ مضمونِ الكلام.

دلالةُ التَّعبيرِ بقولِهِ: ﴿ءَاتَيۡنَا﴾ دون علَّمنا:

بيانُ أنَّ عِلمَ الأنبياء الجليّ، فيضٌ مِنْ عِلمِ اللهِ العليِّ

دلَّ التَّعبيرُ بالإيتاء في قولِهِ ﷻ: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ عِلۡمٗاۖ﴾ على أنَّ العلمَ الَّذي أعطاهما اللّهُ إيّاه، علمٌ مُفاضٌ مِنْ عندِهِ جلَّ ثناؤُهُ، ولم يقل: (علَّمْناهما)؛ لأنَّ الإيتاءَ أخصُّ مِنْ (علّمناهما)؛ لأنَّ التَّعليمَ قد يكونُ بواسطةٍ، وقد يكونُ مُفاضًا مِنْ عندِ اللّهِ؛ فلذلكَ استُغنيَ هنا عن كلمةِ (مِنْ لَدُنّا)[1].

سرُّ إسنادِ ﴿ءَاتَيۡنَا﴾ إلى ضميرِ العظَمةِ:

تعظيمُ شأنِ الإيتاءِ، لكونه من ربِّ الأرض والسَّماء

أُسنِدَ فعلُ ﴿ءَاتَيۡنَا﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ عِلۡمٗاۖ﴾ إلى نونِ العظَمةِ؛ لتعظيمِ شأنِ الإيتاءِ بكونِهِ مِنْ عندِ الحكيمِ العليمِ ﷻ، وما يُؤتيهِ العظيمُ عظيمٌ، أيْ: ولقد آتَيْنا بما لَنا مِنَ العظَمةِ والكبرياءِ داودَ وسليمانَ علمًا[2].

دلالةُ تقديمِ داودَ على سليمانَ في السّياق:

بيانُ أهمّيّةِ تقديمِ الأصلِ على الفرعِ في التَّركيب المدرج

قُدِّمَ ذِكْرُ داودَ على سليمانَ عليه السلام في قولِهِ تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ عِلۡمٗاۖ﴾ من باب تقديمِ الأبِ على الابنِ؛ فداودُ أصلٌ، وسليمانُ فرعٌ، ولأسبقيَّةِ داودَ في النُّبوَّةِ والتَّكليفِ والحكمةِ، وليُبنَى عليهِ ذِكْرُ سليمانَ عليه السلام؛ إذ كانَ قد ورثَ مُلْكَهُ من أبيهِ، ولأنَّ في ذِكْرِ داودَ عليه السلام مَثَلًا لإفاضةِ الحكمةِ على مَنْ لم يكنْ مُتصدّيًا لها، وما كانَ مِنْ أهلِ العلمِ بالكتابِ أيّامَ كانَ فيهم أحبارٌ وعلماءُ، فقد كانَ داودُ عليه السلام راعيًا غنمَ أبيهِ في بيتِ لَحْمٍ[3].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 234.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 14/ 139.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 233.

دلالةُ العطفِ في قولِهِ: ﴿وَسُلَيۡمَٰنَ﴾:

التَّشريكُ بينَ الوالدِ والولدِ في إيتاءِ العلمِ، وصلٌ للعطاءِ المستمرِّ

يدلُّ العطفُ في قولِهِ جلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ عِلۡمٗاۖ﴾ على أنَّ كلًّا مِنْ داودَ وسليمانَ عليهما السلام قد أوتيَ عِلمًا مِنَ اللّهِ ﷻ، وفي ذلكَ زيادةُ امتنانٍ على الأبِ وابنِهِ، وزيادةُ تشريفٍ لآلِ داودَ عليه السلام، وفيه دلالةٌ على تكريمهما في الجمع بينهما في أمرِ العلم، وأنَّه من أعلى العطاءات بعد النُّبوَّة.

سرُّ التَّعبيرِ بـ ﴿عِلۡمٗاۖ﴾ دون (حكمًا وعلمًا):

العلمُ أعمُّ من الحُكمِ، وأشمل للبيان عنهما

جاء التَّعبيرُ القرآنيُّ مُتحدِّثًا عن إيتاء اللّهِ لداودَ وسليمان بقوله: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ عِلۡمٗاۖ﴾، فذكرَ العِلمَ فقط مع أنَّ الحديثَ عنهما في سورة الأنبياءِ جمع بين الحُكم والعِلم في قوله: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ ٧٨ فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ﴾ [الأنبياء: 78 - 79]، والملاحظ زيادةُ الحُكم في موضع الأنبياء، وعلَّةُ ذلك اختلافُ السّياق في كلٍّ منهما، فمَوضع سورةِ الأنبياء كان الحديث فيه عن التَّحكيمِ في قضية الغنم الَّتي أفسدت الزرع، وحُكم داود، ثم حُكم سليمان عليه السلام، وزكَّى اللّه حُكمَ سليمان بقوله: ﴿فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ﴾ [الأنبياء: 79]، ومن ذلك جاء التَّعبيرُ القرآنيُّ بعد هذا لدفع التَّوهُّم في تخطئة حُكم داود عليه السلام، وإزالة هذا الوهم بقوله: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ﴾ [الأنبياء: 79]؛ لذلك ناسب التعبير بالحكم، أمّا موضعُ سورة النَّمل؛ فهو في مقام الإنعام والامتنان، ورأسُ ذلك كلِّهِ العلمُ، فاقتصر التَّعبير عليه؛ لأنَّه أعمُّ، والحُكمُ نوعٌ من العِلم.

غرضُ تنكيرِ لفظ ﴿عِلۡمٗاۖ﴾:

تنوُّعُ دلالةِ التَّنكيرِ، سَعة في المعنى والتَّأويل

جاء التَّعبيرُ القرآنيُّ بلفظ العِلم نكرةً في قولِهِ جلَّ شأنُهُ: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ عِلۡمٗاۖ﴾، ولم يقل: (العلم)؛ لأنَّ التَّنكيرَ في ﴿عِلۡمٗاۖ﴾ يحتملُ أنْ يكونَ للتَّقليل، أي: ولقد آتَيْنا داودَ وسليمانَ

بعضًا مِنَ العلمِ[1]، قال تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ٨٥﴾ [الإسراء: 85]، وهذا التَّقليل بالنِّسبة إلى علم اللّهِ تعالى؛ لأنَّ عِلم اللّه لا حدَّ له، ويكون الغرضُ من ذلك دفْعَ الإعجاب والاغترار بالعلم من الإنسان، مهما كان صاحبه، ويحتملُ أنْ يكونَ التَّنكير للتَّعظيم والتَّفخيم، أي: ولقد آتَيْنا داودَ وسليمانَ علمًا سَنيًّا غزيرًا[2]؛ لأنَّهُ علمٌ بنبوَّةٍ وحكمةٍ[3]، فلا يوجد عِلمٌ أفضلُ من ذلك، وممّا يؤيِّد ذلك أنَّ سياقَ الامتنانِ يناسبُهُ تعظيمُ العلم الَّذي أوتياهُ، كأنَّهُ قالَ: علمًا أيَّ علم، وهو كذلكَ، فإنَّ علمَهما كانَ ممّا يُستعظَمُ، ويُستغرَبُ، ومِنْ ذلكَ علمُ مَنْطِقِ الطَّيرِ وسائرِ الحيواناتِ الَّذي خصَّهما اللّهُ تعالى بهِ[4]، وكلا التوجيهَيْن مناسبٌ للمقام؛ لأنَّهُ إنْ نُظِرَ إلى أنَّ القائلَ هو اللّهُ تعالى، فكلُّ علم عندَهُ قليلٌ، وإنْ نُظِرَ إلى أنَّ السّياقَ للامتنانِ، فالعظيمُ إنَّما يمتنُّ بأمرٍ عظيمٍ[5]، وقيلَ: التَّنكيرُ للنَّوعيَّةِ، والمعنى: نوعًا مِنَ العلم، وهو علمُ الحكمةِ والشَّرائعِ[6].

سرُّ العطفِ بالواوِ دونَ الفاءِ في: ﴿وَقَالَا﴾:

الإشعارُ بأنَّ حمْدَ اللهِ، سببُهُ العلمُ المؤتى من الله

آثر القرآنُ الكريمُ العطفَ بالواو، في قولِهِ تعالى: ﴿وَقَالَا ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي فَضَّلَنَا﴾، مع أنَّ الظّاهر في العطف أن يكون الفاءُ دونَ الواو؛ لترتُّبِ الحمدِ على الإيتاءِ المذكورِ، كقولِكَ: أعطيتُهُ فشكرَ، ومنعتُهُ فصبرَ، ولكنْ عُطِفَ بالواوِ؛ إشعارًا بأنَّ ما قالاهُ بعضُ ما أحدثَ فيهما إيتاءُ العلم، وشيءٌ مِنْ مواجبِهِ، فأُضمرَ ذلكَ، ثمَّ عُطِفَ عليهِ التَّحميدُ، كأنَّهُ قيلَ: ولقد آتَيْناهما علمًا، فعَمِلا بهِ، وعلَّماهُ،

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 352، والنسفي، مدارك التنزيل: 2/ 594.
(2) الزمخشري، الكشاف: 3/ 352، والنسفي، مدارك التنزيل: 2/ 594.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 234.
(4) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 11/ 475.
(5) الخفاجيّ، عناية القاضي: 7/ 36، والآلوسي، روح المعاني: 10/ 165.
(6) ابن التّمجيد، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 357.

وعَرَفا حقَّ النِّعمةِ فيهِ والفضيلةِ، وقالا: الحمدُ للّهِ الَّذي فضَّلَنا[1]، وممّا يُذكر في سرِّ العطف بالواو: أنَّ إيتاءَ العلم مِنْ جلائلِ النِّعَم، يستدعي إحداثَ الشُّكرِ أكثرَ ممّا ذُكِرَ، فجيءَ بالواوِ؛ لأنَّها تستدعي معطوفًا عليهِ مُضمَرًا، فيُقدَّرُ بحسَبِ ما يقتضيهِ موجِبُ الشُّكرِ، مِنْ قولِهِ: (فعَمِلا بِهِ، وعلَّماهُ)؛ لأنَّهما مِنَ الشُّكرِ بالجوارحِ، وقولِهِ: (وعَرَفا حقَّ النِّعمةِ فيهِ والفضيلةِ)، فإنَّهُ مِنَ الشُّكرِ بالقلبِ، ﴿وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾؛ فإنَّهُ مِنَ الشُّكرِ اللِّسانيِّ، فيستوعبُ جميعَ أنواعِ الشُّكرِ، ولو نُصَّ بالفاءِ؛ لاقتُصِرَ على المذكورِ، وفاتَ المقصودُ[2].

دلالةُ إيجازِ الحذف في الآية الكريمة:

تقديرُ المحذوفِ، ينبئُ عن تكامل المعنى في مكوِّنات السّياق

في قوله تعالى: ﴿وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ إيجازٌ بالحذفِ، حيثُ اقتضَتِ الواوُ معطوفًا عليهِ يكونُ مُسبَّبًا عن إيتائِهما العلمَ، مُترتِّبًا عليهِ، وهو مُقدَّرٌ، تقديره: (ولقد آتيناهما علمًا، فعملا به، وعلَّماه، وعرفا حقَّ النِّعمة فيه، وقالا: الحمد للّه)، وليسَ بمذكورٍ[3].

دلالةُ عطفِ (قالا) على ﴿ءَاتَيْنَا﴾:

ملمحُ ترتُّبِ الحمدِ على إيتاءِ العلمِ

ذهب بعضُهم إلى عطف: (قالا) على قوله: ﴿ءَاتَيْنَا﴾ في الآية الكريمة من غير تقديرٍ، ويكون المعنى: أنَّهُ تعالى أخبرَ عمّا صنعَ بهما، وأخبرَ عمّا قالا، فكأنَّهُ قالَ: نحنُ فعَلْنا إيتاءَ العلمِ، وهما فَعَلا الحمدَ، وتُترك إلى فَهْمِ السّامع استفادةُ ترتُّبِ الحمدِ على إيتاءِ العلمِ[4]، وبناءً على ذلكَ يكونُ (قالا) معطوفًا على ﴿ءَاتَيْنَا﴾ مِنْ غيرِ تقديرِ فعلٍ آخرَ مُصدَّرٍ بالفاءِ الدّالَّةِ على إفادةِ التَّسبُّبِ[5].

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 352.
(2) الطيبي، فتوح الغيب: 11/ 475.
(3) التفتازاني، شرح مفتاح العلوم: 2/ 323.
(4) السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 278.
(5) التفتازاني، شرح مفتاح العلوم: 2/ 323.

بلاغةُ الكنايةِ في الحمد على التَّفضيل:

الحمدُ دالٌّ على العلم، وعلى عموم الفضلِ

قيلَ: إنَّ حكايةَ قولِهما: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي فَضَّلَنَا﴾ كنايةٌ عن تفضيلِهما بفضائلَ غيرِ العلمِ، وتنويهٌ بأنَّهما شاكرانِ نعمتَهُ، ولأجلِ ذلكَ عُطِفَ قولُهما هذا بالواوِ دونَ الفاءِ؛ لأنَّهُ ليسَ حمدًا لُمجرَّدِ الشُّكرِ على إيتاءِ العلم[1]، بل على عموم ما آتاهم اللّه من فضله.

سِرُّ التَّعبيرِ بجملة: ﴿وَقَالَا﴾:

بيانُ تعليمِ النّاس كيفيَّةَ الحمدِ على النِّعمِ في الأساس

آثرَ القرآنُ الكريم التعبيرَ بالقول دون غيره من الألفاظ، الَّتي تكون في هذا المقام من نحو الذِّكر وغيره؛ لأنَّ لفظَ القولِ عامٌّ، وتندرج تحته كلُّ عبارات الذِّكر والحمد، سواءٌ كانت باللِّسان أم بالقلب، ولأنَّ القول يحمل معنى الظُّهور، ويكون الغرض من قولهما تعليمَ الناس كيف يحمدون اللّه على نعمه.

دلالةُ التَّعبيرِ بصيغة التَّكلُّم:

إخفاءُ المُتكلِّمِ نفسَهُ مع غيره ملمحٌ للتَّواضع الإيجابيِّ

جاء التَّعبيرُ القرآنيُّ على لسان داود وسليمان بصيغة المُتكلِّم، في قوله: ﴿فَضَّلَنَا﴾ مع أنَّ ظاهر الأسلوب يقتضي أنَّ عبارةَ كلٍّ منهما: (فضَّلَني)؛ إلّا أنَّهُ عُبِّرَ عنهما عندَ الحكايةِ بصيغةِ المُتكلِّم معَ الآخر إيجازًا، فإنَّ حكايةَ الأقوالِ المُتعدِّدةِ - سواءٌ كانَتْ صادرةً عن المُتكلِّم أم عن غيرِهِ بعبارةٍ جامعةٍ للكلِّ - ممّا ليسَ بعزيزٍ.

ويجوزُ أنْ يكونَ كلُّ واحدٍ منهما قد شكرَ اللّهَ على مِنَحِهِ ومِنَحِ الآخر منهما، على أنَّهُ يَكْثُرُ استعمالُ ضميرِ المُتكلِّمِ المُشاركِ لا لقصدِ التَّعظيم؛ بل لإخفاءِ المُتكلِّمِ نفسَهُ بقَدْرِ الإمكانِ تواضعًا، كما قالَ سليمانُ عليه السلام عَقِبَ هذا: ﴿عُلِّمۡنَا مَنطِقَ ٱلطَّيۡرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيۡءٍۖ﴾[2].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 234.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 234.

دلالةُ التَّعبيرِ بالجملةِ الاسميَّةِ:

الحمدُ للهِ أزليٌّ قديمٌ، وسيبقى مستمرًّا دائمًا على المدى

عُبِّرَ بالجملةِ الاسميَّةِ في قولِ اللّه تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي فَضَّلَنَا﴾، ولم يقل مثلًا: (نحمدُ اللّهَ)؛ للدَّلالةِ على أنَّ كونَ الحمدِ للّهِ أمرٌ ثابتٌ على الدَّوامِ، وذلكَ أنسبُ بمقامِ الحمدِ والثَّناءِ، وممّا يُذكر في سِرِّ التعبير بالجملة الاسميَّة دون الجملة الفعليَّة: أنَّ الحمد للّه أمرٌ أزليٌّ قديمٌ؛ فاللّه حمد نفسه قبل أن يحمده خَلْقُهُ؛ لذلك ابتدأ اللّهُ القرآنَ بقوله: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢﴾ [الفاتحة: 2] بصيغة الاسميَّة بعد البسملة، وتكرَّر ذلك في مطلع بعض السّور، مثل سورة الأنعام والكهف وسبأ، وكلُّها بصيغة الجملة الاسميَّة ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾.

دلالةُ (أل) في لفظ ﴿ٱلۡحَمۡدُ﴾:

بيانُ شمولِ الحمد كلَّ حمدٍ يكون لله تعالى

جاء لفظُ ﴿ٱلۡحَمۡدُ﴾ مُعرَّفًا بـ (أل) الَّتي تدلُّ على الاستغراق؛ لتشمل كلَّ حمدٍ يكون للّه تعالى؛ لأنَّ الحمدَ في الحقيقةِ كلَّهُ للّهِ؛ إذ ما مِنْ خيرٍ إلّا وهو مولِيه بواسطةٍ أو بغيرِ واسطةٍ[1]، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ داود وسليمان عليهما السلام استغرقا في حمدهما للّه تعالى كلَّ صيغِ الحمد.

علَّةُ اختيارِ ﴿ٱلۡحَمۡدُ﴾ دونَ (الشُّكر):

الحمدُ أعمُّ من الشُّكر، وأوفى في الدَّلالة على المراد

اختيرَ ﴿ٱلۡحَمۡدُ﴾ دونَ الشُّكرِ في قولِ الحقِّ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿وَقَالَا ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي فَضَّلَنَا﴾؛ لأنَّ الحمدَ يعمُّ الفضائلَ والفواضلَ، بخلافِ الشُّكرِ؛ فإنَّهُ خاصٌّ بالفواضلِ، فأوثِرَ اللَّفظُ الأعمُّ الأنسبُ بمقامِ الثَّناءِ على المُنعِم، وممّا يُذكَرُ في سرِّ اختيار الحمدِ دون الشُّكر: أنَّه أعظمُ من الشُّكر؛ وذلك لأنَّ الحمد يكون من باب الثناء على اللّه على النِّعمة الواصلة إليك أو إلى غيرك، بخلاف الشُّكر؛ فإنَّه يكون بالنعمة الواصلة إليك؛ فكلُّ شكرٍ حمدٌ، وليس كلُّ حمدٍ شكرًا؛ لأنَّ الحمد في كلِّ أحواله عبادةٌ في السَّرّاء والضَّرّاء، بخلاف الشُّكر؛ فقد يقعُ من البعض، وليس من باب العبادة.

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 139.

دلالةُ (اللّامِ) في قولِهِ تعالى: ﴿لِلَّهِ﴾:

تنوُّعُ دلالةِ اللّامِ، مفيدٌ في البيانِ عن المرادِ في الكلامِ

الظّاهرُ أنَّ لامَ ﴿لِلَّهِ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾؛ للاستحقاقِ، والمعنى: الحمدُ مُستحَقٌّ للهِ، ويُحتملُ أنْ تكونَ اللّام للمِلْكِ؛ لأنَّهُ ﷻ خالقٌ لكلِّ مَنْ نطقَ بالحمدِ، والخالقُ مالكٌ، كما يُحتمَلُ أيضًا أنْ تكونَ للاختصاصِ؛ لأنَّ لهُ سبحانَهُ اختصاصًا بكلِّ المحامدِ، وكلُّ هذه المعاني مُرادةٌ في صدورِ الحمدِ من العبدِ لربِّهِ.

بلاغةُ التَّعبيرِ بلفظِ الجلالةِ ﴿لِلَّهِ﴾:

بيانُ أهمّيَّةِ اختيارِ الاسمِ الجامعِ للصِّفاتِ العلويّةِ

اختيرَ لفظُ الجلالةِ دونَ غيرِهِ مِنَ الأسماءِ الحُسنى في قولِهِ تعالى: ﴿وَقَالَا ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾؛ لأنَّهُ جامعٌ لصفاتِ الجلالِ والجمالِ والكمالِ، الَّتي بها يُستحَقُّ الحمدُ لهُ وحدَهُ ﷻ، والمعنى: (وقالا: الحمدُ للهِ الَّذي لا مِثْلَ لهُ، ولهُ الجلالُ والجمالُ)[1].

سِرُّ التَّعبيرِ بـ ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ دون (لله الحمد):

قصرُ الحمدِ على اللهِ ﷻ، استحقاقٍ واعترافٍ

النّاظرُ في أسلوب القرآن في هذه الآية، يجد أنَّ الحمدَ قد أُسنِدَ للّه ﷻ، فـ﴿ٱلۡحَمۡدُ﴾ مبتدأ، و﴿لِلَّهِ﴾ خبر المبتدأ، وهذا الأسلوبُ يُفيد إثباتَ الحمدِ للّه ابتداءً، وفي بعض المواضع قُدِّم الخبرُ على المبتدأ، في نحو قوله: ﴿فَلِلَّهِ ٱلۡحَمۡدُ﴾ [الجاثية: 36]، والغرض من ذلك قصْرُ الحمدِ على اللّه ﷻ، ويُؤكِّد ذلك أنَّ أغلبَ المواضع الَّتي قُدِّمَ فيها لفظ الجلالة على الحمد تتعلَّق بالآخرة وما فيها من مشاهد.

سِرُّ اختيارِ لفظِ الجلالة مع الحمد:

بيانُ أنَّ الحمدَ للهِ استحقاقٌ لذاته دون سواه

النّاظرُ في القرآنِ الكريم في مثل هذا الأسلوبِ، سواءٌ تقدَّم لفظ الحمد أم تأخَّر يجد أنَّه جاء مع لفظ الجلالة (اللّه) دون غيره من أسمائه الحسنى، نحو: الخالق والرازق، ولو جاء الحمد مع لفظ آخر غير لفظ الجلالة؛ لَفُهِمَ أنَّ الحَمْدَ بسبب هذا الاسم دون غيره،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 139.

فلو قيل: الحمْدُ للخالقِ؛ لَفُهِمَ أنَّ الحمد بسبب الخلق، وهكذا مع بقيَّة أسماء اللّه الحسنى، لكنَّ القرآنَ جاء بلفظ الجلالةِ (اللّه)، وهو علمٌ على الذّات المقدَّسة؛ ليدلَّ على أنَّ الحمد استحقَّه ربُّنا لذاته؛ لأنَّ لفظَ الجلالة (اللّه)، جمع كلَّ صفات الجمال والجلال والكمال؛ فبذلك يكون استحقَّ الحمد لذاته.

سرُّ التَّعبيرِ باسمِ الموصولِ وصلته:

الإيماءُ إلى علَّةِ استحقاقِ المحامد من كلِّ حامد

عُبِّرَ باسمِ الموصولِ وصِلَتِه في قولِه تعالى: ﴿وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ للإيماءِ إلى علَّةِ حمدهما للّه تعالى، وهي كونُهُ جلَّ شأنُهُ قد فضَّلَهما على كثيرٍ مِنْ عبادِهِ المؤمنينَ، وكأنَّهُ قيلَ: الحمدُ للّه؛ لأنَّهُ فضَّلَنا على كثيرٍ مِن عبادِهِ المؤمنينَ.

دلالةُ صيغةِ الماضي ﴿فَضَّلَنَا﴾:

تفضيلُ داوُدَ وسُلَيمانَ على سائر الأنام

جاء بصيغةِ الماضي ﴿فَضَّلَنَا﴾ في قولِه جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّ تفضيلَهما على كثيرٍ مِنْ عبادِ اللّهِ المؤمنينَ أمرٌ قد تحقَّقَ، وثبتَ، لا شكَّ فيهِ ولا امتراءَ، ولذلكَ بادرا إلى حمدِ المُنعِمِ المُتفضِّلِ جلَّتْ أسماؤُهُ.

بلاغةُ الإيجازِ في قولِهِ: ﴿فَضَّلَنَا﴾:

إفادةُ العموم فيما فُضِّلا به من العلم الظّاهر والمكتوم

في قولِهِ جلَّ ذِكْرُهُ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ إيجازٌ بحذفِ مُتعلِّقِ فعلِ ﴿فَضَّلَنَا﴾، وذلك لإفادة العموم فيما فُضِّلا به من العلم وغيره، والمعنى: الحمدُ للّهِ الَّذي فضَّلَنا بما آتانا مِنَ العلم وغيره على كثيرٍ مِنْ عبادِهِ المؤمنينَ[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بالتَّفضيل في قوله: ﴿فَضَّلَنَا﴾:

بيانُ الزّيادةِ في الفضلِ والخير، تفضيلٌ ممَّن بيده الخير

آثر القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بالتَّفضيل في قوله: ﴿فَضَّلَنَا﴾؛ لأنَّ التَّفضيل يدلُّ على الزيادة في الفضل والخير؛ لذلك كان التَّعبير

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 139، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 276.

بالتَّفضيل هو المناسب هنا مع داود وسليمان عليهما السلام بما زادهم اللّه من العلم الَّذي هو أساس كلِّ شيءٍ، فالنُّبوَّة مبنيَّةٌ على العلم؛ لذلك كان تفضيلُ اللّه لهما.

دلالةُ التَّعبيرِ بالحرف ﴿عَلَىٰ﴾:

تأكيدُ علوِّ قدرِ داوُدَ وسُلَيْمان ورفعةِ مكانتِهما

يدلُّ حرفُ الجرِّ ﴿عَلَىٰ﴾ في قولِ الحقِّ تباركَ شأنُهُ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ على علوِّ قدْرِ داود وسليمان عليهما السلام على كثيرٍ من المؤمنين، وهذا معنًى ظاهرٌ في حقيقته؛ لأنَّ الأنبياءَ أعلى درجةً من أتباعهم ومن الذين آمنوا بهم.

دلالةُ التَّعبيرِ بلفظ ﴿كَثِيرٍ﴾:

التَّواضع اعترافٌ للجليل، بما أولاهما من الفضل الجزيل

التَّعبيرُ بالكثرةِ في قوله تعالى: ﴿فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يدلُّ على وجودِ مُفضَّلٍ عليه، وقد اختُلِفَ في المُرادِ به، فقيلَ: مَنْ لم يُؤْتَ علمًا، أو مَنْ لم يُؤْتَ مِثْلَ علمِهما، وفيهِ أنَّهما فُضِّلا على كثير، وفُضِّلَ عليهما كثيرٌ[1]، ولم يُفضِّلا أنفسَهما على الكلِّ، وذلكَ يدلُّ على حُسْنِ التَّواضعِ[2]، وقيلَ: كلُّ مَنْ ثبتَ لهُ هذا الوصفُ مِنَ الماضينَ، أو أنَّهما أرادا بالعبادِ أهلَ عصرِهما، فعبَّرا بـ ﴿كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ﴾؛ تواضعًا للّه[3].

دلالةُ ﴿مِّنْ﴾ في قولِهِ: ﴿مِّنْ عِبَادِهِ﴾:

أثرُ حرفِ المعنى، في رفْعِ الإبهام في سياقِ الكلام

جاء حرفُ الجرِّ ﴿مِّنْ﴾ في قولِهِ سبحانه وتعالى: ﴿فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ للتَّبيينِ، وذلكَ لِما في لفظِ ﴿كَثِيرٍ﴾ مِنَ الإبهامِ المحتاجِ إلى البيانِ.

سِرُّ التَّعبيرِ بـ ﴿عِبَادِهِ﴾ دون (عبيده):

العبادُ عابدون لله، والعبيدُ شاردون عن منهجه وهداه

آثر القرآنُ الكريم التَّعبيرَ بلفظ ﴿عِبَادِهِ﴾، دون لفظ (عبيده)، في قوله تعالى: ﴿مِّنْ عِبَادِهِ﴾، فلفظ (العباد) يُعبَّر به عن الَّذين

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 353، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 156، والنسفي، مدارك التنزيل: 2/ 594.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 24/ 547.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 235.

دخلوا تحت مظلَّة العبوديَّة للّه طوعًا من غير إكراهٍ ولا جبرٍ على ذلك، ولذلك كان التَّعبيرُ بلفظ (عباد) دائمًا، يأتي في مقام المدح والثَّناء والبشارة، مثل قوله: ﴿فَبَشِّرۡ عِبَادِ ١٧ ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ﴾ [الزُّمر: 17 - 18]، وقوله: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ [الفرقان: 63] الآية، لذلك كان التَّعبيرُ في هذه الآية بلفظ ﴿عِبَادِهِ﴾؛ لأنَّه جاء في مقام الامتنان والإنعام على داودَ وسليمانَ عليهما السلام واعترافهما بفضل اللّه عليهما، أمّا لفظ (العبيد)؛ فيُعبَّرُ به عمَّن شردوا عن منهج اللّه، واختاروا طريقًا غيرَ طريقِه سبحانه، ومع ذلك هم مقهورون تحت إرادته، فمِن هذه الناحيةِ همُ عبيد للّه تعالى في الأمور الَّتي جُبروا عليها، كالمرض والموت، وهذا كلُّه في الدُّنيا، أمّا في الآخرة؛ فالكلُّ عبادٌ للّه تعالى؛ لأنَّ الآخرةَ ليس فيها اختيارٌ، بل الكلُّ مستوٍ في العبوديَّة للّه تعالى[1].

سِرُّ الإضافةِ في قوله تعالى: ﴿عِبَادِهِ﴾:

النِّسبةُ بالإضافةِ لله تعالى شرفٌ وتشريفٌ

جاءت إضافةُ العبادِ إلى الضَّميرِ الرّاجعِ إلى اللّه تعالى في قولِه: ﴿عِبَادِهِ﴾ لتشريفِ العبادِ، ويدلُّ على ذلكَ وصفُهم بصفةِ الإيمانِ الَّتي بها يستحقُّ العبدُ التَّكريمَ.

دلالةُ وصفِ عبادِهِ بالإيمانِ:

مــدحُ الـعـبـادِ وتكريمُهم فضلٌ من الله ومنَّة

وُصِفَ العبادُ بالإيمانِ في قولِ اللّهِ جلَّتْ قدرتُهُ: ﴿فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّنۡ عِبَادِهِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾؛ لتشريفِهم بصفةِ الإيمانِ، الَّتي هي أصلُ التَّشريفِ والتَّكريم، وأصلُ المحامدِ والمفاخرِ كلِّها، وبها يترقَّى العبدُ في منازلِ القُرْبِ والزُّلْفَى.

دلالةُ اسمِ الفاعلِ: ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾:

بيانُ أنَّ وصفَهم بالإيمان، يشير إلى رُسوخِهم فيه

عُبِّرَ بصيغةِ اسمِ الفاعلِ في قولِ اللّه تعالى: ﴿مِّنۡ عِبَادِهِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، ولم يقل مثلًا: (الَّذينَ آمَنوا)؛ لأنَّ صيغةَ اسم

(1) محمد أحمد شلبي، دلالات الإفراد والتثنية والجمع في القرآن الكريم، ص: 426.

الفاعلِ تدلُّ على رُسوخِهم في الإيمانِ، وأنَّهُ صارَ بمنزلةِ صفةٍ مِنْ صفاتِهم الجِبلِّيَّةِ الَّتي لا تفارقُهم، والمعنى: فضَّلَنا على كثيرٍ مِنْ عبادِهِ المؤمنينَ، أي: الَّذينَ صارَ الإيمانُ لهُم خُلُقًا[1]، يضافُ إلى ذلكَ أنَّ في التَّعبيرِ بهذهِ الصّيغةِ مراعاةَ ملاءمةِ فاصلةِ الآيةِ لِما قبلَها.

سِرُّ الامتنانِ بنعمةِ العِلمِ دون غيرِها:

بيانُ عُلوِّ منزلةِ العلمِ، وشرف أهله وفضلهم

لقد أعطَى اللّهُ داودَ وسليمانَ ﵉ نِعَمًا كثيرةً غيرَ العلم، فألانَ لداودَ الحديدَ، وأعطَى سليمانَ مُلْكًا لا ينبغي لأحدٍ مِنْ بعدِهِ، وسخَّرَ لهُ الرّيحَ والجِنَّ، وعلَّمَهُ مَنْطِقَ الطَّيرِ ونحو ذلك، ومعَ ذلكَ لم يمتَنَّ عليهما في قولِهِ: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ عِلۡمٗاۖ﴾ إلّا بالعلم، وفي ذلكَ دليلٌ على فضلِ العلمِ وشرفِ أهلِهِ، حيثُ شَكَرا على العلم، وجعلاهُ أساسَ الفضلِ، وفيهِ تحريضٌ للعالِمِ على أنْ يحمدَ اللّهَ تعالى على ما آتاهُ مِنْ فضلِهِ[2].

سِرُّ ذِكرِ قصَّةِ سليمان بعد قصَّة موسى:

مـن النّـاس شـاكـرٌ كـداود وسـلـيـمـان، ومـنـهـم كـافـرٌ كفرعون

ذَكَر القرآن الكريم قصة سليمان ﵇ بعد قصَّة موسى ﵇؛ لأنَّه لَمّا كانَ في قصَّةِ موسَى وإرسالِهِ إلى فرعونَ عِبْرَةٌ ومَثَلٌ للَّذينَ جَحَدوا برسالةِ نبيِّنا محمَّدٍ ﷺ، كذلكَ في قصَّةِ سليمانَ ﵇ ومَلِكةِ سَبَأٍ، وما رأَتْهُ مِنْ آياتِهِ وإيمانِها به؛ مَثَلٌ لعِلمِ النَّبيِّ ﷺ، وإظهارٌ لفضيلةِ مَلِكةِ سَبَأٍ؛ إذ لم يَصُدَّها مُلْكُها عن الاعترافِ بآياتِ سليمانَ ﵇، فآمنَتْ به، وفي ذلكَ مَثَلٌ للَّذينَ اهتدَوا مِنَ المؤمنينَ[3].

وممّا يُذكر في سرِّ ذِكْر قصَّة سليمان ﵇ بعد قصة موسى

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 139.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 24/ 547، والبيضاويّ، أنوار التنزيل: 4/ 156.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 233.

مع فرعون أنَّ اللّه ﷻ يبتلي بنعَمِهِ مَنْ يشاء من عباده، فمِنْهم مَن يكفر بهذه النِّعم، ويجعلها أسلحةً يحارب بها دعوةَ اللّه سبحانه، كما حدث من فرعونَ مع موسى عليه السلام، ومنهم مَنْ يتلقَّى هذه النِّعم بالشُّكر للّه والانقياد له، ويجعلها عونًا على طاعته، كما فعل سليمان عليه السلام[1].

(1) الخطيب، التفسير القرآنيّ للقرآن الكريم: 7/ 224.

﴿وَوَرِثَ سُلَيۡمَٰنُ دَاوُۥدَۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمۡنَا مَنطِقَ ٱلطَّيۡرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيۡءٍۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡمُبِينُ ١٦﴾ [النّمل: 16]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

العلاقةُ بين علم داود وسليمان، وبين الوراثة وعلم منطق الطّير وكلِّ شيء

لمّا ذكرت الآية السّابقة ما آتاه اللّه داود وسليمان من نِعَم عظيمة على رأسها العِلْمُ في قوله: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ عِلۡمٗاۖ﴾؛ بيَّن هنا وراثة سليمانَ لداود عليهما السلام في أمر النُّبوَّة والعِلْم والمُلْك بقوله: ﴿وَوَرِثَ سُلَيۡمَٰنُ دَاوُۥدَۖ﴾ الآية.

ومنها: لمّا كانَ كلٌّ مِنْ داودَ وسليمانَ عليهما السلام قد أوتيَ ما ذُكِرَ؛ أشارَ سبحانَهُ إلى فضلِ سليمانَ عليه السلام، بأنَّهُ جمعَ إلى ما آتاه اللّهُ ما منح به أباه، فقال: ﴿وَوَرِثَ سُلَيۡمَٰنُ دَاوُۥدَۖ﴾ الآيةَ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَوَرِثَ﴾: (ورث) كَلِمَةٌ واحِدَةٌ، هيَ الوِرْثُ، والميراثُ أَصْلُهُ الواوُ، وهوَ أَنْ يَكونَ الشَّيْءُ لِقَوْمٍ، ثُمَّ يَصيرَ إِلَى آخَرينَ بِنَسَبٍ أَوْ سَبَبٍ[2]، ويقالُ: ورِثْتُ مالًا عن زيدٍ، ووَرِثْتُ زيدًا، ويُقالُ: أورثَني الميِّتُ كذا، وقالَ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَۖ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٥٩﴾ [الشّعراء: 59]، ويُقالُ لكلِّ مَنْ حصلَ لهُ شيءٌ مِنْ غيرِ تَعَبٍ: قد ورثَ كذا، ويُقالُ لِمَنْ خوِّلَ شيئًا: أورثَ، قالَ تعالى: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٧٢﴾ [الزّخرف: 72][3].

2) ﴿مَنطِقَ﴾: (نطق) أَصْلانِ صَحيحانِ: أَحَدُهُما كَلامٌ أَوْ ما أَشْبَهَهُ، والآخَرُ جِنْسٌ مِنَ اللِّباسِ[4]، والنُّطْقُ: هو الأصواتُ المُقطَّعةُ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 139.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ورث).
(3) الراغب، المفردات: (ورث).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ورث).

الَّتي يُظهِرُها اللِّسانُ، وتَعيها الآذانُ، ولا يكادُ يُقالُ إلّا للإنسانِ، ولا يُقالُ لغيرِهِ إلّا على سبيلِ التَّبَعِ، كقولِهم: النّاطقُ والصّامتُ، يريدونَ بالنّاطقِ ما لهُ صوتٌ، وبالصّامتِ ما ليسَ لهُ صوتٌ[1]، ولا يُقال للحيوان: ناطق إلَّا مُقيَّدًا، والمُراد بمنطق الطَّير في الآية: كلامُهم.

3) ﴿ٱلطَّيۡرِ﴾: (طير) أصلٌ يدلُّ على خِفَّةِ الشَّيءِ في الهواءِ[2]، يُقالُ: تطايرَ الشَّيءُ، أيْ: تفرَّقَ، واستطارَ الفَجْرُ: انتشرَ[3]، واستطارَ الصَّدْعُ في الحائطِ: ظهرَ وانتشرَ[4]، يُقالُ: طارَ يطيرُ طَيَرانًا، وجمعُ الطّائرِ: طَيْرٌ، كراكبٍ ورَكْبٍ، وتطيَّرَ فلانٌ، واطَّيَّرَ، أصلُهُ: التَّفاؤلُ بالطَّيرِ، ثمَّ استُعمِلَ في كلِّ ما يُتفاءَلُ بهِ، ويُتشاءَمُ، والطّائرُ: كلُّ ذي جَناحٍ يَسْبَحُ في الهواءِ[5].

4) ﴿ٱلۡمُبِينُ﴾: (بين) أَصْلٌ واحِدٌ، وهوَ بُعْدُ الشَّيْءِ وانْكِشافُهُ، والبَيْنُ: الفِراقُ، يُقالُ: بانَ يَبِينُ بَيْنًا وبَيْنونَةً، ويُقال: بانَ الشَّيءُ وأبانَ؛ إذا اتَّضحَ، وانكشفَ[6]، والبيِّنةُ: الدَّلالةُ الواضحةُ عقليَّةً كانَتْ أم محسوسةً، والبيانُ: الكَشْفُ عنِ الشَّيءِ، وسُمّيَ ما يُشْرَحُ بهِ المُجْمَلُ والمُبْهَمُ مِنَ الكلامِ بيانًا[7]، و﴿ٱلۡمُبِينُ﴾ في الآية الكريمة الواضح الذي لا مراء فيه.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

سليمانُ وارثُ داودَ، والمُؤيَّدُ بالمعجزات والفضل المبين

بيَّنَتْ هذه الآيةُ أنَّ سليمانَ ورِثَ أباهُ داودَ عليهما السلام في العِلمِ الَّذي منحه اللهُ إيّاه، والمُلكِ الَّذي كانَ خصَّهُ بِهِ على سائرِ قومِه، وبيَّن سبحانه مظاهر هذا المُلك في قول سليمان عليه السلام لقومِهِ: يا أيُّها النّاسُ

(1) الراغب، المُفردات، والسّمين الحلبي، عُمدَة الحُفّاظ: (نطق).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (طير).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طير).
(4) الزمخشري، أساس البلاغة: (طير).
(5) الراغب، المُفردات: (طير).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بين).
(7) الراغب، المفردات: (بين).

فُهِّمْنا كلامَ الطَّيرِ، وأُعطينا مِنْ كلِّ شيءٍ مِنَ الخيراتِ، إنَّ هذا الَّذي أوتينا مِنَ الخيراتِ لهو الفضلُ على جميعِ أهلِ دهرِنا المُبينُ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ طيِّ خبرِ داودَ عليه السلام:

إبرازُ المرادِ وحذف ما سواه، يُراعى فيه السّياق ومعناه

في قوله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيۡمَٰنُ دَاوُۥدَۖ﴾ طويَ فيهِ خبرُ مُلْكِ داودَ عليه السلام وبعضِ أحوالِهِ إلى وفاتِهِ؛ لأنَّ المقصودَ هو قصَّةُ سليمانَ عليه السلام[2].

دلالةُ الواوِ في جملة: ﴿وَوَرِثَ﴾:

وراثةُ الأبناءِ للآباء، استكمالٌ للمسارِ، ومحافظة على الآثار

الواوُ في قولِ الحقِّ جلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَوَرِثَ سُلَيۡمَٰنُ دَاوُۥدَۖ﴾ استئنافيَّةٌ، والكلامُ مُستأنَفٌ؛ لبيانِ أنَّ سليمانَ عليه السلام، قد جمعَ ما أوتيه أبوهُ إلى ما أوتيه هو[3].

دلالةُ التَّعبيرِ بصيغةِ الماضي في الآيةِ:

وقوعُ الأفعالِ وتحقُّقها، يبرز أفضال سليمان وداود ودلائلها

جيءَ بالأفعالِ في قولِهِ تقدَّستْ أسماؤُهُ: ﴿وَوَرِثَ سُلَيۡمَٰنُ دَاوُۥدَۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمۡنَا مَنطِقَ ٱلطَّيۡرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيۡءٍۖ﴾ بصيغةِ الماضي؛ للدَّلالةِ على تحقُّقِ هذهِ الأفعالِ ووقوعِها؛ لأنَّها أحداثٌ ماضيةٌ، وقعَتْ وانقضَتْ، والقرآنُ يُخبِرُ عنها.

بلاغةُ المجازِ في جملة: ﴿وَوَرِثَ﴾:

الخلافةُ في المُلْكِ والنُّبوَّة، كانتقالِ مِلْكِ الأموالِ بالإرث

كانَ داودُ عليه السلام مَلِكًا على بني إسرائيلَ، ودامَ مُلْكُهُ أربعينَ سنةً، فخلفَهُ سليمانُ، فهو وارثُ مُلْكِهِ، والقائمُ في مقامِهِ في سياسةِ الأمَّةِ ونُبوَّةِ بني إسرائيلَ، فالإرثُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيۡمَٰنُ دَاوُۥدَۖ﴾ مُستعمَلٌ في معناهُ المجازيِّ على سبيلِ الاستعارةِ، وذلكَ بتشبيهِ الأحوالِ الجليلةِ بالمالِ، وتشبيهِ الخلافةِ بانتقالِ مِلْكِ الأموالِ؛ لظهورِ أنَّ غرض الآيةِ ليس إفادةَ مَنِ انتقلَتْ إليهِ أموالُ داودَ بعدَ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 437.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 235.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 139.

قولِه: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ عِلۡمٗاۖ وَقَالَا ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّنۡ عِبَادِهِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، فتعيَّنَ أنَّ إرثَ المالِ غيرُ مقصودٍ، فإنَّهُ غرضٌ تافهٌ[1].

سِرُّ التَّعبيرِ بالوِراثةِ في ﴿وَوَرِثَ﴾:

الوِراثةُ أقوى لفظٍ يُستعمَلُ في التَّمليكِ والاستحقاقِ

عُبِّرَ بالوِراثةِ عن انتقالِ المُلْكِ والعلم والنُّبوَّةِ في قولِه تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيۡمَٰنُ دَاوُۥدَۖ﴾ دون غيرِها من الألفاظ نحو الإعطاء والهبة؛ لأنَّ الوِراثة أقوى لفظٍ يُستعمَلُ في التَّمليكِ والاستحقاقِ[2].

دلالةُ قولِ سليمانَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾:

إخبارُ النّاس بفضلِ اللهِ المبين، وما أعطى سليمان من دون الآخرين

قولُ سليمانَ عليه السلام: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمۡنَا مَنطِقَ ٱلطَّيۡرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيۡءٍۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡمُبِينُ﴾، مُتضمِّنٌ شكرَ اللهِ تعالى على ما منحَهُ مِنْ علمٍ ومُلْكٍ، وليقدرَ النّاسُ قَدْرَهُ، ويَعلَموا واجبَ طاعتِه؛ إذ كانَ اللهُ قد اصطفاهُ لذلكَ، وأطلعَهُ على نيّات الحيوانِ، فما ظنُّكَ بمعرفةِ نيّاتِ النّاسِ مِنْ رعيَّتِهِ وجندِه، فإنَّ صلاحَ المملكةِ بالتفافِ النّاسِ حولَ مَلِكِهم، وصفاءِ النّيّاتِ نحوَهُ، وبمقدارِ ما يحصلُ ذلك مِنْ جانبِهم يكونُ التَّعاونُ على الخيرِ، فلمّا حصلَ مِنْ جانبِ سليمانَ الاعترافُ بهذا الفضلِ للهِ تعالى، فقد أدَّى واجبَهُ نحوَ أمَّتِه، فلم يَبْقَ إلّا أنْ تُؤدّيَ الأمَّةُ واجبَها نحوَ مَلِكِها[3].

غرضُ التَّعبيرِ بالنِّداءِ في السّياق:

التَّنبيهُ في سياقِ النِّداء، لأهمّيَّةِ الكلامِ المُلقَى إليهِم

جيءَ بالنِّداءِ في قولِ سليمانَ عليه السلام: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمۡنَا مَنطِقَ ٱلطَّيۡرِ﴾ الآيةَ؛ لِما في النِّداءِ مِنَ الإيقاظِ والتَّنبيهِ لأهمّيَّةِ ما يُتلَى مِنَ الكلامِ الآتي بعدَهُ، وفي ذلكَ دليلٌ على أنَّ سليمانَ عليه السلام قد قالَ هذا الكلامَ في مَجْمَعٍ عظيمٍ من النّاسِ، الذين كانوا في مجلسهِ من

(1) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 253، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 253.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 358.
(3) الزمخشري، الكشاف: 3/ 353، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 236.

الخاصَّة والعامَّة؛ لأنَّ الغرضَ تبليغُه لجميعِهم؛ للإعلانِ بشكرِ اللّهِ تعالى، وحثِّ النّاسِ على الطّاعةِ والامتثالِ[1].

سِرُّ التَّعبيرِ بنداء ﴿ٱلنَّاسُ﴾ دون (المؤمنين):

خطابُ جميع المخاطَبين، لتوسيع الإعلان وشموله

عبَّر القرآنُ الكريم بـ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ في قوله جلَّ شأنُهُ: ﴿وَقَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمۡنَا مَنطِقَ ٱلطَّيۡرِ﴾ دون (يا أيها الذين آمنوا)؛ لأنَّ المُراد عُمومُهُ لجميع الَّذينَ هم أهلٌ للتَّخاطُب سواءٌ كانوا مؤمنين أم غير مؤمنين أن يشهدوا هذه النِّعمَ؛ لأنَّ المقصودَ إظهارُ نعمةِ اللّهِ، والدَّعوةُ إلى التَّصديقِ بالمعجزاتِ، وهذا أمرٌ يتعلَّقُ بجميعِهم، وقيلَ: المُرادُ بهِ: رُؤَساءُ مملكتِهِ وعُظَماءُ دولتِهِ مِنَ الثَّقَلينِ وغيرِهم، والتَّعبيرُ عنهُم بما ذُكِرَ للتَّغليبِ، وقيلَ: المرادُ بهِ: أهلُ العلم؛ لأنَّهم هم النّاسُ حقيقةً[2].

وممّا يُذكر في سِرِّ التَّعبير بلفظ ﴿ٱلنَّاسُ﴾ - الذي يدلُّ على العموم - الإشارةُ إلى إعلان هذه الشهادة أمام الجميع، ويكون ذلك من باب الإعلان، والتَّحدُّث بنعم اللّه تعالى وعظيم فضله، فيما منحه من تعليم منطق الطير وغيره من عظائم الأمور؛ لأنَّ المُنعمَ عليه مأمورٌ بالتحدُّث بِنِعَم اللّه[3].

دلالةُ التَّعبيرِ بالمبنيِّ للمفعولِ في الآيَة:

العلمُ بالفاعل المُعظَّم يغني عن ذكر الله الأعظمِ

بُنِيَ الفِعْلان ﴿عُلِّمۡنَا﴾ و﴿وَأُوتِينَا﴾ في قولِه تباركَ شأنُهُ: ﴿عُلِّمۡنَا مَنطِقَ ٱلطَّيۡرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيۡءٍ﴾ للمفعولِ، وحُذِفَ الفاعلُ - وهو اللّهُ تعالى - للعلم به[4]، فإنَّهُ لا يقدرُ على ذلكَ غيرُهُ جلَّتْ قُدرتُهُ[5]، وفيه إشارةٌ إلى تواضُعهما واعترافهما بأنَّهما تلقّيا العلم من ربِّهما، ولم ينسباه إلى نفسهما.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 236.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 167.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 359.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 218.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 140.

سرُّ إسنادِ الفعلِ إلى ضميرِ العظَمةِ:

إبرازُ سليمانَ لصفتِهِ كملك عظيم، يظهر ما حباه الله

أُسنِدَ الفعلان ﴿عُلِّمۡنَا﴾، ﴿وَأُوتِينَا﴾ إلى ضمير العظمة، في قوله تعالى: ﴿عُلِّمۡنَا مَنطِقَ ٱلطَّيۡرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيۡءٍۖ﴾، وظاهر هذا الإسنادِ الدَّلالة على التَّكبُّر، وهذا لا يليق بمقام الأنبياءِ، وجوابُ ذلك من وجهَيْن، **أحدُهما**: أنْ يريدَ نفسَهُ وأباهُ. **والثّاني**: أنَّ هذهِ النّونَ يُقالُ لها: نونُ الواحدِ المُطاعِ، وكانَ مَلِكًا مُطاعًا، فكلَّمَ أهلَ طاعتِهِ على صفتِهِ وحالِهِ الَّتي كانَ عليها، وليسَ التَّكبُّرُ مِنْ لوازمِ ذلكَ، وقد يتعلَّقُ بتفخُّمِ المَلِكِ وإظهارِ سياستِهِ مصالحُ، فيصيرُ ذلكَ التَّعظيمُ واجبًا[1].

بلاغةُ الاستعارةِ في ﴿مَنطِقَ ٱلطَّيۡرِ﴾:

علمُ سُليمان لمنطق الطَّير يقينٌ، لا ظنٌّ وتخمين

في استعمالِ المنطقِ في قولِهِ تعالى: ﴿عُلِّمۡنَا مَنطِقَ ٱلطَّيۡرِ﴾ براعةٌ، وذلكَ أنَّ النُّطقَ والمنطقَ في العُرْفِ: كلُّ لفظٍ يُعبَّرُ بهِ عمّا في الضَّميرِ، مُفردًا كانَ أو مُركَّبًا، وقد يُطلَقُ على كلِّ ما يُصوَّتُ بهِ على سبيلِ التَّشبيهِ[2]، وهو إمّا تشبيهُ الصَّوتِ بالنُّطقِ، فيكون استعارةً تصريحيَّةً، أو تشبيهُ المُصوِّتِ بالإنسانِ، فيكونُ استعارةً بالكنايةِ، وإثباتُ النُّطقِ لها تخييلٌ[3]، أو على سبيلِ التَّبَعِ[4]، أيِ: المشاكلةِ التَّقديريَّة[5].

وممّا يُذْكَرُ في ذلك أيضًا أنَّ سليمان عليه السلام، لم يقف الأمر عنده على مجرَّد فَهْم صوت الطَّير، بل تعدّاه إلى اختلاف دلالات الأصوات، باختلاف الأحوال والعوارض، التي تعتري الطير من الجوع والألم ونحو ذلك[6].

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 354، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 24/ 548.
(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 154.
(3) الخفاجي، عناية القاضي: 7/ 37.
(4) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 154.
(5) الخفاجي، عناية القاضي: 7/ 37.
(6) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 361.

دلالةُ (أل) في لفظ ﴿ٱلطَّيۡرِ﴾:

إفادةُ العموم، منبئةٌ عن المعنى المراد في السّياق

اللّامُ ﴿ٱلطَّيۡرِ﴾ في قولِهِ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿عُلِّمۡنَا مَنطِقَ ٱلطَّيۡرِ﴾؛ للجنسِ، والمُرادُ: عُلِّمْنا منطقَ جنسِ الحيوانِ المُسمَّى بالطَّيرِ، فيفيدُ الكلامُ العُمومَ[1].

سرُّ تعليمِ منطقِ الطَّيرِ دون غيره:

مَنْ عَلِمَ منطقَ الطَّيرِ؛ علِمَ منطقَ غيرِهِ من باب أولى

اقتصر القرآنُ الكريمُ على ذِكْرِ تعليم مَنطِقِ الطَّيرِ، في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿عُلِّمۡنَا مَنطِقَ ٱلطَّيۡرِ﴾، معَ أنَّ سليمانَ عليه السلام عُلِّمَ منطقَ جميعِ الحيواناتِ - كما في سماعه لحديث النَّمل - لأنَّهُ كانَ جندًا مِنْ جنودِ سليمانَ يحتاجُهُ في التَّظليلِ عن الشَّمسِ، وفي البعثِ في الأمورِ، فخُصَّ لكثرةِ مداخلتِهِ، ولأنَّ أمرَ سائرِ الحيوانِ نادرٌ وغيرُ مُتردِّدٍ تردادَ أمرِ الطَّيرِ[2].

وقيلَ: إنَّ الاقتصار على منطقِ الطَّيرِ إيجازٌ؛ لأنَّهُ إذا عُلِّمَ منطقَ الطَّيرِ - وهي أبعدُ الحيوانِ عن الرُّكونِ إلى الإنسانِ وأسرعُها نُفورًا منهُ - فمنطقُ ما هو أكثرُ اختلاطًا بالإنسانِ حاصلٌ لهُ بالأَحْرى، كما يدلُّ عليهِ قولُهُ تعالى: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكٗا مِّن قَوۡلِهَا﴾، فتدلُّ هذه الآيةُ على أنَّهُ عُلِّمَ منطقَ كلِّ صنفٍ مِنْ أصنافِ الحيوانِ[3].

دلالةُ الواوِ في جملة: ﴿وَأُوتِينَا﴾:

من أوتي خيرًا من الله؛ أغناه الله وكفاه

الواوُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَأُوتِينَا﴾ عاطفةٌ لهذهِ الجملةِ، على جملةِ ﴿عُلِّمۡنَا مَنطِقَ ٱلطَّيۡرِ﴾، فتفيدُ التَّشريكَ بينَهما، في كونِهما مِنْ إخبارِ سليمانَ عليه السلام للنّاسِ، بما خصَّهُ اللّهُ تعالى بهِ.

دلالة استعمالِ ﴿مِن كُلِّ شَيۡءٍۖ﴾:

دلَّ التَّعبيرُ بقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيۡءٍۖ﴾، على الكثرة، وهو

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 217.
(2) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 4/ 253.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 19/ 236.

الـدَّلالـةُ علـى الـكـثرة والخـصـوص لا على العُموم

في ظاهرِهِ يدلُّ على العُمومِ، ولكنَّ المُرادَ الخُصوصُ، أيْ: مِنْ كلِّ شيءٍ يَصلُحُ لنا، ونتمنّاهُ، وأُريدَ بهِ كثرةُ ما أوتيَ، فكأنَّهُ مُستغرِقٌ لجميعِ الأشياءِ(1)، كقولِكَ: فلانٌ يقصدُهُ كلُّ أحدٍ، ويعلمُ كلَّ شيءٍ، تريدُ كثرةَ قُصّادِهِ وغزارةَ علمِهِ(2)، وذلكَ لأنَّ الكلَّ والبعضَ الكثيرَ يشتركانِ في صفةِ الكثرةِ، والمشاركةُ سببٌ لجوازِ الاستعارةِ، فلا جَرَمَ يُطلَقُ لفظُ الكلِّ على الكثيرِ(3)، وقد يكونُ إطلاقُ الكلِّ على الكثيرِ كنايةً(4)، وأيًّا ما كانَ فالتَّعبيرُ بأداةِ الاستغراقِ تعظيمٌ للنِّعمةِ(5)، وبناءً على ما سبقَ تكونُ ﴿مِن﴾ صلةً، وهو المناسبُ لمقامِ التَّحدُّثِ بالنِّعَمِ(6).

سرُّ فصلِ جملة تأكيدِ الفضل:

الاعـتـراف بـالـفـضـل والتَّفضيل شكرٌ ومحمدة

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لأنَّه استئنافٌ تقريريٌّ لقولِهِ تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا﴾ الآية، والمقصودُ منهُ الشُّكرُ والمَحْمَدَةُ(7). والتَّأكيدُ في هذه الجملة بحرفِ التَّوكيد ﴿إِنَّ﴾ ولامِهِ - الَّذي هو في الأصلِ لامُ قَسَم -، وبضميرِ الفصلِ، مقصودٌ بهِ تعظيمُ النِّعمةِ؛ أداءً للشُّكرِ عليها بالمُستطاعِ مِنَ العبارةِ(8).

دلالةُ اسمِ الإشارةِ ﴿هَٰذَا﴾:

تعيينُ الفضلِ المبين، كـأنَّه مـشـارٌ إلـيـه مستبين

الإشارةُ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾ راجعةٌ إلى ما ذُكِرَ مِنَ التَّعليمِ والإيتاءِ(9)، ولذلكَ أُفرِدَ اسمُ الإشارةِ. وعُبِّرَ باسمِ الإشارةِ ﴿هَٰذَا﴾؛ لتنزيلِ المُشارِ إليهِ منزلةَ المحسوسِ المُشاهَدِ،

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 217.
(2) الزمخشري، الكشاف: 3/ 354.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 24/ 548.
(4) الخفاجي، عناية القاضي: 7/ 38، والآلوسي، روح المعاني: 10/ 168.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 140.
(6) الخفاجي، عناية القاضي: 7/ 38، والآلوسي، روح المعاني: 10/ 168.
(7) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 24/ 548.
(8) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 141، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 238.
(9) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 277، والآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 168.

وعُبِّرَ بإشارةِ القريب؛ لبيانِ أنَّ هذهِ النِّعمةَ العظيمةَ حاضرةٌ قريبةٌ مِنْ قلبِهِ، وهي على ذُكْرٍ منهُ.

سِرُّ التَّعبيرِ بالفضلِ دون غيره:

آثرَ القرآنُ الكريم التَّعبيرَ بالفضل دون غيره في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡمُبِينُ﴾؛ لأنَّ الفضل يُطلق على الزّيادة من جنس الشَّيء أو نوعه، وهذا ما فضَّل اللّه به داود وسليمان عليهما السلام على كثيرٍ من المؤمنين فيما آتاهما من العلم وتعليم منطق الطَّير إلى غير ذلك مما امتنَّ اللّه به عليهما، ولأنَّ الفضلَ عطاءٌ بلا سببٍ، وهذا يصدق على إيتاء النُّبوَّة والعلم لهما، فهما محضُ فضلٍ من اللّه؛ لذلك كان التَّعبير بالفضل.

الفضلُ عطاءٌ بلا سببٍ، وإغداقٌ من الله على من يحبُّ

سِرُّ تعريفِ الطَّرفيْن:

جيءَ بالمُسنَدِ إليهِ ﴿هَٰذَا﴾ والمُسنَدِ ﴿ٱلۡفَضۡلُ﴾ معرفتَيْن في قولِ الحقِّ تباركَ شأنُهُ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡمُبِينُ﴾؛ لإفادةِ القصرِ، وبيانِ أنَّ المُشارَ إليهِ - وهو التَّعليمُ والإيتاءُ - لا غيرَهُ هو الفضلُ المُبينُ، وفي ذلكَ مزيدُ ملاءمةٍ لمقامِ إظهارِ سليمانَ عليه السلام نعمةَ اللّهِ عليهِ، ومقامِ تأديةِ حقِّ اللّهِ عليهِ في شُكْرِها.

ملاءمةُ إظهارِ سليمانَ نعمةَ اللهِ، ومقامِ تأديةِ شُكْرِها

دلالةُ اللّامِ في لفظ ﴿ٱلۡفَضۡلُ﴾:

اللّامُ ﴿ٱلۡفَضۡلُ﴾ في قولِهِ تقدَّسَ شأنُهُ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡمُبِينُ﴾؛ للجنسِ، وهي تفيدُ بمعونةِ القصرِ أنَّ المُشارَ إليهِ لا غيرَهُ هو الفضلُ، وهذا قصرٌ ادِّعائيٌّ للمبالغة، كأنَّهُ قيلَ: إنْ سمعتَ بالفضلِ المُبينِ، وأردتَ أنْ تعرفَ ما هو؛ فهو المُشارُ إليهِ.

إفادةُ أنَّ المُشارَ إليهِ لا غيرَهُ هو الفضلُ

سِرُّ وصفِ الفضلِ بكونِهِ مُبينًا:

وُصِفَ الفضلُ في قولِ اللّهِ سبحانَهُ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡمُبِينُ﴾ بكونِهِ مُبينًا؛ للمبالغةِ في ظُهورِهِ وعظيمِ شأنِهِ، والمعنى: إنَّ هذا لهو الفضلُ المُبينُ الَّذي لا يَخْفَى على أحدٍ[1]، فهو ظاهرٌ لكلِّ مَنْ ينظرُهُ[2].

المبالغةُ في ظُهورِ الفضلِ، وعظيمِ شأنِهِ

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 157، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 277.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 141.

الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

الإيتاءُ والإعطاءُ:

الإيتاءُ أقوى مِنَ الإعطاءِ، وغالبًا ما يكون الإيتاءُ في عظائم الأمور

فُرِّقَ بينَ الإيتاءِ والإعطاءِ مِنْ وجوهٍ، منها: أنَّ في الإعطاءِ دليلَ التَّملُّكِ دونَ الإيتاءِ، ويُؤيِّدُهُ قولُهُ سبحانَهُ: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ١﴾ [الكوثر: 1]، فإنَّ لهُ مَنْعَ مَنْ شاءَ منهُ، كالمالكِ للمِلْكِ، وأمّا القرآنُ؛ فحيثُ إنَّ أمَّتَهُ مُشارِكونَ لهُ في فوائدِهِ، قالَ تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ ٨٧﴾ [الحجر: 87][1].

ومنها: أنَّ الإيتاءَ أقوى مِنَ الإعطاءِ في إثباتِ مفعولِهِ؛ لأنَّ الإعطاءَ لهُ مُطاوِعٌ، تقولُ: أعطاني، فعَطَوْتُ، ولا يُقالُ في الإيتاءِ: آتاني، فأتيتُ، وإنَّما يُقالُ: آتاني، فأخذتُ، والفعلُ الَّذي لهُ مُطاوِعٌ أضعفُ في إثباتِ مفعولِهِ مِنَ الفعلِ الَّذي لا مُطاوِعَ لهُ، كما أنَّ الإيتاءَ يُستعمَلُ في الأشياءِ العظيمةِ، كالقرآنِ والحكمةِ والمُلْكِ[2]، وفي الإيتاءِ معنى الوجوبِ والإلزامِ، وأمّا الإعطاءُ؛ ففيهِ معنى التَّفضُّلِ والإكرامِ[3]، ولعلَّ ذلكَ في الأعَمِّ والأغلبِ، وإلّا فقد يقترنُ الإيتاءُ بالتَّفضُّلِ أيضًا، كما في إيتاءِ المُلْكِ والقرآنِ والحكمةِ، ثمَّ أنَّ الإعطاءَ يكونُ في الأشياءِ المادّيَّةِ، وأمّا الإيتاءُ؛ فيكونُ في الأشياءِ المادّيَّةِ والمعنويَّةِ[4]، وممّا يُذكر في الفرق بين الإيتاء والإعطاء: أنَّ الإيتاء يكون عن حُبٍّ ورغبةٍ؛ بخلاف الإعطاء فقد يكون عن كراهية وسخط، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ٢٩﴾ [التّوبة: 29].

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 86.
(2) زيدان، الفروق اللغوية، ص: 248.
(3) زيدان، الفروق اللغوية، ص: 248 - 249.
(4) زيدان، الفروق اللغوية، ص: 251.

﴿وَحُشِرَ لِسُلَيۡمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ وَٱلطَّيۡرِ فَهُمۡ يُوزَعُونَ ١٧﴾ [النمل: 17]

ربطُ الإخبارِ بنعمةِ اللهِ وإقامةِ الدَّليل عليها، وحشر المسخَّرات لسليمان

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لمّا ذَكرت الآيةُ السّابقة قولَ سليمانَ عليه السلام، مخاطبًا النّاس بقوله: ﴿عُلِّمۡنَا مَنطِقَ ٱلطَّيۡرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيۡءٍ﴾؛ جاءت هذه الآية لتُزيل أوهامَ النُّفوس، وتقطع الشُّكوك أمام هذه الحقيقة العظيمة بإقامة الدَّليل على ذلك، فقالَ: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيۡمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ وَٱلطَّيۡرِ فَهُمۡ يُوزَعُونَ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَحُشِرَ﴾: (حشر) قَريبُ المَعْنَى مِن حشد، وفيهِ زيادَةُ مَعْنًى، وهوَ السّوقُ والبَعْثُ والانْبِعاثُ[2]، والحَشْرُ: الجَمْعُ، قالَ تعالى: ﴿وَحَشَرۡنَٰهُمۡ فَلَمۡ نُغَادِرۡ مِنۡهُمۡ أَحَدٗا ٤٧﴾ [الكهف: 47]، أيْ: جمَعْناهم[3]، والمَحْشرُ: المَجْمَعُ الَّذي يُحْشَرُ إليهِ القومُ[4]، وقيلَ: الحَشْرُ: إخراجُ الجماعةِ عن مقرِّها، وإزعاجُها عنهُ إلى الحربِ ونحوِها، ويُقالُ ذلكَ في الإنسانِ وغيرِه، يُقالُ: حَشَرَتِ السَّنَةُ مالَ بني فلانٍ، أيْ: أزالَتْهُ عنهُم، ولا يُقالُ: الحَشْرُ إلّا في الجماعةِ، قالَ تعالى: ﴿وَٱبۡعَثۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ٣٦﴾ [الشعراء: 36][5]، والمقصود في الآية: جُمِعَ لسليمان.

2) ﴿جُنُودُهُۥ﴾: (جند) يَدُلُّ عَلَى التَّجَمُّعِ والنُّصْرَةِ، يُقالُ: هُمْ جُنْدُهُ، أَيْ: أَعْوانُهُ ونُصّارُهُ[6]، جمع جند، يُقال للعسكر: (الجُند)

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 141.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حشر).
(3) السمين، عمدة الحفاظ: (حشر).
(4) الخليل، العين: (حشر).
(5) الراغب، المفردات: (حشر).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جند).

اعتبارًا بالغلظة من الجَنَدِ، أي: الأرض الغليظة التي فيها حجارة، ثمَّ يُقال لكلِّ مجتمع: جُندٌ، نحو قوله: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ١٧٣﴾ [الصافات: 173]، وقوله ﷺ الأرواح جنودٌ مُجنَّدةٌ، وجمع الجُند: أجناد وجنود[1].

3) ﴿يُوزَعُونَ﴾: (وزع) بِناءٌ مَوْضوعٌ عَلَى غَيْرِ قياسٍ يدلُّ على الكفِّ عنِ الانتشارِ[2]، يُقالُ: وزَعْتُه عنِ الأمرِ، أيْ: كَفَفْتُه عنهُ[3]، ووازَعْتُه: مانَعْتُه[4]، وقولُه: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ١٩﴾ [فُصّلت: 19]، هذا وزْعٌ على سبيلِ العقوبة[5]، وقولُه: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ﴾، أيْ: ألهِمْني، قيلَ: وتحقيقُ المعنى: اجعَلْني بحيث أَزَعُ نَفْسي عنِ الكُفرانِ[6]، وقيلَ غيرُ ذلك.

المَعنى الإجماليُّ:

عظمةُ جيشِ سليمانَ عليه السلام مِنَ الجِنِّ والإنْسِ والطَّيْرِ

بيَّنت هذه الآيةُ ما امتنَّ به الله تعالى على سليمان عليه السلام من كثرة ملكِه وقوَّة سلطانه، فجمعَ له جُنودَهُ منَ الجنِّ والإنسِ والطَّيرِ في مَسيرٍ لهُم، فهؤلاء الجندُ لهم قادةٌ وحُكّام ونظام، فهُم يُحبَسُ أوَّلُهم على آخِرِهم، حتَّى يجتمعوا؛ فلا يتقدَّمَ أحدٌ عن منزلتِهِ الَّتي هي مرتبةٌ له[7].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الواوِ في قولِه: ﴿وَحُشِرَ﴾:

الجملةُ الاستئنافيَّةُ مفيدةٌ في بيان المراد

الواوُ في قولِ الحقِّ سبحانه: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ﴾ استئنافيَّةٌ، والجملةُ بعدَها مَسوقةٌ لتصديقِ ما سبقَ مِنْ قولِ سليمانَ عليه السلام: ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾،

(1) الراغب، المفردات: (جند).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي: (وزع).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وزع).
(4) الزمخشري، أساس البلاغة: (وزع).
(5) الراغب، المفردات: (وزع).
(6) السمين، عمدة الحفاظ: (وزع).
(7) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 183.

فكأنَّ سائلًا سأل: ما الدَّليل على ما قاله سليمانُ ﷺ؟ فكانت هذه الجملة بيانًا لذلك.

نكتةُ التَّعبيرِ بالحَشْرِ دونَ الجَمْعِ:

كلُّ حشرٍ جمعٌ، وليس كلُّ جمعٍ حشرًا

في اختيارِ الحَشْرِ دونَ الجَمْعِ في قولِهِ تقدَّسَ ذِكْرُهُ: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ﴾ فائدةٌ بليغةٌ، وذلكَ أنَّ الحَشْرَ أخصُّ مِنَ الجَمْعِ؛ لأنَّهُ الجَمْعُ مِنْ كلِّ جانبٍ وجهاتٍ مختلفةٍ[1]، فيكونُ أدلَّ على السُّلطةِ والاقتدارِ وسَعَةِ النُّفوذِ.

وممّا يُذكرُ في سِرِّ التَّعبير بالحشر دون الجمع: أنَّ الحشر لا يُقال إلّا في الجماعة، قال تعالى: ﴿وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ٣٦﴾ [الشعراء: 36]، وقال تعالى: ﴿وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً﴾ [ص: 19]، ولذلك سُمّي يوم القيامة بيوم الحشر؛ لما يحمله من معنى الجمعِ للنّاس مع الكثرة، فكلُّ حشرٍ جمعٌ، وليس كلُّ جمعٍ حشرًا.

دلالةُ التَّعبيرِ بما لم يُسَمَّ فاعلُهُ:

الحشرُ فعلُ الله صاحب القدرة على التَّسخير

بُنِي الفعل ﴿وَحُشِرَ﴾ في قوله: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ﴾ لما لم يُسمَّ فاعله؛ للدَّلالة على أنَّ هذا الحشر ليس مِن فعل سليمان؛ بل مِن فعلِ اللّٰهِ صاحبِ القدرةِ على التَّسخير، ولبيان أنَّ فاعلَ الحشر مُتعدِّد، فكلُّ صنفٍ من هذه الجنود له مَن يحشره، وبعض هذه الجنود ظاهرٌ، فيكون حاشره - وهم الإنس - ظاهرًا، وبعضهم يكون خفيًّا كالجنِّ، فحاشرُهُ غير ظاهرٍ، وكذا الطيرُ؛ لذلك كان البناءُ لما لم يُسمَّ فاعلُهُ مُناسبًا؛ لكثرة الفاعلين، ولاختلاف أحوالهم بين الظهور والخفاء، ويكون المعنى: جُمِعَ لهُ عساكرُهُ مِنَ الأماكنِ المختلفةِ[2] جمعًا بقهرٍ وسَطْوةٍ وإكراهٍ[3]، ويكون

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 362.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 277.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 141.

الحاشرُ لكلِّ نوعٍ مِنَ الأنواعِ الثَّلاثةِ أشخاصًا منهُم، فيكونُ مِنْ كلِّ نوعٍ أشخاصٌ مأمورونَ بذلكَ مُعَدّونَ لهُ[1]، ولذلكَ بُنِيَ ﴿وَحُشِرَ﴾ للمفعولِ، ولم يُذكَرْ لهُ فاعلٌ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالماضي ﴿وَحُشِرَ﴾:

تحقُّقُ حشرِ جندِ سليمانَ، دليلٌ على معجزة الله فيما يفعل

دلَّ التَّعبيرُ بالماضي في قوله: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيۡمَٰنَ جُنُودُهُۥ﴾ على أنَّ هذا الحشرَ مع تعدُّدِ أنواعِ المحشورين من الجنِّ والإنس والطَّير قد تحقَّق، وصار حقيقةً معلومةً لا يُنكِرها إلّا جاحدٌ، وهي حقيقةٌ أثبتها القرآن، وإن خالفت في ظاهرها معطياتِ العقل البشريِّ.

دلالةُ اللّامِ في قولِهِ: ﴿لِسُلَيۡمَٰنَ﴾:

إبرازُ خصوصيَّةِ سليمان عليه السلام في النُّبوَّة والملك

دلَّت اللّامُ في قولِه: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيۡمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ وَٱلطَّيۡرِ﴾ على اختصاصه وحده بهذا التَّسخير لهذه الأنواع، وليست تنبغي لأحد غيره، فهي محشورةٌ له لا لغيرِه، أيْ: وحُشِرَ لأجلِ سليمانَ عليه السلام جُنودُهُ مِنَ الجنِّ والإنسِ والطَّيرِ.

دلالةُ تقديمِ ﴿لِسُلَيۡمَٰنَ﴾ على ﴿جُنُودُهُۥ﴾:

خصَّ الله تعالى سليمان عليه السلام بما لم يَخُصَّ به غيره

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ ﴿لِسُلَيۡمَٰنَ﴾ على نائبِ الفاعلِ ﴿جُنُودُهُۥ﴾ في قولِه: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيۡمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ وَٱلطَّيۡرِ﴾ من باب تقديم القائد على جنوده، والمُسخَّر له - وهو سليمان عليه السلام - على المُسخَّر، وهم جنوده من الجنِّ والإنس والطَّير، وللعنايةِ بالمُقدَّم، وهو سليمانُ عليه السلام الَّذي كانَ لهُ الحَشْرُ، وللتَّشويقِ إلى المُؤخَّرِ المحشورِ الَّذي فيهِ غرابةٌ، وهو جُنودُهُ مِنَ الأجناسِ المختلفةِ.

يضافُ إلى ذلكَ أنَّ في ﴿جُنُودُهُۥ﴾ وما بعدَهُ مِنَ البيانِ نوعَ طولٍ، فربَّما يُخِلُّ تقديمُهُ بحُسْنِ انتظامِ الكلامِ، ولئلّا يلزمَ الإضمارُ قبلَ الذِّكرِ[2].

(1) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 169.

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 362.

ذِكرُ سليمانَ زيادةُ بيانٍ، وملمحُ تشريفٍ

بلاغةُ وضعِ الظّاهرِ موضعَ المُضمَرِ:

في قوله تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيۡمَٰنَ جُنُودُهُۥ﴾ عدَلَ القرآن الكريم عن التَّعبيرِ بالإضمار، بأنْ يُقالَ: (وحُشِرَ لهُ)؛ وذلك لتقدُّمِ ذِكْرِ سليمانَ عليه السلام، في قولِه تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيۡمَٰنُ دَاوُۥدَۖ﴾ إلى الإظهار بذِكْر سليمان، فقيلَ: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيۡمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ وَٱلطَّيۡرِ﴾؛ وذلك لِما في الإظهارِ مِنْ مزيدِ البيانِ وشرفِ سليمانَ عليه السلام(1).

الجنديَّةُ طاعةٌ مطلقةٌ وقوَّةٌ رادعةٌ مُحقَّقةٌ

دلالةُ التَّعبيرِ بقوله: ﴿جُنُودُهُۥ﴾:

دلَّ التَّعبيرُ بقوله: ﴿جُنُودُهُۥ﴾ على أنَّ ما حُشر لسليمان عليه السلام - مع تنوُّعه وتعدُّده من الجنود - هم طوع إرادته، وتحت سلطته ينفِّذون أوامره بكلِّ دقَّةٍ وانتظامٍ دون إخلالٍ أو تأخير؛ لأنَّ ذلك من صفات الجنديَّة الَّتي توصف بالانضباط والانتظام مع القوَّة والشِّدَّة التي تأخذ من دلالة الكلمة اللُّغويَّة.

سلطانُ اللهِ تعالى ظاهرٌ، وأمره منفَّذ قاهر

سرُّ الإضافةِ في لفظ ﴿جُنُودُهُۥ﴾:

أُضيفَ الجُنودُ إلى الضَّميرِ الرّاجعِ إلى سليمانَ عليه السلام في قولِه جلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيۡمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ وَٱلطَّيۡرِ﴾؛ للإشارة إلى أنَّهم مملوكونَ لهُ مقهورونَ تحتَ سلطتِه، لا يُخالفونَ عن أمرِه، ولا يخرجونَ عن طاعتِه، وإنْ كَثُرَتْ أعدادُهم، وتنوَّعَتْ أجناسُهم.

بيانُ أصنافِ الجنود، وتنوُّع أعمالهم، في التَّسخير المعجز

دلالةُ التَّعبيرِ بـ﴿مِنَ﴾:

الظّاهرُ أنَّ ﴿مِنَ﴾ في قولِه تقدَّسَ شأنُهُ: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيۡمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ وَٱلطَّيۡرِ﴾ بيانيَّةٌ، وقولُهُ: ﴿مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ وَٱلطَّيۡرِ﴾ بيانٌ للجُنود، فهي ثلاثةُ أصنافٍ: صنفُ الجنِّ: هو لتوجيهِ القوى الخفيَّةِ، والتَّأثيرِ في الأمورِ الرّوحيَّةِ، وصنفُ الإنسِ: هو جنودُ تنفيذِ أوامرِهِ ومحاربةِ العدوِّ وحراسةِ المملكةِ، وصنفُ الطَّيرِ: هو مِنْ تمامِ الجُنْدِ؛ لتوجيهِ الأخبارِ وتلقّيها، وتوجيهِ الرَّسائلِ إلى

---

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 362.

قوّادِهِ وأُمَرائِهِ[1]، ويحتملُ أنْ تكونَ ﴿مِنَ﴾ تبعيضيَّةً[2]؛ لأنَّه لم يُسخِّر لسليمان عليه السلام، كلَّ الجنِّ والإنس والطَّير، وإنَّما سخَّر له طائفةً منهم، وهذا أوضحُ في الامتنان على سليمان عليه السلام؛ ليرى الفرقَ بين ما سُخِّر له، وما لم يُسخَّر له.

سرُّ التَّرتيب بين الجِنِّ والإنْسِ والطَّيْرِ:

احتمالُ التَّرتيبِ أغراضًا مُتعدِّدةً، مفيدٌ في البيان

جاء ذِكْرُ جنود سليمان عليه السلام على هذا التَّرتيبِ في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ﴾؛ لإظهار مِنَّةِ اللّه تعالى على سليمان، فبدأ بالجنِّ لتقدُّم وجودهم على الإنس، ولأنَّ تسخير الجنِّ أعظمُ من تسخير الإنس لعُسْرِ جمعِهم، ولأنَّ طاقتهم في العمل - ولا سيَّما البناء والغوص - أكثر من الإنس، ويُؤكِّد هذا قوله: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ﴾ [سبأ: 13]، وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ [الأنبياء: 82]، وثنَّى بالإنسِ لشرفِهم ومشاركتِهم لهُم في ذلكَ مِنْ حيثُ تباعدُ أغراضِهم وتنائي قُصودِهم، وقيلَ: قُدِّمَ الجنُّ على الإنسِ في البيانِ للمسارعةِ إلى الإيذانِ بكمالِ قوَّةِ مُلْكِهِ وعِزَّةِ سُلطانِهِ مِنْ أوَّلِ الأمرِ؛ لِما أنَّ الجنَّ طائفةٌ طاغيةٌ ماردةٌ بعيدةٌ مِنَ الحَشْرِ والتَّسخيرِ[3]، وثلَّث بالطَّير؛ لأنَّه لمّا ذكرَ ما يعقلُ، وبدأَ به لشرفِهِ؛ أتبعَهُ ما لا يعقلُ، وهو الطَّيرُ[4]. وقيل: لم يُقدِّم القرآنُ ذِكْرَ الطَّير على الإنسِ معَ أنَّ تسخيرَها أشقُّ وأدلُّ على قوَّةِ المُلْكِ وعِزَّةِ السُّلطانِ؛ لئلّا يُفصَلَ بينَ الجنِّ والإنسِ المتقابلينِ والمشتركينِ في كثيرٍ مِنَ الأحكامِ[5].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 240.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 169.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 277، والآلوسي، روح المعاني: 10/ 169.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 141.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 169.

دلالةُ (أل) في ﴿ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ﴾:

إفادةُ اللّامِ العهدَ دون الاستغراق؛ لمراعاة مقتضى الواقع

اللّامُ في قولِهِ تعالى: ﴿مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ﴾؛ للعهد، ولا تفيد الاستغراقَ؛ لأنَّه يلزم على ذلك أنْ يكونَ الجُنودُ المحشورونَ له عليه السلام جميعَ الجنِّ وجميعَ الإنسِ وجميعَ الطَّيرِ، وهذا غيرُ مُرادٍ لوجود ما يُؤكِّد ذلك، وهو قصةُ ملكة سبأ (بلقيس)، التي قال القرآنُ عنها: إنَّها أوتيت من كلِّ شيءٍ، ولها عرشٌ عظيمٌ.

سرُّ الاقتصارِ على الطَّيرِ دون الخيلِ:

استعمالُ الألفاظِ في القرآن، مناطٌ بالعقل والنَّفع

اقتُصِرَ في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ﴾ على الجنِّ والطير؛ لغرابةِ كونِهما مِنَ الجنود، فلذلكَ لم يُذكَرِ الخيلُ، وهي مِنَ الجيشِ[1].

دلالةُ تخصيص ﴿ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ﴾:

كلُّ صنفٍ من الأصناف الثّلاثة، ميسّر لما خُلِقَ له

دلَّ تخصيصُ القرآن للجنِّ والإنس والطَّير في قوله تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ﴾ على إخراج ما لم يُسخَّر له كالوحش، وما لم يُذكر كالخيل مع أنَّه من الجيش، وقيلَ: تخصيصُ الجنِّ والإنسِ والطَّيرِ؛ لأنَّهُ لم يُسخَّرْ لهُ الوَحْشُ، ولأنَّ الجنَّ جسمٌ لطيفٌ، والطَّير جسمٌ كثيفٌ، فجمعَ بينهما؛ للدَّلالة على قدرته سبحانه، كما أنَّ تسخير الجنِّ ليس من مقدور الإنسان، والطَّير تسخيره أيضًا صعبٌ؛ فلجامع الصعوبة جمع بينهما، وممّا يُذكر في سِرِّ هذا التَّخصيصِ الوظيفةُ المنوطة بكلِّ واحدٍ منهم، فالجنُّ: هو لتوجيه القوى الخفيَّة وللتَّأثير في الأمور الرّوحيَّة، وأمّا صنفُ الإنس؛ فوظيفتُهُ تنفيذُ أوامره ومحاربة عدوِّه وحراسة مملكته، وأمّا صنف الطَّير؛ فلتوجيه الأخبار وتلقّيها، وتوجيه الرَّسائل إلى قوّاده وأمرائه[2].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 240.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 240.

دلالةُ فاءِ ﴿فَهُمۡ يُوزَعُونَ﴾:

حرفُ المعنى له أثرٌ في دلالة السّياق على المراد

الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَهُمۡ يُوزَعُونَ﴾ للسَّببيَّةِ؛ لأنَّ هذا مُسبَّبٌ عن الحَشْرِ[1]، فالحَشْرُ إنَّما يُرادُ لذلكَ[2]، وقيلَ: الفاءُ فصيحةٌ، وهي تُفصِحُ هنا عن شرطٍ مُقدَّرٍ، أي: إذا اجتمعوا؛ فَهُم لم يكونوا مُفرَّقينَ غيرَ محكومينَ ولا مضبوطينَ، بل كانوا مدفوعينَ إلى التَّجمُّعِ المُنظَّمِ طوائفَ[3].

دلالةُ تقديمِ المسندِ إليهِ:

التَّقديمُ لإفادةِ التَّقوّي، وبيانِ الحشر والتَّسخير

قُدِّمَ المُسنَدُ إليهِ على المُسنَدِ الفعليِّ في قولِه سبحانَهُ: ﴿فَهُمۡ يُوزَعُونَ﴾؛ لإفادةِ التَّقوّي المناسبِ لمقامِ بيانِ الحَشْرِ والتَّسخيرِ، ووجهُ التَّقوّي: أنَّ قولَهُ: ﴿فَهُمۡ يُوزَعُونَ﴾ فيهِ إسنادُ الوَزْعِ إلى (هم)، وفي ﴿يُوزَعُونَ﴾ ضميرٌ يعودُ إليهم، فيفيدُ إسنادَ الوَزْعِ إليهِم مرَّتيْنِ، كأنَّهُ قيلَ: فهُم يوزَعونَ، فهُم يوزَعونَ.

دلالةُ التَّعبيرِ بقوله: ﴿يُوزَعُونَ﴾ دون غيره:

تجميع الجند من الأجناس، قوَّةٌ رادعة مهيبة

آثر القرآنُ الكريم التَّعبيرَ بقوله: ﴿يُوزَعُونَ﴾ دون (يوقفون) أو (يُحبسون)؛ لدلالة هذا الفعلِ على معنى الانضباط والانتظام؛ لأنَّ ﴿يُوزَعُونَ﴾ يدلُّ على الحبس الَّذي هو منعٌ من الحركة، ليلحق بعضه ببعض، فيجتمعوا؛ لأنَّ في الجمع من المهابة ما لا يوجد في التَّفرُّق، وفي التَّعبير به إشارةٌ إلى أنَّ جمع الجنود وتدريبها من واجبات الملوك؛ ليكون الجنود في محلِّ التَّعهُّد والرِّعاية، فيشعر قادتُهم بما ينقصهم، ويقضون حاجاتهم[4].

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 141.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 240.

(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5444.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 240.

أهميَّةُ الزَّمنِ الفعليِّ، في توجيه الدَّلالة

سرُّ التَّعبيرِ بالمضارعِ: ﴿يُوزَعُونَ﴾:

جاء التَّعبيرُ بصيغةِ المضارعِ، في قولِهِ تعالى: ﴿فَهُمۡ يُوزَعُونَ﴾؛ لأنَّهُ بالنِّسبةِ إلى الحَشْرِ مستقبلٌ، أو لحكايةِ الحالِ الماضيةِ[1].

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 362.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ١٨﴾

[النَّمل: 18]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

العلاقةُ بين تسخير الأجناس لسليمانَ، وحوار النَّملة في وادي النَّمل

لَمّا ذكرت الآيةُ السابقةُ أنَّ لكلِّ صنفٍ من جنود سليمان ﷺ وزَعَةً تردُّ أولاها على أُخراها لتضبط حركتها، وتحفظ وجودها؛ بيَّن في هذه الآية نموذجًا تحقَّقت فيه هذه الوَزَعَة، وهو النَّمل، حيث قالت النَّملة الَّتي لها حقُّ الإمارة على النَّمل لأتباعها: ادخلوا مساكنكم؛ خوفًا عليكم من تحطيم سليمان وجنوده لكم، وهم لا يشعرون.

شَرْحُ الْمُفْرَدات:

1) ﴿وَادِ﴾: (ودى) ثَلاثُ كَلِماتٍ غَيْرُ مُنْقاسَةٍ؛ الأولَى: ودَى الفَرَسُ لِيَضْرِبَ أَوْ يَبولَ: إذا أَدْلَى، ومِنْهُ الوَدْيُ: ماءٌ يَخْرُجُ مِنَ الإنْسانِ كالمَذْيِ[1]، والوادي: اسمُ فاعلٍ مِنْ ودَى يَدي ودْيًا، أيْ: سالَ، فهو وادٍ، ثمَّ أُطلِقَ على المكانِ الَّذي يجتمعُ فيهِ الماءُ، ويسيلُ[2]، ومنهُ سُمّيَ ما بينَ الجبلينِ واديًا، وجمعُهُ: أوديةٌ[3]، وهو المعنى المُراد في الآية.

2) ﴿لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ﴾: (حطم) أصلٌ يدلُّ على كَسْرِ الشَّيءِ[4]، مثل الهشم ونحوه، ثمَّ استُعمِلَ لكلِّ كَسْرٍ مُتَناهٍ، ويقالُ: حَطَمْتُهُ فانحطمَ حَطْمًا، والحُطامُ: ما يتكسَّرُ مِنَ اليُبْسِ، قالَ ﷻ: ﴿ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ حُطَٰمًاۚ﴾ [الزمر: 21][5]، وسُمّيَتْ جهنَّمُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ودى).
(2) السمين، عمدة الحفاظ: (ودي).
(3) الراغب، المفردات: (ودي).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (حطم).
(5) الراغب، المفردات: (حطم).

بالحُطَمةِ؛ لأنَّها تَحطِمُ ما يُرمَى فيها[1]، والمعنى في الآية: لا يكسرنكم سليمان، ويهشمنكم.

﴿لَا يَشۡعُرُونَ﴾: (شعر) أَصْلانِ مَعْروفانِ، يَدُلُّ أَحَدُهُما عَلَى ثَباتٍ، والآخَرُ عَلَى عِلْمٍ وعَلَمٍ[2]، والشَّعَرُ معروفٌ، وجمعُهُ: أشعارٌ، ومنهُ استُعيرَ: شَعَرْتُ كذا، أيْ: علمتُ عِلْمًا في الدِّقَّةِ كإصابةِ الشَّعَرِ، والشعور: العلم الدقيق، ويُطلق على الإدراك بالحواسِّ الخمس، وعلى مبادئ الإدراك، ومعنى قوله: ﴿لَا يَشۡعُرُونَ﴾، يعني: لا يدرون، ولا يعلمون.

المَعْنى الإجْماليُّ:

حرصُ النَّملةِ على بني جنسها، وبيانُ تحذيرها ونصحها

في هذه الآية بيانٌ لحرص النَّملة على قومها، وذلك عندما أتَى سليمانُ عليه السلام وجُنودُهُ على وادي النَّملِ، قالَتْ نملةٌ: يا أيُّها النَّملُ ادخلوا مساكنَكم، لا يكسرنَّكم، ويقتلنَّكم سليمانُ وجنودُهُ، وهم لا يعلمونَ أنَّهم يفعلونَ ذلكَ[3].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ في سياق الآية:

لكلِّ مسيرٍ غاية، ولكلِّ غايةٍ فائدةٌ ودلالة

﴿حَتَّىٰٓ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ﴾، هي الَّتي يُبتدأُ بها الكلامُ، ومعَ ذلكَ هي غايةٌ لِما قبلَها[4]، وقد اختُلِفَ في المُغَيّا هنا، فقيلَ: هي غايةٌ لشيءٍ مُقدَّرٍ، أيْ: وساروا حتَّى إذا أتوا، وقيلَ: يُضمَّنُ ﴿يُوزَعُونَ﴾ معنى فعلٍ يقتضي أنْ تكونَ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ غايةً لهُ، أيْ: فهُم يسيرونَ مكنوفًا بعضُهم مِنْ مفارقةِ بعضٍ[5].

(1) السمين، عمدة الحفاظ: (حطم).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شعر).
(3) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 439.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 278، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 363.
(5) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 218، والسّمين الحلبي، الدُّرُّ المَصون: 8/ 582، وزاده، حاشية على تفسير البيضاوي: 6/ 384.

دلالةُ ﴿إِذَآ﴾ في السّياق الحكيم:

بيانُ أثرِ ظرف الزَّمان، في ترسيةِ المعنى المراد

﴿إِذَآ﴾ في قولِه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ﴾ ظرفُ زمانٍ بمعنى (حينَ)، وهو يقتضي فعلَيْن بعدَهُ يُشبهانِ فعلَي الشَّرطِ وجوابِه؛ لأنَّ ﴿إِذَآ﴾ مُضمَّنةٌ معنى الشَّرطِ، و﴿إِذَآ﴾ معمولٌ لفعلِ جوابِه، وأمّا فعلُ شرطِه؛ فهو جملةٌ مضافٌ إليها ﴿إِذَآ﴾، والتَّقديرُ: (حتَّى قالَتْ نملةٌ حينَ أتَوا على وادي النَّملِ)[1].

دلالةُ التَّعبير بجملة: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ﴾:

الإتيانُ معبِّرٌ عن يسر الوصول البادي إلى عمق ذلك الوادي

آثر القرآنُ الكريم التَّعبيرَ بالإتيان دون المجيء في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ﴾؛ لما يحمله لفظُ الإتيان من يُسر الوصول والمرور دون عقبات، فجنود سليمان عليه السلام لقوَّتهم وكثرتهم لا يجدون صعوبةً في مرورهم على وادي النَّمل؛ لذلك كان التَّعبير بالإتيان مُصوِّرًا لحالة القوَّة عند جنود سليمان عليه السلام، وحالة الضَّعف عند النَّمل.

دلالةُ التَّعبيرِ بصيغةِ الماضي:

تحقُّقُ إتيانِ جنودِ سليمان عليه السلام لوادي النَّمل

عُبِّرَ بصيغةِ الماضي في قولِ اللّهِ جلَّ شأنُهُ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ﴾؛ لأنَّ أصلَ ﴿إِذَآ﴾ الجزمُ بوقوعِ الشَّرطِ بعدَها، ولذلكَ يُغلَّبُ لفظُ الماضي معَها؛ لدلالتِهِ على الوقوعِ نظرًا إلى اللَّفظِ نفسِه[2]، ولأنَّ الحديثَ هنا عن أمرٍ ماضٍ قد تحقَّقَ وانقضَى، والعادةُ جاريةٌ باستعمالِ صيغةِ الماضي في روايةِ القصصِ والأحداثِ.

سِرُّ تعديةِ ﴿أَتَوۡاْ﴾ بـ ﴿عَلَىٰ﴾:

بيانُ أنَّ الإتيانَ واقعٌ من فوقٍ، بدلالةِ حرف الاستعلاء

الفعلُ (أتَى) في الأصلِ يتعدَّى بنفسِهِ أو بـ (إلى)[3]، وقد عُدّيَ في قوله سبحانه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ﴾ بـ ﴿عَلَىٰ﴾؛ لأحدِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 240.
(2) التفتازاني، المختصر، ص: 270.
(3) الخفاجي، عناية القاضي: 7/ 38.

معنيَيْن: **الأوَّل**: أنَّ إتيانَهم كانَ مِنْ فوقُ، فأُتيَ بحرفِ الاستعلاءِ[1]؛ لأنَّهم فيما قيل كانوا محمولينَ على الرّيحِ، فهم مُستعلونَ[2]، أيْ: أتَوا مُستعلينَ على وادي النَّملِ استعلاءَ الرّاكبِ على المركوب، ففيهِ استعارةٌ تمثيليَّةٌ أو تبعيَّةٌ[3]، **والثّاني**: أنْ يُرادَ قطعُ الوادي وبُلوغُ آخِرِه، مِنْ قولِهم: أتَى على الشَّيءِ؛ إذا بلغَ آخِرَهُ، كأنَّهم أرادوا أنْ يَنزِلوا عندَ مُنْقطَعِ الوادي؛ لأنَّهم ما دامتِ الرّيحُ تحملُهم في الهواءِ لا يُخافُ حَطْمُهم[4]، **والحاصلُ**: أنَّهُ ليسَ المُرادُ بالإتيانِ معنى المجيءِ، بل معنى القَطْعِ[5]، وقيلَ: إنَّ تعديتَهُ بـ ﴿عَلَىٰ﴾؛ لكونِهِ بمعنى المُرورِ[6].

سرُّ الإضافةِ في قولِهِ: ﴿وَادِ ٱلنَّمۡلِ﴾:

كثرةُ النَّملِ في هذا الوادي، مبينةٌ عن خصوصيّتِه

دلَّت إضافة لفظ ﴿وَادِ﴾ إلى النَّمل في قوله ﷻ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ﴾ على كثرة نمل هذا الوادي، ولذلك فسَّروا ﴿وَادِ ٱلنَّمۡلِ﴾، بأنَّه وادٍ بالشّام كثيرُ النَّملِ[7]، فالإضافةُ لأدنَى مُلابَسةٍ[8]، وقيلَ: يجوزُ أنْ يُرادَ بهِ الجنسُ؛ لأنَّ للنَّملِ شُقوقًا ومسالكَ هي بالنِّسبةِ إليها كالأوديةِ للسّاكنينَ مِنَ النّاسِ[9].

دلالةُ (أل) في لفظ ﴿ٱلنَّمۡلِ﴾:

بيانُ سرِّ نسبةِ الوادي إلى النَّمل السّاكن فيه

الظّاهرُ أنَّ تعريفَ ﴿ٱلنَّمۡلِ﴾ في قولِهِ ﷻ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ﴾؛ للجنسِ، أي: (حتَّى إذا أتَوا على وادي الجنسِ المُسمَّى بالنَّملِ)[10]، أيْ: على وادٍ يَكْثُرُ فيهِ جنسُ النَّملِ، "والنَّمل اسم جنسٍ

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 355، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 24/ 548.
(2) السمين، الدر المصون: 8/ 582.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 363.
(4) الزمخشري، الكشاف: 3/ 355، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 24/ 548.
(5) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 363.
(6) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 363.
(7) الزمخشري، الكشاف: 3/ 355، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 157.
(8) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 363.
(9) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 240.
(10) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 364.

معروفٌ، وسُمّي بذلك لاشتقاقهِ من التَّنمُّل، وذلك لكثرة حركته أو لكثرة تردُّده، ويُقال: تنمَّل القوم: تفرَّقوا للجمع تفرُّق النَّمل"[1].

دلالةُ التَّعبير بقوله: ﴿قَالَتْ﴾:

بيانُ دورِ هذه النَّملة في اليقظة والرِّعاية والتَّدبير

دلَّ التَّعبيرُ بالقول في قوله تعالى: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ﴾ على أنَّها هي المسؤولة عن موكب هذا النَّمل الَّذي يسرح في هذا الوادي، وفيه دلالة على أنَّها تقوم على رعايتِهم وتدبير شؤونهم وتحذيرهم من الهلاك.

علَّةُ تأنيثِ فعلِ ﴿قَالَتْ﴾:

مراعاةُ صورةِ اللَّفظِ، مبينةٌ عن المراد بجنس النَّملة

اختُلِفَ في سببِ تأنيثِ فعلِ ﴿قَالَتْ﴾، في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ﴾، فقيلَ: هذهِ النَّملةُ مؤنَّثةٌ حقيقيَّةٌ، بدليلِ لحاقِ علامةِ التَّأنيثِ فعلَها؛ لأنَّ (نملةً) يُطلَقُ على الذَّكرِ وعلى الأنثى، فإذا أُريدَ تمييزُ ذلكَ؛ قيلَ: نملةٌ ذَكَرٌ، ونملةٌ أُنثى[2].

وقيلَ: النَّملُ: اسمُ جنسٍ، واحدُهُ: نملةٌ، بتاءِ الوَحْدة، فكلمةُ ﴿نَمْلَةٌ﴾ لا تدلُّ إلّا على فردٍ واحدٍ مِنْ هذا النَّوعِ دونَ دلالةٍ على تذكيرٍ ولا تأنيث، فقولُه: ﴿نَمْلَةٌ﴾ مفادُهُ: قالَ واحدٌ مِنْ هذا النَّوعِ، واقترانُ فعلِه بتاءِ التَّأنيثِ جرَى على مراعاةِ صورةِ لفظِه؛ لشَبَهِ هائِه بهاءِ التَّأنيث، وإنَّما هي علامةُ الوَحْدة.

على أنَّهُ لا يتعلَّقُ غرضٌ بالتَّمييزِ بينَ أنثى النَّملِ وذَكَرِهِ، بَلْهَ أنْ يتعلَّقَ بهِ غرضُ القرآنِ؛ لأنَّ القصدَ وقوعُ هذا الحادثِ، وبيانُ علم سليمانَ، لا فيما دونَ ذلكَ مِنَ السَّفاسفِ[3].

غرضُ تنكيرِ قولِهِ: ﴿نَمْلَةٌ﴾:

بيانُ مكانةِ هذه النَّملةِ الحكيمة، من مجموع النَّمل بالوادي

دلَّ تنكيرُ ﴿نَمْلَةٌ﴾ في قولِهِ ﷻ: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ﴾ على تعظيمها؛ لأنَّها هي المسؤولة، فهي في موضع القيادة لهذا النَّمل، وكأنَّها صارت بهذا

(1) ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 15/ 126.
(2) السمين، الدر المصون: 8/ 584.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 241.

الحرص من العَلَميَّة والشهرة بمكانٍ، ويجوز أن يكون التَّنكير؛ لعدم التَّعيين[1]، والمُرادُ منها واحدةٌ مِنَ الجنسِ لا بعينِها[2]، فتكونُ تاءُ ﴿نَمۡلَةٞ﴾ للوَحدة[3].

دلالةُ النِّداءِ في جملة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ﴾:

التَّنبيهُ لأهمّيَّةِ الكلامِ المُلقَى؛ لاستيعابه والعمل به

جيءَ بالنِّداءِ في قولِ النَّملة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ﴾ الآية؛ لِما في النِّداءِ مِنَ الإيقاظِ والتَّنبيهِ لأهمّيَّةِ ما يُتلَى مِنَ الكلامِ الآتي بعدَهُ[4]، ولِما كانت النَّملةُ في مقامِ تحذيرٍ مِنْ خطرٍ عظيمٍ يحيط بالنَّمل، وهذا يستدعي لَفْتَ الانتباهِ قبلَ إلقاءِ الكلامِ.

غرضُ البدلِ في قولِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ﴾:

جيءَ بأسلوبِ الإبدالِ في قولِهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ﴾ لِما فيهِ مِنَ الإبهامِ، ثمَّ البيانِ المفيدين للتَّشويقِ، وزيادةِ الإيضاحِ المناسبَيْنِ لمقامِ الأمرِ والتَّحذيرِ[5].

دلالةُ التَّعبيرِ بالضَّميرِ في ﴿ٱدۡخُلُواْ﴾:

ملمحُ إجراء خطاب النَّمل، مجرى خطاب العقلاء

جاء التَّعبير القرآنيُّ بضمير العقلاء في: ﴿ٱدۡخُلُواْ﴾ في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ﴾، ولم يقل: (ادخُلْنَ)؛ لأنَّ النَّملة لمّا جُعِلَتْ قائلةً، وجُعِلَ النَّملُ مَقولًا لهُم، كما يكونُ في العُقَلاءِ؛ أُجريَ خطابُهنَّ مُجْرَى خطابِ العقلاءِ[6]، وكذلكَ جاء الضَّمير في قوله ﷻ: ﴿لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ﴾[7]، وقيلَ: كأنَّها لمّا رأَتْ سليمانَ وجُنودَهُ مُتوجِّهينَ إلى الوادي؛ فرَّتْ منهُم، فصاحَتْ صيحةً تنبَّهُ بها ما بحضرتِها مِنَ النَّملِ لمرادِها، فتبعَها في الفرارِ، فشُبِّهَ ذلكَ بمخاطَبةِ

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 364.
(2) ابن التّمجيد، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 264.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 172.
(4) السيوطي، الإتقان: 3/ 184.
(5) السيوطي، الإتقان: 3/ 184.
(6) النسفي، مدارك التنزيل: 2/ 597.
(7) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 220.

العُقَلاءِ ومُناصَحتِهم، فأُجْروا مُجْراهم حيثُ جُعِلَتْ هي قائلةً، وما عداها مِنَ النَّملِ مَقولًا لهُم، حيثُ قيلَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ﴾(1)، فيكونُ الكلامُ خارجًا مخرجَ الاستعارةِ التَّمثيليَّةِ، ويجوزُ أنْ يكونَ فيهِ استعارةٌ مَكنيَّةٌ(2)، والظّاهرُ هو الأوَّلُ.

دلالةُ الأمرِ في جملة: ﴿ٱدۡخُلُواْ﴾:

التَّعبيرُ بالأمر للوجوبِ؛ لتوخّي الهرب والحذر المطلوب

الظّاهرُ أنَّ الأمرَ في قولِ الحقِّ جلَّ ذِكْرُهُ: ﴿ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ﴾؛ للوجوبِ؛ لأنَّهُ هو الأصلُ، ولا صارفَ عنهُ، والمقامُ يقتضيهِ؛ لأنَّهُ مقامُ أمرٍ بالهربِ مِنْ خطرٍ عظيم، ومن دلالة التَّعبير بالأمر في قوله: ﴿ٱدۡخُلُواْ﴾ أنَّ النَّملة نصحت، وأسمعت النَّمل بنفسها، ويكون في هذا الإسماع خرقٌ للعادة؛ لأنَّ النَّمل الذي يملأ الوادي إسماعُهُ بصوت واحد يكون من العجب العجاب، وفيه إشارة إلى أنَّ للنَّمل لغةَ تَخاطُبٍ يميِّز فيها بين حالة الخوف وحالة الأمن، ولا يتأتّى ذلك إلّا بإلهام اللّه تعالى له، وصدق اللّه الذي قال: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ٥٠﴾ [طه: 50]، وفيه تعليمٌ للأُمم أن تُحافظ على رعاياها، وأن تأخذ التَّدابيرَ اللّازمة للحفاظ عليها، كما حافظت النَّملة على أتباعها.

سِرُّ التَّعبيرِ بلفظ ﴿مَسَٰكِنَكُمۡ﴾ دون (بيوتكم):

أمْرُ النَّملِ بدخول المساكن، يشير إلى أنَّهم كانوا خارجها

آثرَ القرآنُ الكريم التَّعبيرَ بالمساكن دون البيوت؛ لأنَّ المساكن مأخوذةٌ من مادَّة (سكن)، وهي تدلُّ على ثبوت الشَّيء بعد تحرُّكه، وهذا مناسب لحركة النَّمل بعد تحذيره من تحطيم سليمان وجنوده بأن يكون في موضع الأمن والهدوء؛ لأنَّ من معاني السَّكن إزالةَ الخوف وزواله؛ بخلاف لفظ (بيت) الذي يُستعمل في مكان المبيت ليلًا، أمّا ما قالته النَّملة للنَّمل؛ فواضحٌ أنَّه كان نهارًا، وليس ليلًا،

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 157، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 278.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 171.

ويُؤكِّد ذلك التَّعبير بلفظ ﴿ٱدۡخُلُواْ﴾؛ فالدُّخول لا يكون إلّا بعد خروج النَّمل من مساكنهم.

سِرُّ الإضافةِ في قولِهِ: ﴿مَسَٰكِنَكُمۡ﴾:

بيانُ أنَّ للنَّملِ بيوتًا ومساكنَ، ومجالًا للكَسْبِ والمعيشة

الإضافةُ في قولِهِ تعالى: ﴿ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ﴾؛ للتَّمليكِ، وهي تدلُّ على أنَّ للنَّملِ بيوتًا ومساكنَ، ومجالَ معيشةٍ وكَسْبِ أرزاقٍ؛ لذلكَ تجدُهُ يتتبَّعُ مواضعَ الطَّعامِ والفضلاتِ، ويدخلُ إليها مِنْ أضيقِ الأماكنِ[1]، وفيه دلالةٌ على صناعة النَّمل لمساكنها بشكلٍ يُدلِّل على الإلهام، الذي أودعه اللّه في عالم النَّمل؛ لأنَّه منه ما هو للسَّكن، ومنه ما هو للتَّخزين.

سِرُّ استعمال (أل) في المنادى:

بيانُ أنَّ في نداء النَّمل مساواةً دون تمييزٍ

دلَّ استعمال (أل) في نداء النَّمل بقولها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ﴾، دون أن تقول: (يا نمل) بالنَّكرة، أو (يا بعض النَّمل)، على أنَّ نداءها فيه مساواة لجميع النَّمل دون تمييز أو تخصيص، وفي هذا تقريرٌ لمبدأ المساواة في التعامل، وهذا ما ينبغي على الراعي تجاه الرَّعيَّة في سياسة أمرها على العموم، وفي النَّصيحة والتحذير من الخطر على الخصوص[2].

دلالةُ موقعِ جملةِ: ﴿لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ﴾:

تنوُّعُ موقعِ الجملةِ الإعرابيِّ، مفيدٌ في تحديد المراد من الجملة

يحتمِلُ قولُه تباركَ شأنُهُ: ﴿لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ﴾ أنْ يكونَ جوابًا للأمرِ، وهو ﴿ٱدۡخُلُواْ﴾[3]، وعلى هذا تكونُ ﴿لَا﴾ نافيةً[4]، ويحتملُ أنْ يكونَ نهيًا بدلًا مِنَ الأمرِ؛ لأنَّهُ في معنى: لا تكونوا حيثُ أنتُم، فيحطمَكم، وذلكَ على طريقةِ قولِهم: لا أَرَيَنَّكَ ها هنا[5]،

(1) الشعراوي: تفسير الشعراوي: 17/ 10760.
(2) المراغيّ، تفسير المراغي: 19/ 129.
(3) الزمخشري، الكشاف: 3/ 356.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 242.
(5) الزمخشري، الكشاف: 3/ 356.

ومعنى هذا الأسلوبِ - وهو أنْ يُنهَى الآخرُ بينما المُرادُ نهيُ المُخاطَبِ - النَّهيُ عن أنْ يكونَ المُخاطَبُ على وصفٍ هو ملزومُ المنهيِّ عنه، فمآلُ المعنى: لا تكونوا خارجينَ عن مساكِنِكم فيحطمنَّكم سليمانُ وجُنودُهُ[1]، فالنَّهيُ لسليمانَ وجُنودِهِ بحسَبِ الظّاهِرِ، لكنَّ المُرادَ نهيُ النَّملِ، فيكونُ في الكلامِ كنايةٌ[2].

وقيلَ: الجملةُ استئنافٌ[3]؛ تكريرًا للتَّحذيرِ، ودلالةً على الفَزَعِ؛ لأنَّ المُحذِّرَ مِنْ شيءٍ مُفزِعٍ يأتي بجُمَلٍ مُتعدِّدةٍ؛ للتَّحذيرِ مِنْ فَرْطِ المَخافةِ[4].

دلالةُ تعدُّدِ القراءاتِ في قوله: ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ﴾:

تكامُلُ القراءتين، مفيدٌ في تصوير المشهد والحوار

قرأ رويسٌ عن يعقوب بإسكان النون: ﴿لَا يَحْطِمَنكُمْ﴾، والباقون بفتحها المشدَّدة ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ﴾، والوجه في ذلك أنَّ النون في قراءة رويس نون التَّوكيد الخفيفة، وهي مؤكِّدة، أمّا قراءةُ باقي القرّاء بالتشديد في النون على أنَّها النون الثقيلة[5]، وهي أبلغُ في باب التأكيد من الخفيفة، والقراءتان متكاملتان في تصوير المشهد، فنون التوكيد الخفيفة تُعبِّر عن بداية مرور سليمان وجنوده، أمّا النّون الثَّقيلة؛ فهي تُصوِّر شدَّة التَّحطيم عندما يكون سليمان وجنوده في وسط وادي النمل[6].

دلالةُ العطفِ في قولِهِ: ﴿سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ﴾:

العُدولُ إلى أسلوبِ الإجمالِ والتَّفصيلِ، مبيِّنٌ عن المراد

قيلَ: قولُهُ ﷻ: ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ﴾ معناهُ: لا يحطمنَّكم جُنودُ سليمانَ، فجاءَ بما هو أبلغُ[7]؛ لِما فيهِ مِنَ الإجمالِ

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 11/ 488.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 365.
(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 157، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 2/ 597.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 242.
(5) ابن الجزري، النشر: 1/ 234.
(6) الشِّيرازيّ، الموضّح في وجوه القراءات وعللها: 2/ 951.
(7) الزمخشري، الكشاف: 3/ 356.

والتَّفصيلِ، أيْ: إنَّ حَطْمَ سليمانَ يكونُ بواسطةِ جُنودِهِ، فكأنَّ ذِكْرَهُ تمهيدٌ لِذِكْرِهم.

وتُعُقِّبَ ذلكَ: بأنَّ فيهِ القولَ بزيادةِ الأسماءِ، وهي لا تجوزُ، بل الظّاهرُ إسنادُ الحَطْمِ إليهِ عليه السلام وإلى جُنودِهِ، والكلامُ على حذفِ مُضافٍ، أيْ: خيلُ سليمانَ وجُنودُهُ، أو نحوُ ذلكَ ممّا يصحُّ تقديرُهُ[1].

سِرُّ التَّعبيرِ بالحَطْم دون غيره:

تعبيرُ لفظِ الحطم، مؤكّد لنظريّة البنية الزُّجاجيَّة لجسم النَّملة

آثر القرآنُ الكريم التَّعبيرَ بالحَطْم دون غيره في قوله تعالى: ﴿لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ﴾؛ لأنَّ الحَطْم في اللُّغة معناه كسْرُ الشَّيء، مثل الهَشْم، ثمَّ استُعمل لكلِّ كسرٍ متناهٍ، وهذا ما يتناسب مع النَّمل، وعلى هذا يكون المعنى: (لا يُكَسِّر عظامكم، وهو يسير من فوقكم)، وهذا المعنى لا يتأتّى إلّا من لفظ الحَطْم، بخلاف الكسر ونحوه.

دلالةُ التَّأكيد في قوله: ﴿لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ﴾:

توالي المؤكّدات مؤذنٌ بالخطر الدّاهم

أكَّدت النَّملة قولها التَّحذيريَّ للنَّمل، بما يُشبه القَسَم؛ ولذلك كانت اللّام، وكانت نون التّوكيد الثّقيلة في قوله: ﴿لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ﴾، وفي هذا دلالةٌ على يقينها بالخَطَر الدّاهم للنَّمل[2].

نكتةُ إسنادِ الحَطْمِ لسليمانَ عليه السلام ابتداءً:

نسبةُ الفعل إلى القائدِ، باعتباره الآمـر والنّاهي للفاعل

أُسنِدَ الحَطْمُ في قولِهِ جل جلاله: ﴿لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ﴾؛ لسليمانَ عليه السلام أوَّلًا؛ باعتبارِهِ قائدَ الجُنْدِ، والجُنْدُ جُنْدُهُ، فهو الَّذي يُسْنَدُ إليهِ الحَطْمُ أوَّلًا وبالذّاتِ، ويُسْنَدُ إلى غيرِهِ بالتَّبعِ[3]، ولأنَّ الحَطْمَ لو وقعَ؛ فالدُّخولُ في الوادي سببُهُ، وهو عليه السلام الآمِرُ به[4].

دلالةُ عطف (الجنود) على (سليمان):

بيانُ أنَّ المسؤوليَّة مشتركةٌ بين القائد وجنوده

دلَّ عطفُ قولِهِ: ﴿وَجُنُودُهُۥ﴾ على سليمان عليه السلام، على أنَّ حطْمَ

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 221.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5444.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5444.
(4) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 366.

سليمان للنَّمل يكون بواسطة جنوده، وفي هذا إشارة إلى تحمُّله للمسؤوليَّة؛ لأنَّهم يأتمرون بأمره، فهو الذي يصدر الأوامرَ وجنوده تقوم بالتنفيذ؛ لذلك كان العطفُ لبيان الاشتراك في المسؤوليَّة، ولذلك ذهب البعض إلى أنَّ الكلامَ على حذف مضاف، تقديره: (خيل سليمان وجنوده)، أو نحو ذلك ممّا يصحُّ تقديره[1].

نكتةُ الإضافةِ في قولِه: ﴿وَجُنُودُهُۥ﴾:

الدَّلالةُ على التَّسخير والانقيادِ، مبينة عن القصد المراد

إضافةُ الجُنْدِ في قولِ الحقِّ جلَّتْ أسماؤُهُ: ﴿لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ﴾ إلى الضَّميرِ الرّاجعِ إلى سليمانَ عليه السلام؛ للدَّلالةِ على أنَّ الجُنْدَ مملوكونَ لهُ، ومنقادونَ لطاعتِه، ولا يخالفونَ عن أمرِه.

دلالةُ الواوِ في: ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾:

استجلابُ العذرِ لسليمان وجنوده، بعدم الشُّعور بالخطأ عند وقوعِه

الظّاهرُ أنَّ الواوَ في قولِهِ تعالى: ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ للحالِ، والجملةُ حاليَّةٌ، أيْ: إنْ وقعَ حَطْمٌ؛ فليسَ ذلكَ بتعمُّدٍ منهُم، إنَّما يقعُ، وهم لا يعلمونَ بحَطْمِنا؛ لصِغَرِ أجسامِنا، وفي هذا إشارةٌ إلى عدْلِ سليمانَ عليه السلام وأتباعِهِ، ورحمتِهِ ورِفْقِهِ[2]، وقيلَ: الواوُ للاستئنافِ، والجملةُ استئنافيَّةٌ، أيْ: فسليمانُ والقومُ لا يشعرونَ[3].

دلالةُ تقديمِ المُسنَدِ إليهِ:

إفادةُ عدل سليمان وجنوده، وحسن الظَّنِّ بالتماس المعاذير

قُدِّمَ المُسنَدُ إليهِ على المُسنَدِ الفعليِّ في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾؛ لإفادةِ تقوّي الحُكْمِ عليهِم بعدمِ الشُّعورِ، وذلكَ مناسبٌ لمقامِ بيانِ عَدْلِ سليمانَ عليه السلام ورحمتِهِ، ووجهُ التَّقوّي: أنَّ قولَهُ: ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ فيهِ إسنادُ عدمِ الشُّعورِ إلى (هم)، وفي ﴿لَا يَشۡعُرُونَ﴾ ضميرٌ يعودُ إليهِم، فيفيدُ إسنادَ عدمِ الشُّعورِ إليهِم مرَّتيْنِ، كأنَّهُ قيلَ: فَهُم لا يشعرونَ، فَهُم لا يشعرونَ، وفيه تعليمٌ لمبدأ حسن الظَّنِّ

(1) البحر المحيط: 8/ 221.

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 221، والسّمين الحلبي، الدر المصون: 8/ 589.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 278.

والتماس العذر للآخرين من موقف النَّملة مع سليمان وجنوده، فهي تحذِّر، ولا تتَّهم، ولا تسيء الظَّنَّ، فهذا خُلُقٌ كريم ينبغي على البشر أن يتعلَّموه في سلوكهم، فيجمعوا بين التَّحذير والاعتذار.

دلالةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ ﴿لَا يَشۡعُرُونَ﴾:

أهميَّةُ صيغة المضارعةِ في تصوير الحدث المتوقَّع

عُبِّرَ بصيغةِ المضارعِ في قولِه تبارك شأنُهُ: ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على تصويرِ الحدَثِ، وأنَّ الحطْمَ إنْ وقعَ؛ فصورتُهُ أنَّهُ مُقترِنٌ بعدمِ العلمِ، بوجودِ النَّملِ في الوادي.

بلاغةُ الإيجازِ في قولِ النَّملةِ:

جمعَ قولُ النَّملةِ أحدَ عشرَ جنسًا مِنَ الكلامِ

في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ أحدَ عشرَ جنسًا مِنَ الكلام، وذلكَ أنَّ النَّملةَ نادَتْ، وكنَّتْ، ونبَّهَتْ، وسمَّتْ، وأمرَتْ، وقصَّتْ، وحذَّرَتْ، وخصَّتْ، وعمَّتْ، وأشارَتْ، وعذرَتْ.

فالنِّداءُ: (يا)، والكنايةُ: (أيُّ)، والتَّنبيهُ: (ها)، والتَّسميةُ: ﴿ٱلنَّمۡلُ﴾، والأمرُ: ﴿ٱدۡخُلُواْ﴾، والقصصُ: ﴿مَسَٰكِنَكُمۡ﴾، والتَّحذيرُ: ﴿لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ﴾، والتَّخصيصُ: ﴿سُلَيۡمَٰنُ﴾، والتَّعميمُ: ﴿وَجُنُودُهُۥ﴾، والإشارةُ: ﴿وَهُمۡ﴾، والعُذْرُ: ﴿لَا يَشۡعُرُونَ﴾، فأدَّتْ خمسةَ حقوقٍ: حقَّ اللهِ، وحقَّ رسولِه، وحقَّها، وحقَّ رعيَّتِها، وحقَّ جُنودِ سليمانَ عليه السلام[1].

۞ الفروقُ المُعجَميَّةُ:

العلم والشُّعور:

الشُّعورُ أخصُّ مِنَ العلمِ، وكلاهما لفظٌ قرآنيٌّ فصيح

فُرِّقَ بينَ العِلمِ والشُّعورِ: بأنَّ الشُّعورَ عِلمٌ يوصَلُ إليهِ مِنْ وجهٍ دقيقٍ، ولهذا قيلَ للشّاعرِ: شاعرٌ؛ لفطْنتِه لدقيقِ المعاني، ولا يُقالُ: اللهُ تعالى يَشْعُرُ؛ لأنَّ الأشياءَ لا تَدِقُّ عنهُ، وقيلَ: الذَّمُّ للإنسانِ -

(1) السيوطي، الإتقان: 3/ 184.

بأنَّهُ لا يَشْعُرُ - أشدُّ مبالغةً مِنْ ذمِّهِ بأنَّهُ لا يعلمُ؛ لأنَّهُ إذا قيلَ: لا يَشْعُرُ، فكأنَّهُ أُخرِجَ إلى معنى الحمارِ، بحيثُ لا يعلمُ مِنْ وجهٍ ظاهرٍ ولا خفيٍّ، وهو كقولِكَ: لا يُحِسُّ، وهذا قولُ مَنْ يقولُ: إنَّ الشُّعورَ هو الإدراكُ بالمشاعرِ، وهي الحواسُّ[1].

(1) العسكري، الفروق، ص: 372.

﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٩﴾ [النمل: 19]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ربطُ تبسُّمِ سليمانَ عليه السلام ودعائِهِ، بما سبق من سماعِهِ قولَ النَّملةِ

لمّا ذكرتِ الآيةُ السابقة نداءَ النَّملة للنمل بقولها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمْ﴾؛ خوفًا عليهم من سليمان وجنوده أن يحطِّموهم، وهم لا يشعرون؛ بيَّنت هذه الآيةُ موقفَ سليمان عليه السلام من نداء النملة بأنَّه تبسَّم ضاحكًا من قولها؛ لوصفها لجنوده بأنَّهم لا يعمدون إلى الشَّرِّ، ولا يُبيِّتون النيَّة لفعله.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَتَبَسَّمَ﴾: (بسم) أَصْلٌ واحِدٌ، وهوَ إبْداءُ مُقَدَّمِ الفَمِ لِمَسَرَّةٍ، وهوَ دونَ الضَّحِكِ، يُقالُ: بَسَمَ يَبْسِمُ وتَبَسَّمَ وابْتَسَمَ[1]، وبَسَمَ يبسم بسمًا؛ إذا فتح شفتيه كالكاشر، والمُرادُ: كَشْرُ الشَّفتَيْن عن الأسنان، ومن هذا استُعمل وغلب في التَّبسُّم الذي هو أقلُّ الضَّحك وأحسنه؛ لأنَّه يكون بفتح الشَّفتَيْن قليلًا[2].

2) ﴿ضَاحِكًا﴾: (ضحك) قَريبٌ مِنَ البابِ الَّذي قَبْلَهُ، وهوَ دَليلُ الِانْكِشافِ والبُروزِ، مِنْ ذَلِكَ الضَّحِكُ، ضَحِكُ الإنْسانِ[3]، والضَّحك: انبساطُ الوجه وتكشُّر الأسنان من سرور النَّفس، ولظهور الأسنان عنده؛ سُمّيت مُقدِّمات الأسنان (الضواحك)، واستُعير الضَّحك للسُّخرية، فقيل: (ضحكت منه)، قال تعالى: ﴿وَكُنتُم

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بسم).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي: (بسم).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ضحك).

﴿مِّنۡهُمۡ تَضۡحَكُونَ ١١٠﴾ [المؤمنون: 110]، ويُستعمل في السُّرور المُجرَّد، نحو: ﴿ضَاحِكَةٞ مُّسۡتَبۡشِرَةٞ ٣٩﴾ [عبس: 39]، واستُعمل للتَّعجُّب المُجرَّد تارةً[1].

3) ﴿أَوۡزِعۡنِيٓ﴾: (وزع) بِناءٌ مَوْضوعٌ عَلَى غَيْرِ قياسٍ، ووَزَعْتُهُ عَنِ الأَمْرِ: كَفَفْتُهُ، قال اللّه سُبْحانَهُ: ﴿فَهُمۡ يُوزَعُونَ﴾، أَيْ: يُحْبَسُ أَوَّلُهُمْ عَلَى آخِرِهِمْ، ويُقالُ: أَوْزَعَ اللّه فُلانًا الشُّكْرَ: أَلْهَمَهُ إيَّاهُ، ويُقالُ: هوَ مَنْ أوزِعَ بِالشَّيْءِ؛ إذا أولِعَ بِهِ، كَأَنَّ اللّه تَعالَى يولِعُهُ بِشُكْرِهِ[2].

4) ﴿تَرۡضَىٰهُ﴾: (رضي) أصلٌ واحدٌ يدلُّ على خلافِ السُّخْطِ[3]، ورِضا العبدِ عنِ اللّهِ: ألّا يكرهَ ما يَجْري بهِ قضاؤُهُ، ورِضا اللّهِ عنِ العبدِ: هو أنْ يراهُ مُؤتمرًا لأمرِهِ، ومُنتهيًا عن نَهْيِهِ، قالَ سبحانَهُ: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾ [المائدة: 119]، وقالَ: ﴿۞لَّقَدۡ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الفتح: 18][4].

۞ المَعْنى الإجماليُّ:

نِعَمُ اللهِ على سليمانَ، أدخلت عليه السُّرورَ، مع توخّي الشُّكرِ والعملِ الصّالح

بيَّنت هذه الآية أنَّ سليمان عليه السلام تبسَّمَ ضاحكًا مِنْ قولِ النَّملةِ الَّتي قالَتْ ما قالَتْ تعجُّبًا وسرورًا، وقالَ: ربِّ ألهِمْني أنْ أشكرَ نِعَمَكَ الدّينيَّة والدُّنيويَّة الَّتي أنعمتَ بها عليَّ وعلى والديَّ، وأنْ أعملَ بطاعتِكَ وما ترضاهُ، وأدخِلْني الجنَّةَ في زُمْرةِ عبادِكَ الصّالحينَ[5] برحمتك الواسعة.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الفاءِ في قولِهِ: ﴿فَتَبَسَّمَ﴾:

إظهارُ الفرحِ بنعمةِ اللهِ تعالى، إقرارٌ بعطائه وفضله

الفاءُ في قولِ الحقِّ تباركَ شأنُهُ: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكٗا مِّن قَوۡلِهَا﴾؛

(1) الراغب، المفردات: (ضحك).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وزع).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رضي).
(4) الراغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (رضي).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 440، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 183.

للسَّببيَّةِ، وهي تُفيدُ تسبُّبَ التَّبسُّمِ عن قولِ النَّملةِ[1]، وقيلَ: الفاءُ فصيحةٌ، وهي تدلُّ على معطوفٍ محذوفٍ، والتَّقديرُ: (فسمعَ قولها، فتبسَّمَ)، وكونها للسَّببيَّة أَوْلَى؛ لأنَّه لا حاجة إلى تقدير معطوفٍ عليه؛ إذ السَّببُ عامٌّ للسَّبب البعيد[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بصيغةِ الماضي:

التَّنبيهُ على تحقُّقِ الفعلِ ووقوعِهِ، بقرينة كونه ماضيًا

عُبِّرَ بصيغةِ الماضي في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾ دون المضارع (يتبسم)؛ لأنَّ تبسُّمَ سليمانَ عليه السلام أمرٌ قد تحقَّقَ، ومضَى، ولأنَّ تصويرَ مشهدِ التَّبسُّم واستحضاره ليس مقصودًا في عرض المشهد بقدر الإعلام على وقوع التَّبسُّم وتحقُّقه.

سِرُّ التَّقييدِ بلفظ: ﴿ضَاحِكًا﴾:

تأثُّر سليمانَ بقول النَّملة، مـلأه ضحكًا وسرورًا

دلَّ التَّقييد بقوله: ﴿ضَاحِكًا﴾ في قولِ عزَّ شأنُه: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾ على أنَّه تجاوزَ حدَّ التَّبسُّم إلى الضَّحك[3]، أيْ: فتبسَّمَ شارعًا في الضَّحكِ وآخذًا فيه، وفيهِ إشعارٌ بقوَّة تأثيرِ قولِها فيه عليه السلام، حيثُ أثر فيه، فتجاوزَ حدَّ التَّبسُّم آخِذًا في الضَّحكِ، ولم يكنْ حالُه التَّبسُّمَ فقط، وكأنَّهُ لمّا لم يكنْ قولُ: (فضحكَ مِنْ قولِها) في إفادةِ ما ذُكِرَ مِثْلَ ما في النَّظمِ الجليلِ؛ لم يُؤْتَ بهِ[4]، وعلى هذا يكون قوله: ﴿ضَاحِكًا﴾ منصوبًا على الحال، وقيلَ: إنَّ ﴿ضَاحِكًا﴾ حالٌ مُقدَّرةٌ، وفائدتُها بيانُ أنَّ التَّبسُّمَ قد يكونُ مِنْ غضبٍ، وقد يكونُ مِنِ استهزاءٍ، وتبسُّمُ الضَّحك لا يكونُ إلّا عن سُرورٍ[5]، وهذا قولٌ فيهِ نظرٌ[6]؛ لأنَّهُ لا يُسلَّمُ أنَّ الضَّحك لا يكونُ إلّا عن سُرورٍ وفرحٍ، بدليلِ قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 144، والخفاجي، عناية القاضي: 7/ 39.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 266.
(3) الزمخشري، الكشاف: 3/ 356، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 24/ 549.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 175.
(5) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 222.
(6) الخفاجي، عناية القاضي: 7/ 39.

﴿٢٩﴾ [المطفِّفين: 29]، فإنَّ هذا الضَّحكَ كانَ مِنْ مُشرِكي قريشٍ؛ استهزاءً بفُقَراءِ المؤمنينَ، ولم يكنْ للسُّرورِ والفرحِ.

دلالةُ الجمع بين (الضَّحك) و(التَّبسُّم):

التَّبسُّم وحده قد يكون لأمرٍ غير ذي بالٍ، وكذلك الضَّحك وحده

جمع القرآنُ الكريم بين التَّبسُّم والضَّحك، فقال: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا﴾، ولم يقل: (فتبسَّم) فقط أو (ضاحكًا) فقط؛ لأنَّ التَّبسُّم وحده قد يكون لأمرٍ غير ذي بالٍ، ولأنَّ الضَّحك وحده قد يكون للاستهزاء وعدم التَّصديق، فجمع بينهما؛ ليُؤكِّد أهميَّةَ ما جاء في قول النملة وقيمتَهُ، وهي تنادي على النَّمل، وفيه دلالةٌ على وقوع التَّبسُّم والضَّحك عند وجود أسبابِهما، كما وقع من سليمان ﵇، وهو نبيٌّ، وفعل الأنبياء حُجَّة.

سِرُّ تقديمِ (التَّبسُّم) على (الضَّحك):

التَّبسُّم والضَّحك كلاهما تعبير عن السُّرور، والأوَّل توطئة للثّاني

قدَّمَ القرآنُ الكريم التَّبسُّمَ على الضَّحك في قوله تعالى: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا﴾؛ لأنَّ التَّبسُّم يسبق الضَّحك عادةً، وعلى هذا يكون المعنى: (تبسَّم شارعًا في الضَّحك وآخذًا فيه)، وفي هذا دلالة على مراعاة التَّرتيب الوجوديِّ، على رأي مَنْ فرَّق بينهما، وهو الأَوْلى، فالتَّبسُّم مبدأُ الضَّحك من غير صوتٍ، والضَّحك انبساطُ الوجه حتى تظهرَ الأسنانُ من السُّرور مع صوتٍ خفيٍّ، أمّا مَنْ ذهب إلى اتِّحاد التَّبسُّم والضَّحك، فخَصَّ ذلك بما كان من الأنبياء ﵈، فإنَّ ضحكهم تبسُّمٌ، والأَوْلى التَّفريق بينهما، وممّا يُؤكِّد ذلك: أنَّ التبسُّم يكون مقابلًا للضَّحك، ومخالفًا له في الحُكْم، حيث لا تبطل الصَّلاة بالتَّبسُّم، إنَّما تبطل بالضَّحك(1).

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿مِّن﴾ في الآية الكريمة:

بيانُ أنَّ تبسُّمَ سليمانَ ضاحكًا كان بسبب قول النَّملة الحكيمِ

حرفُ الجرِّ ﴿مِّن﴾ في قولِه تعالى: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوۡلِهَا﴾: للسَّببيَّةِ، وهو يفيدُ أنَّ تبسُّمَهُ ضاحكًا كانَ بسببِ قولِ النَّملةِ، والَّذي

(1) القونوي، حاشية القونوي: 14/ 366، والآلوسيّ، روح المعاني: 19/ 180.

أضحكَهُ مِنْ قولِها ثلاثةُ أمور: أحدُها: إعجابُهُ بدلالةِ قولِها على ظُهورِ رحمتِهِ ورحمةِ جُنودِهِ، وعلى شُهرةِ حالِهِ وحالِهم في بابِ التَّقوى. والثّاني: سُرورُهُ بما آتاهُ اللّٰهُ تعالى ممّا لم يُؤْتِ أحدًا، مِنْ إدراكِه بسمعِهِ ما همسَتْ بِه، ومِنْ إحاطتِهِ بمعناهُ، ولذلكَ اشتملَ دعاؤُهُ على استيزاعِ اللّٰهِ شُكرَ ما أنعمَ بِهِ عليهِ مِنْ ذلكَ، وعلى توفيقِهِ لزيادةِ العملِ الصّالحِ والتَّقوى[1]، والثالث: إعجابه بحذرها وتحذيرها واهتدائها إلى تدبير مصالحها ومصالح بني نوعها[2].

سرُّ التَّعبيرِ بالقول دون الصَّوت:

إفـادةُ أنَّ قـولَ النَّـمـلـةِ أفـاد معنًى مفهومًا، وهـو أخـصُّ من الصَّوت

آثرَ القرآنُ الكريم التَّعبيرَ بالقول دون الصَّوت أو النُّطق؛ للدَّلالة على أنَّ قولها أفاد معنًى كاملًا فهمه سليمانُ عليه السلام، وفهمه النَّمل من بني نوعها قبل ذلك، ولأنَّ القول أخصُّ من الصَّوت، وفيه إشارةٌ إلى أنَّه صادرٌ من الحيوانات؛ لأنَّ الصَّوت قد يكون صادرًا من الحيوانات ومن الجمادات، ومن الإنسان، وبذلك يكون الصَّوت أعمَّ من القول والنُّطق والكلام[3].

دلالةُ الواوِ في قولِهِ: ﴿وَقَالَ﴾:

إفادةُ الجملةِ أنَّ تبسُّمَ سليمان عليه السلام، ناتجٌ عن قولها

الواوُ في قولِهِ سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ﴾ عاطفةٌ لهذهِ الجملةِ على جملةِ: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكٗا مِّن قَوۡلِهَا﴾، فتفيدُ أنَّهُ قد تسبَّبَ عن قولِ النَّملةِ المذكورِ في الآيةِ السّابقةِ تبسُّمُ سليمانَ عليه السلام، ودعاؤُهُ بالدُّعاءِ المذكورِ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالقول دون الدُّعاء والنِّداء:

الـقـولُ أعـمُّ، والـدُّعـاءُ يُستخدم غالبًا فـي الـتَّـضـرُّع والشِّدَّة

آثر القرآنُ الكريم التَّعبيرَ بالقول في قوله تعالى على لسان سليمانَ عليه السلام: ﴿وَقَالَ﴾ دون الدُّعاء أو النِّداء؛ لأنَّ القول أعمُّ منهما، فيشمل الدُّعاء والنِّداء، وفيه مناسبة مع قول النَّملة ﴿قَوۡلِهَا﴾، وفي

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 356.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 19/ 179.
(3) الراغب، المُفرَدات: (صوت).

هذا دلالةٌ على أنَّ اللّه أعطى لكلِّ جنسٍ من خلقهِ لغةَ التَّخاطبِ الَّتي يجمعها القول.

وأيضًا؛ لأنَّ الدُّعاءَ غالبًا ما يُستخدم في التَّضرُّع والشِّدَّة، والمقام هنا مقامُ إنعامٍ وعطاء، فناسبه التَّعبيرُ بالقول، وكأنَّ سليمان عليه السلام يقول بلسان الحال والمقال: ﴿رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ﴾.

بلاغةُ إيجازِ لفظ: ﴿رَبِّ﴾:

الدَّلالة على شدَّة القرب، بالنِّداء الموجز القريب

في قولِ اللّهِ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ﴾ إيجازٌ بالحذفِ، وذلكَ أنَّ أصلَ الكلامِ: (وقالَ يا ربّي)، فحُذِفَ حرفُ النِّداءِ وياءُ المُتكلِّم إيجازًا، وإشعارًا بأنَّهُ عليه السلام لمّا رأى دلائلَ قُدرةِ اللّهِ، ورأى نعمةَ اللّهِ عليهِ؛ كانَ في مقامِ قُرْبٍ، فجاءَ بهذا النِّداءِ القريبِ الموجَزِ.

غرضُ الإتيانِ بالنِّداءِ:

النِّداءُ وسيلةُ التَّقرُّبِ بينَ يدي اللهِ المجيب الأقرب

جيءَ بالنِّداءِ في قولِ الحقِّ تقدَّسَتْ آلاؤُهُ: ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ﴾؛ لأنَّ سليمانَ عليه السلام، أرادَ قبلَ طلبِ الحاجةِ أنْ يُقدِّمَ وسيلةً تُقرِّبُهُ مِنْ حصولِ مأمولِهِ ومرادِهِ، وهي نداءُ مَنْ لا يكونُ الدُّعاءُ والتَّضرُّعُ إلّا لهُ جلَّ وعزَّ.

سرُّ التَّعبيرِ بالرُّبوبيَّةِ لا بالألوهيَّة:

دعاءُ الرُّبوبيَّةِ مقامٌ متعلِّق بالإنعام والإحسانِ

عُبِّرَ بعُنوانِ الرُّبوبيَّةِ في قولِ اللّهِ جلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ﴾، دون لفظ الجلالة (اللّه)؛ لأنَّ وصفَ الرُّبوبيَّةِ المُنبِئَ بحسَبِ وضعِهِ اللُّغويِّ عنِ التَّربيةِ والإنعامِ والإحسانِ يناسبُ ما يُنبئُ عنهُ المقامُ مِنْ تذكُّرِ سليمانَ عليه السلام، ما أَوْلاهُ ربُّهُ سبحانه وتعالى بحُسْنِ تربيتِهِ، مِنْ فَهْمِ كلامِ النَّملةِ وغيرِ ذلكَ مِنَ النِّعَمِ الَّتي لا تُحصى، والمعنى: (وقالَ: أيُّها المُحسِنُ إليَّ أوزِعْني أنْ أشكرَ نعمتَكَ الَّتي أنعمتَ عليَّ).. إلخ[1].

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 14/ 144.

دلالةُ الأمرِ في ﴿أَوۡزِعۡنِيٓ﴾ ﴿وَأَدۡخِلۡنِي﴾:

صيغةُ الأمرِ في قولِه تعالى: ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ﴾، وقوله: ﴿وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ خارجةٌ عن حقيقتِها إلى غرضِ الدُّعاءِ والابتهالِ؛ لأنَّها مِنَ العبدِ الأدنى إلى الرَّبِّ الأعلى العليِّ ﷻ.

صيغةُ الأمرِ خارجةٌ عن حقيقتِها إلى غرضِ الدُّعاءِ والابتهالِ

بلاغةُ الكنايةِ عن ضدِّ معنى (أَوْزَعَ):

قيلَ: (أوزَعَ) مزيدُ (وزع) الَّذي هو بمعنى: (كفَّ)، والهمزةُ للإزالةِ، أيْ: أزالَ الوَزْعَ، أيِ: الكفَّ، والمُرادُ: أنَّهُ لم يترك غيرَهُ كافًّا عن عملٍ، وأرادوا بذلكَ الكنايةَ عن ضدِّ معناهُ، أيِ: الكنايةَ عن الحثِّ على العملِ، وشاعَ هذا الإطلاقُ، فصارَ معنى (أوزعَ): أغرَى بالعملِ، فالمعنى: وفِّقْني للشُّكرِ، ولذلكَ كانَ حقُّهُ أنْ يتعدَّى بالباءِ، فمعنى قولِهِ: ﴿أَوۡزِعۡنِيٓ﴾: ألهِمْني[1]، وممّا يُذكر في سِرِّ التَّعبير بالوزع: أنَّه يطلب من ربِّهِ أن يجمع كلَّ جوارحِهِ ومشاعره وكلماته، كأنَّه يقول: (اجمع طاقاتي من أوَّلها إلى آخرها، على شكر نعمك)، يؤكِّد هذا المعنى اللَّغويُّ لكلمة ﴿أَوۡزِعۡنِيٓ﴾.

طلبُ الإلهامِ بالثَّباتِ على الشُّكرانِ على نِعَمِ الرَّحمن

دلالةُ ياءِ المتكلّمِ في قوله: ﴿أَوۡزِعۡنِيٓ﴾:

دلَّت ياء المتكلم في قوله: ﴿أَوۡزِعۡنِيٓ﴾ على الاعتراف بنعمة اللّه والتَّحدُّث بها، وليس افتخارًا بها، فسُليمان عليه السلام، لم يغترَّ بِنِعَمِ اللّه عليه، ولم يفاخر بها، بل عرف حقَّ النِّعمة، واتَّجه إلى شُكرِها، فهو من باب التَّحدُّث بنعمة اللّه.

تحدُّثُ سليمانَ بنعمةِ اللهِ، دلالةُ وعيٍ وإيمان

دلالة التَّعبيرِ بالمصدرِ المُؤوَّلِ:

المصدرُ المؤوَّلُ ﴿أَنۡ أَشۡكُرَ﴾ في قولِه عزَّ شأنُهُ: ﴿أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ﴾ منصوبٌ بنزعِ الخافضِ، وهو الباءُ، أيْ: بأنْ أشكرَ نعمتكَ، والمعنى: اجعَلْني مُلازِمًا شُكرَ نعمتِكَ، وإنَّما سألَ اللّهَ الدَّوامَ على

بيانُ أنَّ النِّعمةَ إذا شُكِرَتْ؛ قرَّت، وإذا كُفِرَتْ؛ فرَّت

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 243.

شُكرِ النِّعمةِ؛ لِما في الشُّكرِ مِنَ الثَّوابِ، ومِنِ ازديادِ النِّعَم، فقد ورد: (النِّعمة وحشيَّةٌ قيدوها بالشُّكر؛ فإنَّها إذا شُكِرَتْ؛ قرَّت، وإذا كُفِرَت؛ فرَّت)[1].

سِرُّ التَّعبيرِ بالشُّكرِ دون الحمدِ:

مناسبةُ مقامِ الحديثِ عن النِّعمة العامَّة والخاصَّة

آثرَ البيانُ الحكيم التعبيرَ بالشكر دون الحمد في قوله: ﴿أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ﴾؛ لوجود فرق بينهما، فالشُّكر هو عرفان الإحسان ونشره، ولا يكون إلّا عن يدٍ، أيّ: عن نعمةٍ وفضل؛ بخلاف الحمدِ الذي يكون عن يدٍ أو غير يدٍ، أو عن نعمةٍ تصلك أو تصل غيرك، وعلى هذا فالحمد أعمُّ من الشُّكر؛ لأنَّ الشُّكر يكون على النِّعمة الخاصَّة الواصلة إليك، وهذا ما يتناسب مع سياق الآية، فهي تتحدَّث عن النِّعمة الواصلة لسليمان عليه السلام وعلى والديه، وهذا مقام الشُّكر للنِّعمة الخاصَّة المذكورة في قوله: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيۡمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ وَٱلطَّيۡرِ فَهُمۡ يُوزَعُونَ﴾؛ بخلاف النِّعمة العامَّة الواردة في قوله: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ عِلۡمٗاۖ﴾، فناسب معها التَّعبيرُ بالحمد في قوله: ﴿وَقَالَا ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾؛ لأنَّ نعمةَ العلم يشترك فيها كلُّ الأنبياء والرُّسل؛ بخلاف تسخير الجنِّ والإنس والطَّير.

دلالةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المضارعِ:

طلبُ استمرار الشُّكرِ وتجدُّدِهِ

يدلُّ التَّعبيرُ بصيغةِ المضارعِ في قولِ الباري سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ﴾ على أنَّ سليمانَ عليه السلام قد طلبَ استمرارَ الشُّكرِ في المستقبلِ وتجدُّدَهُ، بحيثُ يكونُ مُلازِمًا لهُ، قائمًا بحقِّ اللّه عليهِ، وفي ذلك تنبيهٌ على أنَّ مَنْ أنعمَ اللّهُ عليه، وأجزلَ لهُ العطاءَ؛ فهو خَليقٌ بأنْ يجعلَ الشُّكرَ مُستغرِقًا لزمنِهِ كلِّهِ.

دلالةُ التَّعبير بـ﴿نِعۡمَتَكَ﴾ مُفردة:

جاء التَّعبيرُ القرآنيُّ بالمُفرد، في قوله: ﴿نِعۡمَتَكَ﴾ دون الجمع

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 243.

(نِعَمِكَ)؛ لأنَّ النِّعمة في المفرد، تستغرق جميع أفراد النِّعَم، ولأنَّ كلَّ نعمةٍ تحتوي على نِعَم كثيرة، وهذا كفيل بطلب الشُّكر، ويؤكِّد هذا قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾ [النّحل: 18] فأسنَدَ العدَّ إلى المُفرد، والأصل أن يُسنَد إلى الجمع، فلمّا كانت النِّعمةُ الواحدة، في طيّاتها نِعَمٌ كثيرةٌ؛ أسندَ العدَّ إلى نِعَمٍ كثيرةٍ.

نعم اله تعالى على عباده لا غزيرة لا تُحصى

دلالةُ الإضافةِ في قولِهِ: ﴿نِعۡمَتَكَ﴾:

أُضيفتِ النِّعمةُ لكافِ الخطابِ في قولِهِ جلَّ ذِكْرُهُ: ﴿أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ﴾؛ للدلالة على عِظَم قدر النِّعمة وشرفِ مكانتها، وعلى تخصيصها بالمُنعِم ﷻ، ولإفادة الاستغراقِ، أي: وقالَ: ربّي أوزِعْني أنْ أشكرَ جميعَ نِعَمِكَ[1].

عِظَمُ النِّعمةِ وشرفها، والتَّضرُّعُ لاستجلابِ إعانةِ المولى

وفي إضافةِ النِّعمةِ إلى كافِ الخطابِ تصريحٌ بنسبةِ النِّعَم إلى المُنعِمِ بها ﷻ، وفي ذلكَ مزيدُ تضرُّعٍ واستجلابٍ للإعانةِ على المداومةِ على أنْ يشكرَ العبدُ ربَّهُ ﷻ على جميعِ نِعَمِهِ وآلائِهِ، سواءٌ دقَّتْ هذهِ النِّعَمُ أم جلَّتْ.

دلالةُ وصفِ النِّعمةِ بالاسمِ الموصولِ:

وُصِفَتِ النِّعمةُ بالاسم الموصولِ في قولِ اللّهِ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ﴾، معَ أنَّ كونَهُ تعالى هو المُنعِمَ بها أمرٌ معلومٌ مِنَ الإضافةِ في قولِهِ: ﴿نِعۡمَتَكَ﴾؛ لزيادةِ تحقيقِ كونِها منهُ سبحانَهُ[2]، ولذلكَ لم يقل: (نعمتَكَ عليَّ).

تحقيقُ كونِ المُنعِمِ، هو الله الأعظم

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ الماضي:

جيءَ بصيغةِ الماضي في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ﴾، دون صيغة المضارع؛ للدَّلالة على أنَّ إنعامَهُ سبحانَهُ أمرٌ قد تحقَّقَ، وثبتَ، وذلكَ يناسبُ مقامَ طلبِ الاستمرارِ على الشُّكرِ، فهو شكرٌ لنعمةٍ مُتحقِّقةٍ.

الدَّلالةُ على تحقُّقِ الإنعامِ، مناسبة لصيغة المضيّ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 176.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 144.

ومِنْ لطائفِ صيغةِ الماضي هنا - مع أنَّها وقعَتْ بعدَ صيغةِ المضارعِ، في قولِه: ﴿أَنْ أَشْكُرَ﴾ - الإشارةُ إلى أنَّ الشُّكرَ مُستمِرٌّ على نِعَمٍ ماضيةٍ، معَ أنَّ العبدَ لا يخلو مِنْ نِعَمِ اللّهِ في زمنٍ مِنَ الأزمانِ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالحرف (على):

علوُّ الإنعامِ على المُنعَمِ عليهِم، مِن كرمِ اللهِ المعطي

يدلُّ التَّعبيرُ بحرفِ الاستعلاءِ (على) في قولِه تعالى: ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾ على أنَّ الإنعامَ قد استعلَى استعلاءً مجازيًّا على المُنعَمِ عليهِم، وكأنَّهُ يُغطّيهم، ويغمُرُهم. وفيه كذلك إشارةٌ إلى القيامِ بواجبِ الشُّكرِ والثَّناءِ على اللّهِ تعالى؛ لأنَّه هو الذي يملك الإنعامَ، والبَشَر في هذا منتفعون بهذه النِّعَم، ولا يقدرون على إيجادها.

سِرُّ إدراجِ ذِكْرِ الوالديْن:

تمامُ برِّ الوالدين، وجبرُ التَّقصيرِ نحوهما

أدرجَ سليمانُ ﷺ ذِكرَ والدَيْهِ في قولِه: ﴿رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾ تكثيرًا للنِّعمةِ، أو تعميمًا لها، فإنَّ النِّعمةَ عليهما نعمةٌ عليه، والنِّعمةَ عليهِ يرجعُ نفعُها إليهما لا سيَّما الدِّينيَّةِ[1]، فإنَّهُ إذا كانَ تقيًّا؛ نفعَهما بدعائِهِ وشفاعتِهِ وبدعاءِ المؤمنينَ لهما كلَّما دعَوا لهُ، وقالوا: رضيَ اللّهُ عنكَ وعن والديكَ[2]، وممّا يُذكر في ذلك أيضًا أنَّ في ذلك جبرًا لأيِّ تقصيرٍ من الوالدَيْن في شكر المولى ﷻ.

وفيه إشارةٌ إلى أنَّ ما أنعم اللّه به عليه غير خاصٍّ به، بل هو عامٌّ شاملٌ لوالدَيْه؛ لكونه سببًا لِذِكْرهما بالخير والدعاء، ولأنَّ ما أنعم اللّه به عليهما وصل إليه؛ لكونه سببًا بحسب الظاهر لنعمته، فتكون تلك النِّعمة بحسب تحقُّقها فيه نعمة، وبحسب تحقُّقها في الوالدين نعمة أخرى له[3].

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 157.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 357، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 244.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 368.

علّةُ تقديمِ سليمانَ نفسَهُ على والدَيْهِ:

كونُهُ في معرض الدُّعاءِ، قدَّم نفسَه، وثنّى بوالديه

وردَ النَّصُّ القرآنيُّ بتقديم ذِكْر سليمان ﷺ على والدَيْه في قولِهِ: ﴿رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾؛ وذلك لأنَّهُ هو المعروفُ في الدُّعاءِ؛ إذ النَّفسُ مُقدَّمةٌ في طلبِ المطالبِ[1].

سرُّ عطفِ العملِ الصّالحِ على الشُّكرِ:

استدامةُ الشُّكرِ على النِّعمةِ، وصولٌ بالشُّكر إلى القمَّة

قولُهُ تعالى: ﴿وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ﴾ عطفٌ على قولِهِ: ﴿أَنۡ أَشۡكُرَ﴾[2]، ونكتةُ هذا العطفِ: تتميمُ الشُّكرِ بذِكْرِ شُكْرِ الأركانِ بعدَ شُكْرِ اللِّسانِ المُستلزِمِ للجَنانِ، واستدامةُ النِّعمةِ[3]، وقيلَ: لمّا سألَ سليمانُ ﷺ ربَّهُ شيئًا خاصًّا - وهو شكرُ النِّعمةِ - سألَ شيئًا عامًّا، وهو أنْ يعملَ عملًا يرضاهُ اللّهُ تعالى، فاندرجَ فيهِ شكرُ النِّعمةِ، فكأنَّهُ سألَ إيزاعَ الشُّكرِ مرَّتيْنِ[4]، فيكونُ الكلامُ مِنْ قبيلِ عطفِ العامِّ على الخاصِّ.

سرُّ التَّعبيرِ بالمصدرِ المُؤوَّلِ:

العملُ الصّالحُ في الحالِ والاستقبالِ، يُفضي إلى حسن المآل

استُعمِلَ المصدرُ المُؤوَّلُ ﴿وَأَنۡ أَعۡمَلَ﴾ في قولِهِ عزَّ شأنُهُ: ﴿وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ﴾ دون المصدر الصَّريح (العمل)؛ لأنَّ (أنْ) تُعيِّنُ الفعلَ المضارعَ المنصوبَ بها للاستقبالِ، فيكونُ العملُ الصّالحُ المَرْضيُّ أمرًا يُرجَى حصولُهُ ودوامُهُ في الحالِ والاستقبالِ.

دلالةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المضارعِ:

بيانُ طلبِ دوامِ العملِ الصّالحِ واستمراره

يدلُّ التَّعبيرُ بصيغةِ المضارعِ الدّالَّةِ على التَّجدُّدِ والاستمرارِ في قولِ الحقِّ تقدَّسَتْ أسماؤُهُ: ﴿وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ﴾ على أنَّ سليمانَ ﷺ قد طلبَ جعْلَهُ مُداوِمًا على عملِ العملِ الصّالحِ في

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 368.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 176، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 244.
(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 157، والخفاجيّ، عناية القاضي: 7/ 39.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 222.

المستقبلِ[1]، وفي ذلكَ تنبيهٌ على أنَّ مَنْ أنعمَ اللّهُ عليه، وأجزلَ لهُ العطاءَ، فهو خَليقٌ بأنْ يعملَ العملَ الصّالحَ في حياتِهِ كلِّها[2].

وفيه إشارةٌ أيضًا إلى طلب ثوابِ الآخرة عن طريق شُكرِ النِّعمة، في قوله: ﴿أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ﴾، والتوفيق للعمل الصالح.

سِرُّ حذفِ الموصوف في السّياق:

العملُ الصّالحُ غايةُ الأنبياءِ، ومطمحُ الأصفياء

حُذِفَ الموصوفُ في قولِهِ ﷺ: ﴿وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا﴾ من باب الإيجاز، حيثُ لم يقل: (وأنْ أعملَ عملًا صالحًا)؛ وذلكَ لأنَّهُ قد شاعَ في الاستعمالِ أنْ يقال: (عملَ صالحًا) و(عملَ الصّالحاتِ)، دونَ تقديرِ موصوفٍ محذوفٍ؛ لأنَّ الصِّفةَ في مِثْلِ ذلكَ قد جرَتْ مَجْرى الأسماءِ.

وللإشارة إلى تمكُّن صفة الصّلاح في العمل، بحيث لا يصدر منه إلّا العمل الصّالح، ويُؤكِّد هذا استعمالُ القرآن الكريم لهذا الأسلوب، في قوله: ﴿ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [البقرة: 25]، من غير ذِكرِ الموصوف.

سِرُّ تقييدِ العملِ بلفظ ﴿صَٰلِحٗا﴾:

التّعريضُ بغير الأعمالِ الصّالحة، استقرارٌ ونجاة في الدّارين

دلَّ تقييدُ العمل بالصّلاح على أنَّ العمل إذا كان غيرَ صالحٍ، فلا فائدة فيه؛ لأنَّه إمّا أن يكون صادرًا عن علم؛ فيكون صاحبه آثمًا أو عن غيرِ علمٍ؛ فيكون صاحبه جاهلًا ولا فائدة في ذلك.

وممّا يُذكر في سِرِّ ذلك أنَّه لمّا عُلِمَ ممّا سبقَ أنَّ الشّاكرَ هو المُستغرقُ في الثّناءِ على المُنعِم بما يجبُ عليه مِنَ العملِ أو غيرِه بحسَبِ ما يقدرُ عليه، وكانَ العملُ ممّا يجوزُ أنْ يكونَ زُيِّنَ للعبدِ كونُهُ حسنًا، وهو ليسَ كذلكَ، قالَ سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا﴾، أيّ: في نفسِ الأمرِ[3].

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 176.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 14/ 148.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 14/ 148.

دلالةُ النَّكرة في قوله: ﴿صَٰلِحًا﴾:

دلَّ التَّنكيرُ في قوله: ﴿صَٰلِحًا﴾، على كثرةِ العمل الصّالح وتنوُّعِهِ الَّذي يدعو سليمان عليه السلام ربَّه؛ ليوفِّقَهُ إلى كثرة الأعمال الصّالحة وتنوُّعها وعظم قدرها ومكانتها.

من هدي إلى صالح الأعمال؛ نال الرِّضا وحسن المنال

دلالةُ التَّعبيرِ بقوله: ﴿تَرۡضَىٰهُ﴾:

دلَّ التَّعبيرُ بجملة ﴿تَرۡضَىٰهُ﴾ في قولِهِ جلَّ وعزَّ: ﴿وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ﴾ على أنَّ رضا اللّه مقصودٌ هنا بالعمل الصّالح الَّذي يرضى عنه المولى سبحانه وتعالى، وهذا ما يؤكِّده الموقع الإعرابيُّ لهذه الجملة، فهي صفةٌ مُؤكِّدةٌ إنْ أُريدَ بها كمالُ الرِّضا[1].

رضا الله غايةُ الأنبياء والمرسلين، وصفوة الصّالحين

وفي التَّعبيرِ بها دليلٌ على أنَّ العمل الصالح بابٌ من أبواب الوصول إلى الرِّضا بشرط ألّا يشوبَهُ شيءٌ من الرّياءِ[2]، وعلى هذا تكون الصِّفةُ مُخصِّصةً.

دلالةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المضارعِ:

عُبِّرَ بصيغةِ المضارعِ في ﴿تَرۡضَىٰهُ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ﴾، ولم يقل: (مرضيًّا) مراعاةً لموافقةِ الفعلِ للأفعالِ قبلَهُ - وهي ﴿أَشۡكُرَ﴾ و﴿أَعۡمَلَ﴾ - في الدَّلالةِ على الاستقبالِ، وممّا يُذكر في سِرِّ التَّعبير بالمضارع أنَّ سليمان عليه السلام يرجو من اللّه قبول الأعمال الصّالحة الَّتي تصدر منه في الحال والاستقبال، والعمل الصّالح إذا لم يرضَ اللّه عنه؛ فلا فائدة منه، فكان التَّعبير بالمضارع موافقًا لتجدُّد العمل الصّالح.

مراعاةُ توافقِ الأفعالِ في الدَّلالةِ على الاستقبالِ

دلالةُ التَّعبيرِ بالواوِ في الآية:

الواوُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾؛ لعطفِ هذه الجملةِ على ما قبلَها في قوله: ﴿رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ﴾، فتفيدُ

المؤمن يرجو بعمله رضا الله ورحمته

(1) الخفاجيّ، عناية القاضي: 7/ 39، والآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 176.

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 368.

دخولَ هذهِ الجملةِ في جملةِ ما دعا بِهِ سليمانُ عليه السلام، وقيلَ في نكتةِ هذا العطفِ: إنَّهُ لمّا كانَ العملُ الصّالحُ المرضيُّ قد لا يُعلي إلى درجةِ المرضيِّ عنهُم؛ قالَ سليمانُ عليه السلام مُعرِضًا عن عملِه، مُعترفًا بعَجْزِه: ﴿وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ﴾، أيْ: لا بعملي ﴿فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[1]، وقيلَ: أردفَ طلبَ المداومةِ على عملِ الصّالحِ بطلبِ إدخالِهِ الجنَّةَ؛ لعدمِ استلزامِ العملِ الصّالحِ بنفسِهِ إدخالَ الجنَّةِ[2].

بلاغةُ الكنايةِ في قولِه: ﴿وَأَدۡخِلۡنِي﴾:

من أُدخِلَ مع الصّالحين؛ حاز المبتغى في الدّارين

تظهرُ بلاغةُ الكنايةِ في قولِهِ جلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ في أنَّ المعنى: (واجعَلْني مِنْ أهلِ الجنَّةِ)[3]، فيكونُ الكلامُ كنايةً عن جعلِهِ مِنْ أهلِ الجنَّةِ[4].

بلاغةُ الاستعارةِ في الآيةِ الكريمةِ:

إفادةُ الاستمرار والزّيادةِ مِنْ رفعِ الدّرجاتِ

في قولِهِ جلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ استعارةٌ، وذلك بجعْلِ الإدخالِ في العبادِ الصّالحينَ مُستعارًا لجعلِهِ واحدًا منهُم، فشبَّهَ إلحاقَهُ بهِم في الصَّلاحِ بإدخالِهِ عليهِم في زُمْرتِهِم، وطلبُهُ ذلكَ - وهو نبيٌّ، لا شكَّ في صلاحِهِ - مرادٌ به الاستمرارُ والزّيادةُ مِنْ رفعِ الدَّرجاتِ؛ لأنَّ لعبادِ اللهِ الصّالحينَ مراتبَ كثيرةً[5].

دلالةُ الباءِ في قولِهِ: ﴿بِرَحۡمَتِكَ﴾:

دخولُ الجنَّةِ بالرَّحمةِ لا بالعمل

الباءُ في قولِهِ تباركَ شأنُهُ: ﴿وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾: للسَّببيَّةِ، وهي تدلُّ على أنَّ دخولَ الجنَّةِ المُعبَّرَ عنهُ بالإدخالِ في العبادِ الصّالحينَ لا يكونُ بعملِ العبدِ، إنَّما يكونُ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 148.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 176.
(3) الزمخشري، الكشاف: 3/ 358.
(4) الطيبي، فتوح الغيب: 11/ 493.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 244.

برحمةِ اللّهِ تعالى وفضلِه، ولذلكَ عوَّلَ سليمانُ عليه السلام على رحمةِ اللّهِ لا على عملِه[1].

سرُّ الإضافةِ في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿بِرَحۡمَتِكَ﴾:

إظهارُ كاملِ الافتقارِ إلى الله تعالى، تواضعٌ مع الله وأدبٌ

أُضيفتِ الرَّحمةُ إلى ضميرِ الخطابِ في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾؛ لإظهارِ الافتقارِ الكاملِ لرحمةِ اللّهِ الَّتي بها لا بغيرِها يكونُ دخولُ الجنَّةِ، ولملاءمةِ تناغمِ هذهِ الإضافةِ معَ الإضافةِ في قولِهِ: ﴿نِعۡمَتَكَ﴾، فسليمانُ عليه السلام مغمورٌ بنعمةِ اللّهِ، ومُتعلِّقٌ برحمةِ اللّهِ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالظَّرفيَّة:

بيانُ معنى إظهارِ التَّضرُّعِ إلى اللهِ، والتَّذلُّلِ له دون سواه

دلَّ التَّعبيرُ بالظَّرفيَّةِ ﴿فِي﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ على أن العبادَ الصّالحينَ بمنزلةِ ظرفٍ يطلبُ سليمانُ عليه السلام أنْ يُدخَلَ فيهِ، وفي هذا إبرازٌ لكمالِ خضوعه وتواضعه للّه ربِّ العالمين بأن يكون بدعائِهِ في داخل زمرة هؤلاء الصالحين، وأن يكونَ فردًا منهم، ويتساوى معهم في الصَّلاحِ والثَّواب.

دلالةُ التَّعبيرِ بقولِه: ﴿عِبَادِكَ﴾:

من أخلصِ العبوديَّة للهِ؛ كان مع الصّالحين من عباد الله

آثر القرآنُ الكريم التَّعبيرَ بـ ﴿عِبَادِكَ﴾ على لسانِ سليمانَ عليه السلام، دون أن يقول: (أَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ في أَنۡبيائك)؛ لأنَّ لفظ العبوديَّة أعمُّ، فيشمل الأنبياءَ وغيرهم، وفي هذا مزيدُ تذلُّلٍ وتضرُّعٍ للّه ربِّ العالمين، قال تعالى عن نوح عليه السلام: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبۡدٗا شَكُورٗا ٣﴾ [الإسراء: 3]، وقال عن أيّوب عليه السلام: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ﴾ [ص: 41]... إلى غير ذلك من الآيات، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ العبوديَّة من أعلى المقامات التي ينبغي البحث عنها والتوصُّل إليها.

سرُّ الإضافةِ في لفظ: ﴿عِبَادِكَ﴾:

أضيفَ لفظُ العبادِ إلى كافِ الخطابِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَأَدۡخِلۡنِي

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 24/ 549.

ذِكرُ العباد بالإضافة إلى المعبود، تشريفٌ وتكريم لهم

﴿بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾؛ لتشريفِ العبادِ وتكريمهم بأنَّهم عبادٌ للّهِ سبحانَهُ الَّذي تكونُ العُبوديَّةُ لهُ شرفًا للعبدِ وعزًّا، بخلافِ العُبوديَّةِ للبشرِ، فهي قَهْرٌ وذلٌّ، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ العبادَ صاروا في حماية خاصَّة لا يدخل معهم إلّا مَن كان مثلهم.

سِرُّ طلبِ سليمانَ أنْ يُدخل في ﴿ٱلصَّٰلِحِينَ﴾:

الصّالحونَ درجاتٌ متفاوتةٌ، ومقاماتٌ متسامية

دعا سليمانُ عليه السلام ربَّهُ أن يجعله في عداد ﴿ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، وهو نبيٌّ، ومعلومٌ أنَّ درجات الأنبياءِ أعظمُ مِنْ درجاتِ الأولياءِ والصّالحينَ، فما السَّببُ في أنَّ الأنبياءَ يطلبونَ جعْلَهم مِنَ الصّالحينَ؟ فقالَ يوسفُ: ﴿تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ١٠١﴾ [يوسف: 101]، وقالَ سليمانُ: ﴿وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، والجوابُ: أنَّ الصّالحَ الكاملَ هو الَّذي لا يعصي اللّهَ، ولا يهمُّ بمعصيَةٍ، وهذه درجةٌ عاليةٌ[1].

نكتةُ اسمِ الفاعلِ: ﴿ٱلصَّٰلِحِينَ﴾:

التَّنبيهُ على كونِ الصَّلاحِ صفةً راسخةً في الموصوفين بها

عُبِّرَ بصيغةِ اسمِ الفاعلِ في قولِ الحقِّ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ هؤلاءِ قومٌ قد راضوا أنفسَهم على التَّقوى والصَّلاحِ، حتَّى صارَ الصَّلاحُ مِنْ صفاتِهم الثّابتةِ الرّاسخةِ الَّتي لا تزولُ، فهو بمنزلةِ صفةٍ مِنْ صفاتِهم الَّتي جُبِلوا عليها.

سرُّ التَّرتيبِ في دعاءِ سليمانَ:

تقديمُ ما يكونُ وسيلةً إلى الثَّوابِ على الثَّوابِ

طلبَ سليمانُ عليه السلام ما يكونُ وسيلةً إلى ثوابِ الآخرةِ أوَّلًا، ثمَّ طلبَ ثوابَ الآخرةِ ثانيًا، أمّا وسيلةُ الثَّوابِ؛ فهي أمرانِ: أحدُهما: شكرُ النِّعمةِ السّالفةِ، والثّاني: الاشتغالُ بسائرِ أنواعِ الخِدْمةِ، أمّا الاشتغالُ بشكرِ النِّعمةِ السّالفةِ؛ فهو قولُهُ: ﴿رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 24/ 549، وأبو حيان، البحر المحيط: 8/ 222.

﴿نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾، وأمّا الاشتغالُ بسائرِ أنواعِ الخِدْمةِ؛ فقولُهُ: ﴿وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ﴾، وأمّا طلبُ ثوابِ الآخرةِ؛ فقولُهُ: ﴿وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[1].

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

التَّبسُّم والضَّحك:

التَّبسُّمُ مبتدأ الضَّحكِ مِنْ غيرِ صوتٍ، والضَّحكُ يكونُ مع الصَّوتِ

اختُلِفَ في وجهِ الفرقِ بينَ التَّبسُّم والضَّحكِ، فقيلَ: إنَّ التَّبسُّمَ دونَ الضَّحكِ[2]، وقيلَ: هو ابتداءُ الضَّحكِ والأخذُ فيه[3]، وقيلَ: التَّبسُّمُ مبادئُ الضَّحكِ مِنْ غيرِ صوتٍ، والضَّحكُ انبساطُ الوجهِ حتَّى تظهرَ الأسنانُ مِنَ السُّرورِ معَ صوتٍ خفيٍّ، فإنْ كانَ فيهِ صوتٌ يُسمَعُ مِنْ بُعْدٍ؛ فهو القَهْقَهَةُ[4].

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 24/ 549.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بسم).

(3) السمين، عمدة الحفاظ: (بسم).

(4) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 175.

﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ٢٠﴾ [النمل: 20]

مُناسَبَةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

كثرةُ جنود سليمان، مِنَّةٌ من الله الرحمن

الآيةُ الكريمة شُروعٌ في سَرْدِ أمرٍ آخرَ حدثَ لسليمانَ عليه السلام أثناءَ مَسيرِهِ الَّذي كانَتْ فيهِ قصَّةُ النَّملِ السّابقةُ[1]، فبعد أن تحدَّثت الآيات عن جنود سليمان وعن النَّملة وتحذيرها لقومها وردِّ فعل النَّبي سليمان تجاهها؛ تابع السياقُ الحديثَ عن جنديٍّ آخر من الجنود، وهو الهدهد.

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿وَتَفَقَّدَ﴾: (فقد) أصلٌ يدلُّ على ذهابِ شيءٍ وضياعِهِ[2]، فالفَقْدُ: عدمُ الشَّيءِ بعدَ وجودِهِ[3]، والتَّفقُّدُ: طلبُ المفقودِ، وقيلَ: التَّفقُّدُ: التَّعهُّدُ، لكنْ حقيقةُ التَّفقُّدِ: تعرُّفُ فُقْدانِ الشَّيءِ، والتَّعهُّدُ: تعرُّفُ العهدِ المُتقدِّمِ[4]، والفاقدُ: المرأةُ الَّتي تَفْقِدُ ولدَها أو زوجَها[5]، والمعنى في الآية: تعهَّد الطير ليرى أحوالها بنفسه.

2) ﴿ٱلْغَآئِبِينَ﴾: (غيب) أصلٌ يدلُّ على تستُّرِ الشَّيءِ عن العُيونِ[6]، فالغَيْبُ: مصدرُ غابتِ الشَّمسُ وغيرُها، أي: استترَتْ عن العينِ، ويُقالُ: غابَ عنّي كذا، فهو غائبٌ، قالَ جل جلاله: ﴿أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ﴾، واستُعمِلَ في كلِّ غائبٍ عن الحاسَّةِ، وعمّا يغيبُ عن علم

---

(1) درويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه: 7/ 190.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فقد).
(3) الراغب، المفردات: (فقد).
(4) السمين، عمدة الحفاظ: (فقد).
(5) الراغب، المفردات: (فقد).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غيب).

الإنسانِ، كما في قولِه تعالى: ﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٖ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ ٧٥﴾ [النَّمل: 75]، فكونُ الشَّيءِ غائبةً باعتبارِ النّاسِ لا باعتبارِ اللّه تعالى؛ لأنَّه لا يغيب عنه شيء، كما لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض[1]، والمعنى في الآية واضح.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

سؤالُ سليمان عن غيبة الهُدْهُدِ، من غير استئذانٍ ولا تسويغ

بيَّنت هذه الآية تعاهُدَ سليمان عليه السلام الطَّيرَ، فلم يرَ الهُدهد، وافتقده مِنَ الطَّيرِ بحسَبِ ما تقتضيهِ العنايةُ بأمرِ المُلْكِ مِنَ الاهتمام بالرَّعايا، ولا سيَّما الجُنْد، فلم يَجِدِ الهُدْهُدَ، فقالَ: ما لي لا أرى الهُدْهُدَ، أهو حاضرٌ فأخطأ بصري؟ أو منعَ مانعٌ مِنْ رؤيتِهِ كساترٍ ونحوِهِ؟ أم أنَّه غابَ بلا إذنٍ، فلم يحضر، ولم أشعُرْ بهِ؟[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الواوِ في قولِه: ﴿وَتَفَقَّدَ﴾:

الشُّروعُ في سَرْدِ قصَّة الهدهد مع سليمان عليه السلام

الواوُ في قولِ الحقِّ جلَّ جلاله: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيۡرَ﴾ استئنافيَّةٌ، والجملةُ كلامٌ مُستأنفٌ مَسوقٌ للشُّروعِ في سَرْدِ أمرٍ آخرَ حدثَ لسليمانَ عليه السلام أثناءَ مَسيرِهِ الَّذي كانَتْ فيهِ قصَّةُ النَّملِ السّابقةُ[3].

سِرُّ التَّعبيرِ بجملة ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيۡرَ﴾:

تفقُّد الرَّعيَّة ديدنُ الحاكم العادل الشَّفيق

آثرَ القرآنُ الكريم التَّعبيرَ بالتَّفقُّد دون غيرِهِ في قوله تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيۡرَ﴾؛ لأنَّه يدلُّ على تفقُّد سليمان عليه السلام لجُنْدِه ومنهم الطَّير، فلاحظ غيابَ الهدهد مع صغره ومع كثرة جنوده؛ لأنَّ التَّفقُّد يكون لطلب ما غاب عن الإنسان؛ لذلك كان التَّعبيرُ به مناسبًا لغياب الهدهد، وفيه إشارةٌ إلى دعوة الرّاعي لتفقُّد أحوال رعيَّته والمحافظة عليهم، والنَّظر في شؤونهم، سواء كان الأمر صغيرًا أم كبيرًا.

---

(1) الراغب، المفردات: (غيب).

(2) المراغي، تفسير المراغي: 19/ 131.

(3) درويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه: 7/ 190.

دلالةُ صيغةِ الماضي ﴿وَتَفَقَّدَ﴾:

دلالةُ الماضي على وقوع الفعل يقينٌ لا يشوبه ريبٌ

جيءَ بصيغةِ الماضي في قولِ اللّهِ: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيۡرَ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ التَّفقُّدَ حدثٌ قد مضَى، وانقضَى، كما هو شأنُ الأفعالِ الَّتي تُذكَرُ في حكايةِ القصصِ، وروايةِ الأخبارِ والأحداثِ.

نكتةُ ﴿وَتَفَقَّدَ﴾ بصيغةِ (تَفَعَّلَ):

بيانُ مدى شدَّةِ التَّكلُّفِ في البحث والتَّعرُّف

دلَّت صيغة التَّفعُّل في قوله ﷺ: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيۡرَ﴾ على شدَّة التَّكلُّف وتحرّي البحث في الأمر، وهو المناسب هنا لموقف سليمان عليه السلام، حيث تكلَّفَ أنْ يعرفَ الطَّير[1]، حتَّى يعلمَ أيُّهنَّ حاضرٌ عنهُ، وأيُّهنَّ غائبٌ[2].

ومما يُذكر في سرِّ التعبير أنَّ صيغة التَّفعُّلِ تدلُّ على الطَّلبِ، واشتقاقُ ﴿وَتَفَقَّدَ﴾ منَ الفَقْدِ يقتضي أنَّ ﴿وَتَفَقَّدَ﴾، بمعنى: طَلبَ الفَقْدَ، ولكنَّهم توسَّعوا فيهِ، فأطلقوهُ على طلبِ معرفةِ سببِ الفَقْدِ، أيْ: معرفةِ ما أحدثَهُ الفَقْدُ في شيءٍ، فالتَّفقُّدُ: البحثُ عن الفَقْدِ، ليُعرَفَ بذلكَ أنَّ الشَّيءَ لم يَنْقُصْ، وكانَ الطَّيرُ منْ جملةِ الجندِ، وتفقُّدُ الجندِ منْ شأنِ المُلوكِ، والمعنى: تفقَّدَ الطَّيرَ في جملةِ ما تفقَّدَهُ[3].

دلالةُ إسنادِ التَّفقُّدِ لسليمان عليه السلام:

سهرُ الحاكم على متابعة أحوال رعيَّته، دليل على عدله ويقظته

دلَّ إسنادُ التَّفقُّدِ لسليمان عليه السلام دون أعوانه في قوله: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيۡرَ﴾ على أنَّه تولَّى التَّفقُّد بنفسه، ولم يَكِلْ ذلك إلى غيره؛ لإدراكه تحمُّلَ المسؤولية الذَّاتيَّة، عمَّن هم تحت ولايته ورعايته، وفي هذا تعليمٌ للولاة أن يقوموا على أمور الرعية بأنفسهم قدر المستطاع؛ لأنَّه المسؤول الأوَّل عن رعيَّته.

دلالةُ تعريفِ لفظِ ﴿ٱلطَّيۡرَ﴾:

تعميمُ الجنسِ، دليلٌ على شمول اهتمام سليمان لكلِّ الرَّعيَّة

ظاهرُ قولِهِ تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيۡرَ﴾، أنَّهُ تفقَّدَ جميعَ الطَّيرِ[4]

---

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 157.

(2) ابن التّمجيد، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 369.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 245.

(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 255.

بحسَبِ ما تقتضيه العنايةُ بأمورِ المُلْكِ والاهتمامُ بالرَّعايا[1]، فالتَّعريفُ للجنسِ، والمُرادُ بالطَّيرِ هنا: جنسُ الطَّيرِ وجماعتُها[2] المُسخَّرة له.

دلالةُ التَّعبيرِ بالفاءِ في قولِهِ: ﴿فَقَالَ﴾:

أوثِر التَّعبيرُ بالفاء في قولِهِ تعالى: ﴿فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلۡهُدۡهُدَ﴾، وهي الفاء الفصيحةُ التي تدلُّ على محذوفٍ مُقدَّرٍ[3]، والمعنى: (وتعرَّفَ الطَّيرَ، فلم يَجِدْ فيها الهُدْهُدَ، فقالَ:...) إلخ[4].

إسنادُ القول إلى وليّ الأمر نفسِهِ، هو غايةُ الاهتمام والإشفاق

سرُّ التَّعبيرِ بالاستفهامِ دون غيره:

آثر القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بالاستفهام في قوله تعالى: ﴿مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلۡهُدۡهُدَ﴾؛ لأنَّه يدلُّ على أغراضٍ متعدِّدة، فقيلَ: الاستفهامُ للتَّعجُّبِ[5]، وقيلَ: الاستفهامُ للتَّقرير، أو للإنكارِ الواقعيِّ[6]، فهو يُنكِرُ على نفسِهِ إنكارًا بليغًا عدمَ رؤيةِ الهُدْهُدِ، وهو حاضرٌ؛ لساترٍ سترَهُ أو غيرِ ذلكَ[7].

احتمالُ الاستفهامِ أغراضًا مُتعدِّدةً، سعة في الدَّلالة المستفادة

وقيلَ: الاستفهامُ حقيقيٌّ[8]، والمعنى: أيُّ أمرٍ وقعَ لي، وتلبَّسَ بي في حالِ عدم رؤيةِ الهُدْهُدِ، أمانعٌ وحائلٌ أم هو غائبٌ[9]؟.

دلالةُ ياء المتكلِّم في قوله: ﴿مَالِيَ﴾:

دلَّ التَّعبيرُ بـ (ياء المتكلّم) في قوله: ﴿مَالِيَ﴾ على أنَّ سليمان عليه السلام، نظر في حال نفسه؛ لأنَّه أوتي مُلكًا عظيمًا، وسخَّر اللّه له من الخلق ما شاء، وهذا يوجب عليه شُكْر النِّعمة والقيام بحقِّها، فلمّا

إشارةٌ إلى نظر سليمانَ عليه السلام في حال نفسه أوَّلًا

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 223.
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 177.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 369.
(4) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 157، والبقاعي، نظم الدرر: 14/ 149.
(5) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 369.
(6) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 369.
(7) الطيبي، فتوح الغيب: 11/ 494.
(8) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 245.
(9) التفتازاني، شرح مفتاح العلوم: 2/ 522 - 523.

فَقَدَ الهدهدَ؛ اتَّهم نفسَهُ بالتَّقصير في حقِّ شُكر نِعَم اللّه عليه، فجعل يتفقَّد نفسه أوَّلًا؛ ليتأكَّد من التَّقصير، وهذا مقامٌ عالٍ في تربية السُّلوك، حيث يتَّهم الإنسان نفسه أوَّلًا.

دلالةُ التَّعبيرِ بالجملةِ الحاليَّةِ:

الاستفهامُ عمّا حصل له في هذه الحالة، يقظة وفطنة

جملةُ ﴿لَآ أَرَى ٱلۡهُدۡهُدَ﴾ في موضعِ الحالِ مِنْ ياءِ المُتكلِّم المجرورةِ باللّامِ، في قولِه: ﴿مَالِيَ﴾؛ فالاستفهامُ عمّا حصلَ لهُ في هذهِ الحالِ، أيْ: عن المانعِ لرؤيةِ الهُدْهُدِ، والكلامُ موجَّهٌ إلى حُرّاسِهِ، يعني: أكانَ انتفاءُ رؤيتي الهُدْهُدَ مِنْ عدمِ إحاطةِ نظري أم مِن اختفاءِ الهُدْهُدِ؟ فالاستفهامُ حقيقيٌّ[1].

سِرُّ نفي الرُّؤية في قوله: ﴿لَآ أَرَى﴾:

التَّعبيرُ بالرُّؤية يُفيد العلمَ الحقيقيَّ المعاين

جاء التَّعبير القرآنيُّ بنفي الرُّؤية للهدهد في قوله تعالى: ﴿مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلۡهُدۡهُدَ﴾، دون النَّظر أو البصر؛ لما تتميَّز به الرُّؤية من الوضوح من العلم بالشَّيء علمًا ثابتًا لا شكَّ فيه؛ بخلاف النَّظر فهو أقلُّ مراتب الإدراك بالعين؛ لأنَّ النّاظر قد يُبصر، ولا يرى الرُّؤية الحقيقيَّة، أمّا التَّعبير بالرُّؤية؛ فيُعبَّر به عن العلم الحقيقيِّ؛ لذلك قال اللّه تعالى: ﴿كَلَّا لَوۡ تَعۡلَمُونَ عِلۡمَ ٱلۡيَقِينِ ٥ لَتَرَوُنَّ ٱلۡجَحِيمَ ٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيۡنَ ٱلۡيَقِينِ ٧﴾ [التكاثر: 5 - 7]؛ فكان التَّعبيرُ بالرُّؤية - الذي هو بالحاسَّة - هو المناسب لموقف سليمان مع الهدهد.

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المضارعِ المنْفيِّ:

الدَّلالة على استمرارِ انتفاءِ الرُّؤية، معبِّرٌ عن المراد بدقَّة

جيءَ بصيغةِ المضارعِ المنفيِّ في قولِ الحقِّ عزَّ شأنُهُ: ﴿مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلۡهُدۡهُدَ﴾؛ للدَّلالةِ على استمرارِ انتفاءِ الرُّؤية؛ لأنَّ المضارعَ يفيدُ التَّجدُّدَ والاستمرارَ، فإذا دخلَ عليهِ النَّفيُ؛ أفادَ استمرارَ الانتفاءِ، والمعنى: أيُّ أمرٍ حصلَ لي في حالِ كوني مُستمِرًّا على عدمِ رؤيةِ الهُدْهُدِ؟.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 245.

دلالةُ تعريفِ لفظ ﴿ٱلۡهُدۡهُدَ﴾:

إفادةُ أنَّ الهُدْهُدَ معروفٌ معهودٌ، في جُنْدِ سليمانَ المشهود

الظّاهرُ أنَّ المُرادَ بالهُدْهُدِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلۡهُدۡهُدَ﴾ هُدْهُدٌ معروفٌ معهودٌ، كانَ في جُنْدِ سليمانَ ﵇، فيكونُ التَّعريفُ للعهدِ، وقيل: كانَ الهُدْهُدُ يرَى الماءَ مِنْ بُعْدٍ، ويُحِسُّ به في باطنِ الأرضِ، فإذا رفرفَ على موضعٍ؛ عُلِمَ أنَّ بهِ ماءً، وهذا سببُ اتِّخاذِهِ في جُنْدِ سليمانَ ﵇[1].

بلاغةُ الكنايةِ في ثنايا الآية:

عدمُ ظُهورِ الهُدْهُدِ دون مسوِّغٍ، جزءٌ من المشهد المشوِّق

حاصلُ معنى قولِه ﷻ: ﴿مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلۡهُدۡهُدَ﴾: أنَّ الهُدْهُدَ قد غابَ، لكنَّهُ أخذَ اللّازمَ عن مَغيبِه، وهو أنَّهُ لا يراهُ، فاستفهمَ عن عدمِ الرُّؤيةِ[2]، فيكونُ الكلامُ كنايةً عن عدمِ ظُهورِ الهُدْهُدِ[3].

دلالة ﴿أَمۡ﴾ في سياق الآية الكريمة:

الإضرابُ عن سؤالٍ إلى سؤالٍ، دليلٌ على الإحاطة بالأحوال

الظّاهرُ أنَّ ﴿أَمۡ﴾ في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿أَمۡ كَانَ مِنَ ٱلۡغَآئِبِينَ﴾ هي المنقطعةُ الَّتي تكونُ بمعنى (بل) والهمزةِ، نظرَ سليمانُ ﵇ إلى مكانِ الهُدْهُدِ، فلم يُبْصِرْهُ، فقالَ: ﴿مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلۡهُدۡهُدَ﴾، على معنى: أنَّهُ لا يراهُ، وهو حاضرٌ؛ لساترٍ سترَهُ أو غيرِ ذلكَ، ثمَّ ظهرَ لهُ أنَّهُ غائبٌ، فأضربَ عن السُّؤالِ السّابقِ إلى سؤالٍ آخرَ، فقالَ: ﴿أَمۡ كَانَ مِنَ ٱلۡغَآئِبِينَ﴾، كأنَّهُ يسألُ عن صحَّةِ ما ظهرَ لهُ[4].

وقيلَ: إنَّ ﴿أَمۡ﴾ متَّصلةٌ، وإنَّ الاستفهامَ الَّذي في قولِه: ﴿مَالِيَ﴾ نابَ منابَ ألفِ الاستفهامِ، فمعناهُ: أغابَ عنّي الآنَ، فلم أرَهُ حالةَ التَّفقُّدِ؟ أم كانَ ممَّنْ غابَ قبلُ، ولم أَشْعُرْ بغَيبتِهِ؟[5].

والرّاجح هنا أنَّ ﴿أَمۡ﴾ هنا هي المنقطعةُ؛ لأنَّ شرطَ المتَّصلةِ

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 245.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 255.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 245.

(4) الزمخشري، الكشاف: 3/ 358، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 279.

(5) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 255، وأبو حيان، البحر المحيط: 8/ 223.

تقدُّمُ همزةِ الاستفهام، فلو تقدَّمَها أداةُ استفهام غيرُ الهمزةِ كانَتْ منقطعةً، وهنا تقدَّمَ (ما)، ففاتَ شرطُ المتَّصلةِ[1].

سِرُّ التَّعبيرِ بالحرف ﴿مِنَ﴾ في السّياق:

الإشارةُ إلى أنَّ احتمالَ غيبةِ غيرِ الهدهدِ واردةٌ

آثر القرآن الكريمُ التَّعبيرَ بـ ﴿مِنَ﴾، في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ﴾؛ لأنَّها تدلُّ على التَّبعيضِ، والمعنى: أم كانَ بعضَ الغائبينَ وجزءًا منهُم؟.

سرُّ التَّعبيرِ بالجملة الاسميَّة:

المبالغةُ في الإنكارِ على تغيُّبِ الهدهد

آثر القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بالاسميَّة في قوله: ﴿أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ﴾ دون الفعليَّة (أم غابَ)؛ لأنَّهُ أبلغُ مِنْ وجوهٍ، أحدها: أنَّ قولَهُ: ﴿مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ﴾ أشدُّ في النِّسبةِ إلى الغَيبةِ بالانخراطِ في سِلْكِ الغائبينَ بأنْ تكونَ الغَيبةُ عادةً له دونَ (أم غابَ)؛ لأنَّ هذا يَصْدُقُ بمرَّةٍ واحدةٍ. والثاني: أنَّ في التَّعبيرِ بقولِهِ: ﴿أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ﴾ مراعاةً للفواصلِ. والثالث: أنَّه يفيدُ الرُّسوخَ في الوصفِ، وأنَّهُ غائبٌ قطعًا[2].

دلالةُ تعريفِ لفظ ﴿ٱلْغَآئِبِينَ﴾:

تعريفُ ﴿ٱلْغَآئِبِينَ﴾ في قولِهِ جلَّ ذِكْرُهُ: ﴿أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ﴾؛ للجنسِ، والمعنى: أم انخرطَ في سِلْكِ جنسِ الغائبينَ، فهو مِنْ جملتِهِم؟.

نكتةُ جمعِ لفظ ﴿ٱلْغَآئِبِينَ﴾:

الإشارةُ إلى كثرةِ الغائبينَ، بيانٌ للظّاهرة وتعريض بها

في جمعِ ﴿ٱلْغَآئِبِينَ﴾ في قولِهِ عزَّ شأنُهُ: ﴿أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ﴾ إشارةٌ إلى كثرةِ الغائبينَ، ولعلَّ غيابَهم كانَ بإذنٍ مِنْ سليمانَ عليه السلام، بخلافِ غيبةِ الهُدْهُدِ، فإنَّها كانَتْ دونَ إذنِهِ، ولذلكَ خصَّهُ بالسُّؤالِ والتَّهدُّدِ[3]، وقد يكونُ في هذا الجمعِ أيضًا مراعاةٌ لتلاؤمِ فواصلِ الآياتِ؛ ولذلكَ لم يقل: (أم كانَ غائبًا).

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 223.

(2) الطيبي، فتوح الغيب: 11/ 494.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 149.

علَّةُ التَّعبيرِ بصيغةِ العُقَلاءِ في: ﴿ٱلۡغَآئِبِينَ﴾:

التَّعبيرُ بصيغةِ العُقَلاءِ؛ لأنَّ الهُدْهُدَ فعلَ فِعْلَهم

عُبِّرَ بصيغةِ العُقَلاءِ في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿أَمۡ كَانَ مِنَ ٱلۡغَآئِبِينَ﴾، وليس: (أم كانَ مِنَ الغائباتِ) ربَّما لأَنَّ الهُدْهُدَ فعلَ فِعْلَ العُقَلاءِ، حيثُ أخبرَ بأحوالِ بِلْقيسَ، وانتقد فعلها هي وقومها بعبادتهم غير اللّه الخالق البارئ، ولا يَبْعُدُ أنْ يَخْلُقَ اللّهُ فيهِ العَقْلَ والنُّطْقَ[1].

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 369.

﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوۡ لَأَاْذۡبَحَنَّهُۥٓ أَوۡ لَيَأۡتِيَنِّي بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ٢١﴾ [النّمل: 21]

الرَّبطُ بين غيبةِ الهدهد، وتوعُّد سليمانَ له بالعقاب الشَّديد

مُناسَبَةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لما ذكرتِ الآيةُ السّابقةُ أنَّ سليمان عليه السلام تفقَّد الطَّير، ولاحظ غياب جنديٍّ من هذا الحشر الضَّخم من جنوده، وقال: ﴿مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلۡهُدۡهُدَ﴾؛ فلمّا تيقَّنَ سليمانُ عليه السلام غيابَه؛ توعَّدَهُ، فقالَ: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوۡ لَأَاْذۡبَحَنَّهُۥٓ أَوۡ لَيَأۡتِيَنِّي بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ﴾: (عذب) أَصْلٌ صَحيحٌ، لَكِنَّ كَلِماتِهِ لا تَكادُ تَنْقاسُ، ولا يُمْكِنُ جَمْعُها إلَى شَيْءٍ واحِدٍ[2]، والعذابُ: هو الإيجاعُ الشَّديدُ، وقد عذَّبَه تعذيبًا، أيْ: أكثرَ حَبْسَهُ في العذابِ، قالَ سبحانَهُ: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا﴾، واختُلِفَ في سببِ تسميةِ العذابِ بذلك، فقيلَ: هو مِنْ قولِهم: عذبَ الرَّجلُ؛ إذا تركَ المَأْكَلَ والنَّوْمَ، فهو عاذبٌ وعَذوبٌ، فالتَّعذيبُ في الأصلِ هو حَمْلُ الإنسانِ أنْ يعذبَ، أيْ: يَجوعَ، ويَسْهَرَ، وقيلَ: أصلُهُ مِنَ العَذْبِ، فعذَّبتُهُ: أَزَلْتَ عَذْبَ حياتِهِ، وقيلَ: أصلُ التَّعذيبِ إكثارُ الضَّربِ بعَذَبةِ السَّوْطِ، أيْ: طَرَفِها، وقيلَ: التَّعذيبُ هو الضَّربُ، وقيلَ: هو مِنْ قولِهم: ماءٌ عَذْبٌ؛ إذا كانَ فيهِ قذًى وكَدَرٌ، فيكونُ قولك: (عذَّبتُهُ) كقولِكَ: كدَّرتُ عَيْشَهُ[3].

2) ﴿لَأَاْذۡبَحَنَّهُۥٓ﴾: (ذبح) أصلٌ يدلُّ على الشَّقِّ[4]، فالذَّبْحُ: شَقُّ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 149، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 246.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عذب).
(3) الراغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عُمدة الحُفّاظ: (عذب).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المُؤَصَّل: (ذبح).

حَلْقِ الحيواناتِ[1]، ويُقالُ: ذَبَحتُ فأرةَ المِسْكِ، أيْ: شقَقْتُها، تشبيهًا بذلكَ، وتُسمَّى الأخاديدُ مِنَ السَّيلِ مَذابحَ[2].

3) ﴿بِسُلۡطَٰنٖ﴾: (سلط) أصلٌ يدلُّ على القوَّةِ والقَهْرِ[3]، فالسَّلاطةُ: التَّمكُّنُ مِنَ القَهْرِ، ويُقالُ: سلَّطتُه فتسلَّط، قالَ تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمۡ﴾ [النّساء: 90]، ومنه سُمّيَ السُّلطانُ، وسُمّيتِ الحُجَّةُ سلطانًا[4]، وذلك لما يلحق من الهجوم على القلوب، لكنَّ أكثر تسلُّطه على أهل العلم والحكمة، قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ٢٣﴾ [غافر: 23].

المَعْنى الإجْماليُّ:

القسمُ على عقاب الهدهد بصرامةٍ، إلّا أن يأتي بعذر مقنع

بيَّنت هذه الآيةُ تهديدَ سليمان ﷺ للهدهد لما علم بغيابه أقسمَ: لأُعذِّبَنَّهُ عذابًا شديدًا بنَتْفِ ريشِه، أو لأَقْتُلَنَّهُ، أو لَيَأتينّي بحُجَّةٍ تُبيِّنُ عُذْرَهُ في التَّخلُّف والغيبة[5].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فصلِ جملةِ: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ﴾:

فُصِلَ قولُهُ سبحانَهُ: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ عمّا قبلَهُ، ولم يُعطَفْ عليهِ بالواوِ؛ لأنَّهُ كلامٌ مُستأنفٌ قالَهُ سليمانُ ﷺ بعدَ تيقُّنِ غَيبةِ الهُدْهُدِ؛ إقامةً لسياسةِ المُلْكِ في رعيَّتِهِ[6].

سِرُّ توالي المُؤكِّداتِ في السّياقِ:

حزمُ السُّلطانِ ضرورة للاستقرار والأمان

توالت المُؤكِّدات في قولِهِ: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوۡ لَأَاْذۡبَحَنَّهُۥٓ﴾ على لسان سليمانَ ﷺ في التَّعذيبِ والذَّبحِ باللّامِ الواقعةِ في

(1) الراغب، المُفرَدات: (ذبح).
(2) السمين، عُمدة الحُفّاظ: (ذبح).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سلط).
(4) الخليل، العين: (سلط).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 442.
(6) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 149.

جوابِ القَسَمِ المُقدَّرِ، وبنونِ التَّوكيدِ الثَّقيلةِ[1]؛ تقويةً لعَزْمِه على عقابِ الهدهدِ؛ ليعلمَ الجُنْدُ ذلكَ؛ حتَّى إذا فُقِدَ الهُدْهُدُ، ولم يَرْجِعْ؛ يكونُ ذلكَ التَّأكيدُ زاجرًا لباقي الجُنْدِ عن فعلِ مِثْلِ فَعْلَتِه، فينالُهم العقابُ[2].

سِرُّ التَّعبيرِ بصيغةِ المضارعِ في الآيةِ:

الدَّلالةُ على أنَّ وقوعَ العقوبة، أمرٌ مُستقبليٌّ

عُبِّرَ بصيغةِ المضارعِ في الأفعالِ المذكورةِ في قولِه تعالى: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوۡ لَأَاْذۡبَحَنَّهُۥٓ أَوۡ لَيَأۡتِيَنِّي بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ وقوعَ التَّعذيبِ أو الذَّبحِ أو الإتيانِ بالسُّلطانِ المُبينِ أمرٌ يكونُ في المستقبلِ بالنِّسبةِ لزمانِ قولِ هذا الكلامِ.

سِرُّ إسنادِ سليمانَ التَّعذيبَ والذَّبحَ إلى نفسِهِ:

قيامُ سليمان بالعقوبة، هو قمَّة التَّخويف والتَّهديدِ

أسندَ سليمانُ ﷺ التَّعذيبَ والذَّبحَ إلى نفسِه فقالَ: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوۡ لَأَاْذۡبَحَنَّهُۥٓ﴾، ولم يقل مثلًا: (لَيُعَذَّبَنَّ عذابًا شديدًا أو لَيُذْبَحَنَّ)؛ لما في إسنادِ هذَيْنِ الفعلَيْنِ إلى نفسِه مِنْ زيادةِ التَّخويفِ والتَّهديدِ؛ لما عُرِفَ مِن اقتدارِه.

سِرُّ التَّعبيرِ بالعذابِ دون العقابِ:

بيانُ أنَّ العذاب يوصف بالشِّدَّة والعموم

آثَرَ القرآنُ الكريمُ التعبيرَ بالعذاب في قوله: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ﴾ دون العقاب؛ لأنَّ العذابَ يوصف بالشدَّة والعموم، بخلاف العقاب، فإنَّه قد يكون شديدًا، وقد يكون يسيرًا على حسب الذَّنب الَّذي ارتُكب، وهذا هو المناسب لسياق الآية، حيث أراد سليمان ﷺ إعلانَ العذاب الشَّديد للهدهد؛ ليكون عبرةً لِمَن يُفكِّر في الخروج على نظام مُلك سليمان.

دلالةُ التَّعبيرِ بالمصدر ﴿عَذَابًا﴾:

التَّأكيدُ على عذاب الهدهدِ، بغرض الرَّدع والتَّأديب

﴿عَذَابًا﴾ في قولِه سبحانَهُ: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا﴾، أيّ: تعذيبًا، فهو اسمُ مصدرٍ، أو مصدرٌ على حذفِ الزَّوائدِ، نحو:

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 370، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5446.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 255، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 247.

﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ١٧﴾ [نوح: 17][1]، وعليه فهو منصوبٌ بالمصدريَّةِ، والغرض من ذلك التَّأكيدُ على وقوع العذاب على الهدهد؛ إذا تأكَّد لديه خروجه عن نظام المُلْك.

غرضُ تنكيرِ لفظ ﴿عَذَابٗا﴾:

تنكيرُ العذابِ، ملمحٌ لتعظيمِ العقاب وتهويلِه

نُكِّرَ ﴿عَذَابٗا﴾ في قولِ الحقِّ جلَّ شأنُهُ: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابٗا شَدِيدًا﴾؛ لتفخيم العذابِ وتهويلِهِ؛ أيْ: لَأُعذِّبَنَّهُ عذابًا فظيعًا عظيمًا، لا تُحيطُ العبارةُ بكُنْهِهِ لتُصوِّرَهُ، ومقامُ التَّوعُّدِ والتَّهديدِ يناسبُهُ ذلكَ، وذَكَر الآلوسيُّ اختلافَ الآراء في كيفيَّة تعذيبه، فقيل: بنتفِ ريشِهِ وتركه في الشمس، وقيل: بحبسه في القفص، وقيل: بإبعاده من خدمة سليمان عليه السلام، إلى غير ذلك من صور التَّعذيب التي ذكرها المُفسِّرون، والغرض منها جميعًا هو التَّأديب[2].

نكتةُ وصفِ العذابِ بالشِّدَّةِ:

المبالغةُ في تفظيع شأن العذابِ، مخيفةٌ لمن سوف يقع عليه

وصفَ سليمانُ عليه السلام العذابَ بالشِّدَّةِ في قولِهِ: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابٗا شَدِيدًا﴾؛ للمبالغةِ في تعظيم شأنِ العذابِ بهذا الوصفِ بعدَ تنكيرهِ الدّالِّ على التَّهويلِ والتَّفظيعِ، وفي اختيار وصف الشِّدَّة دون غيره إشارةٌ إلى معنى الصَّلابة في العذاب، وذلك لأنَّ الشدَّة في الأصل هي مبالغةٌ في وصف الشَّيْء، وهذا ما أراده سليمان عليه السلام في عذاب الهدهد.

سِرُّ التَّعبيرِ بـ ﴿أَوۡ﴾ دون غيرها:

ربطُ العقابِ بتعدُّدِ التَّخييرِ، منبئٌ بشناعة المصير

آثرَ القرآنُ الكريم التَّعبيرَ بـ ﴿أَوۡ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابٗا شَدِيدًا أَوۡ لَأَاْذۡبَحَنَّهُۥٓ أَوۡ لَيَأۡتِيَنِّي بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ﴾؛ لأنَّ الظّاهر أنَّ لفظةَ ﴿أَوۡ﴾ الأولى للتَّخييرِ[3]، وأمّا الثّانيةُ؛ فهي للتَّقسيمِ[4]، فحصلَ

(1) السَّمين، الدُّر المَصون: 8/ 592.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 19/ 183.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 370.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 247.

مِنْ مجموعِ الكلامِ أنَّهُ قد تردَّدَ حالُ الهُدْهُدِ بينَ أنْ يأتيَ بالحُجَّةِ، الَّتي يكونُ فيها عُذْرُ غَيبتِهِ؛ فيسلم، وبينَ ألّا يأتيَ بها، فيكونَ التَّخييرُ في حقِّهِ بينَ التَّعذيبِ والذَّبحِ، وقيلَ: ﴿أَوۡ﴾ لبيانِ تنوُّعِ المعاملةِ بتنوُّعِ الحالِ، فإذا كان قد غاب مستهينًا مستهزئًا فإنّي أُعذِّبه عذابًا شديدًا، فإن كان مُتمرِّدًا؛ فإنّي أذبحه، وإن كان غائبًا لحاجةٍ؛ فليأتيني بسلطان مبين[1].

سرُّ ذِكْرِ الذَّبحِ بعدَ التَّعذيبِ:

ذِكْرُ الإهلاكِ السَّريعِ، بعدَ التَّعذيبِ التَّدريجيِّ المُريعِ

ذُكِرَ الذَّبْحُ بعدَ التَّعذيبِ في قولِهِ ﷻ: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابٗا شَدِيدًا أَوۡ لَأَاْذۡبَحَنَّهُۥٓ﴾ مع أنَّ الذَّبحَ أيضًا تعذيبٌ؛ لكونِهِ إهلاكًا سريعًا، فقوبِلَ بالتَّعذيبِ، فالمرادُ بالتَّعذيبِ: التَّعذيبُ بالتَّدريجِ[2].

نكتةُ ترتيبِ العقوباتِ في الآيةِ:

ملمحُ الانتقالِ مِنَ الشَّديدِ إلى الأشدِّ

في ترتيبِ العقوباتِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابٗا شَدِيدًا أَوۡ لَأَاْذۡبَحَنَّهُۥٓ﴾ مراعاةُ التَّرقّي مِنَ الشَّديدِ إلى الأشدِّ[3]، فقد بدأَ سليمانُ عليه السلام أوَّلًا بالعقابِ الشَّديدِ، وهو التَّعذيبُ، ثمَّ أتبعَهُ بالأشدِّ، وهو إذهابُ المُهْجةِ بالذَّبحِ[4]؛ لأنَّ الذَّبح تجريعُ كأسِ المَنيَّةِ، وقد قيل: كلُّ شيءٍ دون المَنيَّةِ سهلُ[5].

بلاغةُ التَّأكيدِ في قولِهِ: ﴿أَوۡ لَيَأۡتِيَنِّي﴾:

الإتيانُ بالحُجَّةِ سبيلُ النَّجاةِ من العذابِ

تأكيدُ جملةِ: ﴿أَوۡ لَيَأۡتِيَنِّي بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ﴾؛ لإفادةِ تحقيقِ أنَّهُ لا مُنْجيَ لهُ مِنَ العذابِ إلّا الإتيانُ بحُجَّةٍ تُبرِّرُ تغيُّبَهُ؛ لأنَّ سياقَ تلك الجملةِ يفيدُ أنَّ مضمونَها عديلُ العقوبةِ، فلمّا كانَ العذابُ مُؤكَّدًا مُحقَّقًا اقتضَى تأكيدَ المُخلِّصِ منهُ، فكانَ تأكيدُ العديلِ كتأكيدِ

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5446.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 370.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 179.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 224.
(5) الآلوسيّ، روح المعاني: 19/ 184.

مُعادلِه[1]، والتَّأكيدُ في هذهِ الجملةِ باللّامِ الواقعةِ في جوابِ القَسَمِ المُقدَّرِ، وبنونِ التَّوكيدِ الثَّقيلةِ.

دلالةُ الجمع بين القسم والتَّغليب:

من أقنعَ بالحجَّة، لم ينْأَ عن المحجَّة

قوله تعالى: ﴿أَوۡ لَيَأۡتِيَنِّي بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ﴾، وإن قُرِنَ بحرف القَسَم، إلّا أنَّ البعض قد ذهب إلى أنَّه ليس مُقسَمًا عليه في الحقيقة، وإنَّما المُقسَمُ عليه حقيقةً الأوّلان، وأُدخِلت هذه الجملة في سلكهما للتَّقابل، وهذا نوعٌ من التَّغليب لطيفُ المسلك، ومآل كلامهِ ﵇: ليكوننَّ أحد الأمور على معنى: إن كان الإتيانُ بالسُّلطان؛ لم يكن تعذيبٌ ولا ذبحٌ، وإن لم يكن؛ كان أحدهما.

ويجوز أن تكون الأمور الثّلاثةُ مُقسَمًا عليها حقيقةً، وصحَّ قَسَمُه ﵇ على الإتيان المذكور؛ لعلمه بالوحي أنَّه سيكون أو غلبة ظَنِّه بذلك لأمر قام عنده يفيدها[2].

دلالةُ تعدُّدِ القراءات في ﴿لَيَأۡتِيَنِّي﴾:

توجيهُ القراءةِ مفيدٌ في التَّبيين، وإيضاح المعنى المستبين

قرأها ابنُ كثير بنونَيْن ﴿لَيَأۡتِيَنَّنِي﴾، وقرأها الباقون بنونٍ واحدةٍ مُشدَّدة[3]، ووجهُ قراءة ابن كثير أنَّها جاءت على الأصل؛ لأنَّ النّونَ الأولى المُشدَّدة هي نون التَّأكيد، والثّانية المكسورة هي التي تلحقُ بياء المُتكلِّم؛ لتسلمَ حركة آخر الفعل عن التَّغيير؛ إذ لولاها؛ لانكسر آخر الفعل لمكان ياء المُتكلِّم، أمّا قراءة الباقين؛ فوجهها أنَّهم كرهوا اجتماعَ ثلاثِ نوناتٍ؛ فحذفوا إحداهنَّ، وهي التي تصحب ياء المُتكلِّم، وكثيرًا ما تُحذف، ثم كُسِرت النّون الَّتي للتَّأكيد لأجل الياء[4].

دلالةُ (الباءِ) في قوله: ﴿بِسُلۡطَٰنٖ﴾:

الباءُ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿أَوۡ لَيَأۡتِيَنِّي بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ﴾؛ للتَّعديةِ، ويحتملُ أنْ تكونَ للمصاحبةِ، أي: (لَيَأتينّي مصحوبًا بسلطانٍ مُبينٍ).

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 247.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 19/ 184.
(3) ابن الجزري، النشر: 1/ 234، وذكر الداني أنها في مصاحف أهل مكة بِنُونَيْنِ، المقنع، ص: 114.
(4) الشّيرازيّ، الموضح: 2/ 952.

غرضُ تنكيرِ قولِه: ﴿بِسُلۡطَٰنٖ﴾:

لفظُ السُّلطان دالٌّ على تعظيم الحجَّة والبرهان

دلَّ التَّنكيرُ في قوله: ﴿بِسُلۡطَٰنٖ﴾ في قولِه ﷻ: ﴿أَوۡ لَيَأۡتِيَنِّي بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ﴾ على تعظيم الحجَّة الَّتي يأتي بها الهدهد؛ ليقبلها سليمان عليه السلام، ولا يعاقبه بمقتضاها، يؤكِّد هذا وصفها بالمبين.

دلالةُ وصفِ ﴿بِسُلۡطَٰنٖ﴾ بلفظ (مُبينٍ):

الظُّهورُ والوضوح والإبانة، شرطٌ لقبول السُّلطان

قولُه تبارك شأنُه: ﴿أَوۡ لَيَأۡتِيَنِّي بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ﴾ هو ثالثُ الأمورِ الَّتي جعلَها سليمانُ عليه السلام جزاءً لغَيبةِ الهُدهُد، وهو أنْ يأتيَ بما يدفعُ بهِ العقابَ عن نفسِه، مِنْ عُذْرٍ في التَّخلُّفِ مقبولٍ، ولذلكَ وصفَهُ بكونِهِ مُبيناً، أيْ: مُظهرًا لحقِّ الآتي بهِ، وهذا الوصف من سليمان عليه السلام استقصاء للهدهد في حقِّه؛ لأنَّ الغائب حُجَّته معه.

بلاغةُ المَجازِ العقليِّ في الآية:

نسبةُ الإبانةِ للسُّلطانِ؛ لكونها وسيلةً للبراءة من العقاب

في قولِهِ تعالى: ﴿أَوۡ لَيَأۡتِيَنِّي بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ﴾ مجازٌ لطيفٌ، وذلكَ أنَّ الإبانةَ في الأصلِ لصاحبِ السُّلطانِ، وقد نُسِبَتْ هنا للسُّلطانِ على سبيلِ المَجازِ العقليِّ؛ لأنَّ السُّلطانَ هو وسيلةُ الهُدْهُدِ في إظهارِ حقِّهِ وعُذْرِهِ في التَّخلُّفِ.

﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ٢٢﴾ [النّمل: 22]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الإخبارُ برجعة الهُدْهُدِ بحجَّته بعدَ الإخبارِ عن غَيبتِهِ

بعدَ إخبارِ اللّهِ تعالى في الآية السابقة بغَيبةِ الهُدْهُدِ وتوعُّدِ سليمانَ عليه السلام لهُ، أخبرَ في هذه الآية عن رجوعِه وما قالَهُ لسليمانَ، فقالَ: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَمَكَثَ﴾: (مكث) أصلٌ يدلُّ على التَّوقُّفِ والانتظارِ[1]، والماكثُ: المُنتظِرُ، ويقالُ: رجلٌ مَكيثٌ، أيْ: رَزينٌ غيرُ عَجولٍ[2].

2) ﴿أَحَطتُ﴾: (حوط) أصلٌ يدلُّ على الاستدارةِ حولَ الشَّيءِ[3]، فالحائطُ: الجدارُ الَّذي يُحيطُ بالمكانِ، والإحاطةُ تقالُ على وجهَيْن، أحدُهما: في الأجسامِ، نحوُ: أَحَطْتُ بمكانِ كذا، أو تُستعمَلُ في الحفظِ، نحوُ: ﴿أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌۢ ٥٤﴾ [فُصِّلت: 54]، أيْ: حافظٌ لهُ مِنْ جميعِ جهاتِه، وتُستعمَلُ في المَنْعِ، نحوُ: ﴿إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْۖ﴾ [يوسف: 66]، أيْ: إلّا أنْ تُمنَعوا، ثم إنَّ (الإحاطة بالشيء) استُعملت كنايةً عن العلم بالشَّيء من جميع جوانبه[4]، وهو المعنى المراد في الآية الكريمة.

3) ﴿سَبَإٍ﴾: اسمُ بلدٍ تفرَّقَ أهلُهُ، ولهذا يُقالُ: ذهبوا أياديَ سَبَأٍ،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مكث).
(2) الخليل، العين: (مكث).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي: (حوط).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي: (حوط).

أيْ: تفرَّقوا تفرُّقَ أهلِ هذا المكانِ مِنْ كلِّ جانبٍ[1]، وقيلَ: سَبَأٌ في الأصلِ: اسمُ رجلٍ مِنْ قَحْطانَ، ثمَّ سُمّيَتْ بِهِ بلدٌ معروفةٌ[2].

4) ﴿بِنَبَإٍ﴾: (نبأ) أصلٌ يدلُّ على الإتيانِ مِنْ مكانٍ إلى مكانٍ[3]، وعلى ظهورٍ أو طُروءٍ مسبوقٍ بخفاءٍ ما[4]، فيُقالُ للَّذي يأتي مِنْ أرضٍ إلى أرضٍ: نابئٌ، ويُقالُ: سيلٌ نابئٌ؛ إذا أتى مِنْ بلدٍ إلى بلدٍ، والنَّبْأَةُ: الصَّوتُ الخفيُّ؛ لأنَّ الصَّوتَ يجيءُ مِنْ مكانٍ إلى مكانٍ[5]، والنَّبَأُ: الخبرُ؛ لأنَّهُ يأتي مِنْ مكانٍ إلى مكانٍ[6].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

إحاطةُ الهُدْهُدِ بما لم يحطْ به سليمانُ، وإنباؤه عن سبأٍ بإيقان

بيَّنت هذه الآيةُ أنَّه لم يمْضِ غيرُ زمنٍ يسيرٍ على غياب الهدهد حتّى جاء، فقالَ لسليمانَ عليه السلام: اطَّلعتُ على ما لم تَطَّلِعْ عليهِ أنتَ، وجئْتُكَ بنبأٍ مهمٍّ من بلاد سبأٍ، وهو خبرٌ يقينيٌّ عظيمُ الشَّأنِ[7].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

سِرُّ التَّعبيرِ بالفاءِ في جملة ﴿فَمَكَثَ﴾:

احتمالُ حرف المعنى معانيَ مُتعدِّدةً، بيانٌ وإيضاح

آثر القرآنُ الكريم التَّعبيرَ بالفاء في قولِهِ جلَّ وعزَّ: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ دون غيرها من حروف العطف في هذا السّياق؛ لأنَّها تحتمل عدة معانٍ، فقيلَ: الفاءُ فصيحةٌ، أيْ: كانَ غائبًا، فمكثَ بعدَ هذا التَّهديدِ زمانًا غيرَ مديدٍ عن وقتِ تفقُّدِهِ[8]، وقيلَ: لتفريعِ الحكايةِ[9]، عطفَتْ جملةً على جملةٍ[10]، وقيلَ: استئنافيَّةٌ، والكلامُ

(1) الراغب، المفردات: (سبأ).
(2) السمين، عمدة الحفاظ: (سبأ).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نبأ).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي: (نبأ).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نبأ).
(6) الراغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (نبأ).
(7) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 186.
(8) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 371.
(9) البقاعيّ، نظم الدرر: 14/ 150.
(10) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 248.

بيانٌ لمُقدَّرٍ، كأنَّهُ قيلَ: ما مضَى مِنْ غَيبتِهِ بعدَ التَّهديدِ؟ فقيلَ: مكثَ زمانًا غيرَ مديدٍ[1].

دلالةُ الماضي ﴿فَمَكَثَ﴾ في الآية:

تحقُّقُ فعلِ المكث ووقوعُهُ، يناسب صيغة المضيّ

عُبِّرَ بصيغةِ الماضي في قولِ المولَى جلَّ شأنُهُ: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ مُكثَ الهُدْهُدِ زمنًا غيرَ مديدٍ أمرٌ قد تحقَّقَ، وثبتَ، والفعلُ لحكايةِ هذا الحدثِ الَّذي مضَى في الزَّمنِ الخالي، ومِثْلُهُ يُقالُ في سائرِ الأفعالِ الَّتي في قولِهِ تعالى: ﴿فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ وَجِئۡتُكَ﴾.

بلاغةُ المجازِ في قولِهِ: ﴿فَمَكَثَ﴾:

إفادةُ المكثِ معنى البطءِ دون البقاءِ في المكان؛ لأنَّ الهدهدَ كان ينتقلُ

في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ مجازٌ بديعٌ، وذلكَ أنَّ المكثَ في الأصلِ: البقاءُ في المكانِ وملازمتُهُ زمنًا ما، وقد أُطلِقَ هنا على البُطْءِ؛ لأنَّ الهُدْهُدَ لم يكنْ ماكثًا بمكانٍ، ولكنَّهُ كانَ يطيرُ، وينتقلُ، فأُطلِقَ المكثُ على البُطْءِ مجازًا مرسلًا؛ لأنَّ المكثَ يستلزمُ زمنًا[2].

نكتةُ وصفِ المكثِ بقِصَرِ المدَّةِ:

الدَّلالةُ على إسراعِ الهُدْهُدِ خوفًا مِنْ سليمان عليه السلام

وُصِفَ مكثُ الهُدْهُدِ بقِصَرِ المُدَّةِ في قولِهِ تعالى: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾؛ للدَّلالةِ على إسراعِهِ خوفًا مِنْ سليمانَ عليه السلام، وليُعلَمَ كيفَ كانَ الطَّيرُ مُسخَّرًا لهُ، ولبيانِ ما أُعطيَ مِنَ المعجزةِ الدَّالَّةِ على نُبوَّتِهِ وعلى قُدرةِ اللّهِ تعالى[3].

سِرُّ إيثارِ التَّعبيرِ بقولِهِ: ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾:

التَّنبيهُ على أنَّ الهدهدَ قريبٌ قُرْبًا يوصَفُ بضدِّ البُعْدِ

آثر القرآنُ الكريم التَّعبيرَ بقوله: ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ دون قريب؛ للإشارةِ إلى أنَّ هذا البُعْدَ ليس بُعدًا موغلًا زمانًا أو مكانًا، ومعناهُ: قريبٌ قُرْبًا يوصَفُ بضدِّ البُعْدِ، أيْ: يوشِكُ أنْ يكونَ بعيدًا، وهذا

(1) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 181.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 248.

(3) الزمخشري، الكشاف: 3/ 359.

وجهُ إيثارِ التَّعبيرِ بـ ﴿غَيۡرَ بَعِيدٖ﴾؛ لأنَّ ﴿غَيۡرَ﴾ تفيدُ دفعَ توهُّمِ أنْ يكونَ بعيدًا، وإنَّما يُتوهَّمُ ذلكَ إذا كانَ القُرْبُ يُشبِهُ البُعْدَ، وممّا يؤكِّد ذلك ما ورد في إعراب قولِه: ﴿غَيۡرَ بَعِيدٖ﴾، فيجوزُ أنْ يكونَ صفةً للمصدرِ، أيْ: مَكْثًا غيرَ بعيدٍ، وصفةً للزَّمانِ، أيْ: زمانًا غيرَ بعيدٍ، وصفةً للمكانِ، أيْ: مكانًا غيرَ بعيدٍ[1].

بلاغةُ الاستعارةِ في لفظِ ﴿غَيۡرَ بَعِيدٖ﴾:

الهدهدُ مكثٌ في مكانٍ غيرِ بعيدٍ، زمانًا غيرَ مديد

في قولِه تعالى: ﴿غَيۡرَ بَعِيدٖ﴾ استعارةٌ لطيفةٌ في لفظِ ﴿بَعِيدٖ﴾، وذلكَ أنَّ البُعْدَ والقُرْبَ حقيقتُهما مِنْ أوصافِ المكانِ، ويُستعاران لقلَّةِ الحِصَّة، بتشبيهِ الزَّمنِ القصيرِ بالمكانِ القريبِ، وشاعَ ذلكَ حتَّى ساوَى الحقيقةَ، كما في قولِه تعالى: ﴿وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ ٨٩﴾ [هود: 89][2].

الفاءُ ودلالتُها في جملة: ﴿فَقَالَ﴾:

مسارعة الهدهد لبيان حجَّته

الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ﴾ فصيحةٌ، وفي الكلامِ حذفٌ، فإنْ كانَ ﴿غَيۡرَ بَعِيدٖ﴾ زمانًا؛ فالتَّقديرُ: (فجاءَ سليمانُ عليه السلام، فسألَهُ: ما غيَّبَكَ؟ فقالَ: أحطتُ، وإنْ كانَ مكانًا)، فالتَّقديرُ: (فجاءَ، فوقفَ مكانًا قريبًا مِنْ سليمانَ، فسألَهُ: ما غيَّبَكَ؟)[3]، وقيلَ: الفاءُ في ﴿فَقَالَ﴾ عاطفةٌ على ﴿فَمَكَثَ﴾، وجعْلُ القولِ عَقيبَ المكثِ؛ لأنَّهُ لمّا حضرَ صدرَ القول مِنْ جهتِه؛ فالتَّعقيبُ حقيقيٌّ[4].

سِرُّ ابتداءِ الهُدْهُدِ بالإحاطة:

ترغيبُ الهدهدِ سليمانَ في الإصغاءِ إلى اعتذارِه، من ذكيِّ الخطاب

ابتداءُ الهُدْهُدِ كلامَهُ بقولِه: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ﴾، أيْ: علمًا ومعرفةً؛ لترويجِه عندَ سليمانَ عليه السلام، وترغيبِه في الإصغاءِ إلى اعتذارِه، واستمالةِ قلبِه نحوَ قبولِه، فإنَّ النَّفسَ للاعتذارِ المُنبئِ

---

(1) السمين، الدر المصون: 8/ 593، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 248.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 248.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 225.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 249.

عن أمرٍ بديعٍ أقبَلُ، وإلى تلقّي ما لا تعلمُهُ أميَلُ[1]، وفي ذلكَ ابتلاءٌ لسليمانَ عليه السلام في علمِهِ، وتنبيهٌ على أنَّ في أدنَى خَلْقِهِ تعالى وأضعفِهِ مَنْ أحاطَ علمًا بما لم يُحِطْ بهِ، ليتصاغرَ إليهِ علمُهُ، ويسلمَ مِنَ الإعجابِ الَّذي هو فتنةُ العلماءِ، وأعظِمْ بها فتنةً[2]! وفي ذلكَ أيضًا تنبيهٌ لسليمانَ عليه السلام بأنَّ في مخلوقاتِ اللّهِ ممالكَ ومُلوكًا تُداني مُلْكَهُ، أو تَفوقُهُ في بعضِ أحوالِ المُلْكِ[3].

بلاغةُ الاستعارةِ في قولِهِ: ﴿أَحَطتُ﴾:

ذِكرُ الإحاطةِ لاستيعابِ العلمِ بالمعلوماتِ

الإحاطةُ في الأصلِ هي الاشتمالُ على الشَّيءِ، وجعْلُهُ في حَوْزةِ المُحيطِ، وهي في قوله تعالى: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ﴾ مستعارةٌ لاستيعابِ العلمِ بالمعلوماتِ مِنْ جميعِ جهاتِها، لا يَخْفَى منها معلومٌ، كما في قولِهِ تعالى: ﴿وَكَيۡفَ تَصۡبِرُ عَلَىٰ مَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ خُبۡرٗا ٦٨﴾ [الكهف: 68]، فمعنى ﴿بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ﴾: معلوماتٌ لم يُحِطْ بها علمُ سليمانَ عليه السلام[4].

دلالةُ التَّعبيرِ بالموصولِ (ما):

تناسبُ الموصولِ مع معنى التَّشويقِ والتَّعظيمِ

عُبِّرَ بالاسمِ الموصولِ في قولِه: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ﴾؛ لِما فيهِ مِنَ الإبهامِ؛ حتَّى تتشوَّفَ النَّفسُ إلى معرفةِ ذلكَ المُبْهَمِ[5]، ولِما فيهِ مِنْ تفخيمِ شأنِ المعلومِ وتعظيمِ رُتبتِهِ[6].

دلالةُ المضارعِ المنفيِّ ﴿لَمۡ تُحِطۡ﴾:

الدَّلالةُ على استمرارِ انتفاءِ الإحاطةِ، مبينة عن المطلوب

عُبِّرَ بصيغةِ المضارعِ المنفيِّ في قولِ اللّهِ: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ﴾؛ للدَّلالةِ على استمرارِ انتفاءِ الإحاطةِ؛ لأنَّ المضارعَ يفيدُ التَّجدُّدَ والحدوثَ، فإذا دخلَ عليهِ النَّفيُ؛ أفادَ استمرارَ الانتفاءِ، ويفيدُ ﴿لَمۡ تُحِطۡ﴾ أيضًا استغراقَ النَّفيِ لجميعِ أزمنةِ الماضي.

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 182.

(2) الزمخشري، الكشّاف: 3/ 359.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 249.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 249.

(5) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 225.

(6) البقاعيّ، نظم الدرر: 14/ 150.

الإبانةُ عن الانتقال إلى ما هو أقلُّ إبهامًا

دلالةُ (الواوِ) في قولِهِ: ﴿وَجِئۡتُكَ﴾:

الواوُ في قولِه: ﴿وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ﴾ عاطفةٌ لهذهِ الجملةِ على ما قبلَها، ونكتةُ هذا العطف: أنَّهُ لمّا أبهمَ في قولِه: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ﴾؛ انتقلَ إلى ما هو أقلُّ منهُ إبهامًا، وهو قولُهُ: ﴿وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ﴾؛ إذ فيهِ إخبارٌ بالمكانِ الَّذي جاءَ منهُ، وأنَّ لهُ علمًا بخبرٍ مُستيقَنٍ لهُ[1]، وفيهِ أيضًا مدحٌ للخبرِ؛ هزًّا للنَّفْسِ إلى طلبِ إتمامِهِ[2].

التَّعبيرُ عن احتمال الرَّهق وبُعد الشُّقَّة بلفظ المجيء

سِرُّ لفظ المجيء دون الإتيانِ:

جاء التَّعبير القرآنيُّ بالمجيء في قوله تعالى: ﴿وَجِئۡتُكَ﴾ دون الإتيان؛ للدَّلالة على الصُّعوبة والمشقَّة الَّتي تحمَّلها الهدهد، للوصول إلى ما وصل إليه من نبأ بلقيس، وليكون ذلك أدعى لقبول عذره عند سليمان ﵇.

الإشارةُ إلى أنَّ المخاطَب بالكاف هو سليمانُ ﵇

دلالةُ تعديةِ الفعلِ إلى كافِ الخطابِ:

عُدّيَ الفعلُ إلى كافِ الخطابِ في قولِه تعالى: ﴿وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ﴾، ولم يقل: (وجئتُ)؛ إشارةً إلى أنَّ سليمانَ ﵇ هو المقصودُ بالمجيءِ والإتيانِ بالخبرِ لا غيره؛ إذ كانَ هو النَّبيَّ والمَلِكَ فيهم، وفيهِ أيضًا تنبيهٌ على أنَّ الخبر الَّذي جاءَ بِه الهُدْهُدُ أمرٌ يُعنَى بِه سليمانُ ﵇ في المقام الأوَّل.

الوُثوق في الخبر بتعيين مصدره ومكانه، يرفع الإيهام والإبهام

دلالةُ ﴿مِن﴾ وتعيين المكان في السّياق:

﴿مِن﴾ في قولِه جلَّ وعزَّ: ﴿وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ﴾ ابتدائيَّةٌ، وهي هنا لابتداءِ المكانِ[3]، ودلَّ التعبير بقوله: ﴿مِن سَبَإِۭ﴾ دون أن يقول: (وجئتك من بلد)؛ للدَّلالة على ثقة الهدهد في المعلومة الَّتي أتى بها، وفيه إشارةٌ إلى إزالة الإبهام، حيث عيَّن المكان.

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 225.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 150.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 250.

دلالةُ تعدُّدِ القراءات في ﴿سَبَإٍ﴾:

أهميَّةُ توجيه القراءة في تلمُّس المعنى الدَّلالي

قرأ البزي عن ابن كثير وأبو عمرو قوله: ﴿مِن سَبَأَ﴾ بفتح الهمزة، وقرأ قنبل بسكون الهمزة: ﴿مِن سَبَأْ﴾، وقرأ الباقون بالجرِّ والتَّنوين[1]، فوجّهُ مَن قرأ بالفتح أنَّه جُعِلَ اسمًا للقبيلة أو للبلدة، فاجتمع فيه سببان مانعان من الصَّرف، وهما التَّعريف والتَّأنيث؛ فمنع من الصَّرف لذلك؛ فصار في موضع الجرِّ مفتوحًا، ووجه مَن قرأ بالجرِّ والتَّنوين، أنَّهم جعلوه اسمًا للأب أو للحيِّ؛ فلم يكن فيه إلّا سببٌ واحدٌ، وهو التَّعريف، والسَّبب الواحد لا يمنع الصَّرف في أسماء الأعلام؛ فلهذا كان مُنصرفًا[2].

وحجّة من أسكن الهمزة أنه نوى الوقف عليها، ويجوز أن يكون أسكن تخفيفًا لتوالي سبع متحركات، ومِن الحجة لمن أسكن الهمزة أيضًا: أنه يقول: هذا اسم مؤنث، وهو أثقل من المذكّر، ومعرفةٌ، وهو أثقل من النكرة، ومهموز، وهو أثقل من المرسل، فلما اجتمع في الاسم ما ذُكِرَ من الثقل خُفّف بالإسكان[3].

سرُّ التَّعبيرِ بالنَّبأِ دونَ الخبرِ:

النَّبأُ أبلغُ لمقتضَى الحالِ

عُبِّرَ بالنَّبأِ دونَ الخبرِ في قولِه ﴿وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ﴾؛ لأنَّ النَّبأ يدلُّ على الخبر العظيم ذي الفائدة الَّتي يحصل بها علمٌ، وهذا ما كان من شأن الهدهد من إخباره بهذا الأمر العظيم الَّذي لم يكن يعلمه سليمان عليه السلام في أمر بلقيس، ولِما في النَّبأِ مِنَ الزّيادةِ الَّتي يطابقُها وصفُ الحالِ[4]، وهي ما فيهِ مِنْ معنى الإخبارِ الَّذي يُنبِّهُ السّامع على الشَّيءِ مِنْ حيثُ لا يدري[5]، مَعَ ما فيهِ مِنَ التَّجنيسِ

(1) ابن الجزري، النشر: 1/ 234.
(2) الشيرازي، الموضح في وجوه القراءات: 2/ 953.
(3) ابن خالويه، الحجة، ص: 270، ومكّي، الكشف: 2/ 156.
(4) الزمخشري، الكشاف: 3/ 360.
(5) الطيبي، فتوح الغيب: 11/ 504.

وموازنةِ ﴿سَبَإٍ﴾[1]، وفيه إشارةٌ إلى أنَّه كان بصدد إقامة خدمة مهمَّة وعظيمة لسليمان عليه السلام، وعلى هذا يكون النبأ أخصَّ من الخبر.

والباءُ في قولِه تعالى: ﴿وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ﴾؛ للمُصاحَبةِ؛ لأنَّ النَّبأَ كانَ مُصاحِبًا للهُدْهُدِ عندَ مَجيئِه[2].

غرضُ تنكيرِ لفظ: ﴿بِنَبَإٖ﴾:

تنكيرُ ﴿بِنَبَإٖ﴾ في قولِ اللّهِ جل جلاله: ﴿وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ﴾؛ لتفخيمِ النَّبأِ وتعظيمِ شأنِه، وفي ذلكَ مزيدُ تشويقٍ لسليمانَ عليه السلام لاستماعِه والعملِ بمقتضاهُ.

بلاغةُ الجناسِ في لفظي ﴿سَبَإِۭ بِنَبَإٖ﴾:

المحسّنُ البديعيُّ يزيد السّياق رونقًا وطلاوةً

في قولِه عزَّ شأنُهُ: ﴿وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ﴾ تجنيسُ التَّصريفِ، وهو عبارةٌ عن انفرادِ كلِّ كلمةٍ مِنَ الكلمتَيْنِ عن الأخرى بحرفٍ كهذهِ الآيةِ[3]، وقيلَ: بينَهما الجناسُ المزدوجُ، وفيهِ أيضًا جناسُ الخطِّ، وهو أنْ تكونَ صورةُ الكلمتَيْنِ واحدةً في الخطِّ، وإنَّما تختلفانِ في النُّطْقِ[4]، وهو مِنْ محاسنِ الكلامِ الَّذي يتعلَّقُ باللَّفظِ، بشرطِ أنْ يجيءَ مطبوعًا، أو يصنعَهُ عالمٌ بجوهرِ الكلامِ، يحفظ معه صحَّةَ المعنى وسدادَهُ، ولقد جاءَ هنا زائدًا على الصحَّةِ، فحَسُنَ لفظًا ومعنًى[5]، وهو مِنْ أبدعِ الكلامِ موازنةً في اللَّفظِ، ومجانسةً في الخطِّ، معَ ما لهُ مِنَ الانطباعِ والرَّونقِ[6].

نكتةُ وصفِ النَّبأِ باليقين:

المبالغةُ في كونِ النَّبأِ شيئًا مُحقَّقًا

وصفُ النَّبأِ بكونِه يقينًا في قولِه تعالى: ﴿وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٖ

(1) الخفاجي، عناية القاضي: 7/ 41.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 252.
(3) السّمين، الدر المصون: 8/ 594.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 252.
(5) الزمخشري، الكشاف: 3/ 360.
(6) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 151.

يَقِينٍ﴾؛ لتحقيقِ كونِ ما سيُلقَى إلى سليمانَ ﷺ شيئًا مُحقَّقًا لا شبهةَ فيهِ، ووصفُهُ بالمصدرِ للمبالغةِ[1]؛ لأنَّه علمه عن عيان ومشاهدة وحضور، وفيه إشارةٌ إلى طمأنةِ سليمان إلى صحَّة ما جاء به الهدهد لتطمئنَّ نفسه، ويقتنع بسبب غيابه.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإتيان والمجيء:

فُرِّقَ بينَ المجيءِ والإتيانِ مِنْ وجوه: أحدُها: أنَّ الإتيانَ مجيءٌ بسهولةٍ، ومنهُ قيلَ للسَّيلِ المارِّ على وجهِهِ: أَتيٌّ، وأَتاويٌّ[2]، والمجيءُ أعمُّ[3].

المجيءُ أقوى في الدَّلالةِ مِنَ الإتيانِ، وبينَهما عُمومٌ وخُصوصٌ مِنْ وجهٍ

والثّاني: أنَّ الإتيانَ قد يقالُ باعتبارِ القصدِ، وإنْ لم يكنْ منهُ الحصولُ، والمجيءُ يُقالُ اعتبارًا بالحصولِ[4]، فتكونُ دلالةُ (جاءَ) على المجيءِ أقوى مِنْ دلالةِ (أتَى)[5]، وعلى هذا يكونُ الإتيانُ أعمَّ مِنَ المجيءِ مِنْ هذهِ النّاحيةِ.

والثّالثُ: ذكرَ اللّهُ (جاءَ) في موضعِ الأعيانِ في الماضي، و(أتَى) في موضعِ المعاني والأزمانِ، ومن ذلكَ: قولُهُ تعالى: ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمۡلُ بَعِيرٖ﴾ [يوسف: 72]؛ لأنَّ الصّواعَ عينٌ، وقولُهُ: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمۡ كِتَٰبٞ﴾ [البقرة: 89]؛ لأنَّه عينٌ، وقولُهُ: ﴿وَجِاْيٓءَ يَوۡمَئِذِۭ بِجَهَنَّمَۚ﴾ [الفجر: 23]؛ لأنَّها عينٌ، وأمّا قولُهُ تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ﴾ [الأعراف: 34]، فلأنَّ الأجلَ كالمُشاهَدِ، ولهذا يقالُ: حَضَرَهُ الموتُ[6].

النَّبأ والخَبر:

فُرِّقَ بينَ الخَبَرِ والنَّبَأِ: بأنَّ النَّبَأَ خَبَرٌ لهُ شأنٌ، ولهُ فائدةٌ عظيمةٌ،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 252.
(2) الراغب، المفردات: (أتي).
(3) الراغب، المفردات: (جاء).
(4) الراغب، المفردات: (جاء).
(5) زيدان، الفروق اللغوية في القرآن الكريم، ص: 50.
(6) الزركشي، البرهان: 4/ 81.

النَّبَأُ يُستعمَلُ في الخَبَرِ العظيمِ الَّذي يحصلُ بهِ عِلْمٌ أو غلَبةُ ظنٍّ

يحصلُ بهِ عِلْمٌ أو غلَبةُ ظنٍّ، ولا يُقالُ للخَبَرِ: نَبَأٌ، حتَّى يتضمَّنَ هذهِ الأشياءَ الثَّلاثةَ[1].

وبناءً على ذلكَ يكونُ الخَبَرُ أعمَّ مِنَ النَّبَأِ؛ لأنَّ النَّبَأَ خَبَرٌ مخصوصٌ؛ فكلُّ نَبَأٍ خَبَرٌ، وليسَ كلُّ خَبَرٍ نَبَأً[2].

(1) الراغب، المفردات: (نبأ).

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 226، والسّمين الحلبي، الدر المصون: 8/ 594.

﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ ٢٣﴾ [النمل: 23]

❁ مُناسَبَةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

بيانُ الخبرِ اليقينِ الَّذي جاءَ بِهِ الهُدْهُدُ

لمّا توعَّد سليمان عليه السلام الغائبَ مِنَ الطير بالعذاب الأليم، وجاء الهدهد بحجَّة لغيابه، فقالَ: ﴿وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ ٢٢﴾ [النمل: 22]؛ قالَ سليمانُ عليه السلام: وما ذلكَ الخبرُ؟ قالَ: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ﴾ الآيةَ[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَمۡلِكُهُمۡ﴾: (ملك) أصلٌ صحيح، معناه: قوَّةٌ في الشَّيءِ وصحَّةٌ، ومَلَكَه يَمْلِكُهُ بالكَسْرِ (مِلْكًا) بِكَسْرِ الميم، وهَذا الشَّيْءُ (مِلْكُ) يَميني، و(مَلْكُ) يَميني، والفَتْحُ أَفْصَحُ، و(مَلَّكَهُ) الشَّيْءَ (تَمْليكًا) جَعَلَهُ مِلْكًا لَهُ، يُقالُ: مَلَّكَهُ المالَ[2]، يقالُ: أملك عجينَهُ: قوَّى عَجْنَهُ وشدَّهُ، وقيلَ: مَلَكَ الإنسانُ الشَّيءَ؛ لأنَّ يدَهُ فيه قويَّةٌ صحيحةٌ[3]، ومعنى ﴿تَمۡلِكُهُمۡ﴾ في الآيةِ: تتولَّى أمرَهم ملكةٌ عليهِم[4].

2) ﴿عَرۡشٌ﴾: (عرش) أَصْلٌ صَحيحٌ واحِدٌ، يَدُلُّ عَلَى ارْتِفاعٍ في شَيْءٍ مَبْنيٍّ، ثُمَّ يُسْتَعارُ في غَيْرِ ذَلِكَ[5]، و(عَرْشُ) البَيْتِ سَقْفُهُ، فالعَرْشُ في الأصلِ: شيءٌ مُسقَّفٌ، وجمعُهُ: عُروشٌ، ومِنَ البابِ: تَعْريشُ الكَرْمِ: رَفْعُهُ والتَّوَثُّقُ مِنْهُ، قالَ سبحانه وتعالى: ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ [البقرة: 259]، وسُمّيَ مَجْلِسُ السُّلطانِ عَرْشًا؛ اعتبارًا بعُلوِّهِ،

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 182.
(2) الرازي، مختار الصحاح: (ملك).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ملك).
(4) ابن باديس، مجالس التذكير، ص: 272.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرازي، مختار الصحاح: (عرش).

وكُنّيَ بهِ عنِ العزِّ والسُّلطانِ والمملكةِ، فيقالُ: فلانٌ ثُلَّ عَرْشُهُ[1] عَلَى ما لَمْ يُسَمَّ فاعِلُهُ، أَيْ: وهَى أَمْرُهُ، وذَهَبَ عِزُّهُ، والمرادُ بالعَرْشِ في الآيةِ: السَّريرُ الَّذي يُجلَسُ عليهِ للحُكْمِ والمُلْك[2].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

استعظامُ شأنِ ملك بِلْقيسَ وعَرْشِها

يقولُ ﷻ مُخبِرًا عن قيلِ الهُدْهُدِ لسليمانَ عليه السلام معتذرًا عن مَغيبِه عنهُ: إنّي وجدتُ امرأةً تملكُ سَبأً، وقد أوتيَتْ مِنْ كلِّ شيءٍ يُؤتاهُ المُلوكُ في عاجلِ الدُّنيا ممّا يكونُ عندَهم مِنَ العَتادِ والآلةِ، ولها كُرْسيٌّ عظيمٌ تجلس عليه للمُلْك.

وإنَّما صارَ هذا الخبرُ للهُدْهُدِ عُذْرًا عندَ سليمانَ عليه السلام؛ لأنَّ سليمانَ كانَ لا يَرَى أنَّ في الأرضِ أحدًا لهُ مملكةٌ معَهُ، وكانَ قد حُبِّبَ إليهِ الجهادُ والغزْوُ، فلمّا دلَّهُ الهُدْهُدُ على مُلْكٍ بموضعٍ مِنَ الأرضِ، هو لغيرِه، وقومٍ كفرةٍ يعبدونَ غيرَ اللهِ؛ حقَّتْ للهُدْهُدِ المعذرةُ في مَغيبِهِ عن سليمانَ عليه السلام[3].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فصلِ الآيةِ عمّا قبلَها:

الجملُ المفصولةُ تقع موقعَ البيانِ والتَّفصيل

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ﴾، عن قولِهِ: ﴿وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ ٢٢﴾ [النمل: 22]؛ لأنَّهُ بيانٌ للنَّبأِ وتفصيلٌ لهُ إثرَ الإجمالِ[4]، فهو استئنافٌ بيانيٌّ جوابًا عن سؤالٍ نشأَ مِنَ الكلامِ السّابقِ، كأنَّهُ لمّا قالَ الهُدْهُدُ: ﴿وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ ٢٢﴾ [النمل: 22]؛ قالَ سليمانُ عليه السلام: وما ذلكَ النَّبأُ؟ قالَ: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ﴾[5]، فالفصلُ بينَهما؛ لما بينَهما مِنْ شِبْهِ كمالِ الاتِّصالِ.

(1) الراغب، المفردات: (عرش).
(2) ابن الجوزي، زاد المسير: 3/ 358، والآلوسي، روح المعاني: 10/ 185.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 446.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 281، والآلوسي، روح المعاني: 10/ 183.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 151.

غرضُ التَّوكيدِ بـ (إنَّ):

توكيدُ الخبرِ الصّادقِ المُهمِّ واجبٌ

أُكِّدَ قولُهُ ﷺ: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ﴾ بإدخالِ (إنَّ) في صدرِهِ؛ للمبالغةِ في صِدْقِهِ[1]، ولأهمّيَّةِ الخبرِ؛ إذ لم يكنْ معهودًا في بني إسرائيلَ أنْ تكونَ المرأةُ مَلِكًا[2].

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ الماضي في ﴿وَجَدتُّ﴾:

الدَّلالةُ على تحقُّقِ الوجدانِ ووقوعِهِ

عُبِّرَ بصيغةِ الماضي في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ الوجدانَ أمرٌ قد تحقَّقَ ووقعَ، والإشارة إلى أنَّ ملك بلقيس قائمٌ في بلادها، والتَّعبيرُ بما شأنُهُ التَّحقُّقُ يناسبُ المبالغةَ في الصِّدقِ.

سرُّ التَّعبيرِ بـ ﴿وَجَدتُّ﴾ دونَ (رأيتُ):

الوجدانُ القلبيُّ أنسبُ بوصفِ حالِ ما رأى

إيثارُ ﴿وَجَدتُّ﴾ على (رأيتُ) في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ﴾؛ للإيذانِ بكونِ الهُدْهُدِ عندَ غَيْبَتِهِ كان بصَدَدِ خِدْمةِ سليمانَ عليه السلام، وإلّا لما تأخَّر عنه حين طلبه، فأبرز نفسه في معرضِ مَنْ يتفقَّدُ أحوالَ ملك سليمان عليه السلام، ويتعرَّفُها كأنَّها ضالَّتُهُ؛ ليَعرِضَها على سليمانَ عليه السلام[3]، والتَّعبيرُ بذلكَ أيضًا؛ للإشعارِ بأنَّ ما ظَفِرَ بِهِ أمرٌ غيرُ معلومٍ أوَّلًا؛ لأنَّه وجدانٌ بعدَ الفَقْدِ، وفيهِ إشعارٌ بغرابةِ الحالِ[4].

والمرادُ وجدانُ مُلْكِها لا وجدانُ نفسِها، والمُلْكُ ليسَ مِنَ المرئيِّ، فالوجدانُ هنا القلبيُّ أو المصادفةُ مبالغةً، ولذلكَ قالَ فيما سبقَ: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ﴾ [النمل: 22][5]، فالفعل (وَجَدَ) يدلُّ على رؤيةٍ بالبصرِ والبصيرة، وهذا يناسب رؤيةَ المشهد، وتبيُّنَ حالِ الملكة وقومها.

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 374.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 252.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 281، والآلوسي، روح المعاني: 10/ 185.
(4) الخفاجي، عناية القاضي: 7/ 41.
(5) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 374.

لـيـس مِـنَ المعهودِ في ذلكَ الزَّمانِ أنْ تحكمَ امرأةٌ قومًا

دلالةُ تنكيرِ قولِهِ سبحانَهُ: ﴿ٱمۡرَأَةٗ﴾:

نُكِّرَ لفظُ ﴿ٱمۡرَأَةٗ﴾ في قولِهِ عزَّ مِنْ قائلٍ: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ﴾؛ لأنَّ القصدَ إلى فردٍ مِنْ أفرادِ الجنسِ المُسمَّى بالمرأةِ، وهي بِلْقيسُ بنتُ شَراحيلَ، وكانَ أبوها قد ملكَ أرضَ اليمنِ كلَّها، ولم يكنْ لهُ ولدٌ غيرُها، فغلبَتْ على المُلك، وكانَتْ هي وقومُها مجوسًا يعبدونَ الشَّمسَ[1].

وقوله: ﴿ٱمۡرَأَةٗ﴾ مفعولٌ أوَّل لقوله: ﴿وَجَدتُّ﴾، ولهُ حكمُ المبتدأ، فهو كالابتداءِ بالنَّكرةِ؛ إذا أُريدَ بالنَّكرةِ التَّعجُّبُ مِنْ جنسِها، كقولِهم: غزالةٌ تكلَّمَتْ؛ لأنَّ المرادَ حكايةُ أمرٍ عجيبٍ عندَهم، وهو أنْ تكونَ امرأةٌ مَلِكةً على قومٍ[2]، وفي طيّاتِ التَّعجُّبِ مبالغةٌ وتعظيمٌ لشأنِها، ولقصدِ التَّعجيبِ أيضًا؛ لم يقل: (وجدتُهم تملكُهم امرأةٌ)[3]، بل أوثِرَ التَّعبيرُ بما فيهِ تقديمُ مَناطِ التَّعجُّبِ، وهو لفظُ ﴿ٱمۡرَأَةٗ﴾.

قبولُهم حكمَ امــرأةٍ دلـيـلُ خضوعِهم

معنى الملك في قولِهِ تعالى: ﴿تَمۡلِكُهُمۡ﴾:

الظّاهرُ أنَّ فعلَ ﴿تَمۡلِكُهُمۡ﴾ في قولِهِ جلَّ ذكرُهُ: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ﴾ مشتقٌّ مِنَ المُلْكِ بضمِّ الميم[4]، وفِعْلُهُ كَفِعْلِ مِلْكِ الأَشْياءِ، ورويَ في حَديث هِرَقْلَ: «هَلْ كانَ في آبائِهِ مِنْ مَلَكٍ؟»[5] بفَتْحِ اللّامِ، أَيْ: كانَ مَلِكًا، ويُفَرَّقُ بَيْنَ الفِعْلَيْنِ بالمَصْدرِ، فَمَصْدَرُ هَذا مُلْكٌ بضَمِّ الميمِ، والآخَرُ بِكَسْرِها، ويجوزُ أنْ يكونَ مُشْتقًّا مِنَ المِلْكِ بكسرِ الميمِ، والتَّعبيرُ بهِ؛ للإشارةِ إلى أنَّ خُضوعَهم لها كخُضوعِ العبيدِ لِمَنْ يملِكُهم[6]، وضَميرُ الجَمْعِ في قوله: ﴿تَمۡلِكُهُمۡ﴾ راجِعٌ إِلَى سَبَإٍ، والمرادُ: أنَّها تحكمُهم[7].

---

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 360.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 252.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 252.

(4) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 374، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 252.

(5) أخرجه البخاري في صحيحه، برقم: (4553)، ومسلم في صحيحه، برقم: (1773).

(6) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5447.

(7) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 17/ 10771.

سرُّ التَّعبيرِ بالمضارعِ: ﴿تَمۡلِكُهُمۡ﴾:

تصويرُ الحدثِ مِنْ شواهدِ التَّصديقِ

عُبِّرَ بصيغةِ المضارعِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ﴾؛ للدَّلالةِ على تصويرِ فعلِ حُكْمِ بِلْقيسَ لقومِها - الَّذي هو مدارُ التَّعجُّبِ والاستغرابِ - بأنْ تتولَّى ملكَهم امرأةٌ[1]، ولأنَّ حكمَها لهُم كانَ مُستمرًّا عندَ إخبارِ الهُدْهُدِ بذلكَ[2].

مرجعُ الضَّميرِ في قولِهِ تعالى: ﴿تَمۡلِكُهُمۡ﴾:

مُلْكُ بلقيس لمدينةِ سبأ وأهلها

ضميرُ مفعولِ ﴿تَمۡلِكُهُمۡ﴾ في قولِهِ عزَّ شأنُهُ: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ﴾ راجعٌ إلى سبأٍ، فإنْ أُريدَ بهِ القومُ، فالأمرُ ظاهرٌ، وإنْ أُريدتِ المدينةُ؛ فمعناهُ: تملكُ أهلَها[3].

وعَوْدُهُ على سبأٍ على معنى القومِ؛ لأنَّهم كانوا يُسمَّونَ باسمِ أبيهِم، فذُكِرَ لفظُ سبأٍ أوَّلًا بمعنى المدينةِ، وأُعيدَ عليهِ الضَّميرُ بمعنى القومِ على أسلوبِ الاستخدامِ[4].

إعرابُ جملة: ﴿وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ﴾:

كلُّ شيءٍ في ملك بلقيس يُثيرُ التَّعجُّبَ

جملةُ: ﴿وَأُوتِيَتۡ﴾ يجوزُ أنْ تكونَ معطوفةً على ﴿تَمۡلِكُهُمۡ﴾، وجازَ عطفُ الماضي على المضارعِ؛ لأنَّ المضارعَ بمعناهُ، أي: ملَكَتْهم، ويجوزُ أنْ تكونَ في محلِّ نصبٍ على الحالِ مِنْ مرفوعِ ﴿تَمۡلِكُهُمۡ﴾، و(قد) معَها مُضمَرةٌ عندَ مَنْ يشترطُ ذلكَ[5].

وسواءٌ كانتِ الجملةُ معطوفةً أم حالًا؛ فإنَّها استكمالٌ لشأنِ التَّعجُّبِ الَّذي أبداهُ الهُدْهُدُ مِنْ هَوْلِ ما شاهدَ في مملكةِ بِلْقيسَ.

---

(1) ابن باديس، مجالس التذكير، ص: 272.

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 374.

(3) الزمخشري، الكشاف: 3/ 360، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 24/ 551.

(4) ابن باديس، مجالس التذكير، ص: 272، والاستخدام: هو ذكر لفظ مشترك بين معنيين، يراد به أحدهما ثم يعاد عليه ضمير، أو إشارة، بمعناه الآخر، أو يعاد عليه ضميران يراد بثانيهما غير ما يراد بأولهما. يُنظر: الهاشمي، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، ص: 301.

(5) السمين، الدر المصون: 8/ 597، والآلوسي، روح المعاني: 10/ 185.

الإيتاءُ مُشعِرٌ بأنَّ المُعطَى مرغوبٌ فيهِ

سرُّ التَّعبيرِ بالإيتاءِ دونَ الإعطاءِ:

عُبِّرَ بالإيتاءِ دونَ الإعطاءِ في قولِهِ جلَّ ذكرُهُ: ﴿وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ﴾؛ لأنَّ الإيتاءَ وإنْ كانَ بمعنى الإعطاءِ إلّا أنَّه مُشعِرٌ بأنَّ المُعطى مرغوبٌ فيهِ، وهو مُستعمَلٌ في لازمِهِ، وهو النَّوْلُ[1]، بينما الإعطاء: هو اتِّصال الشيء إلى الآخذ له، ثم كثر استعمال الإعطاء، حتى صار لا يُطلق إلّا على التَّمليك، فيقال: أعطاه مالًا؛ إذا ملَّكه إيّاه، وهو دليل التملُّك دون الإيتاء[2].

سَعَةُ العيشِ ورخاؤُه آلةُ التَّمكينِ في الملكِ

نكتةُ التَّعبيرِ بما لم يسمَّ فاعله ﴿وَأُوتِيَتۡ﴾:

بُنيَ الفعلُ (أوتيَ) للمفعولِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ﴾؛ لأنَّهُ لمّا كانَتْ قد أوتيَتْ مِنْ كلِّ ما يحتاجُ إليهِ الملوكُ أمرًا كبيرًا؛ قيلَ: ﴿وَأُوتِيَتۡ﴾ بالبناءِ للمفعولِ؛ إيذانًا بأنَّها معَ مُلْكِها مربوبةٌ[3]، ولأنَّهُ لا يتعلَّقُ الغرضُ بتعيينِ أسبابِ ما نالَتْهُ، بلِ المقصودُ ما نالَتْهُ، على أنَّ الوسائلَ والأسبابَ شتَّى، فمنهُ ما كانَ إرثًا مِنَ المُلوكِ الَّذينَ سبقوها، ومنهُ ما كانَ كَسْبًا مِنْ كَسْبِها واقتنائِها، ومنهُ ما وهبَها اللّهُ مِنْ عقلٍ وحكمةٍ، وما منحَ بلادَها مِنْ خِصْبٍ ووفرةِ مياهٍ، فليسَ المرادُ خصوصَ ما آتاها اللّهُ في أصلِ خِلْقتِها وخِلْقةِ أُمَّتِها وبلادِها، ولذلكَ لم يتعيَّنِ الفاعلُ عُرْفًا، وكلٌّ مِنْ عندِ اللّه[4]، وللإشارةِ أيضًا إلى أنَّ قومَها آتَوْها أمرَهم، ووضعوا رقابَهم تحتَ سلطانِها[5].

ويُحتملُ أنْ يكونَ بناءُ الفعلِ للمفعولِ؛ للاستغناءِ عن ذكرِ الفاعلِ؛ إذ المُؤتي هو اللّهُ تعالى، ولا يُتصوَّرُ غيرُهُ، وفي ذلكَ تفخيمٌ لِما أوتيَتْ.

عُمومُ كُلِّ شَيْءٍ عُمومٌ عُرْفيٌّ

نوعُ ﴿مِن﴾ ودلالتها البلاغيَّة:

كلمةُ ﴿مِن﴾ في قولِ الحقِّ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ﴾

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 252.

(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 86.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 151.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 253.

(5) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5447.

ابتدائيَّةٌ، فتفيدُ أنَّ ابتداءَ الإيتاءِ هو كلُّ شيءٍ، ولو جُعِلَت للتَّبعيضِ؛ لكانَ قولُهُ: ﴿كُلِّ شَيۡءٍ﴾ مُخصَّصًا أيضًا، كما هو في قولِهِ تعالى: ﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيۡءٍۖ﴾ [النمل: 16][1]، والمعنى: وأوتيتَ بعضَ كلِّ شيءٍ.

دلالةُ التَّعبيرِ بقولِهِ تعالى: ﴿مِن كُلِّ شَيۡءٍ﴾:

المبالغةُ في المؤْتَى لِهَوْلِ المَرْئيِّ

قولُهُ تعالى: ﴿وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٍ﴾ معناهُ: مِنْ كلِّ شيءٍ مِنَ الأشياءِ الَّتي تحتاجُها الملكةُ، فيكونُ في التَّعميمِ مبالغةٌ[2]، وتهويلٌ لِما رأى مِنْ أمرِها[3]، وإفادةُ كثرةِ ما أوتيَتْ[4]، أو أنَّها أوتيَتْ مِنْ كلِّ شيءٍ في زمانِها شيئًا، فحُذِفَ المفعولُ؛ لأنَّ الكلامَ دلَّ عليهِ[5]، والحاصلُ: أنَّ عُمومَ ﴿كُلِّ شَيۡءٍ﴾ عُرْفيٌّ، أي: أوتيَتْ كلَّ ما تحتاجُ إليهِ مِنْ خِصالِ المُلوكِ ومِنْ ذخائرِهم وعُدَدِهم وجُيوشِهم وثراءِ ممالِكِهم وزُخْرُفِها ونحوِ ذلكَ مِنَ المحامدِ والمحاسنِ[6]، وهو عامٌّ مخصوصٌ بالعقلِ؛ لأنَّها لم تُؤْتَ ما أوتيَهُ سليمانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ[7].

بلاغةُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿شَيۡءٍ﴾:

إبهامُ المُؤْتَى إشعارٌ بمدَى كثرتِه وعظمتِه

عُبِّرَ بلفظِ ﴿شَيۡءٍ﴾ في قولِ الحقِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٍ﴾؛ لِما فيهِ مِنَ التَّعميمِ المناسبِ لمقامِ تهويلِ شأنِ ملكِها، ويُؤيِّدُهُ إضافةُ لفظِ العُمومِ ﴿كُلِّ﴾ إليهِ؛ لأنَّ في لفظِ ﴿شَيۡءٍ﴾ إبهامًا يُشعِرُ بأنَّ المُؤْتَى مَهولٌ، وفي تنكيرِهِ تعظيمٌ يُقوِّي ذلكَ التَّهويلَ، فلفظُ ﴿شَيۡءٍ﴾ مِنْ أسماءِ الأجناسِ العاليةِ العامَّةِ المُتوغِّلةِ في العمومِ، وقد يكونُ بيانُ هذا اللَّفظِ محذوفًا لدلالةِ المقامِ، وهو هنا الدَّلالةُ على مُطلَقِ التَّنويعِ[8].

---

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 374.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 256، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 184.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 151.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 185.
(5) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 184.
(6) ابن باديس، مجالس التذكير، ص: 272، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 253.
(7) السمين، الدر المصون: 8/ 597.
(8) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/ 55، 24/ 109، 27/ 177.

توجيهُ المتشابهِ اللّفظيِّ:

ما أوتيَهُ سليمانُ عليه السلام نُبوَّةٌ وحكمةٌ ومُلْكٌ

قولُه جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ﴾ فيه سؤالٌ، وهو أنَّهُ كيفَ قالَ: ﴿وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ﴾، معَ قولِ سليمانَ عليه السلام: ﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيۡءٍۖ﴾ [النمل: 16]، فكأنَّ الهُدْهُدَ سوَّى بينَهما، والجوابُ: أنَّ قولَ سليمانَ عليه السلام يرجعُ إلى ما أوتيَ مِنَ النُّبوَّةِ والحكمةِ، ثمَّ إلى المُلْكِ وأسبابِ الدُّنيا، وأمّا قولُ الهُدْهُدِ؛ فلم يكنْ يرجع إلّا إلى ما يتعلَّقُ بالدُّنيا[1].

إعرابُ جملةِ: ﴿وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ﴾:

احتمالُ الجملةِ أوجهًا مِنَ الإعرابِ

جملةُ: ﴿وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ﴾ يجوزُ أنْ تكونَ مستقلَّةً بنفسِها سيقَتْ للإخبارِ بها، ويجوزُ أنْ تكونَ معطوفةً على ﴿وَأُوتِيَتۡ﴾، أو جاءت حالًا مِنْ مرفوعِ ﴿وَأُوتِيَتۡ﴾، وعلى جميعِ الوجوهِ فالجملةُ ترسيخٌ لبيانِ عظمةِ مُلكِها وسَعَتِه، وإتمامٌ لتهويلِ ما أوتيَتْ وتنوُّعِه.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالجملةِ الاسميَّةِ:

الدَّلالةُ على دوامِ كونِ العَرْشِ لها

عُبِّرَ بالجملةِ الاسميَّةِ في قولِ الحقِّ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ﴾؛ للدَّلالةِ على دوامِ كونِ العَرْشِ لبِلْقيسَ، بخلافِ سائرِ ما أوتيَتْ[2]، ويجوزُ أنْ يكونَ التَّعبيرُ بالاسميَّةِ؛ للدَّلالةِ على تحقُّقِ كونِ العَرْشِ العظيمِ لها وتقرُّرِه، ومقامُ المبالغةِ يناسبُهُ ذلكَ.

علَّةُ تقديمِ الجارِ والمجرورِ:

العَرْشُ العظيمُ الشَّأنِ مختصٌّ ببِلْقيسَ

قُدِّمَ ﴿وَلَهَا﴾ على ﴿عَرۡشٌ عَظِيمٞ﴾ في قولِ الحقِّ جلَّ ذكرُهُ: ﴿وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ﴾؛ للعِنايةِ بالمُقدَّم، وهو كونُ شيءٍ لها، وللتَّشويقِ للمُؤخَّرِ - وهو العَرْشُ العظيمُ الشَّأنِ - ولإفادةِ الاختصاصِ[3]، أي: ولها لا لغيرِها عَرْشٌ عظيمٌ.

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 361، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 24/ 551.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 374.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5447.

التَّنبيهُ على نفاسةِ العَرْشِ وعِظَمِ شأنِهِ

سرُّ تخصيصِ العَرْشِ بالذِّكرِ:

خُصَّ ذِكر العَرْش في قوله جلَّ وتبارك: ﴿وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ﴾ مِنْ بينِ نفائسِ الأشياءِ الَّتي أوتيَتْها بِلْقيسُ، معَ دخولِهِ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ﴾؛ لأنَّ عَرْشَها كانَ عَرْشًا بديعًا[1]، ذا أُبَّهةٍ ورَوْنَقٍ وإشعارٍ بِعِظَمِ السُّلطانِ[2].

عَرْشُ بِلْقيسَ عظيمُ الشَّأنِ يناسبُ سَعَةَ المُلْكِ

سرُّ تنكيرِ لفظِ ﴿عَرۡشٌ﴾:

نُكِّرَ ﴿عَرۡشٌ﴾ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ﴾؛ لتعظيم شأنِ العَرْشِ وتفخيمِهِ، أي: ولها عَرْشٌ بديعُ الشَّأنِ عجيبُهُ، لم أرَ مِثْلَهُ قطُّ في كِبَرِهِ وحُسْنِهِ[3].

استُعظِمَ العرش لنفاسته واستصغار ملك بلقيس نسبة إلى ملك سليمان

نكتةُ وصفِ العَرْشِ بالعظَمةِ:

وُصِفَ العَرْشُ بالعظَمةِ في قولِهِ جلَّ وتبارك: ﴿وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ﴾؛ للإشارةِ إلى عِظَمِ القَدْرِ والنَّفاسةِ في ضخامةِ الهيكلِ والذّاتِ[4]، وقد يقالُ: كيفَ استعظمَ الهُدْهُدُ عَرْشَ بِلْقيسَ، معَ ما كانَ يَرَى مِنْ مُلْكِ سليمانَ عليه السلام؟.

والجوابُ: أنَّهُ يجوزُ أنْ يستصغرَ حالَها إلى حالِ سليمانَ عليه السلام، فاستعظمَ لها ذلكَ العَرْشَ، يعني: أنَّهُ استصغرَ حالَها أنْ يكونَ لها مِثْلُ هذا العَرْشِ، ويجوزُ ألّا يكونَ لسليمانَ عليه السلام مِثْلُهُ؛ وإنْ عَظُمَتْ مملكتُهُ في كلِّ شيءٍ، كما يكونُ لبعضِ أُمَراءِ الأطرافِ شيءٌ لا يكونُ مِثْلُهُ للملكِ الَّذي يملكُ عليهِم أمرَهم، ويستخدمُهم[5]، وأيًّا ما كانَ؛ فوصفُهُ بذلكَ بينَ يديهِ عليه السلام؛ لترغيبِهِ عليه السلام في الإصغاءِ إلى حديثِهِ، وتوجيهِ عزيمتِهِ نحوَ تسخيرِها[6].

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 151، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 253.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 151، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 253.
(3) ابن باديس، مجالس التذكير، ص: 272.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 256، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 253.
(5) الزمخشري، الكشاف: 3/ 360، وأبو حيان، البحر المحيط: 8/ 227.
(6) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 281.

❁ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

(أبصر) و(رأى) و(وجد):

أبصرَ الهدهدُ بالعينِ، وأدركَ بالبصيرةِ، فأحسنَ نقلَ الخبرِ

فعلُ (أبصرَ) يُقالُ للجارحةِ النّاظرةِ، نحوُ قولِهِ تعالى: ﴿وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُۚ﴾ [سورة النحل: 77]، ويقالُ للقوَّةِ الَّتي في الجارحةِ النّاظرةِ، وقد يُطلَقُ على البصيرةِ؛ وهي الإدراكُ الَّذي في القلبِ[1].

وفعلُ (رأى) لفظٌ مُشترَكٌ بينَ مَعانٍ، يأتي بمعنى: (أبصرَ)، وبمعنى: (علمَ)، وبمعنى: (ظنَّ)، وبمعنى: (حَلَمَ) في المنامِ، وبمعنى: (ضربَ رئتَهُ)، فهو على أضربٍ بحسَبِ قوَى النَّفْسِ: بالحاسَّةِ، والوهمِ والتَّخيُّلِ، والتَّفكُّرِ، والعقلِ[2].

أمّا فعلُ (وجدَ)؛ فيدلُّ على وجودٍ بالبصرِ والبصيرةِ، ولذلكَ وردَ في تعبيرِ الهُدْهُدِ؛ إذ كانَ منهُ مشاهدةٌ بالبصرِ، واعتبارٌ لحالِ بِلْقيسَ بالبصيرةِ، ولولا ذلكَ لم يكنْ لهُ أنْ يحكمَ بقولِهِ: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا﴾ الآيةَ[3].

الإيتاءُ والإعطاءُ:

الإيتاءُ أقوى مِنَ الإعطاءِ

فُرِّقَ بينَ الإيتاءِ والإعطاءِ مِنْ وجوهٍ:

منها: أنَّ في الإعطاءِ دليلَ التَّملُّكِ دونَ الإيتاءِ، ويُؤيِّدُهُ قولُهُ سبحانَهُ: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ١﴾ [الكوثر: 1]؛ فإنَّ لهُ منعَ مَنْ شاءَ منهُ كالمالكِ للملْكِ، وأمّا القرآنُ، فحيثُ إنَّ أمَّتَهُ مُشاركونَ لهُ في فوائدِهِ؛ قالَ تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ ٨٧﴾ [الحجر: 87][4].

ومنها: أنَّ الإيتاءَ أقوى مِنَ الإعطاءِ في إثباتِ مفعولِهِ؛ لأنَّ

(1) الراغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (بصر).
(2) الراغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (رأى).
(3) الراغب، المفردات: (وجد).
(4) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 86.

الإعطاءَ لهُ مُطاوِعٌ، تقولُ: أعطاني، فعَطَوْتُ، ولا يقالُ في الإيتاءِ: آتاني، فأتيتُ، وإنَّما يقالُ: آتاني، فأخذتُ، والفعلُ الَّذي لهُ مُطاوِعٌ أضعفُ في إثباتِ مفعولِهِ مِنَ الفعلِ الَّذي لا مُطاوِعَ لهُ.

ومنها: أنَّ الإيتاءَ أقوى مِنَ الإعطاءِ؛ لأنَّ الإيتاءَ يُستعمَلُ في الأشياءِ العظيمةِ، كالقرآنِ، والحكمةِ، والمُلْكِ[1].

ولمّا كانَ مُلكُ بِلْقيسَ هائلًا، يُثيرُ العَجَبَ والدَّهشةَ، وكانَ قومُها مشاركينَ لها في الانتفاعِ بهِ؛ عُبِّرَ بلفظِ الإيتاءِ الدّالِّ على الأشياءِ العظيمةِ، ومنها المُلْكُ.

(1) زيدان، الفروق اللغوية في القرآن الكريم، ص: 248.

﴿وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ ٢٤﴾

[النمل: 24]

مُناسَبَةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

بيانُ الشُّؤونِ الدّينيَّةِ بعدَ بيانِ الشُّؤونِ الدُّنيويّةِ

لَمّا أخبرَ الهُدْهُدُ سليمانَ عليه السلام بخبرِ مُلْكِ بِلْقيسَ وعَرْشِها؛ لم يلتفتْ سليمانُ عليه السلام لذلكَ؛ لأنَّهُ مُعْرِضٌ عن أمورِ الدُّنيا، وقد آتاهُ اللّهُ مِنْ كلِّ شيءٍ، فانتقلَ الهُدْهُدُ إلى الإخبارِ بما يتعلَّقُ بأمورِ الدّينِ، لهزِّ سليمانَ عليه السلام لطلبِ هذهِ المَلِكةِ، ودعائِها إلى الإيمانِ، فقالَ: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الآيةَ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَزَيَّنَ﴾: (زين) أصلٌ يدلُّ على حُسْنِ الشَّيءِ وتحسينِهِ، فالزَّيْنُ نقيضُ الشَّيْنِ، ويقالُ: زيَّنتُ الشَّيءَ تزييناً[2]، والزّينةُ ثلاثٌ: زينةٌ نفسيَّةٌ، كالعِلمِ والاعتقاداتِ الحسنةِ، وزينةٌ بدنيَّةٌ، كالقوَّةِ وطولِ القامةِ، وزينةٌ خارجيَّةٌ، كالمالِ والجاهِ، وقد نسبَ اللّهُ تعالى التَّزيينَ في مواضعَ مِنَ القرآنِ إلى نفسِهِ، وفي مواضعَ إلى الشَّيطانِ، وفي مواضعَ ذكرَهُ غيرَ مُسمًّى فاعلُهُ[3]، والتَّزيينُ في الآيةِ بمعنى التَّحسينِ[4].

2) ﴿فَصَدَّهُمۡ﴾: (صدّ) مُعظَمُ هذا البابِ يَؤولُ إلى إعراضٍ وعُدولٍ[5]، وهو المراد بالآية. والصُّدودُ والصَّدُّ قد يكونُ انصرافًا

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 228، والمراغي، تفسير المراغي: 19/ 132.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سبل).
(3) الراغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (زين).
(4) ابن باديس، مجالس التذكير، ص: 274.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صد).

عنِ الشَّيءِ وامتناعًا، كما في قولِه تعالى: ﴿يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ۝٦١﴾ [النساء: 61]، وقد يكونُ صَرْفًا ومَنْعًا، نحوُ: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾، والصَّدُّ مِنَ الجبلِ: ما يَحولُ، والصَّديدُ: ما حالَ بينَ اللَّحْمِ والجِلْدِ مِنَ القَيْحِ[1].

3) ﴿ٱلسَّبِيلِ﴾: (سبل) أصلٌ يدلُّ على إرسالِ شيءٍ مِنْ عُلْوٍ إلى سُفْلٍ، وعلى امتدادِ شيءٍ، فمِنَ الأوَّلِ قولُكَ: أسبلتُ السِّتْرَ، وأسبلَتِ السَّحابةُ ماءَها وبمائِها، ومِنَ الثّاني يقالُ: أسبلَ الزَّرعُ؛ إذا خرجَ سُنْبُلُه، وامتدَّ طولًا[2]، والسَّبيلُ: الطَّريقُ الَّذي فيهِ سُهولةٌ، وجمعُهُ: سُبُلٌ، كما في قولِهِ سبحانَهَ: ﴿وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا﴾ [النحل: 15]، ويقالُ لسالكِ السَّبيلِ: سابلٌ، وجمعُهُ: سابلةٌ، ويُستعمَلُ السَّبيلُ لكلِّ ما يُتوصَّلُ بهِ إلى شيءٍ خيرًا كانَ أو شرًّا[3]، ومعنى السَّبيلِ في الآيةِ: هو الطَّريقُ الوحيدُ المعهودُ للنَّجاةِ، وهو توحيدُ اللهِ[4].

4) ﴿لَا يَهْتَدُونَ﴾: (هدي) أصلانِ: أحدُهما: بِعْثةُ لُطْفٍ، والآخرُ: التَّقدُّمُ للإرشادِ[5]، فمِنَ الأوَّلِ: الهديَّةُ: وهي ما أهديتَ مِنْ لُطْفٍ إلى ذي مودَّةٍ، يقالُ: أهديتُ أُهدي إهداءً، والهَدْيُ والهَديُّ: ما أُهديَ مِنَ النَّعَمِ إلى الحَرَمِ قُرْبةً إلى اللهِ تعالى، ومِنَ الثّاني قولُهم: هديتُهُ الطَّريقَ هدايةً، أي: تقدَّمتُهُ؛ لأُرشِدَهُ[6]، والهدايةُ: دلالةٌ بلُطفٍ، ومنهُ: هَوادي الوَحْشِ، أي: مُتقدِّماتُها الهاديةُ لغيرِها[7].

وهدايةُ اللهِ تعالى للإنسانِ على أوجهٍ، منها: الهدايةُ الَّتي جعلَ للنّاسِ بدعائِهِ إيّاهم على ألسنةِ الأنبياءِ، وبإنزالِ القرآنِ، ونحوِ ذلكَ، وهو المقصودُ بقولِهِ تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ [السجدة: 24][8]، ومعنى ﴿لَا يَهْتَدُونَ﴾ في الآيةِ: لا يكونُ منهُم سُلوكٌ في طريقِ الحقِّ والسَّدادِ[9].

---

(1) الراغب، المفردات: (صدد).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سبل).
(3) الراغب، المفردات: (سبل).
(4) ابن باديس، مجالس التذكير، ص: 274.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، والجوهري، الصحاح، والزبيدي، تاج العروس: (هدي).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (هدي).
(7) السمين، عمدة الحفاظ، والزبيدي، تاج العروس: (هدي).
(8) الراغب، المفردات: (هدي).
(9) ابن باديس، مجالس التذكير، ص: 274.

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ الهُدْهُدُ: وجدتُ هذهِ المرأةَ مَلِكةَ سبأٍ وقومَها يسجدونَ للشَّمسِ، فيعبدونَها مِنْ دونِ اللهِ، وحسَّنَ لهُم إبليسُ عبادتَهم الشَّمسَ، وسجودَهم لها مِنْ دونِ اللهِ، وحبَّبَ ذلكَ إليهم، فمنعَهم بذلكَ أنْ يَتَّبِعوا الطَّريقَ المستقيمَ، وهو دينُ اللهِ الَّذي بعثَ بهِ أنبياءَهُ ﷺ، فهُم لا يهتدونَ لسبيلِ الحقِّ، ولا يسلكونَهُ، ولكنَّهم في ضلالِهم الَّذي هم فيهِ يتردَّدونَ(1).

مِنْ آثارِ اتِّباعِ إبليسَ عبادةُ الشَّمسِ مِنْ دونِ اللهِ تعالى

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الفصلِ في الآيةِ:

قولُهُ ﷻ: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ كلامٌ مستأنفٌ، جيءَ بهِ للتَّعجُّبِ مِنْ شأنِ بِلْقيسَ وقومِها في عبادتِهم الشَّمسَ مِنْ دونِ اللهِ(2)، قال الآلوسي: "الظاهر أنَّ هذه الجملة استئناف كلام، وأنَّ الوقف على (عَظيمٌ)"(3)، ويجوزُ أنْ يكونَ الاستئنافُ للبيانِ؛ جوابًا على تقديرِ سؤالٍ، فالكلامُ السّابقُ بيَّنَ حالتَها مِنْ ناحيةِ الدُّنيا، فتشوَّقَتْ نفسُ السّامعِ إلى معرفةِ حالتِها مِنْ ناحيةِ الدّينِ(4).

المقابلة بين حالِ دنياها وعجيب أمرها، وحالها في أمر دينها

سرُّ تكرارِ فعلِ الوجدانِ ماضيًا:

أعقبَ الهُدْهُدُ في قولِهِ: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ التَّنويهَ بشأنِها بالحطِّ مِنِ اعتقادِهم؛ إذ هم يعبدونَ الشَّمسَ، ولأجلِ الاهتمامِ بهذا الخبرِ أُعيدَ فعلُ ﴿وَجَدتُّهَا﴾؛ إنكارًا لكونِهم يسجدونَ للشَّمسِ، فذلكَ مِنِ انحطاطِ العقليَّةِ الاعتقاديَّةِ، فكانَ انحطاطُهم في الجانبِ الغيبيِّ مِنَ التَّفكيرِ الَّذي لا يُستعانُ فيهِ بالأدلَّةِ المحسوسةِ(5).

أحطُّ الاعتقادِ عبادةُ شمسٍ تغيبُ وتُشرِقُ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 447.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 151.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 185.
(4) ابن باديس، مجالس التذكير، ص: 243.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 253.

وعُبِّرَ بصيغةِ الماضي في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ الوجدانَ أمرٌ قد تحقَّقَ، ووقعَ، وثبتَ، فلا شكَّ فيهِ ولا امتراءَ.

ما وجدَهُ الهُدْهُدُ أمرٌ واقعٌ لا مِراءَ فيهِ

نكتةُ عطفِ قولِهِ سبحانَهُ: ﴿وَقَوۡمَهَا﴾:

عُطِفَ قولُهُ تعالى: ﴿وَقَوۡمَهَا﴾ على ضميرِ الهاءِ المنصوبِ الرّاجع إلى بِلْقيسَ، في قولِهِ تعالى: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ للدَّلالةِ على تمكُّنِ الضَّلالِ مِنْ بِلْقيسَ وقومِها، وأنَّهُ غيرُ مقصورٍ عليها، بل هو عقيدةٌ لها ولقومِها، أي: وجدتُها وقومَها كلَّهم على ضلالٍ كبيرٍ[1].

الإشارةُ إلى تمكُّنِ الضَّلالِ مِنْ بِلْقيسَ وقومِها

نكتةُ إضافةِ القومِ إلى بِلْقيس:

أُضيفَ القومُ إلى ضميرِ بِلْقيسَ في قولِ الحقِّ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ لأنَّ انتسابَها إليهم، فهي مِنْ أبناءِ جِلْدتِهم؛ ولأنَّهم مملوكونَ لها، وخاضعونَ لحُكْمِها، وفي هذهِ الإضافةِ أيضًا تجليةٌ لدلالةِ فعلِ ﴿تَمۡلِكُهُمۡ﴾ في الآيةِ السّابقةِ.

إضافتُهم إليها؛ لكونِها منهُم، ولكونِهم مملوكينَ لها

إعرابُ جملةِ ﴿يَسۡجُدُونَ﴾:

فعلُ (وجدتُ) في قولِهِ جلَّ شأنُهُ: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ بمعنى: لَقيتُ، وأصبتُ، فيتعدَّى لواحدٍ، فيكونُ قولُهُ: ﴿يَسۡجُدُونَ﴾ حالًا مِنْ مفعولِهِ وما عُطِفَ عليهِ[2]، وفي هذهِ الحالِ تنبيهٌ على أنَّ الهُدْهُدَ قد وجدَهم على أقبحِ حالٍ وأشنعِهِ، وهو حالُ السُّجودِ للشَّمسِ مِنْ دونِ اللهِ.

وجدانُ الهُدْهُدِ لهُم على أقبحِ حالٍ

نكتةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ ﴿يَسۡجُدُونَ﴾:

عُبِّرَ بصيغةِ المضارعِ في قولِ الحقِّ جلَّتْ أسماؤُهُ: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ

تجدُّدُ السُّجودِ دليلُ رُسوخِ المُعتقَدِ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 152.

(2) السمين، الدر المصون: 8/ 598.

سجودَهم للشَّمسِ مِنْ دونِ اللّهِ أمرٌ مُستمِرٌّ مُتجدِّدٌ، فهو عقيدةٌ لهُم يتمسَّكونَ بها.

ويحتملُ أنْ يكونَ التَّعبيرُ بالمضارعِ؛ لتصويرِ الحالِ الَّذي وجدَهم الهُدْهُدُ عليهِ، والغرضُ مِنْ تصويرِهِ تقبيحُهُ والتَّعجيبُ منهُ.

معنى اللّامِ ودلالتها:

اختصاصُهم الشَّمسَ بالسُّجودِ

اللّامُ الجارَّةُ في قولِهِ تعالى: ﴿يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ هي لامُ التَّعديةِ؛ لأنَّها مُتعلِّقةٌ بالفعلِ، وفيها معنى الاختصاصِ، أي: يختصّونَ الشَّمسَ بالسُّجودِ.

نوعُ التَّعريفِ في لفظِ (الشَّمسِ):

سجودُهم كانَ للشَّمسِ المعهودةِ

المرادُ بالشَّمسِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ﴾ الشَّمسُ المعروفةُ، وعليهِ يكونُ تعريف ﴿لِلشَّمۡسِ﴾ للعهدِ؛ إذ ليسَ في الوجودِ إلّا شمسٌ واحدةٌ، ولا ينصرفُ الذِّهنُ إلى غيرِها.

نوعُ ﴿مِن﴾ ومعناها:

سجودُهم للشَّمسِ بدلَ اللهِ

﴿مِن﴾ في قولِ اللّهِ جلَّ وعزَّ: ﴿يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ للابتداءِ، والمعنى: يسجدونَ للشَّمسِ مُبتدِئينَ ذلكَ مِنْ دونِ اللّهِ[1]، ويحتملُ أنْ تكونَ ﴿مِن﴾ للبدليَّةِ، أي: يسجدونَ للشَّمسِ بدلَ اللّهِ سبحانَهُ.

سرُّ التعبيرِ بمفردةِ ﴿دُونِ﴾ مادَّةً وصيغةً:

تجاوزُ عبادةِ الخالقِ الأعلى إلى عبادةِ المخلوقِ الأدنى

(دونَ) يقالُ في الأصلِ للقاصرِ عن الشَّيءِ، وهو مقلوبٌ مِنَ الدُّنوِّ، والأدوَنُ: الدَّنيءُ، وأصلُ المادَّةِ في اللُّغةِ يدورُ حولَ الغيريَّةِ معَ التَّسفُّلِ، أي: مغايرة شيءٍ معَ تسفُّلِهِ، فيُفهَمُ منها الخِسَّةُ والضَّعفُ والهَوانُ، وقولُهُ تعالى ذكرُهُ: ﴿يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ معناهُ: يعبدونَها مُتجاوِزينَ عِبادةَ اللّهِ تعالى إلى عبادةِ الشَّمسِ[2]،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 152.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 281، وابن باديس، مجالس التذكير، ص: 243.

أي: لا يعبدونَهُ وحدَهُ ولا معَها[1]، وإنَّما يعبدونَ مَنْ يوصَفُ بالضَّعفِ والهَوانِ.

سرُّ التَّعبيرِ بلفظِ الجلالةِ:

ملاءمةُ لفظِ الجلالةِ لسياقِ التَّعجُّبِ مِنَ الشِّركِ

عُبِّرَ بلفظِ الجلالةِ في قولِ الحقِّ سبحانه: ﴿يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ لأنَّ السّياقَ للتَّعجُّبِ مِنْ شِرْكِ بِلْقيسَ وقومِها، والإنكارِ عليهم، وإيرادُ لفظِ الجلالةِ مُناسِبٌ لهذا المقام، مِنْ حيثُ إنَّهم أشركوا باللهِ المُستحِقِّ للأُلوهيَّةِ والإفرادِ بالعِبادةِ، والمعنى: يسجدونَ للشَّمسِ مِنْ دونِ اللهِ المُتَّصفِ بصفاتِ الجلالِ والكمالِ، الَّذي لا مِثْلَ لهُ، معَ أنَّ الشَّمسَ مخلوقٌ مِنْ مخلوقاتِهِ[2].

إعرابُ جملةِ: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾:

المشركونَ زيَّنَ لهمُ الشَّيطانُ أعمالَهم فاستوجبوا التعريضَ بهم

قولُهُ سبحانَهُ: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ يحتملُ العطفَ على ﴿يَسۡجُدُونَ﴾[3]، والماضي هنا والمضارعُ هناكَ؛ لأنَّ السُّجودَ مستقبلٌ بالقياسِ إلى التَّزيينِ[4]، فلا يسجد هؤلاء القوم مع ملكتهم ما لم يكن قد وقع لهم تزيينٌ لهذ الفعل، ويحتملُ الحاليَّةَ بتقديرِ (قد)[5]، وعلى الوجهينِ يكونُ هذا مِنْ جملةِ الكلامِ الَّذي أُلقيَ على لسانِ الهُدْهُدِ.

ويحتملُ أنَّهُ كلامٌ آخرُ ليسَ مِنْ كلامِ الهُدْهُدِ، ذُيِّلَ بهِ الكلامُ المُلقَى إلى سليمانَ ﵇، فالواوُ للاعتراضِ بينَ الكلامِ المُلقَى لسليمانَ ﵇ وبينَ جوابِ سليمانَ، والمقصودُ التَّعريضُ بالمشركينَ[6].

بلاغةُ التَّعبيرِ بـ ﴿وَزَيَّنَ﴾ صيغةً ومعنًى:

الإيمانُ فطرةٌ إنسانيَّةٌ لولا تزيينُ الشيطانِ، فاستحسن ما ليسَ بحسنٍ

عُبِّرَ بصيغةِ الماضي في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ تزيينَ الشَّيطانِ لهُم أعمالَهم أمرٌ قد

---

(1) أطفيش، تفسير أطفيش: 7/ 286.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 152.
(3) الخفاجي، عناية القاضي: 7/ 41.
(4) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 375.
(5) الخفاجي، عناية القاضي: 7/ 41.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 254.

تحقَّقَ، ووقعَ، وثبتَ، وضربَ بجرانِهِ في الزَّمنِ الماضي، فلا مجالَ للشَّكِّ والارتيابِ فيهِ.

وأُتي بلفظِ التَّزيينِ؛ للإشارةِ إلى أنَّ ما زيَّنَهُ لهُم الشَّيطانُ ليسَ بحسنٍ في الواقعِ، بل هو قبيحٌ، وإنَّما استحسنوهُ بجهلٍ منهُم، والمعنى: وزيَّنَ لهُم الشَّيطانُ عِبادةَ الشَّمسِ وغيرَها مِنْ أعمالِهم القبيحةِ[1].

نكتةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ:

الاهتمامُ بالمُقدَّمِ والتَّشويقُ للمُؤخَّرِ

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ ﴿لَهُمُ﴾ في قولِهِ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾؛ للعِنايةِ بالمُقدَّمِ، وهو كونُ التَّزيينِ لهُم، وللتَّشويقِ للمُؤخَّرِ، وهو كونُ المُزيِّنِ الشَّيطانَ، والمُزيَّنِ أعمالهم القبيحة.

دلالةُ التعريفِ بـ (أل) في قوله: ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾:

إبليسُ سببُ التَّزيينِ والضَّلالِ

التعريف بـ (أل) في قولِهِ جلَّ وتباركَ: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾: للعهد، ويكون المُرادُ إبْليسَ، وهوَ أَصْلُ الشَّياطينِ وآمِرُهُمْ، فَكُلُّ ما يَنْشَأُ مِنْ وسْوَسَةِ الشَّياطينِ؛ فَهوَ راجِعٌ إلَيْهِ، أو لِلجِنْسِ فيشمل الشيطان وأعوانه.

نكتةُ الإضافةِ في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾:

تأكيدُ نسبةِ الأعمالِ إليهم

أُضيفَتِ الأعمالُ إلى الضَّميرِ الرّاجِعِ إلى بِلْقيسَ وقومِها في قولِ اللّهِ تعالى ذكرُهُ: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ لتأكيدِ نسبةِ الأعمالِ المُزيَّنةِ إليهم، وفي ذلكَ مزيدُ ملاءمةٍ لسياقِ التَّعجُّبِ والتَّقبيحِ.

يضافُ إلى ذلكَ أنَّ في الإضافةِ اختصارًا؛ لأنَّها تُغني عن أنْ يُقالَ: وزيَّنَ لهُم الشَّيطانُ عبادتَهم للشَّمسِ وكذا وكذا مِنْ أصنافِ الكفرِ والمعاصي.

سرُّ التَّعبيرِ بصيغةِ الجمعِ في ﴿أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾:

الإشارةُ إلى شُمولِ التَّزيينِ لجميعِ أعمالِهم

عُبِّرَ بصيغةِ الجمعِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ

---

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 158.

﴿أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾، ولم يقل: (وزيَّنَ لهُم الشَّيطانُ عملَهم)؛ لقصدِ شُمولِ التَّزيينِ لجميعِ أعمالِهم، وأنَّهُ غيرُ واقعٍ على بعضِها دونَ بعضٍ، وفي ذلكَ مزيدُ مبالغةٍ في استيلاءِ الشَّيطانِ عليهم، فلم يبقَ عملٌ مِنْ أعمالِهم خارجًا عن سَطْوةِ تزيينِه، فيكونُ هذا التَّعميمُ قد طبَّقَ المَفْصِلَ، وطابقَ مقامَ التَّعجُّبِ والتَّقبيحِ.

بلاغةُ إسنادِ التَّزيينِ بين الحقيقة والمجاز:

إسنادُ التَّزيينِ إلى الشَّيطانِ لكونِهِ سببَهُ

إسنادُ التَّزيينِ إلى الشَّيطانِ في قولِ الحقِّ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ مجازٌ باعتبارِ السَّببيَّةِ؛ إذ كانَ الشَّيطانُ هو المُتسبِّبَ في ذلكَ بإقدارِ اللهِ تعالى لهُ[1]، وإلّا فالمُزيِّنُ الحقيقيُّ هو اللهُ ﷻ، وقيل: الإسنادُ إلى الشيطان حقيقيٌّ، قال ابن عاشور: "وإسناده هُنا لِلشَّيْطان حَقيقيٌّ"[2].

معنى الفاءِ في ﴿فَصَدَّهُمۡ﴾:

الشَّيطانُ مُزَيِّنٌ للنّاس بالوَسوَسَةِ الَّتي تَجِدُ قبولًا في نُفوسِهم

الفاءُ في قولِه جلَّ ذكرُهُ: ﴿فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ للسَّببيَّةِ، وهي تفيدُ أنَّهُ قد تسبَّبَ عن تزيينِ الشَّيطانِ لهُم أعمالَهم أنَّهُ أعماهُم عن طريقِ الحقِّ والصَّوابِ[3]، فعدمُ اهتدائِهم مُسبَّبٌ عن صدِّ الشَّيطانِ لهُم، وصدُّهُ مُسبَّبٌ عن تزيينِه لأعمالِهم[4].

علَّةُ التَّعبيرِ عن الصدِّ بصيغةِ الماضي:

صدُّ الشَّيطانِ لهُم أمرٌ مُتيقَّنٌ

عُبِّرَ بصيغةِ الماضي في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّ صدَّ الشَّيطانِ لهُم عن طريقِ الحقِّ والهُدى أمرٌ قد تحقَّقَ، وثبتَ، وصارَ بمنزلةِ صفةٍ مِنْ صفاتِهم الرّاسخةِ، والمعنى: صرفَهم صرفًا شديدًا[5].

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 229، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 375.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 255، وينظر: الطيبي، فتوح الغيب: 11/ 455 - 456.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 152.
(4) ابن باديس، مجالس التذكير، ص: 274.
(5) ابن باديس، مجالس التذكير، ص: 274.

وجهُ التَّعبيرِ بالسَّبيلِ:

طريقُ اللهِ سهلٌ مُيسَّرٌ

المرادُ بالسَّبيلِ في قولِ الحقِّ تقدَّسَتْ أسماؤُهُ: ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ سبيلُ الحقِّ والصَّوابِ[1]، وهو: الطَّريقُ الوحيدُ المعهودُ للنَّجاةِ، وهو توحيدُ اللّهِ[2]، فإنَّ تزيينَ أعمالِهم لا يُتصوَّرُ بدونِ تقويمِ طُرُقِ كفرِهم وضلالِهم، ومِنْ ضرورتِهِ نسبةُ طريقِ الحقِّ إلى العِوَجِ[3].

وفي التَّعبيرِ بالسَّبيلِ - وهو في الأصلِ الطَّريقُ الَّذي فيهِ سهولةٌ - إشارةٌ إلى أنَّ طريقَ الحقِّ والتَّوحيدِ سهلٌ مُيسَّرٌ، ولكنَّهم أوثقوا أنفُسَهم بحبائلِ الشَّيطانِ.

دلالةُ تعريفِ لفظِ ﴿ٱلسَّبِيلِ﴾:

كلُّ طريقٍ غيرِ طريقِ الحقِّ مذمومٌ

اللّامُ في ﴿ٱلسَّبِيلِ﴾ للعهدِ؛ بقرينةِ أنَّ السَّبيلَ الَّذي صدَّهم الشَّيطانُ عنهُ لا يكونُ إلّا سبيلَ الحقِّ والصَّوابِ، وأيضًا بقرينةِ أنَّ هذهِ الجملةَ مُترتِّبةٌ على تزيينِ الشَّيطانِ؛ للمبالغةِ في الذَّمِّ[4]، وفي ذلكَ إشارةٌ إلى أنَّ ما ليسَ بسبيلِ التَّوحيدِ، فليسَ بسبيلٍ يُنتفَعُ بهِ على التَّحقيقِ[5]، والمعنى: فصدَّهم عنِ السَّبيلِ الَّذي لا سبيلَ إلى اللّهِ غيرُهُ، وهو الَّذي بعثَ اللّهُ بهِ أنبياءَهُ ورُسُلَهُ عليهمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ[6]، وجوِّزَ أنْ تكونَ اللّامُ في ﴿ٱلسَّبِيلِ﴾؛ عِوَضًا عنِ المضافِ إليهِ.

بلاغةُ المجازِ في لفظِ ﴿ٱلسَّبِيلِ﴾:

السَّبيلُ إلى اللهِ منجاةٌ مِنَ العذابِ

في قولِهِ تعالى شأنُهُ: ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ استعارةٌ لطيفةٌ، فالسَّبيلُ مُستعارٌ للدّينِ الَّذي باتِّباعِهِ تكونُ النَّجاةُ مِنَ العذابِ، وبُلوغُ دارِ الثَّوابِ[7]، فالسَّبيلُ هُنا: ما يوَصِّلُ إلَى المَطلوبِ الحَقِّ، وهوَ السَّعادَةُ الدّائمَةُ.

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 158.
(2) ابن باديس، مجالس التذكير، ص: 274.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 281.
(4) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 375.
(5) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 185.
(6) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 152.
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 255.

نكتةُ التَّعبيرِ بالجملةِ الاسميَّةِ:

مَنْ رسخَ فيهِ الضَّلالُ لا يُتوقَّعُ هُداهُ

عُبِّرَ بالجملةِ الاسميَّةِ في قولِ الحقِّ جلَّ ذكرُهُ: ﴿فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّهم مِنْ شدَّةِ ضلالِهم أصبحَ شأنُ عدمِ هدايتِهم أشبهَ بالرّاسخِ فيهِم سلوكًا، حتَّى لا يُتوقَّعُ منهُم سلوكٌ في طريقِ الحقِّ والسَّدادِ[1].

سرُّ تقديمِ المسندِ إليه:

تقويةُ الحكمِ عليهِم بعدمِ الاهتداءِ

قُدِّمَ المسندُ إليهِ على الخبرِ الفعليِّ في قوله تعالى: ﴿فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ﴾؛ لتقويةِ الحكمِ[2]، وأتى بفاء السَّببيَّةِ، وهي تُفيدُ أنَّهُ قد تسبَّبَ عن صدِّ الشَّيطانِ لهُم عنِ السَّبيلِ ضلالُهم[3].

ووجهُ التَّقوّي: أنَّ قولَهُ: ﴿فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ﴾ فيهِ نسبةُ عدمِ الاهتداءِ إليهِم، وفي ﴿لَا يَهۡتَدُونَ﴾ ضميرٌ راجعٌ إلى ﴿فَهُمۡ﴾، فيكونُ عدمُ الاهتداءِ قد نُسِبَ إليهِم مرَّتينِ، كأنَّهُ قيلَ: فهُم لا يهتدونَ، فهُم لا يهتدونَ.

نكتةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ المنفي في ﴿لَا يَهۡتَدُونَ﴾:

لا يهتدي إلى الحقِّ إلّا مَنْ شاءَ اللهُ تعالى هدايتَهُ

عُبِّرَ بالمضارعِ المنفيِّ في قولِ اللهِ جلَّ وعزَّ: ﴿فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على استمرارِ انتفاءِ اهتدائِهم؛ لأنَّ المضارعَ يفيدُ الاستمرارَ، وإذا دخلَ عليهِ النَّفيُ؛ أفادَ استمرارَ الانتفاءِ، ويُستثنى مِنْ هذا النَّفيِ المُستمرِّ مَنْ شاءَ اللهُ تعالى لهُ الاهتداءَ بعدَ ذلكَ، كما هو شأنُ بِلْقيسَ.

بلاغةُ الإيجازِ في: ﴿لَا يَهۡتَدُونَ﴾:

مَنْ لا يهتدي إلى سبيلِ اللهِ؛ فهو في ضلالٍ صِرْفٍ

قولُهُ جلَّ ذكرُهُ: ﴿فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ﴾، معناهُ: فهم لا يهتدونَ إلى سبيلِ الحقِّ والصَّوابِ، وقد حُذِفَ مُتعلِّقُ الفعلِ إيجازًا، وإشارةً إلى

(1) ابن باديس، مجالس التذكير، ص: 274.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 375.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 152.

أنَّ مَنْ لم يهتدِ إلى طريقِ الحقِّ والصَّواب؛ فلا ينطبقُ عليهِ وصفُ الاهتداءِ إلى شيءٍ منَ الأشياءِ، أي: لا يوجدُ لهُم هدًى، بل هم في ضلالٍ صِرْفٍ، وعمًى مَحْضٍ[1]، ويضافُ إلى ذلكَ أيضًا أنَّ في هذا الحذفِ مراعاةَ ملاءمةِ فاصلةِ الآيةِ لما قبلَها.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

العملُ والفعلُ والصُّنعُ:

الفعل أعمُّ من العمل، والصنع أخصُّ منهما

فُرِّقَ بينَ العملِ والفعلِ: بأنَّ العملَ: المُثابَرةُ على الشَّيءِ، لا الإتيانُ بِهِ مرَّةً أو بسرعةٍ، قالَ تعالى: ﴿يَعۡمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ﴾ [سبأ: 13]، والفعلَ: الإتيانُ بالشَّيءِ بسرعةٍ مِنْ غيرِ تَوانٍ، قالَ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤﴾ [المؤمنون: 4][2].

والأصلُ في العملِ أنْ يكونَ بقصدٍ، والفعلُ عامٌّ، يَصدُرُ بقصدٍ أو بغيرِ قصدٍ، ويَصدُرُ عنِ العاقلِ وغيرِ العاقلِ، وقلَّما يُنسَبُ العملُ إلى حيوانٍ، وبناءً على ذلكَ يكونُ الفعلُ أعمَّ، والعملُ أخصَّ[3].

وأمّا الصُّنْعُ؛ فهو إجادةُ الفعلِ، ولا يُنسَبُ إلى الحيواناتِ والجماداتِ، وهو أخصُّ مِنَ الفعلِ والعملِ[4].

ولمّا كانَ العملُ دالًّا على القصدِ والمثابرةِ في الأداءِ أوثِرَ اختيارُهُ في سياقِ الآيةِ؛ لمناسبتِهِ جِدَّهم في عبادةِ الشَّمسِ مِنْ دونِ اللّهِ، ويقينَهم بصحَّةِ عملِهم عقيدةً ومنهجَ حياةٍ، ولا يَصلُحُ لهذا المعنى لفظُ الفعلِ الدّالُّ على السُّرعةِ والمرَّةِ الواحدةِ واحتمالِ عدمِ القصدِ، ولا لفظُ الصُّنعِ الدّالُّ على إجادةِ الفعلِ.

الصَّدُّ والمنعُ:

فُرِّقَ بينَ الصَّدِّ والمنعِ: بأنَّ الصَّدَّ هو المنعُ عن قصدِ الشَّيءِ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 152.
(2) النزهي، الفروق اللغوية، ص: 55.
(3) الراغب، المفردات: (عمل) (فعل).
(4) الراغب، المفردات: (صنع).

الصدُّ المنعُ عن قصد الشيء خاصة، والمنعُ أعمُّ

خاصَّةً، ولذلكَ قالَ تعالى: ﴿وَهُمۡ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ [الأنفال: 34]، أي: يمنعونَ النّاسَ عن قصدِهِ، والمنع يكونُ في ذلكَ وغيرِهِ، تقولُ: منعَ الحائطَ عنِ المَيْلِ، ولا تقولُ: صدَّهُ عنِ المَيْلِ؛ لأنَّ الحائطَ لا قصدَ لهُ(1)، ومِنَ المعلوم أنَّ صدَّ الشّيطانِ عن سبيلِ اللّهِ مقصودٌ، ولهذا اصطُفيَ لفظُ الصَّدِّ؛ ليناسبَ منعَهم عن عبادةِ اللّهِ تعالى.

السَّبيلُ والطَّريقُ والمَسْلَكُ:

الطَّريق أعمُّ من السَّبيل، والسبيل أغلب وقوعه في الخير

السَّبيلُ والطَّريقُ يُستعمَلانِ لكلِّ ما يُتوصَّلُ بهِ إلى شيءٍ، خيرًا كانَ أو شرًّا، إلّا أنَّ السَّبيلَ ما تفرَّعَ عنِ الطَّريقِ، ولأنَّ الطَّريقَ عامٌّ، والسَّبيلَ خاصٌّ؛ استُعمِلَ السَّبيلُ؛ ليُعبَّرَ بهِ عن مذهبِ الإنسانِ وحُجَّتِهِ، كما في قولِهِ تعالى: ﴿مَا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ مِن سَبِيلٖ﴾ [التوبة: 91]، وقولِهِ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ﴾ [العنكبوت: 12](2)، وأيضًا السَّبيلُ: اسمٌ يقع على ما يقع عليه الطريق، وعلى ما لا يقع عليه الطريق، تقول: سبيلُ اللّهِ، وطريق اللّهِ، وتقول: سبيلك أن تفعل كذا، ولا تقول: طريقك أن تفعل كذا، ويراد به سبيلُ ما يقصده، فيضاف إلى القاصد، ويراد به القصدُ، وهو كالمحبة في بابه، والطريق كالإرادة، وقد يفرَّق بينهما بأنَّ السبيل أغلبُ وقوعًا في الخير، ولا يكاد اسمُ الطريق يرادُ به الخيرُ إلّا مقترنًا بوصف أو إضافة تخلِّصه لذلك(3).

وأمّا المَسْلَكُ: فهو الطَّريقُ أيضًا، ويدلُّ أصلُهُ على نُفوذِ شيءٍ في شيءٍ، يقالُ: سلكتُ الطَّريقَ أسلكُهُ، وسلكتُ الشَّيءَ في الشَّيءِ: أنفذتُهُ(4)، وهذا المعنى لا يناسبُ الآيةَ.

(1) العسكري، الفروق، ص: 311.
(2) زيدان، الفروق اللغوية في القرآن، ص: 602.
(3) العسكري، الفروق، ص: 313.
(4) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (سلك).

﴿أَلَّا يَسۡجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخۡرِجُ ٱلۡخَبۡءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُخۡفُونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ٢٥﴾ [النمل: 25]

مُناسَبَةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

تعليلُ الضَّلالِ بانتفاءِ السُّجودِ للهِ

لمّا كانَ ضلالُ بِلْقيسَ وقومِها عجبًا في نفسِه، فضلًا عن أنْ يكونَ مِنْ قوم يجمعُهم جامعُ مُلْكٍ مبناهُ السّياسةُ الَّتي مَحطُّها العقلُ، الَّذي هو نورُ الهداية؛ علَّلَهُ بانتفاءِ أعظم مُقرِّبٍ إلى اللهِ تعالى، وهو السُّجودُ تعظيمًا لهُ، فقالَ: ﴿أَلَّا يَسۡجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخۡرِجُ ٱلۡخَبۡءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ الآيةَ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡخَبۡءَ﴾: يدلُّ المعنى المحوريُّ لـ (خبأ) على سَتْرِ الشَّيءِ[2]، والخَبْءُ: كُلُّ شَيْءٍ غائِب مَسْتور، يُقالُ: خَبَأْتُ الشَّيءَ أَخْبَؤُهُ خَبْأً؛ إذا أَخْفَيْتَه، ويقالُ: جاريةٌ مُخبَّأةٌ، أي: مُخدَّرةٌ، وقيلَ في قولِه تعالى: ﴿يُخۡرِجُ ٱلۡخَبۡءَ﴾: الخَبْءُ: كلُّ غائبٍ، وقيلَ: كلُّ مُدَّخَرٍ مستور، وقيلَ: المرادُ السِّرُّ، وقيلَ: خَبْءُ السَّماءِ المطرُ، وخَبْءُ الأرضِ النَّباتُ[3]، وقيلَ: هو كلُّ ما احتوَتْهُ السَّماواتُ والأرضُ ممّا يُبرِزُهُ اللهُ للخلقِ لمنفعتِهم، فتشاهدُهُ العيونُ، كالمطرِ والنَّباتِ، أو تدركُهُ العقولُ، كبدائعِ الخَلْقِ، ودقائقِ الصُّنعِ[4].

2) ﴿تُخۡفُونَ﴾: (خفي) أصلانِ متضادّانِ: أحدُهما: السَّتْرُ، والآخرُ: الإظهارُ؛ فمنَ الأوَّلِ يقالُ: خَفيَ الشَّيءُ يَخْفَى، وأخفيتُهُ، وهو في خُفْيةٍ وخَفاءٍ؛ إذا سترتَهُ.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 152.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خبأ).
(3) السمين، عمدة الحفاظ: (خبأ).
(4) ابن باديس، مجالس التذكير، ص: 275.

ومِنَ الثّاني يقالُ: خَفا البَرْقُ خَفْوًا؛ إذا لمعَ[1]، والخِفاءُ: ما يُستَرُ به كالغِطاءِ[2]، وخَفَيْتُه: أظهرتُه، والاستخفاءُ: طلبُ الإخفاءِ، ومنهُ قولُهُ تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ﴾ [هود: 5][3]، ويُقابَلُ الإخفاءُ بالإبداءِ تارةً، كقولِهِ تعالى: ﴿إِن تُبۡدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَۖ وَإِن تُخۡفُوهَا وَتُؤۡتُوهَا ٱلۡفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ﴾ [البقرة: 271]، وبالإعلانِ أخرى كقولِهِ: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا تُخۡفُونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ﴾[4]، ومعنى ﴿مَا تُخۡفُونَ﴾ في الآيةِ: ما تكتمونَ في أنفسِكم أو عن غيرِكم[5].

3) ﴿تُعۡلِنُونَ﴾: المعنى المحوريُّ لـ(علن): إظهارُ الشَّيءِ والإشارةُ إليهِ وظُهورُهُ[6]، والعلانيةُ: ضدُّ السِّرِّ، وأكثرُ ما يقالُ ذلكَ في المعاني دونَ الأعيانِ، ويقالُ: أعلنتُ كذا، قالَ ﷻ: ﴿ثُمَّ إِنِّيٓ أَعۡلَنتُ لَهُمۡ وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ إِسۡرَارٗا ٩﴾ [نوح: 9]، أي: سِرًّا وعلانيةً، وقالَ: ﴿وَرَبُّكَ يَعۡلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمۡ وَمَا يُعۡلِنُونَ ٦٩﴾ [القصص: 69][7]، ومعنى ﴿وَمَا تُعۡلِنُونَ﴾ في الآيةِ: ما تُظهرونَ للنّاسِ[8].

المَعْنى الإجْماليُّ:

المُستحِقُّ للعبادةِ هو عالِمُ السِّرِّ والعلانيةِ

زيَّنَ لهم الشَّيطانُ مِنْ أعمالِهم عدمَ سجودِهم للهِ، الَّذي أقامَ عليهم الحُجَّةَ، بما يُخرِجُه لهُم مِنَ الخيراتِ المكنونةِ في السَّماواتِ والأرضِ، مِنْ أمطارِ السَّماءِ ونباتِ الأرضِ، ممّا يدلُّ على عظيمِ قدرتِه، ولُطْفِ علمِهِ الَّذي أحاطَ ببواطنِ الأشياءِ وظواهرِها، وبما تنطوي عليهِ السَّرائرُ، وبما هو ظاهرٌ للعمومِ[9].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خفي).
(2) الزبيدي، تاج العروس: (خفي).
(3) الراغب، المفردات: (خفي).
(4) السمين، عمدة الحفاظ: (خفي).
(5) ابن باديس، مجالس التذكير، ص: 275.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (علن).
(7) الراغب، المفردات: (علن).
(8) ابن باديس، مجالس التذكير، ص: 275.
(9) ابن باديس، مجالس التذكير، ص: 276.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

توجيهُ القراءاتِ في ﴿أَلَّا يَسۡجُدُواْ﴾:

غايةُ الشَّيطانِ ألّا يهتدوا إلى السُّجودِ للهِ تعالى

قرأ أبو جعفرٍ والكسائيُّ ورويْس: ﴿أَلَا يَسۡجُدُواْ﴾ بتخفيفِ اللّام، ووقفوا في الابتداءِ (ألا يا)، وابتدؤوا (اُسْجُدوا) بهمزةٍ مضمومةٍ على الأمرِ، وقرأ الباقونَ: ﴿أَلَّا﴾ بتشديدِ اللّامِ، و﴿يَسۡجُدُواْ﴾ عندَهم كلمةٌ واحدةٌ، فلا يجوزُ القطعُ على شيءٍ منهما[1].

أمّا مَنْ قرأَ بالتَّشديدِ، فأرادَ: فصدَّهم عنِ السَّبيلِ؛ لئلّا يَسْجُدوا، فحذفَ الجارَّ معَ (أنْ)، ويجوزُ أنْ تكونَ (لا) صلةً، ويكونَ المعنى: فهم لا يهتدونَ إلى أنْ يَسْجُدوا[2]، أو هو مفعولٌ لهُ للتَّزيينِ على حذف اللّامِ منهُ، أي: زيَّنَ لهُم أعمالَهم؛ لئلّا يَسْجُدوا[3]، أو (أنْ) مصدريَّةٌ في موضعِ نصبٍ على البدلِ مِنْ ﴿أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾، أو في موضعِ خفضٍ على البدلِ مِنَ ﴿ٱلسَّبِيلِ﴾[4]، و(لا) نافيةٌ.

وأمّا مَنْ قرأَ بالتَّخفيفِ: فـ (ألا) للتَّنبيهِ، و(يا) حرفُ النِّداءِ، ومناداهُ محذوفٌ[5]، والمعنى: ألا يا هؤلاءِ، أو يا أيُّها النّاسُ اسجُدوا، فحُذِفَتْ همزةُ الوصلِ بعدَ (يا) وقبلَ السّينِ مِنَ الخطِّ على مرادِ الوصلِ دونَ الفصلِ[6].

تعيينُ المُتكلِّمِ في هذهِ الآيةِ والَّتي بعدَها:

المُتكلِّمُ عن حال بلقيسَ وقومِها هو الهُدْهُدُ

اختُلِفَ في تعيينِ المُتكلِّمِ في قولِهِ تعالى: ﴿أَلَّا يَسۡجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخۡرِجُ ٱلۡخَبۡءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُخۡفُونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ٢٥ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ۩﴾، فظاهرُهُ أنَّهُ مِنْ قولِ الهُدهُدِ[7]،

---

(1) ابن الجزري، النشر: 2/ 337.
(2) الزمخشري، الكشاف: 3/ 361.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 281.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 256.
(5) الزمخشري، الكشاف: 3/ 361.
(6) ابن الجزري، النشر: 2/ 337.
(7) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 256، وأبو حيان، البحر المحيط: 8/ 232.

ويحتملُ أنْ يكونَ مِنْ قولِ اللّهِ تعالى لأمَّةِ رسولِ اللّهِ ﷺ، جيءَ بهِ على سبيلِ الاعتراضِ بينَ الكلامين[1].

نكتةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ في ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟﴾:

سعيُ الشَّيطانِ إلى استمرارِ الصَّدِّ عن السُّجودِ لله

عُبِّرَ بصيغةِ المضارعِ في قولِهِ تعالى: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ﴾ على قراءة التَّشديد؛ للدَّلالةِ على التَّجدُّدِ والاستمرار، فإذا كانَ ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟﴾ تعليلًا للصَّدِّ أو التَّزيينِ؛ فالمعنى: أنَّهُ صدَّهم، أو زيَّنَ لهُم أعمالَهم؛ ليستمرّوا على عدمِ السُّجودِ للّهِ، وإذا كانَ بدلًا مِنْ ﴿أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أو ﴿ٱلسَّبِيلِ﴾؛ فالمعنى: أنَّه زيَّنَ لهُم الاستمرارَ على عدمِ السُّجودِ للّهِ، أو صدَّهم عنِ السُّجودِ للّهِ، وإذا كانَتْ (لا) صلةً؛ فالمعنى: أنَّهم لا يهتدونَ إلى الاستمرارِ على السُّجودِ للّهِ، وخُصِّصَ السُّجودُ بالذِّكرِ؛ لأنَّهُ أصلُ كفرِهم، ومَبْعَثُ فسادِ أعمالِهم[2].

معنى اللّامِ في ﴿لِلَّهِ﴾:

صدُّ الشَّيطانِ لهُم عن تخصيصِ السُّجودِ باللهِ

اللّامُ الجارَّةُ في قولِهِ تعالى: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، هي لامُ التَّعديةِ، وفيها معنى الاختصاصِ، أي: ألّا يجعلوا سجودَهم خاصًّا باللّهِ تعالى ذكرُهُ.

فائدةُ ذكرِ لفظِ الجلالةِ:

ملاءمةُ لفظِ الجلالةِ لمقامِ التَّعجُّبِ والتَّوبيخ

عُبِّرَ بلفظِ الجلالةِ في قولِ الحقِّ جلَّ ذكرُهُ: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ﴾؛ لأنَّ المقامَ للتَّعجُّبِ مِنْ ترك بِلْقيسَ وقومِها السُّجودَ للّهِ، وللإنكارِ عليهم، وإيرادُ لفظِ الجلالة مُناسِبٌ لهذا المقام، مِنْ حيثُ إنَّهم تركوا السُّجودَ للمُستحِقِّ للأُلوهيَّةِ والإفرادِ بالعبادة، والمعنى: ألّا يَعْبُدوا الَّذي لهُ الكمالُ كلُّهُ بالسُّجودِ الَّذي هو مَحَلُّ الأُنْسِ، ومَحَطُّ القُربِ، فإنَّهم لو سَجَدوا لهُ سبحانَهُ؛ لاهتدَوا،

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 256، وأبو حيان، البحر المحيط: 8/ 232.
(2) ابن باديس، مجالس التذكير، ص: 276.

فإنَّ الصَّلاةَ تنهَى عنِ الفحشاءِ والمُنكَرِ، ففاتَ الشَّيطانَ ما يقصدُهُ منهُم مِنَ الضَّلالِ[1].

فائدةُ تخصيصِ إخراجِ الخَبْءِ بالذِّكرِ:

أرسخُ الحُجَجِ ما بانَتْ آثارُهُ في النَّفسِ

المرادُ بإخراجِ الخَبْءِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ إبرازُهُ للنّاسِ، أي: إعطاءُ ما هو غيرُ معلومٍ لهُم مِنَ المطرِ، وإخراجِ النَّباتِ، وإعطاءِ الأرزاقِ، وهذا مُؤذِنٌ بصفةِ القُدرةِ[2].

وتخصيصُ هذا الوصفِ بالذِّكرِ مِنْ بينِ سائرِ أوصافِهِ تعالى الموجِبةِ للسُّجودِ لهُ؛ لأنَّ الهُدْهُدَ أرسخُ في معرفتِهِ والإحاطةِ بأحكامِهِ بمشاهدةِ آثارِهِ، الَّتي مِنْ جملتِها ما أودعَهُ اللّهُ تعالى في نفسِهِ مِنَ القُدرةِ على معرفةِ الماءِ تحتَ الأرضِ[3]، ولأنَّ طعامَهُ دائمًا مِنْ تحتِ الأرضِ، يَنْقُرُ، ويُخرِجُ رِزْقَهُ[4].

إظهارُ أمرِ بِلْقيسَ شبيهٌ بإخراجِ الخَبْءِ

واختيارُ هذا الوصفِ أيضًا؛ لأنَّهُ أوفقُ بالقصَّةِ؛ إذ تضمَّنَتْ ما هو أشبهُ شيءٍ بإخراجِ الخَبْءِ، وهو إظهارُ أمرِ بِلْقيسَ وما يتعلَّقُ بِهِ، وعلى هذا القياسِ اختيارُ ما ذُكِرَ بعدُ مِنْ صفاتِهِ ﷻ[5]، ثمَّ إنَّ القصَّةَ كانَتْ في بيانِ علمِهِ سبحانَهُ السّابقِ لعلمِ الخلائقِ المُستلزِمِ للحكمةِ، ولذلكَ وصفَهُ بما يقتضي ذلكَ[6].

نكتةُ الوصفِ بالاسمِ الموصولِ:

مُخرِجُ الخَبْءِ هو المُستحِقُّ للسُّجودِ

جيءَ بالاسمِ الموصولِ في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ﴾؛ لأنَّ حقَّ ما في حيِّزِ الصِّلةِ أنْ يكونَ مِنْ مَبادي جَرَيانِ الحُكمِ على الموصولِ، ومدارًا للحُكمِ الواردِ عليهِ، فلا أقلَّ مِنْ أنْ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 153.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 255.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 282.
(4) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 4/ 2170.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 187، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 255.
(6) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 153.

يكونَ وصفًا ملائمًا لهُ، وهو هنا لبيانِ سببِ استحقاقِهِ تعالى للإفرادِ بالسُّجودِ والعبادةِ، وهو إخراجُهُ الخَبْءَ في السَّماواتِ والأرضِ، فذلكَ يُنبئُ عن العلمِ الشّاملِ الَّذي لا يكونُ إلّا للإلهِ الواحدِ.

نكتةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ ﴿يُخۡرِجُ﴾:

توبيخُ تاركِ عبادةِ الخالقِ القادرِ

عُبِّرَ بصيغةِ المضارعِ في قولِ الحقِّ تباركَ شأنُهُ: ﴿أَلَّا يَسۡجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخۡرِجُ ٱلۡخَبۡءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾؛ للدَّلالةِ على تجدُّدِ الإخراجِ واستمرارِهِ، وذلكَ يلائمُ مقامَ الإنكارِ والتَّوبيخِ لمَنْ يتركُ عبادةَ الإلهِ القادرِ العليمِ الَّذي مِنْ شأنِهِ إخراجُ الخَبْءِ في السَّماواتِ والأرضِ، ويعبدُ الشَّمسَ الَّتي هي مخلوقٌ مِنْ مخلوقاتِهِ.

سرُّ التَّعبيرِ بالمصدرِ في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿ٱلۡخَبۡءَ﴾:

لا يَخفَى على اللهِ مخبوءٌ وإنْ دقَّ

الخَبْءُ في قولِهِ عزَّ شأنُهُ: ﴿أَلَّا يَسۡجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخۡرِجُ ٱلۡخَبۡءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ مصدرُ خبأَ الشَّيءَ؛ إذا أخفاهُ، وقد أُطلقَ هنا على المخبوءِ، وهو المطرُ والنَّباتُ وغيرُهما ممّا خبأَهُ تعالى مِنْ غيوبِهِ[1]، ويدخلُ فيهِ المخبوءُ بالقوَّةِ، وهو ما لم يوجَدْ أصلًا[2]، والغرضُ مِنْ إطلاقِ المصدرِ على اسمِ المفعولِ هنا المبالغةُ في الخفاءِ، كما هو شأنُ الوصفِ بالمصدرِ[3].

إعرابُ قولِهِ ﷻ: ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾:

قــدرةُ اللـهِ مُحيطةٌ بكلِّ مخبوءٍ

قولُهُ جلَّ شأنُهُ: ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ فيهِ وجهانِ: **أحدُهما**: أنَّهُ مُتعلِّقٌ بـ ﴿ٱلۡخَبۡءَ﴾، أي: المخبوءَ في السَّماواتِ والأرضِ. **والثّاني**: أنَّهُ مُتعلِّقٌ بـ ﴿يُخۡرِجُ﴾ على أنَّ معنى ﴿فِي﴾ معنى (مِنْ)، أي: يُخرجُهُ مِنَ السَّماواتِ والأرضِ[4]، والتَّعبيرُ بـ﴿فِي﴾؛ للدَّلالةِ على معنى الشُّمولِ والإحاطةِ؛ ليشملَ كلَّ ما في السَّماواتِ والأرضِ مِنَ الخبءِ.

---

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 362، وأبو حيان، البحر المحيط: 8/ 231.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 153.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 255.

(4) السمين، الدر المصون: 8/ 605.

وجهُ تعريفِ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾:

التعريفُ في قولِ اللّهِ تعالى ذكرُهُ: ﴿أَلَّا يَسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ للجنس، فالمراد جنسُ السَّماواتِ والأرضِ.

سرُّ تخصيصِ إخراجِ الخَبْءِ بالسَّماواتِ والأرضِ:

اللهُ يُخرِجُ مخبوءَ جنسِ السَّماواتِ والأرضِ

خُصَّ إخراجُ الخَبْءِ بقولِهِ جلَّ وعزَّ: ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ لأنَّ ذلكَ مُنتهَى مشاهدتنا، فننظرُ ما يتكوَّنُ فيهما بعدَ أنْ لم يكنْ مِنْ سحابٍ ومطرٍ ونباتٍ ورعدٍ وبَرْقٍ ونحوِ ذلكَ، وما يُشرِقُ مِنَ الكواكبِ، ويَغْرُبُ، إلى غيرِ ذلكَ مِنَ الرّياحِ والبردِ والحرِّ، والحركةِ والسُّكونِ، والنُّطقِ والسُّكوتِ، وما لا يُحصيهِ إلّا اللّهُ تعالى، والمرادُ: أنَّهُ يُخرِجُ ما هو في عالَمِ الغَيبِ، فيجعلُهُ في عالَمِ الشَّهادةِ[1].

السَّماواتُ والأرضُ مُنتهَى مشاهدتِنا

دلالةُ العطفِ بالواوِ في ﴿وَيَعْلَمُ﴾:

أُشيرَ بعطفِ قولِهِ جلَّ ذكرُهُ: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ على ﴿يُخْرِجُ﴾ إلى أنَّهُ جلَّتْ قُدرتُهُ يُخرِجُ ما في العالَمِ الإنسانيِّ مِنَ الخَفايا، كما يُخرِجُ ما في العالَمِ الكبيرِ مِنَ الخَبايا؛ لأنَّ المرادَ: يُظهِرُ ما تُخفونَهُ مِنَ الأحوالِ، فيُجازيكُم بها[2].

المختصُّ بإخراجِ الخَبْءِ هو العالِمُ بالظّاهرِ والباطنِ

وأُشيرَ أيضًا بقولِهِ تعالى: ﴿يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ إلى كمالِ قُدرتِهِ تعالى، كما أُشيرَ بقولِهِ: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ إلى كمالِ علمِهِ ﷻ[3]، فإخراجُ الخَبْءِ لا يكونُ إلّا مِنَ العالِمِ بذلكَ الخَبْءِ، الَّذي أحاطَ علمُهُ بهِ في حالِ سَترِهِ، وفي حالِ ظهورِهِ، فيدلُّ ذلكَ على شمولِ علمِهِ؛ لِما ظهرَ وما بطنَ، ومنهُ ما يُخفونَ وما يُعلنونَ، ولذلكَ عطفَهُ عليهِ؛ لترتُّبِهِ عليهِ ترتُّبَ المدلولِ على الدَّليلِ[4].

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 153.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 282، والآلوسي، روح المعاني: 10/ 187.

(3) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 187، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 255.

(4) ابن باديس، مجالس التّذكير، ص: 277.

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المضارعِ في ﴿وَيَعۡلَمُ﴾:

أوثِرَ التَّعبيرُ بصيغةِ المضارعِ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا تُخۡفُونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على استمرارِ العلمِ وتجدُّدِه، ولا يخفى أنَّ الاستمرارَ والتَّجدُّدَ باعتبارِ مُتعلّقاتِ عِلمِ اللّهِ تعالى، لا باعتبارِ ذاتِه.

مُتعلِّقاتُ علمِ اللهِ تعالى مُستمرَّةٌ

بلاغةُ التَّعبيرِ بالموصولِ ﴿مَا﴾:

أتى النَّظمُ بالاسمِ الموصولِ ﴿مَا﴾؛ لكونِ التَّعبيرِ به أجمعَ وأخصرَ، فعُبِّرَ بـ ﴿مَا﴾ الدّالَّةِ على العمومِ؛ للدَّلالةِ على شُمولِ علمِ اللّهِ تعالى لكلِّ ما يُخفيهِ المُخاطَبونَ وما يعلنونه.

لا يغادرُ علمُ اللهِ تعالى صغيرةً ولا كبيرةً

نكتةُ تكرارِ (ما) الموصولة:

كُرِّرَ الموصولُ (ما) في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا تُخۡفُونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ﴾، ولم يقل: (ويعلمُ ما تُخفونَ وتُعلِنونَ)؛ لِما يدلُّ عليه تكرارُ الاسمِ الموصولِ مِنَ المبالغةِ في شُمولِ علمِ الحقِّ جلَّ ذكرُهُ لكلِّ ما يُخفيهِ المُخاطَبونَ، ويُعلِنونَهُ، وأنَّهُ لا يغادرُ صغيرةً ولا كبيرةً منهما إلّا علمَها، وفي ذلكَ إشارةٌ إلى دِقَّةِ العلمِ، وفي تكرارِهِ أيضًا إظهارُ الاعتناءِ بكلٍّ مِنَ المخفيِّ والمُعلَنِ، وأنَّهُ ليسَ أحدُهما تابعًا للآخرِ.

علمُ اللهِ تعالى شاملٌ كلَّ ما يَخفَى

علَّةُ عدمِ الاقتصارِ على فعلِ الإخفاءِ:

ذُكِرَ ﴿وَمَا تُعۡلِنُونَ﴾ في قولِ الحقِّ تقدَّسَ ذكرُهُ: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا تُخۡفُونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ﴾، ولم يُقتصَرْ على ذكرِ ﴿مَا تُخۡفُونَ﴾؛ لتوسيعِ دائرةِ العلمِ، أو للتَّنبيهِ على تساويهما بالنِّسبةِ إلى العلمِ الإلهيِّ[1]، ثمَّ إنَّ قولَهُ تعالى: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا تُخۡفُونَ﴾ لمّا كانَ مُستلزِمًا لعلمِ الجَهْرِ، وكانَ للتَّصريحِ ما ليسَ لغيرِهِ مِنَ المُكْنةِ والطُّمأنينةِ، معَ أنَّ الإعلانَ ربَّما كانَ فيهِ مِنَ اللَّغطِ واختلاطِ الأصواتِ ما يمنعُ المُستمِعَ مِنَ العلمِ؛ قالَ: ﴿وَمَا تُعۡلِنُونَ﴾، أي: تُظهِرونَ[2].

علمُ اللهِ واسعٌ يتساوى فيهِ المُخفَى والمُعلَنُ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 282.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 154.

بلاغةُ الطباقِ بينَ الإخفاءِ والإعلانِ:

جمعُ الإخفاءِ والإعلانِ تصويرٌ لسَعَةِ علمِ اللهِ

جُمِعَ بينَ الإخفاءِ والإعلانِ في قولِ اللّهِ جلَّ ذكرُهُ: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾؛ لِما في الجمعِ بينَهما مِنْ رِعايةِ الطِّباقِ بينَهما، بحيثُ يَرَى السّامعُ صورتينِ متقابلتينِ، كلٌّ منهما تحتَ علمِهِ الشّاملِ - تقدَّسَ ذكرُهُ - وذلكَ يُرسِّخُ في الأذهانِ صورةَ سَعَةِ العلمِ لا محدوديَّتِهِ.

غرضُ تقديمِ الإخفاءِ على الإعلانِ:

التقديمُ دليلُ الإحاطةِ وكمالِ القُدرةِ وتمامِ العِلمِ

قُدِّمَ الإخفاءُ على الإعلانِ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾؛ لأنَّ المرادَ وصفُ علمِهِ تعالى بالإحاطةِ التّامَّةِ؛ إذ استوَى فيهِ الباطنُ والظّاهرُ، وتقديمُ ﴿مَا تُخْفُونَ﴾ أدلُّ على ذلكَ، معَ مناسبتِهِ لِما قبلَهُ مِنَ الخَبْءِ[1]، وفي تقديمِ الإخفاءِ أيضًا دليلٌ على كمالِ القُدرةِ والعِلمِ التّامِّ[2].

توجيهُ القراءاتِ في ﴿تُخْفُونَ﴾ و﴿تُعْلِنُونَ﴾:

تنوُّعُ الخطابِ سَعَةٌ في المعاني

قرأَ الكسائيُّ وحفصٌ: ﴿مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ بالخِطابِ فيهما، وقرأَهما الباقونَ: ﴿مَا يُخْفُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ بالغَيبةِ[3]، والظّاهرُ أنَّ الكلامَ على القراءتينِ للهُدْهُدِ، وقراءةُ الغَيبةِ ظاهرةٌ في ذلكَ، وأمّا قراءةُ الخِطابِ؛ فتأويلُها: أنَّهُ خرجَ إلى خطابِ الحاضرينَ بعدَ أنْ أتمَّ قضيَّةَ أهلِ سبأٍ، ويجوزُ أنْ يكونَ التفاتًا على أنَّهُ نزَّلَ الغائبَ منزلةَ الحاضرِ، فخاطبَهُ مُلتفتًا إليهِ[4].

ويجوزُ في قراءةِ الغَيبةِ إفادةُ أنَّ الآيةَ مِنْ كلامِ الهُدْهُدِ، وفي قراءةِ الخِطابِ إفادةُ أنَّها مِنْ خطابِ اللّهِ ﷻ لأمَّةِ محمَّدٍ ﷺ[5].

(1) الخفاجي، عناية القاضي: 7/ 42، والآلوسي، روح المعاني: 10/ 187.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 378.
(3) ابن الجزري، النشر: 2/ 337.
(4) السمين، الدر المصون: 8/ 605.
(5) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 257.

نكتةُ تخصيصِ إخراجِ الخَبْءِ والعِلمِ بالذِّكرِ:

دلالةُ كلٍّ مِنَ الوصفينِ على اختصاصِ استحقاقِ العبادةِ بهِ تعالى

تخصيصُ وصفَيْ إخراجِ الخَبْءِ والعِلمِ بالذِّكرِ في قولِهِ تعالى: ﴿يُخۡرِجُ ٱلۡخَبۡءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُخۡفُونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ﴾ لأنَّهما أمسُّ بالمقامِ، حيثُ دلَّ كلٌّ منهما على اختصاصِ استحقاقِ العِبادةِ بهِ تعالى(1).

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الخَبْءُ، والمُخفَى، والمُضمَرُ:

بيدِ اللهِ تعالى إخراجُ ما خبَّأهُ مِنَ النِّعَمِ والأرزاقِ

الخَبْءُ: كلُّ غائبٍ، وقيلَ: كلُّ مُدَّخرٍ مستورٍ، ويقالُ: خَبَأَةٌ، أي: تُخبَّأُ مرَّةً، وتُظهَرُ أخرى(2)، ومعنى الادِّخارِ مَعَ سَتْرٍ وتناوبِ ظهورٍ يتناسبُ مَعَ سياقِ الآيةِ، الَّتي تتضمَّنُ الدَّلالةَ على الإنعامِ والرِّزقِ المُدَّخرِ، الَّذي يُظهرُهُ اللهُ تعالى، ويُخفيهِ متى شاءَ وأينَ شاءَ، وهذا المعنى لا يُؤدّيهِ بهذا التَّفصيلِ كلٌّ مِنَ الإخفاءِ والإضمارِ، فالإخفاءُ: السَّترُ والتَّغطيةُ والكتمانُ، والخِفاءُ: ما يُستَرُ بهِ، كالغطاءِ، ومنهُ: ﴿أَكَادُ أُخۡفِيهَا﴾ [طه: 15]، أي: أستُرُها، فلا يطَّلعُ عليها أحدٌ، ويقابلُهُ الإبداءُ والإعلانُ(3)، والإضمارُ: يدلُّ على غَيبةٍ وتستُّرٍ، ومنهُ الضِّمارُ، وهو المالُ الغائبُ الَّذي لا يُرجَى، وكلُّ شيءٍ غابَ عنكَ، فلا تكونُ منهُ على ثقةٍ، فهو ضِمارٌ(4).

الإعلانُ والجهرُ والإذاعةُ والإظهارُ:

الإعلانُ لا يقتضي رفعَ الصَّوتِ، والجَهْرُ يقتضي رفعَ الصَّوتِ

فُرِّقَ بينَ الإعلانِ والجَهرِ: بأنَّ الإعلانَ خلافُ الكتمانِ، وهو إظهارُ المعنى للنَّفسِ، ولا يقتضي رفعَ الصَّوتِ بهِ، وأكثرُ ما يقالُ ذلكَ في المعاني دونَ الأعيانِ، ويُقالُ اعتبارًا بظهورِ المعنى الَّذي فيهِ، لا بظهورِ ذاتِهِ، وأمّا الجَهْرُ؛ فيقتضي رفعَ الصَّوتِ بهِ، ولذلكَ

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 378.
(2) الراغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (خبأ).
(3) الجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (خفي).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ضمر).

يقالُ: رجلٌ جَهيرٌ وجَهْوَريٌّ؛ إذا كانَ رفيعَ الصَّوتِ[1]، والذَّيْعُ: إشاعةُ الأمرِ ونَشْرُهُ، وإظهارُهُ والمناداةُ بِهِ في النّاسِ[2]، والإظهارُ يُستعمَلُ في كلِّ بارزٍ مُبْصَرٍ بالبصرِ والبصيرةِ[3].

ومِنْ هنا نجدُ أنَّ أنسبَ المعاني لسياقِ الآيةِ ما يتضمَّنُ اعتبارَ ظهورِ المعنى للنَّفسِ الَّذي يقتضي حتمًا عدمَ رفعِ الصَّوتِ؛ لأنَّ العلمَ بهِ أدقُّ وأصعبُ، وليسَ مِنَ الصَّعبِ العلمُ بالأمرِ المُبصَرِ الَّذي شاعَ، وانتشرَ بينَ النّاسِ، رُفِعَ بهِ الصَّوتُ أم لم يُرفَعْ.

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 60، والراغب، المفردات: (علن).
(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح: (ذيع).
(3) الراغب، المفردات: (ظهر).

المحتويات

